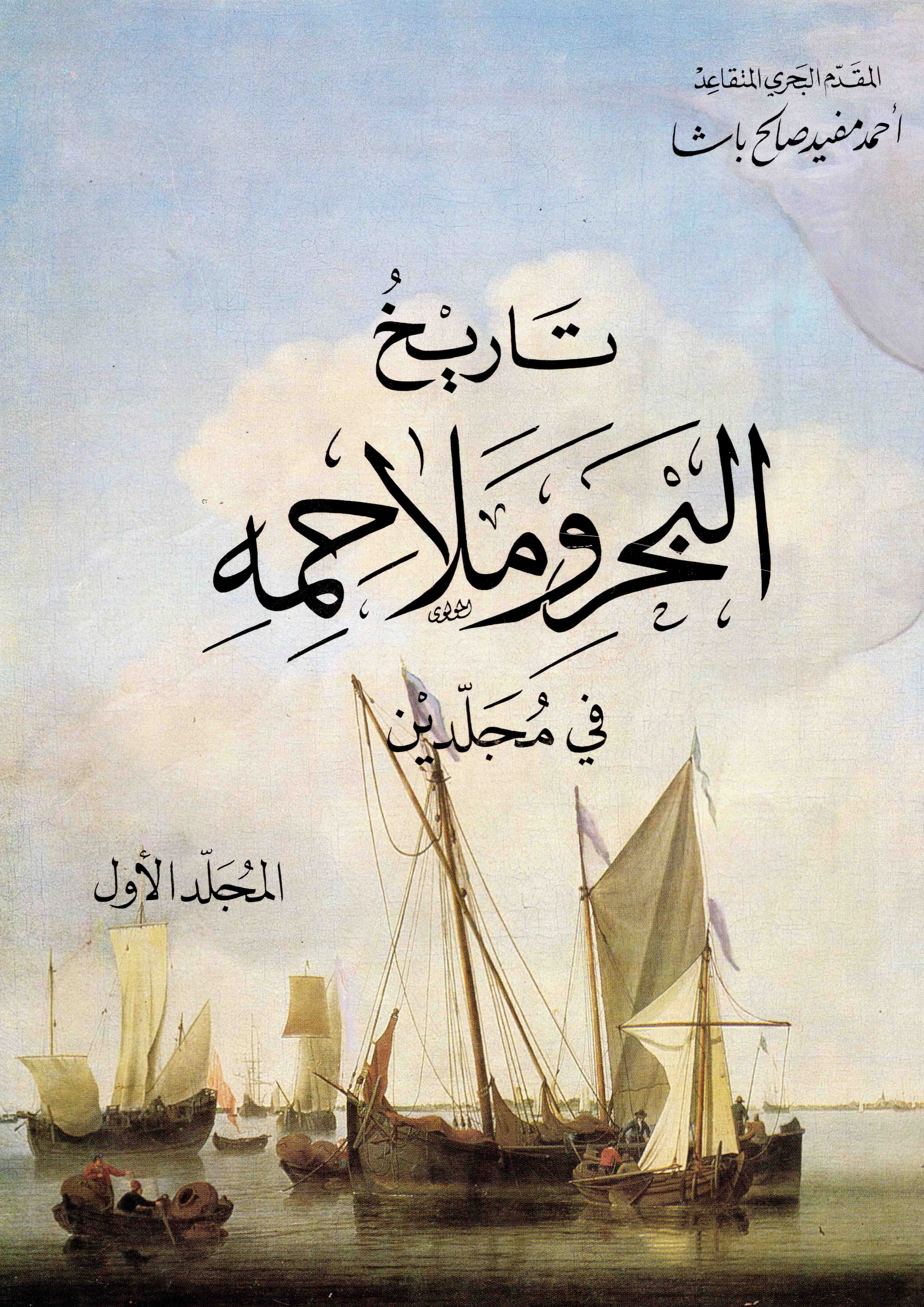

المقدم البحري المتقاعد
أحمد مفيد صالح باشا

تاريخ البحر وملاحمه

في مجلدين

المجلد الأول

دمشق ــ أوتوستراد المزة
هاتف
٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١ ــ ٢١٣٨٢١
تلكس: ٤١٢٠٥٠
ص.ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

تاريخ
البحر وملاحمه

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الأولى
١٩٩٠

المقدم البحري المتقاعد
أحمد مفيد صالح باشا

تاريخ البحر وملاحمه

في مجلدين

المجلد الأول

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

التاريخ البحري موضوع يبحث في أثر البحر على تطور المجتمع البشري، والوسائل التي دفعت بالأمم لبناء أمجادها البحرية، والطرق المتبعة للحفاظ على هذه الأمجاد والفوائد التي جنتها منها.

حافظ البحر دائماً على مركزه الهام في حياة البشرية، واجتذب هذا المجهول الإنسان الأول، وهو البحّار الذي لعب دوراً فعالاً في نشوء القدرات البحرية ومخر عباب اليّم سعياً وراء المعرفة تارة، ووراء الربح العميم حيناً.

كانت مكاسب الإنسان الأول في ركوبه البحر متواضعة هزيلة، وكلما واكبنا مراحل التاريخ وجدنا تعاظماً لتلك المكاسب، وتهافتاً على المزيد من المعرفة. إذ امتدت سيطرة الإنسان على قطاعات واسعة من البحار، وجاوزها إلى المحيطات يبني مجداً للبشرية وتطورها.

لو نظرنا إلى بدء حضارة الإنسان الأول لوجدناها قد نشأت حول الأنهار الكبرى، وحول البحيرات، وتجمعت ثم تكاثرت مشكّلة مجتمعات صغيرة، كانت لها هذه الأنهار أو هذه البحيرات بمثابة الشريان يمدُّها بالغذاء، ويدفع عنها خطر الأعداء. ومن الأمثلة على هذه

المجتمعات شعوب النيل والفرات وأنهر الغانج ويان تسي. ثم تطورت المجتمعات الصغيرة مع الزمن فتحولت إلى مجتمعات أكبر، فأمم. وتجرأت على ركوب البحر، مبتدئة بالبحار المجاورة والداخلية، كما فعل الفينيقيون والرومان في المتوسط، والعرب في المتوسط والمحيط الهندي، والأوربيون في بحري الشمال والمتوسط، واليابانيون إبان عهد أسرة طوكيغاوا[1] Tokugawas في بحري الصين واليابان، ثم جاءت حقبة عبور المحيطات، حقبة السفن المتطورة التي تعمل بعيداً، ثم حقبة الامتداد والسيطرة، ويمكننا تصنيف هذا التطور ضمن مراحل ثلاث:

- مرحلة الأنهار الكبرى والبحيرات.
- مرحلة البحار الداخلية، أو مرحلة البحر الأبيض المتوسط.
- مرحلة المحيط الأطلسي وتبعتها مرحلة كل المحيطات.

جنى المجتمع البشري من مياه البحار والمحيطات موارد معدنية ونباتية وحيوانية كبيرة.. إلا أن استغلال خيرات البحار حتى يومنا هذا لم يتحقق بالدقة المطلوبة، إذ نجد في بعض الأحيان مغالاة أو استغلالاً همجياً لا إنسانياً بقتل جماعي شرس لحيتانه، أو حيواناته القطبية. وسوف ينعكس هذا القتل حتماً على الحياة البشرية وعلى التوازن البيئي فيها.. خصوصاً وأن البحر هو المستودع الكبير الذي يمد البشرية بمخزون هائل من الطاقات والقدرات وسوف يغطي تزايد الاستهلاك عبر عصور طويلة.

بالإضافة إلى ذلك، فالبحر هو الطريق الأوسع للتجارة والتبادل التجاري. والتخلّي عن استخدام البحر معناه التخلّي عن الدور الحضاري في عالمي التجارة والاقتصاد.

سعى العالم بأممه المختلفة على مدى السنين إلى بسط أذرع تجارته بعيداً في سبيل تحقيق تبادل تجاري أكبر، وتعويض حالات النقص في أنظمة غذائه وكسائه، وفي امتداده الحضاري.. فمن الأمم من اختارت

---

(١) إيضاحات الحواشي يرجع إليها في نهايات الأبواب.

نظاماً اقتصادياً يعتمد الاكتفاء الذاتي، أي التعامل مع ماتنتجه أرضها، فأضيبيت بتخلف عن ركب التطور الاقتصادي، وضعف في الإنتاج ناجم عن توقف في تبادل السلع مع الآخرين. ويمكن والحالة هذه وصف هذا الأسلوب بنظام «**وقف التطور الاقتصادي**».. أما نشاط التجارة الخارجية، وكسب الأسواق، وتبادل السلع فمعناه زيادة في الإنتاج، واستخدام مجدٍ للموارد الطبيعية، وسير بالشعوب إلى مزيد من الرفاهية، والارتقاء بالمستوى الفكري والعلمي والفني.. فهو «**نظام تنشيط التطور الاقتصادي**» وتمشياً مع هذا النظام لابد من بناء أسطول تجاري لتأمين حاجات النقل والتبادل، وبناء أسطول حربي لحماية طرق المواصلات ووسائط النقل فيه، نضيف إلى ذلك أن قدرة الإنتاج، وازدهاره لا يعتمدان فقط على الموارد الأولية المتوفرة، بل على حوافز أخرى كالربح والمزاحمة، وكسب الأسواق، وزيادة عدد العملاء الذين لا يتعاملون إلا مع من امتدت تجارتهم، وطارت شهرتهم، واتسعت حجوم مبادلاتهم التجارية. أما مضاعفة عدد الزبائن، فمعناه زيادة في الإنتاج، وتحسين للنوع، وتطوير للصناعة، وبالتالي فائض بالإنتاج، وتراكم بالبضاعة، تدفع للتفتيش عن زبائن جدد ونقل البضاعة لهم. وهذا يترجم عملياً بوسائط نقل إضافية من سفن تجارية تحميها سفن حربية وكلاهما لتأمين:

— خدمة الزبائن مع دقة في مواعيد التسليم.
— استقلالية في عمليات النقل البحري.. وتجنُّب الخضوع لرغبات الناقلين الغرباء.
— ضم عائدات النقل البحري كمورد قومي داعم للميزان التجاري.

يتضح مما تقدم:

أن عظمة أية أمة تقاس بمواردها الطبيعية، وبضاعتها المتطورة. وهذان الموردان الأساسيان لايستكملان قيمتيهما العمليتين ويأخذان حجميهما الطبيعيين إلا إذا أتيح لهما مجال

الخروج لتبادل مثمر مع منتجات أمم أخرى.. وكان لابد من واسطة للنقل البحري.. وواسطة لحمايتها إن تعرضت لمكروه.

في الماضي القريب.. وفي زمن البحث عن المستعمرات، قامت القوى الكبرى ببناء الأساطيل الحربية إلى جانب الأساطيل التجارية، لبسط نفوذها على المستعمرات، واستغلال الموارد الطبيعية فيها، ولفرض صناعتها على الأمم المستعمَرة. وامتد هذا العهد حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. إلا أن زواله بتحرر الشعوب المستعبدة لم يغن عن عملية امتلاك الأساطيل بل على العكس أوجد مبررات جديدة لتطوير هذه الأساطيل بإعطائها مهام حديثة، فتكاثرت وتنوعت وانتشرت، وغدا امتلاك الأسطول الحربي المتطور إلى جانب الأسطول التجاري أمراً لا غنى عنه. وإذا كانت الفوائد البحرية لأمة لا تتساوى أو تزيد عن فوائدها البرية، وكانت هذه الفوائد لا تتحقق إحداها إلا بوجود الأخرى، ترتب على هذه الأمة في سبيل محافظتها على ممتلكاتها البحرية تأمين خطوط مواصلاتها في مياه محمية، مع السعي لامتلاك الوسائل المناسبة الكفيلة بتحقيق أهدافها القومية.

فالأساطيل البحرية هي الواسطة الأصيلة التي لا يمكن الاستغناء عنها في بناء الاقتصاد، وكل ضعف في هذه الوسائط سينعكس على الأمة انعكاساً قد يؤدي إلى تدمير مصالح اقتصادية بنيت عبر سنين طويلة. ولا تكون تلك الأمة قادرة على حماية هذه المصالح من هجمات معادية إلا بامتلاك أسطول حربي بحجم هذه المصالح، وحجم امتداد طرق مواصلاتها البحرية. لذا نجد **أن التاريخ البحري هو تاريخ حربي أيضاً**، ولا تعدُّ أية أمة في عداد الأمم البحرية، أو ذات تاريخ بحري، ولو حتى من رؤى اقتصادية، إلا إذا كانت حقاً تمتلك القوة البحرية القادرة على حماية حقوقها المشروعة.

إن الاهتمام بامتلاك الوسائط البحرية يزداد مع امتداد الحدود الدولية على مشارف البحار. فكل أمة بحرية ذات شطئآن طويلة تكبر حاجتها للوسائط البحرية، وللقوى الحارسة لهذه الشواطىء، خصوصاً

إذا كانت لهذه الأمة مصالح تجارية وحضارية هامة، عبر حدودها البرية أو البحرية.

والحدود البحرية حدود مشابهة تماماً للحدود البرية تحتاج لمن يحميها، أو بمعنى آخر تحتاج إلى الأسطول الحربي المناسب لامتداد هذه الحدود، وقد يتبادر إلى الذهن القول بأن الأمة القوية براً تستطيع الدفاع عن أرضها وممتلكاتها ضد كل غزو بحري، دون الحاجة إلى ركوب البحر، أو حيازة البوارج الحربية. وقد يبدو هذا القول للوهلة الأولى صحيحاً، ولكن ما هو يا ترى حجم القوى البرية اللازمة لحماية كل شريط ساحلي يمكن للعدو الغزو منه؟ وما هي وسائل مشاغلة العدو؟ وما هو الزمن اللازم لنقل القوى الرئيسية المدافعة؟

من الطبيعي أن يكون لكل تساؤل جوابه، ولكن الجواب الوحيد لمجموعة التساؤلات هو ولا شك وجود أسطول حربي له القوة اللازمة ليكون جهازاً دفاعياً متكاملاً متحركاً يتصدى للمهاجم ويزعج مؤخراته «Fleet in being» يقول رازيلي[٢] Razilly أحد قادة ريشيلو (١٥٨٧ — ١٦٣٥):

«من له السيادة في البحر لابد أن تكون له القوة البرية الكافية على البر».

إن التعاون الاستراتيجي والتعبوي للتشكيلات البحرية له الأثر الكبير على القوات البرية، فأسطول منتصر يسمح لبلده باستخدام موارد ممتنعة عن الخصم.. ويؤمن استمرارية الحياة الاقتصادية بشكلها الطبيعي، فيبعد بذلك الأزمات من بؤس وجوع وفوضى عن طريق حماية الإمداد وطرق المساعدات الخارجية عبر البحار، وتغطية حاجة المعركة، أو حاجة المقاتلين، وعلى العكس فالبلد الذي لا يستطيع استخدام البحر بموارده، أي لا يستطيع حماية إمداده، يجد نفسه وقد نضبت موارده الأساسية، أو بمعنى آخر بدأ مرحلة الإمكانات المتباينة مع خصمه، أي اضطراب في التكافؤ، وحالة كهذه قد تجر البلد المدافع

إلى عجز جزئي لو استمر لوقع العجز الكلي ومعناه الهزيمة .. والشواهد على ذلك كثيرة .. هانيبعل ، نابليون ، وهتلر .

السيادة على البحار

إن أية أمة ذات حدود بحرية تجد نفسها مضطرة لبناء أسطول حربي يحفظ أمنها ويؤمن مصالحها ، وعلى هذه الأمة سؤال نفسها عن الدور المناط بهذا الأسطول ، والأعمال التي قد تطلب منه ، وكيف ستبنيه ، **لأن الهدف الأساسي للحروب هو سعي كل خصم إلى إضعاف وتدمير إمكانات الخصم الآخر ، ووضعه في ظروف يبدو له الاستسلام فيها أفضل من متابعة القتال .**

ليست هذه بقاعدة عامة في الحروب البحرية كعموميتها في الحروب البرية ، لكنها تبقى ذات شأن كبير .. ففي الحروب البرية ، يحتل المنتصر أرض المنهزم ، فيحرمه من ممتلكاته وسبب بقائه ، ويوقف له كل نشاط اجتماعي .. أما بحراً فالأمر مختلف إذ يستطيع أي محارب التخلي ولو مؤقتاً عن استخدام موارد البحر ، ونعني خطوط مواصلات الإمداد البحري ، وهي لا تحتل ، وبمعنى آخر احتلال البحر أو السيادة عليه ليست كمعناها في احتلال الأرض ، إذ أن نصراً في معركة بحرية قد يتيح للمنتصر مد نفوذه لعمليات حربية جديدة وحرمان خصمه بعضاً من هذا النفوذ .

السيطرة على البحار ليست احتلالاً لها بل هي مراقبة مدعومة بالسلاح .

لا تكون السيطرة أو السيادة على البحار فعّالة إلّا بتدمير وسائط الخصم البحرية . وهذا يتطلب جهداً كبيراً ، من بحث ومطاردة في جبهة واسعة لا حدود لها .. « **على البر الجبهة محصورة ضمن حدود أرض الخصم** » .. وغالباً ما تستمر العمليات البحرية دون تأثرها بمواقف المتحاربين براً « مثال » العمليات البحرية لدول المحور خلال الحربين

العالميتين الأولى والثانية برغم انهيار الجبهات البرية أمام الحلفاء.

وعلى كل حال فواجب المقاتل بحراً إضعاف أساطيل خصمه، وشل نشاطها، ووضعها تحت المراقبة، إما بتدمير وحداتها البحرية من خلال المعارك، أو إقامة عوائق على فتحات موانئها لمنعها من الخروج أو.... الخ.... والأساليب عديدة.. وفي كل الحالات تبقى السيادة على البحار عاملاً مهماً في مجريات العمليات الحربية البرية. ولكن لا تنتهي الحرب إذ مهما أُضعِف أسطول الخصم يبقى لوحداته المتبقية العاملة أثر كبير في عمليات المشاغلة والإزعاج وحتى التدمير.

إن النصر البحري وحده لاينهي حرباً بين دولتين متخاصمتين، ولايصل بهما إلى طاولة المفاوضات إلا بانهيار الجبهة البرية لأحدهما.

لا يجوز اعتبار ماتقدم أنه الحالة الوحيدة لأثر السيادة على البحار في النزاعات الدولية، إذ يحصل «ولو نادراً» وتبعاً لأهمية وصفات المكاسب أو الحلول استمرار المتخاصمين على متابعة القتال حتى انهيار أحدهما انهياراً تاماً.

يرجح سلوك طريق السلام للحفاظ على أمن الدولة والشعب عند مقارنة المكاسب المحتملة في حالة متابعة الحرب. وعندما تصبح المعادلة الحسابية للحرب بمكاسبها وتضحياتها غير متعادلة يتوقف القتال، أو يشرع في توقيفه. ولايظهر أثر آني للحروب البحرية على حياة الأمة منفردة. أما الحروب المطلقة الشاملة فذلك موضوع آخر، تأخذ المعارك البحرية فيه صفة الحرب الاستعراضية. وتنازل العدو في البداية لاختبار إمكاناته، ثم تنقلب إلى صدامات طاحنة تمتد من الشواطىء القريبة وحتى أبعد مجال تصل إليه الوحدات والتشكيلات البحرية، وتنقلب الاشتباكات إلى حرب وجود لشل وجود.

فالحروب البحرية بشكليها الشامل أو المحدود لا تختلف من حيث

الطبيعة والهدف. وغايتها إقامة المراقبة، وتقديم الحماية لعمليات النقل والإمداد ضمن المهام التالية:

ـــ رقابة، دوريات، مواصلات بحرية.

ـــ حماية السفن التجارية فردياً أو جماعياً.

ـــ مساندة للقوات البرية.

ـــ إبطال احتمال تدخل سفن العدو بتدميرها، أو بإبعادها عن مسرح العمليات.

تلك هي الأسس المبسطة والبديهية لتطور مهام القوى في الماضي، ثم جاءت تطورات أسلحة البحر بأسلوب غير منظور، وغير مقنع، متسترة وراء مظاهر أكثر إثارة، حتى دفعت بالعديد من قادة الأمم إلى أن يحكموا على سلاح البحر، وعلى ما يقدمه من أعمال على أنها مهمات بسيطة لا أثر لها في مجرى العمليات حربياً أو سياسياً، وينتقدوا بشدة نفقات أسلحة البحر بالنسبة لمردودها المحدود. وظلت مثل تلك الأفكار تسيطر على العقول حتى أواخر الحرب العالمية الأولى.. وبعدها بدا للجميع كم لدور السيطرة على البحار من آثار فعالة في مجريات القتال، وفي انتزاع النصر.

سادت على مر السنين فكرة مفاجأة العدو وضربه، فأعطيت القوات البحرية مهمة ضرب الممتلكات (مهام جزئية) الساحلية العائدة للخصم، والتي يلعب الاستطلاع دوراً كبيراً في اختيارها وتحديدها.. وكأن هذه الفكرة قد تعمدت تناسي ما يمكن للأسطول أن يقدمه من أعمال تعتمد على سرعة الحركة والانتقال، كاحتلال مواقع استراتيجية هامة لصالح المعركة (**كما حصل في حرب الباسفيك بين الولايات المتحدة واليابان خلال الحرب العالمية الثانية**)، وعزل أراضٍ بعيدة عن الوطن الأم يمكن أن تستخدم كورقة مبادلة خلال مفاوضات ما بعد الحرب.

شروط تطوير القوى البحرية

إن الموقع الجغرافي لأي بلد شرط أساسي من شروط تطور قوة هذا

البلد براً وبحراً وجواً، إلا أن شكل الشواطىء، وسعتها هما العاملان الأساسيان في تطوير سلاح البحر. ونحن نعرف أن البلدان المؤلفة من جزائر كإنكلترا واليابان، أو امتداد لشبه جزيرة كاليونان وإيطاليا، أو مجالها البري شريط ساحلي محدود بسلاسل جبلية كمملكة البندقية، والشيلي، أو مجالها البحري هو المتنفس الطبيعي لها، كهولاندا، أو جغرافيتها مميزة بالنقاط التالية:

- كثرة المرافيء الطبيعية والخلجان، كاليونان والنرويج.
- توفر أنهار كبيرة صالحة للملاحة كالولايات المتحدة وألمانيا.
- موقع البلد نقطة متوسطة استراتيجية بين خطوط مواصلات بحرية هامة كمصر وماليزيا.
- صفات الشعب، عاداته، وطباعه إذ نجد عبر التاريخ أمماً كثيرة برزت في المضمار البحري، ولفترات طويلة، وكان ذلك نابعاً عن رغبة شعبها في ركوب البحر، وحب الاطلاع والمغامرة، كالإسبان والبرتغاليين.
- شروط تاريخية أساسية لأمة استكملت تطورها الحضاري لعصرها، وتطلعت إلى مجد تاريخي نابع عن أصالة قومية، فانتشرت براً كالحضارة الإسلامية، والحضارة الرومانية، ولما استكملت انتشرت بحراً.. وكان ذلك شأن ألمانيا وإنكلترا بعد عام (١٨٧٠)، والولايات المتحدة بعد عام (١٨٩٥).

إن اتساع سلاح البحر وتطوره يجب أن يتوافقا وتطور القوى العامة، و كل تجاوز لهذا التوافق يعد زائداً لا طائل منه، ويصبح عبئاً مالياً باهظاً لمصالح لا وجود لها، أو أقل شأناً مما رصد لها، فبناء مجد بحري عن هذا الطريق يعد خطأً اقتصادياً، لأن البحر لم يَسُدِ البر قط، وعلى العكس فسيادة البر توصلنا لسيادة البحر. ومن الأمثلة على ما تقدم إسبانيا في القرن الثامن عشر، وتركيا في القرن التاسع عشر، وهما الدولتان اللتان أنفقتا الأموال الطائلة في بناء أساطيل جرارة كانت تعد ثالث القوى البحرية العالمية آنذاك. وعندما بدأت الاضطرابات

والحروب بين أعوام (١٨٧٨) و (١٩١٢) لم تستطع هذه الأساطيل فعل الكثير، بل وقفت عاجزة، وكانت عبئاً باهظ التكاليف.

كل تفكير في تعزيز القوى البحرية لأمة ضعيفة ولو مرحلياً دون إعطاء الدور الأكبر للقوى البرية، وللتطور الوطني العام، يعد تظاهرة سخيفة ربما زادت من أعباء الأمة، أو أوقفت تقدمها. لكن بعض العوامل الجغرافية وبعض الصفات الموروثة للشعوب قد تتدخل في تطور تجارة البحر وسلاحه. لكن هذا التطور لايتم إلا بظروف تاريخية معينة. وحتى يتحقق ذلك لابد من تصميم وإرادة على تعزيز الأسطول، وسلاحه، مدعوماً بتفسير قومي مبسط للفوائد التي ستجنيها الأمة من امتداد قوتها البحرية، هذه الفوائد التي يجب أن تكون على مستوى التضحيات المالية التي تبذل هذا السلاح في سبيل رقيه.

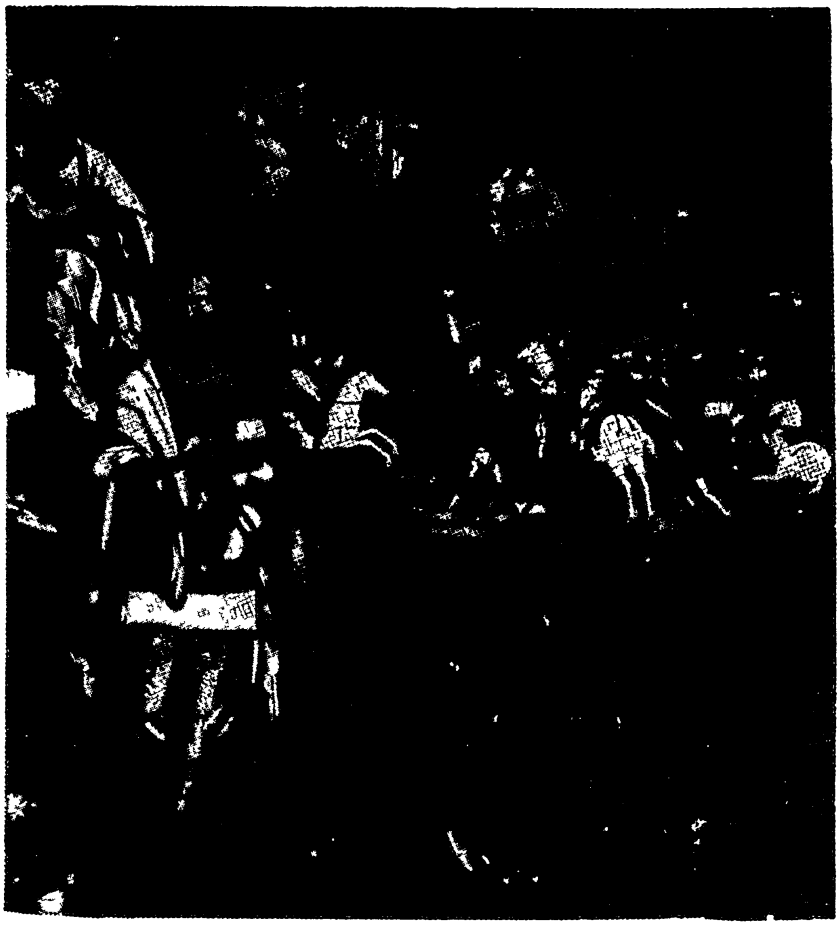

وأخيراً ومن خلال هذه المقدمة السريعة ، ومن التداخل السياسي والاقتصادي في تاريخ الشعوب ، ومن مراحل التطور الفني ، وانتشار المعرفة ، وانتقالها بين الأمم ، أنتقل إلى السرد البحري التاريخي ، فأقدمه بتسلسل وقائعه التاريخية سعياً وراء عرض فيه تشويق للقارىء ، لمعرفة دور القوى البحرية في تاريخ الأمم ، وماهية هذه القوى ، ونشوئها وتطورها عبر مراحل التاريخ ، واستخلاص العبر التاريخية سياسياً وحربياً من أحداث البحر كأحداث التاريخ .

لقد كان لا بد من هذه المقدمة الجافة التي أعتبرها القاعدة الأساسية التي سأعالج من خلالها قصص تاريخ البحر . وأعد للقارىء الكريم في أبواب البحث المقبل عرضاً شيقاً .. والله من وراء القصد .

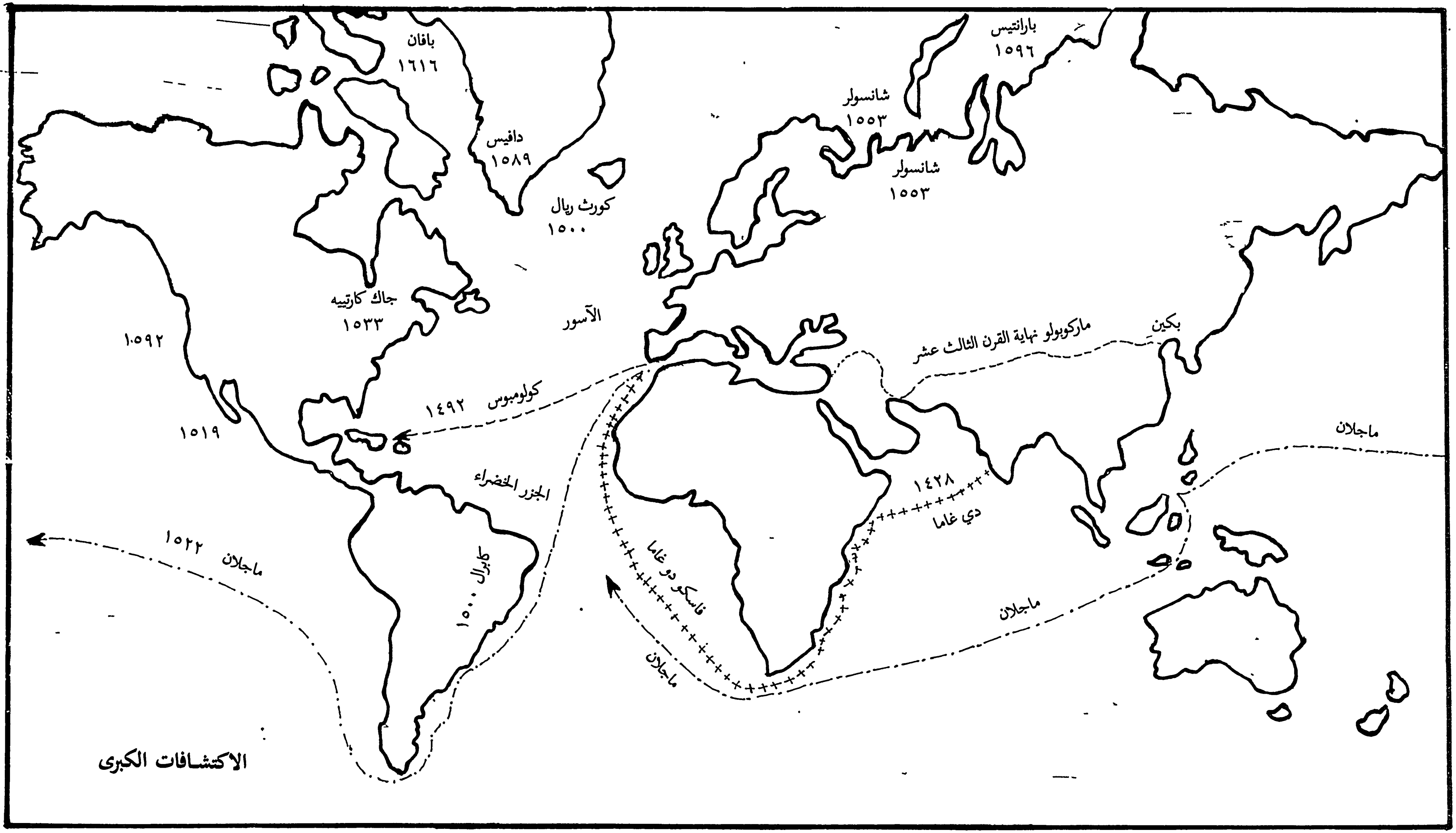

الاكتشافات الكبرى

بعض التواريخ الهامة في العصور القديمة

الزمن	المكان	
القرن ٣٤ ق.م	مصر	توحيد مصر في عهد مينا.
بين القرن ٣٧ و ٢٩ ق.م	مصر	فراعنة ممفيس وبناء الأهرامات.
القرن ٢٤ ق.م	كريت	تطور الحضارة الكريتية.
بين القرنين ٣١ و ٢٢ ق.م	كلدان	عظمة ملوك بابل.
القرن ٢٠ ق.م	يونان	وصول الهيلينيين الأوائل.
القرن ١٨ ق.م	إيطاليا	وصول أوائل الإيطاليين.
عام ١٤٠٠ ق.م	مصر	النبي موسى وطرد اليهود من مصر.
القرن ١٥ ق.م	كريت	انهيار الحضارة الكريتية.
القرن ١٥ ق.م	فينيقيا	بداية انتعاش المرافىء الفينيقية.
القرن ١٣ ق.م	مصر	عظمة طيبة ورمسيس الثاني.
القرن ١٢ ق.م	يونان	حرب طروادة.
القرن ١٠ ق.م	فلسطين	النبي سليمان وبناء المعبد في القدس
القرنين ٨ و ٧ ق.م	يونان	كتابة أشعار هوميروس.
القرن ٨ ق.م	روما	تعمير روما.
القرن ٧ ق.م	آشور	الامتداد الآشوري.
القرن ٦ ق.م	كلدان	عودة عظمة بابل.
القرن ٦ ق.م	يونان	بدء الحضارة الايونية.
القرن ٦ ق.م	فارس	ضم امبراطورية فارس لجميع شعوب الشرق.
القرن ٥ ق.م	روما	الاستيلاء على ايطاليا.
عام ٣٢٣ ق.م	يونان	انتصارات الاسكندر الكبير.
عام ٢٧٥ ق.م	روما	إنهاء احتلال إيطاليا.

عام ٢١٨ ق.م	رومـا	حرب روما قرطاجة الثانية.
عام ٢١٦ ق.م	رومـا	انتصار هانيبعل في كان واجتياح المتوسط.
عام ١٤٦ ق.م	رومـا	تدمير مملكة قرطاجـة.
عام ٤٧٦	رومـا	نهاية الإمبراطورية الرومانية.

الجزء الأول

منشا القدرات البحرية

وحتى عام ١٦٠٠م

الباب الأول

الحضارات القديمة

الفصـــل الأول

شعـوب الشـرق

في زمن ما قبل التاريخ، نشأت بؤر لحضارات مستقلة، كانت الشعوب الشرقية فيها متقدمة على الشعوب الغربية بعدة آلاف من السنين. فاكتشاف البرونز مثلاً لدى قدماء المصريين، تقدم ما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة عنه لدى الشعوب الغربية. ويمكن القول بأن جميع الشعوب التي عاشت العصور التي سبقت عصر البرونز شعوب بدائية، لم يدركها المؤرخون بدقة، ولم يدرجوها على لوائح الزمن كما أدرجت حضارات الشعوب اللاحقة. ولقد أوجد المؤرخون تصنيفاً لتلك الحقبة الطويلة من الزمن، المجهولة المدة، وأسماء استنبطوها من الشكل الحياتي لتلك العصور، أو لحدث مميز فيها فقالوا:

عصر الحجر المقطوع.
عصر الحجر المصقول.
عصر البرونـز.
عصر الحـديـد

وكان السبيل الوحيد لتبادل المعرفة بين تلك المجتمعات **الغزو والاجتياح**، إذ يحمل الشعب المهاجم معرفته إلى الشعب الذي اجتاحه أو عكسياً، ينقل عنه ما عنده من معرفة. وهكذا تبودلت الأفكار، ونمت واستمرت، فانقلبت إلى حضارة اقتبستها الأمم اللاحقة.

شعوب مصر وشعوب ما بين النهرين

أرض مصر وأرض ما بين النهرين كانتا المنطقتين المتقدمتين لحضارتين مميزتين ، لكنه لم يمتد نفوذ إحداها إلى مجال الأخرى ، لوجود عائق طبيعي آنذاك ، هو الامتداد الصحراوي الشاسع الذي يفصل بينهما .. ففي مصر حيث النيل العظيم ، الذي يحمل للأرض كل عام في فيضانه السنوي الطمي الخير لزراعة مزدهرة ... وفي أرض ما بين النهرين حيث قامت السدود والقنوات حول دجلة والفرات فمدت مساحة السهول ، وضاعفت الأرض المزروعة ، وزادت الخيرات .. كل هذا أدى إلى تطور العمل الجماعي لخدمة الأرض في كل من أراضي النيل وأراضي الفرات . وأصاب هذا التطور السبل والوسائط .. وانعكس على الحياة الاجتماعية ، فقلب التجمعات إلى مجتمع كبير ، فشعب صغير ، فمملكة ، فامبراطورية ، ومن هذين الموقعين بالذات خرجت على العالم أولى الممالك والأمم المتحضرة .

امتدت حضارة مصر عبر سنين طويلة ، ولأكثر من ثلاثة آلاف سنة . وقد عرفت الوحدة الكاملة عام (٣٣٠٠) ق . م ، ووصلت أوج ازدهارها إبان السلالة الفرعونية الملكية الثامنة عشرة ، حيث كان رعمسيس الثاني أحد رواد الحضارة المصرية ، وأحد عظماء ملوكها . وسمي عصره عصر بناء طيبة والأقصر .

بعد عهد السمو والازدهار تعرضت مصر للعديد من الغزوات فدانت عظمتها ودخلت عصر الانحطاط حتى أضاعت استقلالها عام (٥٢٥) ق . م عندما سقطت أمام جحافل الغزو الإيراني .

احتلت مصر منذ السلالات الملكية الأولى مركزاً حضارياً هاماً فاقت به حضارات الشعوب الشرقية الأخرى . فقد بنت الأهرام وقطعت الصخور ، ورفعتها شواهد ساطعة عبر السنين ، ثم نحتت الجبال معابد وآثار خلدت عظمة هذا الشعب ، وتركت للحضارات التي تلته تراثاً حضارياً يخلب الألباب . ولم يكن نحت ونقل الصخر هو التراث الوحيد لأمة مصر القديمة بل عرفت الكثير من العلوم والفنون ، وزخرفت الخشب ، ونحتت العاج ، وصنعت الخزف وتفننت في صنع الحلي والمجوهرات حتى تركت لمتاحف العالم جميعاً إرثاً غنياً ، يؤكد ما كان لتلك الأمة من شأن في علم البناء والزخرفة لجيل من الحرفيين سبقوا بآثارهم الشعوب الأخرى في الماضي وحتى في الحاضر .

ظل نفوذ الحضارة المصرية منغلقاً على نفسه ولم ينفتح على الجوار إلا بعد حين . وظلت

حضارة مصر القديمة حضارة لوادي النيل وحده لعصور طويلة، في حين نجد أن ما حدث في بلاد ما بين النهرين، وعبر أممها المتعاقبة مختلف كلياً، فقد كانت حضارات شعوب هذه المنطقة من العالم حضارة منظورة ومتفتحة، ذات أصالة وعمق جذري، وانتشرت إلى الجوار فكانت البعث لباقي الأمم ومصدر الإشعاع والنور، ترفدها آنذاك بعميم من العلم والمعرفة.

تعاقبت على منطقة ما بين النهرين أمم وممالك عدة، وتعرضت لهجمات واجتياحات، واضطرابات.. ومرت بابليون في حقبتين من الزمن إلى مركز الصدارة، بين شعوب الشرق قاطبة، ووصلت إلى أوج حضارتها ورقيها، حتى جاءها اليونانيون يغرفون من معرفتها الكثيرة. وظهرت شواهد ثابتة في بناء وتنظيم الإمبراطورية اليونانية. وكانت هذه المعرفة زخماً رافق الإمبراطوريات التي تعاقبت على المنطقة، زودتها بالمعرفة، وكانت خير معين لها في متابعة المسيرة الحضارية.

هناك صور كثيرة عن أصالة شعوب ما بين النهرين ماثلة حتى يومنا هذا فأصول شق القنوات وإقامة السدود وري الأراضي معمول بأسسها حتى الآن أما الزخرفة وصناعة السجاد وباقي الحرف اليدوية العديدة الأخرى من تطريز وتطعيم للمعادن فإنها كانت ولازالت بالإضافة إلى الفنون الجميلة من نحت ورسم وشعر وموسيقى شواهد على عظمة ورقي شعوب المنطقة عبر آلاف السنين.

برزت العلوم الرياضية بأنواعها المتقدمة فالفلكيون الكلدانيون هم أول من احتسبوا قواعد تحديد المكان، باستخدام النجوم والأجرام السماوية. وهم الذين فرقوا وبالعين المجردة السيارات الخمسة للمجموعة الشمسية عن باقي نجوم القبة السماوية وعرفوا الكثير من المجموعات الشمسية، وسموها بأسمائها التي تحملها حتى يومنا هذا، وهم أول من أشاروا إلى الدوران الظاهري للقبة السماوية، وحددوا موقع محور هذا الدوران (قرب نجم القطب)، وحتى يستطيعوا ضبط هذه المعارف رسموا الكرة السماوية وقطعوها بخطوط طول وخطوط عرض، ووقعوا الأبراج، والمجموعات النجمية، ثم شارك الآشوريون الكلدانيين في رسم الدائرة وتحديد جهاتها الأربع، وقسموها إلى درجات ودقائق وثوان، وقسموا اليوم إلى ٢٤ ساعة، واعتمدوا الشهر القمري، الذي كان معتمداً من قبل السومريين، والعموريين. ثم تحولوا عنه إلى الشهر الشمسي نظراً لتخلف الشهر القمري عدة أيام سنوياً عن الزمن الحقيقي، ثم سموا الأسبوع بأيامه السبعة، وسموا كل يوم بأحد السيارات الخمسة، بالإضافة إلى الأرض والقمر.. وبذلك وضعوا أسس الملاحة الفلكية المستخدمة في قطع البحار وعبور المحيطات..

إضافة لما تقدم من العلوم قدم البابليون أسس الوزن والكيل، واعتمدوا التقسيم الاثني عشري، وتناولوا في البحث العلوم الأخرى، ليعطوا للعالم فيما بعد قاعدة راسخة من المعرفة، أتاحت لجميع شعوب المنطقة ولشعوب العالم الفرصة لبناء أمجاد حضارات عظيمة في أثينا وروما ومكة ودمشق وبغداد وجميع عواصم أمم الغرب.

الفينيقيون والكريتيون

شهد عالم الشرق أمتين بحريتين قديمتين هما الفينيقيون والكريتيون، ولقد تناول السرد التاريخي الكثير من أمجاد الدولة الفينيقية وأغفل حضارة كريت حتى مطلع القرن التاسع عشر.

برزت هذه الدولة فجأة في جزيرة كريت وامتدت، إلى الجزر المجاورة لها (٢٤٠٠ ـــ ١٤٠٠ ق.م) ثم تغلغلت في شبه الجزيرة اليونانية. وسرعان ما اختفت فجأة إثر هجوم مباغت عليها، والشواهد على حضارة هذا الشعب البحري كثيرة تظهر في الآثار العديدة التي خلفها في الجزيرة وفي الجزر المجاورة الأخرى.. وكان فن العمارة لدى هذا الشعب متقدماً وبأسلوب عملي أخاذ، حقق الراحة والتكامل من حيث هندسة توزيع النور وانسياب الهواء في القصور المشادة.

كان شعب هذه الأمة حساساً فناناً شغف بالجمال، جمال المرأة، وأعطاها لمسة سحرية في لوحاته وتماثيله، مشيداً بتناسق جمال الجسد وأنوثته، وقيل أن شعب كريت هو أول من ابتدع فكرة العري الكامل، والعودة إلى الطبيعة وظهر مبدأ العراة أول ما ظهر لديهم ثم انتقل إلى بعض المجتمعات الغربية فيما بعد.

أطال الكريتيون في ابتكار ألبسة المرأة وحليها وتفننوا في زينتها وامتدت هذه الخاصة إلى جميع شعوب المنطقة، واعتبر الجمال مصدر إلهام ووحي لكبار الفنانين خلدوه في لوحاتهم ومنحوتاتهم، وانتشرت هذه البدعة وامتدت عبر الإمبراطوريات، حيث أصبحت الأناقة والجمال شاغل الرسامين والنحاتين، خلفوه تراثاً قومياً في قصور ومتاحف أثينا وروما.

اتصل البحارة الكريتيون بأقرانهم في المتوسط الشرقي، وبادلوهم السلع بالأسلحة الكريتية البرونزية الجميلة والمتناهية في الدقة، كذلك باعوا من منتجات الجزيرة زيوتاً وخموراً ضمن أوعية خزفية مصنوعة بكل الرقة وكل الجمال، وبقيت هذه الخزفيات أثراً أصيلاً لحضارة فتية.

أما الفينيقيون فقد سكنوا سواحل سوريا ولبنان ويعتقد بأنهم هم الذين أنهوا مجد كريت البحري، واقتبسوا عنهم هذا المجد وطوروه .. ثم سادوا منطقة البحر الأبيض المتوسط بشعبه الشرقي والغربي من صور على الساحل اللبناني، وحتى قرطاجة في شمال إفريقية، وأصبحوا أعظم دولة بحرية في العالم آنذاك.

خرج الفينيقيون من المتوسط وجابوا البحار المجاورة، وقطعوا البحر الأحمر واستداروا حول القارة الإفريقية من طرفيها، وحملوا معهم عجائب الدنيا وبادلوها بمنتجاتهم، وبالمنتجات التي وجدوها في الأقاليم البحرية التي دخلوها.

لم يبرز الشعب الفينيقي فنياً كغيره من الشعوب التي عاصرته، بل غلب على آثاره التي خلفها الجدية والإقدام التي تعوزها الدقة والدعة وليس هذا بغريب على الشعب المقدام نظراً لانشغاله في البحر، فلم يتسع وقته إلا للفتوحات، وكسب المال، وحمل المعادن الثمينة، والاتجار بالأحجار الكريمة، حتى غدت مدنه من أغنى وأجمل وأذخر مدن المتوسط وأبهاها.

يعود للشعب الفينيقي فضل اكتشاف الأحرف الأبجدية، وأخذت عنه الشعوب التي جاورته مبدأ استخدام الحروف الصوتية الأساسية، والمؤلفة أصلاً من (٢٢) صوتاً أولياً مميزاً، لكل صوت رمز مبسط، واقتبس اليونانيون واللاتينيون أساس الأبجدية، وأضافوا عليها رموزاً لأصوات تضمنتها لغاتهم، لم تكن هذه الأصوات معروفة، أو مستخدمة في اللغات السامية الأخرى.

أبجديات العالم الغربي كلها مقتبسة عن الكتابة الفينيقية مروراً باليونانية واللاتينية.

اليهود

من شعوب الشرق القديمة التي شاركت في حضارات شعوب ما بين النهرين الشعب اليهودي القديم.

عاش هذا الشعب بهجرة دائمة ما بين النهرين شمالاً ومصر جنوباً، وظل تائهاً، حتى استقر به المقام في بقعة ضيقة من أرض فلسطين..

استقر اليهود في عهد النبي داوود (٩٩٩ ــ ٩٧٥ ق.م) ووصلوا إلى الأوج في عهد النبي سليمان (٩٧٥ ــ ٩٣٥ ق.م)، ثم بدأ الاضمحلال من جديد وضاعت مملكتا إسرائيل وجوداً

واختفتا إلى الأبد ، وانحل الشعب اليهودي ضمن الشعوب الأصيلة في المنطقة ثم انتشر في كل بقاع الدنيا .

لم يعرف عن الشعب اليهودي أي نشاط بحري ، وكانت أموره السياسية متخبطة غلب عليها طابع الضياع .. تاه بأفكاره ، كما تاه في أرض الله الواسعة ، ومتاهاته الفكرية انتقلت أحياناً إلى معتقداته الدينية ، فأصابته بالتصلب ، ومنعت عنه كل انفتاح ، فتمسك الشعب اليهودي بدين موسى عليه السلام ، وعبد الإله الواحد، فكان أول الموحدين ، ولكنه حجب هذا الدين عن باقي الشعوب ، وعندما جاءت الأديان السماوية التي أعقبت الديانة اليهودية أقبلت عليها الشعوب نتيجة التزمت اليهودي ، وكان العالم معداً لقبول دين شامل كما حدث عند ظهور الديانة المسيحية ، ثم الديانة الإسلامية كخاتمة للأديان السماوية .

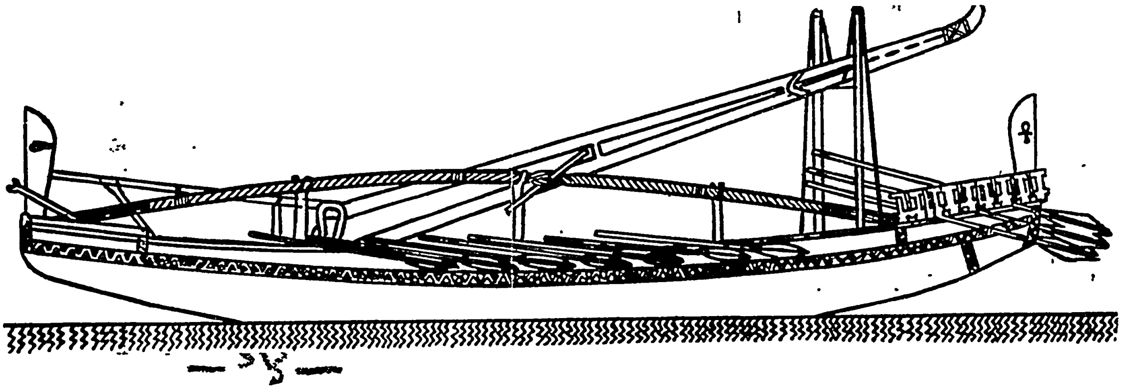

سفينة بدائية

الفصــــل الثـانـي

اليـونـانيــون

جاء أوائل الهيلينيين من الشمال وزحفوا على شبه جزيرة اليونان براً. وهم شعوب لم تر البحر من قبل، ولم يكن في لغتهم لفظ له.. لقد قدموا من الشمال على دفعات عدة سميت بأسماء مختلفة منها الآثيون.. والايوليون، والهيلينيون. وكان بعض هذه الموجات سلمية وبعضها الآخر حربية ووصلت حد البربرية، تجتاح وتحطم كل ما تصادفه من حضارات حتى قيل بأن الحضارة الكريتية التي قامت في شبه جزيرة اليونان قضى عليها الفينيقيون بحراً والآثييون براً.

اعتادت هذه الشعوب المتعاقبة، وبعد حقبة من الزمن رؤية البحر وحياته واستساغت ركوبه، مقلدة الكريتيين والفينيقيين.. واندفعت إلى الشواطىء البحرية تسكنها، ثم تبني السفن وتستخدمها في التجوال عبر بحر إيجه، وتنتقل إلى جزره العديدة، فتقيم عليها ثم تقصد السواحل البعيدة فتنزل فيها. فكانت حضارة شواطىء آسيا الصغرى، ثم تحاصر مدن مداخل بحر الدردنيل ومرمرة وتحتلها.

أعقبت موجة الدوريان الموجات القديمة، وكانت هذه الموجة من أكثر الهجمات همجية وعنفاً، حيث قدم محاربوها من الشمال بأسلحتهم الحديدية الغليظة، وراحوا يحطمون كل ما يعترضهم، وينشرون الرعب والخراب، مما دفع بالسكان الأصليين للنزوح هرباً أمام ما يحمل لهم الغزاة من ويلات ودمار، وانتقلوا إلى آسيا الصغرى فأقاموا فيها حضارة امتدت حتى حروب طروادة، وكانت النواة الأصيلة التي هيأت حضارة اليونان وبداية العهد الايوني.

ولما كان بحر إيجه كثيف الجزر فقد شجع الشعوب التي أقامت فيه على ركوب البحر، وفتحت لديهم روح المغامرة وساعد في ذلك قلة الأراضي الزراعية، وانخفاض المنتوجات الزراعية، مما اضطر السكان للبحث والتفتيش عن مجالات حيوية أخرى وموارد رزق جديدة.. وعلى أثر ذلك اندفع اليونانيون إلى غزو جزر بحر إيجه فالشواطىء المجاورة منه، ووصلوا البحر الآسيوي حتى مداخل البحر الأسود، ثم نزلوا جنوباً فوصلوا أرض الشام، وأرض النيل، واتجهوا غرباً نحو إفريقية وإيطاليا وصقلية.. فنشأت دولة اليونان الكبرى، ونما نشاطها التجاري، وحلت مكان دولة الفينيقيين في المنطقة. وغدت «كورانت» أكبر المدن البحرية التجارية في العصر الايوني الثاني حتى زاحمتها أثينا وحلت مكانها في الطليعة مدينة بحرية برية على السواء، زخرت بالعديد من أغنياء التجار وأصبحت المدينة الأولى في عالم البحر والتجارة آنذاك.

لعبت أثينا دوراً هاماً في توحيد بلاد اليونان، وفي صد هجوم إيران الكبير على أراضيها، فقامت لوحدها بعد سقوط العديد من المدن البحرية اليونانية بوقف الزحف الإيراني، وقاتلته في البحر وفي البر عبر آسيا الصغرى، وبمعارك طاحنة، وكان النصر حليفها. ووصلت أثينا إلى أوج مجدها الحربي في معركتي ماراتون(٣) عام (٤٩٠ ق.م) وسالامين(٤) عام (٤٨٠ ق.م).

قامت أثينا بعد إحرازها النصر بدور رائد بين مدن الوجه البحري لليونان، فوحدّت المدن والأقاليم، وتحالفت جميعها خاضعة لدولة أثينا ذات السيادة الكاملة، على بحر إيجه، وعلى قسم من آسيا الصغرى، وعلى بر المضائق البحرية.

نعمت أثينا بمجد حضاري متقدم، وامتلأ الأكروبول بالتماثيل الرخامية لمشاهير القادة، ولعظماء الدولة، وبدأ عصر سقراط وحكمته، وبلاتون ومشاعره وأشاعت اليونان في العالم الأفكار الفلسفية، وراجت الأقوال المأثورة، ثم جاء أرسطو بحكمته الموسوعية، يضيف ويربط المعرفة بعضها ببعض، فسرت الفلسفة اليونانية بأفكارها المتجددة تتفاعل وتنمو حتى عصر الزحف المكدوني.. وهنا توقف هذا التفاعل الروحي، وانقلب الفكر الهيليني الفلسفي السامي إلى فكر حربي، وانتقلت البلاد برمتها إلى آلة الحرب وجندت الجيوش، واجتاح فيليب المكدوني ومن بعده ابنه الاسكندر إيران (٣٣٣ ــ ٣٢٣ ق.م)، ووصلت الجيوش حتى الهند وانتقلت الحضارة واللغة اليونانية إلى تلك البلاد، لكنها لم تعمر فيها طويلاً كما عمرت في كل من مصر وسوريا وبلاد المشرق البحرية.

لم يتأثر الغرب بالحضارة اليونانية مباشرة لأنه كان لا يزال في ظلام فكري دامس ولم يستفق إلا على حضارة روما التي هي بالحقيقة امتداد للحضارة اليونانية.

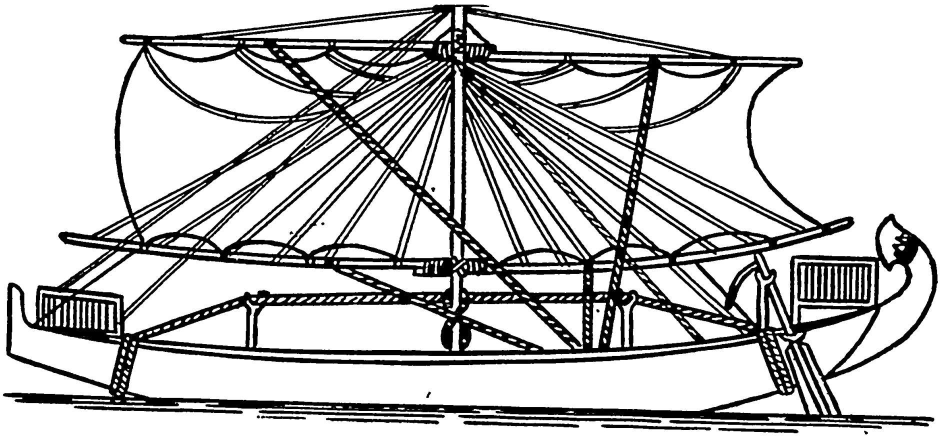

شراعية بدائية

الفصل الثالث

الرومان

الفتوحات الرومانية

في الوقت الذي كانت فيه أثينا على رأس المدافعين ضد الاجتياح الإيراني كانت روما لا تزال مدينة صغيرة تتحرك لبسط نفوذها على الأقاليم المجاورة لها من مقاطعات إيطاليا الوسطى، ولقد تعثرت في البداية نظراً للهجمة الغالية عام (٣٩٠ ق . م)، حيث توقف امتداد نفوذها حتى ابتعد خطر شعوب الغال، وانحسر المهاجمون عن شمال إيطاليا .. فعادت إلى ضم المقاطعات المحيطة بها من جديد، وفي فترة زمنية لم تزد عن قرن واحد أصبحت مملكة روما وبمساعدة الشعوب التي خضعت لسيطرتها حاكمة لكل شبه جزيرة إيطاليا . وبعد أن تمت لها السيطرة الكاملة اندفعت إلى البحر الأبيض المتوسط بحوضيه الشرقي والغربي، ففي غربيه لم يستقر الأمر لها إلا بعد حروب طويلة مع دولة قرطاجة، وأطلق على هذه الحروب اسم الحروب الثلاثة البوينية نسبة إلى بويني Poeni أو باللاتينية بونيكوس Punicus، وامتدت هذه الحروب من عام (٢٦٤ إلى عام ١٤٦ ق . م).

الحرب البوينية الأولى (٢٦٤ ــ ٢٤١ ق . م)

تميزت هذه الحرب باحتلال جزيرة صقلية من قبل القرطاجيين، والتحكم بالممر المائي

الوحيد الفاصل بين صقلية وإيطاليا . وعندما حاول القرطاجيون متابعة زحفهم بنزولهم على الشاطىء الإيطالي ، مقابل مسينا هب الرومان بمعونة هيرون ملك سيراغوسا ، للدفاع عن البر الإيطالي . واضطروا لبناء أسطول حربي يحمي ثغورهم البحرية ، ويدفع الغزاة القرطاجيين عنهم .

اشتبك هذا الأسطول الفتي بمعركة بحرية ناجحة ضد المهاجمين سميت بمعركة ميلز البحرية Myles فانحسر القرطاجيون ، وانسحبوا إلى سواحل إفريقية ، ولحق الرومان بهم بحراً .

عاد الرومان من إفريقية لتحرير جزيرة صقلية القريبة من أراضيهم وخاضوا معركة بحرية ثانية مع الأسطول القرطاجي المتمركز في الجزيرة .. وحدث الاشتباك قرب جزيرة ايكات الواقعة إلى الغرب من صقلية ونتيجة لانتصار القنصل الروماني لاثاثيوس قبلت قرطاجة دفع غرامة مالية والتخلي عن الجزر :

صقلية ، ايكات ، ليباري ، وعقدت معاهدة سلام بين الطرفين المتنازعين عام (٢٤١ ق . م) .

الحرب البوينية الثانية (٢١٨ ــ ٢١٠ ق . م)

عزز المتحاربان مواقعهما الحربية بين عامي (٢١٥ و ٢١٤ ق . م) ، واستكملت روما سيادتها البحرية على كامل الحوض الغربي للمتوسط باحتلالها عامي (٢٣٨ و ٢٣٧ ق . م) جزيرتي كورسيكا وسردينيا ، وتغلبت قرطاجة على أزمتها الاقتصادية بإخماد ثورة عمالية . وكان ذلك إبان حكم عائلة بارسيد ، والتي جاء منها القائد القرطاجي العظيم هانيبعل .

بدأت قرطاجة استعادة مجدها من جديد ، وأقامت إمبراطورية فتية لها في إسبانيا ، وحاصر القائد القرطاجي هانيبعل[٥] مدينة ساغونتا على الساحل الشرقي لايبريا ، المدينة الساحلية الإسبانية الحليفة لروما . وبعد سقوط ساغونتا ، بادر هانيبعل بنقل القتال إلى إيطاليا نفسها . شعرت روما بقرب الخطر والحرب تتهددها ، خصوصاً بعد عبور هانيبعل جبال الألب ، وخوضه معارك حاسمة في سهول إيطاليا الشمالية ، ثم تقدمه حتى بحيرة تريسيمين Tressimène عام (٢١٧ ق . م) ، والتي تقع إلى الشمال من روما .

انهزم العديد من حلفاء روما أمام جحافل هانيبعل الظافرة .. وسقطت تقريباً معظم المقاطعات الإيطالية ، وانحل التحالف القائم مع فيليب الخامس ملك مكدونيا ، إلا أن متابعة زحف

القرطاجيين حتى جنوب إيطاليا وضعهم في موقف عسكري حرج بين شعوب روما، بعيدين عن خطوط إمدادهم. فاستغل الرومان هذا الظرف وقاموا بهجوم معاكس، يستعيدون أراضيهم فحرروا كابو Capoue عام (٢١١ ق.م)، وتابعوا حتى حرروا شبه الجزيرة الإيطالية، ووقع ملك سيراغوسا بين أيدي القنصل كلاديوس مارسيلوس أسيراً، ودخل القائد سيبيون(٦) Scipion مدينة قرطاجة بعد أن انتقل إليها بحراً، فانقطع الإمداد نهائياً عن هانيبعل.

استعادت روما كامل إسبانيا، وهاجمت مملكة قرطاجة براً عن طريق شمال إفريقية فغادرها هانيبعل بسرعة، ليدافع عن مملكته بعد دخول سيبيون الروماني عاصمة ملكه، وبعد سقوط زاما Zama عام (٢٠٢ ق.م)، وهي المدينة الثانية بعد قرطاجة ووقع الصلح. وتعهدت مملكة قرطاجة بتسليم كامل إسبانيا، ودفع غرامة مالية كبيرة، والتعهد بعدم دخول أي حرب في الجوار إلا بموافقة روما. وهذا ما جعل قرطاجة عرضة لمطامع مازينيسا(٧) حليف روما القائد البربري النومادي (مملكته شرقي الجزائر وعاصمتها سيترا). وأخيراً طالبت روما بنفي هانيبعل خارج البلاد، حيث انضم إلى انتيكو الكبير عدو روما في بيزنطة، وانتحر مسموماً لكي لا يقع في أيدي الرومانيين عام (١٨٣ ق.م).

الحرب البونية الثالثة (١٤٩ ــ ١٤٦ ق.م)

لم ترتح روما لبقاء قرطاجة دولة داخل إمبراطوريتها، وهي التي كانت في يوم من الأيام سبباً في إسقاط الإمبراطورية، فقرر كاتون(٨) Caton الحاكم الروماني تدمير قرطاجة عاملاً بالمقولة:

Delenda Est Carthago

والتي تعني تدمير قرطاجة، وكانت حجة الحرب البونية الثالثة:

بدأت هذه الحرب بمناوشات دارت بين مازينيسا النومادي ودولة قرطاجة مما دفع بالأخيرة إلى فك ارتباطها بروما وإلغاء معاهدة الصلح.

هاجمت روما بحراً وبقيادة سيبيون أميليان دولة قرطاجة، وفتحتها، ودمرت المدينة وضمتها نهائياً إلى إمبراطوريتها، بعد قتال بطولي مرّ، استمات فيه القرطاجيون في الدفاع عن مملكتهم، وتم ذلك عام (١٤٦ ق.م). وبذلك انتهت دولة قرطاجة، وأصبحت شبه جزيرة ايبريا مع شمال إفريقية تحت السيطرة الرومانية.

فتوحات روما الأولى

في نهاية القرن الثاني ق . م استولى الرومان على بلاد الغال المشرفة على البحر الأبيض المتوسط ، فتم وصل إيطاليا بإسبانيا براً ، ثم تابع القيصر فتوحاته باتجاه الغرب فاستولى على غالبية بلاد الغال ووصل حتى نهر الرين . وكان ذلك عام (٥١ ق . م) ، وبالنسبة للشرق لم يكن هناك إلا أمم ضعيفة متداعية لحضارات قديمة ، كانت زاهرة لكنها غنية موثرة تغري الطامعين .

هاجم الرومان مكدونيا وضموا كل اليونان إلى الإمبراطورية وسقطت مملكة بيرغام Pergame أو الاتاليين ، وهي مملكة صغيرة في آسيا الصغرى تشرف على بحري إيجة ومرمرة .

لم تمنع الحروب الداخلية من انتشار روما واستيلائها على عموم أراضي آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، وتوقف زحفها أمام بلاد ما بين النهرين وارمينيا ، لمقاومة الفرس لها ، وفي منتصف شهر آذار من عام (٤٤ ق . م) سقط قيصر[٩] تحت ضربات الدساسين المتعصبين ، وجاء الأباطرة الذين خلفوه في الحكم ، فقرروا التراجع قليلاً عن الحدود المتاخمة لبلاد الفرس ، تاركين هوامش أمان من الأرض تمتص إغارات الغزاة البرابرة .

في أوربة .. احتل الرومان فرنسا ، والجزر البريطانية حتى اسكتلندا شمالاً ، ووصلوا الدانوب الأعلى شرقاً ، وزرعوا القلاع والثغور في أراضي داسيا وترانسلفانيا ، ثم نزلوا أواسط أوربة حتى حوض الدانوب الجنوبي .

إن اتساع رقعة الإمبراطورية الرومانية فرض عليها تغييراً في شكل الحكم فمن نظام حكم « المدينة الدولة » إلى نظام روما الإمبرطوري الشاسع .

كان هذا التغيير ضرورياً نظراً للخليط البشري العجيب ، فأحرار الإمبراطورية قلة والمستخدمون العبيد كثرة . وهم مصدر قلاقل واضطرابات مستمرة ينشدون التحرر والمساواة والعدل . وقد لمس القيصر عجز نظام حكم المدن الذي كان يعمل به سابقاً « كل مدينة مملكة مستقلة » ورأى نظام السيادة المطلقة على كل أرجاء الإمبراطورية مطلباً ملحاً كباقي أنظمة الإمبراطوريات التي عاصرته ، لكن الديكتاتور الروماني سقط لحرْقِهِ الخُطا في بناء الإمبراطورية على غرار فارس ، وكان الأجدر به التمهل في تطبيق النظام الجديد .. **وبقيت الإمبراطورية بعد غياب قيصر بالاسم نفسه ولكن بطابع جمهوري ظاهر .**

توحيد العالم القديم

وحدة العالم القديم تركت آثاراً استمرت طويلاً ولا زالت ذات حساسية حتى عصرنا الحاضر، فعندما تجد الشعوب المتباينة نفسها موحدة في دولة، وتحت إمرة ملك واحد وإدارة واحدة، كإمبراطورية روما مثلاً التي امتدت من مشارف الهند وحتى بحر الظلمات، تأخذ هذه الشعوب بالتململ والتحرك نحو الخلاص، تنشد الحرية نظراً لتباين طبائعها واختلاف تقاليدها وعاداتها. أما الأسباب التي حافظت على كيان الإمبراطورية طويلاً فهي وجود عالم بربري يحيط بها، مما دفع بشعوبها إلى التماسك خشية الخطر المحدق حولها.. إلا أن هذا لم يمنع من سقوط إمبراطورية روما، وتحرر شعوبها .. وكان **لظهور الإسلام** والفتوحات التي تمت على يد المسلمين والأفكار التي حملها هذا الدين أكبر الأثر في **حركة التحرر وخلاص الشعوب.**

إن فكرة إقامة إمبراطورية تضم العالم المتمدن طموح كل ملك أو حاكم، وهمه فرض سيطرته على باقي الحكام أو الملوك المعاصرين. وهذا ما شاهدناه في الأباطرة الذين تعاقبوا كقيصر[١٠]، واتون الكبير[١١]، وشارلمان العظيم[١٢]. وظلت هذه الأفكار الطامعة تراود مخيلة كل قادة العالم الغربي، ولفترة طويلة حيث سيطرت عليهم فكرة ثابتة هي:

إن الكرامة الملكية تعود لهم آلياً، مع تصدرهم الحكم لأنهم أكبر ملوك العالم جاهاً وأكثرهم بأساً.

لم تكن هناك في الحقيقة وحدة تامة للشعوب الغربية، بل فرصة لرومنة البلدان المحيطة. وتم الأمر، وقبلت الشعوب المستضعفة والمتخلفة حضارياً الخضوع لأهواء الفاتح.. فتكلموا لغته وتطبعوا بتقاليده، واكتسبوا عاداته، وانتحلوا صفاته، وأصبحت اللغة اللاتينية تحكى في إفريقية الشمالية، كما تحكى على ضفاف نهر الرين، ووصلت حتى الأطراف الغربية لمناطق الآرموريك Armorique (ويقصد بها البلاد الساحلية غربي فرنسا والنورماندیا والبريتانيا).

أما في الشرق، فالأمر مختلف، إذ قامت حضارات قديمة لها تراث عريق، جاء إثر الرومنة فيها سطحياً شفافاً، ضعيف الجذور. واحتفظت الشعوب بلغاتها، وحافظت على تقاليدها وعاداتها، وبقيت لغات البلاد الأصلية هي اللغة المستخدمة.

هاتان الصورتان للشرق والغرب حملتا أخطار التفكك والانحلال، فنشأت عدة أزمات أهمها النزاع الكبير بين أوكتاف وأنطوان.. ولتسهيل عمليات الدفاع ضد هجمات البرابرة قام أباطرة القرن

الرابع، وعلى الطريقة الديوكليتية نسبة إلى Decuis بتقسيم الإمبراطورية لحكومات أو ولايات وصلت إلى أربع، كان بينها ما يشبه الوحدة الفيدرالية وهذا ما أبقى على الإمبراطورية طويلاً.

برز أباطرة لامعون قادوا زملاءهم في الحكم فدانت لهم الحكومات حتى بعد تقسيم الإمبراطورية بين أبناء تيودوس وظلت الوحدة قائمة بين الإمبراطورية الرومانية الشرقية والإمبراطورية الرومانية الغربية من حيث المبدأ مع استقلالية محدودة، وظل الوضع على هذا النحو حتى تعرضت الإمبراطورية الغربية للغزو الكبير عام (٤٠٦) وسقطت عند زوال آخر أباطرتها عام (٤٧٦) في حين بقيت الإمبراطورية الشرقية قائمة حتى سقوطها أمام الغزو العثماني عام (١٤٥٣ م).

ظهور المسيحية

من فلسطين، وضمن إطار الإمبراطورية الرومانية ظهر الدين الجديد، وانتشر في الشرق أولاً، وفي البلاد الهيلينية ثانياً، ثم تابع توغله نحو الغرب. ففي اليونان وبفضل البطارقة الشرقيين اشتد عوده، وعظّم شأنه، وعمل بطارقة كل من بيت المقدس والاسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية على عزة هذا الدين ورفعته، حتى وصل روما.. وفي روما استطاع أسقفها، وبعامل العنصر السياسي آنذاك بسط سيطرته، واكتساب مركز السلطة العليا للمسيحية في العالم، وقبلت هذه السيطرة طويلاً لدى رجال الدين المشارقة وأساقفتهم، وتقدمت الوحدة الدينية على الوحدة السياسية.

بدأت عوامل التباعد والانفصال تظهر، وكانت الهيلينية عالماً مميزاً عن العالم اللاتيني، فسعت وجهدت في تقسيم العالم المسيحي بين شرقي وغربي. وفي خلال القرن الثامن عشر جهر الرافضون اليونانيون بموقفهم القديم، ونادوا بإبعاد سيطرة اللاتينيين عن المشارقة، ونقلوا رفضهم إلى الديانة، وانشقوا معتمدين على التناقض الواضح بين الشرق والغرب.

أما بالنسبة للغربيين فبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية استمر المسيحي الغربي بالتزامه الروحي متمسكاً بدينه إيماناً وخوفاً. وكان خوفه نابعاً عن الخطر الخارجي الذي كان يتربص بالإمبراطورية كهجمات البرابرة.. وعندما اندثرت الإمبراطورية الرومانية استمرت الديانة المسيحية كدين في زمن كان الفرد فيه يجهل الحدود السياسية لموطنه لاختلاف العروق، واللغات، والمعتقدات القديمة، وظلت عواطف وحدة المسيحيين في العالم قائمة وقوية، وظهرت جلية خلال حملات الصليبيين الأولى للمشرق العربي. وكانت الحد الفاصل لعصر سيطرة الكنيسة، إذ سرعان ما ضاعت عناصر الترابط لدى مسيحيي العالم باندحار الحملات الصليبية، وبدأت تحل محلها أطماع سياسية.

قلقت الشعوب من هذه الظاهرة الخطيرة إذ أن التسامح الديني الذي عرف به الدين المسيحي انقلب إلى حب للسيطرة، وإحياء للتعصب القومي، ومع عدم الدخول تفصيلاً بتاريخ الرومانيين وما خلفوه وراءهم في بقاع عديدة من العالم القديم، نستطيع ذكر ما أورثته روما إلى العالم المتحضر آنذاك من مدارك شرعية ومعرفة حقيقية لمعنى الدولة ونظمها.. وبأسلوب متماسك تم التخلص من العادات الهمجية التي كانت مسيطرة في زمن العصور القديمة، وأتى جوستانيان(١٣) فوضع تشريعه المعروف باسمه.. ولكننا لا بد وأن ننوه **بما لحضارات وأمم بلاد ما بين النهرين من فضل عظيم في رسم الطريق، وإعطاء الخطا الأولى في نهج الإدارة والتنظيم في سن التشريعات والقوانين، وفي نقل المعرفة.**

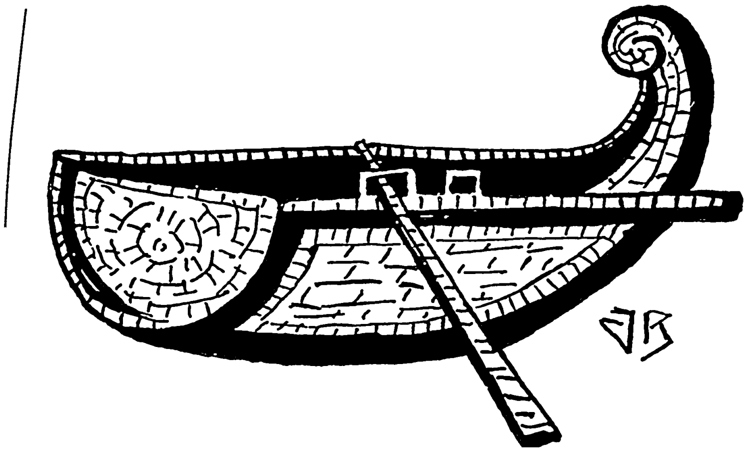

قارب بدائي

حواشـي البـاب الأول

١ ــ طوكيغاوا Tokugawas

عشيرة ارستقراطية يابانية قديمة.

٢ ــ رازيلي Razilly

مستعمر فرنسي حصل على امتيازات ثقافية وتجارية واسعة في المغرب، سمي حاكماً عاماً لاكاديا عام (١٦٣٢) وهي المنطقة الشرقية من كندا والتي آلت إلى إنكلترا عقب معاهدة أوترخت.

٣ ــ ماراتون

سباق على الأرجل بحدود ٤٢ كم ينسب إلى سهل يبعد ٤٠ كيلومتراً عن أثينا وفيه هزم اليونان الفرس الغزاة عام ٤٩٠ ق. م في نهاية حرب ميديا الأولى وكان داريوس الأول ملك الفرس قد أنزل قواته في هذا السهل. انتظرت قوات أثينا البالغة عشرة آلاف مقاتل عون اسبارطه دون جدوى، وقاتلوا بعد أن علموا أن قسماً من القوات الفارسية صعدت ثانية لمهاجمة بيريا من البحر.. انتصر الاثينيون بعد معارك طاحنة ويقال أن رسولاً عدا حتى أثينا لينقل أخبار النصر فمات من شدة الإعياء.

٤ ــ سالامين

جزيرة يونانية في خليج إيجينا إلى الغرب من بيريا وقعت بجوارها معركة بحرية بين أسطول أثينا وأسطول خرخس الفارسي دمر الأسطول اليوناني الغزاة في ٢٩ أيلول عام ٤٨٠ ق. م خلال حرب ميديا الثانية.

٥ ــ هانيبعل Hannibal

قائد عسكري ورجل دولة قرطاجي (٢٤٧ ــ ١٨٣) ق. م عاش في كراهية دائمة للرومان، وسعى لتدمير عاصمتهم روما، أصبح قائداً عاماً للجيش القرطاجي عام (٢٢١) ق. م وحالف الإسبان واستغل ثرواتهم، أعلن الحرب البوينيه الثانية، وانتقل إلى إيطاليا عبر إسبانيا، فبرهن عن كفاءة عسكرية عالية، اجتاز جبال البيرينيه والألب وهزم الرومان في معركة تيسين الشهيرة، وحاول الانقضاض على روما لولا استدعائه إلى قرطاجة للدفاع عنها. أوقع به أعداؤه، وخذله خلانه ففر إلى الشرق فبيزنطة، حيث انتحر بالسم متفادياً وقوعه أسير الرومان.

٦ ــ سيبيون Scipion الإفريقي

قائد روماني (٢٣٥ ــ ١٨٣) ق. م عين قنصلاً على إسبانيا احتل قرطاجة، وانحاز مع الايبريين على القرطاجيين، اجتاح سواحل إسبانيا على المتوسط وعين عليها قنصلاً عاماً عام (٢٠٥) ق. م.. جمع جيشاً كبيراً من صقلية وانتقل به إلى إفريقية حيث احتل زاما Zama ثم انتخب فيما بعد نائباً عاماً للقيصر، حاربه خصومه فانسحب إلى ممتلكاته في ليتدنوم حتى مات هناك.

٧ ــ مازينيسا Masinissa

ملك النوماد (٢٣٨ ــ ١٤٨) ق. م عمل لروما واسترجع ملك آبائه من سيفاكس Syphax، وتزوج امرأته وأقام المواصلات، ونهض بمملكته حضارياً واختار سيترا Citra (الجزائر الشرقية) عاصمة لملكه.

٨ ــ كاتون Caton

ماركوس بروسيوس (٢٣٤ ــ ١٤٩) ق. م سياسي وعسكري روماني وعدو لدود لقرطاجة.. عمل وزيراً للمالية ثم حاكماً لسردينيا.

٩ ــ قيصر Cesar

امبراطور روما.. ثم أطلق هذا اللقب فيما بعد على كل أباطرة روما وأباطرة الإمبراطورية الجرمانية.. يقال القياصرة الاثنا عشر، ويعني بذلك كل من يوليوس قيصر والـ ١١ قيصراً الأوائل وهم أوغست

Ouguste ، تيبر Tibère ، كاليغولا Caligula ، كلود Claude ، نيرون Neron ، غالبا Galba ، أوتون Othon ، فيتيليوس Vittellius ، فيسباسيان Vespasien ، تيتوس Titus ، دوميتيان Domitien .

١٠ ــ يوليوس قيصر

رجل دولة وكاتب قدير وسياسي محنك (١٠١ ــ ٤٤) ق . م حكم روما وهو الذي أقام كليوباترة على عرش مصر ، أعاد تنظيم الإمبراطورية الرومانية بعد تدمير مملكة بومبيه في إسبانيا وإفريقية ، قتل بمؤامرة رأسها كاسيوس وبروتوس في قاعة مجلس الشيوخ .

١١ ــ أوتون الكبير Othon (٩١٢ ــ ٩٧٣)

أول إمبراطور للإمبراطورية الجرمانية المقدسة . ملك جرمانيا وإيطاليا هو ابن هنري الأول . فبمساعدة الكنيسة (وكانت آنذاك بأوج سيطرتها) سيطر على عدة أقاليم ، ثم هاجم فرنسا في عهد لويس الرابع ، وحارب الهنغاريين وانتصر عليهم في معركة ليشفيلد (٩٥٥) ، وهزم السلاف في معركة ريكينتز . فأصبح حامي الديانة المسيحية ، وتوج إمبراطوراً على روما بعد أن ضم العديد من أقاليم الشمال .. اصطدم أمام مقاومة اليونانيين جنوب إيطاليا وانهزم أمام قائدهم نيسيفوز فوكوس Nicéphose Phokos .

١٢ ــ شارلمان Charlemagne (٧٤٢ ــ ٨١٤)

كارلوس ماغنوس ملك الفرنكة وإمبراطور الغرب . اقتسم الملك عن أبيه بيبان مع أخيه كارلومان ، لكن أخاه مات عام (٧٧١) فانفرد بالملك لوحده واستولى على لومبارديا ، وأقام مملكة اكيتانيا (غرب فرنسا) ، واستولى على بافاريا ، وحارب الساكسون (شمال ألمانيا) ، وحاول الاستيلاء على إسبانيا الإسلامية عام (٧٧٨) فأخفق أمام سيراغوسا .. في عام (٨٠٠) قلد إمبراطوراً على روما من قبل البابا واعترفت به بيزنطة عام (٨١٢) . كانت عاصمته اكس لاشابيل في فرنسا ، وخلفه ابنه لويس على الملك من بعده .

١٣ ــ جوستانيان الأول (٤٨٢ ــ ٥٦٥)

فلافيوس بيتروس ساباتيوس ، إمبراطور بيزنطي شاركته الإمبراطورة تيودورا الحكم عام (٥٣٢) . أقام سلاماً شاملاً مع الفرس ، ووضع التشريعات المعروفة باسمه ، حارب البربر ، وكان عهده عهد ازدهار .. لعبت الإمبراطورية أيامه دوراً أساسياً في تطوير أوربة وعلاقاتها بآسيا .

بعض التواريخ الهامة
في الشرق العربي وخلال القرون الوسطى

٥٧٠ ـــ ٦٣٠	ظهور النبي العربي (محمد صلى الله عليه وسلم).
٦٢٢	الهجرة إلى المدينة المنورة.
٦٣٢ ـــ ٦٦٠	الخلفاء الراشدون.
٦٦١ ـــ ٧٥٠	الأمويون.
٧١١ ـــ ٧١٤	فتح إسبانيا من قبل العرب.
٧٣٢	وصول العرب إلى بواتييه.
٧٥٠ ـــ ١٢٥٨	الخلافة العباسية.
٨٠٩ ـــ ٩٤٥	بدء عصر انحطاط الدولة العباسية.
١٠٥٥	السلجوقيون.
١٢٥٤ ـــ ١٥١٧	المماليك.
حتى ١٩٢٢	العثمانيون.

٨٠٠	شارلمان إمبراطور روما.
٨٤٣	تقسيم الإمبراطورية الكارولينية.
٩٦٢	بدء ظهور الإمبراطورية الرومانو ـــ جرمانية.
١٠٦٦	احتلال انكلترا من قبل غليوم النورماندي.
١٠٩٥	أول حملة صليبية
١٢٠٤	الحملة الصليبية الرابعة وسقوط الأستانة.

١٢٧٠	آخر حملة صليبية .
١٣٢٨	بدء حرب المائة عام .
١٣٤٠	المعركة البحرية في الاكلوز Ecluse .
١٣٥٦	زحف العثمانيين على أوربة .
١٣٨٩	اندحار الصرب في كوسفو وتهديد المجر .
١٤١٥	عودة الحرب الانكلو ـــ فرنسية .
١٤٢٩	تحرير أورليان وجان دارك .
١٤٥٣	نهاية حرب المائة عام .
١٤٩٢	اكتشاف كريستوف كولومبوس لأمريكا .
١٤٩٨	فاسكو دو غاما يصل الهند بالدوران حول إفريقية .
١٥١٩ ـــ ١٥٢٢	رحلة ماجيلان .

الباب الثاني

العرب والبحر

الفصـــل الأول

النشـاط البحـري لـدى العـرب
قبـل وبعـد الاسـلام والمسلميـن

لجأ سيف بن زي يزن الحميري إلى المنذر بن ماء السماء والد النعمان بن المنذر ملك الحيرة التي كانت تابعة إذ ذاك للفرس، يطلب منه أن يقدمه إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس، ليعينه على إخراج الأحباش من بلاده بلاد اليمن. طمع كسرى في أرض اليمن واشتهى الاستيلاء على هذه البلاد، واختار حملته من الجنود المسجونين فأخرج منهم (٨٠٠) سجين أوكل قيادتهم إلى القائد «وهرز».. سار هذا الجيش وانتقل بحراً على متن ثمانية سفن كانت كل سفينة تستوعب مائة محارب، غرق من السفن اثنتان ووصل الجنود الباقون وعددهم (٦٠٠) جندي وأعانوا الملك سيف في حربه على الأحباش وتعتبر هذه الحملة أولى الحملات البحرية التي دونها المؤرخون، والتي عرفت عند العرب قبل الإسلام.

في الحقيقة لم يكن العرب يعنون بركوب البحر قبل الإسلام، ولم يعنوا بالحروب البحرية في صدر الإسلام لبداوتهم، وعدم تعودهم ركوب البحر وممارستهم أحواله، وكان أول من ركب البحر علقمة بن مجزز المدلجي، إذ أنفذه الخليفة عمر رضي الله عنه في نفر من المسلمين إلى غزو الحبشة، إذ كانت الحبشة قد أغارت على طرف من بلاد المسلمين، ولكن حملة المسلمين أصيبت بالإخفاق فعزم عمر على نفسه ألا يحمل في البحر أحداً بهدف الغزو، وقيل بأن هذه الغزوة لم تكن في عهد الخليفة عمر بل في زمن الرسول (ﷺ)، على أية حال فإن علقمة المدلجي لم يكن أول راكبي البحر للغزو، فالعلاء ابن الحضرمي والي اليمن أيام عمر من أوائل قادة العرب المسلمين توجه لغزو

بلاد فارس في اثني عشر ألفاً من المسلمين من غير إذن الخليفة ، وعاد المسلمون إلى البصرة محملين بالغنائم بعد أن فقدوا سفنهم التي عبروا بها إلى بلاد فارس ، ولما علم عمر بذلك وكان يكره ركوب البحر ، غضب على العلاء وعزله .

ولما فتحت بلاد الشام شاهد العرب سفن الروم فتطلعوا لمجاراة أعدائهم . وألح معاوية والي الشام على الخليفة عمر في أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحراً ، فطلب الخليفة من عمرو بن العاص والي مصر أن يَصِف له البحر وراكبه فكتب إليه عمرو يقول :

« يا أمير المؤمنين إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء ، إن ركد أحزن القلوب ، وإن ثار أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق » .

وجاء رد عمر لمعاوية بعد هذا الوصف قائلاً :

« لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً » .

وعلل ابن خلدون سبب امتناع العرب عن ركوب البحر قائلاً :

« العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافة البحر وركوبه ، والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ، ومرباهم في التقلب على أعواده ، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم البحر خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذي صفة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتيه في حاجاتهم البحرية أمماً ، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته ، استحدثوا بصُراء بها ، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه ، وأنشؤوا السفن والشواني (مركب معد للجهاد في البحر) ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأمطوها العساكر المقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغرهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته ، مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس » .

لما وليّ عثمان الخلافة أعاد عليه معاوية الكرة في غزو الروم بحراً فأذن له على أن لا يحمل الناس على ركوب البحر كرهاً .. بنى معاوية أسطولاً حربياً ضخماً وولى عليه عبد الله بن قيس وكان أول أمير بحر غزا خمسين غزوة بين شاتية وصائفة ، ووصل هذا الأسطول إلى عمورية في آسيا الصغرى ، كما استولى على جزيرتي قبرص ورودس ، وفتح كثيراً من الحصون .

أما في مصر فلم يرحب القبط بعودة بلادهم إلى الروم، يسومونهم الخسف والظلم، لمظاهرتهم العرب، ولما كان بينهم وبين الروم من خلاف مذهبي عميق، خصوصاً بعد سيطرة كنيسة روما على بطارقة الشرق. وقد كتب أولياء القبط إلى الخليفة عثمان يلحون في إسناد حروب الروم إلى عمرو بن العاص لما كسبه في حروبه معهم من خبرة، فولى عثمان عمرو الاسكندرية، وعهد إليه بحرب الروم وإخراجهم من مصر، ولقد دار قتال كبير بين عساكر عمرو وعساكر مانويل في البحر وفي النهر، وكانت الغلبة في النهاية للمسلمين، وفتحوا الاسكندرية وهدموا سورها وكان ذلك عام (٢٥) هجرية..

وفي عام (٣٤) هجرية تجدد قتال بين أمير البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح وبين الروم تحت قيادة ملكهم قسطنطين في البحر الأبيض المتوسط وعلى مقربة من الاسكندرية وكان النصر ثانية للمسلمين في هذه المعركة والتي أطلق عليها اسم معركة ذات السواري لكثرة سواري السفن التي اشتركت فيها، حتى قيل إنه اشترك في هذه المعركة ألف سفينة، منها مائتان للمسلمين.

لما وَلي معاوية الخلافة عني بإنشاء السفن الحربية لصد غارات الدولة البيزنطية على البلاد الإسلامية، ورتب لغزوها الشواتي والصوائف براً وبحراً ووضع نظاماً يكفل استمرار الحرب بينهم وبلغ أسطول الشام آنذاك (١٧٠٠) سفينة وتم في عهده أيضاً وبقيادة أمير البحر عقبة بن عامر الفهري غزو جزيرة رودس وبعض الجزر اليونانية الأخرى ويقال ان كريت كانت إحداها

وفي عام (٥٣) هجرية غزا الروم موقعاً يدعى البرلس على ساحل مصر في عهد ولاية مسلمة بن مخلد وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين وعلى رأسهم وردان مولى عمرو بن العاص، وعلى أثر تلك الغزوة شعر المسلمون بأهمية تواجد أسطول قوي فاهتم أمراء مصر ببناء السفن وأنشئت دار لصناعتها في جزيرة الروضة عام (٥٤) هجرية.

نقل العرب عن البيزنطيين أصول ركوب البحر فأضافوه إلى ما كانوا يعرفونه من أصول الملاحة واستخدام الكواكب والنجوم. وسرعان ما أتقنوا هذا العلم حتى بذوا الجميع، ومن ثم علموه لأورية بدليل أن الاصطلاحات البحرية المستعملة الآن في بلاد الغرب لا تزال تحتفظ بالعديد من التسميات والتعابير العربية المستخدمة في علوم الفلك والملاحة، وتسميات النجوم، وأسماء السفن، ورجال الأسطول.

فتح إسبانيا

وثق موسى بن نصير بطارق بن زياد وقربه إليه وأمَّره على بعض الجيوش فحارب البربر في إفريقية، وانتصر عليهم فأوكل إليه ولاية طنجة تقديراً لخدماته. وتوسم ابن نصير بقائده صدق العزيمة وقوة الشكيمة وصلابة العود، بالإضافة إلى كونه بربرياً وجل جنوده من البربر، فهو يستطيع الوصول إلى شغاف قلوبهم، ويؤثر في نفوسهم، ويحسن قيادتهم، وينقلهم من نصر إلى نصر.. فقرر إسناد قيادة الجيش له في سبيل غزو إسبانيا.. وفي شهر شعبان من عام (٩٢) هجرية أو (٧١١) ميلادية عبر طارق بن زياد البحر في أربع سفن كبيرة أعدها له جوليان (حاكم سبته) صديق العرب. وكان يطمع في استرداد بعض من ملكه، إن كتب النصر لطارق، ويقتص من لذريق ملك إسبانيا.

انتقل طارق بن زياد على رأس جيشه وكان عدده سبعة آلاف من المسلمين، وراح طارق وهو على متن سفينته التي أقلته إلى البر الإسباني يتأمل عجائب الكون وينظر إلى السماء متوجهاً إلى الله يلتمس منه العون والنصر.

ألقت السفن مراسيها مقابل الجزيرة الخضراء، عند صخرة حملت اسم طارق بن زياد، وعرفت إلى اليوم باسم مضيق جبل طارق. وهناك ألقى القائد العربي خطبته الخالدة على جنده يحثهم فيها على الجهاد وعلى التذرع بالصبر والثبات والتي كان مطلعها..

«أيها الناس، أين المفر، البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا انكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام...».

عندما قدم طارق إلى إسبانيا كان لذريق ملك إسبانيا منشغلاً بثورة أخيلا في شمال البلاد. ولما علم بنزول حملة طارق في أرض بلاده جمع جيشاً كبيراً قيل إنه بلغ سبعين ألف، وقيل مائة ألف، ولكن لم يرهب هذا الجيش الجرار المزود بكامل العدة والسلاح جيش طارق، ولم يثن عزيمته بل على العكس زاد في قلوب جنده الإيمان. وتقدم طارق يفتح الثغور والقلاع ويقتحم المدن، ولما توغل في البلاد شعر بقلة عدد جنوده فكتب إلى موسى بن نصير يمده بالمزيد، فبعث له بخمسة آلاف مقاتل فبلغ عدد جنده اثني عشر ألفاً.. وقرب وادي كله عند طرف الرأس المسمى بالطرف الأغر انتصرت جيوش طارق على جيوش الفرنجة، وجرح لذريق، ورمى بنفسه في النهر ومات غرقاً، وانهارت مقاومة الإسبان أمام الفاتح العربي الشجاع، وتقدمت جيوش المسلمين تفتح المدن وتستولي على القلاع، وتم للعرب فتح إسبانيا على يد القائد العربي طارق بن زياد.

محاولة فتح القسطنطينية

في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك قام المسلمون بمحاولة فتح مدينة القسطنطينية المنيعة، بعد أن دانت لهم آسيا الصغرى بكاملها مدينة مدينة، وقرروا مساعدة الحملة البرية بهجوم بحري يستهدف قلاع وأسوار القسطنطينية. فسار إليها أسطول مشترك جاء من الثغور الشامية والمصرية، ليساند القوات البرية المهاجمة، ويحكم الحصار بحراً على حاضرة البيزنطيين.. اشتد الحصار وبدأت بعض القلاع المتقدمة تسقط أمام هجمات المسلمين، إلا أن ليو الأزوري البيزنطي حليف المسلمين ضد انستياس الثاني إمبراطور الروم انقلب على حلفائه، وأعلن نفسه إمبراطوراً، وأراد استغلال نصر المسلمين، واستدرج سفن أسطول المسلمين لبقعة أدركتهم فيها النار الإغريقية★ فقتلت الكثير من المهاجمين، ودمرت أكثر سفنهم وأخفقت حملة فتح القسطنطينية، كما أخفقت حملة مماثلة كذلك إبان خلافة معاوية بن أبي سفيان.

فتح جزيرة صقلية

فتحت جزيرة صقلية بالكامل على يد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب في سنة (٢١٢) هجرية وذلك في عهد الخلافة العباسية وفي زمن الخليفة المأمون، على أن اهتمام المسلمين بفتح جزر البحر الأبيض المتوسط يرجع إلى عهد معاوية بن أبي سفيان حيث أرسل إليها عبد الله بن قيس الغزاري بن حديج والي إفريقية. ولكن لم تثبت أقدام المسلمين في الجزيرة. وأعاد عليها الكرة محمد بن إدريس الأنصاري أيام يزيد بن عبد الملك فنزل بها، وغنم منها غنائم كثيرة، ثم تركها لأهلها. وفي أيام الخليفة هشام بن عبد الملك عام (١٠٩) هجرية، غزاها بشر بن صفوان الكلبي، ثم أعاد غزوها حبيب بن أبي عبيدة عام (١٢٢)هجرية، واستولى على سرقوسة المدينة الرئيسية على الساحل الشرقي للجزيرة، ومكث فيها بعض الوقت، ثم تركها عائداً إلى إفريقية، محملاً بالغنائم. ثم غزاها عبد الرحمن سنة (١٣٠)هجرية غير أن أقدام المسلمين لم تكد تثبت في الجزيرة إلا في عهد الأغالبة.

روى المؤرخون الذين تناولوا تاريخ صقلية أن السبب المباشر لفتحها في عهد زيادة الله بن الأغلب أن إمبراطور القسطنطينية ميخائيل الثاني ولى عليها قسطنطين البطريق فأرسل يوفيموس

★ النار الإغريقية (اليونانية) تتألف من ملح البارود والغار اكتشفها كالينيكوس Callinicos، تشتعل حتى في الماء وحروقها قاتلة مريعة.

Euphemius في أسطول نهب ساحل إفريقية ، ثم غضب عليه الإمبراطور إذ علم بأنه اختطف راهبة من هناك ، ففر يوفيموس إلى سرقوسة الواقعة على ساحل صقلية الشرقي ، وثار على حاكم الجزيرة إلا أنه شعر بأن لا قبل له بالحاكم ، ولا طاقة له بجيوش الإمبراطور وأساطيله ، فلجأ إلى زيادة الله بن الأغلب أمير إفريقية واستغاث به ، وزين له فتح الجزيرة ، وزين له غنائمها وخيراتها ، فجهز زيادة الله جيشاً وأسطولاً يتألف من مائة مركب بقيادة أسد بن الفرات قاضي القيروان .

وصل جيش زيادة إلى صقلية ، ولم يشهد مقاومة بحرية تذكر . وانضم جيش يوفيموس إلى جيش المسلمين ، ووقعت الواقعة ، وانتهت بانتصار المسلمين وهزيمة جيش الإمبراطور الرومي ، وعلى الرغم من النصر توفي القائد أسد بن الفرات في أثناء حصار سرقوسة عام (٢١٣) هجرية ، فولى المحاربون عليهم محمد بن أبي الجواري . واستطاع المسلمون الاستيلاء على كثير من الحصون كحصن ميناو وجريجند ، أما يوفيموس فقد سار إلى مدينة قصريانة ولما بلغها انقلب على المسلمين فيها ، لكن الجند ثاروا عليه وقتلوه ، ولم يستطع التأثير على حملة المسلمين .

لم يستطع المسلمون التوغل كثيراً في الجزيرة لقلة عددهم . وانتظروا حتى وصلتهم سفن من الأندلس كانت تتجه نحو غزو بلاد الروم بقيادة قرغلوش فطلب المسلمون المتواجدون في الجزيرة المساندة فأجابهم قرغلوش إلى طلبهم واستولوا على مدينة ميناو ، وبعض المدن الأخرى . إلا أن الحملة سرعان ما اضطرت للرحيل عن هذه المدن ، إذ انتشر وباء فتاك بينهم قضى على الكثير من الجند ، ومات القائد الأندلسي المساند ، وعادت بقايا الحملة الأندلسية إلى بلادها عام (٢١٥) هجرية وبقي الأغالبة وحدهم في الجزيرة .

حاصر المسلمون مدينة بلوم ، وانتهوا من فتحها عام (٢١٦) هجرية . وفي عام (٢١٩) سار المسلمون إلى قصريانة ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، وكانوا يعودون إليها مرة تلو الأخرى ، ثم يرتدون عنها ليستولوا على غيرها من المدن المجاورة ، مثل طبرين وقسطياسة ، وعلى الحصون المحيطة بجبل النار وغيرها ، وظلوا على ذلك إلى أن مات زيادة الله بن الأغلب سنة (٢٢٣) هجرية . ولم يستطع المسلمون الاستيلاء على كامل الجزيرة رغم ما كان يصلهم من الإمداد وكانت سرقوسة آخر معقل وقع في أيديهم في عهد إبراهيم الثاني الأغلبي سنة (٢٦٤) هجرية .. ويظهر أن المسلمين كانوا يستولون على مدن صقلية ثم لا يلبثون أن يتخلوا عنها تحت ضغط الروم ، فكانت حرب المسلمين في هذه الجزيرة كما يقولون **حرباً مائعة غير مستقرة** ، وهناك ولا شك سبب رئيسي هام هو **قرب الجزيرة من البر الإيطالي معقل الإمبراطورية الرومانية ، حيث الإمداد بالمال والسلاح والرجال مؤمن وسريع ، في حين كان المسلمون بعيدين مئات الأميال عن بر الوطن الأم ، واعتمادهم الكلي على الأسطول الحربي ، وانتظام حركته وإمداده** . وهناك سبب آخر لا يقل أهمية

عن الأول، وهو عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوي في البحر الأبيض المتوسط، على غرار الأسطول الأموي في السابق. وكان اعتماد العباسيين في المنطقة على الجيوش البرية وأهملوا قواتهم البحرية.

قال أبو الفدا في «المختصر في أخبار البشر»:
«إن قصريانة هي المدينة التي بها دار الملك بصقلية، وكان الملك قبلها يسكن سرقوسة. فلما أخذ المسلمون بعض الجزيرة انتقل الملك إلى قصريانة لحصانتها، ففتحها العباس بن الفضل الغزاري سنة (٢٣٧) هجرية، وبنى بها مسجداً، ونصب فيها منبراً، وخطب وصلى فيها يوم الجمعة..».

أهم الأحداث البحرية إبان الخلافة العباسية

لم تقتصر حروب هرون الرشيد مع الروم على آسيا الصغرى بل تعدتها إلى البحر الأبيض المتوسط ففي عام (١٩٠) هجرية غزا العباسيون جزيرة قبرص، وأسروا منها ستة عشر ألف نفس، ومن بينهم أسقف الجزيرة.

في عهد الخليفة المهدي غزا المسلمون بلاد الهند عام (١٥٩) هجرية، وحاصروا مدينة باريد، وضربوها بالمنجنيق، وفتحوها عنوة، وأشعلوا النار في تمثال بوذا على أن هذه الغزوة عادت بكارثة على جند العباسيين، فقد انتشر وباء بينهم، ومات الكثير من الجند، وهبت زوابع شديدة دمرت سفنهم في الخليج العربي فغرق كثير من الرجال..

كانت سفن العرب تقطع البحر الأبيض المتوسط من ميناء انطاكية شرقاً إلى جبل طارق غرباً في ستة وثلاثين يوماً، وتعد انطاكية التي حصنها الخليفة المعتصم من أهم مرافق بلاد الشام التجارية، كما كانت صور ميناءً حربياً هاماً، أنشئت فيه دار للصناعة، وتخرج منه السفن لمحاربة الروم.

يتضح من قصص السندباد البحري التي وردت في كتاب ألف ليلة وليلة، والتي ترجع إلى عهد الخليفة هرون الرشيد، أن العرب قاموا في العصر العباسي برحلات بحرية كانت تبدأ من بغداد، وتسير في الخليج العربي حتى تصل إلى شبه جزيرة ملقا (الملايو). وكان التجار وراء هذه الرحلات التي تأتيهم بتوابل وعطور الهند، وحرائر الصين، ولا يبعد أن يكون العرب قد وصلوا إلى بلاد الصين بحراً، وأنهم كانوا بين الغرباء الذين فتح لهم ميناء كانتون الصيني. وقد أثبتت بعض

الوقائع التاريخية تواجد العرب في هذه المدينة إبان الفتنة التي وقعت فيها عام (١٤١) هجرية . ومن المؤكد وصول العرب جزيرة سيلان في العصر العباسي الأول ، واتخاذهم ميناء سيران مرسى لسفنهم التي تجوب سواحل الهند ، فتنقل السلع وتحمل تجارة العرب إلى بلاد الهند وبلاد الصين .

وضع أبو القاسم بن خرداذبة في القرن الثالث الهجري دليلاً للمسافرين في كتابه « المسالك والممالك » وصف فيه الطريق البحري الذي يبدأ بمصب دجلة عند الابلة ويصل إلى بلاد الهند والصين ، ويذكر ابن خرداذبة أن السفن العربية كانت تسير بمحاذاة الشاطىء الفارسي وشاطىء الهند حتى ملبار ، وكان اختيار هذا الطريق يعود إلى الرغبة بالتوقف في الموانىء ، وتبادل السلع ، وشحن البضائع أو تفريغها ، لا إلى الخوف من التوغل في عرض البحر كما نسب إليهم .. إذ أن هذه السفن وبعد مغادرتها ساحل كروماندل تقطع خليج بنغالة في خط مستقيم كما كانت تفعل السفن الصينية تماماً .

وذكر المؤرخون بأن العرب ، ومنذ أواخر القرن الثاني للهجرة استقروا في ميناء خانفو ، وهو إلى جنوب مدينة شنغهاي الصينية الحالية . وقد كان لهم هناك قاض مسلم وفق الشريعة الإسلامية معترف به من قبل إمبراطور الصين يحكم بين المسلمين ، ويؤمهم في الصلاة .. وظل القاضي مقيماً حتى قامت الفتن في بر الصين ، فترك العرب خانفوه وانتقلوا إلى شبه جزيرة ملقا . وانتقل معهم قاضيهم واتخذوا مركزهم في مدينة كله Kalah وهي في الهند على منتصف طريق عمان ـــ الصين . وتقع في طرف خط الاستواء ، وأصبحت هذه المدينة البحرية مرسى للسفن الإسلامية التي تنتقل بين آسيا الغربية والشرقية ، وأصبحت الرحلة إلى شبه جزيرة ملقا في القرن العاشر الميلادي من أسهل الرحلات العالمية في نظر البحارة العرب الذين عرفوا أيضاً جزيرة جاوا وسومطرة وقد وصلت سفن المسلمين حتى موانىء الهند الصينية ، ولا يبعد أن يكون بعضها قد وصل حتى موانىء كوريا .

« كانت الرحلة بين السواحل العربية وسواحل الهند الغربية تستغرق بين شهرين أو ثلاثة . وقد تتناقص في حال استخدام الرياح الموسمية » .

حدثت بين بلاد اليمن والحجاز والحبشة ومصر من جهة وبين آسيا الشرقية من جهة أخرى علاقات تجارية هامة ، وامتدت خطوط المواصلات البحرية بينها وكانت عدن سوقاً لزمرد الهند وناب فيلة الحبشة ، وكانت جدة ميناء مكة الهام ، كما كانت القلزم ميناء مصر وسوريا . وقد فكر هرون الرشيد في حفر قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر ، ولكنه استبعد الفكرة بعد أن قيل له إن

الإغريق قد يجدون عن طريق هذه القناة منفذاً إلى البحر الأحمر، وقد يستخدمونه كمنفذ لحملات ضد مكة والمدينة ويعملون على إرباك وقطع طريق الحج.

عندما قدم صاحب الزنج البصرة أسرع إليه غلمانها رغبة في التخلص من الرق والعبودية. وراح الزنج يلتفون حول سيدهم فيشدون بأزره، فعلا شأنه ثم اتخذ موقعاً فبنى عليه مدينة سماها «المختارة» وجند الجيوش ثم أرسلها فانتشرت في العراق وخورستان والبحرين، وقامت جيوش صاحب الزنج فنهبت القادسية، وهزمت أهالي البصرة، واستولت على ألف وتسعمائة سفينة كانت تستخدم في حمل الحجاج إلى مكة.

هب العباسيون لقتال الزنج فأتاح انشغالهم بهم الفرصة للبيزنطيين للإيغال في الدولة العباسية فهاجموا أطراف الدولة، وحاصروا طرسوس في عام (٢٩٢) هجرية، ثم أغاروا على الثغور الشامية براً وبحراً، وعاثوا في الكثير من المدن فساداً، فهب إليهم المسلمون وصدوا هجماتهم ثم تبعوهم، ففتحوا مدينة انطاكية الحصينة، والتي كانت تشبه بتحصينها القسطنطينية، وقتلوا خمسة آلاف من المحاربين فيها، وأسروا مثلهم، وأطلقوا أسرى المسلمين فيها، كما استولوا على ستين مركباً وغنموا ما فيها من الأموال والمتاع والرقيق.

وفي عام (٤٤٧) هجرية (١٠٥٧) ميلادية وبعد وفاة الإمبراطور ميخائيل الرابع خلفته في الحكم الإمبراطورة تيودورا وأخلت بشروط المعاهدة المعقودة بين الدولة الفاطمية والإمبراطورية البيزنطية، واشتبك الفريقان من جديد في معارك برية كان النصر فيها حليف الفاطميين، لكن أسطول البيزنطيين انتصر على أسطول الفاطميين في مياه الشام، وأسر الكثير من قوادهم وجندهم.

علاقة أمويي الأندلس بدول أوربة الغربية

استقرت أقدام العرب في إسبانيا وصقلية وغيرها من جزائر البحر الأبيض المتوسط كما ذكرنا سابقاً. وحاول المسلمون الاستقرار على سواحل إيطاليا وفرنسا. واستطاعوا تأسيس إمارة مستقلة على سواحل إقليم بروفانس الأسفل (فرنسا). وزادت فعالية أساطيلهم بما كان يصلهم من الإمدادات البحرية الدائمة من بلاد الأندلس وإفريقية وصقلية فأقاموا المعاقل وبنوا الحصون وشيدوا القلاع فوق المرتفعات المشرفة على خليج غويمو جنوبي اقليم بروفانس، وفي غابة اسمها فراكسينيت Fraxinet.

وخلال القرن العاشر الميلادي تقدمت قوات المسلمين حتى وصلت مدينة تورينو شمال

إيطاليا ، وأقامت في سهول نهر البو حتى وصلت خلال عام (٣٢٥) هجرية إلى حدود مقاطعة ليغوريا Liguria ودخلوا مدينة جنوة واستولوا على ممر سان برنار في جبال الألب ، واجتازوا الممر إلى البلاد السويسرية . ولقد امتد نفوذهم براً حتى شواطىء بحيرة كونستانس ، وبحراً إلى جنوة ومرسيليا ونيس حتى إننا لا نزال نرى اسم الحي العربي في أحد أحياء مدينة نيس الفرنسية ويسمى « Canton De Sarrasins » ويعني « منطقة أو ناحية العربي المغربي المسلم » .

حاول ملك بروفانس فيما بعد طرد العرب من بلاده ، واستعان على ذلك بأسطول كبير أمده به أوتوتو الكبير إمبراطور ألمانيا ، حاكم الإمبراطورية الرومانو ــ جرمانية المقدسة آنذاك . وكاد ملك البروفانس أن يقضي على نفوذ العرب في بلاده إلا أنه آثر المهادنة في الحروب .

بلغ من اهتمام المسلمين بالبحرية أن سفنهم أصبحت أكبر وأقوى من سفن البيزنطيين . وكان للمسلمين في كل مرفأ منارة لهداية السفن ، أطلق عليها اسم الخشب . كما كان لكل سفينة حربية قائد أو « مقدم » يقوم بتدريب الجند ، ويعد العدة للحملات البحرية ، وإلى جانب القائد موظف آخر يدعى الريس ، يتولى الملاحة فقط أما القائد العام للأسطول فيدعى « أمير الماء » أو أمير البحر الذي اشتق منه الأوربيون لفظ الأميرال .

الاهتمام البحري في بلاد مصر والشام إبان العصر العباسي

اشتهرت مصر في العصر العباسي بصناعة المراكب النهرية للنيل ، وتقوم هذه المراكب بنقل حاصلات البلاد من مكان إلى آخر ، كما اشتهرت بصناعة السفن الحربية التي تألف منها الأسطول المصري ، أو الأسطول المصري الشامي . وكانت سفن الأسطول تشحن بالأسلحة والمقاتلين لغزو بلاد البيزنطيين عن طريق الاسكندرية ودمياط وتنيس شمالي بحيرة المنزلة والفرما شرقي هذه البحيرة ، ويرجع إنشاء هذه الصناعة أي صناعة بناء السفن الحربية إلى الغزوة التي شنها البيزنطيون على البرلس ، وتكبد فيها المصريون خسائر فادحة بالأرواح والممتلكات وما تبع هذا الغزو من استيلاء على تنيس عام (١٠١) هجرية .

في عام (٢٣٨) هجرية حاول البيزنطيون مهاجمة دمياط فقام عنبسة بن اسحاق والي مصر في ذلك الوقت بتحصين سائر الموانىء المصرية ، وفي عهد ابن طولون بنت مصر أسطولاً كبيراً من السفن الحربية ، وظل هذا الأسطول قوياً حتى فتنة عام (٣٢٣) هجرية ، التي قام بها ثائرون فأحرقوا

دور الصناعة، واستولوا على الأسطول الحربي المصري، ومن ثم استخدموه في هربهم إلى الاسكندرية وإلى برقة.

وفي أيام الفاطميين كانت بيزنطة تهدد بشكل عام مرافىء وثغور بلاد الشام والتي كانت تابعة آنذاك لمصر، وقد حصل أن قامت بيزنطة بالاستيلاء على بعض المدن الهامة مثل حلب وانطاكية، فقرر الحاكم الفاطمي المعز لدين الله بناء أسطول حربي ضخم ليصد به هجمات الروم وليقوم بدوره بمهاجمتهم في عقر ديارهم.. وبالفعل فقد أنشأ هذا الحاكم داراً لصناعة السفن بنى فيها ستماية سفينة قوية وأوكل هذه السفن إلى عشرة قادة كبار على رأسهم قائد القوات ولم يزل هذا الأسطول القوي محل عناية الفاطميين حتى قام النزاع بينهم وبين الصليبيين فأمر شاور وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بإحراق مدينة الفسطاط ليحول دون وصول العدو كما أحرق سفن الأسطول.

مما يذكر عن اهتمامات الخليفة الحاكم الفاطمي إلى جانب بنائه للأسطول وتعزيز قوته أنه اهتم أيضاً بالعلوم البحرية وخاصة علم النجوم وأثره في الملاحة البحرية، حتى إنه أنشأ مرصداً بسفح جبل المقطّم أطلق عليه اسم «الرصد الحاكمي» وقد نبغ في زمانه من العلماء أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي حيث اشتغل بعلم النجوم وبرز بها ومن أشهر كتبه:

كتاب المدخل الكبير، وكتاب المدخل الصغير، وهيئة الفلك واختلاف طلوعه، وكتاب الأمطار والرياح، وتغيير الأهوية، وقد وضع أبو عبد الله محمد بن جابر التباني الحراني ويعرف عند الأوربيين باسم ابتانجيوس Obbatengius كتاب الزيج الصافي الذي أثبت فيه الكواكب الثابتة عام (٢٩٩) هجرية. وقد بلغ الاهتمام برصد الكواكب غايته في القرن الرابع الهجري، وقد قيل إن شرف الدولة بن عضد الدولة (٣٧٦ ــ ٣٧٩) هجرية لما استقرت قدمه في العراق أمر بأن ترصد الكواكب السبعة في سيرها وتنقلها في بروجها على غرار ما كان الخليفة المأمون يفعل.

التجـــارة

إن عناية خلفاء العصر العباسي ببناء الأساطيل لحماية الثغور والسواحل من إغارات لصوص البحر، وكذلك بناء الموانىء والمنائر لإرشاد وإيواء السفن كان له أكبر الأثر في نشاط التجارة الخارجية، فأصبحت سفن المسلمين تمخر عباب البحر، ووصلت إلى المكانة الأولى في التجارة العالمية. وكانت الاسكندرية وبغداد مقياساً لأسعار البضائع العالمية في ذلك الحين، وكان من أشهر طرق التجارة بين الشرق والغرب:

١ ــ من الغرب إلى الشرق عن طريق مصر ، ويقوم به غالباً اليهود المقيمون في الغرب ، ويفدون من مقاطعة بروفانس بجنوب فرنسا ، ويسميهم المسلمون في ذلك الحين تجار البحر ، أو اليهود الراذانية ، نسبة إلى نهر الرون ، ويتكلمون العربية والفارسية والرومية والفرنسية والصقلية ، ويجلبون من الغرب الجواري والغلمان والديباج والجلود والفراء والسيوف ، ويبدؤون رحلاتهم التجارية من بروفانس التى يسميها العرب « فرنجة » ، وترسو سفنهم عند الفرما ، وكانت تعد من أهم الموانيء التجارية في ذلك الحين . ثم يحملون هذه السلع على دواب الحمل إلى القلزم ، وهي مدينة السويس الحالية ، أو إلى الاسكندرية التي كانت ملتقى التجارة العالمية ، وتنقل البضاعة عبر البحر الأحمر مارة بموانئه الهامة مثل جدة وعدن حتى تصل السفن إلى الهند والصين ، ويحمل التجار في طريق العودة سلع المشرق كالمسك والكافور والعود ، والدارصيني ، فإذا وصلوا إلى القلزم اتجهوا إلى الفرما أو الاسكندرية ، ومنها إلى بروفانس ، وأحياناً يقصد بعضهم القسطنطينية .

٢ ــ ن أوربة إلى المشرق عن طريق انطاكية ، ويبدأ تجار اليهود الراذانيون من بروفانس بحراً إلى انطاكية ومنها إلى الفرات حتى بغداد ، ثم يركبون دجلة والفرات وجداولهما حتى بناء الأيلة ثم إلى عُمان فالهند والصين .

٣ ــ من بلاد الروس الشمالية إلى المشرق عبر بحر قزوين ، ثم إلى مرو ، فبلخ ، فبخارى ، وسمرقند في بلاد ما وراء النهر ، ومنها إلى الصين . ويحمل هؤلاء التجار معهم الجلود المدبوغة وفرو الثعالب ، والسيوف والشمع والعسل .

كان لاستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر وعلى المغرب ، ثم على الأندلس وصقلية أثر كبير في اتساع التجارة ورواجها ، ولعب بعض العرب دور الوسطاء في نقل التجارة بين الشرق والغرب ، واتسعت بعض المدن الساحلية ، كمدينة انطاكية التي حصنها الخليفة المعتصم حتى أصبحت مرفقاً مهماً من مرافق بلاد الشام ، كما لعبت دوراً كبيراً في عمليات الاتصال بين الشرق والغرب ، وإلى الجنوب غدت الفرما والاسكندرية من المراكز التجارية الهامة حيث تنقل عبرهما البضائع الآتية من أوربة إلى البحر الأحمر أو على العكس ، وكانت السفن بعد إقلاعها من الاسكندرية ترسو أول الأمر في ميناء برقة ، ومن طرابلس نرى سلسلة من الموانيء التجارية الهامة تمتد حتى المغرب الأقصى ، وكانت المهدية التي أنشأها الخليفة الفاطمي المهدي أكثر هذه الموانىء ازدهاراً لقربها من مدينة

القيروان ، حتى كانت السفن تفد إليها تباعاً من موانيء مصر وسوريا محملة ببضائع آسيا دون انقطاع .

كانت إيلة والقلزم وجدة من أهم موانىء البحر الأحمر . وجدة تعتبر محطة حجاج المسلمين ، كذلك اشتهرت عدن بالتجارة لوقوعها على مقربة من مدخل البحر الأحمر ، وكذلك كانت البصرة لأنها تعد باب بغداد الكبير ، ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المحمولة من أطراف الدنيا .

الفصل الثاني

النشاط البحري
خلال الحملات الصليبية

لا بد قبل الدخول في سرد النشاطات البحرية التي تمت إبان الحروب الصليبية من ذكر تلخيص سريع لأسباب هذه الحروب ونتائجها :

تطلق الحروب الصليبية على الحملات التي وجهها مسيحيو أوربة إلى الشرق من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري . **وغرض هذه الحروب للوهلة الأولى الاستيلاء على بيت المقدس ..**

وقد اتصفت هذه الحروب في بدايتها على الأقل بصفة دينية بحتة ، سرعان ما تبدلت هذه الصفة إلى صفة سياسية توسعية استعمارية . ومن أهم الأسباب التي دفعت المسيحيين الأوربيين إلى خوض غمار هذه الحروب هي :

١ ــ ظهور السلاجقة في بلاد الأناضول وآسيا الصغرى ، بعد انتزاع بيت المقدس عام (٤٧١) هجرية من الفاطميين ، وتهديد القسطنطينية ، وكذلك تهديد طريق حج المسيحيين للأماكن المقدسة .

٢ ــ تعلق المسيحيين الأوربيين بدينهم تعلقاً تعصبياً خلال العصور الوسطى واعتقادهم أن الحج إلى بيت المقدس يؤدي إلى غفران الذنوب والسعادة الأبدية والصوم ، والتقشف على الأرض

التي وطئها السيد المسيح ، وثواب قتال المسلمين أو الكفار (على ما كان يعتقد المسيحيون في ذلك الوقت) لتخليص الأماكن المقدسة من بين أيديهم هو الثواب الأكبر .

٣ ــ الروح الحربية التي اتصفت بها الكنيسة آنذاك ، ويرجع ذلك إلى دخول العناصر المتبربرة في الدين المسيحي واحتفاظها بنزعتها القتالية ، وإلى رغبة الكنيسة في بسط نفوذها على الشرق ، وتأسيس ما يسمى بالمستعمرات اللاتينية فيه ، وبسط السيطرة أيضاً على جميع العالم المسيحي ، ليكون تحت سلطة حكومة دينية واحدة ، رئيسها البابا (متأثرين بنظام الخلافة عند المسلمين ، ومنزعجين لانفكاك الكنيسة الشرقية) . أضف إلى ذلك الروح التي كانت سائدة بين الفرسان والأشراف ، وميلهم للحروب والمخاطر ، ورغبتهم بتكوين أمارات في الشرق ، الأرض التي طالما شدتهم بعجائبها وغرائبها وحكاياتها .. ورغبة الرقيق بالتخلص من نظام الاقطاع ، أو رغبة المدين بالتخلص من ديونه ، أو مخطىء من محاكمه ، أو مجرم من جريمة ، أو زوج مضطهد من زوجة .

٤ ــ انتصار البابوية على الإمبراطورية ونفوذها على أوربة الغربية .

٥ ــ رغبة المدن التجارية الساحلية الأوربية كالبندقية وجنوة وبيزا وزارا مد نفوذها ونشر تجارتها في الشرق .

٦ ــ انقسام وضعف دولة السلاجقة عقب موت السلطان ملكشاه ، وضعف دولة الفاطميين في درء خطر المسيحيين على سواحل مصر والشام .

٧ ــ قيام المدن الإيطالية وتغلب قواتها البرية على قراصنة البحر الأبيض المتوسط من العرب ، واحتلال النورمانديين جنوب إيطاليا وصقلية ، مما سهل على الصليبيين عبور المتوسط إلى سواحل فلسطين .

٨ ــ تحول المجريين وقسم من سكان صربيا وكراوتيا إلى المسيحية ، ومعنى ذلك انفتاح الطريق البري بين أوربة والمشرق العربي .

الحرب الصليبية الأولى

على أثر إعلان الدعوة إلى الحروب الصليبية اجتمعت طبقة من الغوغاء ، وساروا في غير نظام ولا استعداد ، تحت قيادة بطرس الناسك ، يودون تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين . فجعلوا ينهبون البلاد التي مروا بها ، مقترفين في طريقهم أبشع الجرائم ، حتى أدى الأمر إلى قيام سكان المجر وسكان بيزنطة في وجههم . ولما وصلوا إلى القسطنطينية رأى

الإمبراطور اتقاءً لشرهم مد يد المساعدة لهم، وتسهيل عبورهم إلى آسيا الصغرى، والتقدم إلى «نيقيا»، حيث لقيهم السلاجقة هناك وأعملوا فيهم السيف حتى أفنوهم عن بكرة أبيهم. وكان ذلك عام (٤٨٩) هجرية و (١٠٩٦) ميلادية. في هذه الأثناء كان الاستعداد للحملة الصليبية الأولى قائماً وقد أشرف البابا بنفسه على تنظيم الحملة، وأعطى قرار بدء المسيرة، وحدده بتاريخ ١٥ آب من عام (١٠٩٦)، وأن يكون مركز تجمع الجيوش خارج أسوار القسطنطينية. وعهد بزعامة هذه الحملة إلى عدد من أشراف فرنسا وقادتها.

عبر الصليبيون البوسفور وحاصروا مدينة «نيقيا»، ثم تقدموا إلى دوريليم حيث هزموا جيوش أرسلان.. وهنا اختلف عدد من قادة الحملة على أوليّات العمل، وانسلخ بلدوين وأسس إمارة لاتينية.. وتخلف عن الحملة في حين زحف الباقون على انطاكية، وبعد تسعة أشهر من الآلام وتكبد المصاعب سقطت المدينة أمام المهاجمين المستعمرين فدخلوها عنوة عام (١٠٩٨) ميلادي، ومثلوا بأهلها أشنع تمثيل، وقتلوا من سكانها ما يزيد عن عشرة آلاف.. ثم استأنفوا الزحف إلى بيت المقدس، ودخلوها عام (١٠٩٩) ونفذوا مذبحة شنيعة قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً، ثم أخذ الصليبيون باحتلال مدن فلسطين الساحلية بمعاونة أساطيل المدن الإيطالية بحراً، واستولوا على عكا وصور وكان من نتيجة الحرب الصليبية الأولى تكوين أربع أمارات لاتينية في الشام هي:

- بيت المقدس ويحكمه جودفري ثم أخوه بولدوين من بعده.
- انطاكية.
- طرابلس.
- الرُّها.

ووصل إلى فلسطين كثير من الغربيين، وقامت عدة جمعيات دينية أهمها طائفة فرسان المعبد، وفرسان القديس حنا، وأقاموا القلاع والضياع والحصون في أوربة وآسيا.

الحرب الصليبية الثانية

في عام (٥٣٩) هجرية أو (١٤٤٢) ميلادية تقدم عماد الدين عامل الموصل والعراق من قبل العباسيين فاستولى على الرُّها، وهدد كلاً من انطاكية وبيت المقدس، ففزع الفرنجة، وطلبوا معونة دول أوربة فجاء لويس السابع ملك فرنسا، وكنراد الثالث إمبراطور ألمانيا بعد عدة شهور، ووصلوا إلى بلاد الشام عن طريق البحر، وحاولوا الاستيلاء على دمشق، ليسيطروا على الطريق

الداخلي الموصل إلى بر الشام الجنوبي. غير أن قوات عماد الدين الزنكي أحاطت بالحملة الصليبية من كل جانب تحت قيادة ابنيه سيف الدين والي الموصل، ونور الدين والي حلب، فقتل خلق كثير من الصليبيين وتقهقروا نحو الساحل، وفر كنراد إمبراطور ألمانيا وعاد إلى بلاده، ثم تبعه ملك فرنسا بعد قليل واستولى نور الدين الزنكي على دمشق عام (٥٤٩) هجرية لأن أميرها كان موالياً للصليبيين ثم استولى على حلب وعلى كل الولايات اللاتينية في بلاد الشام.

الحرب الصليبية الثالثة

فكر الصليبيون في إرسال حملة لغزو مصر وأغاروا على بلبيس فاستنجد الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين، فأرسل له أسد الدين شيركوه على رأس جيش كثيف من التركمان، وهنا خلف صلاح الدين الأيوبي ابن أخ أسد الدين في الوزارة وأزال الخلافة الفاطمية، وامتد سلطانه حتى حلب والموصل، بعد وفاة نور الدين، وأصبح الصليبيون محاصرين بين قوات صلاح الدين من كل جانب، وقام القائد العربي فحرر الكثير من القلاع والحصون وفتح بيت المقدس. وانتهت حروبه مع الحملة الصليبية الثالثة بعقد صلح الرملة بينه وبين ريتشارد قلب الأسد عام (٥٨٨) هجرية (١١٩٢) ميلادية وأصبحت أرض فلسطين محررة، وعادت إسلامية، ماعدا الجزء الضيق الذي يقع بحذاء الساحل ويمتد من صور حتى عكا.

الحرب الصليبية الرابعة

اتفق البابا انوسنت الثالث مع الدوق داندولو رئيس جمهورية البندقية على إرسال الحملة الرابعة بعد أن يمد هذا الأخير الحملة بالسفن والمؤن. واستطاع البابا جمع عدة آلاف من الفرسان، وعرض عليهم (الدوج) ملك البندقية وكان رجلاً مسناً ذا مكر ودهاء، الاشتراك معه في إخضاع مدينة زارا الإيطالية الواقعة على بحر الادرياتيك، تنفيذاً لأغراضه التجارية.. وقام أهل البندقية بنقل الحملة على سفنهم إلى مصر وكانت أهم مراكز القوى الإسلامية في ذلك الحين، ولما كانت مصر ذات علاقات تجارية مع البندقية رأى الدوج أن يحوّل الصليبيين عن غرضهم الأصلي، وعرض عليهم مهاجمة القسطنطينية لضغينة في نفسه.

رحب الصليبيون بغزو هذه العاصمة الغنية غير مبالين بتهديد البابا لهم بحرمان زعمائهم من رحمة الكنيسة، فتحولوا إلى القسطنطينية واستولوا عليها ثم دمروها ونهبوا ما فيها، وحطموا التماثيل والتحف ثم اقتسموا البلاد فيما بينهم، ثم أنشؤوا فيها ما عرف باسم الإمبراطورية اللاتينية.. أما

الحملات الصليبية التي تلت فلم تكن ذات أهمية من حيث نتائجها ، لأنها أصبحت حملات نهب وسلب غايتها الكسب المادي .. وبرز الانحراف واضحاً بالابتعاد عن الغرض الديني الذي قامت الحروب الصليبية من أجل تحقيقه .

وهكذا انتهت الحروب الصليبية بطرد الصليبيين من المشرق وانتصار المسلمين انتصاراً كاسحاً أعاد للعرب المسلمين أمجادهم الغابرة .

آثار الحروب الصليبية ونتائجها

للحروب الصليبة نتائج هامة سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة ولا سيما في البلاد التي قامت على أرضها هذه الحروب ومن هذه النتائج التالي :

١ ــ حمت الحملات الصليبية الدولة البيزنطية وحالت دون استيلاء السلاجقة عليها .

٢ ــ حمت الحملات الصليبية دول أوربة الوسطى إذ حالت دون إغارة السلاجقة على هذه الدويلات الضعيفة ، فأوقفت المد الإسلامي في أوربة آنذاك .

٣ ــ قوت مركز البابا ، ومدت في عصر نفوذ الكنيسة على حكام أوربة .

٤ ــ ساعدت في ظهور جماعات الرهبان الحربيين المقاتلين .

٥ ــ أضعفت نظام الإقطاع .

٦ ــ أقامت طائفة أشراف جديدة ، حلت محل النبلاء .

٧ ــ أزالت بعض الفوارق الطبقية ، وظهرت الطبقات الوسطى من العمال والأحرار .

٨ ــ بثت روح الاتحاد بين الأوربيين وعززت نظام القوميات .

٩ ــ نقلت الكثير من مظاهر حضارة المسلمين إلى أوربة ، وكذلك الكثير من العلم والمعرفة .

١٠ ــ ساعدت على تنشيط حركة الملاحة لزيادة السفن التجارية والحربية التي قامت بنقل الجيوش الغازية للشرق .

١١ ــ ساعدت على استيلاء المسيحيين على بعض موانىء الشام ، وفتح أبواب التجارة بين الشرق والغرب ، وأتاحت الفرص للغربيين في نمو ثروة أوربة وفي تقدمها وازدهارها الصناعي .

الفصـــل الثـالـث

تطـور البحـريـة الحربيـة في العصـر العبـاسـي الثـانـي

يقول فون كريمر :

« يتضح لنا أن الأسطول العربي القديم كان نموذجاً لأساطيل الأقطار المسيحية، وان كثيراً من الاصطلاحات العربية البحرية لا تزال شائعة على ألسنة البحارة في جنوبي أوربة ونذكر منها كلمة كابل Cable المأخوذة عن لفظة حبل العربية وكلمة أرسونـال Arsenal وبالإيطاليـة دارسونالِ Darsonal المأخوذة عن لفظ دار الصناعة بالعربية وكذلك كلمة كورفيت Corvette المأخوذة عن لفظة غراب العربية » ...

كان مصدر صناعة السفن الحربية في العصر العباسي الثاني دور الصناعة والموانىء الإسلامية الموزعة بين مصر وسورية والتي جهزت الأسطول المصري السوري المشترك، وكانت هذه السفن تشحن بالأسلحة والمقاتلين، لغزو بلاد الدولة الرومانية الشرقية، عن طريق الاسكندرية ودمياط والفرما وطرابلس وعكا وطرسوس وانطاكية، وقد اشتهر أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية بإنشاء المراكب الحربية، وجعل لها حول جزيرة الروضة أحواضاً كانت تعرف باسم « صناعة الجزيرة »، وظلت صناعة السفن بجزيرة الروضة حتى نقلها محمد بن طفيح الأخشيدي إلى فسطاط في المصنع المعروف باسم « صناعة السفن » . وقد اهتم الفاطميون ببسط سيادتهم على البحر الأبيض المتوسط، لأنهم كانوا يقدرون أثر العامل البحري في قضية النضال بين الإسلام والمسيحية، لذلك عنوا بإنشاء الموانىء البحرية المحصنة، فأسسوا مدينة المهدية، واتخذوها قاعدة لأسطولهم، كما حرصوا

على الاستيلاء على بعض القواعد البحرية الهامة، لتثبيت سيادتهم على البحار. فاستولوا على صقلية، واتخذوا من موانئها قواعد يغيرون منها على موانىء بلاد الروم. وكانت آخر إغارة لهم عام (٣١٦) هجرية. وقد استهدفوا لمبارديا وكالابريا، واستولوا على مدينة تارانت، وحاصروا نابولي ودخلوا جنوة سنة (٣٢٣) هجرية، ثم أغاروا على جزيرة سردينيا ودمروا أساطيل الفرنجة. ثم استولوا على جزيرة قرسقة (كورسيكا)، وغنم الفاطميون بذلك بلاداً ذات قيمة استراتيجية عظيمة، وبذلك رجحت كفتهم في حوض البحر الأبيض المتوسط، وعلا شأنهم في العالم الإسلامي.

ولقد اتبع المعز لدين الله الفاطمي ومن جاء بعده من الخلفاء بناء مراكب حربية كبيرة، وأكبر من المعتاد. وأرسل هذه السفن لترسو في موانىء بلاد الشام كعكا وصور وعسقلان، كوسائط دفاع، وتدخل سريع ضد غزوات الغرباء خصوصاً عند ازدياد تهديد بيزنطة لبلاد الشام، واستيلائهم على أمهات المدن مثل انطاكية، ولقد وصف المؤرخ المسيحي هذه السفن عام (٤٢٠) هجرية فقال:

«إنه لم ير مثلها (يعني السفن) فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسناً».

بعد أن انتقلت السلطة إلى صلاح الدين الأيوبي عام (٥٦٧) هجرية اهتم بأمر الأسطول اهتماماً كبيراً، خصوصاً في محاربة الصليبيين وصدهم عن موانيء الشام. وخصص له ديواناً عرف باسم «ديوان الأسطول»، وأقر له ميزانية ضخمة تصرف لأموال الأسطول، وعهد بهذا الديوان إلى أخيه الملك العادل.

أما في المغرب العربي فقد كان للمرابطين في عهد يوسف بن تاشقين أسطول صغير يتألف من سفن تنقل الجند من المغرب إلى الأندلس بأعداد كبيرة، ولقد ارتقى شأن الأسطول المرابطي في عهد علي بن يوسف، وأظهرت وحداته نشاطاً ملحوظاً في البحر الأبيض المتوسط، ويؤيد هذا ما ذكره الإدريسي:

«من أن أحمد بن عمر كان والياً على جملة من أسطول أمير المؤمنين علي بن يوسف».

ومن ثم نرى الأسطول يصبح ضخماً، وينقسم إلى أقسام أو مجموعات عمل وتدخل سريع، كالمجموعات التعبوية في وقتنا الحاضر، وقد انتصر هذا الأسطول على أساطيل الفرنجة في فتوح بلانسية وجزر البليار، واشتهر من أمراء البحر عليه علي بن ميمون، الذي ذكر له التاريخ البحري

جولات بحرية رائعة على سواحل الأندلس وإيطاليا وفرنسا، ولما انتقل الحكم إلى الموحدين تفوقت قوتهم البحرية حتى ذكر المؤرخون أن أسطول الموحدين بلغ أكثر من أربعمائة سفينة، كانت ترسو على جميع سواحل البلاد موزعة إلى مجموعات، مجموعة المهدية ويبلغ عددها (١٢٠) سفينة، ومجموعة لكل من سبتة وطنجة والريف، تزيد كل واحدة عن مائة سفينة. وهناك مائة سفينة في الثغور البعيدة من سواحل إفريقية كتونس ووهران، وبحدود (٨٠) سفينة بالأندلس وجبل طارق.

لقد تجلت عظمة الأسطول الموحدي منذ عهد عبد المؤمن بن علي، ثم تضاعف عدد هذا الأسطول، وعظم شأنه في عهد ابنه يوسف بن عبد المؤمن، وأثبت جلادة وبأساً خلال المعارك البحرية التي وقعت بين الموحدين والقطلونيين (سكان كاتالونيا) على مقربة من طرطوشة في بلاد الأندلس، وفي موقعة المهدية التي كان يحتلها النورمانديون أصحاب صقلية، وتغلب الموحدون بقيادة أمير البحر عبد الله بن ميمون على أسطول النورمانديين، الذي كان يزيد عن مائتي سفينة فأغرقوا وأحرقوا أكثر سفنهم.

إن من أهم مناهج الدراسة والتدريب البحري واستعمال السفن على اختلاف أنواعها وكذلك أساليب الحصار البري والبحري ما أنشأه الموحدون قرب مدينة مراكش. إذ أقاموا هناك مركزاً عملياً للتدريب باستخدام بحيرة وضعوا فيها القوارب والسفن الحربية الصغيرة، على أساس أنها سفن تدريب يأتيها الطلاب وقادة السفن الأحداث يتدربون على التجذيف واستخدام الأشرعة، وقيادة السفن المختلفة والقيام بالمناورات الحربية المختلفة من اقتراب والتحام واقتحام ثم القتال بحراً باستخدام مختلف أنواع الأسلحة، وكل ما يتعلق بالفنون الحربية البحرية.

التجارة البحرية

بدا المحيط الهندي ذاخراً بالتجار المسلمين يجوبونه وقد اعتادوا رحلاتهم إلى جنوب الهند وجزيرة سيلان وحتى بر الصين، وكان التجار يبادلون السلع التي يحملونها من الشرق مع سلع الهند الصينية وتايلاند وشبه جزيرة الملايو، كما انفتحت أمامهم أسواق جزائر الهند الشرقية المعروفة حالياً بإندونوسيا ولا سيما مع جزيرتي جاوا وسومطرة، وقد حافظوا على المركز الأول وسادوا المحيط الهندي بلا منازع من القرن السابع وحتى القرن السادس عشر الميلادي.

كانت العلاقات التجارية بين أوربة وآسيا تعتمد على السلع التي يحملها العرب إلى سواحل الخليج العربي والبحر الأحمر، وقد أنشأ العرب مراكز تجارية قبل المراكز التي أنشأتها أوربة، فكانت

لهم عدة مراكز في فاليقوط وساحل بليار وملقا. وأقاموا علاقات مع بلاد الفيليبين وسيام، ثم استقروا في عدة ثغور من هذه البلاد حتى قيل بأن مستعمرة عربية قد أقيمت في مدينة كانتون، تسكنها جالية عربية كبيرة.

لم تكن التجارة البحرية مقصورة على العرب أو الفرس وحدهم، بل إن أهل البلاد التي كانوا يقصدونها يردون الزيارات. وبدأت السفن الهندية تصل إلى شرقي القارة الإفريقية وإلى سواحل بلاد العرب، كما وصلت سفن بلاد مالايو وجاوا ومدغشقر ووصلت سفن الصين بدليل أن كثيراً من العملة الصينية القديمة والتي ترجع إلى القرن الثاني الهجري قد عثر عليها في ساحل إفريقية.. وتتحدث بعض الكتب الصينية التي ترجع إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر عن زنجبار، وعن أهلها من العرب الذين يرتدون العباءات الزرقاء المصنوعة من القطن، وينتعلون النعال الحمر...

من هنا وبهذا الأسلوب وجدت سلع الهند طريقها إلى أوربة وآسيا. وأهم هذه السلع، العاج من الهند، والذهب من مناجم جنوبي إفريقية، والخشب من زنجبار. ولا ننسى تجارة الرقيق التي كانت تعد السلعة الأولى في تلك الأيام.

نزح التجار العرب إلى شرقي إفريقية، وأسسوا إمبراطورية عربية نشرت نفوذها على الساحل الشرقي لهذه القارة. وقد حاول بعضهم شق طريقهم إلى بلاد الحبشة وانتشروا على حدودها الشرقية. وكان هؤلاء يفدون عن طريق بلاد اليمن وحضرموت والبحرين ومصوع وزيلع وبربرة وزنزبار ومدغشقر. وأخذ الإسلام طريقه معهم في بلاد الحبشة والصومال، ليس عن طريق الغزو بل عن طريق التجارة. ومن هناك نفذ الدين الإسلامي إلى نياسالاند وكينيا وأوغندة وتنجانيقا، وإلى أقصى جنوبي القارة الإفريقية ويمكن تلخيص المسالك التي انتشرت منها التجارة إلى القارة الإفريقية كما يلي:

١ ـــ طريق شمالي إفريقية، مصر، برقة، طرابلس، تونس، المغرب، السوس الأقصى إلى مصب السنغال، ويتبع هذا الطريق البري طريق بحري من ثغور الشام ومصر إلى ثغور المغرب الأقصى (مراكش).

٢ ـــ طريق مختلط بري بحري من جنوبي بلاد العرب إلى ساحل إفريقية الشمالية. وقد كان لاختراع البوصلة البحرية التي تهتدي بها السفن أثر كبير في اتساع نطاق تبادل السلع، وتمهيد السبيل أمام الرحالة والمكتشفين. ويرجع الفضل في اكتشاف هذا الجهاز إلى البحارة الصينيين. ولم تعرفه أوربة إلا في مطلع القرن السادس الهجري أي الثاني عشر الميلادي، وهذا

يعني قبل كريستوف كولومبوس عام (١٤٩٢). وقد ذهب ابن عذارى المراكشي في كتابه أخبار المغرب إلى أن اختراع البوصلة كان في القرن الحادي عشر الميلادي.

مراكز التجارة

وصلت مدينة انطاكية إلى الموقع الأول في التجارة البحرية فكانت صلة الوصل بين الشرق والغرب، وتعد من أهم مرافق بلاد الشام التجارية، والمرفأ الشرقي للعالم العربي الإسلامي. أما الفرما والاسكندرية فهما المركزان المهمان في أواسط المتوسط. واشتهرت الاسكندرية بالذات بنقل حجر الرخام، وكانت من أهم مراكز صناعة الصابون والاتجار بالزيوت.. تأتيها المراكب من كل حدب وصوب، لتقلع منها محملة بالبضائع إلى ميناء برقة، ومن برقة إلى المهدية ووهران وسبتة وطنجة. وهناك تتجه إما إلى سواحل إسبانيا الغربية أو سواحل إفريقية الغربية.

كانت الفسطاط عاصمة الفاطميين التجارية في أرض مصر. وقد وصفها المقدسي في «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» بقوله «ناسخ بغداد، ومفخر الإسلام، ومتجر الأنام، وأجل من مدينة السلام (بغداد) خزانة المغرب ومطرح الشرق، أهلّ من نيسابور وأجلّ من البصرة»، وكانت أسواقها منسقة نظيفة تصطف فيها الدكاكين العامرة بمختلف السلع الواردة إليها من بلاد الشام والموصل وغيرها من بلاد المشرق، ومن ثم مدينة دمياط، ثالثة الثغور على الساحل المصري. وقد أصبحت مركزاً هاماً في صناعة النسيج ومركزاً شهيراً في بناء السفن التجارية والحربية، ولعبت دوراً هاماً إبان الصراع العربي المسيحي في الحروب الصليبية.

برزت عيذاب على البحر الأحمر كمركز تجاري هام، عندما استولى الصليبيون لفترة من الزمن على أيلة الواقعة على مدخل خليج العقبة. وقد ذكر ابن جبير أن أهل عيذاب جمعوا ثروة كبيرة من السفن التي كانوا يمتلكونها، وكانوا يحترفون التجارة، وينقلون الحجاج، ويقومون بصيد اللؤلؤ. كذلك برزت أسوان كثغر هام للتجارة في بلاد النوبة. وكانت مراكب الحجيج تسير شرقاً إلى جدة، ميناء الحجاز، ومن هناك تستأنف سيرها إلى سواحل الهند والصين، ثم تعود محملة بالبضائع إلى عيذاب.

كانت مصر وسورية في عهد الفاطميين (٣٥٨ — ٥٦٧) هجرية ترتبطان بعلاقات تجارية مع كثير من البلدان الأوربية، فكان مثلاً تجار مدينة «أمالغي» الإيطالية يجلبون المنسوجات الحريرية من بلاد الشام، ويجلبون الصناع المهرة من مصر. وكان لأهل أمالغي حي خاص بهم في مدينة

انطاكية ، ولهم الكثير من الفنادق والخانات ، أما مراكب البندقية فقد كانت تشق طريقها إلى موانىء بلاد الشام ، لتحمل الحجاج المسيحيين إلى يافا وعسقلان . وكانت الدولة البيزنطية وبرغم سوء علاقاتها مع مصر والشام بحاجة إلى المصنوعات المصرية والأقمشة الشامية والفرو الوارد من بلاد الروس . فكانت السفن التجارية تأتي إلى الثغور العربية ، لنقل البضائع بعد أن تكون قد عرجت على موانىء صقلية لتحمل الحبوب والفواكه والمعادن .

كان من أثر تقدم المسلمين في علم الملاحة أن أخذ الشرق الإسلامي يتصل ببلاد الأندلس . وأدى هذا الاتصال إلى تمتين العلاقات التجارية بين البلدين من جهة ، وبينها وبين الدول الأوربية من جهة ثانية . وكانت السفن التجارية التي ترسو في موانىء اشبيلية ومالقة تنقل إلى جميع موانىء البحر الأبيض المتوسط محاصيل الأندلس ، ومنتجات مصانع المدن الأندلسية والمغربية ، وأشهر هذه المنتجات أغطية جنجالة ، وسجاجيد بسطة ، وفراء سرقوسطة ، وأواني وخزفيات مالقة ، وجلود وحلي قرطبة ، وأسلحة وسيوف طليطلة ، وورق مالقة السميك ، وكذلك الرخام الوارد من إيطاليا أو من بلاد المغرب .

يذكر البكري أن برقة كانت تصدر اللحوم والذبائح والصوف والعسل والقطران . وأن السفن التجارية التي تؤمها كانت غالباً آتية من السودان وغانة وحوض السنغال ونهر النيجر . وكانت تحمل في عنابرها منتجات إفريقية السوداء من تبر ، وجلود ، وعاج . وكانت المغرب على علاقات تجارية واسعة مع دول إفريقية الوسطى وبالذات منهم مملكة غانة التي قال فيها الشريف الإدريسي في كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » :

« غانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو (يقصد نهر النيجر) ، وهي أكبر بلاد السودان (كل بلاد السود كانت سودان) قطراً ، وأكثرها خلقاً ، وأوسعها متجراً ، وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ، ومن سائر بلاد المغرب الأقصى ، وأهلها مسلمون ، وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ... الخ .. » .

« وقد جاءت عظمة غانة عن طريق اشتغالها بالتجارة ، لأن موقعها عند أطراف الصحراء الكبرى أعطاها أهمية تجارية واسعة ، وكان التجار العرب والبيض المستعمرون فيها يتحكمون في تجارتي الذهب والرقيق ، يبادلونها بالسلع الآتية من المشرق ، كملح الطعام والنحاس ، والفواكة المجففة ، وكانت تصدر إلى غربي أوربة ... » .

الباب الثالث

تاريخ البحر
في العصور الوسطى
وحتى الاكتشافات الكبرى

الفصــــل الأول

العصـور الوسطى في الغـرب

الاجتياحات البربرية

انهار عالم روما واندثر نظامه أمام هجمات البرابرة الغزاة الذين قدموا على دفعات عدة، وتسرَّبوا إلى داخل الإمبراطورية، حيث استقروا فيها إبان عصر الإمبراطورية الرومانية الزاهر. وكان أن شكلت روما من هذه الشعوب قوات خاصة تساعد الجيش الروماني النظامي، وتقوم بمهام الدفاع عن حدود البلاد البعيدة. وعندما تحررت هذه القوات من الخدمة، تمركزت وأقامت في بقاع عدة من بر الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف، وأقامت مجتمعات خاصة بها، في ظل الحماية والاستقرار اللذين قدمتهما روما لهم، فاندمجوا في ظل حضارة متقدمة، وتزاوجوا مع السكان الأصليين، وأقاموا مخيمات في طول البلاد وعرضها. ومنهم من أقام مؤسساته ضمن أقاليم معينة. وأصبحت لهذه الأقاليم صفة مميزة وخاصة في جنوب أراضي الإمبراطورية.. ويبدو أن روما استوعبتهم لتأمن شرهم، إلا أن ذلك لم يدم طويلاً، إذ خلال القرن الثالث وبفعل فوضى حدثت فعمت البلاد ونفذت إلى القوات البربرية المسلحة شرع هؤلاء الدخلاء على الإمبراطورية يتحركون فقاموا بحركة مسلحة، وتركوا الحدود وعبروا إلى داخل البلاد، وهاجموا الإمبراطورية المضيفة لهم، واستولوا على عدة مدن، ونهبوها. ولما انتشرت أنباء تمردهم أخذت المدن الرومانية الأخرى تستعد وتتحصن للقائهم. وظلت هذه الفوضى التي اجتاحت البلاد قائمة وظل القتال وحصار المدن مستعراً حتى خرج من بين

صفوف الرومان القائد أورليان. وخلال الأعوام (٢٧٠ ــ ٢٧٥ م) سيطر شيئاً فشيئاً على الموقف، وأحبط حركات التمرد، إلا أن الأمر لم يستقر إلا خلال القرن الرابع الميلادي.

تزعزع الاستقرار في الإمبراطورية الرومانية ثانية عام (٤٠٦ م). إبان الغزو البربري الكبير، حيث تعرضت الحدود الغربية لهجمات شديدة، وتعرضت الإمبراطورية إلى موجات رهيبة من الغزاة، تتدفق بغزارة فتصل بلاد الغال وإسبانيا وشمال إفريقية. وبعبور آتيلا[١٤] الشهير عام (٤٥١) الذي لم يكن إلا إحدى موجات الغزو والدمار، ومشهداً من مشاهد الاجتياح الكبير، عمت الاضطرابات كل مكان في أرجاء الإمبراطورية، وحل الخراب في كل البلاد.. ولقد حاول زعماء الغزاة البرابرة في البدء احترام المؤسسات الرومانية.. ثم ما لبثوا أن تخلوا عن هذا الاحترام، وانجرفوا بعامل مشاعرهم الأصلية التي اعتادوها في الاستخفاف بالشعوب الأخرى، وتدمير مدنياتها، فأخذوا يتصرفون وكأنهم الولاة الحقيقيون للبلاد، وانتهى على أيديهم آخر إمبراطور روماني لعالم روما الغربي عام (٤٧٦ م) وسقطت روما، وانتهى عصر الفوضى، فوضى البرابرة، ليعقبه عصر اضطراباتِ المناطق السياسية، إذ بدأت الأقاليم تتحرك وتتفاعل تبعاً لنوعية أو أصل الغازي الجديد. وفي نهاية القرن الخامس تم اقتسام الإمبراطورية، وأصبحت مؤلفة على النحو التالي:

ــ كلوفيس في بلاد الغال على رأس مملكة الفرنكة بين (٤٨١ و ٥١١ م) Clovis.
ــ ويزيغوس Wisighoths وتمركز في مملكة إسبانيا.
ــ واستروغوس Ostroghoths وتمركز في إيطاليا.
ــ وشعوب الفاندال Vandalès وتمركزت في شمال إفريقية.
ــ والانكلو ساكسون في بريتانيا.
ــ وأخيراً اللومبارديون في شمال إيطاليا.

كان التقسيم الأكثر أهمية من جميع التوزيعات غير المستقرة التي شهدتها المنطقة هي في تجميع شعوب أوربة الحديثة، وتشكيل القوميات، فكل شعب ضمن حدوده التي رسمها لنفسه، بدأ يتفاعل سياسياً، وينتفض انتفاضات متتابعة، لتكوين مجتمعه القومي المتجانس. وأخذت تظهر ملامح خريطة جديدة تحترم حقوق القوميات ضمن تغيرات إقليمية واضحة ولشعب واحد يتكلم اللغة نفسها ويدين بالأصل والمنشأ نفسه، فنجد كيف أن الشعوب المُرَوْمَنَة التي كانت تشكل الأكثرية الساحقة في امتداد الإمبراطورية الرومانية تحافظ على لهجتها المحلية المنبثقة عن اللاتينية التي

هي أم لغات شعوب جنوب وغرب أوربة فنجد اللغات الإيطالية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والرومانية، كما نجد اللغات الجرمانية تذهب بذهاب الشعوب القديمة التي كانت تقطن البلاد والتي تعرضت لاجتياح الغزاة فتنحسر بعنف لضفة الرين الشمالية وبلاد سويسرا والالزاس والفلمنك وبلجيكا، ثم يأتي العنصر الثالث الكبير شعوب الانكلو ساكسون فيتوضع في شبه جزيرة بريتانيا الفرنسية وفي الجزر البريطانية دافعين بالسلت نحو كورنواي، وبلاد الغال وإيرلنده وايكوسيا وينضم قسم من هؤلاء السلت إلى سكان بريتانيا ومناطق الآرموريك ويمتلكونها فتصبح بلاد السلتيك.

اتصفت القرون الأولى من العصور الوسطى بصفة الإبهام، وتميزت بتراجع حاد للمدينة، فتقلصت حضارات عدة شعوب، واصطبغ الزمن بطابع العنف والاضطراب.. وحاول الرومان أو بقاياهم المحافظة على القانون لكن موجات الاجتياح العنيفة دمرت الكثير من مؤسساتهم ونظمهم، وجاءت بعادات وتقاليد دخيلة، تسربت إلى النظم الرومانية، وأصبحت تطبق في كل مكان حتى في أكثر الأماكن حفظاً وتطبيقاً للقوانين. وبدأت موجة واسعة من النظم تسيطر على العقول والأفكار، وتعطي بالتالي قوانين جديدة متطورة، ساهمت في تحديث المنطقة وتطوير شعوبها.

إمبراطورية شارلمان وتقسيم فردان

لم تتفكك الوحدة الرومانية بالكامل، ويرجع ذلك الفضل إلى بربري ذكي عمل على جمع أشلائها، أو بالأحرى أشلاء الجزء الغربي منها، وهذا البربري هو الملك المنحدر من أسرة كارولينا، هذه الأسرة التي حكمت مملكة الفرنكة منذ منتصف القرن السابع..

حقق هذا الملك إنجازاً عظيماً فأعاد تنظيم المملكة (٧٦٨ ـــ ٨٧٤) وكان لفتوحاته المظفرة أثر كبير في إعادة وتعزيز الوحدة بين كل من كاتالونيا ولومباردیا والساكس. وفي عام (٨٠٠) توج على روما إمبراطوراً تبعاً للتقاليد الرومانية القديمة وسمي بالإمبراطور شارلمان.

بعد شارلمان قسمت الإمبراطورية بين أحفاده المنحدرين من نسله. وبموجب اتفاقية فردان حصل شارل على غربي فرنسا وحتى نهر الرون، وحصل لويس الجرماني على البلاد الواقعة إلى شرق نهر الرين وشمال جبال الألب، أما لوثير فقد احتفظ بالشريط الطويل الممتد من أواسط إيطاليا وحتى شواطىء بحر الشمال، وتضم هذه المنطقة عاصمتين هامتين في ذلك العصر هما روما وايكس لاشابيل.. وظل هذا التقسيم يلقي بعبئه السياسي على أوربة الغربية حتى عصرنا الحاضر.. إلا أن مملكة لوثير لم تعمّر طويلاً. وكانت في الحقيقة مملكة مصطنعة تضم العديد من الشعوب والقوميات

المختلفة، فسرعان ما تفككت وانفصلت إيطاليا عنها، ثم ضمت لها الأراضي المحصورة بين نهر الرون وجبال الألب.. وشكل الباقي من المملكة مملكتين صغيرتين أطلق عليها المملكة اللوثيرية العليا والمملكة اللوثيرية السفلى. وبقيت هذه المناطق جميعها تتأرجح وتتفاعل إثر قتال امتد أجيالاً كان في الحقيقة قتالاً بين مملكة الفرنجة والإمبراطورية الجرمانية. وما استقلالية أقاليم كل من لوكمسبورغ وبلجيكا والأراضي المنخفضة حالياً إلا بقايا هذا النزاع الطويل.

نشوء النظام الإقطاعي

كان لا بد من تحول اجتماعي في عالم الإمبراطورية إثر تقسيم فردان. وبالفعل ظهر نظام الإقطاع. النظام الذي استمر عدة قرون، وترك آثاراً عديدة في ممالك أوربة وبلدانها. ولقد جاء النظام نتيجة العوامل التالية:

١ ــ ضياع مفهوم الدولة السابق، وحلول مبدأ ارتباط رجل لرجل ويسمى هذا الارتباط بعهد «من إقطاعي إلى مولاده» «Vassal à Surevain» فجميع الأحرار من الرجال يلتزمون أمام زعيم واحد، يخلصون له في كل الأمور. والزعيم يلتزم أمام رجاله، ونعني برجاله أمراء الدوقيات، وحكام المقاطعات. فهو يقود الحروب، ويقوم بالفتوحات، وينظم العلاقات بين رجاله الأمراء والحكام، وينسق المصالح المشتركة، وهو يسمي الحكام ويمنحهم صلاحيات إدارة مقاطعاتهم باسم الملك الكاروليني.

٢ ــ ظهور نوع جديد من تملك الأرض والسيطرة على المساحات الواسعة فيها. وكان امتداد هذه المساحات مدلولَ غنى الدولة وثرائها، ولقد نصت الأعراف بأن يلتزم الإقطاعي، أي أمير الدوقية أو الولاية، بأن يقدم أرضه إلى مولاه مع إخلاص في ارتباطه الشخصي، ويترك لهذا الأخير حق الانتفاع بهذه الأرض أو يمنحه أرضاً بفائدة محددة. ويكون الملك داخل وخارج مملكته الخاصة مالكاً لحق مكتسب على جميع أراضي إقطاعيات المملكة.

٣ ــ ظهرت قاعد واسعة لمجتمع الفلاحين وكان يطلق عليها اسم ال «Vilains» «أي الرديء أو السيء» لأن العمل في الأرض آنذاك كان يعتبر عملاً وضيعاً. وكان هذا المجتمع الفلاحي منحدراً أصلاً من العبيد والرقيق المتحررين، أو بقايا نازحين تشردوا أمام غزوات البرابرة. وكانوا يحرثون أرض أسيادهم ويقومون على خدمتها جيلاً بعد جيل ويرتبطون بالأرض التي وجدوا أنفسهم فيها «Attaché Á la Glebe» فاقدين لكل استقلالية. وقد شمل هذا النظام معظم دول أوربة الغربية آنذاك.

شذت فرنسا بعض الشيء في أصول الإقطاع، إذ حولته إلى نظام الدويلات المستقلة. وتم ذلك بعد ضعف عائلة كارولينا الحاكمة، فقام بعض أمراء الأقاليم من دوق وكونت.. والذين كانوا بالأصل مفوضي الملك في ولاياتهم.. فشقوا عصا الطاعة، واستقلوا بولاياتهم عن المملكة، وأنشأوا ضمنها مملكة صغيرة مستقلة لا سلطة للملك الكاروليني عليها، ولا سيادة وانتفاع بأراضيها.

الإمبراطورية الجرمو ــ رومانية المقدسة

لقد كان ضعف السلطة الملكية في بلاد الفرنجة الشرقية أقل حدة من بلاد الفرنجة الغربية، إذ عندما وصل التجزؤ الإقطاعي أقصاه في غربي البلاد، كان التاج الملكي الألماني في أعلى درجات مجده، يتعاقب على حمله أمراء أشداء من سلالة الساكسون، منهم أوتون الكبير Othon-le-Grand» الذي توج إمبراطوراً على روما وكامل الإمبراطورية عام (٩٦٢)، ويعتبر المؤسس الكبير للإمبراطورية الجرمانية المقدسة والتي امتد عهدها حتى عام (١٨٠٦).

إن ضعف ملوك فرنسا الكارولينيين شجع ملوك ألمانيا على مد سلطانهم فاستولوا على القسم الأكبر من بقعة «لوثير Lothaire» والتي تضمنت أقاليم الموز والسون والرون، هذه الأقاليم التي أصبحت من ضمن حدود الإمبراطورية الجرمانية المقدسة.

دبّ الضعف في جسم هذه الإمبراطورية إثر صدام عنيف مع السلطة البابوية حول سيادة أوربة المسيحية، واستغل الأمراء الألمان هذا الصراع وأعلنوا استقلال اماراتهم وانفصالهم عن الإمبراطورية، حتى زاد عدد الامارات المستقلة عن أربعمائة امارة وكان ذلك خلال الفوضى التي عمت القرن الثالث عشر وظل الحال في الإمبراطورية الجرمو ــ رومانية المقدسة مفككاً حتى مطلع القرن التاسع عشر.

الفصـــل الثـانـي

نشـوء القـوى البحـريـة
فـي أوربـة الحديثـة

يقول ريشيليو :

« يخيل لنا بأن الطبيعة قد منحتنا ظروفاً جيدة في بناء إمبراطورية البحر متمثلة بساحلين طويلين غنيين بالموانىء الممتازة ، ويمتدان على بحري المحيط والمتوسط » .

تفكير فرنسا هذا على لسان ريشيليو كان لا يقل أهمية عما كان يدور بخلد قادة الممالك الأوربية المطلة على البحار كإنكلترا ، وإيطاليا ، وإسبانيا ، فجميعها قوى بحرية ذات سيادة ، وتتطلع إلى المزيد من السيطرة والامتداد .

فالبر الأوربي معطاء خير ، يقع على تقاطع طرق طبيعية ، سكنه أنشط الرجال ، ونقلوا عبره أحسن البضائع . والشعوب التي تقطن هذا البر شعوب حية نشطة ، ساهمت مساهمة فعالة في تنمية التجارة وتطويرها مع الشعوب الغربية الأخرى ، ومع شعوب الشرق ، وشعوب البحـر الأبـيض المتوسط .

واجهت هذه المزايا صعوبات عدة منها المواجهة البحرية على جبهتين عريضتين أو عدة جبهات في آن واحد ، كما هي حال أكثر الدول البحرية الأوربية ، فإن عرض الجبهات البحرية أو تعددها يعقد نظام الدفاع البحري عند هذه الدول ، ويضطرها أحياناً إلى تجزئة قواها إلى قوة في الشمال ، وقوة في الجنوب (فرنسا) ، أو قوة شرقية وقوة جنوبية ، وقوة غربية (إنكلترا) .. والتبس على

القيادات حسن الخيار ، فمروا بظروف صعبة لتأمين سلامة الدولة على البر ، وحماية امتدادها في البحر .. وكان همُّ الدول الأول عبر جميع الحروب التي حدثت في أوربة خلال هذه الحقبة من الزمن هو حشد وجمع وضم أساطيل الجنوب إلى أساطيل الشمال ، إلى أساطيل الغرب ، وإقامة التوازن والانسجام تبعاً لمتطلبات المعركة ، أو متطلبات التحضير لكل عمل عسكري مرتقب .. هذا من الناحية العسكرية أما من الناحية التجارية فكان الوضع مخالفاً للمزية التي تمتعت بها هذه الدول ، فهي دول غنية أرضها خيرة ، ومواردها المعدنية كثيرة ، إلا أن كل ذلك لم يكن بالوفرة التي تضطر الأمم لإدامة تملك الأساطيل الكبيرة . ولم تصبح المعادلة مقبولة ، إلا بعد التوسع وانتشار الفتوحات ، وتملك المستعمرات . وهنا أصبح الأسطول التجاري ضرورياً وفرض بوجوده إقامة أسطول حربي قوي يحميه ، كدعامة أساسية في بنيان الأمة ، وفي نظام قواها الدفاعية .

إن المزايا والصعوبات التي وهبتها الطبيعة لدول أوربة من حيث سبل الملاحة والدفاع عن هذه السبل ، تتوازن ويُغطي بعضها بعضاً ، وتصميم الإنسان الأوربي كان العامل الهام الذي دفع بالشعوب إلى ركوب البحر ، وإقامة وتطوير القدرة البحرية ، وبناء مجد بحري . ولقد لمسنا فعلاً أن الشروط الطبيعية والظروف التاريخية التي أعقبتها أعطت الإنسان الأوربي دفعاً قوياً نحو البحر ، فانجذب إليه يعيش مغامراته ، فاكتست الأقاليم الشاطئية على طول سواحل أوربة حلة مختلفة عن باقي الأقاليم الداخلية ، وتميزت بروح المغامرة ، فلعبت دوراً هاماً في تاريخ الأمم والشعوب حتى إنها وجهت الحياة الوطنية في كثير من الأحيان باتجاهات مغايرة لما كان يمكن أن يحصل ، ولم يمنع ذلك من ظهور بعض الاستخفافات في أمور البحر وشؤونه ، وخاصة لدى الشعوب المقيمة في الداخل ، إذ كانت تصل في بعض الحالات إلى معارضة كل عمل بحري ، أو توسع فيه ، وهذا ما يفسر لنا تعسر الاندفاع نحو الحياة البحرية لدى الكثير من الأمم ، والآثار التي خلّفها هذا التعثر .

النشاط البحري في القرون الوسطى

كانت الملاحة البحرية قائمة نشطة على طول سواحل بلدان أوربة ، ومنذ الشعوب الأولى المتحضرة . وكان البحر ، والنقل البحري ، ونقل السلع في الأنهار ، وعبر البحار ، مصدر رزق لهذه الشعوب .. ثم جاء الفتح الروماني فطوّر تلك السبل ، وعزز من شأنها ، وعدّد الطرق ، وأقام جسوراً من العلاقات التجارية بين مختلف الأمم . فنجد على سبيل المثال ، تعامل شعوب بلاد الغال مع عالم روما ، أو عالم أثينا ، أو شعوب المتوسط الشرقي عن طريق استخدام مجرى نهر الرون حتى المتوسط ، وعبر المتوسط إلى كل أرجائه وشواطئه وشعوبه .

ومع بداية الاجتياحات البربرية لبلدان أوربة الوسطى، والإزعاج الذي سببته شعوب النورماند في شمال هذه القارة، توقف النشاط البحري، وانحصر في مبادلات بسيطة بين الشعوب المتجاورة. واستمر هذا التوقف حتى انحسرت موجات الرعب والاجتياح، ثم عاد المد البحري التجاري أكثر نشاطاً وأشد اندفاعاً. واستخدم الملاحون القادمون من السواحل الأوربية عامة كل السبل النهرية والبحرية، وعبر البحيرات في عملياتهم التجارية، فبرزت مراكز تجارية هامة كانت إما مرافىء نهرية أو موانىء بحرية. ثم تجمعت في هذه المراكز المؤسسات للحرفيين والعمال العاملين في البحر، وما يتشعب عنهم، ولتجار التوريد والتصدير، وغدت هذه المراكز ذات حول وبأس حقيقيين. نذكر من هذه الموانىء الهامة على سبيل المثال آمالغي، بيزا، جنوة، برشلونة، البندقية، وفي الشمال دونكرك ومدخل نهر التايمز... الخ... وظهر تجمع كبير ضم العديد من الفعاليات الاقتصادية ضمن مؤسسة تجارية هامة، لعبت دوراً فعالاً في التجارة والاقتصاد، هو الاتحاد الألماني للتجارة Hanse Germanique. وقد تشكل هذا الاتحاد واتسع شأنه في بحري البلطيق والشمال، وأعطى مينائي بيرغن في النرويج ولندن أهمية كبيرة آنذاك، وتمتع ملوك النرويج وإنكلترا بسيادة كبيرة على تلك البحار.

بدت المزاحمة كبيرة بين دول أوربة المختلفة، وأصبح النشاط البحري يستأثر بالكثير من الجهد والعمل، وتكثف العمل التجاري، وحصل سباق غير معلن بين مدن وموانىء حوض الرون الفرنسية، والمدن الساحلية الإيطالية في المتوسط، وبين موانىء إسبانيا والبرتغال وموانىء بلاد بحر الشمال والجزر الإنكليزية، وكانت خطوط المواصلات البحرية متصلة بين المتوسط والمحيط، ومكتظة بالسفن العاملة بالتجارة، إضافة إلى سفن الصيد التي توزعت في جميع مسارح صيد الأسماك في الأطلسي، ووصل مقدار السفن الموزعة على السواحل إلى ما يزيد عن عدة آلاف.

السفن المستخدمة في القرون الوسطى

بدت سفن هذا العصر أكثر إتقاناً من سفن العصور السابقة، وقد جاءت ملبية لحاجات العصر وتطوره، واندمجت ضمن صنفين أساسيين هما:

١ ـــ السفن الطويلة

وهي سفن خشبية دقيقة المقدمة، انسيابية الصنع، قليلة العرض، تعمل شراعياً، أو بالمجاذيف، أو بالاثنين معاً، وتُعرف منها الأنواع التالية:

السجانة ــ قادس ــ سفينة المتوسط : ثلاث تسميات عربية للسفينة والتي اسمها Galére ، وهي سفينة خشبية يبلغ طولها حتى (٥٠) متراً وحمولتها حتى (٣٠٠) طنة[١٥] تقريباً ، مجهزة بـ (٢٤) زوجاً من المجاذيف بالإضافة إلى صاريين كبيرين للأشرعة ، عرض السفينة قليل لا يزيد عن ثمن $\frac{١}{٨}$ طولها ، أي بحدود ٥ إلى ٦ أمتار فقط ، وهي منخفضة الجوانب ضعيفة الحركة والمناورة ، غاطسها[١٦] صغير ، وحمولتها ضعيفة ، وتحمّلها للأنواء البحرية سيء .. أما الميزة الوحيدة لهذا النوع من السفن فهي سرعة كبيرة في أثناء استخدام المجاذيف ، إذ يعمل من (٥ ــ ٧) رجال على كل مجذاف « **وغالباً ما يكونون من المحكومين بالأشغال الشاقة ، لذلك سميت السفينة بالسجّانة لاستخدامها للمساجين** » ، هذه السرعة الكبيرة الناجمة عن الجذافين تسمح للسفينة في التقدم عكس التيار ، ويعطيها قوة اندفاع كبيرة وكافية لخرق سفينة معادية بواسطة منخس (مهماز) ، أو رأس حربة كبيرة مثبتة على رأس حيزم[١٧] مقدمة السفينة .
تفرع عن السجانة عدة سفن منها ...

القليعة ــ Brigantin : وهي شبيهة بالسجانة لكنها أصغر حجماً ، وذات صاريين فقط ، صارٍ كبير وصارٍ صغير ، ويطلق عليه اسم الميزان ، وحمولتها حتى (١٥٠) طنه تقريباً .

الغليون أو الغليونة Galion ou Galiote : وهي سفينة مشتقة عن السجانة لها شكل الغليون ، ومرتفعة بعض الشيء عند مقدمتها .

الفرقاطة Fregate : كالسجانة تحمل ناراً إغريقية وتقذفها بواسطة منجنيق على سفن الخصم .

السجن الكبير ــ Galèasse : وهي أكبر من السجانة وأضخم منها ، تصل حمولتها حتى (٦٠٠) طنه ، يجذفها من (٣٠٠) إلى (٥٠٠) مجذف سجين .

٢ ــ السفن المكورة أو عالية الجوانب

هي سفن مستديرة لها شكل عش طائر السنونو بناها شعب جزر بحر إيجه أو بالتحديد الكريتيون ، فجاءت النماذج الأولى منها بدائية للغاية وصغيرة ، صعبة القيادة ، قليلة المهام ، وكان الغرض منها التنقل بين الجزر الايونية لتأمين الاتصال ضمن رقعة انتشار هذه الجزر ، وككل الأشياء لحق عامل التطور هذه السفن فتعددت أسماؤها بتعدد مهامها وباختلاف منشئها ، ونذكر منها :

الطـــوف	Barge
قشرة البيضة	Coque
الشـــراعيـة	Nef
الـمـركـب	Nave
الجوتيـه	Baleineir
سفينة البلطيـق	Crayer
سفينة الفلمنـك	Heus

اتصفت جميع أنواع هذه السفن بمواصفات متشابهة، فهي مكورة مستديرة الجوانب، عالية الأطراف، ضخمة منتفخة وقصيرة، يبلغ طولها ثلاثة أمثال عرضها صنعت بأسلوب متين وبأحجام كبيرة، خصوصاً ما كان يعمل منها في البحر الأبيض المتوسط، فتقطعه من شرقه إلى غربه، أو من شماله إلى جنوبه. ونذكر من تلك السفن سفينة روشفورت Rocheforte التي حملت القس لويس إلى فلسطين إبّان الحروب الصليبية.

بلغ طول هذه السفينة (٣٦) متراً وعرضها (١٣) متراً، وعمق عنبرها (١٠)أمتار، ووزنها (٣٥٠) طنه. ولقد ذكرت بعض التشريعات التي صدرت عن مدينة جنوة وجود سفن وصلت أوزانها حتى (١٥٠٠) طنه. وقد تكرر ذكر ذلك وبشكل طبيعي وفي عدة مناسبات وكان استخدام مثل هذه السفن الضخمة شائعاً في المواصلات البحرية عبر البحر الأبيض المتوسط.

وصل عدد صواري هذه السفن حتى الأربع، وعدد الجسور أو الطوابق إلى أربعة أيضاً، واحتوت السفينة في بطنها عدة عنابر واسعة لنقل البضائع أو المسافرين. وكانت تعتبر سفناً متينة قوية تحتمل الأنواء البحرية، والأمواج الكبيرة، إلا أنها بطيئة وقورة في سيرها.

وفي الحقيقة فإن تطور هذه السفن جاء اختبارياً تجريبياً تبعاً للزمان والمكان، فكنا نجد بعضها بصارٍ واحد، وبعضها الآخر بأربعة صوارٍ، ولكل صار شراع مربع وحيد كبير المساحة، وصل حتى المبالغة في اتساعه، وبعضها الآخر لكل صار عدة أشرعة صغيرة تعلو بعضها بعضها الآخر.. وعلى كل حال فسعة الصواري ومواقعها هي السبب الأساسي الذي جعل هذه السفن بطيئة المناورة، وكذلك الأمر بالنسبة للطوابق، فقد كانت ضخمة عالية، يعلوها صرح في المقدمة وصرح في المؤخرة، وهي مساوىء جعلت سرعة السفينة وئيدة متهادية.

ومن عيوب هذه السفن أنها لا تستطيع السير بمسالك الريح القائم (أي الريح التي تصيب الأشرعة بزوايا حادة آتية من المقدمة) وأفضل ريح لتلك السفن هي الريح التي تسمى بالحامل (الدافع) الذي يأتي السفينة من مؤخرتها أو من الجوانب بميل نحو المؤخرة.. لكن استخدام السكان (الدفة) المتوسط والمثبت على حامل متمفصل والذي بدأ استخدامه خلال القرن الثالث عشر أعطى هذه السفن وداعة في الملاحة واستجابة في المناورة.

مع كل التحسينات التي ابتكرت وأضيفت على سفن القرون الوسطى ظلت هذه السفن غير أمينة في الأنواء الشديدة وظلت الملاحة عليها خطرة في البحار المضطربة فكانت تغلق البحار عليها وتمنع من خروجها بقوانين بحرية مشددة تصدر عن تشريعات المدن والأقاليم البحرية، ويحرم ركوب البحر لخمسة أشهر من السنة وهي: أشهر فصل الشتاء حيث تشتد فيه العواصف وتعلو أمواج بحره وهنا تقبع السفن في الموانىء تنتظر الفصل الهادىء.

لم تكن سفن العصور الوسطى في الحقيقة إلا صورة معدلة عن السفن التي سبقتها، والتي عرفت لدى الشعوب الأولى في بلاد ما بين النهرين، وشرقي المتوسط، ووادي نهر النيل.. ولقد برع المصريون القدامى، كما يؤكد المؤرخ هيرودوت، في بناء القوارب النهرية، واستخدموها في نقل الثروات الطبيعية على طول نهر النيل من أقاليم مصر العليا إلى الأقاليم الجنوبية وعبر البحيرات. وكان نهر النيل أكبر وأسهل خطوط المواصلات المائية الفرعونية. أما الكلدانيون وشعوب بلاد ما بين النهرين فقد صنعوا القوارب المستديرة الشكل، واستخدموا شجرالصفصاف وكسوه بالجلد لمنع نفوذ الماء منه لداخل القارب، واستخدموا هذه القوارب في أنهر دجلة والفرات، وفي مياه شط العرب ومياه الخليج المجاورة للشاطىء.. أما الفينيقيون فقد استخدموا في بدء رحلاتهم البحرية الأطواف Radeaux وهي عائمات بدائية أدخلوا عليها التحسينات وطوّروها إلى سفن مستطيلة، وسفن مستديرة.

وهكذا كان شأن شعوب البحر الأبيض المتوسط. ثم جاء العرب المسلمون فاستخدموا هذه السفن، وعدلوا من شكلها وحجمها، وفي عدد ومساحات أشرعتها، حيث كانت السفن تتبدل تبعاً للمهام الموكلة إليها.. متطورة دوماً نحو الأفضل.. ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا الصينيون الذي كانوا يبنون سفنهم العريضة بواسطة حزم القصب الغليظ والمجدول، أو المشدود إلى بعضه البعض.. وبقيت هذه الصناعة البدائية قروناً طويلة دون تعديل أو تطوير.

تطور السفن الحربية وحروب البحر

لم يكن هناك تباين يذكر بين سفن التجارة وسفن الحرب فكلها مقاتلة، لأن حالة الحرب قائمة بشكل مستديم، والقرصنة البحرية لا تنقطع وهي شبه مشروعة لشيوع عمليات القنص بالاستيلاء على سفن الخصم وسلبه الغنائم، كما شاع أسلوب التفويض بكتاب رفيع★ Lettre De

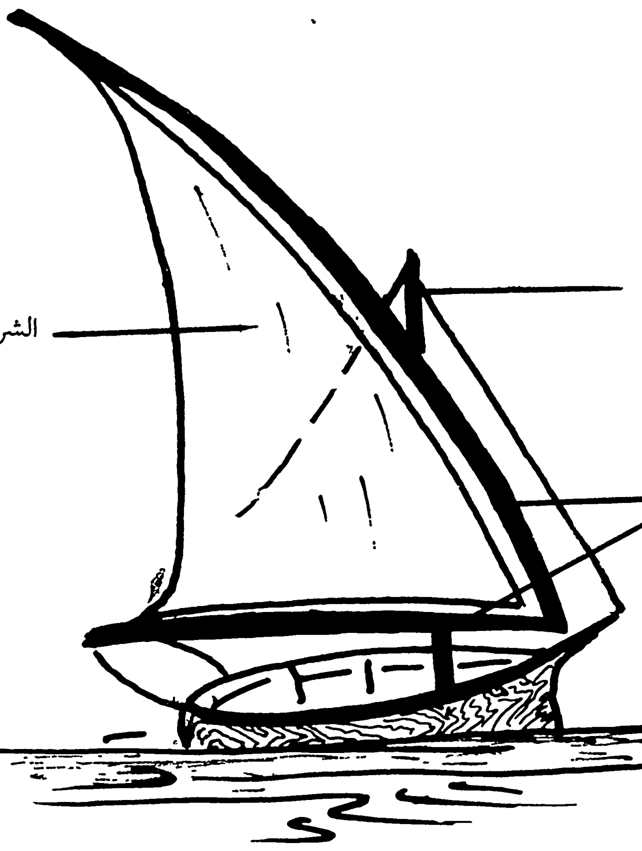

★ الكتاب الرفيع: تفويض يعطى من قبل الملك أو السلطة الحاكمة إلى ملكية خاصة برية، ويصبح لهذه الملكية حق تسليح سفنها، وحق توقيف سفن تخص جهة معينة معادية، فتقبض على هذه السفن في البحر وتجبرها على الاستسلام، وتسوقها إلى الموانىء لتقدمها إلى المحاكم لإقرار شرعية الاستيلاء عليها.. ففي حالة الحرب تمنح هذه الكتب لاستخدامها ضد سفن العدو أو السفن الخاصة للدولة المعادية، وبحيازة مثل هذا التفويض كان يميز بين اللصوصية المشينة والقرصنة المشروعة.. أما في حالة السلم فكانت تمنح لفترة محددة تخول حاملها حق القنص لعملية ثأر أو رد اعتبار لاعتداء سابق.. وبقي التعامل في هذه الكتب قائماً مع كل المشاكل القضائية والدولية التي نشأت عنه حتى منتصف القرن السابع عشر، وانتهى العمل به بعد إقامة مؤسسة القناصل وهي مؤسسة شرعية قضائية بين الأمم البحرية نظمت أسلوب التعامل البحري.

Marque وهذا الأسلوب أجبر كل الملاحين على تسليح سفنهم لاتقاء هجمات القراصنة .. فعند نشوب الحرب تقوم الدولة بتجميع السفن التابعة لها ، والتي تحمل علمها ، أو التابعة للموانىء المرتبطة بها فتسلحها بوسائط القتال وبالمحاربين ، وتشكل منها أساطيل أو عمارات بحرية ، توزعها على موانىء أطراف الدولة ، تكون جاهزة للتدخل أو للدفاع ضد خطر الغزو الخارجي .

في الحقيقة لم تكن الأساطيل المحترفة للحرب موجودة آنذاك ، وإن وجدت فهي نادرة غير منظمة ، على شكل رجال مغامرين ، أو قراصنة محترفين هاموا في البحر ، واتخذوه مورد رزق وعمل .. يقدمون خدماتهم إفرادياً لصالح الدولة التي ينتمون إليها ، وبموجب « الكتاب الرفيع » . ويمكننا تسميتهم بنصف قراصنة ، أو قراصنة دولة . ويستخدمون بصورة مشروعة في حالات الإعداد لمغامرة أو غزو ، أو في حالة احتمال تعرض البلاد لاعتداء خارجي بحري .. وقد لجأ الصليبيون في حملاتهم على الشرق العربي إلى هؤلاء المغامرين ، رجال البحر القراصنة من أهالي جنوة والبندقية ومرسيليا ، وطلبوا منهم نقل جنودهم بحراً من أوربة إلى سواحل الشام ومصر إبان الغزوات المتعاقبة ، وفي الوقت

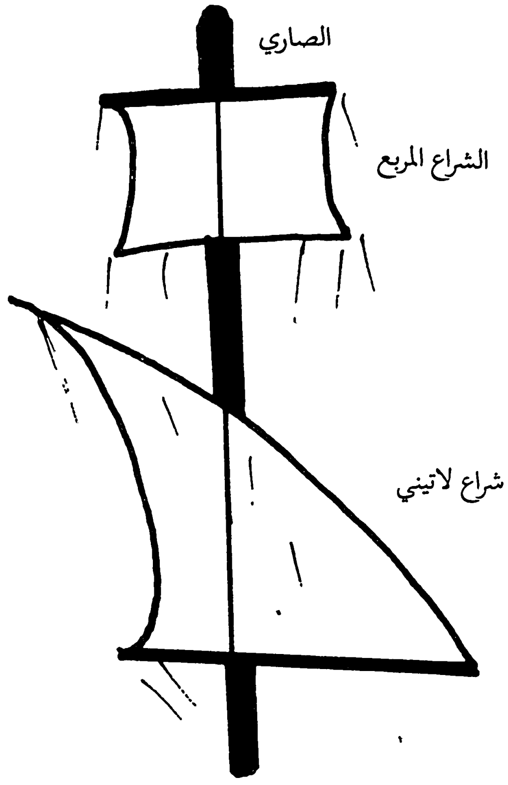

شراع لاتيني مع شراع مربع

نفسه خولوهم قتال وسلب السفن العربية والإسلامية التي يلتقون بها . وبرز عبر التاريخ الكثير من هؤلاء النصف قراصنة المرتزقة من جنوة والبندقية . وقادوا عمارات بحرية فرنسية أو إسبانية ، ودخلوا الصراع الدولي ، وخاضوا المعارك البحرية كما سنرى ذلك في سردنا المقبل .

كانت المعارك البحرية تجري ببساطة آنذاك ، وتتمثل بغزو العدو في أرضه للتحرش به ، والاستيلاء على خيراته ، أو توقيف سفنه في البحر ، وجرها إلى الميناء أسيرة ، والاستيلاء عليها بعد أسر الرجال ، وسلب كل ما عليها من بضائع وثروات ، أو باحتلال قطعة من أرض العدو ، بعمليات إنزال قوات برية ، يعمل الأسطول خلالها دور وسائط نقل وإنزال ، ومن ثم وسائط إصعاد ونقل غنائم ، وإذا حاولت السفن المدافعة التدخل يتم الاشتباك وتحدث المعارك البحرية التقليدية ، حيث تتواجه فيما بينها ، وتبدأ بنزاع أشبه بقتال القلاع ، ولنقل قتال قلاع طافية بطيئة الحركة ، يبدأ فيها الاشتباك من بعيد بتبادل القذائف ، أو الأسهم النارية ، أو النار الإغريقية ، يعقب ذلك طعن بدن السفينة المعادية بمنخس (مهماز) مقدمة السفينة المهاجمة ، ثم تلتحم السفينتان المتقاتلتان بعد قذف المخاطيف وتثبيتها ، ويهب المقاتلون للالتحام بالسلاح الفردي من سيف ورمح .. أما في قتال مجموعات السفن أو العمارات فتهاجم السفن المغيرة جبهياً ، حتى لا يحجب بعضها بعضها الآخر ، وتتقدم السفن السجانة ، وهي السفن الحربية الرئيسية على شكل هلال يطوق مجموعة العدو ، مع أخذ بعض الاحتياطات الدفاعية اللازمة ، كما لو كان القتال برياً .

إن أهم عنصر في عمليات الاشتباك البحرية ، هو حسن المناورة للاستفادة من جهة الريح ، والمحافظة على وضع السفينة في موقع يسمح لها باستخدام هذه الريح استخداماً فعالاً وأعظمياً ، كاحتياطي سرعة في حالة الانفكاك ، أو الانسحاب ، وهذا ما يطلق عليه وضعية **الأشرعة الممتلئة بالهواء** ، وهو أساس الحركة والمناورة .

بعد استخدام المدفعية تغيرت أساليب المعركة وظهر هذا السلاح عام (١٣١١) على شكل مدفع هاون استخدمه بحارة مملكة جنوة ، ثم انتشر استعماله . وفي عام (١٣٣٨) استطاعت سفينة إنكليزية واحدة مجهزة بالمدفعية مقاومة أسطول فرنسي عديد السفن ولعدة ساعات ، وفي معركة بريفيزا Prévéze في خريف (١٥٣٨) استطاعت سفينة واحدة هي غليون البندقية بقوة مدفعيتها صد أسطول معاد بكامله . وكان ذلك اليوم بمثابة إعلان انتهاء بحرية المجذاف ولم تعد السجانات ذات مفعول أمام السفن الشراعية المجهزة بالمدفعية ، فالمجاذيف وعدد المجذفين يربكون المقاتلين في أثناء الاشتباك ، ويستهلكون كل ساحات السفينة فلا يبقى مكان للمدفع .

بدأ تجهيز السفن بمدافع بدائية أطلق عليها اسم أفواه نار Bouches à Feu ترمى من على سطح السفينة أو من كوى أعدت بخاصة على المجنبات ، فعلى سبيل المثال جهزت السفينة الإنكليزية سوفيران عام (١٤٩٥) بـ (١٤١) مدفعاً والسفينة الفرنسية شارنت عام (١٥١٠) بـ (٢٠٠) مدفع ، وميكائيل الكبير بـ (٣١٥) مدفعاً .

كانت هذه المدافع في بداية طورها دمى كبيرة يتسلى بها المقاتلون فيحدثون بها أصواتاً ، يكون أثرها أكبر بكثير عما كانت تحدثه من خسائر . لكن وبزمن قصير تطور هذا السلاح نحو الأفضل ، وغدا أكثر فعالية ، واعتبر السلاح الجديد في الملاحم البحرية ، فحل محل المنخس ، وألغى الالتصاق بين السفن المتقاتلة ، وقلص معارك السلاح الأبيض .

أصبحت السفن المكورة المستديرة بعد استخدام المدفعية عليها ، السفن الوحيدة في العالم ، وقد وزعت المدافع على مقدمتها ومؤخرتها ، وفي طول مجنباتها ، بصفوف متراكبة هندسية ، صف لكل طابق ترمي بمجموعات ، أطلق عليها اسم بطاريات . وهذا التجهيز المدفعي جعل فرص النجاة

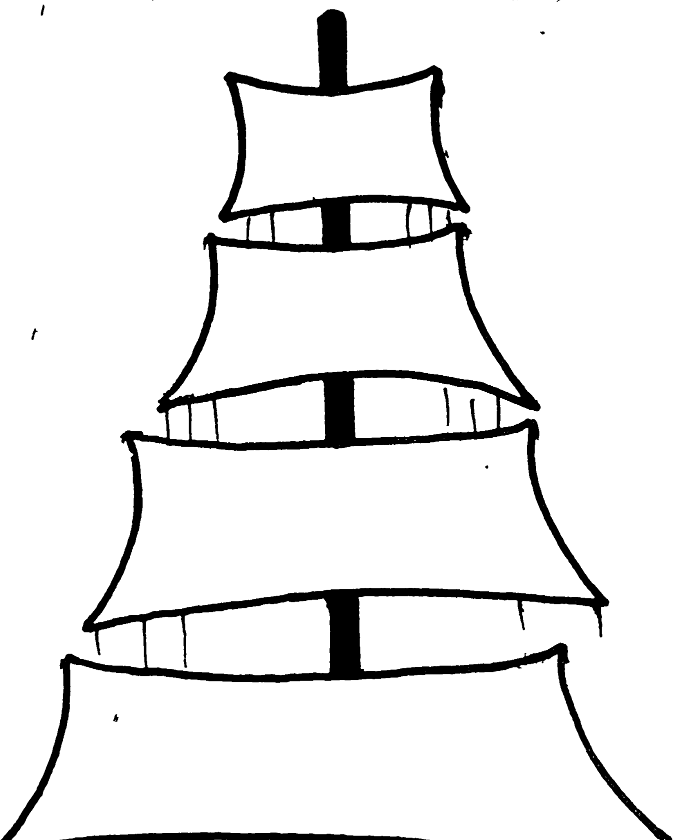

الشراع المجزأ

للسفن وحتى لأكثرها رشاقة ولأبرعها مناورة فرصاً ضعيفة، وغدا استخدام الحربة المنخس نادراً، واختفى من على السفن أو أبقي عليه على أنه سلاح قديم يزين مقدمة السفينة، وتحول مع الزمن إلى تمثال برونزي يمثل حورية من حوريات البحر، أو حيواناً أسطورياً.

اثر دخول المدفع على السفن الحربية، بدأ زمن التنافس بين الدول حول أسلوب تعمير السفن الحربية القوية، وأصبح امتلاك سفن زاهية متينة تقليداً وطنياً يعبر عما يجيش في صدور رجال البحر من مشاعر العز والفخار، وغدت السفن الحربية قطعاً فنية رائعة الجمال حشد عليها كل غال ونفيس من تماثيل ولوحات ونقوش وصارت تجوب البحار وتزور الموانىء مزهوة بجمالها تعرض رفعة البلد التي تمثله.. واختفت السفن الطويلة المختلطة ذات الأشرعة والمجاذيف ولم تعد تشاهد إلا في لوحات الرسامين أو في نماذج المتاحف البحرية.

تطور هندسة بناء السفن

وصل بناء السفن درجة الكمال والإبداع خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وأصبح بالإمكان مشاهدة سفن غاية في الجمال والإتقان كالسفينة الإنكليزية هنري، والسفينة الفرنسية كاراكون، والسفينة السويدية ماكالوس. وغدت جميعها تتحلى بكفاءات عالية للأسفار الطويلة، وتتحدى كل أنواع العواصف دون مهابة أو خوف.

من أجمل سفن العصر وأكثرها بذخاً السفينة الفرنسية «ريال» وقد بنيت عام (١٦٩٢)، وزينها نحاتون مشهورون فجعلوها آية في الجمال تسر الناظر إليها من أين أتاها، أنيقة فاخرة نقشت وزينت بمدلول نابع عن صورة الشمس وخيوطها الذهبية لتماثل تسمية ملك الشمس، اللقب الذي كان يطلق على ملك فرنسا آنذاك.

وفرشت «الريال» آنذاك من الداخل بالطنافس والسجاد الثمين وبدت المنحوتات الجميلة والتماثيل في كل زاوية من زوايا السفينة. أما الصواري فقد صنعت من الخشب الثمين. وقد تدلت من حولها الأعلام والرايات الطويلة الحريرية بألوانها الزاهية، وفي القمرات وأماكن المعيشة صبغت بنقوش بديعة، وغطيت الجدران بلوحات جميلة لكبار الرسامين، ونحتت تماثيل للأبطال ولحوريات البحر والبر من كل نوع ولون وجنس، متمثلة بآلهة اليونانيين القدامى في أوضاع بطولية أو أوضاع رومانسية، ومن حولها صور الفواكه والزهور والحيوانات الاستوائية كلها نسقت بذوق ونبل رفيعين.

ومن الخارج كانت تنعكس صورة السفينة على صفحة الماء بخلجات من لمعان الذهب، وزين الهيكل وبرج الملاحة فصارا تحفة فنية تخلب الألباب.

حرص بناؤو السفن على جعل الجسور أو الأسطحة بسوية واحدة ومتصلة تضاعفها عوارض أفقية، وعوارض رأسية، لتقوي من هيكلها ومن بدنها، ثم خفضوا من ارتفاع المنشآت العلوية، وحسنوا في التجهيزات الملاحية، لتخفيف الإرباكات السابقة وحدوا من المساحات الصادة للريح، التي تعيق انسياب السفينة وتخفض من سرعتها.

جهزت الأشرعة بقدد خشبية مع مجموعة حبال هابطة سهلت عملية تحريك الشراع، وتبديل اتجاهه في استقبال الريح بسرعة وأمان، وقطع الشراع الواحد إلى أجزاء متدرجة المساحة، يعلو بعضها بعضها الآخر ويمكن التحكم باتجاه كل جزء على حدة. وعلا الشراع الكبير شراع مربع علوي، أعطى للربان في حالة استخدامه لوحده إمكانية إنزال الأشرعة، مع الإبقاء على المربعة العلوية، فتنخفض سرعة السفينة محافظة على خط سيرها في حالة الريح الشديد.

واستخدم سكان دول أوربة الشمالية الشراع اللاتيني، وهو شراع مثلثي الشكل كبير المساحة زاد من سرعة السفينة وأعطاها إمكانية السير بزوايا ريح قائمة تأتي من مقدمة السفينة.

أخرج صانعو السفن نماذج متوسطة بين السفن الطويلة والسفن المكورة وسموها **غليون أيضاً** **Galion** وهي بشكل الغليون السابق نفسه إلا أنه شراعي بحت ومتطور زادت أبعاده وكبر حجمه ولما أصبح ثلاثي الصواري، سمي **بالكارافيل** **Caravelle** وهو مركب قوي سريع الحركة له ثلاثة أو أربعة صوارٍ استخدم في الرحلات الاستكشافية الطويلة رفع عنه صرح المقدمة وأبقي على صرح المؤخرة (الكوثل).

الكراكه **Caraque** وهي سفينة أهل جنوة وإسبانيا والبرتغال، أكبر سفن القرون الوسطى قاطبة، عالية الصواري، مرتفعة الجسور، حوت كل أسباب الراحة والترف، لها صرحان ضخمان في المقدمة وفي المؤخرة وتصل صواريها إلى أربعة إثنان منها للأشرعة المربعة.

بنى الانكليز نموذجاً سمي **الرومبيرج** Romberge، وهو مركب قليل الغاطس رشيق المناورة، سريع الحركة، كان يعد من أفضل السفن الحربية في زمانه خصوصاً للبحار الضيقة والممرات البحرية.

وأخيراً جمعت كل الصفات الجيدة في نموذج موحد سمي بالبارجة **Vaisseau** وهو ذو الثلاث

صواري مركب العصر ، والنموذج السائد لأساطيل البحرية الخشبية ولقرون عديدة ، وحتى اكتشاف البخار واستخدامه كطاقة محركة .

مع تطور بناء السفن تطورت الحياة البحرية ، فبفضل السفن الكبيرة الأمينة القادرة على مواجهة أخطار الأنواء والعواصف البحرية انفتحت آفاق جديدة أمام المغامرين وأمام المستكشفين فازدادت المعرفة وتدفقت الخيرات ونشطت التجارة الخارجية ، وبدأ السباق بين الأمم يتحول إلى أحقاد ، ثم انقلب إلى منازعات فامتلاك وسيطرة.،.. واتخذت التجارة أهمية جديدة ، وأصبحت سبباً أساسياً في سير حياة الأمم ، وعاملاً فعالاً في النزاعات الدولية .

فالنهضة الكبرى للقدرات البحرية لدى الأمم تركت أثراً واضحاً في مصائر شعوبها ولأكثر من مرة أعطت هذه النهضة وخلال العصور الوسطى الدليل الذي سار بمستقبل أوربة الحديثة .

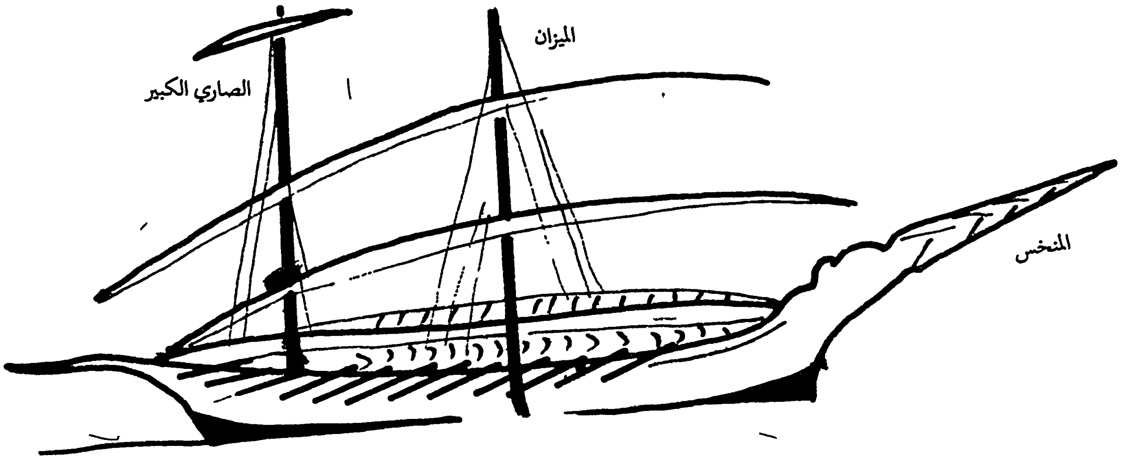

السجانة ــ GALERE

الفصل الثالث

أول الحروب بين انكلترا وفرنسا
(حرب المائة عام)

كانت المملكة البريطانية البلد الأقل كثافة للسكان بين الممالك المعاصرة، تعيش بفقر وتخلف كبيرين في حين تزدهر الممالك المجاورة بكل أسباب الراحة والتقدم. وهذا ما حمل ملوك الإنكليز مدفوعين بعوامل الحسد إلى غزو البر الأوربي، والنزول في أرض فرنسا، الأرض الأكثر قرباً إلى بلادهم، ودخول حروب طويلة معها كان النصر في غالبيتها حليفهم، وإذا كانت فرنسا قد خسرت هذه الحروب فليس لأنها تفتقر للمحاربين أو ان سكانها قلة لا بل على العكس المقاتلون فيها كثرة، لكن حمل السلاح كان منوطاً بفئة خاصة احتكرته هي طبقة الأشراف والنبلاء، الفئة المتغطرسة العنيدة، التي لم تستطع الصمود أمام قوات إنكلترا النظامية المتحدة، التي اشتهرت بانضباطها، وتقديرها لقادتها، وإخلاصها الأعمى لمليكها خصوصاً بعد الانتصار الساحق الذي حققته في اجتياح مقاطعة النورماندي الفرنسية شمال بلاد الغال.

جاءت جيوش الإنكليز بالنظام والانضباط والتماسك، تقاتل الفرنسيين المدافعين عن نظام متفسخ مكروه، هو نظام الإقطاع الفاسد الذي كان سائداً في فرنسا آنذاك.. وعندما نذكر الإقطاع.. نعني نظام التفرد بالرأي، والتناقض مع آراء وأفكار السواد الأعظم في البلاد. ومن الصعب جداً إقناع كافة النبلاء بوحدة الكلمة ووحدة الهدف.. لذا نرى جموع الشعب بعيدة كل

البعد عن منحى الحكام والنبلاء بتنافر عميق أدى إلى نتائج سلبية انعكست على حياة الشعب ومصير الأمة .

سيطر الإنكليز مرتين متتاليتين على منطقة كبيرة من أرض فرنسا ، ونودي بهنري السادس[١٨] ملك إنكلترا ملكاً متوجاً في باريز ، لكن ظهور القديسة جان دارك عام (١٤٢٩) قلب الموقف ، وأعطى إشارة بدء زوال المستعمر ، وتحرير البلاد من الاحتلال الانكليزي البغيض .. وعلى مدى عشرين عاماً من الحروب الطويلة استطاع الفرنسيون طرد الإنكليز ، وإعادتهم إلى جزرهم . وكان ذلك عام (١٤٥٣) العام نفسه الذي سقطت فيه القسطنطينية أمام الفتح العثماني . وسنلخص فيما يلي أهم أحداث هذه الحروب والتي أطلق عليها اسم حرب المائة عام .

حروب المائة عام

وقعت فرنسا عام (١٢٥٩) معاهدة مع الإنكليز تنازلت بموجبها عن مقاطعة النورماندي ، إثر خروج جان سانتير[١٩] Jean Sansterre على لويس ابن فيليب ، وقيام قادته البحريين بإحراق سفن أسطول لويس البالغ عددها (١٧٠٠) سفينة ، والتي كان قد أعدها ملك فرنسا لغزو الجزر البريطانية .

فقدت فرنسا على أثر تلك الخيانة والدمار الذي حل بالأسطول جزءاً كبيراً من سيادتها البحرية ، وضاعت كامل هذه السيادة ، بعد أن استطاع الإنكليز تدمير أسطول « **أوستاش الراهب** » أمام كاليه بمعركة بحرية أطلق عليها اسم معركة الموانىء الخمسة .

وأوستاش الراهب هذا شخصية غريبة ، انتسب إلى الكهنوت في بدء حياته فاتهم بالسحر ، ثم انقلب على الدين ، وأضحى قرصاناً مغامراً ، وبحاراً مقداماً ، زرع الرعب في مياه بحري الشمال والمانش ، ساعياً بسفنه حول الجزر البريطانية والسواحل البروثونية والنورماندية ، فهاجم الإنكليز وأغار على أراضيهم قرب ميناء فيلكستون Felkestone فساد المنطقة وأرهبها ، ثم دخل خدمة بلاط ملك فرنسا ، فأسندت إليه مهمة قتال الإنكليز .

قام أوستاش بعملية إنزال في نهاية عام (١٢١٥) ومطلع عام (١٢١٦) حاملاً جنوداً إلى البر الإنكليزي ، ثم انتشر بسفنه القوية في بحر المانش يؤمن خطوط المواصلات البحرية لتموين جنود بلاده على البر الإنكليزي .. ولكي يمنع الإنكليز من الخروج حاصر دوفر ليراقب أسطول العدو وتحركاته ، لكن بعد موت جان سانتير تبدل الموقف العام نحوه في فرنسا ، وآخر حملاته كانت على

رأس (٧٠) سفينة باتجاه كالية في آب عام (١٢١٧)، فهاجمه أسطول الموانىء الخمسة البريطاني، وحصلت معركة غاضبة في عرض نهر التايمز قتل فيها أوستاش الراهب ودمرت قافلته..

بعد سقوط أوستاش ضاعت سيطرة الفرنسيين على بحر المانش، ولم يعد بالإمكان صمودهم على البر الإنكليزي، فعادت الحملة مهزومة. وكان ذلك في شهر ايلول من عام (١٢٣٧)..

تجدد القتال عام (١٢٩٣) بين الإنكليز والفرنسيين ونشبت معركة بحرية كبيرة أمام رأس سان ماتيو على الساحل الفرنسي قتل على أثرها ما يربو عن خمسة عشر ألف مقاتل نورماندي. وحاول ملك فرنسا آنذاك جمع شتات أسطوله المهزوم، وطلب من أسطول المتوسط أن يوافيه إلى المحيط الأطلسي وبحر المانش، ثم أوعز للترسانات البحرية ببناء سفن متطورة خفيفة، واستقدم لهذا الغرض خبراء تعمير سفن من مدينتي البندقية وجنوة الإيطاليتين. وبفضل هذا الحشد الضخم من السفن.. استعادت فرنسا بعضاً من سمعتها البحرية، وحاولت استعادة سيادتها، لكن هذه التظاهرة الكبيرة لم تجدها نفعاً لخيانة بعض القادة والتخلي عن مليكهم. وكل ما جنته من هذا الحشد الحربي هو لفت انتباه الإنكليز لما يجري. وعلى أثرها قام الإنكليز، بدعم وتعزيز دفاعاتهم الساحلية على شواطىء الجزر المطلة على بحري المانش والشمال.. وكذلك تقوية حصون ودفاعات مقاطعة النورماندي التي كانت تحت سيطرتهم، خشية هجوم فرنسي بري وبحري مشترك لتحرير المقاطعة.

عندما أخفقت خطة ملك فرنسا فيليب في مد سيطرته واستعادة سيادته على المنطقة لجأ إلى أسلوب جديد في التعامل مع الإنكليز، وقرر محاربتهم بأساليب اقتصادية بفرض حصار حول جزرهم، وبإزعاج خطوط مواصلاتهم البحرية، وبقطع طريق تصدير منتجاتهم الزراعية، وبمنعهم من تصدير الصوف.. (المادة الأولى في نظام الاقتصاد الإنكليزي آنذاك.)، وبتحريم كل تبادل تجاري مع الخارج. ونجحت خطة الملك فيليب بعد أن تعاون مع كل من ملك السويد وملك النرويج، وحكام الدول الهولندية، وملوك إسبانيا.

لم يعمِّر هذا الحصار أمداً طويلاً إذ اعتلى العرش البريطاني ملك طموح ومقاتل فذ هو إدوار الثالث الذي سارع منذ بداية حكمه إلى تعزيز قواته المشتركة البرية والبحرية، وبنى أسطولاً بحرياً قوياً قادراً على فك الحصار الغربي المضروب على سواحله، وحماية شواطئه من إغارات أعدائه، ونقل ساحات المعارك البحرية إلى مياه خصومه.

عندما استتب الأمر لإدوار الثالث واستطاع إبعاد الحصار والخطر البحري حول بلاده أخذ

يطالب بعرش فرنسا لكونه منحدراً من العائلة المالكة الفرنسية حيث كان الحفيد لفيليب الجميل.

نشبت الحرب ثانية ولبريطانيا على أرض فرنسا حليف قوي هو كونت الفلاندر .. وفي عام (١٣٤٠) اصطفت (٢٠٢) سفينة حربية أمام المعبر «Ecluse» لمنع (٢٥٠) سفينة بريطانية يقودها الملك إدوارد الثالث نفسه من إنزال المقاتلين الإنكليز على أرض الفلاندر.

اقترح الأميرال باربافيرا الجنوي الأصل الإبحار لإعطاء السفن الفرنسية مجالاً بحرياً تستطيع فيه المناورة والقتال .. رفض أمراء البحر الفرنسيون الآخرون الاقتراح وفضلوا اتباع خطة دفاعية بحتة حيث يقومون بإغلاق المعبر البحري أمام السفن الإنكليزية المهاجمة بتنضيد السفن على أنساق ثلاثة وبالفعل جاؤوا بسفنهم فوضعوها على ثلاثة صفوف طويلة وقد أنزلت أشرعتها وربطت ببضعها البعض بواسطة الجنازير وكأنها سد من العائمات.

جاء أسطول الانكليز وهاجم جبهياً بكسر طوق السد، وأعانه أسطول الفلمنك الذي تقدم ساحلياً وضرب السفن الفرنسية من الخلف.

احتدم القتال نهاراً وتوقف مع هبوط الظلام وكانت حصيلة المعركة كالتالي: فقد الإنكليز (٩٠٠٠) مقاتل وفقد الفرنسيون (١٥) ألف مقاتل وقيل في مرجع آخر (٣٠) ألفاً، واندحر الفرنسيون إذ غرقت وأسرت لهم (١٦٦) سفينة وفرت السفن الأخرى ملتجئة إلى الموانىء وعادت السيادة الإنكليزية تهيمن على المنطقة وعلى البحار المحيطة.

تتابعت الانتصارات على فرنسا براً وبحراً ففي ٢٩ آب عام (١٣٥٠) وفي وينشلسي Winchelsea اشتبك الملك إدوار نفسه وتحت إمرته (١٨) سفينة حربية بالأسطول الفرنسي الذي كان قوامه يزيد عن (٤٠) سفينة حربية وبإمرة الأميرال شارل دولا سيردا فغرقت وأعطبت جميع السفن الفرنسية .. ولم يبق أمام الإنكليز أي عائق بحري يذكر فقاموا يتابعون زحفهم إلى الغرب من بلاد الغال .. وتم لهم الاستيلاء على أراضي واسعة حتى وصلوا مدينة بواتييه وأسروا ملك فرنسا .. وعقدوا معه معاهدة بريتيني Brétigny وغدت بموجبها كل سواحل فرنسا الغربية والشمالية الغربية، والشمالية أرضاً بريطانية .. ويعود سبب ذلك كله لفقدان فرنسا لأسطولها البحري الذي كان يذود عن سواحلها، ويمنع عنها غزوات الأعداء.

اعتلى عرش فرنسا شارل الخامس[٢٠] وكان يسمى بشارل الطيب، ووجد أن لا مناص له من الاحتلال البريطاني إلا بتحقيق هدفين هامين:

١ ــ تقوية المملكة داخلياً، ونبذ الخلافات بين أمراء الإقطاع وحكام الأقاليم.
٢ ــ تحييد حلفاء الإنكليز على أرض فرنسا..

وتوصل شارل الخامس إلى تحقيق هدفيه بسرعة كبيرة، ثم تطلع إلى النقطة التي تلي، وهي إعداد أسطول بحري قادر على استعادة السيطرة على البحر، وانتزاع السيادة من أيدي الإنكليز، خاصة في بحر المانش المواجه للجزر البريطانية.. ولما كانت الأموال تنقص الملك لجأ إلى بيع أسطول المتوسط بكامله إلى البابا، وقبض ثمنه، ودفعه إلى ترسانات بحر المانش، لتمويل مشروعه الكبير في إعداد السفن الحربية، حتى قيل إن كل (١١) سفينة كانت تمد وتبنى بآن واحد. ولم يمض وقت طويل حتى جهز الأسطول اللازم، وأصبحت فرنسا معدة لبدء حرب تحرير لأراضيها ضد الغاصب الإنكليزي وكان لا بد لهذا الأسطول من قائد فذ، ففتش الملك عن أمير لهذه القوة الحديثة فوجده في شخص الأميرال جان دوفيين عام (١٣٧٣). Jean De Vienne فمنحه كل الصلاحيات والامتيازات والحقوق التي تتعلق بإدراة وتنظيم وإعداد هذا الأسطول للمعركة المقبلة.

وجد الأميرال الجديد قائد أسطول الشمال أن الوقت غير مناسب لفتح باب المواجهة والعمليات الحربية مع الإنكليز.. وفضل الاكتفاء بإعادة حصارهم في جزرهم ووضعهم في وضع التأهب الدائم للدفاع، وهذا أسلوب حربي يعمل به حتى وقتنا الحاضر **حيث تجعل الخصم متأهباً يستنفذ صبره، ويرهق رجاله، وهو يجهل متى وأين ستكون المواجهة وما هي حجمها أو نوعها..**

وبالفعل قام الأميرال جان دوفيين بإغارات عدة على بعض النقاط الحساسة من الساحل البريطاني الواسع فأعطت هذه الإغارات دفعاً معنوياً جديداً رائعاً بالنسبة للمقاتلين الفرنسيين، ولرجال البحر، بعد هزيمة طويلة دامت عدة سنين. في حين كان أثر هذه الإغارات على الإنكليز سيئاً أو مزعجاً وأدخل الارتباك والتوتر في نفوس المدافعين عن السواحل البريطانية، وأزعج عمليات إمداد قواتهم الموجودة على البر الفرنسي.

في عام (١٣٧٧) حشد الأميرال جان دوفيين (٣٥) سفينة حربية من أجمل وأقوى سفن أسطول فرنسا ثم أضاف إليها (١٣) سفينة إسبانية، وإسبانيا حليفة فرنسا في قتال الإنكليز. وحمل على الجزر البريطانية، ثم نزل على البر الإنكليزي، وقام بهجوم سريع وواسع ولعدة أسابيع استهدف الحصون والقلاع، ثم تقدم في منطقة واسعة من البر البريطاني، وأوقد الحرائق فيها حتى امتدت

النيران إلى الموانىء البريطانية . ونذكر منها راي بورتسموث ، دارثموث ، بارموت ، هاستينغ . وكان لهذا الهجوم غير المتوقع والقليل النفقات كبير الأثر على الموقف الحربي بين الدولتين وقد قيل : **لو أن هذا الهجوم قد استهدف كاليه المحتلة وجوارها لتحرر جزء كبير من البر الفرنسي .**

توالت انتصارات سلاح البحرية الفرنسي خصوصاً بعد أن تخلى جان البروتوني وشارل نافار عن ولائهم للإنكليز ، وعادا إلى الصف الفرنسي ، يحاربان عدوة فرنسا المشتركة إنكلترا ، وعلى أثر مجابهة بحرية كبيرة قرب ميناء شربورغ عام (١٣٧٨) تحررت مقاطعة النورماندي من الاحتلال الإنكليزي ، وزحفت جيوش فرنسا البرية عليها ففضل الإنكليز مغادرة المنطقة بعد أن شعروا أن المقاومة مستحيلة ، وأن أسطول فرنسا يسود المنطقة ، ويفرض نفوذه الذي امتد حتى الشواطىء الإنكليزية وموانئها .

في عام (١٣٨٠) دخلت سفن حليف فرنسا « سانشيه دو توفار » Sanchez De Tovar نهر التايمز وأحرقت منطقة غرافساند . Gravesend . وتم للفرنسيين استعادة السيطرة على البحار ، وعادت حرية الملاحة والاتجار كاملة لفرنسا في حين انقلب الحال بالنسبة للإنكليز ، فلم يعودوا يستطيعون بيع صوفهم ومنتجاتهم الزراعية إلى الفلاندر ، وانكمشت سفن صيد سمك الرنجه في الموانىء ، لا تجسر على الإبحار وراء رزقها في المياه البعيدة ، وانتشر البؤس وعمت النقمة ، وتحرك العمال عام (١٣٨١) بشبه ثورة عمالية ، واهتز الموقف الداخلي البريطاني بعنف ، أما الرعايا الإنكليز المقيمين على البر الفرنسي وغالبيتهم من الجنود ، فقد تشردوا وتاهوا سنين عديدة بعد أن خسروا قلاعهم وتخلوا عن حصونهم .

شارل السادس وفكرة غزو إنكلترا

عادت الفوضى لصفوف القوات الفرنسية من جديد بعد وفاة شارل الخامس ، ونقصت موارد الأسطول المالية ، فدبّت علائم الشيخوخة في أوصال هذا الأسطول ، وبات عاجزاً هرماً ، وتوقف كل بناء جديد ، وسرحت عناصر وأطقم الوحدات البحرية ، وتبعثرت سفنها في الموانىء لا يوجد من يسهر على صيانتها ، وإعدادها .. واستمر الحال على هذا المنوال حتى بلغ الملك شارل السادس الثامنة عشر من عمره ، فنحا منحى أبيه في محبته للأسطول وإعداد أهل البحر لقتال العدو الإنكليزي .. واتخذ قراراً حاسماً لإعادة روح الشباب والقوة إلى القوات البحرية ، مع تحديث

السفن، وبناء دفعة جديدة منها.. وكان ملكاً شاباً مندفعاً كله حيوية ونشاط، إلا أن خطواته السريعة وصفت بالبهلوانية فقد كانت تنقصها الحكمة، ويرجع ذلك لحداثة سنه.

في عام (١٣٨٥) قرر الملك الشاب غزو البر البريطاني فكلّف الأميرال جان دوفيين الشهير بالحملة الأولى، ومنحه الصلاحيات الكاملة من حيث الإعداد والتنفيذ.. فتحرك الأميرال جان على رأس أسطول صغير.. فنزل في إيكوسيا (اسكتلندا)، وقاتل الإنكليز، وانتصر عليهم، ثم تقدم حتى كامبرلاند. واستمرت معاركه معهم مدة أربعة أشهر في عملية مشاغلة، بانتظار الغزو الكبير الموعود الذي كان يعد على أرض فرنسا، والذي حدد موعده في النصف الثاني من عام (١٣٨٦). وبالفعل أمر الملك شارل بإعداد أسطول الغزو بكامل وسائله من وسائط نقل وإنزال وسفن حماية الخ... وحشد تلك المجموعات في المعبر Ecluse بأرض الفلاندر، ووصلت أعدادها إلى (١٣٨٧) سفينة، وفي منطقة تحشد أخرى تجمعت (٣٢٠) سفينة إضافية..

كان كل شيء معداً لبدء الهجوم إلا أن الرياح استمرت تعصف بقوة من اتجاهات معاكسة لمصلحة أسطول الغزو الفرنسي.. وامتد الطقس السيء أسابيع عدة حتى دخل فصل الخريف فغدت عملية الغزو مغامرة محفوفة بالأخطار لدنو موسم العواصف والرياح. وفي أثناء ذلك، عمل بعض نبلاء فرنسا بالتعاون مع دوق بريتانيا حليف الإنكليز، وبتآمر مع أعمام الملك وهم أوصياء العرش، وأحبطوا عملية الغزو ووصفوا الملك الشاب بالمراهقة والجنون، ووضعوا أيديهم على القوات المحتشدة فبعثروا السفن، وباعوا بعضها، وأرسلوا بعضها الآخر بعيداً لقتال الأتراك..

أخيراً وقع أعمام الملك معاهدة مع إنكلترا أنهت الخصام، ولزيادة توثيق عرى الصداقة تزوج ريتشارد الثاني ملك إنكلترا بإيزابيل دو فرانس أو دو أورليان ابنة شارل السادس وايزابو دو بافيير.

هنري الخامس واجتياح فرنسا

جاء دور نبلاء إنكلترا في إثارة الرأي العام ضد فرنسا وطالبوا محاربتها في سبيل إعادة الاعتبار واسترجاع المجد البريطاني السابق. وقاموا بالتآمر على مليكهم ريتشارد نسيب الفرنسيين، وطالبوه بالتخلي عن العرش ورشحوا ابن عمه، ونصبوه على عرش إنكلترا عام (١٣٩٩) باسم هنري الخامس.

ما إن استتب الأمر للملك الجديد هنري الخامس حتى بدأ بإعداد لحرب طويلة سيخوضها مع أعدائه التقليديين الفرنسيين، فبنى السفن الحربية القوية، ثم حشدها على طول الساحل

البريطاني الجنوبي . وما إن أتم كامل استعداده حتى انتقل بهذه السفن ونزل على البر الفرنسي . وكان همه الأول مهاجمة الترسانات البحرية الموجودة في فتحة نهر السين . وتم له ما أراد مستهدفاً الترسانات ومراكز تجميع قوات فرنسا البحرية ، ثم تقدم على رأس ثلاثين ألف مقاتل فاحتل مقاطعة النورماندي ، ثم تابع زحفه ببطء نحو داخل البر الفرنسي وفي عام (١٤١٩) سقطت مدينة روان آخر معاقل الدفاع الفرنسية ، فاضطرت فرنسا لتوقيع معاهدة جديدة مع الغزاة سميت باتفاقية ترويز Troyes ، وتم توقيعها في ٢١ مايس من عام (١٤٢٠) . وكانت إعلاناً صريحاً باستسلام فرنسا .

إن النصر الذي حققه الإنكليز على الفرنسيين دفعهم للاعتقاد بعدم جدوى الإبقاء على أسطول بحري قوي ، بعد أن خضعت لهم فرنسا .. ونظراً لارتفاع نفقاته باعوا عام (١٤٢٣) أكثر قطعهم الحربية .. في حين أبقى ملك فرنسا لنفسه مرفأ صغيراً هو مرفأ لاروشيل ، كان يتلقى عبره مساعدة حلفائه الإسبان والايكوسيون . وتململ الشعب الفرنسي من الاحتلال البريطاني ، وبدأت عناصر المقاومة الشعبية تتوضع في بؤرات عدة ، وتتجمع فيشتد عودها وتصلب قناتها .. وكانت إيذاناً ببدء عمليات مقاومة الإنكليز . وتوافق ذلك مع ظهور جان دارك الشهيرة التي عملت على إلهاب حماسة الفرنسيين ، ودفعتهم لتحرير أرض وطنهم وتخليصها من الغزاة .

بدأت المناوشات والعمليات براً فقط نظراً لافتقار الخصمين المتحاربين للسفن الحربية اللازمة .. وأخذت الحرب شكل حرب الحصون والمواقع ، وتقدم الفرنسيون يحتلون القلاع حتى وصلوا مقاطعة النورماندي ، فاستعادوها عام (١٤٥٠) ، ثم استداروا نحو الغرب ، وحرروا مدينة بوردو عام (١٤٥٢) ، وتابعوا عمليات التحرير حتى استعادوا كامل أراضي المملكة الفرنسية ، وطردوا عدوهم الإنكليزي خارج البر الأوربي ، دون أية اتفاقية معلنة . وظلت الأمور معلقة حتى وقعت معاهدة عام (١٤٧٥) والتي أبقت لإنكلترا كاليه فقط موقعاً على كل أراضي القارة الأوربية .

برهنت حرب المائة عام لكافة الأمم الأوربية آنذاك بديهية امتلاك الدولة لأسطول بحري قوي ، يدفع عنها هجمات الأعداء ، ويقوم بأداء بعض المهام الهجومية الخاصة التي تتطلبها مراحل المعركة ، باعتبارها أولى مراحل الدفاع . ولكي يتحقق للأسطول البحري استمرارية السيطرة على البحار لا بد له أن يكون موحداً تحت قيادة قوية واحدة ، تضم جميع السفن العاملة على مختلف أنواعها ، وفي كل السواحل ومختلف الموانىء .

خلاصة نتائج حرب المائة عام

نتجنى كثيراً لو سلمنا بأن ما جرى بين إنكلترا وفرنسا في حرب المائة عام هو حرب لدولتين. لأن فرنسا وإنكلترا لم تكونا ممتلكتين مقومات الدولة الصحيحة، بل جاءت عملياتهما الحربية متقطعة وأقرب إلى الإغارات والكمائن منها إلى الحرب النظامية الشاملة. ومع ذلك كله أتاحت هذه الأزمة الطويلة الفرصة للعالم كله لتعريف أهمية امتلاك القدرة البحرية، وأهمية استخدامها في الحروب، وأثر هذه القدرة في تعزيز النصر. ولقد لمسنا من خلال هذه الحروب المتقطعة الطويلة كيف أن النصر كان ينتقل تباعاً وبانتظام دقيق إلى الجبهة الأقوى بحراً، أو الخصم الذي امتلك الأسطول الأكثر عدداً وتنظيماً.. ونتيجة المعركة البحرية هي التي كانت ترشح دوماً نتيجة العمليات على البر... فالانهزام في البحر كان يعقبه هزيمة على البر دون شك.

طالت حروب المائة عام، وتناوبت نتائجها، وانتقل النصر من طرف إلى طرف آخر، لأن الطرفين المتنازعين بلدان زراعيان، وبناء القدرة البحرية عبء مالي جسيم لم يكن في يوم من الأيام إلا تجربة وقتية باهظة الكلفة، سرعان ما يتخلى عنها بمجرد زوال ضرورتها، وابتعاد خطر الخصم، فيكون الطرف الآخر آنذاك في مرحلة بناء قدرته البحرية فترجح كفته البحرية. وبرجحان كفة البحر ينتقل النصر إلى جانبه، وإن الصفة المؤقتة للقوى البحرية في ذلك العصر قد طبع نتائج الحروب وأزمان النصر بطابع القصر والتأرجح والتناوب، فهو يتذبذب من عظمة إلى انحلال، ومن تفوق إلى تخلف، ولو أن الأطراف المتنازعة سبرت عمق التجربة لأفادت من نتائجها، ولأعطت لتلك الحروب نهاية أسرع وأكثر وضوحاً وأطول استقراراً، ولجنبت الخصمين المتنازعين أياماً طويلة شديدة المرارة، تعرض فيها مصير الأمة وأرض الوطن للامتهان والاحتلال ولخلقت من بعد عصر اقتسام ثروات البحار موقعاً ثابتاً يخولها حق المطالبة بحقوقها.

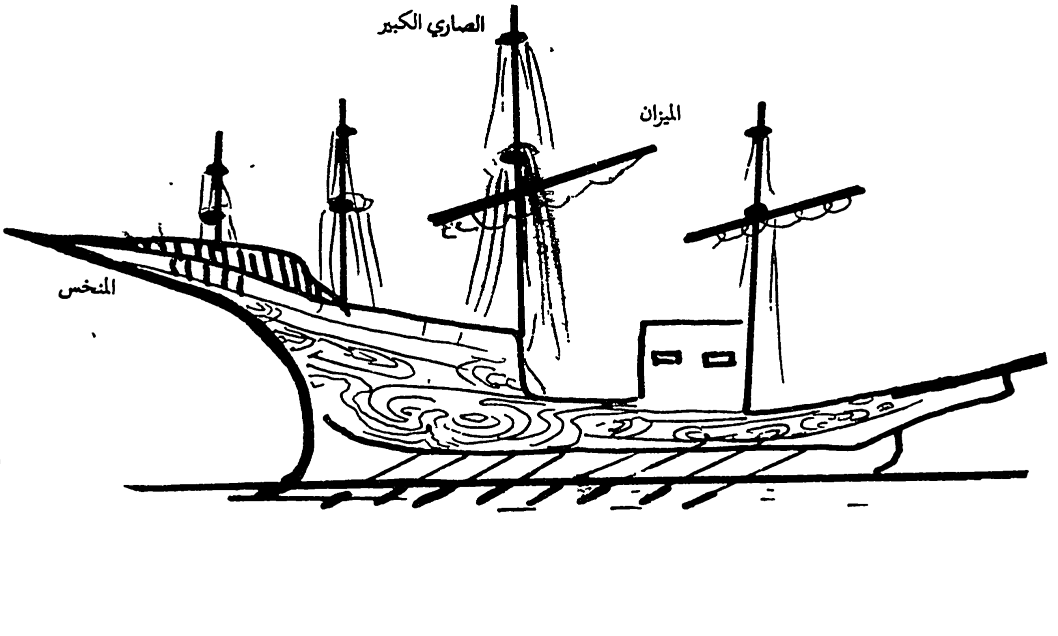

الفصـــل الـرابــع

مرحلـة مـا بعـد حـرب المـائـة عـام
(الاكتشـافـات الكبـرى)

الانتعاش الاقتصادي

كان النصف الثاني للقرن الخامس عشر عهد رخاء وازدهار . والحروب التي وقعت بين الملوك آنذاك كانت لإسقاط بقايا أنظمة الإقطاع البالية التي أعقبتها مرحلة صعبة من المصائب والآلام ، دفعت بالشعوب ، ولأكثر من خمسين سنة متعاقبة إلى إعادة بناء الوطن وتكريس القدرات لتغيير آثار الحروب وإزالة بقايا الاحتلال البغيض .

لقد عمل الملوك في كل دول أوربة على إعادة تنظيم طرق جمع الضرائب بأصول ثابتة تؤمن للبلد ميزانية مستقرة خصص قسم كبير منها لإقامة الجيوش النظامية لتحل محل الفوضى التي افتعلها مقاتلو الولايات ، وعسكر النبلاء ، فبدأ الاستقرار يعود والتجارة تنشط ، خصوصاً بعد توقيع الاتفاقيات التجارية الهامة بين الدول الأوربية فيما بينها من جهة وبينها وبين بلاد الشرق من جهة أخرى .

تحققت خطوات عديدة ضمن الأقطار الأوربية نفسها ، منها صك العملات ، وخاصة الفضية منها ، ثم التنقيب عن المعادن ، وزيادة في إنتاج الملاحات ، والبدء في إقامة صناعات خفيفة كصناعة الورق والطباعة والصباغة . فنمت الثروات بشكل عجيب ، وعمّ الرخاء جميع شعوب القارة

الأوربية . وعلى أثر هذه النهضة الاقتصادية انتعش الأسطول التجاري لدى الأمم ، حتى إن السفن التجارية بدأت تؤمن خطوط مواصلات ثابتة بين المشرق والمغرب ، تنقل السلع وتبادل بالمنتجات بنظام ودقة ، حتى إن خطاً بحرياً ثابتاً كان يربط سواحل فرنسا الجنوبية مع الوكالات التجارية في كل من مصر وسورية .

فرنسا وحروب إيطاليا « النزهة النابوليتانية »

عندما اعتلى عرش فرنسا شارل الثامن وهو الأمير اليافع اتجهت كل أنظاره نحو إيطاليا الحلم الذي راود الملوك الذين سبقوه ، إلا أنهم أحجموا عن المغامرة لسببين ، السبب الأول مرور فرنسا في دور البناء الداخلي ، والسبب الثاني غياب أسطول حربي مناسب لتلك المغامرة .

وكانت الأسباب التي تدفع ملوك فرنسا إلى احتلال إيطاليا حقوق استثمار بعض المؤسسات في كل من ميلانو ونابولي ، واعتقد الفرنسيون أن أطماعهم ستتحقق فيسيطرون على إيطاليا ويضمونها إلى المملكة الفرنسية ، خصوصاً وأن دور فرنسا آنذاك هو دور البلد المسيحي الأول في أوربة الذي أنيط به مهمة الوقوف أمام عظمة الشرق المتمثل بالامتداد العثماني أو بالأحرى الزحف الإسلامي ، فخلف هذا الشعار المعلن وقفت فرنسا تنفذ خطتها لتحقق أطماعها التوسعية وتأخذ دور إعادة عظمة الإمبراطورية الرومانية متمثلة بشخصها للسيطرة على الامتيازات الاحتكارية لتجارة المتوسط والمشرق وانتزاع هذه الثروات الضخمة من بين أيدي حكام البندقية وجنوة ، وللوصول إلى تلك المرحلة من السيطرة والاحتكار كان لا بد لها من احتلال إيطاليا .. وهذا الاحتلال يتطلب إقامة قوة بحرية كبيرة تؤمن الاتصال وتحمي قوافل الإمداد بالعتاد والمقاتلين بحراً نظراً لارتفاع جبال الألب الشاهقة بين البلدين والتي تصل حتى شاطىء البحر ولا تترك إلا ممراً صعباً ضيقاً يسهل التحكم به واعتراضه ، وفي آذار من عام (١٤٩٤) فتحت ترسانات طولون أبوابها على مصراعيها وبدأ إعداد السفن في الميناء البحري الناشيء على المتوسط ، وأخذت الاستعدادات البحرية تتعاقب إعداداً لغزو إيطاليا والسيطرة عليها وفي نهاية شهر تموز وصل أسطول الغرب (الأسطول الفرنسي للساحل الأطلسي) وانضم إلى التحشد المتوسطي المقيم في ميناء طولون الحربي .

استعرض لويس دورليان (الذي حكم فرنسا فيما بعد تحت اسم لويس الثاني عشر) أسطوله المحتشد وعدد سفنه (٩٨) سفينة بين حربية ونقل .. ثم قرر الإقلاع به باتجاه نابولي لغزو البر الإيطالي .

هاجم أسطول دورليان مدينة نابولي من البحر وضربها بمدفعيته ثم أنزل على برها المقاتلين الذين تقدموا وانضموا للقوات البرية الفرنسية القادمة براً وحققوا نصراً باهراً على المدافعين النابوليتانيين في معركة رابالو Rapallo في ايلول (١٤٩٤) ، حيث نزل المقاتلون خلف صفوف القوات النابوليتانية ومن ثم تقدموا فدخلوا مع قوات شارل الثامن المنتصرة مدينة نابولي في شهر شباط من عام (١٤٩٥) .

عملية رودس

ظل لويس الثاني عشر الأميرال السابق لحملة نابولي أميناً على أسطوله البحري يعتبره ضرورة أولى في تحقيق الحلم الذي راود مخيلته ، وهو السيطرة الكاملة على إيطاليا . وشعر هذا الملك أن جزيرة رودس المسيحية المتقدمة في شرقي البحر الأبيض المتوسط والمجاورة لسواحل الدولة العثمانية قد تغري الدولة العثمانية ، فتنقض عليها لتبعد المسيحية عن بلادها . وفي حال سقوط هذه الجزيرة بأيدي المسلمين فقد تضطرب مشاريع الملك لويس التوسعية . وكان يعلم أن سفن البندقية وحدها لا تستطيع تأمين الحماية اللازمة لهذه الجزيرة من بأس الجيش الإنكشاري والأسطول التركي .. فقرر الملك تعزيز حمايته للجزيرة ، وأعطى أسطوله الأمر بتقدمه إلى المياه العثمانية . وفي عام (١٤٩٩) اشتبك هذا الأسطول مع الأسطول العثماني بمعركة حامية الوطيس ، امتدت لعدة أيام ، وبموقع يسمى آرتا Arta قرب السواحل اليونانية ، ولكن دون نتيجة تذكر . وفي عام (١٥٠٠) أعيدت المحاولة ثانية إعداداً للسيطرة على الجزيرة ، واشترك بالإضافة إلى الأسطول الفرنسي الأسطول البروتوني ، والنورماندي والجنوبي وأسطول البندقية ، وجالت الأساطيل في بحر إيجه كله لكن سفنهم جنحت مع سفينة القيادة قرب ميتيلين Mitylène وانتهت المغامرة كما بدأت دون نتيجة حاسمة .

معارك الغرب الأوربي الكوردولير « La Crodelière »

تبدل كل شيء اعتباراً من عام (١٥١١) ، وتبين للعالم أن الأسطول الفرنسي عاجز عن الوقوف بوجه التجمع الأوربي ، وهذا التجمع الذي تألف خاصة لتحجيم فرنسا والحد من امتدادها وتوسعها . وقد تضمن هذا الحلف الآراغون ، وكاتالونيا وإنكلترا (الملك هنري الثامن) وفلامنك (ماكسيميليان) ، ففي حزيران (١٥١٢) هاجم الأميرال الإنكليزي هوارد[٢١] Howard الساحل الفرنسي ، ونهب كلاً من كونكيه وكروزون ، دون أن يلقى أية مقاومة تذكر ، وهرعت السفن الفرنسية تحتشد في الأطلسي لصد الغزو البريطاني .. وانسحب الأميرال الفرنسي كليرمون انسحاباً

تكتيكياً ليغطي استعداده البحري لمعركة مقبلة ، وتقدم الأميرال بريجان دو بيدو Prégent De Bidoux قائد أسطول المتوسط إلى الرملة البيضاء على الساحل الغربي لفرنسا ، وخلف الأسطول الإنكليزي الراسي في ميناء سان ماتيو .

كان الأسطول الفرنسي ــ البروتوني يتضمن (٢١) سفينة حربية عندما شاهد السفن الإنكليزية الخمسين في عرض البحر . وعلى الأثر قرر قائد التشكيل الفرنسي الانسحاب إلى مرسى برست ، وغطى هذا الانسحاب سفينتان ، سفينة القيادة لويز ، وسفينة الكوردولبير ، واستدارت الكوردولبير بعد انسحابها وعليها القائد البروتوني الأسطوري الشجاع بريموغيه Primauguet وهاجمت السفينة الإنكليزية الريجانت ، التي كانت تفوق مدفعيتها ضعف مدفعية سفينته واستمر الاشتباك مدة ساعتين ونصف الساعة اشتعلت على أثرها الريجانت واحترقت ، لكن سفن الإنكليز تكاثرت على الكوردولبير ، وهاجمتها من كل الجهات فغرقت حاملة معها قائدها الشهير .

حاول قائد أسطول المتوسط بلوغ برست إلا أن الأسطول الإنكليزي الراسي عند رأس سان ماتيو قطع عليه الطريق ، فاضطر للتراجع إلى خليج الرملة البيضاء كما تقدم ذكره ، وأبعد عنه هجوماً إنكليزياً محققاً ، بإغراق ثلاث سفن صغيرة للإنكليز في أثناء التراجع . وقد أصبح موقف الأميرال الإنكليزي هوارد صعباً ، فهو لا يستطيع الخروج بسفنه الكبيرة من مرساه في سان ماتيو ، لتعرضها لنيران السفن الفرنسية من جهتين متناظرتين بين الأسطولين الفرنسيين الشمالي والجنوبي وأخيراً قرر الأميرال الإنكليزي الخروج بالقوارب الصغيرة أولاً للمشاغلة لكنه قتل في ٢٥ نيسان . وبغياب الأميرال القائد دبّت الفوضى ، وانهارت المعنويات فتخلى قادة السفن الإنكليزية عن مواقعهم وانسحبوا ليلاً إلى المياه البريطانية .

حاول بريجان دو بيدو الفرنسي اللحاق بالأسطول الإنكليزي والإغارة على برايتون المرفأ الإنكليزي ، إلا أن خروج الآراغونيين في المتوسط على فرنسا وعصيان نابولي لاستعادة حريتها ، وإعلان مقاطعات شمال إيطاليا استقلالها كل هذا فرض على الأميرال الفرنسي التخلي عن خططه الهجومية في بحري الشمال والمانش وأقفل عائداً إلى المتوسط ، حيث حركات التحرر والعصيان في كل مكان .

وهكذا توقفت الحرب البحرية الانكلو فرنسية دون أن يستغل النصر فيها ، وتراجع الفرنسيون عن خططهم الهجومية ، بعد أن وجدوا أن عليهم مواجهة أكثر من مغير .

شارل كنت وأوربة الغربية

في عام (١٥١٩) توج شارل كنت[٢٢] إمبراطوراً على إسبانيا وعلى مملكتها الواسعة والتي ضمت البلاد المنخفضة، وألمانيا وقسماً كبيراً من إيطاليا، فأصبحت فرنسا محاطة بالأعداء من كل جهة، وأصبح خطر غزوها قائماً في جميع المحاور، وبالفعل تم الاجتياح بتقدم الغزاة من الشمال حتى وصلوا منطقة شمبانيا، وظهر الإسبان قرب مدينة بايون جنوباً، وأعلن هنري الثامن ملك إنلكترا حربه على فرنسا مدفوعاً بعدائه القديم لها وبعث بأسطوله عام (١٥٢٢) فضرب سواحل النورماندي تمهيداً لغزو البر الفرنسي.

كان على عرش فرنسا آنذاك الملك فرنسوا الأول[٢٣] الذي هب لصد الغزاة وعلى جميع الجبهات حتى إنه أرسل حملة عسكرية استكشافية وأسطولاً مؤلفاً من (٨٧) سفينة وصلت إلى دومبارتون لمساعدة أصدقائه الايكوسيين. إلا أن الأمر لم يطل بحملة المساعدة هذه، إذ سرعان ما تدهور الموقف ثانية، حتى اقترح بوربون[٢٤] (وهو أحد قادة فرنسا الذين انشقوا عن فرنسوا وانحازوا إلى جانب شارل كنت ملك إسبانيا) اقترح خطة واسعة لاجتياح فرنسا. وبدأ بتنفيذها بعد أن صدق شارل كنت عليها.. ونتج عن ذلك اجتياح البروفانس والاستيلاء على مرسيليا، ثم تقدمت القوات الإسبانية الرئيسية بمعونة قوات بوربون نحو باريس، حيث التقت هناك بملك إنكلترا الذي زحف من الشمال، وهكذا اقتسمت فرنسا بين الحلفاء الجدد.

خلال زحف بوربون وحصاره لمرسيليا تعاون مع الأسطول النابوليتاني في تغطية القوات البرية، وتأمين النقل بحراً من إسبانيا إلى إيطاليا، إلا أن الفرنسيين وبمعونة أسطول جنوة حليفتهم (٣٠ سفينة حربية) هاجموا النابوليتانيين المحاصرين لمرسيليا بحراً ففكوا الحصار عنها، ثم أمدوها بالرجال والسلاح لتتمكن من الصمود أمام الغزاة، ثم توجهت هذه القوة نحو جنوة المحتلة فحررتها، ثم استولت على جميع السفن المعادية المتواجدة في الميناء. لكن لسوء حظ فرنسا توقف هذا الهجوم البحري مع انهيار مقاومة جيوش فرنسوا الأول أمام الغزاة الإسبان، وتحققت هزيمتهم النكراء وقبض على الملك الفرنسي أسيراً، ونقل إلى مدريد، ولم يفرج عنه إلا بعد توقيعه معاهدة مع شارل كنت..

كان ملك فرنسا حين أحاطت به الأخطار قد فكر بالاستعانة بالمسلمين المعاصرين له والمتمثلين بالدولة العثمانية.. وظلت هذه الفكرة تراود مخيلته في أثناء الأسر. وعند عودته إلى بلده إثر معاهدته مع إسبانيا، أقام حلفاً مع العثمانيين. وكانت الإمبراطورية العثمانية أقوى دولة في المنطقة

قاطبة، وتمتلك أكبر قدرة بحرية في العالم يزيد عدد سفنها عن (٣٠٠) سفينة حربية كبيرة، ولها قوة متقدمة في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي متمركزة في الجزائر تتمثل بالأميرال خير الدين بربروس الذي امتدت شهرته في كل أوربة الغربية وشواطئها، وسيطر على المتوسط الغربي، ودان له البحر في أيام مجد إسبانيا وعظمتها، حيث سُحق أسطول إسبانيا مراراً وهُزم أمام سفن خير الدين بربروس العتيدة، ومقاتليه الأشداء. وكانت نتائج كثير من تلك الاشتباكات كوارث حقيقية على إسبانيا أحياناً.

عندما طبقت بنود الحلف التركي الفرنسي عام (١٥٢٥) والذي كان قد بدأ بمحادثات في القسطنطينية مع السلطان سليمان القانوني، هب العثمانيون مراراً لنجدة حلفائهم الفرنسيين، وجاء الأميرال خير الدين على رأس (١٧٤) سفينة حربية عام (١٥٢٦) لشواطىء فرنسا، وشارك حلفاءه الفرنسيين في حصار نيس، وأمضى شتاءه في ميناء طولون، ثم تبعه في الأعوام التي تلت سنان باشا، ترغوط ريس، بيالي باشا، ومئات السفن يحمون شواطىء الحليف، ويصدون عنهم إغارات الأعداء، ويهاجمون سواحل إيطاليا والجزر القريبة منها، يزرعون الرعب في النفوس، لما عرف عنهم من البأس والشدة في القتال.

ترك هذا الحلف التركي الفرنسي أثراً كبيراً في الحياة العامة الأوربية، إذ حصل تقارب فعلي مع الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف، فأرسلت القناصل والسفراء وتعمقت الصلات، ولم يبق بعيداً عن هذا التقارب إلا ملك إنكلترا الذي استمر عداءه لفرنسا وحليفتها الدولة العثمانية، حتى توقيع معاهدة عام (١٥٤٦).

عانت تجارة أوربة الكثير من لصوص البحر في تلك الحقبة من الزمن. وكان أشد القراصنة خطراً على سلامة تلك القوافل هم القراصنة الإسبانيون. ولم تجد الدول الأوربية البحرية بداً من التفاهم مع هؤلاء الخارجين على القانون، لتفادي شرهم، وحماية خطوط مواصلاتها، وتوفير قدراتها البحرية للمهام القتالية الأخرى، وكانت القرصنة واللصوصية البحرية طابع تلك الحقبة من التاريخ.

الحياة البحرية في القرون الوسطى وأثرها في الاكتشافات الكبرى

تميز القرن الخامس عشر بأحداث تاريخية هامة منها.. معرفة طريق الهند، وإقامة **العلاقات** المنتظمة بين بلدان كثيرة، وشعوب بعيدة تفصلها مسافات شاسعة.

وطبع هذا القرن بإطار واسع من الصلات الدولية، فتطورت حضارته، وخصوصاً لدى شعوب ظلت حبيسة في منطقة البحر الأبيض المتوسط ولزمن طويل.

تحقق التطور الحضاري بفضل تقدم وسائط الملاحة البحرية، وبفضل ظهور عوامل تاريخية جديدة، دفعت بالباحثين عن المعرفة ليحثوا الخطا لاستكمال المد الحضاري، والذي بدأ فعلاً مع فتوحات الإسلام. وإلى جانب إكمال مسيرة الحضارة برزت فائدة اتساع التجارة البحرية، وهي الباب الواسع للإثراء السريع، فكانت هدف الملوك وآمال الرجال.

قامت حروب كثيرة لتعزيز المد الحضاري، ولكسب الأسواق التجارية، ولتقوية المؤسسات التي تعمل في استيراد وتصدير المنتجات، فتوجبت حماية هذه الحقوق وحماية الهيئة العاملة على الكسب والإثراء، وبرز واجب الدولة الحقيقي في تقديم الحماية والدعم لتلك المؤسسات.

أ ـ شمال أوربة

إن الشروط الصعبة والمعقدة لنقل بعض المنتجات التجارية في شمال أوربة كالمواد الأولية (نحاس، حديد، قصدير، فحم، جلود، صوف) أو المواد الغذائية (أسماك، ملح، حبوب، جعة) أعطت الملاحة البحرية دفعاً نحو الازدهار والتقدم، فالسمك مثلاً كان على رأس قائمة المنتجات المنقولة، وسفن الصيد تسعى بين شواطىء جزيرة إيسلندة و غروئنلندة، لنقل الغذاء الأولي للشعوب، وعمل الصيادون النرويجيون والبروتونيون والإنكليز وسكان جزر الساند على تطوير سفنهم وتقويتها، لتغطية المهام الشاقة الموكلة إليها، ثم أتى الملح في الدرجة الثانية، فانتشرت الملاحات على طول سواحل خليج غاسكونيا جنوباً وحتى سواحل بحر الشمال ومدينة هامبورغ شمالاً، وجاء الخشب في الدرجة الثالثة، وكان الطلب عليه شديداً وخصوصاً خشب البلطيق المستخدم في بناء المدن والمساكن، وفي تعمير السفن. وأخيراً جاء فحم السويد وحديدها، وهما المادتان الرئيسيتان المطلوبتان في الصناعات المعدنية.

إن نقل مختلف المواد التي ذكرناها عبر مسافات شاسعة وفي منطقة شمالية باردة عمل مهم انتقل إلى أيدي رجال مهرة، توزعوا على كافة المدن الساحلية الهامة، يسيرون أمور الشحن والنقل والشراء والبيع. وسرعان ما وجد هؤلاء الرجال أنفسهم بحاجة إلى التماسك ضمن اتحاد يضمهم، فنشأ ما سمي بالحلف التجاري Ligue Hanséatique.

بدأت سفن دول بحر المانش تنتقل من مرافىء كولون وبريم وهامبورغ ولندن وآنغرس الخ...

تنقل وحدها ثلاثة أرباع الصوف الصادر من إنكلترا، إضافة إلى كل البضائع الأخرى المنقولة عبر البلطيق وبحر الشمال. واشتدت المضاربة مع سفن الدانمركيين الذين حظوا بمواقع جغرافية جيدة على المعابر البحرية الهامة لخطوط النقل، تسهل لهم أعمالهم. إلا أن تدخل الحلف التجاري أعاد السيطرة، واحتكر كامل النشاطات البحرية، فعظم شأنه بين دول شمال أوربة، حتى أحكم قبضته على مجالات واسعة وقطاعات هامة، مستخدماً طرقاً عديدة وأساليب متطورة مختلفة، نذكر بعضاً من بنودها:

ــ أسلوب التخويف والضغط.

ــ استغلال الشعوب المتخلفة.

ــ مناورات مالية على الحكومات.

ــ تنظيم دقيق للنشاطات البحرية متمثلاً باستخدام السفن الكبيرة (حتى ٢٠٠٠ طنه) ذات العنابر الضخمة.

ــ زرع منارات ملاحية على السواحل، ووضع علامات بحرية في الأماكن الصعبة والممرات الخطرة.

ــ إعداد مرشدين أكفاء للعمل على إرشاد السفن في الموانىء والممرات.

ــ وضع قانون بحري ينظم علاقة المالك، بالتاجر، بالربان ومركبه.

ــ ثم وضع قواعد الانضباط بحراً لاحترام الحقوق البحرية..

ب ــ المتوسط

توقف المد الإسلامي عند بواتييه بعد أن ساد إسبانيا وشمال إفريقية، وغربي المتوسط، وآسيا الصغرى، والعديد من الجزائر، وكانت الخلافة الإسلامية ومن بعدها الدولة العثمانية هي القوة المهيمنة الوحيدة على خطوط المواصلات البحرية في المتوسط، وأقيمت صلات بحرية هامة بين قبرص ورودس وسردينيا وصقلية، وهي مراكز منتشرة في البحر وقواعد تجارية هامة، ومحطات بحرية تربط البر الأوربي بالبر الإسلامي.. وكما حصل في بحر الشمال، وقرصنة النورمانديين فيه، نشط القراصنة في المتوسط.. فمن اللصوصية، إلى قرصنة ملتزمة، إلى إتجار مشروع، انتقل إلى العاملين في البحر.. فكانوا النواة الأولى التي حققت عمليات نقل بضائع ومنتجات الشرق إلى أسواق أوربة. وكان عملاً إفرادياً لأن الروابط مع أوربة المسيحية آنذاك لم تكن واضحة المعالم.

دفع المسلمون كميات كبيرة من الذهب في الأسواق التجارية. وقد جاءتهم هذه الكميات من هذا المعدن غنائم ربحوها من الأورال، ومن السودان فنشطت على أثر ذلك حركة التجارة في المتوسط، وامتدت من البحر الأسود شرقاً حتى بحار إسبانيا غرباً، فلما جاءت الحملات الصليبية تجددت الحيوية في حركات عبور المتوسط، ليس بعامل انتقال المقاتلين فقط بل عادت المنتجات الأوربية تنتقل إلى الشرق لتعود السفن بالمنتجات الشرقية، جاءت تحمل الصوف الإنكليزي لتعود محملة بالتوابل والحرير، وازدهرت على أثر ذلك مرافىء كثيرة منها جنوة، بيزا، أمالغي، مرسيليا، برشلونة، فينيسيا، بالإضافة إلى المرافىء العربية والإسلامية التي كانت منتشرة في كل أرجاء العالم العربي والتي ورد ذكرها في الفصل الأول من المؤلف.

صلات أوربة الشمالية بأوربة الجنوبية

كانت التجارة تنتقل بين دول أوربة عن طريق البر نظراً للسهولة، إذ أن البضاعة المنقولة لم تكن بالحجم الذي يتطلب نقله بحراً وطريق البحر محفوف بالمخاطر، لانتشار القراصنة فيه، وخاصة في الممرات الإجبارية أمثال مضيق كاليه، ومضيق جبل طارق اللذين كان على السفن القادمة من الشمال عبورهما، إلا أن انتشار الاضطراب وتعدد الحروب بين ملوك فرنسا ونبلاء الفلاندر وملوك إنكلترا رجح كفة النقل بحراً، وأصبحت سفن جنوة والبندقية تجوب موانىء بحر الشمال لتنظم خطوط مواصلات بحرية ثابتة بين مرافىء المتوسط ومرافىء بحري الشمال والبلطيق والسواحل الإنكليزية.

الملاحة في أعالي البحار

مر ذكر تطور تعمير السفن في القرون الوسطى في فصل سابق، وشهدنا كيف أن السفن أصبحت قادرة على مواجهة العواصف والأنواء البحرية، والبقاء طويلاً في البحر، تسير مبتعدة عن الشواطىء ماخرة عباب المحيط، وكان لزاماً على هذه السفن تحديد مواقعها في البحر، ورسم خط سيرها، من أين وإلى أين تتجه، دون ملازمة الساحل أو استخدام العلّامات الأرضية، بل معتمدة على ملاحة فلكية دقيقة في رصد الكواكب والنجوم. وهذا فرض دقة متناهية في رصد حركة الكرة السماوية ونجومها.

ساهمت البوصلة البحرية في تحسين طرق الملاحة في البحار البعيدة. ولقد بدت في مراحلها الأولى بدائية تتألف من فلز مغناطيسي يعطي اتجاهاً ثابتاً للملاح، يعينه على تحديد اتجاه سيره في

البحر ، بالمقارنة مع الاتجاه الثابت الذي ينحاه الفلز ، ثم أدخلت تحسينات عدّة حتى وصل هذا الشيء الملاحي للبوصلة المعروفة التي استخدمها الإيطاليون في بداية القرن الرابع عشر ، ثم عمت في القرن الخامس عشر جميع سفن الشعوب الأخرى ..

سمحت البوصلة بالإبحار بعيداً عن الشاطىء معطية الملاح فكرة عن خط سيره يساعده على معرفة موقعه الجغرافي وبالاستعانة ببعض العمليات الحسابية الفلكية البسيطة ، واستخدام نجم القطب أو بضعة نجوم أو سيارات أخرى معروفة أعطت الملاح فكرة عن موقعه الجغرافي على أنه نقطة من مثلث كروي سماوي .. وبظهور الخرائط البحرية استطاع رسم طريقه وتقدير زمن وصوله التقريبي .

ظهرت الخرائط البحرية بشكلها البدائي عام (١٢٩٠) لدى ملاحي جنوة ، ثم طوِّرت هذه الخرائط وحسنت ، فغدت ذات فائدة كبيرة ، وفي عام (١٣٨٧) ظهر أول أطلس كاتالاني .. إلا أن جميع هذه الخرائط لم تكن إلا ارتساماً مشوهاً للبر والبحر ، قليل الدقة موروثة عن مخططات يونانية قديمة ، لم تقدم للملاحة إلا فائدة محدودة ، نظراً لبعدها عن الواقع .

وفي عام (١٥٦٩) جاء جيرار كريمبر ميركاتور الفلمنكي [٢٥] Mercator ووضع أسس ارتسام الخرائط الذي أطلق اسمه على نوع هذا الارتسام ، ثم جاء البريطاني رايت Wright الذي أوجد العلاقة الرياضية للارتسام وظهرت خرائط جيدة استطاع الملاحون استخدامها ورسم مساراتهم البحرية عليها بخطوط مستقيمة . وأصبحت الملاحة عملية رياضية تتصف ببعض الدقة ، ولو أن ملاحي البحر الأبيض المتوسط تخلفوا عن هذا التقدم ، واستمروا في استخدام الخرائط المسطحة ، ذات خطوط الطول المتساوية البعد ردحاً من الزمن .

ولمعرفة موقع السفينة استخدمت الملاحة الشاطئية ، ثم الملاحة الفلكية عندما يغيب الشاطىء عن أعين الملاح .. حدد خط عرض الموقع بأخذ ارتفاع القطب (نجم القطب) عن الأفق ، وأطلقت تسميته بالملاحة الارتفاعية ، لأنها تعتمد على قياس ارتفاع النجم ، واستخدم لقياس ذلك الحلقة الفلكية ، ثم الاسطرلاب الخشبي ، وبعدها الاسطرلاب المعدني (وهو عبارة عن أسطوانة رصد تتحرك على قوس مدرج) .. وبعد الاسطرلاب ظهرت أجهزة أكثر تعقيداً منها القوس أو « عصا يعقوب » ، ثم آلة الربع ، أو ربع الدائرة التي ابتكرها جون دافيس من دارتموث في إنكلترا ، والتي اشتق عنها آلة السدس Sextant المستعملة في رصد الأجرام السماوية .

كان الخطأ الملاحي في الأجهزة البدائية كبيراً، ثم استعين بارتفاع الشمس ومرورها في نقطة الزوال ظهراً.. وأقيمت جداول ملاحية تعطي موقع الشمس وارتفاعها عن مستوى الاعتدال يومياً. وفي عام (١٤٧٦) ظهر أول تقويم فلكي Almanach أعده البرتغاليون لاستخدامه في الحسابات الفلكية.

تحديد خط الطول ظل الأكثر صعوبة. ولم تنجح الطرق الفلكية في تقديره وظل كذلك حتى اختراع الساعة البحرية، وقائس المسافات المقطوعة. وكان يتم ذلك بتقدير حركة سير السفينة، أو أثر الموج أو الأخدود المائي Sillage الذي يتولد من حركة السفينة. ومع ذلك كله، وبرغم أن الملاحين الكبار أمثال كولومبوس وماجيلان تبجحوا دوماً بأن خطأهم الملاحي لم يتجاوز الدرجات المعدودة في خطوط الطول فقد كانت أخطاؤهم أحياناً غاية في الجسامة، إذ عندما وصل ماجيلان جزر الفليبين كان يعتقد بأنه على (١٩٦) درجة من جزر كناري التي اعتبرها آنذاك مبدأ لقياسه في حين كان فعلياً على (٢١٨) درجة من هذه الجزر.

الأسباب التي أوحت بالاكتشافات البحرية

بدأت هذه الاكتشافات بمحض الصدفة، وأثر رحلات بحرية طويلة للعثور على أرض جديدة. وأسباب هذه المغامرات كثيرة برغم اعتدال ومسالمة أمم المتوسط وغرب أوربة آنذاك، فروح المغامرة تقليد عمّ شعوب القرون الوسطى، وظهر جلياً لدى زعماء عصر التجديد، بطفرة عارمة كلها نشاط نحو المجهول، فألفت تشكيلات من المغامرين قامت بفروسية المحيطات Chevalerie De L'ocean، وشجعها استثمار ناجح وإعجاب من الجماهير، وترغيب من الكنيسة الكاثوليكية وكانت مصدر التمويل الرئيسي لها، يقابلها دفء وإيمان ديني، حرَّض على حملات صليبية طمعاً في كسب المزيد من الأراضي، أو انتزاع الأرض من الإمبراطورية الإسلامية، وكأنه سباق مع الإسلام الذي امتد آنذاك فغطى أكثر بقاع العالم المتحضر.

قامت الرحلات لفتح المزيد من البلدان ولإعلاء مجد المسيحية، وهدي السكان الأصليين وتبشيرهم. حتى إن بعض الفاتحين تحمسوا للدين حتى الصوفية الدجلية، واتسمت أعمالهم أحياناً بالقسوة والعنف، وأحياناً أخرى بحب الوطن والتفاني بخدمة الإنسانية، وغالباً بشهوة المجد. كل ذلك دفع بالمستكشفين إلى المغامرة باندفاع وقوة.

كان للأسباب الاقتصادية دور كبير في نشاط المغامرين، فالأهمية الأزلية للتجارة خاصة مع

الشرق ، والمطلب المتزايد للتوابل والعقاقير ، دفع بالمغامرين من سكان جنوة والبندقية لمرافىء البحر الأسود ، يطلبون تلك السلع التي كانت تأتي عبر القارة بقوافل برية ، ومن مرافىء سورية ومصر ، ينقلها التجار العرب من الخليج العربي عن طريق البحر الأحمر . وكانت التجارة لا تعرف حدوداً ، تمتد شرايينها من نهر الفولغا وحتى المحيط الهادي ، عبر إمبراطوريات تباينت حضارياً وفكرياً ودينياً وبطرق رئيسية ثلاث :

١ ــ طريق الصين ــ آسيا الصغرى ــ البحر الأسود ــ فبحر البلطيق .
٢ ــ الخليج العربي ــ بلاد ما بين النهرين ــ سورية ــ فالمتوسط .
٣ ــ شمال إفريقية ــ البحر الأحمر ــ الاسكندرية ــ فالمتوسط .

سد طريق الصين بعد انهيار الإمبراطورية المونغولية وسيطرة العثمانيين الذين لم يشجعوا التجارة عبر إمبراطوريتهم . وسد طريق الخليج العربي بعد سقوط خانات العجم . وانقطع طريق ماركو بولو عبر آسيا الوسطى ، فأغلق باب المشرق أمام الأوربيين . أما في المتوسط فقد أحكم المسلمون سيطرتهم على الإمبراطورية البيزنطية ، فتوقفت التجارة ، وامتنعت المنتجات القادمة من مصر وسورية في الوصول إلى أوربة وفي الوقت نفسه ولأسباب مناظرة أغلقت الممرات التي كان الأوربيون يستخدمونها في نقل السلع مع إفريقية الوسطى ، فتولد تراجع عام ، وتوقف المد الجغرافي البديل واستكانت التجارة لفترة من الزمن ، لكنها استفاقت بعد حين وهي أكثر عزماً وتصميماً . وراحت تفتش عن أفضل المسالك البديلة للبحث عن الثروة بشراهة واحتدام . .

إن الشغف الكبير في البحث عن الثروة غدا صفة جنونية دفع بالآلاف من الرجال عبر المحيطات بحثاً عنها ، حتى وصل هذا الاندفاع إلى أكثر الساسة رزانة ، فجندوا موارد بلادهم للبحث عن العالم الجديد ، وللغرف من كنوزه ، مدفوعين بعامل الشهوة وحب الاستطلاع ، وفي بعض الحالات للبحث عن المعرفة بفكر علمي . ويمكن تلخيص الدوافع بالكلمات التالية :

حب في المغامرة ، إخلاص في الدين ، شغف في الربح ، فضول علمي ، إقامة مجد ، تلك هي أهم الأسباب التي شجعت الرجال في القرنين الخامس عشر والسادس عشر على البحث عن المجهول ، وجاء شعبا البرتغال وإسبانيا في مقدمة الشعوب المغامرة .

البرتغال

طبيعة سواحل البرتغال وموقعها الجغرافي لا يتيحان لها امتداداً برياً، فرقعة أرضها شريط ضيق ساحلي يشغل بقعة صغيرة من الأرض يحدها من الشرق المملكة الإسبانية القوية وليس أمام شعب البرتغال الفتي إلا المسرح البحري يفرغ فيه طاقاته ونشاطاته.

انتقل البرتغاليون إلى إفريقية على مدى ١٥٠ عاماً (١٤١٥ ـــ ١٥٧٨) يحاربون السكان الأصليين، ويسعون لاحتلال المغرب، واحتلال بلدان أخرى، لمد مجالهم الحيوي. ولم تكن رحلاتهم الاستكشافية في البدء إلا شكلاً من أشكال القتال، استهدفوا من خلاله سكان إفريقية من شعوب المور والشعوب الأصلية.

لمع رجل ذكي هو ابن الدون آنريك هنري الملاح(٢٦) دوق فيزو حاكم مقاطعة الكارفي، وكان في العشرين من عمره شجاعاً ذكياً محباً للمغامرة. وأقام الدوق قرب رأس فانسان جنوب الساحل البرتغالي. وكان همه الانتقال إلى الطرف الآخر من البحر بدافع الفضول والبحث عن الجديد، وأوفد على مر الأيام رسلاً على طول سواحل إفريقية كانوا له بمثابة رحالة وعيون ينقلون له الصورة الكاملة عن طبيعة الشعوب هناك. وظل يجمع المعلومات، ويدون الملاحظات، ويرسل التوجيهات لتخطي الصعاب ومجابهة الأخطار، وما إن تم له كل شيء حتى بدأ في حملاته الحربية. واستهدف في البدء شعوب المور، وهم البربر المقيمون في سواحل إفريقية الشمالية. وكان أغلبهم يدين بالإسلام. ولكي لا يلفت أنظار المستعمرين الأوربيين أعطى لغزواته صفة التبشير للدين المسيحي.. ولما استقر به المقام كشف عن نواياه، وراح ككل المستعمرين يبحث عن الثروة في الأقاليم الاستوائية، ثم انتهى به المطاف للبحث عن طريق الهند عبر جنوب القارة الإفريقية. وتقول القصص التاريخية بأنه أقام علاقات وطيدة مع مملكة القديس يوحنا العجيبة*، وتلك كانت إحدى الدوافع التي شجعت الدوق للبحث عن المعرفة.

ابتدأت الاكتشافات البحرية في المحيطات بعد أن أصبح البحر الأبيض المتوسط بحراً مكتشفاً من جميع جوانبه ولدى جميع شعوبه.

* ملك مسيحي عاش وسعبه بين السكان الأصليين ينتظر قدوم إخوانه الأوربيين لنجدته. ولم تذكر القصة التاريخية مكان هذا الشعب وبدء قيامه، لكن يظن بأنه مجتمع مسيحي في أواسط آسيا ضمت بعض أمراء المنغول. وقيل في أواسط إفريقية.. وتلك كانت القصة التي تفتقر للحقيقة. ويقال بأن البرتغاليين اعتقدوا أن الحبشة هي هذه المملكة المسيحية المنعزلة.

بدأت الرحلات الطويلة بتجاوز رأس بوجادور، وهو رأس على الساحل الغربي لإفريقية، يقع إلى الجنوب من بلاد المغرب. وكان أول من تجاوز هذا الرأس عن معرفة وتصميم الإيطاليان دوريا[٢٧] وفيفالدي، وذلك في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي. ثم جاء المايوركي (نسبة إلى جزيرة مايوركا) جاك فيرير عام (١٣٤٦)، واستطلع المزيد من الساحل الإفريقي.. ثم انقطعت أخبار الرحلات البعيدة. حتى جاء البرتغاليون فاكتشفوا جزيرة المادير Madère عام (١٤١٨)، ثم جزر الآسور Açores عام (١٤٣٢). وكانت هذه الجزر غير مأهولة فاستملكها البرتغاليون وأقاموا فيها، وباكتشاف الجزر الخضراء Cap vert عام (١٤٤٥) سقطت أسطورة المنطقة المحرقة من الأرض، والتي لا يمكن بلوغها، وإن بُلِغت فهي غير صالحة للحياة أو الزراعة Zone Torride. وفي عام (١٤٧١) وصلت السفن البرتغالية رأس ريو غراندي، وقطعت خط الاستواء، حتى كان عدد السفن البرتغالية التي كانت تجوب المنطقة يفوق الخمسين، جلها تقصد سواحل إفريقية للاتجار بالذهب والعبيد.

رأس الرجاء الصالح وطريق الهند

مرت فترة توقف طويلة إثر اضطرابات داخلية في البرتغال، جعلت الملاحة البعيدة إلى النصف الكرة الجنوبية عسير. حتى جاء الملك جان الثاني فأعادها بزخم، وأعطاها كل ما تستحقه من إمكانات. ولكي يعزز أعمال البحر أقام معهداً بحرياً حشد فيه كبار علماء الرياضيات والفلك والملاحة عام (١٤٨٢)، ليقوموا بتثقيف قادة السفن، وليعلموهم الطرق الحديثة في الملاحة الفلكية..

عادت رحلات الاستطلاع والاستكشاف إلى حيويتها السابقة، ولكن بتواتر أكثر. وكان الهم الأول للملاحين الذين يجوبون البحار هو في إيجاد طريق للهند بالالتفاف حول جنوب القارة الإفريقية. وكان هذا الطريق قد طرق قبلاً من الفينيقيين واستخدمه العرب في الوصول إلى جزائر الهند، ووقعوه على خرائطهم البحرية، إلا أنه كان مجهولاً للأسرة الأوربية، أو بالأحرى للمغامرين الأوائل من الملاحين البرتغاليين.

كان دييغو كاو[٢٨] Diego Câo ملاح برتغالي (١٤٨٢ ــ ١٤٨٥) قد وصل حتى خط عرض ١٢° جنوباً. وكان في كل مكان يستكشفه وينزل فيه يضع ركيزة صخرية دلالة على تملكه للمكان.

دخل كاو نهر زائير في الكونغو، وحاول صعود مجرى النهر، ثم تجاوز مدخله إلى الجنوب. وجاء بعده الملاح بارثيليمي دياز[٢٩] Barthélèmy Diaz، ودخل في عمق المحيط مبتعداً عن الساحل وعن منطقة التيارات البحرية المعاكسة، ونزل جنوباً ثم استدار حول رأس الرجاء الصالح. وكان يسمى آنذاك برأس العواصف. ثم جاء الملاحان كوفيلهام[٣٠] Covilham وبايفا Paiva فدخلا المحيط الهادي آتيين من البحر الأبيض المتوسط.

تتابعت عمليات جمع المعلومات المتعلقة بالساحل الإفريقي، ودونت هده المعلومات لصالح الملاحة البحرية. وكان العرب قد عنوا بتطبيق هذه المعلومات بنجاح، واستخدموا الرياح المسماة بالصابيات Alize[٣١] بعد التعرف عليها واستغلالها، ولم يبق على البرتغاليين إلا وصل الطريقين الرئيسيين إلى المحيط الهندي والهند، بالاستدارة حول رأس العواصف (الرجاء الصالح) أو بالنزول في البحر الأحمر جنوباً والاستدارة حول شبه الجزيرة العربية.

وقد عززت رحلة كريستوف كولومبوس والسباق مع الإسبان نشاط البرتغاليين ودفعتهم إلى المزيد من الإقدام، فبسفن ثلاث و (١٦٠) رجلاً أقلع فاسكو دو غاما[٣٢] Vasco De Gama من ليشبونة في ٧ حزيران (١٤٩٧)، ووصل في نهاية العام لساحل إفريقية الشرقي، ونزل في أرض ناتال Natal على الساحل الشرقي لجنوب إفريقية، بعد عبوره لرأس العواصف. ووصل إلى ميليندا Melinde في غينيا (نيسان ١٤٩٨). وبمعونة مرشد هندي من قبائل البارسي قاده خلال ثلاثة وعشرين يوماً حتى كالكوتا. وبقي فيها أربعة أشهر إلا أن طريق العودة كان شاقاً مميتاً وشديد العواصف. وعاد فاسكو في شهر آب من عام (١٤٩٩) إلى ليشبونة بعد أن فقد إحدى سفنه.

أصبح البرتغاليون يعرفون تمام المعرفة طريق الهند فتطلعوا إلى اكتشافات أوسع. وجاء بيدرو الفاريس كابرال[٣٣] Pedor Alvarez Cabral فابتعد إلى عرض المحيط متفادياً الطقس الساكن والتيارات البحرية المضادة فوصل بطريق الصدفة إلى أرض سانتا كروز في البرازيل. وكان ذلك في عام (١٥٠٠) وفي العام نفسه اكتشف كورتيريال Cortereal الأرض الجديدة التي اعتقد آنذاك بأنها طريق جديد إلى الهند عن طريق المضيق الذي يفصل هذه الجزائر عن القارة الأمريكية.

اعتبرت اكتشافات البرتغاليين توازي اكتشافات الإسبان. وخشية وقوع صدام بينهما وقعا اتفاقية ثنائية تدعى باتفاقية torديسيلا[٣٤] Tordesillas وفيها رسم حد فاصل يفصل بين منطقتين مميزتين، اعتبرت كل منطقة من المحيط مجالاً حيوياً، واحدة للبرتغال، والأخرى للإسبان.

الاحتلال البرتغالي، واتساع الإمبراطورية البرتغالية

امتدت سيادة البرتغاليين إلى الهند الشرقية حتى أطلق على مليكهم عمانوئيل اسم «سيد الملاحة والتجارة في الجزيرة العربية وبلاد العجم والهند». ولم تكن البرتغال بالبلد المستعمر تماماً، بل بلد يسعى وراء الثروة بكافة أشكالها، وباستغلال كل أنواع التجارة، وخاصة الإتجار بتوابل وحشائش الهند، بالإضافة إلى ذهب مونوموتابا(٣٥) Monomotapa وماس غولكوند(٣٦) Golconde. واستغل البرتغاليون فرصة تقهقر تجار الشعوب الأخرى في المنطقة، وخاصة تجار مدينة البندقية والتجار العرب والأتراك فحاولوا التفاهم مع الشعوب الغنية بشتى الوسائل. وعندما تعثرت لغة الكلام معهم لجؤوا إلى شق طريقهم بقوة السلاح، وخاصة عند تعاملهم مع دويلات الهند. وفتحوا طريقهم، وخاصة الطريق الجديد عبر السويس أو عبر بلاد العجم. وهنا هبَّ بعض العرب والأتراك لمحاربة المغتصبين الجدد من البرتغاليين، ضمن حروب محلية صغيرة محاولين طردهم أو تقليب أمراء الهند عليهم، حتى أصبحت الصفقات التجارية تعقد بطلقات المدافع.

حاول نائب الملك المقيم الميدا(٣٧) Almida تخفيف وطأة الحروب البرية بالسيطرة على بعض المناطق الساحلية الهامة، وهي المناطق التي تؤمها السفن البرتغالية للراحة والإتجار، فشيد حولها الحصون والقلاع، وجعلها نقاط دفاع مغلقة، تستطيع الدفاع عن نفسها ضد الهجمات المعادية الآتية من البر.

اتسعت الإمبراطورية البرتغالية وامتدت على سواحل إفريقية ومدغشقر والهند، حتى وصلت سواحل الصين الجنوبية وبعض جزر اليابان، وتقول بعض القصص التاريخية إن رحلات المستكشفين البرتغاليين جابت بحار الجنوب وحطت في غينيا الجديدة، وفي أوستراليا.

كان قصد البرتغاليين من الاستيلاء على الجزر والأراضي الجديدة وراء البحار جني الثروات، دون أن يسعوا إلى إقامة مؤسسات استعمارية بمعناها الحقيقي.. فكانت سفنهم تحل في تلك البلاد، لتحمل منها منتجات الشرق المتنوعة إلى ليشبونة. وهناك يهرع تجار دول أوربة لشراء تلك البضائع الثمينة ويدفعون بها الذهب الرنان.. وهذا ما جعل المعدن الثمين يكثر بين أيدي البرتغاليين، فيصيبون منه ثروات عظيمة. وأصبحت مملكة البرتغال وعلى رأسها مليكها أغنى ملوك العالم وبدأت مظاهر هذا الغنى الفاحش تظهر ببذخهم. وقد غاب عن أفكار البرتغاليين والمسؤولين منهم وبالذات مليكهم تقديم الحماية اللازمة لتلك الممتلكات الواقعة وراء البحار والتي كانت تفرضها ظروف سياسية عاصرت تلك الحقبة من الزمن، لذلك غدت تلك الممتلكات سطحية الجذور، لم

تعمر طويلاً بين أيدي البرتغاليين. إذ سرعان ما انتقلت إلى أيدي المستعمرين الأوربيين الحقيقيين، وامتدت أيديهم إليها، فحصّنوها مستفيدين من تجارب من سبقوهم، وحافظوا عليها سنين طويلة.

وتقلب على الممتلكات البرتغالية إداريون فاشلون، وبالذات نواب الملك. وكانوا يعينون لثلاث سنوات فقط، فيصلون وهمهم الأول الإثراء السريع، وبشتى صوره، دون أن يراعوا المصالح العامة. وسرعان ما تحل عليهم لعنة وكراهية المواطنين من سكان أصليين أو مهاجرين، ويبدأ المستغلون في امتصاص الثروات ونقلها إلى الوطن الأم البرتغال، حتى أصبحت هذه الدولة الصغيرة في أوربة من حيث مساحتها وعدد سكانها من أغنى الدول. وكانت الأموال بين أيدي قلة إلى جانب رجال الحكم. ولم تصل إلى العامة، ولم يعمل القطاع العام بها، بل كانت محصورة بين أيدي أناس مستغلين لم يجهدوا أنفسهم في جمعها، بل كانت تنتقل إليهم بعامل السيطرة أو الإرث.

تنبه الأوربيون بعد أن أصبحت تلك الأموال عبئاً على مالكيها. ووجدوا أن ما يدفعونه من أموال ثمناً لبضائع الهند يذهب إلى جيوب البرتغاليين، ففكروا بالتخلي عن هذا الأسلوب، والسعي بأنفسهم لتأمين احتياجاتهم مدفوعين بعاملي المغامرة وركوب البحر، فأخذوا يجوبون البحار، يقصدون بلد المنشأ للحصول على الخيرات من منابعها، دون وساطة البرتغاليين، فاشتدت المزاحمة حتى وصلت إلى حد القتال.

الإسبان

إسبانيا بلاد مختلفة عن البرتغال، ذات مساحة واسعة وسواحل طويلة ومرافىء عديدة، سبقت جارتها بنشاطها البحري. فمنذ مطلع القرون الوسطى خرجت إلى خليج الباسك، وسواحل الأندلس وكاتالانيا، حتى حولت هذا النشاط البحري مع الزمن إلى قوة بحرية ذات نفوذ في كل من المتوسط ومياه سواحل إفريقية العليا. ثم ضاعفت من قدرتها بإضافة عنصر آخر هو انضواء كريستوف كولومبوس تحت لوائها، وهو المغامر الفذ الذي منحها مجداً بحرياً وتجارياً رفيع الشأن فمدَّ ممتلكاتها عبر البحار.

ولد كريستوف كولومبوس في جنوة عام (١٤٥١) من عائلة متوسطة. ولم يتلق في صغره الكثير من العلوم، بل نشأ على المغامرة متنقلاً من مكان إلى آخر، يسعى وراء المعرفة. وفي عام (١٤٧٦) ترك جنوة وانتقل إلى البرتغال ممتهناً البحر، فسافر فيه طويلاً، وذهب حتى غينيا وإيرلندة، وجزر الآسور، حيث تزوج هناك، وأقام مع عائلته، حيث تخصص في رسم الخرائط البحرية والجغرافية.. ثم أكثر من المطالعة. ومن الأبحاث التي لعبت دوراً في حياته قراءته لكتاب «Imagomundi» صوره عالم كتبه أحد الكردينالات الفرنسيين، وطبع ذاك الكتاب في مخيلة كريستوف فكرة ثابتة لا يحيد عنها، هي في الوصول إلى الهند عن طريق الغرب.

التمس كولومبوس من الحكومة البرتغالية الإمكانات لتحقيق حلمه، لكن التماسه أهمل فانتقل إلى إسبانيا يجدد الطلب من الحكومة الإسبانية دون جدوى. وظل يناضل وراء فكرته طويلاً حتى استجيب إلى طلبه، بفضل بعض أصدقائه الذين يحيطون بالملكة، فحصل منها على معونة قدرت بثلاثين ألف فرنك، مع تقديم حماية العلم الكاتالاني له (رفض الملك فرديناند توريط التاج الأرغوني في الحملة».

أكمل كولومبوس مع أصدقائه السعي، فجمع التبرعات والهبات حتى وصل المبلغ إلى ثمانين ألف فرنك، وثلاث سفن صغيرة هي سانتا ماريا Sainta Maria بينتا Pinta ونينا Nina ولم تتعد كبراها الـ (٢٣٣) طنه.

وسعى كولومبوس إلى تمجيد نفسه بالحصول على ألقاب عدة، استحوذها من ملك إسبانيا إذ منحه هذا الأخير اسم أميرال للبحر والمحيط، ونائباً للملك وارث الهند، كما حصل على نسبة مالية من كل البلدان التي سيكتشفها الخ..

كان كولومبوس شديد الاعتقاد بمبدأ كروية الأرض، وبإمكانية الوصول إلى الهند عن طريق الغرب، كما وصلها البرتغاليون ومن قبلهم العرب والمسلمون عن طريق الشرق. ولقد كان يبغي من وراء ذلك تحقيق هدف آخر هو اكتشاف أراضٍ جديدة يوقعها على الخرائط البحرية، لتحمل اسمه، فيزيد من ألقابه لقباً جديداً، وبالتالي يجني من ورائها كسباً مالياً بموجب النسبة المالية التي سيحصلها من الأراضي التي سيكتشفها. إلا أن الأهم من كل ذلك هو إصراره الشديد على تحقيق المزيد من الاكتشافات، مدفوعاً بمشاعر دينية عميقة، أو على الأقل هذا ما كان يتظاهر به مشيعاً بأنه سيعمل على نشر معتقداته المسيحية في الأرض الجديدة، لأنها تمجيد للدين ولدوره الإيجابي فيه، وليؤكد أقواله بأفعاله تشبه بالكهنة، وارتدى ملابسهم، وتظاهر بطباعهم معتقداً أن الله سوف يظهره على اكتشافاته حتى تعم المسيحية كل الأرض، وقبل أن تقوم الساعة ساعة نهاية العالم التي كان مقدراً لها آنذاك في ١٥ ايلول من عام (١٦٥٦).

استمر كولومبوس في تظاهرته هذه دون أن يرفض في الوقت نفسه أكياس الذهب التي كانت تنهال عليه، هذا المعدن الثمين الذي به يستطيع تحقيق الكثير من خواطره وتطبيع العديد من العاملين معه، فهو بهذا الذهب يؤمن لهم الجنة في السماء والسعادة في الأرض.

اتصف كولومبوس بالقسوة والعنف في جمع المال، ثم تعالى على أقرانه من حكام البلاد، واضطهد السكان الأصليين، وعاملهم بخشونة وجبروت. ولكنه كان في الوقت نفسه يتحلى بالكثير من الصفات الحسنة فهو عظيم الهمة، نبيل المحتد، يحقق البطولات، شجاع مقدام مثال للبحار الجريء وبلا شك كان أكبر البحارة قدراً وأكثرهم تصميماً، ويتجلّى هذا التصميم في مغامراته عبر البحار والمحيطات فهو يمخر عباب الماء ويبتعد إلى الآفاق المجهولة، ولأعوام طويلة لمناطق لم تطرق قبلاً، ولم يعرف لها حد. بحار سحيقة البعد مخيفة هوجاء تمثل كل العظمة وكل الجبروت. وهو فيها مجرد إنسان صغير على سفن بدائية الصنع واهنة العود، وطواقمها قلة (أحجم الكثيرون من البحارة الأكفاء دخول المجهول) تنقصهم الخبرة، وهو يقودهم بعزم وتصميم من نصر إلى نصر، دون أن يفقد سفينة واحدة، حتى جعل العالم بأسره ينظر إليه بإعجاب وتقدير.

رحلات كريستوف كولومبوس الأربع

في آب (١٤٩٢) أبحر كولومبوس من بالوس دو موغير Palos De Moguer من أندلوسيا إلى جزر الكناري. ومن الكناري في ٩ آب أبحر متجهاً غرباً (اكتشف أن حيداناً كبيراً في الإبرة

المغناطيسية حمل سفنه إلى شمال الأطلسي) واجتاز بحر السرخس Sargosse وهو البحر الواقع إلى شمال شرق جزر الآنتيل. وسمي بالسرخس لكثرة الأعشاب البحرية التي تطفو على سطح مائه، والتي تشبه نبات السرخس في شكلها وتركيبها. وفي ١٢ تشرين الأول شاهد البروكان أرض إحدى جزر لوكاي Lucaye (غوانا هاني)، وأطلق عليها كولومبوس اسم سان سلفادور، وهي إحدى جزر باهاما. وتابع كولومبوس بحثه، وكان ينوي الوصول إلى زيبانغو Zipangu (اليابان).. حتى حسب جزيرة كوبا وجزيرة هايتي أرضاً يابانية من الأرخبيل، وأطلق عليها اسم هيسبانيولا Hispaniola.. وبعد أن مركز في تلك الجزر بعضاً من رجاله أقفل عائداً إلى أوربة مستخدماً رياح الصابيات التي كانت تدفعه إلى الغرب.. وارتفع نحو الشمال قليلاً، حيث تيار الشمال الاستوائي يحمله بلطف إلى جوار جزر الآسور.. وكان قد ترك هايتي في ١٦ كانون الثاني (١٤٩٣)، فوصل كاسكاي في الثاني من آذار وباولوس في ١٥ منه.

حمل كولومبوس معه المعلومات الهامة والأخبار السارة. إلا أن الذهب الذي وجده كان أكثر أهمية، فقد خلق موجة من الحيوية والنشاط دبَّت في عروقه وعروق رجاله، وشجعتهم على الإعداد لرحلة ثانية.. وبالفعل كانت الرحلة على رأس أسطول صغير ضم عدة سفن. وبدأت الرحلة بتاريخ ٢٥ ايلول (١٤٩٣).

نزل كولومبوس خلال رحلته الثانية جنوباً، فاكتشف جزائر الدومينيك والغوادلوب، وأكثر جزائر الآنتيل الصغيرة، وكذلك جزيرة العذراء، وجزيرة بورتوريكو. والتقى للمرة الثانية بساحل كوبا وساحل جامايكا، لكن العمل الأهم الذي حققه خلال رحلته الثانية هو تأسيس مستعمرة صغيرة في الهيسبانيولا وأقام على تنظيمها، والعيش فيها ردحاً من الزمن.

نجح كولومبوس كبحار ومستكشف لكنه أخفق كإداري. وكان إخفاقه ذريعاً. إذ أدار البلاد بقسوة، وبأسلوب سيء وكريه ورفضه الإسبان المقيمون في البلاد الإسبانية وراء البحار، فأرسل الملك محققاً يستطلع مصدر الشكوى ليتبين الخبر، ويبحث عن أسباب النقمة عام (١٤٩٥)، فوجد المحقق أن الشكوى محقة وأن كولومبوس متهم، فقرر إعادته إلى إسبانيا، وكان ذلك في حزيران من عام (١٤٩٦).

استقبل كولومبوس في إسبانيا ببرود شديد، وخاصة من قبل الملك والملكة ايزابيلا بالذات. وقد بدا عليهما وكأنهما يأسفان لما منحاه من صلاحيات وحقوق.. وكان تأثر الملكة عظيماً نظراً

لأنها كانت سنده الدائم في تأمين وتمويل رحلاته البحرية عندما سمعت بالأسلوب الوحشي الذي عامل كولومبوس فيه سكان البلاد الأصليين .

عاد كولومبوس للمرة الثالثة إلى البحر بعد أن صُفِح عنه . وابتدأ رحلته البحرية الاستكشافية الجديدة بتاريخ ٣٠ مايس (١٤٩٨) . ونزل بسفنه هذه المرة أكثر جنوباً من رحلته الثانية . ولم يترك مياه أوربة المجاورة إلا عندما وصل لارتفاع الجزر الخضراء . وهنا اتجه غرباً فاكتشف جزيرة ترينيتيه Trinité ، ثم ماشى ساحل اللؤلؤ (فينزويلا) ثم عاد إلى هيسبانيولا ونزلها . وبعودته تجددت الاضطرابات وعمت الفوضى ، وأمسك به أعداؤه هناك وغللوه بالأصفاد . وبذلك أصبح الأميرال العظيم سجيناً ، وأرسل مخفوراً إلى إسبانيا فوصلها في ٦ أيلول عام (١٥٠٠) .. واستقبله الملك واستمع لدفاعه ، فوجده محقاً وأعطاه الحق في كل تصرفاته ، وأعاد إليه حق الإبحار والكشف من جديد ، لكنه حجب عنه ولاية وإدارة المستعمرات .

اكتشف كولومبوس في رحلته الرابعة جزيرة المارتينيك ، وزار سواحل أمريكا الوسطى في الهندوراس وكولومبيا . ولما لم يجد ممراً يعبره إلى كاتاي Catay وهو اسم الصين في القرون الوسطى أقام مستعمرة في فيراغوا بكولومبيا ، لكنه كعهده أخفق في إدارة البلاد ، فقرر العودة إلى إسبانيا ، حيث مات في فالادوليد Valladolid في ٢٠ مايس عام (١٥٠٦) .

لم يمت كولومبوس فقيراً كما أشيع ، بل مات محزوناً ، وقد انهار معنوياً فاقداً لكل معاني الحياة . وجاء ورثته فاقتسموا ثروته وممتلكاته في غياب البحار الكبير صاحب الشهرة والتقدير .

استكمال استكشاف أمريكا

تتابعت رحلات الاستكشاف على أيدي :

رودريغودو باستيدا	Rodrigo De Bastidas
جوان دو لا كوزا	Juan De La Cosa
آلونسودو أوجيدا	Alonso De Ojeda

وكثيرون غيرهم ممن عاصروا كولومبوس وورثوا عنه روح المغامرة والإقدام ، فتعرفوا على مكتشفات كولومبوس في جزر الآنتيل ، ثم تابعوا سيرته ، فنزلوا سواحل البرازيل الطويلة ، ثم جاء المستكشف فاسكو دو بالبوا Vasco De Balboa من فيراغو في كولومبيا ، فدخل المحيط الهادي ماراً بجنوب أمريكا . واكتشف بونس دو ليون(٣٨) Ponce De Leon وسواحل فلوريدا عام (١٥١٢)

واكتشف كورتيز[٣٩] Cortez ورفاقه المكسيك علم (١٥١٩) ، وخليج كاليفورنيا عام (١٥٢٠) . وتبعهم الكثيرون يستكملون القارة الجديدة فيستكشفون أمريكا الوسطى ثم يهبطون جنوباً إلى سواحل البيرو والشيلي خلال الأعوام (١٥٤٠ ــ ١٥٥٦) ، واوريلانا Orellana ، داخل حوض نهر الأمازون عام (١٥٤١) ، ثم جاء الإنكليز والفرنسيون يستكشفون سواحل أمريكا الشمالية ويزاحمون الإسبان والبرتغاليين .

بعد تلك الاكتشافات تبين للعالم أن البر الذي نزله المستكشفون لم يكن طرف آسيا الآخر بل أرض جديدة سماها العالم الجغرافي والدسيمولر[٤٠] Waldseemuller بأمريكا ..

ماجيلان والدوران حول الأرض

بقيت الفكرة الأولية لكريستوف كولومبوس تراود مخيلات الملاحين الذين عاصروه ، وهي الطريقة للوصول إلى الهند الشرقية من الطرف الآخر للعالم وبالدوران حوله . وبما أنه لا بحر يمكن عبوره بجوار بلاد باناما ، اتجه المستكشفون جنوباً ليستديروا حول القارة الأمريكية الجنوبية كما فعل البرتغاليون بالنسبة للقارة الإفريقية ..

كان أول المحاولين الملاح الإسباني دياز دو سوليس[٤١] Diaz De Solis الذي وصل إلى فتحة مصب نهر ريو دولا بلاتا ولكنه لم يعثر على معبر ينقله إلى المحيط الهادي .. ثم جاء فيرنا ماغالهاين أو ماجيلان . وبعد أن قضى شتاءً مراً في مرسى سان جوليان وبدرجة عرض ٥ر٤٩° جنوباً عبر في ٢٤ أيلول (١٥٢٠) ممراً اكتشفه إلى الشمال من أرض النار وقطعه خلال ٣٣ يوماً مدفوعاً بتيارات رياح الصابيات الجنوبية ، ووصل المحيط الهادي ، وتقدم فيه حتى جزر ماريان وحط في جزر الفيليبين . وكان ذلك في ٦ آذار من عام (١٥٢١) . وفي جزيرة صغيرة من أرض الفيليبين قتل ماجيلان فأعاد المرشد سيباستيان ديلكانو البعثة البحرية المتبقية إلى أوربة ، وكانت عبارة عن سفينة واحدة . هي لافيتوريا La Vittoria من أصل خمسة ، وعليها (٢١) رجلاً من أصل (٢٦٥) بحاراً قوام البعثة الأصليون .. فكانت أول رحلة حول العالم .

أعطت رحلة ماجيلان وهي الرحلة العلمية البحتة البرهان الأكيد على إمكانية الوصول إلى جزائر الهند شرقاً وغرباً على السواء ، وبالتالي تأكد للباحثين كروية الأرض .

وكما حدث في المحيط الأطلسي وحتى لا يتجدد النزاع بين الإسبان والبرتغاليين اتفق الطرفان

على تقسيم مناطق النفوذ بخط طول وهمي هو خط طول (١٥٢°) شرقاً ، يفصل بين امتيازي كل من الإسبان والبرتغاليين . وأصبحت جزائر الفيليبين التي تركت منسية ولفترة طويلة تابعة للإسبان . ثم جاء الكاهن أوردانتا Urdenta ليثبت إمكانية الوصول من الفيليبين إلى سواحل اليابان .

حاول مستكشفون آخرون الدوران حول العالم ولدى خروجهم من الممر الضيق ممر ماجيلان كانت تتلقفهم المنطقة المضطربة بعواصفها الشديدة وأمواجها العاتية وهي المنطقة البحرية الأكثر هيجاناً في بحار العالم والتي نجا منها ماجيلان[٤٢] وبعثته بأعجوبة ووقع بها الآخرون وانتهوا إلى كوارث بحرية ، وانقطع سيل المغامرين عن الدوران حول الأرض فترة من الزمن حتى قام بها الأميرال الإنكليزي دراك مرة أخرى في عام (١٥٧٨) .

تمت عدة رحلات استكشافية بعد دراك ، انتهت بالعثور على العديد من جزر المحيط الهادي الغنية بالخيرات ، والتي شدت الإسبان لاحتلالها . كما حدث في جزائر أرخبيل الفيليبين وجزائر سالمون ثم تم استكشاف حوض المسيسبي بكامله . وكانت الغاية من ذلك البحث عن مناجم الذهب والمعادن الثمينة . وبدأ يتحول عصر الاكتشافات العلمية إلى عصر استغلال خيرات الأرض الجديدة ، والجزائر المكتشفة .

المستعمرات الإسبانية

أقام كولومبوس منذ رحلته الأولى أول مستعمرة إسبانية في هيسبانيولا . ثم دُمِّرت وأعيد بناؤها تحت اسم سانتو دو مينيغو ، كما أقيمت مؤسسات تجارية استعمارية أخرى في كل من كوبا عام (١٥١١) ، وجزر الآنتيل ، وجامايكا ، وبانامة عام (١٥١٣) .

وقاوم البر الأمريكي مقاومة شديدة فاقت مقاومات الجزر المنتشرة في المحيط . ففي الأندلس الجديدة (كولومبيا) والكاستيل دور (فينزويلا) طرد الغزاة الإسبان عدة مرات من البلاد قبل أن يستقر بهم المقام .. وفي عام (١٥٣٠) أتى كورتيز فدمّر إمبراطورية الآزتيك في المكسيك ، وأقام مستعمرته على أنقاضها في حين قام أحد ضباطه الفارادو Alvarado [٤٣] فأخضع أمريكا الوسطى ، ثم انتقل إلى بلاد البيرو ، وطرد شعوب الآنكا منها ، وحشرهم في الهضاب العليا .

ووصل الانتشار الإسباني غرانادا الجديدة ، والبلاتا ، وأرض الشيلي جنوباً . وفي الشمال استولى الإسبان على فلوريدا ، وإلى الغرب على أرخبيل كارولينا . وكان ذلك عام (١٥٦٤) .

لم تكن البلاد التي استولى عيها الإسبان جاهزة للعطاء . فالتجارة معها تحتاج إلى الكثير من

العناء، على غير ما كان عليه البرتغاليون في جزائر الهند الشرقية .. وهذا لا يعني أن حظ الإسبان كان سيئاً في البر الأمريكي، أو أن هذه الأرض شحيحة الإمكانات، بل على العكس فهي بلاد غنية بكنوزها المكنونة من معادن ثمينة ومناجم، لكنها تحتاج إلى الوقت لاستنباط خيراتها .. وعالجها الإسبان بأفقر الطرق التي تؤدي إلى الاستقلال السريع، فنبهوا العالم أجمع على تلك الخيرات. وهنا صحا باقي الأوربيين وهبوا دفعة واحدة يتدافعون للاستيلاء على بر القارة الجديدة، وجزائرها، ليغرفوا من كنوزها ويستغلوا ثرواتها.

تدفق المحتلون الدخلاء. ولما كانوا جميعهم من فئة النبلاء والأشراف فقد أنفوا العمل اليدوي، ولجؤوا إلى السكان الأصليين يستخدمونهم بغير رفق في الأعمال المرهقة. ولما كانت أجساد العرق الأمريكي ضعيفة، لم تقو على الإجهاد، فقد سقطت تحت ضغط رحى التعب والاضطهاد، فتناقص عددها واندثرت قبائلها، وتفرقت شعوبها. ولإعطاء مثل بسيط نجد أن سكان هايتي كانوا يزيدون عن المليون، وإذا بعددهم يهبط إلى ١٩ ألف نسمة بين أعوام (١٤٩٢ ــ ١٥٠٩) .. ومات عشرة ملايين ساكن أمريكي أصيل في المناطق التي استعمرها الأوربيون نتيجة العمل المرهق والقسوة والمرض، وانقرض عرق الكاراييب من الآنتيل بكامله. وكانت هذه الظاهرة في تناقص عدد السكان متماثلة في كل مكان حط فيه المستعمر البغيض، حتى خلت البلاد من قدرة الأيدي العاملة المحلية، فلجأ الأوربيون إلى قنص الإفريقيين السود يقبضون عليهم باستخدام مختلف الحيل والأساليب، وينقلونهم بالقوة على سفن تخصصت في سرقة الإفريقيين، ويحطون الرحال بهم في الأرض الجديدة، ويبيعونهم عبيداً للمقيمين المستعمرين، حتى غدت هذه المهنة من أربح التجارات المضمونة والمعترف بها لدى جميع الدول. وحلّ الإفريقيون المستعبدون عمالاً وخدماً لصالح الرجل الأبيض المستعمر، بعد أن سار سكان أمريكا الأصليون على طريق الزوال والانقراض.

نتائج الاكتشافات الكبرى

من النتائج الهامة التي تمت عقب الاكتشافات استغلال مناجم المعادن ذات المخزون العالي والمردود الكبير، فوصل إنتاج المعادن الثمينة إلى (٣٠) مليوناً في العام الواحد، وأصبحت كميات الفضة والذهب المتداولة في أسواق أوربة وحدها تزيد عن أربعة أمثال ما كانت عليه سابقاً، وفي زمن يقل عن قرن واحد. في حين كانت مناجم أوربة تشكو النضب أو لا تستطيع تقديم الربح اللازم لتغطية الاستهلاك السنوي المعد للتداول والتغطية، فهجمة الذهب والفضة في الأمريكيتين قلبت الظروف رأساً على عقب، وارتفعت أسعار السلع إلى ثلاثة أمثال ما كانت عليه سابقاً .. وتبع ذلك

ارتفاع في معدلات الأجور ، ولكن ليس بمستوى ارتفاع الأسعار . وبدأت بوادر الخلل تظهر في العديد من المجالات ، وشاع الفقر ، وبدأ التململ ، وانقلب إلى رفض فاضطرابات ، وتبع ذلك حروب محلية أهلية أو ثورات . وكان أكثر الناس بؤساً هم الذين يعيشون من دخول ثابتة ، وخاصة موارد الممتلكات . وبدأ النبل يختفي كقوة في بنيان الدولة ، وأصبح همُّ النبلاء الحصول على وظيفة ، بينما كانت تتزايد ثروات التجار وعملائهم يوماً بعد يوم ، وبدأت روح البورجوازية تتفاعل حتى أصبحت واقعاً وفي العديد من دول أوربة ، ومنذ مطلع القرن السابع عشر .

طرأت تغيرات مشابهة على مستوى الدول وعلى العلاقات التي تربطها فيما بينها ، وأصبحت تقاس عظمة الأمة بمقاييس جديدة ، غير المقاييس البائدة ، من حيث سعة الأرض ، وعدد السكان ، بل بالمنابع المالية والموارد التجارية .. وأصبحت الأسباب الاقتصادية تتقدم الأسباب السياسية في نشوب الحرب ، وفي إحداث الهزات السياسية . وكل غاياتها السيطرة المالية والاقتصادية ..

فإسبانيا مالكة كنوز العالمين القديم والحديث .. تتطلع نحو سيادة العالم بإقامة إمبراطورية على غرار الإمبراطورية الرومانية ، ولكن بمفهوم جديد .. فهل سيتحقق لها ذلك .

كان هذا أبرز سؤال تداوله رجال الفكر والسياسة في منتصف القرن السادس عشر ..

فهل امتلاك القارة الجديدة يعيد التوازن في أوربة ؟ ويحفظ استقلال بلدانها ؟ وهل ستندفع باقي الدول الأوربية لحماية مصالحها بالوقوف في وجه الاستغلال الإسباني المستهدف خيرات العالم الجديد ، والذي أصبح أكبر مصدر لقوتها ..

وفي حال تحجيم إسبانيا وتوزيع خيرات أمريكا على باقي الدول فهل هناك ضمانة بعدم ظهور طامع بديل ، يطالب بإمبراطورية العالم الجديد ، ليسيطر عليه ومنه يسعى لسيادة العالم بأسره .

هذه الأسئلة العديدة المتداخلة سادت علاقات الشعوب منذ اكتشاف العالم الجديد .. ثم واكبت الأزمان المتعاقبة ، وبازدياد معرفة الإنسان واتساع أفقه زادت طموحاته ، وتغيرت نظرته للأمور . فالمفاهيم المعنوية انقلبت إلى ماديات محسوسة .. وبرزت أمم جديدة قوية في حياة العالم وتاريخ شعوبه ، تتزاحم سعياً وراء قسطها من السيادة والاستقلال .

لقد لمس حكماء ذلك العصر تلك الرؤى وأخطارها المستقبلية وما ستسببه للعالم ، وخاصة عالم أوربة من أزمات ، حتى إن بعضهم اقترح الدواء كما قال الماريشال دو تافان(٤٤) De Tavannes باستخدام القوة .

« علينا اعتماد القدرة البحرية الفعالة ، وأخذ نصيبنا بالقوة ، وحماية الذهب والفضة بالاتجار والمبادلة ، فنتغلّب بالحديد على الذهب » .

وهو الأسلوب القديم نفسه ، أسلوب انتزاع القسط بالقوة دوماً ، وباستخدام الشدة والصرامة « المبدأ الاسبرطي » .

الآثار البعيدة للاكتشافات الكبرى

بدلت الاكتشافات البحرية الكبرى بعضاً من شروط وعوامل الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لبلدان أوربة الغربية ، وكذلك تبدلت طرق التجارة البحرية ، فتراجعت أهمية موانىء البحر الأبيض المتوسط منذ عام (١٤٥٠) ، وأصبحت الطرق الهامة عبر المحيطات مباشرة ونجد من أهمها :

- طريق أوربا الغربية نحو الهند والسند والصين واليابان .
- طريق ليشبونة نحو البرازيل .
- طريق أشبيلية نحو البيرو والمكسيك وأمريكا الوسطى .

كان من تأثير هذا التحول الكبير أن سقطت أهمية مدينة جنوة ، ولما رأت البندقية ذلك قاومت هذا الجمود التجاري الذي أصاب موانىء المتوسط . فقامت بعقد تحالف مع الغرب ضد البرتغال .. وفرضت طريقاً تجارياً عبر برزخ السويس والبحر الأحمر للحفاظ على حياة موانىء البحر الأبيض المتوسط ، وعلى نشاطها التجاري بالذات . ووضعت مشروعاً لخرق هذا البرزخ من البحر ، ووصل بحري الأحمر والمتوسط إلا أن هذا المشروع لم يتحقق إلا فيما بعد ممثلاً بقناة السويس ، ولكن لم يمنع تدمير البندقية من ظهور موانىء على سواحل المحيط أخدت تحتل مكانة الموانىء المتوسطية وبرزت ليشبونة وقادس في الجنوب ، وبوردو في الوسط ، ولندن وآنغرس وامستردام في الشمال .

تكدست البضائع الآتية من كل مكان ، وزادت من وفرة الذهب والفضة فتصاعدت الأسعار ، وكثرت البنوك ، والمؤسسات المالية ، وبدأت تظهر رؤوس الأموال الضخمة ، فتجتمع في أيدي أصحابها لتخلق مجتمعاً رأسمالياً ، وطبقة من الأغنياء إلى جانب طبقات عديدة كثيرة من الفقراء ، لم تستطع اللحاق بتطور الركب ، وبتسارع ارتفاع الأسعار وصعوبة تأمين الاحتياج ، الأمر الذي جعل علماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد يقرون ويؤكدون بأن **منبع الرأسمالية الحديثة ومنشأها تم عن طريق الاكتشافات البحرية** فعصر جديد قد ولد يضم قدرتين كبيرتين :

ـــ **إمبراطورية برتغالية**: ضمت سواحل إفريقية، والمحيط الهندي والهند والشرق الأقصى والبرازيل، وهي إمبراطورية لم تعمر طويلاً، وجاءت هولندا الفتية ترث أكثر ممتلكاتها.

ـــ **إمبراطورية إسبانية**: قوية عمرت طويلاً وضمت المكسيك، وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية (عدا البرازيل) ثم كاليفورنيا، والفيليبين وجزائر المحيط الهادي. كانت هذه الإمبراطورية غنية لم تحسن استغلال ثرواتها فانتقلت إلى أيدي الصناعيين الأوربيين. وظلت إسبانيا الأم بلداً متخلفاً بمقارنته مع بلدان أوربة الأخرى. ولو أنها حافظت على أمجادها البحرية لمدت من عمر إمبراطوريتها الواسعة.

نصيب إنكلترا وفرنسا من الاكتشافات الكبرى

إن الأحداث الكبرى والاكتشافات الواسعة التي حدثت خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر دفعت بالأمم البحرية للتزاحم والمشاركة في أمجاد الاكتشافات الكبرى، سعياً وراء الكسب والثروة. وراح الكل يتشدق بأن في تصانيفهم البرهان القاطع على كفاءة ملاحيهم وتساويهم بكفاءات المستكشفين العالميين مجداً وكشفاً. ولكن لو استثنينا ما قدمته البرتغال وإسبانيا لوجدنا أن رحلات المستكشفين والمغامرين الآخرين لا تستحق الذكر، بعضها رحلات إنكليزية، وبعضها الآخر رحلات فرنسية، كانت بمثابة تقليد للآخرين أو نزول إلى سوق المغامرات.

ففي إنكلترا ساد اسم كابوت(٤٥) Cabot زمناً طويلاً على أنه رحالة مستكشف، وهو الذي ينحدر من أصل إيطالي واسمه جيوفاني غابوتو .. جاء هذا البحار يقطن مدينة بريستول في إنكلترا، وحصل على إذن من الملك هنري الثامن عام (١٤٩٦) يخوله الإبحار غرباً في المحيط الأطلسي ليستطلع ويستكشف، فقام برحلتين فقط، وصل خلالهما إلى الأرض الجديدة، وإلى لابرادور، ثم حط على الأرض الأمريكية قبل كولومبوس نفسه، وحتى خط عرض ٦٧٫٥° درجة شمالاً. ثم جاء ابنه سيباستيان من بعده، وكان مدعياً متشدقاً ومن الصعب معرفة حقيقة منجزاته، إذ ادعى القيام بكثير من الرحلات وتنقل بين العديد من الأمم قبل أن يعود إلى إنكلترا عام (١٥٤٦)، ليقوم بدور إيجابي صحيح.

غدا سيباستيان ملاحاً كبيراً للمملكة، وأسند إليه منصب حاكم شركة التجار المغامرين والعاملين في اكتشاف المناطق والطاقات المختزنة في الجزائر المجهولة. وأشرف على عدة رحلات بحرية،

ابتداءً من عام (١٥٥٣) هدفها إيجاد طريق للهند عن طريق شمال أوربة أقصر من الطريق الذي سلكه البرتغاليون والإسبان.

وفي عام (١٥٥٦) قام السير هوغ ويلو غباي(٤٦) Sir Hugh Willoghby برحلة انتهت به إلى كارثة بحرية. ثم تبعه ريتشارد تشانسولر(٤٧) Richard Chancellor فوصل أركانجلسك على شواطىء روسيا، وأقام علاقات جيدة مع الروس، كانت إيذاناً ببدء حركة تجارية ضخمة بين البلدين. وبين الأعوام (١٥٥٧ ـ ١٥٧٢) قام وكيل إحدى الشركات التجارية انطوني جينكنسون Anthony Jenkinson فوصل حتى قصر الملكة صوفي عبر نهر الفولغا ثم بحر الخزر، وأقام علاقات اقتصادية هامة لكن فكرة إيجاد طريق للهند عبر الشمال أخفقت، فاستبعدت الرحلات عن هذا الطريق نهائياً بعد إجراء عدة محاولات. وفي عام (١٥٧٦) قام الرحالة فروبيشر(٤٨) Frobisher باحثاً عن الممر الشهير آنيان، فوصل حتى درجة عرض ٥ر٦٣° شمالاً، ووجد أحد الممرات البحرية التي لم تطأها قدم إنسان من قبل، وهي إحدى قنوات الأرخبيل القطبي. وأعاد فروبيشر الكرة ثانية وتعثر بجبال الجليد فعاد أدراجه، ولحق به بحارة آخرون توغلوا حتى عرض ١٢ َ ٧٢°شمالاً، دون أن يعثروا على أي مدلول لمعبر ينقلهم إلى المحيط الهادي أو إلى كاتاي (الصين). وأقر الإنكليز وبقناعة كاملة بأن طريق الهند الوحيد هو ما اكتشفه البرتغاليون إلى الشرق، وما اكتشفه الإسبان إلى الغرب. أما قطع المحيطات عن طريق الشمال فأمره محال.

بدأ الإنكليز زيارة المناطق التي احتجزها البرتغاليون والإسبان فوصلوا سواحل غينيا، وبدؤوا يعملون في تجارة الرقيق الأسود، ينقلون أسراهم من سكان إفريقية على سفن تخصصت بذلك، ويبيعونهم في المستعمرات الإسبانية للمقيمين البيض. فإذا رفضت بضاعتهم فرضوها بقوة المدفع، وكانوا يغيرون أحياناً بالسلاح على التخوم البحرية فيسرقون الثروات، ويعودون بها دون أن يقدموا أي بديل لها.. وتعددت إغارات السلب والنهب حتى أصبحت تقليداً له عرفه وصفاته.

من بليموث خرج ملاح كبير هو فرنسيس دراك(٤٩) Francis Drake وقام بحملة بحرية بدأها في ١٣ تشرين الثاني من عام (١٥٧٧) وعاد منها في ٢٦ أيلول عام (١٥٨٠). وتعد من أروع الرحلات البحرية التي قام بها المغامرون الإنكليز، إذ تضمنت الدوران حول العالم، يغير ويقاتل ويسلب دون هوادة. وعاد إلى إنكلترا يحمل على سفنه الكثير من الخيرات ويسطّر لنفسه ولمن رافقه مجداً بحرياً كبيراً. وقد جذب هذا المجد السكان الإنكليز ففاخروا به حتى إن بلاط الملك أعجب بهذا الإنجاز وشجعه، وحيا في شخص دراك روح الإقدام والجرأة. وهذا ما شجع العديد من

المغامرين المعاصرين على ركوب البحر سعياً وراء المال، ووراء المجد. فتعددت الرحلات البحرية، وكانت بمثابة الخطوة الأولى في طريق استعمار الشعوب.

أقام دراك علاقة حميمة مع سكان كاليفورنيا الأصليين، ووعدهم بحماية المملكة البريطانية لهم، وأطلق على تلك البلاد اسم: البيون الجديدة New Albin. وبقيت مغامرات دراك والمغامرين الآخرين الذين عاصروه، وخلال حقبة من الزمن مقتصرة على الأرض الجديدة، ونيوفوندلاند الجديد في شمال الأطلسي، حتى أقر البرلمان البريطاني مبدأ حق الصيد والاستكشاف لجميع المواطنين الإنكليز.

على أثر قرار البرلمان البريطاني قامت مؤسسات تجارية ومؤسسات خاصة بعمليات صيد الأسماك والاتجار بها. وكان هذا الإنجاز هو الوحيد الذي قدمه الإنكليز على يد بحارتهم الشجعان.

بالنسبة للملاحين الفرنسيين كان الأمر مختلفاً، فهم لم يشاركوا في الاكتشافات البعيدة، بل كانوا يتابعونها عن كثب، ويرجع ذلك لضعف الإمكانات البحرية، ولكون فرنسا بلداً زراعياً ناجحاً، فتخلى عن تلك المهمة للبلدان الأكثر حاجة، وقد شذ عنهم سكان النورماندي، وهم بحارة بالفطرة، وأخص بالذكر منهم سكان مدينة دييب الشجعان. ومارسوا نشاطاتهم البحرية وأبحروا فوصلوا سواحل غينيا، قبل البرتغاليين، وأقاموا فيها مؤسسات فرنسية مزدهرة آنذاك، ثم بدؤوا يقلقون راحة البرتغاليين والإسبان في البحار البعيدة، إذ كانوا يغيرون عليها بصورة إفرادية، وعلى شكل قرصنة أو غزوات نهب وسلب.

دعم الملك الفرنسي فرنسوا الأول الفرنسي أعمال القرصنة هذه وشجعها، ثم منح بدوره حرية الملاحة للجميع من مواطنيه، وأعطاهم حق القنص والغزو. ولقد أفهم سفير إسبانيا في فرنسا بأن سفنه سوف تتواجد في المياه الإقليمية، ولها ما لحق الجنسيات الأخرى حيث قال:

«إن الشمس تضيء لي كما تضيء للآخرين، وإني أرغب رؤية النص في وصية آدم التي تحرمني من هذا الحق أو من هذه القسمة».

وفي الحقيقة كانت فرنسا أضعف من أن تواجه بأس البرتغال والإسبان على السواء في البحار البعيدة، وهذا ما جعلها تقتصر على الإغارات المحدودة، ثم تطورت هذه الإغارات مع توفر الوسائط، بحيث غدت على شكل إرساليات خفية تقيم رؤوس جسور في المناطق التي كان قد

اكتشفها المستعمرون الإسبان ، وعلى كل حال فجميع هذه النشاطات لم تكن ذات شأن كبير في مجريات التجارة والعمل .

الصيد الكبير

تطور صيد السمك سريعاً بعد أن أوصت الكنيسة الكاثوليكية رعاياها المؤمنين بصيام يومين من أيام الأسبوع على السمك دون اللحم ، فنشطت عمليات صيد السمك وتصنيعه وبيعه . وغدت عملية رابحة مطلوبة بعد تزايد كبير في استهلاك هذه المادة الغذائية . وسعى الصيادون وراء رزقهم بعيداً بقصد الربح ، خصوصاً بعد أن خفت كثافة الأسماك حول سواحل أوربة القريبة .

لحق الصيادون بالحيتان وبسمك الفادس (الموره) حتى سواحل أمريكا ، وبأعداد من السفن كثيرة . وتخصصت كل من فرنسا وإنكلترا في هذه المهنة الكبيرة ، تصطادان كل أنواع السمك . وأصبحت لهذه التجارة الرابحة مؤسسات كثيرة ، تعمل على إعداد أساطيل الصيد ، وجمع السمك وتصنيعه وحفظه والاتجار به . ووصلت أعداد سفن الصيد إلى أرقام ضخمة تغطي مساحات واسعة من أرجاء المحيط .. ومن هذا المجال الحيوي خرج أول ملاح فرنسي امتهن البحر وصيد السمك وهو جاك كارتييه(٥٠) ، وتحول فيما بعد لمجال المغامرة والاستكشاف .

أقلع كارتييه من مدينة سان مالو على الشاطىء الفرنسي الشمالي بسفينتين وستين بحاراً ، وعبر ممر بيل إيل (الجزيرة الجميلة) حتى وصل اللابرادور ، ثم دخل خليج سان لوران ، وبرهن على أن الأرض الجديدة عبارة عن جزيرة كبيرة مترامية الأطراف . وتابع كارتييه إبحاره حتى البر الكندي حيث غرز علم بلاده هناك .

إن المعلومات التي حصل عليها جاك كارتييه خلال رحلته شجعته على القيام بمغامرة ثانية ، وسرعان ما أعد ثلاث سفن هي هرمين الكبيرة ، وهرمين الصغيرة ، والأميريون La Grande Hermine, La ptite Hermine, Emerillon وأقلع كارتييه وسار مباشرة إلى خليج سان لوران في كندا ، وصعد النهر حتى وصل كوبيك . وكانت تسمى ستاداكونيه Stadaconé آنذاك . ثم تابع صعوده عكس مجرى النهر بزوارق أصغر ، حتى وصل إلى بقعة اسمها هوشيلاغا Hochelaga فأطلق عليها اسم منتريال .. وهناك أدركه الشتاء شتاء كندا القارس ، وبحرها المضطرب ، وأصبح سفر عودته خطراً فقرر البقاء حتى الربيع القادم . وأقام مخيمه في مدخل نهر سانت كروا Sainte-Croix إلا أن البرد القارس ومرض السقربط Scorbut داء الحَفَر (وهو مرض ينجم عن نقص فيتامين ج بالجسم ،

ويحدث بكثرة لبحارة العصور الوسطى، لنقص استهلاك الفواكه والخضار الطازجة في أطعمتهم) فتك المرض بالكثير من رجال كارتييه، وعاد في مايس من عام (١٥٣٦) بعد أن أقام الكثير من النصب باسم ملك فرنسا.

حمل كارتييه معه معلومات كثيرة عن ثراء البلاد التي زارها وقال:

«إن في شمال غرب البلاد التي وصلنا سواحلها (ويعني كندا)، وجدنا السكان الأصليين بيض البشرة يمتلكون الكثير من الذهب والأحجار الكريمة».

وكان ذلك القول وحده كافياً لإثارة نهم النفوس، فدفع بالرجال إلى هناك جرياً وراء الثروة...

قرر الملك استعمار كندا، فكلف جان فرانسوا دولاروك بمهمة إدارة فرنسا الجديدة عبر البحار (كندا). وأعطاه حق جمع الثروات مستعيناً بالمساجين والخارجين على القانون، لإقامة المخيمات الأولى في البلاد. وكان في رأس الملك بالإضافة إلى فكرة استغلال مناجم المعادن الثمينة استملاك البلاد والاستيطان بها، وطرد سكانها الأصليين.. وبالفعل أعطى الملك أوامره ببدء الحملة الجديدة وقد مولها بـ (٤٥) ألف ليرة ذهبية.

أقلع الأميرال جاك كارتييه مستبقاً باقي الحملة، وعلى متن سفن خمس عام (١٥٤١)، فوصل سان لوران، فأقام هناك نقطة حصينة أطلق عليها اسم شارلسبورغ الملكي منتظراً وصول باقي الحملة. وحاول الولوج داخل البلاد لكن حلول فصل الشتاء داهمه، وكان فصلاً قاسياً وشتاءً مراً عاد على أثره كارتييه إلى فرنسا، ثم عاد فكرر الحملة ثانية عام (١٥٤٣)، ولكن دون نتائج إيجابية باهرة، إذ اتضح بأن الذهب الذي وعد به الملك لم يكن إلا نحاساً وأما الماس الذي شاهده وبشّر به فلم يكن إلا معدن الميكا اللماع. ومع أن رحلاته لم تأت بالثروات، فقد حملت معلومات جغرافية هامة في نفي وجود طريق إلى الهند عبر هذا الممر البحري، وبدا كأن فرنسا قد تخصصت بالبر الكندي، وبدأت تضع ركائزها الأولى في البلاد.

ظهر دافع آخر يدفع بالمستعمرين لاستملاك بلدان الأرض الجديدة في أمريكا، إذ شعر بعض النبلاء أن عهداً من الفوضى والحروب الأهلية ستبدأ قريباً في فرنسا، فقرروا إعداد ملجأ خارج البلاد يحتمون فيه، وعهد للأميرال فيلغانيون(٥١) إعداد ذلك بعد أن منح الأموال اللازمة، وأعطي الصلاحيات الكاملة في إقامة هذا الملاذ، وفعلاً أقام الأميرال المذكور حصوناً في المناطق التي نزل فيها منها حصن كوليني، في مدخل ريو دو جونيرو، وسرعان ما التف حوله السكان المحليون لا محبة

بالفرنسيين، بل كرهاً بالبرتغاليين. لكن الحصن لم يعمر طويلاً نظراً لبروز الخلافات العقائدية الدينية بين كاثوليك وبروتستانت، فاستغل البرتغاليون الظرف وهاجموا الحصن وقتلوا القسم الأعظم من حاميته عام (١٥٥٩). ولم يبق من الفرنسيين إلا قلة التجأوا إلى السكان الأصليين في البلاد.

لم ييأس الأميرال الفرنسي ومعاونوه من حادثة حصن كوليني، بل أرسل إلى فلوريدا الإسبانية بعثة كان حظها أقل من حظ بعثة كوليني، فبعد أن حطت السفينة بنت حصناً سمته حصن كارولين (١٥٦٢ ــ ١٥٦٤)، لكن الجوع والتعب أصابا أفراد الحصن ودبّت الفوضى، وانحل الانضباط، ولم يستطع الأميرال إرسال تعزيزاته للحصن فتنبه الإسبان لهذا الظرف، وتحينوا فرصة مناسبة أغاروا فيها عليه في غفلة عن الأسطول الفرنسي، فدمروه وقتلوا حاميته بشراسة. وحاول أحد الغاسكونيين الأشراف استعادة الحصن عن طريق حملة بحرية مؤلفة من سفينتين حربيتين، وعلى نفقته الخاصة، لكنه أخفق أمام مقاومة الإسبان كما أخفقت بالتالي محاولات أخرى عديدة في استيطان سواحل البرازيل. وبقيت فرنسا وإنكلترا معزولتين كلياً عن القارة الجديدة حتى نهاية القرن السادس عشر تقريباً.. خرجت الدولتان بفائدة كبرى نتيجة تجارب الماضي، وعملتا على تطبيقها. أما هذه الفائدة فتتجلى بالتالي:

«ليس المغنم في كسب الأرض غير المحتلة بل إن المغنم الحقيقي هو في الأرض التي كان قد استولى عليها البرتغاليون والإسبان لأنها بلاد منظمة مأهولة جاهزة للاستغلال، وكل ما يلزمها قوة بحرية برية مشتركة تنزل في البلاد وتبعد المحتلين السابقين».

وبالفعل تم خلال حقبة من الزمن إعداد القوى البحرية اللازمة لفرض السيطرة، وإبعاد الخصوم، وحماية الاقتصاد، وبالتالي انتشر التوسع الاستعماري. وإن كان القرن السابق هو قرن التوسع على أيدي رحالة مغامرين، فالقرن السابع عشر هو عصر الاستعمار عن طريق الدولة، وبفعل قادتها البحريين والعسكريين، إذ عليهم وحدهم عبء استدراك التخلف في سباق غزو العالم الجديد المليء بالخيرات، وهكذا كانت صنعة العصر الذي تلا، فهو عصر طبع بطابع التوسع الاستعماري المتلازم مع الصدامات العسكرية وبوجود قدرات بحرية متعاظمة.

حواشي الباب الثالث

١٤ ــ آتيلا Attila : ملك الهونس Huns

أقام في سهل هنغاريا (بانوني) عام (٤٣٤)، ثم اجتاح بلاد بيزنطة عام (٤٤١)، واستدار نحو الغرب واجتاز نهر الراين عام (٤٥١) وخلف باريس وراءه وتابع زحفه حتى أورليان. وهناك هزم في ساحة كاثولينك من قبل اكتيوس Actius وتيودوريك ملك الغوط، فتراجع واتجه بجحافله الشرسة عام (٤٥٢) نحو إيطاليا. لكن البابا ليون الكبير أقنعه بالعودة عن روما مقابل فدية كبيرة، فعاد آتيلا إلى السهل الهنغاري الذي انطلق منه وانهار ملكه بعد موته المفاجىء عام (٤٥٣). والهونس، اسم أطلق على عدة عشائر آسيوية ظهرت في أوربة عام (٣٧٥) ويعتقد أن أصلها من أواسط سيبريا البدائية، اجتازت طريق هذه القبائل نهري الفولغا والدونا وأخضعت العديد من الشعوب البربرية في طريقها، ومن ثم انضم بعضها إلى بعضها الآخر مشكلة عنصر اجتياح وتدمير زرع الرعب في كل مكان.

وصلت جحافل الهونس إلى ضفاف الدانوب الأوسط، وأرسلوا الرسل إلى الإمبراطورية الرومانية.. واستكانوا حتى خرج منهم آتيلا الزعيم الذي وحد بين العشائر الآسيوية وعشائر الجرمان المتوحشين، ونهبوا الإمبراطورية الرومانية.. وكانوا يضمون خليطاً عجيباً من البلغار والجزر والتشوفاس بالإضافة إلى التركان والموغول.

١٥ ــ الطنة

وحدة قياس حجم قديمة تعادل ٢٫٨٣ متراً مكعباً.

١٦ ــ الغاطس

ماغاص من جسم السفينة تحت خط العوم.

١٧ ــ حيزم

مقدم السفينة (كعظم القص في الصدر).

١٨ ــ هنري السادس (١٤٢٢ ــ ١٤٧١)

ملك لإنكلترا وابن لهنري الخامس وكاترين دوفرانس نودي به ملكاً على فرنسا بعد موت شارل السادس، وسيطر عليها حتى هزيمته أمام أورليان (١٤٢٩) وبصلح شارل السابع مع البورغونيين لم يعد لهنري السادس ما يفعله بفرنسا، وفقدت إنكلترا أكثر ممتلكاتها في البر الفرنسي.. نودي بريتشارد دو يورك ملكاً على إنكلترا بديلاً عنه وانتهت البلاد إلى حرب أهلية سميت بحرب الوردتين، وخلع هنري السادس عن العرش واعتقله ريتشارد (١٤٦١) وأودعه سجن برج لندن حيث اغتيل فيه فيما بعد. خلد الشاعر شكسبير النزاع الكبير بين عائلتي بورك ولانكشاير، ونعت في أشعاره جان دارك الفرنسية بالساحرة والفتاة اللعوب.

جان دارك أو عذراء أورليان (١٤١٢ ــ ١٤٣١)

فتاة ريفية شديدة التعلق بالدين، كانت تسمع أصواتاً سماوية يحثها على الجهاد في سبيل تحرير أورليان من الإنكليز المحتلين.. قدمت إلى ملك فرنسا فاستمع إليها، وعرضها على رجال الكهنوت، وخضعت لفحص كنسي دقيق وعلى أثر ذلك قُبلت مقاتلة في عداد الجيوش المحررة، وأعطيت التجهيزات القتالية والرمح، وتقدمت الجيوش حتى تم تحرير أورليان بالكامل، ثم شاركت في تتويج الملك شارل السابع في ريمس، كما كانت قد تنبأت له بذلك، وفي ٢٣ مايس (١٣٣٠) قبض عليها بتهمة الهرطقة، ولارتدائها ألبسة الرجال وباعها جان حاكم لوكمسبورغ إلى الإنكليز. وقام بيير كوشون وهو راهب بوفيه المتحيز للإنكليز فأسند لها تهم الهرطقة وحرمها كل حقوق الدفاع عن نفسها، فحكمت وأحرقت حية في ٣٠ مايس (١٣٣١).. أعيد اعتبارها في فرنسا فيما بعد، واعتبرت قديسة من القديسات.

١٩ ــ جان سان تير Jean Sans terre (١١٦٧ ــ ١٢١٦)

ملك لإنكلترا، والابن الخامس لهنري الثاني حارب ملوك فرنسا واستولى على أجزاء كبيرة منها بمعونة الفلمنكيين.. هزم في عام (١٢١٤) في بوفين هزيمة نكراء وفي الوقت نفسه اشتدت المعارضة ضده في إنكلترا حتى انتهت إلى حرب أهلية.

٢٠ ــ شارل الخامس العاقل (١٣٣٨ ــ ١٣٨٠)

حكم فرنسا بعد أن سجن الإنكليز والده جان الثاني الطيب إثر معركة بواتييه، ثارت ضده باريس

وثار عليه الفلاحون عام (١٣٥٨) لكنه استطاع استعادة شأنه، وأخضع الثائرين، ثم عاود قتال الإنكليز، وحرر العديد من المناطق.

٢١ ــ هوارد شارل Howard (١٥٣٦ ــ ١٦٢٤)

كونت نوتنغهام واللورد الأول في الأميرالية الإنكليزية انتصر على الآرمادا الإسبانية، ونجح في حملة بحرية مظفرة على مدينة قادس الإسبانية.

٢٢ ــ شارل كنت أو شارل الخامس (١٥٠٠ ــ ١٥٥٨)

إمبراطور للإمبراطورية الجرمارومانية المقدسة، ملك لإسبانيا وابن فيليب الجميل أرشيدوق النمسا، وابن جان المجنونة ملكة كاستيلا، حكم الأراضي المنخفضة (هولندا)، ومقاطعة فرانش كونتيه عن والده، وورث عن أجداده المكسيميليين مقاطعة هابسبورغ النمساوية، وعن أجداده من أمه كاستيلا وآراغون ونابولي وصقلية وكل المستعمرات الإسبانية الأمريكية. وحاول استعادة أملاك البورغون من فرنسا، وكان بحق إمبراطوراً للمملكة التي لا تغيب عنها الشمس تنازل لولده فيليب الثاني عن الحكم.

٢٣ ــ فرانسوا الأول (١٤٩٤ ــ ١٥٤٧)

ابن شارل أورليان ولويز دو سافوا، على أثر موت مكسيميليان أصبح المنازع السيء الحظ لشارل كنت في عرش النمسا حاول محالفة الإنكليز والتقرب من العثمانيين لمواجهة إسبانيا.. عندما انحاز البوربون لجانب شارل كنت ضعفت مقدرته وسقط أسيراً ووقع معاهدة مدريد.. ثم تزوج الباندر النمساوية شقيقة شارل كنت.

٢٤ ــ بوربون شارل الثالث (١٤٩٠ ــ ١٥٢٧)

دوق لعدة ولايات في فرنسا تزوج سوزان دوقة بوربون، وبعد موتها تزوج بلويز دو سافوا أم فرانسوا الأول، وطالب بوراثة عرش آل بوربون. ثم تحالف مع شارل كنت وانتقل إلى إيطاليا وشارك في انتصار بافي Pavie، ثم حاول إشعال حرب بين إسبانيا وفرنسا لمصلحته الخاصة فلم يفلح، وقتل خلال حصار روما.

٢٥ ــ ميركاتور Mercator جيرار كريمر (١٥١٢ ــ ١٥٩٤)

عالم في الرياضيات وفي رسم الخرائط فلمنكي الأصل وأحد مؤسسي علم ارتسام الخرائط

بالأسلوب الذي عرف باسمه. رسم خريطة كبرى لأوربة، وكان أسلوبه هو في إسقاط التضاريس على سطح ارتسام أسطواني يحيط ويمس خط الاستواء، تكون خطوط الطول فيه خطوطاً متوازية متساوية البعد أما خطوط العرض فهي متباعدة بمسافات متعاقبة تتناسب حسب العلاقة التالية: وتتعامد مع خطوط الطول.

$$\frac{1}{\text{Cos Lm}} \quad \frac{١}{\text{تجب العرض الجغرافي المتوسط بين خطي عرض متعاقبين}}$$

٢٦ ــ هنري الملاح (١٣٩٤ ــ ١٤٦٠)

أمير برتغالي ابن جان الأول أطلق عليه اسم الملاح اكتشف سواحل إفريقية، وجزيرة مادير، وجزيرة آسور.

٢٧ ــ دوريا اندريا Doria (١٤٦٦ ــ ١٥٦٠)

أميرال إيطالي لعب دوراً كبيراً في ثورة الكورسيكيين وقاتل الأتراك بحراً، خدم في أسطول فرنسا ثم انتقل إلى أسطول شارل كنت حيث منحه هذا الأخير لقب أميرالاً جنرالاً للبحر.. خرج من عائلة دوريا العديد من قادة البحر برز منهم في نهاية القرن الثالث عشر الأميرال دوريا الذي غامر في الوصول إلى جنوب بلاد المغرب بحراً، وأعقبه الملاح فيفالدي في الحقبة الزمنية نفسها.

٢٨ ــ ديغو كاو Diego Caw

ملاح ومستكشف برتغالي قام برحلته الأولى عام (١٤٨٢) حاذى الساحل الافريقي حتى مصب نهر زائير في الكونغو، وصل حتى سواحل بينغويلا.. وخلال رحلته الثانية عام (١٤٨٥) استطلع كل سواحل إفريقية الجنوبية الغربية.

٢٩ ــ دياز بارتيميلي ديل كاستيلو Diaz Barthélemy Ddl Castillo (١٥٠٠ ــ ١٥٨١)

مستكشف ومؤرخ إسباني شارك في اكتشاف شبه جزيرة ياكاتان (المكسيك) (١٥١٧) ثم تابع برفقة كورتيز استكشاف بلاد المكسيك من مؤلفاته «التاريخ الحقيقي لاستعمار إسبانيا الجديدة».

٣٠ ــ كوفيلهام وبايفا

ملاحان برتغاليان كلفا من قبل جان الثاني ملك البرتغال باستكشاف الشرق فوصلا حتى المحيط الهندي، وصعدا إلى الجانب الشرقي من إفريقية حتى بلاد الحبشة.

٣١ ــ ريح الصابيات Alizés

رياح منتظمة تهب من الجنوب على المناطق الواقعة بين خطي العرض ٣٠° شمالاً و ٣٠° جنوباً.

٣٢ ــ فاسكو دو غاما Vasco De Gama (١٤٦٩ ــ ١٥٢٤)

ملاح برتغالي اجتاز رأس العواصف ووصل الموزامبيق وقام في رحلة ثانية على رأس (٢١) سفينة (١٥٠٢) إلى الهند وحارب ملك زاموران Zamorin وانتصر عليه وأقام وكالة برتغالية ثم عقد حلفاً مع ملك كوشان Cohin وسيطر على بقعة واسعة من أرض الهند فسماه الملك البرتغالي على أثر ذلك نائباً عاماً له في الهند (١٥٢٣).

٣٣ ــ كابرال بيدرو الفارس Cabral Pedro Alvarez (١٤٦٠ ــ ١٥٢٦)

ملاح برتغالي وأميرال بالفطرة تولى قيادة الأسطول الثاني البرتغالي المخصص للهند.. غادر ليشبونة قاصداً موريتانيا فحملته التيارات البحيرة بعيداً حتى شواطىء أمريكا الجنوبية وساحل البرازيل عام (١٥٠٠) ومن هناك نزل إلى الجنوب واستدار حول رأس الرجاء الصالح وزار موزامبيق ثم تابع سيره وحط على شواطىء الهند وحاصر كلكوتا ثم أقام معاهدة مع حاكم كوشان وعاد عام (١٥٠٢) إلى ليشبونة ثانية.

٣٤ ــ جاك فيريه (١٢٩٠ ــ ١٣٤٨)

ملاح إسباني من جزيرة مايوركا في أرخبيل الباليار.

الملك جان الثاني (١٤٥٥ ــ ١٤٩٥) ولقبه Le Parfait الكامل: حكم البرتغال ابن الفونس الخامس كان على علاقة وطيدة مع الإسبان ووقع معهم اتفاقية torديسيلا Tordesillas.. هو الذي رفض تمويل سفن كريستوف كولومبوس عام (١٤٨٤) مما اضطره للجوء إلى حاكم كاستيلا في طلب المعونة.

اتفاقية توردیسيلا

نسبة إلى مدينة صغيرة في إسبانيا فيها قلعة قديمة وكانت مركز الملك الفونس الحادي عشر.. ونصت الاتفاقية (١٤٩٤) على تحديد مناطق نفوذ كل من البلدين المستعمرين إسبانيا والبرتغال، والحد هو (٣٧٠) فرسخاً (الفرسخ يعادل ٤ كيلومترات تقريباً) إلى الغرب من الجزر الخضراء وخط الطول الذي يمر في هذه النقطة هو الفاصل بين الممتلكات المستقبلية للبلدين.. وضع المخطط وحدد المناطق الأميرال الكاتالاني **فيريه جوم** Ferrer Jaume.

٣٥ ــ مونوموتابا Monomotapa

إمبراطورية قديمة في منطقة زامبيزي وقعت تحت حماية البرتغال عاصمتها زيمبابوي.

٣٦ ــ غولكوند Golconde

مدينة وقلعة في الهند اشتهرت بثرواتها تقع قرب مدينة حيدر آباد.

٣٧ ــ الميدا فرانسيسكو Almeida (١٤٥٠ ــ ١٥١٠)

أميرال بورتغالي عين نائباً للملك في الهند (١٥٠٥) قتل في موقع يدعى كسوزا Xhosa في إفريقية الجنوبية على يد السكان الأصليين.

٣٨ ــ بونس دو ليون Ponce De Leon (١٤٦٠ ــ ١٥٢١)

مستكشف إسباني استولى على بورتوريكو ونزل على الساحل الغربي من فلوريدا، جرح جرحاً مميتاً في إحدى جزر الكاراييب (غوادلوب) ومات.

٣٩ ــ كورتيز هيرنان Cortez (١٤٨٥ ــ ١٥٤٧)

مستكشف إسباني ساهم في احتلال سان دومينيك وكوبا والمكسيك وسواحل يوكاتان، أسس مدينة فيراكروز عام (١٥١٩) واستولى على ملك تلاكسكالا Tlaxcala المكسيكية وتحالف مع الآزتيك، دخل مدينة تينوشتيلان المكسيكية حيث استقبل من قبل إمبراطورها موستيزوما Moctezuma.. بعد ثورة الآزتيك ومقتل آخر إمبراطور فيها سمي كورتيز من قبل شارل كنت حاكماً عاماً للبلاد وأطلق عليها اسم إسبانيا الجديدة حتى عام (١٥٤١).. ثم عاد إلى مدريد وشارك في الحملة على الجزائر، ثم أفل نجمه حتى مات.

٤٠ ــ والد سيمولر Waldseemüller مارتان (١٤٧٠ ــ ١٥٢١)

كاهن وعالم جغرافي ألماني وهو الذي أعطى لأول مرة اسم أمريكا للعالم الجديد وقد استمد ذلك من خطأ وقع به وهو اعتقاده بأن اميرغو فيسبوتشي Amerigo Vespucci هو أول المستكشفين (وهو ملاح إيطالي (١٤٥٤ ــ ١٥١٢) قام بعدة رحلات بحرية إلى العالم الجديد وخاصة سواحل أمريكا الجنوبية والبرازيل.

٤١ ــ دياز جوان سوليز Diaz-Solis

ملاح إسباني اكتشف قسماً كبيراً من سواحل أمريكا الجنوبية وصعد مجرى نهر ريوبلاتا، وتغلغل في البلاد حتى وقع في كمين وقتل عام (١٥١٦).

٤٢ ــ ماجيلان فيرناند (١٤٨٠ ــ ١٥٢١)

ملاح برتغالي خدم في إسبانيا وقام برحلته الشهيرة عام (١٥١٩) وعبر الممر الذي سمي باسمه (طول الممر ٥٨٣ كم، يصل بين المحيطين الأطلسي والهادي) ثم اكتشف أرخبيل الفيلبين لكنه قتل في ماكتان Mactan وهي جزيرة صغيرة مقابل سيبو Cebu. أطلق اسم ماجيلان على مجرة سماوية لعالم سحيق البعد وهي بالأحرى مجموعتين سميت الأولى غيمة ماجيلان الكبيرة، والثانية غيمة ماجيلان الصغيرة، وتريان في السماء من نصف الكرة الجنوبية وعلى بعد (١٥٠) ألف سنة ضوئية تقريباً.

٤٣ ــ الفارادو بيدرو Alvarado (١٤٨٥ ــ ١٥٤١)

مستعمر إسباني وقائد ثاني لكورتيز، فتح غواتيمالا والسلفادور، وشيد سانتياغو غاباليروس في الغوتيمالا.

٤٤ ــ دو تافان De Tavannes : الكونت غاسبار (١٥٠٩ ــ ١٥٧٣)

ماريشال لفرنسا وأحد مؤسسي مستعمرة بارتيليمي.

٤٥ ــ كابوت جيوفاني Cabot (١٤٥٠ ــ ١٤٩٨)

ملاح من جنوة حمل جنسية مملكة البندقية ثم التحق بإنكلترا، حاول إيجاد طريق جديد للصين فوصل إلى اللابرادور (أمريكا الشمالية) رافقه ابنه **سيباستيان (١٤٧٦ ــ ١٥٥٧)** في رحلاته البحرية، وهو الذي عبر خليج هدسن عام (١٥١٧) وكان بخدمة شارل كنت ثم استكشف ريوبلاتا وريوباران والباراغوي، سمي الممر الذي يفصل بين الأرض الجديدة ورأس جزيرة بروتون باسمه (ممر كابوت).

٤٦ ــ ويللوغبي Willogbby سير هيوغ

ملاح إنكليزي مغامر حاول إيجاد ممر من شمال أوربة إلى الشرق لكنه تغلغل في المحيط **المتجمد** الشمالي، وفقد قرب شبه جزيرة Kola كولا عام (١٥٥٤).

٤٧ ـ شانسولر ريتشارد Chancellor

ملاح ايكوسي اكتشف البحر الأبيض شمال أوربة، ومن هناك وصل موسكو بدعوة من قيصر روسيا ايفان الرابع. أقام خلال رحلته الثانية معاهدة بين إنكلترا وروسيا مات عام (١٥٥٦).

٤٨ ـ فروبيشير Frobisher سير مارتان (١٥٣٥ ـ ١٥٩٤)

ملاح إنكليزي اكتشف شمال الأطلسي وشبه جزيرة غروئنلاند وسواحل لابرادور وأرض بافان، ثم رافق الأميرال دراك إلى الهند الغربية وشارك في معركة تدمير الآرمادا الإسبانية (١٥٨٨) سمي خليج باسمه قرب جزيرة بافان في كندا القطبية.

٤٩ ـ دراك Drake سير فرانسيس (١٥٤٠ ـ ١٥٩٦)

ملاح بريطاني وأميرال أول كلف من قبل الملكة اليزابيت بثلاث رحلات جريئة ضد الإسبان (١٥٧٠ ـ ١٥٧٢)، ثم قام كأول إنكليزي بالدوران حول العالم (١٥٧٧ ـ ١٥٨٠). دمر الأسطول الإسباني في ميناء قادس (١٥٨٧)، وشارك في تدمير الآرمادا، وسمي الممر الفاصل بين أرض النار وأرض غراهام في القارة القطبية باسمه.

٥٠ ـ جاك كارتييه Jaques Cartier (١٤٩١ ـ ١٥٥٧)

ملاح فرنسي اكتشف الأرض الجديدة وخليج سان لوران في كندا ووصل حتى موقع مونتريال الحالي.

٥١ ـ فيلغانيون Villeganon نيقولا الكبير (١٥١٠ ـ ١٥٧١)

فارس وأميرال فرنسي أعاد إلى فرنسا ماري ستيورات عام (١٥٤٨). أقام في البرازيل عام (١٥٥٩) مستعمرة فرنسية لكنه تخلى عنها للبرتغاليين بعد خلافات دينية مذهبية بين الطوائف المسيحية.

الباب الرابع

السيطرة على البحار والاقتتال الكبير
إسبان. هولاند. إنكليز. فرنسيون
حتى القرن السابع عشر

الفصـــل الأول

الصـراع البحـري الأوربـي للقــوى العظمــى

عندما نتطرق للقرن السابع عشر في عرضنا التاريخي لا بد وأن نشعر بالتحول الكبير الذي طرأ على بلدان أوربة الغربية، فدولها الكبرى ارتدت حلة جديدة مختلفة عن حلة القرون الوسطى القاسية المتصلبة، واندثرت روح الطائفية النصرانية المتصلبة، لتحل محلها روح تقدمية علمانية مادية، محركها العام الاقتصاد والسيادة.

طرحت منذ بداية هذا القرن أسئلة عدة لا زالت تتكرر حتى يومنا هذا، لواقعيتها، ولأنها تتعايش مع كل عصر وتواكب مسيرات الأمم ووجودها.

تظهر هذه الأسئلة بأشكال متعددة، وكلها تنصب في بوتقة واحدة أزلية هي: ما مصير توازن القوى؟ ومَنْ له التفوق بين الشعوب، وهل تقسيم العالم سيتم وفق مصلحة دولة أو عرق أو دين؟ أم سيكون محصلة تناسق بتوازن تفرضه طموحات مختلف الشعوب؟. إن الظروف الجديدة التي أحاطت بتطور الإنسانية أعطت هذا التساؤل ثقلاً جديداً لم يصبه من قبل، فغابراً كان يقوم الامتداد الإقليمي بقوة السلاح، ويدعم ويقوّى ليحافظ على توازنه بين جيرانه، أما في القرن الجديد، القرن السابع عشر فتأتي الأهمية للثقل المالي، وللظروف الاقتصادية، إلى جانب القوى الحربية، لتمنحه منحى جديداً قوامه أساس إقامة التوازن بين الأمم، وتحقيق تتابع الحياة السياسية الناجحة، وتوالي السياسيين. أما الاقتتال فلم يعد يقتصر على أسبابه السابقة، بل أصبح التفوق

الاقتصادي مطلباً حيوياً هاماً ، وامتلاك المستعمرات واستغلالها هدف جميع أمم ذلك العصر . وطبعاً فتلك الأطماع لا يمكن لها أن تمر دون نزاعات محلية أو دولية . وينقلب الخلاف إلى حرب توسع (بري) قاري ، ثم يمتد إلى البحر وإلى انتزاع الممتلكات وراء البحار .. « **والقوى البحرية فيه والتي كان لها فضل الاكتشافات الكبرى ونقل الثروات والخيرات ، أصبحت ضرورة حيوية لها موقعها الكبير في عظمة الأمة ووجودها** . وسوف نرى في عرضنا لتسلسل أعوام القرن السابع عشر **ما لهذه القوى من أثر فعال في حياة الإنسانية وفي تقدم الشعوب** » .

إن امتلاك الهند بشرقيها وغربيها أعطى لإسبانيا صفة الأمة الأكثر ثراءً والأعظم قوة في العالم . (ويمكننا اعتبار البرتغال دولة تابعة سيارة في فلك عظمة إسبانيا ، عند مقارنتها بها) . وإسبانيا تستطيع التوسع .. حتى مرحلة سيادة العالم الجديد .. وهي قادرة بما لها من إمكانات . وهذا ما جعل أمم أوربة الأخرى تتنبه للدفاع عن كياناتها التي أصبحت ضعيفة هزيلة ، أمام عظمة قوة إسبانيا وطموحاتها المتعاظمة .. وحتى تحمي هذه الشعوب حدودها اندفعت تهاجم إسبانيا والبرتغال في عقر مصادر ثرواتها التي هي أصل قوتها وجبروتها ، بقتال ظاهره دفاع عن الوجود وباطنه اقتسام الخيرات الجديدة ، وانتزاع حصة في اقتسام كنوز العالم الجديد ، في مرحلة انتهت إسبانيا فيها من إحكام قبضتها على تلك المستعمرات ، وبدأت في جني الخيرات .

حاولت الدول الأوربية فرض نفسها على قائمة المستفيدين من تجارة الهند ، ومن استغلال خيرات أمريكا وجزر المحيط الهادي . وطالبت التشبه بإسبانيا والبرتغال في إقامة المستعمرات وراء البحار والمحيطات ، وأخذت تتنافس فيما بينها لمد أرض وطنها الأم بعيداً عبر الممتلكات والمستعمرات . لكن تحقيق هذا المطلب ليس بالأمر السهل ، ويصطدم بعقبات كثيرة أهمها مقاومة الغير ، إذ لا بد من النزاع في سبيل تحقيق الأهداف ، وانتزاع الممتلكات ، ولم يكن الهدف احتلال الأرض ، أي أرض ، بل البحث عن الثروات ، واختيار أفضل المناطق وأغناها ، للسيطرة عليها ، ومن ثم إقامة خطوط مواصلات بحرية ثابتة معها لتأمين حرية التجارة والنقل .. وهنا تنبه الساسة الكبار لما للقوى البحرية من مكانة هامة في عظمة الأمة وازدهارها .

قال كامبانيلا[٥٢] Campanella :

« مفتاح البحر هو مفتاح العالم »

كان دور القوى البحرية في العصور التي سبقت القرن السابع عشر هو الاكتشاف بدافع

المغامرة، أو البحث عن المعرفة، إلا أن ارتقاء المقاييس في المجال الاقتصادي العالمي بعامل تدفق الخيرات أعطى البحرية الحربية مهام جديدة، هي القتال من أجل السيطرة وسيادة البحار الصغيرة المغلقة، كالبلطيق والشمال والمتوسط، ثم البحار الكبيرة كالمحيط الأطلسي والمحيط الهادي.. وكلفت القوى البحرية الدولية بمهام معقدة صعبة. فبدلاً من عمليات نقل محدودة، أصبحت عملياتها واسعة بعيدة المدى، يجدر تأمينها في الأحوال الطبيعية، وتعزيزها في حالات الهجوم أو حالات الدفاع.. وأصبح الاقتتال البحري أو الساحلي قتالاً مرتبطاً أحياناً بالمفاجآت التي يمكن أن تتم في ساحات القتال البرية.. ثم تطور هذا القتال حتى أصبح قتال أساطيل، همه الاستيلاء على خطوط المواصلات البحرية ـــ وإقامة سيادة على البحار، لمنع المزاحمين أو الغزاة من تحقيق مآربهم، أو تقديم الحماية للعدو.. فانطلق أمراء البحر وقادته من عزلتهم في البحار الصغيرة والمياه الإقليمية إلى آفاق بعيدة، يجوبون البحار بين أطراف الإمبراطورية المنتشرة في جميع الجهات. وأصبح امتلاك الأسطول البحري لأعالي البحار رمز عظمة الدولة وتقدمها.

برزت نقطة هامة في حياة السلاح البحري في هذا العصر وهي نوعية وكفاءة تسليح السفن الحربية بما يتماشى مع مهامها الجديدة، فتسليح الأمس لم يعد يستطيع مجابهة واقع الحاضر ولا تطلعات المستقبل، وكان لا بد من تقنية متطورة في صناعة السفن وفي طرق تسليحها ولم يعد يكفي حشد السفن لإقامة عمارة قتالية، ولا حشد الرجال على العائمات ليقوموا بالاشتباك القريب بل تحضير طويل وتدريب متواصل وتخصص في المعدات وتأهيل للقادة ودراسة لفن القتال وأصوله التعبوية.

الفصــل الثـانـي

إمبـراطوريـات الاستعمــار وبحـريـات المحيطــات

البـرتغــال

خضعت دول أوربة لتأثير التطور النشوئي، فتراجعت القوى البحرية الماضية أمثال قوى جنوة والبندقية، والتحالف التجاري الشمالي Hanse، واختفت لأنها لم تعد تستطيع تلبية شروط العصر الجديد.. وبرزت لكل أمة قوة محتدمة جشعة في الكسب، شرسة في القتال.. فمثلاً دول السويد والدانمرك وألمانيا دول أوربية ناشئة تحلم بثروات العالم، وتتطلع لخيرات الهند، وتسعى للسير في طريق السيطرة والسيادة، عن طريق مخر عباب المحيطات لتبني مجداً لشعوبها.. لكن أزمات القارة الأوربية المتلاحقة.. والاقتتال الدائم بين شعوبها (حرب الثلاثين عاماً) أثر على مجريات الأمور تأثيراً سلبياً.. حتى إنها امتصت في بعض الأحيان طموحات التوسع للدول، وحدت من نفوذها الاستعماري، قبل أن تصل إلى المستوى القادر على هذا التوسع.

اقتصرت المزاحمة في منتصف القرن السابع عشر على امتلاك المؤسسات التجارية. وكانت وقفاً على القوتين الرئيسيتين آنذاك، إسبانيا والبرتغال اللتين كان لهما وحدهما الدور الأول في الاحتلال والسيطرة، ثم تلا هاتين الدولتين كل من إنكلترا وفرنسا وهولندا (الأقاليم المتحدة)، التي كانت لها القدرة على حرية العمل بحراً وتستطيع التصرف للوقوف أمام المد الاستعماري الإسباني البرتغالي ومحاولة انتزاع بعض المكاسب.

سبق للبرتغال أن تراجعت عن كونها دولة كبرى نتيجة أحداث أعوام (١٥٧٨ ــ ١٥٨٠) وأصبحت تابعة للدولة الإسبانية، ولمدة زادت عن ستين عاماً متلاحقة، حرصت إسبانيا خلالها على احترام فردية البرتغال الوطنية، فلم تحاول إذابتها في بوتقة الإمبراطورية الإسبانية وبقيت مستعمرات البرتغاليين ملكاً خاصاً بهم، يستغلونها لصالحهم وحدهم. لكن تغير الظروف جاءت شؤماً عليهم.. فالملك فيليب الثاني(٥٣) والملوك البرتغاليون الذين أعقبوه تخلوا عن مصالح البرتغال الخاصة، وانصهروا في تيار سياسة إسبانيا الخارجية وشاركوا فيها.. فعرَّضوا بذلك مصالحهم للانهيار. وعندما هبت دول أوربة الأخرى لانتزاع المستعمرات من إمبراطورية إسبانيا المتداعية لم توفر مستعمرات البرتغال وممتلكاتها عبر البحار. ولما كان حفظ السلام، والدفاع عن الممتلكات عبئاً ثقيلاً على دولة محدودة الإمكانات فإن انهيار مجد البرتغال جاء سريعاً، خصوصاً وأن انتشارها التوسعي في المحيطات لا ينسجم وقدراتها البشرية والحربية.. وفضلت والحالة هذه الابتعاد عن الحرب الشيء الذي لا طاقة لها به، وانتهت لأسلوب التعامل السلمي، بعقد اتفاقيات مع العالم الخارجي. ولم تكن لتستطيع الاحتفاظ بتجارتها الخارجية لو أن أحداً فكر بانتزاعه منها.. لكن الذي أضر بالبرتغال سياسة إسبانيا في أوربة.. إذ دفعت بها ثمانين عاماً إلى مشاركتها حروباً لا هوادة فيها ضد كل أوربة، فمنذ عام (١٥٨٨) تعرضت إسبانيا لضغوط دول أوربة الأخرى، وأُغرِقت أجمل سفنها القوية في كارثة الآرمادا.. تبع ذلك عدة مصائب مع الهولنديين، كان لها آثار بعيدة في البرتغال. ولكبت أصوات الثائرين قام فيليب الثاني عام (١٥٩٦) وقرر إغلاق ميناء ليشبونة، فاضطر أصحاب ومجهزو السفن في الموز وزويدرزيه إلى النزوح للبحث عن خيرات الهند والعالم الجديد، بعد أن كانت تصلهم هذه الخيرات دون عناء إلى مدخل نهر التاج أي ليشبونة نفسها.

ادعى البرتغاليون فرض احترامهم على المستعمرات بقوة القوانين، لكنهم وجدوا أنفسهم غير قادرين على المثابرة نظراً لافتقارهم للأسطول الحربي المتخصص، إذ كانت جل مراكبهم من نموذج الكراكات Caraques، وهي سفن ضخمة بطيئة المناورة، صعبة الملاحة، ضعيفة التسليح. وهذا ما جعل البرتغاليين ينحنون أمام هجمات الهولنديين، وتركت إمبراطوريتهم الشاسعة بخيراتها العميمة مهددة ضعيفة الحماية، تمشي نحو الاضمحلال والضياع. وبالفعل جاء اليوم الذي طردوا فيه من الجزائر الهندية، ومن الهند، وامتنع عليهم طريق اليابان، وقامت بوجههم الاضطرابات.

استغل الهولنديون والفرنسيون والإنكليز فرصة ضعف القدرة البحرية البرتغالية فانقضوا يتقاسمون التركة. وكانت سنة (١٦٣٥) بداية انهيار الإمبراطورية البرتغالية..

حاولت البرتغال عام (١٦٤٠) استعادة الثقة بنفسها .. وبعد عشرين عاماً توصلت إلى استعادة حريتها بفك تبعيتها عن إسبانيا ، لكنها لم تستطع استعادة أي مستعمرة من ممتلكاتها وراء البحار .

في عام (١٦٤٨) اشترى فيليب الرابع السلام من العناصر الثائرة في هولندا ، بترك ممتلكات هؤلاء العناصر . ثم تتابعت الحروب فأضاعت البرتغال الكاب Cap وسيلان ونيغاباتام (ميناء مادراس) وكالكوتا ، ونصف البرازيل . وعلى أثر ثورة محلية ضاعت البرازيل بكاملها ، وذلك بين أعوام (١٦٤٥ ــ ١٦٥٤) ، ثم تمت معاهدات صلح عدة بين أعوام (١٦٦١ ــ ١٦٦٩) ، وبها ترك للبرتغال كل البرازيل . وبعض الموانىء المبعثرة المعزولة في إفريقية ، وفي مالابار (جنوب الهند) ، وتيمور (جزيرة في الهند الشرقية) ، وماكاو ، وبذلك انتهت البرتغال كبلد مهم من بلدان عالم القرن السابع عشر .

إسبانيا

الوضع في إسبانيا يختلف عنه في البرتغال فقواعد بناء الأمة أكثر صلابة ، ويرتكز على مستعمرات قوية ، تضم جزر الآنتيل والفيلبين ثم المملكتين الملحقتين ، وهما إسبانيا الجديدة وكاستيلا الجديدة ، وتتضمنان المكسيك وأمريكا الوسطى وجنوب الولايات المتحدة ، كاليفورنيا ، أريزونا ، مكسيك الجديدة ، تكساس ، فلوريدا ، وكل أمريكا الجنوبية عدا البرازيل .. كل هذه الممتلكات بلاد شاسعة غنية تسيطر إسبانيا عليها ، وتستخرج من باطن أرضها المعادن الثمينة ، وتجمع من منتجاتها ثروات فاحشة . وأصبح الموظفون المعتمدون في المستعمرات من نواب الملك وقادة بحر ، وقادة عسكريين ، وحكام كلهم إسبانيو المولد يتمتعون بصلاحيات مطلقة في سبيل الحفاظ على المستعمرات وولائها لملك إسبانيا ، حتى لو اضطروا إلى استعمال العنف في خنق حركات التحرر وحركات الاستقلال المحلية .. أما البيض المولدون الكريول وهم المنحدرون من تزاوج العرق الأبيض بالعرق الملون من السكان الأصليين فقد استبعدوا عن الحكم ، ولم تسند لهم أية مراكز هامة في إدارة البلاد . حتى إنهم أبعدوا عن السلطات الكهنوتية المتعلقة بالكنيسة واقتصرت مهامهم على العمل في المناجم وفي زراعة الأرض .. وكانت رغبة الإسبان الحد من تزايد عدد هؤلاء المولدين من السكان ، وكانوا يفضلون عليهم استقدام بيض أوربيين من بلدان أوربة الأخرى ، حتى ولو لم يكونوا من الإسبان ..

قُدِّر عدد الإسبان في المستعمرات عام (١٥٠٠) بخمسة عشر ألف إسباني في كل القارة الأمريكية، ونصف هذا العدد في باقي مستعمرات المحيط. أما الهنود الحمر فقد تضاءلوا بعد تعرضهم لعهد من القهر والإذلال والإبادة. وعلى أثر مذبحة القرن السادس عشر انحسروا إلى الهضاب، واستكانوا فيها. وبقي بعضهم في خدمة الرجل الأبيض يقدمون السخرات.

خشيت إسبانيا تسلل الغرباء لمستعمراتها فسعت دوماً وبكل طاقاتها إلى إبعاد كل اتصال من هذا القبيل، وحرصت على تقديم الخدمات اللازمة للمقيمين المستعمرين بتزويدهم بكل ما يحتاجون إليه من الوطن الأم إسبانيا. ومنعت عليهم التعامل مع الأجانب مهما كانت الظروف. واعتبر كل اتصال مع غير الإسباني جريمة يعاقب عليها القانون وتصل أحكامها حتى القتل، وينسب لفاعلها الهرقطة الدينية، ويطبق عليه قانون العقوبات المتضمن أحكاماً قاسية..

نظم الإسبان مراقبة تجارة الهند بحزم، وأسندوا إدارتها إلى **دار التعاقد الاشبيلي** عام (١٥٠٣). وكان الإسبان أو بالأحرى الكاستيان الوحيدين المخولين حق استئجار السفن وإرسال السفن إلى المستعمرات. واقتصر تعمير السفن على أشبيلية، ثم منح هذا الحق لقادس فيما بعد، أما تسليح السفن فكان يخضع لمراقبة شديدة.

اعتادت إسبانيا إرسال قافلتين كبيرتين في العام الواحد، الأولى في كانون الثاني والثانية في أيلول. وتبدأ هذه القوافل رحلتها من الساحل الإسباني بحماية السفن الحربية. وكانت تسلك طريقاً محدداً لتفادي هجمات لصوص البحر، وعند وصول القافلة إلى الدومينيك تنقسم إلى قسمين، أسطول سان دومينيغو وكوبا ويصل حتى فيرا كروز، وأسطول الغلايين (جمع غليون) وتتجه نحو البر القاري ويصل حتى مرفأ بورتو بيللو Porto Bello، حيث هناك المعرض السنوي الذي يمد كل تجارة أمريكا الجنوبية بالمعروضات والبضائع.

أما طريق عودة القوافل فيبدأ بعد تجمع كافة السفن العائدة في مرسى هافانا بجزيرة كوبا، ثم تقلع باتجاه إسبانيا سالكة الخط الملاحي نفسه.

أما الملاحة في المحيط الهادي فلم تكن لتختلف عمّا كان يجري في المحيط الأطلسي، فهي دقيقة منتظمة، غايتها نقل البضائع إلى بر البيرو، عن طريق باناما، ومن هناك تحمل على السفن لتنقل عبر القوافل.

أما بالنسبة للجزر المنتشرة كالفيلبين وجزر الكارولين والمؤسسات التجارية في فورموزا والصين

واليابان فكان يتم اتصالها بالعالم المتحضر عن طريق سفينة كبيرة (غليونة) واحدة تقلع سنوياً من أكابولكو في المكسيك، وتقصد مانيلا في الفيلبين، ثم تغطي كل الموانىء الهامة في الصين واليابان.

بقيت تجارة إسبانيا محدودة لم تتجاوز حركة مرفأ اشبيلية، وبحدود (٢٧) ألف طن سنوياً. وظل عدد السفن العاملة لا يزيد عن أربعين سفينة، أكبرها تصل إلى (٨٠٠٠) طنه. وكانت الغاية من ذلك إبقاء الاتصال مع الهند بعزلة تامة عن كافة العالم الخارجي، لتحتفظ إسبانيا بكل الثروات والمعادن الثمينة، وتراقب حركتها بدقة ونظام، وتستخرج حاجتها فقط. وبذلك الأسلوب الاقتصادي المراقب حافظت إسبانيا على مركزها المتقدم، وأمنت لنفسها دخلاً هائلاً منتظماً، فنمت ثروتها القومية في كل مكان وعلى كل مجال، وفاض عن حاجتها الكثير فبنت جيشاً جراراً اشتهر في ذلك العصر باسم Tercios Viejos وهو جيش جيد التدريب، حسن التأهيل، مجهز بأحدث وسائط القتال. وكان مصدر رعب لكل أمم ذلك العصر، أطال في أمد مجد إسبانيا العسكري، وحماها داخل الوطن وخارجه. فبفضل هذا الجيش العظيم حافظ شارل كنت على ممتلكات الإمبراطورية في النمسا وبوهيميا وهنغاريا.

مرت فترات زمنية كانت بلدان وسط أوربة بإمرة حكام حلفاء لإسبانيا. وفي عهد فيليب الثاني امتلك ملك إسبانيا البرتغال، وبسط نفوذه على آسيا وإفريقية، خصوصاً بعد زواجه من ماري تودور(٥٤). وشارك إنكلترا في نظامها السياسي، وأصبح ملكاً لأغرب إمبراطورية من حيث تعدد الجنسيات والأقاليم. ولم يشهد التاريخ نظيراً لها، فهي تضم بالإضافة إلى كل شبه جزيرة ايبريا، الأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا) والفرانش كونتيه (وهي الأقاليم الواقعة شرقي فرنسا)، وميلانو، ونابولي، وسائر ممالك إيطاليا، والأميركيتين (ما عدا البرازيل)، والهند، وحتى المحيط الأطلسي الذي غدا محيطاً إسبانيا بكامله.

فرضت إسبانيا سيادتها على فرنسا وألمانيا والنمسا والدول السكندنافية وبولونيا. ولم يشهد العالم إمبراطورية بهذا الحجم وبهذه القوة. واقتربت من حلم راود الكثيرين وهو إقامة إمبراطورية كونية تضم كل العالم.

هذا الاتساع المتعاظم جعل فيليب الثاني يحلم بالحكومة العالمية، واعتقد بنفسه مؤهلاً لسيادة العالم، وباسم الكنيسة الكاثوليكية، فدفع بالبلاد لحروب شاملة ضد كل من اعترض على هذه الهيمنة. فحارب هولندا وإنكلترا، وفرنسا والعالم كله، ثم تورط في حروب طويلة أضعفت قواته، واستنفذت ثرواته، فترك البلاد بعد موته ضعيفة مهدمة، ومن سوء طالع إسبانيا أنه خلق

فيليب الثاني في الحكم ملوك ضعفاء وحكومات أرُستقراطية جشعة أو بيروقراطية حمقاء، زعزعت الإمبراوطورية وأودت بها إلى الدمار، حيث كان يسمع في كل مكان وعلى لسان الدوق دوليرم Delerme ردد الجميع:

«الكل ضد إسبانيا، وإسبانيا ضد الجميع»

انتهت إمبراطورية شارل كنت فريسة لا حول لها ولا قوة، تتقاسمها قوى فتية جديدة نزلت المسرح الدولي، فهبط عدد سكان إسبانيا من (٨٫٥) مليون عام (١٦٠) إلى (٦) ملايين عام (١٦٨٠)، وإلى (٤) ملايين عام (١٧٠٠).

لم يكن الإسبان في يوم من الأيام على المستوى المفروض لهم بحرياً، فهم ليسوا رجال بحر بالمعنى الحقيقي، والظروف وحدها هي التي أجبرتهم على ركوب البحر، خلال نزاعهم الطويل، خصوصاً مع العثمانيين في المتوسط. ولقد برهنت تجاربهم المختلفة مع مرتزقة البحر أن هؤلاء الرجال لا يستطيعون تغطية المهام التي قد تطلب من القوات البحرية النظامية.

ابتدأت القوات البحرية الإسبانية تاريخها بأسطول من سفن التجذيف السريعة (السجانات) أعدها ماركيز سانتا كروز الفارو دو بازان(٥٥) وأضحى الأسطول الأول في كل أوربة، وفرض سيادته على المتوسط، حيث حول هذا البحر إلى بحيرة إسبانية، لكن عدد سفنه لم يكن كافياً ليستطيع تغطية كل الأعباء المناطة به، ولم تتعد سفنه الستين سفينة خلال حروب الثلاثين عاماً.

وقصّر الأسطول الإسباني عن ركب التطور، ولم يلحق بالتعديلات التي طرأت على سفن الأمم البحرية الأخرى. فسفينة التجذيف لم تعد السفينة الحربية الملائمة خصوصاً بعد أن انتقل مركز ثقل قدرات البحر إلى الشمال، وغدت السفينة الشراعية المجهزة بالمدفعية هي سفينة العصر. وأصبح على كل دولة امتلاك أسطول حربي خاص بها ولم يعد يكفي الاعتماد على سفن المغامرين والقراصنة لدرء الأخطار القادمة من البحر، أو لحماية شواطىء الوطن.

تنبهت إسبانيا إلى الظرف الجديد الذي أحاط بأوربة فأسرعت تلحق بركب التطور البحري، وبنت أسطولاً ملكياً حديث السفن يعتمد على نموذج الغليون. وتم لها تحقيق ذلك فامتلكت أسطولاً حربياً حكومياً عديد السفن، إلا أن نوعية التعمير كانت متوسطة الثبات في البحر الهائج، ضعيفة المناورة، أشرعتها من النوع المثلثي القليل المردود. أما مدفعيتها فقليلة العدد، صغيرة العيار، مداها

قصير، وجمعت في صرحي المقدمة والمؤخرة فقط دون الأجناب. فشكلت زوايا رمي ميتة كبيرة، دون قوة نار كافية وكان استخدام المدافع محصوراً بقطاعات ضيقة.

بعض طواقم ورجال السفن من البحارة الأشداء جاؤوا من خليج الباسك وكاتالانيا، في حين جاء البقية منهم من المناطق الإسبانية الأخرى، وهم ليسوا بالمستوى المطلوب ولا هم بالبحارة الأكفاء.

وكانت رحلات السفن الإسبانية رتيبة سهلة، تنطلق من البر الإسباني إلى سواحل أمريكا مستخدمة ريح الصَّبا والتيارات البحرية، لا جديد فيها، اعتادها البحارة، فتوقف عندهم التطور الحسي، فلم تشحذ هممهم، ولم تصقل معرفتهم. وكثيراً ما كانت تبحر سفنهم ناقصة الطواقم، فتستدركه بجنود بريين لا حول لهم ولا قوة متى ابتعدت هذه السفن في عرض البحار.. أما قادة السفن وضباطها فكانوا يختارون من الرجال الكاستانيين الشجعان الذين يجيدون القتال بالسلاح الأبيض، والالتحام حتى التضحية. إلا أنهم لم يتفاعلوا مع استخدام الأسلحة الجديدة من مدافع وحراقات، وكانوا يشعرون بضيق شديد على السفن الحديثة البطيئة الحركة، وهم الذين اعتادوا السجانات السريعات وقتال الالتحام بالسيف والرمح. ومما زاد في تثبيط هممهم المهام التي كانت توكل إليهم، وهي أعمال سلبية كحماية سفن التجارة، ومواكبة القوافل، ونقل الرجال والعتاد والبضائع، وهم الذين كانوا يجوبون البحار المختلفة قرصنة وقنصاً وتقتيلاً..

مع كل ما ذكر كانت سمعة البحرية الإسبانية الظاهرية سمعة متقدمة على جميع الأساطيل المعاصرة لها، حتى بدأت حربها مع إنكلترا فكشفت أسطورة هذه السمعة في حادثة تجمع الآرمادا التي لا تقهر L'invincible Armada، وتعثرها وتشتيتها. فبعد عشرة أيام من المعارك البحرية، وفي جو عاصف انقلبت هذه الآرمادا المرعبة جمهرة تائهة من بقايا السفن تفرّ إلى سواحل إسبانيا هلعة مهزومة، وتتوالى المصائب على الإسبان خلال حروبهم مع إنكلترا (١٥٦٨ ــ ١٦٦١)، ومع الهولنديين (١٥٦٨ ــ ١٦٤٨)، ومع الفرنسيين (١٦٣٥ ــ ١٦٩٧).

انتشر القراصنة وتكاثروا بسرعة مذهلة وغدت سفن إسبانيا عرضة لهجماتهم على السواحل وفي أعالي البحار. وتعرضت سواحل أمريكا لدمار شنيع.. كما أصيبت شبه جزيرة إيبريا بهجمات عدة.. واحتل دراك الإنكليزي عام (١٥٨٩) ميناء كورون Corogne، وأحرق عام (١٥٩٦) أسطولاً إسبانياً عديد السفن في مرسى قادس. وبوقار مدهش وأعصاب هادئة اجتمع مجلس كاستيل وأقرّ إعادة بناء البحرية الإسبانية. وتم ذلك عام (١٦٣٠)، فوصلت أعداد سفن إسبانيا الحربية

إلى (٨٦) سفينة. وهذا ما أزعج ريشيلو الفرنسي، لكن هذا الأسطول الجديد لم يكن إلا جهداً ضائعاً قدم دوراً فعالاً لكنه قصير الأمد. ففي دونكرك جهز أوليفار الإسباني هذا الأسطول بعدة قراصنة شجعان، سلمهم قيادة السفن والتشكيلات. وبرز منهم جاك كولاير Jacques Collaert أمير الفلاندر، وميشيل دورن Michèle Dorne، وميشيل جاكوبسن Jacobsen وغيرهم كثيرون، قادوا المجموعات البحرية الإسبانية، وقاتلوا الهولنديين حتى جعلوهم يخلون بحر المانش، ويقبعون في موانئهم. إلا أن هذه المجموعات القوية لم تعمر طويلاً كما قدمت ذكره، نظراً لكثرة ما طلب منها من مهام صعبة آنذاك، فاستنفذت طاقاتها بالكامل، وانتهت مع قادتها عام (١٦٤٦).. أما في المتوسط فقد قام دوق أوسون Ossone بعمل مماثل كما في بحر المانش وبنى أسطولاً في نابولي لاستعادة السيطرة على البحر، إلا أن حظ هذا الأسطول كان أقصر من حظ نظيره في الشمال. وقد أزالت حروب الثلاثين عاماً آثار البحرية الإسبانية.

قال أوجين سيو[٥٦] الكاتب الفرنسي:

«إن ألفاً من السفن الإسبانية أنزلت إلى البحر خلال عشرة أعوام وغادرت موانىء شبه الجزيرة الإسبانية ولم تعد».

ولو أن المبالغة واضحة في هذا القول إلا أن الحقيقة تؤكد أنه خلال الأعوام (١٦٢١ ــ ١٦٤٨) أضاعت البحرية الإسبانية الحكومية أكثر من (٢٨٠) سفينة هلكت في البحر.

إن ضياع الآرمادا الكبيرة عام (١٦٣٩) في كارثة الدون Dunes البحرية قرب دونكرك دفع مجلس كاستيلا الذي كان قد أقر بناء الأسطول، دفعه لاتخاذ قرار معاكس لقراره السابق، وهو عدم بناء أي سفن جديدة، لأن هذه السفن سرعان ما تغوص في غياهب الأعماق نظراً لتفوق القوى البحرية الأخرى عليها، والتصدي لها، ومنعها من تقديم خدماتها. ولولا بضعة سجانات قديمة استمرت تجوب المتوسط، وتؤمن خطوط مواصلاته البحرية مع نابولي لقلنا إن علم إسبانيا الكاستيلاني قد انقرض من كل البحار القريبة منها والبعيدة، وكان ذلك إيذاناً ببداية النهاية، وبالانهيار الاقتصادي، وبانحسار التفوق البحري الإسباني، وفقدانه.

على أثر التدهور البحري انقطعت اتصالات السفن المبعثرة والبعيدة عن الوطن الأم. وهذا

التشتت في القوى أدى إلى المزيد من الأعباء المالية، وإلى نتائج وخيمة، وأكثر تعاسة من الحروب الكبرى. وتتابع التدهور المالي حتى بعد معاهدات السلام (١٦٦١).

أفاد تقرير رسمي صادر عن قيادة البحرية الإسبانية أنه في العام (١٦٦٣) عجزت إسبانيا عن إرسال (٢٠) سفينة إلى سواحل البرتغال لإخماد حركة تمرد حدثت هناك. وفي العام (١٦٨٠) بقي لإسبانيا من (٢٠ إلى ٣٠) سفينة صغيرة، ومن (٧ إلى ٨) سفن حربية كبيرة. أما في العام (١٧٠٠) فكان تعداد سفن الأسطول سفينتين حربيتين فقط.

بالنسبة للمستعمرات كان من الطبيعي أن يصيبها الإهمال، فهي متروكة منذ أمد بعيد.. ولم تتعرض في البدء للغزوات الخارجية. وكان كل ما يصيبها هزات محلية، ومحاولات تعالج بمعرفة السكان المستعمرين. واستمرت هذه المستعمرات بعيدة عن أحداث أوربة وحروبها، ضعيفة دون حماية، تقع لقمة سائغة لأول غازٍ.. وبالفعل انفرط عقد هذه الممتلكات عند خروج مستعمرات البرتغال الواقعة في بحر الآنتيل، ومنها هايتي (هيسبانيولا) وجامايكا، وهكذا بدأت الإمبراطورية الفذة التي قدمها كولومبوس لإسبانيا تسير على طريق الضياع، فبُعثرت الكنوز ونُثِرَت الثروات، وضاعت الهيبة وراء حلم باهت، كان قد داعب أخيلة ملوكها، فأصابتها علة الغرور وجنون العظمة، وأعطت الفرصة لقوى جديدة في العالم، لتنقض على ثرواتها وتدمر الإمبراطورية الإسبانية البرتغالية الهرمة.

هولندا

كانت أولى القوى الفتية التي نزلت سوق المزاحمة والاستعمار هولندا، وكانت من قبل جزءاً صغيراً من المملكة الإسبانية، يُدعى بتجمع الأقاليم المتحدة للأراضي المنخفضة، والذي يضم كلاً من هولندا وبلجيكا، ويُشكل فيما بينها اتحاداً يضم (١٧) إقليماً، تربطها معاهدات وصكوك وتصاهر، تحت قيادة أمراء الأسرة الثانية الكابتينية البروغونية الفرنسية Capétienne De Bourgogne، ثم أحفادهم أمراء أسرة الهابسبورغ Habsbourg، وتقع أقاليمهم بين دولتي ألمانيا وفرنسا.

عرف عن شعب الأقاليم المتحدة شدة افتخارهم بأصلهم، وحرصهم على حقوقهم، وتمسكهم بترابطهم لحماية مصائرهم، وهم شعب ولد وعاش في بحبوحة على أرض خيرة معطاء، من سهول الفلاندر، ازدهرت فيها الزراعة وتربية المواشي، فأعطتها حجماً دولياً هاماً، وجعلتها في مقدمة شعوب أوربة تطوراً. واشتهرت من مدنها كاند لييج، بروج. وكانت هذه المدن أشبه بخلايا النحل

نشاطاً وحيوية، وبذت جميع مدن أوربة آنذاك، واشتهرت بضاعاتها المزدهرة، حتى إنها أصبحت المورِّد الكبير للأقمشة المتنوعة لكل سكان أوربة، بالإضافة إلى صناعات أخرى كثيرة غذائية وحياتية. وكان لموقع هذا البلد الجغرافي أثره الكبير في تطوره، فهو على طريق يربط شمال أوربة بالمتوسط بحراً، وازدهرت موانئه حتى وصلت إلى مصاف الموانىء الأولى في العالم. ونذكر منها ميناء آنغرس الكبير في معاملاته التجارية، وميناء أمستردام، مصنع رجال البحر وقادته، وموانىء أخرى كثيرة أنجبت صائدي السمك الأشداء الذين لحقوا بصيدهم، وبخاصة سمك الرنجة وسمك غادس، وحتى سواحل شيتلاند، وسواحل النرويج الشمالية، وسواحل الأرض الجديدة، يتحدون قسوة الطبيعة ومخاطر الأنواء، في أصعب مهنة، يصطادون السمك ويجمعونه، ويقدمونه قديداً للعالم أجمع.

كان اتحاد هولندا مع إسبانيا في البدء عاملاً فعالاً في تقدم حضارتهما وتطورها واستغلّ الشعبان مزاياهما البحرية فأحكما قبضتهما على بحري المانش والشمال (أهمل الإسبان والبرتغاليون هذين البحرين لندرة مواردهما بمقارنتها مع البحر المتوسط وبحار الجنوب) فتعاظم شأن الأقاليم المتحدة وأثرت، حتى قيل إن خمس موارد الإمبراطورية الإسبانية يردها من هذه الأقاليم، وقدرت آنذاك بـ (٤٥٠) ألف ريال ذهبي في العام.

انفجرت أزمة دينية سياسية أودت باتحاد إسبانيا، فمنذ عام (١٥٢٣) واتحاد الأقاليم للأراضي المنخفضة يستقطب الأتباع من أمراء سهول الفلاندر ونبلائها استعداداً للانفصال عن الإمبراطورية الإسبانية، وكان هذا يناهض أحلام فيليب الثاني، ملك إسبانيا في إقامة وحدة دينية كبرى ينشدُ تحقيقها على يديه.

جن جنون فيليب، وأوقع أحكام إعدام جائرة يقال إنها تعدت الخمسين ألفاً، فانتشرت أعمال العنف في الأقاليم المنشقة نتيجة الكراهية، حتى إنّ الكاثوليك أنفسهم المقيمين في الأقاليم تحالفوا بعامل السخط مع الثائرين، وانقلبوا على حكامهم الإسبان. ولكي يخنق ملك إسبانيا هذه الحركة الثورية ذات الطابع الديني (كاثوليك ــ وبروتستانت) التي طالبت بالتحرر والاستقلال، بعد الإجراءات القمعية الصارمة فقد أرسل دوق البا، وهو الرجل المتحجر القلب على رأس حملة قمع من الجنود الإسبان عام (١٥٦٧) فتصرف بإجراءات أكثر قسوة، حتى وصل الأمر للحكم بالموت على كل سكان أقاليم الأراضي المنخفضة، ماعدا بعض الاستثناءات الإسمية. ولم تجد الدوق قسوته، وانقلبت مطالبات التحرر والاستقلال إلى حركة جامحة، واتخذت صفة الثورة الجماعية،

خصوصاً عندما قرر الدوق دفع رواتب جنوده من الأتاوات والخوات على الأموال، بإجبار السكان على دفع نسب من أموالهم وممتلكاتهم.. (١٥٦٩).. وبقيادة أمير البرتقال غليوم التاسيتورن(٥٧) Le Prience d'Orange Guillaune Le Taciturne وبمعونة الفرنسيين والإنكليز، خاض الثائرون حرباً ضارية ضد المضطهدين الإسبان استمرت أربعين عاماً (١٥٦٨ــ ١٦٠٨). ولم تتوقف إلا بإعلان استقلال ٧ أقاليم اتحدت فيما بينها وشكلت نواة الدولة الفتية. في حين احتفظت إسبانيا بالأراضي البلجيكية. أما الأقاليم المتحدة فقد ضمت شمال هولندا، زيلاندة، فريز Frise، واوفريسيل Overyssel، غرونغ Groningue، ايترشت Utrecht، غيلدر Gueldre، ثم أعقب ذلك الانفصال توقيع معاهدة صلح تمت في ويستفالي عام (١٦٤٨)، وفيها اعترفت إسبانيا باستقلال الأقاليم المتحدة التي تضم كل الأقاليم البروتستانتية ضمن مملكة ذات استقلال وسيادة.

لعب رجال البحر الأشاوس دوراً كبيراً في حرب الاستقلال، فهم الذين أشعلوا الثورة وألهبوها، خصوصاً بعد معركة انكهوزن التي حرَّمت على الإسبانيين كل تواجد لهم في بحري الشمال والمانش. ولما تحقق لرجال البحر الهولنديين السيطرة الكاملة على البحار المجاورة لهم، أقاموا ارتباطاً بحرياً مع إنكلترا، ثم قطعوا خطوط مواصلات الإسبان البحرية، وانتشروا في البحار يوقفون السفن الإسبانية المحملة بالبضائع، فينقضون عليها يسلبون خيراتها، ثم يرسلونها إلى قاع المحيط. وكانت أسلابهم البحرية أهم موارد صندوق الحرب.

بعد أن عقد السلام وعادت الحياة الطبيعية للأقاليم قام البحارة بتأمين الموارد البحرية المختلفة، التي كانت أولى هموم الدولة آنذاك. وحتى يؤمن الإسبان سلامة سفنهم تعهدوا باحترام علم الهولنديين في كل البحار وحتى جزائر الهند..

عظم شأن دولة الأقاليم المتحدة (هولندا)، وانصرف رجالها نحو تنظيم التجارة والملاحة. أما الصيد فقد كان دخله يغطي خمس دخل الدولة. وزاد الإنتاج السنوي عن (٣٠٠) ألف طن سمك. وأطلق على مدينة أمستردام في مثل شعبي أنها الميناء المبني على هياكل عظام سمك الرنجة.

امتدت الملاحة البحرية بعيداً، وأصبحت أمستردام وموانىء نهر الموز البدائل لميناء آنفرس المزدهر وغدت موانىء هولندا مستودعات هائلة للتجار الأوربيين وفي عام (١٦٦٠) أصبحت أربعة أخماس التجارة الأوربية من استيراد وتصدير عبر البحار تتم على سفن الأقاليم المتحدة التي ناف عددها عن الألف سفينة، وتجاوزت قيم البضائع المنقولة على متونها سنوياً المليارات من الفرنكات

الذهبية . وقسم من تلك البضائع كان من منتجات هولندية محلية يعمل في إنتاجها ما يزيد عن (٦٠٠) ألف عامل (مخامل، أقمشة، أصواف، خزفيات) بالإضافة إلى إنتاج زراعي كثيف، وتربية للمواشي متطورة (زبدة، أجبان، لحوم) . ولكن أكبر دخل حققته البلاد هو من عمولات الصفقات التجارية العالمية، والتي كانت تتم في أسواق هولندا ومؤسساتها التجارية، حتى أصبحت البلد المتخصص بذلك واحتكرت هذه المقاولات لنفسها أمداً طويلاً، حتى قيل عن إن الشعب الهولندي «**سكان الأقاليم المتحدة يمتصون كالنحل نسغ الشعوب**»، وأطلق على البلدان التي تحيط بهم صفات التبعية لهم، فقيل مثلاً إن النرويج غابتهم، وشواطىء نهر الرين والغارون والدردون كرمتهم، وأراضي ألمانيا وإسبانيا وإيرلندة مراعيهم، وأراضي بروسيا وبولونيا مستودع حبوبهم، والهند وبلاد البحر الأبيض المتوسط حدائقهم وأصبح احتكارهم للنقل البحري ملكاً دون الإسبان العاجزين حتى عن تأمين حمولات لسفنهم عبر المستعمرات .

نشط الهولنديون في زيارة الأرض الجديدة، وبلاد الهند، عن طريق شمال أوربة، أو عن طريق جنوب أمريكا .. هنا اكتشف بارنتز[٥٨] جزائر سبيتز برغ وزامبيه الجديدة في الدائرة القطبية، خلال الأعوام (١٥٩٤ ــ ١٥٩٦) . ووصل هيدسون[٥٩] سواحل أمريكا الشمالية عام (١٦٠٩) . واكتشف الملاحان لومير[٦٠] وشوتين (١٦١٥ ــ ١٦١٦) ممر رأس هورن في جنوب القارة الأمريكية واعتبراه طريقاً مناسباً للسفن الشراعية، أفضل من ممر ماجيلان . أما ليند شوتن وهوتمان فقد انتزعا السر البرتغاليْ، حيث أرسلا بعثة وصلت حتى جزر السوند (سومطره وجاوا) عن طريق جنوب أمريكا .

أقيمت شركات في المدن الكبرى غرضها تأمين التجارة، وعندما اشتد التنافس فيما بينها أرسلت الحكومة موظفاً كبيراً هو أولدنبر نفيلدت[٦١]، فدمجها جميعاً ضمن شركة واحدة سميت بالمؤسسة العامة لامتياز تجارة الهند الشرقية (١٦٠٢)، وهي مؤسسة من نوع جديد غايتها إعطاء القدوة في هولندا، وفي العالم بأسره .

وتفرع عن هذه المؤسسة في المدن الأخرى غرف تجارية أقامها المساهمون، لها حق حرية العمل ضمن أسلوب مستقل وذاتي .. ساهمت هذه الغرف في الإعداد والتجهيز والبيع والشراء، أما الصفقات الكبرى فيقررها مجلس أعلى يضم سبعة عشر مديراً يعينون ويراقبون من قبل الدولة مباشرة .

احتكرت المؤسسة العامة لتجارة الهند الملاحة عبر رأس الرجاء الصالح ومضيق ماجيلان .

ومنحت سلطات واسعة منها حق احتلال المستعمرات وإدارتها، ثم إعداد التشريعات التي لها قوة القوانين، وإعداد الجيوش والأساطيل الحربية وتوقيع المعاهدات، وإعلان الحرب. وبالخلاصة كان لها كل الصلاحيات لدولة ذات سيادة.

إن التنظيم القوي للمؤسسات العامة لتجارة الهند، والتقاليد المتبعة في إدارة اقتصادها جعلاها في غياب عن الأطماع السياسية. ولمدة طويلة وأعطاها فرصة الإثراء السريع، فامتلكت إمكاناتٍ وأملاكاً تدر عليها موارد هائلة، جعلتها تحتكر كل العمليات التجارية للهند والجزائر الهندية، وبذلك أبعدت التجار البرتغاليين المنافسين عن أسواقهم.

كان من مبادىء هذه المؤسسة إجراء الصفقات التجارية بحماية الملوك والحكام المحليين، وبالطرق السلمية. فتنوعت أعمالهم حتى غدوا وكلاء للسفن التجارية يقدمون لها الخدمات من مراسٍ وملاجىء ضد العواصف، أو ضد حوادث النهب.. وأقاموا لهذه الغاية المستودعات الضخمة لحفظ البضاعة وترحيلها، ثم تدخلوا في مراقبة الأعمال التجارية للسكان المحليين، وفي أمورهم السياسية. ثم تملكوا أراضيهم وزرعوها، فامتدت ممتلكات هذه المؤسسة حتى الكاب، والماسكارين (جزر غربي إفريقية) وسواحل كولوماندیل (الساحل الشرقي للهند) ومالابار (الساحل الغربي للهند)، وكل جزر السوند (من جاوا وسومطرة) وباثافيا وسيلان وفورموزا. وأصبح الهولنديون واعتباراً من عام (١٦٣٧) الأوربيين الوحيدين الذين لهم حق الاتجار مع اليابان. وبقيت المنطقة الأكثر أهمية في أعينهم وأعين العالم كله والمولوك وهي الجزر الأندنوسية المنتجة لكافة أنواع التوابل. وكان هم المؤسسة احتكار التجارة معها لتتحكم في أسعار المنتجات وتخفض سعرها في بلد المنشأ وترفعه في الغرب، فتحققت أرباح طائلة.. وسنت من أجل ذلك التشريعات التي تحرّم زرع التوابل إلا برخص مسبقة، حتى لا يفيض الإنتاج عن الاستهلاك العالمي. وفي حال حدوث ذلك يتلف الفائض بحرقه محافظة على أسعاره المرتفعة.

ظهرت مؤسسة أخرى جديدة أطلقت على نفسها اسم مؤسسة الهند الغربية (١٦٢١). وكانت على غرار سابقتها، وازدهرت هي الأخرى بسرعة عجيبة، فراجت أعمالها حتى وصلت أرباحها إلى مائة في المائة. وامتدت ممتلكاتها حتى ضاهت المؤسسة الشرقية، وامتلكت المؤسسة الجديدة سانتا كروز، سانت أوستاش (وهي جزر في المحيط الهندي)، كوراسو (جزيرة في أرخبيل الأنتيل)، غوانا الهولندية، ونصف البرازيل (١٦٢٤). وأقامت فروعاً لمؤسساتها في خليج هدسن.. ولم يعمر نفوذ هذه المؤسسة طويلاً، إذ طرد البرتغاليون فرعها في البرازيل، وطرد الإنكليز

فرعها في هدسن، ولما جاء صلح هولندا مع الإسبان توقفت كلية عن العمل. وانتهت المؤسسة التجارية للهند الغربية، وغدت شركة مشبوهة تقوم بعمليات، تهريب غير مشروعة عبر بلاد أمريكا الإسبانية وغوانا الهولندية، وضعفت مادياً وتراكمت عليها الديون حتى حلت نفسها عام (١٦٧٨).

مرت على هولندا فترة ذهبية رائعة، وعمت الثروات في طول البلاد، وأقيمت المصارف، وأهمها مصرف أمستردام الكبير (١٥٦٩)، الذي سيطر على كل المعاملات المالية، وجعل مدن هولندا سوقاً مالياً عالمياً إلى جانب كونه سوقاً للبضائع. وانصبت رؤوس الأموال من كل حدب وصوب تعمل في صفقات مجزية، وبضمانات مالية وائتمانات ثابتة. فتوجهت أنظار الدول الأخرى نحو هولندا تطلب المعونات المالية والقروض الطويلة الأمد للنهوض سياسياً أو اقتصادياً، وهنا نجد كم كان لتجارة هولندا من أثر في رقي دول أوربة، وفي تعاظم نشاطها. وهذا ما ولّد شعوراً من الغيرة والحسد في نفوس الدول المجاورة.

برغم هذا الثراء الفاحش لم تكن هولندا إلا دولة ضعيفة التركيب. فالاتحاد الكونفيدرالي بين أقاليمها لم يجعلها جمهورية قوية، بل عدة جمهوريات يربطها وفاق هش البنية، يفتقر لسلطة مركزية توحد طاقاته وتقود قواته الحربية.

تعاقبت على الحكم سلطات ضعيفة غير مطاعة، اتصفت بالإسفاف في الحكم، والتقلب في النوايا. وعارضت بأحكامها أحياناً عواطف الرأي العام الهولندي السريع التأثر، ووضعت البلاد في مواقف صعبة، احتاجت خلالها إلى سلطة قوية لوقف الميوعة وإعادة النظام. وإذا كان على حكام هولندا التفكير في أمور التجارة لأنها مصدر رخاء وحياة شعبها المنتشر في كل أرجاء المعمورة، فقد توجب عليها أيضاً تقديم الحماية لهم في مساحات واسعة وحدود مفتوحة تغري الغزاة، وتدفع بالمغامرين للنيل منها.. خصوصاً والوطن موسر، والأرباح طائلة، والشعب يخشى الحروب لأنها تعرض كيانه للخطر، وتوقف امتداده الاقتصادي فيرفض التضحيات، أما جيوشه فقليلة العدد تعمل كل الفئات على تقليصها عدداً وعدة.

أما بالنسبة للبحرية فالموضوع مختلف وهي الأكثر انتشاراً في العالم، فقد عرف عن سفنها القوة واحتمال الأنواء، وصنع قاعها مسطحاً و مركز ثقلها منخفضاً، فأعطاها ثباتاً في البحر وهي قليلة الارتفاع، بأشرعة مربعة، حيدانها قليل وتناور برشاقة، وتحتمل أمواج البحر في جميع صوره.. أما طواقم السفن فمن البحارة الأشداء الشديدي المراس، ترعرعوا في البحار وهم مقاتلون حتى

الجنون، ينقضون على عدوهم بمجرد رؤيته في الأفق، ويستغلون قدرة سفنهم العالية في المناورة ليرموه بوابل من القذائف، ثم يلتحموا معه ويقضوا عليه بالسلاح الأبيض، حتى سيطروا على كل البحار خلال أعوام (١٥٨٠ ــ ١٦٥٠)، وفي وقت لم يكن خصم يجرؤ على منازلتهم أو التصدي لهم.

لم تخل سفن الهولنديين من نقطة ضعف أثرت على قدراتها البحرية فهي برغم كفاءاتها الفنية العالمية تضمنت خطأً بسيطاً هو في غاطسها الصغير وهذا جيد في السواحل المنخفضة والبحار القليلة العمق، لكنه عائق في سرعتها كسفن شراعية.. وقد لمس الإنكليز والفرنسيون هذه النقطة الحساسة، واستدركوها في سفنهم فجاءت مزية حسنة.

تباطأت البحرية الهولندية كثيراً لتنقلب إلى بحرية حربية، ويرجع ذلك إلى إسناد قياداتها إلى خمس أميراليات (قيادات بحرية)، لكل قيادة مجلس منتخب، مما أضعف شكل القيادة، وحرمها عنصر التعاون والتنسيق فيما بينها، وغدت إدارات الأساطيل فوضى مطلقة. يضاف إلى ذلك عامل ضغط النفقات، ووقف تعمير السفن البحرية الحربية المتخصصة ــ (العقلية التجارية لدى الهولنديين جعلتهم يقفون حائلاً أمام أي مشروع يتعلق ببناء أسطول حربي متخصص) ــ واعتمد القياديون إلى جانب السفن التجارية على السفن الصغيرة المتوفرة والخاصة، وقادها بحارة تجاريون شجعان، لكنهم لم يألفوا قتال البحر، وجهلوا تكتيكات عملياته. إذ كانوا فتية أغنياء أسندت إليهم قيادات السفن لدواع انتخابية، ولعبت الانتصارات السهلة التي حققوها على الإسبان دوراً سلبياً في تقييم كفاءاتهم. واعتقدوا بأن المغامرين أمثال هيمسكيرك، وبيتهيم، ومارثان ترومب[٦٢] هم أمراء البحر الأُوَل، ولكل الأزمان. فركبهم الغرور، ولم يلحقوا بركب تطور العقيدة الحربية البحرية، وحسبوا أن فن قتال البحر هو في لقاء العدو ومقاتلته وجهاً لوجه، دون العودة إلى خطة أو مناورة، واستمروا رجالاً أشداء، وبحارة قديرين، تنقصهم فقط الخبرة والفكر القتالي.

وصُقِلت هذه النواحي الفنية فيما بعد بفضل الأميرال رويتر (١٦٠٧ــ ١٦٧١) بطل معركة شوفيلث ربانك ضد الأسطولين الفرنسي والإنكليزي.. فقد أدخل هذا الأميرال الفذ في عقول قادة سفنه وقادة تشكيلاته، «**أن القتال في البحر كما هو على البر يعتمد بالإضافة إلى الشجاعة إلى حسن التنظيم، وإعداد الخطط، مع دراية في المناورة والحركة**».

إنكلترا

ظلّت إنكلترا حتى القرن السادس عشر أمة برية تعتمد الزراعة مورداً قوياً، وتركت للأغراب

من ألمان وفلمنك وطليان أمور نقل المنتجات الزراعية من حبوب، ولحوم وأصواف ومعادن خام، كالقصدير والنحاس. وكان مركز التجارة الخارجية الرئيسي في البلاد ساحة ستيليارد Steelyard البحرية الواقعة في منتصف مدينة لندن، وهي بقعة واسعة من الأرض، داخل العاصمة تجمع فيها الصادرات، لتنقل على سفن الأغراب خارج الجزر البريطانية.

نادى الإنكليز بملكية البحار المحيطة بجزرهم واتخذوا هذا النداء حجة لها طابع الإقليمية خصوصاً بعد تملكهم لضفتي بحر المانش (عند استيلائهم على سواحل فرنسا الشمالية) حتى سموه بقناتهم (القناة الإنكليزية) إلا أنهم لم يفعلوا الكثير لتحقيق سيادتهم على هذا البحر واقتصرت طموحاتهم على الامتداد البري شمالاً في ايكوسيا وجنوباً في أراضي فرنسا، وعندما يقضي الظرف الحربي يعبئون أسطولاً بحرياً غالبية سفنه مؤجرة من الخارج ليقوم بمهمة محددة وينتهي أمره بانتهاء المهمة.

بنت إنكلترا بضعة سفن أنيقة ذات مظهر خارجي جذاب، تجولُ في المياه البريطانية رافعة علم البلاد، مزهوة بجمال هيكلها، مهمتها استعراضية بحتة. ولم يفد الإنكليز من نتائج حرب المائة عام، وضرورة حيازة الدول للقدرات البحرية المدافعة عن المياه والسواحل. وسرعان ما تغير كل ذلك بعد حقبة الاكتشافات الكبرى، وفي عصر أطلق عليه اسم زمن الإصلاح. وفيه حدثت الثورة السياسية، وقلبت المجتمع. وكشأن دول العالم الأخرى أصيبت إنكلترا بالأزمة الاقتصادية العالمية التي اجتاحت أوربا آنذاك، فتدهورت قيمة عملاتها وارتفعت أسعار الحاجيات.. وتقهقر نشاط صيد السمك، وظهرت بوادر حرمان وفقر، خصوصاً في الطبقة المتوسطة من سكان البلاد، وضاعت الملكيات الصغيرة (نتيجة التطور الذي طرأ على تربية المواشي)، وانتشر آلاف الرجال عاطلين عن العمل، يتسكعون على قارعة الطريق، لا دخل لهم، أو مداخيلهم لا تفي بحاجاتهم الأساسية. كل هذا وإسبانيا ترفل بأثواب النعيم والترف.. فاتجهت أنظار الإنكليز حاسدة ذاك البلد الموسر، خصوصاً بعد نشر عدة كتب لأساتذة في التاريخ، يصفون فيها تطور إسبانيا، وعظمة ممتلكاتها عبر البحار، ودرجة الرقي التي وصلتها. وتسللت هذه الأفكار تداعب أدمغة الإنكليز، وتحضُّهم على السعي وراء المال، حتى وصلت الفكرة القصر، فتساءلت الملكة: لماذا لا تأخذ إنكلترا نصيبها من خيرات العالم الجديد؟

وكما ذكرنا سابقاً أخفقت كل المحاولات للوصول إلى الهند، عبر بحار القطب. وتوصلت إنكلترا فقط إلى إقامة تجارة بسيطة مع خليج أركا نجلسك على البحر الأبيض، شمال روسيا، وتجارة

مماثلة في خليج هدسن (١٦١١) ، وخليج بافان Baffin (١٦١٤) شمال كندا . إلا أن الشروط الطبيعية كانت قاسية للغاية ، فثلج وجليد ورياح وعواصف وممرات بحرية خطرة غير مطروقة ، سرعان ما أهملها المستكشفون الأولون لقلة أرباحها ، وضعف قيمتها ، وقسوة طبيعتها . وباقي المجالات كان يسيطر عليها الإسبان . فهل سيستكين الإنكليز تاركين إسبانيا وجارتها البرتغال تنعمان بخيرات العالم كله ، دون أن يرفعوا صوتهم ؟ وهل سيدعون هؤلاء الغرباء أتباع البابا يسيطرون على كنوز العالم ؟

وبالفعل تحرك الإنكليز ونثروا في المحيطات (كلاب البحر) ، وهم مجموعة من القراصنة المغامرين يجولون في البحار ، يفتشون عن الطرائد من السفن ، فيستولون عليها ، ويسلبون حمولتها ، ثم يغيّبونها في أعماق المحيط ، ويسطرون للتاريخ البحري ملاحم قتالية رائعة ، منهم الأخوة هاوكنس[٦٣] Hawkins ، دراك Drake ، لانكستر[٦٤] Lancaster ، كافانديش[٦٥] Cavendish . وكانوا يمارسون كل الأعمال المشروعة وغير المشروعة من قطع الطرق ، والتهريب ، والإتجار بالعبيد ، ويعودون دوماً بسفن محملة بالذهب والفضة والتوابل ، حتى غدوا أبطالاً شعبيين منحتهم الملكة عطفها وتشجيعها ، وأصبحت صيحاتهم ، West Ward Ho شعاراً وطنياً يدعو أمثالهم المغامرين لغزو الغرب .

انطلقت السفن الإنكليزية منذ عام (١٥٨٠) تغزو الغرب ، وتلاحق سفن الإسبان وتقنصها . وكان للخلاف المذهبي أكبر الأثر في إلهاب النزاع ، ونذكر مهمة الآرمادا التي لا تقهر ، والتي أعدّها الإسبان لغزو الإنكليز في عقر دارهم ، ولتدمير وكر الملحدين والقراصنة (١٥٨٨) . وكيف أن هذه الآرمادا قد عادت تجر ذيول الخيبة والإخفاق . ورأينا كيف أن إنكلترا لم تستغل تلك الهزيمة لنقص في وحداتها البحرية اللازمة آنذاك ، لكن تلك الحادثة كانت إيذاناً لها ، فتنبهت لما يجري على الساحة البحرية ، ودخلت السباق الكبير الذي يجري بين دول العالم البحرية ، وبدأت في تأهيل الكوادر المختصة ، تختارهم من أصحاب العزيمة ، وتدربهم ، ثم ترسلهم في البحار ، ليقوموا بدور العسس ، يهاجمون سفن العدو الإسبانية ، ويلاحقونهم أينما وجدوا بعيداً في أعالي البحار ، فيستولون على سفنهم ، ويسلبونهم الغنائم ، ويعودون بالأسلاب إلى الأرض البريطانية . وعندما استفحل أمرهم عاودت إسبانيا محاربتهم في تجربة جديدة ثانية عام (١٥٩١) ، وتجربة ثالثة دون نتائج إيجابية تذكر .

تتابعت مفاخر القراصنة الإنكليز ، حتى وصلت بهم الشجاعة لمهاجمة الإسبان في موانئهم ، يتحدون أساطيلهم العديدة . وغدت التشكيلات البحرية الإنكليزية تجول حول شواطىء ليشبونة وقادس ، وتعرض عضلاتها مزهوة . والأساطيل الإسبانية قابعة في الموانىء لا تجسر على

الخروج لها. وبدأت الإمبراطورية الإسبانية، وحتى مستعمراتها في العالم الجديد، ترتعد خوفاً من هجمات القراصنة. وتفادياً للمزيد من الخسائر قررت إسبانيا مفاوضة الإنكليز. ولم يتم لها ذلك إلا بعد موت الملكة إليزابيث، وتولي السلطة ملك شرعي ابن ملكة كاثوليكية (ماري ستيوارت).

لمست إنكلترا، ولأول مرة، أهمية الدور الذي عليها لعبه عالمياً. وكان ذلك نتيجة تخطيط دقيق قام به رجال أكفاء قادوا الدولة نحو أمجاد جديدة متمسكين بعهد سياسي جديد نابع عن فكرة ثابتة هي:

« من يقود العالم يقود تجارته، ومن يقود تجارة البحر يقود ثروات العالم، وبالتالي العالم نفسه ».

عظم شأن إنكلترا بعد أن بنت قوتها البحرية، وحاربت فانتصرت. وكان الفضل الأول في بناء هذه القوة للملكة اليزابيت والملوك الذين أعقبوها، أمثال هنري السابع(٦٦) الذي أعطى المثل الصالح، فقام بتعمير السفن، وضارب في الأعمال التجارية، وكان تاجراً أكثر منه ملكاً أو قائداً حربياً. ثم تبعه هنري الثامن(٦٧) الذي تابع خطا سلفه وأعطى البحرية الإنكليزية كل ذاته، وسمح لها بكل شيء حتى بالنهب والتدمير. Pleender and Destroy، وبمعونة مكاتب الهيئة البحرية (الأميرالية) أعُد نظام إداري متكامل، واجه كل العقبات المحتملة، وأعطى البحرية الإنكليزية كل ما تحتاجه من مال وجهد

كانت طموحات هنري الثامن عظيمة. وتطلع إلى امتلاك قدرة بحرية عالية الكفاءة، متمثلة بسفن قوية، ضمن تشكيلات بحرية منظمة، تؤلف عظمة أسطول المملكة، وتحل محل سفن القراصنة والمغامرين، وتضع حداً لأعمال السلب والنهب البربرية الشائعة، وتعيد الانضباط لصفوف البحارة، وتسعى إنكلترا بقوة سلاحها البحري هذا إلى فرض احترامها على كل البحار.

حملت خطوات الملك للبحرية نتائج باهرة. فبفضل أسرة عريقة تضمنت العديد من التجهيز، وصلت أعداد السفن عام (١٦٤٩) إلى (٧١) سفينة، منها (٣٨) سفينة تزيد حمولتها عن (٥٠٠) طنة (والطنة غير الطن، وهي وحدة حجم استخدمت في البحرية قديماً، وتعادل حجم ٢٫٨٣ م٣ أو ١٠٠ قدم مكعب).

قامت بعض الفئات المعارضة واشتكت من كلفة إعداد السفن والأساطيل، واعتبرت ذلك

الإنجاز دون المصاريف الباهظة، وكانت ترغب في رؤية سلاح البحرية سلاحاً يعمل ويتاجر وينقل صورة من إنكلترا إلى البحار البعيدة في العالم الجديد. ونتيجة الاعتراضات هذه كلفت لجنة برلمانية عام (١٦١٣) بإجراء التحقيقات، واستمرت هذه اللجنة تعمل حتى عام (١٦٣٠). ونشطت خصوصاً بعد إخفاق حملة الجزائر عام (١٦٢٠)، وعملية قادس (١٦٢٥)، وهزيمة لاروشيل عام (١٦٢٩).

إن الإخفاقات العديدة أساءت للبحرية البريطانية، وبخاصة لتشكيلاتها عبر البحار، وتركت أثراً عميقاً لدى الرأي العام الإنكليزي، فاستغل هذا الأثر ليحقق من خلاله إسقاط الأسرة الحاكمة آنذاك. وثار الشعب بكامل غضبه يدافع عن سمعة بحريته هي مفخرة البلاد خارج الحدود. واتهم الحكام وأعطى الدعم الكامل للأسطول. فبينما كانت لندن عام (١٦١٥) لا تستطيع تعمير عشر سفن تزيد وزن وحداتها عن الـ (٢٠٠) طنة وصل إنتاج نيوكاسل وحدها في عام (١٦٣٠) لمائة سفينة. وتسابقت فئات الشعب بنبلائه وطبقاته المتوسطة والفقيرة تبذل بسخاء المال والنفس في سبيل إعلاء شأن بحريتهم التي اعتبروها رمز مجد إنكلترا ومشروعها الرابح.

شكلت مؤسسات إنكليزية في أمكنة عديدة من العالم الجديد، وبشر راليه[٦٨] Raleigh عام (١٩٥٠) وهو تلميذ كوليني Coligny بأن إنكلترا ستحقق إقامة وطن بروتستانتي جديد وراء المحيط. وبالفعل بدأت المحاولة في الألدورادو، فأخفقت ثم أعيدت الكرة في فرجينيا المستعمرة البريطانية الأولى فنجحت. ووصل عدد سكان هذا الوطن الجديد إلى (٢٥) ألف نسمة عام (١٦٢٥).

وكانت تجربة فرجينيا الناجحة سبباً في امتداد جديد جعل ملكة إنكلترا تباركه وتشجعه. وانطلاقاً من ذلك الإنجاز بدأ النفوذ الإنكليزي ينتشر في القارة الشمالية على أيدي مستعمرين أغلبهم من المتعصبين الدينيين، أو عصاة متمردين، قدموا إلى الأرض الجديدة، ليعيشوا حياة أكثر حرية وانطلاقاً، بعد أن أُبعدوا عن أوربة المتحفظة.

وتوضعت غالبية الهجرات الإنكليزية في بليموث الجديدة، وماساشوست، وورود إيلاند، والفيرمون، والنيوهامشاير. وأقام المهاجرون دولة إنكلترا الجديدة، والتي وصل تعداد سكانها عام (١٦٦٠) إلى (١٠٠) ألف مواطن.

أهملت إنكلترا الأم الوطن الجديد، نظراً لضعف مواردها. فهي بصعوبة كانت تنتج قوت سكانها. وراحت تركز اهتماماتها على الممتلكات الغنية أمثال جزر بيرمودا، وباهاما، والجزائر التركية

(جزر الآنتيل الصغيرة)، وأخص منها جزر بارباد وسان كريستوف وآنتيغوا ونيغز ومونسيرا.. وسعت لإسكان هذه الجزائر بالمهاجرين الجدد، وتقديم يد المعونة لهم، لإقامة زراعة متطورة. فنقلوا إليها المحكومين سياسياً والمجرمين والعبيد السود (الرق الأسود مصدر ثروة مغامريي ليفربول، حيث فاقوا جميع من عاصرهم في تلك التجارة)، حتى وصل تعداد هذه الجزائر عام (١٦٥٠) إلى (٢٠٠) ألف مواطن مع (٤٠٠) سفينة إنكليزية تعمل معهم على مدار السنة.

اجتذبت الهند الشرقية الشعب الإنكليزي، وخاصة مؤسسة تجار لندن العاملين هناك، والذين أثروا بعد أن عقدوا عدة صفقات تجارية هامة.. تضاعفت على أثرها الغرف التجارية حتى وصلت عام (١٦٣٠) إلى (٢١) غرفة، توزعت في هندستان، وماليزيا، والمولوك، والصين، وسرعان ما تحولت هذه الغرف بدافع مصالحها المشتركة إلى تجمع سياسي هام، نادى بمقاومة العنف الهولندي القائم ضد سكان البلاد الأصليين، وبالحد من انتشار فئات المستعمرين الآخرين. ولكي تحمي الكنيسة البروتستانتية عملاءها أخذت تعمل على استملاك وشراء الأراضي. وعندما يتم لها ذلك كانت ترسل جماعات صغيرة تستوطن ضمن مستعمرات صغيرة، تكون بمثابة النواة. وكانت أول جماعة أتت عن طريق الكنيسة هي النواة الإنكليزية التي أقامت في مادراس عام (١٦٣٩)، ثم في البنغال عام (١٦٥٠).

أعطى نشاط الإنكليز الدليل الواضح على شغفهم بالإثراء السريع، وحبهم العميق للمغامرة وراء البحار. وقد تولت الإدارة العامة حكومة كان شغفها مثل شغف شعبها، فاندفعت الأمة الإنكليزية بكافة طاقاتها حكومة وشعباً، وبجميع هيآتها لدعم التجارة الخارجية، بتقوية قدرتها البحرية، وفي بناء السفن الكبيرة، وببث روح المغامرة لدى الجيل، وبتوجيهه ليعتمد على البحر مورداً وقدراً. وقامت لجان برلمانية تنثر الأموال دون حساب لشراء السفن أو لتعميرها، ثم إعدادها للملاحة بإيجاد الأطقمة اللازمة لها. ووضعت على رأس تلك الأساطيل هيئة أركان جديدة استبدلت بها الأعيان السابقين. وكان جل رجال هذه الهيئة من ضباط قوى الجيش الذين عرفوا بالصرامة والقسوة، ونظافة السلوك. واختاروا لهم نهجاً قويماً يعبر عن تطلعات الدولة. وقامت هذه الهيئة تدرس بدقة وانضباط الوسائل الكفيلة بتحقيق الأهداف ضمن استراتيجية كاملة، تنهض بسلاح البحر. فاختاروا للسفن والتشكيلات خيرة القادة البحريين، ممن عرفوا برجاحة العقل. وأرسلوهم إلى أعلى معهد بحري عرف آنذاك، وأهلوهم على مدى ثلاث سنوات تأهيلاً بحرياً كاملاً، يعتمد على تدريبات عملية، ومناورات مختلفة، حتى غدوا مثال القادة. ثم نقلوا إلى إدارة سفن

الأسطول تحت إمرة البرنس روبيرت[٦٩] Rupert . فانتشروا في البحار، في المتوسط، وحول شمال إفريقية، وحول سواحل أمريكا، يقاتلون الإسبان ويهزمونهم، ويستولون على الممتلكات، وينشرون الحضارة الإنكليزية. فملأت سمعتهم آفاق العالم كله، وأصبح ذكرهم على كل لسان. وبلغت إنكلترا بصيتهم مجداً بحرياً رفيعاً وملكت أسطولاً منيعاً في كل البحار، يضاهي بقوته قوتها البرية، من حيث العدة والعدد، وبعقلية متطورة، يستطيع فرض احترامه وتطبيق القوانين البحرية، وبخاصة ما يتعلق بقانون الملاحة الجديد الذي صدر عام (١٦٥١).

وبفضل قانون الملاحة L'acte de Navigation ضبطت إنكلترا، وعلى مدى قرنين كاملين، الأعمال التجارية العالمية، وتضمن هذا القانون قواعد عديدة منها منع كل سفينة غريبة من حمل ونقل البضائع من وإلى إنكلترا، ما لم يكن منشأ البضاعة من منشأ بلد السفينة الناقلة، أو من مصانع بلادها. وكل تجارة من آسيا وإفريقية وأمريكا، ومن بلاد الشرق تنقل على السفن الإنكليزية، أي سفن مبنية في إنكلترا يجب أن يكون مالكها إنكليزي، ويقودها قبطان إنكليزي. ثم أضيف ملحق في عام (١٦٦٤) يقول: وعلى أن يكون ثلاثة أرباع طاقم السفينة إنكليزي الجنسية (تدبير لقطع دابر العصيان البحري والقرصنة).

وضع قانون الملاحة الإنكليزي موضع التنفيذ، في إنكلترا وفي مستعمراتها. ومنعت الموانىء في المستعمرات من استقبال السفن غير الإنكليزية، وكان ذلك بمثابة إلغاء قانوني لتسلط الهولنديين على التجارة الخارجية، وحث للإنكليز على بناء المزيد من السفن، وعلى ركوب البحر، وعلى مضاعفة الرحلات إلى المستعمرات، وإلى العالم الجديد، لنقل المنتجات والاتجار بها.

بدا هذا القانون الملاحي وللوهلة الأولى جديداً على العالم، لكنه في الحقيقة كان صورة مطابقة في الجوهر لما كان يُعمل به في إسبانيا وفرنسا. وكانت إنكلترا البلد الوحيد الذي جهر به وطبقه بحذافيره. وكان واضحاً كل الوضوح أن سنَّ هذا القانون استهدف بالدرجة الأولى الهولنديين وسفنهم وهم الذين كانوا في كل مكان من العالم يحتكرون كل العمليات التجارية الخارجية، كما ذكرنا سابقاً.. فهم السماسرة الوحيدون الذين كانوا يحصلون رسوم التجارة، وبخاصة ما يتعلق بسلع الهند الوفيرة، ويجنون الجزء الكبير من الأرباح.

جاء تطبيق قانون الملاحة الجديد مدمراً للهولنديين. فضاعت موارد عديدة من مداخيلهم القومية، وتأزمت العلاقات، إذ صعب على هولندا قبول الإنكليز سادة لبحري الشمال والمانش، بعد أن سيطروا عليهما أزماناً طويلة. وكان الأصعب من ذلك كله هو قبولهم دفع رسوم لرمي

شباكهم في مناطق الصيد، إذ صدر عن ملك إنكلترا أمر لقباطنة سفنه بتوقيف ومنع السفن الهولندية من ممارسة الصيد إلا بعد دفعهم لرسم معين، وذلك في أي مكان من مياه بحري الشمال والمانش.

لم تستطع هولندا هضم تحدي رسم الصيد هذا، وجاء رد فعلهم سريعاً بإرسال سفن حربية خلف سفن الصيد لحمايتها، فتبودلت طلقات المدافع، ولعدة مرات. لأن كلاً من الفريقين يعاضد شرعية تصرفه، ولا يستطيع قبول التحدي السافر.. ولجأت هولندا إلى تدبير معاكس، ولكن في بحار جزائر السوند. إذ سعت وبكل الوسائط لإبعاد السفن الإنكليزية عن بحار اندنوسيا وجاوا وسومطرة. واضطرت لقتالهم هناك. ويذكر بأنها قتلت كل الإنكليز على سفينة الآمبوان Amboine.

تابع الهولنديون تحدّي الإنكليز بمناسبات عدة، فاستاء الشعب الإنكليزي لهذا التحدي، وهب في الجزائر البريطانية يطالب بالاقتصاص من الهولنديين. وتأزم الموقف بعد اغتيال سفير البرلمان البريطاني في لاهاي، دون القبض على الفاعل. ودقت طبول الحرب، وقامت السفن الإنكليزية بتوقيف واعتقال سفن الهولنديين في البحر، ثم الاستيلاء عليها وسحبها إلى الشواطىء الإنكليزية، وتجريدها، مما أجبر حكومة هولندا والأقاليم المتحدة على قبول التحدي رغماً عنها. وبرغم تفضيلها للأساليب السلمية. بإرسال المبعوثين للتباحث وتفادي وقوع الحرب بين دولتين شقيقتين ومن دين واحد ومذهب واحد. وطالبت إنكلترابإلغاء القانون الملاحي الذي اعتبرته جائراً بحقها، واقترحت بديلاً له إقامة اتحاد مصالح بين البلدين، ضمن اتحاد كونفيدرالي، يدار من قبل مجلس مشترك، يقيم في لندن. وكان يعني هذا تبعية هولندا لإنكلترا.. لكن المفاوضات أخفقت وهي في أوج مسارها، وانسحب الوفد الهولندي المفاوض، وقطعت العلاقات، وانتقل البلدان إلى حرب مكشوفة، وبسرعة عجيبة. وكان السبب المباشر هو اعتراض السفن الهولندية من جديد في بحري الشمال والمانش.

احتدمت العمليات الحربية بين البلدين في ٧ تموز عام (١٦٥٢)، ولو أنها كانت قد بدأت فعلاً في ١٢ مايس عندما هاجمت السفن الحربية الإنكليزية قافلة هولندية قادمة من ليفورن ونهبتها، ثم تبع ذلك قيام أسطول روبرت بلاك(٧٠) الإنكليزي قرب دوفر باعتراض أسطول ترومب الهولندي، وطلب منه إنزال علمه، فأجابه ترومب برشقة كاملة من بطاريات مدافعه، ثم اشتبك الطرفان بمعركة طاحنة دامية انسحبا على أثرها عند حلول الظلام وسفنهما مثخنة بالجراح.

إثر معركة ترومب ــ روبرت بلاك الخطيرة شعر الهولنديون سادة المنطقة حتى ذلك العهد

أنهم أمام خصم عنيد يعشق القتال ويسعى له، فانفتح عهد الاقتتال البحري على مصراعيه الكبيرين، وتعاقبت المعارك الحربية الكبيرة، تحمل نتائج متقلبة، لكنها تتصف كلها بعنف متصاعد، حتى حملت المنتصر الإنكليزي في النهاية إلى الهدف الذي سعى إليه منذ زمن بعيد، وهو السيادة الكاملة على البحار والسيطرة على خطوط مواصلات التجارة في العالم.

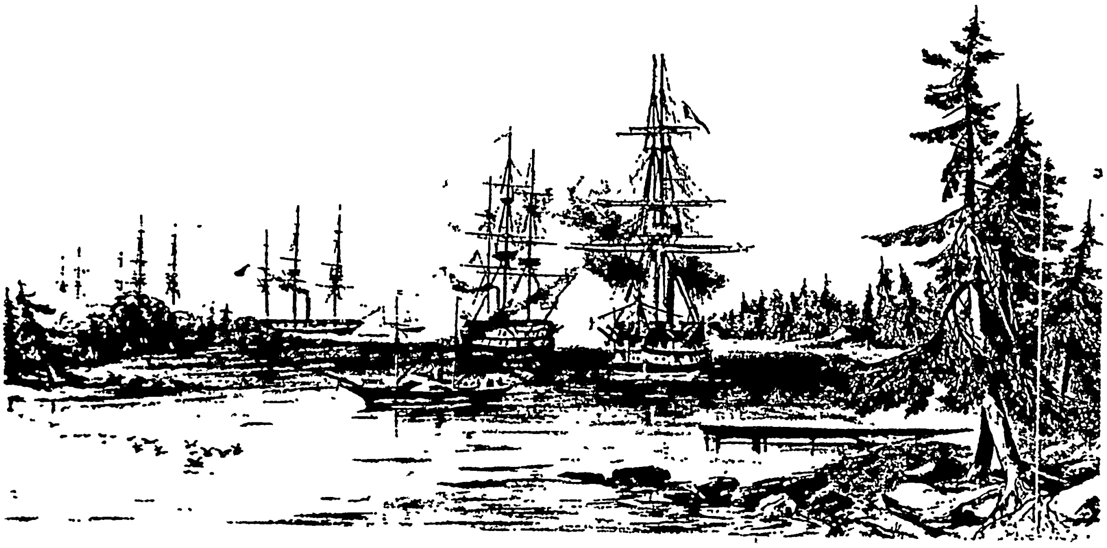

الفصل الثالث

بحرية القرن السابع عشر
الحرب البحرية الكبرى
القتال بين انكلترا وهولندا

الأساطيل الكبرى والمعارك البحرية

تميزت الحروب التي اندلعت في هذا العصر عن سواها بأنها حروب بين بحريات متطورة مبنية على أصول فنية، ومعدة إعداداً حربياً كاملاً، وقادتها رجال بحر متمرسون، لهم كل الإمكانات في خوض المعارك المظفرة، طبقاً لسياسة دولهم.

جاء قادة البحر ووضعوا قوانين الحرب البحرية واستراتيجيتها، وجعلوا لكل وحدة بحرية تكتيكاً خاصاً بها، فكانت النتائج الجيدة، حيث أُحسِن استخدام الأسلحة المعاصرة، وعرفت خصائص كل نوع من السفن، ووصل مهندسو بناء السفن بتجاربهم لنماذج متطورة، منها الشراعية الحربية الرتلية (البارجة) Vaisseau De Ligne. وسيطر هذا النموذج فاحتل المكان الأول بين سفن الأسطول، وحتى اكتشاف البخار واستخدامه كقوة محركة، وظهور السبطانات المحلزنة، واستخدامها في مدافع السفن.

ظهور المدفعية

ظل التكتيك البحري جامداً من حيث الحركة والمناورة، وبقي على ما كان عليه، وكما وضعه مصمموه الأولون، وكما فرضته أصول قتال البحر بالسفن البدائية. ولم يرتق تكتيك فن القتال إلا بعد

تطور الأسلحة المستخدمة على السفن. ونعني بالأسلحة التحسن الكبير الذي أصاب المدفع، وهو سلاح البحر الوحيد آنذاك.

انتقل المدفع من فوهة أو مسند Affut يحمل على عجلات، وينقل من مكان إلى آخر على ظهر السفينة بأسلوب معقد بطيء، يعتمد على الملفاف والبكرة والحبال إلى مجموعة مدافع أو بطاريات رابضة على جوانب السفينة، وفي مقدمتها، ومؤخرتها، ترمي برشقات متتابعة قابلة للتسديد على النقاط الحساسة في الأهداف المعادية من سفن الخصم.

وصل مدى المدفع في ذلك العصر إلى مسافة (٧٠٠) متر تقريباً. وهي مسافة قصيرة لكنها مجدية في تأثيرها التخريبي، وقادرة على عطب وتدمير وأحياناً إغراق السفن.

الالتحــام

بقيت عملية الالتحام قائمة خصوصاً بين مركبين متجابهين، وهي المرحلة النهائية أو مرحلة الإجهاز على الخصم بعد أن يكون قد أنهك بطلقات المدفعية، وتحطمت سواريه، وتمزقت أشرعته، أو خرق هيكله وبدأ ماء البحر يندفع إلى جوفه. وكلما كان رمي المدفعية سديداً وسريعاً كان الالتحام والانقضاض مجدياً.. أما عملية الاقتراب لمسافة الانقضاض، وهو ما يسمى بالهجوم تحت نيران العدو، فتلك عملية حساسة يرجع تقديرها لقائد السفينة. ويختار مناسبتها في ظرف تقل فيه أخطار مدفعية الخصم، أو يتقدم بعد إسكاتها تدميراً، والالتحام هو الاقتتال بالسلاح الأبيض أو بالبنادق، ثم المنازلة بالسيوف.. وقد انكمشت هذه العملية مع تطور سلاح المدفعية وفعاليته، وأصبحت نادرة إلا في حالات تعنت الخصم، ورفض استسلامه فيجهز عليه بإمرة قائد السفينة، حيث يوعز لرجاله بالاستعداد للاقتحام، وعند تلاصق السفينتين المتقاتلتين يأمر القائد رجاله بكلمة إلى الاقتحام.

انقراض بحرية المجذاف

قضى المدفع بقيمته الحربية على سفن التجذيف (السجانات) قضاءً مبرماً. وغدت تلك السفن المشحونة رجالاً وعتاداً هدفاً سهلاً للسفن المعادية المجهزة. وعلى سبيل المثال استطاعت سفينة شراعية حديثة من سفن الرتل الكبير اسمها لوبون Le bon مجابهة ثلاثين سجانة إسبانية وليوم كامل، دون أن تصاب بأذى، حتى اقتنع أكثر الرجال تحيزاً لسفن التجذيف بعدم جدوى هذه

السفن القديمة في العمليات الحربية الجديدة، ولكن بقيت بحرية المجذاف صرعة الحكام المحافظين، وبخاصة لشعوب البحر الأبيض المتوسط وفرنسا بشكل خاص، واعتبروا السجانات Le Galères عنصراً من عناصر التكامل القومي لا يستطيعون التخلي عنه وإلا سيخسرون بزواله مجداً بحرياً للأمة.. وفكر بعض المتعصبين لتلك الأنواع من السفن بالإبقاء عليها لاستخدامها سفن قطر أو سفن كشافة، أو خافرات للسواحل. والحقيقة فمجرد التفكير بذلك كان خطأ كبيراً في زمن يسير فيه السلاح البحري ويتطور بخطوات سريعة وهامة، ويصبح مردود الشراع وحسن استخدامه أفضل واسطة دفع للسفن. وأخيراً سقط مجد السجانات وسفن التجذيف للكلفة الكبيرة ولقلة المردود، واختفت آخر السجانات في بلدان أوربة عام (١٧٧٣) في حين استمرت بعض الدول كجنوة والسويد في استخدامها حتى مطلع القرن التاسع عشر.

الحـرّاقـات

الحرّاقة Brûlot سلاح آخر كان له في الماضي دور رئيسي خلال المعارك الحربية. ويتألف هذا السلاح من قارب مملوء بالمواد الملتهبة، يوقد ويرسل باتجاه سفينة الخصم ليلتحم على مجنبتها فيحرقها.

استخدم هذا السلاح بكثافة خلال حروب الدول الأوربية ضد إسبانيا، كما استخدمه الإنكليز والهولنديين خلال حروبهم المشتركة. واعتبرت الحرّاقة آلة حرب مخيفة، وسلاحاً مدمراً في حين كان المدفع آنذاك لا يفعل إلا القليل خصوصاً أمام السفن الغليظة البدن والقوية الصنع..

ارتفع اسم الحرّاقات إلى الأوج خلال هذا القرن. وذكر المؤرخون أن العديد من السفن الحربية القوية فرت من المعركة لدى مشاهدتها لتلك القوارب المحرقة.. إلا أن هذا الصيت بدأ يتداعى ويختفي بعد تصميم سلاح مضاد لها، وهو عبارة عن مجموعات كبيرة من القوارب مهمتها الإمساك بالحرّاقة عن بعد، وشدها إلى خارج ساحة المعركة، أو نكْسها في الماء قبل أن تصل إلى هدفها. وأصبح بالإمكان تفاديها إما بإبعادها أو بقيام السفينة المستهدفة بمناورة حادة في الوقت المناسب لتجنيب الاصطدام بها. لكن الحرّاقة تطورت أيضاً واستعادت بعض فعاليتها بعد استخدامها النار الإغريقية، وهي نوع من المنجنيق يقذف باللهب. فاستعادت الحرّاقة سمعتها في تهديد السفن حتى تطور سلاح المدفعية، وتحسن مداه، وجعل وصول الحرّاقة إلى هدفها مستحيلاً، إذ إن طلقات المدفع تغرقها عشرين مرة، قبل أن تصل هذه الأخيرة إلى المدى الفعال لنيرانها.

انحسر استخدام الحرّاقات، وكان آخر مرة استخدمت فيها بمعركة الهجوم على طولون عام (١٧٤١). وغدت هي الأخرى للذكرى وللحالات الدفاعية الخاصة، وضمن ظروف قتالية معينة، كحالة سفن راسية أو سفن معطوبة والمعنويات فوقها متدهورة، فتقترب الحرّاقة للإجهاز عليها، كما حصل في جزيرة ايكس، وفي حرب الاستقلال الهيليني أما في الملاحم البحرية الحقيقية فلم يعد لها مكان.

سفن الأرتال

وهي سفن كبيرة مجهزة بالعديد من المدافع، في كل الجوانب وقد ارتفع عددها تباعاً من (١٠٤) فوهة إلى (١١٢) ووصلت حتى (١٣٠) فوهة. وهذا هو الرقم الأعلى الذي استخدمته السفن في البحرية الخشبية، ولم يكن يسمح بمد طول السفينة أكثر مما هي عليه لأسباب فنية، ودوافع تتعلق بالمناورة والحركة، لأن الطول الكبير يعيق حركة السفينة، ويعقد من مناورتها، كما أن زيادة عدد الطوابق فيها يسيء لمناورتها، ويعطيها قوة حَيَدان كبيرة في حال تعرضها للتيارات البحرية.

وقد خصصت السفن ذات الطوابق الثلاث للقيام بدور سفينة القيادة ولحمل علم أمير البحر. وتكون عالية السواري قوية البنية، تزهو بخيلاء وجمال وجلال.

ولم يعد القتال الفردي للسفينة شائعاً، والسبيل الوحيد للتفوق على الخصم هو بإحاطة سفنه بعدد يفوقه. ومن هنا انطلق السباق في إكثار عدد سفن الأساطيل، ووصلت إلى (١٥٠) سفينة خلال حروب إنكلترا وهولندا، وتتساند السفن الصديقة بعضها على بعضها الآخر لتقديم الحماية، وتقوم بمهمات جماعية وبرمايات مشتركة ضمن تشكيلات وصفوف متناسقة طويلة.. أما رمي مدافع المقدمة والمؤخرة فغير فعال، لقلة عدد فوهات المدافع هناك، ويعرض السفينة للرمي الضام من قبل الخصم، ومعناه اتساع مدى الإصابات. واقتصر عمل هذه المدافع على حالات الانسحاب، أو حالات اختراق صفوف العدو، أو إقامة ثغرة في تشكيله.. وتتلخص مناورة القتال التقليدية بالخطوات التالية:

ــ تتقدم السفن نحو العدو جبهياً حتى دخول مدى المدفعية.

ــ يعطى الأمر باتخاذ تشكيلة خط الرتل فتستدير المجموعة آنياً وتسير كل سفينة بمياه السفينة التي تتقدمها A la Ligne de File وتتيح لمدافع إحدى مجنباتها للاشتباك مع الخصم بكامل حريتها، ودون أن تحجب أو تزعج بمدفعيتها سفينة صديقة.

ــ وحتى تكون تشكيلة القتال هذه فعالة يجدر بكل الوحدات الصديقة في خط الرتل المحافظة على مسافات ثابتة، يحددها أمير البحر، لإعطاء إمكانية الحركة والمناورة، وتقديم كثافة في النيران، وحتى تسمح للتشكيلات الجماعية الآتية بالانضمام لسفن الرمي، فتستطيع دخول المعركة دون إزعاج الآخرين. وبذا تضمن لسفن التشكيل المحافظة على رتل القتال قوياً متماسكاً من بدايته وحتى نهايته، ويجدر والحالة هذه اختيار السفن التي تتجانس من حيث النموذج والحركة والتسليح، مع استبعاد السفن الضعيفة والصغيرة، وغير الرشيقة.

ظلت معظم سفن الأساطيل الهولندية وحتى عام (١٦٥٠) سفن مواكبة مجهزة بمدفعية متوسطة قليلة العدد، أثبتت المعارك قلة جدواها أمام السفن الحربية القوية التسليح، وحيث أن التشكيلات البحرية تضم سفناً معبأة للقتال فقد أصبح من المؤكد الالتزام بتعمير خاص يناسب المواكبة والاشتباك، مع المناورة بالنار والحركة، ودفع ذلك ببنائي السفن إلى توحيد أعداد وأعيرة بطاريات المدافع ضمن المعادلة التي تسمح بإعطاء سلاح المدفعية عشر حجم إزاحة السفينة، لكي يتسنى مضاعفة جوانب السفينة من الأمكنة الأكثر تعرضاً لمدفعية الخصم، وجعلها غليظة ثخينة قادرة على تحمل قذائف العدو، وتخفيف ارتجاجها في أثناء الرمي الجماعي، والإقلال من ميلانها بعد الرشقات. ووصلت هذه السماكة على بعض السفن الإسبانية إلى (١١) قدماً من الخشب الصلب.

وهذا مثال يعطي فكرة عن حجوم سفن ذلك العصر.

إن أكبر غليون من سفن الآرمادا الإسبانية لم يتجاوز ألف طنة (٢٨٣٠ م مكعب حجم) وأكبر سفينة مواكبة وصلت إلى (٢٧٠٠) طنة (٧٦٤٠ م^3 حجم) كالسفينة المسماة «الشمس الملكية».

وحافظت السفن من منتصف القرن السابع عشر وحتى نهاية عصر البحرية الخشبية على مواصفاتها. وكانت متشابهة، ومن نوع البوارج أو سفن الأرتال. وهي سفن ضخمة قصيرة الطول، عرضها يعادل ربع طولها تقريباً، ومقدمتها منخفضة ومنتفخة، ثم تعلو بتدرج وتنتهي بمنخز. ومؤخرتها كبيرة مربعة يعلوها (كوثل) صرح مثقل وطوابقه عديدة (بعد تضاؤل عمليات الالتحام بالسفن. وكانت الصروح تستعمل كقلاع للقتال)، ثم تضاءل حجم صرح المقدمة، وانتهى إلى برج بسيط يعلوه سطح الملاحة. أما الكوثل Dunette في المؤخر فبقى إما متوسط الحجم أو كبيره.

طليت البوارج الخشبية من الخارج بألوان فاقعة، وغطيت بالخشب المحفور والتماثيل الجميلة، أما داخلها فوزع على طابقين أو ثلاثة طوابق، وتحت الجسر الرئيسي طابق مفتوح الجوانب دون قواطع، يستخدم في مراقبة القسم الغاطس من السفينة، وترص به البضائع أو الأعتدة، ومع كل المقترحات التي نصحت بتغطية جسم السفينة بالرصاص أو الحديد الأبيض، ظل هيكل السفينة مكشوفاً لكل عوامل التآكل التي تصيب خشبها إلا من طبقات قطران وشحم، لحفظها من العوامل الطبيعية. وكان يتطلب ذلك عمليات قلفطة مستمرة لسد التشققات التي تحدث في البدن، وهي عملية صعبة وطويلة، يعوض عنها أحياناً برقع خشبية معدة مسبقاً.

جهزت غالبية السفن بثلاث سوارٍ وبأشرعة لاتينية، يعلو الشراع المتوسط شراع مربع.. وفي المقدمة والمؤخرة على السواء عدة أشرعة صغيرة تستخدم أحياناً لوحدها عند الرغبة في تخفيض سرعة السفينة، أو خلال مناورات الدخول والخروج إلى الموانىء.

كان استخدام المراسي والقوارب شائعاً في المناورات، وعند تحريك السفينة. لكن صغر المراسي، وقلة المراكب، وكبر حجم السفينة غالباً ما كان يعرضها لحوادث الجنح أو الاصطدام، خصوصاً في حالات وجود ريح أو تيار، ومناورة الأشرعة لوحدها عملية صعبة وبطيئة. وهذا ما جعل عملية المناورة في السفن الشراعية عامة عملية دقيقة تحتاج إلى الكثير من الحيطة، أما في عرض البحر فالإبحار بالسفن الشراعية خطر جداً في بحار مضطربة، خصوصاً في البحار الشمالية، وللسفن ذات الأبراج أو الصروح العالية. لذلك غالباً ما كانت تهجر السفن خريفاً فتقضي فصل الشتاء قابعة في الميناء، ليعاد تجهيزها مع حلول فصل الربيع.

بنيت إلى جوانب البوارج سفن أقل شأناً تستخدم كناقلات إشارة، أو كشافات، أو رائدات للاستطلاع أمام سفن الأسطول. وتعددت أشكال هذه السفن وأسماؤها، منها الفرقاطة مثلاً، وهو اسم قديم لسجانة خفيفة، وسفينة المحاصرة، والحامية، والناقلة، وقارب الخدمة الخ... لكن السفن الكبيرة وحدها تدخل في عداد سفن الأسطول، وهي متقاربة، ولدى جميع الأمم البحرية. وإذا تفوقت في بلد عن بلد آخر، فيكون ذلك مرجعه لقدرتها القتالية، ورشاقتها في المناورة، ولكفاءة ربانها وطاقمها..

قتال التشكيلات ومعارك الأنساق

مع تكاثر الأساطيل غدت الإغارات البحرية للنهب والسلب عمليات صعبة، تتطلب

الكثير من التضحية والجرأة. فتواجد أسطول حربي في عرض البحر، أو في المياه الإقليمية كان كافياً لإبعاد المغامرين والقراصنة. وهنا أصبح قتال الأسطول يحتاج لأسطول يتمتع بالكفاءة نفسها. ومن يسعى للسيادة البحرية لا بد له من السيطرة على البحار والهيمنة على التجارة الخارجية وطرق المستعمرات. ولتحقيق ذلك لا بد من إعداد قوة بحرية جيدة ذات سمعة عالية، تفرض احترامها على الخصوم، وتلزمهم البقاء في الموانىء. أما إذا اختاروا المجابهة فعليهم الخروج والاشتباك في معركة بحرية، وهنا تبرز قيمة دور أمراء البحر الأصليين في حسن اختيار مكان وزمان المعركة وأسلوبها.

التزمت الاشتباكات البحرية خلال القرن السابع عشر الأسلوب الكلاسيكي في القتال. ويتم بلقاء تشكيلين معاديين في ملحمة بحرية، ينتصر أحدهما عند تدمير الآخر، أو إجباره على الفرار وسمي ذلك العصر بعصر المعارك الكبرى. أما الصدامات بين مركبين متنازعين فلم تعد مطلباً، ولا ثقل لها في سير المعارك أو مصير السيادة. وتراجع ليصبح حادثة نادرة لا تمثل صورة ملاحم ذلك العصر.

المعركة البحرية الكبرى تبدو أساساً وكأنها تراشق مدفعي بين رتلين من السفن الحربية أخذت مواقعها التكتيكية بتعارض جبهي، بعد إرسال عدة رشقات، ومن مدى بعيد خارج مدى الأسلحة، ويعتبر ذلك إيذاناً ببدء المعركة. ولكي يتحقق النصر لأحد الطرفين المتنازعين لا بد وأن يكون متفوقاً بالرجال والعتاد. والأهم بقيادة عالية الكفاءة، وبخطة قتال مبتكرة، تفاجىء الخصم وتضعف توازنه، وتلعب في معنوياته، وتدمر جزءاً من أسطوله عن طريق الخدعة، إذ غالباً ما يحصل ذلك بتجاوز رتل السفن المعادية، والالتفاف حول مقدمة التشكيل أو مؤخرته وإحاطته بأعداد من السفن تفوقه عددياً، وتجبره على القتال في ظروف غير متكافئة، وهو مطوق الجانبين (خطط تورفيل وبيفيزيه)، أو بخرق رتل سفن العدو من فتحة ضعيفة، وتدمير سفنه الواحدة بعد الأخرى، زارعين الفوضى والتشتيت (رودني في معارك جزر السانت)، أو أخيراً كما فعل رويتر، وسوفران، ونلسون بالتقدم إلى العدو بجزء من الأسطول يلعب دور الطعم حيث القوة الرئيسية تنتظر بعيداً (قوة بالحوزة)، وعند انشغال أسطول العدو بالجزء الصغير تحمل السفن الأخرى عليه بعد تلقيها أوامر قائدها، بعنف وبشدة فتحقق عليه مفاجأة. فإذا أحكمت الضربة جاءت فعالة، وأحياناً قاضية.

كل هذه الخطط أطلق عليها اسم عروض في فن القتال البحري، وهي شائعة متشابهة لدى الأمم البحرية، حتى أصبحت المعركة البحرية أسلوباً متعباً بمراحل ثابتة متشابهة. وأهم ما فيها هو تواجد الوحدات المتقاتلة عرضانياً، لتأخذ الريح بأحد مجنباتها لكي تستطيع استخدامه في أية لحظة

حرجة للتملص والابتعاد. وتبرز مقدرة القائد في مقدرة إمكانية المحافظة على موقعه بالنسبة للريح ومحاولة إجبار خصمه على الخروج من موقعه، وحرمانه من ميزة استخدام الريح في المناورة والتملص.. (**الريح هي القوة الدافعة الوحيدة للسفن الشراعية**).

تنتقل أوامر الحركة والمناورة بين السفن الصديقة بنظام إعلام إشارة ذات صفات وألوان مختلفة (ابتكار إنكليزي عم جميع البحريات). وتكرر الإشارة على جميع السفن الصديقة، ولكل إشارة تفسير حسب شيفرة سرية، وبمجرد إعطاء إشارة «نفِّذ» تقوم جميع السفن دفعة واحدة بالتنفيذ الجماعي من خرق أو التفاف أو فتح نار الخ. وعند بدء الهجوم يسعى كُل من الطرفين المتنازعين لامتلاك الريح إلى جانبه في المعركة (أي أخذ موقع المهاجم بالنسبة لاتجاه الريح)، بحيث تستطيع الأشرعة الامتلاء بالريح متى أرادت، وبأقصر زمن. وعلى القائد الكفء استخدام تلك الميزة في مناورته، وحرمان خصمه منها، وبذلك يضعف من عملية انتشاره وحركته، أو الاستدارة حول نفسه. وهذا يعني توفير عدد أكبر من الرجال لخدمة المدافع ولمكافحة الحريق، ولسد الثغرات الناجمة عن القذائف تحت خط العوم. والريح بحد ذاتها تعاون الرجال في المعركة إذا أُحسِن استخدامها، فهي تدفع للعدو بسحب الدخان الكثيفة الناتجة عن رشقات المدافع، أو دخان الحرائق فتضعف رؤية الخصم، وبالتالي تنخفض دقة تصويبه.

كان لموقع (مهاجم تحت الريح) **أي عكس ما عرض في الفقرة السابقة** مؤيدون خصوصاً في فرنسا، إذ يدعون بأنه يعطي وضعية أفضل لاستخدام كامل مدفعية المجنبة، لأن ميلان السفينة يكون إلى الجانب الآخر في حين أن «سفينة في الريح» تعطي جنبها المائل للعدو قد يجعل المدافع الدنيا شبه مغمورة وغير قابلة للاستخدام.

وعلى كل حال فمؤيدو رأي «سفينة الريح» هم الأوفر والأصح. ويرجع في النهاية كل ذلك إلى ظروف المعركة نفسها. والأهم من ذلك كله يرجع إلى صفة القائد الذي عليه وحده وبتصرفه الحذق السيطرة على مراحل المعركة، وانتزاع النصر. فالمعركة البحرية مراحل عدة يجب احترام كل مرحلة على حدة. فهي تبدأ بالمراقبة الجيدة، لمنع حدوث أية مفاجأة، ثم بحسن اللقاء، ومن ثم بمناورة جيدة للوصول لأفضل المواقع، واستخدام جميع الشروط المؤيدة، وحرمان الخصم من كل ميزات الموقع والريح، ومقاتلته بشجاعة وإقدام. وكثيراً ما كانت المعارك تستمر حتى حلول الظلام، لتبدأ ثانية مع فجر اليوم التالي، أو حتى نفاذ الذخيرة، أو اشتداد الريح. وفي تلك الأحوال تنسحب السفن المتقاتلة بعيداً عن ساحة المعركة لتعود فتلتقي ثانية عند سنوح الفرصة، أو يتعقب

بعضها بعضها الآخر لتحافظ على التماس، للالتحام من جديد متى عادت الظروف القتالية المناسبة.

وخلاصة القول إن حرب البحار منذ مطلع القرن السابع عشر حرباً وسمةً علميةً ومطلوبةً. وهذا ما قال به الأستاذ المؤرخ هوست P. Hoste عندما تكلم عن الحروب البحرية، وحلل العديد من معاركها الكبرى فقال:

«القتال في البحار له قواعده، ويتم بتحقيق توازن بين النار والمناورة، فإن تحقق هذا التوافق أتى النصر».

أولى الحروب البحرية الكبرى

الآرمادا

إن أولى الاشتباكات التي تمت في عصر الستراتيجية البحرية الجديدة كانت بين إنكلترا وإسبانيا في نهاية القرن السادس عشر.

وأسباب هذا الاقتتال كثيرة، أولها تبنّي الملكة اليزابيت للموقف العام الإنكليزي ورفضها الزواج بأمير إسباني، ثم اعتقالها (١٥٧٨) ماري ستيوارت[٧١]، ثم إعدامها (١٥٨٥)، أضف إلى ذلك تململ الإسبان لتدخل الإنكليز في شؤون مستعمراتهم في الهند الشرقية والهند الغربية على السواء، وللمعونات التي قدموها لثوار الأقاليم المتحدة (هولندا). فاتخذوا قراراً باحتلال الجزر البريطانية والخلاص من هذا الخطر الجاثم.

تبنى أميرال البحر الإسباني الأكبر الماركيز سانتا كروز فكرة غزو بريطانيا في عقر دارها، وأقنع الملك والحكومة بأن عملاً كهذا سيكون أقل مجازفة وخطراً من الإبقاء على الضغط الإنكليزي المستمر، والمتمثل بإغارات متواصلة لقراصنتهم في البحر، وفي المستعمرات، وحتى في الموانىء نفسها.

جمع الأميرال الإسباني (١٥٠) سفينة حربية كبيرة و (٤٠٠) سفينة نقل مع (١٠٠) ألف مقاتل. وكانت منطقة تجمع هذه القوات الساحل المحصور بين ليشبونة وسان فانسان. ثم سار بالقوة البحرية، ورسا في مارغات، قرب كنت، على الساحل الإنكليزي لتغطية عمليته. ومع كل ما كانت تتمتع به إسبانيا من قوة وعظمة كانت العملية تتطلب جهداً ضخماً وإمكانات هائلة.

انضم دوق بارما Le Duc De Parme حاكم هولندا إلى جانب القوات الإسبانية، فأسندت له كامل العملية، وأقام قيادته في سواحل الفلاندر، لتوجيه وإدارة وتعزيز معركة غزو إنكلترا.

تعرض غزو الجزر البريطانية لعوائق عدة منها:

ــ نجاح دراك Drake الإنكليزي في غزو فيجو Vigo، وقد فتحت أمامه أبواب الهند عام (١٥٨٦) على مصراعيها، فجاء من هناك معتزاً بانتصاره، ومدفوعاً بطباعه الشرسة كقرصان، فاقتحم ميناء قادس، ودمر قسماً من سفن الحرب الإسبانية التي كانت قيد التعمير ٢٩ نيسان (١٥٨٧) مما أخّر في إعداد سفن الحملة.

ــ موت الأميرال الإسباني سانتا كروز وحلول الأميرال الكاستيلي مادينا سيدونيا[٧٢] Medina Sidonia محله لقدمه. وكان الأميرال الجديد قليل الخبرة في البحار، ويجهل عملية غزو إنكلترا هذه بالذات.

ــ عناد الملك فيليب الثاني ملك إسبانيا، وتمسكه بمواعيد الحملة، جعل القائمين عليها يهملون بعض النقاط الحساسة وبخاصة الأمور المتعلقة بالإعداد والإمداد، فنتج عن ذلك ضعف ظاهر في تحضير السفن.

القوة المهاجمة

تضمنت القوة المهاجمة (١٥١) سفينة حربية عليها (٢٤٣١) مدفعاً يقودها (٢٩٥٢٢) رجلاً، منهم ثمانية آلاف من رجال البحر المحترفين فقط. أما السفن فكانت على النحو التالي (٧٥) سفينة تعتبر سفن قتال فعلية و (٥٦) سفينة من أصل الـ (٧٥) تزيد حمولتها عن (٥٠٠) طنة للسفينة الواحدة، والقوة الرئيسية في أسطول الحملة تتألف من سفن البرتغاليين والكاستيلانيين (سفن حراسة قوافل طريق الهند)، وهي التي عليها الاعتماد الأكبر في خوض المعركة المقبلة.

خطة الهجوم

صدق دوق بارم حاكم هولندا الإسبانية خطة الهجوم في الرابع من شهر ايلول عام(١٥٨٧) ووزع الأدوار على النحو التالي:

ــ تدخل القوة البحرية بحر المانش مباشرة دون تأخر أو إبطاء، وبكافة سفن الأسطول.

ـــ تسير التشكيلات البحرية باستقامة الساحل الإنكليزي وتحاذيه، لأنها المنطقة الأكثر أماناً من حيث الملاحة والعوائق الطبيعية.

ـــ تتجمع القوات البرية المعدة للإنزال في سهول الفلاندر، وتنتقل سفن النقل والتي تتراوح عددها بين (٢٠٠ و ٣٠٠) سفينة صغيرة فترسو أمام منطقة التجمع وفي المياه القريبة لنقل (٣٠) ألف مقاتل، وإنزالهم على الساحل الإنكليزي.

ـــ تقوم تشكيلة من السفن الحربية القوية بمهمة حماية الممر المائي، وتأمين الاتصال والمراقبة طيلة عملية النقل، ثم تنتقل هذه القوة بعد الانتهاء من عملية الإنزال إلى المياه الإنكليزية، لتدعم الموجة الأولى من الغزاة بضربها للساحل الإنكليزي في حال تعثر المهاجمين، أو ظهور مقاومة من البر..

ـــ تبقى القوة البحرية الرئيسية تجوب البحر في الجوار لقتال الأسطول الإنكليزي في حال ظهوره في مسرح المعركة، ومحاولة تدميره لمنعه من إزعاج عملية الغزو ولضمان السيادة المطلقة خلال نقل الوحدات من البر الأوربي إلى البر الإنكليزي.

اقترح الأميرال الإسباني مبدئياً احتلال رأس كاليه القريب من الساحل الإنكليزي، قبل عملية الغزو حتى يأمن هذا الجانب من البحر، والذي كان تحت سيطرة الإنكليز، وبذلك يمنع تعرض القوات الإسبانية للقتال على جبهتين.. لكن طلبه رفض من قبل القائد العام، واعتبر عملاً لا ضرورة له سيأخذ قسماً من جهد القوة المهاجمة الرئيسية، وعلى العكس طلب من الأميرال الإسباني عدم الاشتباك بأية قوة مهما كان نوعها تتواجد خارج مسرح عمليات الإنزال، لأن ذلك سيؤدي إلى الابتعاد عن هدف الحملة الرئيسي.

تأخر موعد تنفيذ العملية للأسباب التي مرت سابقاً، وكذلك بنتيجة صعوبة الإعداد، كما أن هناك سبباً آخر عرض التوقيت للتأخير، هو تكليف الأسطول الإسباني مهمة حماية قوافل التجارة القادمة من عرض المحيط، قرب جزر آسور، حيث كان الإنكليز يتربصون دائماً لها، ويقنصون سفنها، ونتيجة ذلك تأخر موعد الغزو حتى حل فصل الطقس السيء.. وهبت عاصفة هوجاء أجبرت السفن على التزام الموانىء في غاليسيا.. وبدأ التردد، وانتشرت الاجتهادات وقام القادة يقدمون مقترحاتهم وأفكارهم، وهذا في العرف القتالي أمر لا يخدم تسلسل خطوات المعركة، ويضعف روح التصميم، ومن المقترحات العملية التي قدمت هي الاستيلاء على جزيرة ويت الخ.. Wight.

الجانب المدافع

سرت موجة من التأنيب والنقد الذاتي لدى الإنكليز متمثلين بالقول التالي :

« البخل والحرب لا صلة تجمع بينهما »

Sparing and War no Affinity together

ترددت الملكة اليزابيت في قرارها حول رصد الاعتمادات اللازمة للإعداد للحرب . وإنكلترا ضعيفة الموارد إذا قيست بخصمها الإسباني . إلا أن الضغط الشعبي ، والروح الوطنية العالية لدى الإنكليز ، وتفانيهم في الدفاع عن وطنهم ، عجل في اتخاذ القرار . وأمرت اليزابيت في نهاية العام برصد الأموال اللازمة للإعداد للحرب ، وتعبئة الميليشيات ، وإقامة الحصون الساحلية ، وتعزيز قدرة المراكز المتقدمة قتالياً ، ورفع عدد سفن الأسطول حتى وصلت إلى (١٩٧) سفينة منها (٣٤) سفينة ملكية هي وحدها ذات القيمة الحربية .

جاء تموين سفن الأسطول محدوداً (لا يسمح إلا بتموين لمدة ١٥ يوماً نظراً لنقص الإمكانات). وهذا ما دفع بالأسطول للالتزام بموانئه ، لا يخرج إلا لرحلات قصيرة . لكن الرأي العام الوطني على خلاف ذلك كان يجهل قصة تحديد مقادير المواد التموينية والذخائر . وأخذ يتفاعل حماساً ويطالب الحكومة بإرسال الأسطول إلى عرض البحر ليذود عن أرض الوطن ويضرب الغزاة ، قبل وصولهم إلى البر الإنكليزي ، ومباغتتهم في أماكن تجمعهم ، وخاصة في سهول الفلاندر . وهذا يعني نقل قوات إنكليزية داعمة لقتال المهاجمين على البر الأوربي واستبقاء كامل الأسطول مستقراً بشريط طويل على طول الساحل الرملي .

اقترح دراك وهو الذي كان يشغل آنذاك وظيفة رئيس أركان حرب البحرية الإنكليزية مبادأة العدو ، وضرب سواحل إسبانيا نفسها ، ليوقف حركة خروج الأسطول الإسباني الكبير ، أو مهاجمته عند عبوره المداخل الإجبارية لبحر المانش ، لكن كل ما حصل عليه دراك من موافقة هو إرساله على رأس قوة بحرية بسيطة بمهمة رائدة يكشف تجمعات العدو قرب مياه بليموث على الساحل الجنوبي للجزيرة البريطانية ، ويرصد حركة العدو من هناك ، في حين يقف كامل الأسطول الإنكليزي على أهبة الاستعداد بأمرة اللورد الأميرال هوارد ديفييتغهام . وعلى البر عدة ألوية عسكرية بإمرة اللورد هنري سيمور ..

بالنسبة لأسطول هولندا بإمرة جوستاف ناسو فقد كان بعيداً في جوار زيلندة .. أما إيرلندة

فبلاد مكشوفة لا شيء يحميها، وحتى قناة بريستول كانت جبهة مكشوفة. ومع كل الاحتياطات التي اتخذت بحراً، والميليشيات التي جندت على البر فقد شاعت موجة من الذعر في بريطانيا، بعد ما بلغ مسامع الإنكليز أن الآرمادا الإسبانية التي لا تقهر تركت موانئها في ١٢ تموز عام (١٥٨٨) برغم هبوب عاصفة هوجاء عليها واتجهت نحو بحر المانش.

تسلسل الأحداث

وصلت الآرمادا في ٢٠ تموز إلى بحر المانش، وانفصلت سفن التجذيف (السجانات) عن جسم التشكيل، والتجأت إلى سواحل بريتانيا الفرنسية، لسوء حالة البحر. في تلك الأثناء شاهد دراك الوحدات الإسبانية تدخل بحر المانش، فأعلم القيادة، وأعطيت إشارة الإنذار في إنكلترا بعد أن اتضحت وجهة سير الآرمادا وهدفها المقصود، وتبعاً لأسلوب دراك في القتال، والنابع من ماضي قرصنة مجيد، اندفع أمراء البحر الإنكليز أمثال فروبيشر وهاوكنز، يتصدون لسفن الآرمادا في الأيام ٢١ و ٢٣ و ٢٥ تموز، وفي مياه مينائي بليموث وبورتلاند وحول جزيرة ويت. ووقعت اشتباكات عنيفة قامت بها تشكيلات إنكليزية خفيفة، فكانت تنقض وتشتبك ثم تبتعد، تبعاً لظروف المعركة ببداهة وحسن أداء، تجلت فيها مقدرة أمراء البحر الإنكليز وخبرتهم القتالية. وكانوا ينسحبون في الوقت المناسب وفي الظروف غير المؤاتية متمثلين بشعار الكلمات الثلاث أغرق أحرق دمر Sink Burn& Destroy.

استفاد الإنكليز في عملياتهم البحرية قرب مسارح المعارك من شواطئهم فكانت مدفعية الشواطىء تتدخل بعد كل انسحاب، وتمطر السفن الإسبانية بوابل من القذائف، خصوصاً ومستودعات الذخيرة على البر في جوار أرض المعركة.. وكثيراً ما أصابوا سفن الإسبان المعزولة أو المتخلفة عن التشكيل، وأحالوها كالغربال من كثرة الإصابات. ومع كل ذلك لم يعط أميرال البحر الإسباني ميدينا سيدونيا قائداً الآرمادا إشارة بدء المعركة الكبرى، ولم يسمح لسفنه بحرية المناورة خشية تخلخل تشكيله الثابت الذي اعتمده، وهو تشكيل النسر بأجنحته المبسوطة.. ولقد أخطأ مدينا في اختياره للتشكيل، لأنه ترتيب سيء في الملاحة وعقيم في القتال.

كانت حصيلة هجمات التشكيلات الخفيفة الإنكليزية غرق سفينتين حربيتين إسبانيتين كبيرتين، بعد أن احترقتا، وجنوح سفينتين كبيرتين أخريين جنحتا على الشاطىء الإنكليزي، بعد أن دمرتها مدافع الشواطىء، وجنحت سفينة ثالثة على شاطىء الساحل النورماندي. وانهارت

معنويات المقاتلين الإسبان لأنهم لم يتوقعوا القتال البعيد، وقد اعتادوه اقتحاماً بالبنادق والسيوف، فأصيبوا بخسائر جسيمة حين انصبت عليهم قذائف غزيرة محكمة التسديد. وظلت السفن الإنكليزية تضرب وتنسحب مبتعدة، ثم تعود لتضرب ثانية وحتى تاريخ ٢٧ تموز.. وبوصول الآرمادا إلى كاليه اعتبرت بأنها أنجزت الشطر الأول من مهمتها، وجاهزة للشطر الثاني، وهي مرحلة النزول على البر الإنكليزي.

طلب دوق دو بارم مهلة خمسة عشر يوماً إضافية لكي يشرع باجتياح الممر والنزول على البر الإنكليزي، وكان يعني بالنسبة لميدينا خمسة عشر يوماً من الانتظار في مرسى مفتوح لأنواء البحر، والإنكليز في عرض البحر متحفزون للقتال.

في ليل ٢٨ أرسل الإنكليز ثماني حرّاقات باتجاه الأسطول الإسباني الراسي. ولم تعط هذه العملية أية نتيجة مباشرة، سوى أنها أرعبت الإسبان، وجعلتهم يقلعون على عجل تاركين مراسيهم في قاع البحر بشكل فوضوي مضطرب.

وفي اليوم التالي قبلت القيادة الإنكليزية بمقترحات دراك وزجت بأسطولها في قتال هجومي أمام غرافلين، حيث وقعت ملحمة بحرية دموية كبرى اختلط فيها الحابل بالنابل.. وخلال احتدام المعركة لحق الأسطول الهولندي القادم من بحر الشمال بقيادة روزندال، ليأخذ نصيبه ويعاون بسرية تامة أسطول الإنكليز.

وفي ٢٩ منه عقد ميدينا مجلس الحرب الأعلى واتخذ قراره بالانسحاب، بعد أن تعذر عليه البقاء قرب سواحل الفلاندر بأسطول متعب منهار المعنويات، واعتبرت حملته متعثرة، وأن واجبه الآن هو في إنقاذ السفن المتبقية، خصوصاً والرياح تزداد قوة، عاصفة من الجنوب والجنوب الغربي، والبحر يتعاظم موجه. وكان من الجنون العودة بالطريق نفسه الذي سلكه عند قدومه خصوصاً وأن الموج والريح بغير صالحه، ومسافة الطريق تزيد عن (١٥٠) فرسخاً بحرياً، في ممر ضيق كثير الصخور.. وسفن الإنكليز تجوبه وتسوده في كل مكان.

فكر الأميرال الإسباني بالانسحاب شمالاً بالدوران حول الجزر البريطانية وتم له ذلك. لكن التجمع الأنكلو ـــ هولندي لاحقه، واقتنص الكثير من سفنه. وشاركت العاصفة الهوجاء في كارثة الآرمادا حيث استمرت الريح على شدتها تعصف عشرة أيام متعاقبة، فمنعت ميدينا من تجميع قواته والعودة بها بطريق سليم، فشوهدت سفنه معطلة تجنح وترتمي على سواحل ايكوسيا وأركاديا وإيرلندة،

وسواحل النرويج، وبدأت طواقم السفن تموت من البرد والجوع والعطش. وكانوا كلما حاولوا النزول على البر، أي بر ليجدوا ماءً أو يصيبوا حطاماً، قابلهم سكان السواحل الذين عانوا طويلاً من هجمات القراصنة ولصوص البحر ينقضون عليهم قتلاً وتمزيقاً دون رحمة أو شفقة.

وفي النهاية وصل ميدينا إلى سواحل إسبانيا ولم يكن برفقته إلا (٢٥) سفينة أي بخسارة (٦٣) سفينة (٤) منها احترقت، و(٣٥) منها اعتبرت مفقودة بالعواصف، ولم تترك أي أثر لها. أما البقية فجنحت على شواطىء طريق العودة وتحطمت وضاع رجالها.

خسرت إسبانيا (٢٠) ألف رجل في حين لم تخسر إنكلترا أية سفينة. واستطاع كلاب البحر القراصنة الأشاوس إنقاذ بلادهم، ودفع خطر الغزو عنها، وتدمير أكبر تشكيل بحري قتالي عرف حتى تاريخه..

لم تعترف إسبانيا بهذه الهزيمة، واعتبرت الظروف الطبيعية قست عليها. فعادت وسخّرت الأموال الطائلة التي كانت تأتيها من ممتلكاتها الواسعة لإعادة الكرة عام (١٥٩٢)، وللمرة الثالثة عام (١٥٩٩)، وللمرة الرابعة والأخيرة عام (١٦٠٠). وكانت النتائج متشابهة، وللأسباب نفسها. وحملة مارتان دو باديلا الأخيرة تضمنت (١٢٨) سفينة و(٥) آلاف رجل عادت بكارثة عام (١٥٨٨) نفسها. وفي عام (١٦٠٢) استطاع الإسبان إنزال بضعة آلاف من الرجال على ساحل إيرلندة إلا أن ضعف الإمداد وطول خطوط المواصلات جعل إبادة القوة النازلة أمراً سهلاً. وتم للإنكليز ذلك خلال عدة أيام من نزولهم. ومع ذلك كله ظل الدرس غير مفهوم من قبل الإسبان. وهنا قرر الإنكليز الانتهاء من ذلك العبث الإسباني والذهاب حتى عقر دارهم وتدمير أساطيلهم، ثم محاصرتهم وقطع الخيرات التي تأتيهم من الخارج وحرمانهم من المورد المالي الكبير لإعداد حملاتهم. وتم ذلك على أيدي هوارد وايسيكس إذ قاما بحملة بحرية هاجما خلالها قادس وكانت النية تكرار مثل تلك الحملة لولا توقيع معاهدة السلام بين المتحاربين عام (١٦٠٤).

إن نتائج الحرب الأنكلو ــ إسبانية أنست الإنكليز الغاية الأولى من حروبهم، بعد أن جنوا الملايين من الجنيهات، وانقلبت دوافع الحرب لديهم إلى استغلال فرصة، وإثارة وتشويق، كما حدث خلال معركة الثأر Revenge الشهيرة عام (١٥٩١) ضد (١٥) سفينة، ولمدة ١١ ساعة قتال متواصلة، وكذلك النهب والسلب الخياليين.

وأصبح الإنكليز كالهولنديين لا همّ لهم إلا ابتزاز الأموال، وملء السفن بالأسلاب، ومهاجمة

السفن التجارية، أو القوافل البحرية في الممرات الإجبارية، وتجريدها مما غلا ثمنه وخف حمله، والعودة بالأسلاب إلى إنكلترا. وهكذا انتهت صفات المعارك البحرية الكبرى التي حدثت عام (١٥٨٨)، وغدت كلها قرصنة ولصوصية حيث غدا الإسبان أمام خصومهم ضعفاء بذكرى هزائمهم المتكررة، وحسب الإنكليز أن سر نصرهم هو في متابعتهم لعمليات الهجوم، إذ لا وقت للتفكير والمناورة.. حتى كانت كبرى معارك ذلك العصر معركة الدون Dunes عام (١٦٣٩) والتي مجدت اسم مارتان ترومب.

الحروب الأولى بين الإنكليز والهولنديين

تغيرت الظروف لما وجدت إنكلترا نفسها وجهاً لوجه أمام هولندا (الأقاليم المتحدة). فمعركة دفر عام (١٦٥٢) أظهرت أن النصر لا بد من أن ينتزع بقوة السلاح، خصوصاً وسيادة البحار مطلب كلا الطرفين المتحاربين.. فتوالت المعارك والاشتباكات خلال الأشهر التي تلت.. فالنواب الإنكليز الذين كان عليهم إدارة العمليات ودوماً بالنهج الكلاسيكي القديم انصرفوا عن هذه المهمة، واندفعوا وراء شهواتهم في جمع المكاسب والثروات، وصار هدفهم الأساسي سفن العدو وقوافله. فأرسلوا بلاك إلى بحر الشمال، وايسكو إلى بحر المانش، يلاحقان سفن الصيد الهولندية، أو يقطعون طريق قوافل الهند.

أقض الإنكليز مضاجع الهولنديين، وحصل اشتباك كبير في ٢٦ آب بين الأميرال رويتر الهولندي وايسكو الإنكليزي، كان النصر فيه حليف الهولنديين. لكنهم لم يستغلوه الاستغلال اللازم، وتركوا السفن الإنكليزية المنكسرة تنسحب إلى شواطىء الجزر البريطانية. ودان لهم بحر المانش ومضيق كاليه. وبدلاً من أن يستغل الهولنديون النصر بضرب تجمعات السفن الإنكليزية وأحواض بناء السفن، اختاروا ملاحقة بلاك في بحر الشمال لمنعه من الاسترسال في عمليات القرصنة التي كان يجيدها على السفن التجارية الهولندية هناك.. وبالفعل اتجهت قوة بحرية هولندية فوصلت حتى دوغر بانك واوركاد، لكن شدة العواصف شتّت المجموعة الهولندية، ومنعتها من المثابرة، فعادت إلى موانئها دون أن تلتقي بقوة بلاك.

ثارت حملة انتقاد ضد الأميرال ترومب، واعتبر غير كفء بالعمل الموكل إليه، فاستبدل بالأميرال ويت(٧٣). ولم يكن هذا الأميرال الجديد أكثر حظاً من ترومب، إذ في ٨ تشرين الأول، وفي كانتيش كنوك، تخلى عنه الكثيرون من قادة سفنه لأنهم أورانجيست(٧٤) كترومب، فعاد بما تبقى معه من القادة، ودخل نهر الموز ورسا في فتحة النهر..

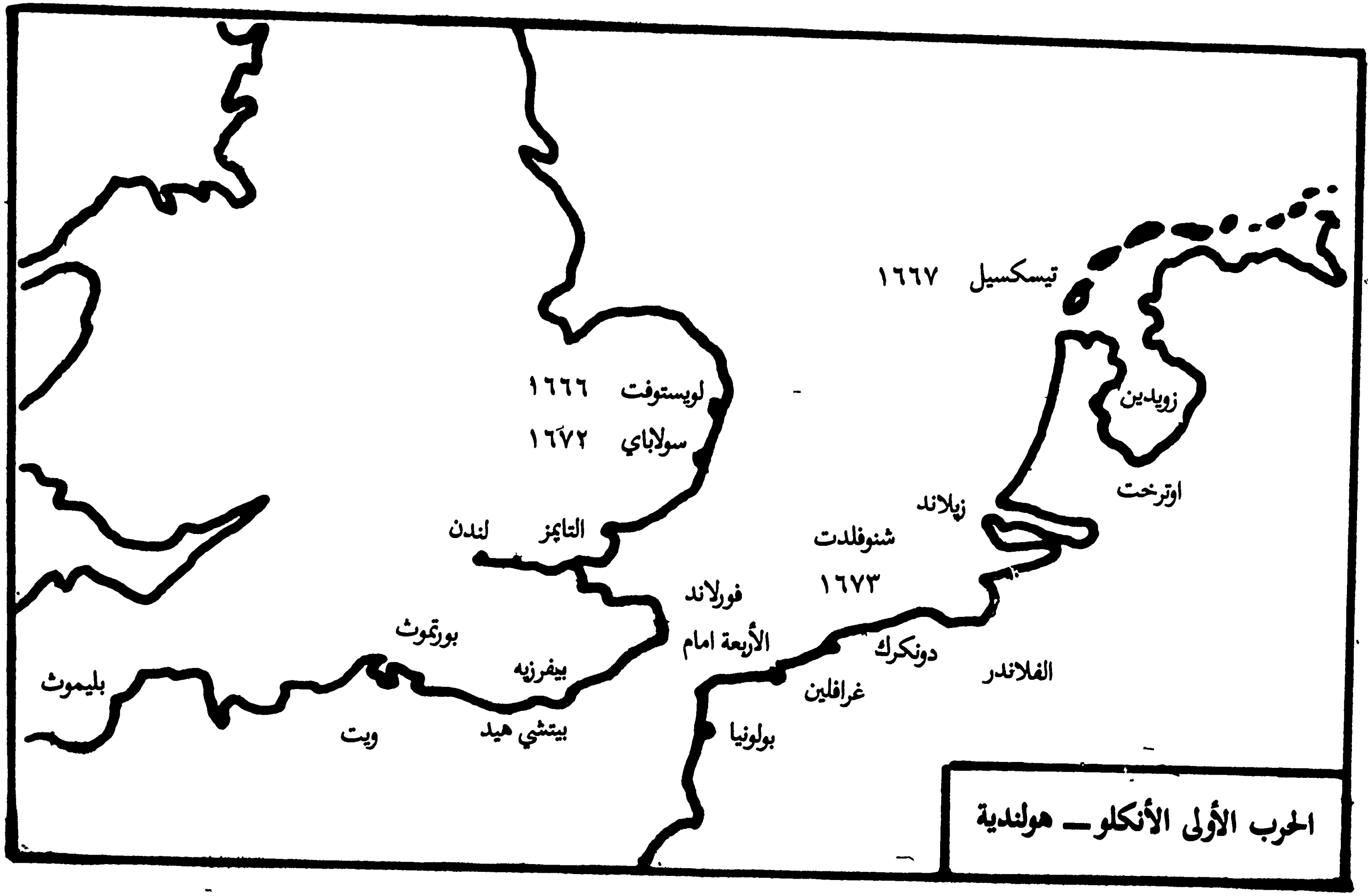

الحرب الأولى الأنكلو ــ هولندية

واعتقد الإنكليز على أثر انسحاب ويت أن الظروف أصبحت مواتية لهم، فأخذوا يبعثون بالتشكيلات البحرية لاعتراض القوافل الهولندية ثانية .. وفي هذه الأثناء أعيد ترومب من جديد على رأس الأساطيل الهولندية، واختير بعد عصيان الكثيرين من قادة السفن، ورفضهم العمل تحت إمرة الأميرال ويت ..

خرج ترومب على رأس قوة بحرية عندما علم أن بلاك في المنطقة على رأس (٣٧) سفينة حربية، يعاود عمليات القرصنة على قوافل الهولنديين. وفي ١٠ كانون الأول التقى ببلاك وأسطوله قرب دونجينيس. وحدثت معركة حاسمة كان النصر كعادته حليف ترومب. وأغرق لبلاك عدة سفن، وأجبر باقي تشكيله على الفرار والدخول إلى فتحة نهر التايمز. وبانتصار ترومب عادت سيادة الهولنديين على بحري الشمال والمانش من جديد. وأخذ ترومب يجول المنطقة ويزهو بأسطوله أمام الساحل الإنكليزي. ومن على سفينته الأنيقة سفينة القيادة يراقب الأفق البعيد، وقد رفع مكنسة على سارية، وكانت شعار تشكيله آنذاك.

لم يرق للإنكليز هذا النصر الهولندي، فأعدوا حملة الأخذ بالثأر مبتدئين في بناء سفن جديدة، وصل عددها عام (١٦٥٣) إلى (١٥٤) سفينة منها اثنتا عشرة بارجة تحمل ما يزيد عن (٥٠) مدفعاً، بينما بقي أسطول الهولنديين على حاله يفتقر للرجال الأكفاء، بعد أن صدرت تعليمات لاهاي بتكليفه بمهمات ثانوية في مواكبة القوافل والسفن التجارية، وحرّمت عليه الاشتباك بالقوات الإنكليزية إلا من خلال المهمات المحددة.

أقلع ترومب في شباط بمهمة حماية وصول قافلة تتألف من (١٥٠) شراعية قادمة من الهند والمتوسط، وقاصدة مدخل نهر الموز. وفي أثناء المواكبة، اعترضه بلاك ومونك وديين في عرض ميناء بورتلاند، وكان ذلك في ٢٨ شباط. وانسحبت بضع سفن هولندية من المعركة، وكان قادتها ممن يكرهون ترومب. وبقي ترومب ومن معه يقاتل التشكيلات الإنكليزية قتالاً شرساً. وكاد يقضي على سفن بلاك خلال ثلاثة أيام مجيدة من تاريخ هولندا، مليئة بالمعارك الضارية، ولما شعر الأميرال الهولندي بتفوق عدوه العددي انسحب بمناورة رائعة ودخل خلجان سواحل الفلاندر. وخسر في هذه المعارك الطويلة تسع سفن من أسطوله، وثلاثين شراعية تجارية من القافلة. أما خسارة الجانب الإنكليزي الحربية فكانت تفوق خسارة الهولنديين بكثير، حيث دمر لبلاك معظم سفنه القتالية.

أصبحت سلامة القوافل التجارية الهولندية عرضة للهجمات الإنكليزية فكلف ترومب

بتأمين سلامتها مهما كانت الصعاب. قام ترومب بواجبه خير قيام. فخلال ثلاثة أشهر متعاقبة قدم بما لديه من سفن القتال الحماية الكاملة لكل السفن التجارية، وواكب القوافل أحياناً حتى شمال ايكوسيا.

تابع الإنكليز استعداداتهم ولما أصبحوا بالقوة الكافية خرجوا إلى البحر من جديد، يسعون لقتال الهولنديين. وتم لهم ذلك في معركة حاسمة حدثت في ١٢ حزيران. ووقعت الواقعة الكبرى بين أسطول ترومب وأسطولي كل من مونك (٧٥) وديـن (٧٦).. في مسرح قريب من نورث فورلاند ونيوبورت. وأطلق على هذه الموقعة اسم معركة أوتر غالبارد Outer Galbard. واستمر الاشتباك نهاراً كاملاً، قاتل خلاله ترومب وقادته بشجاعة وضراوة، متخذين مواقع استراتيجية هامة. وفي المساء وصل بلاك بتشكيله فأخل بتوازن قوى المتحاربين، وانسحب الخصمان ليلاً ليعاودا القتال في اليوم التالي. وكان يوماً مشهوداً على الهولنديين إذ كانوا يقاتلون بنسبة ١ إلى ٢، وفقدوا أكثر من (١٥) سفينة. ويقال هنا إن الأميرال ويت وقف صائحاً في اجتماع للحكومة يقول:

«لماذا أسكت؟ والإنكليز أسيادنا وأسياد البحر»؟

وكتب ترومب في مذكراته يلوم حكومته لتقصيرها، وعدم بنائها سفناً كبيرة مكافئة للسفن الإنكليزية الحديثة إذ قال:

«دون دعم سفن حربية كبيرة لا أمل لنا».

طرد الهولنديون من بحري الشمال والمانش إثر تلك المعركة الحاسمة، والتي كان النصر فيها حليف الإنكليز. وراح الهولنديون يلجؤون بسفنهم إلى الموانىء. وفي شهر آب جاء الأميرال ترومب ليساند ويت، ويرفع الحصار عنه قرب سواحل شيفيننغ Scheveningue. والتحم بمعركة ضارية لم يعرف لها مثيل في تاريخ الحروب البحرية القديمة. وقاتل ترومب وقادة سفنه قتالاً مراً، بمعركة غير متكافئة، حتى سقط قتيلاً، وكانت آخر معاركه البحرية. وانتهى مجد ترومب، وأسر مساعده ايفرتزن، وتشتت باقي سفنه، وتقهقرت ودخلت نهر الموز فردياً. وكانت الخسارة الهولندية في تلك المعركة (٢٥) سفينة، وعدة آلاف من الرجال.

لم تستسلم الأقاليم المتحدة، ولم تخنع لتهديد الإنكليز لسواحلها إثر معركة شيفيننغ. فقواتها البرية بكامل استعدادها، وبحريتها لا زالت تستطيع التصرف، وهي نشطة في كل أنحاء العالم، خصوصاً في البحر الأبيض المتوسط، حيث كان الأميرال فان غهنت قد حجّم الأميرال الإنكليزي

باديلي، وجعله عاجزاً عن الظهور في البحر. فلجأ إلى بعض الموانىء واختفى العلم الإنكليزي في ذلك البحر، وكذلك الحال بالنسبة لبحر البلطيق. وعلى أثر المعارك الطويلة ارتفعت أسعار الحاجيات في إنكلترا، وبدأ التذمر، حتى وصل صفوف رجال الجيش.. وكان الشعب يطالب بوقف القتال لارتفاع نفقاته.

أما في الجانب الهولندي فكانت الخسائر كبيرة، وحالة الحرب لا يحبها الشعب الهولندي، لما عرف عنه من ميول تجارية اقتصادية، فكانت أيام القتال تجثم على قلوب المواطنين، ينتظرون نهايتها ليعودوا إلى مقاولاتهم المالية وصفقاتهم التجارية. ومما زاد الأمر سوءاً، عودة القراصنة الإنكليز لممارساتهم السابقة في غياب أسطول هولندا الحربي المنشغل بمقاتلة الإنكليز. ولقد تفاقم أمر هؤلاء القراصنة حتى بسطوا نفوذهم في كل مكان، يهاجمون السفن التجارية المعزولة، التي لا تحميها المراكب الحربية. ويقال إنه خلال عامين من الزمن تمت (١٧٠٠) عملية قرصنة، قُدِّرت خسائرها بـ (٦) ملايين جنيه استرليني. فعمت هولندا أزمة اقتصادية حادة إثر تلك الخسائر الفادحة، تبعتها وتفرعت عنها أزمات أخرى عديدة، جعلت أمور البلاد تتفاقم. وتوافق ذلك مع سيطرة كرمويل[٧٧] الجبار سيداً على إنكلترا عام (١٦٥٣). وطلب آنذاك من الهولنديين مستغلاً فرصة ضعفهم ومشاغلهم بعض التنازلات لصالح إنكلترا، وتم بالفعل توقيع اتفاقية ويستمنستر في ١٥ نيسان (١٦٥٤) وفيها تعهد الهولنديون باحترام كامل حقوق خصومهم الإنكليز، وقبول تطبيق قانون الملاحة، وضمان السلام الكامل للعلم الإنكليزي في جميع البحار وتقديم التعويضات والتعهدّ بإبعاد أسرة أورانج عن الحكم. وهذا يعني بتر هولندا عن كل ما يربطها بأسرة ستيوارت العائلة الملكية المبعدة عن الحكم في إنكلترا، ثم ضمان حرية تجارة الإنكليز بالهند. لكن الاتفاقية لم تتعرض لموضوع إقامة اتحاد بين البلدين، ولا بحثت أمور تخفيض التسلح، ولا حتى حرية الصعود وتفتيش السفن الخ..

وصلت إنكلترا إلى الأوج بمكاسبها في عام (١٦٥٣). ويرجع الفضل إلى تنظيمها العسكري، وحسن أداء أسطولها البحري، وإحكام قبضة كروميل الحازمة، فسادت البحار المحيطة ولمدة طويلة، في حين نجد التدهور يستمر في هولندا، وينكمش أسطولها البحري، وينخفض عدداً وعدة.

اعتمدت خطط القتال خلال المعارك الأنكلو ــ هولندية الأساليب التقليدية.. وكان همّ قادة السفن الالتفاف حول قائد تشكيلهم، يحملون معه إن حمل، ويقاتلون إلى جانبه إن قاتل. فإن

انهار القائد انتهت المعركة . وإذا كان الإنكليز قد انتزعوا النصر ، ودفعوا بالهولنديين إلى سواحلهم ، فقد حصل ذلك بصورة عفوية ، ودون تصميم مسبق . وتم لهم ذلك إثر مهاجمتهم السفن التجارية ، فتصدت لهم القوات البحرية الهولندية المكلفة بحماية القوافل التجارية ، وبدأت بمناوشتهم فقتالهم ، واستمر التصعيد ، ولعبت الدوافع السياسية دورها ، ففرضت تدمير قوات الخصم البحرية . ونتيجة لهذا التصعيد المستمر ظهرت نظريات جديدة في القتال البحري ، مارستها الأساطيل المتقاتلة فعلاً ، وقبل أن تصل إلى المعاهد العسكرية وتدرس علماً ..

ما بين الحربين الأنكلو ــ هولنديين

انتصر الإنكليز على الهولنديين وفرحوا بذلك حتى الغرور ، وقرروا استغلال قوتهم ، وبدافع من غرورهم للسيطرة على البحار ، متمثلين بقول كرومويل الشهير :

« سأجعل اسم إنكلترا كبيراً كبر اسم الإمبراطورية الرومانية » .

وبالفعل بدأت الخطوات العملية لتحقيق السيطرة ، إذ أرسِلَ أسطولاً كبيراً يقوده الأميرال بلاك إلى سواحل البرتغال ، ليفرض الخوة ، ويطلب من مليكها الخضوع للشروط الإنكليزية تكفيراً منه عن الموقف الودي إلى جانب أعداء إنكلترا في الأيام العصيبة التي أصابت السلالة المالكة الإنكليزية . ثم أُرسِلَ أسطول آخر ليقنع بلدان البحر المتوسط وجنوب أوربة بالتزام احترام الدولة البروتستانتية الكبرى إنكلترا . وكانت طريقة إقناع هذا الأسطول فعالة ، إذ سارعت كل من فرنسا وإسبانيا تخطيان ود هذه الدولة الناشئة القوية . ومن وسائل الإقناع الإنكليزية معركة بحرية أمام قادس ، ومعركة أخرى أمام تينيريف (١٦٥٧) . وانتزع الإنكليز في تلك المعركتين نصراً جديداً ضموه إلى انتصاراتهم السابقة ، وأصابوا في طرق إقناعهم هذه ما سعوا إليه ، ووقعت على إثر ذلك معاهدات سلام حصلت فيها إنكلترا على دونكرك من فرنسا ، وعلى جزيرة الجامايك من إسبانيا .

عودة الملكية

عمل كبير تعتز به إنكلترا ، تم على يد القائد البحري مونك « وسلاح البحرية البريطاني ملكي دوماً » ، إذ أعاد الأميرال الإنكليزي مجد أسرة ستيوارت الملكية ، وبأسلوب جديد أكسبهم من خلاله ود الشعب وثقته . فجاؤوا بروح ديمقراطية متسامحة وشاركوا كل فئات الشعب هذه الروح المتواضعة رغم صداقتهم القوية للويس الرابع عشر ملك فرنسا فإنهم لم يتخلوا عن مبادئهم الديمقراطية الحقيقية .

ومن مكاسب التصاهر حصلت إنكلترا على طنجة مفتاح سيادة المتوسط وميناء بومباي الشهير على ساحل مالابار في الهند وجاء ذلك نتيجة زواج الملك شارل الثاني من كاترين البرتغالية.

يعتبر الملك شارل الثاني(٧٨) راعياً كبيراً لسلاح البحرية البريطاني. ولكي يرفع من شأن هذا السلاح عين شقيقه دوق يورك(٧٩) (حكم إنكلترا تحت اسم الملك جاك الثاني) وزيراً أولاً، وقائداً للقوات البحرية البريطانية. وتبعاً للقانون العام المتعلق بقواعد الحرب **Articles of War** حصل على صلاحيات واسعة فقام يضع أنظمة هذا السلاح الفني، ويأمر المختصين بوضع قواعد المناورة، وأصول القتال، وصدرت في زمنه تعليمات القتال **Fighting Instructions**، ومرسوم الدفاع البحري **Naval Defence Act** عام (١٦٧٦)، وزاد من تعداد سفن الأسطول حتى بلغت (١٧٣) سفينة، يخدمها (٤٢٫٠٠٠) وحمولاتها (١٠١٫٩٠٠) طنة (١٦٨٨). ثم أقام مركزاً لتأهيل المرشحين البحريين لصفوف الضباط، ثم مدارس ضباط الاحتياط الدائمة (١٦٧٣)، بحيث تعبأ فرق بحرية ثابتة ودائمة، لها هيئة أركان حرب بحرية متخصصة. وغدت إنكلترا بإصلاحات دوق يورك الدولة البحرية الأولى في العالم، وسار على خطاها فيما بعد باقي الدول الأخرى.

ظلت إنكلترا تشعر برغم هذا المجد البحري أنها ليست البلد التجاري الأول. ومع أن قانون الملاحة حمل لها العديد من الميزات إلا أنها لم تصل بعد للطموحات الكبرى التي كانت تصبو إليها، إذ لا زالت دولة ضعيفة في بحر البلطيق والبحر الأبيض المتوسط، ولا زالت هولندا تفوقها تجارياً، وتزداد ثروتها، برغم الإخفاق الحربي الكبير الذي أصابها.. يقول مونك:

«ما يلزمنا هو جزء من التجارة العالمية التي يسيطر عليها الهولنديون».

لم يخف الخطر الإنكليزي عن رجال حكم هولندا. وبرغم أن من صفاتهم كره الروح العسكرية القتالية المنتشرة في البلاد، إلا أنهم لمسوا أطماع الإنكليز المتزايدة، وشهواتهم المتصاعدة في السيطرة والكسب، فخرج من بين صفوف المسؤولين بحار أصيل كان مثال المواطن الشهم الذي يغار على أمجاد بلاده التي يسعى الإنكليز لإضاعتها، فلعب دوراً هاماً في تاريخ هولندا المعاصر، وقاتل الإنكليز بضراوة وعنف، حتى أرهب بحريتهم لمدة طويلة. هذا الرجل هو الأميرال رويتر.

بزغ نجم هذا البحار الأصيل وراح يحرق الخطوات في سبيل إعادة مجد هولندا البحري، وبدأ بالتخلص من القوانين الهولندية المستكينة، وجابه خصومه بقوة وعنف، حتى استطاع إقرار بناء القوة البحرية الحربية التي تماثل في عددها وعدتها قوة إنكلترا. ثم أقام هيئة أركان حرب بحرية انتقى لها

خيرة القادة، وانتقى بنفسه الفرق البحرية المختارة من الرجال الأشاوس، فطقم بها عدة سفن حربية أقلعت برحلات بحرية، هدفها صقل صفات المبحرين من ضباط وجنود. وخلال تلك الفترة التدريبية العملية تخلّص هؤلاء الرجال من روح الفوضى التي سادتهم سابقاً، وأودت بمجد هولندا البحري. وخلال شهور قليلة استعاد الهولنديون الثقة بسلاحهم، وخرجوا على العالم قوة بحرية فتية تتسلح بالانضباط والمعرفة.

خاضت هذه القوة (١٦٥٨ــ ١٦٥٩) حروباً بحرية مظفرة ضد بحرية السويد القوية. وعندما بدأت تصرفات الإنكليز تزيد عن حدها وتصل حتى التطاول على المستعمرات الهولندية، فتحتل نيويورك (١٦٦٤)، وتدمر الوكالة التجارية الهولندية في غينيا، لم يستطع قادة هولندا التردد في قتال الإنكليز وأوعزوا إلى رويتر بالإبحار إلى السواحل الغينية لإعادة احترام حقوق هولندا فيها.

الحروب الأنكلوــ هولندية الثانية

لم يصدق الإنكليز هذا التحول الكبير الذي طرأ على أسطول هولندا، لما سمعوا استعادة رويتر حربياً للأراضي الهولندية في غينيا، وأصيبوا بدهشة عظيمة، ثم انقلبت هذه الدهشة إلى غضب عارم، وقرر شارل الثاني ملك إنكلترا آنذاك تأديبهم.. فأصدر بياناً سمح فيه لكل العناصر الإنكليزية المبحرة بإيقاف السفن الهولندية، ومصادرة بضائعها أينما وجدت، وإيقاف السفن الأخرى التي تحمل بضائع هولندية، مهما كانت جنسية المركب الناقل، ومصادرة بضائع الهولنديين.. وكان ذلك إيذاناً بإعلان بدء العمليات الحربية بين البلدين منذ كانون الثاني عام (١٦٦٥).

صوت البرلمان الإنكليزي بحماسة لإقرار منح اعتمادات إضافية لدوق يورك لتعمير أسطول ضخم، وتم بالفعل إعداد ذلك الأسطول حيث اشتمل على (١٠٩) سفن حربية كبيرة، و (٢١) حرّاقة، و (٧) غليونة عليها جميعها (٤١٩٢) مدفعاً ويطقمها (٢١) ألف بحار مقاتل.

بالجهة المقابلة أُسنِدَتْ إلى ايسناير دوبدام بطل جزائر السوند السيد الجليل، والقائد في سلاح الخيالة قيادة الأساطيل الهولندية، وتتضمن (١٠٣) سفن حربية كبيرة (١١) حرّاقة (١٢) غليونة وعليها (٤٠٦٠) مدفعاً، ويطقمها (٢١٫٦٠٠) بحار ومقاتل.

خشي القائد الهولندي الجديد قلة كفاءة رجاله فحرص على تأخير المعركة الحاسمة، لزيادة تأهيل الطواقم. لكن ويت خالفه في الرأي، إذ كان يعتقد أن السلام سيفرض على الإنكليز بقوة السلاح فقط، لذلك يجب مقاتلتهم وإنزال الهزيمة بهم. وعليه فقد أصدر أوامره القطعية لأوبدام، يطلب إليه السير للقاء الإنكليز، وحتى في عقر دارهم. وطلب إليه محاولة قطع الاتصال البحري بين نيوكاسل ولندن.

وفي ١٣ حزيران حصل الصدام، ووقعت ملحمة كبيرة قرب لوفيستوفت على ساحل سوفولك، حيث تقدم الأسطولان بأرتال متوازية (وليس كالسابق بمجموعات متفرقة من السفن) وقد بدا على الهولنديين قلة خبرتهم لهذا النوع الجديد من تكتيك القتال، واحترزوا من الحرّاقات الإنكليزية، فسمحوا بذلك لبعض الفوضى في تشكيلاتهم. ولما فقد أوبدام الأمل في إعادة النظام الكامل حاول الالتحام مع الأميرال الإنكليزي ليعدل من الموقف العام، فقتل وقتل معه معاونه كورتناير، فازدادت الفوضى في صفوف المرؤوسين من قادة السفن الهولنديين، وفروا من المعركة إفرادياً يقصدون مرافىء بلادهم. وتخاذل الإنكليز فلم يطاردوهم، ولم يستغلوا النصر في المعركة. وهذا التردد جنَّب الأسطول الهولندي كارثة محققة.

عقد جان دو ويت المجلس الحربي الهولندي، واتخذ قراراً حازماً وفريداً بإعادة ترومب كورنيلي الأورانجي على رأس الأساطيل الهولندية. وحضر بنفسه عملية التسليم، وزار الأسطول ليتأكد من ردة فعل العسكريين الذين انتقدوا ترومب الأب سابقاً، لأنه برجوازي معقد يعتقد بأن أصالته وشجاعته ستضفي على الرجال القوة وتمدهم بالشجاعة.

وبالفعل جاء ترومب وأعاد النظام والانضباط، وخرج يقارع الإنكليز، حتى تخلوا عن حصارهم لسواحل وممرات هولندا البحرية. وبذلك مرت القوافل التجارية العديدة بسلام إلى الموانىء التي تقصدها، حتى إن ترومب ذهب بعيداً وأقام في مدخل نهر التايمز يقيد حرية ملاحة السفن الإنكليزية.

في العام التالي انتقل الهولنديون إلى الهجوم، وليحقق الملك لويس الرابع عشر [٨٠] الفرنسي وعداً قديماً اقتطعه على نفسه، ترك المعارك تتصاعد بين الخصمين العنيدين، ليستهلكا قدراتهما البحرية. ولما بدا له أن الفرصة مناسبة على حربه على إنكلترا وهي منهكة، وسرت إشاعة تقول بوصول تشكيل بحري كبير بقيادة دوق بوفور [٨١]، وحتى يقطع الطريق على هذا التشكيل (في الحقيقة كان التشكيل

الفرنسي حتى ٢٨ تموز لا يزال في ليشبونة) أرسل الملك شارل الثاني (وكانت خطيئة جسيمة) نحو الغرب جزءاً مهماً من أسطوله بإمرة الأمير بالاتان روبرت.

جاءت نتائج هذا التصرف لغير صالح الأميرال مونك قائد القوات البحرية الإنكليزية المدافعة، إذ بقي يجابه كل أساطيل هولندا مجتمعة، وقوته البحرية انخفضت إلى الثلث (٦٠) سفينة. ومع ذلك تمسك هذا القائد الشجاع والجنرال السابق في الجيش الجمهوري ودوق البيرمال باعتقاده الدائم:

«أمة تنتمي لأم البحر عليها أن تدافع باتخاذ أسلوب الهجوم».

انقض الأميرال مونك على أسطول الهولنديين بمجرد ظهوره في الأفق يوم ١١ حزيران، قرب مضيق كاليه. وجاءت مناورته محكمة، إذ استغل فرصة وجود قسم من الأسطول الهولندي بعيداً موزعاً تحت الريح، وبموقع لا يتيح له أخذ قسط في المعركة، ولكي لا يرهق الأميرال مونك سفن مقدمة الرتل وحدها أمر تشكيله باتخاذ مواقع التقدم على نسق، لكن التنفيذ تم ببطء، وجاء منتشراً فلم تستطع مدافع السفن الاشتباك بكامل طاقاتها.. وهذا ما أعطى الخصم الهولندي رويتر الموقف اللازم لتجميع قواه، ومواجهة هجوم مونك بمعركة بالمدافع حامية الوطيس أودت بالكثير من سفن إنكلترا.

تلاشى القتال مع هبوط الظلام، وانسحب الخصمان ليعاودا القتال مع ضياء الفجر في اليوم التالي، وبضراوة أكبر كادت تودي بكل قوى مونك، لولا خطيئة كورتيل ترومب الهولندي، أحد قادة التشكيلات وابن الأميرال ترومب، إذ ترك موقعه الجيد وجاء فاتخذ مكانه تحت ريح سفن الإنكليز في مكان خطر، يتعرض لنيران مدفعية الطرفين المتنازعين. وهذا ما أحرج رويتر فاضطر لإيقاف النار ليسمح لمجموعة ترومب بالانسحاب وتعديل موقعه. وكان هذا التوقف لصالح الإنكليز وضحى رويتر بنصر ساحق كان سيحرزه خوفاً على مجموعة ترومب، وتقدم يحمي مجنبة تشكيلة ترومب ليخرجها من الورطة التكتيكية التي وقعت فيها.

في ١٣ منه بقي لمونك (٣٥) سفينة، ومع ذلك تمسك بعناده وقرر الاتجاه غرباً لتعقب الأسطول الهولندي المنسحب. واستمرت المطاردة مصحوبة بتبادل مدفعي طيلة النهار، غرق على أثرها عدة سفن إنكليزية نتيجة الخلل في توازن قوى الطرفين، وفي المساء ظهر روبيرت الإنكليزي قائد التشكيل الذي سار غرباً للقاء القوة الفرنسية..

تقدم روبيرت نحو مونك يسانده بالنار والحركة، ودخل المعركة بكامل طاقات سفنه التي بقيت محتفظة بكامل قوتها ونشاطها. وبتدخله اعتدل ميزان القوى من جديد، وعادت المعركة تحتدم بعنف، خلال يوم ١٤ منه. ووصفت تلك المعركة بالقسوة والرهبة، وكان النصر فيها حليف الهولنديين. وانسحبت بقايا سفن إنكلترا، تحت ستارة من الضباب، لتدخل ميناء بورتموث.

أضاع الإنكليز في معارك الأيام الأربعة (٢٠) سفينة و (٦) آلاف مقاتل. وكان بإمكان الهولنديين القضاء عليهم وإبادتهم. وهذا ما جعل رويتر يقول وهو يتألم:

«لا مكان للفرح والسرور. علينا أن نبكي النتيجة التي حققناها، والتي كان بالإمكان استبدالها بنصر كامل على البحرية الإنكليزية».

فرح ويت بالنتيجة، واستسلم لتوسلات الجمهوريين الإنكليز اللاجئين في هولندا، ليحقق لهم عملية إنزال على الأراضي الإنكليزية.

وصل إلى أسماع الملك شارل الثاني ملك إنكلترا ما يدبر لملكه على البر الهولندي، فسارع في عقد اجتماع طارىء لوزارته، ليتدارس الموقف. وخلص لوضع خطة مواجهة للموقف الجديد، تضمنت بناء أسطول قوي يستطيع الوقوف أمام أسطول هولندا المنتصر.. وبالفعل ما إن أتم الأسطول الهولندي إصلاحاته الضرورية، بعد معارك الأربعة الأيام (تأخرت هذه الإصلاحات بعض الشيء) وخرج إلى بحر الشمال حتى وجد أمامه قوة بحرية إنكليزية فتية، لم تعرف إنكلترا أقوى منها إعداداً وتجهيزاً، وبنيت خصوصاً وكلها عزم وتصميم على الثأر، لهزيمة معارك الأربعة الأيام الشهيرة.

وفي ٤ آب وعلى بعد ثمانية فراسخ بحرية من رأس نورث فورلاند وقعت واقعة الفانفيلت، وأطلق على هذه المعركة اسم يوم سان جيمس، وكان الحظ فيها نصيب الإنكليز، ويرجع ذلك إلى سببين هامين:

١ ــ قلة تماسك الهولنديين في القتال.

٢. ــ عدم انصياعهم لأوامر القادة، حيث ثارت طواقم عدة سفن بكاملها ورفضت الاشتراك بالقتال.

غضب الأميرال ترومب وهاج، وباندفاع غضبه خرج عن التشكيل، ولاحق مجموعة سفن إنكليزية يصب حمم مدافعه عليها. وبذلك ترك كامل الثقل يقع على تشكيل رويتر الذي صمد في المعركة بعزة وإباء، وقاتل طيلة النهار عدواً فاقه عدة وعدداً، وقام بأعمال مجيدة، ومع هبوط الظلام

انسحب بسفنه المتعبة والتجأ إلى سواحل بلاده فتعقبه الإنكليز بالنظر فقط، ولم يتجاسروا على الاقتراب منه، وراقبوه عن بعد حتى وصل إلى ويستكابل فعادوا أدراجهم.

كانت خسارة الهولنديين (١٢) سفينة و (٤) آلاف مقاتل، ولم تقل خسارة الإنكليز كثيراً عن خسارة الهولنديين، إلا أن تفوق إعداد السفن الإنكليزية في المنطقة أعاد لهم السيادة على بحر المانش والشمال ثانية، لكنهم لم يستغلوا هذا التفوق، واكتفوا بعمليات تدمير محدودة، أو إغارات على السفن التجارية الهولندية المنفردة.

اعتمد الملك الإنكليزي على المفاوضات التي بدأت في بريدا لإعادة السلام بين البلدين المتحاربين. وكان يشك في إمكانية تصديق البرلمان البريطاني اعتمادات مالية جديدة، طلبها لصالح الأسطول، خصوصاً والنواب الإنكليز كانوا غاضبين من سوء استخدام وتبذير الأموال التي اعتمدوها في العام السابق. ووجد الملك أنه من الأفضل عدم إعادة التسليح الكثيف، والاكتفاء بالموجود، مع إجراء بعض التحصينات الإضافية للمواقع الأمامية في البلاد. وكان قراره يتلخص بعدم زج قوات بحرية كبيرة ضد القوافل التجارية الهولندية، أو ضد المستعمرات. ويكتفي بعمليات بسيطة محدودة، متوقعاً إقرار السلام، نظراً لما عرف عن الشعب الهولندي من كرهه للحروب، وحبه العميق للتجارة وجمع الثروات في أجواء الرفاه والسعادة.

إن هذا الاسترخاء الإنكليزي بعد الحروب الأنكلو هولندية الثانية استغله الرجل الحاكم في هولندا «ويت» آنذاك استغلالاً فعالاً، برغم الاحتجاجات الآتية من الأقاليم الداخلية، ومن زيلندة، والشكوى من التضحيات الكبيرة التي قدموها خلال حروبهم الطويلة، وبرغم المبالغ الطائلة التي تبرعوا بها.

أقر ويت لرويتر بناء (٦٤) سفينة قتال حديثة. ولما جهزت هذه السفن أقلع رويتر بها وفاجأ الإنكليز في مصب نهر التايمز، وحاصرهم في ٧ حزيران (١٦٦٧)، وهم في غفلة من أمرهم. وفي ٩ حزيران تقدم تشكيل بري هولندي حتى غريفساند، فحدث هرج ومرج في المنطقة، واضطراب في لندن، ولم يجد قادة البحر الإنكليز بحارة أو جنوداً يطقمون بهم سفنهم، ولا أموالاً لتعبئة قوة مقاومة للهجوم الهولندي المباغت.

واصل الهولنديون تقدمهم يرافقهم الإنكليز الجمهوريون اللاجئون من ١٩ إلى ٢٣ حزيران، فاستولوا على شيرنس دون مقاومة تذكر، ثم احتلوا ميدواي ورست سفنهم أمام شاتهام، وأحرقوا

وأسروا عدة سفن حربية إنكليزية كانت راسية هناك. وتعد هذه السفن من أجمل قطع الأسطول الإنكليزي.

أعادت السفن الهولندية الكرة ثانية فظهرت بين ١٠ و ١٢ آب في شواطىء إنكلترا، ثم مرة ثالثة بين ١٥ و ١٧ آب. وجاءت النجاحات أقل أهمية مما حدث خلال العملية الأولى، ولكن الحرّاقات الهولندية لعبت دوراً بتلك الإغارات، فأحرقت العديد من سفن الإنكليز حتى بلغت خسائرهم أعداداً كبيرة، بالإضافة للسفن التي غرقت لهم في بحري الشمال والمانش، نتيجة اشتباكات فردية مع تشكيلات هولندا التي تجوب المنطقة.

وهكذا عادت سفن هولندا وتشكيلاتها تجوب البحار، وانتقلت السيادة البحرية في البحار الشمالية إلى الهولنديين، وقبع الإنكليز في موانئهم مستكينين.

ضاق سكان لندن بالمصائب التي توالت عليهم، وبالإضافة إلى إغارات الهولنديين انتشر مرض الطاعون في البلاد، وشبت حرائق عديدة اجتاحت المدينة، وزادت من آلام وعذاب المواطنين، فطالبوا حكامهم بالصلح مع الهولنديين. وبالفعل وقعت معاهدة سلام في بريدا في ٢١ آب (١٦٦٧)، وبشروط مختلفة جداً عما كانوا يطالبون به في بدء العمليات الحربية.

احتفظت إنكلترا بالأراضي المنخفضة الجديدة في أمريكا وبأمستردام الجديدة، والتي صار اسمها نيويورك فيما بعد، لكنهم أخلوا جزر الملوك (اندنوسيا) وغينيا الجديدة، ثم قبلوا بتجاوز بعض فقرات قانونهم الملاحي، وتركوا الهولنديين ينقلون البضائع المنتجة من ألمانيا الغربية عبر نهر الرين إلى موانئهم في إنكلترا.

أتت الحرب الثانية بين هولندا وإنكلترا بجديد لم يؤلف في الحروب الأولى. فبدلاً عن المعارك البحرية العنيفة المركبة (١٦٥٢) نجد تكتيكاً بحرياً جديداً يعتمد حرب أنساق السفن، وقتال التشكيلات. فالأسطول يتحرك بكامله، يقاتل ويناور كأنساق الخيالة المتراصة في المعارك البرية.. ونتائج الاشتباكات غالباً واضحة، نصر أو هزيمة.

أساءت إنكلترا إلى بحريتها إذ ضمت أعداداً ضخمة من أولاد الأسر النبيلة في هيئة أركان حرب البحر، وفي عداد قادة السفن. وكان هؤلاء الفتيان ذوي شجاعة وإقدام لكن تنقصهم الخبرة، فاتصفوا بالعناد وقلة الطاعة. وكانوا عبئاً على الملاحين الخشنين رجال الأيام الغابرة، حيث قال ماكولاي فيه في كتابه «تاريخ إنكلترا» (١٨٦٠):

«هناك بحارة وهناك نبلاء، والبحارة ليسوا نبلاء والنبلاء ليسوا بحارة».

ساد الفساد في إدارة وقيادة سلاح البحرية الإنكليزية لكثرة النبلاء أصحاب الحظوة، فانعكس ذلك على التسلسل العسكري وعلى إدارة العمليات. وكانت التدخلات المتغطرسة تسيء لمجريات المعركة، وتضعف فرص النصر. وهذا ماحدث فعلاً في معركتي لوفيستوفت ونورث فورلاند..

بالنسبة للهولنديين تابع رجال البحر هناك سيرتهم، برغم ظروف البلاد الصعبة والأوضاع الداخلية والنزاعات المذهبية. وكان همّ ويت الأول حماية التجارة الخارجية، وهو تاجر أصيل جاء من بين التجار، وانتخب ممثلاً لهم فأعطى كل ذاته، وكرس كل طاقاته للنواحي الاقتصادية في البلاد، وترك لرجال البحر الأصليين إدارة العمليات البحرية بحرية تامة. وإذا كان قد توصل ويت لصلح سريع في بريدا فلأنه استشم خطراً جديداً يتشكل في جنوب البلاد أشد خطراً على الوطن الهولندي من أطماع الإنكليز، وهذا الخطر هو فرنسا، البلد المجاور الطامع بخيرات وموارد هولندا، والذي بدأ يتحرك ويلتهم الأقاليم منذ مايس (١٦٦٧)، فاحتل الأراضي المنخفضة الإسبانية (لوكمسبورغ وبلجيكا).

تلك كانت الأوضاع العامة بعد الحرب الطويلة.. هذه الحرب التي فرضتها سيادة البحار، وحماية التجارة الخارجية، فانقلبت إلى أعمال قتالية تعقدت ودخلت حيّز النزاعات الدولية.

ظهرت ظروف أخرى جديدة لحروب مختلفة بدأت تتهدد الدولتين المتنازعتين هولندا وإنكلترا، تتمثل بتعاظم سريع في قوى البر والبحر على السواء، وتمتد لتشكل خطراً مباشراً على الدولة الأولى هولندا، وخطراً لاحقاً على الدولة الثانية إنكلترا، تلك هي فرنسا لويس الرابع عشر، التي ألزمت بظهورها التزام عدوي الأمس بخطة دفاع مشتركة تتناصف فيها الأكلاف. وإذا كانت هولندا تحتاج لحماية حدودها المتاخمة للعدو الجديد قبل سيادتها على البحار فإن إنكلترا وبموقعها المحمي نسبياً من كل خطر يأتيها من البر الأوربي تستطيع تكريس كل قواها لغزو المحيطات، وللتسابق في الوصول إلى الحصة الكبرى.

ولقد ظهر لنا جلياً من خلال هذه الحقبة الزمنية ما لأهمية القوى البحرية في رسم مستقبل الأمم ونتائج الثورات التي تمخضت عنها خلال القرن السابع عشر، وولادة قوى بحرية جديدة وحروب بحرية عديدة.

الفصـــل الـرابـع

انتعـاش بحـرية فرنسـا
زمــن هنــري الرابـع وريشيلـو هنـري الرابـع (٨٢) وشرعيـة لويس الثالـث عشـر

بحرية فرنسا في بداية القرن السابع عشر

عندما هدأت الأمور وساد السلام استطاع هنري الرابع التفرغ ليعيد القوة للحكم، وليعزّز سيادة السلالة الملكية على فرنسا البائسة المتهدمة، والتي كانت تمر بأسوأ أزمانها، بعد أن أرهقت في حرب المائة عام. فخزانة المال خاوية، والبلاد مدينة بما يزيد عن (٣٠٠) مليون فرنك ذهبي، وكل ما تمتلكه الدولة لا يغطي نفقات جيشها لأكثر من خمسة عشر يوماً فقط.

وأسوأ أمور فرنسا كان البحر، فهي لا تملك أية سفينة حربية، وحليفتاها التقليديتان هولندا وإنكلترا، لم ترحما ضعفها وكانتا لا تتركان فرصة دون أن تغيرا على سفنها التجارية القليلة، فتزيدا من ضعفها وهْناً، ومن قلتها فقراً. أما بحارة فرنسا وملاحوها فقد رحلوا عن البلاد منذ مدة يعملون في بحريات الدول المجاورة، حتى وصل عدد المهاجرين منهم إلى (١٩) ألف بحار ونوتي في العام (١٦٣٠). فمقاطعة النورماندي التي قدمت وحدها (١٢) ألف بحار مقاتل في معركة الأكلوز سابقاً لم يبق منهم إلا أقل من ألفين فقط يعيشون في فرنسا.

أصيب هنري الرابع بخيبة أمل كبيرة لتردي أوضاع البلاد، وبالذات لأحوال القوى البحرية فيها. وبدأ يفتش عن الأموال الضرورية لإنعاش هذا السلاح. ووضع خطة اقتصادية شحيحة النفقات في البلاد، وخفض تعداد القوات البرية حتى أوصلها إلى ستة ألوية مشاة فقط. كذلك

فعل في سلاح الخيالة، حتى اقتصر على عدة مئات من رؤوس الخيل. وتوصل إلى توفير مبلغ محترم يكفي لبناء ستة سجانات، ليستخدمها في حراسة شواطىء البلاد، وانتعش مشروعه وتحقق بكامله بعد أن قبض بائنة ماري دو ميديسي[٨٣].

تابع الملك رفع أرقام ميزانية سلاح البحرية تدريجياً، وبدأت آثار عمله تظهر جلية في السلاح، إلا أن الموت لم يمهله فقضى قبل أن يحقق حلمه في إيصال فرنسا إلى مصاف الدول البحرية الأخرى.

من مشاريع الملك هنري الرابع في إنعاش القدرة البحرية الفرنسية، والتجارة الخارجية إقامة مفاوضات مع إسبانيا وإنكلترا، أوصلت المفاوضين إلى تصديق اتفاقية التجارة والنقل الحر. وكانت خطوة شجاعة عادت على فرنسا بفوائد جمة.

شجع الملك إقامة الشركات التجارية مجدداً، وسمح بتداول رؤوس الأموال بعد أن اختفت هذه الرساميل طويلاً فأصاب نجاحاً في مدينة سان مالو على ساحل الشمال، وكذلك الأمر بالنسبة لسواحل وموانىء البحر الأبيض المتوسط، في حين ظلت جميع مرافىء المحيط الأطلسي، وبعض موانىء بحر المانش متخلفة. ويعزى ذلك إلى مقاومة البروتونيين لتلك الاتفاقيات. أما الانتعاش الكبير الذي أصاب موانىء المتوسط فيعود فضله إلى سافاري دوبريف[٨٤] Savary De Brèves سفير فرنسا في الآستانة الذي أقام هو ومن أعقبه من السفراء علاقات وطيدة مع الباب العالي العثماني، فأصاب بذلك نجاحاً، وارتقت سمعة فرنسا في الشرق، حيث أصبحت رائدة الدول الأوربية (ماعدا إنكلترا)، والممثلة لهم في جميع العلاقات التجارية التي أقيمت مع الدولة العثمانية وإمبراطوريتها الواسعة آنذاك.

نشطت فئات مرموقة في مرسيليا، وقامت بإصلاحات جمة، منها إعداد الخدمات اللازمة، ووضع أسس أصول التعامل التجاري، وأصول حماية الملاحة، وتعيين قناصل معتمدين في كبرى مدن الشرق، اعتبروا ممثلين لفرنسا والدول الأوربية المتعاملة معها، ومدراء عامين لها، ولصالح التجارة الخارجية.

انتعشت تجارة فرنسا مع الشرق، وفجر هذا الانتعاش ضرورة إقامة قدرة بحرية في المتوسط لحماية النقل البحري فيه، حين كان هذا البحر مسرحاً واسعاً لحروب عديدة لا تنتهي. وشهد اضطرابات بحرية عدة.. أمّا في أيام السلم فكان ينقلب إلى بؤرة للصوصية يعج بالقراصنة، يقضّون

مضاجع مالكي السفن التجارية، ويسلبون وينهبون كل ما تقع أيديهم عليه. وهذا ما أدى إلى ارتفاع رسوم النقل، ورسوم التأمين على البضائع ارتفاعاً كبيراً تجاوز الأربعين بالمائة من أثمان السلع.. واضطربت حركة التجارة، وتردد الناقلون وقادة السفن بقبول عمليات النقل عبر المتوسط.

تجمع القراصنة وقطاع طرق البحر ضمن مؤسسات خاصة بهم، واتخذت طابعاً إدارياً، ووازت مؤسسات الدول الكبيرة سلطة ونفوذاً. وسيّروا تشكيلات قرصنة بحرية تجوب المناطق باحثة عن الصيد. وعندما تلوح لهم سفينة تجارية ينقضون عليها وينهبونها. وإذا ندرت الطرائد هاجموا المدن الساحلية يستولون عليها، وينهبون أهلها، ويفرضون شروطهم بقوة المدفع. وتفاقم أمر هؤلاء القراصنة، وعظمت تجمعاتهم، وكانت أقواها إطلاقاً في ميناء مدينة الجزائر. وقد سُمُّوا بالباربارُوس، ولم يكن الباربارُوس في الحقيقة إلا مخفراً متقدماً للدولة العثمانية فيها حامية وتشكيل بحري قائمان دوماً لحماية أطراف الدولة العثمانية وامتداد نفوذها. إلا أن انشقاقها عن الإمبراطورية العثمانية جعلها قوة قرصنة مستقلة امتلكت السفن والرجال من جميع الجنسيات. وكان همّهم الإغارة والقنص والاستيلاء على البضائع التجارية وبيعها فيما بعد، ثم صعدوا تجارتهم فأخذوا يستولون على الرجال أيضاً، فيبيعونهم أسرى وعبيداً في أسواق الرق البعيدة. وعندما توارت السفن التجارية من البحار قلت موارد القراصنة فراحوا يكثرون من النزول بمجموعات كبيرة على سواحل فرنسا، وإيطاليا وإسبانيا يسبون النساء ويستولون على الأطفال، ويأسرون الرجال ثم يبيعونهم في أسواق النخاسة.

قاوم السلطان العثماني هذا التمرد البحري. وكان يرسل الأوامر المشددة تباعاً لوقف أعمال الغزو والإتجار المشين، دون فائدة. إذ تفنن القراصنة في إيجاد المبررات العسكرية لكل عملية يقومون بها، لتغطية أعمالهم اللا مشروعة.. ويقال إنهم ساقوا بين أعوام (١٦١٠ ــ ١٦٢٤)، (٢٥٠٠) سفينة تجارية فرنسية إلى ميناء الجزائر، وأسروا ثمانية آلاف رجل بيعوا عبيداً. ولم تقتصر أعمال القراصنة على مدينة الجزائر وحدها، بل سرت العدوى إلى أكثر مدن الساحل الإفريقي، بل وصلت حتى سواحل فرنسا نفسها. وعندما عجز الملك عن حماية مالكي وملاحي السفن... بدأت النقمة تتشكل تحت غطاء أفكار الحزب الجمهوري هيغنوت Huguenot ضمن المملكة، وانضمت مدينة بحرية لهذا التجمع الناقم هي لاروشيل، الميناء الذي يضم سبعين سفينة صغيرها أكثرها من القوارب. وفرض المنشقون المتمركزون في المدينة وبوساطة القوارب الذعر على معظم سواحل فرنسا الغربية، ونزل قسم من رجال هذا التجمع الناقم في مدخل نهر اللوار، وقسم آخر في الجيروند،

فنهبوا ودمروا وقتلوا ولم تقوَ القوات الملكية على القضاء عليهم بسرعة، نظراً لانتشارهم في أماكن عديدة من السواحل.

استغرقت عملية القضاء على التجمع المنشق ما يقارب العام الكامل ولم تصل قوات الملك إلى نتيجة حاسمة إلا بعد أن استعانت بأسطول صغير لاحق المنشقين من البحر وقاتلهم في كل مكان. ومن هنا برزت للدولة أهمية امتلاك السفن الحربية، حتى سادت الفكرة جميع عقول رجال الحكم. وكانت هذه الفكرة تتلخص في أن عدو فرنسا الأكبر لن يكون مقدمه عن طريق البر بل هو العدو الذي يملك الأسطول القوي الذي يهدد سواحل وشطئان البلاد. فعندها أمنت فرنسا قوة صغيرة بحرية استطاعت ملاحقة المنشقين وحصارهم بحراً، وأجبرتهم على خوض معركة بحرية (١٦٢٢)، وانتصرت عليهم في موقع اسمه سان مارتان دو ريه Saint-Martin-de-Ré.

بدأ رجال الحكم يطالبون الملك بإنعاش سلاح البحر، إلا أن وزراءه المختصين لم يكونوا على مستوى هذه المسؤولية، وظل الأمر بين أخذ ورد حتى انتخب أرماند دو ريشيليو للمرة الثانية عضواً في مجلس الأعيان، وهو الرجل الذي بنى سلاح البحرية الفرنسية.

أفكار ريشيليو البحرية

سبق ريشيليو(٨٥) الكثيرين في طرحه الآراء السديدة في إحياء القدرة البحرية الفرنسية، إلا أن هذه الآراء بقيت أفكاراً، لم تترجم إلى أفعال إلا بقدوم ريشيليو إلى السلطة. وكان بحق أبا البحرية ومحركها الديناميكي، ولقد ترك بعد مماته أسطولاً بحرياً حربياً حسن الإعداد، اعتبر مفخرة لفرنسا ولريشيليوها الكبير.

لم يبن ريشيليو مجد فرنسا البحري بدافع الغرور، أو بشعور فطري، بل نتيجة دراسة عميقة وبحث علمي، فجاء الأسطول وجاءت المهمات الصعبة التي لا يمكن أن تتحقق إلا بوجوده، وهكذا تكوّنت قوة فرنسا البحرية.

يقول ريشيليو:

«لنرفع اسم الملك عالياً في الآفاق الخارجية، وللمكان الذي يستحقه، وللوصول إلى ذلك الموقع الرفيع لا بد أن نجعل الملك قوياً في البحار كما هو قوي على البر».

«البحر تركة كبرى وهامة، لم يقدرها ملوك فرنسا السابقون حق التقدير، حتى غدت

حقوق الآخرين فيها ضعيفة قليلة الوضوح. وبإقامة السيادة البحرية على البحار يعود للآخرين حقهم.. يجب أن نكون أقوياء في البحر لأنّ لنا حقاً في هذه التركة».

«بدون سلاح بحري، شرف فرنسا ومصالحها في خطر».

«لم تعرف الأمم قط دولة تلقى الإهانة وتبقى غير قادرة على ردّها والأخذ بالثأر».

طبعاً كل ما نادى به ريشيليو من أفكار كانت تنبع عن واقع فرنسا آنذاك فحماية الصيادين، ووقف قرصنة وسلب السفن التجارية، وحماية سواحل ومدن ومداخل أنهر فرنسا، وجزرها، كل ذلك يستدعي إقامة قوة مناسبة، واجبها تغطية كل متطلبات الأمة ومشارفها على البحار. ويقول ريشيليو بهذا الصدد:

«يجب امتلاك قوة في البحر تتناسب وحجم التجارة البحرية بين أطراف المملكة وامتداد سواحلها.. وليست الفوائد التجارية وحدها هي التي تفرض هذا المطلب، بل هناك سلامة الوطن، ومجد الملك وسمعة التاج».

لما كان البحر ممراً لجميع أمم العالم فهو حاجة لفرنسا كما هو حاجة لإسبانيا، فإسبانيا لا تستطيع الاتصال بإيطاليا إلا بمرورها أمام مدافع سواحل فرنسا الجنوبية، أو سفنها الحربية. أما في بحر المانش فكل السفن ومن كل الجنسيات لا بد في عبورها إلى البحر من أن تمر أمام رأس سان ماهيه، أي ضمن مدى مدفعية السواحل الفرنسية.

كانت لفرنسا كل الإمكانات لإقامة أسطول بحري. فالخشب والحديد متوفران في الوطن، والألياف والحبال مصنوعات رائجة تصدرها فرنسا إلى دول العالم، أما النوتيون ورجال البحر فكثيرون يقصدون الدول الأخرى للعمل فيها إشباعاً لرغبتهم في ركوب البحر، وحباً في المغامرة والأسفار. والموانىء الفرنسية تقع على بحار ثلاثة تعطيها مفاتيح الملاحة البحرية في كل الاتجاهات ولمسافات بعيدة.

جمع ريشيليو كل أفكاره وخططه البحرية وقدمها مشروع قانون عام (١٦٢٥) الغاية منه إنعاش القدرة البحرية الفرنسية. واجتمع المجلس وأقر توظيف رأسمال يوضع تحت تصرف الملك يكفي لبناء (٤٥) سفينة حربية كبيرة، مع ما تحتاجه من سفن مساعدة. وكان هذا ما يبغيه ريشيليو، كخطوة أولى على طريق البناء، وتأمين مصالح فرنسا وتجارتها في المتوسط والأطلسي.

إلغاء القيادة السابقة للقوات البحرية

رأس الملك سلاح البحرية وأوقف العمل بنظام التقاسم، وألغى التدخلات الحكومية الخاصة، والتي كان يقوم بها أشخاص مميزون. فبعد تدمير لاروشيل وإبعاد المنشقين عنها، أخمدت حركات الانفصال الاستقلالية المحلية التي كانت تهيمن على البلاد، وخاصة النزاع الروحي بين الطوائف الكاثوليكية والبروتستانتية.

بدأ الملك إصلاح جهاز القيادة بإبعاد الضباط الكبار عن السلاح، والذين لم يكن همهم إلا جمع الثروات وابتزاز الأموال، والسّعي وراء مصالحهم الخاصة فقط.. ثم أوجد منصباً بحرياً كبيراً له صلاحيات أميرال ووزير البحرية بآن واحد، فهو القائد العام والقاضي الأكبر لسلاح البحرية ولمدى الحياة، فاندمجت على أثر ذلك أمارات بحر الأقاليم الفرنسية الأخرى، وتوحدت، ماعدا إمارة إقليم بريتانيا التي أبدت مقاومة لهذا التوحيد، فسمى الملك ريشيليو أميرالاً وحاكماً عليها وأعطاه صلاحيات واسعة لإخضاعها.

بالنسبة لقادة السفن المستقلين والذين كانوا يشكلون عنصر خطر كبير على السلاح لاستقلاليتهم وسعة نفوذهم، أبعدوا الواحد بعد الآخر واستبدلوا بقادة جدد أكفاء شرفاء. وزيادة في إحكام القبضة احتفظ الكردينال ريشيليو تحت إمرته المباشرة بأقوى القلاع البحرية وأهمها، كالهافر وبرواج. وبذلك تم توحيد جميع الأقاليم وجميع الإدارات تحت قيادة واحدة قوية.

أصبح لأميرال فرنسا تسمية جديدة هي السيد الأعلى ناظر الملاحة التجارية. ومنحت كل هذه الألقاب لريشيليو الذي سيطر على البحرية، وأقام منها نفوذه. وبدأ يشغل المناصب الهامة، ويمنحها لمعارفه الخلص، أو لأفراد عائلته الذين هم موضع ثقته، وعمل على استمرارية هذا النفوذ حتى بعد مماته حيث أوصل منصبه إلى ابن عمه الدوق بريزيه، الذي برهن عن جدارة بهذا المنصب.

قبل أن يتفرغ ريشيليو لمشاكل البحر جمع المعلومات عن المغامرين الكبار آنذاك الذين قاموا بإنجازات كبيرة في البحر، أمثال لانغلوا النورماندي (١٦٢٧)، وآنفرفيل (١٦٢٩)، فحصل على صورة دقيقة سهلت عليه عملية بناء البحرية وتمويلها، في ظرف صعب حزين، كانت فيها فرنسا فقيرة لا سفن لديها ولا موانىء، وبحارتها موزعون في أساطيل الدول المجاورة.

بدأ ريشيليو في بناء النواة بصورة متماسكة إدارياً ومالياً، ثم أقام هيئة أركان حرب قيادية

ضمت ستة قادة من قدماء رجال البحر الأشراف، وعناصر من صانعي السفن، وعناصر من المرشدين البحريين، على شكل لجنة فنية مساعدة ضمت مركز القيادة. ثم سمى للأقاليم الثمانية التي تتألف منها البلاد رؤساء أغلبهم من المدنيين وحكام الولايات، مهمتهم الإشراف على الأعمال وإطلاع القائد الأعلى على الأمور المتعلقة بتقدم البحرية وتطورها. وبالخلاصة نستطيع القول بأن السفن والتشكيلات البحرية انتقلت من أيدي قادتها التقليديين إلى أيدي قيادة عامة تابعة للدولة، تسير كل مصالح الأسطول ومهامه.. واعتباراً من العام (١٦٣٥) أصبح لفرنسا أسطول متكامل فيه جميع الصفات اللازمة ليجابه أساطيل الدول المتقدمة المعاصرة.

بالنسبة للموانئ كانت أفكار ريشيليو واضحة، فهو يرغب ببناء ما لا يقل عن ميناء حربي هام واحد لكل بحر، يحيط به من البر سور، ويعلوه حصن أو قلعة، وفيه حوض لبناء السفن وإصلاحها.. وكانت طولون على المتوسط والهافر على بحر المانش، وبرست في الغرب، لكن تقدم الأعمال في الموانئ جاء بطيئاً، وظل ميناء برواج القديم والستراتيجي الموقع يقدم المهام البحرية، وفاز بالكثير من الاهتمامات، إلا أن الطمي الذي كان يحمله له شارنت سنوياً أوحل الحوض وقلت فائدته ثم أهمل أمره بعد أعوام.

شكل ريشيليو نواة أسطوله بشرائه عدة سفن من الخارج أينما وجدت، وبأعداد كبيرة. إلا أنه استعاض عن هذا الأسلوب المرتجل، وقرر جعل فرنسا بلداً يبني سفنه بنفسه، فاتفق مع دور بناء وصناعة السفن في هولندا لتوجيه وتدريب عناصر المنشآت الفرنسية.. وجاءت الدفعات الأولى من المراكب سيئة الصنع حتى إن بعضها قد غرق مباشرة بمجرد خروجها من الميناء، بسبب أوزانها الثقيلة، ثم تحسن الحال بعد عام (١٦٣٠)، وظهرت السفن الصغيرة من طراز السنونو زنة (١٠٠) طنة وطراز التنين زنة (٣٠٠) طنة، أما السفن الحربية الكبيرة فبدأت تظهر منذ العام (١٦٣٩) وكانت آية في الجمال، وأنقل مواصفات إحداها على سبيل المثال، وهي سفينة التاج لاكورون La Couronne:

«سفينة شهيرة بنيت في ترسانة لاروش ــ بيرنارد وأشرف على بنائها مهندس بناء السفن شارل موريان من مدينة دييب، بلغ طول حيزون السفينة (٤٠) متراً، وطولها العام (٦٠) متراً، وارتفاع سلة الشراع المربع (٤٢) متراً عن سطح الماء، حمولتها (٢٠٠٠) طنة يخدمها (٦٠٠) رجل. وكانت أسرع وأجمل السفن الفرنسية، وجهزت بـ (٧٢) مدفعاً موزعة توزيعاً بديعاً، تستطيع الرمي بمجموعها دون خطأ أو اهتزاز أو ميلان كبير للسفينة.

الحرب في البحر

استطاع ريشيليو بناء أسطول فرنسا بسرعة ، ولما اكتمل له ذلك طالبه بمهام سريعة ومباشرة ، حتى قبل أن يستكمل عدته . وغايته من ذلك صقل الرجال ، لأن الحرب أنجع طريقة في التدريب ، وهي المعهد الحقيقي لضباط وبحارة السفن . ففي كل عام تقلع السفن الحربية الكبيرة بحملة بحرية ، تارة للجزائر ، وأخرى لتونس ، أو للمغرب . ومدافع هذا الأسطول تضرب في كل مكان في حروب صغيرة لكن الحروب الحقيقية الكبرى حدثت لمرتين الأولى ضد عصاة لاروشيل، والثانية ضد إسبانيا .

الحرب ضد عصاة لاروشيل

قدر قراصنة البحر (العصاة) أن بناء أسطول ملكي يفرض سيادته على البحار معناه نهاية استقلالية أعمالهم، وانقطاع مواردهم المالية ، واضمحلال نفوذهم . لذلك قاوموا إنشاء هذا الأسطول بكل الوسائل التي اعتادوها ، فمن الأعمال العدائية التي نفّذوها هجوم أمير ماء العصاة سوبيز في ١٨ كانون الثاني عام (١٦٢٥) على عدة سفن ملكية اشتريت حديثاً ترسو في بلافيه ، فاستولى عليها وضمها إلى سفنه . وكان ذلك بمثابة إعلان حرب على الدولة . ولكي يتفادى ريشيليو هذه الإهانة توجه إلى الهولنديين والإنكليز يطلب منهم دعمه وإمداده بالسفن ، فأعطوه على مضض عدة سفن قديمة على سبيل المؤازرة ، لكنها قامت بأعمال مجيدة ، وهي نفسها التي أسقطت جان غيتون في المياه البروتونية عام (١٦٢٥) .

تعرضت لاروشيل لحصار من قبل العصاة ، ثم آلت إلى السقوط في أيديهم . وتخلى ملوك فرنسا عن إنجادها ، وتظاهر الكاردينال في البداية بعدم الاهتمام بها ، وصفح عن العصاة مُظهراً قبولاً وهو يبيت لهم أمراً ، خصوصاً بعد أن لمس من إنكلترا تحسساً ظاهراً من نمو سلاح البحر الفرنسي .. واعتقد ملك إنكلترا شارل الأول[٨٦] ورجال قصره أنهم سيكسبون شعبية في حال إعلان حمايتهم للبروتستانت الفرنسيين ، فأرسلوا أسطولاً إنكليزياً كبيراً في ٢٠ تموز عام (١٦٢٧) لمسادنتهم ، وحاصر الأسطول جزيرة ريه ، وأحاط بها من كل جانب ، فهبَّ القائد الفرنسي توارا Toiras يدافع ببسالة . ولم يستغل الإنكليز تفوقهم البحري ، وبدت على عمليتهم البحرية أنها تظاهرة عسكرية ، أو عرض عضلات ، وسمحوا لريشيليو بتحرير الجزيرة .

بعد ريه حمل ريشيليو على لاروشيل مصدر القلاقل ، البلد التي تعاون وتساند الغرباء ،

فانقض عليها واحتدمت المعارك فيها براً وبحراً .. قاتل العصاة حتى النفس الأخير ، وحتى حلت الكارثة بالمدينة نتيجة حصار طويل . ومات وقتل (٢٧) ألف مواطن من أصل (٢٨) ألف من تعداد السكان ، وأعيدت لاروشيل إلى الصف الفرنسي الملكي .

إبان الغزو الإنكليزي تحرك الأسطول الإسباني بإمرة فردريك طليطلة حليف ريشيليو ، وتدخل شكلياً حيث أقام سداً بالسفن بطول (٧٢٨) قامة أمام لاروشيل فصل به العصاة المحاصرين عن أعوانهم الإنكليز .. وحاول الأسطول الإنكليزي ، ولمرتين متتاليتين ، خرق هذا السد للوصول إلى المدينة ، ومد يد المعونة ولكن دون نتيجة حاسمة ، وهنا تغلبت فكرة الاستسلام لدى العصاة إلى قوات الملك الفرنسي عن الاجتماع بالإنكليز الذين عجزوا عن إغاثتهم .

وبعودة لاروشيل انتهت فكرة العصيان والتي كانت ستسبب لو استمرت تفتيت الوحدة الوطنية .

الحرب ضد الإسبان

لكي يتخلص الملك من العناصر المنشقة التي تنتقل حتى إسبانيا ، فضل الملك محاربتهم براً ، لأن الحرب البرية أقل كلفة وأشد أثراً . وكانت تلك فكرة ريشيليو ، إذ طلب من الملك الإبقاء على الأسطول الحربي ، كقوة في الحوزة ، يستخدم في حال نشوب حرب شاملة .

وقع الخيار على ضرب إسبانيا براً ، وهو البلد الذي آوى الهاربين . وعزمت فرنسا على أن تكون البادئة بالحرب ، خصوصاً وإسبانيا بدأت تعاني بعض التخلف .. والسبب الأوجه والمباشر لهذه الحرب هو أن فرعي بيت النمسا (فيينا) ومدريد ظلا مرتبطين بوحدة التجمع الطائفي الديني ، ويحلمان بإعادة إمبراطورية شارل كنت بالسيطرة على ألمانيا أولاً ، والبر الأوربي بكامله ثانياً .

شعر ريشيليو بما يدور ، وعارض بشدة كل اتحاد يخل بتوازن القوى الأوربية وحرك بالتتابع الأمراء الألمان .. وحكام الدانمرك ، والسويد ، ثم دخل بفرنسا في كامل اللعبة ضد النمسا وإسبانيا . ولما كانت إسبانيا هي الأقرب إلى حدوده فهي الأكثر خطراً والأولى على أفضليات الهجوم .

علق ريشيليو على بحريته آمالاً كبيرة ، خصوصاً عند احتدام القتال . وأسند لها حماية وأمن السواحل . وبذلك رفع جهداً كبيراً عن كاهل القوات البرية الفرنسية ، وتركها تنصرف بكامل حجمها للحروب الحدودية مع إسبانيا .

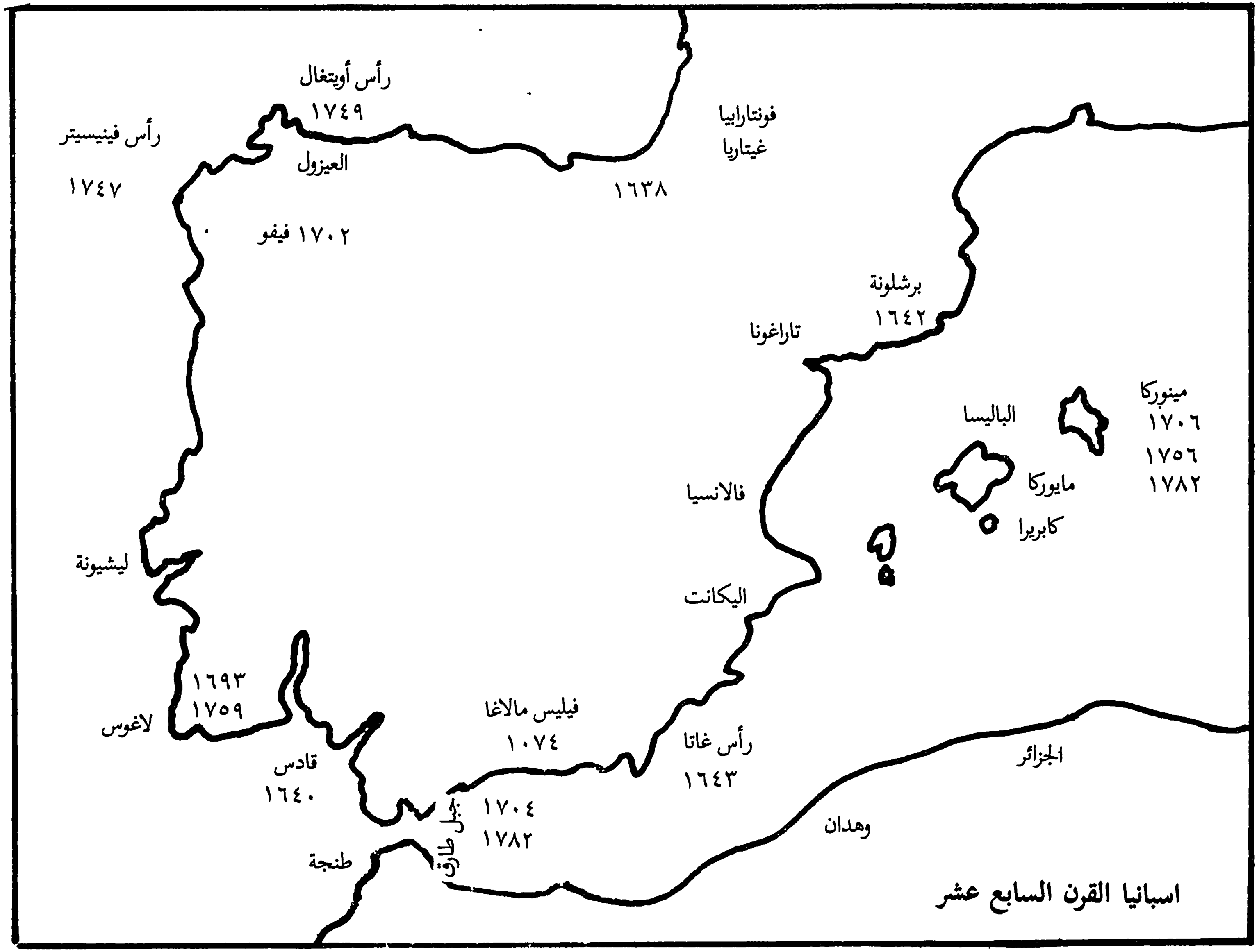

اسبانيا القرن السابع عشر

طالب ريشيليو سلاح البحرية بتحقيق المهام الحربية التالية :

ــ اعتراض ومنع كل الاتصالات التي قد تتم بين أطراف المملكة الإسبانية أي بين شبه الجزيرة والأقاليم المنخفضة (هولندا) من جهة وإيطاليا والهند من جهة أخرى ، ومحاولة عزلها بعضها عن بعضها الآخر . وأخذ مبدأ المبادهة ومعالجة كل حالة على حدة باختيار أفضل زمان ومكان .

اعتقد ريشيليو أنه بمجرد ظهور بوادر انكسار القوات الإسبانية سيتكفل الشعب الإسباني الذي يئن تحت نير فرعون إسبانيا (فيليب الرابع) بإزاحة عصر الاستبداد والطغيان ، وستهب بعد ثورة الشعب الإسباني ثورات في كل مكان من أطراف الإمبراطورية الإسبانية ، هولندا الإسبانية ، كاتالانيا ، البرتغال ، نابولي ... الخ ... وكل أقاليم الإمبراطورية المتنافرة القوميات ، وسينفرط عقدها . وهنا يأتي دور سلاح البحرية الفرنسي الذي عليه التواجد في كل مكان يتململ فيه الشعب ، لتشجيع ومساندة حركته التحررية ، ويكون له الدور الرئيسي في تحقيق النصر .

أعطى ريشيليو توجيهاته لقادة التشكيلات البحرية واقترح أحدهم البدء في البحث عن السفن الإسبانية وتدميرها ، أو على الأقل شل حركتها بتدمير موانئها البحرية التي بدونها ستصبح تائهة بلا مأوى ، أو عاجزة عن الحركة . لكن ريشيليو حال دون هذا العرض ، لأن البحرية الفرنسية لم تصل بعد للحجم الذي يخولها القيام بعمل كبير كهذا ، وحتى لو كتب لهذا العرض النجاح فالعدو الإسباني لا يستهان بقوته ، وليس هو بالذي يتخلى عن المواطنة لمجرد هزيمة أو هزيمتين (لمسنا ذلك في حروبه البحرية مع الإنكليز) . وأصر ريشيليو على أن تتمسك البحرية الفرنسية بالدفاع عن سواحل فرنسا ، قبل المغامرة في هجمات بحرية على عدو قوي وعنيد .

نشبت الحرب الفعلية في ١٤ ايلول (١٦٣٥) عندما احتلت إسبانيا جزر ليران Lérins ، وهي مواقع استراتيجية هامة تتحكم وتسيطر على كل العمليات البحرية التي تستهدف سواحل البروفانس والنقاط الهامة الواقعة على خط المواصلات البحرية بين إسبانيا وإيطاليا .. كان واجب فرنسا استرجاع هذه الجزر مهما غلا الثمن . وقد تحقق لها ذلك بعد عامين من بدء العمليات البحرية . ويرجع التأخير لضعف وقلة انضباط رؤساء وقادة بعض السفن الفرنسية التي اشتركت في العمليات .

حدثت اشتباكات أخرى عديدة قرب سان تروبيز ولوكات عام (١٦٣٨) ، جعلت سفن إسبانيا تنسحب وتختفي نهائياً من جوار خليج ليون .

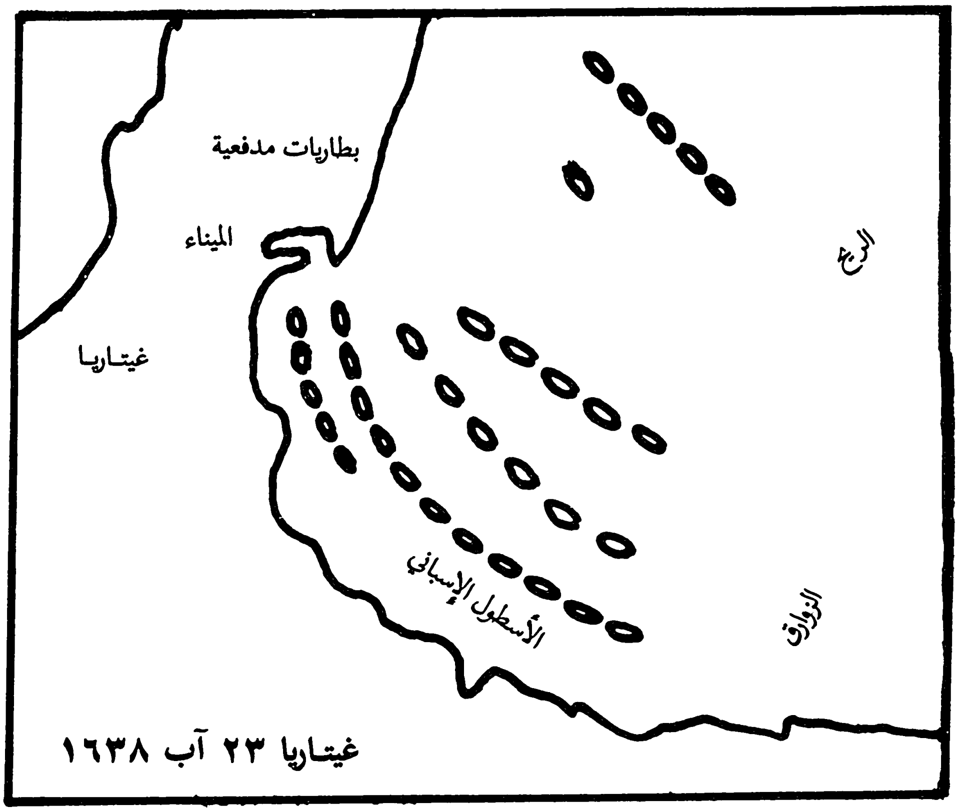

تقدمت القوات الفرنسية البرية فاحتلت أقاليم الباسك ومناطق فونتافاني وكان النصر حليف الفرنسيين في كل مواقعهم البرية.

صدرت لأسطول سوردي رئيس أساقفة بوردو الأوامر بإحكام سياج الحصار البحري، وطلب من تشكيلات كونديه[٨٧]، ولافاليت[٨٨] مهاجمة الحصون الساحلية من البحرية .. واعترض الأسطول الإسباني المجموعات الفرنسية، وكان مؤلفاً من (٦٨) سفينة حربية، لكن ظروف المعركة جاءت لصالح الفرنسيين، مع تفوق إسباني عددي كبير، وحدثت مراحل الاشتباك على النحو التالي:

وصل تشكيل غاليس الإسباني Galice قبل المجموعات الأخرى إلى ساحة المعركة فوقع بين جموع الأسطول الفرنسي، فقاتل ثم اضطر إلى الانسحاب إلى مرسى غيتاريا Guitaria. وهناك هاجمه سوردي[٨٩] فأحرق كل سفنه وعددها (١٨) سفينة، من نماذج غليون وفرقاطة، حدثت هذه المعركة بتاريخ ٢٢ آب (١٦٣٨).

بعد نصر غيتارا توقف نشاط الأسطول الفرنسي، وتباطأت حركة التقدم على الجبهات البرية، لصعوبة ووعورة مناطقها.. وكانت كارثة غيتارا ضربة مؤلمة لبحرية إسبانيا، فانكمشت باقي التشكيلات في موانئها، وهذا ما شجع سوردي على إنهاء النفوذ الإسباني البحري في المنطقة. وأخذ يبحث عن سفن إسبانيا في سواحل الباسك وغاليسيا فيهاجمها ويدمرها حيث أصاب منها الكثير، وشرد البقية الباقية حيث تركت المحيط الأطلسي ولجأت إلى بحري الشمال والمانش.

أما هولندا فقد تخلت عن العمليات الهجومية عبر حدودها البرية، واكتفت بإقامة دفاع ذاتي لتحمي سواحلها.. وتجمد الموقف العسكري على الجبهات البرية، وانتهت العمليات في ١٩ مايس عام (١٦٤٣) بعد هزيمة روكروي Rocroy وبذلك زال الخطر الإسباني البري عن حدود فرنسا المتاخمة.

بالنسبة لقوافل الهند أصبح مردودها محفوفاً بالأخطار، عندما سادت البحرية الفرنسية المنطقة. وحين دمر بريزيه قافلة مقابل قادس ٢٢ تموز (١٦٤٠) بمعركة بحرية مظفرة. ويكون ريشيليو قد حقق كل رغباته، وبدأت الإمبراطورية الإسبانية تتحلحل كما توقعها، إذ طلبت البرتغال نجدة فرنسا للخلاص من الحكم الإسباني. فأرسل لها أسطول بريزيه عام (١٦٤١)، يحمل لها الرجال والعتاد وثارت برشلونة ونادت بالملك لويس الثالث عشر كونت كاتالونيا. وصلت الإمدادات الفرنسية وعبرت سفن الأسطول حتى الايبر Ebre لكن سوردي أخفق في حصاره لتاراغوان عام (١٦٤١) فجاء بريزيه ينجده واستلم قيادة التشكيل وأعاد النظام لصفوف الوحدات البحرية ثم أحكم الحصار الذي كان سوردي قد بدأه وراح يلاحق التشكيلات البحرية الإسبانية فألحق بها هزائم عديدة أهمها ما حدث قرب رأس غات في ٤ ايلول (١٦٤٣) وأصبحت كاتالونيا والمتوسط فرنسيين.

مات ريشيليو في ٤ كانون الأول عام (١٦٤٢) وتبعه الملك لويس الثالث عشر تلميذه في الحكمة والحكم في ١٤ مايس عام (١٦٤٣) وخلت فرنسا من رأس حازم.

الوصاية على العرش وانهيار إنجازات ريشيليو

مازاران والبحرية الفرنسية

خلافاً لكل ما قيل لم يعمل مازاران(٩٠) على إضعاف أو إهمال سلاح البحرية الفرنسي، بل على

العكس سعى إلى الحفاظ عليه بإقرار ميزانية مرتفعة وصلت حتى (٥) ملايين فرنك عام (١٦٤٧)، لكنه لم يمنحها عناية طويلة كما فعل من سبقوه، ولم يقدمها على اهتماماته السياسية، فبدأت علائم الضعف تظهر على هذا السلاح، وانخفضت عدد وحداته. وفي عام (١٦٤٩) توقف كل بناء للسفن الجديدة واضطرب نظامه، وتأخرت الرواتب على العاملين فيه مما دفعهم للرحيل والتشتت في البلدان المجاورة، كما حصل عام (١٦٢٥).. وتحولت التشكيلات البحرية الفرنسية منذ العام (١٦٥٠) إلى تشكيلات غير متناسقة غالبية سفنها من السفن التجارية المسلحة تسليحاً بدائياً.

اشتباكات أعوام ١٦٤٢ ــ ١٦٥٠

اتسمت هذه الأعوام ببعض الإنجازات البحرية الهامة، ويرجع الفضل فيها إلى الأميرال بريزيه سيد السواحل والبحار الذي سار على خطا قريبه وسلفه ريشيليو، واستولت أساطيله على سواحل كاتالونيا. ودانت له كل سواحل إسبانيا والبرتغال، وعند تولي مازاران كاردينالاً أرسل حملة إلى توسكانيا، ومنها لاحتلال سردينيا وجزر الباليار، ليقطع على الإسبان طريق سفنهم بين فالانسيا ونابولي.. بدأت الاشتباكات لكن قائد الحملة الفرنسي قتل في معركة اوربيتلو **Orbitello** ١٤ حزيران (١٦٤٦) حيث أصيب بقذيفة مدفع، ففرت حملته مشتتة إلى طولون.

أرسل مازاران حملة أخرى بقيادة الماريشال لاميليراي **La Meilleraye**، ولم تكن أفضل حظاً من سابقتها. وعادت الحملة خائبة، وتخلى الفرنسيون نهائياً عن فكرة الاستيلاء على الممر البحري، والاستيلاء على توسكانيا.

أعقبت هذه الحقبة فرصة ذهبية كانت ستنهض بسلاح البحرية الفرنسي عالياً لو تحقق لها النصر، فقد ثار شعب نابولي على الإسبان في تموز (١٦٤٧) واستنجد بالفرنسيين، فأرسل مازاران أسطولاً لدعم الثوار، لكن تعثر هذا الأسطول، ولم يحسن تقديم العون اللازم للثائرين، فنزلت بشعب نابولي كارثة حيث قام الإسبان فسحقوا الثورة بعنف وجبروت كانون الثاني عام (١٦٤٨).

التشتت البحري

توالت المصاعب على فرنسا، وانشق أميرال بحري هو دو دونيون عن الدولة، واقتطع لنفسه ولاية الكونديه، وأتبعها ببرواج، وأعلن نفسه حاكماً عليها وعلى البلدان المحيطة بها. وأصبح ميناء بوردو أكبر موانىء فرنسا على المحيط بأيدي عصبة من الغوغائيين. وبدأ اللغط يدور حول استنجاد

ملك فرنسا بملك إنكلترا، خصوصاً بعد أن شوهدت بعض التشكيلات البحرية الإسبانية تجوب المياه الإقليمية الفرنسية. أما الهولنديون حلفاء فرنسا في الشمال فقد انصرفوا كلية لمصالحهم التجارية، واصطلحت أمورهم مع الإسبان، بعد أن اعترفوا لهم باستقلالهم، وبإطلاق يدهم في المستعمرات البرتغالية. وكان ذلك بعد معاهدة أوزنابروك Osnabruck في كانون الثاني (١٦٤٨)، والتي عقدت بغفلة من الفرنسيين.

ومن جديد عاد الإسبان فسادوا البحار وأصبح أسطولهم في المتوسط يفوق ضعف عدد السفن الفرنسية، وهذا يعني اختفاء سفن فرنسا في موانىء مرسيليا وطولون. وانهارت جبهات كاتالونيا، وإيطاليا، بعد انقطاع خطوط الإمدادات البحرية، وقذفت القوات الفرنسية البرية لما وراء البيرينيه والألب. أما جبهات الشمال فلم تكن أحسن حالاً من جبهات المتوسط، إذ استولى الأميرال الإنكليزي بلاك على بقايا الأسطول الفرنسي في عرض البحر، وقاده إلى دوفر في ايلول (١٦٥٢)؛ ثم سقطت دونكرك في أيدي الإسبان من جديد.

نهاية الحروب

عمل مازاران على إعادة الوحدة الوطنية، وإعادة ثقة الشعب بالملك. فسعى مع الإسبان الذين كانوا هم أيضاً يتعرضون لأزمات حادة، وإلى إقامة السلام من جديد.

توقع مازاران انتزاع هدنة مشرفة من إسبانيا، بعد القيام بعرض عضلات فرنسي في جوار نابولي. إلا أن افتقاره لأسطول بحري قوي جعله يتخلى عن الفكرة. فالأسطول الفرنسي الذي عبىء لتلك المهمة تحت إمرة الفارس بول، والذي ضم وحدات بحرية قديمة لم يستطع المجابهة أكثر من عدة أسابيع، كذلك وجد مازاران نفسه لا يستطيع مقاومة الإسبان في الشمال إلا بقوة تماثل قوة خصمه، فطالب إنكلترا أن تدعمه. وبالفعل حضر أسطول إنكليزي مساند عمل على إنهاء لحماية النقل البحري فيه، حين كان هذا البحر مسرحاً واسعاً لحروب عديدة لا تنتهي. وشهد سهول الفلاندر. وكان لهذا النصر الفرنسي الإنكليزي أثر كبير على إسبانيا، وقبلت مفاوضات ليون، ومن ثم توقيع معاهدة البيرينيه عام (١٦٥٩).

شعرت إسبانيا بضعفها بعد توقيع معاهدتها مع فرنسا فقررت التخلي عن الوهم الذي ساد عقول ملوكها زمناً طويلاً، وهو الاستيلاء على العالم، وإقامة الإمبراطورية الإسبانية العالمية.. وتخلت عن الكثير من الأراضي إلى فرنسا كالارتوا، والروسيلون. أما إنكلترا فقد عوضت لتدخلها الفعال إلى

جانب فرنسا بامتلاك جزيرة الجامايك. وهذا يعني الحصول على موقع قدم في الهند الغربية، وهو مطمع قديم لها، ثم الاستيلاء على دونكرك، وهذا يعني الحصول على رأس الجسر إلى القارة الأوربية، ولو فكر كرومويل باستغلال الظرف آنذاك لحصل على المزيد.

«إن تصرف مازاران هذا أدانه المؤرخون، واتهموه بالتخلص من عدو منهك يتمثل بالإسبان، ليقع بين أيدي عدو فتي أكثر خطراً من الأول يتمثل بالإنكليز».

التدهور البحري في فرنسا

لم يبق لفرنسا سفن جديرة بالظهور. فالإنكليز وحتى الهولنديون حلفاء فرنسا ازدروا القوات البحرية الفرنسية، إذ قام رويتر الهولندي بمصادرة البقية المتبقية من سفن الشمال، واعتبر طواقمها بمثابة خارجين على القانون كالقراصنة (١٦٥٧).

في هذه الغمرة من الانحطاط العسكري ظهر المالي الكبير فوكيه[٩١]، واعتبر أن عودة فرنسا لمجدها السابق لن يتم إلا بجني المكاسب التجارية عبر البحار، وذلك بوضع يد الدولة على أسهم الشركات التجارية التي كانت تعتمد على عدد ضخم من ضباط سلاح البحر. وبدأ فوكيه بعد إحكام سيطرته على هذه الشركات بإصدار قانون بمضاعفة أجور النقل، بحيث أبعد السفن الأجنبية عن تجارة الموانىء الفرنسية، وشجع السفن الوطنية، لكن ذلك كان يتطلب إقامة أسطول حربي قوي يحمي سفنهُ التجارية.. وأصبح الموقف العام في فرنسا عام (١٦٦٠) كالتالي:

- بقي لفرنسا ست سفن سجانة، وعشر سفن حربية متوسطة، مع عدة سفن صغيرة، مما دفع الأميرال نوشيز Nuchèzes لأن يقول:

«أفضل رعاية الأبقار عن إمرة مثل هذا التشكيل البحري العجيب، السيء التنظيم والمعدوم الانضباط».

- انتهت البحرية التجارية في بحار الشمال، وضعفت كثيراً في المتوسط. وأصبح الهولنديون يقومون بخدمة مستعمرات فرنسا وموانئها. وبرغم اندفاع سكان مرسيليا الميناء الكبير على البحر الأبيض المتوسط، وقتالهم المرّ للدخلاء فقد استمر تدهور أوضاعهم بالنسبة للسفن التجارية، وبقي لفرنسا أقل من (٣٠) سفينة تجارية مسجلة في موانئها.

نستطيع القول إن فرنسا عام (١٦٦٠) كانت لا تمتلك بحرية حربية، ولا حتى بحرية تجارية.

ومات الكردينال ريشيليو ولم يستطع أحد، ولعدة سنوات، متابعة خطاه، وأخفق الجميع أمام تضارب آراء الفرنسيين تجاه بحريتهم ومستقبلها، ولم يبق لهم إلا الذكرى. وظلوا كذلك حتى جاء التلميذ الفذ الكاردينال كولبير وأعاد بناء مجد فرنسا البحري.

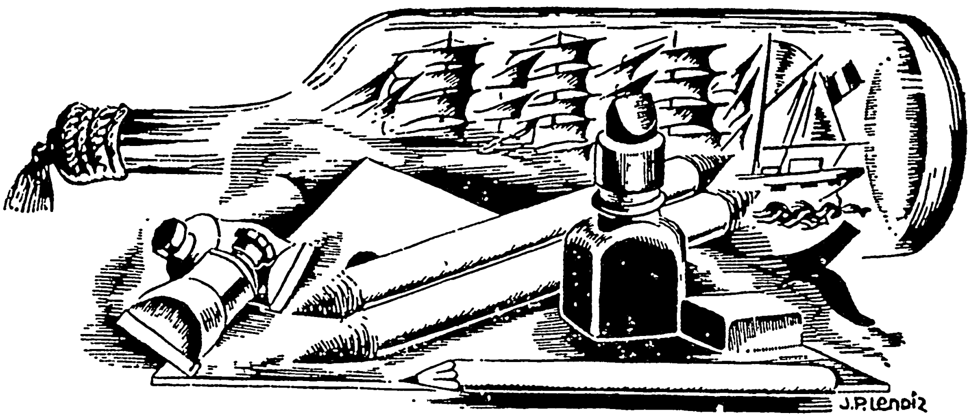

الفصــــل الخـامـس

أوج القـوة البحـريـة الفرنسيـة
منجـزات كولبيـر وسيفنلـي البحـريـة التجاريـة

لويس الرابع عشر والبحرية

أدرك الموت ريشيليو قبل أن يحقق لفرنسا المجد البحري الذي كانت تصبو إليه، حتى جاء لويس الرابع عشر، فوجدت فرنسا في هذا الملك منقذاً لبحريتها، والذي سيرتفع بها إلى مصاف القوتين البحريتين الكبيرتين في العالم آنذاك.

لم تكن تلك النهضة البحرية إنجازاً شخصياً للملك في سنوات حكمه الأولى، حتى إنه كان لا يعطي أي اهتمام لها. ولم ير البحر إلا مرات ثلاث، ومن خلال زياراته لدييب عام (١٦٤٧)، وطولون (١٦٦٠)، ودونكرك (١٦٧٥)، لكن قدوم كولبير إلى الحكم وإلحاحه الشديد على الملك استطاعا حمله على الاهتمام بهذا السلاح، وكان يأتيه بنماذج مصغرة من السفن يطلقها له في قنوات قصر فرساي.

ما إن استطاع كولبير ومستشارو الملك إقناع لويس الرابع عشر بمصلحة فرنسا في حيازتها أسطولاً حربياً حتى بدأ يكرس بعضاً من اهتماماته له. وخلال خمسين عاماً من حياة حكمه جعل الملك بعد ظهر كل يوم جمعة من وقته لصالح البحرية، فدرس أوضاعها، ووصل إلى أدق أسرارها، ونهض بها حتى استحق كل الأمجاد البحرية التي تمت خلال حكمه.

استمر دعم سلاح البحرية مالياً وفنياً طيلة حكم لويس الرابع عشر، كيف لا وبين مستشاريه محامون أوفياء لهذا السلاح.. وبدأت سفن فرنسا تظهر من جديد وتتكاثر. ويمكننا تقسيم تاريخ فرنسا البحري في عهد الملك لويس الرابع عشر إلى عهدين واضحي المعالم، عهد الكردينال كولبير (١٦٦٠ ــ ١٦٩١)، وعهد بونتشارتران (١٦٩١ ــ ١٧١٥).

جان باتيست كولبير (١٦١٩ ــ ١٦٨٣)

بورجوازي من مدينة ريمس ينحدر من عائلة تجار وموظفين.. بدأ حياته في خدمة مازاران حيث أصبح في فترة وجيزة أمين أسراره، وجمع ثروة كبيرة حتى قدم إلى القصر، واستخدم في البلاط الملكي، وكسب ثقة الملك الشخصية، خصوصاً بعد أن اكتشفت ألاعيب واختلاسات فوكيه.

تسلم كولبير الأمور المالية في المملكة وأعاد تنظيمها بشكل متطور، وارتقى مركزه من مرتبة مستشار إلى وزير دولة فمفتش عام للمالية، ثم مستشار دولة للشؤون البحرية والمملكة. وحمل أعباءً جساماً.. وامتدت صلاحياته لكل مكان فكان الرجل الذي لا يكل نشاطاً وعملاً دؤوباً في إنجازاته المنهجية..، ودخل تاريخ فرنسا من بابها الكبير، وجعل سياسته تستمر مدة قرنين من بعده خاصة في نظرياته الإدارية والمالية.

ابتدأت اهتمامات كولبير لسلاح البحر منذ عام (١٦٤٧) وهو لا يزال مستشاراً لمازاران. وفي عام (١٦٦١) عينه الملك مشرفاً على سلطات المرافىء في البلاد. وفي عام (١٦٦٥) كلفه رسمياً برئاسة الإدارة البحرية الملكية ثم عيّنه وزيراً للبحرية.

ابن كولبير الماركيز سيفنيلي

ابن كولبير (١٦٥١ ــ ١٦٩٠) وحمل اسم أبيه نفسه، ودخل الوزارة شاباً (١٦٧٢). وكان والده قد أحسن تأهيله ليجعله الرجل الأكثر كفاءة في إدارة البحرية الفرنسية من بعده. وبدأ ينوب عن والده في كثير من المهام الصعبة، حتى شغل مكانه عام (١٦٨٣). ولم يطرأ أي تغيير في سير الأعمال وتقدمها، بل حافظ الابن على أسلوب أبيه بالكامل، وغدت البحرية الفرنسية في زمنه أداة حرب فعالة ورمز اعتزاز ملكي.. واندفعت فرنسا منذ عام (١٦٨٣) تقاتل بمرارة القدرات البحرية الأخرى، وتحقق انتصارات على طريق سيادة البحار، إلا أن الخطأ الذي ارتكبه الكولبيران الأب والابن هو في عدم إعداد مدرسة تخرج قادة أكفاء لمتابعة المسيرة.

ويمكن القول إن الآثار التي تركها ريشيليو كانت في أعماله العسكرية في حين ترك كولبير

وابنه آثاراً أكثر تعقيداً وتنويعاً، حتى امتدت إلى جميع نشاطات المملكة، وخاصة النشاط البحري بتطوير كامل للتجارة الخارجية وللبحريتين الحربية والتجارية.

نظريات كولبير في الاقتصاد

المال هو العنصر الأكثر مطلباً للأمم وللأفراد في سبيل تحقيق التقدم والارتقاء. والمال هو الثروة، وهو القطع النقدية الذهبية. وقال كولبير:

«نبقى متفقين جميعاً على أسس ثابتة قديمة لا تتغير فوفرة المال في دولة عامل لعظمتها وقوتها».

«لما كانت فرنسا بلداً فقيراً في مناجم معادنه الثمينة، كان لا بد له من استدراج المال من الدول الأخرى، وذلك بمبادلة بالمنتجات الزراعية».

«امتلاك المال مهمة صعبة يتطلب المحافظة عليه ومنع الآخرين من استعادته».

تنظيم التجارة والتبادل التجاري مطلب أساسي في تحقيق الفوائد المتزايدة، وفي التوازن التجاري الرابح، ويترجم بتكديس الأموال، وحسن تشغيلها، وهكذا تغتني المملكة دون إفقار الأفراد عن طريق جمع الضرائب الباهظة:

«من الأفضل جداً لأي حاكم جني مائة مليون من الخارج من أن يجمع مائتي مليون ضرائب من شعبه».

وانطلاقاً من الأسس المالية الثابتة انتعشت تجارة فرنسا مع إسبانيا، ومع المستعمرات وراء البحار.. فبدأت الأموال تتدفق عليها، فتنعش كل منشآتها، وتتضخم رساميلها. ولقد حرم كولبير على التجار نقل الأموال خارج فرنسا، وفرض عقوبات صارمة على المخالفين.

اقتنع شعب فرنسا بكامل فئاته بأن التجارة قوة أساسية في عظمة الأمة، والتجارة الخارجية مصدر الثروات جميعها. وأقيمت في عام (١٦٦٥) مقارنة للتجارة العالمية بحصر عدد السفن العاملة لكل دولة، وكانت تربو هذه السفن على الـ (٢٠) ألف سفينة توزعت على النحو التالي:

- امتلك الهولنديون وحدهم من (١٥) إلى (١٦) ألف سفينة.
- امتلك الإنكليز من (٣) إلى (٤) آلاف سفينة.
- وامتلكت فرنسا (٦٠٠) سفينة فقط.

ولو كانت السفن التجارية تتناسب وطول سواحل الدولة وعدد سكانها ، لكانت تلك الأرقام مختلفة جداً عن واقعها الحقيقي . ولمس كولبير ذلك النقص ، واعتبره ظلماً يعيب فرنسا ، ولا بد من رفعه . وبدأ ينظر للهولنديين نظرة حسد وعداء ، ساعياً وراء انتزاع قسط واسع من نشاطهم التجاري لصالح بلده . وكان يعرف أن مصادر التخلف هي :

ـ تصنيع ميزانية البحرية رواتب ضخمة لكبار الموظفين والإداريين في السلاح .

ـ قسم كبير من الميزانية يصرف في مهمات التفتيش ، وفي تجاوزات العمل .

ـ القرصنة تحصر الكثير من الأرباح .

ـ وأخيراً عدم اهتمام الآخرين بالمجال البحري ، وضعف في مجلس مستشاري الملك .

أقام كولبير مجلساً خاصاً بأعمال البحر ، ينعقد كل خمسة عشر يوماً ، مهمته إعطاء التوجيهات اللازمة ، ووضع القيود الضرورية . ولكي تنظم الصناعة والتجارة تنظيماً متطوراً لا بد من مشاركة ممثلين عنهما يعينون في وظائف الدولة ، ويقدمون المقترحات اللازمة لإجراء الإصلاحات الضرورية في أنظمة التعامل ، ثم في صياغتها كقوانين ... وبالفعل صدر قانون التجارة في العام (١٦٧٣) والقانون البحري في العام (١٦٨١) ، وأطلق على التجارة تسمية حرب المال ، حيث يجب إعداد الخطط الكفيلة بالمحافظة على المال المجني ، قبل التفكير بطريقة جمعه .. وصدر أيضاً النظام الجمركي ، وكان حازماً ، فحظر دخول الكثير من السلع الأجنبية ، وشجع المصنوعات المحلية ، وعمل على زيادة إنتاجها لتصديرها .

خشي كولبير من حدوث أزمات اقتصادية في كل من هولندا وإنكلترا ، بعد أن هبطت مداخيلهما المالية لتناقص حجوم تجارتيهما الخارجية ، فأسرع في بناء أسطول حربي قوي يستطيع حماية فرنسا من أية مغامرة عسكرية ، تقوم بها الدول المتأثرة بتلك القوانين .

وبالفعل بدأ الإنكليز ، ومنذ عام (١٦٧٠) ، برفع أسعار المواد المستوردة ، بوضع رسوم باهظة عليها ، ضمن خطة مضادة لخطط فرنسا التجارية ، ثم منعوا دخول البضائع الفرنسية كالخمور والكحول ، وتحول الإنكليز لشرب الرّوم والجعة .. أما الهولنديون فقد أهملوا تجارتهم مع فرنسا ، وتحولوا بكامل طاقاتهم نحو إسبانيا ، وعقدوا معها مباحثات عدة .

أخفقت المساعي السلمية في تخفيف حدة التوتر التي سادت دول أوربة الغربية ، وهبطت حجوم المبادلات التجارية مع إنكلترا وهولندا هبوطاً حاداً ، حتى اضطرت فرنسا لتخفيض بعض

رسوم النقل البحري، وبعض التعرفات الجمركية لإصلاح هذا الهبوط الحاد. إلا أن روح حماية المصنوعات الوطنية التي نادى بها كولبير تسرَّبت إلى الدول المجاورة، وبدأت جميع الشعوب تسير على نهج كولبير نفسه فكان لا بد من أساليب أخرى جديدة لحماية الملاحة والإتجار الخارجي.

أولى تلك الخطوات تأمين سلامة السفن المبحرة. وكان ذلك هو الواجب الأول لسفن الأسطول ورغبة الملك الأولى، إذ طلب من قادة التشكيلات البحرية تنظيف البحار من كل القراصنة، وحماية كل السلع المنقولة بحراً. وكلف بهذه الحماية تشكيلاً بحرياً يزيد عن ثلاثين سفينة حربية كبيرة، بنيت حديثاً لهذا الغرض بخاصة وأعقبها سفن أخرى.. وبذلك انتظمت خدمة السفن التجارية، وأصبحت بمأمن من لصوص البحر، واختفت القرصنة في بحري الشمال والمانش.

أما في المتوسط فكان الأمر عسيراً، إذ تابع القراصنة هناك سلبهم وبشكل عنيف ومزعج. واقترح الفارس بول مهاجمتهم في قواعد تجمُّعهم، ومحاولة احتلال هذه القواعد. وحصلت محاولة خائبة لاحتلال موقع للقراصنة على ساحل فرنسا الجنوبي.. وطال الحصار وأصيب المهاجمون بأمراض سارية، فأخفقت الحملة عام (١٦٦٥) ومات الكثيرون. وانقلبت الحملة إلى كارثة على فرنسا، فاستبعدت فكرة احتلال قواعد القراصنة، واكتفي بتعزيز حماية السفن التجارية بمواكبتها بسفن حربية. وظل الحال كذلك ما يزيد عن عشرين عاماً، حيث عمل قادة السفن الحربية دون كلل على حماية وقتال ومطاردة سفن القراصنة دون هوادة.. فتحسنت أوضاع الملاحة في المتوسط.

في العام (١٦٨٠) استطاع دوكيزن[٩٢] Duquesne مطاردة القراصنة الطرابلسيين حتى مياههم الداخلية، ودمر العديد من سفنهم، حتى داعبته فكرة العبور إلى الدردنيل وملاحقة سفنهم هناك، ولجأ دوكيزن إلى ضرب مدن البرابرة والقراصنة بالقنابل بحراً، وعالج مدينة الجزائر عام (١٦٨٢) و (١٦٨٣). وجاء تورفيل فضرب طرابلس عام (١٦٨٣) وعام (١٦٨٨)، وكانت تلك الحملات باهظة التكاليف وكان مردودها ضعيفاً، ولم يمنع القراصنة من الإغارات المتتابعة، يفتنُّون بطرق الإغارات وبالأساليب الجديدة. وهنا لجأت فرنسا بعد استنفادها لكل الطُرق السابقة للأساليب الهادئة وبواسطة قناصل حكماء استطاعوا تجنيب سفن الملاحة التجارية الفرنسية في المتوسط الغربي بعض الصعوبات.

نظام المؤسسات

لكي يشجع كولبير الفرنسيين على إنعاش الأساطيل بإمدادها بالسفن الحديثة لجأ أولاً إلى

الترغيب بتوجيه ملكي رسمي. واعتبرت المساهمة في ذلك عملاً وطنياً يجزى بالألقاب والأوسمة.. وبخلع المنح المالية على بنائي السفن وعلى مشتريها، وخصّص مبلغاً من المال لتصدير بعض المنتجات الوطنية الفائضة، وأعفي بعضها من رسوم التصدير، ونقلها على سفن فرنسية، وأقام المستودعات الضخمة.. ثم خصص بعض المرافىء لمهام إعادة التصدير، ومرافىء مناطق حرة كدونكرك ومرسيليا وبايون.

اصطدم كولبير بصغار التجار ومطامعهم الكبيرة في الكسب السريع، فقرر تحجيمهم لصالح التجارة، فكان قرار إقامة المؤسسات التجارية على غرار مايحدث في هولندا وإنكلترا.

تألفت هذه المؤسسات من مجموعة كبيرة من التجار العاملين في القطاع العام. ومهمتهم إدارتها بحزم يفوق قدرات أعمال التجار المنفردين، والحد من أرباحهم الخاصة. وقد عزز كولبير هذه المؤسسات بإضافة إدارة التجارة البعيدة لها، وتضم تجارة المستعمرات، وكل فروع المتاجرة مع دول أوربة، وخرجت عن هذه المؤسسات شركات قطاع غام في الشمال (١٦٦٩)، ومؤسسة البيرينيه (١٦٧٠)، ومؤسسة الإتجار مع إفريقية (١٦٧٠)، ومؤسسة التجارة مع الشرق (١٦٧٨) ومؤسسات المتوسط (١٦٨٨).

لم تعمر تلك المؤسسات الفرعية كثيراً، وبقيت مؤسسة تجارة المستعمرات هي المتماسكة. وكان ذلك نتيجة مزاحمة الشركات الأجنبية المناهضة من جهة، ولقلة خبرات بعض العاملين فيها من جهة أخرى، لكن أسلوب التطبيق ترك أثراً إيجابياً كبيراً. وتم تركيز الأعمال التجارية وجمعها ضمن مرافىء هامة، أخذت تزدهر وتتعاظم، فبرز ميناء دونكرك للتجارة الخارجية، وسان مالو لعمليات الصيد ولاروشيل على المحيط للتجارة مع أمريكا، وميناء نانت مع إفريقية، وتخصص ميناء بوردو بالإتجار مع جزر الآنتيل، وميناء مرسيليا بعمليات الشرق، وبالذات الجزائر وشمال إفريقية.

النتائج البعيدة لإصلاحات كولبير

كانت لإصلاحات كولبير وابنه من بعده آثار بعيدة منها:

ــ تضاعف حجم الأسطول التجاري البحري من (٧٥٠) سفينة إلى (٧٦٤٥) سفينة صغيرة ومتوسطة.

ــ تزايد حجوم عمليات التصدير، حيث شهدت فرنسا بين أعوام (١٦٦٠ ــ ١٦٨٠) عهداً تجارياً مزدهراً.

بعد تلك الحقبة الذهبية من تاريخ فرنسا المزدهر هجمت الشيخوخة على هذه الدولة، وتراجعت النشاطات، وتضاءلت الفوائد.. واجتاحت البلاد أمراض شتى على أثر الحروب الطويلة التي خاضتها، فمات الكثيرون وتناقص عدد السكان، وبدأت مظاهر الحرمان تبدو جلية. وظلت فرنسا تتخبط حتى السنين الأولى من القرن الثامن عشر، حيث عادت نهضتها من جديد (١٧١٥ــ ١٧٤٠) وقامت حكوماتها تسترشد بدروس أسلافهم الكولبيريين.

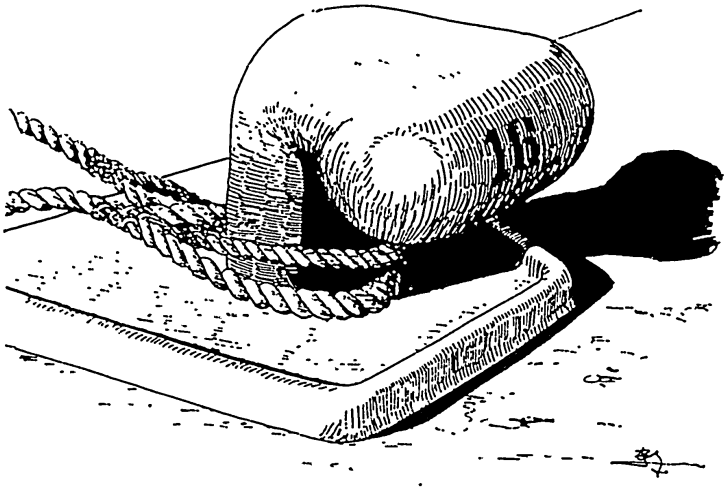

الفصـــل السـادس

الحـرب البحـريـة الكبـرى
إبـان عهـد لـويس الـرابـع عشـر
حـرب هـولنــدا

سياسة لويس الرابع عشر والبحرية

في غمرة السلام الذي خيم على دول أوربة بلغت أعداد السفن الحربية الفرنسية بين أعوام (١٦٨٠) و (١٦٩٠) (٨٠) سفينة كبيرة .. وكان ذلك دافعاً كبيراً للملك في السير على طريق بناء مجد بحري لفرنسا ، يظهره للعالم أجمع . أما بالنسبة للعقيدة القتالية الفرنسية فقد أصابها تطور كبير فرض أسلوباً للتدريب ، يعمل على رفع مستويات القوات العاملة في البحر من قادة وطواقم وإدارات .

جاءت عملية حماية التجارة البحرية بضرورة تعزيز ودعم القـدرة البحريـة .. وأخـذت تشكيلات الأسطول وسفنه القوية تقوم بحراسة القوافل التجارية .. وتعطي تنقلها في البحار أسلوباً منظماً ومدروساً ، وبمردود جيد ، بالتعاون مع خفر السواحل من قلاع وحصون . ولما هلّ عصر المشاريع الاستعمارية المكملة لعصر استعمار الأرض ، ابتعدت الأساطيل عن مياه أوربة ، وانتشرت القدرات البحرية الفرنسية والإنكليزية والهولندية في غينيا الجديدة ، وجزائر الآنتيل ، وسواحـل أمريكا ، وسواحل الهند بشرقيها وغربيها ، واكتسب القادة والملاحون خبرات جديدة ، وحساً بحرياً كبيراً ، صعّد صفات الشجاعة والإقدام ، وحسن التصرف . ولقد أثبتت الأحداث البحرية بما

لا يدع مجالاً لأي شك، أن الارتباط البحري بين الأساطيل التجارية والأساطيل الحربية كان وثيقاً وحازماً، ولعب دوراً كبيراً في مدى التوسع الاستعماري وظروفه.

لقد تعاون المستعمرون ضمن تحالفات شتى يساند بعضُهم بعضهم الآخر بتشكيلات بحرية ترسل على عجل للتدخل والمعاونة، وأحياناً للإخضاع بالقوة. فمثلاً أعانت فرنسا البابا بإرسال تشكيلات بحرية مساندة عززت وضعه الداخلي، وكذلك أمدت دولة البندقية ودولة الدانمرك بحراً ضد الإسبان والهولنديين، حتى إن العديد من الحروب البحرية المحلية نشبت بغرض إيجاد عمل للسفن الحربية، ولتدريب الطواقم من ضباط وبحارة.

عرف عن لويس الرابع عشر طموحه الشديد في جعل فرنسا البلد الأوربي الأول، وهو ملكها الأكبر. وحوّل تلك الطموحات إلى تحرك عملي، لكن هذا التحوّل جاء مضطرباً قلقاً بعيداً عن المنطق، عدائي الصورة، فأوقع فرنسا في ورطة مع البلدان الأخرى، لم تحسم إلا بحروب شرسة، أعادت فرنسا إلى سابق عهدها في التخلف.. والملك شارد في أحلامه، أسير أفكاره، واقع تحت تأثير مازاران وطموحاته، في تحقيق إمبراطورية لفرنسا تحاكي إمبراطورية روما، أو شارلمان، أو شارل كنت.

تصرفت فرنسا مدفوعة بشهوة مليكها المتغطرس تصرفاً أرعن في قضية الراية Pavillon، ورفضت الانحناء أمام ادعاء الإنكليز بسيادتهم على البحار. وقصة الراية حدثت بعد أن أصدر الملك مرسوماً (١٦٦٥) ينص على أن تحيّا السفن الحربية الفرنسية أولاً من قبل جميع سفن الشعوب الأخرى (الفرنسي عنصر مميز). وكان هذا المرسوم بمثابة تحدٍ لكل قوى أوربة البحرية. وحدثت حوادث ومجابهات عدة أظهرت عنصرية فرنسا وتعاليها. ففي عام (١٦٨٥) تقابل تورفيل وشاتورونو في مياه اليكانت الإسبانية بالأميرال الإسباني باباشيم Papachim، فطلبوا منه تحية الراية الفرنسية، ولما رفض هذا الأخير تقدمت التشكيلات الفرنسية، وفتحت نيرانها على تشكيل إسبانيا علماً بأن الزمن زمن سلم. ونظراً لتفوق الفرنسي العددي وبعد قتلهم العديد من رجال باباشيم انصاع هذا الأخير وقدم التحية. وكان لحادث الراية هذه أثره الكبير في البلدان الأخرى، واعتبر إهانة دولية لا يمكن قبولها، إذ يستحيل التعايش سلمياً مع أمة متغطرسة كبيرة، لا تقيم كرامة للآخرين ولا تحترم مشاعرهم.

طلع ملك فرنسا على أوربة بفكرة جديدة إذ اعتبر نفسه بطل المسيحية الموحدة ونصيرها

أمام المنحرفين، وسارع بدهاء محاولاً إبعاد الأتراك عن المسرح الأوربي. وكانت حملات البحرية ضد قراصنة المتوسط بداية لهذه الحملة.. ثم أرسل كوليني إلى هنغاريا يهادنها (١٦٦٤)، وبوفور إلى كاندي (اليونان) (١٦٦٩) يخطب ودها، وبذلك يكون قد حقق الفصل الأول من مسرحيته.. لكن الإخفاق لازمه في كل مشاريعه، ولم يستطع خداع جيرانه بتلك التظاهرات الكاذبة.. حتى البابا.. رفض تصرفاته.. فتراجع عن مخططاته، وعاد إلى أسلوبه القديم، وأعاد تحالفه مع تركيا ضد أعدائه التقليديين.. وعندما هاجم العثمانيون فيينا عام (١٦٨٣) وحاصروها، قام ملك فرنسا بهجوم على اللوكسمبورغ عند الجانب الغربي من مملكة فيينا، وبذلك قضى على الصلات القديمة التي كانت قائمة بينه وبين بروتستانت ألمانيا وهولندا، بالإضافة إلى عداء الإنكليز له.. ثم جاءت قضية إرث عرش إسبانيا. ولقد اعتبر لويس الأمر محلولاً عند إجرائه مفاوضات البيرينيه مع إسبانيا، وعند عقده الرباط العائلي بتزوجه بماري تيريز ابنة الملك فيليب الرابع. وتفاعلت قضية البائنة الضخمة لذلك الزواج، والتي بلغت (٥٠٠ ألف ريال ذهبي قديم)، والتي لم تدفع بموعدها، واحتفظت الملكة بحقها فيها، وكان خليفة فيليب الرابع ابن شارل الثاني ضعيفاً معتوهاً.. وبدأت أوربة تطالب ملك إسبانيا الجديد بالديون، وعلى رأسهم ملك فرنسا مطالباً ببائنته الكبيرة.. واستمرت المطالبات أربعين عاماً دون طائل، وجاءت الحرب حسماً لها.

حرب نقل الوصاية والحرب الثانية الأنكلو هولندية

بموت فيليب الرابع عام (١٦٦٥) طالب لويس الرابع عشر مؤكداً حقوق زوجته بامتلاك الأقاليم المنخفضة الإسبانية كحصة إرث. وبدأت المناقشات والمداورات، وفرنسا تعد العدة لشن الحرب.. في أثناء ذلك انفجرت الحرب الانكلو هولندية الثانية.. وأرسل الهولنديون يطالبون الفرنسيين بمد يد المساعدة لهم طبقاً لمعاهدة التحالف للعام (١٦٦٢).

كره لويس دخوله الحرب ضد الإنكليز، وهو الذي يسعى لإصلاح موقفه منهم، لكنه دفع إليها دفعاً تمشياً مع معاهدة الصداقة الفرنسية الهولندية. وأرسل دوق بوفور على رأس ثلاثين سفينة بحرية حربية إلى بحر المانش.

اتهم المؤرخون لويس بتظاهره بالمساعدة فقط،.. وصل بوفور بحر المانش في نهاية الصيف، نتيجة صعوبات ملاحية لأسطول قليل التنظيم،.. ومن دييب قاتل بوفور وقاتلت سفنه خلال أربعة أيام قتالاً مشرفاً.. وعندما توقفت العمليات البرية توقف الاشتباك بحراً، وأعلن عن اجتماع بريدا

للصلح في العام (١٦٦٧) .. ووقعت معاهدة تخص جميع الأطراف المتنازعة، وتنهي القتال. لكن هذه الحرب التي فرضت على فرنسا جاءت مزعجة لخطط مليكها، ومتضاربة مع إعداداته القتالية ضد إسبانيا.

الحلف الثلاثي

إذا كان السلام قد عاد بسهولة بين هولندا وإنكلترا فلأنهما شعرتا بالخطر المحدق بهما، بعد أن اجتاحت قوات لويس الرابع عشر الفلاندر الإسباني في صيف عام (١٦٦٧) ثم احتلال فرانش كونتيه عام (١٦٨٨).

أخذت القدرات البحرية العالمية بعد تلك الاشتباكات تأخذ صورة جديدة تعبر عن طموحات كل بلد في اقتسام الأراضي المنخفضة الإسبانية بين هولندا وفرنسا. وتفاقمت مخاوف الإنكليز، إذ بعد كاليه ودونكرك ها هي اوستند وآنفرس تغدو معاقل معادية أمام البر الإنكليزي.

تحركت إنكلترا ضد فرنسا، وأقامت حلفاً ثلاثياً ضم السويد، وجعل فرنسا تستكين وتقبل بمعاهدة اكس لاشابيل عام (١٦٦٨). وأعادت على أثرها فرانش كونتيه، واحتفظت فقط بنصيبها من الفلاندر الإسبانية، منتظرة ظرفاً أكثر ملاءمة، لكنها استمرت متابعة استعداداتها الحربية للثأر من هذا الحلف المضاد الجديد.

ولكي تستطيع فرنسا مجابهة أقوى الدول البحرية في الحلف (هولندا ــ السويد ــ إنكلترا) كان لا بد لها من حليف قوي بحراً. ومع أن إنكلترا كانت قد هادنت ولو لفترة خصمها. وكان ذلك بعد معاهدة دوفر التي وقعت في ١٢ حزيران (١٦٧٠)، ووضعت أسس وشروط التعاون الانكلو ــ فرنسي، ووعدت فرنسا حليفتها الجديدة بالكثير.

شعر الهولنديون بالمؤامرة تطوقهم ثم تشتد عليهم في العام (١٦٧١)، فحاولوا بالطرق الدبلوماسية تدارك الأمر، لكن رُفضت كل مناوراتهم، وأعلنت الحرب على هولندا من قبل الملك شارل الثاني ملك إنكلترا في ٢٩ آذار، ومن قبل لويس الرابع عشر ملك فرنسا في ٦ نيسان من العام (١٦٧٢).

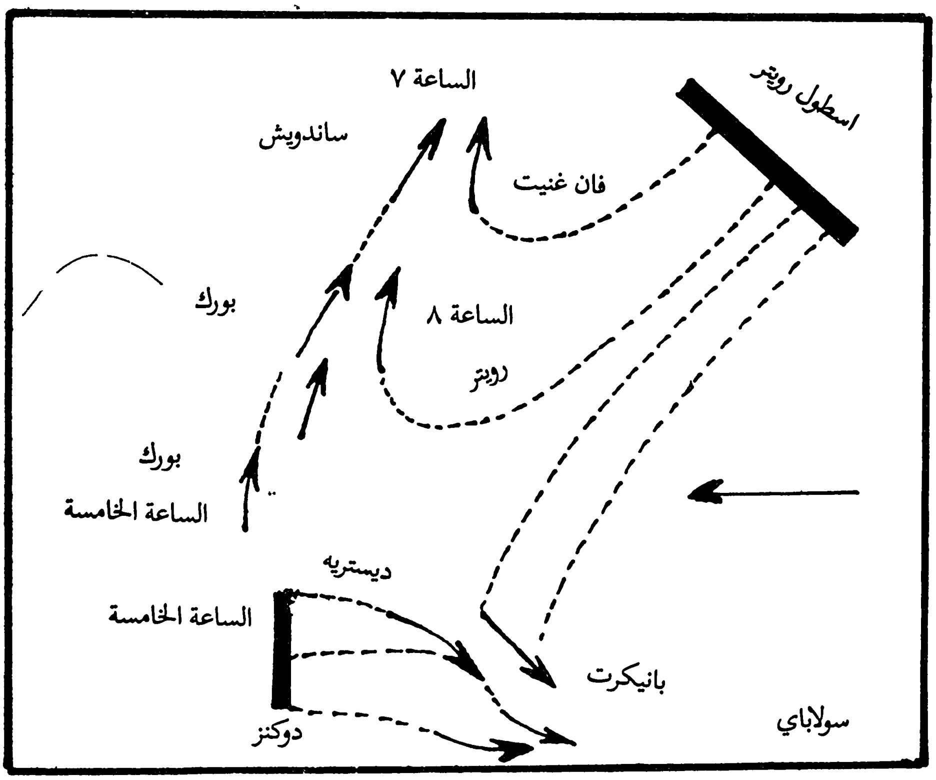

٧ حزيران ١٦٧٢

الحرب الثالثة الانكلو هولندية

حملة عام (١٦٧٢) ومعركة سوليباي Solebay

اقترح لويس مهاجمة هولندا براً بجيش عظيم، يزحف عليها من لييج وكولون.. خصوصاً والهولنديون وحدهم دون حليف.. وكانت نتائج الزحف البري خطيرة على هولندا، ولا سيما أن موقفها البحري تغير بعد أن قامت أساطيل الحلف الجديد المضاد بدفع القوات البحرية الهولندية إلى داخل موانئها، وإنزال بعض القوات الغازية على البر الهولندي لمساندة الجيوش البرية الزاحفة من لييج وكولون، ولتطويق نهر الرين.

اتهمت إدارة البحرية الفرنسية بتقصيرها في الإعداد للحرب من تحضير وتعبئة، واتسمت البحرية البريطانية بالتكلف والمحاباة، وتقديم المحسوبين المنحلين. حتى أصبح مردود سلاح بحر إنكلترا أيام الجمهورية يفوق تنظيماً وإعداداً عنه أيام الملكية.. ومع أن بريطانيا قد باشرت عملياتها الحربية منذ ٢٣ آذار بهجومها على قافلة هولندية في بحر الشمال، إلا أن أسطولها العام الذي يقوده

دوق يورك لم يصل لدرجة الجاهزية والاستعداد إلا بعد شهرين من بدء العمليات. وكان أسطول فرنسا الحليف بقيادة ايستريه إلى سبيتهيد Spithead قد وجد نفسه وحيداً في ساحة المعركة. ولولا تواطؤ إقليم زيلندة الموالي لجان ويت، وتأخّره في إعداد السفن الحربية الهولندية المدافعة لاستطاع رويتر وبكل سهولة سحق أساطيل المهاجمين إفرادياً، ولضاعت فرصة على رويتر الهولندي نتيجة تأخير تخريبي مفتعل. وفي ٢٩ مايس التقى الأسطولان المهاجمان الفرنسي والإنكليزي في مضيق كاليه، ورويتر لا يملك إلا (٧٥) سفينة حربية للدفاع عن بلاده ضد (٩٨) سفينة مهاجمة.

تصرف رويتر بذكاء وفطنة، وبدأ عملياته البحرية بمناورة حربية جعلته يقترب من السواحل الهولندية متوقعاً أن بعض القوات الإضافية التي وعد بها ستنضم له لكن الضباب الكثيف امتد بين أساطيل المتحاربين. وخشي دوق يورك تعريض سفنه للجروف الرملية الفلمنكية فآثر التوقف عن المطاردة، والعودة بسفنه ليرسو بها في مأوى ساوثوود وسوليباي، على ساحل سوفولك، لإتمام تموينه، ولانتظار انقشاع الضباب.

استغل رويتر هذا الظرف وتقدم عرضانياً وفاجأ السفن، وكان ذلك صباح السابع من تموز، وقسم كبير من بحارة السفن الإنكليزية على البر.

هاجم الأميرال الهولندي بـ (٦١) سفينة كبيرة، وثمانين سفينة صغيرة، وكان على الجميع (٤٤٨٤) مدفعاً و (٢٠ر٧٣٨) رجلاً، وكان الأسطول الإنكليزي يضمُّ (٧١) سفينة كبيرة و (٧٥) سفينة صغيرة حملت (٥١٠٠) مدفع و (٢٣١٨٦) رجلاً. وكانت الريح شديدة. وتعصف من الشمال الشرق، وتدفع بالسفن المهاجمة بسرعة. واحتدم القتال عنفاً والأسطول المهاجم يصب حمم مدفعيته جبهياً، يتقدمه نسق من الحرّاقات.

أقلعت سفن الحلفاء (سفن دوق يورك) بفوضى عارمة وقطعت السلاسل وأرسلت إلى الماء، وتركت المراسي في قاع البحر، واندفعت سفن الطليعة وسفن مركز التشكيل آخذة بالريح عن ميمنتها، فعرض الحلفاء سفنهم «للانحشار» في مناطق ضحلة خطيرة في ميناء (لولسيتوفت) على شاطىء بحر الشمال. وفجأة اضطرب الأسطول الفرنسي دون مبرر، وانشق عن التشكيل الحليف، واتخذ الريح عن الميسرة، واتجه جنوباً، وبشكل معاكس للوحدات المشتبكة. وكانت مناورة سيئة أبعدت الوحدات الفرنسية عن مركز القيادة، وحجبت الكثير من مدافع الصديق، وجعلت نفسها عديمة النفع طيلة نهار المعركة.

هذه المناورة الفرنسية الخاطئة خدمت فعالية خطة رويتر القتالية التي كان يسعى إليها منذ بدء القتال. ودون أن يقلق من الكونت ايسترس وتشكيله أفرد له عدة سفن تابعة لبانكيرت Bankert تشاغله طيلة النهار، ثم انقض بكل قواه على قوات الدوق يورك يستفرد بها. وانعدم التوازن العددي ومال ميزان القوى نحو رويتر.. وقاتل الإنكليز عدواً تفوق بالعدد والعدة، واستمرت المعركة بضراوة وعنف حتى المساء، إذ أطلق (٤٠٠) ألف قذيفة مدفع. وعندما هبط الظلام انسحب رويتر نحو عرض البحر، ثم نحو مرافئه تاركاً الإنكليز يضمدون جراحهم.

كانت خسائر رويتر ثلاث سفن كبيرة، في حين احترق للإنكليز (٤) سفن كبيرة، غرقت جميعها، وأعطبت عدة سفن أخرى، وقتل وجرح للإنكليز (٢٥٠٠) رجل، من بينهم نائب الأميرال الكونت ساندويش. أما خسائر الفرنسيين فلم تكن كبيرة، لأن قسماً كبيراً من أسطولهم لم يشترك في المعركة.

اضطرت غالبية السفن الإنكليزية للعودة إلى الموانىء، ودخول ورش الإصلاح للإصابات العديدة.. وتوافق ذلك تشقق ببعض السدود الهولندية مما جعل الأقاليم الشمالية تنجو من الهجمات البرية الآتية من الداخل. وامتنعت الاتصالات بين الوحدات النازلة على الساحل والقوات الفرنسية البرية المتقدمة، ورويتر لا يملك إلا (٤٨) سفينة مطقمة (سحب قسم من أطقم سفنه الأخرى ليعملوا على البر وليطقموا السفن النهرية، لتعمل في القنوات والمناطق التي غمرتها مياه البحر)، لكنه استطاع رغم ذلك برمجة عملياته، والتحكم بحسن استخدام قواته، حيث لجأ إلى المناطق الضحلة من مدخل نهر الموز فرسا بسفنه هناك مبتعداً عن سفن الحلفاء، وليتفادى كل اشتباك غير متكافىء مع مهاجمين أكثر عدداً أو عدة.. عرف عن السفن الهولندية قلة الغاطس فهي تستطيع الاقتراب في المنطقة الضحلة في حين أن سفن الإنكليز، والفرنسيين عميقة الغاطس تخشى الأماكن الضحلة.

وبالنسبة للأسطول الحليف أحسّ بالخيبة نتيجة اشتباكات شهر تموز. وبعد أن قام بعدة مناورات مضطربة غير مدروسة قرر قادته ترك الساحة، ودخول الموانىء لينتظر فيها حتى ٢٠ ايلول. ورفعت أطقم السفن وأعفيت من جميع مهامها حتى المهام الصغيرة المتعلقة بقطع طرق قوافل الهند التي تؤم هولندا.

عم الاستياء البلدين الحليفين فرنسا وإنكلترا، وأبعد القائد الفرنسي ومعاونه، كما واجه دوق يورك اللوم، ووصف بالإهمال، وسحبت منه كل صلاحياته كأميرال أول. لكن يجدر الاعتراف

بأن السبب الأكبر لما حصل للحلفاء كانت نتيجة المواهب الفذة التي كان يتحلى بها القائد الهولندي رويتر ولقد كتب كولبير يقول:

«لست أعتقد أنه بالإمكان تحقيق كل ما قام به رويتر، وكلي اعتقاد أن إنساناً يقوم بإنجاز مماثل لا بد وأن يفخر بنفسه»

وفي الحقيقة فقد استطاع رويتر منع الحلفاء من مهاجمة السواحل بحراً في أثناء تقدم القوات البرية من الجانب الآخر (مرور نهر الرين ١٢ حزيران)، فجنب بلاده كارثة مروعة، فهذا الأميرال الكبير استطاع تحقيق ما لم يستطع رجال السياسة تحقيقه. وإذا استطاعت هولندا الخلاص من الاحتلال الأجنبي، ومنع تجزئة البلاد، فذلك يعود لشجاعة ورباطة جأش ومبادهة هذا البحار العظيم الذي قاتل أسطولي فرنسا وإنكلترا مجتمعين، ولاحقهما حتى الشواطىء البريطانية.

حملة عام (١٦٧٣) ومعركة شوتفيلت

تبدلت الأوضاع في العام الذي تلا وجاء غليوم أورانج الدكتاتور العنيف الذي حكم هولندا بعد موت ويت، واستطاع توحيد كل القوى المحيطة ضد فرنسا، حتى يوقف أطماعها في المنطقة. وأقام حلفاً كبيراً مضاداً لفرنسا، ضم براند بورغ (مقاطعة في ألمانيا) والدانمرك، والأمارات الألمانية، وإسبانيا التي التزمت جانب الحلف الكبير في لاهاي ٣٠ آب (١٦٧٣) وبدأت المناوشات، ففي ايلول تحركت الإمبراطورية الألمانية، وفي تشرين الأول هاجمت إسبانيا، لكن هولندا الخارجة لتوها من حرب طويلة مع فرنسا لم تستطع الاشتراك بمجهود حربي كبير. وانتقل الدور الرئيسي للأسطول الفرنسي للدفاع عن سواحل البلاد. وجاء الأمير البلاطي (من البلاط الإمبراطوري) روبيرت الإنكليزي واستلم قيادة أسطولي فرنسا وإنكلترا، وأعطى أوامره بحصار السواحل الهولندية، وسد كل مداخلها، واعتراض كل إمداد أو تموين بالمواد الغذائية لها. وأخيراً حقق إنزال بعض الوحدات العسكرية الاستطلاعية على الساحل الهولندي، وكانت قد تجمعت في يارموث وقامت بإعداد تلك العملية (٥٤) سفينة إنكليزية و (٢٨) سفينة فرنسية.. أما قوة هولندا البحرية وبرغم التضحيات الكثيرة التي قدمتها، والمهام العديدة التي طلبت منها لصالح الجيش البري فقد استطاعت تأمين قوة مماثلة، وبحدود (٨٠) سفينة حربية، لكن حماية القوافل التجارية امتصت نصف هذه القوة.

ما إن استطاع رويتر تعبئة (٥٠) سفينة حربية لحماية مدخل نهر الموز حتى ظهر له في

الأفق روبيرت الإنكليزي وايستريه الفرنسي قادمين من فتحة نهر التايمز .. فاضطر رويتر وللمرة الثانية للانتظار والترقب. وراح فَرَسا بسفنه في المنطقة الضحلة من شونفيلدت محتمياً وراء جزيرة والشيرين. ومنع بذلك كل عمل على السواحل الهولندية والزيلندية (القسم الجنوبي من هولندا) وليخرجه الحلفاء من مخبئه الحصين، أثاروه بمفرزة بحرية من أسطولهم اقتربت منه فأقلع بسرعة واستطاع تدمير وإبادة سفن المفرزة، قبل أن تستطع القوة الرئيسية المهاجمة من التدخل.. ثم تقابل الجمعان ونشب قتال كيفي وبفوضى عظيمة كل وحدة تقاتل حسب رغبتها حتى المساء، ثم انسحب الخصمان إلى مرافئهما دون نتائج واضحة. وكان ذلك في ٧ حزيران عام (١٦٧٣).

في ١٤ حزيران وعلى أثر تغيير مفاجىء في اتجاه الريح وسرعتها، استغل رويتر الظرف وبدأ هجومه، وللمرة الثانية ظهر الحلفاء بمظهر الخائبين.. وتحت وابل حمم الهولنديين أضاعوا فرصتهم.. وروبيرت يتردد في تعديل أوامره حتى إنه تعرض هو نفسه وعرض سفينته لنيران رويتر.. وأخيراً استطاع اتخاذ تشكيل النسق القتالي لكن العديد من سفنه لم تستطع الانتظام في التشكيل (اتخاذ المواقع بالسفن الشراعية مناورة في غاية الدقة والصعوبة، لأن الاعتماد كله يقع على الريح) وتجاوزته لريح العدو فوقعت بين نارين وتدخلت الحرّاقات الهولندية فمنعت سفن الحلفاء من التوغل، وانتهى القتال. واستطاع رويتر الانسحاب والعودة إلى مرساه في المنطقة الضحلة، دون خسائر تذكر، في حين كانت خسائر الحلفاء كثيرة. وأصيب العديد من سفنهم إصابات فادحة، واستهلكت القسم الأعظم من ذخائرها، حتى باتت مضطرة للعودة إلى المرافىء الإنكليزية للإصلاح، وتعويض المستهلك.. وللمرة الثانية يسيطر رويتر على بحر الشمال، وتخلو له الأجواء من جديد، وتغدو سفنه تذرع المنطقة وتصل حتى فتحة نهر التايمز، وترهب التجار الإنكليز، وتدب الفوضى في مرافئهم.

عاد الإنكليز مع حلفائهم بالظهور ثانية خلال شهر آب مدفوعين بعنادهم الذي اشتهروا به. وسعوا بأسطول حاشد كبير لمهاجمة السواحل الهولندية، ليثأروا للعار الذي أصابهم على أيدي الأميرال رويتر. ودخلوا نهر الموز ونشروا الفوضى فيه، وأعاقوا ملاحته، وحاولوا القيام بعملية إنزال على شواطىء زيدرزيه Zuyderzeé.

هاج الشعب الهولندي وماج، وهب يطالب الأميرال رويتر بالخروج لإبعاد المصيبة عن موانئهم، وحثوا الأسطول على القتال، وحتى لو أدى ذلك إلى اشتراك كل القوى البحرية في معركة حاسمة وسيفاً لسيف.

أقلع الأميرال الهولندي في ٢٠ آب على رأس أسطوله لملاقاة أسطول الحلفاء. أمام شيفينيغن

Scheveningen ، وكانت الريح قوية تهب من عرض البحر وتمنع أسطول هولندا من حرية المناورة والقتال ، فاقترب رويتر وسفنه معروفة بغاطسها القليل والتجأ إلى الأعماق القليلة قرب الشواطىء ، ينتظر ظروفاً جوية أفضل .

وفي ٢١ آب هاجم التشكيل الحليف سفن رويتر والريح تأتيه من مؤخرته . ووقع الهجوم بين كامبير دبون ونيكسيل . وكانت معركة مجزأة إلى سلسلة من المعارك المميزة ، ففي المقدمة اندفع سبراغ Spragge بعامل حقد شخصي قديم يقاتل ترومب في ملحمة غاضبة ، فجمد بمكانه ونسي اللحاق برئيسه .. أما في المؤخرة فكان ايستريه على رأس ثلاثين مركباً يناوش العشرة المراكب الهولندية التي تحت إمرة بانكير Bankert مبتعداً عن مسرح المعركة الرئيسي ، ثم سمح لخصمه الهولندي بتجاوزه ليدخل إلى قلب المعركة . وتقاعست مراكب الفرنسيين بعيداً في حين كان روبرت الإنكليزي وسفنه العشرين تقاسي في قلب المعركة هجمات السفن الهولندية ، وتتلقى حمم مدفعيتهم الغاضبة المدافعة عن مدخلي الموز وزيلند .

وفي صباح اليوم التالي اقترب الفرنسيون من حلفائهم ثانية .. وكانت سفن الحلفاء (٩٠) سفينة مقابل (٧٠) سفينة للهولنديين وبتفاضل بسيط .. احتدم القتال .. حتى وقع القائد الفرنسي نتيجة خطيئة في تفسير إشارة أعطيت له من سفينة القيادة ، وفهم الإشارة على أن عليه الرسو بعيداً وفي موقع حساس ، فأساء بذلك دون علمه إلى خطة القائد العام ، وانتهت المعركة بانسحاب رويتر الهولندي سالماً نحو سواحل بلاده ، بعد أن طرد الغزاة من مياهها .

جاءت الخسائر بالرجال عالية لدى الطرفين المتحاربين ، أما النصر فقد عقد للهولنديين لطردهم الغزاة . وانهارت الحماسة الانكلو فرنسية ، وجرجرت وحداتهم البحرية أذيال الخيبة إلى مدخل نهر التايمز ، لإجراء الإصلاحات اللازمة ، في حين عاد رويتر إلى أهله مظفراً بعد أن رفع الحصار عن موانىء بلاده ، وأعاد حرية حركة أسطولها التجاري ، وسمح للقوافل الآتية من الهند بالدخول بأمان .. فاستقبله الشعب الهولندي استقبال الفاتحين ، وباركوا تفانيه وإخلاصه ، بعد أن دفع بالخطر بعيداً عنهم وعن قوافلهم التجارية .

عودة السلام بين هولندا وإنكلترا

دب خلاف حاد بين الحليفتين فرنسا وإنكلترا على أثر اتهام الفرنسيين بالخيانة وعدم الكفاءة ، وأن الملك لويس أوعز لأميراله بعدم القتال إلى جانب الحليفة إنكلترا بجدية . ولا شك في أن

هناك صحة في بعض هذا الاتهام، إذ لا شيء يسعد ملك فرنسا من أن يرى الإنكليز والهولنديين على السواء يستنفذون كامل قواهم لتفرغ الساحة البحرية منهم. ومما يؤكد صحة الاتهام قيام كولبير باعتقال الماركيز مارتيل، ووضعه في سجن الباستيل، وهو مساعد ايستريه الذي ترددت القصة على لسانه.

اضطر شارل الثاني ملك إنكلترا احتراماً لضغط الرأي العام البريطاني إلى عزل روبيرت وتجريده من جميع صلاحياته، نظراً لإخفاقه في الحرب.. واعتبر مسؤولاً عن ذلك الإخفاق خصوصاً وإنكلترا قد خاضت بغباء معارك عديدة لمساعدة الفرنسيين، ولم تجن من تلك المعارك إلا الهزيمة والعار. ويمكن وصف الحلف الإنكليزي الفرنسي، بحلف غير شعبي للخلافات العميقة بين البلدين.. ولولا حقدهما المشترك على الشعب الهولندي لما اندفعا في إقامة مثل هذا الحلف الخائب.

لمس الإنكليز طموحات لويس الرابع عشر اللا محدودة، والتي تنذر بخطر حقيقي سيمس استقلالهم.. وأن المساندة الحربية لفرنسا جاءت لصالح ملك طموح ذي أطماع واسعة، ولصالح البابوية عدوة الكنيسة البروتستانتية، مذهب الإنكليز ومذهب الهولنديين.

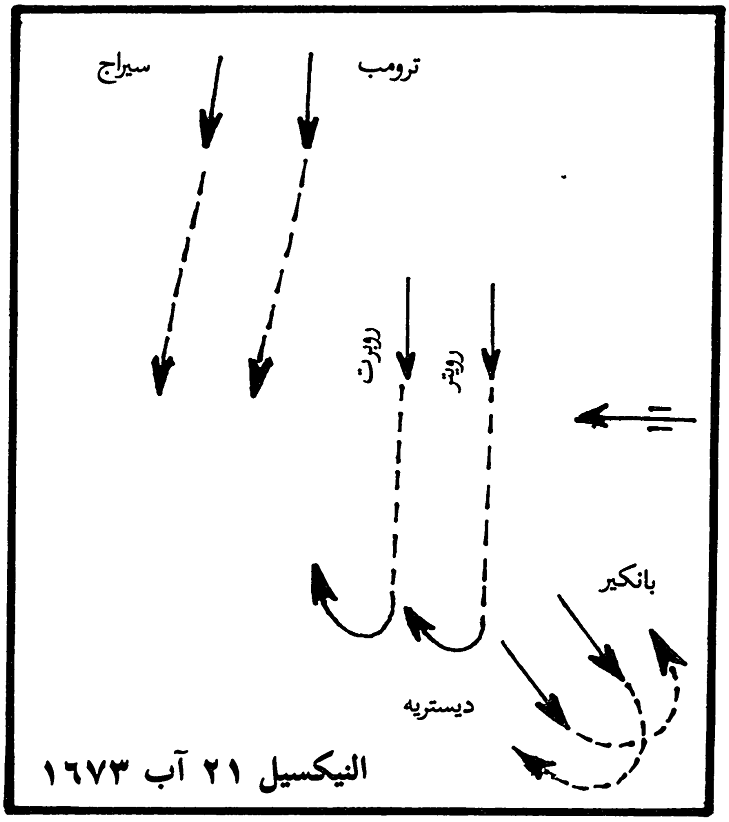

وجاء رد الفعل عنيفاً لدى الجماهير البريطانية، إذ كيف تتحالف إنكلترا البروتستانتية مع الكاثوليكية الفرنسية ضد بروتستانت هولندا؟. وشعرآل ستيوارت بأن مغامراتهم خطيرة. وقد تفقدهم التاج البريطاني، فسارعوا في رأب الصدع وعقدوا في ١٩ شباط عام (١٦٧٤) معاهدة مع الهولنديين، تبدأ في إقرار السلام بين البلدين لتنقلب مع الزمن إلى حلف ثابت قوي الرباط.. وبدأت مظاهر تعزيز هذا الحلف تظهر بأشكال عدة، منها قيام حاكم الأقاليم البطل الشعبي البروتستانتي غليوم أورانج بالزواج من الأميرة ماري الوريثة الشرعية للتاج البريطاني.

استمرار العمليات بين فرنسا وهولندا وإسبانيا

حملة ترومب قرب الشواطىء الفرنسية عام (١٦٧٤)

تغيرت صورة الحرب فبدلاً من أن تقاتل فرنسا هولندا بمعونة. إنكلترا وجدت نفسها تقاتل أوربة بأسرها، أوربة التي تحالفت ضد التوسع الفرنسي، لكن ذلك لم يكن ليكدر لويس الرابع عشر ووزراءه، إذ كتب لوفوا[٩٣] Louvios يقول «وأخيراً بدأت إسبانيا الحرب» وهذا يعني استبدال مسرح معاركهم في الأراضي الهولندية الصعبة الاحتلال إلى مسرح غني سهل الاحتلال، هي مقاطعات الفلاندر الإسبانية، والتي يدافع عنها جيش إسباني ضعيف العدة. وبالفعل وصلت القوات الفرنسية وبسرعة حتى جنوب نهر الراين، واجتاحت الأقاليم الإسبانية.. فتخلصت هولندا من خطر الاجتياح الفرنسي، ودفعت إسبانيا الثمن غالياً بدلاً عنها.

توقف القتال في البحار، بانتظار إعداد أسطول متفوق، يتطلب الجهد والمال وكانت موارد فرنسا قليلة، وأسطولها (٧٤) سفينة حربية لايستطيع مجابهة أسطولي هولندا وإسبانيا مجتمعين. أما أن تتعرض فرنسا لهجوم بري فهذا بعيد الاحتمال نظراً لضعف القوات البرية الهولندية. ومع ذلك طلب الملك لويس الرابع عشر من جميع وحداته البحرية التزام الموانىء لمضاعفة الدفاعات البرية، خصوصاً وترومب يجوب البحار المجاورة للساحل الفرنسي، خلال شهري تموز وآب، مروراً من بحر المانش وحتى خليج غاسكونيا، يفتش عن نقطة ضعف على الساحل لينفذ منها. ولما كلّ من ذلك ظهر في المتوسط إلا أن ظهوره لم يدم طويلاً، وقفل عائداً خلال شهر ايلول إلى موانئه الهولندية لقرب فصل الشتاء، وارتاحت السواحل الفرنسية من الإزعاجات الهولندية.

حملة جزر الآنتيل

تحولت العمليات الحربية بين المتخاصمين لحروب في جبهات ثانوية كجزر الآنتيل وجزر

المتوسط. وأرسلت هولندا إلى بحار الآنتيل الأميرال رويتر، لعله ينتزع بضع جزر تقع تحت سيطرة فرنسا، فنجح في احتلال كايين، لكنه أخفق في المارتينيك. عندها قام الأميرال ايستريه(٩٤) يثأر بمحاولة احتلال جزيرة تاباغو التابعة لهولندا، إلا أن مدفعية البر الهولندية الضخمة والعديدة منعته من تحقيق خطته، ووقعت معركة بحرية حامية بين السفن الهولندية، تساندها الحصون الساحلية والسفن الفرنسية المهاجمة، فجاءت الخسائر فادحة للطرفين، احترق فيها للهولنديين سبع سفن وخسر الفرنسيون ثلاثاً، وفر ايستريه ببقية تشكيله، وخرج من الخليج بصعوبة، وتحت وابل كثيف من قذائف مدفعية الجزيرة، والتجأ حزيناً إلى غريناد، بعد إخفاق حملته، وطالب بلاده بإرسال تعزيزات بحرية سريعة. وبالفعل وصلته تشكيلة تعبوية فعاود على أثر وصولها هجماته، وكان ذلك خلال شهر تشرين الأول، وضرب عدة منشآت هولندية ساحلية ثم دخل حوض تاباغو، وأنزل بعضاً من قواته على البر، وعززها بمدفعية الأسطول، وحاصر المنطقة لمدة أسبوعين، واستطاع إسكات مدفعية القلعة المشرفة على الحوض، وتم له احتلال الجزيرة في ٢٩ كانون أول (١٦٦٧) بعد استسلام الحامية.

رأى ايستريه الاستمرار في مهاجمة المستعمرات الهولندية في المنطقة، وقرر احتلال المستعمرة الهولندية الرئيسية كوراسو Curaçao. وفي ١١ مايس ومع هبوط الظلام وجه أسطوله نحو جزر آف Aves. ودون أن يسترشد بملاح يعرف المنطقة داخل مياه الخليج الضحلة دخل ايستريه، فجنحت سفنه وتحطمت على الصخور، فهجر الجانحة منها وعددها سبع سفن، وعاد بثمانٍ هي كل ما تبقى له. ولما وصل فرنسا، وهو الضابط البري المنتمي إلى سلاح البحرية كوفيء على هزيمته بتسميته ماريشالاً لفرنسا.

عمليـة قبـرص

ثارت مدينة مسينا في ٦ تموز (١٦٧٤)، وطردت حاكمها، ثم استنجدت بالفرنسيين أعداء الإسبان. فأرسلت لهم فرنسا عدة سفن مساندة بقيت بالجوار من ٢٧ ايلول وحتى ١٤ تشرين الأول. وتضاربت الاجتهادات في فرساي حول مساعدة مسينا. فالبعض يرغب في دعمها الكامل والاستعانة بها مستقبلاً لتحقيق السيطرة على صقلية ومملكة نابولي، وإحكام القبضة على المنطقة كلها. لكن كولبير عارض الفكرة بشدة، نظراً للمصاريف الباهظة لمثل تلك الحملة، خصوصاً وأن المناطق المشار إليها مناطق خارج إمكانية المملكة، قليلة الفائدة، باهظة التكاليف.

واقترح إرسال بعض الوحدات البحرية إلى صقلية لمشاغلة الإسبان هناك، من باب التخفيف عن الجبهات الأخرى، وخاصة المتاخمة للحدود.

وبالفعل أرسلت حملة صغيرة بقيادة الماركيز فالافوار على رأس مجموعة بحرية تضمنت تسع سفن، وتقدم التشكيل ودخل مضيق مسينا بثقة، دون أن يتحرك الأسطول الإسباني المتمركز هناك (والذي يقدر بـ ٢٢ سفينة حربية و١٩ سجانة).. وصل التشكيل الفرنسي بسلام إلى المكان المعين للإنزال وتمت عمليته بتوقيت جيد.. عندها رأت فرنسا تعزيز الحملة الأولى بحملة داعمة فأرسلت عشر سفن أخرى بقيادة دوكينز، حيث اجتاز المضيق في ١١ شباط عام (١٦٧٥). في هذه المرة تحرك الأسطول الإسباني المدافع، وتقدم لملاقاة دوكينز ومعه ٢٩ سفينة بين بارجة وسجانة، عندها فتحت المدفعية البرية الفرنسية نيرانها من حصون البر الصقلي فخشي القائد الإسباني الدوق فيزو الوقوع بين نيران دوكينز ونيران البر فاستدار وانسحب من المعركة باتجاه نابولي تاركاً وراءه (٤) سفن حربية تلتهمها النيران وإحداها من أحدث سفن الأسطول الإسباني، وعليها وحدها (٤٤) مدفعاً.. وانتهت المجابهة القصيرة، والتي أطلق عليها اسم معركة المنارة بسرعة خاطفة.

أصبح طريق صقلية من البحر أميناً تستطيع فرنسا نقل كل ما تحتاجه من قوات برية لإكمال عملية احتلال الجزيرة، ثم الامتداد في المتوسط. وبالفعل توسعت مجالات أسطول فرنسا حيث وصل تورفيل إلى بحر الأدرياتيك، ومد يد المساعدة إلى بارلينا وريجيو، وهدد خطوط المواصلات التي تصل بين إيطاليا والبلاد النمساوية.

تداعى موقف إسبانيا في صقلية فتنادت تطلب مساعدة الهولنديين، بموجب المعاهدة المعقودة بينهما. لبت هولندا الطلب وأعطت أمرها إلى رويتر بالتوجه إلى المتوسط على رأس عمارة بحرية مهمتها احتلال مسينا، وإعادتها مع الجزيرة إلى ملك إسبانيا.

وصل رويتر ميلازو في ٢٠ كانون الأول وكمن لدوكينز القادم من طولون والحامل المساعدات والمواد التموينية للقوات الفرنسية في صقلية.

تشاءم كولبير كثيراً لما علم بتربص رويتر لدوكينز وقال «إني أعلم تمام العلم أن السفن الحربية الفرنسية هي الأفضل تجهيزاً والأقوى تسليحاً من السفن الهولندية، وأن الـ (٣٠) سفينة حربية التي بحوزة دوكينز ستقاتل كل من يعترضها في المتوسط، لكني أعترف أن رأس وقلب قائد هذا التشكيل يقلقني إذا ما قارنته برأس وقلب رويتر».

ومع أن دوكينز تمرّس في سلاح البحرية طويلاً واستلم قيادات عدة منذ العام (١٦٢٧) وحارب في كل مكان، لكن أخطاءه عديدة ومزاجه حاد، ونفسيته متشائمة كئيبة، وخلافاته المتكررة مع رؤسائه ومرؤوسيه، وقلقه الدائم والمبالغ في فوائد أمواله لم يمنعه من أن يكون أحد البحارة العظام والمقاتلين الأشداء. وهو ذو محتد نبيل يطمح دوماً ليصبح أميرالاً كبيراً في فرنسا. إلا أن انتماءه للمذهب البروتستانتي وقف حائلاً أمام تطلعاته.

في كانون الثاني من عام (١٦٧٦) تمّ أول تماس بين القوتين المتجابهتين في مياه جزر ليباري بين أسترمبولي وآليكوري وكانت قوة رويتر (١٨) سفينة حربية كبيرة وسفينة واحدة إسبانية، وتسع سجانات وعدة حرّاقات، وبإمرة دوكينز (٢٠) سفينة حربية و (٦) حرّاقات. وكما نلحظ أن التكافؤ في القوى قائم.

قسم دوكينز أسطوله إلى مجموعات ثلاث.. في النهار لم يحاول الهولنديون توسيع القتال. مع أن الريح كانت مواتية لهم، إذ كانوا ينتظرون تعزيزاً إسبانياً سيأتيهم من باليرمو.

وفي اليوم التالي استطاع دوكينز كسب الريح إلى جانبه، وبدون إضاعة وقت وبخطة تكتيكية محكمة أعطى أوامره للاشتباك وعلى طول جبهة سفنه. لكن للأسف لم يألف قادته القتال الجماعي، ولم ينفذوا الخطة والمناورة بدقة، ولم يشترك في المعركة إلا سفن المجموعة الأولى المتقدمة، وسفن مجموعة الوسط، في حين بقيت المجموعة الثالثة في المؤخرة بعيدة، وفتحت نيران مدافعها من مسافات تزيد عن مدى مدفعيتها فلم تصب السفن الهولندية.

فوجىء رويتر بمبادهة الفرنسيين وهو العجوز (٧٠ عاماً)، وتردد بما يجب عليه فعله. واستوعب الصدمة الحربية ثم انسحب ببطء نحو باليرمو و لم يجر نفسه إلى القتال القريب لمعرفته بتفوق سفن فرنسا تسليحاً وتجهيزاً.. وراوغ ساعات حتى وصول العمارة الإسبانية الموعودة. وفي المساء وبعد ثلاث ساعات من الاشتباك المدفعي انسحب نحو الشاطىء.

لم يكن ذلك بالنصر المشهود للفرنسيين لأنهم لم يستطيعوا إغراق أو إحراق أي سفينة هولندية. والخسارة الوحيدة كانت بالرجال من الجانبين المتحاربين. إلا أن ما يعتبر إنجازاً يجدر التوقف عنده هو ثبات الفرنسيين أمام الهولنديين الأشداء حتى إن رويتر وصفهم بقوله «لقد فعل الفرنسيون العجائب» وقال كولبير في قائده دوكينز «أفهم السيد دوكينز الجميع جدارته بمجاراة السيد رويتر شجاعة وكفاءة».

مضت الأيام وتفوق الفرنسيون في تلك المعركة يتفاعل، ودوكينز يناور ويقيم التماس مع التشكيل المساند الآتي من مسينا الميراسAlmeras، دون أن يبدو على الحليفتين هولندا وإسبانيا فكرة التدخل، ودون أن يقلق دوكينز من وجود خصومه في الممر الخطر لمسينا، حيث الريح والتيار يعمل على تفريق وبعثرة السفن. واعتمد دوكينز اللحاق بفيفون بالالتفاف حول جزيرة صقلية من الغرب. واعتبر المؤرخون هذه الرحلة التي دامت أسبوعين وبحضور سفن الخصمين بمثابة عرض عضلات ليشهد الإيطاليون وكل الأوربيين جدية التفوق الفرنسي.

نفذ صبر رويتر البحار العتيد وهو يرى الفرنسيين سادة المنطقة.. فأعد نفسه في ميناء نابولي لمعركة مصيرية، مع أنه يعلم أن التفوق بجانب فرنسا.

أقلع رويتر لمياه صقلية في ٢٣ شباط، وبدأ يجوب المنطقة، ويستعرض الساحل الشرقي للجزيرة بين ميلازو ورأس باسارو طيلة شهر آذار مهدداً المواصلات البحرية الفرنسية بين فرنسا وشمال إفريقية (تونس)، ويتبادل رشقات المدافع مع حصون مسينا نفسها. وأخيراً قرر (شهر نيسان) مهاجمة اوغوستا وهي على ٢٠ كيلومتراً جنوب كاتان.

هبَّ دوكينز للقائه وبرغم الأوامر المشددة من فيفون بعدم خوض معركة غير أكيدة نشب القتال في ٢٢ نيسان (١٦٧٦) في المياه الساحلية يبن اوغوستا وسيراغوسا.

تقدم الفرنسيون بـ (٣٠) سفينة حربية و (١١) سفينة متوسطة للقاء الهولنديين والإسبان الذين تتألف قواتهم من (٢٧) سفينة حربية و (١٣) سفينة متوسطة و (١٧٧٢) مدفعاً فرنسياً مقابل (١٤٥٠) مدفعاً هولندياً إسبانياً، لكن بوجود (٩) سجانات إسبانية أعطى نيران القوى المتحاربة تكافؤاً في القدرة.

كان نهاراً جميلاً والبحر فيه ساكن والريح خفيفة من الشمال غرب وحتى الجنوب غرب، وهذا ما أعطى رويتر حظاً أكبر في اندفاعه، والريح تملأ أشرعة سفنه. ظل الأميرال الإسباني لاسيردا على مسافة بعيدة من مسرح المعركة، وترك الهولنديين يشتبكون وحدهم مع مقدمة السفن الفرنسية (ذكرت الأسباب وفي عدة مصادر بأن احتياطي الذخيرة لدى الإسبان نفذ).

نشبت معركة صاخبة وقاتل رويتر عدواً يفوقه عدداً وعدة.. واقترب التشكيل الإسباني، وما إن دخلت طليعته ساحة القتال حتى أصيبت إحدى سفنه الرئيسية، وقتل مساعد الأميرال عليها، وهو قائد المجموعة المساندة لميراس. قدر الأميرال رويتر أن هذا الحادث سيمنع باقي الأسطول

الإسباني من زج نفسه في خضم المعركة، فرفع كامل أشرعته، واستخدم الريح، واندفع بسرعة يقصد مركز تجمع الفرنسيين، حيث سفينة قيادة دوكينز، يود منازلتها.. لكنه بمروره المستعرض أمام نسق السفن الفرنسية الطويل أصيب بقذيفة كسرت ساقيه.. واستمرت المعركة لعدة ساعات أخرى، ثم هبط الليل وانسحب الفرنسيون وعاد الهولنديون والإسبان إلى سيراغوسا.

مات البطل رويتر متأثراً بجراحه بعد عدة أيام(٢٩ نيسان).. وأصدر ملك فرنسا لما بلغه ذلك مرسوماً تكريمياً وشبه ملكي تقديراً لهذا الخصم اللدود والبحار العتيد في تاريخ عصره.. وبموت رويتر الهولندي تزعزع الموقف في المتوسط، ونشب خلاف بين الحليفتين هولندا وإسبانيا. وفي مطلع شهر مايس انسحبت سفنهم من الشاطىء الشرقي لجزيرة صقلية، وذهبوا فرسوا في ميناء باليرمو. وما كان على الفرنسيين إلا ملاحقتهم وقنص سفنهم داخل الميناء.

قاد فيفون[٩٥] وهو نائب الملك العمليات من على البر الصقلي. ولما شعر بأن أميراله دوكينز سيقطف ثمرة النصر لوحده، سارع فركب البحر من مسينا، وذهب يشارك في عمليات قنص السفن الحليفة في باليرمو مستخدماً الحرّاقات. وتسلسلت العملية على النحو التالي:

— أرسل فيفون كل من تورفيل[٩٦] وغاباريه بمهمة استطلاعية لمعرفة مواقع السفن الحليفة. ولما عادا أخبراه أن هناك (٩) سفن حربية كبيرة و (٧) سجانات ترسو خارج الميناء وعلى نسق طويل.
— أرسل فيفون سرباً صغيراً من عدة سفن لمشاغلة السفن الراسية بالمدفعية ليغطي تقرب (٩) حرّاقات فرنسية. وما إن بدأت الحمم تتساقط حتى سارع الهولنديون والإسبان في قطع مراسيهم، والإقلاع السريع تفادياً للتدمير الكامل. وراحت تدخل الميناء الداخلي أو تجنح على الشواطىء.. وكانت النتيجة أن فقد الحلفاء (٧) سفن حربية كبيرة وسجانتين، وغرق وقتل لهم من ٢ إلى ٣ آلاف رجل بينهم (٦) من قادة السفن وكانت تلك الكارثة على الحليفتين والتي حدثت في ٢ حزيران (١٦٧٦) نهاية لتواجدهم في البحر الأبيض المتوسط.

قرر الهولنديون والإسبان وقف عملياتهم والتجأوا بما تبقى لهم من سفن إلى كاستيلامار. وفكر الأميرال الهولندي الذي خلف رويتر كالينبرغ بإحراق سفنه خشية وقوعها في أيدي الفرنسيين، إلا أنه تلقى أمراً من بلاده بالتخلي عن المتوسط والعودة إلى هولندا آب (١٦٧٦).

لم يبق في الساحة إلا شراذم سفن إسبانية قليلة أصلاً وقيمتها التعبوية منخفضة. وهذا

ما جعل دوكينز يجوب المنطقة ويفرض شروط فرنسا فيها .. وراحت سفنه تطارد القوافل التجارية الخاصة بالهولنديين ، مما اضطرهم إلى إعادة نظرهم في التخلي عن المتوسط ، فأرسلوا إيفرتسن على رأس قوة تتألف من (١١) سفينة حربية وفي أثناء قطعه بحر المانش وانتقاله إلى المحيط الأطلسي اصطدم على بعد (٣٣) فرسخاً وإلى الغرب من ويسانت بـ (٦) سفن حربية فرنسية تابعة لشاتورونو[٩٧] من أحدث سفن عصرها . واحتدم القتال بين المجموعتين ، وأصيبت عدة سفن هولندية إصابات خطيرة ، مما اضطر ايفرتسن للتخلي عن بلوغ المتوسط ، ودخول ميناء قادس لإجراء إصلاحات عاجلة .

أما جزيرة صقلية فلم تأخذ في يوم من الأيام كامل اهتمام الملك الفرنسي واعتبرها جبهة ثانوية لامتصاص بعض من قوى الخصم الرئيسية . وبالفعل لم يمنح الملك نائبه فيفون وحدات كافية تستطيع حسم الموقف عسكرياً ، ومد سيطرة فرنسا البحرية إلى أبعد من مسينا وجوارها .

لم تبق فرنسا في صقلية طويلاً لصعوبات إدارية جمة . وفي مطلع (١٦٧٨) أخلت الجزيرة ، وتركت شعبها يواجه انتقاماً إسبانياً شرساً .

نهاية الحرب

هَلَّ هذا ورحى الحرب دائرة في القارة الأوربية ، وفرنسا تنتقل من نصر إلى آخر .. وتستولي تباعاً على تورين في الألزاس ، ثم تصل نهر الرين (١٦٧٥) .. ولما أمن الملك لويس الرابع عشر حدوده الشمالية استدار إلى الفلاندر (نصيحة فوبان) عام (١٦٧٨) ، وزج بأفضل قواته هناك ، فاحتل كاندي ولوكسمبورغ وسيطر تقريباً على بلجيكا بالكامل .

تلك الانتصارات المتعاقبة أزعجت إنكلترا التي لم تنس بعد الخيبة الكبيرة التي أصابتها أعوام (١٦٦٦) و (١٦٧٢) . فعندما وصلت القوات الفرنسية إلى شواطئ بلجيكا عام (١٦٧٨) وبدأت تهديد آنفرس وأوستاند .. تحرك البريطانيون وقدم دوق مونموث **Monmouth** على رأس ستة آلاف مقاتل ونزل في سواحل الفلاندر .

لم يكن لويس الرابع عشر في وضعية تسمح له بالاقتتال مع الإنكليز . وكان يرغب في استتباب الأمر حتى يستطيع السيطرة على المقاطعات التي احتلها .. ووجد أن عليه مفاوضة الهولنديين بسرعة ، قبل تدخل إنكليزي واسع ، وليستطيع الإجهاز على إسبانيا وحدها .. إلا أن

الهولنديين رفضوا هذا الصلح، وعلى العكس التفوا حول غليوم أورانج، وأقاموا حلفاً للوقوف أمام الزحف الفرنسي وأمام أطماع لويس الرابع عشر اللامحدودة.

أخفق غليوم في ضم جميع الأقاليم المتحدة، وتعثرت خطواته فاستغل بعض رجال السياسة ذلك، وراحوا بمعونة رجال الأعمال والتجار الناقمين على الحكومة وعلى تصرفاتها العسكرية في البلاد يسعون للسيطرة على الحكم، وعرضوا مطاليبهم للسلام، ومنها ضمان الحدود وإلغاء تعرفة النقل لعام (١٦٦٧). والتي كانت إحدى الأسباب الرئيسية للخصام.. وتم الاتفاق بين هولندا وفرنسا برغم أنف الأورانجيين، ووقعت المعاهدة في نيميغ في ١٠ آب (١٦٧٨).

لم يستطع المتحالفون متابعة القتال بعد أن انسحبت هولندا، فقبلوا بالمعاهدة وعاد السلام إلى المنطقة.

كانت فرنسا التي بدأت الحرب تطمع بالكثير، لكنها قبلت على مضض، واحتفظت بفرانش كونتيه وعدة بقاع من الفلاندر، وتاباغو، مع عدة مؤسسات كسبها الأميرال ايستريه على الساحل الإفريقي.

شعر لويس الرابع عشر خلال حروبه الطويلة والتي دامت ٦ سنوات أن ما يلزمه هو أسطول بحري قوي يجابه به القدرة البحرية للأقاليم المنخفضة (هولندا).. وهذا ما أجبره في بعض الأحيان على التحالف مع أعدائه الإنكليز الذين أظهروا له مراراً عدم جدية. وبقيت هولندا برغم انهزامها على البر سيدة البحار، تحافظ على مكاسبها وتمنع فرنسا من الامتداد والانتشار.. وتستطيع كسب الأموال الطائلة، هذه الأموال التي تستطيع استخدامها في استئجار الجيوش البرية المحترفة، وزجها لقتال فرنسا ووقف أطماع مليكها. والواقع لو امتلكت فرنسا أسطولاً قوياً قادراً على تحجيم هولندا لاستطاعت تحقيق أطماعها التوسعية، إلا أن الأسطول يحتاج إلى مال وفير وأطقم مدربة، ولم يتوفر ذلك إلا بعد كولبير.

الفصل السابع

الحرب البحرية الكبرى
إبان عهد لويس الرابع عشر
حرب عصبة أوغسبورغ

عصبة أوغسبورغ وثورة إنكلترا

إن الحقبة الزمنية التي امتدت بين معاهدة نيمينغ وحرب عصبة أوغسبورغ كانت حقبة زاهرة بالنسبة لفرنسا، إذ اعتمدت سياسة التوسع المتواصلة ضد جميع أمم المنطقة.. وحتى السلام لم يوقف توسعها.. وتابعت استيلاءها فحصلت على إمارة أورانج، والتي كانت ملكاً لستاتهودر، وإمارة الجسرين التابعة لملك السويد، ومدينة ستراسبورغ الحرة، وكونتيه شاروليه، وشيني.

لم يكن للدويلات الضعيفة إلا خياران اثنان فإما التبعية لفرنسا أو الدمار؛ رفضت البندقية التبعية فنزل بها الدمار، وكذلك الحال بالنسبة لسافوا.

هب غليوم أورانج عام (١٦٧٤) يعارض فرنسا، ويوقف طموحات مليكها، وتحين الفرصة المناسبة ليعيد لشعبه حرية مذهبه واستقلال بلاده. وراح يسعى بعد المعاهدة لتجميع كل أعداء فرنسا، وبخاصة شعوب أوربة البروتستانتية، ضمن حلف دفاعي. وفي ٩ تموز عام (١٦٨٦) وقعت اتفاقية الضمان في أوغسبورغ، وضمت الأقاليم المتحدة، وإمبراطورية ألمانيا، ومملكة إسبانيا حتى إن البابا بارك هذه العصبة.. وظل التكتل سرياً وسلبياً حتى حادثة محاولة بسط نفوذ فرنسا على المقاطعتين الألمانيتين كولون وبالاتينا، والمعاملة الهمجية التي تطبقها فرنسا على شعوب أوربا المستضعفة.. وكان ذلك إيذاناً بإعلان الحرب الكبيرة والفاصلة.

تواقت الإعداد للحرب مع وقوع مفاجأة مهمة في إنكلترا، عززت دول عصبة أوغسبورغ فإنكلترا التي ظلت مشايعة لنظام فرنسا اضطربت داخلياً، ووقع خلاف حاد بين الحكومة ومجلس العموم (١٦٧٩).. وتزعزع موقف الملك الإنكليزي شارل الثاني الذي كان يستفيد من الدعم المالي الفرنسي، وغدا في ملكه ضابطاً من ضباط شرف الحكومة الفرنسية، وهذا ما أوغر قلوب الإنكليز عليه، وبدأ الشعب يتحرك بتظاهرات عمت البلاد.

مات شارل الثاني عام (١٦٨٥)، وخلفه جاك الثاني. وكان أفضل من أخيه وأكثر تحرراً من سيطرة ملك فرنسا عليه، إلا أنه لم يستطع التخلص نهائياً من سياسة أخيه، فتتابع التدهور والشعب الإنكليزي ينظر إلى العائلة المالكة الكاثوليكية وكأن عليها أن ترحل. وانتظر موت الملك لتنصيب صهره غليوم أورانج ملكاً على إنكلترا، وهو المعروف بشدة كراهيته لفرنسا.. لكن ولادة أمير الغال الكاثوليكي ٢١ حزيران (١٦٨٥) أفقدهم الأمل. وقام الأميرال هيربرت بحركة عصيان وانضمت إليه جميع الأحزاب، وطالبت ستاتهودر رئيس الأقاليم المتحدة ليعبر البحر وينزل إنكلترا، ويحمي الدين البروتستانتي، ويعيد لشعب إنكلترا كرامته.

شعر ملك فرنسا بالخطر المحدق بعائلة إنكلترا المالكة، ونبه مليكها لما ينتظره من أحداث، وعرض عليه حماية الأسطول الفرنسي، لكن جاك رفض بغباء وبكبرياء وطني العرض الفرنسي، عندها سعى لويس الرابع عشر إلى افتعال أزمة في القارة الأوربية لتحويل الأنظار، مشدداً ضغطه على مقاطعة كولونيا ليفجر حرباً قارية ٩ ايلول (١٦٨٨).

رفض الهولنديون عرض الأميرال هيربرت، ولم يسمحوا لرئيسهم ستاتهودر بالانتقال إلى إنكلترا بعيداً عن بلاده والحالة تتأزم في القارة الأوربية، وقرب حدودهم بالذات. لكن غليوم أقنع الرافضين بأن تولي عرش إنكلترا هو السبيل الوحيد لإيقاف الزحف الفرنسي.. وأخيراً حصل الزعيم الهولندي على كل ما طلبه من قوات وأموال وسفن ونزل في تورباي في ديفونشاير ١٥ تشرين الثاني، وفاجأ الأسطول الملكي الإنكليزي المنقسم على نفسه. ووجد القائد العام البحري اللورد دارتموث أن لا مجال لمقاومة الهولنديين، فسمح لقوات غليوم وأسطوله بالمرور أمامه دون أن يعترض طريقهم، وسرعان ما انحازت الوحدات الإنكليزية إلى جانب القادم الجديد، بعد أن غادر القادة الكاثوليك سفنهم.. وفي ١٨ كانون الأول دخل غليوم لندن وبايعته الأقاليم الإنكليزية وأعلنته ملكاً على إنكلترا، وسمحت لعمه بالفرار.. وفي ١٦ شباط (١٦٨٩) تقلد غليوم عرش إنكلترا، وأعلن انضمامه إلى عصبة أوغسبورغ، ومن ثم إعلان الحرب على فرنسا.

بريفيزيه وحملة المحيط

غدا موقف فرنسا أكثر خطورة مما كان عليه عام (١٦٧٣)، وعاد أعداء فرنسا التقليديون يتحالفون من جديد، إسبانيا، النمسا، هولندا، وينضم الإنكليز فجأة ليكونوا الخصم الأكثر عداء، ويغدو حلفاً جباراً له قراراته:

ـــ إيقاف التوسع الفرنسي وعودة فرنسا إلى حجمها السابق.
ـــ إحياء عظمة أسطول إنكلترا، وإعادة نفوذه على البحار كأيام الملكة اليزابيت.
ـــ تدمير قوة فرنسا البحرية.
ـــ إضعاف نشاط التجارة البحرية الفرنسية، وقطع خطوط مواصلاتها البحرية.
ـــ انتزاع بعض مستعمراتها الغنية.

تلك كانت أهم مطالب غليوم أورانج الهولندي، والمتربع على عرش إنكلترا باسم غليوم الثالث(٩٨)، وألد أعداء فرنسا داخل الحلف.

قبل لويس الزابع عشر بمشورة كولبير له للقيام بتدخل سريع في إنكلترا نفسها، والإسراع في مساندة حليفه جاك الثاني قبل فوات الأوان واعتبر كولبير أن التدخل الفرنسي هناك يأتي في الأولويات، لما لإنكلترا من تأثير فعال في مجموعة دول تحالف أوغسبورغ.

كان الموقف الحربي بين البلدين على النحو التالي:

تمتلك إنكلترا (١٠٦) سفن حربية لوحدها، وتمتلك هولندا حليفتها (٩٦) سفينة، بالإضافة إلى بقايا أسطول إسبانيا الحليف. أما أسطول فرنسا فلا يتعدى الـ (١٢٠) سفينة، وهذا يعني أن عليها أن تواجه في البحر ضعف ما تمتلكه من السفن، اعتمد كولبير على بعض العوامل الخاصة، ومنها الصعوبات التي تمر بها دول الحلف، وبخاصة النزاع الداخلي الإنكليزي، والاعتماد على أتباع الملك جان الثاني في إنكلترا.. بالإضافة إلى عامل جوهري هام هو أن فرنسا تستطيع اتخاذ القرار وتنفيذه بسرعة، في حين تحتاج دول الحلف في الجانب الآخر إلى مشاورات بين الأعضاء، وإلى قرار من القيادة المشتركة. وغالباً ما يكون ذلك الأسلوب بطيء الاتخاذ والتنفيذ. وبالفعل فثورة إنكلترا فاجأت فرنسا، وهي تستعد للهجوم على ألمانيا، وأوقعتها بحالة من عدم الاستقرار. وتساءلت هل سيتحقق لغليوم الاستقرار على عرش إنكلترا؟ وهل ستترك فرنسا أصدقاءها اليعاقبة الايكوسيين دون أن تمد لهم يد المساعدة؟.. وإيرلندة التي أعلنت انحيازها الكامل للملك جاك باعتبارها كاثوليكية المذهب هل ستترك للعائلة البروتستانتية التربع على عرش البلاد؟.. كل هذه التساؤلات

وجدت جواباً لها عند الملك لويس الرابع عشر ، إذ رأى في الثورة الإنكليزية اغتصاب ملك ، واعتبر نفسه وكيلاً لإعادة الشرعية إلى أصحابها الأصليين ، مبتدئاً بإخراج وتحرير كاثوليك إيرلندة عن السيطرة البروتستانتية .. وهكذا اندلعت حرب إيرلندة .

ركزت فرنسا كل همها في إنجاح هذه الحرب . ولما كان إسناد الإيرلنديين بالجيوش أمراً متعذراً لانشغال المقاتلين في جبهات أخرى . فقد قررت إمدادهم بالمال والسلاح ، وببعض الضباط . فحمل غاباريه هذا الإمداد في آذار (١٦٨٩) إلى إيرلندة ، وكلف شاتورونو بإعداد (٧) آلاف مقاتل ، يعبئهم في مدينة برست ، وينقلهم إلى الجبهة الإيرلندية .

نفذ شاتورونو العملية على أحسن وجه ، وأنزل الرجال والعتاد في بانتري النقطة الجنوبية الغربية من إيرلندة ، ليتخلص من حمولته وليصبح أكثر حرية في حال تصادمه مع الأسطول الإنكليزي .. وبالفعل ما إن أنهى شاتورونو مهمته وقفل راجعاً حتى ظهر له الأميرال هيربرت في مدخل الخليج ٩ مايس .

اتخذ الأميرال الفرنسي تشكيلة القتال بسفنه الـ (٢٤) ، وهاجم السفن الإنكليزية المعترضة له وعددها (٢٢) سفينة .. وبدأ التراشق المدفعي من الظهيرة ، وحتى المساء ظلّ شاتورونو يضغط على السفن الإنكليزية ، فيدفعها نحو عرض المحيط .. لكن لسوء حظ القائد الفرنسي تخلّى عنه القادة المعاونون كـ غاباريه وفورانت . ويعود ذلك لأسباب شخصية ، إذ يعتبرونه ضابطاً برياً استحوذ إعجاب الملك فأمَّره عليهم ، وهم البحارة الأصيلون .. تباطأ المتخلفون وتركوا شاتورونو يندفع وحده وراء هيربرت ، وفي المساء وجد الأميرال نفسه مع عدة سفن وحيداً . أما المجموعتان الأخريان المؤلفتان لأسطوله فغابتا في الأفق .. ولحسن حظه انسحب هيربرت نحو الشواطىء الإنكليزية ، فأعاد شاتورونو تجميع السفن التي رافقته ، واتجه نحو برست فوصلها في ١٦ مايس بعد حملة استمرت (٣٣) يوماً . وفي طريق العودة التقى قافلة هولندية فاستولى عليها ، وساقها إلى فرنسا .. ولما علم الحلفاء بضياع القافلة حشد الهولنديون والإنكليز (٦١) سفينة حربية بإمرة الأميرال هيربرت ، لتجوب المنطقة ، وتحرم على شاتورونو وسفنه الخروج من مرفأ برست ثانية .

حروب عام (١٦٨٩)

لم يستطع الأسطول الفرنسي الوقوف على قدميه من جديد إلا ببطء ، خصوصاً بُعَيدَ رحيل تسعة آلاف بروتستانتي من خيرة البحارة ، على إثر صدور مرسوم نانت ، فروا إلى خارج البلاد ،

وانضموا إلى البحريات الأخرى، ولم تتوصل القيادة لتطويع (٣٠) ألف بحار إلا بشق الأنفس باللجوء إلى أساليب عدة ترغيبية وترهيبية، حتى قيل إنهم أرسلوا على السفن الفرنسية سجناء هولنديين ليخدموا عليها.

أقلع الأميرال تورفيل (مايس) من ميناء طولون على رأس (٢٠) سفينة حربية يقصد بحر المانش. وبوصوله إلى ارتفاع جزر ويسانت (فينيسيتر) وصله نبأ وجود الأميرال الإنكليزي هيربرت في مياه البحر على رأس أسطول يفوق ثلاثة أضعاف أسطوله. في نهاية تموز كان تورفيل يعاني من قلّة في تموينه ومائه.. وتردد القائد الفرنسي بين الاتجاه في عرض المحيط أو العودة إلى المتوسط. وفي النهاية اختار حلاً ثالثاً نظراً لخبرته الطويلة في سواحل بلاده وبالذات بروتانيا، فقرر الاختفاء عن سفن إنكلترا في خلجانها العديدة، منتظراً تحول الريح إلى الجنوب غرب، وهي الريح المناسبة ليقطع المسافة المتبقية لدخول مأوى برست، وضمن في الوقت نفسه أن هيربرت لن يبقى في منطقة الايرداز (المنطقة الصخرية التي تحيط بجزر ويسانت قرب بريتانيا) مدة طويلة، خشية جنوح سفنه بين الصخور الضحلة هناك. وبالفعل ومع تحول الريح ابتعد هيربرت عن المنطقة، في حين تقدم تورفيل وعبرها على مرأى من أعدائه، وبسرعة كبيرة والريح إلى جانبه في كل مراحل عبوره، ثم دخل ممر مرسى برست في ٤ آب.

بانضمام مجموعة تورفيل إلى مجموعة شاتورونو في برست أصبح عدد السفن (٧٠) سفينة حربية كبيرة عليها (٣٥٩٩) مدفعاً وطواقمها (١٩٩٠٠) رجلٍ.. عندها قفل هيربرت عائداً إلى شواطىء إنكلترا.

اعتبر لويس الرابع عشر مناورة تورفيل نصراً لفرنسا، إذ أبعد خطر الإنكليز والهولنديين عن مياه بلاده.. وأنعم عليه بمنصب القائد العام للأسطول المتجمع في مرسى برست، ثم سماه نائب أميرال الشرق عوضاً عن الأميرال ايستريه الذي ترك العمل في البحر، وأقام على البر كقائد عام للأساطيل الفرنسية.

مضى عام (١٦٨٩) والقوة الفرنسية الكبيرة بإمرة تورفيل تجوب بحر المانش وهي بكامل عددها وعدتها. وبدا على تورفيل الجدارة الكاملة في قيادة هذا الحشد الكبير من السفن، واتبع بقيادته منحى منهجياً بالمحافظة على تلك القوة سيفاً مسلطاً في المنطقة، وعدم استخدامها إلا بأسلوب تكتيكي مدروس بعيد عن المخاطرة، فمر العام دون حوادث تذكر، وأسطول فرنسا في الشمال يؤمن كامل مصالح بلده. لكن خصوم تورفيل من رجال البلاط تندروا عليه، وبدأوا

بانتقاداتهم اللاذعة له، إذ مضى عام على اشتعال الحرب ولم تحدث ولا معركة بحرية جديرة بقوة فرنسا البحرية في الشمال. وأخذوا يطالبون بوقف النفقات الباهظة عن هذا الأسطول الكبير.. وهنا وجد سيغنلي أنه من الواجب فعلاً إيجاد عمل لأداة الحرب البحرية هذه، فطلب من الأميرالات قادة التشكيلات البحث عن العدو ومقاتلته.. وصادق الملك على اتباع أسلوب شن الهجمات البحرية، لأنها ستقدم الدعم لجاك الثاني ولعرشه المفقود.

حملة عام (١٦٩٠)

لتحقيق نصر حاسم متواقت في باقي الجبهات عزز الفرنسيون قواتهم البرية في الفلاندر استعداداً لهجوم كبير، ثم أمدُّوا إيرلندة بالمزيد من المقاتلين لدعم ملك إنكلترا المعزول، فوصل جيش كامل إلى كورك في الأيام الأولى من شهر آذار، ونزلت الجيوش من البحر دون أن تعترضها أية سفينة إنكليزية.

كان همّ أسطول فرنسا الأساسي تأمين السيادة على بحر المانش لصالح العمليات الدائرة هناك.. ولقد تحقق له ذلك لولا أن إنكلترا وهولندا لا يمكنهما تقبل ذلك طويلاً.

تواقت وجود تورفيل على رأس (٧٥) سفينة حربية كبيرة و (١٩) حرّاقة و (١٥) سجانة جديدة ومعه من القادة شاتورونو وفيكتور ايستريه في ٢٩ حزيران (١٦٩٠)، مع وجود هيربرت على رأس (٢٠) سفينة إنكليزية في سانت هيلين. وعلم الإنكليز باقتراب وتقدم الفرنسيين شرقاً نحو تورباي فاتجه هيربرت نحو بليموث مبتعداً عن طريقهم، وانضم هناك إلى مجموعتي كيلغراي وشوفيل وأقام من الجميع تشكيلاً تعبوياً بالإضافة إلى السفن الهولندية المتوفرة، وأعده للقاء التشكيل التعبوي الفرنسي.

جاءت أوامر الحكومة الإنكليزية في نوتنغهام بالابتعاد عن المانش، وعدم تغطية السواحل الإيرلندية.. فامتثل هيربرت للأمر وتوجه نحو ممر كاليه، وحاول تورفيل المستحيل ليجره إلى معركة فاصلة دون جدوى، إذ كانت الأوامر الإنكليزية صريحة بعدم الاشتباك

غضب سيغنلي لعدوم حدوث الاشتباك، وكتب إلى أميراله المفضل تورفيل يقول له:
«أنت تعلم أن أوربة كلها شاخصة الأبصار نحوك، وتعلم جيداً مقدار النجاح الذي سيصيبنا إن سطرت لنا نصراً بحرياً.. حتى الآن لم تردني أية كلمة منك. ولا أعتقدك الرجل الذي

يسعى إلى مخالفة أوامر جلالته .. واختلاق الأعذار لها .. لتكن مشيئة الله بأن أكون مخطئاً ، فإذا ضاع الأمل في معركة منتصرة ، سنكون بائسين في ضياع فرصتها ، ولا أستطيع والحالة هذه إيجاد الأعذار اللازمة أمام جلالته » .

على إثر تلك الرسالة قرر تورفيل الرد عليها بعمل بحري ، فترك الأسطول الإنكليزي واتجه جنوباً نحو مدينة فيكامب ، ثم استدار شمالاً وحاول النفاذ بين سفن الخصم ومضيق كاليه ، لكن مناورته في جر الإنكليز للقتال خابت حيث ابتعد الحلفاء عن طريقه .. وفي ٩ تموز شاهد تجمعات للعدو على بعد (٤) فراسخ وفي ريحه ، وهو على بعد ثمانية فراسخ من رأس بيتشي هيد (بيفيزيه) . ولما اقترب تبين له بأن المجموعة المعادية قد اتخذت تشكيلة القتال على نسق ومدفعية الميمنة فيها جاهزة لفتح النار وقدر تورفيل بأن هيربرت أصبح جاهزاً لخوض المعارك بعد أن تفاداها طويلاً .

يرجع سبب نشوب تلك المعركة لجهل الشعب البريطاني كلية بالموقف الذي اتخذه أسطوله في تفادي مواجهة الفرنسيين .. واعتبر الشعب ذلك بمثابة إهانة لمجد بريطانيا البحري ، وتظاهر الشارع ونادى بعزل هيربرت بسبب الإهانة ، فكتب الملك لأميراله يحثه على المواجهة .

كان الأميرال هيربرت جاهزاً للمعركة ويتوقعها حاسمة عالية الخسائر . وكان تحت إمرته (٥٩) سفينة حربية منها (٢١) هولندية في حين كانت قوة فرنسا (٧٥) سفينة ، لكن النقص في عدد سفن الحليفتين عوض بأفضلية في التسليح (عدد المدافع على السفن لدى الطرفين شبه متكافىء) فهناك (٣١) سفينة حربية حليفة على كل واحدة (٧٠) مدفعاً يقابلها بالتسليح نفسه (٢٠) سفينة فرنسية فقط . وبالفعل تجابه (٤٦٢٤) مدفعاً و (٢٨) ألف مقاتل فرنسي مع (٣٨٤٢) مدفعاً و (٢٣) ألف مقاتل حليف هولندي ــ إنكليزي . ولقد ذكر المؤرخ الإنكليزي كلووس بأن التناظر كان كالتالي (٦٨) سفينة و (٤١٢٢) مدفعاً فرنسياً مقابل (٥٦) سفينة و (٣٦٩٦) مدفعاً حليفاً . وعلى كل حال فالنسبة قريبة في كلا القولين .

في الساعة التاسعة من صباح ٩ تموز .. ظهرت سفن الحلفاء في الأفق وأخذت كما قدمت تشكيلة القتال على نسق تتقدم نحو سفن فرنسا .. أمر تورفيل معارضة الأشرعة (إدارة الأشرعة بصورة معترضة لإيقاف سير السفن) فتوقفت سفنه تنتظر السفن المهاجمة . وبدأت القذائف تتبادل بغزارة بين الطرفين المتحاربين ، علماً بأن سفن الأسطول الحليف حيث وقف هيربرت وحوله مجموعة من السفن راحت تقاتل بتؤدة وعلى مسافة بعيدة نسبياً في حين اقترب الهولنديون من مقدمة

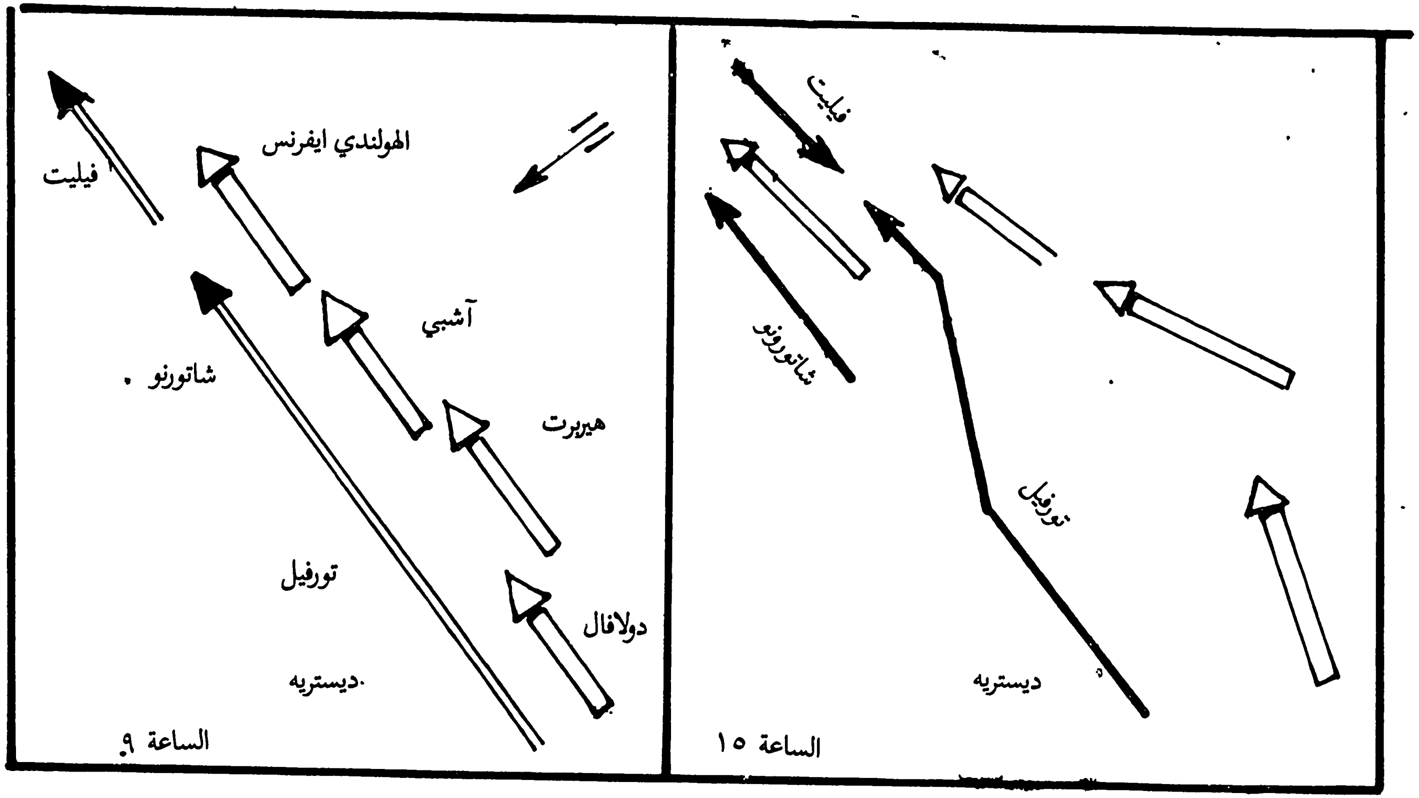

بيفيزيه ١٠ تموز ١٦٩٠

تشكيل تورفيل، وهاجموا بحماسة واندفاع كبيرين، فرد عليهم ايستريه ودولافال، ومن مسافات قريبة.

إن اندفاع الهولنديين الكبير جعلهم يقعون في فخ ضمن التشكيل الفرنسي. ولاحظ الأميرال شاتورونو ذلك، وأحب استغلال الفرصة، وفي الوقت نفسه جاءه الأمر من تورفيل بالانقضاض، فأمر مجموعته التي كانت في مقدمة التشكيل، وعليها فيليت ومورسي، بتجاوز الهولنديين من المقدمة، والمرور بريح خط سيرهم، والاستدارة حولهم. وانحصر القائد الهولندي ايفرتسن بين نارين.. وفي الساعة الواحدة ظهراً قرر هيربرت الاكتفاء بالاشتباك الذي قدمه إرضاء لرغبة الملك والرأي العام الإنكليزي، وابتدأ ينسحب نحو الشرق.. وترك ساحة خالية بينه وبين الهولنديين المشتبكين، استغلها القائد الفرنسي نيسموند، فأغار منها وراح يضرب السفن الهولندية بضراوة، وطُوقت المجموعة الهولندية بالكامل ومرت بموقف يائس وتحطمت (١٢) سفينة، وانهارت سواريها، أما المجموعة الهولندية الثانية والتي كانت مشتبكة مع تورفيل نفسه فقد انسحبت ثم استدارت وانقضت تنقذ المجموعة الأولى الهولندية المحاصرة.. حركة لم تخطر ببال أحد من المشتبكين أنقذت ما تبقى من سفن هولندا من الدمار الكامل. وفي الساعة الثالثة من بعد الظهر.. تبدلت حركة تيار المد فأشار المرشدون البحريون على هيربرت بالإيعاز لايفرتسن بالاقتراب والرسو، ثم جاء هيربرت ورسا هو الآخر فوق ريحه ليحميه من هجمات الأسطول الفرنسي إن حاول متابعة المعركة.. لكن تيار المد حاد بالسفن الفرنسية نحو الغرب أكثر من ميلين بحريين وانتهت المعركة. وفي الساعة الخامسة مساءً استدار الأسطول الفرنسي عائداً إلا أن السجانات لم تستطع احتمال أمواج البحر التي بدأت تعلو ولم تستطع الوصول إلى مرسى كاماريه، فاضطر تورفيل للإيعاز بقطرها بواسطة الزوارق، وكانت عملية مرهقة صعبة خصوصاً بعد يوم عنيف من القتال.

ساء الموقف لدى الحلفاء وانخفضت معنوياتهم، لكثرة الإصابات في سفنهم.. وخشوا معاودة الفرنسيين مهاجمتهم، وهم معرضون في المياة المفتوحة. واجتمع المجلس الحربي للأسطول واتخذ قراراً بالانسحاب الكامل والفوري باتجاه ممر كاليه وإحراق سفينتين لم تعودا تستطيعان متابعة الحركة، وستكونان مصدر عبء وتأخير. ومع حركة الجزر المعاكسة (التيار مد باتجاه وجزر باتجاه معاكس) وكان ذلك حوالي الساعة التاسعة مساءً.

أقلعت جميع السفن الإنكليزية والهولندية وبسرعة وقصدت ممر كاليه ثم بحر الشمال، مبتعدة عن مسرح العمليات. ولما علم تورفيل بذلك أعطى أوامره لقادة السفن برفع المراسي وبدأ عمليات

مطاردة السفن الحليفة ، لكن الإشارات بالأعلام ليلاً لم تكن مرئية ومفهومة وكانت النتيجة تبعثر الأسطول الفرنسي ضمن رقعة شاسعة من البحر . وعند حلول الفجر وجد تورفيل نفسه شبه وحيد وهو يلاحق أسطول الحلفاء ، وخشي أن يحمل عليه هيربرت ، فانتظر ليجمع شمل أسطوله ، لكن هذا الانتظار أعطى هيربرت فرصة الابتعاد منقذاً العديد من سفنه المصابة البطيئة الحركة .

استمر اختفاء أسطول الحليفتين حتى ١٧ تموز وكانت خسائرهما فادحة : (١٠) سفن حربية هولندية و (٧) سفن إنكليزية اختفت محترقة أو غارقة أو جانحة على الشاطىء ، حتى لا تقع في الأسر . وهناك قول آخر يجعل الخسائر (٦) سفن هولندية ، وواحدة إنكليزية ، إذ إن السفن التي جنحت استعيدت بعد إصلاحها .. أما الخسائر بالرجال فكانت عالية وأصابت الحليفتين بالصميم .. ولم يصدق هيربرت وصوله إلى فتحة نهر التايمز ١٥ تموز ونجاة أسطوله .. إذ تابع صعوده في مجرى النهر بعد أن دمر وراءه العلامات الملاحية ، حتى يجعل لحاق المطاردين له مستحيلاً . وعمت مدن إنكلترا الساحلية حالة من الذعر الشديد ومن الأسى العميق فكتب ماكولاي يصف هذه المدن قائلاً « **العار لا يحتمل والخطر داهم** » .

هل سيفعل تورفيل ما فعله رويتر في السابق فيهاجم البر الإنكليزي ، ويدمر مصانع شاتام والحصون الدفاعية ، وإنكلترا الجنوب بلا جيش مدافع وقواتها مع الملك تحارب في إيرلندة ؟

بدأ سكان السواحل يفرون نحو الداخل خشية غزو فرنسي .. وثار الشعب بغضبة عارمة يريد تحميل وزر الهزيمة فوقعت على تورنتون Torrington ، فقبض عليه وسجن وقدم أمام مجلس حربي للمحاكمة .. لكن نتيجة التحقيق جاءت لمصلحته واعتبر غير مسؤول عن كارثة ١٠ كانون أول (١٦٩٠) ..

كلف هذا النصر فرنسا (٦٠٠) رجل بين قتيل وجريح ، ولم يكن بالنصر الكامل فالأسطول الإنكليزي حسب قول تورنغتون أمام قضاته لم يدمر ، ولا زال قوياً ، ووجوده يمنع الفرنسيين من المغامرة واستغلال النصر بحراً .

مضت عدة أشهر قبل أن يعود الأسطول الإنكليزي إلى سابق عهده .. وظهر ثانية بتشكيل يضم (٥٠) سفينة حربية . وجاء فرسا في سبيتهيد بتاريخ ٢٥ ايلول .. أما الأسطول الفرنسي فقد بقي سيد المانش طيلة هذه الشهور .. ولقد أراد سيغنلي استغلال هذه السيادة بعمل ما .. فطلب من تورفيل الراسي في حوض ميناء الهافر العودة ثانية إلى البحر تحت تأثير تهديدات الوزارة الفرنسية ووعيدها .

أقلع تورفيل وحاول الإنزال على الشاطىء البريطاني لكنه وجد العملية مستحيلة التحقيق، لعدم توفر وحدات مقاتلة على الأرض فتوجه إلى بليموث، وكان تشكيل بريطاني بإمرة كيلغراي قد وصلها من المتوسط، فحاول تورفيل اقتحام بليموث فلم يفلح لمناعته، فاكتفى بالمرور أمام السواحل البريطانية، وقام ببعض التظاهرات البحرية في تورنواي وديفونشاير، ليستفز البريطانيين، ثم أنزل بعض المجموعات الصغيرة في توربای، فهاجمت المعاقل وأحدثت رعباً وفوضى، ثم أحرقت ما يقرب من (٢٠) سفينة تجارية راسية في تيغنموث ٥ آب Teignmouth. وشعر أن هذه الرحلة التي دامت ثلاثة أشهر متواصلة أنهكت طواقم سفنه فعاد بها ودخل ميناء برست للراحة.

تخطى غضب سيغنلي كل الحدود وهاج لعودة تورفيل إلى الميناء وكتب له يقول:

«لا شيء يستطيع إجبارك على البقاء في البحر، عندما تصاب بالشوق الذي يشدك للعودة إلى الميناء». ووصفه أمام أترابه بأنه «رجل طيب القلب لكنه جبان التفكير».

لم تكن الحكومة الفرنسية على حق في هجومها المرّ على الأميرال تورفيل الذي حقق لها النصر الكبير في بيفيزيه، بل كانت هي المسؤولة عما تبع ذلك من تدهور عام في الجبهات البرية والبحرية، إذ قصرت في تعزيز أسطوله بالقوات البرية، ليستطيع استثمار النصر، بعد أن غاب الأسطولان الإنكليزي والهولندي عن الساحة، خصوصاً وموقف فرنسا في إيرلندة يتزعزع. وحتى تستطيع فرنسا حشد كل قواها في بحر المانش اضطرت لإخلاء ممر إيرلندة، مما سمح لمجموعة شوفيل الإنكليزية (٢٠) سفينة باحتلال الممر والسيطرة على مسرح العمليات المجاور، وتأمين المواصلات البحرية بين إنكلترا وإيرلندة، ودفع التعزيزات لقوات غليوم الثالث.. حيث نزلت في ٢٣ حزيران بمنطقة كاريف فيرغ، واشتبكت مع قوات جاك الثاني المعززة فرنسياً بمعركة دروغيدا أو بوين، والتي كانت من نتائجها إنهاء السيطرة الكاثوليكية في إيرلندة، ودخول غليوم الثالث مدينة دبلن دخول الفاتحين، ثم الاستيلاء على كل من كورك وكينسال بمعونة مجموعتين من السفن الحربية بإمرة هادوك وكيلغراي. وتتابع سقوط الولايات، وبدا جاك الثاني ولوزون[٩٩] عاجزين تماماً عن وقف التدهور العام، حتى إن الفرقاطات العشر التي أرسلت لهما بإمرة فوران لم تستطع فعل شيء سوى إعادة ملك إنكلترا المخلوع وبعضاً من مؤيديه إلى فرنسا متخلين عن العرش وعن القتال في سبيله.

ظلت حرب إيرلندة قائمة وفرنسا تساعدها، واستطاع آنفريفيل العودة إليها ثانية في فصل الخريف على رأس متطوعين جدد.. هكذا كان الموقف البري في الجزائر البريطانية، أما في بحر المانش فكل الدلائل تشير إلى أن معركة بحرية هامة كمعركة بيفيزيه تعد العام القادم. وفي ٣ تشرين

الثاني مات سيغنلي الرجل المرهق بالعمل وبلذاته الشخصية وشهواته العارمة عن عمر لا يزيد عن (٣٩) عاماً .. وبغيابه خسرت فرنسا رجلها الديناميكي حيث قالت فيه مدام دو سيفينيه[١٠٠] « يبدو أن الإشراق (الأبهة) مات بموته » .

خطة عام (١٦٩١) وخطة بونتشارتران[١٠١]

بموت سيغنلي[١٠٢] المفاجىء عاد لوفوا لاستعادة حظوته عند الملك بعد غياب خصمه ، وبدلاً من أن يسند المركز إلى أحد أصدقاء الكولبيريين بحث عن رجل خصم لهم فوجده في المراقب المالي العام لويس دو بونتشارتران .

رأى الوزير الجديد عقب حوادث عام (١٦٩٠) أن الانتصارات البحرية لا أثر لها في السياسة العامة للدولة (رأي شخصي نابع عن كراهيته للكولبيريين) ، وتساءل ماذا أفدنا من معارك بيفيزيه ؟ ولماذا لا نرفع تسليح الأسطول ؟ ونقتصد في نفقاته الباهظة ؟.

وكاد أن ينجح لولا اعتراض الملك لويس الرابع عشر ، ومنعه من مس الأسطول ، لكنه وافق على تخفيض حجم التسليح البحري عن العام السابق . وكان رأي الأميرال تورفيل أنه ما دام لا توجد مناوشات مع الإنكليز فأسطول فرنسا الراسي في ميناءبرست ليس باهظ الكلفة ، لكنه أسطول في الحوزة جاهز للتدخل ، وهذا رادع فعال يمنع الخصوم من تجربة حظهم .

أراد بونتشارتران إيجاد البدائل عن طريق تحصين الشواطىء وتأمين سلامتها . وطلب من تورفيل القيام بمهمة منع سفن الإنكليز والهولنديين من الإغارة عليها وفي الوقت نفسه وبصفته مفتشاً عاماً للدولة كلّفه الإغارة على القوافل الضخمة الهولندية والإنكليزية التجارية القادمة من الشرق ، والتي تصل كل عام إلى بحر المانش صيفاً ، والاستيلاء على بضائعها لمواجهة مصاريف الحرب ، وتقدر قيمة السلع بما تزيد عن (٣٠) مليون فرنك ذهبي . وهذا يعني ثلث دخل فرنسا السنوي آنذاك . ومما قاله : إن فرنسا بحاجة إلى نصر بحري كحاجتها إلى تلك الملايين ، هذا الأسطول الجميل الذي رعاه الملك عشرين عاماً .

ترك لتورفيل (٦٧) سفينة تحت إمرته ، وسحب الباقي إلى البحر الأبيض المتوسط . وكان الحلفاء يمتلكون ضعف عدد سفنه في المنطقة . وجاءت التوجيهات الملكية للأميرال بعدم التعرض لمعارك بحرية فاصلة إلا في حال وجود قوة معادية أقل شأناً من قوته ، وليس للأميرال الحق في قبول

القتال حتى لخصم يساويه في العدد إلا في حالة وجود الخصم قرب سواحل النورماندي أو بريتانيا . (وكان يخشى على الأسطول الفرنسي الاشتباك في المنطقة الواقعة بين الهافر ودونكرك وحتى لو انتصر فتصبح عودة هذا الأسطول إلى مرساه في برست صعبةً) .

تلقى تورفيل التعليمات فوجدها مختلفة جداً عما كان يصدر له سابقاً ، فاحتج على أنها متضاربة وغير ممكنة ، فحماية السواحل تفرض عليه البقاء في مدخل المانش ، ليسرع في دعم المناطق المهددة . أما إن كان عليه مفاجأة سميرن (أسطول حماية قافلة الشرق) Smyrne فعليه الذهاب في عرض المحيط ليفاجيء القافلة بعيداً عن الجزر البريطانية ، وإلا فأسطول إنكلترا سيهب لنجدة القوافل . والأوامر الصادرة له تمنع عليه قتال هذا الأسطول . وقدر بأن القافلة لن تمر عبر شمال اسكتلندا . ويقول تورفيل «إن مهاجمة البر الفرنسي بعيد الاحتمال ، ولا يمكن أن يعطي نتائج مباشرة وخطيرة . وطالب حكومته بإعفائه من هذه المهمة ، وإسنادها للقوات البرية ، والسماح له بالابتعاد في داخل المحيط على الأقل حتى عمق خط طول رأس كلير .. (جنوب غرب إيرلندة وعلى عشر درجات غرب غرينوتش) .

إن ما أزعج تورفيل فعلاً هو منعه من القتال مهما كانت الظروف وقد قال في هذا الصدد :

«ليس هناك إلا الذين يملكون حتى المعرفة السطحية يقبلون بالمواجهة بين قوتين بحريتين معاديتين على مرمى أسلحتها دون أن تبدأ القتال» وكيف له تفادي القتال في عرض المحيط ؟ وأين المرفأ ليلتجيء إليه ؟.. ثم يكتب للملك قائلاً «لا آتي بجديد سيدي في لفت نظركم للخطورة الكبيرة في منعي من القتال ، وليعلم جلالته شدة الخطر التي سيتعرض لها أسطوله ، ويسعدني أكثر مقاتلة العدو من تفاديه» . وتابع تورفيل مصراً على آرائه ، ويعالجها منطقياً وعسكرياً وينهي رسالته بقوله «فإذا كان الأميرال الإنكليزي روسل يملك (٦٨) سفينة فنحن سنجابهه بحسن استعداد طواقمنا البحرية لنخوض معركة الشرف» .

لكن بونتشارتران ككل رجال النظام لم يتزحزح عن رأيه ، وأجاب تورفيل على لسان الملك :

«ليس لدى الملك ما يضيفه على تعليماته السابقة لكم ، وعليكم وحدكم اتخاذ التدابير التي تخولكم تنفيذ تعليمات جلالته» ثم غمز لناحية العودة إلى الموانىء بشكل لاذع وسماها «الميل إلى الموانىء» . وكان ذلك الاتهام شائعاً بين الوزراء وأمراء البحر في تلك الحقبة من الزمن ، ويُعتبر جوراً وبهتاناً .. وأخيراً حرّج بونتشارتران على أميراله العودة إلى برست قبل الأول من ايلول ومهما كانت الأسباب .

حملة المحيط

أطاع تورفيل الأوامر، وأقلع في ٢٥ حزيران مغادراً برست على رأس قوة من (٦٩) سفينة و (٢٠) فرقاطة، وتنفيذاً للتوجيهات، وحتى لا يبتعد كثيراً عن مدخل بحر المانش حدد مسرح عملياته على بعد (٣٦) فرسخاً (٤ كيلومتر) إلى الغرب من ويساند، لكي يغطي المهمتين المتناقضتين التي كلف بهما. ثم أرسل سفنه الخفيفة تراقب مشارف إيرلندة، حيث أسطول سميرن ومقصد القافلة.

قدرت الفرقاطة المتقدمة لوفريت مكان القافلة في ١٤ تموز.. وحاول تورفيل اتخاذ طريق ملاقاة لها، وعلم الإنكليز بالتجمع فقام روسل على رأس (٨٦) سفينة حربية لملاقاة القافلة وليدعم الـ (١٤) سفينة الحربية المواكبة لها.

واستطاع روسل(١٠٣) مرافقة القافلة حتى بلغت رأس ليزارد Lizzard وخليج بليموث. ولما اطمأن على سلامة وصولها استدار واندفع في ٢٣ تموز يبحث عن أسطول تورفيل.

ابتعد الأميرال الفرنسي تنفيذاً لتعليمات الملك متجهاً نحو الغرب داخل المحيط، واستمر من ٢ إلى ٧ آب والأسطول الإنكليزي يلاحقه. وظل الأسطولان يسيران في المياه نفسها ويشعر كل منهما بوجود الآخر، ويستعلمان عن المواقع من السفن المحايدة التي كانوا يلتقونها، وبرغم رغبة روسل في القتال إلا أنه لم يستطع اللحاق بالقوة الفرنسية. وحافظ تورفيل على تشكيلة منضمة لوحداته. وكان يبدل من خط سيره باستمرار، فيفقد روسل التماس به. واستمر الحال كذلك حتى (١٥٠) فرسخاً بعيداً عن الشواطىء البريتانية، وحنق روسل من تلك المطاردة لعدو لا يمكن الإمساك به واستدار فوصل ويسانت في ٩ آب، وتوقف هناك ينتظر عودة تورفيل، وتوقع الأميرال الفرنسي خطة روسل فارتفع حتى أرض بينمارك Penmarek في ١١ آب، وهبط إلى برست عن طريق الرادوسان من الشمال ورسا في ١٤ آب بعد أن كادت تنفذ مواد تموينه.

دامت هذه الحملة الطويلة (٥١) يوماً، كانت في الحقيقة حدثاً جديداً في علم المناورة. فتورفيل يمخر عباب اليم بأسطول ضخم محافظاً على تكتله وتشكيله كل المدة، متجاوزاً قوات معادية ضخمة، تفاداها طبقاً لتعليمات مليكه.. وحتى نفاد صبر الهولنديين والإنكليز.

كانت حصيلة جولة المحيط ضياع بضع سفن تموين فرنسية استولى عليها روسل، أما تورفيل فقد استطاع الاستيلاء على قافلة قادمة من الجاماييك تتألف من (١٢) سفينة تجارية بحماية

سفينتين حربيتين، ساقها معه إلى برست، ويكون تورفيل قد استطاع برغم قسوة الأوامر التي أعطيت له إنزال خسارة فادحة في تجارة الحليفتين. واستطاع في الوقت نفسه إنزال بعض القوات على الساحل الإيرلندي في بدء الحملة.. لكن قافلة سميرن هدف الحملة الرئيسي نجت، وأخفقت خطة بونتشارتران.

وجدت إنكلترا خلال الفترة فرصة تعزيز قواتها في إيرلندة. ووقعت معهركة اغهريم Aghrim الفاصلة في ٢٢ تموز وانحسر النفوذ الفرنسي، ولم يبق إلا استعادة جنود الحملة الفرنسية حيث تم ذلك في ١٣ تشرين الأول. وصعدوا مع عدة ألوف من الإيرلنديين المهاجرين والراغبين في الانضمام إلى الفرنسيين هرباً من نير الملك الجديد.

أما في المتوسط وبفضل الدعم البحري الذي قدمه ايستريه للقوات البرية التابعة لدوق نواي Noailles وكاتينا Catinat فقد تم احتلال سيردان Cerdagne وكونتية نيس Nice.

وفي الشمال استطاعت القوات البرية الاستيلاء على بعض المواقع من هولندا. ولكن ما أنجز في الشمال لا يعادل أبداً ضياع إيرلندة.

حملة عام (١٦٩٢) وخطة بونرويو

تبدل الموقف عام (١٦٩٢)، وانتهت حملة إيرلندة بانسحاب الفرنسيين، لكن الملك لويس الرابع عشر هضم تلك الهزيمة دون أن يرد الصاع صاعين، ويعد الانتقام المناسب. وفي هذه المرة استبعد بونتشارتران وكلف المعتمد العسكري العام دو بونرويو بإعداد خطة لغزو إنكلترا، لأن على أرض إنكلترا وحدها يمكن إقرار السلام. وهذا ما بدأ به الملك الفرنسي، بعد أن زال عنه تأثير رجال قصره خصوصاً بعد موت لوفوا ١٦ تموز، وتهديد ميزانية وخطة بونتشارتران، وتحول ثلاثة أرباع الأسطول الفرنسي لأعمال القرصنة. وفتش الملك عن ضحية فحاول إيجادها في الأميرال تورفيل الذي اتهم بعدم التقيد بتنفيذ أوامره، إذ كان يجدر به التصرف خصوصاً في ١٧ تموز يوم كان بإمكانه تدمير قوات روسل عندما كانت أدنى عدداً من قوته.. وأسند مهمة هذا الأميرال الفذ إلى رجل في هيئة القيادة هو المهندس رينو ايليساغاري Eliçagaray، ونصبه مفتشاً عاماً للبحرية، وكلّفه بتعليم «**السادة في البحرية فني الملاحة وانتزاع النصر من حيث المبدأ**».

مع كل مناورات بونتشارتران لم يستطع استعادة ثقة الملك به.. وظهرت خطة عمليات عام

(١٦٩٢) البحرية وقد أعدها منافسة والمعارض لنظرياته فرانسوا هوسون بونرويو ماركيز بوتاك ، وهو ضابط قديم في سلاح السجانات ، وله خدمات عديدة في مجال تنظيم وإدارة البحرية .

حاز بونرويو على ثقة كولبير وسيغنلي ، وخدم مساعداً لهما ، ثم عين بوظيفة المقيم العام لصنوف أسلحة البحرية ، أو بمعنى آخر نائب وزير ، وبموت سيغنلي عام (١٦٩٠) أصبح سكرتير دولة لشؤون البحرية ، وهو رجل جذاب قرّبه الملك ، وكلّفه بعدة مهام دبلوماسية نجح فيها .

قدم بونرويو خطته في مذكرة رفعها إلى الملك في ٢٠ كانون الثاني (١٦٩٢) وتضمنت التالي :

ــ توقع امتلاك الحلفاء لـ (١٢٤) سفينة حربية مقابل (٨٨) سفينة تمتلكها فرنسا .. ومن هنا لاحظ التفوق العددي الواضح ، لكن إيمانه بحسن استخدام السفن ، وبتطبيق الخطة التكتيكية النبيهة سيغطيان هذا التفوّق .

ــ سيضطر الحلفاء لحماية قوافلهم التجارية القادمة من بعيد بتخصيص قسم ذي شأن كبير من قدرتهم البحرية ، وهذا القسم سيكون خارج أية معركة مقبلة .

ــ نظام الاستدعاء للمقاتلين ، ووضعية المؤسسات البحرية ونظامها أكثر تفوقاً ودقة لدى الفرنسيين .

ــ حركة تعمير السفن في الترسانات البحرية الفرنسية أفضل من واقع ترسانات الحلفاء .

وخلص بونرويو إلى القول بأن على فرنسا استغلال الفرص لخوض معركة بحرية كبيرة وشاملة . ويقترح الضرب في المناطق الحساسة ، وفي تدمير المنشآت ، وقطع خطوط المواصلات البحرية المعادية ، ومنع الأسطول الكبير المعادي من التجمع ، وإبادة الألوية البحرية الحليفة الواحد بعد الآخر ، وبمجرد خروجها من المرافىء ، وحتى قبل خروجها في بعض الأحيان .. وأخيراً حصار إنكلترا بقطع كل ملاحة قرب شواطئها ، وحتى إذا لزم الأمر إنزال الجيوش على شواطئها .

يعرف بونرويو إنكلترا جيداً حيث شغل فيها مركز سفير ، ويعرف أن تشكيل مقاومة فعالة ضد جيش غاز أمر غير سهل ، وباحتلال لندن تسقط المقاطعات الأخرى ، وباستسلام إنكلترا لا تستطيع هولندا متابعة الحرب لوحدها .. أما قطاع هولندا الكاثوليكي فسيحتل بلا قتال ، وسيقتنع الإسبان بوقف الحرب ، بعد إخراج إنكلترا من الصف ، وتواجد الأسطول الفرنسي في خليج الباسك .

فكر الملك طويلاً بخطة بونرويو واستمزج آراء الخبراء.. وكان رأي تورفيل الشك بسهولة ما يفترضه بونرويو.. وخصوصاً عند تطبيق خطة عملاقة كهذه.. ولقد بنى شكه منذ البداية على أن فرنسا غير قادرة على إعداد السفن اللازمة لكل تلك المهام، وتساءل: ماذا لو استطاع الهولنديون والإنكليز تجميع قواتهم البحرية في بحر المانش؟. وكيف ستسير الخطة؟. وهل سيطلب من أسطول فرنسا خرق التجمع المعادي الكبير؟. واستنزاف قسط كبير من القدرة البحرية؟. ومن يستطع التنبؤ بنتيجة المعركة بين رتلين بحريين حربيين يمتدان ما ينوف عن أربعة فراسخ؟. وإذا أخطأنا التقدير ودخلنا المعركة ضد قوة تزيد عن ضعف أو ضعفي قواتنا، فماذا يكون التصور للنتائج؟. إن تفادي الاشتباك مع العدو بعد أن يظهر في الأفق أمر لا يمكن حتى التفكير به.

أجاب بونرويو الحازم بأن كل شيء سيعد في الموعد المحدد، ولا داعي لتوجس الإخفاق قبل حدوثه.

إن تدخل الملك جاك الثاني قد أبطل كل تردد لملك فرنسا، ومرة أخرى أكدت المعلومات الواردة للملك ستيوارت ضعف حكومة خصمه، وأنها ستنهار بمجرد نزول الفرنسيين على الساحل الإنكليزي، وأن زحفهم نحو لندن سيكون بمثابة نزهة عسكرية.

صدق الملك الخطة في ٢٠ شباط، وبدأ على الفور في تطبيق بنودها. وحشدت قوات برية بحدود (٢٠) ألف مقاتل في النورماندي بإمرة الماريشال بيللوفوند، وتجمعت سفن النقل في لاهوغ، لنقل المشاة، وفي الهافر لنقل الخيالة. وسلحت جميع السفن وطقمت بطواقم الحرب وفي جميع المرافىء.. أما الفكرة البدائية لبونرويو في إبادة الألوية البحرية قبل خروجها من الموانىء فقد تبخرت بالكامل.. وكل الأنظار اتجهت إلى عملية العبور نفسها.

كل ما استطاع تورفيل الحصول عليه هو نقل نقطة الإنزال من غودوين في سيفولك إلى الغرب في تورباي.. والأسطول الفرنسي الخارج من برست لا بد له من الاستعراض أمام الساحل الإنكليزي، حتى يصل إلى النورماندي.. واعتراضات تورفيل لم تدرس، وصدرت إليه التعليمات في ٢٦ آذار بلهجة قاسية بالنسبة لأميرال كبير، وبطل من أبطال فرنسا.

كان على تورفيل الإقلاع في ٢٥ نيسان مهما كان عدد سفنه، وعليه التوجه إلى لاهوغ، فإذا صادف سفناً معادية قاتلها مهما كان عددها، أو طاردها إن أمكن حتى سواحلها، ويحظر عليه الوقوع بالخطأ نفسه الذي ارتكبه عام (١٦٩٠)!!؟

كم هي مبسطة الحرب في غرف القيادة وبالفعل من أسماها حرب نظارات أجاد الوصف.

التحضيرات الأولية للحملة

كلف بونتشارتران بمراقبة تنفيذ مراحل الخطة، وأسندت القيادة المباشرة إلى لجنة ثلاثية مؤلفة من الملك جاك الثاني وبيللو فوند وبونرويو. وأقاموا غرفة عملياتهم في لاهوغ. وكان الخطأ الكبير في جعل الأميرال الفذ تورفيل وبكل بساطة مرتبطاً بهؤلاء القادة الثلاثة البعيدين عنه مئات الفراسخ.. وتلك هي أولى بوادر إخفاق الحملة.

وبرغم الإساءة لبعض الأوامر ظل بونرويو بنشاطه المعروف يعد العدة. والحقيقة تقال إنه استطاع خلال فترة التحضير إعداد سفن حربية أكثر بكثير مما كان يتوقع، وأتى بنتائج لا تصدق، لكن الصعوبة كانت في تطقيم هذا العدد الضخم من السفن والاحتياج العام يزيد عن (٢٥) ألف بحار، بالإضافة للجنود، وهذا العدد الضخم من البحارة يكاد يغطي خدمة وقيادة (٣٠٠) عائمة وسفينة.

بذلت كل الجهود واستخدم كل المتوفر، وحتى بحارة الزوارق النهرية أرغموا على ركوب البحر وعبىء رجال الجمارك وبعض الصبية التائهين في الموانىء، واستكملت النواقص من جنود البر فكانت خطة عجيبة لم تغط إلا نصف الاحتياج.

أقلع تورفيل من برست تاركاً وراءه عمارة شاتورونو المؤلفة من (٢٠) سفينة حربية كبيرة، عاجزة عن الحركة لنقص بحارتها، وكذلك كان الأمر بالنسبة لعدة سفن من عمارة ميناء شارانت.

عامل هام آخر أخر تنفيذ الخطة هو الريح التي عصفت بشدة من الشرق خلال شهرين متعاقبين تقريباً (نيسان ومايس) فأعاق تجمع الفرنسيين، وأعان تجمع الحلفاء نظراً لتناظر الساحلين بالنسبة للريح.

خرج نائب الأميرال ايستريه في ٢١ آذار من ميناء طولون والرياح شديدة واستطاع التحرك بسفنه الضخمة حتى طنجة. وهناك داهمته عاصفة أشد من المحيط رمت بوحدتين من سفنه على الشاطىء، فقرر التخلف في ليشبونة، ليقوم ببعض الإصلاحات. وعندما وصل إلى بيرتهوم كان تورفيل قد غادرها منذ ثمانية عشر يوماً، ومعنى ذلك تأخير في مواعيد الخطة.

تضمنت قوة تورفيل (٣٩) سفينة حربية، في حين وصل عدد سفن الحلفاء المتجمعة في سانت هيلين إلى (٨٨) سفينة. واقترح تورفيل، وهو خجل، التخلي عن العملية نظراً للتفوق العددي الكبير للحلفاء.. فرد عليه بونتشارتران قائلاً:

«ليس لك الحق في مناقشة أوامر الملك، عليك التنفيذ ودخول المانش، أعلمني إن كنت ستفعل، وإلا سيعين الملك خلفاً لك أكثر إطاعة وأقل تحفظاً».

أقلع تورفيل بـ (٣٩) سفينة من بيرتهوم في ١٢ مايس ثم لحق به (٥) سفن أخرى، أما ايستريه الذي أعطي الأمر باللحاق به في لاهوغ فلم يستطع الوصول إليه قط.

ما إن غادر تورفيل ميناء برست حتى بدأت القيادة تدرك مقدار الخطأ الكبير الذي أوقعت به أسطولها، خصوصاً بعد ورود المعلومات من الهافر ولاهوغ ومن كل مكان عن تجمعات لأساطيل ضخمة للحلفاء.. وتلهف الإنكليز الشديد للقتال حتى إن نائب الأميرال الإنكليزي كارتر ألقى قسماً ردده ضباطه من بعده «بأنهم يقدمون حياتهم وهم سعداء للدفاع عن الحكومة، والدين وحرية الوطن، ضد الغزاة البابويين».

طُلب من تورفيل التوقف قرب ويسانت بانتظار عمارات ايستريه، وشاتورونو، ولابورث المتأخرين عن يوم التجمع، وعدم عبور المانش إلا بعد وصول عدد سفنه إلى (٧٠) سفينة، وتفادي القتال إلا إذا كانت قوات الخصم مساوية له في العدد.. لكن الإشارة لم تصل بالوقت المناسب لخطأ في القيادة وبلبلة في الرأي.

عبر تورفيل إلى المانش بـ (٤٤) سفينة في حين ينتظره الحلفاء بـ (٧٦) سفينة.

وسعت القيادة الثلاثية الفرنسية المكلفة بالحملة إلى إيصال التعليمات الضرورية لتورفيل دون جدوى. فالضباب كثيف، والبحر الصاخب جعل الاتصال من الساحل للسفن أمراً مستحيلاً، وأرسل رينو على رأس ثلاث فرقاطات يحمل قرار القيادة في العدول عن الخطة، لكن وصول رينو إلى سفينة الأميرال تمت في الساعة العاشرة من صباح ٢٩ مايس وكانت المعركة البحرية قد بدأت فعلاً.

معركة بارفلور

عبر تورفيل بحر المانش وهو بائس لتفتت القيادة الثلاثية وجهلها، خصوصاً لما علم بأن بونتشارتران وصفه أمام الملك بالرعديد، فقرر قتال الحلفاء مهما كان ظرفه، حتى يرفع عن كاهله

وصمة الجبن، ويدافع عن شرف رجاله، ويرفع من سمعة أسطول الملك، ويثبت للعالم كذب الحاقدين.

شوهد تورفيل من الشاطىء الإنكليزي فأبلغ روسل عن موقعه واتجاهه.. أقلع الأميرال الإنكليزي في ٢٨ الجاري للقائه، و تم التماس في ٢٩ منه الساعة الرابعة صباحاً في عرض رأس بارفلور وعلى (٧) فراسخ شمال كونتانتان.

بدأت المعركة بشكل مفاجىء واندفع تورفيل بغضب ودون أن ينذر باقي قادته الكبار واستعرض بسفينته سفينة الأميرال الإنكليزي وبدأ يقذفها بالحمم، لكن الطقس السيء والأمواج العالية الآتية من الشمال لم تساعده في التقدم بسرعة فجاءت مناورته بطيئة.

احتدم القتال ولدى تورفيل (٤٤) سفينة و (١٣) حرّاقة و (٧١٥٤) مدفعاً و (٤٢) ألف مقاتل.

تحولت الريح إلى الغرب فجنوب غرب وأصبحت لصالح الفرنسيين، فأعطى تورفيل أوامره لوحداته بإتخاذ تشكيلة رتل القتال والريح من ميمنة السفن، والتوجه بالرتل القتالي إلى الجنوب جنوب شرق وأمله انتزاع نصر نسبي على الحلفاء.. ثم طلب من سفن المقدمة بإمرة ايفرفيل، ومن سفن المؤخرة بإمرة غاباريه مشاغلة العدو ومنعه من تجاوز القوة الرئيسية المتوسطة والتي على رأسها تورفيل نفسه.. ولما تأكد له بأن أوامره قد فهمت من قبل معاونيه انقض بكامل تشكيله نحو قلب الأسطول الحليف، واخترق رتله وقسمه إلى قسمين وعمل على تشتيته، ومدافعه تقصف بكل طاقاتها والحمم تتطاير، وتحمل معها الأشرعة والصواري وتنثر أشلاء الرجال.

احتدم القتال والمنطقة يلفها ضباب ثقيل. وتواصلت المعركة خمس ساعات والأمواج العاتية تصفع السفن وتفرط عناقيد تشكيلاتها المنضمة وتبعثرها، والمقاتلون سكرى برائحة البارود وألسنة النيران.. ترك الفرنسيون سفنهم للريح تسقطهم على سفن الحلفاء، حتى صارت المسافات بمدى المسدسات، لكن النيران الفردية لم تفتح، واعتقد الهولنديون بأن حلفاءهم الإنكليز قد خانوهم. وفجأة دوت طلقات البنادق والمسدسات في المقدمة واشتعلت في كل مكان من الرتل المهاجم، فاضطرب أسطول الحلفاء، وتبعثرت سفنه بمساحة تفوق ضعف مساحة أسطول الفرنسيين.. وفكّر روسل باستثمار تفوقه العددي بالالتفاف حول جناحي الرتل الفرنسي، وإجباره على القتال من المجنبتين فأعطى إشارة لتخطي الريح والدوران.

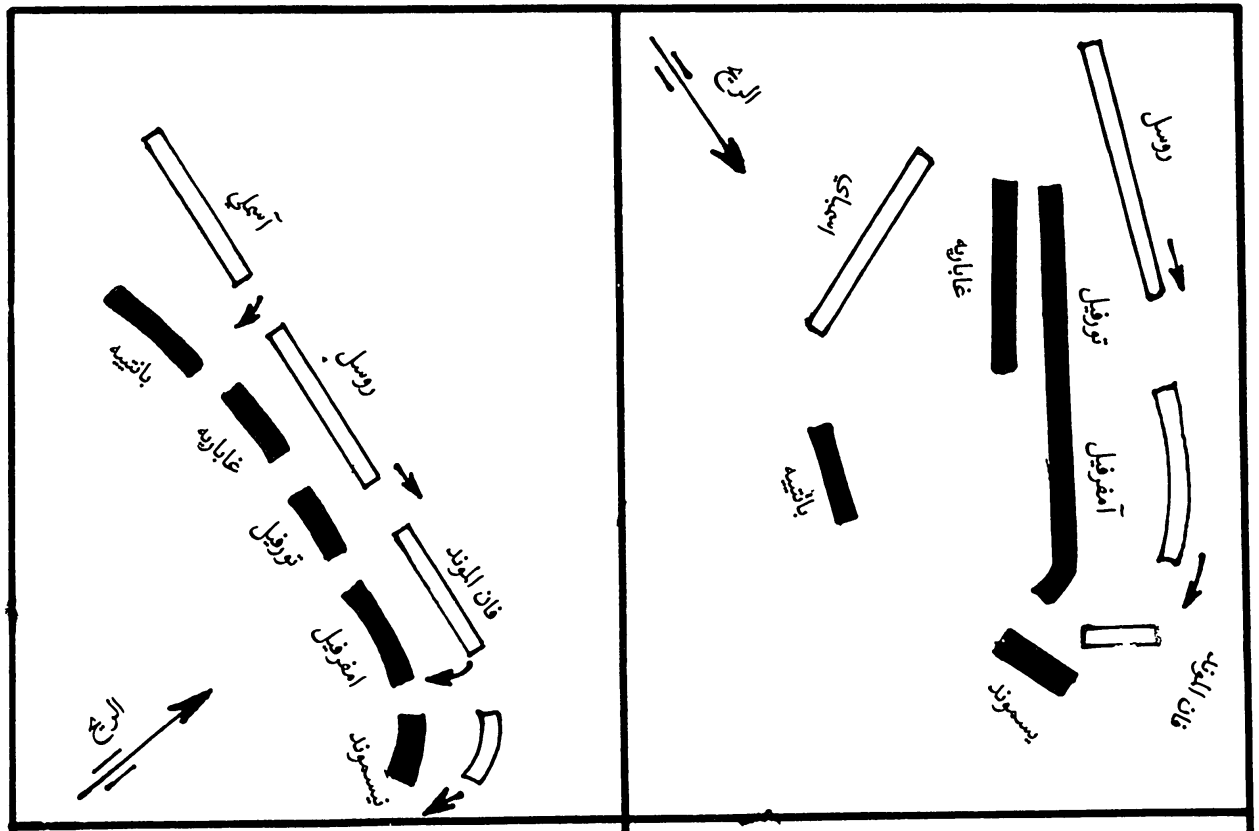

بعد الظهر — الصباح

بارفلور ٢٩ مايس ١٦٩٢

لاحظ انفرفيل وهو في المقدمة نوايا روسل فاستمر في أخذ الريح بكامل طاقته بثقة وحذر، حتى استطاع لواؤه الأول نيسموند تخطي رأس التشكيل الهولندي الذي يحاول الالتفاف عليه، وتخطاه وابتعد عنه بمئات الأمتار وفوت على القائد الهولندي فان الموند مناورته.

في المؤخرة استطالت تشكيلة الالتفاف في الأسطول الحليف فجاءت خارج مساحة المعركة، وامتد الرتل كثيراً بحيث غدت ثلاثون سفينة حربية حليفة لوحدها ليس أمامها أي خصم تقاتله وخرجت من المعركة، ونجا غاباريه من عملية الالتفاف، واندفع نحو الوسط يغطي أميراله تورفيل المشتبك ويدعمه في قتاله.

في الثانية من بعد الظهر تحولت الريح إلى الشمال غرب وأصبحت لصالح الحليفتين، فاستغل شوفيل ذلك وتقدم مستخدماً الريح المواتية، وخرق رتل فرنسا. وعبرت (٢٥) سفينة حليفة لتستدير ولتطوق تورفيل ومجموعته. وهنا هـبّ بانيتيه Pannetiè وببرودة أعصاب مشهودة، وفتح نيراناً غزيرة على المجموعة المخترقة من سفن الحلفاء، ثم استدار جنوباً مع ثلاث سفن مشاغلاً المجموعة المخترقة، وجرها وراءه، وبذلك أعطى أميراله تورفيل الفرصة لتصحيح موقعه من الريح.

حلّ الظلام وتورفيل ومعه فيليت Villete وست سفن حربية تقاتل (١٦) سفينة معادية، وقيل بأن البارجة «الشمس الملكية» سفينة نائب الأميرال اشتبكت لوحدها مع أربع سفن إنكليزية (من نوع الثلاث صوار) وظلت تقاتل حتى أصبحت خراباً. ووصفها شاهد عيان إنكليزي: بأن دم المقاتلين كان يسيل من جميع فتحات المجنبات ويذهب إلى ماء البحر فيصبغه.

في الرابعة مساءً تحول التيار باتجاه الجزر.. فأمر تورفيل سفنه بالذهاب إلى الشاطىء والرسو، لأن تيار الجزر سيجبر سفن الحلفاء على الابتعاد شرقاً.

بعد الرسو ساد السكون عدة ساعات مع ضباب كثيف، واستراح المقاتلون حتى الثامنة مساءً، حيث انقشع الضباب، ودارت الريح نحو الشرق فأصبحت أكثر ملاءمة لسفن الحلفاء، فعادت المعركة واحتدمت من جديد تحت ضوء القمر أكثر عنفاً وضراوة.. ومرت أقسى الساعات مرارة، حتى إن الضباط الرؤساء اضطروا إلى طعن عدة بحارة بالسيف لتركهم مراكز قتالهم.

ونظراً لشجاعة سفينة القيادة والسفن المحيطة بها، وقتال الرجال عليها قتال الأشاوس قرر الإنكليز دفع حرّاقاتهم للإجهاز عليها، لأن قتالها سيكلف الكثير من الضحايا.. لكن زوارق

الإنقاذ الفرنسية تدخلت في الوقت المناسب، وحولت مسار الحرّاقات وفي الوقت نفسه ناورت السفن المستهدفة بحذق، فتفادت الاصطدام بسفن اللهب.

في التاسعة مساءً شعر الحلفاء أن قتالهم غير مجدٍ والنصر بعيد التحقيق أمام مقاومة عنيفة، فقرروا إيقاف المعركة. وأعطيت الإشارة من سفينة الأميرال تطالب السفن الحليفة بالانسحاب من مسرح المعركة.

وقعت مجموعة شوفيل الإنكليزية بورطة دامية كلفتها الكثير إذ طلب من مجموعته التي تربو على (٢٥) سفينة في حوالي الساعة العاشرة مساءً قطع الأربطة وترك السفن تحيد باتجاه السفن الفرنسية، لكي تعبر إلى الجانب الآخر، حيث تجمع أسطول الحلفاء. فجاءت مناورته سيئة، عرضت مجموعته للرمي الضام من مجنبة جميع أسطول سفن أسطول فرنسا، فقتل المئات من رجاله في أثناء عملية العبور، منهم نائب الأميرال كارتر كما تحطمت عدة سفن.

وقبيل منتصف الليل توقفت المدافع، وعاد السكون الشامل.. وانتهت المعركة دامية. وقد برهن تورفيل لمرة أخرى أنه قائد فذ واسع الحنكة شديد البأس.. واعتبرت المعركة نصراً له أمام عدو فاقه الضعف عدداً وعدة.

خسر تورفيل (١٧٠٠) رجل بين قتيل وجريح، وخسر الحلفاء خمسة آلاف، وانفجرت سفينة إنكليزية، وغرقت أخرى، وغرق للحلفاء تسع حرّاقات، وأصيبت (١٦) سفينة حربية إصابات كبيرة دمرت سواريها واحتاجت إلى إصلاحات كبيرة وفورية، ولم يغرق للفرنسيين أية سفينة لكن التدمير في السفن كان شديداً.

الانسحاب ومعركة لاهوغ

توقعات عودة القتال في اليوم التالي استبعدت نهائياً نظراً للإنهاك الكامل لدى الطرفين، بعد معارك الأمس المتواصلة، ولنقص في الذخائر، ولتعطل العديد من السفن حيث غاص بعضها في الماء نتيجة غرق قسم من مقاطعها.

بقي الحلفاء متمتعين بتفوق عددي كبير خصوصاً وإمدادات أخرى وصلتهم. عندها لم يجد تورفيل مناصاً من الانسحاب.. فأعطى الإشارة في الساعة الواحدة صباحاً طالباً من ثماني سفن حوله اتباعه، ثم طلب من المجموعات الأخرى اللحاق به بعد أن أعطاهم حرية في المناورة والحركة.

تحرك غاباريه على رأس ثلاث سفن حربية باتجاه الساحل الإنكليزي حيث من هناك استدار واتخذ اتجاه برست ووصلها في المساء دون إزعاج، وتحرك نيسموند شرقاً مع (٦) سفن حربية فوصل لاهوغ في الهافر، ولكي لا يدع السفن المعادية تلحق به صعد شمالاً واستدار حول الجزر البريطانية من الشمال وعاد إلى برست.

أما الـ (٣٥) سفينة المتبقية من الأسطول بإمرة أمفرفيل وفيليت فقد لحقت بالأميرال ووصلت في ٣٠ من الشهر الساعة السابعة صباحاً، وانضمت له، واتجه التشكيل بكامله نحو الغرب.. لكن سفينة القيادة بدأت سرعتها تتناقص متخلفة عن التشكيل، فنقل تورفيل قيادته من عليها إلى الأمبيسيو وأمر السفينة البطيئة المصابة بالسير في مقدمة التشكيل ليحميها من أن تدركها سفن الحلفاء. أثر هذا التدبير على حركة التشكيل انخفضت سرعته مما أعطى الحلفاء فرصة اللحاق به.. ففي مساء ٣٠ الجاري وفي عرض رأس لاهوغ وصلت المسافة بين سفن المتحاربين إلى نصف فرسخ.. ووجد تورفيل أن أفضل سبيل لتفادي معركة غير متكافئة مع الحلفاء هو في دخوله سان مالو ماراً بممر بلانشاف، وهو ممر واسع بين كوثانتان وأرخبيل المانش. وكان تيار المد على أشده أعظمياً جامحاً وبسرعة تزيد عن (٧) عقد.. وقدر بأن ذلك سيباعد بينه وبين أعدائه. ونظراً لعدم وجود مرشد ولجهلهم المنطقة اضطر إلى الدوران حول كاسكيه، لكن تيار الجزر كان قد بدأ.. فاضطرت (١٣) سفينة من سفنه للرسو داخل الممر وعلى قيعان صخرية سيئة.. وبدأت تجنح وتجرُ مراسيها، في حين استطاعت السفن الباقية إيجاد مكان أمين فرست فيه، ودخلت سان مالو في صباح اليوم التالي.

اضطرت الـ (١٣) سفينة الجانحة ومن بينها سفينة الأميرال تورفيل نفسه للإذعان لقوة التيار والمتابعة شمالاً، فوصلت شربورغ بعد أن هَجرت ثلاث سفن معطلة أحرقها الإنكليز في اليوم التالي وهي الشمس الملكية، الأدوميرابل، والتريومغان، ووصلت البقية إلى لاهوغ في ٣١ الشهر، فوجدت هناك سفينتيْن هجرهما نيسموند للأضرار الجسيمة فيهما، ولما كانت تلك السفن بدون مراسٍ فهي لا تستطيع الرسو ولا تستطيع الملاحة في المانش للوصل إلى الهافر، ودونكرك فقررت الجنوح على البر بجانب قلاع تاتيهو ولاهوغ.. في منطقة غنية بالتحصينات والبطاريات الساحلية وحولها العديد من السفن وقوارب النقل، ومدفعية ميدانية وميليشيات والقوات البرية المعدة لغزو إنكلترا تنتظر سفن الحلفاء.

في ٢ حزيران اقترب كل من رووك(١٠٤) وروسل وهاجما السفن الراسية في تاتيهو فنزل بحارتها إلى

الجزيرة وأحرقوا سفنهم .. وفي اليوم التالي عاد الحماس يدب في صفوف ضباط البحر الفرنسيين عندما شاهدوا سفن الإنكليز تقترب من السفن الست الجانحة في لاهوغ فقاموا يقاومون ، واشتد القتال واشتركت كل الوحدات حتى الزوارق .. وقاتل تورفيل قتال الأبطال كأي ضابط صغير من ضباطه . وجاءت الخيالة فاشتركت في المعركة ودخل الفرسان على متون أحصنتهم في البحر حتى زوارق الأعداء ، وانتهت المعركة وقد دمر للفرنسيين السفن الجانحة لكن الـ (٣٠٠) سفينة نقل المحتشدة في الميناء بقيت سليمة ولم تتعرض لأي أذى .. أما خسائر الطرفين بالأرواح فكانت عالية جداً .

اعتقدت فرنسا في البداية نجاح خطتها لكن الحشد الكبير لقوات الحلفاء غير موازين القوى ودفع بالفرنسيين للتخلي عن غزو الجزر البريطانية . وانتهت إلى تسريح القوات المستدعاة وإرسال الجيوش النظامية الباقية للجبهات البرية الأخرى . وأصبحت الشواطىء وجلة تخاف إغارات الأعداء حتى إن الأميرال شاتورونو اعتقد بضعف الإمكانات البرية في الدفاع عن مرسى برست فأقلع بأسطوله ورسا به في مرسى لانغينيك .

لم يحسن الحلفاء استغلال الموقف الفرنسي الضعيف ، ولم يستخدموا تفوقهم الساحق في إحراز نصر حاسم . واكتفوا بإحباط فكرة غزو الجزر البريطانية ، واعتبروا ذلك نصراً كافياً .. ولو أنهم استثمروا النجاحات التي حققوها لاستطاعوا تدمير كافة سفن أساطيل فرنسا ، وإقامة سلام دائم طويل الأجل .

خسرت فرنسا خلال المعارك مجتمعة (١٣) سفينة ، وهذا يعتبر نسبة كبيرة لأسطول عدد سفنه (١٣٠) سفينة في البحار الثلاثة .. وظلت ترسانات التعمير سليمة لم تتعرض لأي أذى ، فتابعت البناء إعداداً لحرب الثأر ولمحو عار فصل الربيع كما أسموه . وبالفعل برهن بونرويو أن باستطاعته إرسال ما يزيد عن (٧٠) سفينة إلى بحر الشمال الغاية منها إلهاء الأعداء لتنفيذ القسم الثاني من خطته باحتلال الباساج Passage وغزو إسبانيا ، وكما قال ميشتليه « **أحداث لاهوغ بحد ذاتها تافهة ظاهرياً .. لكنها غيرت مجرى تاريخ أوربة المعاصر** » . فالأثر الإيجابي كان رائعاً لدى المنتصر ، والأثر السلبي كان عميقاً لدى المنهزم .. ووعت فرنسا على أثر ذلك حدود إمكاناتها البحرية ، واقتنعت بأنها غير معدة لتكون سيدة البحار .. وهذه التضحيات الجسام لا تكافىء المكاسب الحقيقية في إقامة قوة بحرية كبيرة لبلد بري ضمن القارة الأوربية محاط بالأعداء وكان على الملك وبلاطه الاقتناع بذلك للحد من غلواء المتهورين .

وبالفعل شعر لويس الرابع عشر بعد الأحداث الأخيرة بغصة كبيرة، وكره الأسطول والحملات البحرية، لكنه لم يغبن قدر أميراله العظيم تورفيل في تفانيه بمعركة بارفلور وسماه ماريشالاً لفرنسا، الأمر الذي حجبه عن دوكينز المنتصر سابقاً.. كما كان تأثر الملك عظيماً تجاه الملك جاك الثاني لعدم استطاعته مساعدته في استعادة عرش إنكلترا.

اعتبر الملك سلاح بحريته غير كفء وغير قادر على متطلبات الخطة، فقرر إهمال هذا السلاح، وتوجه بكل طاقاته نحو جيش البر. وكان هذا الجيش عند حسن ظن الملك به فسرعان ما حقق له انتصاراً في نامور Namour وهذا ما عزز الاعتقاد بأن فرنسا بلد بري، وبالعمليات البرية وحدها تستطيع هزم خصومها، أما البحرية فلا تلعب في التركيبة الدولية إلا دوراً ثانوياً.

انتقلت بحرية فرنسا لأيدي مرؤوسين لم يحسن اختيارهم فسار السلاح نحو الضياع في حين سارت بحريات الدول الأخرى المجاورة كالهولندية والإنكليزية نحو النمو والازدهار.

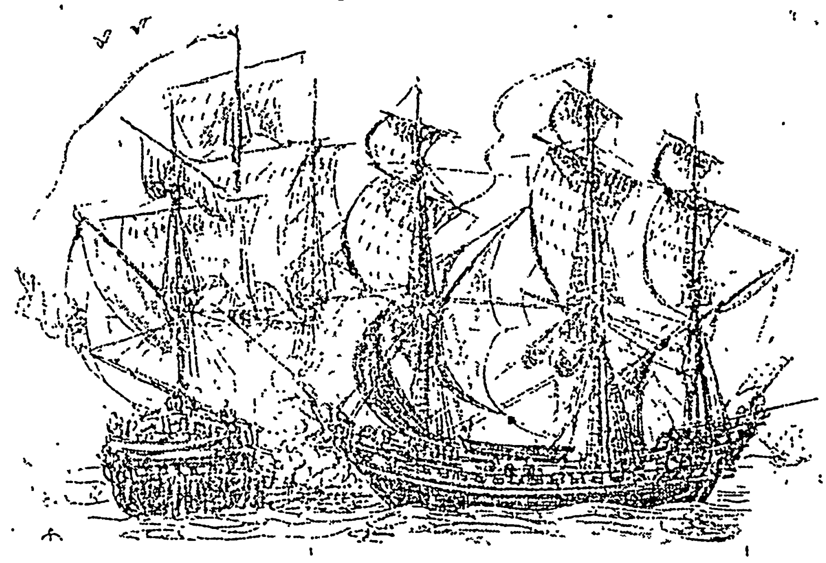

الفصـــل الثـامـن

التقهقـر البحـري فـي فرنسـا
خـلال القسـم الثاني مـن حكـم الملك لـويس الـرابـع عشـر
الحـرب البحـريـة الصناعيـة

كانت أولى النتائج كارثة لاهوغ على فرنسا هي منح بونتشارتران صلاحيات مطلقة ضمن مديريته، في حين حمل بونرويو كل مسؤولية الكارثة التي حلت، وأعفي من كل مهامه، ولو أن الملك ظل على اتصال دائم معه معتبره مستشاراً للقضايا البحرية.. حتى عاد عضواً في مجلس إدارة شؤون القوات البحرية بعد سقوط بونتشارتران عام (١٧١٥).

وصل بونتشارتران عام (١٦٨٩) إلى مركز المفتش العام، ثم سكرتير دولة الشؤون البحرية. وعمل بإخلاص وهو الاقتصادي الفذ والرجل الأمين، وارتفع بالمؤسسات إلى مستوى فاق المستوى الذي وصلته أيام كولبير. لكن المشكلة كانت في مرؤوسيه، وفي بعثرة الأموال، فاضطر إلى رفع الميزانية حتى أصبحت ضعف ما كانت عليه. ومع هذا كله كان وحده يبني والآخرون يهدمون من ورائه.

عادل بونتشارتران بين النفقات الباهظة التي كانت تتكبدها الدولة وبين الانجازات فوجدها واهية، عندها قرر تخفيض نفقات السلاح العائم (البحر)، وتحجيم الأساطيل، والاكتفاء بالدفاعات الساحلية، وإقامة الحصون مدعومة بقوات مشاة متحركة أو خيالة تتدخل في المكان المهدد.

استمر الأمر كذلك حتى عام (١٦٩٥)، لكن إصرار الملك على استمرارية المحافظة على

أسطول له شأنه اضطر بونتشارتران لإعادة النظر في خططه، فوصل بتعداد الأسطول عام (١٦٩٦) إلى (١٣٥) بارجة و (٢٠) سفينة متوسطة و (٤٢) سجانة.. والمشكلة الوحيدة كانت في الأطقم، فالنقص في الرجال كبير، خصوصاً بعد اعتياد السفن لذة البقاء في الموانىء، وهبطت الكفاءات الملاحية والقتالية، وضعف الانضباط، وزخف الإهمال في جميع المستويات، فلجأت القيادة إلى صيادي السمك وإلى عمال المرافىء وبحارة الأنهار والبحيرات وحتى المزارعين لتغطية العجز.. وكان يتم تطقيم السفينة قسراً دون تمييز، حتى وصل تعداد القوات البحرية إلى (٩٠) ألف رجل. فما هو العدد الحقيقي للبحارة منهم يا ترى؟

بحرية فرنسا بحرية ورقية ضعيفة التركيب فقدت قيمتها العسكرية الحقيقية بالنسبة لحجمها في حين كانت بحريات هولندا وإنكلترا على النقيض التام لها.

الحرب الصناعية

تقسم مدة خدمة بونتشارتران في وزارة الحربية والتي بلغت (١٢) سنة إلى (٨) سنوات حرب و (٤) سنوات إعداد للحرب.. طبق بونتشارتران أسلوباً طيعاً كان الأول في وضعه وتطبيقه بمنطق ونجاح.. وهو التخلي عن البحر.. ففرنسا تستطيع الاستغناء عن التجارة الخارجية، لأن المملكة قادرة على الحياة ضمن امتدادها الجغرافي البري في حين أن كلاً من إنكلترا وهولندا تتعلقان بالتجارة الخارجية، وهي مصدر قوتهما وثروتهما.. والتخلي عن التجارة يؤثر تأثيراً بالغاً على تطورها.. وعلى المساعدات التي يقدمونها إلى حلفائهما، ويمس هذا التأثير مركزيهما السياسيين.. ومن هذا المفهوم اللوجستي تخلت فرنسا عن الأساطيل الجرارة، واستعاضت عنها بالسفن السريعة ضمن ألوية خفيفة تعمل بسرعة، ولا يستطيع أحد منعها من الخروج لخفة حركتها، ولا تأخيرها أو إبعادها لتفوق سرعتها. وما دام أن القوافل البرية مجموعات ضعيفة الحماية فهي طرائد ثمينة سهلة القنص، أما في حال المجابهة مع أساطيل الخصم فتنسحب هذه الألوية وتتفادى قتالها.

اقتنع رجال البلاط بالأسلوب الجديد، وأقنعوا بدورهم الملك على اتباع أسلوب القرصنة وملاحقة السفن التجارية. وأصبح أسلوب القرصنة خطة دولة كرست له كل إمكاناتها البحرية ليس بغاية الكسب والاستيلاء على الثروات فحسب، بل لتأثيره السياسي الكبير من مردود الضغط الذي سيمارسه التجار البورجوازيون على حكوماتهم في لندن وامستردام.

لقي مشروع القرصنة الحكومي معارضة عند البدء نظراً لما يحتاجه من رؤوس أموال جديدة

لتعمير السفن المتطورة، إلا أن شعار **الحرب يمول أداة الحرب** فاز في النهاية، وعندما أعلن الملك تصديقه على المشروع قام صغار التجار قبل أغنيائهم بالاكتتاب للتمويل.. حتى إن البحارة الذين كانوا يهربون من خدمة الأسطول عادوا بالآلاف يتطوعون للعمل على سفن القرصنة. وأصبحت فرنسا باعتزاز بلد القرصنة الأولى.

واقعة لاغوس Lagos

عادت السفن الحربية الفرنسية بعد معارك لاهوغ تتجمع من جديد في ميناء برست.. ووصلت تورفيل تعليمات في ٢١ مايس تطلب منه الخروج خلال شهر كامل ليجوب البحر بجوار سان فانسان وينتظر قافلة وأسطول سميرن. وفي ١٢ حزيران خرج الأسطولان الكبيران الانكلو ـ هولندي مع (٥٠٠) شراعية. وصلت المعلومات إلى تورفيل فخرج من مرسى برست ومعه (٧١) سفينة حربية دون أن يشعر الحلفاء بخروجه، واتجه نحو سواحل البرتغال، حيث كمن عرضانياً في خليج لاغوس، وأخفى وجوده بكل الوسائط التكتيكية الممكنة. هناك قدمت إليه القافلة الأنكلو ـ هولندية الهائلة ٢٦ حزيران بإمرة الأميرالات الإنكليز كيليفرو، وشوفيل ودولافال (الذي خلف روسل المبعد) الذين كانوا يجهلون كلية خروج أسطول تورفيل (تعمدت حكومة بريطانيا إخفاء الأمر) والأميرال الهولندي الرموند الذي اعتبر عبور القافلة إلى الجنوب والغرب من ويسانت بمثابة تخطٍ للأخطار فقفل عائداً، حيث ترك رووك وحده على رأس (١٥) سفينة خافرة بمهمة المواكبة.

أعد تورفيل خطواته بدقة وإحكام وفاجأ القافلة الحليفة ففر رووك إلى عرض المحيط وبرفقته السفن الكبيرة، ووصل مادير، ولو أن غاباريه لم يتلكأ في اتخاذه تشكيل المطاردة لما استطاع برووك النجاة.

حثت بقية القافلة الخطا وسفنها عادية، وتوجهت بأقصى سرعة إلى سواحل إسبانيا، لكنها لم تستطع النجاة، إذ استمرت ملاحقتها من ٢٨ حزيران وحتى ٢١ تموز ثم انقضت مجموعات تورفيل على سفنها التعيسة، حتى مرافىء قادس وجبل طارق ومالاغا. وكانت أوامر تورفيل تقضي بحرق أو إغراق كل سفينة لا تستسلم. وأضاع الحلفاء حصيلة المطاردة بين (٨٠ و ٩٠) سفينة منها ثماني سفن حربية، وقدرت الخسائر المادية بـ (٣٠) مليون فرنك ذهب بالإضافة إلى الهبوط المعنوي لقدراتهم في الأطلسي والمتوسط.

ما إن وصلت المعلومات إلى إنكلترا حتى هبّ الشعب يطالب بالثأر، ويتوعد أمراء بحره بالويل العميم إن لم يردوا لتورفيل الصاع صاعين، لكونه الرأس المفكر لتلك الضربة القاسمة.

توجه أسطول القتال الحليف إلى إسبانيا فوصلها بتاريخ ٢٧ تموز وكان تورفيل آنذاك قد ابتعد كثيراً في المتوسط، وانضم إليه تشكيل ايستريه. وغدا التجمع الفرنسي أكبر تجمع تم لفرنسا في البحار ويتألف من (٨٧) سفينة حربية كبيرة و (٦١) سفينة متوسطة عليها (٥٦٤٢) مدفعاً و (٧٠) ألف بحار.. وبجوارهم ميناؤهم الأمين طولون في المتوسط وليس للحلفاء أي قاعدة عمليات بحرية في المنطقة.

برهنت فرنسا في إغارتها على القافلة الحليفة بأنها لا تزال قادرة على حشد القدرات البحرية الهائلة.. برغم لجوئها إلى استخدام التجمعات التكتيكية الخفيفة والسريعة الحركة للتدخل السريع. إن اتباع أساليب القراصنة في التعرض لخطوط المواصلات والقوافل التجارية.. أقل كلفة من تحريك الأساطيل الكبيرة، ومردودها أعلى، ولا شيء يضاهي الإغارات التي تقدمها الألوية التكتيكية السريعة الحركة.

أطلق على هذا النوع **من القتال** اسم «الحرب البحرية الصناعية» وطبق بنجاح للأسباب الظاهرية التالية:

١ ــ يستطيع ملك فرنسا تخفيض عدد ضخم من السفن المطاردة السريعة الحركة والمسلحة تسليحاً قوياً لتعمل أشهراً طويلة دون حاجتها إلى التموين أو الإصلاح.

٢ ــ النتائج الفردية جيدة فمجموع الإنجازات التي تقدمها السفن وهي تعمل إفرادياً أكبر بكثير من مجموع إنجازات تلك السفن وهي داخل تشكيلات الأسطول.

٣ ــ مزاحمة في بناء وتعمير وتسليح السفن الحديثة السريعة، وبالتالي تطور سريع في صناعة السفن سبقت زمانها.

٤ ــ انتعشت مدن بحرية كثيرة تعمل في صناعة السفن.. وظهرت الاختصاصات البعيدة، ومن ثم أصبحت مدناً ثرية تضم أعشاش القراصنة كدونكرك مثلاً.

أخذت السفن الجديدة شكل السفن الحربية المطاردة الملكية وبتسليح معزز، وأشرعة إضافية لزيادة السرعة. وكان أكثر بحارة السفن من المتطوعين الأجانب الذين يسعون وراء المغامرة والكسب، فهم شجعان ومقاتلون أشداء ورجال بحر متمرسون، إلا أنهم ضعيفو الانضباط. وهذا طبيعي في

صفوفهم أما قادتهم فكانوا خليطاً عجيباً، أبناء قراصنة شهيرين أو ضباطاً نظاميين، منهم على سبيل المثال جان بارت (١٦٥٠ ــ ١٧٠٢)، وهو ابن قرصان من دونكرك ومن عائلة عريقة تدرج في سلاح البحرية وقاد أسطول الشمال وأسطول دونكرك وزرع الرعب في البحار .. وهكذا كان غالبية قادة السفن أبطالاً أشداء اعتادوا القتال، واعتادوا حياة البحر لمدة طويلة، وتمكنوا من علم الملاحة، وعرفوا طرق مواصلات القوافل، وسبل قنصها، وبخاصة في الممرات المائية الإجبارية . وبذلك أقضّوا مضاجع قادة السفن التجارية، ومضاجع مالكيها ومستأجريها .

فكرت الحليفتان إنكلترا وهولندا بعدة حلول للقضاء على أعمال هؤلاء القراصنة . ولم تفلحا لأن أسطول فرنسا ظل بكامل قوته جاهزاً في الموانىء للتدخل وحماية وحداته القناصة . وهذا ما فرض على سفن الحلفاء التنقل ضمن مجموعات تعبوية كبيرة درءاً لأي خطر داهم . فازدادت نفقات الحراسة بعد مضاعفة سفن المواكبة، ووقعت خلافات حادة نظراً لرفض رجال الأعمال تغطية تلك النفقات الإضافية .

فكر الإنكليز بأسلوب جديد وهو تدمير مرافىء وقواعد القراصنة، وإزعاج سكان المدن الذين يؤوونهم، فهاجموا المدن بـ غاليوت وحرّاقات وعائمات مبتكرة، لكن النتائج دوماً كانت واهية، لأنه تنقصهم المثابرة ومتابعة اقتحام موانىء القراصنة بصورة متواصلة، ولعدة شهور، فكيف لهم ذلك وهو أمر بالغ التكاليف قليل المردود، كفعل (حطم النوافذ بالجنيهات الفضية) .

من عمليات تدمير الموانىء ما حصل ضد ميناء سان مالو عام (١٦٩٣) .. وحقق الحلفاء فيه بعض النتائج . ولما حاولوا إعادة الكرة عام (١٦٩٤) في ميناء برست خانهم مارلبورو[١٠٥] وأنذر الملك الفرنسي بعزم الإنكليز على اقتحام المرسى ومهاجمة الميناء، فاستعدت فرنسا لهذا الهجوم وحصنت الميناء.. وعندما عجز اللورد بركلي عن اقتحام مدخل المرسى الكبير لشدة المقاومة حاول إجراء عملية إنزال في الشاطىء الشمالي عند كاماريه، لكي يطوق من الخلف بطاريات مدفعية كورنواي فاصطدم أيضاً بمقاومة عنيفة وعادت جيوشه النازلة فركبت السفن ثانية تولي الأدبار بعد أن تركت (١٥٠٠) قتيل على الشاطىء ١٨ حزيران (١٦٩٤) . عندها ترك بركلي برست وراح إلى مدينة دييب البريئة فهاجمها وأحرقها في ١٢ تموز انتقاماً لعجزه أمام مقاومة برست وليثأر لضحاياه هناك .

جرت محاولة أخرى بين ٢٠ و ٢٦ ايلول على ميناء دونكرك، لكن المهاجمين عجزوا عن

خرق الدفاعات البحرية. وفي عام (١٦٩٥) قصفت كل من سان مالو ودونكرك بآلاف القنابل من البحر، لإضعاف مراكز القراصنة فيها، وجاءت الخسائر مادية بحتة.

شعر الحلفاء بعجزهم عن إيقاف ممارسات القراصنة، واستمر ضياع سفنهم التجارية. وتشير الإحصائيات إلى ارتفاع عدد الخسائر، ويقال إن إنكلترا فقدت وحدها (٤٢٠٠) سفينة. ويذكر المؤرخ راين تويراس أن قراصنة المالوين (نسبة إلى سان مالو) قبضوا خلال خمسة أعوام (١٦٨٨ ــ ١٦٩٣) على (١٦٢) سفينة حربية و (٣٣٨٤) سفينة تجارية، ويتبجج الدنكركيون فيقولون إنهم سلبوا الحلفاء خلال تسع سنوات حرب (٢٢) مليون فرنك ذهبي. وعلى كل حال ومهما كانت صحة أرقام الإحصائيات، فإننا نقر بأنه أسلوب القرصنة الفرنسي قد أثر على الأنكلو هولند تأثيراً عميقاً بشهادة أحد المؤرخين الإنكليز إذ قال:

«إنه من المؤكد بأننا قاسينا الكثير، ففي كل حرب تتعرض مؤسساتنا التجارية لخسائر فادحة حتى إن بعضها يصاب بالدمار الكامل».

توقفت إنكلترا نهائياً عن الإتجار مع دول بحر الأبيض المتوسط إلا بسفن مخفورة. وأصبح الموقف في كل من لندن وامستردام مأساوياً، وارتفعت رسوم التأمينات على السلع بنسبة ٣٠٪ إضافات، وخفت السيولة بين العامة وحتى بين الحكومات. ولتدارك الموقف وافق البرلمان البريطاني على إنشاء بنك إنكلترا وأعطي صلاحيات إصدار العملات الورقية.. وأثر الأسلوب الجديد من الحرب تأثيراً واضحاً على غالبية شعوب أوربة، وتلاحقت الأزمات الاقتصادية، وتمسك الإنكليز بموقفهم وهم الشعب العنيد الذي لا يستسلم، وتابعوا قبول التحدي، وعملوا بكل قواهم على زيادة سفن أساطيلهم الحربية، لكي تغطي النقص في إحكام مراقبة السواحل الفرنسية والموانىء التي ينطلق منها القراصنة. وتعاظم عددها حتى بلغ أكبر الأساطيل قاطبة، بحكم سيطرته على كل بحار الأطلسي والشمال تقريباً. ولم يبق لفرنسا إلا المتوسط بحراً تعبث فيه وبالنسبة لخسائر هولندا فكانت أكبر من أن تستطيع استيعابها، خصوصاً ومجابهتها لفرنسا على جبهتين بحراً في حروبها للدفاع عن مصالحها التجارية، وبراً أمام جيوش لويس الرابع عشر التي تقاتلها منذ عدة سنين.

تراجعت هولندا بحرياً في الوقت الذي وثبت فيه إنكلترا للقمة، وسبقت جميع بحريات المنطقة وسادت أساطيلها وسفنها غالبية البحار المحيطة بالقارة الأوربية.

العمليات الحربية بين أعوام (١٦٩٣ ـ ١٦٩٧)

أخفقت خطة بونتشارتران على المدى الطويل لأنها لم تحقق لفرنسا سيادة بحرية، ولم تجبر الحلفاء على المصالحة، بل على العكس جعلت سيادة البحار تنتقل إلى الإنكليز، دون قتال، بعد أن ضاق بها حلفاؤهم الهولنديون.. واعتبر غليوم كل أمراء بحر هولندا ضباط احتياط في البحرية البريطانية يرتبطون بالإدارات الحربية الإنكليزية العليا.. ولكي لا تُحصر السلطة في رجل واحد، أسندت إلى قيادة ثلاثية أطلق عليها اسم لجنة أمراء البحر الثلاثة، ومركزها لندن. وهي الإدارة العليا للأمور البحرية.. ولا عجب في أن تكون النتائج العامة لهذه اللجنة مترددة مرتبكة، لتعدد الأشخاص في القيادة.

قررت القيادة الثلاثية عام (١٦٩٦) استخدام النفوذ البحري الحليف لحماية التجارة وخطوط المواصلات وفي الوقت نفسه إعطاء الجبهات البرية المزيد من الدعم، لإحكام القبضة على الفرنسيين، ومن ثم مد يد المساعدة لإسبانيا للنهوض بها بحرياً، ودفعها إلى المتوسط لتستعيد سيادتها هناك، وتحسر فرنسا عن المسرح البحري كما حصل في المحيط وبحر الشمال.

لم تأت خطط الحلفاء بالنتائج المرجوة لها فغزوهم للبر الفرنسي على يد بيركلي عام (١٦٩٦) جاء واهياً قليل الأهمية، في حين نجحوا في المتوسط، وحققوا بعض الفوائد منها:

ـ تأمين ممارسة التجارة مع الشرق.
ـ الحؤول دون عودة الفرنسيين لعملياتهم الهجومية.
ـ منع اتصال أسطول طولون بأسطول برست.
ـ مساعدة إسبانيا للاشتراك في حصار فرنسا.
ـ استعادة السيادة البحرية في المتوسط.

ظهر روسل على رأس (٧٥) سفينة حربية في شهر آب فأكره الفرنسيين على دخول ميناء طولون. وكانوا يطبقون مبدأ تفادي القتال الجماعي طبقاً لتعليمات وزارة الحربية الفرنسية.

استغلت إنكلترا اختفاء أسطول طولون، ودخلت سفنها خليج ليون، وبقيت فيه حتى شهر تشرين الأول، لكنها لم تقامر في مساس السواحل.. أو ضرب المنشآت البرية. وعلى أثر ذلك تشجعت سفن إسبانيا، وبدأت سفنها تظهر في المنطقة، برغم بقاء فرنسا في مقاطعة كاتالونيا. ورغبت إنكلترا في المحافظة على الوضع، فطلبت من روسل البقاء طيلة فصل الشتاء في المياه

الإسبانية جاهزاً للتدخل فيما لو حاول أسطول طولون الفرنسي العودة إلى البحر شتاءً. وأصبح أسلوب إبقاء الأسطول معبأ طيلة فصل الشتاء تقليداً بحرياً في إنكلترا وفي المتوسط بالذات. ومن ذلك التاريخ وإنكلترا تحافظ على هذا التقليد بإبقاء مجموعة بحرية دائمة وجاهزة على أهبة الاستعداد (مجموعة قبرص). واعتبر هذا التدبير جزءاً من التطور الستراتيجي الذي التزمته منذ القرن الثامن عشر.. وتعتقد أن كسب معركة بحرية معناه تأمين سيادة بحرية ضمن مدة الحملة، أما عودة الأساطيل إلى الموانىء ورفع تسليحها فمعناه فقدان السيادة، وإعطاء العدو فرصاً لأوقات خطرة، قابلة للاستغلال.

إن نظام أساطيل الشتاء واستمرارية السلاح البحري جاهزاً للتدخل جعل من هذا السلاح قوة لجميع الفصول ولجميع الأزمان.. وانتهت حقبة السلاح الفصلي وعيوبه، وأصبح لزاماً على الأساطيل البعيدة زيادة عدد سفنها، والتركيز على التدريب المتواصل للتعود على حياة المحيطات في الظروف الجوية الصعبة، فتزداد ثقة البحارة بأنفسهم، هذه الثقة التي تعد من أكبر مزايا آلة الحرب.

بدأ تاريخ سيادة إنكلترا على البحار بقوات بحرية متنقلة متحركة، وسرعان ما ظهرت آثارها على جميع الأصعدة. ففي عام (١٦٩٤) كان انتقال السفن الفرنسية من بحار الشمال إلى البحر الأبيض المتوسط أمراً سهل المنال، قابلاً للتحقيق. وحدث مراراً عندما انتقلت مجموعة برست والمؤلفة من (٥٠) سفينة حربية ووصلت طولون في المتوسط، دون أن يعترضها معترض، لكن هذه الحرية الملاحية تقلصت بعد عام (١٦٩٥)، وأصبح الانتقال بين الموانىء الفرنسية محفوفاً بالأخطار، حيث كان أسطول روسل يجوب قرب سواحل كاتالونيا، وأمام طولون، دون أن يستطيع تورفيل الخروج وملاقاته.. ولو فكر الإسبان باستخدام الظرف والاعتماد على الأسطول الإنكليزي المقيم في مياههم لاستطاعوا تحرير كاتالونيا، لكنهم كانوا يفتقرون للمقاتلين إذ إن قيمة جيوشهم القتالية تدهورت، فعجزوا عن تحرير أراضيهم، أو عن الاحتفاظ بالوماس التي حررها لهم الإنكليز بوساطة وحدات نزلت من البحر.

نهاية الحرب

إن قلة أعداد الجيوش البرية الحليفة جعلتهم يفقدون الكثير من المكاسب برغم تفوقهم البحري الكبير، فأوضاع الجبهات البرية تزداد سوءاً بعد أن احتل الفرنسيون الأقاليم المنخفضة

الإسبانية حتى مداخل مدينة بروكسل وشواطىء نهر الرين. وظلت الحرب مستعرة بانتصار بري فرنسي، وبتفوق بحري حليف. وكان التوازن سيبقى طويلاً.. وهذا ما دفع بملك فرنسا إلى قبول وساطة ملك السويد في وقف القتال وبدء محادثات السلام.

استمرت المحادثات طويلاً لأن المعارك البرية قائمة والدول الأوربية المتحالفة ضد فرنسا لا ترغب في وقف الحرب وهي مهزومة، وغليوم يأمل بإطالة الحرب لعلها تأتيه ببعض الانتصارات في أوربة أو في المستعمرات.

بدأت مسيرة السلام بمعاهدة ثورين آذار (١٦٩٦)، ومنحت فرنسا كهدية لطموحات دوق سافوا شمال إيطاليا.. وفي تلك الأثناء ماتت الملكة ماري في كانون الثاني من عام (١٦٩٥) وبدأ الحديث في شرعية حكومة غليوم الثالث. وحاول ملك فرنسا تجربة حظه ثانية في إعادة جاك الثاني إلى عرش بريطانيا، وحشد قوات كبيرة في ضواحي دونكرك، وكلف جان بارو ونيسموند بنقل هذه القوات على (٣٠٠) عائمة إلى فتحة نهر التايمز. وعندما كشفت الخطة أعلنت بريطانيا حالة النفير العام، واستدعت جنودها، واستعدت لصد الغزو. واستدعي كل من روسل وشوفيل فجاءا بمجموعتيهما البحريتين يجوبان جوار كاليه منعاً من إتمام عملية الغزو.

عند إعلان حالة النفير في القوات البحرية الإنكليزية انتقلت مجموعات المتوسط إلى بحر الشمال فغدا البحر حراً وجاهزاً للفرنسيين.. فاستغل أسطول طولون هذه الفرصة وأقلع شاتورونو في نيسان على رأس تشكيل ضم (٥٠) سفينة حربية وانضم إلى أسطول برست دون أن يعترضه أحد.. وغدا هذا التجمع الكبير في مرسى برست مقلقاً لإنكلترا التي أنصتت لكلمة العقل وقنعت بإنهاء القتال، وتبعتها هولندا فيما بعد.

بقيت إسبانيا بحالة حرب وحيدة، وانحسر عنها الدعم البحري بعد عودة أساطيل الإنكليز إلى الشمال.. وأشعرتها فرنسا أن السيادة البحرية عادت لها حول السواحل الإسبانية، وسيادتها قائمة على البر بقيادة فاندوم(١٠٦).. ولتأكيد السيادتين قام ايستريه بحراً وضرب سواحل إسبانيا فسقطت برشلونة بعد عدة أيام، وأصبحت كل إسبانيا الشمالية الشرقية بلاداً مفتوحة للغزو البري.

كان موقف المستعمرات الإسبانية سيئاً يتعرض للنهب والقرصنة، فتناقصت موارد إسبانيا المالية.. وكانت لحملتي بوانتي ودوكاس(٧٠١) عام (١٦٩٧) على قرطاجنة الهند خلال شهري نيسان

ومايس الأثر الكبير على موقف إسبانيا المالي ، إذ حملت الغنائم إلى فرنسا وحرمت إسبانيا من دخل مالي كبير .. وكان هذا الخلل كافياً لإذعان إسبانيا وقبولها مقترحات الصلح .

معاهدات ريزويك

تم توقيع هذه المعاهدة في تشرين الأول من عام (١٦٩٧) وتضمنت التالي :

ــ اعتراف فرنسا بغليوم الثالث ملكاً على إنكلترا .

ــ إعادة الأرض التي تم فتحها خلال الحرب ، وتحتفظ فرنسا بالأراضي المحتلة سابقاً فقط . ومن ضمنها الإقليم الهام استراسبورغ . وكان ملك فرنسا يبغي في تنازلاته هذه الانتهاء من معاهدة السلام ، ليتفرغ كلية لقضية وراثة عرش إسبانيا ، ثم الالتفاف نحو الخصم الحقيقي هولندا التي شعرت بما ينتظرها ، فاندمجت تحت جناح إنكلترا ، وبذلك تأكد التحالف الثنائي الجديد وكان من نتائجه :

ــ اتحاد الأسطولين الانكلو ــ هولندي في البلطيق ــ ومساعدتهما الفعالة لملك السويد في الوقوف أمام الدانمركيين مع المطالبة بعدة امتيازات .

ــ اتحاد المؤسسات الإنكليزية والهولندية في كل من المتوسط وبحر الآنتيل وإسبانيا نفسها . وأصبحت تجارة البلدين متحدة حتى في العمليات التجارية التي تتم في الموانىء الفرنسية ولإنكلترا فيها حصة الأسد .

لا أحد من البلدان الثلاثة التي اشتركت في الحرب وتنازعت التفوق العالمي استطاع الخروج منتصراً ، لكن الذكي منها استغل موهبته في جمع الأموال واستخدامها في تعزيز قواته ، وتحقيق اتساع جبروته في البحر . وكان ذلك نصيب إنكلترا بالدرجة الأولى ، حيث حققت نجاحات كبيرة ، تخطت بها جاراتها ، وتطلعت إلى البعيد لتسود العالم خلال حقبة مقبلة طويلة من تاريخ الأمم .

الفصل التاسع

انهيار القدرة البحرية الفرنسية
حرب عرش إسبانيا

معاهدات الوصاية والتقسيم

وراثة عرش إسبانيا أصبحت القضية الأكثر أهمية في كل أوربة، فهناك ثلاثة ورثة لهذا العرش: الإمبراطور، ابن أخت فيليب الرابع، لويس الرابع عشر، وناخب بافيير ممثلان لحقوق أزواجهما، الأولى أخت والثانية ابنة أخت شارل الثاني.. وحتى لا تثار أزمة بين الكبار طالب كل منهم بالتاج الإسباني لابنه، وأصبح الورثة الحقيقيون لشارل الثاني هم البرنس ناخب بافيير، والأرشيدوق شارل الابن الثاني ليبولد، ودوق آنجو الابن الثاني لولي عهد فرنسا ابن لويس الرابع عشر. وتخلى الأولاد عن حقوقهم بالزواج، لكن هذا التخلي ظل مرهوناً بقيمة البائنة التي لم تدفع قط.. فحقوق حفيد لويس الرابع عشر تلغي جميع حقوق الآخرين. واعترف الإمبراطور نفسه بهذا الحق، ووافق على مفاوضة فرنسا لتسوية الموضوع تسوية حبية (اتفاق فارس غريموتفيل ١٦٦٨).

أظهر الملك لويس الرابع عشر عدم المبالاة في المطالبة بالعرش، واعتبر امتلاكه للأقاليم المتحدة الإسبانية المجاورة لهولندا كسباً كبيراً، في حين شعرت هولندا بأن هذا الاقتراب الفرنسي من حدودها تهديد لاستقلالها. والإنكليز كالهولنديين على السواء اعتقدوا أنهم سيطردون من عمليات العبور إلى الشرق، فيما لو سادت فرنسا على ممر جبل طارق، وسيطرت على تجارة الهند في حال

نجاح مساعيها مع حكومة إسبانيا، ودخول امتياز مشاركة في استثمارات المونوبول.. فلا بد للحلفاء والحالة هذه من اللجوء إلى القوة لاستعادة المصالح.

حصلت فرنسا بمعاهدة التقاسم التي وقعت في لاهاي ١١ تشرين الأول (١٦٩٨) وعلى ضمان عرش إسبانيا من قبل القوتين الكبيرتين فرنسا وإنكلترا، وحصلت أيضاً على مملكة صقلية، ووعدت إنكلترا بعدم امتصاص إسبانيا ومستعمراتها.

لكن بموت الأمير المنتخب شباط (١٦٩٩) عقدت اتفاقية جديدة ١١ حزيران (١٦٩٩) أعطيت الوراثة للأرشيدوق مع زيادة حصة فرنسا من ميلانو وغيبوزكاو. واقترح ملك فرنسا مبادلة ما آل إليه من شمال إيطاليا بالألزاس والسافوا، بحيث تعود البلاد إلى حدود طبيعية ملموسة. وهكذا حصلت فرنسا على المزيد من المزايا التي فاقت ما كان قد حققه لها مازاران في السابق.

وصية شارل الثاني.. واعتلاء فيليب الخامس ملكاً على عرش إسبانيا

مما يدعو للعجب أن المتفاوضين في معاهدات التقسيم صاغوا قراراتهم بغياب أهل الشأن من الإسبانيين أنفسهم. وبمجرد أن توقف النزاع بين إنكلترا وفرنسا، هبت مدريد تثأر محتجة مدفوعة بشعور وطني متأجج ضد المتبجحين الذين تجاسروا وأقاموا أنفسهم أوصياء على إمبراطورية شارل كنت، دون استشارة المالكين الأصليين. وعلى أثر ذلك قام ملك فرنسا وشكل حزباً يطالب بالعرش الإسباني، وانجرف شارل الثاني ووقع اتفاقاً في ٢ تشرين الأول عام (١٧٠٠) واعتقد أنه سيحمل السلام إلى إسبانيا يوصي لحفيده دوق آنجو، وباستعادة كل ممتلكاته شريطة عدم التخلي عن أي جزء منها إلى الغير، وإذا لقي معارضة من لويس فينتقل العرش للأرشيدوق شارل وبالشروط نفسها.

أقر هذا الاتفاق في فرساي ٩ تشرين الثاني، وتواقت مع موت ملك إسبانيا في ٣٠ من الشهر نفسه. ولتفادي الخلافات قدم لويس الرابع عشر حفيده ملكاً على إسبانيا باسم فيليب الخامس. واعترض سفير هولندا مذكراً فرنسا باتفاقية التقاسم لكن اعتراضه أهمل.

ودون إنذار مسبق أعلن إمبراطور النمسا الحرب على فرنسا ٩ كانون الثاني (١٧٠١). وبما أنه قليل الموارد راح يقنع البلدان المجاورة للاشتراك معه في الحرب. ففي إنكلترا وفي هولندا على السواء كان الشعبان يتوقان للسلام، وقد خفضا من قواتهما النظامية رغبة في الراحة.

تأثر غليوم من لعبة لويس في اعتلاء حفيده عرش إسبانيا، إلا أنه رضخ في النهاية واعترف بفيليب الخامس في ٢١ شباط (١٧٠١) ملكاً على إسبانيا. واعترفت هولندا أيضاً، وبذلك تخلص لويس من عواقب حرب جديدة، وأعلن يبدي حسن نواياه، وأنه يحافظ على بنود الوصية، ثم بدأ يتصرف كوصي وحارس لعرش إسبانيا. وأرسل المستشارين والموظفين والجنود فدخلوا الممتلكات والمؤسسات الإسبانية، ممثلين لسلطة فرساي.

استعادت إسبانيا بعضاً من حيويتها وتوقف التدهور المخيف في مؤسساتها، وراحت تعيد بعضاً من أمجادها السابقة مما دفع بالبلدان الأوربية الأخرى لالتزام جانب الحذر خشية انصهار القوتين الكبيرتين إسبانيا وفرنسا ضمن بوتقة واحدة، وتحت قيادة واحدة، فتكون مصدر إرهاب لكل دول القارة، خصوصاً بعد تصريح لويس الرابع عشر الطنان الذي حفظ لحفيده كل حقوقه في عرش فرنسا كانون أول (١٧٠٠)، وقريباً يمكن أن ترى دول أوربة الملك نفسه على عرش باريس ومدريد في آن واحد.

بدأت آثار التقارب الفرانكو إسباني الاقتصادية تعطي فعاليتها وبسرعة مذهلة وبدأ الحديث عن إقامة اتفاق تجاري يضم البلدين ضمن وحدة جمركية كاملة، كان دوكاس قد أقامها بالفعل لشركة فرنسية.. لها حق امتياز واحتكار الاتجار بالرقيق الأسود في المستعمرات الأمريكية (آسيانتو Asiento) وهذا يعني الحق في إقامة تجارة واستثمار للثروات في تلك المناطق من العالم.

لم يمر عام واحد إلا تبدلت اللامبالاة عند الهولند والإنكليز إلى اهتمام عنيف للوقوف أمام عبث فرنسا في عرش إسبانيا وتغلغلها في مستعمراتها. وكان لموقف لويس الرابع عشر دور كبير في تفجير غضب شعوب أعدائه. وبأمر من فيليب الخامس ملك إسبانيا (واضح أن الأمر أملي عليه من قبل جده) طلب إلى كل الحاميات الهولندية الموجودة منذ عام (١٦٩٧)، والتي تحتل المواقع في البارير Barrières استبدالها بقوات فرنسية. وبوفاة جاك الثاني في سان جرمان اعترف لويس الرابع عشر بابنه ملكاً على عرش إنكلترا باسم جاك الثالث ١٦ ايلول (١٧٠١). وكان تصرفه هذا عرفاً بروتوكولياً لم يرق للإنكليز، واعتبروه تدخلاً في شؤونهم الداخلية، واعتداءً على استقلالهم. ثم أعقب ذلك انتخابات نيابية في بريطانيا أزاحت بنتائجها كل الأعضاء المسالمين في مجلس العموم، وكأن البلاد تستعد للحرب.. وبالفعل ففي ٧ ايلول من عام (١٧٠١) أقيم حلف كبير ضم من جديد الإمبراطور النمساوي، والأمراء الألمان، وهولندا وإنكلترا، واشتد الهياج الشعبي في كل من هولندا وإنكلترا، وبدأ المتظاهرون يطالبون حكوماتهم بمحاربة فرنسا.. وبالنهاية أعلن الحرب في ١٤ مايس

من عام (١٧٠٢) واتفق الحلفاء على عدم إقامة أي صلح فردي مع فرنسا وضمانة عرش إسبانيا لشارل الثالث، ووقف امتداد التغلغل التجاري الفرنسي داخل المؤسسات الإسبانية في إسبانيا ومستعمراتها.

مات غليوم الثالث في ١٩ آذار (١٧٠٢). وقبل أن يرحل عن العالم توصل وهو سعيد لإعادة التجمع الأوربي ضد فرنسا عدوته اللدود، حاثاً هذا التجمع على متابعة حروب (١٦٧٨) وبهدف تحقيق النقاط التالية:

١ ــ رفع يد فرنسا عن إسبانيا ومستعمراتها.
٢ ــ الحد من رجحان سياسة فرنسا في أوربة.
٣ ــ منعها من استثمار العالم الجديد.
٤ ــ الحيلولة دون وصولها إلى تفوق اقتصادي عالمي.

ومما تقدم من نقاط توقع العالم آنذاك قتالاً شرساً لحسم الموقف.

الصفات العامة للحرب

كانت المهمة الرئيسية المطلوبة من البحرية في حرب عامة هو الدفاع عن أكبر إمبراطورية استعمارية في العالم، وهي مهمة خارج إمكانات الدولتين فرنسا وإسبانيا مجتمعتين، خصوصاً وسلاح إسبانيا البحري بحكم المنتهي، وبحرية فرنسا على الورق تضم (٩٧) سفينة حربية و (٥٠) فرقاطة و (٦٠) سفينة متوسطة، و (٤٠) سجانة. وأكثر هذه الوحدات قديمة وأطقمها ناقصة تفتقر للمقاتلين، والخزانة الملكية فارغة، لذلك كان من المستحيل على أسطول فرنسا الخروج إلى البحر وفرض السيادة فيه أمام أقوى قوتين بحريتين معاصرتين.. واكتفت قيادة الأسطول الفرنسي الإسباني بإسناد بعض المهام الأساسية لوحداتها وتتلخص بـ:

١ ــ حماية السواحل.
٢ ــ الدفاع عن الممتلكات الفرنسية الإسبانية وراء البحار.
٣ ــ تأمين حرية الملاحة بين الممتلكات وأوربة.
٤ ــ تفادي الاشتباكات البحرية التصادمية الكبيرة لفقد التوازن.

أولى العمليات البحرية

استطاعت فرنسا بعد صرف مجهود كبير إعداد (١٠٥) سفن حربية كبيرة عليها مواجهة

(٢٢٧) سفينة حربية انكلو هولندية.. وحاول بونتشارتران الابن استخدام أسلوب أبيه بإرسال مجموعات بحرية خفيفة إلى عرض البحر، لحماية خطوط مواصلات الدولتين فرنسا وإسبانيا. لكن التفوق العددي الكبير للحلفاء، جعل من سفنهم الحربية في كل مكان.

بدأت السفن الفرنسية تجوب البحار لتأمين مصالح فرنسا، وبالأهم مصالح إسبانيا في مستعمراتها البعيدة.. فأعطي الأميرال ايستريه مهمة تأمين المواصلات في المتوسط بين إسبانيا وإيطاليا، وحماية خطوط المواصلات البحرية التي تمد مملكة نابولي التابعة لإسبانيا بالجنود وبالإمداد الحربي.. ثم خصصت عدة فرقاطات بإمرة فوربان وديكنز ـ موزنيه، حيث عمد إلى قطع الاتصال البحري بين تريستا وجنوة، لوقف زحف الأمير أوجين الذي حاول في العام (١٧٠٢) نفسه التقدم نحو ميلانو، ولم يفلح.

أرسلت عدة مجموعات بحرية وتمركزت في مياه ليشبونة للمحافظة على البرتغال صديقاً، خصوصاً بعد ظهور ملامح تردد في موقفه.. كانت على هذه المجموعات تأمين وصول الغلايين القادمة من البيرو والمكسيك وهي من أشد المهام صعوبة ودقة.. وبالفعل قام كويتلوغون(١٠٨) Coëtlogon برحلة إلى جزائر الآنتيل وتبعه دوكاس بتشكيل بحري ليحل مكانه. وحدثت هناك معركة بحرية في بينبو Benbow أطلق عليها اسم معركة (سانتا مارتا) في ٢٩ آب (١٧٠٢) لكن التشكيل الحقيقي المنتظر كان تشكيل شاتورونو، إذ قام برحلة في نهاية العام ووصل سانتا كروز في نهاية شهر مايس، وهافانا في ٢٣ تموز.

كل تلك التحركات البحرية تمت والإنكليز مترددون في الأسلوب الواجب اتخاذه، خصوصاً وقد تخلت فرنسا عن بحري المانش والشمال. فكان أول ردود فعلهم استغلال خلو البحرين من أسطول فرنسا، فنقلوا جنودهم إلى البر الأوربي لمعركة بلينهم الشهيرة.

وتخلى الإنكليز عن إرسال أسطولهم إلى المتوسط، حيث لم يعد لهم هناك أي مرفأ يؤمونه، بعد تخليهم عن طنجة (١٦٨١). وبرغم أن غليوم حاول إقناع أمراء بحره بدفعهم إلى الذهاب، وإيجاد قاعدة عمليات لهم هناك، ومن ثم العمل على استرجاع سيادة البحر من يد الفرنسيين، لكنه لم يفلح في إعطائهم حس ورغبة العمل في بحر ليس لهم فيه مصلحة.. ونتيجة إصرار الملك غليوم قبل رووك العرض، وأقلع في حزيران (١٧٠٢) على رأس (٥٣) سفينة.. وفي طريقه حمل على قادس، لكن حملته انتهت بشكل يثير الشفقة، بعد أن أمضى شهراً في جزيرة لييون (٢٣ آب ـ

٢٥ ايلول). وعندما استعاد قواته من على بر الجزيرة اتجه نحو لاغوس، ورفض المخاطرة في دخول المتوسط. وفي أثناء الطريق وردته معلومات هامة عن طريق سفير إنكلترا في ليشبونة أعطته فرصة لتحقيق نصر رنان في فيفو الشهيرة، فكيف كان ذلك؟

كانت قناعة شاتورونو تعذر دخول قادس وهو يحمي قافلة إسبانية كبيرة لتواجد الأسطول الإنكليزي هناك، فقرر الارتفاع شمالاً للوصول إلى جزيرة بيل ايل، أو ويسانت. وكانت تلك رغبة الوزارة الفرنسية. لكن السميريات (نوع من السفن) المرسلة للقائه لم تصله في المكان المناسب.. وفي الوقت نفسه خشي الأميرال الإسباني مانويل دوفيلاسكو المرافق من دخول الغلايين الإسبانية المحملة بالسلع إلى أحد الموانىء الفرنسية، وهذا يعني أن قسماً كبيراً من حمولتها لن تصل خزائن بلاده. فأصر على بلوغ الشواطىء الإسبانية مهما كانت ظروف المنطقة.

اقتنع شاتورونو بدوره ووافق على رأي الأميرال الإسباني، وتركه يتجه على رأس (١٨) سفينة جديدة من أسطول إسبانيا إلى فيفو، فوصلها في ٢١ ايلول واعتبر القائد الإسباني أن مهتمه قد تحققت في دخول ميناءً صديقاً دون حادث يذكر، ودون أن يصطدم بأسطول إنكلترا المتواجد في المنطقة.

أخطأ القائد الإسباني في عدم الإسراع بتفريغ حمولات السفن، خصوصاً وهو يعلم أن رووك غير بعيد.. ولقد أمعن في الإهمال حتى إنه لم ينذر قادة سفنه بالموقف العام، ولم يرسل سفناً كشافة خارج الميناء تستطلع الأفق.. وهكذا أعطى بإهماله فرصة لرووك لتحقيق نصر كبير..

ظهر الأسطول الإنكليزي في ٢٢ تشرين الأول عند جزر بايونا على مدخل جرف فيفو، ومع أن الأميرال شاتورونو المواكب يعرف صفقات الدفاعات الإسبانية وعدم تمكنها من إنجاد السفن الراسية في الميناء، مع هذا أقام ترتيبات دفاعية سريعة، وأغلق المدخل عند ريد ونديلا بحاجز داخل الماء Estacade، ثم ربط خلفه السفن الحربية وعبأ بطاريات المدفعية الساحلية بسدنة من بحارته، لدعم القوات الإسبانية، وبرغم كل هذه الاستعدادات استطاع الأميرال الإنكليزي إنزال من ٣ إلى ٤ آلاف مقاتل على البر، وهاجموا التحصينات التي أقامها شاتورونو من الخلف، وفي الوقت نفسه اقتحمت السفن الحربية الإنكليزية مدخل الميناء، وكسرت الحاجز، بعد اشتباك عنيف مع السفن الفرنسية المدافعة عن المدخل. إلا أن التفوق الساحق للأسطول المهاجم أنهى الاشتباك الدامي بسرعة. وأسقط في يد الفرنسيين حتى إنهم لم يجدوا الوقت الكافي لإحراق سفنهم، ومنعها من

السقوط في أيدي رووك. وفي النهاية استطاع الأسطول الإنكليزي أسر (٦) سفن حربية كبيرة، وسفينتين إسبانيتين و (٨) غلايين لا زالت محملة في الميناء، كما استطاع الاستيلاء على البضائع المفرغة على الأرصفة، فحملها معه. وكان ذلك بين ٢٣ و ٢٩ تشرين الأول.

دوى الانتصار الإنكليزي في كل مكان من أوربة خصوصاً والخسائر لدى الفرنسيين والإسبان عالية باهظة. وقدر أن سبع البضائع انتقلت إلى إنكلترا على ظهر السفن المغيرة. وخسرت فرنسا وإسبانيا (٢٠) سفينة حربية كبيرة، و (١٦) سفينة مختلفة النوع. وكان التأثير المعنوي أكثر إيلاماً من الخسائر المادية. وجعلت التشكيلات البحرية الفرانكو فرنسية لا تجرؤ على ترك الموانىء وإن خرجت فلعمليات محدودة بسيطة، مع تفادي التصادم بسفن الحلفاء.. وضعفت الارتباطات بين إسبانيا ومستعمراتها في البحار البعيدة، وانكمشت الموارد حتى حدود الضرورات الدنيا.

أثّر الانتصار الكبير على معنويات الشعب الإنكليزي، ودبت الثقة في النفوس من جديد، لشجاعة رجال البحر ومنجزاتهم.. فاستفاقت الأطماع في رؤوس الحكام، وراحو يحيون ذكرى زمن الملكة اليزابيت، فأرسلوا التشكيلات البحرية إلى خارج المياه الإقليمية تحدياً.. وفي الوقت نفسه تفادياً لأي غزو قد يفكر الخصم في إعداده. وفي عام (١٧٠٣) خرج الأسطول الكبير أو أسطول المحيط، وقام بمردود استعراضي على سواحل فرنسا الشمالية، وأخذت العمارات البحرية تجوب خلال أشهر عديدة مشارف برست البحرية تستثير سلاح البحر الفرنسي وتنتظره لتنقض عليه بقوات تفوقه عدداً وعدة وبأضعاف مضاعفة.. ولما لم تفلح حركة الاستفزاز هذه قام الأسطول الإنكليزي بعمليتي إغارة صغيرتين في جزر بيل ايل، وجزيرة كروا وعبث وقتل ونهب، ثم قفل عائداًإلى موانىء بلاده.

يمكن اعتبار تاريخ حروب أسطول المحيط الإنكليزي بداية عهد سيادة إنكلترا على البحار.

في العام ١٧٠٤ جاء أسطول إنكلترا إلى مشارف ليشبونة، ومعه الأمير النمساوي المنادي بعرش إسبانيا مع قوات برية محمولة كثيرة. وتم الاتصال بفرنسا الحليفة فوعدت على لسان بونتشارتران تقديم المساعدة بخروج أسطول فرنسا في برست للاشتباك مع أسطول إنكلترا المغير، لكن شاتورونو رفض التنفيذ، لأن الوحدات البحرية الفرنسية المتجمعة في برست قلة ولا تستطيع مجابهة خطر من هذا القبيل.

بالنسبة للمتوسط عاد شوفيل إليه وفرض سيادة إنكلترا في المنطقة، وقطع المواصلات البحرية بين مرسيليا وجنوة، وفرض على الفرنسيين الانسحاب من ميلانو.

استمر أسطول رووك خلال شهر أيار في تهديد برشلونة كما مر ذكره، لكن قوته لم تكن بالقوة الكافية للهجوم على البر الإسباني. وانبرى كونت طولون يحشد قوات الشمال وقوات الجنوب تحسباً.. وقرب رأس غاتا، وكان المكان شبه خال إلا من مائة وخمسين مدافعاً. واستطاع الإنكليز احتلال الموقع بسهولة، وبقوا فيه، واعتبروه مرفأً متوسطياً له أهميته في حملاتهم البحرية عبر المتوسط.

لم تدع فرنسا هذا الخصم البغيض يرتاح وقام كونت طولون كما سلف ذكره يستعيد الموقع وتقابل مع رووك في المضيق وكان هذا الأخير عائداً من تطوان وكان خطأ كونت طولون شدة حذره حيث أتاح لرووك فرصة لتجميع قواته المبتعدة وإعادة طواقم سفنه من على البر وكان ذلك بين ٢٠ و ٢٤ آب.. حتى وقعت الواقعة على مسافة (٢٥) ميلاً إلى الجنوب من فيليز ــ مالاغا Velez-Malaga.

كانت القوتان المتقاتلتان متكافئتين تقريباً (٥٠) سفينة و (٣٥٢٢) مدفعاً لفرنسا و (٥٣) سفينة و (٣٦١٤) للحليفتين هولندا وإنكلترا.. لكن التفوق هو بعدد السفن الكبيرة التي تحمل (٧٠) مدفعاً إذ كان لدى فرنسا (٢٢) قطعة مقابل (٣٥) قطعة للحليفتين.

تمت مراحل المعركة بالخطوات التقليدية المعروفة.. سفن الإنكليز بالريح يدعون أنفسهم يسقطون ويقتربون من نسق السفن الفرنسية التي توقفت بفعل معارضة أشرعتها الصغيرة، وبدأ الأسطولان بتبادل قذائف المدفعية بارجة لبارجة ولمدة (٧) ساعات متواصلة دون أن يحاول أحدهما المخاطرة وتغيير مكانه أو القيام بمناورة تخل بالتشكيل.

أخطأ الفرنسيون عندما لم يحاولوا استغلال فراغ واسع حدث بين مجموعة المقدمة لشوفيل والقوى الرئيسية لرووك.. وانتهت المعركة مع هبوط الظلام، لتعود وتحتدم في اليوم التالي وكانت الريح قد استدارت إلى الغرب وأصبحت في صالح الفرنسيين فهاجموا بعنف حتى اقتربت ذخائرهم من النفاذ فتراجعوا وبقوا ثلاثة أيام في وضعية حذر ومراقبة وأخيراً وفي ٢٧ آب عادت الريح إلى الشرق من جديد فانسحب الحلفاء إلى جبل طارق ثم لمياه ليشبونة وارتفع خطر تواجدهما في المتوسط.. وكانت خسارة الفرنسيين (١٥٨٥) قتيلاً مقابل (٢٥٧٨) قتيلاً في جانب الحليفتين، وغرقت سفينة الأميرال الهولندي.

اعتبر كل فريق نفسه منتصراً في المعركة لكن المكسب الحقيقي هو في امتناع البحر الأبيض المتوسط على الأسطول الكبير، وبقيت لفرنسا سيادة هذا البحر.

كان على فرنسا استغلال فرصة انسحاب سفن رووك، ومهاجمة جبل طارق من البحر، واستعادة الموقع من الإنكليز. إلا أن حلول فصل الشتاء جعل القيادة الفرنسية تستبعد حصاراً بحرياً للموقع، وأرجأت تحقيق الفكرة لفصل الربيع المقبل.. لكن إنكلترا توقعت ذلك فأرسلت الأميرال ليك من ليشبونة على رأس (٣٢) سفينة حربية. وهاجم المجموعة الفرنسية المدافعة عن المنطقة، والتي بقي منها (١٣) سفينة فقط، فسحقها وأسر خمس سفن، وبقي جبل طارق لإنكلترا، واستطاع الإنكليز إبعاد الخطر عن هذا الممر الهام وتحكموا في مدخل المتوسط وكان لهذا الموقع بالإضافة إلى صفاته الستراتيجية نتائج سياسية وعسكرية واقتصادية هامة. وغدت إنكلترا قوة متوسطية اعتباراً من تاريخ سحق القوة الفرنسية وبقي أسطول ليك الإنكليزي يسود المنطقة.

بدأت الكوارث تتوالى على فرنسا فتناقصت مواردها المالية، وبدا ذلك في مخصصات القوات البحرية.. فتراجعت سفنهم في كل مكان، وأصبح الإنكليز سادة البحار بلا منازع. وفكروا بعد هذه السيادة البحرية الشاملة في بسط سيطرتهم على البر الأوربي.. وبدأ الحلفاء مخططهم باحتلال الجزر، فاحتلوا الباليار (١٧٠٦ ــ ١٧٠٨) وسردينيا (١٧٠٦ ــ ١٧١٠).

حانت فرصة تطبيق باقي خطة مارلبورو، وهي في اجتياح فرنسا من ناحيتين شمالاً عبر سهول الفلاندر وجنوباً عبر سهول البروفانس. فبالنسبة للجنوب استعد لانفيرون ومعه الماريشال تيسيه(١٠٩) في تعزيز دفاعات ميناء طولون، لمنع المهاجمين من تحقيق أهدافهم في الاستيلاء على الميناء الكبير، والنزول على البر البروفانسي، وأقيمت الدفاعات على النحو التالي:

أغرقت عدة سفن حربية كبيرة وقديمة في الميناء، وصل الماء إلى جسرها العلوي. وكانت هذه العوائق مضروبة بمدفعية الحصون والقلاع المشرفة، أما في رقعة الميناء الداخلية فقد رست عدة سفن حربية كبيرة حولت إلى بطاريات مدفعية عائمة، وصفحت أجنابها، ثم قويت مرابطها بأسلاك، وطقمت بضباط مدفعيين من سلاح البحرية الذين استماتوا في قتال المهاجمين خلال عملية اقتحام الميناء.

لما حاول الإنكليز عام (١٧١٠) النزول في سيت وآغد على الساحل، وفي نيتهم مساندة ثورة الكاميسارد استطاعت ميليشيات المنطقة رميهم إلى البحر خلال أربعة أيام فقط، وقبل أن تصلهم الإمدادات العسكرية من جيوش كاتالونيا.

وعندما تأكد للحلفاء أن جنوب فرنسا منيع قرروا تركيز جهودهم الحربية على الشمال، فاستطاعوا بتفوقهم العددي الكبير خرق تلك الجبهات من محاور ثلاثة، وتسللوا بين القلاع الساحلية حتى وصلوا مسافة (٥٠) فرسخاً عن باريز.

توقفت فرنسا عن تحريك أساطيلها وسيادة البحر للإنكليز، وأعطت أوامر للسفن أن تلتزم الموانىء. فشحت ميزانيتها، وعادت سيرتها الأولى أيام غياب السفن الفرنسية عن البحر.. هذا على الصعيد الحكومي، أما على الصعيد الشعبي فكان الموقف مختلفاً إذ قام بحارة دونكرك وسان مالو الأشداء وأقضوا مضاجع الإنكليز والهولنديين في بحر الشمال، واستعادوا بسرعة نشاطهم بممارسة القرصنة ضد السفن الحليفة، فسطروا صفحات مجد وفخار لبطولاتهم الفذة. فبرز منهم سان بول هيكور، وفوربان، وتوروفر، ومجموعة سجانات بابيه التي استولت على عدة سفن حربية معادية كبيرة، كانت عاجزة عن الحركة في طقس ساكن.

بالإضافة إلى أبطال دونكرك وسان مالو برز البحار النانتي كاسارد[١١٠] الذي هاجم الجزر الخضراء، والآنتيل الإنكليزي وغوانا، وسان أوستاش، وكوراسو، ثم أتى القرصان دوغالي تروين الذي ذاعت شهرته في الآفاق، وعلى مدى عشرين عاماً، والذي ازداد شراسة وانتقاماً لزميله القرصان دوكلير الذي وقع بين أيدي البرتغاليين في البرازيل وقتلوه. فذهب إليهم دوغاي على رأس سبع سفن حربية كبيرة، وسبع فرقاطات، وثلاث سفن متوسطة، وبألفي مقاتل. وأقلع من لاروشيل في ٩ حزيران (١٧١١)، ووصل سواحل ريودو جنييرو في ١١ ايلول، واقتحم الميناء المدافع عنه بتسع حصون برية وأسطول بحري صغير، وخاض مع المدافعين معركة شرسة. وبعد أن دمر السفن المدافعة نزل إلى البر برغم مقاومة (١٠) آلاف مدافع، واجتاح المنطقة وأمعن فيها قتلاً وتخريباً، ثم فرض أتاوة مالية عالية على البرتغاليين، فقلده الملك الوسام الحربي الأحمر، وسمي معاون جنرال في القوات المسلحة.

أزعج قراصنة فرنسا الدول الحليفة لكنهم لم يستطيعوا الوقوف أمام تزايد البحرية البريطانية وتعاظمها في البحار.. وظل أسطول فرنسا الرسمي مختفياً لا يجرؤ على الخروج. وأصبحت بريطانيا تلعب دور الشرطي في البحار، وبفعالية عالية. ولجأت إلى أسلوب جديد بحشد سفنها الأساسية ضمن مجموعات تكتيكية في مواقع تربص ثابتة، تستطيع من تلك المواقع التدخل السريع، وتغطية كل الاحتمالات الممكنة. فقامت بمراقبة مرافىء فرنسا والممرات البحرية الإجبارية، بمنع القراصنة من قنص السفن القادمة من المستعمرات، ومن مهاجمة القوافل التجارية.

نجح الأسلوب الإنكليزي الجديد، واستطاع تخفيف حدة لصوصية البحار. ففي خلال الأعوام (١٧٠١ ــ ١٧١٣) استولت على خمسين سفينة فرنسية، وقبضت على ثلاثمائة قرصان. واستطاع الإنكليز بعد جهد مكثف تأمين تجارتهم الخارجية خلال الحرب بفعاليتها نفسها أيام السلم.. حوصرت فرنسا بحراً وسفنها في الموانىء وانقطعت عنها السلع الخارجية، وبخاصة المواد الضرورية للاحتياج الحربي.. وانهارت على أثر ذلك النهضة الزراعية، وكذلك النهضة الصناعية.. وبدأت كل من فرنسا وإسبانيا تعانيان الفقر والجوع، حتى أصبحت الكوارث الحربية لا شيء أمام النقص العام في كل شيء. فانهارت المعنويات وأصبح احتلال البلدين الجائعين أمراً سهل المنال، سعت إليه إنكلترا بعد أن حققت سيادتها الكاملة على البحار.

شعر الملك لويس الرابع عشر أن المقاومة لن تأتي إلا بالمزيد من الكوارث وقرر تفادي فواجع حربية جديدة. وأشار إلى رغبته في فتح مباحثات سلام منذ عام (١٧٠٥) أمام مجلس حليف غاضب يستشف من فرنسا المعتدية ويأخذ بثأره القديم.

مات الإمبراطور جوزيف الأول عام (١٧٠٩) واعتلى العرش أخوه شارل. وهو ملك إسبانيا الجديد صديق الحلفاء. وفي تلك الأثناء حدثت ثورة عارمة في إنكلترا سقط على أثرها اللورد مارلبورو بين أيدي الملكة آن.. وجرت انتخابات جديدة وخرج مجلس جديد وجد أن الحرب يجب أن تنتهي، وعلى إنكلترا الانتقال إلى مرحلة جني ثمار الانتصارات. فبدأت المفاوضات بين لندن وفرساي. ولما كانت الرغبة لدى الطرفين أكيدة تم الاتفاق الأولي في لندن ٨ تشرين أول (١٧١١). وعزز الاتفاق انتصارات فرنسية في الجبهات البرية في المانزا وبريهوينا وفيلافيسيوزا، ودينان، وأكدت تلك الانتصارات أن فرنسا لم تمت، ولا زالت تستطيع المقاومة والانتصار.. عندها وجد الحلفاء أن عليهم حث حليفتهم إنكلترا على إقامة السلام. وعلى أثر ذلك بدأت اجتماعات أوترخت عام (١٧١٢ إلى ١٧١٥)، وثم توقيع عدة معاهدات، منها أوترخت وراسثادت وباد وانغرس، وانتهت الحروب التي دامت منذ عام (١٧٠١).

أوربة ومعاهدات السلام

اعتبرت معاهدة أوترخت والمعاهدات التي أعقبتها بمثابة ميثاق أساسي لدول أوربة.. وحلّت الكثير من العقد المستعصية في الماضي منها:

ــ قضية إرث عرش إسبانيا، والاعتراف بفيليب الخامس ملكاً عليها.

ــ الخلاف الفرنسي النمساوي.

ــ الاعتراف بممتلكات إسبانيا في الهند .
ــ سلخ الأقاليم المنخفضة الإسبانية من نير الاستعمار الإسباني .
ــ ضم مملكتي نابولي وميلانو وقسم من الأقاليم المنخفضة الإسبانية إلى الإمبراطورية النمساوية .

خرجت فرنسا من الحروب بشروط أفضل مما كانت تتوقعه .. واحتفظت بمكانها كدولة قارية كبيرة . وبقيت الدولة الأولى في أوربة بعد أن تراجعت إسبانيا إلى مصاف الدول الثانوية . أما النمسا فممتلكاتها كثيرة لكنها متباعدة مبعثرة بين بلجيكا وإيطاليا وعلى شكل بؤر للاضطرابات . وبرز إلى الوجود الأوربي دول فتية ، كروسيا ، وبروسيا وسردينيا .

بالنسبة للشؤون البحرية حدثت بعض التعديلات التنظيمية ، إذ حصلت هولندا على حق الاحتفاظ بالبضائع في المدن التي أطلق عليها اسم مدن السد . وقبلت فرنسا رفع رسومها على أجور النقل ، وسمح لها باستخدام مرسيليا كقاعدة لملاحتها مع الشرق . واعترف لإنكلترا من قبل جميع دول أوربة مجتمعة بقانون Successorale ميراثي . واستولت على جبل طارق وبورتماهو في المتوسط واكاديا والأرض الجديدة ، وخليج هدسن وسانت كريستوف في أمريكا . وحصلت شركة إنكليزية على امتياز عمليات آسبانتو لمدة ثلاثين عاماً ، وهو امتياز الإتجار بالعبيد السود في أمريكا اللاتينية (الإسبانية) ، وحصلت على امتياز آخر سري هو حق السماح لبعض البوارج الإنكليزية بالقيام بعمليات التهريب للمواد التي يشاؤونها من المستعمرات الإسبانية .

الأفكار السياسية الجديدة في عالم ما بعد الحرب

حلت إرادة الشعوب ومنافع الدولة محل الترتيبات الملكية السابقة ، وانتقلت القيادة من أيدي الخاصة إلى أيدي مؤسسات دولة .. واعترفت الدول بحق الشعوب في اختيار النظام الذي يلائمها ، فكان أن اعترف لإنكلترا وإسبانيا بالشرعية التي ترغبان فيها انطلاقاً من مبدأ رضاء الشعوب والمحافظة على مكاسبهما الأساسية ، وليس رضاء العائلة المالكة ، أو أسر رجال البلاط .

هذا التغير الكبير في العالم الأوربي عد انقلاباً خطيراً جر وراءه عدة قوانين وتنظيمات أساسية للتعامل ، كانت دول أوربة تبحث عنه طويلاً ولمدة عدة قرون .

ارتفعت المكاسب المادية يوماً بعد يوم .. وبدأ ميزان التوازن الاقتصادي يميل نحو الاستقرار والعدالة . وهذا ما حاولت تأكيده اتفاقيات السلام . ولكن خابَتْ فيه الدول المنتصرة وخاصة

إنكلترا.. وأصبح للمال وشؤون تداوله دور يلعب بين الأمم، فاستحوذ على العقول، وحل محل الأرض وإنتاجها الزراعي الذي كان في السابق هو رأسمال وعظمة الأمة.

بدأ عصر الرأسمالية يزحف على الدول الأوربية وأخذت الثروات العينية تنتقل من مواد طبيعية إلى مشاريع صناعية. وأمعن الأوربيون في امتلاك الأراضي في مستعمراتهم وراء البحار، فاتسعت التجارة الخارجية، وتطورت سبل الملاحة، وملأت السفن التجارية جميع البحار.

هولندا

خرجت هولندا بأقل الفوائد، علماً بأن مشاركتها في القتال كانت مشاركة فعالة ومشرفة. وعاشت حوالي أربعين عاماً من خوف الاجتياح، عندما وصلت جيوش عدوتها فرنسا إلى الضفة الشمالية لنهر الرين.. في تلك الحقبة أنفقت هولندا الأموال الطائلة للمحافظة على مستوى قتالي عالٍ براً وبحراً، وأقامت جيشاً برياً وصل تعداده إلى (١٥٠) ألف مقاتل. وهو ضعف ما يتناسب عادة مع تعداد السكان بالمقارنة مع الخصم فرنسا.. وعانى أسطولها الكبير برغم جهود أمراء البحر الذين تعاقبوا عليه والذين تخرجوا من مدرسة رويتر القائد الفذ.. فأصابه بعض الإهمال، علماً بأن دوره خلال السنين الطويلة كان إيجابياً، وقاتل بجدارة أعظم قوتين بحريتين معاصرتين آنذاك.

نتيجة إهمال سلاح البحر تناقص عدد سفن أسطول هولندا إلى (٢٨) سفينة عام (١٧٤٠) لكن الخسارة الكبرى هي في شك الهولنديين بمقدرتهم الحربية، فانخفض مستوى الوعي القومي وبدا واضحاً في كثير من المناسبات. وتصرف الهولانديون مراراً بعقول مادية أو أفكار عصبية، وكان كل همهم المحافظة على انتشار تجارتهم، والتشدد مع الفرنسين وأطماعهم. ولم يلحظوا التعارض الكبير بين مصالحهم ومصالح الإنكليز. وجاء الحلف معهم أيام غليوم أورانج لغير مصالحهم الحيوية، وأصبحت حكوماتهم بلا سياسة مستقلة، وعملوا بتبعية كاملة لإنكلترا. وخلال مفاوضات أوترخت سعى الهولنديون للمحافظة على السد الذي يغطي حدودهم الجنوبية.. وبرغم كل الظروف بقيت في موقعها من حيث التبعية وهي أشبه بزورق صغير يسير في أثر مياه سفينة كبيرة. وانتهت هولندا كدولة، ولم تعد من بين دول أوربة الكبيرة.

رافق التراجع السياسي في البلاد تراجع اقتصادي واضح، وبدأ خلال الحرب، وتوضحت معالمه في التجارة الخارجية، وفي سلاح البحر بالذات.. وتضاءلت حماية هولندا البحرية لسفنها

التجارية، وتهاونت في تسليح وتجديد سفنها الحربية، وخاصة سفن أسطول المتوسط بالذات.. واستكان الشعب وكأنه تعب من طول المسعى، وقرر سلوك منهج جديد، منهج الاستمتاع بالثروات التي جمعها، والزهد بجمع المزيد حيث مستعمراته وفيرة، تقدم له كل الإمكانات دون إجهاد.

زحف التردي إلى كل جوانب الإدارات، وأنهى دور هولندا السابق، ففقدت سيطرتها على البحار، وانطفأت شعلة تجارتها الخارجية، وانتقل الدور بكامله إلى إنكلترا. هذا البلد الذي تخطى أزمته السياسية الداخلية بشجاعة، ووثب بسرعة إلى مصاف الدول العظيمة.. وبدأت الحكومات تعمل بديمقراطية صحيحة خلال برلمان قوي البنيان، حتى انتهت كل المخاوف الداخلية بانحسار اليعاقبة، وأصبحت ايكوسيا المقاطعة التي لم تستكن قط والتي استنفذت الكثير من طاقات إنكلترا إقليماً من أقاليم المملكة المتحدة البريطانية.

تطلعت إنكلترا حولها فلم تجد مجالاً برياً تمتد فيه فراحت تتطلع إلى الجانب البحري. وبهمة سلاح البحر بنت مجدها وعظمتها، كما كانت جيوش البر بالنسبة لبلدان أوربة الأخرى.

وصلت بريطانيا ببحريتها إلى القمة في العدد والعدة، وامتلكت مئات السفن الحربية القوية التي فاقت بأعدادها سفن كل البلدان الأخرى مجتمعة. والأهم من ذلك كله عناصرها المدربة والتي أهلت تأهيلاً رفيعاً في علمي الملاحة والقتال، وأصبحت قادرة على كل المهمات، وفي جميع الظروف.. فكيف استخدمت إنكلترا سلاحها البحري العظيم؟!

برغم امتلاك ملوك إنكلترا لبعض المقاطعات في البر الألماني، والتي كانت تثقل كاهل السياسة البريطانية أحياناً لم تفكر إنكلترا بعقلية القرون الوسطى في اقتطاع المزيد من أرض القارة الأوربية، وتعلمت من تجاربها الكثيرة أثر التكتل القومي في الحدود الإقليمية لكل بلد، فوجدت أن هناك مجالات أفضل من مجال الامتداد القاري الأوربي.

ظلت إنكلترا تراقب بحسد القوى الأوربية المتنامية خلال القرن السابع عشر، ودخلت جميع حروبها، إلا أنها فضلت دوماً عدم التورط الواسع، والمحافظة على التوازن الدولي وحققته خلال اتفاقية أيترخت. واختارت لنفسها التكامل التجاري فأمنت له بحرية متطورة حديثة. وبعد أن تحقق لها التفوق الساحق في مضمار القدرة البحرية، أخذت تدس أنفها خلال حرب إرث عرش إسبانيا، وزاحمت الفرنسيين وحتى حليفتها هولندا في مجالات التجارة الخارجية، واستولت على قسم واسع منها، وحتى في العمليات المتوسطية، وعززت موقفها بعد معاهدة ميتهون (١٧٠٨)، وسيطرت

على البرتغال اقتصادياً ، ثم ناوشت إسبانيا الضعيفة وفرضت على فيليب الخامس قبوله المنتجات الإنكليزية باتفاقية تجارية اعتبرت إنكلترا البلد الأكثر حظوة في التعامل التجاري الإسباني .

طورت إنكلترا سياستها في الشمال فصداقتها ببطرس الأكبر أثمرت عن اتفاقية تجارية واتحاد اقتصادي دام أكثر من قرن ، وانتقل دور وسطاء التجارة العالميين من أحياء هولندا المالية إلى أحياء لندن ، وراجت التجارة البريطانية وغطت سفنها كل البحار ، وتمت لدى الشعب البريطاني الثقة العالية بالنفس والإيمان المطلق باستمرار التقدم والتفوق .

أما بالنسبة للمستعمرات فكانت إنكلترا لا تملك الكثير إذا ما قورنت مستعمراتها بمستعمرات إسبانيا ، وغالبيتها فقيرة في المنتجات الغريبة ، والمعادن الثمينة ، فطالبت كل من إسبانيا والبرتغال بفتح أبواب مستعمراتها أمام التجارة والصناعة البريطانية . وحجب هذه الميزة عن الآخرين . وكان ذلك سبباً من أسباب الحروب بين فرنسا وإسبانيا من جهة وإنكلترا وهولندا من جهة أخرى ، وهي الحروب التي وقعت في نهاية القرن السابع عشر كما تقدم ذكره .. وعندما جاءت معاهدة أوترخت حفظت للإسبان تمتعهم بالبلدان التي اكتشفها أسلافهم من قبل .. لكن هذا التحفظ لم يجد نفعاً ، ولم يمنع إنكلترا من الامتداد إلى أمريكا الإسبانية ، إذ للقوة البحرية القرار الفصل . وأطماع بريطانيا بسيادة العالم كبيرة ، فهي وراء السيطرة الكاملة ملاحياً وتجارياً ، وفرض الصناعة البريطانية ، حتى غدت أكبر خطر ظهر في تلك الحقبة من الزمن . وتخطت بتطلعاتها كل أحلام الذين سبقوها .. واعتقد العالم أن حرباً جديدة تُعد ما دام أن الدولة البريطانية ممعنة في تحقيق إمبراطوريتها التي راودت رأس الملكة اليزابيت ، والرجل القوي كرومويل في الماضي القريب ، لكن من هي الدولة التي ستقف في وجه هذا البلد الجبار ؟ هولندا المهدمة ؟ أم إسبانيا المفككة ؟ لم يبق في الميدان إلا فرنسا البلد الذي سقط بحرياً ، لكنه بقي القوة البرية الأكثر عدداً في القارة الأوربية ومواردها الطبيعية خيرة ، وموقعها الجغرافي بين البلدان جيد .. وهكذا أقبل القرن الثامن عشر وهو على شفا حرب السيادة والاستعمار .

[illegible]

[illegible] في قطعه [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

حواشي الباب الرابع

٥٢ ــ كامبانيلا Campanella توماس (١٥٦٨ ــ ١٦٣٩)

مفكر وكاتب ومتصوف من أصل إيطالي ومن المتحمسين لمدرسة أرسطو الفلسفية، ضايقه الحكم لأفكاره التقدمية حيث بشر ووعظ لثورة على الإقطاع، وطالب بتوزيع عادل للأراضي، سجن، ولم ينجح بالخروج منه إلا بعد تظاهره بالجنون، بعد أن أمضى ٢٧ سنة في سجون إسبانيا، والتجأ إلى فرنسا حتى مماته من مؤلفاته: الفلسفة العقلانية. هاجم فيه نظام الإقطاع وتصور تنظيماً يعتمد قواعد اشتراكية.

٥٣ ــ فيليب الثاني (١٥٢٧ ــ ١٥٩٨)

ملك إسبانيا وملحقاتها في أمريكا وآسيا (الفيليبين) وملك لنابولي وصقلية، وسيد للأقاليم المنخفضة وشمال إفريقية ابن شارل كنت وايزابيل البرتغال تزوج بماري بورتغال. بعد وفاة زوجته (١٥٤٥) تزوج ماري تودور ملكة إنكلترا عام (١٥٥٤).. تابع حروب أبيه على فرنسا. وانتصر في معركة سان كانتان عام (١٥٥٧) ثم أقام معاهدة صلح مع هنري الثاني ملك فرنسا.. وبعد وفاة تودور تزوج عام (١٥٥٨) اليزابيت فالوا، ابنة ملك فرنسا. ولما أصبح أرملاً للمرة الرابعة (١٥٦٨) تزوج آن ابنة مكسيمليان أم فيليب الثالث. يعتبر من أعظم ملوك فرنسا قام بإصلاحات كثيرة. وتنظيمات عديدة في ملكه المترامي الأطراف.

٥٤ ــ ماري تودور Tudor (١٥١٦ ــ ١٥٥٨)

ملكة لإنكلترا وإيرلندا وابنة هنري الثامن. بقيت متعلقة بالمذهب الكاثوليكي، وبانحيازها إلى

إسبانيا، وافقت على إعدام (٣٠٠) بروتستانتي فأطلق عليها اسم ماري الدموية، تزوجت فيليب الثاني ملك إسبانيا، وبذلك فقدت حب الإنكليز لها خلدها فيكتور هيغو في مسرحيته الغنائية (١٨٣٣).

٥٥ ــ الفارو دو بازان Bazin (١٥٢٦ ــ ١٥٨٨) ماركيز سانتاكروز

قائد إسباني شارك في الهجوم على تونس، عين حاكماً على جبل طارق ثم أصبح أميرالاً عاماً لإسبانيا، أنجد مالطة حين تعرضت للهجوم التركي عام (١٥٦٥). وبانتصاره على ستروزي Strozzi (قائد بحري من فلورنسا) حقق سيطرة إسبانيا الكاملة على البرتغال.

٥٦ ــ أوجين سيو Eugène Sue (١٨٠٤ ــ ١٨٥٧)

كاتب وقصاص فرنسي دوّن مذكراته الشخصية كبحار في كتابه السلمندل (١٨٣٢).. ثم تحول نحو قصص المجتمع الساخنة ففقد تقدير فوبور سان جرمان له من كتبه الخليعة: ماتيلدا أو ذكريات سيدة (١٨٤١)، وازداد انغماساً في قصص المجتمع الباريسي المنحط، ونال شهرة على كتابيه خفايا باريس واليهودي التائه.. وبفضل هذين الكتابين نجح عضواً في المجلس النيابي.

٥٧ ــ غليوم دو ناسو تاسيتورن De Nasseau Taciturne (١٥٣٣ ــ ١٥٨٤)

هولندي أورانجيست Orangiste كاثوليكي انحاز إلى إسبانيا في البداية، ثم انقلب عليها. ونظم ثورة الأقاليم المنخفضة (١٥٧٢)، وأنشأ مجموعة صعاليك البحر وأطلقها ضد أساطيل إسبانيا وقوافلها البحرية، وأصبح حاكماً عاماً للـ (١٧) إقليماً، شارك في معاهدة أوترخت وحصل على دعم فرنسا ضد إسبانيا، مات اغتيالاً.

٥٨ ــ بارنتز Barantz (١٥٥٥ ــ ١٥٩٧)

مستكشف هولندي قام برحلتين استكشافيتين في البحار القطبية الشمالية، يفتش عن ممر يوصله إلى الصين عبر شمال أوربة.. اكتشف النوفا بازيمليا وجزيرة الدبب والسيتزبرغ وسمي البحر الذي عليه مرفأ مورمانسك باسمه.

٥٩ ــ هيدسون Hudson هنري

ملاح إنكليزي بدأ رحلاته البحرية منذ عام (١٦٠٧) يبحث عن ممر مباشر يصل الصين عبر البحار الشمالية.. اكتشف نهراً وخليجاً ومضيقاً سموا باسمه.. فقد في البحر بعد عملية تمرد حصلت على ظهر سفينته.

٦٠ ــ لومير جاك Lemaire (١٥٨٥ ــ ١٦١٦)

ملاح هولندي اكتشف مع شوتون عام (١٦١٦) الممر المسمى باسمه.. فقد في البحر.

٦١ ــ اولدنبار نيفيلدت Oldenbarneveldt جون (١٥٤٧ ــ ١٦١٩)

سياسي هولندي وموظف كبير أدار روتردام حتى أصبح الإداري الأول والحاكم لهولندا أو رئيساً للجمهورية الهولندية بأقاليمها المتحدة، ودافع عن الجمهورية متبعاً نظرية آرمينيوس (رئيس حركة بروتستانتية)، جابه بها الغومار Gomariste وهي حركة بروتستانتية مضادة لكنه خسر المجابهة وقبض عليه وأعدم.

٦٢ ــ ترومب مارتان Tromp (١٥٩٨ ــ ١٦٥٣)

أميرال هولندي انتصر على الإسبان في معركة ديون عام (١٦٣٩)، قاتل الإنكليز، واقتحم نهر التايمز عام (١٦٥٢) لكنه قتل خلال معركة مظفرة ضد الإنكليز عام (١٦٥٣).

ابنه كورنيلي ترومب (١٦٢٩ ــ ١٦٩١)

وكأبيه قائد بحري كبير شارك في نصر الأميرال روتر أمام دونكرك (١٦٦٦)، وانتصر في معركة أولاند Oland (١٦٧٦) وأصبح أميرالاً للبحرية الهولندية.

٦٣ ــ هاوكنس Hawkins سير جون (١٥٣٢ ــ ١٥٩٥)

أميرال إنكليزي وهو أول من تعاطى الإتجار بالرق الأسود.

٦٤ ــ لانكستر Lancaster سير جيمس (١٥٥٥ ــ ١٦١٨)

ملاح إنكليزي أطلق اسمه على المضيق المسمى باسمه.

٦٥ ــ كافانديش Cavendish توماس (١٥٥٥ ــ ١٥٩٢)

ملاح إنكليزي كلف من قبل الملكة اليزابيت بمهمة بحرية، فاجتاز ممر ماجيلان، وهاجم

المستعمرات الإسبانية من أمريكا الغربية وأمريكا الجنوبية ثم عاد إلى إنكلترا عن طريق الفيلبين وجاوا ورأس الرجاء الصالح، مات في البحر في أثناء عودته من رحلته الثانية إلى المحيط الهادي.

٦٦ ــ هنري السابع (١٤٥٧ ــ ١٥٠٩)

ملك إنكلترا ابن ادموند تودور ومرغريت دو بوفور انتصر على ريتشارد الثالث وقتله واستولى على العرش وبزواجه من اليزابيت دو بورك أنهى حرب الوردتين وأقام النظام في المملكة.

٦٧ ــ هنري الثامن (١٤٩١ ــ ١٥٤٧)

ابن هنري السابع تزوج بكاترين آراغون أرملة أخيه آرتور.. في زمانه سيطر السياسي ويلسي على البلاد، حارب هنري الثامن الفرنسيين وانتصر عليهم ثم أخذ يتأرجح بين شارل كنت الإسباني وفرانسوا الأول الفرنسي، حارب إيطاليا، حجم توماس ويلسي وجاء بكرومويل في عام (١٥٣٥) وتخلصت إنكلترا آنذاك من سيطرة الكنيسة البابوية، وأصبح الملك رئيس الكنيسة الإنكليزية تزوج آن بولين وقتلها عام (١٥٣٦)، وأتبعها بجان سيمور التي ولدت له ادوارد السادس، ثم تزوج على التوالي آن دوكليف، وكاترين هوارد وأعدم الاثنتين عام (١٥٤٢) وكانت آخر زوجاته كاترين بار.

٦٨ ــ رالي Raleigh سير والتر (١٥٥٢ ــ ١٦١٨)

ملاح وكاتب إنكليزي تملّق الملكة اليزابيت الأولى واستفاد منها، استكشف الساحل الشمالي لأمريكا، وحاول استعمار فرجينيا.. وهو الذي نقل زراعة البطاطا والدخان إلى إنكلترا، قام باستكشاف غوانا (١٥٩٥) وشارك في الهجوم الإنكليزي البحري على قادس سجن في برج لندن، وقتله جاك الأول. ترك وراءه قصص رحلاته في كتاب «تاريخ العالم».

٦٩ ــ روبيرت الملقب بالأمير Rupert (١٦١٩ ــ ١٦٨٢)

ابن النائب فردريك الخامس واليزابيت ستيوارت خدم أمير أورانج Orange ورأس أسطولاً كلف بمساندة حركة إيرلندة التحريرية. قهره بلاك عام (١٦٥٠) فالتجأ إلى البر الأوربي، وعند استعادة عرش بريطانيا رفعه شارل الثاني إلى مركز نائب أميرال (١٦٧٢)، ومنحه لقب لورد أول للأميرالية البريطانية، ودوق كمبرلاند.

٧٠ ــ بلاك Blake روبرت (١٥٩٩ ــ ١٦٥٧)

أميرال إنكليزي خدم في عهد كروموبل فعينه قائداً لسلاح البحرية. لمع اسمه في المعارك البحرية

ضد الأقاليم المتحدة، وانتزع النصر في معركتي دوفر، وكنتيش نوك. وفي عام (١٦٥٧) دمر أسطولاً إسبانياً قرب جزر كناري، لكنه اعتبر من عداد المفقودين في المعركة.

٧١ ـ ماري ستيوارت Stuart (١٥٤٢ ـ ١٥٨٧)

ملكة ايكوسيا ابنة جاك الخامس ملكت لسبعة أيام، وتزوجت ملك فرنسا فرانسوا الثاني، وبعد مماته عادت إلى ايكوسيا وطالبت بحقوقها في الوراثة، تزوجت دارلني رئيس الطائفة الكاثوليكية، ووالد جاك السادس. وعندما اغتيل زوجها تزوجت أحد المشتركين في اغتياله (بوتويل).. وجاء تصرفها هذا فجعلها عرضة لانتقاد عنيف وقبض عليها وحكم عليها بالإعدام.. **ماري ستيوارت الثانية (١٦٦٢ ـ ١٦٩٤)** ابنة جاك الثاني وزوجة غليوم اورانج تآمرت ضد والدها، وبعد فراره نودي بها ملكة، وأصبح زوجها غليوم الثالث شريكاً لها في الحكم.

عائلة ستيوارت

عائلة مالكة ايكوسية منها ملوك إنكلترا بين أعوام (١٦٠٣ ١٦٨٨).

٧٢ ـ ميدينا سيدونيا Medina Sidonia

عائلة نبيلة إسبانية برز منها الونسو وهو أميرال إسبانيا الأكبر (١٥٥٠ ـ ١٦١٥) وقائد أعلى لأسطول الآرمادا.

٧٣ ـ ويت كورنيلي Cornelis De Witt (١٦٢٣ ـ ١٦٧٢)

سياسي هولندي برز اسمه مع الأميرال فان غنهيت في معركة التايمز، واتهم بمحاولة اغتيال غليوم أورانج، واغتيل من قبل الأورانجيست في مدينة لاهاي. شقيقه جوهان Johan (١٦٢٥ ـ ١٦٧٢) بورجوازي مثقف أقام الصلح مع كرومويل، ووقع معاهدة بريدا (١٦٦٧)، وأقام الحلف الثلاثي هولندا وإنكلترا السويد ضد أطماع فرنسا، وعند اجتياح هولندا اغتيل مع أخيه من قبل الأورانجيست في لاهاي.

٧٤ ـ الأورانجيست

نسبة إلى أمير أورانج وهي فئة من البروتستانت في إيرلندة الشمالية تابعة لغليوم أورانج عظم شأنها خلال الثورة الإنكليزية عام (١٦٨٨) ثورة البروتستانت الايرلنديين.

٧٥ ــ مونك Monk جون (١٦٠٨ ــ ١٦٧٠)

جنرال إنكليزي انضم للبرلمان ضد الملك قاتل في جيش كرومويل وفي البحر ضد الهولنديين. وبانتهاء ديكتاتورية كرومويل (١٦٥٣) تحالف مع الجنرال لامبير، وزحف على لندن، وسيطر عليها سيطرة كاملة، ثم اتصل بعائلة ستيوارت، وأعاد الملك لها، وأصبح القائد الأعلى للقوات المسلحة.

٧٦ ــ دين Denn ويليام

أميرال إنكليزي بروتستانتي احتل الجامايك، اعتقل وهرب من الاعتقال وحصل من شارل الثاني (١٦٨١) على إدارة الأرض الأمريكية في بنسلفانيا، فذهب وأقام بفيلادلفيا.

٧٧ ــ كرومويل توماس Cromwell (١٤٨٥ ــ ١٥٤٠)

سياسي بريطاني ورجل هنري الثامن. أعاد تنظيم الكنيسة الإنكليزية حسب أفكار لوثر، وقاطع روما للتقرب من أمراء ألمانيا البروتستانت. وشجع الملك هنري على الزواج من آن كليف.. فقد شعبيته وحكم عليه بالموت ونفذ به الحكم. كرومويل اوليفر (١٥٩٩ ــ ١٦٥٨) لورد وحامي إنكلترا وايكوسيا وإيرلندة شارك في الحرب الأهلية زمن شارل الأول وحارب الملكيين، وأعلن الجمهورية، ولعب دوراً هاماً في السياسة الداخلية والخارجية عرض عليه عرش إنكلترا لكنه خشي نقمة الجيش والشعب.

٧٨ ــ شارل الثاني (١٦٣٠ ــ ١٦٨٥)

ملك إنكلترا وايكوسيا وإيرلندة ابن شارل الأول. التجأ إلى ايكوسيا بعد إعدام والده، وتوج هناك، لكن سيطرة كرومويل دفعته للجوء إلى فرنسا ومن ثم إلى هولندا.. وبعد إبعاد ريتشارد كرومويل وعودة الأميرال مونك إلى صفه عاد إلى بلاده ينظمها، حارب الهولنديين.

٧٩ ــ جاك الثاني دوق يورك (١٦٣٣ ــ ١٦٦٩)

ملك إنكلترا وإيرلندة شقيق شارل الثاني وأميرال إنكلترا الأول. قاتل الهولنديين واستعاد منهم نيويورك، انتهى لاجئاً لفرنسا بعد سيطرة البروتستانت على البلاد.

٨٠ ــ لويس الثالث عشر (١٦٠١ ــ ١٦٤٣)

ملك لفرنسا ابن هنري الرابع وماري دو ميديسي، حكم البلاد في البداية بوصاية والدته، وبوجود

الرجل المهيمن كونسيني Concini .. وبعد أن اشتد عود الملك تخلص من كونسيني بقتله، واستبداله بـ لين Luynes الذي قاتل البروتستانت، وبعد موت لين مرت فرنسا بفترة فوضى، حتى وصل الكردينال ريشيليو. تزوج لويس الثالث عشر بآن النمساوية.

لويس الرابع عشر (١٦٣٨ ــ 1715) الكبير

ملك لفرنسا آل إليه الحكم وهو في الخامسة من عمره. وبعد موت أبيه لويس الثالث عشر قامت أمه آن النمساوية كوصية على العرش، فأسندت الحكومة لمازاران الذي حكم البلاد بإخلاص، وتعهد تربية الملك الصغير، وأشرف على تعليمه وتأهيله.. وبموت مازاران تحمل لويس الرابع عشر الحكم لوحده، فبرهن عن كفاءة عالية.. تزوج بماري تيريز الإسبانية، لكنه كان كثير المغامرات العاطفية، تعرض حكمه للعديد من الهزات الداخلية والحروب الخارجية الطويلة البرية والبحرية، وبخاصة مع إسبانيا وترك فرنسا بعد مماته منهكة حربياً واقتصادياً.

٨١ ــ دوق بوفوا فرانسوا دو بربون (١٦١٦ ــ ١٦٦٩)

ابن ابن هنري الرابع خدم لويس الرابع عشر عام (١٦٥٣) وقاتل كأميرال بحري الأتراك، وقتل في حصار كندي (Candie في اليونان).

٨٢ ــ هنري الرابع (١٥٥٣ ــ ١٦١٠)

ملك نافار وفرنسا ومؤسس الأسرة الملكية البوربونية، تزوج هنري بمرغريت فالوا.. نجا من مذبحة بارتيليمي بارتداده عن الدين، وأدار التجمع البروتستانتي، واستولى على الملك بعد أن اعترف به هنري الثالث خليفة له، بعد إلغاء زواجه الأول تزوج بماري دو ميديسي ابنة دوق توسكانيا (١٦٠٠) وأخضع كامل فرنسا لسلطته، وأعاد تنظيم البلاد سياسياً واقتصادياً. وكان يستعد لحروب طويلة مع إسبانيا عندما اغتاله رافايلاك في ١٤ مايس عام (١٦١٠).

٨٣ ــ ماري دو ميديسي (١٥٧٣ ــ ١٦٤٢)

ملكة لفرنسا وزوجة هنري الرابع ووصية لولدها لويس الثالث عشر تقربت من إسبانيا.. أبعدها ابنها عن الحكم واعتقلها لكنها فرت وحاربته.. وبظهور ريشيليو استعادت البلاد استقرارها.. عاشت ماري دو ميديسي حياة تائهة وبضياع حتى مماتها، لهذا الفضل في بناء قصر لوكسمبورغ.

٨٤ ـ سافاري دوبريف فرانسوا (١٥٦٠ ـ ١٦٢٨)

دبلوماسي فرنسي وأحد مشاهير رجال الحكم في عهد هنري الرابع، سفير في الآستانة لعب دوراً هاماً في التقارب العثماني الفرنسي.

٨٥ ـ ريشيليو أرماند (١٥٨٥ ـ ١٦٤٢)

رجل دين وسياسة كسب عطف ماري دو ميديسي بعد اغتيال كونسيني، ودخل في لجنة مستشاري الملك (١٦٢٤) وأصبح رئيسها.. اعتمد ريشيليو على البروتستانت في قتال الأسرة النمساوية التي كانت تسعى لتطويق فرنسا، أعلن الحرب على إسبانيا (١٦٣٥)، احتل البرتغال (١٦٤٠) لكن حروبه جرت البلاد إلى أزمة اقتصادية كبيرة فقام بإصلاحات مالية عديدة لإعادة التوازن.

٨٦ ـ شارل الأول (١٦٠٠ ـ ١٦٤٩)

ملك إنكلترا وايكوسيا وإيرلندة ابن جاك الأول وزوج هنرييت دو فرانس أخت لويس الثالث عشر.. قاومه البرلمان البريطاني فحلّه، وبقي يحكم البلاد منفرداً (١١) عاماً يعاونه باكنغهام حتى اغتياله، وخلف باكنغهام سترافورد وخلف سترافورد لوود أسقف كانتربري. ولما عاد العمل بالبرلمان من جديد اشتدت المعارضة على الملك واتهم سترافورد بالخيانة وأعدم (١٦٤١) ولحقه لوود Laud بالمصير نفسه (١٦٤٥).. واتهم الملك شارل الأول إثر ثورة ايرلندة التي بدأت عام (١٦٤١) بأنه كان وراء هذه الثورة التي فجرت الحرب الأهلية في البلاد.. وبرز كرومويل حيث قبض على الملك وحوكم وأعدم في ٣٠ كانون الثاني (١٦٤٩).. رسمه الرسام العالمي فان ديك عدة لوحات شهيرة تشاهد في متاحف درسدن وباريس ولينينغراد.

٨٧ ـ كونديه Condé (١٦٢١ ـ ١٦٨٦)

أحد كبار العسكريين في فرنسا إبان عهد الملك لويس الرابع عشر هزم الإسبان في معارك عدة، قبض عليه عام (١٦٥٠)، وأفرج عنه مازاران بعد عام واحد من اعتقاله، حرر فرنسا في حملة الأمراء، فدخل بوردو ثم باريس.. أفل نجمه فيما بعد، ففر إلى هولندا، وانحاز إلى جانب الإسبان ضد الفرنسيين، وهُزم في معارك الدون Dunes لكنه عاد في النهاية إلى فرنسا، بعد أن عفا عنه لويس وأعاده قائداً كبيراً حرر خلالها مقاطعة فرانش كونتيه ودافع عن الألزاس.

٨٨ ـ لافاليت Lavalette لويز (١٥٩٣ ـ ١٦٣٩)

رئيس لأساقفة تولوز تحول إلى القوات المسلحة وخدم في عهد ريشيليو. كتب مذكراته التي نشرت عام (١٧٧٢).

٨٩ ــ سوردي Sourdis هنري (١٥٩٣ ــ ١٦٤٥)

أميرال فرنسي شارك في حصار لاروشيل، وطرد الإسبان من جزر ليران Lerins (١٦٣٧)، وحاصر فونتارابي Fontarabie وأحرق أسطول إسبانيا مقابل غيتاريا، لكنه هزم مرتين، الأولى قرب جنوة (١٦٤٠)، والثانية قرب تاراغون (١٦٤١).

٩٠ ــ مازاران Mazarin جول (١٦٠٢ ــ ١٦٦١)

أسقف ورجل سياسة من أصل إيطالي بدأ حياته ضابطاً في جيش البابا، ثم دخل معترك السياسة فاسترعى أنظار ريشيليو فقدمه إلى لويس الثالث عشر، وأصبح المدافع عن وجهة نظر فرنسا في روما، حصل على الجنسية الفرنسية وقلده ريشيليو مرتبة كاردينال، وأصبح بعده رئيساً للوزراء في عهد وصاية آن النمساوية، ويقال إن حباً عارماً دار بين الملكة الأرمل ومازاران ولربما تزوجا بالسر.. ظل مازاران الرأس المطلق الصلاحية في المملكة وطغا وجاءت سياسته الاقتصادية موضع انتقاد شديد فاضطر إلى التواري (١٦٥١)، لكنه سرعان مااستعاد شأنه السابق، وألحق فوكيه بإدارته ينظم له الأمور المالية.. يعتبر مازاران من عظماء فرنسا. وكان شغوفاً بالتحف والآثار. شجع العلوم والآداب وجمع ثروة طائلة، وكان ذا حظوة كبّيرة لدى العائلة المالكة وعاش تارة في قصورها وتارة في قصره الذي أصبح فيما بعد مكتبة ملكية.

٩١ ــ فوكيه Fouquet نيقولا (١٦١٥ ــ ١٦٨٠)

صديق لمازاران، عين مفتشاً عاماً للمالية فأصلح النظام وجمع لنفسه ثروة طائلة، أحاط به الفنانون والكتّاب (اتهم بأخلاقياته) وليغطي اختلاساته الكبيرة، ابتكر الذرائع في جمع الضرائب بنى لنفسه قصراً شهيراً في ميسين Mécène ألصق اختلاساته بعد موت مازاران بمازاران نفسه صديقه الحميم لكن ذلك لم ينطل على كولبير فقد أوغر قلب الملك عليه خصوصاً بعد الحفل الكبير الذي أقامه فوكيه في قصره الشهير (١٦٦١) أوقف بتهمة الاختلاس والتحريض على المملكة وحوكم من قبل محكمة العدل العليا وصدر بحقه حكم الإبعاد الدائم مع مصادرة كل ممتلكاته (١٦٦٤) لكن لويس الثالث عشر عدل حكمه ورفعه إلى السجن المؤبد.

٩٢ ــ دوكيزن Duquesne ابراهام (١٦١٠ ــ ١٦٨٨)

ماركيز وبحار فرنسي اشترك في حروب الثلاثين عاماً ثم انتقل إلى الدانمرك حيث قاتل إلى جانبهم ثم

عاد إلى فرنسا وأصبح قائداً ثانياً للقوات البحرية الفرنسية وحقق عام (١٦٧٦) انتصاراً على **الأميرال روتر** في معارك سترمبولي واغوستا وسيراغوسا، قصف طرابلس (١٦٨١) ومدينة الجزائر (١٦٨٢) كان أحد أتباع مذهب كلغان البروتستانتي تخلى عن لقب الماريشالية لرفضه الارتداد عن مذهبه.

٩٣ ــ لوفوا Louvois فرانسوا (١٦٤١ ــ ١٦٩١)

وزير فرنسي وصل إلى مركز سكرتير دولة للشؤون الحربية وعمره لم يتجاوز الـ ١٤ عاماً. أصبح عام (١٦٧٢) وزيراً، وبتوجيهات والده المستشار **ميشيل لوتيليه** أعاد تنظيم الجيش الفرنسي.

٩٤ ــ ايستريه Estreès فيكتور (١٦٦٠ ــ ١٧٣٧)

ابن جاك ايستريه نائب أميرال ووزير دولة فرنسي، وصل إلى منصب نائب ملك في المستعمرات الفرنسية بالعالم الجديد.

٩٥ ــ فيفون Vivonne لويس فيكتور (١٦٣٦ ــ ١٦٨٨)

ماريشال لفرنسا، قائد مجموعة السجانات، شارك في حملة كاندي، وعين عام (١٦٧٥) نائباً للملك على صقلية.

٩٦ ــ تورفيل Tourville آن هيلاريون دو كونتانتان (١٦٤٢ ــ ١٧٠١)

فارس وكونت وماريشال لفرنسا قاد مع دوكيزن عمليات شمال إفريقية، وهزم الهولنديين والإنكليز قرب جزيرة ويت.

٩٧ ــ شاتورونو Chateaurenault فرانسوا لويز (١٦٣٧ ــ ١٧١٦)

أميرال وماريشال لفرنسا انتصر على الإنكليز في معركة بانتري عام (١٦٨٩) سمي أميرالاً للشرق عام (١٧٠١) وماريشالاً لفرنسا عام (١٧٠٣).

٩٨ ــ غليوم الثالث أو غليوم دورانج (١٦٥٠ ــ ١٧٠٢)

حاكم الأقاليم المتحدة منذ عام (١٦٧٢)، وملك على إنكلترا وإيرلندة وايكوسيا (١٦٨٩ ــ

١٧٠٢)، ابن غليوم دوناسو وماري ستيوارت. حارب لويس الرابع حروباً عديدة، وعلى مدى ثلاثين عاماً، وحتى معاهدة ريزويك عام (١٦٩٧).

٩٩ ــ لوزان Lauzun (١٦٣٣ ــ ١٧٢٣)

ضابط فرنسي سجن في الباستيل، شارك في نقل ملكة إنكلترا وابنها برنس دوغال إلى فرنسا إبان الثورة الإنكليزية عام (١٦٨٨).

١٠٠ ــ مدام دو سيفينييه Mme De Sevigné ماري شانتال (١٦٢٦ ــ ١٦٩٦)

أديبة فرنسية زوجة هنري دو سيفينييه لعبت دوراً في صالونات فرنسا اشتهرت برسائلها لابنها وابنتها.

١٠١ ــ بونتشارتران لويز Pontchartrain (١٦٤٣ ــ ١٧٢٧)

رجل اقتصاد فرنسي، ترأس دوائر التفتيش المالي في البلاد، ثم أعقب سيغنلي في منصب سكرتارية البحرية، والتحق بالقصر وهو واضع نظام ضريبة رؤوس الأموال (١٦٩٥) وهي المسماة بالـ Capitation وهي ضريبة الأشخاص وزعت على (٢٢) مرتبة حسب الأهمية.. وصل بونتشارتران إلى منصب مستشاراً عاماً للملك.. **ابنه جيروم (١٦٧٤ ــ ١٧٤٧)** خلف والده في جميع المناصب وانتهى دوره بموت الملك لويس الرابع عشر.

١٠٢ ــ سيغنلي Seignelay (١٦٥١ ــ ١٦٩٠)

ابن كولبير الكبير ورث عن أبيه مركزه في البحرية وفي القصر.

١٠٣ ــ روسل Russel ادوارد (١٦٥٣ ــ ١٧٢٧)

كونت اورفورد، أميرال إنكليزي ترأس الأسطول الانكلو هولندي، وانتصر على الفرنسيين في معركة لاهوغ (١٦٩٢).

١٠٤ ــ رووك Rook سير جورج (١٦٥٠ ــ ١٧٠٩)

أميرال إنكليزي دمر أمام فيجو الأسطول المشترك الإسباني الفرنسي، وهو الذي احتل جبل طارق عام (١٧٠٤).

١٠٥ ـ ماربورو Marlborogh جون (١٦٥٠ ـ ١٧٢٢)

جنرال إنكليزي كان من رجال جاك الثاني وجمع بفضله ثروة طائلة، ثم انحاز إلى جانب غليوم أورانج عام (١٦٨٨) مع المحافظة على صداقته القديمة للملك المخلوع. قاد عدة حروب ولمع نجمه حتى أصبح قائداً عاماً للقوات الإنكليزية.

١٠٦ ـ فاندوم Vendome سيزار دوبوربون (١٥٩٤ ـ ١٦٦٥)

ابن هنري الرابع وغابرييل ديستري هزم أسطول إسبانيا أمام برشلونة (١٦٥٥). حفيده لويس جوزيف (١٦٥٤ ـ ١٧١٢) قاتل في إسبانيا وإيطاليا، وهزم الأمير أوجين في كاسانو.

١٠٧ ـ دوكاس Ducasse جان باتيست (١٦٤٦ ـ ١٧١٥)

ضابط في البحرية الفرنسية عين حاكماً لسان دومينيك، وأرسل من هناك حملة إلى جزيرة جامايك (١٦٦٩٤) وهاجم موانئها.

١٠٨ ـ كوتيلوغون Coëtlogon الان ايمانويل (١٦٤٦ ـ ١٧٣٠)

نائب أميرال، شارك في جميع الحملات البحرية التي أرسلها لويس الرابع عشر، وبخاصة في بحر الشمال.. دافع بشراسة عن ميناء سان مالو عام (١٦٩٣).

١٠٩ ـ تيسيه Tessé رينيه (١٦٥١ ـ ١٧٢٥)

وصل حتى مرتبة ماريشال لفرنسا عام (١٧٠٣) ورفع الحصار عن طولون، وأبعد البرنس أوجين المحاصر للمدينة.. عين سفيراً في روما ثم سفيراً في إسبانيا.

١١٠ ـ كاسارد Cassard جاك (١٦٧٩ ـ ١٧٤٠)

قرصان فرنسي عمل لصالح البحرية الملكية، وحارب الإنكليز والبرتغاليين.. قبض عليه وحوكم وسجن حتى قضى في سجنه.

الجــزء الثــانــي

١٦٠٠-١٨١٤م

قال العالم والفيلسوف الإنكليزي فرنسيس بيكون عام ١٦٠٥ :

« وإن ظُـنّ أن ابتكار السفينة التي تحمل الخيرات من مكان إلى آخر أمر عظيم فإن أعظم ابتكار هو الكتب التي تعبر بحار الزمن ، وتتيح للعصور أن تتزامن في الحكمة والمعرفة ، وأن الفضل الأكبر في حفظ الخيرات الإنسانية من الضياع ، وفي الحفز على توليد معارف جديدة ، يعود إلى الكتب .

الكتب هي الحجارة التي بها تبنى صروح الحضارة ، ونحن نغني أنفسنا إذ نكتشف كتبنا العظيمة ، أو نعيد اكتشافها ، ثم نضع كتباً أفضل نخاطب عدداً أكبر من القراء ، على نحو أكثر عمقاً . ويجدر بنا أن نبرىء أنفسنا من الوهم المستشري القائل بأن ما نحتاج إليه هو المواطن المطلع ، إن المعرفة تأتي إلى الذهن الحر المنعتق من القيود ، لتطوف به مراعي التاريخ اللا محدودة ، ليستمد منها غذاء الروح الذي لا يفنى .. » .

الباب الأول

الصراعات

الفصـــل الأول

الصـراع بيـن فرنسـا وإنكلتـرا

الموقف العـام

إن المثل الذي أعطته كل من إسبانيا والبرتغال في اتساعهما الاستعماري أيقظ أطماع المستعمرين الأولين في الدول الأوربية الأخرى.. وخرجت حركات عدة تدفع بشعوب أوربة نحو استثمار العالم الجديد واستعماره. وكان لتلك الحركات أشياعها منذ مطلع القرن السابع عشر، حيث تميز هذا القرن بامتداد الاستعمارين الهولندي والإسباني، في حين اتصف القرن الثامن عشر بانتعاش حبِّ السيطرة لدى كل من فرنسا وإنكلترا، في الانقضاض على الممتلكات الغنية الواقعة وراء البحار.

بدأت فرنسا خطواتها الأولى منذ عهد ريشيليو وكولبير على مستويات محدودة، حتى جاءت أعوام المؤسسات الاستعمارية بشركاتها الاستغلالية، كمؤسسة أكاديا (كندا)، ومؤسستي السنغال وغوانا.. مما أتاح لفرنسا خلال عام (١٦٨٥) بسط سيطرتها على قسم كبير من أراض كندا، وعلى نصف جزائر أرخبيل الآنتيل، وقسم كبير من غوانا.. كما أقامت عدة وكالات (كونتوارات) في كل من إفريقية والمحيط الهندي، وجزائر الهند الشرقية.

بعد موت كولبير واجه كل من سيغنلي، وبورتشارتران كل دول أوربة مجتمعة في أسوأ ظروف سياسية، وبرغم تلك الصعوبات استمر التوسع الفرنسي الاستعماري، إذ نزلت فرنسا في وادي

المسيسبي ، واحتلت وادي سان لوران ، كما أقامت تجارة مزدهرة مع الصين ، واستكملت تجارتها الواسعة مع الهند .

ظلت تجارة فرنسا مع أمريكا والعالم الجديد بخيراتها العميمة تستقطب ملوك فرنسا ، وتحيي فيهم روح التملك والأثرة . فتطلعوا بأطماعهم نحو عرش إسبانيا ، للسيطرة عليه ، والنفاذ بواسطته للعالم الجديد . ولقد تعددت أساليب هذه السيطرة ، فكانت تارة بشكل حليف ، وأخرى صديق أو قريب أو نسيب ، أو حتى سيد لمسود .

نالت فرنسا بالفعل مأربها وشاركت إسبانيا بعائداتها ، حتى وصلت هذه العائدات إلى أرقام خيالية مذهلة ، قدّرها المالي فوربونيه بمائتي مليون من الفرنكات الفرنسية ، وقدّرها عمدة سان مالو بأربعمائة . وكان لتلك الثروة الضخمة أثر كبير في إثارة أطماع شعوب أوربة ، وبخاصة إنكلترا وهولندا .. ووصلت الإثارة إلى ذروتها عندما سيطرت عائلة بوربون على كل من باريس ومدريد ، وأحكمت قبضتها على تجارة أمريكا الغنية .

اعتبر حكام أوربة الآخرون سيطرة آل بوربون الواسعة مخالفة صريحة لأحكام المادة الثانية من الاتفاق الكبير المعقود عام (١٧٠٢) ، والذي اشترط على فرنسا عدم سيطرتها على الهند الغربية ، وعدم تدخلها في تجارة المستعمرات البعيدة .

النشاط الاستعماري

وسّعت فرنسا سيطرتها في كل من أمريكا الشمالية وكندا وبدأت جالياتها تقيم المؤسسات في المناطق الساحلية .. فكان أول تجمع لها هو تجمع آكاديا Acadie حيث غدا فيما بعد اسم (أنابوليس) . وكان موقع هذا التجمع على الحدود الفاصلة بين إنكلترا الجديدة وفرنسا الجديدة على البر الأمريكي ، واعتبر النواة الأساسية لانتشار التوسع الاستعماري في المنطقة .

أفلح البحار والمحارب صاموئيل شامبلان[(١)] في إقامة قاعدة انتشاره في موقع مدينة كويبك ، ومن تلك القاعدة تابع اكتشافاته ، فصعد وادي سان لوران حتى وصل إلى البحيرة التي حملت اسمه ، وجمع معلوماته عن المنطقة ، واستطلع نهر هدسن بالذات ثم اتجه نحو الشمال الغربي وقطع نهر أوتاوا حتى وصل خليج هدسن الكبير والبحر الحلو ، وبحيرتي هيرون واونتاريو .. ولقد حقق هذا البحار قبل موته استطلاع كامل بلاد كندا ، ونقل إليها الجاليات الفرنسية ، وأغلبها من المزارعين الأشداء الذين استوطنوا الأرض وأقاموا المزارع الواسعة .

حدثت بعض المتاعب العسكرية خلال تلك الحقبة إضافة إلى المتاعب السياسية . إذ هاجم الإنكليز كندا مرتين بهدف طرد الفرنسيين منها ، وحاصروا كويبك ، واستولوا عليها . عندها قرر الجيسويت (اليسوعيون) إقامة تفاهم أوثق مع السكان الأصليين ، ليستعينوا بهم ضد الغزاة الإنكليز . فراحوا ينشرون بينهم معتقداتهم الدينية ، فأفلحوا في استمالة الكثيرين منهم ، مما شجع قادمين جدداً على الهجرة برغم الصعوبات الحياتية وقسوة الطبيعة ، وإغارات القبائل البدائية (الايروكيون) ، وهم الهنود الأصليون المقيمون في وادي سان لوران ، ويضمون عدة شعوب وقبائل تحالفوا في البداية مع الهولنديين ، ثم مع الإنكليز ضد الجاليات الفرنسية .

استمرت الغزوات المضادة حتى عام (١٦٩٦) برغم عمليات التبشير واستمالة أفراد القبائل .

ظل البحارة المغامرون من إنكليز وهولند وفرنسيين يجوبون سواحل البلاد الجديدة ويسيطرون على مداخل الأنهار ، وعلى الجزر المتاخمة للبر الأمريكي . وعندما شعر الإنكليز بضخامة تغلغل الفرنسيين في كندا أقاموا مستعمرة كبيرة في نيويورك ، جعلوها قاعدة هجوم ومناوشة . واستمرت الاشتباكات بين مد وجزر حتى عام (١٧٠٣) ، حيث وصلت ذروتها . واستطاعت الجالية الأمريكية التي من أصل إنكليزي النفاذ في عمق البلاد ، والاستيلاء على بور رويال عام (١٧١٠) ، وعلى عدة مواقع فرنسية . وهكذا .. حتى توقيع معاهدة أوترخت الشهيرة التي منحت إنكلترا حق امتلاك خليج هدسن ، والأرض الجديدة ، وآكاديا ، وتركت للفرنسيين حق الضيد حول السواحل الشمالية فقط .

لم يرق لهنود ابيناكي احتلال بريطانيا لأراضيهم فهبوا يقاومون بعنف وشراسة ، فعزلوا كندا لفترة من الزمن ، ولم يُبقوا فيها إلا بضع نقاط تجمع بريطانية معزولة لا حول لها ولا قوة . ويمكن اعتبار عام (١٧١٥) عام توقف عملية الاستعمار المستورد ، وبدأ المهاجرون وحدهم وبتكاثرهم السكاني السريع رفع عدد المقيمين ، حتى وصل إلى تسعة عشر ألف نسمة من الفرنسيين ، ومائة وخمسين ألف نسمة من البريطانيين .

تواقت الصراع في كندا مع صراع آخر نشب بين إنكلترا وهولندا من جهة والبرتغال من جهة أخرى حول السيطرة على المناطق الأمريكية المحصورة بين الأمازون والادريتوك (اسم نهر في فيئزويلا ، وكان تسمى البلاد هناك ببلاد المجذفين) . وقد اشتهرت تلك البلاد بوفرة ذهبها فاستقطبت الطامعين للإقامة فيها .. والغَرْفَ من معدنها البراق .. فسيطر الإنكليز والهولنديون في البداية من (١٦٦٧ ـ ١٦٧٦) ، فاحتلوا المواقع البرتغالية والفرنسية وبقوا فيها حتى عام (١٦٧٦) .. وفي

تلك الأثناء جدد الفرنسيون والبرتغاليون حملتهم، وعززوا مواقعهم، واستعادوا السيطرة على البلاد الواقعة إلى الشمال من الأمازون.. ولما جاءت معاهدة أوترخت نظمت ممتلكات المستعمرين، فحرمت على البرتغاليين والفرنسيين الملاحة في حوض نهر الأمازون، وتركت لهما المقاطعات الواقعة إلى الشمال، والتي عرفت فيما بعد باسم غوانا.. وأصبحت يد الإنكليز ومعهم حلفاؤهم الهولنديون واسعة الباع في المنطقة.

عندما تأكد لفرنسا جمود امتدادها في القارة الجنوبية من أمريكا تحولت إلى الجوار تزرع مستعمريها حيث جزائر أرخبيل الآنتيل.. لكن إسبانيا كانت هناك منذ زمن بعيد، لذلك لم يكن بدٌّ من حدوث نزاعات بين المستعمرين من الفريقين.

اعتبر الإسبان كل هؤلاء الغرباء الذين قدموا لاستملاك جزائر الآنتيل دخلاء وقراصنة يجب محاربتهم. وبالفعل قابلوهم بعمليات قمع وصلت حدود الوحشية. واندلعت حروب كثيرة طابعها النهب والسلب والتقتيل. واستطاع القراصنة وقطاع طرق جزر الآنتيل إقامة جمهورية تائهة بين الجزر ضمت كل المقاتلين الشديدي البأس، وترفد هذه الجمهورية بمزيد من البحارة المغامرين حصيلة ما تنجبه القارة الأوربية. وقد عرفوا بالوحشية وتجردوا من كل حسٍّ إنساني. فجاؤوا ليهدموا كل شيء من مؤسسات إسبانيا المتحضرة. وكانوا يدخلون الموقع فيقلبون عاليه سافله أو يزيلونه من الوجود.

في تلك الأثناء حملت الصدفة بضعة ملاحين فرنسيين تاهوا في البحار ونزلوا في جزر صغيرة خالية من جزائر أرخبيل الآنتيل. وكانوا ينشدون حياة مستقرة، فأقاموا في تلك الجزر وأنشأوا مؤسسات سلمية معيشية، فكانت جزيرة سان كريستوف، والمارتينيك، والغوادلوب، وماري غالانت، والسانت، وسان بارتيليمي، وسانت كروا، وسان مارتان، وسان لويس. وغرانادا.. وبدأوا فلاحة الأرض واستغلال خيراتها بمساعدة العبيد السود، فأنتجوا التبغ والنيلة والقطن والأخشاب وقصب السكر. ولم تطلهم معاهدة أوترخت سوى بفقدان جزيرة سان كريستوف.

سان دومينيك

أقام قراصنة آخرون في هايتي (هيسبانيولا). وكانت شبه خالية بعد أن أُبيدت جموع سكانها الأصليين (بقي ١٠٠ ساكن أصلي في الجزيرة عام ١٧١٧) إلّا من فلول بسيطة.. ورحل عنها المستعمرون الإسبانيون الأولون، لتعرضهم الدائم للغزوات فكانوا ضحايا بريئة لقراصنة ولصوص البحر بصورة مستمرة.. ولم يبق في تلك الجزيرة إلا صائدو الثيران البرية، يعيشون في الوديان الداخلية، بمعزل عن العالم الخارجي. يصطادون الأبقار الوحشية الكثيرة في أدغال وسهول الجزيرة.

وقد ألفوا فيما بينهم شبه مجتمع صغير تحت حماية فرنسا. وسرعان ما انتقلوا من الحياة البدائية التي كانوا يعيشونها إلى حياة متطورة متحضرة. وعندما عقدت معاهدة ريزويك Ryswick منحوا الثلث الغربي من الجزيرة التي أصبح اسمها سانت دومينيك. ووصل عدد السكان البيض في هذا الجزء إلى (٤٤٠٠) والسود إلى (٣٥٠٠)، واعتبروا من أوائل المستعمرين الحقيقيين في الأرخبيل.

الساحل الإفريقي

من الطبيعي جداً أن تسعى الدول الاستعمارية الكبرى إلى إقامة مواقع لها في أرض إفريقية السوداء، حيث المصدر الوحيد للعبيد أساس بقاء المستعمرين، وعصب أعمالهم الزراعية في الأرض الجديدة. وعلى الرغم من نفور الكثيرين من رجال الحكم في الدول الاستعمارية من هذا الأسلوب الوحشي في استغلال الإنسان البدائي، فقد أغمضوا أعينهم بعد أن لمسوا الأرباح الطائلة التي تجنى من وراء الإتجار بالرقيق الأسود. وذهب بعضهم إلى تشجيعها، وطلبوا من سفن دولهم مؤازرة المغامرين العاملين في تلك التجارة اللاإنسانية، وغالبيتهم من القراصنة ومن الخارجين على القانون.

كان الإنكليز والهولنديون سباقين في هذا المضمار، حيث أقاموا مراكز لتجارة العبيد وقنصهم على طول السواحل الإفريقية الغربية، ثم تبعهم الفرنسيون. ومن تلك المواقع الساحلية المتفرقة تغلغل المستعمرون إلى أواسط البلاد، يفتشون عن أسلاب جديدة، فوجدوا القارة غنية بثرواتها الطبيعية، فحملوا منها الذهب والمطاط وريش النعام. لكن قمة تجارتهم بلا منازع كانت الإتجار بالرقيق الأسود، حيث الأرباح فيها تجاوزت التسعمائة / بالمائة من المصاريف، حتى أصبحت هذه التجارة هـمّ المؤسسات الأول، وغدت المواقع الإفريقية ملاحق للمستعمرات الأمريكية وتوابع لها.

الهند وجزائر الهند

ما من تجارة فاقت تجارة الهند وجزائرها، فالتوابل والعطورات والأقمشة الحريرية، والقطنية الخ.. أتت في المراتب الأولى وتصدرت البضائع الثمينة والمطلوبة.

حافظ الهولنديون بكل ما أوتوا من قوة على إبعاد تلك البلاد عن المغامرين الجدد. لذلك لم يكن من السهل مشاركة الدول الاستعمارية الأخرى في اقتسام مواردهم الضخمة إلا عن طريق الدسائس والمغامرات حيناً، أو عن طريق القوة والعنف حيناً آخر. لكن حملات كثيرة ضاعت إما بظروف ملاحية أو بظروف قتالية. وكان ثمن المشاركة في كنوز تلك البلاد باهظاً تطلب الكثير من

التضحيات، خصوصاً وأن المستعمرين الأولين تخصصوا في إغلاق كافة المنافذ التي توصل إليها.

سيطر الهولنديون على جزائر السوند، وانتزع الإنكليز من الإسبان والبرتغاليين الهند. أما الشعوب المستعمرة الأخرى فقد وجدت نفسها خارج الوليمة، ولم يبق لها إلا جزيرة مدغشقر والموزامبيق وإن ابتعدت فلتصل بسفنها إلى أوستراليا والجزر المحيطة بها.. وهيهات بين خيرات جزائر الهند الشرقية والهند والجزائر الأخرى.

كانت فرنسا المستعمرة الأقل حظاً إذ خابت آمال كل إرسالياتها وخاصة لجزيرة مدغشقر. وحاولت إقامة علاقات تعاون وصداقة بين شعوب السكان الأصليين في عهد كولبير، فاشترت عدة وكالات من البرتغاليين لهذا الغرض. ولما وجدت نفسها بعيدة عن الهدف سلكت أسلوب المستعمرين الأولين، فأرسلت الحملات عن طريق سورية وبحر العرب أو عن طريق مصر والبحر الأحمر، ولكن كل المحاولات باءت بالفشل. ولم يكن لها إلا سبيل وحيد هو اللجوء إلى أسلوب باقي المستعمرين عن طريق الشركات بإقامة المؤسسة الهندية الشرقية بدعم من القوات البحرية. وجاءت التجربة على يد الأميرال لاهاي La Haye الذي دخل المحيط الهندي يدعم الإرساليات فاصطدم بالهولنديين. وبسبب قلة درايته في استمالة عظف السكان الأصليين وقلة عدد جنوده اضطر إلى قتال بائس. وقد حوصر من قبل ملك كولكوند Colconde مدة سنة وعشرين شهراً حتى استسلم وحاميته، وبذلك انتهت مغامرات فرنسا في الهند.

الشرق الأقصى والمحيط الهادي

استطاع الفرنسيون إقامة بعض الوكالات لهم في الهند الصينية سالكين أسلوب التبشير الديني. ونجح كل من الأسقف بالو، والأسقف لامبير في انتزاعهما من البرتغاليين.

في الصين لم يستطع المستعمرون النفاذ في معتقدات تلك الشعوب العريقة، ولم تفلح معهم أساليب التبشير الدينية، ولا عمليات التقرب والصداقات. واقتصرت العلاقات على التعامل التجاري البحت، دون أي ارتباط سياسي أو ديني. وكان من أهم منتجات التعامل الحرير والخزف.

امتدت أنظار المستعمرين الجدد إلى بحار الجنوب وجزر المحيط الهادي. وحاول الإنكليز والفرنسيون التعامل مع البيرو والشيلي، لكن وجود المستعمر الإسباني القوي هناك أجهض كل محاولاتهم.. وكان الموقف العام يتلخص بما يلي:

احتلت إنكلترا شريطاً على طول الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية واستولت على عدة جزر من أرخبيل الآنتيل، وعدة مواقع هامة في الهند. وكان لفرنسا كندا بأراضيها الواسعة مع بعض جزر الآنتيل، ومواقع قليلة في إفريقية والهند، وكلها خالية تفتقر إلى المزارعين، حتى غدا مفهوم المستعمرات بالنسبة للأوربيين مختلفاً، فهو هدف ثانوي بالنسبة للحكام يعلو شأنه مع ارتفاع أرصدة المكاسب التي تدرها، أما بالنسبة للشعوب فهو نوع من البحث والمعرفة. ولم يصل التفكير لدى الأطراف جميعاً إلى أبعد من ذلك، فهو نشاط عابر قصير الأمد، لم يكن يخطر ببالهم تطوير شأنه، أو الدفاع عنه عند تعرضه لأي مغير.

كان الإنكليز أول شعب انتبه إلى تلك المنطقة بالذات ففكر بالوسائط التي تدعم بقاءه الطويل، مع المحافظة على الممتلكات الواسعة له عبر البحار. ويرجع الفضل في ذلك إلى نخبة من الرجال المخلصين، حرصوا على تقوية سلاح البحر، ليستطيع أداء كافة المهام المنوطة به، من حماية للممتلكات، والمحافظة على الإمداد بالرجال والعتاد، ونقل المكاسب والخيرات، وضرب كل من تمتد يده إليها.. وبالفعل حافظ الإنكليز وحافظت الدول الاستعمارية التي امتلكت الأساطيل الحربية القوية على مواقعها في العالم الجديد، في حين تعرضت مستعمرات الأمم الضعيفة بحرياً كفرنسا لهزات عديدة. وعندما هاجمها الطامعون لم تجد ذلك الأسطول المناسب الذي يحمي ممتلكاتها، فدمرت مؤسساتها تدميراً شبه كامل، دون أن تستطيع أو أن تسعى للدفاع عنها.

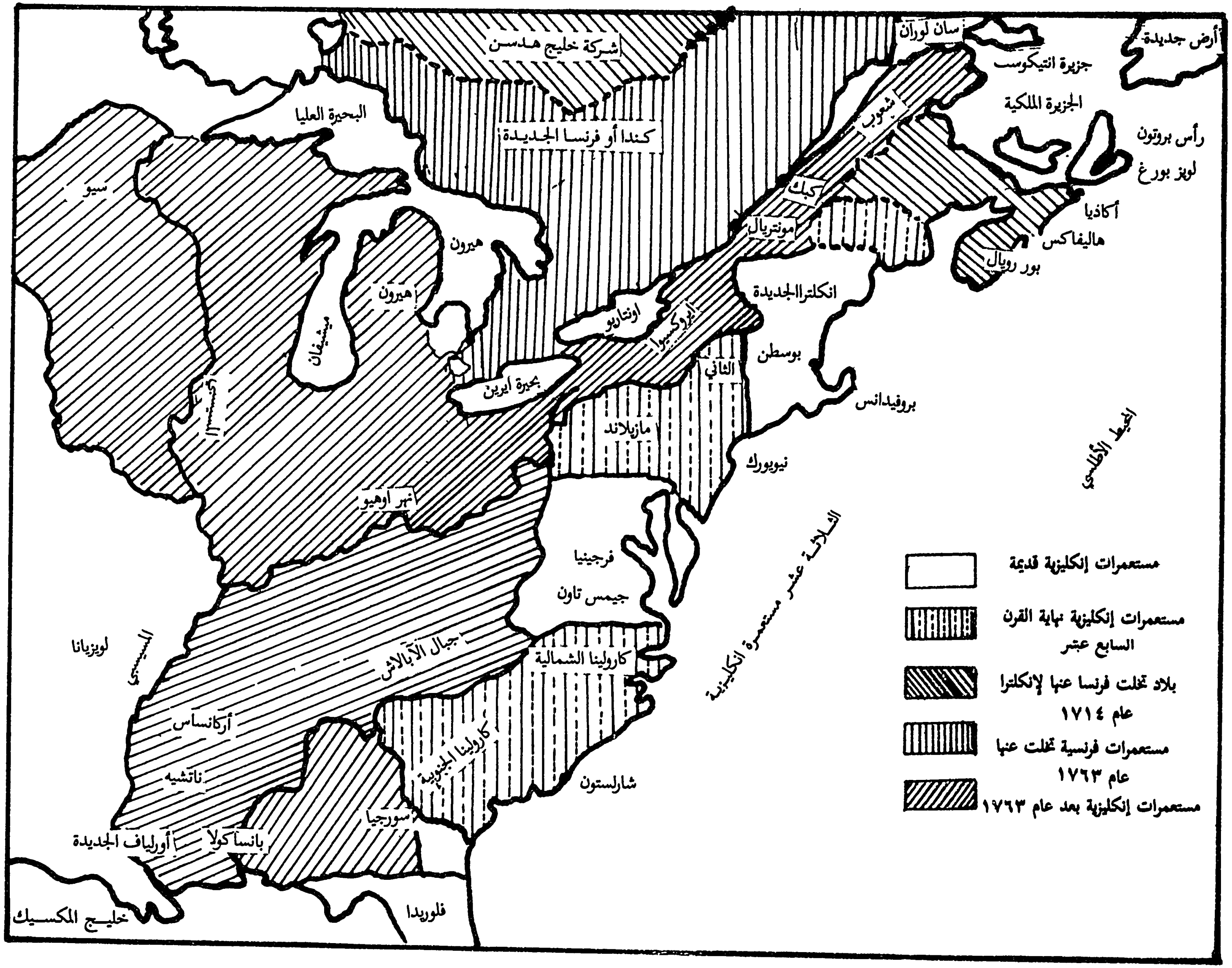

شركة خليج هدسن
سان لوران
أرض جديدة
جزيرة انتيكوست
الجزيرة الملكية
رأس بروتون
لويز بورغ
أكاديا
هاليفاكس
بور رويال
البحيرة العليا
كندا أو فرنسا الجديدة
شعوب
كبك
مونتريال
سيو
هيرون
هيرون
ميشيغان
انكلترا الجديدة
اونتاريو
ايروكسيوا
بحيرة أيرين
الثاني
بوسطن
بروفيدانس
مازيلاند
نيويورك
المحيط الأطلسي
نهر اوهيو
فرجينيا
جيمس تاون
الثلاثة عشر مستعمرة انكليزية
لويزيانا
المسيسبي
جبال الآبالاش
كارولينا الشمالية
أركانساس
كارولينا الجنوبية
ناتشيه
شارلستون
سورجيا
بانساكولا
أورلياف الجديدة
خليج المكسيك
فلوريدا
مستعمرات إنكليزية قديمة
مستعمرات إنكليزية نهاية القرن السابع عشر
بلاد تخلت فرنسا عنها لإنكلترا عام ١٧١٤
مستعمرات فرنسية تخلت عنها عام ١٧٦٣
مستعمرات إنكليزية بعد عام ١٧٦٣

الفصـــل الثـانـي

الســلام
بيـن عـام ١٧١٥ وعـام ١٧٤٠

٢٥ عاماً من الســلام (١٧١٥ ــ ١٧٤٠)

أطلقت معاهدات أوترخت بداية عصر من السلام إمتد حوالي خمس وعشرين عاماً، دون أية أزمة حادة تقطع على الأوربيين تطورهم الطبيعي. وهذا السلام الطويـل أعطاهـم الـوقت لاستخلاص الفوائد من جهودهم التي بذلوها خلال الحقبة المنصرمة.

وثبت الحياة الاقتصادية في دول أوربة إلى موقع الصدارة من حيث تبادل السلع والمنتجات. وامتد هذا التبادل إلى كافة أطراف المعمورة، حتى أصبح هذا التعامل مصدر أعظم الثروات. وحرصت الدول المتقدمة على تطويره، وكأنه الهدف الكبير الذي تسعى إليه، خصوصاً لدى الدول التي كانت تخشى مستقبل ازدهارها الاقتصادي.

أصابت الدول المتطورة آنذاك (إنكلترا، هولندا، فرنسا) منافع جمة. إذ إن منتجاتها الزراعية والصناعية المطلوبة في العالم الجديد والعالم المستكشف تشكل العنصر الرئيسي في التبادل التجاري. لكن معاهدة أوترخت ضيقت الفرص على فرنسا، وما إن استفاقت من هول الصدمة في نهاية عهد الملك لويس الرابع عشر حتى سارعت إلى تعويض ما فقدته من بنود تلك المعاهدة. وأول ما فعلته هو بناء وترميم ميناء ماردِيك[٢] Mardyck ليحل محل ميناء دونكرك الذي استبقته إنكلترا في حوزتها. ثم أعقبت تلك بتقوية تحصينات موقع لويز بورغ[٣] Louisburg لتأمين سلامة الجالية الفرنسية المستعمرة

في كندا . ثم طالبت بحزم الدول الموقعة على المعاهدة بتعديل بعض بنودها ، وخاصة النقاط المتعلقة بالعلاقات التجارية مع إنكلترا . لكن كبر سنّ الملك الفرنسي ، وقلة اهتمامات رجال بلاطه جعلت المهمة تتهاوى لتنتقل إلى خليفته في الحكم ، خصوصاً وقد تعاقب على حكومة فرنسا رجال فضلوا مصالحهم الشخصية على مصالح الدولة . ونذكر منهم دوبوا[٤] Dubois مثلاً الذي اهتم بثروة عائلة أورليان ، وكيفية توزيعها ، بعد أن التف رجال لويس الرابع عشر القدامى حول فيليب الخامس[٥] ، أو ، تقربوا من العائلة المالكة الألمانية في هانوفر مضحين بالكثير من مصالح بلدهم ، حتى أشرفوا بها على شفا حرب ، بغية معارضة وخذل ابن لويس الرابع عشر . وللحفاظ على حق دوق أورليان اضطرت فرنسا إلى مصادقة عدوها الذي قاتلته على مدى خمسة أعوام متعاقبة ، وبذلك تحقق حلم البيروني[٦] Alberoni الذي تنبأ وسعى في إقامة تجمع أوربي ضد إنكلترا ليثأر لإسبانيا بعد كارثة رأس باسارو وحملة إيرلندة عام (١٧١٨) .

ويجدر بنا إبراز الصفة التقليدية للقرن الثامن عشر ، فهو دون شك قرن التفوق الإنكليزي في إمكاناته الزراعية ، ومنتجاته الصناعية ، وعدد سكان جزره (٩) ملايين ، في حين هبط بالمقابل عدد سكان إسبانيا إلى (٦) ملايين فقط .

لعبت إنكلترا خلال فترة السلام دوراً سياسياً هاماً في العلاقات الدولية ميزت فيه ذلك العصر وطبعته بطابعها التقليدي ، فتمخض عن تفاهم إنكليزي فرنسي عمل إحقاق السلام عامة ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لعوامل كثير أهمها :

ـــ ضعف فرنسا العسكري .
ـــ آمال في جني منافع اقتصادية .
ـــ شقاق وحسد بين الوصي على عرش فرنسا ، وفيليب الخامس ملك إسبانيا .
ـــ سيطرة دوبوا الشخصية على دفة الحكم في فرنسا .
ـــ تأثير والبول[٧] Walpole الإنكليزي على فلوري[٨] Fleury الفرنسي .

إن تلك الأسس المسلم بها في إقرار السلام فرضت على فرنسا استسلاماً كاملاً أمام إنكلترا القوية والتي تسعى من وراء السلام هذا إلى جني المكاسب من مستعمرات إسبانيا في العالم الجديد ، مع المحافظة على المركز الأول في البحار . والهم الأساسي في كل ذلك ، عدم إشاعة الشكوك للحلفاء ، خصوصاً والإمكانات في إقامة بحريات عالمية منافسة لبحرية إنكلترا كانت معدومة .

حل موروبا[٩] Mourepas محل أبيه لويز بونتشارتران عام (١٧١٥) . وكان محاطاً بمجلس من خيرة رجالات البحر مثل ايستريه ، رونو ، دوغاي تورين .. وكان عمره لا يتعدى الـ ١٥ عاماً وفي

سن الـ ٢٣ أصبح سكرتير دولة . وكان حاد الذكاء عالي الهمة ، لكن الكاردينال فلوري المسؤول عن بيت المال لم ينصفه ، إذ لم يحصل موروبا إلا على نصف الأموال التي طلبها ، والتي خصصها لبناء مجد بلاده البحري . ومع ذلك كله استطاع النهوض بهذا السلاح حتى أصبح قادراً على استعادة الاستكشافات ، وعلى القيام بالأعمال الجغرافية والهيدروغرافية . ومن منجزاته حملة البيرو ، وحملات شمال إفريقية ضد البربروس ، وحملة البلطيق لدعم مرشح عرش بولونيا ستانسيلاس ليكزنسكي . لكن عقدة تفوق الإنكليز بحراً لازمت رجال بحر فرنسا ، وطبعتهم بطابع الخيبة ، فجاءت أنشطتهم واهنة متعبة .

لـوي Law وأسلوبه المالي

خرجت فرنسا من حروبها الطويلة إبان عهد لويس الرابع عشر (١٠) مثقلة بدويون ضخمة تعدت الثلاثة مليارات . ولم يكن من سبيل لإعادةالتوازن المالي إلا بسلوك أسلوب المدرسة القديمة الوحيد ، وهو اختصار النفقات ، والتوقف عن دفع العائدات ، بإعلان إفلاس الاحتياطي المحدود للدولة . لكن رَفْضَ الملك لذلك المشروع باعتباره مخلاً بالشرف الوطني جعله يقبل بخطة لوي ، الخطة التي لو عرضت عليه في غير تلك الظروف المالية السيئة لاعتبرها نوعاً من الدجل والتخريف .

لوي(١١) Law ككل رجال عصره يعتقد بأن ثروة الأمة تتألف من السيولة النقدية المتداولة ، وهذا نسبياً صحيح إلى حد ما . لكنّ للوي تفسيراً آخرَ ، إذ يعتقد بأن الأموال المتداولة ظاهرة أو أداة للدلالة على حجم الثروة فقط ، ودورها الأول هو تسهيل التبادل في تطوير الاستهلاك ، ورفع حجم الإنتاج . ومن تلك النظرة خلص لوي إلى اعتبار العملات الذهبية والفضية المتداولة طريقة لها العديد من العيوب ، وغير عملية ، وأن الكميات النقدية المختزنة لدى أفراد الشعب يجب أن تهبط أحجامها ، فهي رساميل مجمدة يجب أن تُستَبدل بوسائل أخرى ، تدلّ على قيمتها كالعملة الورقية مثلاً « **والتي سيستقبلها الشعب بثقة أو بطاعة** » . فليصدر منها إذن المقدار الذي يفي بحاجة وضع المملكة المالي المتردي .. وبذلك تتحرك رؤوس الأموال المجمدة بحرية وحيوية ، وتحل الثروات المتحركة محل المعادن الثمينة المختزنة ، فتعمل بديناميكية أكبر ، بدلاً من أن تقبع في توظيفات ثابتة الموقع ضعيفة المردود .

طبق لوي مشروعه ونتج عنه زيادة في الإنتاج العام . وتحسنت الثروات الخاصة ، ونشطت أوضاع المملكة .. لكن التنظيمات المالية التي يتطلبها مثل ذلك النظام لم تكن بعد جاهزة في البلاد ، فوجد لوي في إقامة مشاريع كبيرة تمتص العملات الورقية المطروحة في الأسواق متنفساً لتعثر نظامه ، في غياب النظم والمؤسسات المالية اللازمة . وحملت تلك المشاريع الآمال الكبيرة والثقة

الكاملة . وجاء استغلال المستعمرات في تلك الحقبة يماشي المشاريع الحديثة . وخطرت فكرة التوسع الإضافي عن طريق طرح (إلى جانب الأوراق المالية الصادرة عن البنك) مستندات خاصة ، أو صكوك ، منها السندات المتعلقة بالشركة العامة التجارية ، والتي وسعت مجالاتها الاقتصادية عبر الثروة الورقية المتداولة والصكوك المباعة .

جاءت النتائج الأولية خارقة في كل مضمار ، وتحولت الشركة التجارية المذكورة إلى الشركة العامة للهند (١٧١٩) ، وأصبحت تسيطر على جل الأعمال المالية في البلاد . ولكي تستطيع مجابهة المعارضة والرهانات بحثت عن موارد مستقبلية لها ، بعد نجاحها الكبير في لويزيانا وسان دومينيك ، والسنغال ، والهند الشرقية ، فوجدتها في إصدار العملات ، وبيع التبغ ، وإقامة المزارع في المستوطنات . وجمعت الضرائب غير المباشرة ، وشاركت في تحصيل الإيرادات العامة ، حتى نفذت إلى الضرائب المباشرة . واستطاعت هذه المؤسسة الضخمة وضع يدها على كل النشاطات الاقتصادية والمالية في المملكة . وبالفعل حمل النظام الجديد العديد من التسهيلات المالية فسيطر لوي ونظامه على كل المعاملات التجارية ، وحصر الديون ، وبدأ في تسديدها .

ارتفعت أسعار الأسهم حتى الضعف بين عامي (١٧١٧ ــ ١٧١٩) ، لكن هذا التزايد المتسارع غير الطبيعي جعل من الصعب دفع الأرباح النسبية الموعودة . وظهر القصور في عدم استطاعة تحقيق الوعود . وحصلت ردة فعل عارمة لدى المساهمين ، اعتبروا فيها ارتفاع أسعار أسهمهم وهمياً ، فطرحوها للبيع ، وخاصة أسهم الشركة العامة للهند .

جاء طرح الأسهم كثيفاً في الأسواق . ووافق لوي على تسديد أسعارها ، لكن بنك فرنسا لم يكن مزوداً بالسيولة اللازمة لتغطية البيع ، فحصلت هزة مالية استهدفت سوق الأوراق النقدية . وعاد الشعب يشتري المعادن الثمينة ثانية مما اضطر لوي لإصدار قانون يمنع تداولها تحت طائلة العقوبات .. ووقعت الكارثة المالية ، وغرقت الدولة بديون فاقت ديونها السابقة ، فزادت الصعوبات ، وأصيب المواطنون بخيبة أمل ، وتحفزوا للانقضاض ومقاومة كل تجديد مالي ، مما اضطر لوي على إقامة بنك إصدار وحسم بالفوائد ، كالمعمول به في كل من هولندا وإنكلترا آنذاك .

انهار نظم لوي المالي ضحية المضاربة ، والتضخم . لكنه أفاد البلاد في رفع حجم التبادل التجاري مع المستعمرات برغم معارضة كبار المفكرين المعاصرين ، أمثال فولتير ، ومونتيسكيو ، وروسو ، وديدرو ، الخ .. الذين أجمعوا على أن الاستعمار ضرب من الجنون أو هو الجنون المدمر . وتدخل الكاردينال فلوري المعروف برجاحة فكره لتحجيم آثار الكارثة ، وأقام صلات وثيقة مع جميع

دول أوربة ، وخاصة مع والبول الذي كان يدير إنكلترا . وبذلك أعاد الانتعاش الاقتصادي إلى سيرته الأولى ، وتحركت الصناعات من جديد ، وعادت سفن الأسطول تتكاثر وتسعى .

السياسة الإنكليزية

قامت التجارة الإنكليزية خلال أعوام (١٧١٥ ــ ١٧٤٠) بخطوات جبارة دلت عليها أرقام التبادل التجاري ، وحركات التصدير والاستيراد في المرافىء . وتناقصت نسبة حصص الجنسيات الأخرى غير الإنكليزية ، حيث هبطت من ٣٣ إلى ٥ بالمائة من مجموع أرقام التبادل العالمي . فنشط الشعب الإنكليزي ، واندفع نحو المستعمرات ، حتى وصلت إنكلترا في عام (١٧٤٠) إلى امتلاك (١٣) مقاطعة من أمريكا الشمالية ، كما استولت على العديد من ممتلكات فرنسا هناك ، منها خليج هدسن ، وأكاديا ، والأرض الجديدة ، وعلى العديد من مقاطعات أمريكا الوسطى التي تخلت لها هولندا عنها .

جاء أغلب المقيمين المستعمرين البريطانيين من فئة الرجال الأقوياء وأصحاب العزائم القادرين على المكافحة والمقاومة والاستمرار . وسرعان ما بدت نتائج جهودهم في نشوء مدن عديدة كبوسطن وفيلادلفيا ونيويورك . وكان لدى هؤلاء الرجال عيب كبير هو في تعدد المنشأ ، وتناقض المعتقدات والمذاهب الدينية ، وهي أسباب تنذر بوقوع اصطدامات مؤكدة .. ويمكن القول إن المقيمين المستعمرين حملوا معهم تناقضاتهم المذهبية القائمة على البر الأوربي ، فأحدثوا تفاوتات في توازن القوى هناك ، كما أن حذق الإنكليز في حسن إدارة مستعمراتهم قابله جهل وتعصب لدى المستعمرين الآخرين (فرنسيين وهولند) كان لهذا كله أثر كبير في رسم معالم مستقبل العالم الجديد .

حرب وراثة عرش إسبانيا (١٧٤٢ ــ ١٧٤٨)

نشبت حروب صغيرة بين إنكلترا وإسبانيا عام (١٧٣٩) ، كانت أهم أسبابها المشاكل الاقتصادية ومنها الصعوبات التي تعرضت لها إسبانيا ، والناشئة عن تجاوزات السفن الإنكليزية وراء البحار .

حاولت إسبانيا الحد من تلك التجاوزات في سبيل حماية مصالحها الاقتصادية داخل مستعمراتها ، فكلّفت سفن خفر سواحلها في المياه الأمريكية بمنع كل نشاط تجاري إنكليزي في المنطقة . وجاءت التعليمات مشددة تقضي باستخدام العنف والشدة . وطلبت من قادة السفن

اعتراض سفن القراصنة والمهربين الإنكليز، مما دفع باللنديين إلى التظاهر بعنف ساخطين على تلك الإجراءات الإسبانية، ومطالبين حكومتهم بتأديب إسبانيا، خصوصاً واتفاقية الآسبانتو (اتفاقية الإتجار بالرقيق الأسود) شارفت على انتهاء أجلها عام (١٧٤٤).

ووالبول Walpole هو الرجل الأول في إنكلترا الذي فضّل حرباً ظالمة على الجلسات الصاخبة المنعقدة في مجلس العموم والتي تطالب «بحرية البحر أو الموت».

واتخذ قرار الحرب ثأراً للشرف الوطني الإنكليزي، ومن طرف خفي لتحضير ضم المقاطعات الأمريكية اقتصادياً، ومن ثم سياسياً.

أقلع الأميرال فيرنون Vernon والأميرال آنسون[١٢] Anson من بورتموث لمهاجمة المستعمرات الإسبانية في كل من أمريكا الوسطى والمحيطين الهادي والأطلسي، في حين يقوم هاووك بمحاصرة سواحل شبه الجزيرة الإسبانية عام (١٧٣٩)، لمنع خروج أي تعزيزات إسبانية.

وبما أن فرنسا حليفة لإسبانيا، بموجب معاهدة الاسكوريال (١٧٣٣)، كان لا بد لها من معاونتها. لكن فلوري رجل السلام لم يَعِ أن فكرة الدفاع عن إسبانيا هي بمثابة حماية لتجارة فرنسا ولمستعمراتها. ولكي يغطي التزامه الأدبي أمام حلفائه الإسبان أرسل حملة مناورة وتخويف، تمثلت بحملة دوق دانتان[١٣] مع (٢٢) بارجة حربية إلى جزر الأنتيل، للتظاهر في دعم وإنجاد الإسبان هناك. وكان يمكن لهذه الحملة أداء دورها لولا بدء مشكلة عرش النمسا، وإشاعة الاضطراب في القارة الأوربية.

وكانت مشكلة عرش النمسا، قضية ألمانية بحتة (ماري تيريز[١٤] تتذرع في صدق الأقوال مهما كانت عاقبة الأعمال) فهل ترث ماري تيريز البلاد بعد أبيها؟ وهل لفرنسا مصلحة في التحالف مع البروسيين الطامعين بسيليزيا، وبالأقاليم المنخفضة؟ وبالثأر لمعاهدة (١٧١٣ ـــ ١٧١٤) التي فيها مصلحة كبيرة لإنكلترا؟

إن من مصلحة فرنسا ولا شك منع الإنكليز من التهام مستعمرات إسبانيا، كما مر ذكره سابقاً، لذلك أقلع ماركيز دانتان على رأس (٢٢) سفينة حربية، كما تقدم ذكره، واتجه إلى جزر الآنتيل للمراقبة، وللحد من نشاط السفن الإنكليزية هناك. لكن وباءً فتاكاً نجم عن نقص في النظافة العامة أتى على غالبية طواقم السفن، وبسرعة مذهلة. فخلا الجو للقائد الإنكليزي فيرنون، وراح يسجل عدة انتصارات سهلة في كل من برتوبيلو Perto-Bello وشاغر[١٥] Chagers. واستمر

النجاح حليفه حتى استفاقت إسبانيا من عامل المفاجأة وراحت تستدرك مكانتها في المنطقة، واشتبكت بعدة مواقع خابت من بعدها آمال الإنكليز. وأهم المعارك حدثت أمام قرطاجة وسانتياغو وكوبا، مما اضطر فيرنون إلى الانسحاب والعودة إلى إنكلترا يجر أذيال الهزيمة، وليجد الاتهامات تنتظره. وقد وصفه أترابه بالخائب، وكانت حجته في الدفاع عن نفسه هي مكيدة الفرنسيين له ولقوته البحرية.

حصل كل هذا إضافة إلى عدة اعتداءات تبادلية بين إنكلترا وفرنسا، لكنها لم تكن بالحرب الحقيقية بل إنها أخذت منهجاً جديداً تشير من خلاله إلى دنو حرب حقيقية وشيكة.

وبالفعل كانت الحرب تنتظر سبباً وجيهاً ومباشراً لتشتعل. وجاء موت الإمبراطور شارل السادس[١٦] ٢٠ تشرين الأول (١٧٤٢) ليكون هذا السبب. فبموجب الصك المرسومي تؤول الإمبراطورية إلى ابنته ماري تيريز، برغم أن الظروف المحيطة غير مؤاتية لتنفيذ ما جاء في الأوراق القديمة (الوصية).

على أثر ذلك تحرك فردريك الثاني[١٧] ملك بروسيا فاحتل سيسيليا. وقامت حركة مماثلة في فرنسا (اخوان بيل ــ ايل) تطالب باستعادة سياسة ريشيليو، ولويس الرابع عشر، بانتزاع العرش النمساوي، وتقطيع أوصال المملكة، وإضعاف قوة هذا العدو التقليدي لفرنسا. لكن رجل السلام الفرنسي فلوري رفض العرض، لأنه كان يعلم أن بريطانيا ستستغل الحرب في القارة الأوربية، لتشعلها في البحار البعيدة والمستعمرات. وبرغم ذلك تحالف ملك بروسيا مع ملك فرنسا، وتبنت إنكلترا مطالب ماري تيريز دبلوماسياً ومالياً ومن ثم عسكرياً، واشتركت الجيوش الإنكليزية في معركة ديتينجن Dittengen، وطردت فرنسا وراء نهر الرين.

جُرّتْ إسبانيا للحرب بعد أن حصلت على وعْد بإقامة مملكة بارم Parme للولد الثالث من أولاد فيليب الخامس، وكان قد سبقه الولد الثاني دون كارلوس، وتوج ملكاً عام (١٧٣٣) على نابولي وصقلية.

خرج الأسطول الإسباني عام (١٧٤٢) بقيادة دون جوزيه نافارو إلى المتوسط، لكن ظهور الأسطول الإنكليزي بإمرة ماتيو Mathew جعله يتخلى عن مهمته، ويعود أدراجه ليلجأ إلى مرسى طولون.

أقام دون جوزيه مايقرب من (٢٢) شهراً لا يجسر على الخروج لأن أعداءه الإنكليز ينتظرونه في مرسى جزر هيير (على مقربة من طولون)، وهم سادة المنطقة. حتى إنهم استطاعوا إحراق القوادس (السجانات) الإسبانية التي لجأت إلى مرسى سان تروبيز. وظل الموقف جامداً حتى تلقى الأميرال كور لابرير الفرنسي Court La Bruyère في شباط (١٧٤٤) الأوامر بالخروج برفقة التشكيل الإسباني والتصدي للتشكيل الإنكليزي، ثم الوصول حتى السواحل الإيطالية، ودعم الجيوش البرية هناك، وكان ذلك يعني معركة بحرية مداهمة ولا شك.

جاءت قوات الخصمين متقاربة العدد والعدة، إذ امتلكت إنكلترا (٢٩) سفينة عليها (١٢٤٤) مدفعاً، في حين كانت قوة الحليفتين (١٥) سفينة فرنسية و (١٢) سفينة إسبانية عليها مجتمعة (١٧٣٤) مدفعاً.

وتم التماس في ٢٢ شباط وعلى عدة أميال من رأس سيسيه[١٨] Sicié وكان تصرّف ماتيو الإنكليزي لا يوحي بجدية في القتال. فقد لزم موقعاً في الريح ينتظر مرور التشكيل الحليف. وفي نهاية المرور انقض القائد الإنكليزي على سفن نافارو السائرة في المؤخرة، وأعمل فيها قذائف مدافعه فأصيبت السفن الإسبانية إصابات خطيرة.. إلا أن تلكؤ القائد الثاني الإنكليزي في دعم خطة رئيسه ماتيو (القائد الثاني على خلاف مذهبي وحزبي مع رئيسه) أعطى الفرصة الكافية لحليف نافارو لابرير والموجود على رأس التشكيل بالدوران الكامل، والعودة لمساندة حليفه الإسباني. وبالفعل قام القائد الفرنسي بمناورة جميلة وجاء في ريح الإسبان يحجبها عن التشكيل الإنكليزي وكاد يطوق ماتيو بعد أن عزله عزلاً كاملاً عن قائده الثاني ليستوك Lestock، وبذلك منح الإسبان فرصة للانسحاب البطيء، نظراً للإصابات العديدة التي أصابت سفنهم. واضطر لابرير إلى التسلل بين سفن الإنكليز وسفن الإسبان، ليمنع عن حلفائه كارثة محققة، وليعطيهم الغطاء الكامل في أثناء تراجعهم البطيء.

تعادلت الخسائر بين الطرفين المتحاربين، بعد أن كانت في البدء عالية لدى الإسبان. وجاءت بمعدل (٧٠٠) إلى (٨٠٠) قتيل لكل جانب. وغرقت سفينة إسبانية، وأعطبت عدة سفن إسبانية وإنكليزية، انتهت المعركة، وفضل المتحاربون الاكتفاء بما تم، وانسحب الإنكليز إلى جبل طارق في حين تخلى الحليفان عن مهمة دعم القوات البرية على الجبهة الإيطالية، وتوجها بسفنهما إلى مرسى اليكانت Alicante على الساحل الإسباني.

أودت هذه المعركة الغامضة بمستقبل القائد الإنكليزي ماتيو، والقائد الفرنسي لابرير، في حين أنعمت إسبانيا على نافارو بوسام الشرف والتقدير، وهو الذي كان أساس المشكلة.

عاد التشكيل الفرنسي إلى طولون من جديد، وعادت القوة الإنكليزية لتحاصره هناك وهي تتفوق عليه عدداً وقوة. واستمر الموقف جامداً حتى ١٣ تشرين الأول، وهو تاريخ توقيع معاهدة فونتينبلو بين إسبانيا وفرنسا. وفيها تعهدت الأخيرة لحليفتها بمساعدتها في استرجاع مينوركا وجبل طارق من الإنكليز.. وهذا يعني إعلان حرب فعلية على إنكلترا حيث تم ذلك في ١٥ آذار.. وابتدأت العمليات الحربية الفعلية.

معركة المواصلات

تميزت حروب هذا القرن بصفات استعمارية اختلفت عن حروب القرن الذي سبقه، فمثلاً اشتباكات بحر الآنتيل كانت من أجل تأمين المواد الحياتية (الطحين)، إذ كان لا بد من تموين الجزر بالقوافل البحرية. وكان لا بد من نقل المنتجات المحلية إلى أوربة، وكل هذا يتم عن طريق القوافل المحروسة، ضمن سيادة بحرية كافية. ويمكن تسمية تلك الاشتباكات بالحروب التجارية الهادفة، ولم تتصف بالشراسة إلا بعد عام (١٧٥٦).

في أمريكا الشمالية كانت آكاديا المشكلة المستعصية القديمة عام (١٧١٤) التي لا يمكن حلها إلا بتدخل الدول الأصلية (إنكلترا، فرنسا، هولندا، إسبانيا)، أي بمعنى اللجوء إلى الحل البحري.. وكانت التساؤلات كثيرة.. هل يقبل المزارعون المهاجرون، وغالبيتهم من فرنسا، الانحلال ضمن المستعمرات البريطانية؟ وهل ستمنحهم إنكلترا حكماً ذاتياً (معاهدة أوترخت)؟ وما هي حدود هذه الآكاديا ذات الحكم الذاتي إن صدق الحدس؟ هل ستضم كل المناطق الشمالية القريبة من إنكلترا الجديدة حتى خليج سان لوران؟

تساؤلات عديدة، وعقد شائكة ظلت تتفاعل سنين عديدة، والكل يعلم أن مشكلة هذه المنطقة لن تحل إلا باستخدام القوة وهذا ما تم فعله عام (١٧٥٥).

ففي عام (١٧٤٥) حلت كارثة بتشكيل دوق آنفيل الفرنسي وأسطوله الذي فتك به الوباء والجوع، وعاد بالبقية الباقية من سفنه القائد جونكيير Jonquère إلى فرنسا في عام (١٧٤٦). وأعاد جونكيير الكـرَّة فاصطدم عند رأس أورتيغال Ortegal بالأميرال آنسون Anson. وكان القائد الفرنسي بمهمة مواكبة قافلة تموين، وهو على رأس قوة بحرية من (١٢) سفينة حربية، (٤) منها

حديثة الصنع، وعليها جميعها (٤٣٦) مدفعاً. أما آنسون الإنكليزي فكان على رأس (١٤) سفينه حربية ضمت (٩٤٤) مدفعاً.. وإثر التماس تفرق شمل الفرنسيين، ولم يبق مع جونكيير إلا النذر اليسير، سقطوا معه، إما قتلى أو أسرى. واستطاعت (١٦) سفينة تجارية من أصل (٤٠) سفينة قوام القافلة الوصول إلى مقصدها، لكن وادي سان لوران الفرنسي كلّه أصبح مهدداً من قبل الإنكليز.

في الآنتيل اصطدم أسيطل فرنسي بأسيطل هاووك(١٩) Hawke الإنكليزي أو بالأحرى (٥٥٠) مدفعاً فرنسياً مقابل (٨٨٠) مدفعاً بريطانياً في عام (١٧٤٧). وتجدر الإشارة إلى المناورة الجميلة التي قام بها القائد الإنكليزي في قتاله، إذ هاجم ذيل التشكيل الفرنسي من المؤخرة، وأوقعه بين نيران سفنه من كلا الجانبين، فاضطرت السفن الفرنسية المطوقة إلى القتال على المجنبتين، وتم الاشتباك بسرعة، وقبل أن تستطع سفن مقدمة التشكيل الفرنسي اللحاق بالمعركة. لكن القائد اتانديير Etanduère استبسل كسابقه جونكيير، وأنقذ القافلة التي يواكبها، وظل يقاتل السفن الإنكليزية تسع ساعات متواصلة، حتى سقطت ست سفن من سفنه في أيدي الإنكليز، وبقيت سفينة تدافع حتى حلول الظلام، حيث حضرت الانتربيد وقطرتها من ساحة المعركة، ثم عادت سفن بقايا التشكيل إلى فرنسا.

سقطت لويز بورغ قاعدة العمليات الرئيسية في الملاحة المثلثية بين أوربة وجزر الآنتيل وأمريكا الشمالية، ومرفأ السفن الآتية من الهند الشرقية.. وعلى أثر ذلك بدأ تزايد الوجود الإنكليزي البحري في المنطقة، وحاول الإنكليز إجراء عدة محاولات إنزال بحرية في المستعمرات الفرنسية كإنزالهم على الساحل الجنوبي لسان دومينيغ مثلاً. وتنبهت إسبانيا للأخطار المتوقعة فجمعت قواها لتخوض معركة شهيرة خاضها القائد الإسباني ريجيو Regyio أمام هافانا، وأنقذ بها الأسطول الفضي، ثم هدد سواحل كوبا. إلا أن نصره كان عابراً أمام التفوق الكبير لقوات إنكلترا البحرية.

لم يستطع الحشد البحري البريطاني تجنيب القوافل الإنكليزية التجارية الهجمات العديدة وفقدان السفن والبضائع. وتأكد لبريطانيا أنه لا بد من سلام عام وطويل، خصوصاً بعد أن بدأت حروب أمريكا تنتقل لمواقع المتخاصمين في الهند، برغم الاتفاق الجنتلماني المعقود بين الحكام هناك، وبرغم ذلك كله لم يمتنع قادة البحر الإنكليز وبالذات بارنيه Barnet من الإغارة على قوافل فرنسا في سواحل سومطرة مما اضطر الحاكم الفرنسي لاستدعاء قوة بحرية كبيرة يقودها بوردونيه(٢٠) Bourdonnaïse لعمليات ثأر مماثلة.

حصل أول اشتباك بين تسع سفن بوردونيه عليها (٢٩٢) مدفعاً وست سفن بريطانية حديثة بإمرة بايتون Peyton عليها (٢٧٠) مدفعاً. وكان ذلك في ٦ تموز، عند موقع يدعى نيغا باتام[٢١] Nega Patam، قرب جزيرة سيلان. وعلى أثرها انسحب البريطانيون من المنطقة، وغدا خليج البنغال تحت سيادة فرنسا البحرية. فخلا الجو لقادة البحر، فراحو يهاجمون المؤسسات الإنكليزية في كل من مادراس[٢٢] Madras، حيث شب هناك خلاف حاد بين المستعمرين الإنكليز، وسكان البلاد الأصليين انافيردي خان Anaverdi-Khan. لكن إعصاراً قوياً ضرب سفن التشكيل الفرنسي فحطمها، وعاد قائدها إلى فرنسا يواجه تهماً صعبة ألصقت به.

خلا الجو لإنكلترا بعد رحيل التشكيل الفرنسي. ووقع الحاكم الفرنسي في أزمة سياسية حادة، خصوصاً بعد وصول تشكيل بحري بريطاني بإمرة بوسكاون Boscawen. وحوصرت فرنسا في بوند يشيري، حتى جاءها كيرسنت[٢٣] Kersaint على رأس قوة بحرية ففك عنها الحصار، ثم باشر بإعداد نفسه للقيام بهجوم مضاد (١٧٤٨)، إلا أن العمليات الحربية أوقفت بين الخصمين بعد توقيع معاهدة اكس لاشابيل.

نهاية الحرب

لم تأت حرب إنكلترا ــ فرنسا ــ إسبانيا بالآمال التي عقدت عليها، لكنها برهنت على أن السيادة البحرية هي لإنكلترا وحدها دون منازع. فخسارة البريطانيين خلال الأعوام الثمانية المنصرمة لم تتعد الـ (٩) سفن، في حين فقدت الحليفتان (٤٥) سفينة.

لم تحاول إنكلترا استغلال تفوقها البحري، وعجزت عن تقدير أوليات المعركة، ومن أين تبدؤها. فهل تركز عملياتها ضد إسبانيا وتدمر قوتها البحرية؟ خصوصاً وهذه الأخيرة تعيش دور شيخوخة إمبراطوريتها، ولا تستطيع الدفاع عن ممتلكاتها أم تهاجم فرنسا العدوة الأولى والمنازع الحقيقي لها والقوة الأكثر خطراً على البر الأوربي أو على بر العالم الجديد؟.

ترددت إنكلترا بين بعض مراحل فكرتها الأولى وبعض مراحل فكرتها الثانية، فجاءت نتائجها مضطربة، لكنها استطاعت برغم ذلك كله المحافظة على سيطرتها الكاملة على كامل خطوط المواصلات البحرية. وهذا اضطرها أحياناً لخوض بعض العمليات البحرية على شكل اشتباكات محلية، غرضها إبعاد خطر غزو بحري، أو كائن بحرية، أو إحراز مكاسب مادية عن طريق اعتراض خطوط مواصلات الآخرين. لكن ذلك كله كان يفتقد التصور والتخطيط، واحتمالات الفشل فيها

كبير . فنجت مستعمرات الحليفتين فرنسا وإسبانيا من مآسٍ متوقعة . وعلى كل فميزان المكاسب بين الفريقين المتحاربين لم يتجاوز الحدود المعقولة ، إذ استولت إنكلترا على (١٦٣٠) سفينة إسبانية و (٢١٨٥) سفينة فرنسية ، وبالمقابل استولت الحليفتان على (٣١٢٧) سفينة إنكليزية ، هذا في البحار البعيدة .. أما على البر الأوربي فكان الموقف العام إلى جانب الحليفتين ، برغم تردد فردريك البروسي ، وتخليه مرتين عن التزاماته الحِلْفية . وانتهت حرب ألمانيا دون أن تصل القوات المهاجمة حدود فرنسا . وفي إيطاليا حُلّت المشاكل بالاتفاق على سردينيا ، واستُعيدت المقاطعات في هولندا ، حتى حدود نهر الرين . وكانت رغبة لويس الخامس عشر هي السلام ، إذ طلب من ممثليه في مفاوضاتهم مع الإنكليز أن يتحلوا بصفات الملوك لا صفات التجار . وهكذا عاد السلام إلى ربوع أوربة من جديد .

حملت معاهدات السلام في طياتها العديد من البنود أهمها :

ــ خروج فرنسا من هولندا .

ــ إعادة إنكلترا لويز بورغ إلى فرنسا مقابل تخلي الأخيرة عن مادراس .

ــ حصول ابنة الملك لويس والتي تزوجت دون فيليب الإسباني على دوقية بارم Parme وبليزانس Plaisance .

وهكذا توقف الصراع العسكري ، ولو أنه ظل يتفاعل خفية ، لأن الحل العسكري لم يكن حازماً ، فلا غالب ولا مغلوب . ولم يبت بكثير من الأمور حتى حلول الأزمة التالية التي هي حرب السبع سنوات .

السياسة والحروب الاستعمارية (١٧٤٨ ــ ١٧٥٥)

إن الفترة الزمنية التي أعقبت صلح ايكس لاشابيل كانت برأي جميع المراقبين أفضل فترة سلام مزدهرة في أوربة ، انتعشت خلالها التجارة الخارجية لدى جميع الشعوب الممتدة بين ميناء بطرسبورج وحتى ميناء قادس . واتصفت تلك الفترة بالبذخ والترف ، بالإضافة إلى تطور في العلوم والمعرفة والفنون الجميلة ، من رسم ونحت ، وكانت صرعة الموسم . وعاشت كل دول أوربة عائلة واحدة يخيم على ربوعها التفاهم والثقة .. وتضاعفت أرقام التبادل التجاري ، وتدفقت الخيرات الآتية من المستعمرات ، وراحت مظاهر الترف تعم كل دول أوربة . وكان بإمكان إنكلترا وفرنسا إقامة التفاهم الكامل حول اقتسام المستعمرات في الهند وإفريقية والعالم الجديد إلا أن نار الحرب التي

خمدت في الظاهر ظلت تتفاعل تحت الرماد، تغذيها دوافع عنصرية ودينية .. ولم يكن السلام إلا هدنة بين حربين.

تخلت إنكلترا عن نظرتها السابقة لأمريكا الإسبانية، وتبنت أسلوباً جديداً يختلف عن أسلوب ممارساتها السابق والباهظ في التضحيات عام (١٧٠٠). لكن الفوائد المادية التي تجنى من المستعمرات بالأسلوب الجديد ستجعلها تصطدم دائماً بأطماع فرنسا. وكان التفكير المسيطر لدى حكام البلدين فرنسا وإنكلترا يخلص إلى أن الدولتين تسيران لشفا الحرب .. وبالفعل كانت الرؤى صائبة حيث انفجر القتال مجدداً عام (١٧٥٥).

كان في الهند حاكم فرنسي اسمه دوبليكس[٢٤] Dupliex وهو بالأصل تاجر، عالج أموره السياسية بقليل من الحنكة وبكثير من الجشع التجاري، لاعتقاده بأن التجارة في الهند من أغنى فروع التجارة العالمية، برغم العقبات السياسية الحادة. ولحماية المؤسسات كان لا بد لفرض السيادة على البلاد من الاعتماد على الأمراء المحليين النا باب Nababs حكام الأقاليم في الإمبراطورية المغولية الهندية.

وقرر دوبليكس اللجوء إلى أسلوب مختلط يعتمد على قوة المستعمرين الذاتية من جهة وعلى تحالف وطيد مع النا باب من جهة أخرى. إلا أن ذلك الأسلوب معناه اقتسام الثروات. وهذا يفرض تقلصاً في موارد المساهمين الأوربيين .. لذا جنح التفكير لدى المستعمرين من فرنسيين وإنكليز إلى إقامة إمبراطورية أوربية في أراضي الهند القوية والواسعة والصعبة الإخضاع.

لجأ المستعمرون إلى الأسلوب التقليدي، وهو زرع الفتنة بين الأمراء لاستنفاذ قدراتهم القتالية، ودبّ الفوضى في البلاد، وخلق المناخ اللازم للسيطرة. ومن هذا السبيل يعبر المستعمر دوماً فيقدم الخبراء العسكريين والمستشارين، والقادة لبعض المواقع، وينتهي الأمر بإقامة حلف أو معاهدة بين قوي أو ضعيف، ثم يبدأ الإشراف يتحكم ببعض المقاطعات، فيجمع الأرباح من عائدات وضرائب، ثم يقيم جيشاً وطنياً موالياً لحماية الحلف، سرعان ما يبتلع البلاد ويسودها. وهذه القوة تأتمر عادة بالحاكم الأبيض المستعمر، أو بالأمير المستضعف الذي خان قضية بلاده، فتستطيع تشتيت أية مقاومة محلية كما حصل في سان توم مثلاً (قوة من ٢٧٠ مقاتلاً فرنسياً مدججين بالسلاح هزموا عشرة آلاف هندوسي قليلي الخبرة والعتاد ..) والشواهد على ذلك كثيرة.

بعد تلك المرحلة تأتي مرحلة تجنيد الرجال المحليين في قوات الاحتلال السباهيين Cépayes.

وهكذا استطاع المستعمرون الأوربيون وفي ظروف ملائمة ومدروسة إمساك كامل خيوط مؤامرة استعمار القارة الهندية والسيطرة عليها.

حصلت مناوشات عديدة بين الفرنسيين وحلفائهم المحليين من جهة ، والإنكليز وحلفائهم المحليين أيضاً ، ودارت أكثرها حول بونديشيري وأطرافها ، فاستطاعت فرنسا في البداية دفع الإنكليز إلى الداخل ، واستعادت نفوذها في المنطقة . واستمرت الحروب بين مد وجزر حتى توقيع معاهدة مادراس عام (١٧٥٤) . وعلى أثر ذلك جمد الزحف الفرنسي وبدأت السيطرة الإنكليزية تتوسع وتكسب المزيد من الأرض .. هذا في الهند أما في أمريكا ، وبالذات أرخبيل جزر الآنتيل ، فبعض الجزر كانت تحت الاحتلال الإنكليزي وبعضها تحت السيطرة الفرنسية ، والمشكلة الجديدة هي في الجزر الحرة أو المحايدة التي لا زالت بأيدي أصحابها ، وتغري المستعمرين الجشعين في الانقضاض عليها .. أما في أمريكا الشمالية وبعد أن سيطرت إنكلترة على شريط الـ (١٣) إقليماً فقد حاصرت فرنسا بين كندا ولويزيانا عبر بحيرات المسيسيبي .

ولم تتوقف المناوشات بين إنكليز وفرنسيين طيلة فترة السلام الأوربي . وتمحور النزاع حول كسب ولاء القبائل المحلية الهندية . وكانت حرباً قذرة وصامتة ، تعتمد على الغدر والخيانة .. أما في أمريكا فقد استقدمت إنكلترا عام (١٧٥٥) قوة عسكرية بقيادة برادوك[٢٥] Braddock هاجمت بمساعدة الأمريكيين فرجينيا ، وتقدمت تطرد الكنديين والفرنسيين . واستطاع الفرنسيون بمعونة حلفائهم المحليين هزم حملة برادوك بهجوم معاكس شتّت قواته ، وانتهى بمقتل القائد الإنكليزي ، في حين استمر النزاع في آكاديا حول حدود المنطقة بين الأمريكيين والفرنسيين . ولم يحسم أمر الحدود إلا بعد أن هاجم جيش إنكليزي القوات الفرنسية المقيمة في الأرض المتنازع عليها ، وطردهم بقوة السلاح ، ثم جرد المقيمين الفرنسيين من أسلحتهم ، وتم نقلهم وكان عددهم يربو على عشرة آلاف شخص ، ونثرهم في جميع أطراف أمريكا الشمالية حتى لا تقوم لهم من بعد قائمة .

بدأت كفة الإنكليز ترجح في المنطقة خصوصاً بعد أن استطاع بوسكاون[٢٦] Boscawen اعتراض السفن الفرنسية التي أتت لتدعم أطراف آكاديا ، ومن ثم تدميرها أو الاستيلاء عليها .

تكررت حوادث قنص السفن في كل مكان وفي كل البحار . ولقد نجح بوسكاون وهاووك بإيقاف العديد من السفن الفرنسية في الأطلسي خصوصاً في مشارف الأرض الجديدة . واستطاعوا أسر (٣٠٠) سفينة تجارية قيمتها (٣٠) مليوناً من الفرنكات الذهبية ، وعليها ستة آلاف بحار انضم بعضهم فيما بعد للعمل ضمن طواقم السفن الإنكليزية .. واستمرت الاشتباكات الصغيرة تتوالى حتى إعلان الحرب الفعلي بين الدولتين المتنازعتين في ١٦ حزيران (١٧٥٦) .

مواقف دول أوربة قبل حرب السنوات السبع

سادت كل دول أوربة أوضاع غريبة ومعقدة تتلخص بالمواقف التالية :

ــ لا ترغب كل من إسبانيا وهولندا الاشتراك بأية مغامرة عسكرية جديدة .

ــ تخلى عن إنكلترا حلفاؤها في الشمال ، وبعد أن أصبحت شبه معزولة أخذت تتقرب من روسيا ، وتقيم معها علاقات وطيدة .

ــ تخشى بروسيا ويخشى مليكها فردريك الثاني تهديد النمسا ومحاولة استعادة إقليم سيليزيا منها . وتخلت فرنسا عند دعمها لفردريك على أثر خيانات عدة ، فاضطر للجوء والانحياز إلى جانب إنكلترا ، يطلب ودها برغم كرهه الشديد لجورج الثاني (ابن عمه) (اتفاقية وايت هول ١٦ كانون الثاني ١٧٥٦) .

ــ تقف ألمانيا الشمالية على الحياد ولكن إمبراطورة النمسا ووزيرها كونيشز يطمحان إلى صداقة فرنسا للثأر سوياً من أسرة هوهانز لورين[٢٧] Hohenzollern عن طريق استخدام مدام بومبادور[٢٨] ورجلها بيرني[٢٩] Bernis .. وهكذا أصبحت فرنسا عدوة الأمس حليفة للنمسا ، وأصبحت بروسيا عدوة الأمس حليفة لإنكلترا . ودون سابق إشعار انضمت روسيا إلى حلف النمسا ــ فرنسا برغم محاولات التقرب الإنكليزية منها .

بدأت شرارة الحرب الأوربية بزحف فردريك الثاني آب (١٧٥٥) دون إعلان للحرب وهجومه على مقاطعة الساكس وتغلغله فيها ، فتصدت له جيوش لويس الخامس عشر وجيوش الإمبراطورة ماري تيريز ، وبذلك بدأت حرب القارة الأوربية المصير الذي خططت له إنكلترا وشجعته .

وفي الأول من مايس عام (١٧٥٧) وقّع بيرني الاتفاقية الثانية لفرساي والتي تتعلق بألمانيا ، وكان ذلك بمثابة إعلان رسمي بالتخلي عن البحار والمستعمرات ، مجال نشاط إنكلترا ومقصدها .

الفصـــل الثـالـث

حـرب السنـوات السبـع

إن الحقبة التي تلت عام (١٧٤٠) أتت صعبة بالنسبة لإنكلترا بالذات، نتيجة الإخفاقات البحرية الكبرى التي ولدت لدى الشعب الإنكليزي شعوراً بالمرارة وخيبة الأمل، وجعلته يهب مطالباً حكامه بإعادة بناء سلاح البحرية الإنكليزي على أسس جديدة، وبعقلية متطورة. حتى أصبح مطلبه هذا حاجة قومية ملحة، عمل رجال الحكم المتعاقبون على تحقيقها، وعلى رأسهم اللورد ساندويش (٣٠) والأميرال آنسون. وبالفعل أعيد تشكيل هذا السلاح بأسس حديثة، وارتفع عدد سفنه عام (١٧٥٦) إلى (٣٢٠) سفينة حربية، منها (١١٢) بارجة حديثة.. ثم تناولت الإصلاحات جسم ضباط البحر، وأعيد تشكيلهم، ونحي الفاسد منهم. ولما انتهى إعدادهم طلب إليهم تطويع عناصر بحرية جديدة، والاستغناء عن المشاغبين والفاسدين.

اتصف نظام التطويع الجديد باحترام قواعد تعتمد على الكفاءة والمقدرة وحسن السلوك. وأُقِرَ قانون صارم للعقوبات (بنود الحرب) عام (١٧٤٩) الذي استمر العمل به حتى عام (١٨٦٥). ومن بعض مواد هذا القانون حرمان البحارة والعاملين في البحر من حق التقاضي، وأصبح حكم الإعدام يطول كل فاسد في السلاح حتى أمراء البحر فيهم.

أما إدارة سلاح البحرية الملكية البريطانية فقد سيطرت عليه اللجنة الداخلية Inner Committee التي كان من حقها وحدها إدارة الأقسام والتنسيق فيما بينها، ووضع خطط

العمليات، وإدارتها، بترابط منطقي حاذق. وهذا ما نهض بمستوى سلاح البحر، فأصبح يمتلىء حيوية لم يعرفها من قبل.

هذا في إنكلترا وأما في فرنسا فالارتقاء بسلاح البحر جاء وئيداً لأنه يحتاج إلى مزيد من الجهد وكثير من التضحية. فسلاح بحر فرنسا كما تنبأ له فولتير بقوله «ستنكمش هذه البحرية حتى تغدو بارجة واحدة»، وهذا القول الذي تردد بمعناه على شفاه الكثيرين من رجال الحكم سببه الفوضى والاستهتار اللتان ميزتا هذا السلاح. فالحالة سيئة ومحزنة، وفرنسا لا تملك إلا ثلاثين سفينة فقط في كل البحار.. وتوالت طروح الأفكار التي من شأنها النهوض بسلاح البحر، لكن الأفكار لا تكفي وحدها بل تفتقر للأموال الضرورية.. وهذا ما كانت بحاجة إليه برامج الإعمار البحري.. حاول موروبا الذي مر ذكره تنفيذ خطة عملية في تطوير سلاح البحرية الفرنسي، وعمل ضمن الإمكانات المالية المتوفرة له، ثم تابع خطواته رجلان تعاقبا على شؤون هذا السلاح من بعده فاستطاعا النهوض به من كبوته حتى بلغا به درجة معقولة من الكمال. فبلغت البوارج التي أعدها أسطول فرنسا عام (١٧٥٦) (٦٣) بارجة.. لكن العيوب الأخرى ظلت على حالها دون أن تطالها خطط التطوير والإصلاح. فالبحارة مضطهدون، ونادراً ما يكافؤون، يسعون للهرب من السلاح في أول فرصة تتاح لهم لسوء المعاملة. وكانوا يعادون إلى سفنهم وهم مقيدون بالسلاسل.. أما الضباط فعلى نوعيات متباينة من المنحدر الاجتماعي الذي أتوا منه. وكانت بينهم حرب معلنة لا تتوقف، وإن توقفت فهي مستمرة مع إداراتهم البحرية ورؤسائهم في السلاح، فضباط الاحتياط مثلاً وهم من يطلق عليهم اسم الضباط الزرق وصلوا إلى مراتبهم في السلاح لنبل منشئهم، فهم ينحدرون من أسر البلاط والأشراف الخ.. ولقد انتسبوا إلى السلاح خلال الحرب لنقص في الملاكات لكنهم اختاروا مناصبهم بأنفسهم متخطين التسلسل العسكري، وعامل القِدَم. فكانوا فئة مكروهة من رجال السلاح الأصليين ضباطاً وبحارة، وكانوا بالفعل مصدر القلاقل والاضطرابات الحادة لا يتوانون عن ارتكاب أكبر الحماقات حتى بحضور الأعداء وبظروف المعركة.. أما الضباط الحمر أو الذين تعودنا تسميتهم بالنظاميين فهم الذين تدرجوا في السلاح، لكنهم للأسف لم يكونوا أفضل حال من الزرق فهم خليط عجيب من جميع الطبقات، فيهم القرصان والسيد، ولم تتح لهم الفرص الكافية لإعدادهم مهنياً وأغلبهم يعمل على البر لقلة السفن الحربية (في عام ١٧٥٥ كان لدى فرنسا ٧٠٠ ضابط بحري يعمل على البر من أصل ٩٠٠) **والضابط البحري مكانه البحر، وعمله على البر يضعف من إمكاناته المهنية، ويفقده بذلك ثقته بنفسه، كما أنه لا يوحي بالثقة لرؤسائه وإداراته. وعندما يخوض المعركة يخوضها بتهيب كبير تنقصه الخبرة، مثلما نقصت عنه السفن.**

أما إدارة البحرية فلقلة ما امتلكته من سفن، ولضغط الطواقم البحرية كانت تسعى دوماً إلى المحافظة على سفنها باتباع سبل حريصة في المعركة، تدعو أحياناً لحيرة المقاتلين، واستنكارهم. كل هذا كان يجري مقابل خصم عنيد، عتاده جديد وطواقمه شابة تضج بالحيوية والإقدام هو سلاح بحر إنكلترا.

حملة مينوركا

ابتدأت الحرب بتظاهرة براقة في شكلها العام، الغرض منها إعادة الاعتبار لسلاح البحرية الفرنسي، بعد الهزيمة النكراء التي أصابته أمام الأميرالين الإنكليزيين بوسكاون وآنسون، قرب فينيسيتر (بريتانيا).. واقترح ماريشال بيل إيل اجتياح إنكلترا بقوات إنزال عديدة، تتجمع في النورماندي، مع تحويل أنظار الإنكليز عن العملية الكبيرة المراد تحقيقها، بعملية ثانوية تتم في مرفأ ماهون في المتوسط، لتبعد القوات البحرية الإنكليزية الرئيسية عن مسرح الإنزال.

وصلت لأسماع قادة إنكلترا تفاصيل العملية المرتقبة التي تعدها فرنسا عن طريق أصدقائها المحايدين (السويد وهولندا).. فاضطرت فرنسا للتخلي عن خطتها، بعد انكشاف أمرها، واكتفت بتنفيذ عملية الإلهاء المتوسطية فقط.

وبظروف سرية للغاية أبحر (١٢) ألف مقاتل فرنسي من طولون على متن (٢٠٠) سفينة نقل، تحرسها سفن أسطول غاليسونيير[٣١] Galissonniére ١٨ نيسان (١٧٥٦)، وفاجأوا عدوهم الإنكليزي في جزيرة مينوركا المحتلة. وعلى أثر الأنباء أبحر القائد الإنكليزي بينغ[٣٢] Byng من بورتموث، في ١٨ مايس، لنجدة الإنكليز وقتال الفرنسيين المغيرين.

تساوت تقريباً القوات المتقاتلة فكانت (١٢) بارجة فرنسية مقابل (١٣) بارجة إنكليزية، إلا أن الأميرال بينغ لزم في قتاله جانب الحذر بعد ما جرى لسابقه الأميرال ماتيو، خصوصاً وأن قانون العقوبات الجديد يطول الجميع دون استثناء. وكان حريصاً في عدم الوقوع بأية خطيئة تعرضه للمثول أمام القضاء. ومما زاد في سوء طالعه تعطل إحدى بوارجه المهاجمة، وهي تحت الريح. فأفسدت تشكيله وأعاقت مناورته القتالية. وكان يجدر بالقائد الفرنسي استغلال تلك الفرصة السانحة، لكنه اكتفى بمعركة بالمدافع استمرت طيلة النهار. وفي المساء اكتفى الطرفان بما حققاه. وجاء اليوم الثاني هادئاً، إذ انسحب بينغ بقوته إلى جبل طارق، بعد أن لمس عدم قدرته على تغطية الجزيرة والحامية فيها.

أما الأميرال الفرنسي فقد اعتبر أن مهمته قد تحققت خصوصاً والتعليمات الصادرة له تؤكد المحافظة على القوات سليمة .. وهكذا انتهت معركة مينوركا بسقوط قلعة سان فيليب في أيدي الفرنسيين . ولم تنفع تشكيلة هاووك الإنكليزية ، والمؤلفة من (٢١) بارجة ، والتي جاءت في شهر تموز لنجدة بينغ ، إذ وجدت السلف قد أصبح في جبل طارق ، والجزيرة بين أيدي الفرنسيين ، فانسحب عائداً ، وعادت القوات الفرنسية من جانبها إلى طولون .

تصور الفرنسيون في العاصمة باريس أن سقوط مينوركا قد محا كل آثار الكوارث البحرية التي وقعت لهم في خصامهم مع الإنكليز ، ودعموا هذا التصور باحتلال جزيرة كورسيكا ، لصالح دولة البندقية . وبدؤوا يستنشقون بعض الحرية في المتوسط بالذات ، لكن الإنكليز وقفوا لهم بالمرصاد ، إذ لا يمكنهم التخلي عن سيادة البحار ، حتى المتوسط منها . لأن الجبهات البحرية مكملة للجبهات البرية ، وللحروب الدائرة في البر الأوربي .. وما كان من إنكلترا إلا إرسال أسطول مناسب يقيم في جبل طارق بصورة دائمة ، فيمسك بمدخل المتوسط ، ويحد من نشاط الفرنسيين ، ويمنعهم من الشطط والمغالاة في تقدير مركزهم هناك .. كانت هذه القوة المقيمة في جبل طارق بالحجم الذي سمح لإنكلترا بتسيير الدوريات على طول الساحل الفرنسي الجنوبي من البروفانس ، ولتؤكد لفرنسا دوام سيادة إنكلترا على البحار وحتى قرب شواطئها وخلجانها .

على كل حال ظلت انتصارات فرنسا عابرة لا جذور لها ، سرعان ما ضاعت آثارها بموجب اتفاقيات الهدنة .

بيت[٣٣] في وزارة بريطانيا

جاءت معركة مينوركا صدمة للإنكليز ، وفتشوا عن مذنب يعاقبونه فوجدوه في شخص بينغ القائد البحري للحملة . ولم تشفع له شجاعته وسيرته ، وقدم لمحكمة عرفية ، قضت عليه بالإعدام رمياً بالرصاص .

لم تكن فرنسا في موقف يجعلها تستغل الفرص ، بعد أن تبين لها أن هناك جديداً سيحدث في سياسة إنكلترا ، وفي آليتها الحكومية . فقدوم بيت Pitt إلى وزارة الحربية ، وسيطرته على سياسة المملكة البريطانية جعلتاه يقودها نحو الخلاص ، ويرفع عنها التوتر الذي أصابها ، ويبر بوعده ، فيدمر قوة فرنسا البحرية ، يعاونه في مهمته رجال أكفاء أمثال آنسون في سلاح البحر ، وهوغينو[٣٤] البروتستانتي الفرنسي الأصل Huguenot في القوات البرية .

أعد بيت Pitt لخطته مائة ألف مقاتل برّي، وستين ألف بحار، و (٤٠٠) سفينة حربية من مختلف الأنواع. وتبنى عقيدة جديدة هي الاستيلاء على أمريكا عن طريق تحريك جبهة ألمانيا. وكان يعتقد أن هذه الحرب هي حرب أمريكا، وبصورة أشمل حرب السيادة والاستقلال للعالم الجديد، (ويعني بذلك أمريكا الشمالية)، بعد تذليل نقاط الخلاف الرئيسية، ثم بذل الجهود لتحقيق أطماع إنكلترا في أمريكا، وتطبيق برنامج بيت الاستعماري هناك.

كان على رئيس وزراء بريطانيا إشغال فرنسا لمنعها من التدخل في إفساد خططه التوسعية. ووجد أن أفضل ساحة يشغلها فيها هي الساحة الأوربية، وبالذات المسرح الألماني. لأن مسرح المتوسط عزل كلية بعد الأحداث الأخيرة فيه، ووجد أن عمليات الجيوش البروسية والهانوفرية والإنكليزية ستغطي قسماً كبيراً من العمليات التي تحتاجها القوات الانكلو أمريكية، وتساهم مساهمة غير مباشرة في السير نحو طريق النصر. إلا أن مهمات هذه القوات المحتشدة في أوربة ليست بالسهلة، خصوصاً وعليها قتال جيوش فرنسا وروسيا والنمسا، وبعض وحدات من جيوش السويد. لذلك كانت تعليمات بيت تقضي بتفادي كل قتال رئيسي، وبحشود كبيرة، والاكتفاء بالمشاغلة بعمليات جانبية مدروسة، تخفف من ضغط الجبهات الأخرى، وتبلبل استعدادات العدو. فكانت عملات البلطيق، وعمليات البحر الأسود، مع بضع عمليات محدودة على الشاطىء الفرنسي نفسه.

لعبت التشكيلات البحرية الإنكليزية في تلك الظروف دوراً كبيراً وفعالاً فبالإضافة إلى مهام تأمين السلامة العامة، وأعني سلامة الشواطىء الإنكليزية كُلِّفت بمهام تأمين خطوط المواصلات البحرية التي تخص جبهات عبر البحار، وفي جميع أطراف العالم المطروقة آنذاك، مع إبطال كل نشاط تعبويّ لأسطول فرنسا (وهي القوة البحرية الأكثر تهديداً له). وكان على الأسطول الإنكليزي تحجيم التشكيلات الفرنسية المنجزة، وشل حركاتها بإجراء إغارات مفاجئة على السواحل الفرنسية، لإرباك التشكيلات البحرية الفرنسية المقيمة، وإضعاف معنويات المدافعين، وإجبار تشكيلات البحار البعيدة على إهمال مهامها، والعودة لمياه فرنسا. وبذلك فرضت إنكلترا على فرنسا، وعلى قواتها البحرية بالذات التزام القتال الدفاعي على سواحل فرنسا فقط، وبالتالي إهمال كل العمليات خارج الشواطىء الفرنسية.

حقق بيت لأسطول بلاده الحرية الكاملة للعمل في جميع المحيطات. وتلازم هذا الإنجاز

الكبير مع العقلية الجديدة التي سيطرت على رؤوس أمراء بحر إنكلترا، معتبرين بمصير زميلهم بينغ، فوعوا أن زمن التردد والمراوغة والتهريج قد انطوى بانطواء حرب وراثة عرش النمسا.

بدأت العمليات الحربية تتسع طبقاً لمخطط مدروس، وعملاً بالشعار السائد آنذاك، وهو: **حققوا لإنكلترا حدوداً تبدأ عند سواحل أعدائها**. وعلى هذا المفهوم كمن الأسطول الإنكليزي الكبير على مسافة غير بعيدة من مياه فرنسا الإقليمية، وبين تورباي وستبهيد جاهزاً للهجوم، ومانعاً كل خروج للتشكيلات البحرية الفرنسية. كما كان أسطول المتوسط من قبل في جبل طارق يقف على أهبة الاستعداد لشلِّ أو تدمير أسطول فرنسا القابع في ميناء طولون.

احتفظت إنكلترا بكامل حرية عملها مستخدمة كل القوى التي بحوزتها في السيطرة على مستعمراتها، ومستعمرات الدول الأخرى، في حين كان موقف فرنسا البحري متردياً حتى درجة الخزي. وجاءت معاهدة فرساي الثانية لتزيد من مآسي فرنسا ومصاعبها، خصوصاً وقد تغلب على رئاسة الوزراء ووزارة الحرب رجال غير أكفاء، دمروا المجتمع الفرنسي، وأحالوه إلى شعب يائس غير مبال بما يدور في وطنه، ونقلوه إلى موقع المتفرج، حتى أصبح الملك فردريك الثاني عدو فرنسا التقليدي أكثر شعبية من ملك فرنسا نفسه.

كان سلاح بحر فرنسا عاجزاً وغائباً. ففي المتوسط أرسل تشكيل كلو Clue إلى أرخبيل الآنتيل للتعزيز، لكنه لم يتجاوز قرطاجة.. فأوعز لتشكيل دوكينز لدعمه، لكنه هوجم أمام قرطاجة، فلم يصمد، ولم يدافع حتى عن نفسه. وتشتت السفن الفرنسية، وغدت شواطىء فرنسا الجنوبية مباحة لسلاح بحر إنكلترا، يعبث في موانئها دون رادع.

بالنسبة للأطلسي بقي أسطول الماركيز دو كونغلان(٣٥) محجوزاً في مرسى برست طيلة ثلاث سنوات، لا يجرؤ على الخروج لقلة طواقمه، ولضعف استعداده، ولفقده الرغبة في المواجهة. وهذا ما أفسح المجال للقوات البحرية الإنكليزية للاستفراد بشواطىء فرنسا الغربية والشمالية، والإغارة على مرافئها ومدنها، كما فعل ماربورو في ٥ حزيران، حيث نزل على رأس (١٥) ألف جندي بريطاني في كانكال، وأقام خمسة أيام هناك، أشاع الخراب والحرائق في كل مكان، ودمر (٨٠) سفينة فرنسية رابضة في أحواض سان سيرفان. ونزل بلاي Pligh مرتين، الأولى في شربورغ، دون أن يصادف أية مقاومة، وأقام من ٨ إلى ١٧ آب، ودمر كافة منشآت المرفأ، والثانية في سان برياك Saint Briac في ٣ ايلول، ووصل حتى مشارف مدينة سان مالو.

الحرب في المستعمرات

في الحقيقة كان القتال الرئيسي بين الدولتين المستعمرتين يدور معظمه في المستعمرات. ففي الهند ساء موقف فرنسا كثيراً، خاصة في إقليم البنغال، بعد أن أقام كلايف Clive مجداً لإنكلترا، إثر نصره في معركة بلاسيه Plassey. وأضاعت فرنسا شاندرناغور.

حاولت فرنسا استعادة بعض المواقع بإرسال قوة برية كبيرة يحميها تشكيل بحري، يقوده آشيه D'Aché. لكن التدخل جاء متأخراً، إذ استغرق وصول القوة البحرية عاماً كاملاً، كما وقع خلاف حاد بين القائد البري والقائد البحري، كما سنرى ذلك مستقبلاً.

انسحب الأميرال الإنكليزي بوكوك Pocock إثر اشتباكين متعاقبين مع قوة آشيه، وخلت الساحة البحرية لفرنسا، فتمكنت من استعاضة بعض المواقع، إلا أن آشيه رفض الاستمرار، ورفض معاونة القائد البري في حصاره لمادراس، خوفاً من تعرضه لهجوم مفاجىء يأتيه من عرض البحر، كما أن اقتراب موسم الموسون (الرياح الموسمية) حتّم عليه الابتعاد عن الشواطىء، فقرر الانسحاب والالتجاء إلى جزيرة فرنسا، في شهر ايلول (١٧٥٨)، حيث بقي هناك عاماً كاملاً. وعند خروجه تعرض لإعصار شديد حطّم العديد من سفنه. وقرر العودة بالباقي إلى فرنسا، في حين التجأ القائد الإنكليزي بوكوك إلى بومباي طيلة فترة العواصف. وبعد انسحاب أسطول فرنسا خلا له الجو ثانية، فعاد يفرض سيادته على الشواطىء الهندية مبتدءاً برفع الحصار عن مادراس ومساندة القوات الإنكليزية البرية، في استعاضة المواقع المحتلة من قبل الفرنسيين.

انهارت مقاومة فرنسا للأسباب التي ذكرت، ولسوء إدارة الحاكم لالي Lally. فعلى الرغم من كونه قائداً شجاعاً لم يستطع إدارة البلاد. واستاء منه الجميع، المقيمون والأمراء المحليون على السواء. ووصلت الفوضى إلى العديد من وحداته العسكرية، فاضطر أمام الإمدادات الإنكليزية الضخمة إلى التراجع حتى مدينة بونديشيري، وقاوم فيها عاماً كاملاً وحتى سقوطها.

استغل الخونة وقطاع الطرق سقوط المدينة فثاروا على حاكمهم، واعتبروه مسؤولاً عن كل ما حدث. وحوكم صورياً، واتهم بالاختلاس والخيانة، وسيق إلى المقصلة في ٨ مايس (١٧٦٦).

بعد سقوط بونديشيري سقطت مدينة ماهيه، واستسلمت حاميتها المدافعة عنها. ولم يبق في الهند يقاوم الإنكليز إلا شرازم صغيرة من الرحالة المغامرين، يحاربون إلى جانب الأسخى في عطائه،

وظلوا يقاتلون تارة في خدمة المقيمين ، وتارة في خدمة الأمراء المحليين حتى استهلكوا . ولجأ بعضهم إلى البحر يسلكون حياة القرصنة كـ ايستانغ[٣٦] Estaing الذي استولى على سفينتين في جزيرة فرنسا ، يغير بهما تارة في الخليج الغربي وتارة في سومطرة .. وهكذا انتقلت ملكية الهند بكاملها لقبضة الإنكليز المستعمرين .

كـنـدا

لم يتوقف الإنكليز لحظة عن إرسال التعزيزات العسكرية إلى أمريكا ففي عام (١٧٥٧) أرسلوا (١٦) بارجة و (١٢) ألف مقاتل ، وعام (١٧٥٨) أرسلوا (٤٠) بارجة و (١٤) ألف مقاتل . ولما استكملوا استعدادهم هاجموا كندا من محاور ثلاث ، الأول من مصب نهر سان لوران ، والثاني من شواطىء بحيرة شاميلان ، والثالث من البحيرات الكبرى ، وقد توافق ذلك مع انتشار مرض التيفوس في الأسطول الفرنسي المقيم هناك .

وكانت حصيلة هذا المرض الفتاك مقتل (١٥) ألف مقاتل فرنسي من المدافعين والمقيمين ورجال الأسطول ، واضطرت السفن للعودة إلى فرنسا حيث نقلت معها المرض إلى مدينة برست .

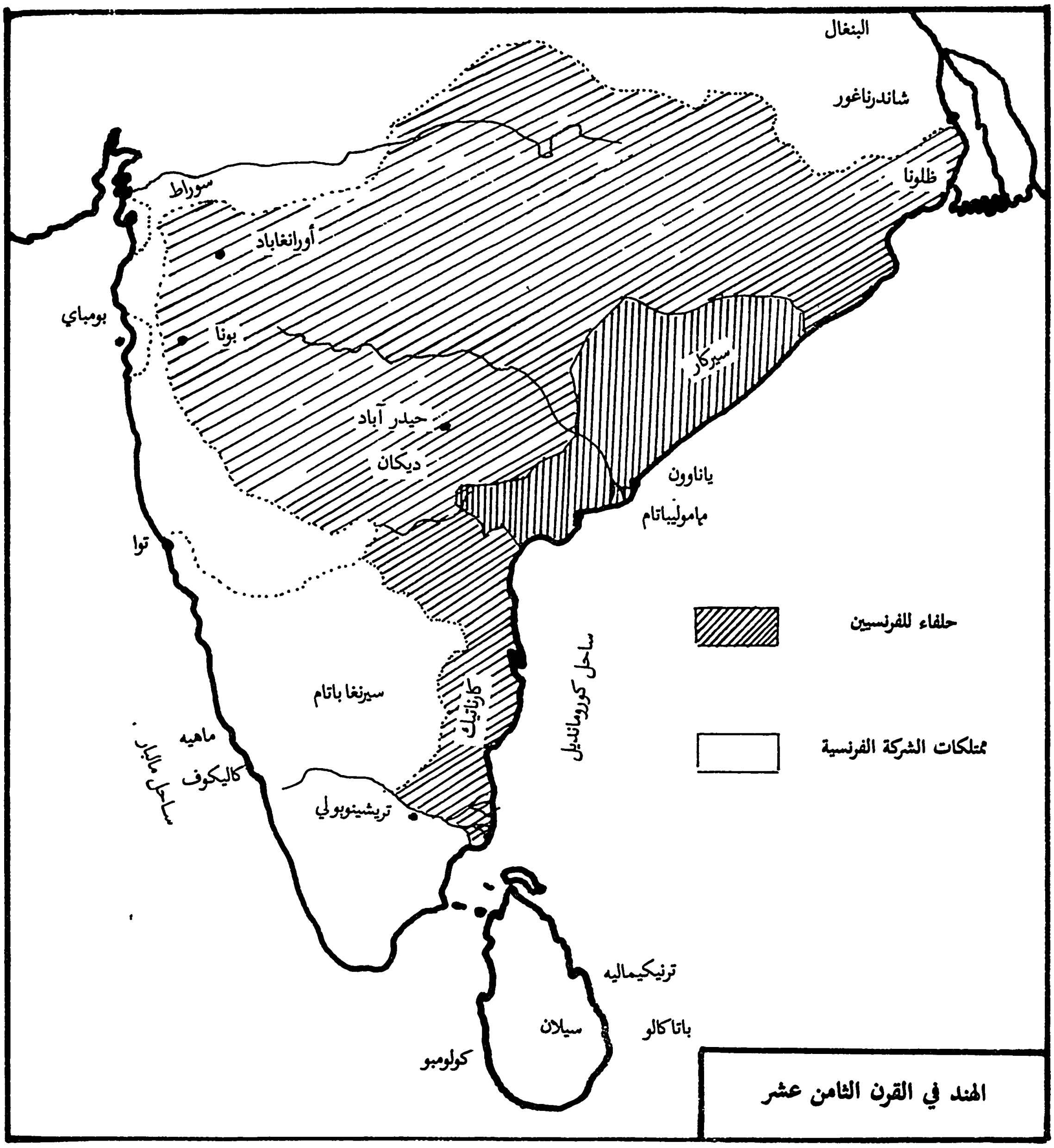
البنغال
شاندرناغور
ظلونا
سوراط
أورانغاباد
بومباي
بونا
سيركار
حيدر آباد
ديكان
يانااوون
مهاموليباتام
توا
حلفاء للفرنسيين
ساحل كوروماندل
سيرنغا باتام
كارناتيك
ممتلكات الشركة الفرنسية
ماهيه
ساحل مالابار
كاليكوف
تريشينوبولي
ترنيكيماليه
باتاكالو
سيلان
كولومبو
الهند في القرن الثامن عشر

سقطت لويز برغ[٣٧] وهي المدينة الفرنسية الهامة في شهر تموز (١٧٥٨) .. وحاول مونكالم Moncalm عام (١٧٥٩) خوض معركة بحرية ، لكنه قتل هو ومن معه . وبذلك اندحر الفرنسيون ، وسقطت بعد لويز برغ كويبك ، وغدت كل كندا في قبضة الإنكليز .

توالت هزائم فرنسا في كل مكان . وأدرك بيرني أن الحرب الألمانية لعبة من ألاعيب رئيس وزراء إنكلترا بيت ، فقرر مصالحة فردريك . لكن التعصب النمساوي حال دون إتمام الصلح . وسقط بيرني ، وخلفه شويزل Shoiseul عام (١٧٥٩) الذي كان يرى أن خلاص فرنسا لن يتم إلا بتصعيد الحرب مع إنكلترا ، وبحرب حقيقية ، لا في البحر ولا في المستعمرات بل على البر الإنكليزي ،. وبدأ خططه التحضيرية بإعادة صياغة معاهدة فرساي للمرة الثالثة ، بحيث خفف فيها من إحكام الحلف النمساوي ليجعل النمسا تتقارب من ألمانيا ، وترك لفرنسا حرية أكبر في العمل على حماية ما تبقى لها من مستعمرات ، عن طريق الضغط على إنكلترا في عقر دارها .

جاء حظ شويزل سيئاً لاعتماده قائداً بحرياً على غير المستوى المطلوب ، حيث لم يستطع هذا الأخير معالجة مشاكل سلاح البحر ، خصوصاً والسلاح يمر بضائقة معنوية ومالية ، فرجاله فقدوا روح الإقدام والمبادهة ، وهو يعاني ضعفاً في الميزانية ، وقلة في الموارد للنهوض بالسلاح وبقدرته القتالية .

محاولة الإنزال على البر الإنكليزي

أقامت فرنسا خططاً لعملية إنزال عاجلة تقوم بها على البر الإنكليزي افتقرت إلى الواقعية الحربية . ولم تأخذ بعين الاعتبار العناصر السلبية والصعاب الواجب تذليلها في مثل تلك العمليات الدقيقة .

تلخصت عملية التحضير بإعداد جيشين بريين كبيرين ، الأول يتحشد في بريتانيا بإمرة أغيلون Aiguillon ، والآخر يتحشد في الفلاندر بإمرة شوفير Chevert ، وبمجموعة سفن نقل تتجمع في الموربيهان (بريتانيا) ، تحميها كل السفن الحربية المتوفرة في المنطقة .

قُسِّمت عملية الإنزال إلى مرحلتين ، تتم المرحلة الأولى بإنزال بحري في ايكوسيا (اسكتلندا) على فتحة نهر كلايد Clyde ، أو نهر فورث Forth ، وتعود السفن إلى دونكرك لتنفيذ المرحلة الثانية ، فتنتقل موجة جديدة من القوات البرية تنزلها في شاطىء بلاك وتر Black Water على ساحل سوفولك Suffolk ، ويتجه قسم من هذه القوات نحو إيرلندة في حين يتغلغل باقيها في البر

البريطاني ،.. وهكذا .. وبكل بساطة خطط الفرنسيون عملية إنزالهم دون أن يفكروا بما يمكن أن يفعله الإنكليز لإحباط العملية. فماذا لو اعترض الأسطول الإنكليزي الكبير .. أماكن التحشد والعبور؟ هل سيتخذ أسطول إنكلترا موقفاً هجومياً فيغير على السفن المحتشدة في مواقع صعودها؟ ومن له سيادة البحر في المنطقة؟ وأنّى لفرنسا تحقيق سيادة بحرية ثابتة ، ولو مؤقتة على الأقل ، في منطقة العمليات وخلال الفترة الزمنية اللازمة لها؟

وكيف سيجتاز الفرنسيون بحر المانش بوجود عدو بحري قوي؟

وهل السفن الحربية الفرنسية قادرة على القيام بمهمتين أساسيتين : المواكبة والقتال أمام عدو فاقهم عدداً وعدة ، واقتصرت مهمته على القتال فقط؟

إنه لمن الغريب جداً أن لا أحد من قادة وساسة فرنسا فكر في عمق ، وبحث أبعاد العملية ، ولو حصل ذلك لاستبعدت واستُبعد حتى التفكير بها .

لو قُدِّر لتلك العملية نصيب من النجاح لكان يجدر بها أن تتم بسرعة وبسرية . وهذان عنصران مفقودان في فرنسا . إبان تلك الحقبة . فمن أين تأتي السرعة والسرية؟ والتحضيرات في المرافىء بطيئة ومكشوفة بادية للعيان .. وهذا ما جعل تحديد موعد بدء الهجوم يتأجل من شهر إلى آخر حتى حل فصل الخريف (١٧٥٩) ، فصل العواصف والأنواء .

استطاع الإنكليز خلال فترة التحضير الوئيدة جمع كل ما يلزمهم من معلومات تتعلق بالهجوم الفرنسي المرتقب ، وأعدوا له خطة استقبال كاملة . فصدرت الأوامر الملكية بإقامة رصد بعيد ، وكلف بويز بأعمال الدورية البحرية أمام دونكرك ، لمراقبة تحركات الفرنسيين ، كما كُلِّف رودني بالمهمة نفسها أمام مرفأ الهافر ، وأعطيت التعليمات لهاووك لمراقبة برست وجوارها . وأما ديف فقد أنيطت به مهمة مراقبة موربيهان ، ومتابعة مراحل التحضير هناك .

بالنسبة للمتوسط صدرت الأوامر إلى كل من برودريك ، وبوسكاون بالخروج إلى عرض البحر ، وذرع المنطقة المتاخمة لميناء طولون ، على أن يبقى سميث في جبل طارق كاحتياط يهرع لمساندة من يحتاج للمعونة .

خلال ذلك أتت لكلو Clue قائد التشكيل الفرنسي في طولون الأوامر بالإقلاع على رأس قوته التي تضم (١٢) بارجة ، والالتحاق بالقوة الرئيسية في برست . وانتهز القائد الفرنسي غياب عدوه

بوسكاون عن المنطقة، وخرج بتشكيله يوم الخامس من آب .. وفي ١٧ الشهر اكتشفت حركته فرقاطة حراسة بريطانية، وأعلمت عنه فسارع بوسكاون لقتاله. وكانت قوة فرنسا تضم (١٠٠٠) مدفع، وقوة بريطانيا (١٣٠٠) مدفع تقريباً .. حاول كلو زيادة سرعته مستخدماً كل القلوع .. وفي منتصف ليل ١٨ آب أصدر أمره إلى قادة وحداته بالتخلي عن التوقف في ميناء قادس الإسباني، ومتابعة السير حتى برست. لكن الأوامر لم يحسن استقبالها ليلاً لدى خمسة بوارج من التشكيل، ونفذت الأوامر السابقة، وقصدت ميناء قادس، ورست فيه.

في صباح ١٩ آب بقي برفقة كلو (٧) بوارج، وبوسكاون في أثره. ووجد القائد الفرنسي نفسه مضطراً لقتال عدو يفوقه عدداً وعدة، وقد أحاطه من الجنبتين. انطلقت المدافع وأصيب الأميرال الفرنسي، فقرر فتح المسافة بتشكيله عن الإنكليز. ولعب قائد سفينة سانتور (سابران غرامون) دوراً شجاعاً في مشاغلة الإنكليز، لإعطاء السفن الفرنسية الزمن اللازم للابتعاد.

في ليل ١٩ وجد الأميرال الفرنسي الجريح نفسه مرة أخرى وبرفقته (٤) بوارج فقط، محاطاً بكل تشكيل بوسكاون. فاشتبك من جديد محاولاً اللجوء إلى خليج المادونا (قرب لاغوس المدينة البرتغالية المحايدة). لم يدع له الإنكليز الفرصة، بل انقضوا عليه، وأحرقوا ثلاثاً من بوارجه، وأسروا اثنتين منها. وعادوا بها إلى مرساهم في جبل طارق، رافعين راية النصر. أما بقية سفن التشكيل الفرنسي، والتي كانت قد لجأت إلى قادس، فقد بقيت هناك ستة أشهر كاملة، قبل أن تستطيع العودة إلى طولون ثانية.

كان لا بد من تعديل خطة الإنزال، بعد كارثة لاغوس البحرية. وبالفعل قررت القيادة الفرنسية التخلي عن العملية الواسعة، والاكتفاء بعملية محددة، تتضمن إنزال قوة غازية في

كورنواي، تأتي من موربيهان، تحميها قوة برست البحرية، وبإمرة الماريشال كونفلان الضابط العجوز الذي تخطى سن الـ (٧٥) عاماً. أما قوة البحر المواكبة له فقد أُعِدَّت على عجل، وينقصها العديد من الصفات القتالية.

بقي كونفلان Conflan طيلة فصل الصيف ينتظر من قيادته أوامر الحركة. والظروف لم تكن لتسمح بخروجه، وهاووك الإنكليزي متربص له، يراقب تحركات كل وحدات أسطول برست.

في نهاية الصيف تعرضت المنطقة لعاصفتين بحريتين عاتيتين ومتلاحقتين، أجبرتا هاووك الإنكليزي على الابتعاد، واللجوء إلى الساحل البريطاني، مخلياً الساحة. عندها لم يدع كونفلان الفرصة تفوته، وخرج بتشكيله في ١٤ تشرين الثاني من مرسى برست، ووصل يوم ١٩ منه بأسطوله، والبالغ (٢١) بارجة مشارف جزيرة بيل ايل. وهناك التقى بديف الإنكليزي، وكان على رأس سرب مؤلف من (٤) بوراج و (٤) فرقاطات. وعلى أثر التماس فر ديف أمام كونفلان، لعدم تكافؤ قوته مع قوة خصمه.

في مساء ٢٠ ظهر للمراقبين الفرنسيين في المرصد العلوي من أعلى الصاري سفنٌ حربية عديدة تتقدم من الشمال. وتأكّدت بعد حين أنها تشكيل هاووك المتضمن لـ (٢٣) بارجة، والذي جاء بسرعة لمساندة ديف. وعلى أثرها غدا جدول التوازن القتالي على النحو التالي:

٢١ بارجة	و ٣ فرقاطات	و ١٧٥٢ مدفعاً	قوة الفرنسيين	مقابل
٢٧ بارجة	و ٦ فرقاطات	و ٢٠٥٠ مدفعاً	قوة الإنكليز.	

ولما كان كونفلان يدرك قيمة المقاتل الإنكليزي بالمقارنة مع مقاتليه قرر عدم خوض المعركة، والعودة ثانية إلى خليج موربيهان، والاقتراب من اليابسة، ودخول المناطق الضحلة معتقداً جهل الإنكليز لها، وعدم مغامرتهم الدخول إليها دون دليل يرشدهم، لكن ذلك لم يمنع هاووك من المطاردة حتى الأعماق البسيطة، متمسكاً بقول مأثور هو:

«**حيث يوجد مكان للعدو، يوجد مكان لي أيضاً**».

انتشر التشكيل الفرنسي طولياً وبمساحات مفتوحة نظراً لعدم تشابه وتناسق السفن. فعندما وصل كونفلان وهو على رأس التشكيل لجوار جزر الكاردينو في الساعة ١٦٫٣٠ Cardinawe كانت مؤخرة تشكيله مشتبكة منذ ساعتين بقتال شرس مع الإنكليز، وهي تقاوم بضراوة مدافعهم القوية والعديدة. ولم تتوقف السفن المشتبكة عن القتال إلا بعد أن أصبحت هياكل محطمة، ثم

غابت في مياه البحر. عندها قرر كونفلان تغيير خط سيره بالتخلي عن الدخول إلى موربيهان. في تلك الأثناء اشتدت سرعة الرياح، وانقلبت عاصفة هوجاء. عندها رسا الفرنسيون والإنكليز بسفنهم أينما وجدوا في الخليج وبتداخل عجيب. ومرت الليلة عاصفة رهيبة، وتحطمت سلاسل المراسي، وجنح العديد من سفن الإنكليز على الشطآن الصخرية. ولو حاول كونفلان مهاجمة السفن القليلة التي تحلقت حول سفينة هاووك لاستطلاع الأوامر لاستطاع إحراز نصر أكيد، ولبدل صورة المعركة.. لكن السفن الفرنسية قاست هي الأخرى هول العاصفة، وغدت مرهقة متعبة، وانشطر التشكيل إلى قسمين ثماني وحدات منها بإمرة بوفرومون Beauffremont وتخلت عن أميرالها، وأخذت عرض البحر وظلت بعيدة عن اليابسة طيلة ساعات الظلام، خشية الجنوح، ولجأت في الصباح إلى روشفور. أما باقي التشكيل وعدد سفنه تسع فقد لجأ إلى لافيلين، بعد أن تخلص من بطاريات مدافع الجسر العلوي، ليخفف من غاطس سفنه، وحتى يستطيع الولوج في الأماكن الضحلة. وقد جنحت سفينتان إلى شاطىء بورزيك، فأضرمت فيها النيران حتى لا تقع بأيدي الإنكليز.

تعرضت فرنسا خلال فترة وجيزة لكارثتين بحريتين متعاقبتين، فهاج الشعب صاباً غضبه على الماريشال كونفلان. وسموا عمليته بعملية يوم السيد دو كونفلان تندّراً.

وهكذا انتهت إعدادات غزو البر البريطاني بخيبة مرّة، ولم ينفذ منها إلا إرسالية صغيرة على نطاق ضيق، قادها تهورو Thurot، حيث أقلع من الهافر، ونقل مقاتلين من دونكرك إلى إيرلندة، بعد استدارته حول رأس ايكوسيا في الشمال، فحقق بعض النجاحات، قرب مدينة كاريفورغوس إلا أن الموقف العام، وأنباء الهزائم المتلاحقة جعلاه يتخلى عن متابعة مهمته والعودة إلى فرنسا. وفي طريق العودة اعترضه تشكيل اليوت الإنكليزي في ٢٨ شباط قرب جزيرة مان، وجرى اشتباك قصير قتل في أثنائه القائد تهورو، وعادت بقية السفن إلى فرنسا.

الحلف العائلي

أضاعت فرنسا كل شيء، ورغبة منها في حفظ ماء الوجه تقدم رئيس وزرائها شوازيل Choiseul بطلب الصلح، فقوبل برفض كامل من بيت، إلا ضمن شروط معينة وقاسية، وهي بالتنازل كلياً عن كندا، والتخلي عن عمليات الصيد في البحار، كما طالبها بسحب قواتها من بروسيا. وباختصار.. إقرار كامل بسيادة إنكلترا على البحار، حيث يتسنى لها فرض بأسها بقوة أساطيلها في كل أصقاع الأرض.

حاول شوزيل المماطلة لإعادة التوازن البحري أمام خصمه بالتحالف مع باقي أساطيل الدول الأوربية الأخرى، للوقوف سوية ضد أطماع إنكلترا البحرية التوسعية غير المحدودة، لكنه لم يفلح لعدة أسباب أهمها:

ــ خشية هولندا من تجدد أطماعَ فرنسا في أراضيها ومستعمراتها.

ــ عدم استفادة روسيا والسويد من الحلف البحري المزمع عقده، وهما البلدان الغربيان، والبعيدان عن مشاكل أوربة الغربية.

أما بالنسبة لإسبانيا فالموضوع لا يحتاج إلا إلى إعادة النظر ببعض بنود معاهدة فونتينبلو.

وعلى ضوء ذلك حققت فرنسا حلف دائم ضمّ كل ملوك عائلة البوربون (ومن ضمنهم ملوك البرتغال وسردينيا).. لكن أحداث المنطقة تجاوزت بتفاعلاتها خطوات ذلك الحلف الجديد.. والأهم من ذلك تباطؤ إسبانيا في بعث سلاح بحريتها، برغم الجهود الجبارة التي بذلها ماركيز انسانادا Marquis De La Ensenada، ونافارو Navarro.

وجاء الحلف تظاهرة براقة هزيلة لم يمنع إنكلترا من متابعة مغامراتها خصوصاً لما لمست هشاشة الأسطول الإسباني وضعفه.. وكان من نتيجة هذا الضعف ضياع العديد من ممتلكات إسبانيا وراء البحار.

السنوات الأخيرة من الحرب

توقفت المعارك، وحوصرت فرنسا من كل جانب، وامتنع عنها مورد الصيد، وجاء كيبل Keppel الإنكليزي في شهر مايس عام (١٧٦١) فاحتل جزيرة بيل ايل، وهي جزيرة صغيرة على عدة أميال من الشاطىء الغربي الفرنسي، دون أن ينجدها أحد من البر الفرنسي. ونظراً لأهمية موقع هذه الجزيرة حصنها الإنكليز، وجعلوها مركزاً استراتيجياً هاماً للأسطول الإنكليزي في المحيط الأطلسي، كما كانت مينوركا في البحر الأبيض المتوسط، وجعلوها قاعدة انطلاق عملياتهم البحرية لتوسطها مسارح العمليات.

تدهور موقف فرنسا وراء البحار. فبعد ضياع الهند وكندا، جاء دور السنغال وغينيا وجزر الآنتيل، حيث فقدت فرنسا هناك خلال عامي (١٧٦١ و ١٧٦٢) الجزر التالية: دومينيك، غرانادا، سان لويس، سان فانسان، تاباغو.. ورودني.

معاهدة السلام وقيام الإمبراطورية البريطانية

فقد سلاح بحر فرنسا خلال حرب السنوات السبع (٥٦) بارجة و (٢٥) ألف رجل بين قتيل وأسير. ولم يفلح الحلف العائلي البوربوني إلا بخسارة المزيد من الممتلكات خاصة الإسبانية منها والواقعة وراء البحار.

لكن حرب السنوات السبع أضعف مركز إنكلترا المالي، وحصلت أزمات حادة اقتصادية وسياسية، كانت سبباً في سقوط رئيس وزرائها بيت، والذي كان العقبة الكأداء في وجه كل صلح. وبسقوطه تم توقيع صلح باريس في ١٠ شباط (١٧٦٣). ومن بنود هذا الصلح حصول إنكلترا من فرنسا على جزيرة مينوركا عوضاً عن جزيرة بيل ايل التي ستعود إلى الوطن الأم، والتخلي عن كندا ولويزيانا الشرقية، كما تتخلى إسبانيا عن فلوريدا ولويزيانا الغربية، ولا تحتفظ فرنسا في أمريكا الشمالية إلا بجزر سان بيير وميكلون، وبحق الصيد حول السواحل الشمالية الغربية من الأرض الجديدة.

أما في الهند فتحتفظ فرنسا بخمسة مواقع لوكالات تجارية خالية من أية تحصينات عسكرية. وتتعهد فرنسا بإزالة تحصيناتها في دونكرك على الساحل الشمالي من البر الفرنسي. وفي إفريقية تتخلى عن كل مراكزها هناك. وهذا أقسى شرط أصاب العاملين بالرقيق الأسود والهيئات المستفيدة منه.

خرجت إنكلترا من معاهدة صلح باريس وقد دان لها العالم كله، وسيطرت في أوربة البحرية وفي العالم الجديد سيطرة كاملة، وتكون بذلك قد بنت الإمبراطورية الإنكليزية الكبرى الشاسعة الحدود، والكاملة التنظيم. وقد ضمت ولايات متحدة ومتماسكة في أمريكا الشمالية، بالإضافة إلى الجزر العديدة، منها بيرمودا، وباهاما، وجامايك، وتاباغو، وسان فانسان، والدومينيك، وغرانادا... وفي آسيا حصلت على الهند بولاياتها العديدة، ثم نثرت محطات لها على طول الطريق البحري الواصل إليها عن طريق جبل طارق، كسان لويس، وغامبيا، والشاطىء الذهبي، وسانت هيلين، وبومباي، بالإضافة إلى عدة مواقع هامة في جزيرة سومطرة. وتكون إمبراطورية بريطانيا الواسعة قد امتدت على أنقاض مستعمرات الدول الغاربة.

احتفظت البرتغال بمواقعها السابقة في كل من غينيا، وأنغولا، وبنغويلا، وموزامبيق، ومالابار، والصين، وبعض جزر في المحيط الأطلسي، وأرخبيل الهند الصينية. وكذلك بعض المراكز على السواحل البرازيلية.

أما هولندا فقد احتفظت بـ كوراسو ، وسورينام ، وسيلان ، والكاب ، وجاوا ، وبضعة مواقع في سومطرة ، ومولبسك . وهكذا قفزت إنكلترا وبظرف جد قصير من بلد صغير لا تزيد مساحته عن (٢٢٩) ألف كيلومتر مربع إلى إمبراطورية قوية ، تسيطر على ثلث العالم . وكانت تلك أغرب ظاهرة عالمية في التاريخ الحديث . ويرجع الفضل كل الفضل للبحر ، ولقوتها فيه ، ولتماسك قادتها ، وإخلاصهم . فبسواعدهم بنوا عظمة هذه الإمبراطورية وجبروتها .. ووصف الكاتب غرين Green حرب السنوات السبع بقوله :

« حرب السنوات السبع رسمت مستقبل إنكلترا ومستقبل العالم . ولقد وجدت إنكلترا نفسها فجأة ، وفي كل مكان تبز كل الأمم المعاصرة لها . ونظراً لقلة قدراتها البرية (أي على البر الأوربي) جعلها ذلك تأخذ هناك دوراً ثانوياً جداً في تاريخ أوربا المعاصر » .

وبالفعل جاء صلح باريس خطوة جبارة للشعب الإنكليزي ، وليكرس سيادتها على بحار العالم .

حواشــي البــاب الأول

١ ــ شامبلان صموئيل Champlin (١٥٧٠ ــ ١٦٣٥)

مستعمر فرنسي قصد الأرض الجديدة لدراسة الإمكانات الحيايتة في فرنسا الجديدة (كندا) .. عاد إلى فرنسا وكتب سيرة أسفاره تحت عنوان : متوحشون (١٦٠٨) وهو الذي وضع أسس مدينة كويبك . عاد مرتين إلى كندا ، وفي عام (١٦١٣) توغل حتى أوتاوا .. استولى الإنكليز على كويبك وأعادوها للفرنسيين بعد اتفاقية عام (١٦٣٢) .. بعد عودتها انتقل إليها شامبلان ينظم المدينة ويقيم سلاماً مع الايروكيين (السكان الأصليين) .

٢ ــ ماردیك Mardyck

ميناء صغير على ثمانية كيلومترات إلى الغرب من دونكرك ، مرفأ روماني ثم فلمنكي ، فإسباني ، استولت عليه فرنسا عام (١٦٥٩) ، وانتعش المرفأ خاصة عام (١٧١٧) على أثر استيلاء إنكلترا على ميناء دونكرك .

٣ ــ لويز بورغ Louisbourg

مرفأ في كندا وفي جزيرة كاب بروتون بالتحديد (سقط في أيدي الإنكليز عام ١٧٤٥) .

٤ ــ دوبوا Dubois (١٦٥٦ ــ ١٧٢٣)

كاردينال ورجل سياسة فرنسي ، أشرف على تربية فيليب دو أورليان ، ودخل الحكم عندما أصبح تلميذه ولياً للعهد . كان جشعاً متعجرفاً ودموياً . حالف هولندا وإنكلترا (الحلف الثلاثي ١٧١٧) ، وحارب إسبانيا ، وارتقى في المناصب حتى وصل إلى منصب رئيس وزارة عام (١٧٧٢) .

٥ ـــ فيليب الخامس Philippe V (١٦٨٣ ـــ ١٧٦٤)

ابن ابن لويس الرابع عشر أوصى به شارل الثاني خليفة له. صادف مقاومة كبيرة من دول أوربة في اعتلائه عرش إسبانيا. طرد من مدريد مرتين (١٧٠٦ و ١٧١٠)، لكن نصر معركة فاندوم عزز مركزه في البلاد. تخلى عن عرش هولندا وفرنسا، وترك ميلانو ونابولي وسردينيا وصقلية ومايوركا وجبل طارق. أقام جيشاً وبحرية لإسبانيا، وتمسكت زوجته الثانية بالبيروني كوزير أول، ودفعت بالملك لاستعادة إيطاليا، لكن هزيمته برأس باسارو Passaro (١٧١٨) جعلته ينحني أمام الحلف الرباعي عام (١٧٢٥). تقرب من الإمبراطور شارل الرابع، وقبل بالذرائع والعقوبات الاقتصادية التي فرضت عليه. وعلى أثر انتعاش أسطوله حاربته إنكلترا فتحالف مع فرنسا في اتفاقية فونتينبلو (١٧٤٣)، وأعاد حملته على إيطاليا.

٦ ـــ البيروني Alberoni جوليو (١٦٦٤ ـــ ١٧٥٢)

كردينال إيطالي ووزير في إسبانيا ابن عامل حديقة إيطالي، كسب عطف دوق فاندوم، فحمله معه إلى إسبانيا. وهناك دخل المعترك السياسي حتى وصل إلى رئاسة الوزارة الإسبانية (١٧١٦). وحاول استعادة ممتلكات إسبانيا الأوربية التي ضاعت إثر معاهدة أوترخت. ونفي من قبل فيليب الخامس، فعاد إلى روما وأصبح قاصداً رسولياً حتى مماته.

٧ ـــ والبول Walpole روبرت (١٦٧٦ ـــ ١٧٤٥)

رجل سياسة إنكليزي، نائب ووزير (١٧٠٨)، أبعد عن الحكم، ثم عاد إليه عام (١٧١٦). استلم منصب لورد المالية (١٧٢١)، وعادى العديدين أمثال كارتيريه، وتاونسوند. واستغل جهل الملكيين الهانوفريين للعادات الإنكليزية، وأدار البلاد دون عقبات حتى عام (١٧٤١)، معتمداً على قلة من الناس اعتمدت الرشوى والفساد، وضرب بالأسس البرلمانية عرض الحائط. أظهر عطفاً على السلام بعد حروبه مع إسبانيا التي كلفته جبل طارق (١٧٢٥) وجزيرة مايوركا (١٧٢٧). ضعف نفوذه إثر أزمات مالية واقتصادية، خصوصاً بعد التقارب الفرنسي النمساوي. أعلن الحرب على فرنسا ورأس التجمع الأوربي (حرب خلافة عرش إسبانيا).. إلا أنه خذل في البرلمان لقلة مؤيديه. **هوراس شقيقه (١٦٧٨ ـــ ١٧٥٧)** استلم وزارة المالية ثم غدا سفيراً فوق العادة في هولندا، وبعدها في باريس (١٧٢٣).

٨ ـــ فلوري Flury أندريه (١٦٥٣ ـــ ١٧٤٣)

رجل دين وسياسة والمرشد الديني للملك، ثم أسقف ومعلم للويس الخامس عشر، أصبح وزيراً للمالية ثم كاردينالاً، وظل محافظاً على مركزه في القصر حتى مماته. له منجزات هامة في الأمور الاقتصادية والقضايا المالية. اشترك في حرب عرش بولونيا وحرب عرش إسبانيا.

٩ ــ موروبا Maurepas جان فردريك (١٧٠١ ــ ١٧٨١)

ابن لويز بونتشارتران. رجل سياسة فرنسي أصبح سكرتير دولة، ثم سكرتير البحرية والمستعمرات. أقام عدة إصلاحات هامة في سلاح البحرية، وفي موانىء البلاد. وهو الذي قضى على سفن السجانات Qalères لعدم صلاحياتها. فقد الحظوة لدى لويس الخامس عشر، لكن لويس السادس عشر قربه وجعله مستشاراً ملكياً للشؤون المالية.

١٠ ــ لويس الخامس عشر Louis XV (المحبوب) (١٧١٠ ــ ١٧٧٤)

ابن ابن ابن لويس الرابع عشر ملك فرنسا. حكم تحت وصاية وولاية فيليب أورلئان، وسلم إدارة البلاد إلى الكاردينال فلوري. وبعد ممات الأخير خضعت السياسة الفرنسية لرغبات عشيقات الملك، كدوقة شاتورو، ومركيزة بومبادور، وكونتيسة باري الخ..

١١ ــ لوي Law جون (١٦٧١ ــ ١٧٢٩)

مالي ايكوسي زار أوربة، ودرس نظامها المالي والمصرفي. وهو مبتكر العملة الورقية، ومؤسس مصرف الدولة المركزي. سمح له ملك فرنسا بتطبيق نظامه المالي فيها، لكنه فرّ منها بعد انهيار هذا الأسلوب، ولجأ إلى إيطاليا حيث أمضى فيها بقية حياته.

١٢ ــ آنسون Anson جورج (١٦٩٧ ــ ١٧٦٢)

بارون إنكليزي وأميرال بحري قام بدورة حول العالم خلال أعوام (١٧٤٠ ــ ١٧٤٤)، ودخل الأميرالية البريطانية، وعمل على تطور سلاح البحرية الملكية البريطانية.

١٣ ــ دوق دانتان Duc D'antin لويس انطون دو بارديلان (١٦٦٥ ــ ١٧٣٦)

ابن مركيز مونتيسيان، جليس الأمراء والملوك، عين قائداً عاماً للألزاس، وقائداً لأسطول الملك في الآنتيل.

١٤ ــ ماري تيريز Marie Therèse (١٧١٧ ــ ١٧٨٠)

اعتلت عرش إمبراطورية النمسا عام (١٧٤٠) وملكة لهنغاريا وبوهيميا، وابنة شارل السادس. تزوجت فرانسوا دولورين، وأنجبت منه (١٥) ولداً. اعتلت العرش بموجب الوصية البراغماتيكية (تنفيذ بعد التحقق). حاولت بافاريا وروسيا إسقاطها فاعتمدت على إنكلترا، وحافظت على ملكها، وحكمت البلاد إبان حكم ابنها جوزيف الثاني، وقامت بإصلاحات شتى.

١٥ ـ شاغر Chagres

ساحل في أمريكا الوسطى على بحار الآنتيل استخدم قسم منه في حفر قنال باناما.

١٦ ـ شارل السادس Charles VI (١٦٨٥ ـ ١٧٤٠)

إمبراطور جرماني وملك هنغاريا وصقلية، وآخر المنحدرين من أسرة هابسبورغ الملكية. زاحم فيليب الخامس في عرش إسبانيا، وقاتل العثمانيين، وشارك في حرب عرش بولونيا، وكلفه ذلك ضياع نابولي وصقلية. في حربه الثانية مع الأتراك أضاع فالاشيا وصربيا. تخلى عن العرش لابنته ماري تيريز بموجب وصيته البرغماتيكية (نسبة إلى مذهب يعتمد على النتائج قيد التطبيق).

١٧ ـ فردريك الثاني الكبير Fredric II (١٧١٢ ـ ١٧٨٦)

ملك بروسيا ابن فردريك غليوم الأول. عانى من ظلم والده الكثير، وحاول الفرار منه. اعتلى العرش بعد موت أبيه، وشارك في حرب عرش النمسا، فاحتل سيليزيا. حالف إنكلترا في حرب السنوات السبع، وحصل عند اقتسام بولونيا على بروسيا الشرقية، ماعدا كدانسك وتهورن.

١٨ ـ رأس سيسيه Cap Sicié

شبه جزيرة ورأس إلى الجنوب غرب من مدينة طولون في البروفانس.

١٩ ـ هووك Hawke ادوارد (١٧٠٥ ـ ١٧٨١)

نائب أميرال بريطاني، ثم أميرالاً للأسطول. قاتل الفرنسيين في معركة خليج كيبرون، وانتصر عليهم. ركب البحر ولم يبلغ الـ (١٥) عاماً، واستلم أول قيادة وهو في سن ٢٨ عاماً. بطل معركة فينيسيتر الثانية، حاصر القوات البحرية الفرنسية في خليج الباسك مدة ستة أشهر، أصبح اللورد الأول في الأميرالية البريطانية عام (١٧٦٦).

٢٠ ـ لابوردونيه Labourdonnais (١٦٩٩ ـ ١٧٥٣)

بحار فرنسي وحاكم لجزر موريس، قاد تشكيلاً بحرياً واستولى على مادراس، ولم يهدم المدينة، برغم أوامر رئيسه الحاكم دوبلكس، أعيد إلى فرنسا وسجن في الباستيل.

٢١ ــ نيغا باتام Negapatam

ميناء هندي قرب مادراس، أقيمت فيه مؤسسة برتغالية.

٢٢ ــ مادراس Madras

مرفأ رئيسي على ساحل كورمانديل في الهند.

٢٣ ــ كيرسانت Kersaint أرماند (١٧٤٢ ــ ١٧٩٣)

سياسي وبحار فرنسي استولى على مؤسسات إنكلترا في سورينام Surinam (غوانا الهولندية في أمريكا الجنوبية)، وتخصص في الأمور البحرية، وغدا نائباً لأميرال. أعدم بأمر محكمة الثورة.

٢٤ ــ دوبلكس Dupleix (١٦٩٧ ــ ١٧٦٣)

إداري مستعمر فرنسي حاكم شاندرناغور (الهند)، وحاكم عام للمستعمرات في القارة الهندية. استولى بمعونة لابوردونيه على مادراس، وأجبر الإنكليز على فك الحصار عن بونديشيري، لكن انتصارات كلايف Clive الإنكليزية حسرت السيادة الفرنسية في الهند.. عاد دوبلكس إلى فرنسا، وانتهى مجده بحرب السنوات السبع. ترك مذكراته.

٢٥ ــ برادوك إدوارد Braddock (١٦٩٥ ــ ١٧٥٥)

قائد أعلى بريطاني في أمريكا الشمالية خلال النزاع الفرنسي البريطاني هناك، وفي حروب الهند. وأحرز عدة انتصارات في أمريكا الشمالية وبالذات في كندا.

٢٦ ــ بوسكاون Boscawen ادوارد (١٧١١ ــ ١٧٦١)

ضابط في البحرية الملكية البريطانية حارب مع فيرنون، وأحرز نصراً كبيراً برفقة لورد آنسون على الأسطول الفرنسي عند رأس فينيستير (١٧٤٧). أصبح نائباً لأميرال، وقائداً للقوات الإنكليزية في الهند الشرقية. هُزم في معركة بونديشيري، وعاد إلى إنكلترا، ودخل الأميرالية البريطانية وعمل فيها حتى مماته.

٢٧ ــ هوهانزولين Hohenzollern

عائلة مالكة ألمانية بروسية مؤسسها فردريك « كونت زولين » انقسمت العائلة إلى شقين الشق الأول الانجيلي أو الفرانكونية ، والشق الثاني كاثوليكي « سراب » .

٢٨ ــ مدام بومبادور Pompadour جان انطوانيت بواسون (١٧٢١ ــ ١٧٦٤)

تزوجت بشارل غليوم النورمان ، وكانت مثقفة وجميلة وأنيقة . استرعت انتباه لويس الخامس عشر ، وغدت محظيته ، فمنحها لقب ماركيزة دو بومبادور . استطاعت الحفاظ على صداقة الملك ، وتورطت بالعديد من مداخلاتها السياسية ، ودعمت العديد من أصدقائها ، أمثال بيرني Bernis وشوازيل Choiseul .

٢٩ ــ بيرني Bernis فرانسواز (١٧١٥ ــ ١٧٩٤)

وزير سياسي وكاردينال بدأ حياته شاعراً في الصالونات ، وجليساً لمدام بومبادور . أصبح سفيراً في البندقية ثم وزيراً للخارجية وأخيراً كادرينالاً . كان ذا حظوة كبيرة لدى الملك لويس الخامس عشر . ترك مذكراته .

٣٠ ــ ساندويش Sandwish جون مانتاغو ((١٧١٨ ١٧٩٢)

رجل سياسة بريطاني ولورد أول في الأميرالية البريطانية . عرف بمواقفه الصلبة ضد رجل السياسة البريطاني وايلكس Wilkes .

٣١ ــ لاغاليسونيير La Galissonniére رولان ميشيل (١٦٩٣ ــ ١٧٥٦)

بحار فرنسي نصب حاكماً على كندا ، واشترك في حرب السنوات السبع ، وهزم الأميرال بينغ البريطاني في مياه جزيرة مينوركا .

٣٢ ــ بينغ Byng جون (١٧٠٤ ــ ١٧٥٧)

ابن الأميرال بينغ ، وهو نفسه أميرال في البحرية البريطانية . أخفق في حملة مينوركا ، وحكم عليه بالإعدام أمام محكمة عرفية بريطانية ، وقتل رمياً بالرصاص .

٣٣ ــ بيت Pitt ويليام الكونت الأول (١٧٠٨ ــ ١٧٧٨)

رجل سياسة بريطاني شارك في إسقاط وزارة والبول عام (١٧٤٢) . اشترك في الحكم وزيراً للحربية بعد السنوات الأولى من حرب السنوات السبع ، وبفضل خططه حققت إنكلترا سيادتها على البحار ، واستولت على الهند وأمريكا . أجبره الملك جورج الثالث على الاستقالة (١٧٦١) ، فانتقل إلى صفوف المعارضة ، وانتقد بشدة معاهدة باريس ، وسياسة بلاده في المستعمرات الأمريكية . عاد للحكم ثانية ، لكن تدهور صحته جعله يعتزل ، فاستقال عام (١٧٦٨) ، واكتفى بترأس المعارضة حتى مماته . ابنه بيت ويليام الثاني (١٧٥٩ ــ ١٨٠٦) رجل سياسة واقتصاد ، عاصر الثورة الفرنسية ودعمها في البداية .

٣٤ ــ هوغينو Huguenot

اسم يطلق بازدراء على البروتستانتي المقيم في الدول الكاثوليكية .

٣٥ ــ كونفلان Conflans هبرت (١٦٩٠ ــ ١٧٧٧)

نائب أميرال فرنسي وماريشال لفرنسا عام (١٧٥٨) . وهزيمته في جنوب جزيرة بيل ايل (١٧٥٩) قوضت مشروع إنزاله البحري على الأراضي الإنكليزية .

٣٦ ــ ايستانغ Estaing جان باتيست (١٧٢٩ ــ ١٧٩٤)

أميرال فرنسي خدم في الهند ، وشارك في حرب استقلال الولايات المتحدة . استولى على غرانادا ، وهزم الأميرال بايرون . قاد التشكيل الفرانكو إسباني في قادس ، وسمي قائداً أعلى للحرس الوطني ، وأصبح أميرالاً لفرنسا عام (١٧٩٢) ، وانتهى إعداماً بالمقصلة .

٣٧ ــ مونكالم Montcalm لويس جوزيف (١٧١٢ ــ ١٧٥٩)

جنرال فرنسي قاد القوات الفرنسية في كندا وقتل في معركة كويبك .

الباب الثاني

الاكتشافات البحرية العلمية

الفصـــل الأول

استكشــاف المحيـط الهـادي

أخذ موضوع سيادة البحار في نهاية القرن الثامن عشر منحى جديداً يختلف عما كان يجري في السنوات السابقة. وغدا مطلباً ملحاً لجميع الأمم المعاصرة، خصوصاً بعد أن قدم البحر، هذا المجهول العظيم، وبامتداده الشاسع فرصاً لإمبراطوريات كبيرة، تتحكم في مصائر الشعوب البدائية، وتتدخل في أدق مقدراتها. وقد نجد لو أمعنا الفكر الفرق الكبير بين أثر البحر في عصر إمبراطوريات إسبانيا والبرتغال حول تخوم آسيا وأمريكا وبين أثره في عصر إمبراطورية إنكلترا البحرية التي فتحت لها باب الكرة الأرضية على مصراعيه، تعب من خيراتها، وتنشر العرق الأبيض الأوربي في كـلّ مكان، وكأنها منطقة نفوذ لها، تستولي عليها، وتستخلص خيراتها، وتدير شؤونها، وكأنها إرث مشروع أو وصاية عامة.

تضاءلت الرحلات الاستكشافية البحرية الهادفة ذات المعنى الكبير والقيم العالية، كرحلات كولومبوس وماجيلان، ثم اختفت كلية مع اختفاء أهدافها السامية.. وساد اعتقاد كامل لدى جميع الهواة عام (١٦٠٠) أن كل ماله قيمة في العالم الأرضي قد استكشف.

وبذلك مر القرن السابع عشر دون رحلات ذات أصداء، واقتصرت على بعض الرحالة الإنكليز والهولنديين، أمثال فان ديمن Van Diemen حاكم باتافيا الذي حلم باستكشاف المزيد من جزر الهند الشرقية في عمق المحيط، ونيتز Nuyts (١٦٢٧) وتاسمان Tasman **بين أعــوام**

(١٦٤٢ ـ ١٦٤٤). وكانت حصيلة رحلاتهم عدة جزر متوحشة صغيرة تعيش في عصر بدائي كامل لا توابل فيها ولا ذهب.. ونتيجة لتلك النتائج الزهيدة تحول بعض هؤلاء المستكشفين نحو التجارة والربح. وغابت عن أخيلتهم فكرة الاستكشاف والبحث. وانصرف البعض الآخر إلى بدعة جديدة هي الانصراف عن استكشاف الأرض إلى اكتشافات جديدة علمية حضارية وثقافية. وبرزت مدرسة البحث العلمي لوضع الأسس اللازمة للعلوم المستحدثة، وأنشئت لهذا الغرض المؤسسة الملكية العلمية في لندن عام (١٦٦٥)، والأكاديمية للعلوم الفرنسية عام (١٦٦٦). ومن قصص البحوث كيف أن ريتشر Richer طلب إلى كايين مراقبة رقاصه الشهير الذي ينوس في محطة المراقبة الأساسية لحركة الكرة الأرضية، عملاً بنظريات نيوتن. وقد احتدم النقاش حول شكل الكرة الأرضية (مسطحة القطبين منتفخة عند خط الاستواء، وعلى شكل إهليلج الدوران) حتى أتى برهان كاسيني Cassini العلمي في النهاية ليؤكد الشكل الحقيقي للكرة الأرضية مُعتمداً عمليات حسابية جيوديزيه (علم المساحة).. وليخلص إلى القول بأن الكرة الأرضية تشبه مغزلاً متطاولاً منتفخاً.. وأخيراً وضع حد للنقاش بعد إرسال الأكاديمية الفرنسية عام (١٧٣٥) بعثتين علميتين لقياس طول قوس من خط الطول في كل من المنطقة القطبية، وخط الاستواء (سبق العرب الغرب في مثل ذلك القياس إبان الخليفة العباسي هرون الرشيد، واعتمدوا في حساباتهم توقيعاً فلكياً مستعينين بالشمس والنجوم والسيارات، ووصلوا إلى نتيجة مقبولة في الدقة آنذاك).

اشترك في البحث والقياس أمم أخرى. وقام سلاح البحر الإسباني بتكليف عدة ضباط بحريين للتحقق. وجاءت نتائج الجميع متوافقة، تؤكد نظريات العالم نيوتن. وعلى أثر ذلك توسع البحث في مجالات عدة، منها ما يتعلق بالملاحة الفلكية، وتوازن القوى، والفيزياء، والعلوم الطبيعية. وتعددت بعثات الأبحاث العلمية، نذكر منها بعثة أولوا Ulloa الإسبانية، وبعثة جورج خوان الإسباني إلى بلاد البيرو، ولاكاي[٣٨] La Caille في العام (١٧٥٠) الذي مد نشاطه حتى وصل إلى رأس الكاب Cap. ويرجع الفضل للاكاي في وضع فهرس ومخطط لنجوم نصف الكرة الجنوبية. ويعود الفضل لباجيه في دراسة علم الأنواء الجوية، حيث انتقل إلى بحر الشمال يدرس ويراقب. وهكذا انتشرت بين الشعوب فرحة البحث والكشف العلمي، وغدا العلماء يتسابقون في المضامير العلمية والرياضية، وظلوا في تسابقهم هذا طيلة القرن الثامن والقرون التي أعقبته.

ومن الأبحاث الهامة التي تطرق لها علماء هذا القرن، جغرافية البلدان والمحيطات. ويمكن تسمية القرن الثامن عشر بقرن إقامة ورسم الخرائط الجغرافية ببرها وبحرها. وقد اعتمدت أسس

المراقبة الفلكية والقياسات الجيوديزيه قواعد أولية في إقامة المخططات الجغرافية .. ومن أشد الأعمال قسوة عمليات مسح البحار ، أو ما يسمى بجغرافية المحيطات (الهيدروغرافيا) ، إذ استنفذت تلك المشاريع الكثير من الجهد والعرق . وشارك فيها علماء كثيرون ، ومن جنسيات عدة أغلبهم فرنسيون وإنكليز . وحتى يصل علم الملاحة البحرية إلى المستوى العلمي كان لا بد من وضع دليل ثابت يستعين به البحارة والملاحون . فقامت الحكومات المتعاقبة ، ومن عدة دول بحرية على تحقيق هذا الحلم الكبير ، وبذلت التضحيات الجسام والأموال الطائلة ، للوصول إلى دليل حقيقي صحيح ، بعد إعادة مسح وتصحيح وإعادة احتساب المواقع ، وخاصة خطوط الطول فيها . وأرسلت البعثات البحرية الهيدروغرافية العديدة لكل مكان حتى وصلت السواحل الأمريكية ، وبحار الهند والمحيطات البعيدة ، ترصد وتوقع وترسم . وكانت من أبرز المهام صعوبة هي تغطية المساحات الشاسعة المجهولة من محيطات الكرة الأرضية ، فتكاثفت الدول البحرية ، وخصصت بعثاتها تشارك في مهام الكشف والبحث والتدقيق لصالح الملاحين أولاً ، ولصالح البشرية والعرق الإنساني عامة .

كانت رحلات القرن الثامن عشر العلمية الاستكشافية مختلفة عن رحلات القرن السابق لها بالهدف وبالتنظيم ، إذ كنا نرى حملات بحرية هدفها الكسب المالي ، وفتح أسواق جديدة للمنتجات ، أو الاستيلاء على المزيد من المستعمرات ، في حين نجد طموحات الرحلات العلمية بعيدة عن الأهداف السابقة في القصد والمعنى ، فهي بإخلاص كامل وراء البحث والاستقراء العلمي في الدرجة الأولى ، أما الأهداف الأخرى فتترك لمحض الصدفة فقط .

لم يعد الكشف يجري كما كان سابقاً متروكاً للصدفة ، وتبعاً لآراء شخصية تتكيف تبعاً للظروف ، بل أصبحت البعثات تزود قبل انطلاقها بتعليمات واضحة محددة ، وعلى قائد البعثة أو قادة السفن التقيد بحذافيرها . وقد نظم تلك التعليمات علماء اختصاصيون يقومون بأعمال المتابعة ، ويحددون نقاط النقص الواجب تغطيتها ، وكذلك المشاكل الواجب حلها .. كما يفترضون عدة احتمالات مع التصرف الواجب اتباعه حيال كل احتمال .

كثيراً ما كان يرافق البعثات العلمية البحرية هيئة علمية تتضمن علماء في علم الفلك الطب والطبيعة يقومون بأعمال المراقبة والتدوين . وعندما تتجمع لديهم بحوث كاملة يعودون ليعلنوها على الملأ أجمع ، ويعملون على نشرها في كل مكان ، ولتصل لكل هيئة ، لتكون مادة نقاش ومداولة وتحقيق .

تطور الملاحة الفلكية

أخذت المعلومات التي حققتها البعثات العلمية طابعاً مميزاً، وأصبحت تأخذ شكل الوثائق والمستندات الهامة، خاصة فيما يتعلق بعلم الفلك وبتطبيقاته العلمية في الملاحة البحرية. ومنذ نصف القرن السابع عشر باشر علماء عديدون أمثال باسكال[٣٩]، وفيرما[٤٠]، ونيوتن[٤١] البحث في توسيع آفاق علم الرياضيات، والمثلثات، وتطبيقاتها في الحسابات الخاصة، بتوقيع الأهداف على المخططات. وكان لعلمي المثلثات الكروية واللوغاريتمات عام (١٦١٥)، والحسابات المتناهية الصغر من قبل ليبنتز[٤٢] عام (١٦٧٥) الأثر الكبير في حل عدة مسائل معقدة تتعلق ببعض الحسابات الفلكية التي تعسر حلها في القرون السابقة. وكان من النتائج المباشرة لتلك الحسابات الوصول إلى تحديد سليم ودقيق لموقع السفينة في البحر، بأسلوب عملي مبسط. ووصل العلماء إلى ذلك عن طريق رصد الأجرام السماوية. فتوصلوا إلى تعيين العرض الجغرافي بقياس ارتفاع النجوم، بوساطة أجهزة رصد وقياس، تدرجت في الدقة والتطوير فمن ربعية التحويل، إلى القوس الإنكليزي الذي سمي أيضاً بعصا يعقوب. ثم ظهرت آلة الثمن والسدس، وهي أجهزة دقيقة تعمل بارتداد وانعكاس نور الجرم المرصود بعملية إسقاط الجرم السماوي وقياس ارتفاعه عن الأفق بدقة، وبأجزاء الثانية القوسية.. وهي فكرة نيوتن بالأصل (١٦٩٩)، والتي تم تحقيقها وتطبيقها بعد ظهور أجهزة القياس الدقيقة عام (١٧٣٠). والتي شارك في تطويرها كل من العالم الأمريكي كودفري والإنكليزي هادلي[٤٣]. ولم يشارف القرن الثامن عشر على الانتهاء حتى كان كل الملاحين البحريين يستخدمون آلة الثمن Octant وهو قوس يعادل ثمن الدائرة صنع من النحاس ودرج بالدرجات وتتبدل من ٤٥° درجة إلى ٦٠° درجة له تدريج دقيق وعدسة وقائس كسور فيرنييه[٤٤] Vernier جهاز باسم مخترعه الخ...

أما المشكلة الحقيقية والتي طال أمد حلها فهي قياس خط الطول، إذ لم يجد الرياضيون طريقة حسابية عملية لها.. مع أن نيوتن نصح أمثاله من العلماء مطالبة صانعي الساعات محاولة صنع ساعات دقيقة تقيس التوقيت العالمي بخطأ بسيط وتسارع يومي محدد ومعروف. وتكون تلك الساعات مصنوعة من معدن لا يتأثر كثيراً باختلاف البيئة والمكان وحرارة الجو.

وظلت المشكلة عالقة حتى صادق البرلمان الإنكليزي على اعتماد مبلغ (٢٠) ألف ليرة استرلينية لصنع ساعات توقيت كبيرة، تستطيع احتساب الزمن الحقيقي الذي منه يمكن احتساب

وتعيين خط الطول بفارق لا يتعدى ٣٠ دقيقة قوسية (أقل من نصف درجة).

وبالفعل جهد هاريسون[٤٥] (١٨٣٦) وحقق الساعة المطلوبة، ولم يقتصر الجهد على إنكلترا فقط، بل قام كل من بيرتهود[٤٦] Berthoud ولو روي[٤٧] Le Roy الفرنسيين عام (١٧٦٤) على تحقيق صنع ساعة كرونومترية دقيقة، تحقق أحلام الملاحين وأغراضهم الحسابية.. وبالفعل فإن دقة الوسائط الملاحية من ساعات وأجهزة قياس شجعت العلماء والفلكيين على إعادة النظر في رصدهم للأجرام السماوية السابقة، والتحقق من دقتها وإعادة تنظيم الجداول الفلكية الراصدة لحركة ومواقع الأجرام السماوية المستخدمة في علم الملاحة الفلكية. وعلى أثر ذلك، وبعامل المتابعة والتطوير بنيت المراصد الضخمة فكان مرصد باريس عام (١٦٦٢)، ومرصد غرينوتش عام (١٦٧٨).

خرج العالم بيكار[٤٨] Picard على العالم بأول مستند ملاحي سماه معرفة الزمن عام (١٦٨٢). وتبع ذلك صدور أول تقويم ملاحي Nautical Almanach عام (١٧٦٦)، ثم تقويم خاص يتعلق بحركة القمر سمي بجداول القمر عام (١٧٧٠). وكان لهذا الجدول فائدة كبرى، إذ باستخدامه وبرصد حركة القمر يستطيع الملاح تقدير الوقت العالمي الدقيق، ولو افتقد لساعة كرونومترية دقيقة، وهكذا أصبح بين أيدي البحارة والملاحين كل ما يحتاجونه من جداول وأجهزة، في تعيين مواقع سفنهم أية ساعة شاؤوا وبخطأ يعد مقبولاً آنذاك في حياة البحر. وبذلك استطاع المستكشفون توقيع مكتشفاتهم على الخرائط البحرية بدقة، وأخذت الفراغات الشاسعة من خرائط بحار الكرة الأرضية تذخر بالمعالم والجزر والمعابر. وهكذا دونت المكتشفات على الخرائط البحرية، وفي المحيطات بصورة معقولة ونهائية.

تنظيم رحلات المستكشفين

اتسم شكل البعثات الاستكشافية في تلك الحقبة من التاريخ بطابع الجد، حيث يقوم المستكشفون برحلاتهم الطويلة فوق سفن آمنة صغيرة (لا تزيد حمولتها عن الـ ٤٠٠ طن) لتستطيع الاقتراب من الشواطىء المستكشفة، ودخول المياه الضحلة، دون أن تجنح أو تتحطم.

صنعت أبدان السفن من الخشب الصلب المقوى بعوارض معدنية، لتحمّل الأنواء والإبحار الطويل. وجهزت السفن بالعديد من الزوارق الصغيرة، لاستخدامها في عمليات المسح القريبة من

الشاطىء، ولعمليات الإنقاذ أيضاً. وقد تناولت تعليمات بناء السفن آنذاك البذخ في تجهيزها، لتؤمن للركب المبحر عليها شروطاً حياتية وصحية جيدة، كما جهزت بوسائل تسلية لتجعل الزمن يمر أكثر حبوراً ونشوة. وأعطيت صحة المبحرين العامة عناية خاصة حيث ضوعفت المواد الغذائية الطازجة كلما سنحت الفرص بتأمينها، لإبعاد داء الحفر الذي يصيب الإنسان في إبحاره الطويل بعيداً عن الخضار والفواكه الطازجة.. حتى قيل إن ركب الكابتن كووك(٤٩) وخلال إبحار دام ثلاث سنوات، لم يفقد بالمرض من رجاله إلا رجلاً واحداً.

من القواعد الأساسية في مضاعفة هوامش الأمان إرغام البعثات البحرية على الإبحار بسفينتين على الأقل، تسيران إلى جانب بعضهما البعض، وفي مدى الصوت. لكي تهب إحداها لعون الأخرى في حالة حدوث أي مكروه من جنوح أو اصطدام بالصخور أو... كما طلب من المسؤولين عن توقيع مكان السفينة مضاعفة عمليات الرصد الفلكي، للتأكد من سلامة الموقع، مع استخدام سوابر الأعماق إمعاناً في الدقة، والسلامة، ولتوقيع المعالم البحرية على الخرائط بشكل دقيق.. وفي حال ظهور أعماق بسيطة، أو على مقربة من البر نصت التعليمات على إيقاف السفن، ومتابعة العمل من على الزوارق الصغيرة. وفي حال وجود سكان أصليين طلب إلى البحارة والبعثات البحرية التزام جانب الحذر، ومعاملتهم بمنتهى الهدوء لكسب ودّهم، مع إغداق الهدايا عليهم لاستمالتهم، والابتعاد كلياً عن القسوة أو العنف. وبالفعل مرت كافة البعثات البحرية دون حادث يذكر سوى كارثة لابيروز(٥٠) La Pérouse.

البعثات البحرية الأوربية

لم يقتصر البحث على دولة أوربية واحدة، لأن مجد الاستكشاف، هذا السبق العلمي أصبح رائد جميع الشعوب، وبجنسياتها المختلفة. فنجد روغوين(٥١) Roggewen الهولندي (١٧٢٢) الذي كان أول من بدأ كشف المحيط الهادي، حتى وصل جزر ياك، الفصح، وجزر بوموتو، وساموا.. وشاركت البحرية الإسبانية بجهد جبار، إذ نظمت البعثات العديدة، حتى تعدت بأعدادها كل الدول الأخرى مجتمعة. وبرز من رحالتها كيروغا Quiroga (١٧٤٥) الذي أكد بثقة اكتشافات ماجيلان (الأرض الماجيلانية)، وموريل Maurelle الذي وصل عام (١٧٨١) إلى تونغا Tonga، ثم أعقبه كل من مارتينيز وكادرا وغاليانو وفالديز، وهم ممن اشتهروا بالبحث والكشف، واستحقوا تقدير المؤرخين والجغرافيين. إلا أن تقديرهم لم يكسب صفة دعائية إعلامية كما حصل للمستكشفين الآخرين من روس وإنكليز وفرنسيين، فطواهم الزمن.

سبق الروس غيرهم من الجنسيات الأوربية في اهتماماتهم الجغرافية ، نظراً لاتساع رقعة بلادهم في القارة الآسيوية . وقد بدأوا اكتشافاتهم حتى قبل بطرس الكبير ، واستطلعوا البحر والبلاد الواسعة الواقعة تحت حكم القيصرة كاترين وآنا . وكان استطلاعهم منظماً ومدروساً ليؤكدوا للعالم ملكيتهم لتلك الأصقاع المجهولة ، وليمنعوا باقي الدول الأوربية الغربية من التفكير في غزوها . ومن أشهر المستكشفين الدانمركي بيرنغ(٥٢) الذي عمل في خدمة روسيا ، وكان ملاحاً شهيراً قام بعدة رحلات ، حتى كلفته الإدارة الروسية بمهمة التحقق من وجود اتصال بري بين البر الأوربي وشمال أمريكا .. وبدأ رحلته الاستكشافية هذه من كامتشاكا عام (١٧٢٠) ، وعلى سفينة صغيرة يحاذي السواحل حتى وصل خط العرض ٧٠° شمالاً ، ووجد بأن البرّ الساحلي واعتباراً من الرأس الشرقي ينحني نحو الغرب ، وهذا يعني بالنسبة له أن البر الأوربي مستقل ومنعزل عن البر الأمريكي بفاصل بحري .. ولقد تم استطلاع الطرف الآخر من هذا الفاصل البحري والذي أطلق عليه اسم مضيق بيرنغ من قبل البحاثة كفورديبف عام (١٧٣٢) .

عاد بيرنغ عام (١٧٣٣) ثانية إلى المنطقة نفسها ليوقع بدقة تفاصيل الساحل . وكلف معاونه سبانبرغ البدء برحلة استطلاعية لمدة ثلاثة أيام ، مبتدءاً من اوكهوتسك Okhotsk ليزور شواطىء البر الذي يحمل اسمه حتى وصل إلى سواحل كوريل في اليابان ، وعلى أثر ذلك أرسل الروس بعثة منظمة كبيرة نزلت نهر لينا Lena وتوزعت لعدة فصائل ، وبعدة اتجاهات تستطلع المحيط المتجمد . ومن خلالها وصل أحد رؤساء الفصائل لابتيف Laptev إلى جزر لياخوف Liakhov ، كما وصل تشيليوسكين إلى الرأس الذي يحمل اسمه والواقع في أقصى البر الآسيوي .

تابع بيرنغ رحلاته بحراً يفتش عن الأرض العجيبة ، والتي أشاروا له عليها ، وهي حسب المعلومات التي وردته تقع إلى جنوب شرق أرض غاما Gama . فوصل ببحثه البر الأمريكي بجوار سانت إيلي Saint Elie ، وعرج في طريق عودته فاستطلع جزر الاليوتين Aleoutiennes . ولعدم امتلاكه للأجهزة الملاحية الدقيقة تاه في البحار ، ولم يصل مقصده كامتشاكا في الوقت المناسب ، واضطر لقضاء فصل الشتاء في جزيرة صغيرة تقع في البحر الذي سمي باسمه . ومات هناك من قلة المواد الغذائية ومن الصقيع . واستطاع الباقون من بعثته العودة بعد حلول فصل الصيف ، ووصلوا عام (١٧٤٢) إلى بيترو بافلوك Petropavlok .

بتولي اليزابيت عام (١٧٤٣) الحكم شعرت حكومة بطرسبرج بضرورة التزام المزيد من الاحتياطات وإخفاء مستندات بيرنغ عن العالم ولم تظهر تلك المعلومات القيمة إلا في نهاية القرن

الثامن عشر، وعلى أيدي العالم الجغرافي كوكس Coxe، والعالم الطبيعي بالاس Pallas. وكان التوقيت غير مناسب لانشغال العالم بأسره برحلات الكابتن كوك الشهيرة. واضطرت كاترين الثانية إلى إجهاض سمعة كوك، بإيفاد بعثة كبيرة إلى المحيط الهادي بقيادة الكومودور بيلينغز[٥٣] Billings عام (١٧٨٥)، وألحقتها ببعثة أخرى بقيادة الألماني كروسنسترن[٥٤] Krusenstiern بين أعوام (١٨٠٣ ـــ ١٨٠٦) وكوتزيبو[٥٥] Kotzebue (١٨١٦ ـــ ١٨١٨) الذي قصد أيضاً سواحل سيبيريا وآلاسكا.. بالإضافة إلى عدة رحلات قام بها مستكشفون روس إلى الجنوب، منهم كولوفين[٥٦] Golovine الذي وصل إلى اليابان، ونزل فيها قبل انفتاحها على العالم الأوربي.

من الرحالة المستكشفين الإنكليز الذين برزوا في تلك الحقبة من الزمن: دامبيه[٥٧] Dampier، وآنسون Anson، واليس Wallis، وكارتيريه[٥٨] Carteret وكثيرون غيرهم، أشهرهم دامبيه (١٦٥٢ ـــ ١٧١٥). وقد تدرج هذا الملاح في مهنته من نوتي إلى قرصان، وقطع الهادي في كل اتجاهاته فلفت الأنظار إليه، وزار الشيلي وماليزيا، ووصل حتى السواحل الأوسترالية. ونشر قصة رحلاته عام (١٦٩٧)، فقررت الأميرالية البريطانية تكليفه بمهمة خاصة إلى جزيرة مدغشقر.. ثم اتبعتها بمهمة أخرى إلى بحار الجنوب (جنوب المحيط الهادي)، فنجح بالأولى وتعثر بالثانية، ووقعت خلافات عدة بين طواقم سفنه، لم يحسن التصرف فيها، فأعيد إلى إنكلترا، وحكم عليه بالسجن بتهمة القسوة والعنف. وكان السبب الحقيقي المباشر في محاكمته تركه لأحد بحارته وهو اسكندر سيلكيرك Alexandre Selkirk في جزيرة خوان فيرنانديز وحيداً، (وكانت تلك الحادثة وحياً للكاتب دانييل دوفو في قصته الشهيرة روبنسن كروزويه). وانتهت حياة دامبيه وهو يطالب الحكومة البريطانية بتعويضاته عن خدماته البحرية دون طائل.

تعددت بعثات الأميرالية البريطانية، فكان منها البعثة العالمية هالي[٥٩] Halley التي كلفت بدراسة وقياس الميل المغناطيسي واختلافه Variation، في مختلف مناطق العالم (١٦٩٩ ـــ ١٧٠٠)، وكذلك رحلات الكومودور آنسون Anson الذي نشر قصص رحلاته، فكانت عرضاً شيقاً لما صادفه في حياته البحرية الطويلة، كما تطرق بإسهاب للحروب الانكلو إسبانية عام (١٧٤٩).

كلف آنسون من قبل الأميرالية البريطانية بالهجوم على باناما، لكن عملياته الحربية أخفقت نتيجة إخفاقه في بحار الآنتيل، وتوزع قواه على جزرها. إذ جاب المنطقة يحارب في كل مكان من

شواطىء أمريكا الوسطى والشمالية. وبعدها دخل في عمق المحيط الهادي، وانتقل من آكابولكو على الساحل المكسيكي إلى كانتون على الساحل الصيني. وتوج أعماله باستيلائه على سفينة غليون في مياه الفيليبين محملة بالكنور والجواهر. وكانت قد اعتبرت هذه السفينة مفقودة لأربعة أعوام خلت بين أيدي قراصنة محترفين.

عاد آنسون بالنهاية إلى إنكلترا على سفينة واحدة، هي السانتوريون Centirion. وهي أول بارجة شراعية تدور حول الأرض لتعود ومعها بالإضافة إلى الغنائم مجلّد مهم حوى العديد من المعلومات القيمة، والتي اعتبرت مستندات هامة، تتعلق بوصف مسهب لمواقع وصفات جزر المحيط الهادي، بالإضافة إلى العديد من الخرائط والمخططات الإسبانية التي صودرت من على السفن الإسبانية خلال الحملة الطويلة.. وكان لآنسون الفضل الأول في نقل تلك المعلومات البحرية الهامة إلى الملاحين الأوربيين الشماليين.

لمع من ضباط آنسون بيرون[٦٠] Byron الذي أقام على سواحل باتاغونيا، ثم وقع أسيراً لعدة سنوات عند الأمريكيين الجنوبيين.. وبعد مضي عشرين عاماً وفي نهاية حرب السنوات السبع عاد بيرون إلى إنكلترا. وهناك أسندت له قيادة بعثة استكشافية كبرى لتجوب المناطق التي عاش فيها بيرون سابقاً على البر الأمريكي الجنوبي.. وبالفعل نفذ بيرون المهمة الموكلة إليه بين عامي (١٧٦٤ ـ ١٧٦٦)، وحقق ما طلب منه، وعاد بمعلومات قيمة عن سواحل أمريكا الجنوبية، وقام بدورة جديدة حول الكرة الأرضية.

وأصبحت رحلات الدوران حول الكرة الأرضية بدعة العصر، وحققها العديدون أمثال واليس Walleis وكارتيريه Carteret، حيث وصلا إلى جزر المالوين عن طريق ممر ماجيلان. وكانا يبحران سوية، وعند دخولهما المحيط الهادي انفصلا عن بعضهما، وتوجه كارتيريه إلى بوموتو Poumotou وجزر الملكة شارلوت (أرخبيل سانتاكروز دوكيروس)، ثم قام باستطلاع إيرلندة الجنوبية وهانوفر الجديدة، حتى وصل في شهر آذار من عام (١٧٦٨) إلى جزر سيليب Celibe، في حين توجه واليس بعد أن فقد العديد من رجاله إلى الأماكن والمواقع المضيافة من العالم الجديد. فبعد أن تجاوز بوموتو توجه شرقاً إلى تاهيتي وجزر الملاحين، وجزر الأصدقاء، ومكث هناك فترة من الزمن، عاد بعدها كما عاد زميله إلى إنكلترا عام (١٧٦٩)، يحملان المزيد من المعلومات، لاستكمال الصورة الحقيقية لبحار الجنوب وللمحيط الهادي الفسيح.

بالنسبة للفرنسيين كان نشاطهم أقل من الآخرين ففي ٢٥ شباط عام (١٧٦٩) قابل كارتيريه الإنكليزي، وهو في المحيط الأطلسي سفينة فرنسية هي لابودوز La boudeuse، وكانت عائدة من دورتها حول الأرض، ولم تكن السفينة الفرنسية الأولى التي تقوم بالدوران، بل سبقتها سفن عديدة قام بها كل من باربينيه Barbinais، بين أعوام (١٧١٤ ـــ ١٧١٨) وفوييه Feuilleé وفريزييه Frezier.

على أثر توقيع معاهدة باريس، ولكي تثبت فرنسا تمسكها بالمجد البحري أعادت مشاريع الرحلات البحرية الطويلة للوجود. فكان من الرحالة بوغانفيل(٦١) Bougainville الذي التحق بسلاح البحرية الفرنسي بعد سقوط كندا. وقد حاول إقامة مستعمرة جديدة في جنوب الأطلسي مع نفر من المبعدين عن آكاديا، فوقع اختياره على جزر المالوين (١٧٦٤)، لكن إنكلترا لم تمهله. وكانت أطماعها واضحة في تلك الجزر. ولكي لا يدعها تسقط في أيديهم تخلى عنها إلى الإسبان. وقام بوغانفيل بتكليف من حكومته بتنظيم وتنفيذ عمليات ترحيل الرعايا الفرنسيين المقيمين في تلك الجزر، والعودة بهم إلى فرنسا عن طريق المحيط الهادي.. وبالفعل أقلع بوغانفيل من برست في ٥ كانون الأول من عام (١٧٦٦) وعلى رأس سفينتين هما الكارسون والفيزون، ودخل المحيط الهادي في مطلع عام (١٧٦٨)، وعبر الأرخبيل الخطر بوموتو، وعرج على تاهيتي، ثم تابع طريقه نحو الغرب، فمر بأرخبيل جزر الملاحين ساموا وسيلاد الكبرى (هبريد الجديدة)، واللوبزياء. لكن نقص مواده التموينية منعته من الوصول إلى هولندا الجديدة (أوستراليا). وبصعوبة كبيرة حط في غينيا الجديدة، ومنها انتقل إلى باتافيا Batavia، وعاد في ١٦ آذار عام (١٧٦٩) إلى سان مالو في فرنسا منفذاً مهمته. واستطاع خلال تلك الرحلة الشهيرة تخطي مراحل الثورة الفرنسية، ونال رتبة عالية في سلاح البحر حتى أصبح نائب أميرال ومات عام (١٨٠٨).

رحلات كووك الثلاثة

كانت رحلات كووك الثلاثة أشهر الرحلات عامة. وقد قام بها جيمس كووك (١٧٢٣ ـــ ١٧٧٩) الملاح الشهير والكابتن الذي خلدت رحلاته في قصص وأفلام سينمائية عدة.

بدأ كووك حياته نوتياً على إحدى السفن التجارية التابعة للبحرية الإنكليزية، وكان ذكياً ذا طموحات، ودرس علم الملاحة، وأحوال البحار بنفسه، وحمل شهادة ملاح، ولقد شد انتباه رؤسائه إليه، ومنهم Palliser، بالسير خلال عمليات جزر سان لوران (١٧٥٩). فأسند له مهمة

رسم خريطة الأرض الجديدة التي غدت فيما بعد ولمدة طويلة القاعدة الأساسية لرسم خرائط المناطق البحرية في البحار الجديدة.

اهتم كووك بظاهرتي الخسوف والكسوف، خصوصاً بعد حدوث ظاهرة فلكية نادرة الحدوث تمت عام (١٧٦١)، وعادت للظهور ثانية عام (١٨٧٤) وهي عبارة عن مرور السيارة زهرة أمام الشمس. وانطلاقاً من بعد الأرض عن الشمس استرعت تلك الظاهرة انتباه كل المجتمعات العلمية، فراحت تراقب الحدث باهتمام شديد، وأرسلت البعثات العديدة العلمية، فرنسية وإنكليزية، لرصد ومراقبة الظاهرة الفلكية من نقاط عدة على الكرة الأرضية. وكلفت الأميرالية البريطانية دالريمبل Dalrymple بتنفيذ مهمة إحدى تلك البعثات فرفضها، عندها آلت إلى الكابتن كووك، حيث انطلق برحلته العلمية في ٢٦ آب (١٧٦٨) من ميناء بليموث على السفينة آنديفور Endeavour يرافقه العالمان بانكس Banks وسولاندر Solander. وكانت الوجهة الأولية جزيرة تاهيتي فوصلوها في ١٣ نيسان (١٧٦٩).

قام كووك هناك وبمعونة الهيئة العلمية المرافقة له بعمليات كشف واستطلاع دقيقين للأرخبيل المجاور، والذي أطلق عليه اسم أرخبيل المجتمع Société. ثم اتجه جنوباً حتى وصل زيلندة الجديدة، فأمضى بها ستة أشهر عمل، واستدار حولها، وتعرف على دقائق صفات سواحلها، وتعامل مع سكانها الأصليين، ونقل العديد من المعلومات عنهم وعن جوارهم، ثم أقلع إلى أوستراليا، وحاذى حوالي (١٦٠٠) ميل من سواحلها الشرقية، بظروف ملاحية قاسية، وأنواء عاتية .. حتى جنحت سفينته على شعب مرجاني، ولم تنج من الكارثة إلا بأعجوبة. وظلت كتلة كبيرة من الشعب عالقة في قاع السفينة تحت خط الماء المتسرب. وأخيراً عادت الانديفور إلى مرسى الدون Dunes في ١٢ مايس من عام (١٧٧١).

لم تحقق بعثة استكشافية بعد رحلة ماجيلان ما حققته رحلة كووك الأولى فلقد كانت على مستوى عال من البحث والاستقصاء، وغنية جداً بالمعارف الدقيقة. وهذا ما رشح كووك ثانية لقيادة بعثة علمية جديدة، طالب من خلالها الباحثون تحقيق فرضية طال فيها الجدل منذ قرون عديدة.

أصر الجغرافيون على إمكانية وجود هذه الفرضية في نصف الكرة الجنوبية، وهي أنه لا بد أن تكون هناك كتلة من البر الشاسع في الأصقاع الجنوبية، كعامل مكافىء للبر الواقع في النصف الآخر من الكرة الشمالي، للمحافظة على توازن مطلق. وتمسك الجغرافيون بالفرضية، وهم

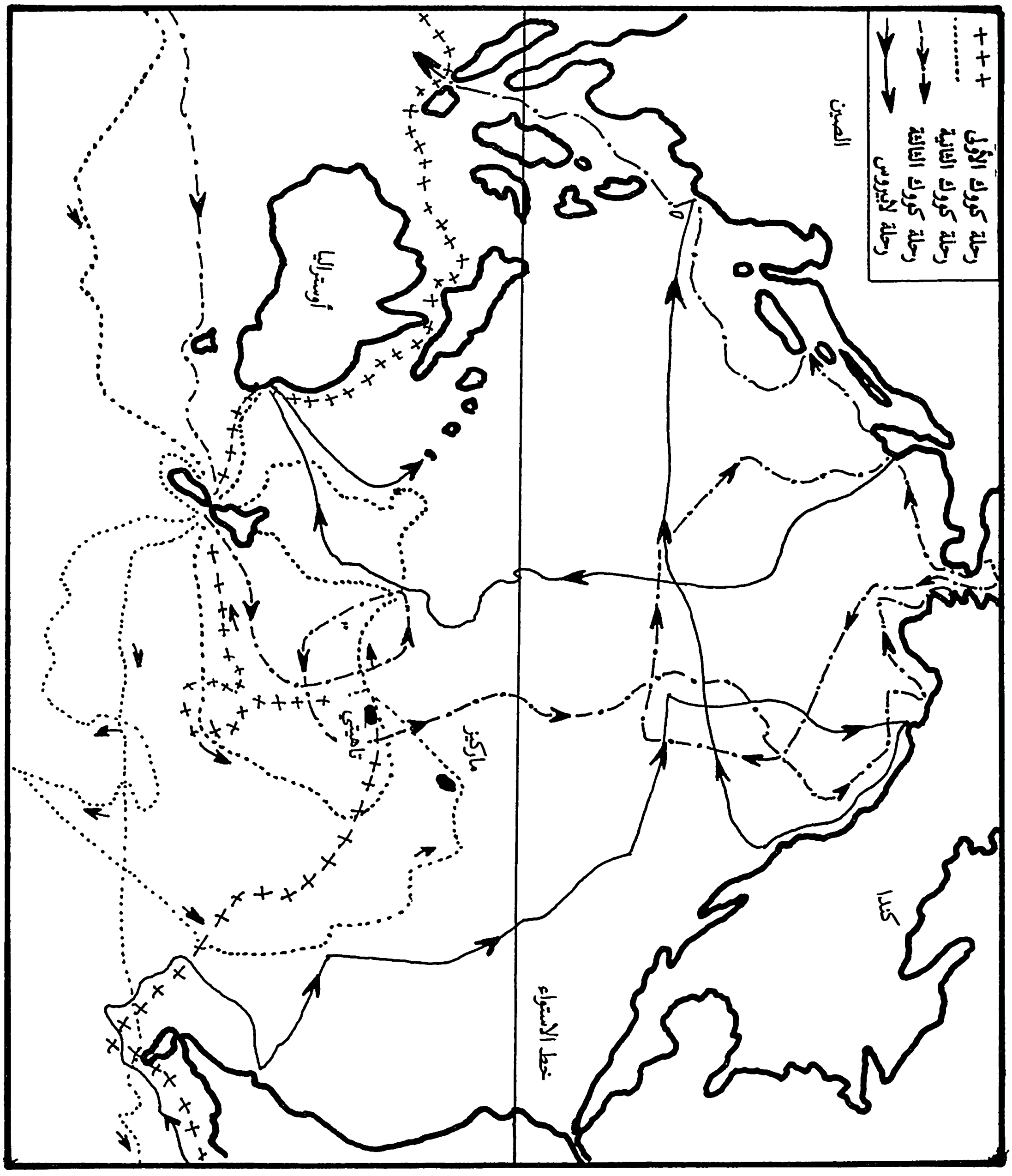
رحلة كوك الأولى
رحلة كوك الثانية
رحلة كوك الثالثة
رحلة لابيروس
الصين
أوستراليا
كندا
خط الاستواء
تاهيتي
ماركيز

يستندون إلى معلومات نقلها كل من الرحالة غوتفيليه Goutevillé في نهاية القرن السادس عشر، وكيروس Quiros في القرن السابع عشر. حتى إن الشركة الفرنسية الهندية أرسلت باتجاه ذلك البر المتوقع بعثة علمية برئاسة بوفيه دولوزييه Bouvet De Lozier عام (١٧٣٩)، حيث نقل فيما بعد مشاهداته التي تقول إنه بدأ يصادف البر اعتباراً من خط العرض ٥٦° درجة جنوباً. وجاء كيرغولان Kerguelen من بعده (١٧٧٢) فأكد ذلك. وعندما وصل كووك إلى المنطقة المشار إليها اضطر إلى السير جنوباً، حتى اكتشف بنفسه أن البر المعلن لم يكن إلا أرخبيلاً كبيراً منعزلاً.. لكنه اضطر إلى سحب قوله هذا، وتحفظ قائلاً إن إعطاء أي رأي أكيد في هذاالمضمار سابق جداً لأوانه، والعالم والرحالة لا يعرفون إلا النذر اليسير من مجاهل المحيطات الكبرى، وخاصة في المناطق التي تقع إلى جنوب خط العرض ٤٠° درجة جنوباً. ولهذا قبِل كووك مهمته الجديدة، وحققها بشكل لفت أنظار العالم والباحثين. فمن على الريزوليشن Resolution وعلى مدى رحلات ثلاث حقق عملية إحاطة كاملة للقطب الجنوبي، واستدار بخط عرض ٥٥° درجة جنوباً، وجانب السواحل الجنوبية، حتى وصل في كانون الثاني من عام (١٧٧٤) إلى أقصى نقطة في الجنوب (كانون الثاني في الكرة الجنوبية أول الصيف)، لم يصلها إنسان من قبل. وتقع على خط عرض ١٠ ٧١° درجة جنوباً. ولم يشاهد كووك هناك إلا جزراً مبعثرة لا قيمة لها، كجزائر البرنس إدوارد، وجورجيا الجنوبية، والأوركاد، وجزر الساندويش. وخلص كووك إلى إعطاء رأيه في نظرية التوازن البري بين نصفي الكرة الأرضية قائلاً:

«لو كانت هناك في نصف الكرة الجنوبية مناطق قارية كما في النصف الشمالي وموازنة لها، فلا بد أن تكون صحارى قاحلة من الجليد والصخور العالية».

حرص كووك خلال جولاته البحرية على العودة شتاء لجزر تاهيتي وجوارها. وكان يستغل الفرصة لجمع المزيد من المعلومات، ولاكتشاف المزيد من الجزر، وبالفعل استطلع جزيرة نورفلوك، وجزيرة كلدونيا الجديدة، وهبريد الجديدة، وجزر تونغا (وهي جزر الأصدقاء، وتاسمان)، وجزر الماركيز والفصح الخ.. وعندما عاد في ٣٠ تموز من عام (١٧٧٥) إلى إنكلترا لم يترك وراءه إلا القليل من بقاع الباسفيك الجنوبية والوسطى لم يستطلعها.

بعد أقل من عام عاد كووك إلى البحر ثانية على السفينتين ديزولوش وديسكوفري. وكانت مهمته الجديدة في هذه الرحلة هي تحديد إمكانية العبور من الهادي إلى الأطلسي عن طريق شمال أوربة، إذ كان ممر من هذا القبيل الشغل الشاغل لرجال القرن السادس عشر، كما لحظنا ذلك

سالفاً. ولتحقيق هذه المهمة خصص البرلمان البريطاني مبلغ عشرين ألف استرلينية لإيجاد مثل هذا المعبر الحيوي. وحصلت شركة خليج هدسن على امتياز البحث، واتفقت مع كل من ميدلتون Middleton عام (١٧٧٢)، وهيرن Hearne (١٧٦٩) اللذين سعيا وراء الهدف بانطلاقهما من المحيط الأطلسي دون أن يحرزا أي نتيجة وكان ذلك أمراً طبيعياً، لأن تعرّج وتقعّر شواطىء خليج هدسن ناجم عن مصبات أنهار كبيرة أحدثت خلجاناً وممرات. وارتأى كووك عندما قبل بمهمته الجديدة بدء البحث عن هذا الممر من الجانب الآخر، أي من طرف المحيط الهادي.. خصوصاً بعد أن كثر الحديث عنه منقولاً عن ألسنة أمراء بحريين إسبان أمثال جوان دوفوكا، وبارتهولوميو دو فونت، تؤكد وجود مثل هذا الممر، وتؤكد استخدامهم له في رحلاتهم البحرية السالفة.

بدأ كووك رحلته متوجهاً إلى تاسمانيا وزيلندة الجديدة، ثم نزل حتى تاهيتي، فاكتشف جزر كريسماس وهاواي (كان قد اكتشف هاواي الرحالة جوان غايتانو عام ١٥٥٥). ومن هناك واصل كووك سيره حتى الساحل الأمريكي فوصله في ٧ آذار (١٧٧٨)، وبدأ بمحاذاة الساحل وبدءاً من مدخل نهر أوريغون Orégon وظل في موازاته لمدة تزيد عن ستة أشهر. وعبر مضيق بيرنغ حتى وصل إلى يابسة البر المتجمد. وتوقف أمام الجبال الجليدية العائمة في نقطة عرض ٤٤َ ٧٠° شمالاً، ثم تراجع ليقضي شتاءه في جزر الساندويش، حيث لقي حتفه هناك في ١٤ شباط (١٧٧٨)، إثر حادث سخيف لخلاف مع السكان الأصليين.

بعد موت كووك عاد معاونوه بالسفن إلى إنكلترا، بعد توقف بسيط في جوار المنطقة القطبية.. يحملون معهم آخر المعلومات القيمة التي تتعلق بالمهمة التي أرسلوا من أجلها.. وعلى أثر عودتهم.. أعلنوا للعالم بأسره أنه لو كان هناك أي ممر بين المحيطين في الشمال لا بد وأن يكون في عرض جغرافي أكثر شمالاً.. وهو مغطى بالجبال الجليدية أكثر أيام السنة.. ويعني هذا القول أن البحث عن مثل هذا الممر عمل ضائع لا يؤدي إلى أية خدمة ملاحية، والأفضل الكف عن إرسال البعثات البحرية لذلك الهدف.

توج الكابتن كووك، وحتى قبل مماته بلقب القديس الفيلسوف ملك الجغرافيا ورائد الإنسانية. وبالغت إنكلترا في تبجيله جداً وصل حتى السخف. ولا ننكر البتة أن كووك رجل شجاع أعطى العالم العديد من مكتشفاته، لكنه في الوقت نفسه اتصف بالقسوة والعنف ولم يكن يعرف الرحمة، وكان كئيباً سوداوي النزعة.. دخل قلوب العديد من سكان جزر البولينيزيا، إذ حمل لهم بعض الحيوانات الأليفة غير المعروفة في تلك الجزر، كما حمل إليهم بعض الزراعات الأوربية..

والأهم من ذلك ما قدمه من خدمات جمة لرجال البحر، إذ كان عالماً كبيراً، واكتشف في المحيط الهادي العديد من المواقع والجزر، وثبتها بدقة على الخرائط البحرية، دون أن تحتاج في المستقبل إلى تصحيح كبير. وبفضله رسمت خرائط لبحار عديدة، لم تطرقها سفن الباحثين من قبل.. وأخيراً قدم كووك إلى جانب ذلك كله معلومات قيمة ذاخرة في علم الطبيعة والأجناس البشرية وأعراقهم، وتطور وخصائص العديد من الشعوب ولغاتهم المستعملة، كما أن علم الصحة البحرية مدين لكووك بالكثير من المعارف الطبية، وتطبيقات الرعاية الصحية فيها، فكان حصاداً لفيض من المعرفة لم يأت بحاث قبله بمثل ذلك الذخر العظيم من العلم والمعرفة. فقد سبق علماء عصره بالعديد من المكتشفات العلمية.. وكان والحق يقال من كبار رجال البحر وعلمائه، وأعطى وطنه إنكلترا السبق في وضع يدها على العديد من المستعمرات الغنية وراء البحار، خاصة في المحيط الهادي الفسيح. لكن عقوق الإنسان عرفٌ وتقليدٌ لم ينج منه كووك، إذ سرعان ما طويت ذكرى ذلك البطل الفذ.

البعثات الاستكشافية الفرنسية (لابيروس)

قام الفرنسيون بعدة بعثات علمية متوسطة السمعة والمدى، نذكر منها رحلات كيرغيلان Kerguelen إلى المناطق القطبية بين أعوام (١٧٧١و ١٧٧٤)، والتي جاءت قليلة الأثر حزينة، إذ انتهت بمأساة أوصلت من خلالها قائد البعثة للمثول أمام القضاء، والحكم عليه نتيجة تسلطه والتحكم بمصائر مرؤوسيه وإساءة معاملتهم، وأعقب كيرغيلان سورفيل Surville الذي وصل لشواطىء زيلندة الجديدة، وانتهى هناك عقب أعمال عنف وتمرد، وماريون Marion الذي اكتشف مجموعة جزر سميت باسمه، وكروزيه الذي انتهى فيها اغتيالاً عام (١٧٧٢)، على أيدي سكان زيلندة الجديدة الأصليين. ويقال إنه ذهب ضحية المآسي التي ارتكبها سلفه سورفيل بحق تلك الشعوب.

وعلى العموم فإن غالبية البعثات الفرنسية كانت تافهة لا يجدر حتى الاتيان على ذكرها، لأنها لم تترك أي أثر علمي أو ملاحي ذي شأن. ويشذ عن ذلك الملاح لابيروس جان فرانسوا دوغالوب، إذ يجدر بنا سرد بعضٍ من آثاره الاستكشافية.

كلف لا بيروس من قبل ملك فرنسا بالذات بالقيام برحلات بحرية مشابهة لما قدمه كووك، لزيادة معرفة فرنسا للمحيط الهادي الفسيح، ولابيروس (١٧٤١ ــ ١٧٨٨) La Pérouse ملاح فرنسي كلفه لويس السادس عشر بقيادة بعثة استكشافية بحرية، تركت ميناء برست في الأول من آب (١٧٨٥)، على رأس فرقاطتين هما البوصلة والاسطرلاب. ووصل في ٩ نيسان (١٧٨٦)

جزر باك وجزر هاواي، وانتقل في شهر تموز إلى سواحل أمريكا الشمالية الغربية، ثم اجتاز المحيط الهادي، ونزل في ماكاو، وفي جزر الفيليبين. واكتشف مضيقاً بين جزيرة سافالين آب (١٧٨٧) وجزيرة هوكايدو وسمي المضيق باسمه. ووصل كاماتشاكا، ومن هناك أرسل بمعلوماته إلى فرنسا، ثم أقلع فتجاوز خليج بوتاني في شهر كانون الثاني من عام (١٧٨٨). ومن هناك أرسل آخر رسائله ومستنداته.. وبعدها اختفى مع سفنه وبقي سر اختفائه فترة تزيد عن الأربعين عاماً، حتى كشف هذا السر الملاح دومون دورفيل[٦٢] Dumont D'urvile، إذ حظي بحطام الفرقاطة البوصلة على شواطىء جزيرة فانيكورو، وتأكد له أن لابيروس ورفاقه قتلوا من قبل سكان الجزيرة الأصليين بعد تحطم سفنهم. أو أنهم تاهوا في البحار الشاسعة وانتثروا في جزرها العديدة.

أرسلت فرنسا على أثر اختفاء لابيروس بعثة جديدة عام (١٧٩١) عقدت إمرتها إلى الأميرال بروني وانترو كاستو، ترافقه هيئة أركان قيادة تضمنت العديد من رجال البحر والعلماء، منهم عالم الهيدوغرافيا بوتان بوبرية[٦٣] Beautemps Beaupré. وغابت الحملة عامين كاملين في بحار الجنوب تستكشف، وتفتش عن رحلة لابيروس. وفي نهاية الرحلة مات الأميرال (١٧٩٤) قائد الحملة، فانشطر ضباطه إلى ملكيين وجمهوريين، واشتد الخصام بينهما واضطروا في النهاية لبيع السفن إلى الهولنديين في باتافيا. وعاد منهم من عاد إلى فرنسا وضاع الباقون في مجاهل جزر البحار المنتشرة.

استكمال التعرف على جزر المحيط الهادي

بعد رحلات كووك الشهيرة لم يعد في المحيط الهادي الكثير من المواقع المجهولة. ولو وجدت لكانت أهدافاً ثانوية أمثال جزر غامبيا وماريشال وجيلبر الخ. ولقد تابعت إنكلترا جهودها العلمية بإرسال البعثات العديدة، لاستكمال الأبحاث. ومن أشهر البحاثة بورتلوك Portlock، وديكسون Dixon عام (١٧٨٤)، وفانكوفر Vancouver (١٧٩٢ ــ ١٧٩٥)، وفانينغ Fanning (١٩٧٥)، وفليندرز Flinders (١٨٠٢)، وبلاي Bligh.

في تلك الأثناء راجت تجارة رابحة أقبل على مزاولتها رحالة عديدون، وهي جمع الفراء من كندا وآلاسكا وكولومبيا، ونقله إلى الأسواق الأوربية. وهكذا عاد البحر بمحيطاته من جديد ليكون مسرحاً عالمياً للسياسة والاقتصاد. وحتى المحيط الهادي الذي حكم عليه سابقاً بقلة موارده الاقتصادية، وجد فيه رجال المال والاقتصاد جزراً كبيرة تبشر بالخير العميم. ومن أمثال تلك الجزر غينيا الجديدة، هولندا الجديدة، زيلندة الجديدة، وقارة أوستراليا وما حولها. ولم ينقض على كووك

عشر سنوات حتى خرج فيليبس الإنكليزي بالزخم نفسه الذي عهدناه لدى كووك، وقام برحلة بحرية طويلة، وانتهت به إلى إقامة مؤسسة تجارية على البر الأوسترالي في موقع يدعى بوتاني باي Boutany Bay عام (١٧٨٨). وبذلك أعلن فيليبس بدء إمبراطورية استعمارية جديدة في القارة الأوسترالية من العالم.

حثت المملكة البريطانية الخطا لتثبيت دعائم تلك المستعمرة الواسعة، مبعدة كل ما هو غير بريطاني (فرنسي هولندي إسباني روسي). وتنفرد وحدها في احتلال مركز الصدارة في التجارة العالمية، وحتى في تجارة الفراء المربحة. وكان لهذا الانفراد الإنكليزي عواقبه، إذ بدأت تظهر في الآفاق السياسية بوادر نزاع استعماري طويل واقع لا محالة بين الدول الأوربية الطامعة في مستعمرات ما وراء البحر.. وأصبح المحيط الهادي مسرحاً واسعاً لهذا النزاع، وهو الطريق المفتوح والعريض إلى الأمريكتين وجزائر الهند والصين.. الخ..

الفصـــل الثـانـي

التطــور البحــري
خـلال القـرن الثـامـن عشـر
ذروة مجـد البحـريـة الشـراعيـة

لقد أعطتنا هذه الحقبة من الزمن صورة صادقة عن الأعمال البحرية في السفن الشراعية، وتطورها الكامل.. وطرأت تحسينات سريعة وعديدة، حولتها إلى شكل ثوري من التفاعل في قواعد فن بناء السفن وتخصصاتها.

وصلنا خلال القرن الثامن عشر إلى ذروة مجد السفن الشراعية ومقدرتها العملية في أداء دورها الفعال، عبر البحار والمحيطات. وقد يرجع الفضل إلى التطور العلمي الكبير الذي اتصف به هذا القرن، وإلى الأحلام العظيمة التي استطاع مهندسو بناء السفن تحقيقها، وبأحسن صورة. وغدا بناء السفن يعتمد في حساباته على قوانين علمية مدروسة، تأخذ بعين الاعتبار مقاومة بدن السفن للعوامل الخارجية المؤثرة عليها، وخاصة حركة الأمواج والتيارات البحرية، ومقدرتها على الثبات في الظروف الجوية القاسية، وفي المعابر البحرية الضيقة، حيث الأنواء والعواصف الهوجاء.. وبرز العديدون من علماء البحر، وصناع فنّه، واستكملوا الدراسات الرياضية الكاملة للعائمة عامة، ثم خصّوا كل طراز منها بدراسة منفصلة، ليحققوا لكل نوع من تلك السفن مزايا أعظمية في تحمل أنواء البحر، ورفع هوامش السلامة والأمن.. وقد قاموا بأبحاث فيزيائية وتجريبية لدراسة تأثير مقاومة الماء وتوازن الأجسام الطافية فيه، حتى وصلوا إلى تحديد دقيق لخط العوم الصحيح على السفن، للوصول إلى أقصى درجات السلامة والاتزان. ويرجع الفضل إلى تطبيق بعض نظريات الهندسة

الوصفية Descriptive في رسم هيكل السفن الجديد ووصلوا بالتعاون إلى نموذج مبسط وكامل يحقق كل عناصر الاستخدام الأساسية بأسلوب سهل البناء بعيد عن التعقيد وقابل للإنتاج بأعداد كبيرة، وقد مسح جميع سفن الأسطول بمسحة من التوحيد والتجانس في الشكل والمقدرة وهو أمر لم يحققه أحد من قبل.

كان لمؤلفات العالم السويدي شابمان[٦٤] Chapman، والإسباني جورج جوان Georges Juan (١٧٧٤) كبير الأثر في تقديم البيانات الصحيحة، والحجج المقنعة لعلم بناء السفن الشراعية. وجاء سافيه Savé الفرنسي (١٧٤٠ ــ ١٨١٧) ليؤكد ما جاء في تلك المؤلفات، وليضيف عليها دراسة فنية راقية، تتعلق بشكل السفن والبوارج الشراعية. حتى إن هذه العائمات صُنّعت ضمن نماذج ثلاثة، البارجة ذات الـ (١١٨) مدفعاً، وذات الـ (٨٠) مدفعاً، وذات الـ (٧٤) مدفعاً.. وبقيت تلك النماذج يعمل بها إلى أكثر من نصف قرن، وحتى ظهور البخار واستخدامه في البحر.

بقيت البوارج الشراعية ولأمد طويل السفن الحربية الأكثر جودة وفعالية، منذ منتصف القرن السابع عشر. واستمرت مع بعض التعديلات الطفيفة حتى عصر البخار. وكانت في الحقيقة عبارة عن صيحات فنية رائعة، متقنة زينتها في الداخل، مهيبة طلعتها من الخارج، يتصدر مقدمتها منخس كبير يزين إطلالتها. وغالباً ما نجد على هذا المنخس تمثالاً برونزياً يمثل رأس حيوان خرافي، أو جسد حورية بحرية. أما إذا تفقدنا قمراتها فكلها تحف فنية رائعة. وقد غطيت جدرانها باللوحات الجميلة، ونثرت على أرضها الطنافس ونثرت في زواياها التماثيل، بالإضافة إلى مساحات واسعة من جدرانها زينت بالنباتات الاستوائية بألوانها الزاهية. وقد رسمت خلالها صور الأبطال في أوضاع قتالية، أو رسوم حوريات في مجالس رومانسية. أما البوارج فكانت تدهن من الخارج بألوان قاسية لتعطي للمحاربين صورة أكثر جدية وحزماً.

بقي مقدم السفينة منخفضاً ليجعل سيرها متهاوياً فتشق عباب الماء، وتتحمل الأمواج، وتلبي رغبة قائدها في المناورة والقتال، مطواعة.. نشيطة. أما مدفعيتها فقد جعلت من أعيرة أضخم مع تطور أسلوب القتال. ولم تشذ أية دولة أوربية عن الأسس التي ذكرت، ماعدا إنكلترا. فقد حافظت على أنموذج صغير من السفن أو البوارج، لا تتعدى فوهات مدافعها الـ (٥٠) مدفعاً فقط.

هذا بالنسبة للبوارج، أما بالنسبة للسفن المساعدة، فقد تعددت الأنواع بتعدد المهام. إذ نجد السميريات Avisos والفرقاطات ذوات الصواري الثلاث، والتي تفرع عنها عدة نماذج أخرى سميت بأسماء مختلفة. وكانت كلها بشكل عام سفنَ مُرافقةٍ سريعةً جيدة الحركة والمناورة. ومن أهم مهامها التعبوية مواكبة السفن التجارية، وتقديم الدعم لسرعة تدخلها.. كما أنها كانت السفينة المثالية في مهمة الاستطلاع، أو نقل الأوامر المستعجلة، ومراقبة السواحل، والقيام بالإغارات المحدودة.

ظل المدفع البحري السلاح الأساسي للسفن الحربية طيلة قرون عديدة. وكانت أساليب الرمي به بدائية جداً. فالمدفع نفسه يتحرك على عجلات أربع، ويعود إلى وضعية الإصلاء بعد كل قذيفة. أما تذخيره فيتم بالأيدي بصعوبة وجهد. ويتم التسديد على الهدف المعادي بالنظر وبطريقة بدائية. وكانت هناك آراء عدة حول اختيار نقاط أو مراكز الأهداف المعادية. إذ ذهب الإنكليز إلى ضرب الجسم الرئيسي للسفينة المعادية، وذلك لإيقاع أكبر أذى في طاقم العدو، في حين كان الفرنسيون يستهدفون الصواري والأشرعة، لإرباك مناورة السفينة المعادية وشل حركتها. ولقد ثبت فيما بعد صواب الأسلوب الإنكليزي، خصوصاً بعد ظهور سلاح الكاروناد Çaronade بالفرنسية، وسماشر Smasher بالإنكليزية عام (١٧٨٠) ولنسمِّه المدفع الماحق المدمّر. وهو فوهة نار من الحديد ومن عيار ضخم، قصير السبطانة، وبدون برج، له فتحة ثابتة ولا يتراجع، مداه قصير قليل الدقة في الإصابة خطير إن أصاب، وخطره يصل أحياناً إلى سدنته وإلى المركب الذي يحمله (خطر الانفجار)، ويعمل أحياناً على فك أوصال جانب السفينة، لكنه يرمي ثلاث مرات أسرع من المدفع العادي، وشظاياه أكثف وأخطر، وقوته التدميرية أكبر، ووزنه قليل، ولا يشغل مساحة واسعة. وهو السلاح المثالي في المسافات القصيرة لفعله التدميري الكبير. فمدفع مدمر من هذا النوع على السفينة فلورا Flora يديره رجلان استطاعا خلال ثوانٍ قليلة تدمير سطح الفرقاطة الفرنسية نيمف Numphe وأجبرها على الاستسلام.

عمّ المدفع المدمّر جميع السفن الإنكليزية، ولم يظهر وجوده على السفن الفرنسية إلا متأخراً، لأنه غير فعال في المسافات البعيدة التي تزيد عن (٦٠٠) متر.

استراتيجية قتال السفن الشراعية

كان العرف السائد لإنهاء أية معركة بحرية هو بالانقضاض على الخصم بعد تلاحم السفن،

حيث يأتي دور السلاح الأبيض لإنهاء القتال، واستسلام أحد المتنازعين إلى المتنازع الآخر. لكن هذا الأسلوب القتالي تراجع شكله بعض الشيء، بعد ظهور المدفع، كما أن دور السفن الحراقة قد تقلص جداً، فنادراً ما تشاهد خصوصاً في قتال التشكيلات. وغدت المعركة البحرية عبارة عن قصف مدفعي متبادل بقذائف لا هي بالقاتلة ولا هي بالمجدية. وخاصة بعد أن قويت مجنبات السفن، وضوعفت سماكتها، بحيث أصبحت مقاومة لكرات المدفع. وهذا ما دفع بيغو دو مورغ Bitot De Mroogues إلى القول:

«بأن لا عمليات مصيرية في معارك البحر».

أما تكتيك القتال البحري فقد بدأت تظهر بعض قواعده منذ مطلع القرن السابع عشر، إذ دخلت عليه نظريات عدة، اعطت التشكيلات البحرية صفة التجانس بين السفن المشكلة لها، من حيث الكفاءة والبناء، لتستطيع تقديم صفات تعبوية متشابهة، في عمل جماعي مشترك، يتصف بالصراحة والقسوة المطلقتين. ومن الصفات الصلبة التي تشدد بها قادة التشكيلات البحرية هو تمسكهم التام بأصول التحرك الجماعي. وكانوا يحرمون على قادة سفنهم الخروج من التشكيل التعبوي حتى لو كان ذلك لمساعدة سفينة صديقة في مأزق. ويسري هذا الأمر ليشمل حتى أمراء البحر الموجودين ضمن تشكيل كبير، فهم لا يجسرون على الإتيان بأية حركة أو مناورة دون إذن مسبق من قائد التشكيل.

تتحرك المجموعات وتناور وكأنها قطعة واحدة بإمرة القائد الأعلى للتشكيل، وهو المسؤول الوحيد عن تحركات تشكيله، وهمه الأول هو عدم ترك وحداته تفاجأ بكمائن معادية. وعليه وحده تحضير التحركات اللازمة لإفشال الفرص المؤاتية للعدو، وخاصة في ظروف قتال تتساوى فيها الكفاءات، لكنها تتفاوت من حيث المواقع، وتأثير الريح، والتيار على المقاتلين. وعلى قائد التشكيل التزام النقاط الأساسية التالية:

ــ إخفاء نقاط ضعف تشكيله عن العدو.

ــ إظهار المزايا القوية في تشكيله لإرهاب خصمه.

ــ اعتراض العدو بمجنبة سفنه، وبدء المعركة بجعل جميع سفنه تشترك في القتال في آن واحد.

ــ اختيار الجهة التي منها يعصف الريح وجعل عدوه تحتها، وبذلك يكون قد أمن قدرة كاملة لأشرعته، يستطيع بها سرعة الحركة والمناورة.

ــ أما في الظروف المفاجئة والتي لا يستطيع فيها القائد تحقيق النقاط الأساسية السابقة وتسمى تلك

الحالات بالمناورات النادرة والصعبة، وتحصل تلك عندما يسعى أحد المتقاتلين إلى مفاجأة خصمه بمناورة لم يتوقعها يؤمن فيها تفوقاً عددياً كبيراً على عدوه، بعملية خرق أو إحاطة لقسم من تشكيلة خصمه ... وهنا تلعب كفاءة ومقدرة القادة البحريين في حسن التخلص، بالإقدام والمغامرة، مع إتقان علم القتال التعبوي وقواعده العامة، ويمكن تلخيص هذا بالتعريف التالي:

«فن تطبيق البوارج والسفن الحربية الأخرى لأسس التحرك والمناورة والمداورة الجماعية، والانتقال من تشكيل إلى آخر، بنظام وفعالية، مع تقديم أفضل المواقع والظروف لحسن سير المعركة ..».

ويقول ايستنغ Estaing:

«إذا كان قادة السفن كافة من المناورين البارعين تستطيع تقدير ما سيفعلونه مسبقاً، إذ إن طريق كل سفينة معروف إن أحسن تنفيذ القواعد في التشكيلات القتالية. وبذلك يرتسم المشهد في المخيلة، إلا إذا حصلت مفاجآت آنية من حيث الريح وشدتها وأثرها على السفينة التي تقوم بالمناورة. وهنا يمكن أن تصاب السفينة تحت تلك الظروف المفاجئة بالارتباك، فتربك هي أيضاً نظام حركة التشكيل كله».

أطلق على علم التكتيك البحري في فترة زمنية اسم فن الإشارة ونقلها وتنفيذها. وهذا غير مستغرب إذا عرفنا أن استخدام أعلام الإشارة (وهي أعلام ملونة ترمز إلى الأحرف والأرقام ابتكرها كل من هاو Hawe وكمبنفنيلدت Kempenfeldt وبوبهام Popham في إنكلترا، وبافيون Pavillon في فرنسا، تستخدم على صواري السفن لتبادل المعرفة، ونقل الأوامر، وتنفيذها طبقاً لاصطلاحات معينة) وصلت إلى حد الكمال في الدقة وحسن الأداء. وبها تتحرك السفن وكأنها قطعة واحدة، عند تنفيذ أية إشارة صادرة عن سفينة القيادة. وكذلك الأمر في فتح النار وإيقافه. وبقيت أساليب استخدام تلك الاصطلاحات قائمة حتى يومنا هذا.. ولو أن الاتصال اللاسلكي والبعيد المدى أضعف شأنها، وغدت تقليداً بحرياً يعني الماضي بجماله ومجده.

بالغ عديدون من أمراء البحر ومن مختلف الجنسيات في لعبة تبادل الإشارة، وتحريك الأساطيل، حتى أصبحت كلعبة (الضامة)، همّ القادة فيها سرعة فهم الإشارة، وحسن الأداء والتنفيذ. حتى ابتعدوا عن أصل تواجدها والغاية منها. وهذا ما دفع بـ موروبا إلى وصف المعارك البحرية أمام جمع من أصدقائه، إذ قال متسائلاً:

«هل تعرفون ما هي المعركة البحرية؟ سأقول لكم، هي إشارات وإشارات مكررة. وفيها

نناور، نقترب، نتبادل طلقات المدفعية، ثم إشارات فننسحب، وينتهي كل شيء، ولا يتبدل شيء، حتى إن ماء البحر لا تتغير ملوحته».

وبالفعل بدأ رجال البحر يستهينون بالمعارك البحرية، ويستعيضون عنها بحركات استعراضية لا تؤدي إلى نتيجة فعالة. وهذا ما دفع الساسة القياديين لتبديل مهام الأساطيل البحرية والاستفادة منها باستخدامها في مهام جديدة، وخاصة في عمليات النقل البحري المواكب بالسفن الحربية، أو بعمليات إنزال بحري على البر المعادي، واحتلال المواقع والحصون، وحيث تكون النتائج العملية أشياء حسية مرئية ملموسة. وهذا نفسه كان قد حصل لقادة الجيوش البرية، حين انتقلوا أيضاً من معارك المواقع إلى عمليات الكر والفر وإعداد الخطط، وتنفيذها، واحتلال الأرض والتشبث بها. وقد وصف المقاتلون تندراً بالمقولة التالية:

«إن الجنرال المحنك يستطيع القتال طيلة حياته، دون أن يكون مجبراً فعلياً» وينطبق هذا على قتال المواقع.

يعود الفضل الأول في تطوير سبل القتال البحري إلى أمراء البحر الإنكليز، الذين تخلوا عن مرحلة فن القتال المنضّد، وفتشوا عن ملاحم فعلية. وأداروا معارك بحرية صاخبة، تعدت أهدافها الطابع السياسي والجغرافي، وراحت تؤكد للعالم أجمع سيادتهم البحرية، بعامل السليقة والتقليد التاريخي، بالإضافة إلى تطبيق قواعد القتال البحرية الموضوعية. وفي فرنسا حاول سوفران(٦٥) Suffren إعطاء مثل صحيح لإدراك جوهر المعركة البحرية وأهدافها، بواقع عملي غايته تدمير قوى ووسائط العدو تدميراً يصل حتى الإبادة الكاملة. إلا أنه بقي لوحده مع أفكاره لم يشاركه فيها أحد. وظلت جهوده مجهضة حتى حروب السنوات السبع والحروب الأمريكية. إلا أن أفكاره وأفكار غيره من المتجددين أثرت في قادة البحر، فأكسبتهم شعوراً بالشرف العسكري المتمسك بقيم التعصب الوطني، ومسحتهم بطابع الجدية، وروح الانتقام. خاصة من كان في صف المنهزمين من حروب السنوات السبع.. وعلى أثر ذلك عمت صفات تقليدية بحرية لدى قادة السفن والتشكيلات، أصبحت فيما بعد عرفاً وشرفاً بحرياً لا يحاد عنه. فمثلاً قائد سفينة تغرق لا يغادرها إلا بعد مغادرة جميع أفراد طاقمه، وأحياناً يفضل الغوص معها في غياهب المحيطات. وإن لم يتمسك بتقاليد الشرف هذه إضافة إلى قواعد أخرى عديدة، يفقد سمعته وشرفه العسكري. وبذلك انتقل دور الضابط البحري من صفة السيد المهذب ربيب الصالونات والمجتمعات المخملية المميزة، إلى واحد من أفراد القوات البحرية الناشطة، يقاسم عناصر السفينة الشدائد والصعاب، ويهتم بدقائق مشاكلهم،

وينفذ القسط الأكبر والأهم من أعمال إدارة السفينة ، ويسهر على التدريب ، ويقود في السلم وفي الحرب ، حتى غدا مثلاً أعلى يحتذى به . ولم يعد ذاك الرجل المترف عين الحاكم أو الملك والجاهل لأمور البحر .

وانقرض بذلك عهد محاور المرشدين الدائمين على السفن ، والذين لا يتم تنفيذ أمر إلا بمعرفتهم (كان الضابط البحري في السابق رمزاً للقيادة على السفينة ، ويقوم بالعمل الفعلي في الملاحة والمناورة رجل آخر مؤهل يسمى بالمرشد ، يقيم على السفينة أينما ذهبت ، ويوجهها طبقاً لتعليمات القيادة الفعلي ، فهو القائد الفعلي والعملي للسفينة) .

وتشكلت على ظهر كل سفينة هيئة أركان مصغرة من ضباطها الاختصاصيين في العلوم البحرية ، من رياضيات وملاحة وفلك وعلوم طبيعية ، تعمل هذه الهيئة بتعاون كامل على تنفيذ المهام المناطة بالسفينة أو التشكيل .

حواشي الباب الثاني

٣٨ ـــ لاكاي La Caille نيقولا لويس (١٧١٣ ـــ ١٧٦٣)

فلكي فرنسي قام بعدة أبحاث جيوديزيه، وتحقق من قياس خط الطول برحلة استكشافية لرأس الرَّجاء الصالح (١٧٥٠ ـــ ١٧٥٤)، ثم أعاد رسم نصف الكرة السماوية الجنوبية، وثبت عليها مواقع النجوم والمجرات. رصد ما يزيد عن عشرة آلاف نجم في أربع عشرة مجموعة نجمية، بالإضافة إلى عدة مجرات جديدة. عاون العالم لالاند La Lande في برلين على تحديد الزاوية الظاهرية للقمر البارالاكس Paralaxe.

٣٩ ـــ باسكال Pascal بليز (١٦٢٣ ـــ ١٦٦٢)

رياضي وفيزيائي فرنسي له عدة دراسات وأبحاث فيزيائية. ترك وراءه عدة مخطوطات ومؤلفات تتعلق بعلم الفيزياء.

٤٠ ـــ فيرما Fermat بيير (١٦٠١ ـــ ١٦٦٥)

عالم رياضي فرنسي أوجد حساب التفاضل، والهندسة التحليلية، وحساب الاحتمالات، جمعت أبحاثه الرياضية بعد موته ونشرت عام (١٦٧٩) تحت اسم:

Varia Opera MATHEMATICA

٤١ ـ نيوتن Newton اسحاق (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧)

فيزيائي ورياضي بريطاني، وأستاذ للرياضيات في جامعة كمبردج، وواضع نظرية تشكل النور الأبيض وتركيبه، ونظرية الجاذبية الكونية أساس العلوم الحديثة. أما في الرياضيات فقد وضع أسس حساب التغير المستمر الـ Fluxion والاشتقاق والتوابع في الوقت نفسه الذي أوجد فيه ليبنتز وفيرما حساب التفاضل.

٤٢ ـ ليبنتز Leibnitz كونفريد ويلهالم (١٦٤٦ ـ ١٧١٦)

فيلسوف ورياضي ألماني عمل في السياسة، وهو واضع أسس حساب التفاضل والتكامل. ابتدع آلة لحساب الضرب، وخلّف وراءه مؤلفات عدة أكثرها فلسفية.

٤٣ ـ هادلي Hadley جون (١٦٨٢ ـ ١٧٤٤)

عالم رياضي إنكليزي، وأول من اخترع التلسكوب (النظارة الفلكية) العملي والقابل للاستخدام.

٤٤ ـ فيرنييه Vernier بيير (١٥٨٠ ـ ١٦٣٧)

عالم رياضي واضع أسس الجهاز المسمى باسمه، والذي يقيس الأجزاء العشرية للأطوال والأقواس (يمكن قراءة أجزاء الدقيقة والثانية القوسية وأجزاء الميلمتر العشرية).

٤٥ ـ هاريسون Harrisson ويليام (١٦٩٣ ـ ١٧٧٦)

صانع ساعات وكرونومترات بريطاني شهير، وأول من نفذ ساعة توقيت بحرية (كرونومتر لاستخدامها في الحسابات الفلكية لقياس خط الطول.

٤٦ ـ بيرتهود Berthood (١٧٢٧ ـ ١٨٠٧)

ساعاتي سويسري شهير صنع أنموذجاً لكرونومتر بحري استخدم في الحسابات البحرية الدقيقة.

٤٧ ـ لوروي Le Roy جوليان (١٦٨٦ ـ ١٧٣٩)

سيد صانعي الساعات في باريس. تعاون مع غراهام الإنكليزي في تصنيع ساعات دقيقة، تتخلص من تأثير التغيير الحراري. ابنه بطرس واضع أسس الكرونومتر ونازعه بيرتهود هذا الاكتشاف، وهو الأساس الذي يعمل به الايزوكرونيزم Isochronisme أو التواقت الحلزوني. وكان لوروي السباق في نشر بحثه، وسجل باسمه في أكاديمية العلوم (١٧٧٣)

٤٨ ــ بيكار Picard جان (١٦٢٠ ــ ١٦٢٨)

فلكي وجيوديزي فرنسي توصل لقياس دقيق لقوس من خط الطول بين آميان وباريس، حقق وثبّت نظرية نيوتن في الجاذبية، وتوصل لقياس سرعة انتشار الصوت.

٤٩ ــ كووك Cook الكابتن جيمس (١٧٢٨ ــ ١٧٩٧)

ملاح بريطاني بدأ حياته البحرية نوتياً على سفينة فحم، ثم التحق بالبحرية الملكية البريطانية. درس الهندسة وعلم الفلك، وقام بثلاث رحلات استكشافية حول الكرة الأرضية، واكتشف أرخبيل جزر لاسوسيتيه La Societé وزيلندة الجديدة، ووصل حتى بحار الجنوب المتجمدة ولعرض ١٠َ ٧١° درجة جنوباً، كما اكتشف برحلته الثالثة جزر الساندويش في هاواي، ودخل المحيط المتجمد من ممر بيرنغ، وأمضى الشتاء في جزر ساندويش. قدم معلومات ثمينة استقاها من رحلاته، وعرَّف العالم بخفايا المحيط الهادي. أطلق اسمه على كل من مضيق وأرخبيل جزائر، ورأس في زيلندة.

٥٠ ــ لابيروز La Perouse جان فرانسوا دو غالوب (١٧٤١ ــ ١٧٨٨)

ملاح فرنسي كلّف من قبل لويس السادس عشر ببعثة استكشافية بحرية. ترك برست في الأول من آب (١٧٨٥) على رأس فرقاطتين هما البوصلة والاسطرلاب وصل في ٩ نيسان (١٧٨٦) إلى جزر باك (الفصح)، ثم هاواي، وانتقل إلى سواحل أمريكا الشمالية الغربية، واجتاز المحيط الهادي ونزل في ماكاو الفيليبين، واكتشف مضيقاً بين جزيرتي سخالين وهوكايدو حمل اسمه. وصل كاماتشاكا، ومن هناك أرسل بمستنداته إلى فرنسا، ثم أقلع وتجاوز خليج بوتاني في كانون الثاني (١٧٨٨)، حيث أرسل من هناك آخر رسائله. واختفى بعدها مع سفينتيه وبقي اختفاؤه وسفنه سراً مدة أربعين عاماً، حتى اكتشف الملاح دومون دورفيل حطام الفرقاطة البوصلة على شواطىء جزيرة فانيكورو، وتأكد له أن لابيروس وبعثته قتلوا جميعاً من قبل سكان الجزيرة الأصليين بعد تحطم سفنهم.

٥١ ــ روغيوين Roggewen يعقوب (١٦٥٩ ــ ١٧٢٩)

ملاح هولندي اكتشف عام (١٧٢٢) جزيرة باك وجزر ساموا.

٥٢ ــ بيرنغ Bering أو Behring فيتوس (١٦٨١ ــ ١٧٤١)

بحار ومستكشف دانمركي عمل لدى روسيا، واستطلع كاماتشاكا، واكتشف آلاسكا وجزر الآليوتين، وجزيرة كودياك Kodiak وسمي البحر والمضيق هناك باسمه.

٥٣ ـ بيلنغز Billnigs جوزيف

ملاح بريطاني دخل في خدمة الحكومية الروسية (١٧٥٨) واستطلع بحر بيرنغ وكاماتشاكا.

٥٤ ـ كروسينستيرن Krusenstiern فون آدام جوهان وبالروسية إيفان فيودوروفيتش

ملاح روسي من أصل ألماني (١٧٧٠ ـ ١٨٤٦)، قام بعدة رحلات بحرية، وترك مذكراته في كتاب أسماه سفرة حول العالم.

٥٥ ـ كوتزيبيو Kotzebue فون أوغست (١٧٦١ ـ ١٨١٩)

كاتب ألماني عاش في روسيا. اهتم بالمسرح وعمل في خدمة القيصر، وكان من أعداء النابوليونية. عمل في التجسس لصالح روسيا ضد حركة شبيبة ألمانيا التحررية، ومات مطعوناً من قبل الطالب الألماني ساند Sand في مانهايم. كتب (٢١٦) مسرحية منها: الإسبان في البيرو وخرائب أثينا. ابنه **اوتو OTTO قام عام (١٨١٥)** برحلة حول العالم، واستطلع المحيط الهادي، وعاد وكرر رحلته ثانية عام (١٨٢٣) إلى جزائر المحيط الهادي.

٥٦ ـ كولوفين Colovine الكونت فيودور اليكسينفتيش (١٦٥٠ ـ ١٧٠٦)

رجل سياسة روسي وصل إلى مرتبة أميرال أعلى، ووقع مع الأتراك معاهدة الآستانة عام (١٧٠٠)

٥٧ ـ دامبييه Dampier ويليام (١٦٥٢ ـ ١٧١٥)

ملاح إنكليزي وقائد حربي وقرصان. هاجم المؤسسات الإسبانية في بحر الآنتيل وسواحل أمريكا الجنوبية والمكسيك، واكتشف المناطق الجنوبية من إيرلندة الجديدة، وحمل المضيق الواقع بين إيرلندة وبريطانيا الجديدتين اسمه.

٥٨ ـ كارتيريه Carterer فيليب (١٧٣٠ ـ ١٧٩٦)

ملاح بريطاني اكتشف الأجزاء الجنوبية من المحيط الهادي، وعاونه بذلك واليس Wallis صموئيل (١٧٢٨ ـ ١٧٩٥)، وتم على أيديهما اكتشاف جزائر واليس التي سميت أيضاً بجزائر هرسان، وتاموتو وتاهيتي.

٥٩ ـ هاليه Halley ادسوند (١٦٥٦ ـ ١٧٤٢)

فلكي بريطاني رسم مخططاً لنجوم نصف الكرة السماوية الجنوبية، واكتشف المذنب الذي سمي باسمه عام (١٦٨٢)، وتوقع عودته حسابياً مع حساب سرعته ومداره في عام (١٧٥٨). وهو الذي

أوجد قانون حركة النجوم الصحيحة، وكشف عن بعضها، ونوه عن تبديل مواقعها استناداً للوقائع التي أعلنها بطليموس. أصبح عضواً في أكاديمية العلوم عام (١٧٢٩).

٦٠ ــ بيرون Byron جون (١٧٢٣ ــ ١٧٨٦)

ملاح بريطاني استطلع بعض سواحل أمريكا الوسطى والجنوبية، ثم سافر إلى الجزر البولينيزية، وقام برحلة طويلة حول العالم بتكليف من حكومته.

٦١ ــ بوغانفيل Bougainville لويس انطوان (١٧٢٩ ــ ١٨١١)

ملاح فرنسي عمل في الخارجية، وخدم تحت إمرة الأميرال مونكالم في كندا. أقام جالية فرنسية في جزائر فولكلاند أو مالوين، لكن سرعان ما انسحبت. قام برحلة على السفينة لابودوز حول العالم (١٧٧١)، وأصبح قائداً لتشكيل بحري في الحرب الأمريكية، ثم استقال من السلاح ليعمل في حقل البحث العلمي.

٦٢ ــ ديمون دورفيل Dumont D'urville جول سباستيان (١٧٩٠ ــ ١٨٤٢)

ملاح فرنسي شارك في الرحلة العلمية الهيدروغرافية لبحر إيجه والبحر الأسود، وقام برحلة حول العالم (١٨٢٢ ــ ١٨٢٥)، فنزل على شواطىء غينيا الجديدة وزيلندة الجديدة، وكرر رحلته عام (١٨٢٦ ــ ١٨٢٨) باحثاً عن بقايا رحلة لابيروس. انتقل عام (١٨٣٠). في زمن شارل العاشر إلى إنكلترا، وقاد عام (١٨٣٧) بعثة الأسطرلاب وزيليه إلى البحار القطبية، وتعرف على البر في لويس فيليب وجوانفيل وأرض اديلي Adilie. نشر العديد من مؤلفاته.

٦٣ ــ بوتان بوبريه Beautemps Beaupré شارل فرنسوا (١٧٦٦ ــ ١٨٥٤)

مهندس هيدروغرافي فرنسي شارك في رحلة البحث عن لابيروز.

٦٤ ــ شابمان Chapman فردريك هنري (١٧٢١ ــ ١٨٠٨)

مهندس بناء سفن سويدي له فضل كبير في تطوير عمليات بناء السفن، وهو منفذ لنموذج القارب الحامل للمدفعية.

٦٥ ــ سوفران Suffren بيير آندريه (١٧٢٩ ــ ١٧٨٨)

ملاح فرنسي وقائد في سلاح البحرية. اشترك في الحرب الأمريكية، وقاتل الإنكليز في الهند، ووصل إلى رتبة نائب أميرال، وخدم حكومة مالطة، وأصبح سفيراً لها في فرنسا.

الباب الثالث

تجدد الصراعات الاستعمارية

الفصـــل الأول

الحـرب الامريكيـة وأسبـابهـا الأوليـة

استطاع لويس الخامس عشر ملك فرنسا تأجيل حرب محتملة مع العدوة اللدودة إنكلترا، ولمرتين متعاقبتين. في حين لم يستطع لويس السادس عشر(٦٦) استيعاب ذلك التأجيل، وسارع منذ توليه العرش إلى تكليف رئيس وزراء عرف عنه تشدده المطلق نحو الخصم الدائم لفرنسا، وهو الكونت فيرجين(٦٧). فبالنسبة لهذا السياسي المحافظ على التقاليد الغابرة التي اتبعها كل من هنري الرابع وريشيليو، وهي التزام السياسة الحقيقية، أو سياسة التوازن الفعلي بين جميع فئات الشعب من عدالة اجتماعية، وحماية للضعفاء على الصعيد الداخلي، ومجابهة مطلقة لعدو وقح ومتفوق، ليس عدواً لفرنسا وحدها، بل هو خطر كامن على استقلال الشعوب الأخرى، هذا العدو ليس إسبانيا الإمبراطورية، ولا النمسا الفتية بل إنكلترا سيدة البحار، العدو التقليدي والمزمن.

تسارعت مراحل إعداد البلاد للحرب، فإنكلترا كما كان يتوقع فابفيه(٦٨) Fabvier عقبة صلبة في طريق توسع فرنسا وامتدادها. وإن كان على فرنسا أن تنجح في مشاريعها المستقبلية، فعليها حجز الإنكليز داخل جزرهم، وإبعادهم عن البر الأوربي، أي بمعنى آخر سيادة البحار المحيطة بالجزر البريطانية، للتخلص من مداخلات الإنكليز في القارة الأوربية. أما على البر القاري فعلى فرنسا السعي لإلحاق ألمانيا بملك بروسيا، للتخلص من مشاكلها وأطماعها.

الأزمة الانكلو أمريكية

استقر السلام في القارة الأوربية ، وبدت جميع الحدود المشتركة بين الدول الأوربية هادئة . وهذا يعني أن الدول الأوربية تمر بحالة هدنة ، وتستطيع هذه الدول ، وبالذات التي عرفت بخصومتها الدائمة لإنكلترا ، زج جميع قواها البحرية ، ولأول مرة في التاريخ ، ضد إنكلترا المعزولة ، والتي تجتاحها أزمة سياسية وصلت إلى أسس عظمتها وجبروتها .. فاضطرت إلى توزيع قواها الحربية بين حرب قارية وأخرى بحرية . وهو موقف صعب أصاب فرنسا مراراً في حروبها السابقة ، فإذا بإنكلترا تقع فيه . والسبب الأول في أزمة إنكلترا هو ثورة الأمريكيين التي اشتعلت في كل مكان من مستعمرات بريطانيا على البر الأمريكي . فمليونان ونيف من المستعمرين المقيمين على الشواطىء الشرقية للقارة ، والذين يشكلون منذ زمن طويل بلداً حقيقياً متكاملاً ، تحركوا بتصميم ، يطالبون بالاستقلال ، والتحرر . وكان لحروب السنوات السبع كبير الأثر في نمـوِّ تلك الروح التحررية . وشعرت دول أوربة ، وخاصة فرنسا ، أنها مدعوة للمشاركة بتلك الحرب ، لا للسبب المعلن لها ، بل لانتهاز الفرصة وقتال سادة طغاة ، سنوا قوانين ملاحية جائرة أربكوا بها حركة التجارة الأوربية من جهة ، ولمساندة الشعوب المتطلعة إلى الحكم الذاتي من جهة أخرى .

ارتكبت الحكومات المتعاقبة الإنكليزية بعد وزارة بيت أخطاءً جسيمة ، سارعت في تعاظم الأمور ، حتى أدت إلى انفجار في الموقف .. وكي تستطيع تلك الوزارات امتصاص الأزمة الاقتصادية والمالية الناشئة عن حروب السنوات السبع في إنكلترا اعتمدت تحميل جزء كبير من تلك الأعباء إلى الأمريكيين . وأعطوا ذلك الحمل طابعاً تشريعياً ، بعد التصويت عليه برلمانياً . ومن تلك القيود الجديدة التي فرضوها إلزام طابع ضرائبي جديد على العمليات التجارية بأنواعها ، إضافة إلى فرض ضرائب عالية على المواد الاستهلاكية تطبق في المستعمرات فقط .

رفض الأمريكيون القيود الجديدة ، وهم الذين شاركوا إبان الحرب بكامل النفقات ، وعلى حد سواء مع المواطنين البريطانيين . واعتبروا تلك التشريعات التي خصَّتهم وحدهم اضطهاداً لمبدأ المشاركة العادلة ، وتمييزاً مجحفاً للفرد البريطاني .. ورفضوا دفع أية ضريبة حديثة ، لا تقرها هيئاتهم التشريعية في البلاد . وبدأت خيوط مقاومة إيجابية تتفاعل في البلاد ، وظهرت فئات متصلبة رفضت الاستيراد عامة . وطالبت بتخفيض استهلاك المواد القادمة من أوربة ، وخاصة من إنكلترا بالذات ، فدفع ذلك حكومة اللورد نورث(٦٩) North ، على إلغاء الضرائب المحدثة ، باستثناء الرسم الخاص بمادة الشاي ، وهو أول رسم رفض من قبل الفئات الأمريكية .

استمر النزاع وبدأ يتخذ طابع العنف كحادثة بوسطن (١٧٧٣) التي قام المعارضون

الأمريكيون خلالها بإلقاء (٧٤) صندوق شاي إلى البحر أمام تصفيق وإعجاب المواطنين الأمريكيين.

اعتبر الإنكليز حادثة بوسطن تحدياً سافراً لسمعتهم، ووجدوا بأن عليهم التزام الرد العسكري الفوري لكسر شوكة المتحدين. وبالفعل استقدموا قوات عديدة إلى إنكلترا الجديدة، فحضرت على عجل، واحتلت مدينة بوسطن.. وهنا بدأت العمليات العسكرية الفعلية. وهب الأمريكيون لمعالجة القوة بالقوة.. وتم اجتماع كبير في فيلادلفيا تقرر على أثره جمع الأموال لإقامة الميليشيات وجيوش المقاومة. فحاول الجنرال الإنكليزي Gage كاج قائد حامية بوسطن إرسال حامية إلى ليكسنغتون من باب الإرهاب، لكن حملته هوجمت في ١٩ نيسان (١٧٧٥)، فاضطرت للتقهقر والعودة. وتبع ذلك بعد بضعة أسابيع اشتباك واسع في بنكرزهيل، ووقعت الحامية الإنكليزية في حصار شديد، وتحركت البلاد كلها تطرد ممثلي الملك جورج ملك إنكلترا والحكام المستعمرين.

حرب استقلال الولايات المتحدة الأمريكية

انهارت المحادثات الجارية في لندن، وعاد فرنكلين إلى أمريكا. واعتمدت بريطانيا مبدأ القوة فقط. وقام أسطولها بحصار السواحل الأمريكية، دون المجازفة في النزول على البر، للنقص الكبير في عداد المقاتلين. وسالت الدماء في كل مكان، وهوجمت المواقع الإنكليزية، وانسحبت القوات الحامية من أكثر المواقع، حتى من بوسطن نفسها. ولم يبق إلا كندا ساكنة آمنة.

وقررت إنكلترا عام (١٧٧٦) اللجوء لمبدأ الهجوم، لاسترداد ما ضاع منها. فاستأجرت من هانوفر وبرونزويك وهيس ألوية عسكرية ألمانية كاملة التدريب ونقلتها إلى البر الأمريكي. و أمام تلك القوات النظامية المحترفة تراجعت الميليشيات الأمريكية على طول خطوط القتال، وأصبحت مع دخول فصل الربيع في موقف ميؤوس متدهور.. إلا أن التصميم الأمريكي على الخلاص، ونيل الاستقلال لم يضعف. واستمرت الاجتماعات تعقد في فيلادلفيا، واتخذت قرارات هامة بمتابعة القتال، وتعزيز القوات المدافعة بالمزيد من المتطوعين. وعينت واشنطن قائداً عاماً. وأعلن المؤتمرون وبصراحة تامة، ولأول مرة ٤ تموز (١٧٧٦) المطالبة بحزم باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية الكامل.

لم يبدل قرار الأمريكيين الموقف العام في البلاد. وتابع الإنكليز معاركهم مستخدمين بحنكة قواتهم البحرية، حيث حرصوا على إبقاء مراكز دفاعية ساحلية قوية على طول الساحل الأمريكي، بغياب كامل للأسطول الأمريكي والذي كان في طور النشوء.

حافظت إنكلترا على مواقع ساحلية حصينة مثل نيويورك ، ونيوبورت ، وساندت تلك المواقع بالسفن الحربية الراسية إلى الجوار ، ودارت حول تلك الحصون معارك طاحنة في شهر تموز من عام (١٧٧٧) . وأهم تلك المعارك دارت على مشارف دولاوار Delaware . لكن الشرازم القليلة المتطوعة بإمرة جورج واشنطن لم تكن تستطيع مجابهة الجيوش النظامية الإنكليزية ، والجيوش الألمانية المستأجرة ، ولا تستطيع حتى المحافظة على الأرض المكتسبة . وتراجعت القوات الأمريكية في كل مكان ، وانكشفت جبهاتهم الحربية ، وهم يفتقرون للصناعة والتجارة ، وحتى الاتصال بين المقاطعات الثائرة كان غير مؤمن . وسادت حالة من البؤس والضياع والفوضى . وتوقع المراقبون نهاية قريبة للثورة الأمريكية ، حتى إن المقيمين فقدوا كل أمل في التحرر والخلاص ، وإنكلترا تحكم حصارها ، وتسد معابر المحيط ، والمعونات الخارجية لا تصل ، والأمريكيون بأمس الحاجة لها .

طلبت أمريكا العون من فرنسا ، والشعور الفرنسي العام يتعاطف مع مطالب الأمريكيين الحقة ويعتبرهم ضحايا المستبدين المغتصبين ، يقاومون طغياناً أسود ، ويقاتلون عدواً شرساً هو عدو فرنسا التقليدي . لذلك سارع العديدون للتطوع والانخراط في عداد الثوار الأمريكيين لقتال الإنكليز .. لكن وصول المتطوعين إلى البر الأمريكي قوبل في بداية العهد بفتور ، إلا لافاييت [٧٠] La Fayette وبضعة ضباط آخرين . وكان هذا الفتور ينبع عن اعتقاد ساد الأمريكيين وسيطر على عقولهم . وهذا الاعتقاد يقر بأن الأمريكيين قادرون على إيجاد قادة وجنرالات بين صفوف مقاتليهم ، ولا يفتقرون إلى ذلك . ولكنهم بحاجة ماسة للمال والسلاح ، بالإضافة إلى تعاون سياسي دبلوماسي وعسكري على مستوى رفيع . وهذا ما حمله مندوبهم بانجامان فرانكلين [٧١] Benjamin Franklin عند زيارته إلى أوربة عام (١٧٧٦) ، إذ استطاع بحذق وحنكة عرض المشكلة الأمريكية ، فنال عطف قادة وشعوب أوربة ، وقوبل وفد فرانكلين اللطيف والبسيط بتجاوب كامل ، وهرع الجميع وخاصة الباريسيين لتبني مطالبه معتبرينه صانعاً للإنسانية .

لكن الباريسيين شيء والحكومة الفرنسية شيء آخر . إذ قابلت مطالب الوفد بتحفظ شديد ، لعدم ثقة حكومة فرنسا بنيات الأمريكيين ، وبقوتهم العسكرية ، خشية تخليهم فجأة عن مطالبهم ، وقبول التفاوض والصلح . وهذا يعني زج فرنسا بنزاع طويل مع إنكلترا . وحذر تورغو [٧٢] Turgot وهو أشد المفاوضين حذراً من الأخطار الجسيمة التي يمكن أن تصيب فرنسا في دخولها تلك المغامرة ، والكلفة الباهظة التي ستترتب على الخزينة الفرنسية في حال تورطها في الحرب . وهو يعلم أن شرف حصول أمريكا على استقلالها لا يغير من كونها بلداً أمريكياً نواته إنكليزية ، والنتيجة معروفة مسبقاً .

تحمس فيرجين Vergennes لأمريكا ، وطالب بدخول الحرب إلى جانبها دون تلكؤ .. لكن الإجماع انصبَّ على الاكتفاء بمديد المعونة ، دون الانخراط الكامل في حرب مكلفة طويلة ، وإعطاء

الأمريكيين كل ما يحتاجونه من مساعدات، لمتابعة القتال حتى اليوم الذي تقرر فيه فرنسا إعلانها التدخل بشكل سافر ومعلن. واستطاع بومارشيه[٧٣] Beaumarchais تمويل القوات الأمريكية بعدة ملايين من الفرنكات، وبمائتي مدفع بالإضافة للأسلحة الفردية والذخائر والمواد التموينية. وإذا استطاع القائد واشنطن[٧٤] المحافظة على بعض قواته في الحوزة خلال شتاء عام (١٧٧٧) الرهيب فمرد ذلك لتلك المعونات، وللنشاط الدبلوماسي الكبير الذي لعبه الفرنسيون في اللعبة السياسية الكبرى التي كانت تدور على القارة الأوربية.

تباطأ القرار الفرنسي الصريح حتى نهاية (١٧٧٧). ووقعت كارثة فرضت سرعة سير الأحداث. وحتى يستطيع الإنكليز شطر ولايات الشمال الأمريكية عن الولايات المتوسطة أقاموا تجمعاً عسكرياً قوياً في وادي هدسن. وعندما ضعفت قوات كلينتون[٧٥] Clinton بعد إرسال العديد منها إلى هاو[٧٦] Howe في منطقة دولاوار Delaware لم تستطع قواته الصمود، وإيقاف بورغوين[٧٧] Burgoyne الآتي من حدود كندا.

بمثل تلك الظروف الإنكليزية الصعبة استسلم حوالي ستة آلاف مقاتل إنكليزي في ١٧ تشرين الأول قرب ساراتوغا Saratoga. وكان ذلك أهم حدث حققه الثائرون الأمريكيون على المستعمر الإنكليزي. وبدأ يظهر للعيان أن إنكلترا لن تستطيع إيقاف هذا المد التحرري. وهكذا بدا للفرنسيين أن تحالفهم مع الأمريكيين غدا ممكناً ومأموناً، ويحتاج لفرصة مواتية، ومن ثم فالتدخل العسكري سيفيدهم دولياً.

لاحظ فيرجين أن الوقت يمر بسرعة، فقرر عدم إشراك إسبانيا في المشكلة الأمريكية. وقام باتصالات رسمية مع الموفدين الأمريكيين. وفي ٦ شباط (١٧٧٨) وقع معاهدة الصداقة والتجارة بين البلدين، يعترف فيها باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية. وكان نشر بنود تلك المعاهدة (١٣ آذار) بمثابة إعلان الحرب على إنكلترا، والذي تحقق بعد بضعة أسابيع.

هنا تحركت إنكلترا وهبت تعزز قواتها، وترسل السفن والأموال والمعدات إلى البر الأمريكي.. وفي الوقت نفسه تحركت شهوة جوزيف الثاني في الاستيلاء على ولاية عهد دو بافيير. لكن فيرجين أفهم النمسا صراحة عدم اعتمادها في هذه المرة على الدعم الفرنسي، نظراً لتورطها الكامل بحرب الاستقلال الأمريكية.. واضطر جوزيف الثاني إلى قبول معاهدة مع الأمراء الألمان «معاهدة تيشين Teshen عام (١٧٧٩)» وهكذا حافظت أوربة على السلام واستطاعت كل من إنكلترا وفرنسا إدارة عملياتها وراء القارة الأوربية معتمدتين على قواتهما البحرية.

خطة كونت بروغلي (٧٨) الفرنسية

لأول مرة في تاريخ فرنسا تقوم قواتها البحرية بوضع خطة حرب هجومية تختار مكانها وزمانها. وتعددت المشاريع لكن أحدها ساد كل ماعداها. وقد أظهرت براعة في التفكير فاقت جميع الخطط العادية السابقة... تلك كانت خطة بروغلي.

موريس بروغلي رجل من عباقرة زمنه، لكن الظروف لم تسنح له لعرض دوره الذكي. وكان طول فترة وجوده في وظيفة مخطط لدبلوماسية لويس الخامس عشر السرية جعله مكروهاً من قبل الملك لويس السادس عشر.. وعندما آل الحكم إليه أبعده، وجعله على رأس القضية الأمريكية. وهنا استطاع هذا الفذ الوثوب من جديد واسترجاع ثقة الملك، حيث قدم في ١٧ كانون الأول من عام (١٧٧٧) مذكرة حول الموقف الواجب اتخاذه في الحرب الحاضرة. وكانت من أفضل الآثار التي خلفتها السياسة والستراتيجية البحرية.

ركز بروغلي في خطته على نقطة أساسية حساسة هي:
«الهدف الأساسي يجب أن يكون في الإنزال على البر الإنكليزي». أما الحملات الأخرى فهي عمليات تشويش وإزعاج وتمويه، والغرض منها شد انتباه العدو إلى غير المكان الذي ستتم فيه فعلياً عملية الإنزال لتحقيق عنصر المفاجأة. وبذلك سيضطر إلى تجزئة قواه بشكل لا يستطيع بعدها منع السفن المهاجمة من النزول، واحتلال البر الإنكليزي. ولتحيق ذلك يجب تأمين سيادة بحرية كاملة على الأقل في الساحة المحيطة بعملية الهجوم. وعلى الخطة إعداد نقاط انطلاق محمية تتصف بتفوق بحري مطلق. وسيتم ذلك إثر نصر بحري بعد معركة مصيرية. ومن هذين المنطلقين يمكن والحالة هذه تغطية المعبر البحري ومراكز الإنزال.. وهذا يعني سيطرة كاملة، وسيادة مطلقة على بحر المانش، ثم إحراز نصر كبير في معركة بحرية واسعة، وحرمان الإنكليز من فرص معركة بحرية ثانية في المدى القريب.

وعلى هذا الأساس كان على قيادة البحرية الفرنسية برمجة خطواتها على ضوء تلك المعركة البحرية الفاصلة المرتقبة، والتي يمكن أن تحدد مصير الحرب بضربة واحدة. وبالنسبة للأهداف الأخرى فهي أهداف ثانوية بحتة، ويجب عدم حتى التفكير بها وإلا سيكون المصير شبيهاً بما حدث في المعارك البحرية السابقة، والتي تعددت فيها المواقع والجبهات والتي كانت تنتهي بهزيمة، أو بعودة إلى الميناء. والنتيجة في الحالتين واحدة. وحتى تكون الدفاعات قوية وقادرة فعلى المقاتلين انتزاع

الوسائط الهجومية لدى الخصم ، وشل عملها ، وخاصة على أصعدة التشكيلات البحرية الصغيرة ، وفي ممرات عبور القوافل ، وفي مراحل الحملات البعيدة المدى .: وذلك بإقامة أسطول ضخم يضم جميع الوسائط البحرية مجتمعة في بحر واحد ، ولمعركة مصيرية في حرب قصيرة وجامحة .

وكان اعتقاد بروغلي بأن على فرنسا وحدها مسؤولية الهجوم الكبير ، وتترك مهمة المساندة للحليفة إسبانيا ، دون أن تضم قواتها البحرية إلى التجمع الكبير .. ويقول بروغلي :

« يجب أن تتم العمليات البحرية بشكل منفصل واستقلالي ، للهدف نفسه وفي الجهات التي تعمل على تحقيق الخطة العامة » .

وبالفعل فقد اهتم الإسبان بالمهام المتعلقة بمسرح البحر الأبيض المتوسط وأمريكا وإيرلندة ، ضمن عمليات إلهاء ومشاغلة ، بحيث تسمح هذه العمليات لفرنسا بتجميع كلّ قواها البحرية في المحيط في حشد متراص ضخم يضم كل سفنها الحربية لتخوض المعركة المصيرية ، بحيث لا مكان لأنصاف الحلول أو الحملات الجزئية .

لكن للأسف لم يكن رجال الأسطول بالمستوى اللائق لإدراك وتنفيذ مثل تلك الخطة وخرجت انتقادات عدة لخطة بروغلي ، منها ما نصح به المستشار لاموث بيكيه(٧٩) Lamothe-Piquet الذي قال :

« أفضل طريقة لتحقيق نصر على الإنكليز هي مهاجمة تجارتهم فقط . والأفضل عدم إشراك التشكيلات الضخمة ، وعدم المجازفة بمعارك مصيرية . فأربعون سفينة حربية مجتمعة في مرسى برست لها تأثير أكبر على الإنكليز من وجودها في البحر » .

وأيد هذا القول كل من كيرسان Kersaint وكيرغولان (٨٠) Kerguelan . و الشعب عادة ينصت إلى أهل المهنة . وقد فقد الرغبة في إعادة المعارك الطاحنة التي مصيرها دوماً مجهول ، والنصر فيها غالباً ما يتحول إلى خسائر فادحة وأضرار جسيمة .

لم يتح لبروغلي فرصة تطبيق خطته . وحرص رئيس أركان البحرية فلوريو (٨١) Fleurieù آنذاك على عدم الزج بالرجال أو العتاد أو حتى بالأرض . وكان يرضيه النجاح الصغير بأقل التكاليف ، والتي لها صدى حسن لدى الرأي العام ، كانتزاع ملكية صغيرة للعدو ، أو الاستيلاء على قافلة غنية .. الخ ..

اتصف فلوريو بالحرص والتردد والحيرة في كافة أوامره القتالية التي يصدرها . وكان يفضل

العمليات الخاصة على العمليات الواسعة المصيرية. وبذلك أجهض المجهود البحري الكبير في محاولات صغيرة تافهة.

وبالنسبة لحلفاء فرنسا لم يكن تدمير إنكلترا هدفهم الرئيسي الكبير. وتباينت مصالحهم. فأمريكا تود تحرير أراضيها من المحتل البريطاني، وإسبانيا تحاول استرجاع ممتلكاتها وراء البحار من المغتصبة إنكلترا (فلوريدا، جامايك، جبل طارق، مينوركا، الأقاليم المنخفضة)، ولتحمي جاراتها ومستعمراتها، وجميعها مهام إلهاء وتشتيت تمتص أفضل وأقوى وحدات البحر وجهودها. وهكذا ضاعت خطة بروغلي في غزو البر البريطاني، وانتهت لمعارك صغيرة حيث وُجِدَ الخصم بحالة مستضعفة. ويمكن تصنيفها لحملات ثلاث مفككة الأوصال، دارت بشكل ارتجالي، دون أن تتلازم أو تتوافق في بحار أوربة وأمريكا والهند.

معارك المياه الأوربيــة

حملة عام (١٧٧٨) ومعركة ويسانت Ouessaint

عين أورفيليه(٨٢) Orvilliers قائداً أعلى للأسطول الفرنسي الجاهز للإبحار، والـذي يعـد (٢٥) بارجة وعدة سفن مساندة.. وقرر القائد الجديد الإقلاع قبل شهر من الموعد الذي كان قد حدد للقيام بمناوشة التشكيلات الإنكليزية. والغاية من ذلك إعداد عناصره إعداداً قتالياً، وبث روح المقاومة والصمود لدى العناصر المقاتلة، في لقاء تشكيل كيبل Keppel الشهير المرتقب.

تقابل الأسطولان الخصمان في ٢٣ تموز، وفي موقع لا يبعد أكثر من (٥٠) فرسخاً إلى الغرب والشمال غرب من جزيرة ويسانت. واستمرت تشكيلات الأسطولين المتقاتلين تناور عدة أيام محتفظة بالتماس دون دخول مدى الرماية، إذ كانت حالة البحر وضعف الرؤية لا يسمحان بالاشتباك.

كان التوازن القتالي على النحو التالي، لدى أورفيليه ثلاثون بارجة عليها (٢١٨٨) مدفعاً، ولدى كيبل ثلاثون أيضاً وعليها (٢٢٨٢) مدفعاً. فالقوتان متعادلتان تقريباً. وفي اليوم الموعود عصفت الريح من الغرب والجنوب غرب، وهي ريح مناسبة للأسطول الفرنسي أكثر منها للأسطول الإنكليزي. وتقابل الأسطولان، وتواجها والريح تأتيهم من الميسرة والتشكيل الفرنسي يتجه نحو الشمال غرب، ويبعد عن الأسطول الفرنسي مسافة كبيرة.

أعطى القائد الفرنسي أوامره في الساعة التاسعة طالباً الدوران، وأخذ الريح عن الميمنة، ليقترب من أسطول كيبل بالسير المعاكس. وحذا كيبل حذوه. فاضطر أورفيليه لاستعادة وجهته السابقة وبريح من الميسرة ثانية، في حين حافظ الإنكليز على مسارهم الجديد. وفي الساعة الحادية عشرة فتحت نيران المدفعية بعد أن ضاقت المسافة. وتساقطت الحمم بغزارة وعنف، واستمر تبادل النيران حتى الساعة الواحدة والنصف، حيث أعطى أورفيليه إشارته إلى تشكيل المقدمة بالمرور تتابعياً من جهة الميمنة، تحت ريح البريطانيين، وتعريض قسم كبير من تشكيل بريطانيا إلى نيران من الجنبتين. لكن قائد التشكيل في المقدمة لم يلحظ الإشارة الموجهة له، وتابع خط سيره فتبعه كامل الأسطول الفرنسي. وبعد فترة خرج الأسطولان من مدى المدفعية المجدي، فتوقف القصف وانتهت المعركة.. وعاد أورفيليه إلى مرسى برست في ٢٩ تموز، كما عاد أسطول كيبل إلى مرساه قرب شواطىء ويلز.

تركت تلك المجابهة أثراً معنوياً كبيراً لدى الفرنسيين، فقد شعروا من جديد بأن في إمكانهم التحرك والتصدي، وحتى مهاجمة أعدائهم الإنكليز (يعود الفضل في ذلك إلى غياب حجم كبير من الأسطول الإنكليزي في المياه الأمريكية). وبالفعل فقد عاد أسطول برست فخرج ثانية في ١٦ آب وبقي يملح حتى ١٨ ايلول في رحلة طويلة داخل المياه المحيطة دون أن يتعرض لأي اعتراض إنكليزي.

أما في إنكلترا فقد تعرض كيبل للنقد الشديد، وأحيل أمام مجلس حربي متهماً بالفشل وعدم الكفاءة، إذ كان عليه انتزاع النصر. أما قائد تشكيل المقدمة الفرنسي والذي تجاهل، أو لم يلحظ إشارة قائده، فقد اعتبر مسؤولاً وأبعد عن مركزه في سلاح البحرية.

حملة عام (١٧٧٩) والتعاون مع إسبانيا

لم تكن معركة ويسانت إلا مناورة تحضيرية، حاول الفرنسيون من خلالها اختبار قوة وجلادة تشكيلاتهم البحرية بعد سنين طويلة من الهزائم. وباستبعاد خطة بروغلي، قرر الفرنسيون القيام بعمليات محدودة، كاحتلال جزيرة ويت على أنها رأس جسر لعمليات الإنزال المستقبلية على البر الإنكليزي.. إلا أن تحقيق السيادة البحرية الكاملة، والسيطرة الزمنية خلال عمليات الإنزال، تتطلب إمكانات تفوق ما بحوزة فرنسا آنذاك. وبدلاً من أن تخوض فرنسا معركة بحرية مصيرية مع عدوتها إنكلترا كما كان مقرراً لها سابقاً تقرر إقامة حشد بحري ضخم يفوق كل ما تمتلكه إنكلترا في

المنطقة بتعاون الأسطولين الفرنسي والإسباني، وهذا يخالف رأي بروغلي الذي نادى دوماً بترك كل أسطول يقوم بعملياته الحربية باستقلالية منفصلة.

وقعت معاهدة آرانجويز Arenjuez في ١٢ نيسان عام (١٧٧٩)، وحددت قواعد تدخل الأسطول الإسباني.. لكن التطبيق جاء متثاقلاً وبطيئاً، إذ لم تصل سفن إسبانيا في الوقت المحدد (أول بارجة إسبانية وصلت في شهر تموز). وكأن الحكم على تلك المعاهدة قد وئد قبل أن يلد. وبإبعاد الأشقاء بروغلي عن قيادة العملية وفقدهم للحظوة الملكية، واستلام الماريشال دوفو De Voux قيادة القوى البحرية أصبح نصيب نجاح العملية مستحيلاً.

ومن الأسباب التي آلت إلى تعطيل الخطة قيام القائد البحري الجديد بنشر القوات ووسائط النقل البحرية على طول سواحل النورماندي، بحيث جعل عملية الإقلاع والعبور إلى الجانب الإنكليزي، والنزول على بره عمليات معقدة طويلة ومحفوفة بالأخطار. أضف إلى ذلك جهل القيادة الكامل بما كان يدور في الترسانات ودور صناعة السفن.. إذ إن الفوضى شملت كل القطاعات لنقص واضح في المال والعتاد والرجال، حتى كان من الضروري تجريد عدة سفن من رجالها، لاستكمال أطقم السفن الأخرى.

أقلع أورفيليه في النهاية في ٣ حزيران على رأس (٢٨) بارجة للقاء الأسطول الإسباني فوصل إلى موقع التجمع (سيزارغاس Cizargas على ٢٠ ميلاً إلى الغرب من كورون Corogne) في العاشر منه، وبقي ينتظر مدة (٢٣) يوماً قبل أن توافيه أول بارجة إسبانية. وظلت الوحدات الإسبانية ترفده متثاقلة وئيدة حتى استغرق منها ذلك ستة أسابيع. وهذا يعني بدء تناقص المواد التموينية في التشكيل الفرنسي، وظهور بعض الأمراض التي قد تعيق في مراحل الحملة القادمة.

بدأ تحرك أورفيليه وبإمرته (٦٦) بارجة حليفة عليها (٤٩٠٢) مدفعاً، وتسانده (١٤) فرقاطة و (١٢) سفينة صغيرة. واتجه نحو التشكيل الإنكليزي الذي ضم (٣٨) بارجة عليها (٢٩٦٨) مدفعاً. وكانت حركة الأسطول الحليف بطيئة لانتظار تعليمات القيادة العليا، وقرب رأس ليزارد وصلته أولى الأوامر وتضمنت التالي:

الامتناع عن مهاجمة سبيتهيد Spithead وويت وبلايموث، والاكتفاء بمهاجمة مرفأ فالموت Falmouth، والاستيلاء عليه، وهو المرفأ الذي يقع إلى الغرب.. وعلى قوات سان مالو النزول في

الميناء للسيطرة عليه، ولإقامة قاعدة بحرية حليفة، تكون بمثابة تجمع انطلاق لعمليات الهجوم الواسعة، والتي خطط لها، لتكون في العام الذي يلي..

ومن ثم على الأسطول الحليف، بعد تحقيق مهمته التوجه إلى مدخل بحر المانش، والتواجد هناك أطول مدة ممكنة، ليقوم باعتراض السفن التجارية والاستيلاء عليها، مع القيام ببعض الإغارات التدميرية والتخريبية، في بعض المراكز على البر الإنكليزي، لزرع الفوضى والرعب. كما كلف مدفعية الأسطول بضرب المرافىء والموانىء والسفن الراسية فيها.

«كان اختيار مرفأ فالموت اختياراً سيئاً للغاية. فالميناء صغير الرقعة قليل الإمكانات لا يستطيع تقديم حماية فعالة للسفن الراسية فيه، ولا للرجال النازلين على مشارفه..».

تحرك أسطول إنكلترا الصغير بقيادة هاردي Hardy من بحر المانش، ووصل حتى مشارف خليج غاسكونيا، في حين بقيت مجموعة من (٢٨) بارجة حربية محتشدة في ميناء بليموث تنتظر الأوامر.

من هذا المنطلق وتبعاً للظروف التي أحاطت الأسطول الحليف قرر القائد الفرنسي مبادأة العدو، ومقاتلته حال وصول الإمدادات البشرية والغذائية المطلوبة. ومن قبيل الصدف فقط شاهد مجموعة الفرقاطات تشكيلاً إنكليزياً عائداً من الغرب ٣١ آب فأعلمت قيادة الأسطول الحليف حيث هبّ مناوراً ليقطع على التشكيل طريقه. لكن السفن الإنكليزية المدعمة بالنحاس تفوق بسرعتها سرعة السفن الحليفة، وتستطيع بتلك الميزة الانعطاف بسرعة نحو البر الإنكليزي والتسلل بين سفن الحلفاء والبر. وبسرعة مذهلة تعبر المنطقة المقطوعة، دون أن تتعرض لأية نيران حليفة. وخلال الساعات الأولى من يوم الفاتح من ايلول ابتعد التشكيل الإنكليزي (أسطول هاردي) ما يزيد عن سبعة فراسخ شرقاً وأصبح خارج مدى الأسطول الحليف، ومن ثم دخل ميناء بليموث بأمان.

في أثناء ذلك وصلت الحالة الصحية على السفن الفرنسية لحد مفجع. وتناقصت المياه العذبة.. فاضطرت الوحدات للعودة في ١٩ ايلول إلى مرسى برست، بعد قضاء (١٠٤) أيام بحار... وعلى أثر الوصول أنزل سبعة آلاف مريض للمعالجة، عدا العديد من الذين فارقوا الحياة في البحر، نتيجة الأوبئة، ونقص المواد الغذائية.

بعد شهرين من دخول أسطول فرنسا مرفأ برست وصل الأسطول الإسباني بقيادة كوردوفا

مرسى برست أيضاً لترسو سفنه إلى جانب السفن الفرنسية .. وفي فرساي قررت الحكومة إعفاء القائد الفرنسي من كل مهامه ، واعتبرت حملته فاشلة . وعادت على فرنسا بالخيبة والمرارة ، وكبدتها تلك الحملة ملايين الفرنكات ومئات الضحايا .

آخر عملية بحرية في بحر المانش

استمر التفكير السابق يسود عقلية قادة الحليفتين فرنسا وإسبانيا خلال الأعوام التي تلت ، ونادى فلوريو Fleurieu من جديد بفكرة الإنزال على البر البريطاني ، وطالب بتأييدها . وتحمس الفرنسيون للفكرة ، واستخف الإسبان بها ، إذ قالوا إن مدافع الريش (يتندرون على الوسط المرهف في القوات المسلحة الفرنسية) لا تستطيع تحرير حتى مايوركا ، أو جبل طارق . وليس في إسبانيا أي مسؤول مستعد لتبني تنفيذ العملية .. لقد أمضينا الأعوام الطويلة نبني السفن ، ونكدس أسلحة البحر دون معرفة سبب واحد من غرض بنائها وحشدها . ولقد انقضت الأعوام وكأن تلك الأساطيل قد أعدّت لتحويل أنظار إنكلترا عن المستعمرات ، لكن دون أي إجراء فعال وحاسم .

ارتاح الإنكليز في جزرهم إثر التردد الإسباني ، وأيقنوا أن لا أحد يرغب أو يجسر على الاقتراب من بر جزرهم .. فراحوا يتنشقون نسائم المغامرة من جديد . وبدأت أساطيلهم تبتعد عن سواحل الوطن الأم . ففي ١٦ كانون الثاني من عام (١٧٩٧) أقلع رودني[٨٣] Rodney على رأس قوة تضم (٢١) بارجة ليفاجىء التجمع الإسباني المؤلف من تسع بوارج ، قرب رأس سان فانسان ، وكانت بإمرة دون جوان دو لانغارا Don Juan De Langara ، وكانت حصيلة الاشتباك غرق بارجتين إسبانيتين ، وأسر أربع .

وعلى أثر ذلك انطلقت الطرادات الإنكليزية في الخليج الكبير وفي كل الاتجاهات تعطل الملاحة وتشل حركة المواصلات وتهدد تجارة الدولتين الحليفتين . ولقد وقع التأثير الأشد على الجانب الإسباني . عندها قررت إسبانيا معالجة الموقف الجديد ، فاستدعت كل قواتها البحرية (أسطول كوردوفا وأسطول كاستون) مدعمة ببعض التشكيلات البحرية الفرنسية المساعدة ، ووضعت كل تلك القوات تحت إمرة كوردوفا الأميرال الإسباني . لكن هذا القائد لم يكن ليستطيع استخدام مثل تلك القوة الضخمة . واقتصرت حملاته على رحلات صغيرة ، يبلغ فيها سواحل البرتغال ليعود ثانية إلى موانىء الرسو ، دون التحرش أو محاولة الاقتراب من البحرية البريطانية العاملة في المنطقة .

في إحدى تلك الجولات وبالتحديد في عرض رأس سان فانسان بتاريخ ٩ آب التقى كوردوفا

بقافلة تجارية كبيرة تخص إنكلترا، فهاجمها واستولى عليها. وكانت قافلة غنية بخيراتها. وعلى أثر ذلك شلت حركة السفن التجارية البريطانية إلى جزائر الهند طيلة ذلك العام.

وفي تشرين الأول من العام نفسه تولى قيادة القوة الحليفة الأميرال ايستانغ Estanig. وكانت هذه القوة تضم (٤٨) بارجة في قادس بإمرة دوشافول Duchffault و (١٥) بارجة في برست في حين كان لإنكلترا في المنطقة (٤٠) بارجة أغلبها يعمل في بحر المانش.

طال النقاش حول أفضل السبل لمهاجمة الإنكليز، واستمر حتى حان فصل الشتاء، فصل القبوع في الموانىء. وهكذا حشدت السفن مرة أخرى في قادس، دون أن تقدم أي عمل فعال. وأخيراً وبناء على طلب إسبانيا أبحرت بعض المفارز البحرية لتمارس عمليات ضغط على مينوركا، للفت نظر الإنكليز المتواجدين في المتوسط، بعمليات إلهاء ومشاغلة. وفي أثناء ذلك، وبسرعة ملحوظة، انتقل غيشن[٨٤] Guichen، وكوردون على رأس تشكيليهما إلى بحر المانش، لمواكبة قوات الإنزال المعدة على البر الفرنسي. وبلغت قوة الحليفين (٥٠) بارجة. وفي أثناء ذلك ظهر الإنكليزي دربي Durby فجأة، وكان في طريق العودة من سيللي Seilly بعد مواكبة قافلة تجارية إلى المنطقة البعيدة، خارج ساحة عمليات المحيط. ولم يكن مع دربي إلا (٣٠) بارجة مفرزة من أسطول بورتموث. وحدثت المعركة، واشتبك دربي بقوة غير مكافئة.. واعتبرت قوته مدمّرة مشتتة، وأصبح أمر الغزو والإنزال قريبي التحقيق، فهل ستقع الواقعة؟

انعقد المجلس الحربي الحليف، وقرر استغلال السيادة البحرية المؤقتة التي تمت لها في بحر المانش. فأخذ الفرنسيون والإسبان يمارسون عمليات أسر واحتجاز للسفن البريطانية التجارية التي تعبر المنطقة، في حين تركوا قرار الغزو قابعاً في زاوية من زوايا المجلس الأعلى. وهكذا ضاعت الفرصة لكثرة الكلام وندرة الأفعال. وظل الحال مجمداً حتى شهر ايلول، حيث عادت التشكيلات الحليفة إلى ميناء قادس، لتبدأ مسرحية إعادة إعداد غزو موعود.

تنفس البريطانيون الصعداء بزوال خطر الغزو الحليف، وبدأوا لملمة شتات قواتهم التي انتشرت في المياه الأوربية، ليعودوا إلى القارة الأوربية والهند أكثر عناداً وقوة. حتى وصلت قوتهم البحرية عام (١٧٨٢) إلى (١٢٩) بارجة حربية، احتفظت منها بـ (٣٥) بارجة ضمن المياه المحيطة بالجزر البريطانية، في حين أرسلت الباقي إلى ما وراء البحار لدعم القوات المشتبكة في كل من أمريكا والهند.

برز خطر جديد على إنكلترا إثر تحالف الهولنديين مع الفرنسيين والإسبان، خاصة بعد أن مارسوا معهم عمليات إزعاج على البر في مناطق التماس، أو في البحر، بمهاجمة خطوط المواصلات البحرية البريطانية. إلا أن هاو Howe المشهور بدمه البارد، وهو قائد سلاح البحرية الإنكليزية آنذاك، لم يعط الحلفاء الجدد الفرصة بحراً، بل أرسل على الفور مفرزة بحرية مُعزّزة بـ (٢٨) بارجة ذهبت حتى الشواطىء الهولندية، لتذكر حلفاء الأمس وأعداء اليوم بما يمكن لإنكلترا أن تفعله معهم. ولما لم تصادف هناك أي نشاط معاد انتقلت تلك المفرزة البحرية بناء على أوامر القيادة إلى مدخل بحر المانش، لتقابل هناك حشداً حليفاً جديداً ضم (٤١) بارجة بإمرة كوردوفا الإسباني.

تقابل الخصمان باشتباكات صغيرة ومحدودة. لكن القائد الإنكليزي تملص بسهولة من عدو فاقه عدة وعدداً، وانسحب بأمان إلى سواحل بلاده. ومرة أخرى نجد الأسطول الحليف المتفوق عددياً يقف عاجزاً عن أداء عمل له هدف محدد، أو فائدة ذات معنى. وتكررت المواقف العاجزة، والحملات الفاشلة. وينتهي الأمر كل مرة بانسحاب الأسطول الحليف إلى مرافئه المعتادة لقضاء فصل الشتاء. وطبعاً مع كل انسحاب تنفرج أزمة البريطانيين، فتعود تشكيلاتهم البحرية تعبر المانش، وتصل سواحل برست، وتقطع سبل المواصلات البحرية على الحليفتين، وتهاجم المجموعات المنعزلة، وتستولي عليها. وباختصار تعود لتحكم سيادتها على بحر المانش والمحيط المجاور للبر الأوربي (الفرنكو ــ إسباني).

عمليات جبل طارق

شابهت حملة جبل طارق عملية مينوركا عام (١٧٥٦).. وقد بدأت في تموز من عام (١٧٧٩).. عندما قرر الحلفاء (فرنسا ــ إسبانيا ــ هولندا) تطويق ذلك الممر الحيوي والستراتيجي الهام بإقامة حصار محكم لتجويع الحامية حتى الاستسلام. لكن سوء طالع الحلفاء جعل لهم خصماً عنيداً هو القائد المدافع عن جبل طارق والرجل المقدام جيلبرت اليوت Gilbert Elliot الذي رفض الاستسلام، وكان يسانده من البحر الأميرال رودني Rodney.

في ٢٦ كانون الثاني نجح رودني في إدخال قافلة إمداد وتموين رغم أنف القائد الإسباني كوردوفا. واستمرت المقاومة حتى العام التالي.. إذ قام المدافعون بحفر الخنادق وإقامة المتاريس، وصد كل المحاولات المعادية.

دب الملل في صفوف المحاصرين فقرروا الانسحاب إلى الخليج .. وفكروا بتعزيز حصارهم البحري بهجوم بري من داخل البلاد . في أثناء ذلك كان آرسون Arçon قد ابتكر المدفعية البحرية العائمة ، والتي تحمى بجدران مرتفعة وواقية ، وغطيت تلك الجدران بطبقة من الفلين وطبقة من النحاس الأخضر . ويقي هذا البرج العائم سطح منحني .

وما إن استكملت الاستعدادات براً وبحراً حتى أعاد الحلفاء حصارهم لجبل طارق من جديد ورصت المدافع المبتكرة العائمة ، والتي وصل عددها إلى (٤٠٠) مدفع تضرب الـ (٨٦) مدفعاً بريطانياً على البر .

تبع ذلك هجوم بحري ضم (٥٠) بارجة و (٣٠) فرقاطة ، مع مئات من الزوارق .. تقدمت تكنس الشواطىء من المقاومات الأرضية . ولما تحقق لهم عامل الأمان نزلت قوات المشاة المحمولة وهاجمت مواقع اليوت الحصينة . ونشب قتال عنيف استسلمت على أثره الحامية الإنكليزية ، وسقط حصن جبل طارق . إلا أن حريقاً هائلاً شب في سفن الحلفاء وفي مدافعهم العائمة ، وانتشرت النيران بسرعة مذهلة بين السفن المحتشدة ، حتى إن الرجال هجروا سفنهم وقفزوا إلى الماء ينشدون النجاة فمات منهم العديد .

في أثناء ذلك قدمت الطبيعة عوناً أفاد منه الإنكليز إذ هبت رياح جنوبية غربية عاتية دفعت بالسفن المحاصرة إلى عرض البحر ، استغل خلالها الأميرال هاو Howe هذه الفرصة وتسلل في ١١ تشرين الأول بتشكيله المؤلف من (٣٤) بارجة إلى مياه جبل طارق واستطاع في ١٨ منه تفريغ حمولة من العتاد والإمداد لتعزيز موقف المدافعين ، ثم ابتعد شرقاً .

لحق بالتشكيل الإنكليزي الأسطولان الحليفان ...وفي ٢٠ منه وقرب رأس سبارتل Spartel التقى الجمعان حتى مدى مرمى المدافع وكان مع كوردوفا (٣٣) بارجة ولكن السفن الإنكليزية المصفحة بالنحاس عرفت بسرعتها العالية .. ففضلت الابتعاد بسرعة إلى عرض البحر .

وهكذا انتهت حملة جبل طارق كما بدأت .. وأطلق على ذلك الموقع الحصين تسمية جديدة ، وهي القلعة التي لا تسقط . وهكذا باءت جميع مساعي الحلفاء بالفشل ، وعادت عليهم بأسوأ النتائج .. ولم يستطيعوا تحقيق أي نصر .

الحرب الأنكلو هولندية

أدركت إنكلترا أن استغلال الولايات المتحدة الأمريكية حقيقة واقعة ، وأن استعادة السيطرة ولو على جزء منها ضعيف ، إن لم يكن ميؤوساً منه ، ولا بد من إيجاد البديل . فتوجهت بأنظارها نحو مستعمرات الدول الأوربية الأخرى ، وخاصة ممتلكات هولندا وراء البحار ، ولا تنقصها إلا الذريعة التي ستستخدمها كسبب مباشر لدخولها .

وجدت إنكلترا أن أفضل سبب يعطيها حق العبث بمستعمرات هولندا هو طلب الجيوش الهولندية لمساعدتها في حروبها ، تنفيذاً للاتفاقية العسكرية المعقودة معها ، والتي ترجع لعام (١٦٨٨) . وطبعاً كان رد هولندا سلباً ، فسارعت الطرادات الإنكليزية تطبق قواعد إيقاف وتفتيش السفن التجارية على أساطيل هولندا التجارية ، وراحت تأسر المئات منها بحجة مخالفة تلك القواعد .

حدث في أثناء ذلك أن لجأ الكابتن بول جونس Paul Jones الايكوسي الذي كان يعمل في خدمة الولايات المتحدة إلى هولندا . وطالبت بريطانيا بإبعاده ، وباعتباره قرصاناً خارجاً على القانون . فرفضت هولندا الانصياع للتهديد ، وأدركت أن إنكلترا تسعى وراء قطيعتها وإيقاعها في شرك الحرب ، فلاذت بالانضمام إلى الدول المحايدة ، لتأمن غدر إنكلترا لها . وأصبحت ضمن المجموعة التي تضم كلاً من روسيا والسويد والدانمرك والإمارات الألمانية ، بالإضافة إلى نابولي والبرتغال .

لم تمهل إنكلترا هولندا ، وأعلنت عليها الحرب فجأة ٢٠ كانون الأول . وخشي المحايدون مساندتها ، ووجدت نفسها وحيدة إلا من فرنسا التي هبت لمعاونتها .

جرت عدة حوادث بحرية أهمها ما جرى في بحر البلطيق . ففي أثناء مواكبة زوتمان Zoutman لقافلة تجارية هولندية اعترضه باركر عند دوغر بانك Dogger Bank ، ونشبت بينهما معركة طاحنة دامت أربع ساعات متواصلة . وكان القتال بارجة لبارجة ، وتميز بالعنف والقسوة . ووُصِفت المعركة بأنها من أشد وأقسى المعارك البحرية المعاصرة ، فاقت كل ما سبقها ضراوة وشدة وارتفاعاً في عدد القتلى والجرحى لدى الطرفين المتنازعين .

كان موقف هولندا البحري واهناً في بدء الحرب ، فهي لا تمتلك إلا (١٨) بارجة فقط ، أكثرها قديمة خفيفة التسليح ، وغير قادرة على حماية المصالح التجارية عبر البحار . لذلك فقدت هولندا ما يزيد عن مائتي سفينة تجارية ، بلغت قيمتها (١٥) مليون فلوران ، خلال الأشهر الأولى من

الحرب. ولولا مساندة فرنسا لها لضاعت جميع مصالحها الخارجية، وآلت كل مستعمراتها وراء البحار إلى إنكلترا.

العمليات الحربية في أمريكا

من أولى المهام التي تعهدت فرنسا القيام بها بموجب حلفها مع الولايات المتحدة مهمة انتزاع المكاسب التي يمكن أن تستخلصها إنكلترا، في حال سيطرتها على البر الأمريكي. وكان لا بد من تعزيز قوتها البحرية حول السواحل الأمريكية. وبالفعل أرسلت تشكيلاً مؤلفاً من (١٢) بارجة، وهو التشكيل المقيم في ميناء طولون، وبإمرة الكونت ايستانغ Estanig، وهو النبيل الذي انتسب إلى سلاح البحرية الفرنسي في اليوم الثاني من بدء حرب السنوات السبع، وقد ارتقى المراتب العليا، ووصل إلى رتبة جنرال، وهو في عمر لا يزيد عن (٣٣) سنة. وأسند إليه منصب حاكم سان دومينيك، ثم نائب أميرال لبحار آسيا وإفريقية وأمريكا.. لكنه لثروته الكبيرة ولأصالة منشئه، تعرض لمعاداة مرؤوسيه، لكنه سرعان ما رد لهم مواقفهم، حين أصبح رئيساً للفئة المعادية للنبالة. وقد جرد نفسه من كل الألقاب الموروثة.

قام هذا القائد بدور فعال في السنين الأولى للثورة الفرنسية، إلا أنه نتيجة المعاداة التي تعرض لها من قبل مرؤوسيه، وهيئة أركانه، أخفق بالعمليات الحربية التي أنيطت به. وكان عدم تعاون قادة سفنه جعله يتيه في المحيط وهو يقطعه (استغرق قطعه للمحيط من ١٣ نيسان إلى ٧ تموز).

وصل ايستانغ في ١٠ تموز لمياه نيويورك. وكان هاو الإنكليزي هناك ويملك (٥٣٤) مدفعاً سيقابل بها الـ (٨٥٦) مدفعاً فرنسياً في تشكيل الأميرال ايستانغ.. واستعد القائد الإنكليزي لقتال الفرنسيين، فيما لو حاولوا اقتحام المعبر والدخول إلى حوض نيويورك. إلا أن المرشدين الأمريكيين نصحوا الفرنسيين بعدم المغامرة لأن عتبة ساندي هوك Sandy Hook قد تربك هجومه. وقرر العمل بالنصيحة، والبقاء خارج المعبر، ينتظر خروج هاو له. وانتظر خمسة عشر يوماً دون طائل. فترك المنطقة واتجه إلى نيوبورت Newport يرسو بسفنه فيه. ونيوبورت موقع مثالي يقع على خليج ناراغانست (رود ايلاند)، يقدم حوضاً محمياً للرسو وللإنزال، ويهدد في الوقت نفسه مباشرة كلاً من بوسطن وماساشوست.

أدرك الأمريكيون الفكرة في توجه ايستانغ إلى ذلك الموقع فأرسلوا الجنرال سوليفان Sullivan على رأس عشرة آلاف مقاتل لمعاونته في عملياته من على البر.

وتمت الحملة البرية بشكل جيد. واستطاع المهاجمون الأمريكيون الحفاظ على المنطقة بعد احتلالها، وسيطروا على الممرات البحرية الشرقية والغربية، كما أرسلت المفارز البحرية اللازمة لتأمين الرصد والمراقبة البعيدة. في حين اخترق ايستانغ المعبر المتوسط ونزل بقواته على جزيرة كونانيكوت Conanicut. واستطاع تدمير الدفاعات البرية البريطانية. وكان للإنكليز في الميناء خمس فرقاطات وطرادة أحرقت نفسها حتى لا تقع في أيدي الفرنسيين المهاجمين (٩ آب).

غضب هاو الإنكليزي لسقوط ذلك الموقع المنيع أمام المهاجمين. وكان قد تلقى المزيد من الإمدادات، فقرر الإقلاع من نيويورك على رأس (١٣) بارجة و (٨٦٠) مدفعاً لمهاجمة الفرنسيين.

علم ايستانغ بقدوم هاو فترك القلعة، وعاد بالمقاتلين إلى السفن ١١ آب استعداداً للقاء القوة الإنكليزية. لكن عاصفة هوجاء هبت على حين غرة فمنعت القوتين من الاشتباك، وجعلتهما لا يفكران إلا بالسلامة من شدة الإعصار. وعندما هدأت العاصفة وجد العديد من السفن غير صالح للملاحة والقتال.. وانسحب الأسطولان، فاتجه الإنكليزي إلى نيويورك، في حين اتجه ايستانغ إلى بوسطن للإصلاح.

لم يعد ايستانغ إلى البحر وبقي في بوسطن حتى الرابع من تشرين الثاني. وكان موعداً متأخراً في كل شيء، فخلال عبوره لمضيق جبل طارق في ١٦ مايس المنصرم عند قدومه إلى أمريكا كانت قد رصدته فرقاطة إنكليزية، وظلت تلاحقه عن بعد في المحيط لتعرف مقصده. ولما تم لها ذلك أبلغت قيادتها، وهنا أوعزت الأميرالية البريطانية للأميرال بيرون Byron في الثامن من حزيران للحاق به. وكانت بإمرته (١٣) بارجة عليها (٩٨٦) مدفعاً. وبالفعل وصل تشكيل بيرون إلى أمريكا، وانضم إلى قوة هاو. وبذلك أصبحت قوات إنكلترا تفوق مرتين قوة ايستانغ. ووجد هذا الأخير أنه لم يعد له ما يفعله في المياه الأمريكية، فتوجه إلى جزائر الآنتيل، حيث كانت تنتظره هناك مهام جديدة.

مع بدء العمليات الحربية الفرنسية البريطانية في المياه الأمريكية، قام المركيز الفرنسي دو بوييه De Bouillé فاستولى على الدومينيك عام (١٧٧٨). لكن الرد الإنكليزي جاء سريعاً، إذ تحرك الأميرال بارنغتون Barington بعد أن عزز قوته بأسطول الكومودور هوتهام Hotham، وهاجم الجزر الفرنسية في سانت لوسي Sainte-Lucie، وهي نقطة استراتيجية هامة، لموقعها بين جزر بحر الآنتيل، وكأنها الجزيرة القائدة للأرخبيل الكاريبي.

سارع ايستانغ للدفاع عن الجزيرة. وظهر في ١٤ الجاري فوجد سبع بوارج لبارنغتون ترسو في مدخل الميناء، وايستانغ كما نعلم كان بحوزته (٨٤٦) مدفعاً مقابل (٤٢٢) مدفعاً إنكليزياً.

لو فتح ايستانغ نيران مدافعه لوضع الإنكليز في موقف شديد الخطورة، خصوصاً وقائد إحدى مجموعاته سوفران ألح على بدء المعركة. لكن ايستانغ توقع وجود تشكيل إنكليزي آخر داخل المرسى قد يشترك في المعركة ويرجح كفة الإنكليز. لذلك فضل إنزال مجموعة من رجاله مع بعض بطاريات المدافع على البر، وبتردد ايستانغ ضاعت فرصة ذهبية أمام الفرنسيين. وعندما وصل أسطول بيرون إلى ساحة القتال، مالت الكفة لصالح الإنكليز مما اضطر ايستانغ للانسحاب إلى جزيرة المارتينيك ٢٤ كانون أول تاركاً سانت لوسي تقاسي لوحدها مصيرها، حيث سقطت بعد أيام ثمانية في أيدي الغزاة الإنكليز.

تعرض ايستانغ لنقد مرؤوسيه قادة السفن لإضاعة الفرصة.. وبالفعل بقيت التشكيلات الفرنسية وحتى الإنكليزية قابعة طيلة فصلي الشتاء والربيع في المرافىء.. وشعر ايستانغ أن عليه تقديم عمل ما فأقلع في شهر حزيران على رأس (٢٢) بارجة، وظهر مقابل جزيرة (غرانادا) أو بارباد Barbade. وأنزل ألفي مقاتل على البر، وقاد بنفسه حملة الغزو هذه، وبعد يومين من القتال العنيف استسلم الحاكم البريطاني مع ألف من جنوده، وغنم ايستانغ (١٢٨) مدفعاً و (٣٠) سفينة تجارية.

ما إن وصل خبر غزو غرانادا إلى بيرون حتى أقلع من سان كريستوف على رأس قوة ضمت (٢١) بارجة، لدعم حامية الجزيرة المهاجمة معتقداً أنها لا زالت تقاوم الغزاة. وما إن وصل سواحل الجزيرة حتى فتح نيران مدافعه، دون أن يتخذ التشكيل النظامي (على نسق) في مثل تلك الظروف. وقامت بعض وحداته البحرية بالتسلل بين سفن ايستانغ والبر، فدبت الفوضى بين صفوف التشكيل الفرنسي لفترة، لكن سرعان ما سيطر ايستانغ على الموقف وبادر البريطانيين برشقات غزيرة من مدافعه، دفعت بتشكيل القائد بيرون إلى الانسحاب والابتعاد عن الميناء خصوصاً بعد أن شاهد القائد الإنكليزي العلم الأبيض يعلو قلعة جورج تاون، وأيقن أن الحصن قد استسلم. وهنا استدارت السفن الإنكليزية ببطء وصعوبة وهي عرضة لنيران المدفعية الفرنسية لمدة زادت عن الـ (١٠) ساعات.

أكثر الإصابات وقعت في السفن الإنكليزية المتقدمة وعددها ست، حيث تعرضت بالإضافة إلى مدافع السفن الفرنسية لنيران مدافع القلعة. وكانت إصابات فادحة فجنحت تلك

السفن، وبدأت تحيد نحو السفن الفرنسية، ووقعت في الأسر، في حين اتخذت السفن الناجية تشكيلة المرور المتوازي، مع فتح نيران كثيفة لإنقاذ موقفها المتردي. واستطاعت النجاة بصعوبة، حيث عادت إلى سان كريستوف مهزومة، وكان على ايستانغ ملاحقتها وتدميرها إلا أنه لم يفعل.

كسب ايستانغ لفرنسا معركة بحرية، وجزيرة ضُـمّـت إلى الممتلكات عبر البحار، وطارت شهرته في الوطن الأم، ولقب ببطل فرنسا.

لم يتوقف ايستانغ عن حملاته، بل خرج يمر أمام جزيرة سان كريستوف ينشد خروج بيرون لقتاله (لم يطارد ايستانغ بيرون في معركة غرانادا لأنه كان يعلم بأن جهده سيكون مضيعة للوقت، فالسفن الإنكليزية بأسلوب بنائها أعلى سرعة من السفن الفرنسية، ولن يستطيع ايستانغ اللحاق بها). وعندما أيقن أن لا رغبة لخصمه في القتال قصد سان دومينيك لمواكبة قافلة تجارية تنفيذاً لأوامر ملك فرنسا.

قبل أن يبدأ ايستانغ رحلة العودة إلى الوطن الأم تدهور موقف الأمريكيين مجدداً، إذ قام الإنكليز بإنزال المزيد من الإمدادات خلال فصل الشتاء على سواحل جورجيا. ومن ثم تجمعت القوات الإنكليزية في الجنوب، وشكلت جيشاً كبيراً، أخذ يزحف نحو الشمال ويسيطر على الولايات الأمريكية. وغدا جيش الاتحاديين عاجزاً عن وقف هذا الزحف، وسقطت جورجيا وتبعتها كارولينا، وهددت فرجينيا. عندها وجد ايستانغ ضرورة وجوده في المنطقة، فكتب إلى الملك ملتمساً السماح له بالعودة إلى الشمال لمساندة قوات أمريكا الاتحادية، لكن اقتراب فصل العواصف اضطره إلى دخول مصب نهر سافانا. ومن هناك انطلق يهاجم القواعد الإنكليزية القريبة، ونزل إلى البر وتقدم نحو جورجيا، لكن ظروفه كانت صعبة وإمكاناته العسكرية محدودة، ولا يجدر به الابتعاد كثيراً عن سفنه، وهي بطواقم مخفضة في مناطق غير آمنة، وعرضة للهجوم البحري المعادي.

في ١٨ تشرين الأول توقف التقدم الفرنسي بعد إصابة الأميرال ايستانغ بجرح بليغ. فعاد وصعد ومن معه إلى السفن ثانية. وداهمته في أثناء ذلك عاصفة هوجاء جعلت مرساه خطراً، فطلب إلى قادة سفنه الإقلاع إفرادياً واللجوء إلى الموانىء الأكثر أمناً. خلال ذلك وصلت إمدادات جديدة بالرجال والعتاد إلى القوات الأمريكية المدافعة، واستطاعت إيقاف الزحف البريطاني، ومن ثم استعادة بعض المواقع من الإنكليز.. وقد استعاد الأمريكيون نيوبورت، ثم استولوا على قلاع

هدسن. واستطاعت القوات الأمريكية الاتحادية التجمع في جيش واحد وبإمرة القائد الفذ جورج واشنطن.

معارك غيشن الثلاثة

في ٢٢ آذار وصل الأسطول الفرنسي الكبير بإمرة الأميرال غيشن Guichen، وكلف ببدء العمليات البحرية الصيفية.. وتضمنت التعليمات الموجهة إليه بالتحفظ التالي:

ـــ المحافظة على سفن الأسطول، وعدم المغامرة في اشتباكات غير ضرورية، وحماية التجارة البحرية بمواكبة القوافل في المناطق الخطرة، والدفاع عن المستعمرات الفرنسية وراء البحار، ومن ثم استعادة جزيرة سانت لوسي من البريطانيين.

كان سن الأميرال غيشن (٦٧) عاماً، وعُرِفَت عنه دقة التصور والحكمة والروية والمعرفة الكاملة لما يدور حوله. وكان خصمه آنذاك رودني Rodney القائد الإنكليزي الممتلىء نشاطاً وحيوية.. لذلك جاءت العمليات الحربية التي تلت بمثابة مبارزة نبيلة وطويلة بين القائدين الكبيرين، وهما يبحثان بدقة عن نقاط الضعف لدى الطرف الآخر بروية واحتراز شديدين، حتى كان اللقاء الأول في ١٧ نيسان وبصورة أخاذة وفاعلة.

أقلع غيشن من المارتينيك على رأس (٢٥) بارجة (١٦١٦) مدفعاً بمهمة مرافقة قافلة تجارية خارج بحر الآنتيل. وسارع رودني لاعتراضه على رأس قوة ضمت (٢٤) بارجة و (١٥١٦) مدفعاً والريح إلى جانبه.

تم التماس مع أول ضوء، وسرعان ما تطايرت الشظايا ولفت المنطقة سحب كثيفة من دخان المعركة. واستمر الاشتباك من السابعة صباحاً وحتى الظهيرة، والأسطولان مستعرضان بالتوازي، يصبان حممهما. وكل قائد يترقب هفوة من خصمه، ليسارع في استغلالها. أخيراً قرر رودني الالتحام، وأعطى إشارة الاقتراب لبدء الاشتباك القريب محاولاً صب كثافة نيرانه على مؤخرة تشكيل غيشن.. هنا تدخل القائد الفرنسي بسرعة واستدار ليساند سفنه المهاجَمة.

طالت عملية تبادل النيران من سفينة إلى سفينة. ومرت فترة تفرد قسم من تشكيل غيشن، فحاول رودني النفاذ من تلك الثغرة، ليقطع خط سير سفن خصمه. وكاد أن ينجح لولا سرعة

ملاحظة القائد غوامبي ربان البارجة ديستان، الذي غادر التشكيل، وهبّ يعترض رودني، ويمنعه من تحقيق مناورته. ونجح في تدخله ومنع مأساة كادت أن تقع.

في حوالي الساعة الرابعة والنصف مساءً توقفت النيران، وانسحب الخصمان، وكل يدعي النصر على عدوه.

بعد مرور شهر على تلك المعركة قرر غيشن بدء عملياته الهجومية على جزيرة سانت لوسي. ومإن استقل عرض البحر حتى خرج له رودني.. وبدأت معركتهما البحرية في ١٥ مايس. وكانت الريح إلى جانب الفرنسيين، واستمرت المعركة محتدمة حتى هبوط الظلام، والخصمان العنيدان يناوران ويضربان، دون أن يستطع أحدهما إحراز تفوق على الآخر.

بعد أربعة أيام عاد الأسطولان للاشتباك من جديد. واستطاع غيشن بمناورة حاذقة استغلال الريح إلى جانبه. وبدأت المدافع تدوي من جديد حتى هبوط الظلام، ثم تفرق الجمعان، وعادا ثانية إلى مرافئهما وكل منهما يدعي النصر على خصمه، وأخيراً استدعي غيشن إلى أوربة، فترك السواحل الأمريكية متخلياً عن خططه.

حملات أعوام (١٧٨١) و(١٧٨٢) بوركتاون، السانت، والدومينيك

برغم جمال حملة غيشن البحرية ومناوراته القتالية الرائعة، وبرغم محافظته على كامل قوته البحرية رفض الرأي العام الفرنسي تفهم تلك الإبداعات التكتيكية الرائعة، وطالبوا قائدهم بمعارك طنانة، وبمزيد من الجزر والمستعمرات. فقررت القيادة إسناد أسطول الآنتيل إلى رجل أفتى من غيشن، فوقع خيارها على الكونت دوغراس[٨٥] De Grasse الذي وصل في ٢٩ نيسان إلى المارتينيك، وقام بهجوم مباغت، وعلى الفور على مجموعة نائب الأميرال هوود Hood، أمام سواحل فور رويال. وكانت معركة ساخنة، دون أن يكون هناك غالب أو مغلوب.

في شتاء عام (١٧٨٢) استطاع الفرنسيون استعادة جزر سنت أوستاش وسان مارتان وسابا. كما استعاد الإسبان ألباهاما. لكن الحدث الكبير كان في محاولة احتلال جزيرة جامايكا. وهو الحدث الذي انتظرته الحليفتان إسبانيا وفرنسا زمناً طويلاً، والذي كان يتطلب موارد عسكرية ضخمة، لم تتحقق إلا بوصول القوافل المفرزة من البر الأوربي.

جاءت عمليات الهجوم على مراحل بدأها دوغراس باحتلال سان كريستوف في ١١ كانون

الثاني، حيث أنزل ستة آلاف مقاتل، لكن النزول على تلك الجزيرة تعرض لظروف قاسية، وفشلت الحملة.

من بارباد أقلع الأميرال الإنكليزي هوود ليوقف الزحف الحليف. ولم ينتظر دوغراس وصوله بل تقدم للقائد، والتقى الأسطولان وأخذ هوود يتراجع جاراً الفرنسيين لعرض البحر. وعند وصوله إلى رأس نيفيس Nevis بدل من وجهته، ومر في الريح أمام الأسطول الفرنسي، واتجه ليرسو في الموقع الذي كانت ترسو فيه سفن الفرنسيين في الصباح نفسه.

ابتعد دوغراس ليلاً ليهاجم مع الصباح، وقد اقترب بتشكيلة متراصة جاعلاً نهايتي التشكيل مستندة ومغطاة من البر. وحاول دوغراس خرق التشكيل البريطاني الراسي فلم يفلح، برغم التفوق الفرنسي العددي (٣٢ بارجة فرنسية مقابل ٢٢ بارجة إنكليزية).

مر دوغراس مستعرضاً الأسطول الإنكليزي لمرتين، وهو يصب حممه، إلا أنه وجد بأن محاولاته عديمة النفع، فقرر إحكام الحصار على هوود في مرساه. واستمر هذا الحصار مدة أسبوعين، في حين كانت العمليات العسكرية ناشطة على البر.. وفي ١٢ شباط استسلم قائد الحامية البرّية الإنكليزي، فاضطر هوود للإقلاع ليلاً في ليلة دامسة لا قمر فيها، وتسلل خارج المرسى، بعد أن ترك مشاعل على بعض العوامات لخداع الفرنسيين. ثم مر بين الشاطىء وبين السفن الفرنسية وذهب ليرسوا في آنتيغوا Antigoa. وبذلك انتقلت إلى يد الفرنسيين كل من سانت كريستوف، ونيفيس ومونتسيرا. كذلك استعاد كيرسانت Kersaint غوانا الهولندية من الإنكليز.

قدم رودني ليعزز الأسطول الإنكليزي، وارتفع تعداد الأسطول إلى (٣٧) بارجة. وانتظر دوغراس تعزيزاً مماثلاً بوصول تشكيل غيشن الذي كلف بمواكبة قافلة تجارية من البر الأوربي، إلا أن هذه القافلة والتي ضمت (١٩) بارجة و (١٥٠) سفينة تجارية هوجمت وهي على مسافة (١٥٠) ميلاً من ويسانت من قبل كمبنفيلدت Kempenfeldt الذي سعى بتشكيله البالغ (١٢) بارجة للتسلل بين القافلة وسفن المواكبة. واستطاع تشتيت القافلة وأسر (١٥) سفينة منها. وأعقب تلك العملية عاصفة هوجاء ١٢ كانون أول (١٧٨١)، زادت من مآسي التجمع الفرنسي بقيادة غيشن. وبذلك ضاعت على دوغراس فرصة التعزيز، ولم يصله إلا بضع سفن.

برغم ما حدث قرر دوغراس تحقيق حملته الكبرى التي استعد لها. وفي ٨ نيسان أقلع من جزيرة المارتينيك نحو سان دومينيك، وبإمرته (٣٥) بارجة وقافلة ضخمة. لكن رودني، وعلى مقربة

من جزيرة سانت لوسي، شاهد الحملة فأقلع ليمنع التقاء دوغراس بالإسبان، وكان لدى رودني (٣٦) بارجة.

بدأ أول اشتباك وأعطى الأميرال الفرنسي أوامره باتخاذ تشكيلة قتالية والريح من الميسرة (كان الريح شرق جنوب شرق). وسرعان ما حذا الإنكليز حذوه، وبدأت المسافة بينهما تتناقص، وأصبحت المعركة وشيكة الوقوع. لكن قبل أن يصل الأسطولان إلى مراكزهما القتالية تغيرت الريح فجأة واستدارت نحو الشرق. فساعدت الفرنسيين في تقدمهم حتى سبقوا الإنكليز، ووصلوا إلى نقطة بدء القصف في الساعة السابعة وأربعين دقيقة. وبدأ الاشتباك والأسطولان يستعرضان بمجنباتهما المتعارضة بهدوء. ووضعت مؤخرة الأسطول الإنكليزي في ظروف خطرة.

حاول دوغراس عدم التورط كثيراً خوفاً من اجتياز الريح ووقوعه تحته، بحيث يصعب عليه في ظروف المعركة استعادة الريح ثانية من الجانب المؤاتي له في المعركة. وفي الساعة الثامنة والنصف أعطى أوامره بتغيير الاتجاه بدورة كاملة، وبكامل سفنه. لكن الأمر لم ينفذ لعدم وصوله لسفن المقدمة، وإلا لكان قد عرض جميع سفن الأسطول الفرنسي إلى الرمي الضام (الطولاني) من قبل العدو في أثناء تنفيذه الدورة الكاملة.

وفجأة وفي الساعة التاسعة وخمس دقائق اشتدت قوة الريح، فبعثرت السفن الفرنسية. عندها استغل رودني الفرصة، وعبر بناء على توصية قائده دوغلاس Douglas بقسم كبير من رتله بين سفن الأسطول الفرنسي، وفي الوقت نفسه. وبعد فترة بسيطة نفذ هوود بالبقية الباقية من فرجة ثانية. وكان رتل الفرنسيين قد تقطعت أوصاله من عدة نقاط، وأصبحت التشكيلة عبارة عن مجموعات متفرقة متباعدة، تقاتل كل واحدة على حدة. وانتقلت المعركة الجماعية إلى سلسلة من المعارك المتفرقة، تنقصها المساندة، في حين حافظ الإنكليز على تماسكهم، يقاتلون مجموعة واحدة متساندة.

حاول دوغراس استعادة شمل تشكيله دون طائل، نظراً للهبات النشطة التي كانت تجعل كل تجمع جديد أمراً مستحيلاً. ومر الأميرال الفرنسي لوحده فترة تحت وطأة نيران ما يزيد عن عشر سفن إنكليزية.. وقاتل لوحده حتى أنزل علمه عن السارية علامة الاستسلام، ومعه على السفينة ثلاثة رجال فقط دون جراح. وكان مصير أربع بوارج أخرى مصيره نفسه. وهكذا انتهت **المعركة** بنصر بريطاني.. وأخفق الفرنسيون في احتلال جامايكا.. فأجلوا العملية إلى العام القادم.. وبإمرة ايستانغ، وبقوة تزيد عن ضعف ما كان بحوزة دوغراس.

وحتى لا تقر القوة الفرنسية بفشلها أرسلت مفرزتين بحريتين إلى السواحل الأمريكية. فوصلت إحداها حتى بوسطن، في حين دخلت الثانية خليج هدسن لتثبت للإنكليز ومن جديد أن قوتها البحرية لا زالت بخير، وقادرة على التحدي.

غضب الشعب الفرنسي وهاج لهزيمة الـ (٣٠) بارجة. واتهم دوغراس بالعار.. وكان عليه القتال حتى دمار أسطوله بالكامل.. لكن دوغراس وجه الاتهام إلى مرؤوسيه الذين تخلوا عنه في خضم المعركة. وهم بدورهم ردوا التهمة إلى رؤسائهم قادة التشكيلات. وانتهت جميع تلك الاتهامات إلى ملف ضخم، أحيل أمام مجلس عسكري للتحقيق، انعقد في لوريان، وانتهى بإنزال عقوبة السجن لعدة أشهر بأحد قادة التشكيلات. وطويت كامل القضية بعد أن وجد كبش الفداء. وسرعان ما طواها النسيان ككل المجالس التأديبية.

سوفران Suffren

سعى سوفران القائد الفرنسي الكبير والمنحدر من أصل إيطالي لإقامة سيادة بحرية مطلقة، وهو متأكد من أن تلك السيادة هي الشرط الرئيسي لكل النجاحات الطويلة على الجبهات البرية، ومتأكد أيضاً أن هذه السيادة لا تتحقق إلا بتدمير قوى العدو البحرية. وعليه ضربها في الصميم بهجمات عنيفة غاصبة وبضربات مميتة ومما قاله:

«إنه لمخيف أن نرى التشكيل الإنكليزي يدمّر أربع مرات ويبقى موجوداً دوماً».

لقد كانت شجاعة وصلابة وعناد سوفران موضع إعجاب وتقدير. لكنه لم يُفهم من رؤسائه، ولم تُهيأ له سواعد أمينة تسانده. وكثيراً ما كان يقاوم لوحده المصاعب المادية. فعلى سواحل البنغال وسيلان وماليزيا، حيث لا توجد هناك ورش بحرية، ولا قواعد، ولا أحواض سفن، كان عليه أن يوفر لأسطوله كل شيء بوسائط بدائية، وعلى الطبيعة، في أجواء مليئة بالحذر والمعاداة. أمضى سوفران خلال حملة طويلة دامت (٢٦) شهراً على رأس تشكيل بحري بلغ إحدى عشرة بارجة، قادتها متعجرفون، وطواقمها ناقصة العدد، قليلة الخبرة، وهيئة أركانه غير متعاونة.. وهذا كله جعل قيادته لهذا التشكيل العجيب سلسلة من المصاعب. وكان على القائد الشجاع القتال في كل الجبهات وانتزاع النصر، ثم عقد الصداقات وجمع التبرعات والأموال، لتمويل أسطوله. ولقد كان بحق بدعة جديدة في علم القيادة وعلم حرب البحر، استفاد منها قادة بحريون خلفوه، أمثال نلسون الإنكليزي. وبرهن سوفران من خلال أسلوبه أن العزيمة القوية قادرة على تحقيق

العجائب وفرض الحلول . ولا بد من شعور بالمسؤولية ، مع رغبة في تحقيق الأمجاد ، ومعرفة كاملة لسر المهنة ، ومحاولة تأكيدها وصقلها طيلة الحياة .

تلقى سوفران إمرة رتل من (٤) بوارج وفرقاطة ، مهمتها إيصال تعزيزات هولندية إلى الكاب ، ومن ثم التوجه لسواحل الهند والانضمام لتشكيل الكونت أورف Orves . وكان سوفران على علم بوجود تشكيل إنكليزي بإمرة الكومودور جوهنستوف ، يتجه مثله نحو الكاب ، برفقة قافلة إنزال كبيرة . وبمحض الصدفة وفي أثناء قيامه بتموين سفنه بالماء العذب من الجزر الخضراء شاهد التشكيل الإنكليزي يرسو في حوض البرايا Praya . وبعزيمة القائد الشجاع اتخذ قراراً سريعاً ، وأعلن دور القتال .. برغم دهشة قادة سفنه ، إذ إن تحقيق هجوم على تشكيل وهو في المرسى من الأمور التي لم يتمرسها قادته . وفي ١٦ نيسان من عام (١٧٨١) انقض على السفن الراسية لكنه أخفق في إحراز نصر عليها ، فالميناء محايد (برتغالي) ، وقد ينجم عن ذلك تعقيدات دولية . لكن سوفران اندفع متأثراً بأيام أسره في لاغوس .

وعملياتياً أخفق هجوم سوفران ، لكنه نجح من الناحية المعنوية . فقد أثر على معنويات قادة الأسطول الإنكليزي ومنعهم من اللحاق به ، وهو القوة الصغيرة . وفي أثناء الطريق استطاع سوفران إصلاح بعض الأعطاب التي أصابت سفنه . وكانت عملية برايا Praya ضربة استراتيجية أثمرت مع الزمن وقيل :

« البرايا خلدت اسم سوفران »

أنجز سوفران مهمته الموكلة إليه ، وارتقى إلى مركز قائد تشكيل ، ثم إلى قائد عام القوات الفرنسية وأساطيلها في الهند ، بعد موت الكونت أورف . ووصلت وحداته إلى (١١) بارجة و (٤) فرقاطات وغراب وحراقة . وكان عليه مقاتلة خصمه اللدود الإنكليزي هيوغ Hughes البحار الذائع الصيت .

لم يكن أمام سوفران أي خيار إذ عليه مقاتلة التشكيل الإنكليزي أمام مادراس ، وبطريقة يفاجىء فيها سفن خصمه هيوغ الراسية في الخليج المذكور . لكن الريح كانت قوية ، وتعصف من عرض المحيط .. وهذا عامل سيء للسفن المهاجمة ، حيث ستدفع تلك الريح القوية بسفن سوفران بقوة نحو رمال الشاطىء ، ومعنى ذلك خطورة جنحها .

تمهل سوفران بالهجوم منتظراً شروطاً جوية أفضل . فعاد إلى عرض البحر مبتعداً باتجاه

الجنوب . لكن هيوغ الأميرال المحنك الكبير أقلع يلاحق تشكيله ، واخترق التشكيل الفرنسي ، فاصلاً سفن النقل عن السفن الحربية . وكان بإمكان الأميرال الإنكليزي الاستيلاء على عدة قطع نقل بحرية ، إلا أن وقوعه تحت ريح التشكيل الفرنسي جعله عاجزاً عن المناورة السهلة . وفرضت عليه بتاريخ ١٧ الجاري قبول معركة بحرية لم تسنح له الظروف اختيار أفضل منها ، وكان ذلك قِبالة سواحل سادرا Sadras .

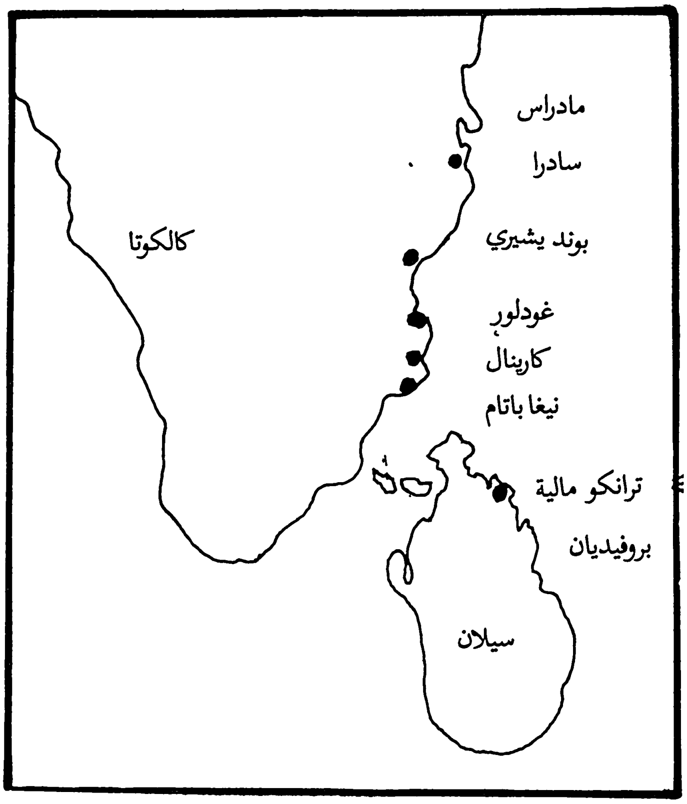

أعطى سوفران أوامره لقادة سفنه طالباً منهم دفع التشكيل الإنكليزي على امتداد انتشارهم تحت الريح ، بوساطة أقوى ست بوارج يمتلكها . وكان سوفران نفسه على الـهيرو Heros يقف معترضاً في ريح التشكيل ، يمنع مقدمة تشكيل هيوغ من المناورة ، لتأخذ مكاناً أفضل في ساحة المعركة . أما بقية السفن الفرنسية المهاجمة فقد طلب منها قائدها المرور تحت ريح سفن هيوغ ، مطوقين سفن المؤخرة بين نارين . لكن أحد قادة مجموعات سوفران تعثر في أخذ مكانه من خطة القتال ، وكان عليه اعتراض السفن الإنكليزية ، وإرباك تقدمها ، وجعلها تتبعثر فتفقد تماسكها القتالي . ولقد أدى هذا التقصير في جعل غالبية السفن المهاجمة بعيدة عن مدى مدفعيتها ، ماعدا بارجتين اثنتين فرنسيتين فقط اللتان استطاعتا الالتفاف حول مؤخرة التشكيل الإنكليزي وأوقعتا به خسارة فادحة بالأرواح وخاصة السفينة الأخيرة اكسيتير Exeter وهذا ما دفع بهيوغ للمناورة الحادة والعودة لمساندة مؤخرة تشكيله .

تعرضت السفن الإنكليزية لأضرار جسيمة جعلتها تنسحب مع هبوط الظلام ، والعودة إلى مادراس لإجراء الإصلاحات اللازمة . وبذلك حقق سوفران متابعة مهمته في مواكبة القافلة العسكرية التي تقل جنود الجنرال دوشمان إلى مرسى غودلور Goudelour . وبوصول تلك الإمدادات

الفرنسية انقلبت ظروف المعركة البرية لصالح حيدر علي حليف فرنسا الذي استطاع الاستيلاء على غودلور نفسها.

بروفيديان Providien ١٢ آذار (١٧٨٢)

عاد سوفران يلاحق هيوغ باتجاه الجنوب وكان معه (١٢) بارجة ضد (١١) لهيوغ.

التقى الخصمان قبالة رأس صغير يدعى برفيديان من جزيرة سيلان... وجاءت أوامر سوفران واضحة، وهي بقتال الإنكليز عن قرب. وتقدم الأميرال الفرنسي على البارجة Heros هيرو، وبرفقته بارجتان ليقطع خط سير هيوغ. وكالمرة السابقة تلكأ قادة سفنه عن اللحاق به، فاضطر إلى فتح نيران سفينته والسفينتين المواكبتين له على مركز التشكيل الإنكليزي، ومن مسافة قريبة.

استمرت المعركة حتى حلول الظلام. ورافق ذلك هبوب رياح قوية، بعثرت وباعدت بين السفن المتقاتلة، فافترق الخصمان، واتجهت السفن الفرنسية نحو الساحل الشرقي لجزيرة سيلان للإصلاح. وهناك وافته أوامر من القيادة العليا في باريس للعودة إلى ايل دو فرانس Iles De France، ليتلقى المزيد من سفن الدعم. رفض سوفران تنفيذ التعليمات، وقال إنه وحده القادر على تقدير الموقف العسكري، لذلك قرر البقاء في سواحل الهند.

كانت الخسائر في الأرواح بين الخصمين المتقاتلين خلال معركة بروفيديان متعادلة، إلا أن الأعطال التي أصابت السفن الإنكليزية أكبر، حتى إن البارجتين الإنكليزيتين اللتين وقعتا في مركز التشكيل أصيبتا بتدمير شبه كامل وغدتا خارج المعركة.

نيغا باتام Négapatam ٦ تموز

تم اللقاء الثالث مع هيوغ وكان هذا الأخير قد تلقى تعزيزات بحرية بعدة سفن جديدة وقوية. وكان لقاءً حاسماً وصعباً على سوفران، خصوصاً وغالبية قادة مجموعاته ليسوا بالكفاءة المطلوبة، فاضطر للتراجع والانسحاب، بعد معركة حاسمة، فقد فيها ما يزيد عن ثمانمائة مقاتل من رجاله، كما أعطب العديد من سفنه. وقد عملت ريح قوية هبت من الجنوب الغربي، واستدارت نحو الجنوب الشرقي على بعثرة نسقي القتال، وباعدت بين الوحدات المتحاربة، ودفعت بالسفن الفرنسية نحو الغرب، مما اضطر سوفران للتخلي عن مرسى نيغاباتام للإنكليز، والعودة إلى غودلور ليرسو هناك في ١٧ تموز (١٧٨٢).

بعد يومين اثنين حصل حادث أليم أسعر غضب القائد الفرنسي. إذ حضر أحد أعضاء

البرلمان البريطاني إلى كاريكال يطالب بالبارجة الفرنسية سيفير Sévére ، مدعياً استسلامها بتاريخ ٦ تموز في أثناء المعركة لأنها أنزلت علم بلادها (إشارة استسلام في القتال البحري).. لكن سوفران رفض بقوة تلك الذريعة. وفي الحقيقة أن قائد البارجة المذكورة اضطر إلى إنزال العلم لفترة وجيزة بضغط من أحد أعوانه الذي كان يرغب في التخلي عن المعركة، علماً بأن موقف السفينة الحربي لم يكن يستدعي ذلك. وقبض قائد السيفير على معاونه، وأعاد العلم إلى مكانه، واستأنف القتال وكأن شيئاً لم يحدث. وأنهى سوفران المشاحنة الكلامية للنائب البريطاني بقوله:

«من يود الاستيلاء على البارجة سيفير فليحضر ليأخذها».

أجرى سوفران بمساعدة السلطان الهندوسي الإصلاحات اللازمة لسفنه على عجل. وتزود بكامل حاجياته من مواد تموينية، وعتاد حربي (بارود، حبال، الخ)، واستعاض عن بحارته الثمانمائة الذين فقدوا في المعركة بين قتيل وجريح ومفقود، حتى أصبح في مطلع شهر آب جاهزاً قتالياً. فأقلع إلى عرض البحر من جديد يبحث عن خصمه اللدود هيوغ. وخلال ذلك وصله تعزيز بحري من بارجتين حديثتين. وأصبح سيد خليج البنغال. وقرر استغلال جاهزيته القتالية، فتوجه نحو تريكوماليه Triquemalé . ووصلها في ٢٥ من الشهر نفسه، وقام بإنزال الرجال والمدافع. وبالتعاون مع مدفعية أسطوله دفع بحامية الموقع المعادية له إلى داخل البلاد، ودمر قلاعهم واستولى على كامل الخليج.

ما إن علم هيوغ بالنصر الفرنسي حتى هب للقائه. وكان قد انتهى لتوه من إصلاحات أعطاب سفنه.. وفي الثاني من شهر ايلول وصل القائد الإنكليزي هيوغ على رأس (١٢) بارجة.. إلى ساحة تواجد التشكيل الفرنسي. وعلى الفور حاول سوفران تطبيق مناورته التقليدية المعروفة بتطويق ذيل التشكيل الإنكليزي، والانقضاض عليه وتدميره. في حين تعالج باقي السفن المهاجمة باقي السفن الإنكليزية، تشاغلها وتحاول اقتناص بعضها، بمناورات بحرية ذكية. لكن الخطة لم تفلح إلا بثلاث سفن حربية فرنسية فقط، كانت إحداها الـ Heros هيرو سفينة سوفران نفسه. ونظراً لاندفاع الأميرال الفرنسي، وعدم تجاوب باقي مجموعاته وقع في موقف خطر، وقاتل مع البارجتين الأخيرتين قتال الأبطال، حتى وصل التلاحم بين السفن المتحاربة مدى المسدسات.. وللحظة أصابت قذيفة ساري علم سفينة القيادة هيرو وسقطت الراية على ظهر السفينة، وهنا ثار سوفران (وكان معروفاً بشدة غضبه) لاعتقاده بأن الإنكليز سيحسبون ذلك علامة الاستسلام من سفينته، لكن أحد قادة مجموعاته وهو دو شيلو Du Chilleau استدرك الموقف واستدار بمجموعته

بمناورة حادة، ودخل الملحمة بنيران مدافعه الكثيفة وفتح ثغرة لسفينة قائده التي كادت تقع في الأسر. ونجح في تلك المناورة الشجاعة، وعادت كفة المعركة ترجح لصالح الفرنسيين من جديد. وهنا وجد القائد الإنكليزي أن من العبث محاولة استعادة موقع تريكوماليه من الفرنسيين، فقرر وقف المعركة والانسحاب إلى عرض البحر.

مع اقتراب فصل الشتاء، وعودة الرياح الموسمية إلى شدتها وعنفها، تغدو سواحل كورمانديل Cormandel خطرة لا تقدم مأوى للسفن المتواجدة فيها. وهذا ما دفع بالأميرال الإنكليزي إلى التخلي عن مرساه في مادراس، واللجوء إلى شواطىء بومباي. أما موقع مرسى السفن الفرنسية في تريكوماليه فجيد من حيث العوامل الطبيعية، ويقدم مأوى جيداً لفصل الشتاء. إلا أن الموارد حول هذا الموقع قليلة والإمكانات لا تنفع في الإقامة الطويلة. لذا قرر سوفران مغادرته بتاريخ ١٥ تشرين الأول قاصداً آشيم Achem في سومطرة. وخلال إقامته الشتوية هناك غزا خليج البنغال وأحرق مئات السفن الإنكليزية والهندوسية. ولقد أدهش بغزوه هذا الهندوس حتى أطلقوا عليه لقب الأميرال الشيطان.

خلال الإقامة الشتوية الطويلة أعد سوفران خطة لمعركته المقبلة التي يبغي من ورائها تدمير قوة هيوغ. ونظم القائد الفرنسي الخطة مع كامل شروحاتها، وأرسلها إلى قادة مجموعاته وقادة سفنه. وتتلخص بإجراء مناورة جريئة، سيحاول فيها تطويق التشكيل الإنكليزي بحركة التفاف، وجعل سفن خصمه بين نارين. إلا أنه لم يجد الفرصة المناسبة لتحقيق حلمه. وأنهى معاركه قبالة السواحل الهندية، بانتهاج الأسلوب التقليدي القديم، والقتال بنسق مقابل ومواز. وكانت آخر معاركه، برغم تفوق هيوغ عليه، قتالاً تراجعياً اتصف بالشجاعة والعنف، ككل معاركه السابقة. ثم أعقب ذلك فترة من الهدوء، وبدأت فيها مفاوضات السلام التي شملت القارة الهندية عامة.

عاد سوفران إلى فرنسا يحمل أمجاد معاركه البحرية الطويلة، تسبقه شعبية عارمة. واستقبله الملك، ورفعه إلى رتبة نائب أميرال وفارس لسانت ايستريه، حتى إن بعض الولايات ضربت ميدالية تخلد ذكراه، كما نقش على قاعدة تمثاله في سان تروبيز العبارة التالية:

«انقذ الكاب وتريكوماليه، واستولى على غودلور، ودافع عن الهند بست معارك شهيرة».

لم تتوقف شعبية سوفران حتى بعد موته بظروف غامضة عام (١٧٨٨). واستمرت ذكراه

حية خاصة في موطنه الأصلي البروفانس، حيث نحتت صخرة ايستريه تخليداً لهذا البطل وعرفاناً بجميله. وقد قال فيه نابليون وهو في جزيرة سانت هيلين:

«لقد قضيت وقتي أبحث عن رجل بحر جديد دون جدوى، إن في هذه المهنة تخصصاً وتقنية تفوقان كل تصوراتي ومفاهيمي. لماذا سوفران لم يعمر حتى زمني أنا؟ إذن لكنت جعلته نلسوناً لنا ويكون لمنجزاته الحربية وجه آخر».

ابتدأت خطوات السلام منذ عام (١٧٨٣)، وقد خـلّفت وراءها الدولة العظمى إنكلترا قلقة لأوضاعها المالية، ولفقدانها العديد من سفنها البحرية الحربية والتجارية. ولم تحافظ خلال كل تلك الحقبة من الزمن إلا على بعض من كبريائها في النصر الذي حققته في جزر السانت (الآنتيل). أما فرنسا المتخوفة من سلام جانبي قد يعقد بين أمريكا وإنكلترا فخرجت من الحرب وقد محت بعض عار عام (١٧٦٣). وحملت مفاوضات سلام في فرساي عدة بنود منها:

ـــ الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية.

ـــ إعادة جزيرة مينوركا وشبه جزيرة فلوريدا لإسبانيا.

ـــ إعطاء جزيرة تاباغو (الآنتيل) والسنغال إلى فرنسا (بغض النظر عن نتائج الخلافات في القارة الهندية).

ـــ جعل دَونكرك على ساحل بحر المانش بلداً حصيناً.

ولقد أعقب ذلك كله توقيع اتفاقية تجارية عام (١٧٨٦) بين الخصمين فرنسا وإنكلترا أنهت بينهما الحرب الاقتصادية القائمة منذ معاهدة سلام أوترخت السابقة.

وعلى كل حال لم يكن هذا السلام الجديد ليعمر طويلاً، خاصة بعد انتعاش سلاح البحرية الفرنسي الذي أقلق سادة البحر الإنكليز، ودخل في قناعة كل مواطن بريطاني وجود تهديد كامن ومستمر لا يمكن تجاهله. وكما سنرى فإن حروب الثورة الفرنسية والإمبراطورية البونابرتية ما هي إلا مرحلة ثانية من مراحل الصراع الطويل الفرنسي ـــ البريطاني.

الفصل الثاني

التوازن البحري الاقتصادي
في نهاية القرن الثامن عشر قبل الثورة الفرنسية

أتت اتفاقيتا فرساي عام (١٧٨٣) بنهاية حرب استقلال الولايات المتحدة الأمريكية، وبالاتفاقية الاقتصادية التي عقدت بين فرنسا وإنكلترا عام (١٧٨٦) التي سارت بالبلدين نحو نظام اقتصادي اقترب جداً من نظام التبادل الحر. وقد تلازم ذلك كله مع دعايات فلسفية، نهجت إلى التبشير بهدنة طويلة بين الخصمين اللدودين.

مع كل النجاحات البريطانية وازدهار تجارتها البحرية في القارة الهندية قال أحد السياسيين المعاصرين: **إن مجد إنكلترا مضى، وإذا كانت بالأمس تسن الشرائع البحرية فهي الآن تتلقاها.** وطبعاً هذا الكلام فيه الكثير من المبالغة، إذ لم تستطع دولة واحدة بعدُ فرض القوانين البحرية عليها، بل على العكس ساقت عدوتها فرنسا إلى معاهدة فرساي، وفرضت عليها من خلال هذه الاتفاقية كل ما رغبت فيه سابقاً.

إن أحداً لا يشك بفقدان إنكلترا العديد من مستعمراتها في حرب الاستقلال الأمريكية. لكنها عادت إلى تلك القارة الجديدة بوجه جديد، وعن طريق التجارة والتموين. خصوصاً والولايات المتحدة الأمريكية لم تكن بعد البلد الصناعي المكتفي ذاتياً. فهي تحتاج إلى بلد صديق يغطي لها احتياجاتها. وبذلك أصبحت الزبون والمستهلك الأول والأمين لصناعات إنكلترا ومنتجاتها، مشكلة مورداً مالياً ضخماً لبريطانيا العظمى ولتجارتها الخارجية. وبذلك عادت المملكة البريطانية بعد القتال الطويل أكبر حجماً وأعظم مورداً، في حين أفرغت فرنسا بيت مالها في حروب الاستقلال

الأمريكية، بدافع من الكبرياء، وراوحت كل من هولندا وإسبانيا في مكانيهما وسقطتا من نسق الدول الكبرى. شيء واحد تغير بالنسبة لبريطانيا، فهي لم تعد القوة البحرية الراجحة الكفة، المطلقة القوة. ومع أنها استطاعت الوقوف بعناد أمام التحالف الأوربي، لكنها لم تستطع إلحاق الهزيمة به، وبقيت من الدول ذات القدرة البحرية الكبيرة والأولى، لكنها ليست الوحيدة. حتى إن جميع الملاحم البحرية التي خاضتها لم تستطع إعادة مجدها البحري الماضي. أما بالنسبة لقدرات دول القارة الأوربية البحرية فهي موجودة وقوية، لكنها لا تقوى على تدمير أو ترهيب القوة البحرية البريطانية، وحتى لو سعت تلك الدول مجتمعة لحروب بحرية جديدة، فهي لن تستطيع تحقيق أي تبديل في توازن القوى. لذلك سادت قناعة تامة لدى جميع حكومات الدول الكبرى بفكرة التعايش في إطار سلام صريح، بعد أن استولت كل دولة على مناطق شاسعة من العالم الجديد، تدر عليها بالثروات الطائلة، والتي تفيض بكثرة عن قدرة الاستيعاب والتصنيع. ولقد آن بالفعل وقف تلك الحروب الاستنزافية السابقة، والعودة إلى تنظيم كل بلد من الداخل، خشية حدوث الاضطرابات والأزمات، داخلية كانت أم خارجية.

أما بالنسبة للتوافق الاقتصادي فقد عمدت فرنسا وإنكلترا منذ عام (١٧١٣) إلى خوض حرب اقتصادية لا هوادة فيها. وكانت التجارة بينهما أقرب إلى التهريب والتبادل غير المشروع، وتحت هيمنة القراصنة والانتهازيين. وكان حري بهاتين الدولتين البحث عن حلٍ لتلك المعضلة. وكان لهما ذلك بتوقيع الاتفاقية الاقتصادية.. وقد قال في هذا الصدد ويليام بيث رئيس وزراء بريطانيا:

«إنني سأعمل على سعة وقوة الوطن (بريطانيا) وسأجعله أكثر كبراً وعظمة بظروف السلام عما وصل إليه والدي (كان أبوه رئيس وزراء بريطانيا قبله) في إدارة البلاد، عن طريق الحروب. وسأبدأ في تدمير القيود الجمركية التي تشل الحركة الصناعية، وتوقف تصريف المنتجات، دون أن تغني الخزينة برسومها المحدودة.

وبالفعل قام الرأسماليون البريطانيون يدعمون نهج رئيس وزارتهم بقوة. وفي فرنسا كانت الأوضاع شبه مماثلة، إذ نشط الكتّاب والمفكرون لحث الدولة لاتخاذ خطوات اقتصادية بناءة، من حيث زيادة الإنتاج، وتوزيع الثروات، بنشرهم قواعد علمية حديثة أطلقوا عليها آنذاك اسم «الاقتصاد السياسي»، وتبناه الاقتصاديون وبشروا به، حتى غزا هذا النهج الجديد أفكار رجُال السلطة، ووصل إلى مجلس الملك الاستشاري وكانت الفكرة العامة تمسك الاقتصاديين بمبدأ: « منفعة المستهلك تغلب منفعة التاجر» ولا شيء يجب أن يحول ويقيد حرية التبادل التجاري، وعلى الأسبقين التخلي كلية عن مبادىء الاحتكار والتمييز بين المتعاملين. وقد قام الفيزيوقراطيون (مذهب

يرجح الثروة الزراعية ويعتبرها المصدر الأهم) يدعمون الزراعة، ويطالبون الدولة بالعمل على تأمين الأمن الغذائي ومن ثم الصناعي، مع فتح مجالات لتصريف الإنتاج، والابتعاد عن التفنن في خلق صناعات اعتباطية هنا وهناك، لا تولد إلّا اضطراباً في الإنتاج أو التصريف، بل يجب اعتماد الصناعات الطبيعية، والتي تعتمد في مواردها الأولية على داخل البلاد. ولقد شجعوا بالدرجة الأولى صناعة وإنتاج المشروبات الكحولية والخمور، والحبوب بأنواعها. وكانت أسواق هذه المنتجات قريبة، وأكثرها يذهب إلى الجارة بريطانيا.

تم توقيع الاتفاقية الاقتصادية الفرانكو ـ بريطانية بعد محادثات طويلة وشاقة بين المعتمد المطلق الصلاحية البريطاني ويليام ايدن(٨٦) William Eden الموصى بتعليمات مشددة للحفاظ على مصالح بلاده الحيوية، والمعتمد الفرنسي المتمسك بتعليمات وأسس الاقتصاد السياسي الذي تبناه تيرغو(٨٧) Turgo ودونومور(٨٨).

وقوبلت الاتفاقية الاقتصادية بالترحيب الشديد في إنكلترا، في حين اعتبرتها فرنسا غير عادلة. لكن معاهدات مماثلة تمت بين دول أخرى في المجتمع الأوربي، أمثال روسيا وسويسرا وحتى مع أمريكا. وبدأت محادثات مماثلة مع كل من إسبانيا وهولندا. ويمكن تسمية الحقبة بمرحلة بدء النظام الاقتصادي المعتمد على مبدأ التبادل الحر.

استغلت بريطانيا هذا التحول الكبير، وحسنت ميزانها التجاري، وضاعفت أرقام مبادلاتها التجارية. وأخذت الأمم الأخرى تحذو حذوها. وبذلك بدأ فعلاً عصر ازدهار الآلة بتقنية حديثة في إنتاج كل أنواع المنسوجات. وتحولت الورش الصغيرة إلى مصانع ومعامل ذات إنتاج عال وسريع. وتبع ذلك كله تحول كبير في صناعة الحديد والصلب. وأصبحت إنكلترا المصدر الوحيد لمنتجات عديدة، تضم كل المجالات وإلى جميع دول العالم، وبأرقام فاقت كل التخيلات، وفي فترة زمنية قصيرة. وما كان بالإمكان تحقيق هذا الحجم الكبير من النشاط التجاري لولا وجود بحرية تجارية ضخمة، تحميها البوارج الحربية، لتأمين المواد الأولية للصناعات العديدة، كالقطن من الهند، والنيلة من أمريكا، والمطاط من الجزائر الشرقية.. الخ.. ولتنعش معها الموانىء الإنكليزية أمثال لندن وليفربول ونيوكاسل ومانشستر. ولقد ارتفع الوزن العام للسفن العاملة في تلك الموانىء ليثب من نصف مليون طن سنوياً عام (١٧٦٠) إلى مليون ونصف سنوياً عام (١٧٩٢). ولما كان المرسوم الملاحي لا زال مطبقاً حول جنسيات السفن فإن ١٠ بالمائة منها فقط من جنسيات غريبة. وعلى هذا الأساس وبانتعاش التجارة والصناعة انتعشت البحرية التجارية، وتطورت وسائطها، وغدت

إنكلترا دولة غنية جداً . ووثب رأسمالها من (١١) ملياراً من الجنيهات عام (١٧٠٠) إلى ما يزيد عن (٥٠) ملياراً في نهاية القرن ، ولدولة لا يزيد تعداد سكانها عن (١٢) مليون نسمة .

في فرنسا كان الوضع الاقتصادي جيداً للغاية برغم حرب السنوات السبع . وقد دلت الإحصاءات على تزايد كبير في حجم التبادل التجاري ، وشهد على ذلك الأميرال ريفيبر Reveibbère بقوله :

« إن تجارة فرنسا تساوي أو تفوق تجارة الإنكليز » .

إن هذا القول فيه الكثير من المبالغة ، إذ إن ميزان التبادل التجاري في إنكلترا بلغ نسبة (١٣٨٪) ، في حين لم يصل في فرنسا إلا (٨٧٪) . ويعزو الفرنسيون ذلك إلى أن المواطن الفرنسي يعيش حياة أكثر ترفاً ويستهلك الكثير من الخيرات .. (مجتمع استهلاكي) .

وبقيت الصناعة الفرنسية متخلفة . ويرجع ذلك إلى قناعة فرضت على فرنسا بقاءها دولة زراعية ، وعليها رفع مستوى أوضاع المزارعين ، وتحسين شؤونهم الحياتية قبل التفكير بأوضاع الصناعيين . لهذا بقيت الورش الصناعية صغيرة دون تطور ، ولم ترق إلى مصاف المصانع والمعامل الإنكليزية . وعلى أثر توقيع المعاهدة الاقتصادية اجتاحت الأسواق الفرنسية المنتجات والمصنوعات البريطانية من كل نوع وصنف ، وتضاعف حجم المستوردات من إنكلترا ، وارتفع الرقم من (٢٤) إلى (٦٣) مليون فرنك ، في حين لم يتعد رقم التصدير الـ (٣٠) مليوناً . ونتيجة لهذا الخلل في ميزان التبادل التجاري توقف إنتاج العديد من الصناعات الفرنسية الشهيرة ، كخزفيات روان ، وخيوط غزل النورماندي ، وأقمشة بيكاردي .. الخ .. وأصبحت جميع الملابس والأثاثات والخردوات تجتاح الأسواق الفرنسية قادمة عبر بحر المانش بأسعار اقتصادية ، يصعب مزاحمتها بالإنتاج المحلي .. وانخفض منتج فرنسا الصناعي ، وتقلصت التجارة الخارجية حتى في البضائع التي اشتهرت بها فرنسا عبر السنين الطويلة . وغدت عرضة لمضاربة عنيفة لارتفاع أسعارها وقلة كمياتها .

تأثرت البحرية التجارية الفرنسية مع القصور النسبي في حجم التجارة ، وبذلت عدة محاولات لاستدراك مستوى معقول ، دون طائل . فقد تخلفت صناعة السفن هي الأخرى نتيجة التدهور الاقتصادي ، ولم تستطع اللحاق بركب الحضارة . وبقي الأسلوب المعتمد في بنائها وتجهيزها وتسليحها يطبق الطرق لمبالية القديمة . وبذلك قصرت في تأمين الوسائط اللازمة لتحقيق سبق اقتصادي ، يقوم على سرعة وحسن نقل المنتجات إلى بلاد العالم ، بشروط ملائمة وتشجيعية .

وتخلفت فرنسا في مجال النقل التجاري، لغياب الأسطول الحديث الجدير بمناوأة أسطول إنكلترا التجاري الفتي وتحديه.

أما بالنسبة لأسطول فرنسا الحربي فهو أسطول مرهق لتوالي الحروب، متعب في تطوره اللوجيستي، تدير شأنه سلطة تشريعية مزعجة، يسودها الطغيان الطبقي، صفاتها الخمول والإهمال.

أمنت فرنسا ملاحتها الساحلية بين المرافىء بوساطة عدة آلاف من القوارب القديمة، تجول ناقلة المنتجات، للتعويض عن ندرة الطرقات البرية. أما صيد الأسماك فكان حكراً أو مزرعة لرجال القوات البحرية، وقد ضم (٣٠٠) سفينة صيد، تستغل إفرادياً، ولا دور اقتصادي هام لها.

لم يكن هناك بالفعل إلا الملاحة عبر المحيطات التي استطاعت المحافظة على دور فعال، ولو أنها لم تصل في يوم من الأيام في نشاطها الحركي بين الموانىء الفرنسية والموانىء الأجنبية لنصف حجم ما كان يجري في الموانىء البريطانية. وانحصر مجمل هذا النشاط مع موانىء الشرق. إذ إن إنكلترا سيطرت على كل طرق ملاحة شمال أوربة، حتى العديد من موانىء فرنسا نفسها. ولهذا السبب، ولتضاؤل حجم النشاط الملاحي التجاري، تحجَّم أسطول فرنسا الحربي وتراجع عن مستواه السابق، لنقص في الرجال وفي السفن. وهذا يعني قصوراً في تقديم الخدمات البحرية، واقتصرت على ربط المستعمرات فيما بينها، لتأمين استثمار خيراتها، ونقل منتجاتها، في سبيل تحقيق الأرباح، وتكديس الأموال.

فكر بعض الاقتصاديين أمثال شواسيل Choisel بشراء جزر الفيليبين من الإسبان، لزيادة رقعة الأرض المستثمرة زراعياً. إلا أن التقارير التي وصلت الإدارة الفرنسية لم تشجع السير في هذا المضمار، نظراً لتكالب المستثمرين المستعمرين وتساندهم في إقامة تجمعات متماسكة، تحفظ لهم مصالحهم الخاصة. وقررت السلطة الفرنسية تحسين أوضاع استثماراتها الزراعية في غيانا. فأرسلت إليها كلاً من تيرغو Turgot وشامبفالون Champvallon على رأس حملة من (١٥) ألف رجل من الخارجين على القانون والمحكومين، لإعادة تنظيم الأرض واستثمار خيراتها.

لم تحظ الحملة بعناية وتنظيم ضروريين وساءت حالها، وأنهكها الجوع والمرض والفاقة.. وكررت المحاولة في الهند الصينية، وكان حظها فيها أفضل من سابقتها. واستطاعت فرنسا إقامة قواعد

هامة لها في بلاد آنام ، ونجحت في بسط سيطرتها . برغم محاولات الإنكليز **لإبعادهم عن القارة الهندية ، حتى لو تطلب ذلك منهم التضحية بآخر مقاتل وآخر سفينة حربية .**

سعا كليف[٨٩] Clive خلال (٢٠) عاماً إلى إعطاء شركة البنغال كل الصلاحيات اللازمة لمعارضة انتشار المستعمرين الفرنسيين ، كما عمل هاستنغ[٩٠] Hastings على تطبيع أمراء الهند والموغول ، وفي جعل القارة الهندية أرضاً بريطانية مستقلة ، تعوض عن فقدان موارد الممتلكات البريطانية في أمريكا المستقلة . وبالفعل فقد بدأت مستعمرات الهند تتعاظم . وعادت حمى الامتداد والاستيلاء على المزيد من الأراضي الشاسعة الشغل الشاغل للمستعمرين البريطانيين ، كما كان الحال أيام حكم أسرة ستيوارت .

اتخذ المستعمرون البريطانيون الذين نزحوا من أمريكا مقراً جديداً لهم في كندا الغربية ، وأخذوا يتجمعون ضمن وحدات قوية ، تسعى إلى استقرار دائم في المنطقة . وكذلك كان الحال في كل من جزر بيرمودا وباهاما ، والساحل الهندوراسي ، والساحل الافريقي . وأخيراً حط فيليبس Philips أول المستعمرين البريطانيين على أرض أوستراليا عام (١٧٨٠) .

بالنسبة لإسبانيا كان الوضع مختلفاً . فالظروف الإسبانية لا تماثل ظروف الإنكليز . ويرجع الفضل في ذلك لعدة وزراء اتصفوا بالحكمة والتجربة ، ووصلوا في نهاية القرن الثامن عشر إلى تحسين أوضاع بلادهم ، وخاصة فيما يتعلق بالسفن التجارية ، وبسلاح البحر ومنشآته ووسائطه . فعززوا تعداد السفن الحربية والتجارية ، وذلك لتأمين خدمات متواصلة لمستعمراتهم البعيدة والمنتشرة في جميع أصقاع العالم . وكان ذلك يتطلب منهم قدرة بحرية كبيرة عالية التنظيم والتأهيل . من أبرز هؤلاء القادة كامبومانيه Campomanes وفلوريدا بلانكو[٩١] Folorida Blanco وآراندا[٩٢] Aranda الذين استطاعوا بجهودهم الكبيرة تحقيق نتائج إيجابية ، وحافظوا على إسبانيا دولة بحرية ، تأتي في المرتبة الثالثة بين دول العالم آنذاك . ولكن ذلك لم يمنع من أن تفقد إسبانيا العديد من مستعمراتها في آسيا ، وبعض مستعمراتها في أمريكا . لكن الأمر الأكثر أهمية هو في التغلغل الاقتصادي البريطاني في ممتلكاتها وراء البحار حتى السيطرة الكاملة على كل النواحي التجارية التي أرغمت إسبانيا على التنازل عن حقوقها فيها ، بموجب اتفاقية عام (١٧١٥) . وتحكمت بريطانيا بكامل المبادلات التجارية ، واحتكرت كل عمليات تموين وتجهيز أمريكا الجنوبية ، مع تقديم الأدوات والصناعات وإمداد المستعمرين بالعبيد ، حتى غدا أكثر من نصف النشاط التجاري الإسباني عبر البحار يتم

على سفن بريطانية. وتقلص شأن إسبانيا في مستعمراتها، ولم يبق لها فيها إلا السلطة السياسية والدينية فقط. وهذا ما دفع بآراندا وبدافع الغيرة على مصلحة بلاده إلى إرسال حملة لوقف تدهور الأوضاع التجارية في المستعمرات على البر الأمريكي، ولمنع وقوعها بين براثن المستعمرين الإنكليز أو الأمريكيين.

استطاع هذا المصلح الإسباني الكبير إقامة ثلاث ممالك مستقلة استقلالاً شبه إداري، وتخضع نظرياً أو بالأحرى تتحد مع المملكة الإسبانية. وضمت تلك الممالك الثلاث كلاً من المكسيك والبيرو والاكواتور وكولومبيا وفينزويلا. ومنحت تلك الممالك حرية كاملة في تعاملها التجاري. وكاد المشروع أن ينجح لولا اصطدامه بعقبات عديدة. ولولا تهادن فرنسا وإنكلترا وخوفهما من عودة المجابهة الحربية، وتخليهما عن انتزاع المستعمرات الأمريكية من أيدي الإسبان لضاعت ممتلكات إسبانيا هناك وإلى الأبد.

استمر الحال محفوفاً بأخطار نشوب نزاعات محلية جديدة قد تمتد إلى المستعمرات. والسبب الرئيسي لهذا الاحتمال هو تعاظم أطماع المستعمرين من كل الجنسيات، وتوفر الخيرات بكثافة، ولقد وقف رجال الأعمال الذين أجبروا عام (١٧٨٦) على احترام وقبول قواعد المصالحة باتفاق الفوائد الجديد. وكانت النظرة لهذا الأسلوب تختلف باختلاف الجنسية. ففي فرنسا وقف الرأي العام يرفض قبول حرب دون منتصر أو مهزوم، ولا تشكل إصلاحاً كافياً لمآسي الحروب. ومعاهدة (١٧٨٦) أضرت بالفوائد الخاصة، حتى اعتبرت تلك الاتفاقية ومن غالبية أفراد الشعب بمثابة خيانة حقيقية، استغلها أعداء السلطة. وهذا ما دفع بالحكومة الفرنسية عام (١٧٨٩) إلى إجراء استفتاء شعبي حولها.

أما الإنكليز فقد قبلوها بإقرار جماعي نابع عن القلب. ولم يصدق الشعب برغم عظمة ازدهاره وقوته التوصل إلى تحقيق كل تلك المزايا بالسهولة التي تمت. وظلّ الرأي العام يخشى من ردة فعل فرنسية، بعد تطوير قدرة فرنسا البحرية.. واعتبروا فترة السلام التي بدأت عام (١٧٨٣) بمثابة هدنة أو إيقاف مؤقت للقتال.

وبالفعل ففي عام (١٧٨٧) شعر جميع الأوربيين باقتراب انفجار عسكري جديد خاصة بعد ثورة هولندا، وتسليم مقاليد الحكم فيها للجمهوريين البورجوازيين حلفاء فرنسا، الذين أيدوا الانقلاب الجديد، وانتقدوا تصرف البروسيين في إعادتهم السلطة إلى الستاتهورد من جديد، وهي الأسرة التي حكمت هولندا، والتي كانت منقادة لإنكلترا أيام الأسلاف السابقين.. ولو استمعت

فرنسا لآراء المتحمسين أمثال كاستري[٩٣] Castries لراحت جيوشها تتصدى لغزوات الجيوش البروسية، لتمنعها من اغتيال استقلال الشعوب وحريتها. ولكان إعلاناً لحرب طويلة جديدة في أوربة، حيث ترفض فرنسا وعلى مر العصور وجود عدوة تقليدية تحتل كامل شواطىء بحر الشمال.

تجنبت فرنسا الحرب لأنها في الحقيقة لا تستطيع خوضها كما كان في عام (١٧٧٩)، أو عام (١٧٨٣). وتركت لدبلوماسيتها الهادئة معالجة الأمر، بأفكار متساهلة حتى تحين ظروف أكثر ملاءمة.. فحافظت على السلام.. كما فعلت عدوتها إنكلترا، بإسكات المتظاهرين وإعطائهم وعود إعادة تنظيم المملكة من الداخل، وتعزيزها دفاعياً في الخارج، بعد أن بدا في الأفق ظهور خطر جديد وكبير ينبىء بفقدان التوازن الأوربي العسكري، والذي يتمثل بطموح روسيا الجامح، وبهجمتها الشرسة التي التهمت من خلالها نصف البر البولوني، ودقت آخر الأبواب التي تفصلها عن الغرب الأوربي، حيث وصلت أطماعها شمالاً إلى بلاد السويد للعبور إلى المحيط الأطلسي، وجنوباً إلى أبواب البر التركي، لدخول البحر الأبيض المتوسط.

تأزمت الظروف الدولية (١٧٩١) وكأن حرباً جديدة تنذر بالاشتعال، لولا الدور البريطاني الفرنسي البناء والذي أخر اشتعال المنطقة، إذ رفضت فرنسا مطالب إسبانيا في قضية نوتكا Nootka، وعملت مع بريطانيا الدولة الكبيرة على متابعة حفظ السلام في المنطقة بتوافق وتفاهم كاملين، ساعيتين لرقي المنطقة الغربية من أوربة بعيداً عن مظاهر الكراهية والحسد.

استمر هذا التوافق أعواماً ثلاثة، ثم جاء عام (١٧٩٣) ليفجر حرباً استمرت اثنين وعشرين عاماً اتصفت بالقسوة والعنف، ولم يُعرف لشدتها من قبل مثيل.. ومرة أخرى تتغلب الأحداث على رغبات الرجال.. ويقف حكام دول أوربة عاجزين عن وقف التدهور وإشاعة الصبر والحكمة بين صفوف المتناحرين.. فإنكلترا لا تستطيع تصور وجود فرنسا دولة كبيرة قوية وغنية تنازعها النفوذ، وفرنسا لا تقبل بغريمتها إنكلترا سيدة مطلقة في البحار تقبض بيد من حديد، وبأساطيلها القوية على شرايين التجارة الخارجية. وما كان سلام عام (١٧٨٦) إلا هدنة مؤقتة بين حروب متواصلة بدأت منذ عام (١٦٨٨) لتستمر حتى اليوم الذي يصبح فيه أحد الخصمين قادراً على تدمير عدوه تدميراً كاملاً، ومن ثم يطبق عليه قانون المنتصرين.

الفصـــل الثـالـث

الصراع بين فرنسا وإنكلترا
لسيادة البحار والسيطرة العالمية
الثورة الفرنسية والامبراطورية البونابرتية

استمرت الهدنة بين إنكلترا وفرنسا عدة سنين .. لكن توقعات الحرب بينهما ظلت قائمة ، كما تنبأ لها سوفران وغيره كثيرون ، وقالوا عنها إنها حرب لا مفر منها ، تعمل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية على الإعداد لها .

قبل أن نخوض في تفاصيل مراحل تلك الحرب الجديدة ، لا بد لنا من أن نشير إلى أن الجهود التي بذلت ، والمطاليب التي فرضت على شعبي البلدين لتعزيز وسائل القتال . وأدت في النهاية إلى اضطرابات من نوع جديد غريبة في شكلها ومضمونها ، اجتاحت الجزر البريطانية من جهة ، وأوقدت شعلة الثورة الفرنسية من جهة أخرى . وكان للحرب الأمريكية وارتفاع نفقات التسليح البحري خلالها أثر كبير على الأحداث . وهي التي أدت مع عوامل أخرى كثيرة إلى إسقاط العرش الفرنسي وسقوط مؤسساته .

ونستعرض بصورة سريعة أهم الأسباب التي أدت إلى تلك الحرب ، وإلى الانفجار الثوري الذي أطاح بعرش فرنسا .

ـــ الأعباء المالية بعد الحرب الأمريكية ، لتعويض خسائر البحر ، وتجديد أسلحة القوى البحرية ومستلزماتها .. وهذا ما أدى إلى تململ عام في الأوساط الشعبية .

ـــ نشاط فئة من المفكرين ، والفلاسفة ، ورجال الاقتصاد في نشر طروحات بأساليب مبتكرة ،

تنتقد بعنف فداحة الصرفيات والأرصدة المتعلقة بالبذخ والتي لا جدوى اقتصادية لها، واعتبرت بعض النفقات على سلاح البحر إحداها.

ــ فوضى في الموانئ والمرافئ، وترفّع رجال البحر وتكبرهم على أوساط الجماهير. وهذا ما أدى إلى كرههم وتعميق الخلاف بين طبقات الشعب بين مؤيد وناقد. ووصل هذا الخلاف إلى جسم العاملين في البحر، وانقسموا إلى فئتين: فئة الضباط المتعجرفين، وفئة عمال وبحارة السفن والمرافئ. وطبعاً ترك هذا الكره الطبقي أثراً واضحاً على حياة سكان المرافئ والمدن الساحلية والتي تعتبر مداخيلها الأساسية من النشاط البحري فإن اضطربت صلات العاملين فيه انعكس ذلك على مسار حياتهم اليومية المعيشية والاستقرارية.

ــ ظهور تكتل لا عضوي للفئات المحرومة والمعذبة تطالب بالحقوق المدنية والمعيشية خصوصاً خلال فصول السنة ذات الطبيعة القاسية.

ــ ارتفاع أسعار المواد الغذائية والحياتية بشكل مفاجىء وسريع.

ــ بروز أفكار ديماغوجية (غوغائية) غاضبة مظلمة، أخذت تتفاعل داخل نفوس الجموع المحرومة تستعد تلقائياً، ولدى أول بادرة، للانقضاض وانتزاع حقوقها المسلوبة، بأسلوب عنيف، وفكر بدائي. وفي وقت مضطرب متداخل لا ينفع فيه تنظيم ولا حرس ولا قوى أمن، حيث تتداعى التنظيمات، وتتبارى في التماس خدمة الشعب، وتنظيم في مؤسساته في سبيل تحقيق رغبات جماهيره المعذبة.

ــ تغلغل الأفكار التحررية حتى صفوف قادة البحر المخلصين، وقادة القوات المسلحة، بظهور عدة تنظيمات سياسية تبحث عن الحلول، ويتصف بعضها بالروح الثورية.

ــ انتقال الأفكار التحررية إلى مستعمرات الدولتين وراء البحار، ووعي الجماهير المعذبة المحرومة، وتكتلها لرفع المظالم المفروضة عليها.. وهذا يستدعي مع إعادة استتباب الأمن بتلك المستعمرات المزيد من النفقات للمحافظة على النظام.

ــ تفكك المؤسسات الحكومية، وتسرب الغوغائية العابثة في صفوفها، في أجواء غير منضبطة، تشكك في مصداقية الرؤساء، وتطعن في وعودهم المتكررة. وهذا يعني مصاعب جديدة لحكام المستعمرات والسلطة فيها.

ــ اعتصامات وإضرابات، ترفض العمل في المواقع الصناعية الحساسة.

ــ لجوء الساسة لاستصدار المزيد من القوانين الجزائية الساخطة في حق المتمردين، وتعمل هذه القوانين على تأجيج الروح العدائية.

ــ تمرد على بعض السفن، ورفض أوامر القتال، واغتيال القادة العسكريين، وخاصة في فرنسا، وفي مستعمراتها بالذات.
ــ تثبيط عزائم الضباط القادة، وهجرة العديد منهم إلى خارج البلاد.
ــ فشل الجمعيات التأسيسية والمجالس البلدية والإدارات والتنظيمات في تخليص الشرائع من الروح المعادية لسواد الشعب.. وجاءت وكأنها تعمل على تكريس الفوضى ونشر التمرد.. وهذا ما دفع بالعديد من رجال السياسة الصالحين، وبالعديد من القادة العسكريين المخلصين إلى الاختفاء، بالتواري، أو التقاعس، أو الاعتذار عن قبول المراكز الكبيرة، لأنها غالباً ما تنتهي بإخفاق أو جحود، وينتهي الأمر وفي كل المجالات، وخاصة ما يتعلق بسلاح البحر بالذات للوقوع بين أيدي فئات حديثة السن، تنقصها الخبرة، وإلى جانبها عدد قليل من القدامى الذين رضوا بالشروط المحيطة، ويعالجون أمرهم اليومي فقط بتقليد ونمط جامدين.

الثورة الفرنسية وأوربة

أجمع المؤرخون على أن الحرب المقبلة بين الدول الأوربية لها أسباب عديدة أوردنا بعضها. إلا أن الخطر الأكبر الذي كمن لتلك الدول كان يتمثل بآثار الاضطرابات الفرنسية الداخلية والثورة فيها.

ساد العالم إبان تلك الحقبة من الزمن اعتقاد يقول «بأن الحروب أعمال بربرية كريهة لا يمكن تبريرها، لكن الأمم تدفع إلى خوضها مرغمة».

في عام (١٧٩٠) نشأت أزمة بين إنكلترا وإسبانيا بسبب نوتكا Nootka، فتحاشت فرنسا الانجراف فيها، والتزمت الرباط العائلي، وحافظت على موقف محايد باستخدام دبلوماسية حذرة، أقامتها بين جيرانها، معبرة عن شعور المحافظ على السلام، وبتصريح سياسي قالت فيه:

«تتمسك فرنسا بالقرار الصادر في ٢٢ مايس (١٧٩٠) الذي قضى بالابتعاد عن كل اشتباك أو حرب، غرضها الاحتلال أو التوسع. ولن تستخدم فرنسا قواتها المسلحة في التأثير على حركات التحرر، أو الوقوف في سبيل حريات الآخرين». وبالفعل فقد وثقت الدول الأوربية بإعلان فرنسا، فتركتها تعالج قضاياها الداخلية لوحدها، وكما يحلو لها، لا تخشى بأسها أو ثورتها. واستدارت نحو الشرق لتعالج قضايا اعتبرتها أكثر أهمية تتمثل بدول السويد وبولونيا وتركيا. وقد كانت تلك

الدول سعيدة في قرارة نفسها، وهي ترى التغيير الجذري الذي طرأ على نظام الحكم في فرنسا، فأضعف من قوتها الخارجية سياسياً وعسكرياً ولو إلى حين.

لم تكن انتفاضة فرنسا في الحقيقة ثورة كالثورات الأخرى بل شكلاً جديداً، يذخر بالأفكار التحريرية، وينادي بالعدل والحرية والمساواة. وقد حملت تلك الثورة شعارات حلقت بعيداً، لتنفذ إلى أفئدة المحرومين في العالم، لتوقظ فيهم مارد المطالبة بالعدالة والمساواة، وتقرع أجراس الخطر على عروش متداعية، لملوك عفنين، ورجال حكم مستغلين. فخاطبت تلك الثورة كل فرد من سكان أوربة، تعلمه حقه في الحياة بمثالية بررت أسبابها، وبإنسانية محققة. فتخطت حدود فرنسا، وراحت تهز مشاعر الشعوب الأخرى المعذبة، وطالبتها بتعقبها وتقليدها. وهنا بالفعل أصبحت تلك الثورة المتأججة خطراً على غالبية الحكومات ذات النهج القديم والفاسد. وكان بدهياً ولا شك أن تسعى تلك الدول الوجلة للدخول في تكتل عسكري يقاوم الأفكار، ويطفىء جذوة النار المستعرة القادمة من الغرب، ويمنع امتدادها، فيأمن شرها.

حدث هذا التكتل الكبير، وضم غالبية الدول الأوربية، ليقف في وجه الثورة الفرنسية، ليس عن طريق دخول مغامرة حربية، بل بتفجير ثورة مسلحة مضادة لحماية بلدانها من الخطر المستقبلي، وباتخاذ منحى عدائياً تحريضياً (تصريح بيلنتز[٩٤] Pillnitz ١٧ آب ١٧٩١). وهكذا تحالف ملوك النمسا وبروسيا وسردينيا لمجابهة الوضع المتفاقم وبذلك بدأت فرنسا حربها على الملوك.

عمليات عام ١٧٩٢

لم يكن بحوزة ملوك التكتل الثلاثي أي أساطيل بحرية تواجه القوة الفرنسية في البحر الأبيض المتوسط. وبقيت السيادة البحرية ملكاً لفرنسا في ذلك البحر، دون منازع، ودون الخوف من أي صدام بحري مسلح في المنطقة. وهذا من شأنه تقديم عون لفرنسا، خصوصاً وأسطولها البحري يمر بحالة من الفاقة والتفكك، وانعدام النظام والانضباط. فعندما خرج الأميرال تروغيه من ميناء طولون يقصد البحر لم يستطع تجهيز أكثر من (٥) بوارج حربية فقط. ومع ذلك جال بقوته الصغيرة قرابة شهر على طول السواحل الجنوبية الفرنسية والإيطالية، وقصف عدة مدن في سردينيا، دون أن يعترضه معترض. وفي كانون الأول من العام نفسه خرج لاتوش تريفيل La Touche Treville على رأس قوة تضمنت (١٤) بارجة، وقصد نابولي، وفرض على حكامها المهادنة والولاء. لكن عاصفة هوجاء ضربت تلك القوة، وبعثرت سفنها، وتركت كل مركب يعالج ظروفه لوحده بقيادة طواقم قليلة

الخبرة. وتحطم من جراء ذلك عدة سفن، والتجأ بعضها إفرادياً إلى المرافىء المجاورة، يطلب العون والمساعدة. وبجهد كبير توصل تريفيل إلى جمع شتات قوته بعد هدوء العاصفة، وراح للقاء تروغيه أمام سواحل كاغلياري في سردينيا.

استمر الأميرال الفرنسي يجوب سواحل سردينيا، وتشكيله بحاجة لكل أنواع الإمدادات، ليقوم بعمل قتالي. فطولون تلكأت في تزويده، وكورسيكا تصرفت وكأنها بلد محايد لا شأن لها في ما يجري.. وبقي التشكيل يعاني صعوباته حتى مطلع شهر شباط، حيث وصلت بعض المفارز القتالية من جيش إيطاليا، ومعها بعض الإمدادات الغذائية والعتاد الحربي. وفي ١٤ منه استطاع إنزال (٦) آلاف مقاتل من المتطوعين المارسيليين على أرض سردينيا. وكانت تلك القوة البرية تضم عناصر خلوا من كل مفاهيم الانضباط والنظام، وليست لديها أية أوامر محددة توجهها في غزوها. وقيادتها شبه غائبة وتفتقر للخبرة والجدية.. وطبعاً كان ذلك كافياً لفشل الحملة. إذ بعد يومين اثنين فقط من تاريخ نزول هؤلاء الفرنسيين فروا أمام المقاومة المحلية، تاركين مراكزهم القتالية وهم بحالة ذعر يصيحون: خيانة خيانة. وهنا سارعت السفن الحربية إلى الموانىء تلتقطهم لتصعدهم ثانية تحت وابل من نيران مدفعية البر، وفي أحوال جوية سيئة للغاية، هاج بحرها، وتلاطمت أمواجها. وأخيراً استطاع تروغيه العودة بالمقاتلين إلى طولون، بعد أن خلف وراءه بارجتين غرقتا في الجوار، إثر إصابتهما ثم طغت عليهما الأمواج العاتية فغيبتهما في أعماق اليم. وكان ذلك نذير شؤم لفرنسا ولبحريتها.

بالنسبة للمعارك البرية فقد جرت بشكل أفضل، فبعد الهزيمة المخجلة التي حدثت في شهر نيسان، استعادت القيادة البحرية جمع قواتها. وكان ذلك إثر سقوط برونزويك، واجتياح البروسيين والنمساويين للأراضي الفرنسية. الأمر الذي أصاب كرامة فرنسا في الصميم، وعبرت عنه بانتفاضة ثورية عارمة أطاحت بآخر جذور نظامها الملكي العفن، ونادت بالجمعية التأسيسية في ٢١ ايلول وأعلنت الجمهورية.. وفي الوقت نفسه أوقفت جحافل الغزاة البروسيين والنمساويين في شرقي البلاد وبالتحديد قرب فالمي.

انتقل جيش فرنسا الثوري الفتي إلى مرحلة الهجوم المضاد. وتوالت المعارك الحربية تدفع بالغزاة حتى وراء نهر الرين. وبعد ستة أسابيع من اندحار البروسيين توجه ديموريبه بقواته ينازل النمساويين، ويدفع بهم حتى جيماب[٩٥] Jemmapes، ثم يكمل احتلال بلجيكا، وهكذا تعود جيوش فرنسا الثورة لحدود الألب. وفي السافوا ونيس تستقبل من قبل السكان استقبال المنتصرين الأبطال.

وهكذا انتشرت الثورة في كل مكان وتقدمت جيوشها على كل الجبهات ، وبذلك ضاعت وإلى الأبد فكرة التعايش مع الملكيين .

أصيب البروسيون بخيبة أمل مرة ، وندموا على تورطهم في المغامرة الحربية الفاشلة . وخشي حلفاؤهم النمساويون حدوث انهيار اقتصادي وسياسي . وبدا رجال الحكم حيارى من مستقبل مظلم قد يطيح بالنظام ، إثر تسرب الأفكار الثورية داخل صفوف الشعب ، وتناقص الموارد المالية عصب الحكم . وهذا ما حدا بتيغو **Thugut** وزير امبراطورية النمسا لأن يقول :

« بالمنطق المادي لم يعد لدينا فلس واحد »

لم تنشب في الحقيقة الحرب الفعلية بعد في أوربة ، إذ إن التجمع الدولي الذي تكون خلال عشرين عاماً لم يصل بعد إلى المستوى المطلوب ، ليقدر على خوض حرب فعلية . وقد اضطر إلى دخول معارك فرضت عليه ، عندما وجد فرنسا الثورية تهاجمه بجيوشها الفتية وبأفكارها التحررية . أما إنكلترا فلم يكن لديها أي سبب جوهري لدخول نزاع مسلح مع جارتها فرنسا ، وهي الدولة الحرة الوحيدة في المجتمع الأوربي ، ذات السلطة الملكية الدستورية والحياة البرلمانية الديمقراطية ، منذ أكثر من مائة عام . وبالتالي فهي فخورة بمؤسساتها ، ولا يسوؤها قط أن ترى جيرانها ، وبالذات فرنسا ، تسعى على دربها ، فتطيح بالحكم المستغل ، وتنهج سياة العدالة والحرية الاجتماعية . وكثيراً ما أيدت وباركت خطا المفكرين الثوريين فيها ، كما فعلت بدعوى تاليران(٩٦) **Talleyrand** ودانتون(٩٧) **Danton** وزملائهما الذين نادوا يصفون الثورة الفرنسية بأنها بداية صداقة طويلة وعميقة ، خاصة بين البلدين فرنسا وإنكلترا . وهذا ما يفسر التعاطف الإنكليزي الكامل مع التغييرات الفجائية الثورية في الجارة فرنسا ، والكل يردد قول غرينفيل(٩٨) **Grenville** :

« إن النقطة الأساسية في إقامة السلام قد تحققت ، ولأعوام عديدة . ففرنسا لن تعكر السلم العالمي الثمين الذي تنعم به » . لكن للأسف لم يعمر هذا الاعتقاد طويلاً بعد سقوط الود القائم بين الدولتين فرنسا وإنكلترا . واختفاء كل صلات العطف ، نتيجة حدة أحداث الثورة الفرنسية . وثمة منحيان هامان ظهرا ، وهما جديران بالتوقف هنيهة حولهما :

المنحى الأول : هدم الفوارق الطبقية ، الأمر الذي أزعج إنكلترا فالإنكليز متمسكون بالهرم الطبقي وفي أبشع صوره .

المنحى الثاني : الابتعاد عن الدين وهو أمر أقض مضاجع الإنكليز وهم الشعب المحافظ المتمسك بشعائر المسيحية وبالفوارق الطبقية وبالتسلسل الاجتماعي .

وهكذا اعتبرت المملكة المتحدة أحداث فرنسا مظاهر خطرة تتعارض وتتنافر مع نظامها السياسي والاجتماعي ، ويجب عليها والحالة هذه أخذ الاحتياطات الضرورية لمنع انتشار النزعات الهدامة لتركيبها الاجتماعي .. فكانت بداية التفكك الصداقي بين البلدين ، وهزول التلاحم وانعدام التفاهم .

سمحت بريطانيا دخول اللاجئين الفرنسيين الهاربين من لظى الثورة ، فآوتهم ونظمتهم وتجاوبت مع تطلعاتهم ولكن ضمن أطر معتدلة متجنبة أي صدام عسكري لأنها تمر مرحلة صعبة وقد كرست كل طاقاتها لمرحلة التطور الصناعي وزيادة الإنتاج لرفع حجم الصادرات والنهوض بالمستوى الاقتصادي ، فالبعد عن الحرب وعن الصراعات الأوربية وإقامة سلام طويل شرط أساسي في سبيل بناء صرح اقتصاد البلد .. ولم تكن إنكلترا تخشى آنذاك إلا عدواً واحداً فقط هو روسيا البلد الذي أخذ يثير لها المتاعب في مناطق أوربة الشرقية ويهدد التوازن الدولي هناك .. وكان عليها مراقبة تحركات الروس بدقة متناهية .

بعد سقوط جيماب تغير فجأة كل شيء . فانتصار الفرنسيين في بلجيكا ووصولهم حتى فتحة نهر ايسكو (٩٩) Escaut هددوا مرفأ آنفرس الشهير والذي لعب دوراً هاماً ، وعلى مدى أعوام طويلة في اهتمامات إنكلترا الاقتصادية .. وكان لا بد من أن تتحرك بريطانيا لهذا التهديد الجديد ، خصوصاً بعد أن استخدمت فرنسا ميناء آنفرس أمام تجارتها البحرية ، ضاربة باتفاقية الملاحة مع إنكلترا (اتفاقية عام ١٦٠٩) عرض الحائط . وهذا يعني في لغة التجارة استقطاب الجزء الأكبر من المبادلات التجارية ، وخاصة ما يخص أوربة الوسطى ، والذي كان في السابق نصيب الإنكليز وحدهم .

زادت مخاوف انكلترا بعد ١٩ تشرين الثاني وعقب صدور مرسوم يعد باسم الشعب الفرنسي كل أمة تثور وتنادي بحريتها بمد يد المساعدة لها بإخلاص وأخوة . وأعقب ذلك مرسوم آخر صدر في ١٥ كانون أول ، اعتبر أكثر هجومية من سابقه ، يعد الشعوب المغلوبة والمضطهدة بمساعدة عسكرية لرفع الغبن والاضطهاد ، وكل مساعدة من هذا القبيل واجب من واجبات الثورة الفرنسية المنادية بإسقاط أعداء الحرية .

اتخذت الحرب الدعائية صفة حرب الفتوحات ألتي مضت. وكان ذلك من شأنه حرمان إنكلترا من ثرواتها العميمة التي تجنيها من البلدان الأوربية، ومن المستعمرات، بالإضافة إلى تهديد سلامتها عسكرياً، بعد أن فقد الساحل الفلمنكي (البلجيكي) حياده، ورجعت أخطار أعوام (١٦٦٧) و (١٦٧٧) و (١٧٠٢) و (١٧٤٥) نفسها .. فإذا تساهلت إنكلترا أضاعت سيطرتها على الأقاليم المنخفضة، وعلى شمال أوربة. وهذا ما جعل غرينفيل يكتب إلى أوكلاند[١٠٠] Ouckland يسأله سؤلاً وحيداً «متى ستبدأ الحرب»؟.

تلك كانت أهم الأحداث التي أحاطت بأوربة بعد (١٢) عاماً من السلام الحقيقي. ونشبت الحرب البحرية وفرنسا لا تمتلك إلا الزهيد من البوارج الحربية، والأقاليم المنخفضة (بلجيكا هولندا) مهددة بغزو بحري بريطاني محتمل، وعليها (وهي المسؤولة عن أمن تلك المنطقة بموجب معاهدة التحالف والتضامن) تقديم الحماية لها.

أعلنت الوزارة البريطانية الحرب على فرنسا وليس بنيتها التراجع عن هذا الإعلان، حتى ولو تخلت فرنسا عن تطبيق تشريعاتها الأخيرة.

تأكد لفرنسا قرب التدخل البحري البريطاني على سواحلها وكسباً منها للوقت عادت تطبق أسلوب فابفية Fabvier من جديد، وهو الذي يعتمد الهجوم الصاعق والمفاجىء، لأنه يولد لدى الخصم انهياراً عسكرياً ومعنوياً، خاصة ضد قوة غير متماسكة، مكروهة يعوزها إيمان بالقضية والمصير.

فإثر برنامج تسلح بريطاني كبير لمدة ستة أشهر، وعقب حرمان فرنسا من تصدير حبوبها (خلافاً لاتفاقية عام ١٧٨٦) قررت الجمعية التأسيسية الفرنسية إعلان الحرب على بريطانيا في الأول من شباط عام (١٧٩٣)، وإثر طرد إنكلترا للسفير الفرنسي شوفلان بعد أن تم تنفيذ حكم الإعدام بلويس السادس عشر ٢٤ كانون الثاني.

وبسرعة عجيبة، وكانتشار النار بالهيشم غدت فكرة القتال لدى الطرفين مطلباً وطنياً ملحاً.. وقال مارا[١٠١] Marat:

«كما عرفت إنكلترا فمن الخطأ الاعتقاد بأن الشعب الإنكليزي إلى جانبنا»، (وينفي بقوله هذا تعاطف الشعب الإنكليزي مع أفكار الثورة الفرنسية).

وبالفعل وخلال أشهر قليلة انقلب رئيس وزراء إنكلترا بيت الرجل الأقوى في المملكة ورجل السلام إلى داعي حرب، وخاطب مواطنيه يحثهم على القتال قائلاً:

«إن سبب الحرب ليس لاجتياح فرنسا للأراضي البلجيكية، ولا لتوازن القوى الدولي في القارة الأوربية فحسب، بل من أجل عظمة وطموح إنكلترا الوطن المنتصر دوماً. وعلينا متابعة خطا نهجنا الإقتصادي دون أن نسمح بظهور أي مزاحم لنا، وسنمنع فرنسا من استقطاب الدول الأوربية زبائن لها، ونمنعها من إقامة تجمع مضاد لنا، وإلا ستموت إنكلترا جوعاً وحرماناً، وستقف سفننا التجارية عاجزة عن إيجاد شحنات لازمة لعملها ووجودها».

وبالفعل أخذت هذه الحروب الجديدة صورة مختلفة عن سابقاتها فهي حرب الطموحات السياسية، بالحفاظ على المزايا الطبقية والسيطرة التجارية. وهي لشرف كل مواطن، ولقوته اليومي وأخيراً لسلامة توازن قواه مع الآخرين، ولصالح المدنية المتطورة عامة.

بتلك الأفكار المميزة دخلت إنكلترا الحرب فكانت أقسى أعداء فرنسا، وترأست التجمع الأوربي المضاد، يساعدها في ذلك رساميل ضخمة ساهمت في ميزانية الحرب المرتفعة، حتى وصلت إلى المليارات، جمعتها من المواطنين الأثرياء على شكل ضرائب إضافية، أو تبرعات أو قروض. وبذلك كسبت المملكة المتحدة الحرب مالياً قبل أن تبدأها.

لم تتعرض أمة لخطر مخيف كما تعرضت له فرنسا عام (١٧٩٤). فقد وقفت كل أوربة ضدها (باستثناء السويد والدانمرك، والكانتونات السويسرية، وتركيا، والبندقية)، كما تخلفت حليفتها إسبانيا عنها، بعد أن فشلت هذه الأخيرة في إنقاذ رأس الملك لويس السادس عشر من سكين المقصلة. بل على العكس أعلنت حربها على حليفة الأمس تثأر للملك المهدور الدم. وداخل فرنسا رفضت ست وعشرون ولاية اتحادية أو ملكية من أصل الولايات الفرنسية الاعتراف بسلطة الجمعية التأسيسية الفرنسية.

تجمع الحلفاء يعدون أنفسهم لغزو البر الفرنسي، ولإسقاط الحكم الثوري، وإخماد الأفكار التحررية المهددة للأنظمة البالية. وكان إعداداً هائلاً بفضل تدفق الأموال البريطانية.

بدأ الهجوم على فرنسا من عدة جبهات. وحرص المهاجمون على تنظيف المناطق المجتاحة من بؤر المقاومة، بحيث تعود الأقاليم المحتلة لنظام يحقق رغبات الغزاة.. ففي الشمال، وإثر خيانة ديموريه(١٠٢) Dumouriez سقطت بلجيكا وانفتحت سهول الفلاندر أمام جيوش الاتحاد الأوربي.. وفي

الشرق اجتاز البروسيون نهر الراين، وهددوا الإلزاس. وفي الجبهة الجنوبية الشرقية تقدم النمساويون والطليان نحو جبال الألب.. أما في الجنوب فقد اجتاز الإسبان جبال البيرينيه.

تراجعت جيوش فرنسا في البداية أمام الضغط الحاشد من المهاجمين. إلا أن الرجال الذين قادوا فرنسا إبان الثورة كانوا قادرين على تجاوز المحنة. وتمسكوا بالأمل بعد أن منحتهم الجمعية التأسيسية صلاحيات واسعة. وراحو يعدون البلاد لحرب طويلة الأمد، ويدفعون بالمهاجمين إلى ما وراء الحدود، ومن ثم يلقنون إنكلترا عدوتهم اللدودة درساً لا تنساه..

.. ولّد رعب الاجتياح الحليف للأراضي الفرنسية تعاطفاً وتماسكاً وحد جميع فئات الشعب. وخلال ستة أشهر فقط استطاعت تلك الفئات تجنيد سبعمائة وخمسين ألف مقاتل، سلحوا أفضل تسليح، وأُعدوا خير إعداد، ضمن قواعد النظام والطاعة، يحدوهم أمل إنقاذ الوطن من شر المغيرين، وحماية المكاسب الحقيقية للثورة، في سبيل مستقبل أفضل للأجيال القادمة. وقد وقف الشعب بكامل طبقاته يدعم هذ الجيش الفتي، ويحثه على القتال حتى النصر.

في البحر حاول الفرنسيون التصرف بحكمة. وقام كيرسانت Kersaint، وهو المؤمن بأن الإعداد البحري باهظ الكلفة طويل الأمد بتخطي المحنة، برغم معرفته التامة بحساسية الموقف، وبأن حرب البحر هجومية بجوهرها، ولا يمكن تحقيقها إلا بهجوم ناجح، بعد إعداد قوة كفيلة بانتزاع النصر. وكل الهـمّ كان منصباً آنذاك على المحافظة على خطوط المواصلات البحرية مع البلدان المحايدة التي تستورد منها فرنسا السلاح والعتاد والمؤن. لذلك قامت القيادة البحرية الفرنسية بتوزيع سفنها المقاتلة ضمن تشكيلين كبيرين:

التشكيل الأول ويتضمن (٢٦) بارجة بإمرة مورار دوغال Murard De Galle، ومهمته التجول أمام السواحل الغربية الأطلسية ليؤمن وصول قوافل الإمداد العابرة للمحيط، ويحمي تواجدها في الموانىء، كما يحمي الملاحة الساحلية، ويمنع الإنكليز من التسلل، أو تمرير الأسلحة لعصاة الفانديه Vendée.

والتشكيل الثاني ويتألف من (٢٢) سفينة عمرت في طولون نصفها سمي بالأسطول الدفاعي، وبإمرة لاتوش تريفيل، وكان عليه ملازمة الشواطىء الجنوبية، ليؤمن الاتصال، ويساند العمليات الحربية البرية في جبهة إيطاليا، أما الأسطول الثاني فهو أسطول هجومي بإمرة تروغيه، يكلف بالمهام البعيدة في شرقي المتوسط والبحر الأسود وبعض المستعمرات، وأحياناً في عمليات إغارة خفيفة على البر الإنكليزي.

لكن الحقيقة اختلفت عن خطط المشاريع الصعبة التحقيق. فالأسطول الفرنسي عاجز عن المهام الكبيرة التي ألقيت على كاهله. ومن حسن حظه كانت القوات البحرية الانكليزية في حالة إعداد، وقد فوجئت هي الأخرى بإعلان الحرب، ولم تستعد لخوضها بحراً، وينقصها قادة أكفاء، وتعوزها أفكار استراتيجية واضحة ومتطورة، حسب متطلبات العصر. وكانت أيضاً بحرية مثقلة بالمهام البعيدة والشاقة في جميع أصقاع الأرض. ومن مهامها الصعبة مراقبة المرافىء الفرنسية، وإيفاد الحملات البحرية لقطع خطوط المواصلات في بحار شاسعة الأبعاد.

رأس سلاح البحرية البريطاني اللورد شاتهام(١٠٣) Chatham، شقيق رئيس الوزراء بيت. وكان شخصية زخرفية فارغة، وأمراء بحره قادة محنكون خاضوا الحرب الأمريكية، واكتسبوا خبرة قتالية عالية، لا يؤمنون بالمغامرات المشكوكة النتائج، خصوصاً وتعوز سفنهم أطقم مدربة، وبحارة أكفاء. لذا جرى إعداد سفن الأسطول بمنتهى الروية، واستغرق ذلك ما يزيد عن الستة أشهر من اندلاع الحرب البرية. وجاء أول خروج للقوات البحرية البريطانية في خروج الأميرال هاو Howe إلى بحر المانش، على رأس قوة ضمت (٥٠) بارجة، لكن مع ذلك كله لم يحاول قط تجاوز هذا البحر، ودخول المحيط أو الاقتراب من برست.

فتش الانكليز عن نقطة سهلة في سواحل فرنسا الجنوبية ينزلون عليها بعد أن انهارت جبهتهم البرية في الشمال، وبعد أن بدا لهم ازدياد أهمية المتوسط الستراتيجية في العمليات الحربية والتجارية على السواء، خصوصاً بعد عقد الحلف البريطاني الإسباني، وعلى أثر الفتنة التي اجتاحت جنوب فرنسا (الميدي Le Midi)، وإثر اعتراض قوافل الحبوب المصدرة.

لقد كان لمعارضة سكان طولون لقرارات الجمعية التأسيسية الفرنسية بعد سقوط الجيرونديين وسرعة اقتراب جيوش الجمهورية لها لجوء حكامها إلى طلب مساعدة الإنكليز، حيث هرع هؤلاء الأخيرون يلبون الطلب، ويستغلون الفرصة الذهبية التي أتيحت لهم، فقدموا وحاصروا الميناء بحراً، ثم نزلوا في المدينة وراحوا يعاملون الطولونيين وكأنهم سكان بلد محتل، ثم استولوا على المنشآت، ونهبوا العنابر، وخرّبوا أحواض السفن، ثم استولوا على السفن فيها.

استمرت العمليات البرية لانقاذ طولون من براثن الإنكليز فترة طويلة، وقد لاحظ الكابتن الشاب نابليون بونابرت أن إقامة بطارية من المدفعية الساحلية على الجزء الغربي من المرفأ في موقع يدعى بجبل طارق الصغير قد يجبر السفن الإنكليزية الراسية في الميناء على الرحيل.. وخلال يومين

اثنين حقق بونابرت فكرته، وأنهى التواجد البحري الإنكليزي في مياه الميناء والذي كان قد استمر أربعة أشهر كاملة.

أقلع الإنكليز من مرفأ طولون مخلفين وراءهم دماراً كاملاً لمنشآت الميناء، وأشعلوا الحرائق في أحواض السفن فالتهمت النيران عشرة بوارج وثلاث فرقاطات، وعدة سفن صغيرة. واستولوا على ثلاث بوارج وسبع فرقاطات، وما يزيد عن ثلاثين سفينة خفيفة، ضموها إلى أسطولهم.

كانت جنسيات الغزاة على البر المتاخم لطولون متعددة. فهناك الجيوش الإنكليزية، والإسبانية، والسردينية، والنابوليتانية.. انعدمت فيما بينها أساليب التعاون والتنسيق، ودبت بين صفوفها روح الفوضى والاستهتار. وهذا ما سهل على الكابتن بونابرت تطبيق خطته العسكرية في تحرير المدينة من غزاتها براً وبحراً. وبدأ كما جرى ذكره بالاستيلاء على قلعة الايغييت Eguillètte، وركز مدافعها فيها، وطرد السفن الغازية من الميناء في يوم (١٨) كانون الأول. وفي اليوم التالي دخلت طلائع الجيش الجمهوري مدينة طولون، وأقيمت المقاصل، وأعدم المئات من الفرنسيين الخونة الذين تعاونوا مع جيوش الاحتلال. وهبط تعداد سكان المدينة من (٢٨) ألفاً إلى (٧) آلاف فقط. وعلى أثر كارثة أسطول طولون ودمار المدينة فقدت فرنسا سيطرتها البحرية على المتوسط، ولأجل ليس بالقصير.

في الحقيقة لم تكن طولون يوماً هدفاً استراتيجياً بحرياً هاماً لأساطيل إنكلترا وحلفائها، نظراً لانزوائها عن خطوط المواصلات البحرية عبر المتوسط، وحتى جزر هيير Hyéres القريبة من طولون، والتي انسحب إليها الأميرال البريطاني هوود بالموقع المناسب. إن أفضل موقع للعمليات الحربية البحرية في المنطقة هو جزيرة كورسيكا ولا شك، فهي تتوسط شبكة المواصلات البحرية، وقريبة من الساحلين الإيطالي والفرنسي، ولا تبعد كثيراً عن شواطىء إفريقية العربية. ولقد لفت إليها أنظار الإنكليز زعيمُها الانفصالي باولي Paoli الذي دعاهم ليقيموا على أرضه ويحرروه من نير الفرنسيين. وهي الجزيرة المتقدمة في البحر الأبيض المتوسط، والتي تمتلك مرفأين طبيعيين هامين هما أجاكسيو Ajaceio وسان فلوران Saint Florin اللذان يسهل الدفاع عنهما، بالإضافة إلى شطئان صخرية عديدة، تقدم خلجاناً جيدة تأوي إليها السفن في الأحوال الجوية السيئة، أما الشعب القاطن الجزيرة فهو شعب مقاتل عنيد وصلب.. وقد تلعب كورسيكا بالنسبة لإنكلترا الدور نفسه الذي لعبته جزيرة مينوركا بين الأعوام (١٧١٥ ـــ ١٧٨٣).

استعادت إنكلترا في تواجدها بكورسيكا كامل سيطرتها، وغدت قوة بحرية متوسطية ذات

معركة بريتال الأول من حزيران ١٧٩٤

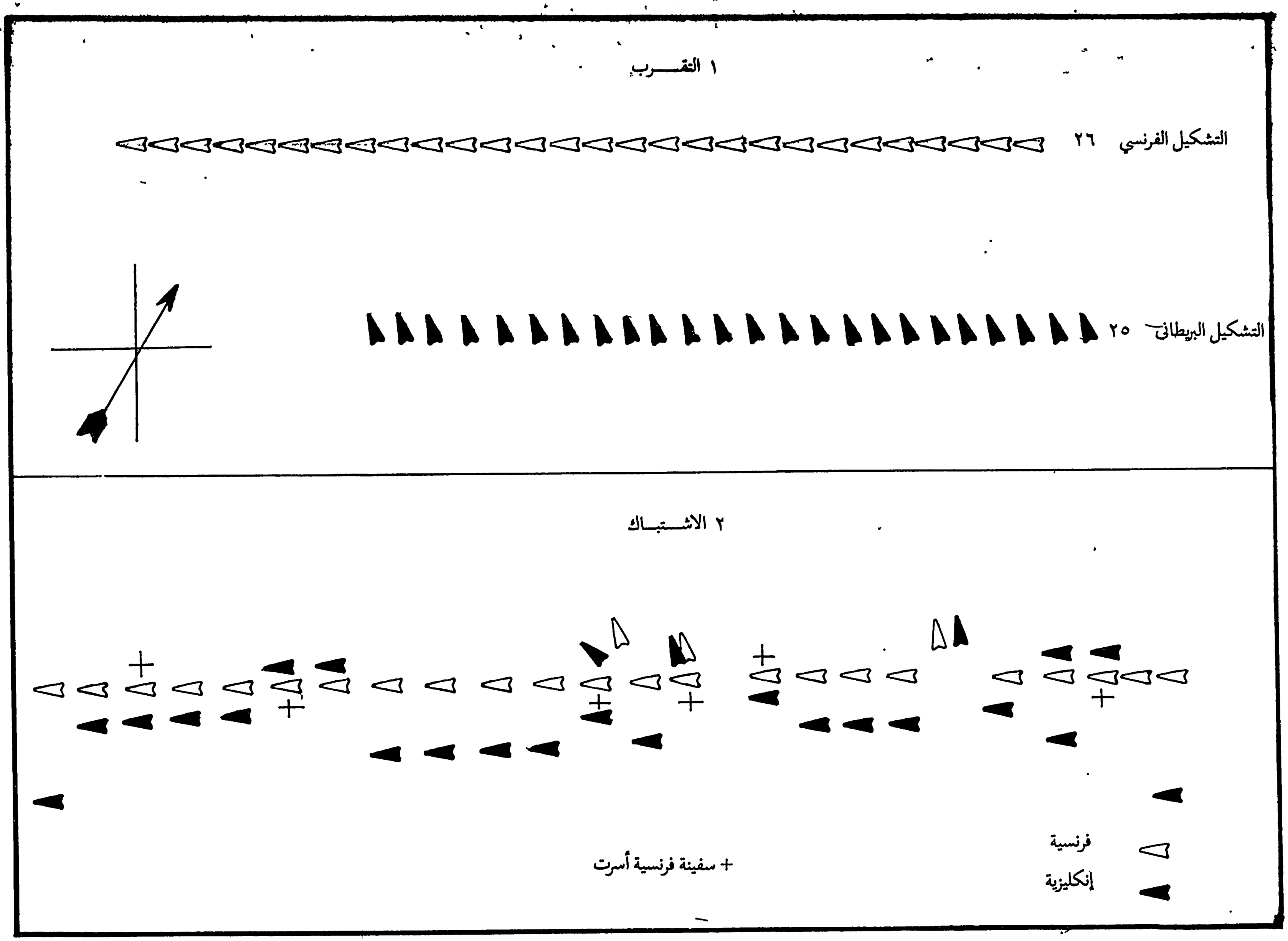

شأن ، مستفيدة من تعاظم الفوضى واتساع شقة الخلافات بين شعوب المنطقة ، وبقي الحال كذلك حتى حزيران من عام (١٧٩٤) ، حيث استطاع أسطول طولون إصلاح شأنه ، والعودة إلى البحر يناوش قوة بريطانيا في المنطقة (اشتباك قرب رأس نولي Noli من شبه جزيرة هيير) ، لكن ميزان القوى بقي إلى صالح الإنكليز وحلفائهم ، برغم ظهور سفن فرنسا البحرية من آن لآخر . وبقيت إنكلترا في حالة تأهب دائم ، خصوصاً بعد توالي الانتصارات الفرنسية على البر ، الأمر الذي رفع من معنويات رجال البحر ، وقادة السفن الفرنسية العاملة في المنطقة . فالجيوش البرية الفرنسية انتقلت من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم ، وبدأت تزحف خلف قادة ثوريين يوالون الانتصارات ويدمرون قوات الغزو ، ويطردون الإنكليز من هولندا وسهول الفلاندر ، ويدفعون بجيوش النمسا وألمانيا وراء نهر السامبر Samber ، ويحررون الألزاس ، ويوقفون تقدم جيوش الإسبان عبر البيرينيه . وهكذا اتصفت معارك النصف الثاني من عام (١٧٩٤) بالمعارك المصيرية الحاسمة ، والجيش الثوري الفرنسي يتحرق شوقاً لبلوغ حدود بلاده وليعبر إلى أرض أعدائه ، وينقل إليهم المعركة بمآسيها وآلامها .

معركة بريريل البحرية [١٠٤] ٢٧ مايس ـ ١ حزيران (١٧٩٤)

في شهر مايس من عام (١٧٩٤) انتظرت فرنسا قافلة تجارية تزيد عن (١٥٠) سفينة تحمل الحبوب آتية من العالم الجديد ، كانت فرنسا بأمس الحاجة لها ، وعليها تأمين سلامة وصولها بأي ثمن ، ليس سعياً وراء نصر بحري رنان بل للحفاظ على حمولة القافلة .

كان قائد تشكيل برست البحري فيلاريه جوايوز [١٠٥] Villaret-Joyeuse المرشح لرتبة أميرال والبالغ (٤٤) عاماً مقاتلاً محنكاً عركته الأيام ، فأثبت جدارة فائقة في حروب أمريكا البحرية ، عندما كان ربان الفرقاطة ناياد Naiade آنذاك .

كُلّف فيلاريه بمهمة حماية وصول القافلة المرتقبة ، وتأمين سلامة تفريغ شحنتها ، والعمل على مشاغلة العدو البريطاني المتربص بها .

ضم تشكيل فيلاريه البحري (٢٥) بارجة ، وفرقاطة واحدة ، وثمانية غرابة Gorvette أو قلعية Blicrs ، وقد جعل قيادته على البارجة مونتاني Montogne المسلحة بـ (١٢٠) مدفعاً . وقد أقام عليها حاكم الولاية Proconsul جان بون سانت آندريه ، والذي جاء يشهد الحملة البحرية باعثاً في طواقم السفن المقاتلة عظمة المهمة وباثاً فيهم الشجاعة والإقدام شعارات الجمهورية الثورية الفتية .

تأججت روح القتال في صدور البحارة ، فهم في عجالة يريدون الثأر لمرفأ بلادهم الثاني

طولون الذي عانى من قسوة المحتلين الإنكليز، وحريصون على إيصال الشحنة الغذائية القادمة من الغرب لإنقاذ الوطن من المجاعة، وللبرهان عن قوة بحرية الجمهورية وعظمتها.

قاد سفن التشكيل الفرنسي (٢٥) قائداً (١٤) منهم من القدامى المحنكين، وما تبقى أتوا من البحرية التجارية أو تدرجوا في المراتب، وأصلهم (ضباط صف) بحارة وصلوا لمرتبة قائد بالكفاءة والتقادم. ومن حسن حظ الفرنسيين أن هاو القائد البريطاني كان قد نثر وحداته البحرية ضمن مجموعات بحث صغيرة للكشف عن موقع وخط سير القافلة المرتقبة. وفي ٢٧ مايس سعى فيلاريه إلى تضليل هاووك، وجـرّه إلى الشمال، بعيداً عن طريق القوافل الاعتيادي الذي تؤمه السفن القادمة من القارة الأمريكية. وتلخصت عملية التضليل بإقامة تماس واشتباكات محدودة في مؤخرة التشكيل. وفي ٢٨ منه وقع الالتحام الكامل.. وإلى القارىء وصفاً مسهباً لتلك الاشتباكات التي حدثت.

ضم تشكيل هاو (٣٥) بارجة وعدة فرقاطات، أرسل منها مفرزة بإمرة مونتاغو Montagyu، شملت (٦) بوارج إلى الجنوب، واتجه هو نفسه نحو برست، يراقبِ مدخلها. في أثناء ذلك أرسل الأميرال الفرنسي مفرزة للقاء القافلة ضمت عدة بوارج بإمرة القائد نيللي Nielly، مهمتها المواكبة حتى ميناء الوصول.

علم هاو بالمفرزة الفرنسية، وخشي على قوة مونتاغو الوقوع في معركة غير متكافئة، فترك مرسى مدخل برست، واتجه جنوباً، ليكون على مُقربة من مرؤوسه، يسانده في حالة الضرورة. إلا أنه لم يكمل المشوار بل عاد ثانية لما بلغه خروج أسطول فيلاريه من برست.. وكان بنية هاو خوض معركة واضحة وفاصلة وأكيدة النتيجة.. لكن تردده هذا جزأ قوته الرئيسية، فخسر عامل التفوق العددي.

في الأول من حزيران التقى هاو وبإمرته (٢٥) بارجة عليها (٢١٧٠) مدفعاً تشكيل فيلاريه ومعه (٢٥) بارجة و (٢٢٤٠) مدفعاً في موقع إحداثياته ٢٧ َ ٤٧° شمالاً و ٢٨ َ ١٧° درجة غرباً. وعمل القائد الفرنسي على استدراج عدوه، كما سبق وأسلفت، بإبعاده عن طريق القافلة، واتجه شمالاً، وبدأ الاشتباك المدفعي، ووقعت الريفوليسيونير Revolutionnaire في مأزق، فقد أحاطت بها عدة بوارج بريطانية، فقاتلت بضراوة، وتغلبت على الذين حاصروها، وفتحت لنفسها فرجة عبرت منها.. ونجت.

في اليوم التالي وقع التحام بكامل التشكيلين المتقاتلين .. فبعد تبادل القصف التقليدي من الجانبين شعر فيلاريه بمكيدة يدبرها له خصمه، عن طريق مناورة بحرية، يحاول فيها اقتناص سفن المؤخرة .. فأعطى القائد الفرنسي أمره إلى وحداته بالدوران الكامل، واستعادة خط السير عكسياً، والعودة إلى القصف المدفعي الجانبي من جديد. لكن سوء تنفيذ المناورة من قبل بعض قادته القليلي الخبرة في قتال المجموعات أوقع بعضهم في مآزق، فدبت الفوضى في خط سير التشكيل الفرنسي، ولحظ هاو هذا الاضطراب فهب يستغل الفرصة، ويقطع خط سير الفرنسيين، ويعزل عدة بوارج. وبالفعل وقعت البارجتان الفرنسيتان اندومبتابل Indomptable والتيرانيسيد Tyranicide في عزلة، وقد أحاطت بهما عدة بوارج إنكليزية تمطرهما بوابل من القذائف. ولولا شجاعة أطقم السفينتين وإصرارهم على القتال لضاعوا، ولضاعت سفنهم في غياهب اليم. وبعد عدة ساعات من القتال المرّ استطاع فيلاريه التدخل وفك الحصار عن سفينتيه.

وهبط الضباب بكثافة وأحاط المنطقة بغلالة كثيفة ولعدة أيام، فجعل استعادة القتال أمراً مستحيلاً. وما إن انحسر حتى عاد المتحاربون للاشتباك من جديد. وكان ذلك في نقطة إحداثياتها ٤٨َ٤٧° درجة شمالاً و ٣٠َ١٨° درجة غرباً.. وكانت مفرزة نيللي قد عادت وانضمت إلى التشكيل.

تقدم هاو في الريح وهذا يعطيه ميزة في حركته. وكان واثقاً من حسن استعداد سفنه فاختار شكل المعركة المقبلة، وفرض على الفرنسيين الاشتباك بمناورة قتالية صعبة اعتمد فيها على كفاءات قادته الشخصية.

ابتدأ هاو القتال مصدراً أمره لجميع قادته بالمرور إفرادياً، كل واحد خلف (كوثل) مؤخرة السفينة الفرنسية المقابلة له في التشكيل. وما إن يتم العبور إلى الطرف الآخر حتى يتجمع العابرون بتشكيل قتالي جديد تحت الريح، وبسرعة يفاجئون السفن الفرنسية، ويحرمون عليها فرصة الانسحاب.

بدأت المناورة الإنكليزية في الثامنة والنصف، ونجحت في خلخلة تراص السفن الفرنسية. وقبل العاشرة بقليل، وبمناورة سيئة خاطئة مرت سفينة القيادة الإنكليزية الكوين شارلوت خلف البارجة الفرنسية مونتاني، والتي خلفها بقية سفن التشكيل، فتعرضت الكوين شارلوت إلى رمايات غزيرة، ودمرت بعض أقسامها، وغدت عاجزة عن الحركة السريعة، ثم اختلطت السفن المتقاتلة

باشتباك مدفعي عنيف انتشرت من جرائه سحب كثيفة من الدخان لفت جميع السفن، وغطت منطقة عمليات التشكيلين المتحاربين لمسافات بعيدة، ففقد الأميرالات والقادة سيطرتهم على إدارة المعركة. وفي العاشرة والنصف.. استطاع فيلاريه التعرف على الموقف الذي هو فيه. ولم يكن حوله إلا ثماني بوارج أما الباقي فقد سقط بفعل الريح، وابتعد عن ساحة المعركة لأكثر من فرسخين. وقد تحطمت سواري العديد منها وغدت تجنح بعيدة عن مدى المدافع، ولا تستطيع التوجه الصحيح لبطء حركتها، من جراء تناقص عدد الأشرعة العاملة. وكانت ستصبح فريسة سهلة لو قرر القائد الإنكليزي ملاحقتها. وهنا أوقف فيلاريه سيره، وعاد بمجموعته مقترباً من سفنه المعطوبة ليساعدها على التخلص من مواقعها الحرجة، وليقدم لها رمايات تغطي انسحابها. وبالفعل استطاع القائد الفرنسي إنقاذ خمس منها. وهنا كان هاو القائد المحنك قد أعاد تنظيم تشكيلة قتاله من جديد، ودخل بمجموعاته فاصلاً السفن المعطوبة عن سفن فيلاريه المساندة، وبذلك أصبح تدخل فيلاريه غير مجدٍ، خصوصاً وتفوق خصمه العددي عليه كبير. وانسحب تتبعه ثلاث عشر بارجة من تشكيله بقيت في حالة قتالية جيدة، يعمل على الحفاظ عليها، ليستطيع تقديم العون والتدخل في حال تعرض القافلة المرتقبة للخطر.

في الثانية من بعد الظهر استسلمت (٦) سفن من السفن الفرنسية المعطوبة، بإنزال علم بلادها، وسابعة تلقت قذائف ثلاث بوارج إنكليزية في آن واحد، فدخلها الماء من كل جانب، وغاصت في قاع اليم خلال فترة وجيزة، دون أن يستطع الرجال هجرها، برغم هروع زوارق الإنقاذ الإنكليزية لالتقاط الغارقين. وهكذا غاصت في الماء حاملة معها (٣٥٦) من أصل (٧٢٣) من طاقمها، بينهم سبعة من قادة أركان الأسطول.

جاءت حصيلة خسائر الأسطول الفرنسي خمسة آلاف بين قتيل وجريح ومفقود، في حين لم تتعد خسارة الإنكليز (١١٥٠) رجلاً. وقد يعزى ذلك بالأصل لنقص خبرة رجال مدفعية الأسطول الفرنسي، والأسلوب العقيم في إدارة وتوجيه الرمي. وفي الحقيقة أصبح تشكيل فرنسا عاجزاً عن الصمود في البحر طويلاً، فعاد إلى مرساه في برست. وفي طريق العودة وفي العاشر منه التقاه أمام جزيرة ويسانت القائد الإنكليزي مونتاغو، لكن كلاً منهما فضل تحاشي الاشتباك بالابتعاد عن طريق الآخر.

وصلت القافلة في الرابع عشر دون أن تتعرض لأي خطر.. واعتبر سلاح البحر الفرنسي قد أدى واجبه، واستطاع إبعاد أسطول إنكلترا ومشاغلته بعيداً عن خط سير القافلة.

خلد الإنكليز انتصارهم هذا وأطلقوا عليه اسم أول حزيران المجيد Glorious First of June إلا أن هاو تعرض للنقد الشديد فيما بعد، وذلك لتركه قسماً كبيراً من الأسطول الفرنسي ينسحب، وكان بإمكانه محوه من الوجود. ويرجع ذلك لكبرسن القائد الإنكليزي (٦٨) عاماً، فهو الشيخ المسن والمصاب بالتهاب حاد في المفاصل. ويقال إنه أدار المعركة وهو جالس في مقعده من على برج السفينة الملكة شارلوت، لا يقوى على الوقوف.. إلا أن حرصه الشديد على عدم توريط قواته يرجع بالأصل لحداثة طواقم سفنه وقلة خبراتهم. حتى يقال إن بعضهم كان يبحر لأول مرة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى نفاذ مواد تموينه، وخصوصاً الماء العذب. فعاد إلى بورتموث في ١٣ حزيران منهياً حملته البحرية. وترددت آنذاك مقولة شعبية تتهكم على القائد الإنكليزي تقول:

«أميرال كبير، وأسطول عظيم، أقلع لمسافات طويلة، أضاع الكثير من الوقت، حقق بعض الآمال، إلا أنه عاد بقليل من الماء (نقص الماء العذب على سفنه)».

لم توافق الجمعية التأسيسية الفرنسية على بقاء جزء من قواتها المسلحة (سلاح البحرية) في حالة استكانة في حين كانت كافة الجبهات البرية مشتعلة.. فبمجرد انتهاء إصلاحات سفن الأسطول أعطيت الأوامر لخروجها ثانية. وبالفعل أقلع فيلاريه في ٢٤ كانون الأول ليغطي ويحمي مرور فرقة عسكرية محمولة بحراً مرسلة إلى المتوسط، ثم ليقطع خطوط اتصال الإنكليز ببقايا الملكيين المنشقين على الساحل الغربي من البلاد، وأخيراً ليتجول قرب الشواطىء البروتونية فيزعج سبل تجارة الإنكليز البحرية.

اعترض العديد من قادة سفن تشكيل فيلاريه هذا الإقلاع المفاجىء، وفي قلب فصل الشتاء الشديد الأنواء، وأحوال سفن الأسطول سيئة تنقصها المواد التموينية، وتعجز عن الملاحة في بحور الشتاء الصاخبة، وترهب مواجهة التشكيلات الإنكليزية.. سادة البحر. ولم تجد الاعتراضات نفعاً وخرج الأسطول وكأنه على موعد مع الكوارث. ففي يوم الإقلاع ضاعت البارجة ريبوبليكان ذات الـ (١١٤) مدفعاً، وتحطمت على صخور السواحل البروتونية. وما إن دخل التشكيل مياه المحيط حتى صفعته رياح عاتية بعثرت سفنه بعاصفة هوجاء، استمرت أربعة وثلاثين يوماً متلاحقاً، فتوالت المصائب، وغرقت ثلاث بوارج في البحر، بتأثير تآكل الطوق الحديدي الدائروي الذي يحيط بالسفينة (استخدم معدن الحديد على عجل بدلاً من النحاس البرونزي عند تجهيز السفن وبتآكل الحديد بفعل الماء المالح يتشقق الخشب ويتسرب ماء البحر إلى داخل العنابر بسرعة عجيبة).

وغاصت السفن إلى قاع اليم في حين جنحت رابعة على الشاطىء، والتجأت اثنتان إلى مرفأ سان مالو.

عاد تشكيل حملة الشتاء الذي عد في بداية خروجه (٣٥) سفينة عاد بـ (٢٥٠) فقط، ودخل معبر برست، ورسا في مياهها في الثاني من شهر شباط. وقد أصاب العطب والاهتراء العديد من أبدان السفن، بتأثير الأمواج الصاخبة. وخلدت رحلة الشتاء هذه وكانت أسطورة مرعبة من أساطير بحارة فرنسا، تروى على أنها أكبر الكوارث البحرية الطبيعية التي لا تُنسى.

بقيت سفن فرنسا برغم المصاعب العديدة التي واجهتها تملك حرية الحركة، واستمرت آلية قدوم القوافل الآتية من بعيد تصل تباعاً، وانتقلت بعض سفن بحر المانش إلى الأبيض المتوسط، لتعزز التواجد الفرنسي هناك، وترفع من تعداد السفن، وتؤمن لفرنسا تفوقاً عددياً في قوة المتوسط، تجابه به سفن إنكلترا وحلفائها.

أجرت إنكلترا بعض التعديلات في قيادة سلاح البحر، وأقالت شاتهام، واستبدلته باللورد سبنسر Spencer كلورد أول للأميرالية البحرية الملكية، وأعفت هاو من إمرة أسطول المانش، وأسندتها إلى شقيق الأميرال الكبير هوود، وهو اللورد برايدبورت Bridport الذي تبنى عقيدة مختلفة في إدارة المعارك الحربية، تعود بالأصل إلى التقليد الذي كان قد ابتدعه الأميرال هاووك، وهو الاعتماد على حماية مباشرة لسواحل بريطانيا العظمى، بإقامة سيطرة كاملة على بحري المانش والشمال، وإرسال المفارز البحرية تجوب بشكل شبه متواصل بين مدخل بحر المانش وفتحة نهر اللوار، لتأمين مراقبة دائمة لسواحل فرنسا، ولإشغال الأسطول الإنكليزي بمهام بحرية متواصلة، تنشط عزائمه وتعطيه الثقة الدائمة بنفسه في تقديم الخدمات المثمرة.

أزعج التواجد الإنكليزي المتواصل والعقيدة القتالية الجديدة التي تبناها القائد الإنكليزي العام الملاحة الشاطئية الفرنسية، فاضطر الفرنسيون إلى الخروج مراراً ليحموا سفنهم العاملة، على طول الشاطىء، بين المرافىء وسفن الصيد، أو ليقدموا الدعم اللازم للقوافل الآتية عبر المحيط. وكان لا بد من وقوع مجابهات مع المفارز الإنكليزية. وبالفعل ففي ٧ حزيران من عام (١٧٩٥) خرج فيلاريه لنجدة قافلة قادمة من بوردو، اعترضها البريطانيون فلجأت إلى جزيرة بيل إيل، فلحق بها القائد الإنكليزي كورنواليس[١٠٦] Cornwallis، وحاصرها هناك.

وصل فيلاريه على رأس قوة بحرية تحمل (٩٨٢) مدفعاً لمجابهة (٤٤٨) مدفعاً إنكليزياً.

لكنه لم يستطع فك الحصار المضروب على القافلة، خصوصاً بعد أن لاحت في الأفق طلائع أسطول برايدبورت الذي علم بخروج فيلاريه يوم إقلاعه بالذات. وقد هرع الأميرال الإنكليزي ينجد قائده في بيل إيل، ويرفع تعداد المدافع الإنكليزية إلى (١٣٠٨) مدافع.

احتدم القتال، وأصيب فيلاريه بهزيمة نكراء، فقد فيها ثلاث بوارج، فانسحب ودخل ميناء لوريان لا يقوى على الخروج منه.

وانتهز الإنكليز هذه الفرصة السانحة فقاموا يوم ٢٧ حزيران بإنزال عسكري على شبه جزيرة كيبرون[١٠٧] بوساطة (٥٠) سفينة نقل بإمرة الكومودور بورلاس وارن Borlase Warren وضمت هذه الحملة ثلاثة ألوية من المهاجرين، احتلت شبه جزيرة كيبرون، ثم جزيرة يو[١٠٨] Yeu .. لكن انتصارات جيوش الثورة الفرنسية على البر أرغم الملكيين على التقهقر فتراجعوا باتجاه الشاطىء. وفي ٢١ تموز دفعوا إلى البحر ثانية. وكان جوه مكفهراً صاخب الأمواج، جعل عمليات مراصفة السفن الإنكليزية لإنقاذ المندحرين شاقة. وتمت عملية الإصعاد كآخر فصل من المسرحية الدرامية. وكل من لم يصعد قتل أو أسر. وهكذا باءت حملة كيبرون بفشل ذريع.

بقي الإنكليز أربعة أشهر في جزيرة Yeu، لكنهم وجدوا في النهاية أن لا فائدة ترجى من تمسكهم بهذا الموقع الخطر، فقرروا الرحيل، وأخلوا الجزيرة، ورفعوا المراسي عائدين إلى بحر المانش. وهنا تسنى لبقايا أسطول فرنسا الشمالي القابع في لوريان الإقلاع عائداً إلى مرفأ ارتباطه الأصلي برست.. وبذلك انتهى حلم غزو فرنسا من البحر، وأصيب البريطانيون بخيبة أمل مرّة.

لمست فرنسا أثر ضعف قواتها البحرية في مجريات الحرب، وسادت قناعة في إقامة أسطول قوي، يؤمن لها مصالحها الحيوية محلياً وعالمياً. ومن آثار هذا الوهن البحري قضت برست وعدة مرافىء فرنسية أخرى فترة طويلة من الزمن بعزلة كاملة عن الوطن الأم، نظراً لنقص الوسائط البحرية. ولما كانت الإمكانات المادية غير متوفرة لتوفير قوى بحرية كافية قررت القيادة التخلي عن قوة برست، وأخلت الميناء، تاركة مهمة الدفاع عنه للقوات البرية المقيمة هناك. ونقلت البوارج والسفن الحربية إلى المتوسط، ليتم تعزيز الأسطول هناك، ليكون قادراً على تأمين المهام الموكلة إليه بشكل سليم وبمردود حسن.

البحر الأبيض المتوسط (١٧٩٤ ـ ١٧٩٥)

أكدت الأوامر الصادرة للوحدات البحرية الفرنسية العاملة في المتوسط اتباع الأسلوب نفسه المعمول به في المحيط الأطلسي، أي بمتابعة مقاومة التواجد الإنكليزي.

واستطاع الأميرال مارتان Martin قائد التشكيل هناك تحقيق عدة مهام، إذ بعد مرور ستة أشهر على تحرير طولون خرج إلى البحر بأسطول صغير ضم (٧) بوارج فقط، لنجدة سفن تجارية حوصرت في مياه كورسيكا. وجابه مارتان المجموعة البريطانية بأسطوله الصغير الذي ضم (٦٠٠) مدفع مقابل (١٢٠٠) مدفع لدى خصمه الإنكليزي. وبعد اشتباك قصير فضل الانسحاب واللجوء إلى مرسى خليج جوان. واستعد لقتال الانكليز، وهو في مرساه، معتمداً على عدة بطاريات مدفعية برية مساندة.

قدم هوتهام Hotham على رأس قوة شملت (٣٠) بارجة، لكنه عجز عن اقتحام الميناء لغزارة نيران البوارج الفرنسية السبع، بالإضافة لنيران البطاريات الساحلية.. ففضل حصار القوة من خارج الميناء وظل كذلك حتى تشرين الثاني حيث هبت عاصفة اضطرته لفك الحصار والابتعاد، وهنا، استغل مارتان الفرصة وعاد إلى طولون ثانية.. وفي الربيع وصلت تعزيزات جديدة لأسطول مارتان رفعت تعداد بوارجه إلى (١٥) بارجة ولما كانت النية في استعادة مكانة فرنسا في كورسيكا طلب من القائد الفرنسي نقل فرقة جانتيلي البرية وإنزالها على الشواطىء الكورسيكية.

خرج القائد الفرنسي في ٢ آذار (١٧٩٥) وبإمرته (٢٥٠٠) بحاراً، أكثرهم أغرار، وتنقصهم الخبرة والمراس. وبدأت رحلته بمصاعب متعاقبة، ومناورات مغلوطة نجمت عنها حوادث بحرية عديدة. وفي (١١) منه ظهرت سفن قوة هوتهام في مياه ليفورن، فراوغ القائد الفرنسي عدة أيام، حتى (١٥) منه. لكن كان لا بد من الاشتباك. ولقد تم فعلاً.. ولم تصمد الوحدات الفرنسية طويلاً، وتفرقت بفوضى، وأصاب عنف الهجوم بارجتين فرنسيتين تحملتا كامل الصدمة القتالية، فقاتلتا بشجاعة لفتت أنظار المهاجمين، حتى وقعتا في الأسر، بعد أن فقدتا كامل أطقمهما بين قتيل وغريق وجريح. وعلى أثر تلك المعركة أرجىء مشروع تحرير كورسيكا.

وبعد أشهر وصل لمارتان تعزيزات جديدة بقيادة رينودان فأصبح تشكيله في ٢ نيسان يضم (١٩) بارجة، إلا أن عصيان اليعاقبة في طولون جمد حركة هذا الأسطول فترة طويلة، كما أن انتشار الأمراض والأوبئة بين صفوف البحارة أضعف من قدرته القتالية.

أما بالنسبة لهوتهام فكان الموقف التكتيكي جيداً، خصوصاً بعد وصول تعزيزات جديدة له. وارتفع تعداد تشكيله إلى (٢٣) بارجة، تسليحها (١٩٨٢) مدفعاً، مقابل (١٩) بارجة فرنسية و (١٥٢٨) مدفعاً.

حدثت معركة غير متكافئة قرب جزيرة هيير في ١١ تموز، كان النصر فيها لصالح الإنكليز. واشتعلت النيران في إحدى البوارج الفرنسية آليد Aleide، وانفجرت قاتلة غالبية أفراد طاقمها. وقد رد المحللون العسكريون سبب تكرار هزائم السفن الفرنسية أمام نظيرتها الإنكليزية لخطأ ارتكبته القيادة البحرية الفرنسية، إذ جهزت بوارجها بمدافع ضخمة العيار، ظانة (مقدّرة) رفع قدرتها القتالية، إلا أن تلك المدافع أربكت سير العمل، وعقدت طرق استخدامها، وأساءت لكفاءة السفن في حركتها ومناورتها. وكان يُتندر على تلك المدافع بأن قذائفها لم تكن تشكل خطراً إلا على مستخدميها. وهو على الغالب سبب انفجار الـ آليد Aleide. وهناك سبب آخر هو تطبيق عقيدة جديدة في علم قتال البحر أعدها جان بول سان أندريه، وطالب قادة السفن بتطبيقها. وتتلخص في تجاوز المعتقدات القديمة وأسلوب الالتحام بين السفن والقتال بالسلاح الأبيض، وهو قتال خبره الفرنسيون، وأظهروا فيه كفاءات عالية. وطالبهم بالكف عن هذا الاشتباك القريب، والتمسك بالمواقع ضمن التشكيلات القتالية والمحافظة عليها. وأنذر كل قائد يخرج عن تشكيله ويقاتل ملتحماً بسفن العدو بتقديمه للمحاكمة، وتصل عقوبته حتى الإعدام. لكن لا شيء استطاع دفع الهزائم عن فرنسا. فهي الأضعف والأقل إعداداً بالسلاح والرجال. والدليل هزائمها المتلاحقة على مدى ثلاث سنوات، فقدت خلالها (٣٥) بارجة و (٦٥) فرقاطة.. وهذا ما دفع بالقيادة العليا للتخلي عن المعارك الكلاسيكية، واللجوء إلى حرب القنص والقرصنة بمهاجمة السفن التجارية التابعة لإنكلترا. وعلى الأثر هبت مرافىء فرنسا مرة واحدة تجهز سفن القرصنة وتدفع بالرجال يركبون البحر وراء هذا النوع الجديد من القتال، ليثأروا من خصومهم الإنكليز، ولمحو حقبة طويلة من الهزائم البحرية، وليملؤوا جيوبهم بالمكاسب الوافرة التي تهيئُها عمليات القرصنة.

خرجت ألوف القوارب برغم أوامر الحكومة المشددة بعدم السماح للصغيرة أو الضعيفة التسليح منها (لا يجوز لسفينة يقل عدد طاقمها عن ١٢ بحاراً وتقل مدافعها عن ٤ مزدوجة الاشتراك بمثل تلك العمليات) سعياً وراء القنص والاصطياد. فوقعت فرائس سهلة لمدافع بوارج إنكلترا، أو سهل أسرها، حتى وصلت أعداد السفن المأسورة بضع مئات، وزُجّ طواقمها بالسجون في بلاد الإنكليز، وخلت سفن فرنسا الحربية من أهم عنصر فيها وهو الرجال.

نجح لفيف من القادة القراصنة في مغامراتهم البحرية، واستولوا على عدة سفن، وجنوا ثروات كبيرة، وزرعوا الخوف والرعب في نفوس قادة السفن التجارية. ووصل بهم الأمر إلى النزول على البرِّ أحياناً، بإغارت بحرية لتدمير المنشآت الإنكليزية، أو نهب وسلب حلفائهم. وتقول إحصائيات لويد أن إنكلترا خسرت بفعل القراصنة الفرنسيين، وفي عامي (١٧٩٤ و ١٧٩٥) (١٣٦٥) سفينة. وأكد هذا الرقم المؤرخ البريطاني نورمان، فذكره على أنه (١٦٣٦) سفينة. أما السجلات الفرنسية فقد رفعت هذا الرقم إلى (١٩٨٠) سفينة. وعلى كل وبرغم هذا الرقم المرتفع فإنه لم يكن يشكل عبئاً كبيراً على بريطانيا، أغنى دول العالم وأعظمها قوة بحرية. إذ وصل تعداد سفنها في عام (١٧٩٥) إلى (١٦٧٢٨) سفينة تجارية. وضياع (٥٠٠) سفينة سنوياً لم يكن ليخلق لها عبئاً اقتصادياً أو سياسياً.

استمرت هزائم فرنسا بحراً وانتصاراتها براً، ففي ٢٦ حزيران (١٧٩٤) دحرت جيش النمسا، ولاحقت فلوله، واستعادت كامل أقاليم بلجيكا. ودخلت مدينة أمستردام، واحتلت كامل المرافىء الهولندية، واستولت على سفنها الحربية المحجوزة بعامل الصقيع. أما القوات البريطانية العاملة في شمال أوربة فقد أفلتت من الحصار، وانكفأت على نفسها، وتراجعت حتى هانوفر.

تابعت فرنسا انتصاراتها في الجبهات الأخرى الوسطى والجنوبية، واستعادت الفانديه، ودفعت بالجويش المغيرة إلى ما وراء جبال الألب والبيرينيه ونهر الراين. وأطلق على فرنسا الثورة الدولة التي لا تقهر. وأخيراً وقعت اتفاقية بال[١٠٩] Bale. وفرضت فرنسا على الدول المجاورة شروطها بعد أن استعادت كامل ممتلكاتها، واستولت على المزيد من ممتلكات الغير. وبذلك عاد السلام والتفاهم بينها وبين مجموعة الدول الأوربية، باستثناء النمسا وإنكلترا اللتين بقيتا في حالة حرب، واستمر القتال ولكن بأسلوب جديد.

محاولة فرنسا غزو الجزر البريطانية

على أثر معاهدة بال وجدت فرنسانفسها تمتلك (٨٥٠) ألف مقاتل توزعوا في ألمانيا بإمرة جوردانة ومورو، وفي إيطاليا بإمرة بونابرت الذي توجه نحو فيينا يحاول إسقاط إمبراطورها وفرض الصلح عليه، بعد احتلال عاصمة بلاده. لكن النصر على النمسا لن ينهي الحرب ما بقيت إنكلترا قادرة على القتال. والسلام سيكون هشاً دون إنكلترا. لذلك لا بد من عمل حربي يستهدفها هي بالذات.

« يجب أن نعرف الأثر الذي سيتركه إنزال (٢٠٠) ألف مقاتل فرنسي على السواحل الإنكليزية ، ومقدار تحمل الإنكليز لهذا الغزو » ، قول لكارو Carot . وقد عارضه في الفكرة تروغيه Truguet الذي دعا لغزو الممتلكات البريطانية في الهند بالذات . أما هوش[١١٠] Hoche فقد عارض فكرة الغزو البعيد قائلاً :

« ليس من الحكمة قتال الإنكليز على مسافة (٤٠٠٠) فرسخ في مناطق خطرة مكلفة مشكوكة النتائج ، في حين نستطيع حربهم في أوربة وهم على أبوابنا . أو لسنا متأكدين من أن الممتلكات الإنكليزية عبر البحار ستؤول إلينا في اللحظة التي ندخل فيها شوارع لندن » ؟.

فضل هوش قتال الإنكليز في سواحلهم وعلى شواطئهم باستراتيجية صحيحة مدروسة ، مبتدئاً بتحقيق حرية كاملة للحركة البحرية في البحار المحيطة ببلاده ، بتدمير الأسطول الإنكليزي وجعله عاجزاً عن تأمين المواصلات البحرية ، شريان حياة إنكلترا . وطالب بوقف الحملة ضد احتلال كامل لإنكلترا ، لأن أمراً كهذا عبء كبير على فرنسا لا قِبَل لها فيه ، لما عرف عن حب الإنكليزي لأرضه ، وكرهه الشديد لأي دخيل . وأفضل السبل لتحقيق الهدف هو القيام بهجمات متعاقبة وبمجموعات صغيرة ، تزرع الفوضى ، وترعب سكان السواحل الإنكليزية ، وتقطع سبل الإمداد . تماماً كما فعل الإنكليز في مساندتهم للملكيين الفرنسيين على شواطىء فرنسا الغربية . ففي الجزر البريطانية ، إيرلندة الكاثوليكية ، التي تتململ من الحكم الإنكليزي منذ عشرات السنين ، وتنادي بإيرلندة الموحدة . وعلى فرنسا تبني مطالب الإيرلنديين ، بعد أن حضر العديد من زعمائهم إلى باريس ، يطلبون العون من قادة الثورة الفرنسية ، ليبدؤوا ثورتهم ، خصوصاً وأن نصف بحارة وجنود قوات بريطانيا العظمى منهم .

حملة إيرلندة

ضحت فرنسا بفيلاريه جوايوز نصير تيروغيه صاحب فكرة حملة الهند ، وأخذت منه قيادة التشكيل البحري في الشمال ، وأسندته إلى مورارد دوغال ، تحت أمر القائد العام لقوى البر والبحر الجنرال هوش Hoche .

تتابعت الأحداث بسرعة ، وكذلك الإعدادات لغزو الجزر البريطانية كانت نشطة بفضل القائد الثاني لهوش الجنرال برويكس[١١١] ـ Bruix ، والذي كان يردد دوماً قوله :

« قاتلوا الإنكليز في جزرهم ، تسقط بأيدينا الجامايك ، وسيلان ، والكوروманديل ، والبنغال » .

خرج الأسطول الفرنسي بعد إنهاء استعداداته في الـ ١٥ من كانون الأول تاركاً مرساه في برست ، وانتقل ورسا في بيرتهيوم Bertheaume لأربع وعشرين ساعة ، حتى يتسنى له تجميع قواته ، قبل بدء المرحلة الأولى من الحملة الإيرلندية .

انطلق القائد الفرنسي مورارد بكامل تشكيله ، واتجه غرباً تفادياً للوحدات البريطانية العاملة في المنطقة ، وإيهاماً للمراقبين بوجهته نحو الجنوب . وما إن ابتعد عن أنظار المراقبين وكانت الريح تهب من الجنوب الشرقي بقوة . واستدار مورارد مبدلاً خط سيره ، وقرر المرور في منطقة الايرواز[١١٢] Iroise ، لكن إشارته لم تلتقط بالشكل الصحيح من قبل قادة سفن التشكيل . وحدث أن نفذ البعض واستمر البعض الآخر في خط السير الأصلي ، فاضطرب نظام التشكيل ، ودبت الفوضى ، وجنحت على أثر ذلك البارجة سيدويزان على صخور تيفينيك Tevenec . وتناثرت السفن الأخرى في رقعة واسعة المساحة ، وراحت تملح إفرادياً ، أو بمجموعات صغيرة . وفي ١٩ منه استطاع أحد قادة المجموعات بوفيه[١١٣] Bouvet تجميع (١٧) بارجة من أصل (١٩) و (٩) فرقاطات من أصل (١٣) ، وغالبية سفن النقل ، ومشى بها ببطء باتجاه الشمال قاصداً السواحل الإيرلندية ومترقباً وصول القائد العام .. وفي اليوم التالي قرر قصد نقطة اللقاء الثانية المحددة بأمر الحركة ، وهي قبالة رأس ميزين إلى الجنوب من إيرلندة . فوصلها في ٢١ منه ، دون أن يحصل أي تماس بسفينة القيادة (الفرقاطة فراتيرنيتيه) ، والتي يقال إن عليها قائد التشكيل مورارد وقائد الحملة الجنرال هوش ، ومعاونه برويكس . والتي كانت تلحق بالسفن الفرنسية تتبع أثرها عن بعد ، محافظة على مسافة يرى منها المراقبون رؤوس السواري العلوية في الأفق ولا يجسرون على الاقتراب منها ظناً منهم بأنها سفن بريطانية .

دخل بوفيه خليج بانتري[١١٤] Bantry حسب التعليمات ، ورسا أمام بيرهافن Ber - Haven في جو عاصف ورياح عاتية . حتى إن عدة سفن من التشكيل لم تقوَ على ولوج الميناء فظلت خارجه تجوب بانتظار ظروف جوية أفضل . ونظراً لغياب الأميرال وقائد الحملة تردد بوفيه في السلوك الذي عليه نهجه . فهل ينفذ الإنزال أم ينتظر الأوامر والتعليمات ؟ .

طلع فجر اليوم التالي والجو أكثر اكفهراراً ، والرياح أشد عنفاً . وأصبح البقاء في الميناء خطراً . عندها قرر القائد الفرنسي التخلي عن المرسى والعودة إلى البحر وإلى مشارف المنطقة بانتظار هدوء العاصفة التي استمرت حتى الـ ٢٧ من الشهر .

بفعل العاصفة توزع التشكيل تلقائياً لعدة مجموعات لا قيادة تجمعها، وكل مجموعة تسلك طريق العودة إلى برست كما يحلو لها، فتصل تباعاً. وهكذا تم التخلي نهائياً عن المهمة الرئيسية. وكانت حصيلة الخسائر أن غرقت عدة سفن وجنحت أربع، ووقعت اثنتان حربيتان مع أربع سفن نقل بالأسر، في حين بلغت خسائر الإنكليز خلال الاشتباكات الفردية غرق سفينة وعطب أخرى.

عاد هوش وأركان قيادته إلى برست، ونزل إلى البر على الفور. وتحرك بقواته البرية نحو الحدود الألمانية حانقاً من نتائج حملته.. برغم أن أفكاره ظلت مؤيدة لعملية النزول على البر الإيرلندي.. ولقد فكر في إحياء الفكرة ثانية إلا أن الموت عاجله حيث قضى في ويتزلر عام (١٧٩٧).

كانت عملية الإنزال على البر الإيرلندي ممكنة لو أن إمكانات فرنسا البحرية أفضل واستعداداتها أتم، والشروط الجوية أكثر ملائمة. ولو أحيطت الإعدادات بسرية أكبر.. إذ إن الحكومة البريطانية كانت على علم بكامل مراحل الخطة منذ بدايتها. وقد كلفت الكومودوز كولبويس Colpoys على رأس قوة من (١٥) بارجة مراقبة معبر ميناء برست، وجواره. ومن حسن حظ الفرنسيين أن كولبويس كغيره من قادة البحر آنذاك يتهيبون الملاحة بالشراعيات الكبيرة في منطقة الايرواز الخطرة الغنية بالعوائق الصخرية.. لذا فضل القائد الإنكليزي إرسال دورية صغيرة من ثلاث فرقاطات بإمرة إدوارد بيلو Edward Pellew لأعمال المراقبة. وقد قام المذكور بمهمته على أكمل وجه، وجال في المنطقة ساعياً لإرباك السفن الفرنسية عند خروجها. ولما تأكد له غرض الأسطول الفرنسي رجع إلى أميراله يحمل له آخر المعلومات عن حركة تشكيل الخصم. لكنه لم يجده في الموقع المتفق عليه، وبحث دون جدوى. وعندها عاد إلى بريطانيا ليبلغ الأميرالية هناك ما لديه.

لم تصل المعلومات لكولبويس إلا في العشرين من الشهر، حينما شاهد أحد قادة الدوريات الإنكليزية الجنوبية أسطول فيلنوف آتياً من المتوسط، ومتوجهاً نحو الشمال. وأعلم قائد الدورية آمره بالحدث إلا أنه لم يستطع تحديد الوجهة الصحيحة لهذا الأسطول. هل هي إيرلندة، أم البرتغال، أو جبل طارق؟.

تحرك الأميرال كولبويس إلى رأس ليزارد منتظراً آخر التقارير. ولما لم يأته جديد قفل عائداً إلى بورتموث، ودخلها في ٣١ منه.

علم الأميرال برايدبورت بحركة الأسطول الفرنسي، وكان يرسو بأسطوله الرئيسي في مياه ميناء

بورتموث. وتوقع خطراً فأرسل إلى الأميرالية الملكية البريطانية في لندن يستشيرها، ويطلب إذناً بالخروج للقاء الخصم. وانقضت عدة أيام قبل أن يصله قرار القيادة بالإقلاع. وبالتحديد وصلت التعليمات في ٣ كانون الثاني. وكان كل شيء قد انتهى.. وبقي الفرنسيون كما أسلفنا (١٧) يوماً قرب السواحل الإيرلندية، دون أن يقربهم أحد. وما كان عليهم لتحقيق أمنية هوش سوى قطع مسافة (٣٠) ميلاً المسافة الفاصلة بين خليج بانتري وموقع الإنزال، وليس لإنكلترا هناك إلا بارجة واحدة و (٥) فرقاطات وهكذا مرّت للطرفين المتنازعين فرص عديدة لم يحسنا استغلالها. ولو فعلا لغيرا وجه المعركة.. ويعزى ذلك كله إلى النقص في الإمكانات، والبطء في الاتصالات مع سوء تنسيق بين القيادة والوحدات، وأخيراً لتلكؤ في اتخاذ القرارات.

انتهت حملة إيرلندة بخيبة أمل جديدة لفرنسا.. ونقد جارح لبحرية المملكة البريطانية. وهذا ما دفع بالقائمين عليها إلى البحث عن تغيير جذري في نظام إدارة الوحدات والتشكيلات بإصلاحات عديدة على كل الصعد، وأولها تحسين أوضاع العاملين في البحر. وبالفعل لم تتأخر المطالبة الفعلية بإنصاف الرجال.. فقد بدأت في ١٥ نيسان (١٧٩٧) حركات تمرد بدأت في بورتموث بين رجال وحدات برايدبورت. وأعلنوا رفض إطاعة الأوامر، ثم رفعو العلم الأحمر على سواري السفن علامة التمرد، وشكلوا فيما بينهم لجنة تطالب بحقوقهم. ولم تمض أيام قليلة حتى وصلت أنباء تمردات مماثلة بين صفوف البحارة في سبيتهيد وبليموث وكورك، وفي أسطولي كل من كورتيس وكولبويس.

طالب المتمردون برفع أجورهم، وزيادة مخصصاتهم الغذائية على السفن ومنحهم المزيد من الإجازات السنوية.

صوت البرلمان إلى جانبهم، ووافق على مطالبهم. وسرعان ما عاد الهدوء والانضباط سيرته الأولى يخيم على وحدات الأسطول. وكان ذلك في ١١ مايس وضمن عناصر أسطول بروكنز Brucknez الراسي في مياه شيرنيس وشاتهام. انفجرت فتنة جديدة أكثر خطورة من سابقتها.

بدأت الفتنة بثورة عارمة بين صفوف البحارة. وتقدم الثائرون فقبضوا على قادتهم وأنزلوهم على اليابسة. وأعلن قائد العصيان ريتشارد باركر من على البارجة ساندويتش Sandwich قيام الجمهورية العائمة التابعة لإيرلندة الموحدة.

تحركت الحكومة البريطانية بسرعة لمواجهة هذا الخطر الكبير الذي يهدد سلاحها البحري

وسلامة الوطن، والذي من شأنه إحداث تطورات سياسية خطيرة على المستويين المحلي والأوربي. فجندت الميليشيات وزودتها بالمدافع ونشرتها على طرفي نهر التايمز، للتدخل في حال محاولة المتمردين الوصول إلى العاصمة. وتصاعدت الأزمة، وبلغت أوجها في ٦ حزيران عندما ثار أسطول الأميرال دونكان Duncan المبحر قبال تيكسيل Texel، والذي ترك موقعه وجاء لينضم إلى الثائرين الذين بدؤوا في تهديد غرينساند Greensand (مدخل مصب التايمز).

كشفت ثورة باركر عن نواياها الانفصالية بعد إعلان الجمهورية العائمة. وشعر الثائرون الحقيقيون بخطورة ما يرمي إليه باركر. ونظراً لما عرف عن البريطاني من ولائه المطلق لوطنه، انشق العديدون عن المحرض، وعادت سفنهم لحظيرة المملكة. حتى إن بعض تلك السفن انضمت للوحدات الملكية، برغم قنابل مدفعية رفاق الأمس. وأخيراً انحسرت موجة العنف، وبقي باركر وحيداً فاستسلم للسلطة، وحوكم وشنق، وانهزم بقية العصاة.

وصلت أخبار التمرد إلى القارة الأوربية متأخرة جداً ولم تستطع فرنسا استغلالها في الوقت المناسب. ولقد قيل فيما بعد إن تلك الفتنة كانت من أسوأ ما عرفته بريطانيا في تاريخها المعاصر، حتى إن الحكومة استنجدت بأميرال الأسطول الروسي ماكاروف Makarof ليتدخل إلى جانبهم في بحر الشمال.. وفي النهاية كان لا بد من الإسراع في تحقيق مطالب البحارة العادلة وبأسلوب سخي للغاية.

حملة إيطاليا وتخلي الإنكليز عن المتوسط

تابع بونابرت زحفه على البر الإيطالي، فاستسلم ملك سردينيا، وفر النمساويون نحو نهر بو، واندحرت قواتهم في كل الجبهات، ولم يعودوا قط قوة إيطالية فعالة.

شعرت إنكلترا بأن مصالحها قد تتأثر في هذا البحر، بعد انتصارات نابليون الرنانة، خصوصاً والبحر الأبيض المتوسط قد قدم لها وعلى مر قرن ونيف كل التسهيلات الخاصة لبحريتها التجارية، وأعطاها مركزاً مهيباً بين الدول المطلة على شواطئه. وهي لن تسمح لأية قوة أخرى بمنازعتها هذا النفوذ. لذلك كلفت نلسون أحد قادتها الشهيرين، والذي كان بإمرته عدة طرادات حديثة في خليج جنوة بعرقلة خطوط مواصلات فرنسا، ومنع اقتراب سفنها من الشواطىء الإيطالية، بالإضافة إلى شن إغارات فجائية، وضرب المواقع الساحلية.. لكن القائد الإنكليزي الأعلى في المتوسط كان حريصاً على العتاد والرجال، ولا يفرط بسفينة أو برجل. وكل ما قدمه.. تنفيذاً لرغبة الأميرالية هو

ضرب الكورنيش (الطريق الساحلي) الممتد على طول الشاطىء الإيطالي ليجعله غير سالك بالنسبة لقوافل الإمدادات الفرنسية، وإزعاج خطوط مواصلات فرنسا البحرية، لمنع وصول الإمدادات لجيش بونابرت.. ورفض تقديم أية مساعدة عسكرية أو بحرية لدويلات إيطاليا المهددة، الأمر الذي جعلها تتساقط الواحدة تلو الأخرى أمام جحافل قوات نابليون المظفرة لتنضم لحلبة السياسة الفرنسية.. وجاءت بالترتيب التالي:

الدولة البباوية، نابولي، توسكانيا.

انحسر النفوذ البريطاني في المنطقة خصوصاً بعد سقوط ليفورنو في ٣٠ حزيران (١٧٩٦) وهي المدينة المستودع لبريطانيا على مر العصور، وبعد أن أعقب ذلك عدة ضربات شديدة قضت على البقية الباقية من هذا النفوذ قام الكورسيكيون الذين استقبلوا الإنكليز فيما مضى على أنهم محررون لهم من نير استعمار فرنسا واللذين لم يجدوا منهم إلا طغياناً وقهراً، فأعلنوها حرباً تحريرية ضدّهم.

أما إسبانيا فقد عادت من جديد حليفة لفرنسا، وتحرك أسطولها يحرر السفن المحتجزة، وخاصة في مرفأ قادس. وهكذا أحكمت القبضة البحرية الفرانكو ــ إسبانية على كامل المنطقة، وامتدت من شبه جزيرة إيطاليا محققة سيادة فرنسية إسبانية برية وبحرية. ولم يبق لبريطانيا والحالة هذه إلا الرحيل. وهذا ما دفع بالأميرال مان Mann حارس ممر جبل طارق إلى الانسحاب منكفئاً حتى ليشبونة، ومن ليشبونة إلى إنكلترا، تاركاً مواقعه دون قتال، ومتخلياً عن مساندة جيرفيه Jervis ذي الخمس عشرة بارجة، والراسي في مياه سان فلوران، والذي كان سيواجه الـ (٣٨) بارجة فرنسية إسبانية (لو كان قادة التجمع الفرنسي الإسباني يتصفون بروح هجومية ومصممين على القتال) ومن الغرابة أن يترك جيرفيه آمناً، ويتوجه التشكيل الحليف إلى طولون، مهيئاً للقائد الإنكليزي فرصة لـمّ شتات سفنه والرحيل بها إلى جبل طارق، ليصله في الأول من كانون الأول، بعد رحلة مرة عاش رجاله خلالها على نصف تعيينهم الغذائي اليومي، نظراً لتناقص المواد التموينية على السفن.

بوصول جيرفيه إلى جبل طارق استلم أمراً مضاداً من قيادته، يطلب من تشكيله العودة إلى المنطقة التي كان فيها سابقاً، ويعلمه بأنه ورمسير(١١٥) Wurmser انضم إلى مانتو والأمل كبير في دخول الروس إلى جانبهم بحراً.. لكن جيرفيه رفض تنفيذ الأمر، لأنه أكثر معرفة من قيادته بما يدور في المنطقة. فكورسيكا ضاعت، ولم يبق للسفن البريطانية مأوى تلجأ إليه بعد أن انقلب المتوسط الغربي بحيرة إسبانية فرنسية.

مع توالي الانتصارات البرية التي حققها القائدان آركول ريفولي ، وتاغليا مانتو[١١٦] قرر القائد بونابرت التوجه نحو فيينا ، إذ إن أموال إنكلترا وحدها لم تعد تستطع حماية عرش الإمبراطور النمساوي . وغدا الاجتياح قريباً ، وهذا معناه احتمال نشوب ثورة مشابهة للثورة الفرنسية ، قد تطيح بعرش النمسا . وهذا ما دفع بفرانسوا الثاني[١١٧] لطلب الصلح ، وتوقيع معاهدة ليوبن[١١٨] Leoben في ١٨ نيسان ، ومعاهدة كمبوفورميو في ١٧ تشرين الأول خاضعاً لكل شروط فرنسا ، ومعترفاً بالجمهورية الفرنسية بحدودها الواسعة التي ضمت الراين والألب ، ومتخلياً عن إيطاليا والمتوسط ، وموافقاً على إقامة جمهورية سيساليين في شمال سهل اليو ، مع تسليم (١٣) سفينة حربية نمساوية لسلاح البحرية الفرنسية .. وبذلك عادت فرنسا إلى المتوسط سيدة له بفضل انتصاراتها البرية .

في نهاية عام (١٧٩٦) انكمشت إنكلترا داخل جزرها ، وقد لاحت في أفقها تباشير أزمات اقتصادية تظهر في أكثر من مجال . فالفائض الصناعي بالمنتجات كبير ، والهبوط في الأسعار شديد ، وهما سببان رئيسيان عملا على تقليص أجور العمال والمستخدمين ، وعلى ارتفاع في نفقات المعيشة . وتضاعف سعرُ القمح ، وتبع ذلك ارتفاع بباقي أسعار المواد الغذائية الرئيسية ، وعمت البلاد أزمة خانقة تناولت جميع طبقات الشعب . وانتقلت روح التمرد من القوات البحرية إلى القوات المسلحة ، ووصلت حتى الحرس الوطني . ونزل الغاضبون إلى الشارع يهتفون بموت رئيس الوزراء بيت ، حتى إن المتظاهرين قذفوا عربة الملك بالحجارة بتاريخ ٢٩ تشرين الأول ، وهو في طريقه إلى البرلمان .

كتب كورنواليس يصف الموقف المتردي الذي وصلت إليه بريطانيا تحت سؤال : أين نسير ؟

« شعبنا ممزق إلى زمر وعصابات دون جيش وبلا مال ، ولم يبق لنا سند إلا سلاح البحرية . ونحن مع ذلك غير قادرين على دفع أجور رجاله ، وحتى لو دفعنا الأجور فولاء رجاله غير مضمون . كيف سنخرج من هذه الورطة؟ لن نخرج من هذه الأزمة اللعينة إلا بحرب ثورية » .

على أثر تلك الظروف القاسية بدأ اللورد ماليسبوري[١١٩] Malmesbury مباحثات أولية مع باريس . وتقدم بشروط ظاهرها الاعتدال لوقف الحرب ، وضمنها اعتراف كامل بكل ما جرى على الساحة الأوربية منذ عام (١٧٨٩) ، وبكل حقوق ومكاسب وتوسعات فرنسا الحربية على البر الأوربي ، مع إقرار كامل بعملية ضم بلجيكا ، وإقامة جمهوريتي باتافيا وسيسالين المواليتين لفرنسا . وكان مطلب ماليسبوري الوحيد هو أن تترك لإنكلترا مكاسبها التي استولت عليها بقدرة سيادتها البحرية . وبالمقابل تعترف إنكلترا لفرنسا بمستعمراتها وراء البحار ، وتطالب بالاحتفاظ لنفسها

بضعة أقاليم كانت تخص إسبانيا وهولندا كالترينيتيه Trinité والكاب Le Cap وسيلان Ceylan وكوشان Cochin .

تصلبت فرنسا في البداية وأقامت العوائق في سير المباحثات مركزة على نقاط ثانوية غرضها الإزعاج ، فناقشت ألقاب ملك إنكلترا ، وبوارج ميناء طولون ،.. الخ .. وكلها مماحكات رافضة لوجود انقسام كبير في الرأي بين رجال الحكم الفرنسيين . فالثوريون متمسكون بحالة الحرب ليعززوا كامل سيطرتهم ، وليبعدوا حاملي النوايا المضادة لهم ، وليحافظوا على حكم الثورة .. إلا أن غالبية أفراد الشعب يميلون إلى السلام ليتمتعوا بثمار الانتصارات ، ولينسوا آلام سنوات الحرب المخيفة . وليهيئوا الجسور لامتداداتهم السياسية .

مثل فئة الميول السلمية في مجلس المديرين منظم الانتصارات كارنو Carnot ، ومفاوض معاهدات بال بارتهيليمي Barthelemy ، أما اليعاقبة وأغلبية مجلس المديرين ، وعلى رأسهم بارا Barras فتوقعوا المزيد من الأخطار عليهم ، وعلى الفئات المساندة لهم ، وعلى فرنسا بالذات . لذا قرروا اللجوء إلى الجيش الفخور بانتصاراته ، يعضدون موقفهم السياسي ، بدفعه للتصلب ، وعدم التخلي عن أي مكسب عسكري حققه .

في ٤ ايلول قام أوجيرو Augereau بعملية تصفية للمعارضين في كل المجالس ، حتى طال مجلس المديرين نفسه ، واختفى المعتدلون عن الساحة ، وتبدلت مهمة المباحثات مع بريطانيا . ففرنسا ستحتفظ بكل شيء ، وعلى إنكلترا التخلي عن كل شيء . وبدهي أن تنقطع المباحثات لاستحالة التفاهم بين الأطراف ، وينسحب ماليسبوري دون تحقيق نتيجة تذكر اللهم إلّا التأكيد لشعبه في بريطانيا بأن إنكلترا سعت بحسن نية إلىَ إقامة سلام عادل ، لكن فرنسا نسفت كل المساعي . وقد قال في صدد ذلك غرنفيل البريطاني Greenville معلقاً :

« لقد لعب مجلس المديرين الفرنسي لعبتنا بأحسن مما كنا نتوقعه من أنفسنا » .

وهكذا أقنع الإنكليز دول أوربة كلها بعدائية فرنسا ، وأنها بلد تنشد الحرب سعياً وراء طموحات لا حدود لها خارجة عن الطبيعي . وإزاء خصم طامع من هذا القبيل لا مجال لأحد أن ينشد منه الأمان ، ولا بد من اتخاذ جانب الحذر ، ومجابهة الموقف بشجاعة حتى أصبح شعار كل بريطاني وكل أوربي :

« السلامة مع الحرب خير من سلم بلا سلامة » .

وبرغم ذلك كله بقيت إنكلترا في عزلة، وقد تخلى عنها أصدقاؤها، ولم يبق أمامها إلا الثبات ومتابعة الحرب. وليلقى الأوربيون مصيرهم الذين اختاروه. ومن هذا المنطلق المتطور مضى رئيس الوزراء بيت، ومن خلفه حشود جماهير شعبه المنضبط والممتلىء عزة وفخاراً ينادي بتخطي الصعاب، ومتابعة الحرب، ولو بقي الإنكليز وحدهم في الساحة.

أكملت بريطانيا حربها مع فرنسا مع إعداد متطور سريع لكل الأسلحة، وخاصة سلاح البحر، وبأسلوب جديد يختلف عما كان يجري سابقاً كأسلوب حرب السنوات السبع، أو حرب التحرير الأمريكية. فالعمليات الحربية التقليدية كاحتلال الأرض في المستعمرات البعيدة وراء البحار لم تعد تجدي، وحرب القارة الأوربية مستعرة، فالقتال الحقيقي يجب أن يقع في الساحة الأوربية. وإن تعذر ذلك براً فعلى الأقل في الجبهات البحرية المحيطة بالقارة، على أن تكون حرباً متشددة في الاتجاه والتنفيذ.

شكلت لجنة أطلق عليها اللجنة الداخلية Inner Committée منبثقة عن وزارة بيت، وهي أشبه بمجلس حربي أعلى يقود المؤسسات العسكرية في البلاد، ويؤمن التنسيق بين جميع صنوف الأسلحة، وبالذات مع السلاح البحري للعمل على رفع مستوى سلامة الجزر البريطانية من أخطار الغزو الخارجي، وتعزيز السيادة البحرية، ومد أذرعها بعيداً، لتتناول طرق مواصلات فرنسا وحليفاتها.

أسند بيت لمعاونيه أمثال غرنفيل Grenville، ويندهام Windham، ميلفيل Melville وسبنسر Spencer إدارة الأعمال الرئيسية المتعلقة بالإعداد للحرب. وأحاطهم بالمستشارين الأكفاء، فسارعوا في إقامة الميليشيات، وجندوا المتطوعين للدفاع عن حدود الجزر البريطانية. واستدعوا أكثر الجيوش العاملة في مهام ثانوية، وفي المناطق البعيدة، وطالبوهم بالتجمع للقيام بأعمال حربية هامة، وبمردود أفضل. ثم نادوا على المواطنين يحثونهم على التبرع لصالح الحرب. فسرعان ما تجمع لديهم مليونان ونصف من الجنيهات. وأخيراً أعدوا مشروع ضريبة الدخل Income Taxe فأقرها رئيس الوزراء بيت في الحال. وغدت هذه الضريبة بمثابة ميزانية تغطية نفقات وزارتي البحرية والحربية. وقد تم كل ذلك بسرعة فائقة، وبتوقيت منتظم، أعاد الثقة إلى قلوب المواطنين، ومما ساعد الموقف مرور عدة سنوات أتت بمواسم زراعية خيرة، شملت البلاد ببحبوحة. وقد أدى ذلك إلى تعاظم أهمية سلاح البحر الذي حقق للبلاد عدة انتصارات رنانة، أكدت للعالم كله صلابة سيادة إنكلترا البحرية وديمومتها، وأن لا أمل لأي خصم في انتزاعها منها أو غزو جزرها.

كان الفضل الأول في بعث الروح القتالية لدى سلاح بحر إنكلترا رجال أكفاء، خدموا بلادهم بكل تضحية وفداء، أمثال نلسون[١٢٠] Nelson وكورنواليس Cornwallis وكولينغوود[١٢١] Collingwood وتروبريدج Troubridge وسوماريز Saumarez. وعلى رأس هؤلاء جميعاً القائد الفذ والرجل العبقري جيرفيه Jervis اللورد الأول للأميرالية البريطانية، صانع مجد بريطانيا البحري على مر السنين.

أعد جيرفيه لبلاده أسطولاً بحرياً نظامياً منضبطاً ومتمرساً كان موضع فخار كل بريطاني. ولقد دفعه إلى ذلك حبه الشديد لسلاحه، وإيمانه العميق بفاعلية سلاح البحر في السياسة الدولية. وقد رُسخ فيه هذا الإيمان بعد اكتشافه مؤامرة قذرة، وهو قائد للأسطول المقيم في ليشبونة، إذ قرر متآمرون على سفن ذلك الأسطول قتل ضباطهم وقادتهم، ثم الرحيل بسفنهم إلى إيرلندة، ليكونوا تحت تصرف الجمهورية الإيرلندية المتحدة.

كانت أولى خطوات جيرفيه في إعداد وتطوير سلاح البحر هو تأهيل الرجال العاملين فيه. إذ فرض عليهم قضاء كل وقتهم في البحار بين تدريب أو قتال، وأبعد كلية فكرة بقاء قادة السفن في الموانىء، وهي عادة سيئة اكتسبوها من أيام الأميرال هاو Howe. فالسفينة الحربية مكانها الطبيعي في عرض البحر، أما وجودها في الميناء فيسمح به لغرض الصيانة أو الإمداد فقط.. وبالفعل عمد جيرفيه إلى إبقاء السفن الحربية مقلعة بشكل متواصل تؤدي تمارين قتالية ورمايات مدفعية أو عمليات حربية بشكل يجعل كل فرد على ظهر السفينة لا يلتقط أنفاسه من عمل إلا ليبدأ آخر. فالخدمة متواصلة بنظام حديدي لا يعرف الحلم أو المسامحة. وآلة سلاح البحر تعمل بكفاءة واستمرارية. وقد غرس في رؤوس العاملين فيها لذة القتال، وخاصة الإغارات والعمليات الهجومية، والتي كانت بريطانيا بأمس الحاجة لها، قبل أن تستطيع فرنسا وحليفاتها استدراك الموقف وتنفيذ خطط السيطرة التي رسموها وبدؤوا في تنفيذها.

في مطلع عام (١٧٩٧) أوضح جيرفيه للعالم الأوربي وبنجاح باهر ماذا ستكون عليه الحرب القادمة، وذلك إثر المحاولة الفرنسية الثانية في النزول على شواطىء الجزر البريطانية، والتي حُشد لها أسطول كبير بقيادة فيلنوف[١٢٢] Villeneuve، على رأس تشكيل ضم (٣٠) بارجة، إضافة إلى الأسطولين الإسباني والهولندي. وكان على برايدبورت القائد الإنكليزي المكلف برد العدوان مواجهة حشد يعد من (٧٠ إلى ٨٠) بارجة حليفة، تحركت قادمة إلى القنال الإنكليزية (بحر المانش).

وتتابعت العمليات البحرية على النحو التالي:

قدم كوردوفا Cordova من المتوسط في الأول من شهر شباط، واجتاز مضيق جبل طارق، واتجه نحو الشمال. وهناك التقى قرب رأس سان فانسان بالأميرال جيرفيه.

تقدم التشكيل الإسباني، وكله ثقة وعنفوان، وكان يضم (٢٦) بارجة تشق عباب اليم. ولدى كوردوفا معلومات مسبقة تفيد بأن قوة خصمه جيرفيه لا تتعدى الـ (١٠) بوراج، تنقصها الإدارة على القتال، بعد بقائها في ميناء ليشبونة بلا نشاط فترة طويلة.

اتخذ الإسبان تشكيلة القتال، وقد حافظوا على خط سيرهم الأصلي، وتوزعوا على مجموعتين فصلت بينهما فرجة كبيرة.. ومن تلك الفرجة الواسعة عبر فيما بعد جيرفيه بالـ (١٥) بارجة التي كانت بإمرته وليست عشراً.. وبمناورة سهلة وأكيدة فتح جيرفيه نيران مدافعه على أطراف المجموعتين، وجعل من أمر عودة تلاحمهما مستحيلاً. حاول كوردوفا وهو في المجموعة الرأسية العودة لمساندة مجموعة نائبه آلافا[١٢٣] Alava، بالدوران حول التشكيل الإنكليزي من الخلف.. وتنبه الكابتن الشاب نلسون لنية كوردوفا في تطويق بعض السفن الإنكليزية، فترك مكانه في التشكيل، وسارع بمجموعته وتصدى بعنف لكوردوفا، ومنعه من تحقيق خطته.

فوجىء القائد الإسباني بالموقف الجديد، ولم يكن قد تحسب له. فاضطرب تشكيله، وانفرط عقده. وأصبح الأسطول الإسباني الكبير كقطيع من الغنم، والذئب الإنكليزي يتمتع باختيار فرائسه. وهكذا وقعت الكارثة. وكان أول نصر كبير تحققه البحرية الملكية البريطانية منذ عامين. أما تشكيل كوردوفا فغرق منه من غرق، واستسلم منه من استسلم، وفر الباقي إلى الشواطىء لاجئاً أو هارباً.

على أثر النجاح الباهر الذي حققه جيرفيه على أسطول إسبانيا عادت الثقة كاملة للقادة الإنكليز، فهم وحدهم أصحاب السيطرة والسيادة. وراحوا يطوقون سواحل فرنسا وإسبانيا بحراً ويمنعون عنها حرية الحركة، والتدخل، ولهم في شجاعة الأميرال جيرفيه المثل الذي يحتذى. (وقد أصبح لقب جيرفيه بعد معركته مع الإسبان كونت سان فانسان نسبة إلى الرأس البري الذي دارت بقربه المعركة).

بعد انتهاء الأميرال جيرفيه من قتال الإسبان، وبدلاً من أن يقصد مكاناً آمناً يرسو فيه للراحة من عناء المعركة، انتقل في اليوم التالي إلى مياه ميناء قادس، دون أن يترك للإسبان فرصة التقاط أنفاسهم، وأقام حولهم حصاراً محكماً. ولفترة طويلة لم يحدث في تاريخ البحر حصار مثله.

فبوساطة (٢١) بارجة فقط عطل جيرفيه وجمد (٢٦) بارجة إسبانية بإمرة الأميرال مازاريدو Mazzaredo، وجعلها عاجزة عن تقديم أي دور حربي طيلة أيام الحرب.

لم يتخلف أمراء البحر البريطانيون عن تقليد قائدهم الكبير جيرفيه، وراحوا فأغلقوا مداخل جميع الموانىء على السواحل الإسبانية والفرنسية والهولندية. ثم جعلوا جميع السفن المحاصرة فيها عاجزة عن الحركة، وإن أرادت كسر طوق الحصار والخروج انتظرتها قوات بحرية مقاتلة أتقنت كل أساليب القتال، وجاءت خصوصاً من أجله.

من المحاولات الشهيرة خروج الأميرال الهولندي وينتر تنفيذاً لأوامر حكومته. وما إن غادر القائد الهولندي موقعه في تيكسيل Texel حتى ظهر له أسطول دونكان أمام كابرداون Caperdown، وكان هذا الأخير بانتظاره منذ أشهر طويلة.

توازنت قوتا الخصمين المتواجهتين، إذ ضمت القوة الإنكليزية (١٦) بارجة عليها (١٠٦٦) مدفعاً مقابل (١٤) بارجة هولندية عليها (٨٩٠) مدفعاً.

بادر دونكان خصمه ببدء الهجوم، وأعطى سفن أسطوله أمراً بالمرور تحت ريح السفن الهولندية ليمنع عنها سبيل الانسحاب. ودخلت القوتان في مغركة ضارية واستبسل الهولنديون فيها حفاظاً على سمعة أسلافهم قادة هولندا الشجعان. لكن تفوق نوعية السفن الإنكليزية وقوة تسليحها جعلها الطرف الأقوى. وخسرت هولندا المعركة واستسلمت تسع من بوارجهم، بعد أن دمرت بالكامل، وغدت غير قابلة للإصلاح، في حين اتجهت الخمس الباقية إلى تيكسيل حيث بقيت هناك حتى نهاية الحرب.

في المانش كانت الأساطيل الإنكليزية تمخر البحر بجرأة وشجاعة. ولا يمر يوم إلا وتشاهد تشكيلاتها قربّ السواحل الفرنسية، وخاصة عند مصبات الأنهار. وبذلك امتنعت على فرنسا كل أنواع الملاحة الساحلية، وغدت محفوفة بالأخطار، وخاصة في النورماندي وبريتانيا. وكأن لا وجود للأسطول الحربي الفرنسي في المنطقة. علماً بأن ما يزيد عن (٤٧) بارجة فرنسية كانت راسية في أحواض الموانىء وعاجزة عن الحركة لنقص في العتاد والرجال والمؤن، وأنّى للوحدات الفرنسية مجابهة قوة بريطانيا المتعاظمة، والتي وصلت أعداد بوارجها إلى (١٢٠) بارجة و (٦٠٠) سفينة حربية، وبلغ عدد الرجال العاملين في سلاح البحر ما يزيد عن (١٢٠) ألف بحار، يجوبون البحار والمحيطات، ويؤكدون سيادتهم الدائمة، ويؤمنون لوطنهم سلاماً وأمناً لم يشهدهما أيام السلم الحقيقي.

شعرت فرنسا وبضغط شعبي وطني أن ما حصل قد أضاع هيبتها البحرية إلى الأبد . ولا بد لها والحالة هذه من أن تقوم بعمل ما ، خصوصاً وخصمها لا يبعد عنها إلا بضعة أميال بحرية فقط .. وكانت خطة ، روّجت لها ، وهي إعداد قوة بحرية من نوع جديد ، سريعة الحركة ، سهلة الإدارة ، قليلة التكلفة وصيانتها خفيفة ، وأعباؤها المالية قليلة ، قدّمها العميد البحري موسكين Muskeyn المنحدر من أصل فلمنكي ، والذي عمل قبلاً في البحرية السويدية . وقد اقتبس عن السويديين فكرة الخطة .

ففي أثناء الحرب السويدية الروسية خلال القرن الثامن عشر لمس السويديون ضرورة إقامة قوة بحرية خاصة تعمل في بحر البلطيق ، حيث يظل البحر ساكناً ، وعواصفه خفيفة ، وأعماقه قليلة ، وشواطئه متعرجة فيها العديد من الفجوات الطبيعية ، والمداخل الصعبة والتي تقدم أفضل مأوى للسفن المغيرة . واعتمد لهذا الغرض قارباً متوسط الحجم سمي بزورق المدفعية . وهو سفينة صغيرة مسطحة القعر ، تعمل بالشراع والمجذاف ، طاقمها قليل العدد ، تسلح بمدافع ضخمة ترمي على سطح الماء ، ويمكن تعمير العديد منها بشكل سريع . وهي سهلة الإخفاء داخل الخلجان الصغيرة ، وتستطيع تقديم قوة تدميرية كبيرة للمسافات القريبة ، كما تستطيع بسهولة الاقتراب من الشواطىء ، وضرب الأهداف البرية ومن أعماق ومسافات لا تصلها البوارج الحربية التقليدية . وأخيراً قادرة هي على عمليات نقل العتاد والأفراد في حالات الإنزال ، وضمن مسافات قصيرة . أما صنع هذه القوارب فبسيط للغاية ، وأي نجار أو بنّاء يستطيع إنجاز واحد كل بضعة أيام .

حققت السويد بأسطول زوارق المدفعية في حربها مع الروس إنجازات كبيرة ، وبكلفة بسيطة . وهذا ما اقترحه موسكين لفرنسا . ونال الموافقة عليه ، وباشر بتطبيقه ، مبتدءاً بسواحل الفلاندر .

وصل عدد القوارب في عام (١٧٩٨) إلى (٢٩٤) قارباً ، أعدت لتقديم الحماية لـ (١٣٠٧) سفينة نقل تحمل (٧٠) ألف مقاتل ، و (٦) آلاف حصان ، لإنزالها على البر الإنكليزي .

صدر تكليف لنابليون بونابرت بدراسة العملية المقبلة وإبداء رأيه فيها ، فانتقل من باريس إلى موانىء بحر الشمال لتفقد وسائط وإمكانات الغزو المرتقب عن كثب ، وأوفد معاونيه كليبر Cleber وديزيكس Desaix لكل من شربورغ وبرست للغرض نفسه .. وبعد أسبوع اجتمع القادة الثلاثة ، ووضعوا تقريرهم النهائي . وحمله بونابرت إلى مجلس المديرين ، وفيه يرفض المغامرة باعتبارها مستحيلة

التحقيق أمام عدو تحصن براً وملك البوارج العديدة التي أمنت له سيادة مطلقة على كل أرجاء البحر المحيطة بجزره. وجاء في التقرير ما يلي:

«إجراء عملية إنزال على البر البريطاني بغياب سيادة بحرية على الأقل في مسرح العملية يعتبر عملاً جريئاً متهوراً شديد الصعوبة صعب التحقيق، وعليه أن يتم خلال فصل الصيف حيث يظل الجو ساكناً والبحر هادئاً. وهذا يتعارض مع درجة السرية والمفاجأة المرجوة. وسيستقبلنا البريطانيون في البحر، وفي ممر العبور، ويقضون على كل وسائطنا البحرية، وأرى (يتابع نابليون[١٢٤]) التخلي عن تلك المغامرة، وعن أية مغامرة مشابهة، والاكتفاء بالتظاهر فقط لشدّ انتباه الإنكليز حول بحري الشمال والمانش، ونسعى في أثنائها لإعداد حملة إلى الشرق تهدد طريق الهند، وتقطع عن إنكلترا الخيرات التي تردها من المستعمرات البعيدة.. و.. هكذا ولدت فكرة حملة مصر».

لم يكتف بونابرت بما جاء في تقريره، بل قام بمساع شخصية لدى المديرين، لإقناعهم بفكرة غزو مصر، حيث يتم الأمر شتاء، وفي ليالي دامسة لا قمر فيها، وبأسطول حسن الإعداد، وطواقم عالية التأهيل. وطالب بمتابعة التحضيرات البحرية في الشمال، بحيث يتم غزو الجزر البريطانية بعد عودته من مصر، وإن حانت فرصة مؤاتية.

أنصت مجلس المديرين لصوت الخبرة والعقل، واقتنع الجميع بحجج بونابرت، وحتمية وجود أسطول كبير من البوارج الحربية القوية قادرة على منازلة البريطانيين.. ولما كانت الإمكانات المالية غير متوفرة فقد قبعت السفن الحربية الفرنسية المتبقية في موانىء بحار الشمال تتآكل، وقد خلت من الرجال إلا ما ندر.. وضاعت فرصة نجدة إيرلندة إلى الأبد، وبقيت لوحدها تجابه قصاص الإنكليز لها..

رفض الإيرلنديون امتهان الإنكليز لهم، وقاوموا إفرادياً أو ضمن جماعات صغيرة الطغاة الذين نزلوا أرضهم بأعداد كبيرة، والذين جاؤوا يخنقون في المهد التحركات التحررية.

حاولت فرنسا إمداد حليفتها إيرلندة بشتى الوسائل، لكن كل المساعي تقريباً باءت بالفشل. ولم ينجح إلا الكابتن سافاري Savary، الذي أقلع من روشفورد عبر القنال الإنكليزية، ووصل الشواطىء الإيرلندية ناقلاً قرابة الألف مقاتل بين ضابط وجندي بإمرة الجنرال همبر Hembert، ولكن أنّى لهذه القوة الصغيرة مواجهة عساكر الإنكليز الذي جاوز عددهم المائة ألف. ومع ذلك كله قاتلت تلك الشرذمة الصغيرة ببسالة وإخلاص، واستطاعت الاستيلاء على عدة

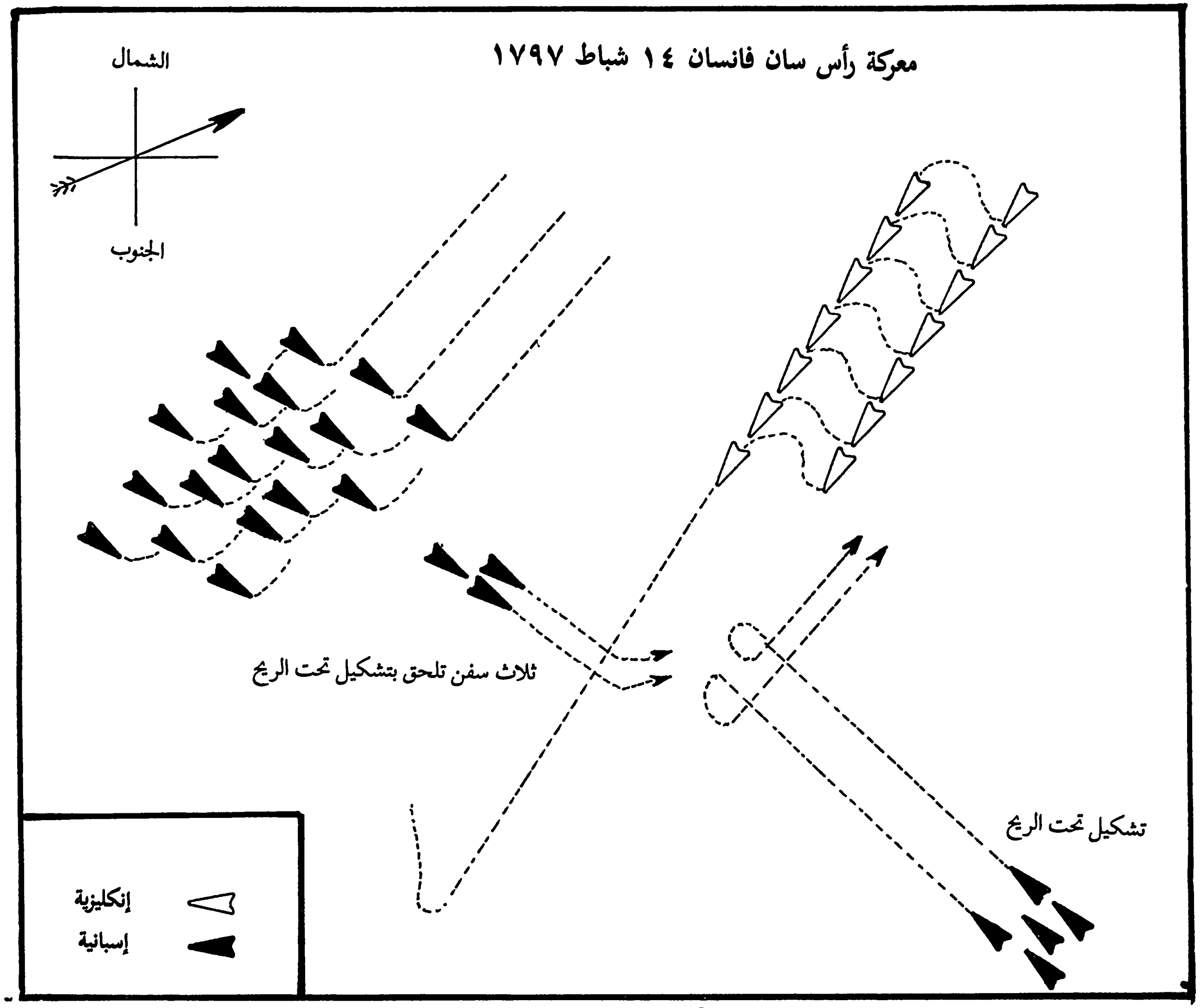
معركة رأس سان فانسان ١٤ شباط ١٧٩٧
الشمال
الجنوب
ثلاث سفن تلحق بتشكيل تحت الريح
تشكيل تحت الريح
إنكليزية
إسبانية

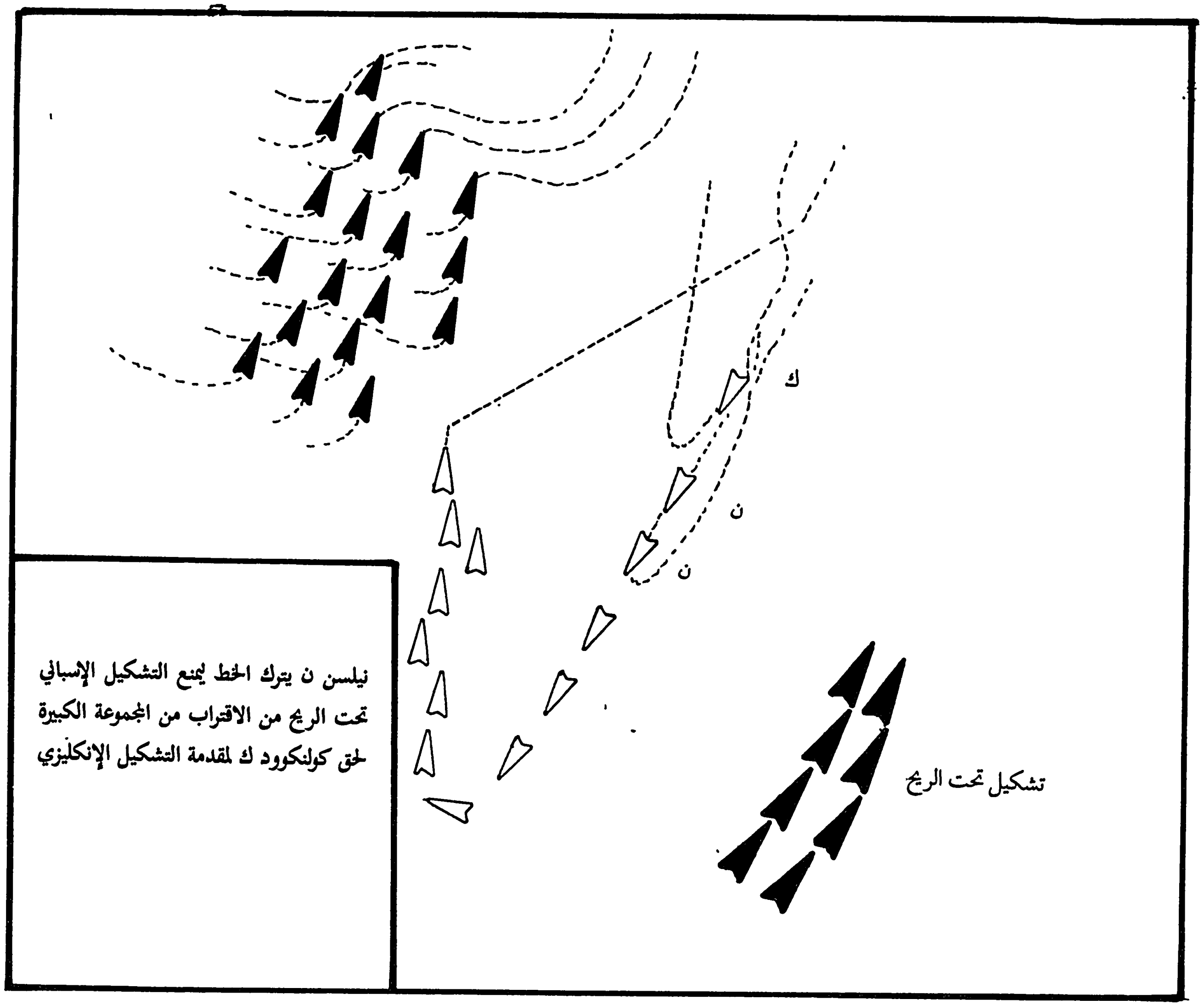
ك
ن
ن
نيلسن ن يترك الخط ليمنع التشكيل الإسباني
تحت الريح من الاقتراب من المجموعة الكبيرة
لحق كولنكوود ك لمقدمة التشكيل الإنكليزي
تشكيل تحت الريح

مواقع بمعونة الثوار الإيرلنديين، فرفعت من معنويات الشعب الإيرلندي لفترة للأسف لم تكن بالطويلة. إذ سرعان ما طوق البريطانيون أفراد الحملة الفرنسية، بأعداد هائلة من جندهم، وأصلوهم خلال ساعتين نيراناً حامية اضطرتهم في النهاية إلى الاستسلام، بعد وقوع العديد من الضحايا، وبعد أن نفذت ذخائرهم وخارت قواهم.

وثمة محاولة أخرى قام بها بومبارد Bompard واستطاع لمرتين اختراق طوق السفن الإنكليزية، ونقل الإمدادات إلى السواحل الإيرلندية. وفي محاولته الثالثة وقع في أيدي سفن بورلاس وارن، وقاتل بقوته الصغيرة ذات الـ (٣٩٠) مدفعاً قوة وارن ذات الـ (٥٦٠) مدفعاً. وانتهت المعركة باستسلام بارجة وثلاث فرقاطات فرنسية، بعد نفاذ ذخائرها، في حين فرت السفن الأخرى ولجأت إلى مرسى برست. وبعد أيام من هزيمة بومبارد أقلع سافاري ثانية لإمداد المقاتلين في إيرلندة. إلا أن أنباء استسلام الحملة هناك اضطرته إلى العودة، ودخول الشواطىء الفرنسية ثانية.

باختفاء أساطيل الحليفات الثلاث هولندا، وإسبانيا وفرنسا داخل مرافئهم استعادت إنكلترا كامل سيطرتها، ونشرت أساطيلها من جديد لتأمين سلامة جزرها، وأصبحت بحار الشمال والمانش والأطلسي بحاراً مأمونة لإنكلترا، ليس فيها خصم كفء في منازلتها.. واستدارت من جديد تحكم قبضتها على جزيرة إيرلندة، وتعيد سيطرتها وتصفي أحرارها.

حملة مصر

حملة إلى الشرق وبالذات لمصر عقدة خطوط مواصلات إنكلترا مع الهند قد تدفع بالإنكليز لإقامة صلح طويل مع فرنسا.. هذا ما كان يعتقده قادة فرنسا. لأن مصر بالإضافة إلى ما تقدمه من تسهيلات تجارية واقتصادية، بلد، ملّ حكم المماليك وتسوده الفوضى، وتسهل فيه التدخلات العسكرية. وبما أن لا إنكليز في البحر الأبيض المتوسط فسيسهل العمل الحربي فيه، ويستطيع جيش الغزو النزول في الإسكندرية ببساطة. وستكون مقاومته شبه غائبة. وبذلك تكون فرنسا قد فتحت أول باب من أبواب طريق الهند والجزائر الشرقية، ومستعمرات إنكلترا الغنية وشريان حياتها الاقتصادي.

ذاك كان مطلب نابليون، وهو ليس بمطلب جنرال عادي، بل رأي بطل قومي، حقق لبلاده انتصارات جمة، وفي جميع الجبهات البرية الشرقية والجنوبية، أدت إلى إقامة الصلح مع كل من إيطاليا وألمانيا والنمسا، وأعادت الحلف مع إسبانيا وهولندا. ومن الطبيعي النفاذ إلى خارج القارة

الأوربية. وفي المتوسط موقعان استراتيجيان هامان هما مصر وسوريا. وكان قد لفت لهما تاليران أنظار العسكريين في مناسبتين اثنتين. وقبل أن يشب بونابرت. فبالاستيلاء عليهما يقول تاليران «نخطو خطوة عالمية كبيرة، وندق إسفيناً في عرش الإمبراطورية العثمانية المسلحة».

التقى طموح بونابرت في غزو مصر بمطلب شعبي مماثل حث القادة على مد جذور فرنسا خارج حدودها، في زمن ساد الحكم تقليد ثوري متأجج يبارك كل خطوة من شأنها تخليد الأمجاد عبر صفحات التاريخ.

لم يكن مجلس المديرين في موقع يستطيع رفض مطلب الجنرال بونابرت، بل على العكس كان يتطلع إلى اليوم الذي يجد فيه هذا الفاتح العظيم بعيداً عن فرنسا، بعد أن أصبح وجوده فيها يشكل خطراً على نفوذهم وسلطاتهم.

نوقشت خطة الغزو من حيث الشكل فقط، واتخذ قرار ببدء التحضير لها منذ الخامس من آذار، وفي ١٢ نيسان صدر مرسوم بإسناد الحملة إلى القائد بونابرت الذي سارع يستعجل الإنجازات بحماسة كبيرة.. فكان إعجازاً في أسلوب التحضير والتنظيم، شدّ إليه إعجاب المواطنين وتقديرهم.

حشد نابليون في طولون، الأسطول وقادته وأمراء البحر جميعاً، ليديروا كامل آلة الإعداد بلا كلل أو ملل. وخلال عشرة أسابيع استطاعت الهيئة المكلفة بتأمين كامل لنقل (٣٠) ألف مقاتل مع أسلحتهم وخيولهم.

في ١٩ مايس انطلقت القافلة الطولونية لتلتقيها قافلتين بحريتين آتيتين من جنوة، ومن سيفيتا فيتشيا Civitavecchia. وفي ٩ حزيران وصلت الحشود البحرية جزيرة مالطة بتشكيل ضخم لم تعرف فرنسا مثيلاً له في ماضيها البحري. وتألف هذا الحشد من أسطول القتال الذي ضم (١٣) بارجة مسلحة بـ (١٠٨٤) مدفعاً، و (٦) فرقاطات و (١٨) سفينة حربية أخرى، ومن أسطول للنقل عدّ أكثر من (٣٠٠) سفينة، بينها العديد مستأجرة.

ابتسم الحظ لفرنسا، فالفارس سان جان حاكم مالطة كان يفضل البقاء على الحياد لولا الضغط الفرنسي، ووعود نابليون، وتظاهرات عسكرية تأثيرية جرت على سواحل جزيرته، جعلته في النهاية يرضخ، ويتخلى عن العاصمة فاليتا Valette ويضعها تحت تصرف البلد الغازي، علماً بأن

جزيرة مالطة مركز استراتيجي هام لتلك الحملة، وقد ظلت هذه الجزيرة تلعب دوراً هاماً في مسرح عمليات البحر الأبيض المتوسط في الماضي والحاضر وعبر جميع العصور.

جرى تنفيذ الحملة بسرية تامة اقتصرت على بضعة رجال من العاملين في القيادة وكبار رجال الأسطول، وأشيع بأن هذه الترتيبات قد أعدت لإرسالها إلى قادس في المحيط الأطلسي. ثم أشيع أيضاً بأنها إلى شبه جزيرة القرم، مروراً بصقلية. إلا أن جهاز التجسس البريطاني الواسع المعرفة على مدى السنين تنبأ مستنداً إلى بعض المدلولات عن الجهة التقريبية للحملة، ووجد بيت رئيس الوزراء أن من واجبه بعد استعادة البلاد لهدوئها الداخلي السعي لمعركة حاسمة مع فرنسا، تنهي هذه الحرب البغيضة الوئيدة والمسترسلة.

أوعز بيت في مطلع شهر نيسان للأميرال جيرفيه لدخول البحر الأبيض المتوسط بقوته البحرية، ليعيد تواجد إنكلترا فيه. وطالبه بالقيام بعمليات تأثيرية على إيطاليا والنمسا، ومد هذه العمليات حتى روسيا إن تطلب الأمر ذلك. إلا أن جيرفيه فضل متابعة حصار قادس لمنع عودة تلاحم الأسطول الإسباني بحليفه الأسطول الفرنسي من جديد، وفي الوقت نفسه عمل على تغطية الطريق البحري الموصل إلى إيرلندة، أو المؤدي إلى المستعمرات عبر المحيط. ولكي يحقق لبيت رغبته في تواجد إنكلترا في المتوسط أوفد في ٢ مايس معاونه نائب الأميرال نلسون على رأس ثلاثة بوارج لفتحة ميناء طولون، لمراقبة تحركات الفرنسيين والإعلام عنها، وعن أية معلومات أخرى تتعلق باستعدادات الغزو، وإعطاء إشارة بدء تحرك حملة نابليون. ولزيادة فعالية قوة المتوسط أوفد جيرفيه بتروبريدج مع (١١) بارجة للالتحاق بنلسون.. وبذلك وصلت المفرزة البريطانية في المتوسط إلى (١٤) بارجة تحمل (١١٣٦) مدفعاً.

في ١٧ نيسان شارف نلسون مدخل ميناء طولون، إلا أن عاصفة هوجاء هبت عليه واضطرته للتخلي عن موقعه في بحر مفتوح، واللجوء إلى سان بيير في سردينيا، وهو متأكد من أن الأسطول الفرنسي لن يخرج بمثل تلك الظروف الطبيعية القاسية.

وفي ٣٠ نيسان وبعد هدوء العاصفة عاد نلسون فوجد أن حملة نابليون قد انطلقت منذ (١٢) يوماً، دون أن يعرف لها وجهة محددة، ومعلوماته عن تحركها هزيل، وليس هناك سفينة كشافة تراقب خط سيرها.

أسرع نلسون باتجاه نابولي لعله يجد ضالته. ولما وصل مسينا في ٢٢ حزيران علم بأن القافلة الفرنسية تركت مالطة باتجاه الشرق فقـدّر أن وجهتها مصر.

اتجه نلسون إلى الساحل المصري ناشراً كل قلوعه ليلحق بالقافلة. ووصل في ٢٨ حزيران مشارف الإسكندرية، وأجرى اتصالاً معها، لكن أحداً لم يشاهد للقافلة أثراً فخاب ظنه، وأخذ يجوب المنطقة باحثاً دون جدوى. وأخيراً قرر التوجه إلى الآستانة.. وفي طريقه عثر على سفينة يونانية أعطته معلومات عن مشاهداتها للقافلة الحملة.

تابع الفرنسيون تقدمهم البطيء مواكبين سفن النقل تملؤهم ثقة بقوتهم، كيف ولا وبونابرت القائد الذائع الصيت على رأس حملتهم، ويقودهم دوماً من نصر إلى نصر. وهم يجهلون بالفعل وجود قوة نلسون في الجوار تطاردهم.

كادت تلتقي القوتان المتخاصمتان في مناسبتين اثنتين الأولى في ١٩ حزيران والثانية في ٢٢ منه، حيث بدت أعلى سواري السفن الفرنسية في أفق السفن الإنكليزية، دون أن يتم التعرف عليها، لأن الطريق الذي اختاره الأميرال نلسون هو الأقصر وفي محاذاة شواطىء السيرانيـيك (ليبيا). ولقربه من الشاطىء كان لا بد له من اتخاذ تشكيل متراص يجعل من قدرة تمييز سفن الخصم ضئيلة، بالنسبة لمدى وساحة رؤية الراصدين.

ابتعد برويز[(١٢٥)] Breuys عن الطريق الطبيعية، وارتفع حتى جنوب كريت، ليعيد تنظيم مواقع سفن قافلته، بعد أن اضطربت، بفعل ريح شمالية غربية قوية. ولما تم له ذلك توجه نحو الإسكندرية، فوصلها في الأول من شهر تموز. وعلى الفور أنزل الحملة حيث اتجهت في اليوم التالي مباشرة نحو القاهرة لتفاجىء قوات المماليك، قبل أن تنجح في التجمع، وتتأهب للمعركة المقبلة.

حصل أول صدام بين الغزاة والمدافعين في الرحمانية ٩ تموز. وصدام آخر في ١٣ منه وكانت آخر موقعة حدثت قرب أبواب القاهرة ٢١ تموز، وسميت بمعركة الأهرام وفيها انهزمت قوة المماليك. ورزحت مصر تحت الاحتلال الفرنسي.

تخلف برويز بأسطوله بضعة أيام في مياه الإسكندرية. ولما لم تكن هناك أوامر واضحة قرر حماية الجوار من جهة البحر ما دام أن المعركة الحاسمة مع المماليك لم تقع بعد. وفي الثامن من تموز سار بأسطوله ورسا في أبي قير، وعلى عدة فراسخ إلى الشرق من ميناء الإسكندرية.. وهناك قدم إليه نلسون والتقاه في الأول من شهر آب، بعد بحث طويل وشاق.. وكانت الساعة تقارب الثانية من بعد الظهر.

معركة أبي قير

أبو قير خليج مفتوح ساحله رملي طويل يمتد بجوار بحيرة ، يحميه من الغرب ذراع بري يمتد في البحر . ويحميه من الشمال جزيرة أبي قير نفسها . وقد حصنت اليابسة بعدة مدافع متوسطة العيار والمدى (مدفع من عيار (٣٦) ومدفعين من عيار (٨) على الذراع البري ، وستة مدافع من عيار (٦) على الجزيرة نفسها) .

رسا الفرنسيون في الخليج بشريط يمتد من الشمال شمال غرب إلى الجنوب جنوب شرق

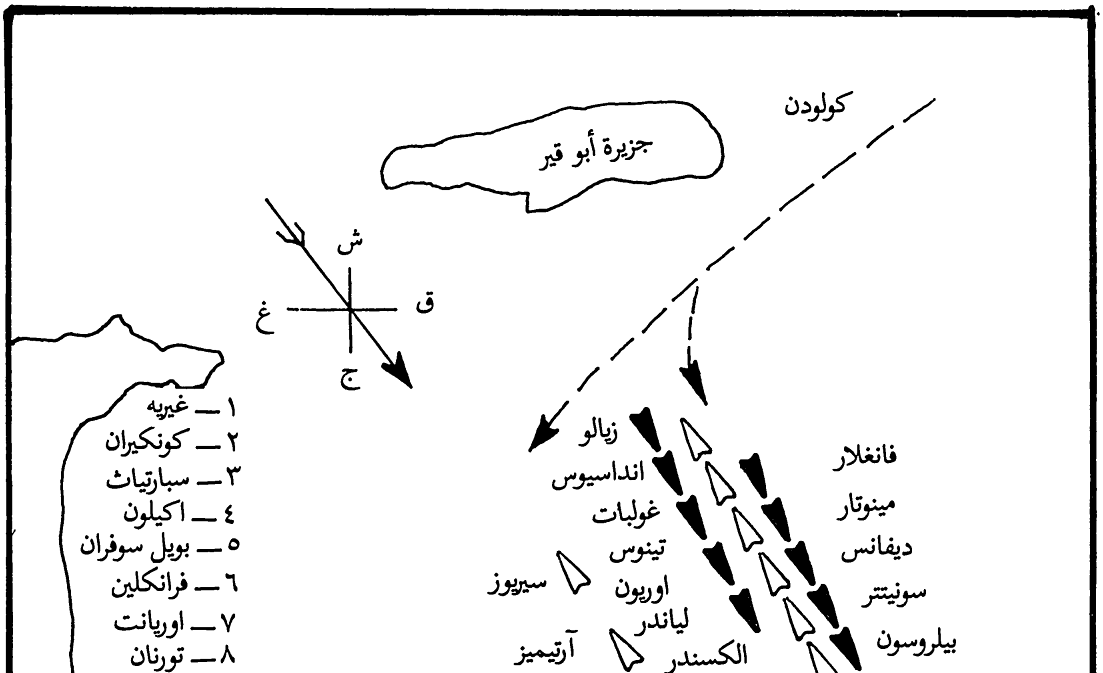

(انظر المخطط) ، وعلى مسافة ثلاثة أميال تقريباً من الشاطىء .. وجاءت البارجة الرأسية غيريه Guerrier على مسافة (٣٠٠٠) متر تقريباً من الجزيرة . ورست الفرقاطات والسفن الأخرى المرافقة داخل شريط الرسو من جهة الشاطىء .

ومرت الحياة رتيبة فزوارق التموين ونقل البحارة تصل السفن يومياً ، لتأمين الحاجيات ، ونقل المجازين إلى البر .

أهمل الأميرال الفرنسي ناحية الرصد البعيد، لإعطاء الإنذار المبكر. فلا مراقبة ولا سفن دورية، ولا أعين متقدمة تكشف المتسللين لداخل المنطقة.. وبالفعل فإن ظهور نلسون في الأفق فاجأ الجميع خصوصاً وأن أربعة آلاف بحار من أصل الـ (١١٠٠٠) عداد طواقم فرنسا كانوا في إجازة على البر.

في الساعة الثالثة نودي على دور القتال.. تلكأ العديدون في أخذ مواقعهم القتالية، لاعتقادهم بأن الإنكليز سيقاتلون في اليوم التالي.

عقد برويز اجتماعاً عاجلاً واستشارياً مع قادة سفنه، وناقش معهم ما يجب فعله، فاقترح أحد نوابه دو شايلا De Chayla الإقلاع الفوري ومنازلة نلسون في عرض البحر بسفن متحركة لا راسية. وكان الوحيد من بين القادة الذي طالب بذلك.. إذ عارضه الآخرون لغياب قسم كبير من المقاتلين على البر، ولعدم كفاية الموجودين للقيام بأعمال المناورة، وفي تطقيم المدافع في آن واحد.. والأفضل والحالة هذه قتال المهاجمين بسفن راسية من مواقعهم، واستخدام كل البحارة كسدنة للمدفعية، وكان هذا هو الرأي الذي اقترحه رئيس أركان التشكيل، وعاضده الأميرال ديكريه Decreé والأميرال فيلنوف Villeneuve.

عاد الأميرال برويز Brueys إلى نفسه، وقدر سلامة الاقتراح خصوصاً وجميع سفنه راسية على مرساتين رئيسيتين، وتبعد السفينة عن الأخرى مسافة لا تقل عن (١٥٠) متراً. وقد ثبتت المؤخرات بحبال غليظة لمنع السفن من الدوران حول نفسها بفعل الريح، وحجب بعضها البعض، وبالذات تعطيل جهات رمي مدافعها.

وضعت السفن الأضعف في مقدمة خط الرسو، لتدخل في نطاق تغطية بطاريات المدافع الساحلية الممتدة على صخور أبي قير، ولم يكن أمام نلسون الخيار، فهو لا يستطيع الاقتراب من السفن الراسية لقربها من البر، ولم يبق له إلا السفن الخلفية من الشريط، والتي اختيرت الأقوى تسليحاً من باب الحيطة.. أما الريح فكان اتجاهها شمالي غربي وبقوة نشطة.

تقدم نلسون فور وصوله ناسفاً كل توقعات الفرنسيين في أرجاء القتال لليوم التالي.. وأرسل مجموعة مشاغلة، وترك الباقي كسفن دعم.. واستغل الريح التي دفعته نحو سفن برويز الراسية، وتسلل بسفنه إلى جنوب الجزيرة دون أن يخشى صخورها العديدة، وقرر قتال سفن المقدمة (على عكس توقعات الأميرال الفرنسي) ماداً تشكيله حتى سابع سفينة فرنسية فقط، بحيث يفتح نيراناً

غزيرة ضمن أمد قصير، مخصصاً لكل سفينة فرنسية راسية سفينتين تقصفانها، تأتيها واحدة من المؤخرة والثانية من المقدمة. وكل غايته حصر المعركة بكامل قوته في سفن مقدمة شريط الرسو الفرنسي، دون أن يدع للسفن الراسية للخلف فرصة الاشتباك أو الاشتراك بالنيران أو تقديم العون.

سارت المعركة بدقة غير متوقعة، وجنحت سفينة إنكليزية واحدة على الصخور المنتشرة وهي البارجة كولودن Culloden. وكان ذلك بمثابة تحذير للآخرين، فراحوا يتجنبون المنطقة الصخرية الخطرة التي جنحت فيها تلك السفينة. ومروا جميعهم بسلام ينفذون الخطة كما رسمت لهم، ولم تصبهم قذائف مدافع البر لأن مداها أقصر من أن يطول خط سير المهاجمين.

بدأت المعركة بدخول (١٣) بارجة إنكليزية إلى الساحة تقصف بحممها سبع سفن فرنسية أقل منها تسليحاً وإعداداً (نقص في عداد الطواقم). وتقدم الكابتن فولي Foleyقائد البارجة غوليات Goliath وهو على رأس مجموعته فعبر المنطقة المحصورة بين الشاطىء المصري وشريط سفن فرنسا الراسية، وتقدم فرسا بمجموعته على بعد ميل واحد من خط عمق الستة أمتار في مواجهة السفن المعادية.

توجت مناورة القائد البريطاني الجريء بالنجاح، ثم تبعته أربع بوارج أخرى فحاكته في المناورة، وجاءت تشترك معه في صب قذائفها من الجانب الأيسر (رمي على السفن الفرنسية من الجانبين) وعدلت تلك المناورة الجريئة خطة نلسون الأصلية إلى الأفضل، إذ وضعت السفن الفرنسية بين فكي نيران كثيفة، لا تستطيع الفرار بفعل مراسيها، في حين كان المهاجمون يقاتلون بالنار والحركة، حتى وجدوا أفضل المواقع القتالية، فرسوا بمرساة واحدة من المقدمة، وأخرى من المؤخرة، ليستعرضوا سفن الخصم التعيسة في وجهات تعبوية ثابتة.. ففي الساعة السادسة والنصف كانت سبع سفن فرنسية تتلقى قذائف (١١) بارجة إنكليزية بلا انقطاع.

في الثامنة والنصف خرجت البوبل سوفران Peuple Souverâin من الشريط (وهي بارجة قديمة ضعيفة التسليح) بعد أن قطعت أربطتها ومراسيها، وتركت موقعها منفلتة تهتز بفعل دوي مدافعها، وسرعان ما تبعتها بالأسلوب نفسه البارجة كونكيران Conquerant.

قاتلت السفن الفرنسية بشجاعة فائقة، واستطاعت الـ أوريان Orient وبيلرفون Bellerophon ترك المعركة والجنوح على البر خشية الوقوع في الأسر، لحقت بالأوريان اليكسندر Alexander وسويفتسور Swiftsure تصبان عليها الحمم، حتى شبت عليها النيران، وفجأة وفي الساعة العاشرة

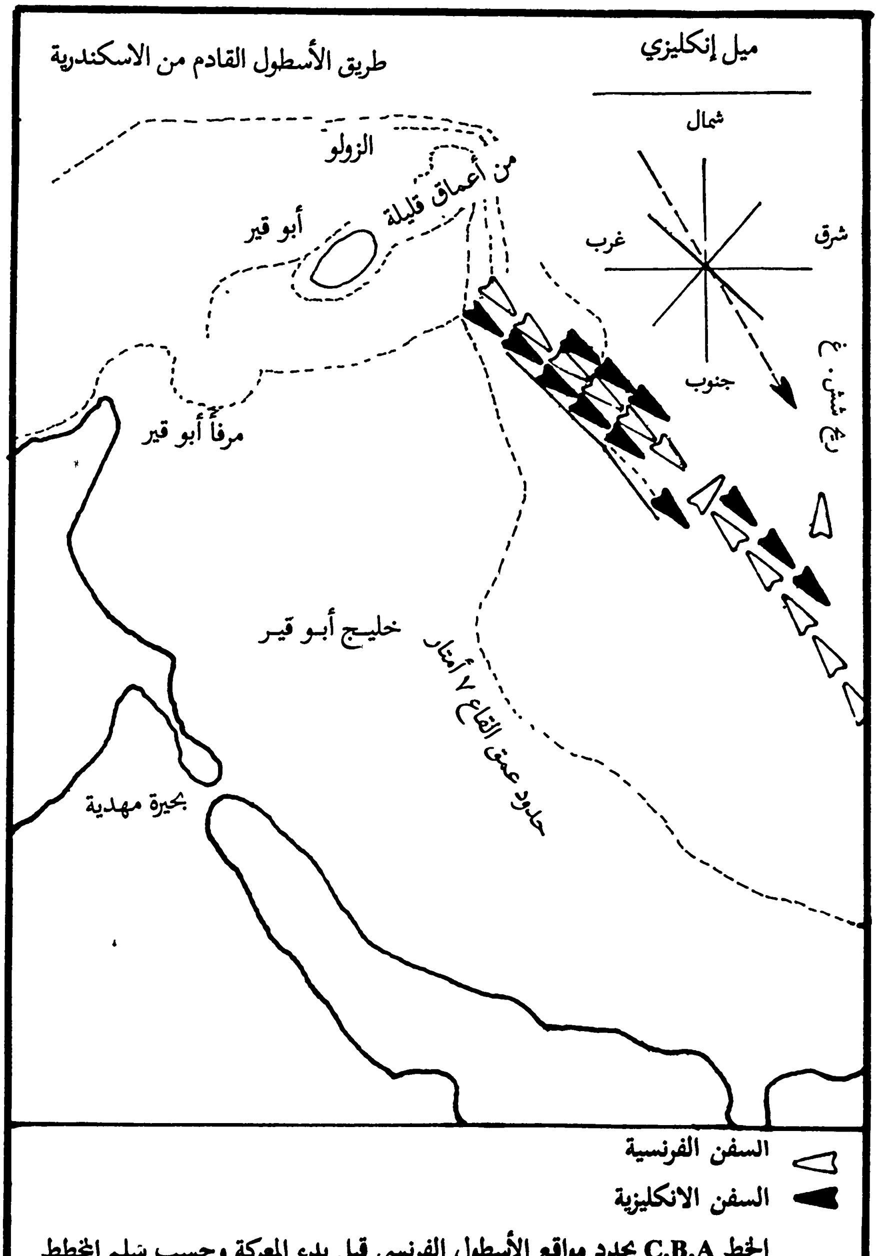

معركة أبو قير الساعة الثامنة مساءً

وخمس دقائق انفجرت وتناثرت شظاياها الملتهبة في الجو لتسقط تلك الشظايا على جاراتها من السفن.

أصيب الأميرال الفرنسي برويز بثلاثة جروح بليغة دون أن يترك موقعه في المعركة. وظلت أصوات المدافع تدوي محتدمة حتى بعد هبوط الظلام.. وبنظام عجيب[1] استطاعت السفن الإنكليزية الحركة. وقد نورت سواريها بأربعة أنوار لتمييزها عن سفن الفرنسيين. وتابعت الرمي حتى منتصف الليل، وأعطبت في أثناء ذلك البارجة فرانكلين بارجة الأميرال دو شايلا، وأجبرت على الاستسلام، في حين صمدت باقي السفن الفرنسية في مواقعها حتى تقطعت أربطتها ومراسيها، وتركت نفسها تجنح بفعل الريح نحو عمق الخليج.. وانتهت المعركة بعد منتصف الليل بقليل.

١

خلال الساعات الأربع الحاسمة التي دمرت فيها سفن المقدمة .. بقيت السفن الخلفية راسية لا تميز من المعركة إلا وميض المدافع وأصوات الانفجارات ، وقد حافظت على مواقعها بانتظار أوامر القائد العام التي لم تأت ، والذي كان غارقاً في خضم معركة غير متكافئة ، وأمام خصم قوي وعنيد . وعندها قرر فيلنوف بمبادرة شخصية منه ، وهو قائد المجموعة الجنوبية (وبعد أن وضحت له بعض معالم ما يجري) الإقلاع ، وبالفعل اقترب من ساحة المعركة ، ودخلها فاتحاً نيران مدافعه ومدافع السفن التي تحت إمرته في الساعة الثالثة صباحاً . وهكذا عاد دوي القصف ولمعانه من جديد مع ساعات الفجر الأولى . وما إن انبلج الصبح حتى توضحت كامل الصورة ، ولم يعد هناك إلا أربع رايات فرنسية تخفق على أربع بوارج . وجنحت التينوليون على الصخور ، وأمر قائدها بإشعال النار فيها ، وتفجيرها ، لئلا تقع في أيدي الإنكليز ، ثم التونان Tounant والتي قاتلت بشراسة طيلة ساعات الليل ، وما إن طلع عليها نور الصباح حتى بدت كطوف كبير عائم (جزت كل سواريها) تنفذ المياه إليها من كل حدب وصوب .. واستسلمت هي الأخرى ، ولم يسلم من المعركة إلا بارجتان وفرقاطتان كان عليهما الأميرالان فيلنوف وديكريه حيث تسللتا في ظهيرة الثالث من الشهر تنشدان مخبأ في كورفو أو مالطة .

كانت معركة أبي قير يوماً مشؤوماً في تاريخ فرنسا ، فمن أصل (١٣) بارجة غرقت ست واستسلمت خمس .. وخسائر الرجال فادحة ، قتل خلالها (١٧٠٠) رجل وجرح (١٥٠٠) وأسر (٣٠٠٠) ، في حين لم يخسر البريطانيون أية سفينة واقتصرت الخسائر في الرجال على (٢١٨) قتيلاً و (٦٧٧) جريحاً ، وبضع أضرار مادية قابلة للإصلاح .

خلد يوم أبي قير في تاريخ بريطانيا البحري فهو يوم مشهود . ناور وقاتل فيه كافة رجال أطقم السفن بكفاءة عالية ، وتنسيق بديع ، برهنوا فيه عن مستوى قتالي جماعي رفيع .. وكما أراده نلسون وقادة مجموعاته . وقد اعتبر هذا اليوم يوماً مشهوداً قال فيه الأميرال هاو :

« إنه نصر لا يقارن ، حيث أدى كل قائد سفينة قسطاً من هذا المجد العظيم » .

في اليوم التالي من النصر ، أوفد نلسون ضابطاً إلى الهند عن طريق الإسكندرية براً ، لينذر نائب ملك الإنكليز هناك اللورد مورنينغتون Mornington بما جرى في مصر ، وبالتوقعات المحتملة ، خصوصاً وإنكلترا لا زالت في حرب طويلة مع سلاطنة الهند .

على الجبهة البرية .. وجدت جيوش فرنسا نفسها محصورة رغم الانتصارات البرية العديدة فمعركة أبي قير قضت على أسطولها في المتوسط ، إذ لم يتبق لها إلا ست بوارج من أصل فينيسي قديم وعدة فرقاطات ضعيفة التسليح ، في حين عاد الخصم أفضل ما يكون قوة ، سيداً للمتوسط لا ينوي

التخلي عنه ثانية ، وبدأ في تنفيذ شروط سيادة هذا البحر ، ومنها مراقبة نشاط مرفأ طولون البحري ، ثم احتلال مينوركا الاستراتيجية الموقع في ١٥ تشرين الثاني (١٧٩٨)، وكذلك تعزيز أسطول سوماريز Saumarez بأسطول الماركيز نيزا Nizza البرتغالي والطلب إليهما ضرب حصار محكم بالبوارج القوية حول جزيرة مالطة .. بعد أن امتنع عليها احتلالها لحسن تحصينها وللمقاومة التي أبداها الجنرال فوبوا Vaubois وحاميته الفرنسية هناك .

في أثناء ذلك عبر أسطول روسي بإمرة اوتشاكوف Outchakoff ممرات الدردنيل ودخل المتوسط ، وانتزع كلاً من كورفو Corfou وانكونا Ancône من أيدي الفرنسيين تشرين الأول (١٧٩٨). وبذلك خسرت فرنسا آخر نقاط استنادها بين طولون والإسكندرية . وهذا يعني انقطاع إمداد جيش مصر بالرجال والعتاد ، وتحويل هذا الجيش الفاتح إلى جيش يفتقر إلى الإمكانات . ضعيف يتفادى الصدام على الجبهات البرية ، وخاصة الجبهة الشرقية المهددة له ، بعد أن دخلت تركيا فعلياً عملية الصراع معاونة المدافعين عن أرض الكنانة في طرد الفرنسيين الغزاة .

لم ينتظر نابليون وصول الجحافل التركية ومقاتلتهم على أرض مصر بل فضل بما عرف عنه من جرأة وحب مغامرة التقدم إلى سورية شباط (١٧٩٩) ليحتل أراضيها . وكانت هدفاً من أهداف حملته ، وبالتالي للقاء الأتراك في سهولها ، قبل أن ينضموا إلى حلفائهم المقاومين في مصر .. فيصعب قتالهم .

تلك كانت الغاية من زحف بونابرت على سوريا ، وليس كما أطنب وأشاع بأنه سار بجيوشه ليشبع طموحاته في تهديد الأستانة وإسقاطها ، ثم الاستدارة مستقبلياً لفتح القارة الهندية . وكيف له أن يفكر بذلك الحلم العظيم ، وجيشه قليل العدد يفتقد للعدة ؟.

انتصر نابليون في العريش والناصرة ، لكنه توقف أمام أسوار عكا القوية لغياب مساندة مدفعية الأسطول له . ومع أن نائب الأميرال الفرنسي بيريه Perrée أقام عدة مدافع قوية لضرب تلك الأسوار إلا أنها لم تكن بالكفاءة التي تستطيع خرق جدران عكا وتحصيناتها ، خصوصاً بوجود فيليبو داخل الأسوار ، ينظم ويقاتل مع المدافعين ، ووجود الكومودور سيدني سميث خارجها (من جهة البحر) يقدم الحماية البحرية لها .. وكان لا بد لنابليون من أن يتراجع وينسحب بعد أن وصل الجيش التركي الكبير .. وبذلك تخلى عن القسم الجنوبي من سورية في ٢٠ مايس (١٧٩٩) وقفل راجعاً إلى أرض مصر .

سيدني سميث الكومودور الغريب الأطوار الذي ساند عكا من البحر ، عاد بعد شهرين يقاتل الأتراك حلفاء الأمس ، وفاجأ أساطيل العثمانيين في مرفأين اثنين على الساحل السوري ، وطرد وحداتهم البحرية منها . وكانت تعد (١٤) بارجة ، وما يزيد عن (١٠٠) سفينة نقل ١٤ تموز . وقد تزامن ذلك مع اندحار الجيش التركي الذي ضم (٢٠) ألف مقاتل على شواطىء أبي قير ، إذ لم يستطع كمال باشا الروملي قائد ذلك الجيش الصمود طويلاً أمام هجمات قوات نابليون . وتمزقت جيوش تركيا النازلة على البر فلولاً هربت إلى داخل مصر ، واختفت فيها . إلا أن نصر بونابرت هذا لم يعطه أي كسب تعبوي ، وهو يرى جيشه يذوب إرهاقاً وتعباً . وكل الخطأ في ذلك غياب أسطول بحري قوي هو وحده يستطيع إمداد هذا الجيش بالعتاد والرجال .. ولو تعمقنا في أسباب متاعب نابليون الحقيقية لوجدناها تتلخص بالتالي :

ربما كانت قوات فرنسا البرية قادرة على حربها الطويلة في مصر ، لكن مغامرة بمثل هذا الاتساع ، طموحة إلى هز عرش الآستانة ، ولربما إلى التسلل إلى الهند من بابها الخلفي ، لا يمكن أن يكتب لها النجاح ، وبحرية فرنسا وحلفائها غير قادرة على تأمين الحاجيات الدنيا لهذه الحملة . والوصف الحقيقي لهذه الحملة أنها كانت مغامرة متهورة ، اعتمدت العاطفة وأهملت الإمكانات . وقد تصلح رواية من قصص المغامرين ، لم تخل من لوحات عاطفية شعرية .. أما ما قام به بونابرت بعد هزيمته في أبي قير ، من زحف على سورية ، فليس له أي تفسير سياسي أو عسكري ، بل هو تحفظ متهور غير مدروس لجيش أطبق عليه حصار كبير وهو في خضم أزمة حربية ، كان أجدى له الحفاظ على جنده كقوة في الحوزة ، يستخدمها في نجاته من مصر ، ومن الورطة التي أوقع بلاده فيها .

وهكذا كانت حملة مصر ، كارثة مطلقة لفرنسا ، ونعيماً أعاد الآمال للحكام اللذين عانوا من ثورتها ، والذين يترقبون ساعة خلاصهم من كابوس مقيت هز عروشهم ، وقلصّ سلطانهم ، وإن ظهور الأميرال نلسون أمام شواطىء نابولي في ٢٢ ايلول كان بمثابة إشارة لعصيان الملوك المخلوعين ، وتحرك ضد الجمهورية الثورية .

وبالفعل زحف الجنرال النمساوي ماك[١٢٦] Mack باتجاه روما ، وساعده نلسون في نقل مقاتليه بحراً ، وإنزالهم في أرض توسكان . وهناك فاجأوا القوات الفرنسية المقيمة واضطروها للتراجع لبضعة أيام ، حتى استطاع القائد الفرنسي شابيونيه إعادة تجميعها وإعدادها . ثم شن هجومه المضاد الكبير فدحر النمساوي ماك ، ففر الملك وانتقل فصعد إحدى سفن الأسطول الإنكليزي المرابط أمام

نابولي. وبهروب الملك في ٢٣ كانون الثاني نودي بإقامة جمهورية البارتينوبيين Parthenopéenne وهو إعلان بتحرير كامل الجزيرة الإيطالية.

في إنكلترا حرض بيت عدو فرنسا مستشار النمسا وأمده بالأموال الوفيرة لقتال الفرنسيين. وبالفعل استدعت النمسا الاحتياط من قواتها، وأعدتها نفسياً للحرب، مترقبةً فرصة مواتية لذلك. أما في روسيا وفي عهد كاترين فكان الشعور العام راضياً عن انتصارات فرنسا، مع مراقبة لمراحل تقدم ثورتها «بكره بلاتوني». والملك الشاب بول الأول ابن كاترين كان معارضاً لموقف والدته، ويرى نفسه أنه فارس أوربة وحامي عروشها. لذلك لم يتوان برغم معارضة أمه له عن إمداد حلفائه بالعديد من الأفواج العسكرية العاطلة عن العمل، بعد سحق بولونيا، وإقامة السلام مع تركيا.

ما إن هلّ ربيع عام (١٧٩٩) حتى كان التجمع المضاد لفرنسا وثورتها قد استكمل إعداد نفسه. وكان يضم كلاً من إنكلترا، روسيا، النمسا، نابولي، وتركيا، ولديه جيش يزيد عن نصف مليون مقاتل، في حين أن كل ما لدى فرنسا كان (٢٠٠) ألف مقاتل فقط، في ظل حكم المديرين، العهد الذي بدأ يفقد شعبيته.

بدأت المناوشات العسكرية مع مطلع شهر آذار. وسرعان ما اشتعلت كامل الجبهات في آن واحد. وسلكت فرنسا مسيرة صعبة تعاقبت فيها المصائب العسكرية بسرعة مذهلة. ففي إيطاليا استطاع الروسي سوفارو Souvarow طرد الفرنسيين بعد هزيمة شيزر Schézer في مانيانو Magnano (٥ نيسان) ومورو[١٢٧] Moreaw في كاسانو (٢٨ نيسان)، ومكدونالد[١٢٨] Macdonald في تريبي (١٩ حزيران)، وجوبير Joubert في نوفي (١٥ آب).

استرجع الحكم القديم كامل سلطاته في ميلانو وتورينو، وفي الشمال. وانضم ماكاروف الروسي إلى دونكان الإنكليزي، ونزلا سوية في سهول هيلو بهولندا، فاستقبلا بالترحاب يوم ٢٠ آب، ثم استسلم الأسطول المقيم في تيكسيل Texel، وكان يضم (٨) بوارج، مما اضطر الجنرال برون[١٢٩] Brune للتراجع حتى لاهاي، تتبعه جموع الفلاحين الكاثوليك. وهكذا هددت أرض بلجيكا من جديد، وغدت كل حدود فرنسا مكشوفة أمام غزاتها، وبيت مواظب على تشجيع القادة والجنرالات بمختلف الوسائل والإمكانات، يحث خطاهم نحو باريس لإسقاط الحكم هناك، في غياب نابليون عن البلاد.

تقاعس المسؤولون في باريس عن اتخاذ خطوات لوقف التدهور السريع . وقد قال الأرشيدوق شارلز ، وهو أحد أعضاء التجمع الأوربي :

« أي سعادة نحن فيها ، ونابليون بعيد في مصر »

كان لا بد من عودة سريعة لفاتح إيطاليا ، وبطل فرنسا الشعبي نابليون ، إلا أن أسطول المتوسط شبه مفقود ولا بد من استدعاء أسطول المحيط ، وبالفعل حضر برويكس Bruix وزير البحرية بنفسه إلى برست ، وقرر الإقلاع بهذا الأسطول بعد أن قبع سنتين في مرساه والإنكليز يحاصرونه .

استطاع برويكس إعداد (٢٧) بارجة بوقت قصير ، وخرج بمناورات عدة ، مع نشر معلومات خاطئة مربكة ، جعلها تقع في يد الإنكليز لتضليلهم . وتحين فرصة عاصفة قوية ، رياحها شرقية شديدة ، أبعدت الأميرال برايدبورت عن الشواطىء الفرنسية ، فنفذ برويكس إلى المحيط يوم ٢٦ نيسان (١٧٩٩) ، واتجه جنوباً ، في حين اعتقد الأميرال الإنكليزي أن عليه الإسراع نحو الشاطىء الإيرلندي ، ليجنبه عملية إنزال فرنسية جديدة أوهم بها ، بالمعلومات المضللة التي وصلته .

تابع برويكس بتشكيل برست تقدمه جنوباً بعيداً عن الشاطىء ، محاولاً دخول المتوسط بشكل مفاجىء . والعقبة الوحيدة أمامه هي مجموعة اللورد جيرفيه والأميرال كيت اللتان تحاصران قادس ، وتراقبان ممر جبل طارق .

عند اقتراب التشكيل الفرنسي وتمييز وحداته اتضح لجيرفيه أنه لا يملك القوة الكافية لاعتراضه ، فابتعد مع الأميرال كيت(١٣٠) عن دربه . وهنا استغل مازاريدو المحاصر في قادس الفرصة . وخرج ليدخل المتوسط هو أيضاً ، ولينضم لتشكيل برويكس ، ليصبح تعداد التشكيل الفرنسي الإسباني (٤٠) بارجة تحمل (٣٣٤٢) مدفعاً . وعادت الكفة في المتوسط فمالت لجهة الفرنسيين ، بعد أن تفرقت القوات الإنكليزية لمجموعات عدة ، لا وزن قتالي لها ، تتألف كل مجموعة من ثلاث أو أربع بوارج موزعة في قبرص ومصر ونابولي ومالطة ومينوركا .

عاد الفرنسيون يصلحون شأنهم في المتوسط ويستعيدون مينوركا ، وينقذون مالطة ، ويزودون جيشهم في مصر بالعتاد والمواد التموينية .

لقي برويكس مصاعب جمة من أسطول إسبانيا المرافق ، الذي كان يعاني من أعطال كثيرة

نتيجة حصاره الطويل. وأصبحت أكثر من عشر سفن بحاجة لصيانة وإصلاح. فقرر القائد الفرنسي، وهو الحريص على وحداته، دخول طولون في ٢٠ مايس. وأوفد بضعاً من سفنه القوية لمساندة الجبهة الإيطالية بحراً، ودعم الجنرال مورد في معاركه البرية الهادفة إلى دفع سواره إلى وراء نهر البو.

وجد الإنكليز في أثناء ذلك أن الظروف الجديدة تحتم عليهم إعادة تجميع وتوزيع قواتهم. فقرروا استدعاء الجميع طالبين منهم التخلي عن كل المهام الثانوية، والالتحاق في مركزي تجمع رئيسيين، الأول في رأس سان سيباستيان بإمرة الأميرال كيت، والثاني قرب جزيرة مارتيم (صقلية) بإمرة الأميرال نلسون. وهكذا أصبح التواجد الإنكليزي في المتوسط يصل إلى (٦٠) بارجة. وخشي على أثرها برويكس من أن يحاصر في ميناء طولون، فأقلع باتجاه المحيط، يستدرج الأميرال جيرفيه، ليبعده عن مهمته في مساندة القوات البرية في الجبهات الساحلية، ويوهمه بأنه متوجه إلى السواحل البريطانية أو الإيرلندية، حيث بدأت حوادث تململ وشغب هناك. وهكذا استطاع برويكس الانتقال إلى المحيط وجيرفيه يسعى في أثره. واتجه نحو برست، حيث دخلها في ١٣ آب، وبرفقته الأسطول الإسباني، بعد قضاء أربعة أشهر في البحر، لم يحدث خلالها أي صدام بحري يذكر.

في أثناء ذلك انتقل بونابرت إلى فرنسا. وعاد المتوسط من جديد بحيرة بريطانية وتوجه نلسون إلى مشارف نابولي البحرية حيث تدور معارك دامية يقودها الكردينال روفو محاولاً إعادة حكم النظام القديم.

اتصفت أعمال قوات الكردينال بالوحشية والعنف، ففضل الأميرال نلسون عدم التدخل، لبشاعة ما يحدث من انحراف وقسوة. إلا أنه قد أخذ عليه فيما بعد قبول إعدام الملك كاراكسيولي[١٣١] Caraceioli الجمهوري شنقاً، على أحد سواري فرقاطة إنكليزية، من عداد أسطوله، بعد محاكمة علنية سريعة.

انهارت المقاومة في إيطاليا، فتقلص تواجد فرنسا بها، ماعدا جنوة، ومن ثم مسينا اللتين صمدتا بشكل يسترعي الانتباه والإعجاب أمام الحصار الذي ضربه النمساويون والإنكليز في العام الذي تلا.

بونابرت قنصل فرنسا

بعد معركة أبي قير تأكد لنابليون أن مكانه يجب أن يكون في فرنسا. وفي ٢٤ آب استطاع نائب الأميرال غوتوم Gauteaume الإقلاع به من الإسكندرية، لينقله إلى فريجوس (على ساحل فرنسا الجنوبي)، حيث وصلها في ٩ تشرين الأول. وفي ١٦ منه وصل باريس. وبعد شهر تقريباً، وبالتحديد في التاسع من تشرين الثاني حمله الانقلاب الذي حدث آنذاك إلى مرتبة قنصل أول. وبدأ نابليون إعادة تنظيم ما ارتبك من شؤون البلاد وبإعطاء فرنسا حكماً ثابتاً ومتشدداً في وجه أوربة الملكية، وتعاقبت الأحداث كما يلي:

تباطأ الإنكليز والروس في تقدمهم عبر الأراضي الهولندية، مما سنح للقائد الفرنسي هناك الجنرال برون فرصة إعادة تنظيم قواته، ليخوض بها معركة بيرغن Bergenفي ١٩ ايلول، ومعركة كاستريكوم Castricum في ٦ تشرين الأول. وانتهت المعارك بتوقيع اتفاقية الكمار Alkmaar في ١٨ تشرين الأول. وكان القائد الإنكليزي سعيداً جداً في توقيع هذه الاتفاقية التي جنّبته الوقوع في الأسر.

استطاع ماسينا[١٣٢] Masséna في الجبهة الوسطى، وإثر عدة معارك ناجحة آخرها حول زوريخ في ٢٦ ايلول تدمير قوات كورساكو Korsakow وسوارو Swarow. واستطاع إيقاف الزحف الروسي النمساوي. وبذلك أمنت فرنسا جبهتها الشرقية، ولم يبق عليها إلا بدء الهجوم.

في إيطاليا ١٤ حزيران (١٨٠٠) طرد مارنغو Marengo آخر القوات النمساوية من كل فرنسا. ولم تنفع محاولات بريطانيا السياسية في تحريض الحكام ولا في محاولاتها الستراتيجية في إنزال قوات على السواحل الفرنسية أو الإسبانية لدعم حلفائها. ولما شارف إمبراطور النمسا على الانهيار لم يجد بديلاً عن المفاوضات، فطلبها من نابليون الذي وافق دون تردد معتقداً أن بالإمكان جر بريطانيا لها فيما بعد، لعله يجد منفذاً ينقذه من ورطة حملة مصر، أو على الأقل يمكنه من إقامة هدنة طويلة يستطيع خلالها تموين وتزويد جيشه هناك. وقد كان بإمكان وزارة سان جيمس البريطانية ترك فرنسا سيدة القارة الأوربية، لكنها لا تسمح أبداً بإعطائها المتوسط أو طريق الهند.. لذلك رفضت كل هدنة بحرية، مهما كان أمدها، واستمرت في عملياتها البحرية.

تردد إمبراطور النمسا في دخول المفاوضات لوحده، دون شريكته إنكلترا، إلا أن هزيمته في ٣ كانون الأول قرب هوهنلندن HohenLinden قد جعل الطريق إلى فيينا مفتوحاً. واضطر إلى قبول

المفاوضات منفرداً متخلياً عن الحليفة إنكلترا. ووقع معاهدة الصلح في لينفيل Luneville، وتخلى بها عن كل إيطاليا الشمالية.

بقيت إنكلترا في نزاعها مع فرنسا وحيدة. وفي اليوم التالي من تسلم نابليون منصبه كقنصل أول نادى باسم الإنسانية مخاطباً البرنس ريجنت، يطالبه بحقن الدماء، وإعادة الوئام بين الدولتين الكبيرتين، مع تناسي أحقاد الماضي. لكن حكومة إنكلترا لم تكن لتؤخذ بهذا الكلام، خصوصاً بعد أن تبين لها رغبة نابليون في الاحتفاظ بمصر، وهي العازمة على إخراجه منها ومن المتوسط. فهذا البحر يجب أن يبقى بحيرة إنكليزية، في حين يرى نابليون في مصر ثمرة لفتحه، وعليه الحفاظ عليها لأنها رمز بداية مسيرته التوسعية.

غادر نابليون مصر بعد أن تركها بين أيدي كليبر Kleber مهـددة بغـزو مشتـرك عثماني إنكليزي. وكانت مهمة شاقة على خليفته في ظرف تناقصت فيه الإمكانات العسكرية. ففي تشرين الأول من عام (١٧٩٩) نزل جيش تركي جديد في دمياط فصدّه الجنرال فيرديـيـه Verdier، وأعاده إلى البحر. وأعقب ذلك حملة هندية إنكليزية قدمت من الجنوب، عبر البحر الأحمر، فتصدى لها كوسيير Kosseir. ومع نهاية العام حدث الاجتياح الكبير. وقبل كليبر بامتنان عرض سيدني سميث، ووقع اتفاقية العريش ٢٨ كانون الثاني (١٨٠٠) موافقاً على إخلاء مصر. حيث تنتقل قواته إلى فرنسا على سفن إنكليزية.. لكن الحكومة البريطانية أصرت على إظهار ذلك وكأنه رحيل جيش مهزوم، وطلبت من الأميرال كيت عدم تنفيذ بنود الاتفاقية، واعتبار الجيش الفرنسي أسرى حرب. وكان جواب كليبر[١٣٣] «لا»، ورد الامتهان الذي أصابه بنصر على خصومه في ١٩ آذار قرب هيليو بوليس.

في ١٩ حزيران اغتيل كليبر على يد أحد المواطنين (سليمان الحلبي)، فآلت القيادة للجنرال مينو[١٣٤] Menou الذي وجد أن الأمور تزداد سوءاً، والاستعدادات الحربية الإنكليزية لطرده وجيشه من مصر تجري على قدم وساق. فتساءل: إلى متى يستطيع الصمود؟.

أعدت إنكلترا حملة ضخمة جمعتها في جزيرة ويت، ثم أقلعت بها زاحفة ببطء. وقد استخدمت خدعاً بحرية عدة لتضليل الفرنسيين. وفي ربيع عام (١٨٠٠) وصلت الحملة إلى مصر. وكانت تضم (٢٢) بارجة و (١٣٩) سفينة نقل. وفي ٨ آذار أنزل (١٦) ألف مقاتل في أبي قير وفي الوقت نفسه تجاوز (٢٥) ألف مقاتل تركي السويس، بالإضافة إلى الجيش الهندي

الزاحف من الجنوب . وانقسم الجيش الفرنسي المدافع إلى قسمين تراجع الأول نحو القاهرة ، وتراجع الثاني نحو الإسكندرية . وفي أثناء ذلك جرت عدة محاولات لإمداد بحري دون جدوى ، كان آخرها محاولة الأميرال بيريه ببارجة وعدة فرقاطات ، لكن نلسون تصدى له قرب لامبدوس[١٣٥] Lampedouse ودمرها .

حاول أسطول برست في ٢٦ كانون الثاني مدّ حملة مصر بـ (٥) آلاف مقاتل ووصل السواحل المصرية في ٧ حزيران ، لكن كيت لم يترك له الوقت لإنزال المقاتلين . وما إن ظهر الأسطول الإنكليزي في الأفق حتى غادرْ الأسطول الفرنسي (وكان يضم ٧ بوارج فقط) مبتعداً وعاد فدخل طولون في ٢٢ تموز .

لقد وضح عجز الفرنسيين بحرياً في كل مكان ، وخصوصاً بعد فشل عدة محاولات جريئة لم يكن لها أي أثر تكتيكي .

في نهاية عام (١٨٠٠) قام تجمع بحري جديد ضم بروسيا وروسيا ، بالإضافة إلى السويد والدانمرك . ونشطت الحركة في الموانىء الحربية ، وبدا وكأنّ حرباً بحرية جديدة ستبدأ . وانضم اتحاد الشمال هذا إلى فرنسا وحلفائها لمقاتلة المملكة المتحدة البريطانية .

قامت استعدادات بحرية ضخمة في كل مكان من مرافىء المجموعة الجديدة ، ودب نشاط غير طبيعي في دور صناعة السفن ، وخاصة في كرونشتاد وكارلسكرونا وكوبنهاغن ، على أمل تحقيق خطة لبناء (٥٠) بارجة حديثة ، وإنزالها إلى البحر قبل البدء بقتال الإنكليز .. وما إن انتهت الإعدادات حتى قام الدانمركيون فاحتلوا هامبورغ أكبر مرافىء بريطانيا التجارية في الأراضي الألمانية ، ثم دخل البروسيون هانوفر قادمين من الجنوب ، وكذلك بدأ الفرنسيون تحركهم من الغرب .

إثر ذلك تم في مدينة سان بطرسبرج (لينينغراد) وضع خطة قتالية كبيرة غلب عليها طابع الخيال ، وفيها يطلب بول الأول[١٣٦] قيصر روسيا من بونابرت أن يرسل له Masséna على رأس (٣٥) ألف مقاتل فرنسي ، سينضم إليهم العدد نفسه من المقاتلين الروس ، يتجمعون في تساريشين على نهر الفولفا ، ليزحفوا في سهول آسيا الوسطى ، ويهاجموا الهند ، لتدمير وجود إنكلترا فيها .

وكما يلاحظ فالاعتماد كله على بونابرت والذي كاد أن يغيب عن الساحة في محاولة لاغتياله ٢٤ كانون الأول (١٨٠٠) كما كان بالإمكان حدوث أمر مشابه لحليفه الأمين التسار بول الأول ، عدو الأرستقراطية الروسية التي تعيش عالة على الشعب ، ببذخ وبحبوحة وفرّتهما التجارة مع

الإنكليز. وكان من الطبيعي أن يكره الروس محاربة مورد ثرواتهم، ولا بد لهم من أن يفعلوا شيئاً ليوقفوا تهور تسارهم (قيصرهم).

وكانت ثمة برقية عاجلة وردت في ٢١ آذار تدعو بروسيا لبدء العمليات الحربية دون تلكؤ أرسلها وزير القيصر الكونت بانين(١٣٧) Panine وأتبعها بملحق برقي يقول:

«صاحب الجلالة منحرف الصحة اليوم وهذا قد ينتج عنه أحداث».

في الليلة نفسها اغتيل بول الأول من قبل ضباط حرسه، وانتقلت السلطة إلى ابنه الإسكندر الشاب، الأداة الطيعة لكبار رجال الدولة الروسية المهيمنين على التجارة الخارجية.

وجدت إنكلترا فرصتها في الإسراع بكسر هذا التجمع الجديد ضدها. وقررت القيام بخطوات في هذا المضمار. وكانت ربما حققت خطوة كبيرة لو أنها استمعت إلى الأميرال نلسون الذي طلب إرسال عمارة (أسطول) بصورة فورية لمقاتلة الروس في مياههم مستفردين. ومما يروى عن نلسون قوله آنذاك:

«إذا قطعت الجذع، تسقط معه الأغصان، أما إذا قطعت الأغصان فلا بد لي من أن أنتهي بقطع الجذع وهنا تكون قد ضعفت قواي، وأنا أنجز العمل الأهم».

أهملت بريطانيا مطلب نلسون، واعتبرت إرسال أساطيلها إلى خلجان بحر البلطيق تاركة وراءها أساطيل أعدائها الآخرين، عملاً غير حكيم. ولقي اقتراح نلسون المعارضة الشديدة، وخاصة من الأميرال باركر(١٣٨) Parker القائد العام للبحرية البريطانية الذي كان يرى مباشرة العمليات الحربية ابتداءاً من الدانمرك البلد الصغير.

وبالفعل تلقت الدانمرك وأسطولها الذي لم يستكمل عدته بعد (انتظار طواقم وعدد من النرويج) الضربة الأولى. ففي ٢ نيسان عام (١٨٠١) ظهر الأسطول الإنكليزي على مشارف كوبنهاغن، وأرسل إنذاراً لحكومة الدانمرك يطلب منها ترك المعبر وإعلان حرية سلوك المعابر البحرية الأخرى، والتخلي الفوري عن كل ارتباط بحلف الحياد المسلح (التجمع الأوربي الجديد).

رفضت الدانمرك بإباء الإنذار البريطاني، وقررت الدفاع عن عاصمة البلاد المحصنة تحصيناً جيداً، وخاصة بالحزام الدفاعي العائم الذي غطاها من أي قصف بحري. وكان هذا الحزام العائم يضم رتلاً من الطوافات والجسور سلحت بالمدافع، وامتدت حتى غطت المضيق والمعبر والقسم

الشمالي الغربي للعاصمة. إلا أن نلسون الذي لا تخفى عليه خافية وهو القائد الكبير، قرر الاستدارة حول هذا الحاجز من الجنوب، ودخول المنطقة قرب جرف صخري خطر على الملاحة، هو جرف ميدل غراوند Middle Ground متفادياً نيران الحزام ونيران قلعة «التيجان الثلاثة».. وبشجاعة وتصميم اقترب نلسون لمسافات قريبة، وبدأ قتالاً بالمدفعية اتصف بالشدة والعنف وانهمرت القذائف الإنكليزية في كل مكان من الميناء. وكانت أكبر مغامرة حققها نلسون في حياته البحرية الطويلة. ولو استمع لأوامر قائده العام لما استطاع تحقيق أي كسب من تنفيذ مهمته. وعلى العكس كان قد اضطر للانسحاب بفعل كثافة نيران أسلحة الدانمركيين المتمركزة على طول الساحل، وفوق الحاجز العائم، والتي كان لا بد من أن تصيب العديد من سفنه. إلا أنه بفكره البحري الفطن استطاع تحقيق مهمته بأقل خسارة ممكنة، وهز الدانمركيين بضربة مخيفة، عندما جعلهم يشاهدون الحمم تتساقط عن قرب، برغم أسلحتهم الساحلية الكثيفة.. وتوصل إلى وقف سريع لإطلاق النار، بعد أن أرهب السكان، ودمر حاجزهم المائي العائم.

فضل الدانمركيون التضحية بهذا الحاجز عن أن يروا عاصمة بلادهم تصاب بقصف مدافع أسطول نلسون القوية، ووافقوا على الهدنة، وقبلوا الانسحاب من الحلف الأوربي. وهكذا حقق نلسون لبلاده هدفاً كبيراً وبكلفة زهيدة.

على أثر نجاح الأميرال نلسون في عمليته أمام كوبنهاغن قلد منصب القائد العام للقوات البريطانية في الشمال وبذلك أصبح قرار دخول بحر البلطيق من شأنه وحده، فلم يتردد وفاجأ أسطول روسيا يوم ١٢ مايس وهو في مرساه.. لكن هذا الوصول المفاجىء لم يكن ضرورياً في وقت هيمن أصدقاء بريطانيا على السلطة في روسيا (بعد اغتيال القيصر) لكن الأميرال الإنكليزي يجهل ذلك.. وقد اعتبرت عمليته في بحر البلطيق تبديداً للطاقة.. مع أنها ساهمت مساهمة فعالة وبشكل غير مباشر في رفع الشكوك لدى السلطة الروسية وجعلها تستقر على قرارها دون تردد.. وفي ١٧ حزيران تم توقيع اتفاقية سان بطرسبرج والتي تعهدت فيها روسيا التخلي عن حلف الحياد المسلح مشترطة تواجد التزام أدبي يعيد التلاحم العاطفي القديم بين إنكلترا وروسيا.

في أثناء ذلك كان لا زال لدى فرنسا ما يربو عن (٣٠) بارجة استخدمها قادتها في العديد من العمليات الصغيرة والناجحة أحياناً، وهذا أقلق القادة البريطانيين ولفت أنظارهم لبعض نقاط ضعف في أسلوبهم المتعلق بالمراقبة البحرية، والتي كان يعمل بها على أنها تقليد من تقاليد أمراء البحر (تمسك البريطانيون بتقاليدهم أمر شائع) مدرسة اللورد هاو Howe، وهذا ما دفع بإنكلترا بعد عام

(١٧٩٩) لاعتماد أسلوب جديد اعتبر مدرسة مختلفة عن التقليد السابق ووضع موضع التنفيذ اعتباراً من عام (١٨٠٠) وألزم كافة قادة السفن والتشكيلات على تنفيذه ويتلخص هذا الأسلوب بأنه تدبير جديد عنى الأشخاص القادة دون تغيير كبير في أسس التعليمات .. فعندما قلد اللورد سان فانسان (الأميرال جيرفيه) منصب لورد أول في الأميرالية البريطانية شغر منصبه السابق كقائد عام لقوات بحري المانش والشمال ، ففتش عن خليفة له حتى وجده في شخص الأميرال كورنواليس واضع أسس شل نشاطات الموانى الفرنسية وحرمان أساطيلها من كل قدرة هجومية ، بوساطة بلوكوسات (سدود عائمة من البوارج الحربية) وأحزمة مراقبة قريبة ودائمة بخلاف ما كان معمولاً به سابقاً ، وهو الذي تجاوز الأوامر التي كانت قد أعطيت له في السابق وأقام رقابة مستمرة على المشارف الملاحية لميناء برست ، ليس بالفرقاطات التي قد يسهل خرقها وتجاوزها بل ببوارج تستطيع الرصد والمراقبة والتماس وإقامة قتال محدود لحين وصول أسطول التدخل الذي يجوب في جوار المنطقة مؤدياً مهمات أخرى والذي أعدّ خصيصاً للتدخل السريع بكفاءة حربية عالية والذي أطلق عليه اسم (عمارة شاطئية) **Inshore Squadron** .

ومهمة العمارة الشاطئية هي جاهزية قتالية عالية لقوة في المنطقة وفي جميع الظروف الطبيعية والملاحية تهب للنجدة عند الحاجة وتؤدي مهمة ثانوية هي في مراقبة خطوط الملاحة البحرية القادمة من المحيط .. وعادة تعزز هذه العمارة القوية مفارز استطلاع ودعم أكثر قرباً من حزام المراقبة وغالباً تكتفي بمفرزتين الأولى شمالية لبحر المانش والثانية جنوبية لمدخل ميناء برست .

أما الأسطول الكبير فعليه البقاء في البحر صيفاً وشتاءً وإلى الغرب من شواطىء فرنسا جاهزاً لدخول المعارك الحاسمة .. وتقديم المساعدة لأول إنذار .. وهذه السفن تتمون وتتأهب بالتناوب في مرافىء بلايموث ، وتورباي ، ولا يحق لها مغادرة البحر إلى مواقع التموين إلا بعد موافقة مسبقة من الأميرالية ، ويحظر عليها الابتعاد كثيراً نحو الشرق (تبعد عن مداخل برست) أو الرسو في سبيتهيد مهما كانت الأسباب .

هذا الأسلوب المتطور في علم قتال البحر آنذاك عزز الثقة في نفوس جميع المقاتلين أينما وجدوا في نسق التماس أم في نسق الدعم والإسناد ، وآمنوا بأنهم ليسوا وحدهم في الساحة كما أمنوا على دورهم وأسرهم في الوطن بعد أن حرست شواطىء الجزر البريطانية من الإغارات التي كانت تحدث سابقاً .

وأما من الناحية التكتيكية فقد غدت طواقم السفن في عمليات تدريب دائم ومستمر يتخلله

قتال فعلي يشحذ من كفاءاتهم ويمرس القادة والأفراد على الأعمال القتالية الجماعية، كما يعودهم حياة البحر الشاقة وخاصة خلال الأنواء. وبهذا الأسلوب حصرت إنكلترا قوات فرنسا البحرية داخل موانئها، وبالذات برست التي عزلتها كلية عن العالم الخارجي.

لم يخل حصار برست المنيع من بضع محاولات استطاعت خلالها بضع سفن فرنسية الخروج والدخول بمجموعات صغيرة مستغلّة رداءة الطقس، وضعف الرؤية، حيث يُعرف عن تلك المناطق كثافة الضباب فيها على طول أيام السنة.. أما بالنسبة للقوافل والسفن التجارية فقد ابتعدت كلية عن برست. وكأن حكماً قاهراً أصاب هذا المرفأ الفرنسي الكبير، فندرت فيه مواد احتياجات الأسطول من خشب وحديد وألياف، وقلت المواد الغذائية، وظهرت آثار العزل في كل مرافقه العامة.

في أثناء ذلك أسندت إلى نلسون قيادة القوات البحرية في الشمال، ونلسون لا يشارك الكثير من حكام إنكلترا ارتياحهم لمناعة الجزر البريطانية، وفعالية الجيوش والميليشيات فيها في صد الإغارات والغزوات. بل يرى أن أفضل دفاع هو في تدمير قوات فرنسا البحرية تدميراً كاملاً، مع إتلاف وإحراق زوارق المدفعية الصغيرة، وسفن النقل، لمنع إمكانية التفكير في أية محاولة إزعاج على البر البريطاني أو الإيرلندي. وبهذا الأسلوب فقط يعود الأمن والاستقرار إلى الجزر البريطانية.

ما إن تسلم نلسون منصبه الجديد حتى أقلع على رأس (٣٠) بارجة وسفينة، وتوجه نحو بولونيا الفرنسية Boulogne، معتقداً أن باقترابه من الساحل سوف يجبر البوارج الفرنسية على الاختفاء داخل المرفأ تاركة سفن النقل ومئات الزوارق الصغيرة التي بنيت خصوصاً لنقل القوات البرية، وإنزالها على الشاطىء الإيرلندي (كما ورد ذكره)، دون حماية، فيسهل عليه تدميرها وهي عاجزة عن الحركة. لكن الأمر جرى على عكس ما توقعه نلسون. وبدلاً من أن تنسحب بوارج لاتوش تريفيل[١٣٩] La Touche Treville إلى داخل الميناء اصطفت على مدخله، تمنع نلسون من التقدم، وترد على قذائفه، بقذائف مضادة. وبعد خمس ساعات من تبادل القصف المدفعي، دون خسائر تذكر انسحب نلسون.

في ليل ١٧ آب عاد نلسون ثانية يكرر محاولته بأسلوب جديد اعتمد فيه إرسال (٥٧) زورقاً بالمجاذيف حملت المقاتلين لمهاجمة السفن الفرنسية الراسية، واقتحامها وأسر بعضها إن أمكن، معتمدين على عنصر المفاجأة. إلا أن القائد الفرنسي كان قد رسا بسفنه محكماً المراقبة بالنظر والنار. وقد جعل من مواقع رسو سفنه قلعة عائمة منيعة، مدّ لها العيون بدوريات ومخافر

عائمة متقدمة. وما إن تقدمت الزوارق البريطانية المغيرة حتى استقبلتها نيران غزيرة منذ مراحل التقرب الأولى. وغرق للإنكليز (١٢) زورقاً، وقتل وجرح مالا يقل عن (١٧٠) عنصراً، ولاذت الزوارق الأخرى بالفرار باتجاه سفن نلسون المتواجدة خارج الميناء، وباءت العملية بفشل ذريع.

حدث لتلك المحاولتين الخائبتين صدى سيءٌ في الأوساط الشعبية البريطانية وبدلاً من أن يحقق نلسون لمواطنيه المزيد من الطمأنينة جعلهم يتساءلون: ألسنا مقبلين حقاً على إنزال فرنسي جديد؟

على أن المطّلعين يعرفون تمام المعرفة أن أسطول إنكلترا موجود في المنطقة، وهو الأقوى، ولا يسمح بحدوث أية مغامرة فرنسية على الشواطىء الإنكليزية. وكل ما يحكى عن غزو فرنسي مرتقب ضرب من الدعاية الواهمة التي تفتقر للإمكانات من سلاح وعتاد وبالدرجة الأولى لأسطول قوي يستطيع مجابهة قوى بريطانيا البحرية المتعاظمة، لكن سواد الشعب لا يعرف كل الأسرار. وداخله وهم كبير، تجلى بتوتر شاع في أوساط سكان الشواطىء وخاصة الجنوبية منها. وطالبوا اللجوء إلى المفاوضات، وإقامة الصلح الذي قد يكون في أفضل الأزمنة الملائمة منذ عام (١٧٩٢). وسيكون لها قسط أكبر من النجاح، حيث إن الشعب الإنكليزي قد مل الحرب بعد أن تبين له صعوبة انتزاع التفوق العسكري والسياسي لفرنسا، إثر انتصاراتها البرية. والصلح مطلب قومي لإعادة تنظيم المصالح الاقتصادية في البلاد، لتعويض التضحيات المخلصة التي قدت خلال سنين القتال الطويلة.

جاءت الحروب البحرية بين فرنسا وإنكلترا لصالح الأخيرة دوماً، برغم لجوء فرنسا وحليفتها إسبانيا لأعمال القرصنة، والاعتداء على السفن التجارية الإنكليزية أينما وجدت. وتدل الإحصائيات برغم ذلك كله عن تزايد في عدد السفن الإنكليزية، حيث نرى أن الأرقام بين عام (١٧٩٥) وعام (١٨٠٠) كانت (١٦٧٢٨) سفينة تجارية فأصبحت (١٧٨٨٥) سفينة. والحركة التجارية ارتفعت من (٢٫٦٢٩٫٠٠٠) طن إلى (٣٫٢٨٥٫٠٠٠) طن، وأن أرقام الرساميل الخارجية تصاعدت هي الأخرى بنسب عالية حتى تخطت الضعف خلال الأعوام العشرة الأخيرة من القرن الثامن عشر. ويرجع الفضل لتزايد الإنتاج الصناعي الساحق لبريطانيا وتفوقه. وجاءت ظروف الحرب فخدمتها بإبعاد المزاحمين لها في الأسواق الخارجية. ونعني هنا فرنسا وإسبانيا اللتين كانتا مشغولتين في حروبهما البرية. وليست لديهما القدرة البحرية اللازمة لحماية التجارة الخارجية، بعد أن حوصرت السفن التي ترفع أعلامها داخل الموانىء. ولعل هناك سبباً آخر يجدر ذكره، هو انضمام

هولندا لمجموعة المتعاملين مع بريطانيا وانغلاق مرفأ امستردام ومرافىء نهر الموز في وجه تجارة ألمانيا، وتحول الجميع إلى هامبورغ، الميناء الذي يقع ضمن سيطرة إنكلترا التجارية فيرتفع ميزان التجارة البريطاني مع ألمانيا من (٢) مليون استرلينية عام (١٧٩٢) إلى (٥ر١٣) مليوناً عام (١٨٠١).

أما عن قدرة بريطانيا البحرية الحربية فقد وثب تعداد بوارجها من (١٥٠) بارجة مقابل (٨٠) بارجة فرنسية في بداية الحرب ليصبح (٢٠٥) بوارج إنكليزية مقابل (٣٩) بارجة فرنسية عام (١٨٠١). وكان هذا وحده كافياً لجعل رجال الحكم في إنكلترا يعبرون عن فخارهم، وبالذات رئيس الوزراء بيت في خطابه الشهير:

« إذا قارنّا عام الحرب هذا بأعوام السلم لوجدناه مغايراً لكل عرف ولا نجد له تفسيراً. لقد نهضت أيام الحرب بتجارتنا إلى مستوى لم تصله بريطانيا من قبل. ونستطيع اعتبار العام الحالي العام الأكثر عطاءً في تاريخ البلاد ».

ولربما لم يقتصر عام العطاء الطيب على إنكلترا وحدها، بل شهدناه أيضاً في الولايات المتحدة المستقلة، حيث تقدمت إلى نسق الدول البحرية التجارية العظيمة، ونشاط سفنها التجارية خلال الأعوام العشرة يثبت ذلك. وانتقل الرقم من (٣٥٥) ألف طن إلى (٧٩٩) ألف طن، وانتشرت السفن التي تحمل العلم الأمريكي في العديد من البحار والموانىء، حتى غزت مرافىء إنكلترا نفسها. وبالنسبة للإنتاج الصناعي، ظهرت صناعات عديدة إلى جانب صناعة بريطانيا المتطورة، تزاحمها في أسواقها. وكانت أهمها في بلجيكا وفرنسا ووادي الرين وسويسرا وإيطاليا وإسبانيا. وعلى رأس المزاحمين الإنتاج الألماني الجيد.. أو باختصار جميع أسواق القارة الأوربية الغربية.

كل هذا لم يجنب الدول الأوربية وقوعها في أزمات مالية، ومصاعب اقتصادية كبيرة، برغم رفع معدلات الضرائب. وتزايدت ديون الدولة، فنجمت أزمة دفع رواتب. وارتفع سعر القمح، وجر معه أسعار مواد غذائية أخرى كثيرة. وبدأ الخوف يشل البلاد. والثورة الفرنسية لا زالت ماثلة لكل شاهد عيان. وبدأ التململ بين صفوف العمال، وسرعان ما تحول إلى فوضى وعنف. وفهمت الحكومات أن المعالجة يجب أن تتم بحكمة وروية، وأن كل قمع قصري قد يفجر بين الجماهير الجائعة ثورة على غرار ثورة فرنسا، ولا بد من نهج أسلوب الرفق بالفقراء، ومساعدتهم، ودعمهم لتخطي غلاء الأسعار.

استغل جورج الثالث في إنكلترا الظرف الاقتصادي اللامستقر، والذي هز حكومة بيت الابن، وهو المتطلع للخلاص من رئيس وزرائه، فسلط عليه فئة الأنانيين والمتزمتين من الشعب

البريطاني. ولقد أحرج الملك رئيس وزرائه حينما رفض له تصديق قانون انعتاق الكاثوليك، وهو نتيجة حكم قضائي لخدمة مصالح الشعب الإيرلندي. عندها شعر رئيس الوزراء، وهو الوطني الكبير، أن من واجبه أن ينسحب فامتلأ قلب الملك سعادة، بعد أن انزاح عن طريقه أكبر عقبة في فتح باب المباحثات.

استلم الوزير ادينكتون(١٤٠) Addington الوزارة، وأرسل على الفور اللورد هاوكسبوري Howkesbury إلى باريس، لبدء مفاوضات الصلح، حيث كانت مرة في مراحلها الأولى. فنابليون الطامع في الاحتفاظ بمصر مد أمد المباحثات، ليستطيع تزويد جيشه هناك بالرجال والعتاد.. وإن تخلى عنها ضاعت فرصته المتوسطية. ولعله يستعيض عنها بالبرتغال، لو أن حليفته إسبانيا ترى الأمر بمنظاره نفسه. لكن الأحداث تسارعت على غير ما اشتهى نابليون، حيث سلم بيليارد Beilliard القاهرة في ٢٧ حزيران، وسقطت الإسكندرية في الأول من ايلول، ولم يعد لنابليون مسوّغ لإطالة عملية المفاوضات. وانتهى التشدد البونابرتي، وانتهى كل شيء يوم ٢٧ مايس (١٨٠٢) بتوقيع اتفاقية السلام النهائية، والتي جرت فصولها في آميان.

وتعترف إنكلترا بموجب اتفاقية آميان بكامل أراضي الجمهورية الفرنسية وامتداداتها على الساحة الأوربية، ويسقط حق ملك إنكلترا في تسميته ملكاً لفرنسا (قبلها حمل الملك البريطاني لقب ملك فرنسا إضافة)، وهو حق احتفظ به أكثر من (٤٠٠) عام، وتعاد العلاقات الطيبة بين البلدين، مع احتفاظ كل بلد بمستعمراته عبر البحار.

بالنسبة للمتوسط وعدت إنكلترا بإخلاء مصر ومالطة، مقابل انسحاب فرنسا من اوترانت وترانتو وبرنديزي وروما.

وهكذا جاء السلام لينهي حرباً لا ظافر فيها ولا خاسر. والمعاهدة تسوية خفية وليست اتفاقاً بمعنى الاتفاقات. أما التوازن الذي وصلت إليه فلم يكن أكثر استقراراً من توازن سلام عام (١٧٨٦). وبدلاً من أن ترتكز المعاهدة على أسس المصالح المشتركة للبلدين ليقيما تعايشاً صادقاً ارتكزت على نتيجة عجز إحداهما عن تدمير الأخرى. وقبلت فرنسا السلام لأنها لا تملك القدرة البحرية اللازمة لتدمير عدوتها إنكلترا وإذلالها. وقبلت إنكلترا السلام لتتفادى المزيد من الآلام التي كانت ستنتظرها لو استمرت في الحرب طويلاً ولعجزها عن وقف انتصارات فرنسا البرية.

في الحقيقة لم تكن هناك مصالحة مخلصة، بل قبول بالأمر الواقع، ففرنسا سيدة البر الأوربي، وإنكلترا سيدة البحار.. وكل واحد من البلدين يفكر بطريقته في استغلال فترة الهدنة هذه، ليستعيد قوته ويُعالج نقاط ضعفه لينقض على الآخر في حرب جديدة لا زال بابها مفتوحاً.

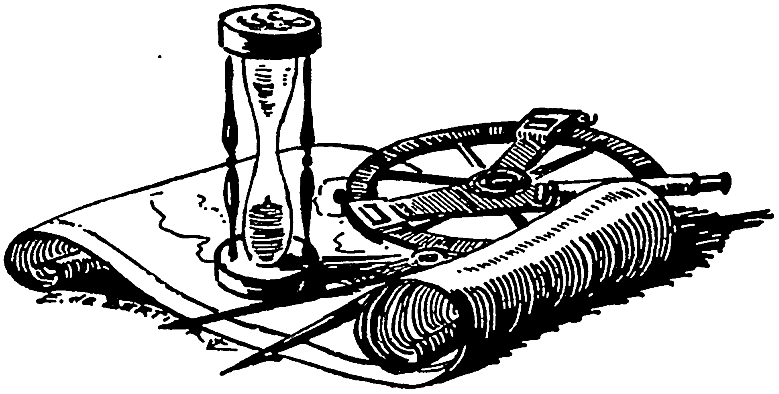

حواشي الباب الثالث

٦٦ ـــ لويس السادس عشر Louis XVI (١٧٥٤ ـــ ١٧٩٣)

ملك فرنسا ابن ولي العهد لويس وماري جوزيف أوساكس، انتهى على المقصلة.

٦٧ ـــ فيرجين Vergennes شارل (١٧١٩ ـــ ١٧٨٧)

سياسي فرنسي شغل سفارة بلاده في تركيا والسويد، ثم احتل منصب وزير الخارجية. حارب النفوذ النمساوي، وساند حرب التحرير الأمريكية، وقدم لها السلاح. وقع معاهدة مع إسبانيا لصالح التدخل العسكري في حرب أمريكا. وأخيراً كان المخطط الأول لمعاهدة فرساي.

٦٨ ـــ فابفيه Fabvier شارل نيقولا (١٧٨٢ ـــ ١٨٥٥)

جنرال فرنسي خدم في الجيش الدانمركي، وتطوع في ثورة اليونان ضد الأتراك.

٦٩ ـــ نورث North لورد فردريك (١٧٦٧ ـــ ١٧٩٢)

سياسي وبريطاني أصبح رئيساً للوزراء وهو الذي صادق على الشروط المتعلقة بمادة الشاي والشركة الهندية الشرقية، والتي كانت سبباً من أسباب الثورة الأمريكية. استقال بعد هزيمة يوركتاون.

٧٠ ـــ لافاييت La Fayette جوزيف بول (١٧٥٧ ـــ ١٨٣٤)

ماركيز وسياسي فرنسي التحق بحرب التحرير الأمريكية برغم أوامر الملك، وأصبح قائداً للقوات في فرجينيا. عاد إلى فرنسا يطلب المزيد من المعونة إلى أمريكا، وعاد إلى أمريكا وحارب في يوركتاون، ثم عاد ثانية إلى فرنسا وأصبح ماريشالاً. أقام لفترة عند فردريك الثاني وجوزيف الثاني، وأصبح نائباً. ونادى

بحقوق الإنسان، وأصبح على رأس الحرس الوطني، وهدم الباستيل. وعند سقوط لويس السادس عشر انتقل إلى ألمانيا. ولما عاد إلى فرنسا رفض أي عمل رسمي. وزار الولايات المتحدة فاستقبل استقبال الأبطال. وأخيراً عاد إلى فرنسا، وانضم إلى اليسار الفرنسي، وقاد الحرس الوطني في ثورة عام ١٨٣٠.

٧١ ــ فرانكلين بنجامان Franklin Benjamin (١٧٠٦ ــ ١٧٩٠)

فيلسوف وفيزيائي وسياسي أمريكي، عضو في أول مجلس كونغرس أمريكي. كتب مع جيفرسون وآدامز لائحة إعلان استقلال الولايات المتحدة، وجاء لفرنسا مفاوضاً، ووقع الصلح مع إنكلترا. ترك مذكراته وعدة أبحاث فيزيائية تتعلق بالكهرباء الساكنة، وواقية الصواعق. وأعلن عن أسس تخزين الطاقة الكهربائية.

٧٢ ــ تورغو Turgot ميشيل اتيان (١٦٩٠ ــ ١٧٥٠)

مالي ومستشار فرنسي ورئيس للمجلس الكبير، ابنه روبير جاك (١٧٢٧ ــ ١٧٨١) عمل مع موروبا كسكرتير لسلاح البحرية، ثم كمفتش للمالية. وكان من أشهر رجال المال في عصره.

٧٣ ــ بومارشيه Beaumarchais بيير اوغستان كارون (١٧٣٢ ــ ١٧٩٩)

كاتب فرنسي عاصر لويس الخامس عشر، له عدة مؤلفات، منها حلاق أشبيلية، وزواج فيفارو، والتي تنبأ من خلالها باقتراب الثورة الفرنسية.

٧٤ ــ واشنطن جورج Washington (١٧٣٢ ــ ١٧٩٩)

سياسي وجنرال أمريكي، أول رئيس لجمهورية الولايات المتحدة الأمريكية، وقائد لقوات فرجينيا. فاز على البريطانيين، وطالب بالاستقلال الكامل لبلاده، وأصبح قائداً عاماً للقوات المسلحة. أقام حلفاً مع فرنسا، وانتخب رئيساً للجمهورية، ودامت ولايته (١٧٨٩ ــ ١٧٩٧).

٧٥ ــ كلينتون Clinton سير هنري (١٧٣٨ ــ ١٧٨٥)

جنرال بريطاني حارب في أمريكا الشمالية، وقاتل الأمريكيين، ثم استقال من قيادته (١٧٨١) وعاد إلى إنكلترا.

٧٦ـ هاو Howe ريتشارد كومت (١٧٢٦ ـ ١٧٩٩)

أميرال إنكليزي أصبح لورداً أولاً للبحرية البريطانية، وقائداً لأسطول بحر المانش. انتصر أمام برست في معركة بحرية (١٧٩٤).

٧٧ـ بورغوين Burgoyne جون (١٧٢٢ ـ ١٧٩٢)

جنرال وكاتب بريطاني قائد قوات المساندة المرسلة إلى كندا في حرب التحرير الأمريكية. استسلم في ساراتوغا (١٧٧٧).

٧٨ـ بروغلي Broglie فيكتور فرانسوا ماري II (١٧١٨ ـ ١٨٠٤)

ماريشال لفرنسا استلم قيادة القوات أيام لويس السادس عشر، ووصل إلى مركز وزير للحربية.

٧٩ـ لاموث بيكيه Lamothe Piquet غليوم (١٧٢٠ ـ ١٧٩١)

ملاح بروتوني، استلم قيادة تشكيل بحري كبير، وقاتل البريطاني باركر عام (١٧٧٩) أمام شواطىء المارتينيك، وأصبح نائباً لأميرال، واستطاع أسر (٢٦) سفينة بريطانية من حملة الأميرال رودني (١٧٨١).

٨٠ـ كيرغولان Kerguelan ايف جوزيف (١٧٣٤ ـ ١٧٩٧)

ملاح فرنسي اكتشف في إحدى رحلاته البحرية جزائر فورثون وكيرغولان في بحار الجنوب.

٨١ـ فلوريو Fleurieu شارل بيير (١٧٣٨ ـ ١٨١٠)

سياسي وبحار فرنسي اكتشف الساعة البحرية بعقارب الثواني، وأصبح وزيراً للبحرية ومستشار دولة وسيناتوراً وحاكم التويلري في عهد الإمبراطورية.

٨٢ـ أورفيليه Orvilliers لويس (١٧٠٨ ـ ١٧٩٢)

أميرال فرنسي قاد معركة وليسانت ضد الأسطول الإنكليزي.

٨٣ـ رودني Rodney جورج برايدجز (١٧١٨ ـ ١٧٩٢)

أميرال إنكليزي لمع في حروب الآنتيل وسواحل إسبانيا، وهزم دوغراس في عرض جزيرة الدومينيك.

٨٤ـ غيشن Guichen لوك اريان (١٧١٢ ـ ١٧٩٠)

ملاح فرنسي هزم الأميرال رودني في جزائر الآنتيل عام (١٧٨٠).

٨٥ــ دوغراس De Grasse فرانسوا جوزيف (١٧٢٢ ــ ١٧٨٨)

كونت وملاح فرنسي شارك في حرب استقلال الولايات المتحدة الأمريكية، وقاتل في جزيرة توباغو، لكنه هزم وأسر قرب الدومينيك.

٨٦ــ ويليام ايدن William Eden بارون اوكلاند (١٧٤٥ ــ ١٨١٤)

سياسي بريطاني، خدم في وزارة بيت ثم أصبح وزيراً للتجارة (١٨٠٦). **أما ابنه الثاني جورج** فقد أصبح حاكماً عاماً للهند عام (١٧٩٨)، ولورداً أولاً للأميرالية البريطانية عام (١٧٠٩)

٨٧ــ تيرغو Turgot جاك ابن ميشيل ايتان المالي الكبير (١٧٢٧ ــ ١٧٨١)

أصبح في عهد ميرابو سكرتيراً للبحرية (١٧٧٤)، ثم مراقباً عاماً لوزارة المالية. قام بإصلاحات عدة وأعاد حرية التجارة، وخاصة فيما يتعلق بتصدير الحبوب. إلا أن موسماً سيئاً (١٧٧٥) جر ارتفاعاً كبيراً في أسعار الخبز، ففقد حظوته وسمعته، واعتزل عام (١٧٧٦). له عدة مؤلفات تتعلق بالنظم الاجتماعية والاقتصادية.

٨٨ــ دوبون دو نومور Dupont De Nemours بطرس صمائيل (١٧٣٩ ــ ١٨١٧)

رجل اقتصاد وسياسة فرنسي عضو في البرلمان. سجن بعد إقالة الملك، ثم أخلي سبيله فلجأ إلى أمريكا، ثم عاد (١٨٠٩)، وأصبح سكرتير دولة. عاد لأمريكا ثانية. له عدة مؤلفات في الاقتصاد والسياسة والعلوم. وهو أول من نادى بالفيزيوقراطية Physiocratie، مذهب اعتماد الزراعة كمصدر وحيد للثروة.

٨٩ــ كليف Clive روبرت (١٧٢٥ ــ ١٧٧٤)

إداري وعسكري بريطاني حكم مادراس، وانتصر على فرنسا في بلاسييه عام (١٧٥٧)، وأصبح سيد البنغال. عاد لإنكلترا اتهم بالاختلاس، وانتحر لتفادي الفضيحة.

٩٠ــ هاستنغ Hasting وارناد (١٧٣٢ ــ ١٨١٨)

حاكم بريطاني للهند هزم المهراجات واستولى على بعض الممتلكات الفرنسية هناك، وبعد صدور قانون وضع شركة الهند تحت سلطة التاج البريطاني استقال (١٧٨٥). وعلى أثرها اتهم بالخيانة والاختلاس، ثم بُرِّىء منها بعد أن دمرت تلك الدعوى سمعته، إذ كانت محاكمة مدوية صاخبة.

٩١ ــ فلوريدا بلانكا Florida Blanca جوزيه مونينو (١٧٢٨ ــ ١٨٠٨)

كونت إسباني استلم رئاسة الوزراء في عهد شارل الثالث وشارل الرابع. قاد إسبانيا بحكمة، ورأس عام (١٨٠٨) الجبهة الوطنية المضادة لنابليون.

٩٢ ــ آراندا بيررو بابلو Aranda (١٧١٩ ــ ١٧٩٨)

سياسي ووزير إسباني طرد الجيزويت Jeswites (اليسوعيين، وهم من دهاة المسيحيين) من إسبانيا.

٩٣ ــ كاستري Castries شارل اوجين (١٧٢٧ ــ ١٨٠١)

ماركيز فرنسي وزير للبحرية وماريشال لفرنسا هاجر عام (١٧٩١) والتجأ إلى دوقية برونزويك (ألمانيا)، ثم عاد وأصبح فيما بعد رئيس وزراء، وكونت للبروفانس ولويس الثامن عشر فيما بعد.

٩٤ ــ بيلنتز Pillinyz

قرية ألمانية في الساكس على نهر البا.. تم فيها عام (١٧٩١) اجتماع بين الإمبراطور ليبولد الثاني وملك بروسيا فردريك ويليام الثاني، ووقعا بياناً لحكام أوربة وملوكها ينذرونهم به من خطر تهديد عرش الملك لويس السادس عشر.

٩٥ ــ جيماب Jemmapes

مقاطعة بلجيكية دارت فيها معركة سميت باسم المقاطعة بين جيوش ديموريه الفرنسي وجيوش البرت دوساكس تيشان النمساوي، وانتهت بانتصار ديموريه.

٩٦ ــ تاليران Talleyrand الكسندر انجيليك (١٧٣٦ ــ ١٨٢١)

رئيس الأساقفة رمس ثم رئيس أساقفة باريس، وابن أخيه **شارل موريس** (١٧٥٤ ــ ١٨٣٨) **تاليران** أسقف أوتان انشق عن الكنيسة، وأصبح عضواً برلمانياً، وعمل في السياسة. هاجر إلى إنكلترا، وعاد منها عام (١٧٩٦). كسب ثقة بونابرت، وأصبح وزيراً للخارجية، لكنه لم يستمر لخلافه مع

الإمبراطور حول سياسة فرنسا العامة. أقام حكومة مؤقتة تطالب بإبعاد نابليون عن الحكم، ووقع أول معاهدة صلح في باريس، وانتهى سفيراً لبلاده في لندن.

٩٧ ـــ دانتون Danton جورج جاك (١٧٥٩ ـــ ١٧٩٤)

سياسي ومحام ومستشار للملك، ومؤسس نادي رهبان الفرنسيسكان. ترأس حركة التمرد الجمهوري، بعد هرب الملك، ولجأ إلى إنكلترا إثر إعدامات شامب دو مارس الرهيبة في ١٧ تموز (١٧٩١) Champs De Mars. ورأس وزارة العدل عام (١٧٩٢)، ثم غدا رئيساً للوزراء، وجابه الغزو البروسي. ثار على الحكم منادياً بحملته الشهيرة **الجرأة مزيد من الجرأة ودائماً جرأة**، ويعني فيها التشدد في القرارات. ووقف موقفاً سلبياً من مذابح ايلول الجماعية، وانتخب عضواً في الجمعية التأسيسية، وهاجم الجيرونديين، ثم أقام المحكمة الثورية، ورأس لجنة السلامة العامة، حتى أزاحه عنها روبسبير، وقاومه هذا الأخير منادياً بإنهاء نظام الرعب. أخيراً رأس حزب الحلم وفاوض أصدقاؤه أعداء فرنسا لإنهاء الحرب، لكن أمره كشف، وانتهى على المقصلة مع صديقه المخلص كميل دوමولان.

٩٨ ـــ غرينفيل Grenville ويليام ويندهايم (١٧٥٩ ـــ ١٨٣٤)

سياسي بريطاني رأس وزارة الخارجية، وأيد حرب إنكلترا لفرنسا، واستقال أمام الضغط الملكي على انعتاق الكاثوليك. رأس الوزارة البريطانية (١٨٠٦).

٩٩ ـــ ايسكو Escaut

نهر في شمال فرنسا وبلجيكا طوله (٤٣٠) كيلومتراً يعبر سهل الفلاندر.

١٠٠ ـــ أوكلاند Auckland

١ ـــ اسم أرخبيل غير مسكون إلى الجنوب من زيلندة الجديدة في المحيط الهادي.
٢ ـــ شبه جزيرة أوكلاند في زيلندة الجديدة نفسها وعاصمتها أوكلاند حتى عام (١٨٦٥).
٣ ـــ ويليام ايدن بارون أوكلاند (١٧٤٥ ـــ ١٨١٤) سياسي محنك بريطاني أصبح وزيراً للتجارة في وزارة بيت ابنه جورج (**١٧٨٤ ـــ ١٨٤٩**) وحاكم الهند (١٨٣٥.) ثم لورداً أولاً للأميرالية البريطانية (١٨٤٦).

١٠١ ــ مارا Marar جان بول (١٧٤٣ ــ ١٧٩٣)

سياسي فرنسي طبيب، أقام في إنكلترا، ونشر عدة مؤلفات في السياسة وفلسفتها. عاد إلى فرنسا ونشر كتابه الشهير «صديق الشعب»، انتسب للرهبان الفرنسيسكان ثم عاد والتجأ إلى لندن ثانية، وهاجم من هناك لافاييت والملك إثر إعدامات شامب دو مارس (١٧٩١)، وعاد وأصبح عضواً في البرلمان الفرنسي، واعتبر مسؤولاً عن إسقاط الجيرونديين. اغتالته إحدى المعجبات بالجيرونديين شارلوت كورداي Charlotte Corday في ١٣ تموز (١٧٩٣).

١٠٢ ــ ديموريه Dumouriez شارل فرانسوا (١٧٣٩ ــ ١٨٢٣)

ضابط في حرب السنوات السبع، ودبلوماسي في عهد لويس الخامس عشر. قاد الحرس الوطني في شربورغ، ثم تقلد وزارة الخارجية، ومن بعدها عُـيّـن قائداً عاماً للقوات الفرنسية في حرب النمسا، وانتصر في جيماب، وقهر البروسيين في فالمي، ودخل بلجيكا وهولندا، لكنه هزم في نيرونـدن Neerwinden، فأقصي عن منصبه. رفض الانصياع وانتقل إلى صفوف أعداء فرنسا، واتهم بالخيانة العظمى.

١٠٣ ــ شاتهام Chatham

اسم مدينة ومرفأ في بريطانيا، واسم مدينة صغيرة في كندا، واسم أرخبيل صغير إلى الشرق من زيلندة الجديدة.. وهو لقب لشقيق رئيس وزراء بريطانيا (لورد شاتهام) بيت. أصبح لورداً أولاً للأميرالية الملكية البريطانية.

١٠٤ ــ بريريل Prairil

اسم الشهر التاسع من تقويم الجمهورية الفرنسية ويقع في ٢٠ مايس إلى ١٩ حزيران.

١٠٥ ــ فيلاريه دو جوايوز Villart De Joyeuse لويس توماس (١٧٥٠ ــ ١٨١٢)

أميرال فرنسي اشتهر اسمه في حماية قافلة حبوب قادمة من أمريكا عام (١٧٩٤). بدأ حملة سان دومينيك عام (١٨٠١) ثم عين قائداً عاماً لقوات المارتينيك، وحارب البريطانيين هناك ثم انتهى حاكماً للبندقية.

١٠٦ ــ كورنواليس Cornwallis شارل (١٧٣٨ ــ ١٨٠٥)

ماركيز. وجنرال بريطاني عين قائداً عاماً ثم حاكماً للهند؛ ونائباً للملك في إيرلندة. شارك في مباحثات معاهدة آميان (١٨٠٢).

١٠٧ ــ كيبرون Quibron

شبه جزيرة فرنسية في موربيهان قرب مدينة لوريان على الأطلسي.

١٠٨ ــ يو Yeu

جزيرة فرنسية على الساحل الغربي تابعة للفاندية.

١٠٩ ــ بال Bale وبالألمانية بازل Bazel

مدينة سويسرية على نهر الراين قرب الحدود الألمانية والفرنسية.

١١٠ ــ هوش Hoche لازار (١٧٦٨ ــ ١٧٩٧)

جنرال فرنسي قاتل النمساويين والألمان وأصبح وزيراً للحربية عام (١٧٩٦).

١١١ ــ بروبكس Bruix اوستاش (١٧٥٩ ــ ١٨٠٥)

أميرال فرنسي استلم وزارة البحرية عام (١٧٩٨)، حاول مساعدة جيش حملة مصر (١٧٩٩)، وكلفه بونابرت بتنظيم وقيادة حملة بولونيا.

١١٢ ــ ايرواز Iroise

ذراع بري ممتد في الأطلسي من شبه جزيرة بريتانيا أمام الفينيسيتر بين جزائر السان والويسانت، كثير العوائق والصخور الخطرة ملاحياً.

١١٣ ـ بوفيه Bouvet (١٧٥٣ ـ ١٨٣٢)

أميرال فرنسي فشل في حملة ايرلندة عام (١٧٩٦).

١١٤ ـ بانتري Bantry

خليج ايرلندي واسع وطويل يقع إلى جنوب غرب جزيرة ايرلندة.

١١٥ ـ ورمسير Wurmser سيغموند (١٧٢٤ ـ ١٧٩٧)

جنرال نمساوي خدم في فرنسا وفي النمسا وقاتل جيوش الثورة الفرنسية على ضفاف نهر الراين، وهُزم في إيطاليا، واستسلم في مانتو Mantoue (١٧٩٧).

١١٦ ـ مانتو Mantoue

مدينة في لومبارديا بإيطاليا اشتهرت بقلعتها الحصينة، وضمت إلى جمهورية سيسالين، ثم إلى هايسبورغ.

١١٧ ـ فرانسوا الثاني (١٧٦٨ ـ ١٨٣٥)

آخر أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة قاتل بونابرت، وأعاد وحدة النمسا، ورأس الاتحاد الجرماني.

١١٨ ـ ليوبن Leoben

مدينة نمساوية صغيرة غنية بمناجمها، عقد فيها الاجتماع الأول لمعاهدة كامبو فورميو.

١١٩ ـ مالميسبوري Malmesbury جيمس هاريس (١٧٤٦ ـ ١٨٢٠)

سياسي بريطاني، سفير في روسيا، ووزير في لاهاي. نجح عام (١٧٨٨) في إقامة الاتفاقية بين كل من بريطانيا والأقاليم المتحدة وبروسيا.

١٢٠ ـــ نلسون هارولد Nelson (١٧٥٨ ـــ ١٨٠٥)

أميرال بريطاني حارب في أمريكا، وانضم إلى أسطول المتوسط تحت إمرة الأميرال هوود، وشارك في حصار باستيا وكالغي. فقد إحدى عينيه عام (١٧٩٤)، وانتصر بمعركة سان فانسان (١٧٩٧)، وحصار قادس. أضاع ذراعه الأيمن في حصار تينيريف (١٧٩٨)، دمر الأسطول الفرنسي في خليج أبي قير، واستولى على نابولي، وسمي لورداً وفي عام (١٨٠٥). هزم الأسطولين الحليفين الفرنسي والإسباني في معركة الطرف الأغر، وقتل خلال المعركة.

١٢١ ـــ كولينغوود Collingwood كثبرت (١٧٥٠ ـــ ١٨١٠)

بارون وأميرال بريطاني خدم مساعداً للأميرال نلسون، ثم خلفه في القيادة. بطل من أبطال معركة الطرف الأغر.

١٢٢ ـــ فيلنوف بيير شارل Villeneuve (١٧٦٣ ـــ ١٨٠٦)

ملاح فرنسي قائد أسطول جزائر الآنتيل. وصل لرتبة نائب أميرال عام (١٨٠٤) واضطر لخوض معركة الطرف الأغر، وأسر، وعندما تحرر انتحر.

١٢٣ ـــ آلافا Alava ميكايل ريكاردو (١٧٨١ ـــ ١٨٤٣)

جنرال إسباني رأس مجموعة نواب كورتيس Cortes، وهو مجلس تجمع إسباني برتغالي ضم أراغون وكاستيلا.. عين (١٨٢٠) سفيراً في لندن ثم في باريس.

١٢٤ ـــ بونابرت Bonaparte نابليون (١٧٦٩ ـــ ١٨٢١)

من أسرة أصلها لومباردي توزعت إلى ثلاثة فروع بولونيا تريفيز، فلورانس وهذه الأخيرة انحدر منها نابليون، وهو ضابط مدفعي، قاتل في كل الجبهات وأصبح إمبراطوراً لفرنسا (١٨٠٤ ـــ ١٨١٥).

١٢٥ ـــ برويز Brueys فرانسوا بول (١٧٥٣ ـــ ١٧٩٨)

نائب أميرال وقائد تشكيل الادرياتيك وقائد التشكيل حملة مصر، هوجم من قبل نلسون في أبي قير، ومات خلال المعركة.

١٢٦ ــ ماك Mack كارل (١٧٥٢ ــ ١٨٢٨)

جنرال نمساوي طوقه نابليون في الماء واستسلم دون قتال: حوكم وبُرِّئت ساحته.

١٢٧ ــ مورو Moreaw جان فيكتور (١٧٦٣ ــ ١٨١٣)

جنرال فرنسي قاد جيوش الشمال وجيوش الراين، وهزم الأرشيدوق شارل، وقاتل في إيطاليا، وساند نابليون في انقلابه، وعاد قائداً عاماً لقوات الراين، وانتصر في عدة مواقع ضد النمساويين. عزله نابليون وتركه يلجأ إلى الولايات المتحدة، ثم عاد عام (١٨١٣). عمل مع تسار روسيا، ومات في صفوف أعداء فرنسا متأثراً بجراحه في درسدن.

١٢٨ ــ مكدونالد Macdonald جان الكسندر (١٧٦٥ ــ ١٨٤٠)

ماريشال فرنسا انتصر في واغرام وبرز في لينبرغ. فاوض الحلفاء في تنازل نابليون عن عرش الإمبراطورية.

١٢٩ ــ برون Brune غليوم (١٧٦٣ ــ ١٨١٥)

ماريشال فرنسي قاد الجيوش في إيطاليا وهولندا. انتصر في برغن وفرض على الإنكليز مغادرة البلاد (اتفاقية الكمار). فقد حظوته عام (١٨٠٧)، وذهب ضحية موجة الرعب الأبيض.

١٣٠ ــ كيت Keith جورج (١٧٤٦ ــ ١٨٢٣)

فيكونت وأميرال بريطاني اشترك في أكثر حروب إنكلترا ضد فرنسا الثورة والإمبراطورية.

١٣١ ــ كاراكسيولي Caraceioli فرانسيسكو (١٧٥٢ ــ ١٧٩٩)

أميرال بوليتاني أسر وهو يقود أسطول جمهورية البارتينوبيه. شنقه نلسون على صاري بارجته.

١٣٢ ــ ماسينا Masséna أندريه دوق ريفولي (١٧٥٨ ــ ١٨١٧)

ماريشال فرنسا. اشتهر في معارك ريفولي وزوريخ، وفي حصار جنوة، استولى على مملكة نابولي، برز في معركة واغرام وانضم إلى البوربون (١٨١٥).

١٣٣ ــ كليبر Kleber جان باتيست (١٧٥٣ ــ ١٨٠٠)

جنرال فرنسي بدأ خدمته في الجيش النمساوي (١٧٧٧)، ثم استقال وعمل في القوات الفرنسية. خلف بونابرت في مصر، وشارك في مفاوضات العريش، ودحر الأتراك في هيليوبوليس. اغتيل في القاهرة على يد سليمان الحلبي.

١٣٤ ــ مينو Menou جاك (١٧٥٠ ــ ١٨١٠)

جنرال فرنسي خلف كليبر في مصر، ودخل الإسلام (١٨٠٠) واستطاع إعادة جيش حملة مصر إلى فرنسا.

١٣٥ ــ لامبودوس Lampedouse

جزيرة إيطالية بين مالطة وتونس.

١٣٦ ــ بول الأول Paul I بيتروفيتش (١٧٥٤ ــ ١٨٠١)

تسار روسيا أنشأه نيكيتا بانين واختلف مع والدته كاترين الثانية، زار أوربة الغربية وقدم خدمات كبيرة للعمال والفلاحين. ساند الأتراك ضد نابليون في حملته على مصر، وحارب فرنسا واحتل الجزر الايونية في عمليات (كورساكوف، وسوفوروف). دخل حلف الحياد المسلح الموجه ضد إنكلترا، مات اغتيالاً.

١٣٧ ــ بانين نيكيتا Panine (١٧١٨ ــ ١٧٨٣)

سياسي روسي كان وزيراً لكاترين الثانية. متحرر حاول تحسين أوضاع المضطهدين من عمال وفلاحين.

١٣٨ ــ باركر Parker سير ويليام (١٧٨١ ــ ١٨٦٦)

أميرال بريطاني برز في حروبه العديدة مع فرنسا، وعين قائداً عاماً للقوات البحرية البريطانية في الصين، وفرض الصلح عليها (١٨٤١).

١٣٩ ــ لاتوش تروفيل La Touche Treville لويس رينيه (١٧٤٥ ــ ١٨٠٤)

أميرال فرنسي قاتل في أمريكا، واستولى على بور أو برانس في سان دومينيك، ووصل إلى رتبة نائب أميرال.

١٤٠ ــ ادينكتون Addington هنري (١٧٥٧ ــ ١٨٤٤)

فيكونت بريطاني رأس الوزارة عام (١٨٠١) وفاوض في معاهدة آميان.

الباب الرابع

الصراع الفرنسي البريطاني
في عهد الامبراطورية البونابرتية

الفصـــل الأول

نابليـون وإنكلتـرا
والصـراع على إمبراطوريـة البحـر
الطـرف الأغـر

قبلت الحكومة البريطانية بنود معاهدة آميان التي تضمنت سيطرة فرنسا على البر الأوربي، تحت تأثير ضغط شعبي متزايد، كان بحركة فئة الصناعيين والتجار، بعد أن تأكد لهم أن السلام لا يحمل لهم نصراً، ولن يجعل جزرهم البريطانية في مأمن من طمع مغير.

وقد تلخص موقف الفرد البريطاني آنذاك بالمقولة التالية:

«كل شخص سعيد بالاتفاقية ولكنه غير فخور بها»

بيد أنّ رجال السياسة والقادة العسكريين كانوا أكثر الناس تعاسة. فهم باتوا يشعرون أن بلادهم أصبحت سجناً عاماً كبيراً حصر في داخله الشعب البريطاني بأسره، بعد أن جرد هذا الشعب من معظم نشاطاته التجارية الخارجية. وفرنسا الخصم الماثل لإنكلترا وراء المانش. يقول ويندهام Windham بل لديها القدرة الكافية على تدمير هذا البلاد لو رغبت، وتأملوا أن لا تكون عند فرنسا تلك الرغبة ــ ونحن ــ يقول ويندهام: بلد مغلوب عليه وبونابرت أيضاً سيد لنا كما هو سيد لإسبانيا وبروسيا ويردد قول كولينغوود الشهير:

«السؤال ليس أن نعرف هل سنصبح يوماً بلداً غالباً، بل نريد أن نعرف حقاً إن كنا سنبقى أمة».

وبالفعل فقدت إنكلترا كل نفوذ سابق لها على القارة الأوربية، وعادت تشغل جزرها فقط، بعد ن انتصب في طريقها عملاق كبير استطاع توحيد أوربة الغربية ضدها، بقيادة الخصم الدائم فرنسا. فبدا غدها مقلقاً، والاتفاقية الجديدة لا تقدم أية ضمانات تحميها من طموحات عدوها التقليدي. فتجد نفسها تتساءل «هل الحرب أفضل (كتب أدوارد كووك) من سلام يدمر اقتصاديات بريطانيا، ويلجم نشاطاتها المالية ويسلب منها نفوذها البري والبحري؟» حتى وجدت جواباً أقنعت به نفسها لتقول «على العكس الحرب تحفظ لنا امتيازاتنا التجارية وسيادتنا البحرية، وسلطتنا على كافة مستعمراتنا. فثلاث سنوات حرب مضت كانت أقل كلفة من هذا السلام العجيب».. «وكان الأجدر بنا عدم التسليم بتلك الاتفاقية الزائفة، وفرنسا ما كان بإمكانها تحمل المزيد من تلك الحرب حيث إنها بلا أرصدة، وبدون مال».

في الأيام التالية من توقيع الاتفاقية بدأ المطّلعون من رجال السياسة البريطانية التفكير بالأساليب لتحضير البلاد لحرب جديدة، من شروطها تحقيق ما غفلت عنه اتفاقية السلام، بإعطاء الشعب البريطاني نوعاً من الاستقرار السياسي الذي ينشده، وشطب كل السلبيات من بنود المعاهدة التي تركت الشعب الإنكليزي في حيرة من أمره، بنصوص مبهمة متروكة للمصادفات. وكأن هذه المعاهدة وفاق فني لا اتفاقية سياسية بنيت على الصمت، بباب مفتوح للطموحات، وألزمت كل جانب الحفاظ على مواقعه الحربية التي وصل إليها، مع استمرار تماس عسكري مباشر. وليس هذا بالطبع ما كان يطمح إليه أصحاب الصناعات الكبيرة في إنكلترا.. إنما كانوا ينشدون حقاً إقامة علاقات سلمية طيبة بين البلدين المتنازعين، بحيث تفتح أمام بضائعهم أسواق فرنسا الغنية، فيحيوا السمة السعيدة لمعاهدة عام (١٧٨٦). لكنهم أصيبوا بخيبة مرة عندما اكتشفوا قصوراً في مواد الاتفاقية وبنودها وأن لا شيء من أحلامهم السعيدة قابل للتحقيق.

في الحقيقة لم تكن الحرب وحدها السبب الرئيسي في إقفال الحدود على البضائع الأجنبية. بل من بداية الثورة الفرنسية كان القائمون على الحكم في فرنسا يسنون التشريعات الخاصة بالتبادل التجاري. وكلها تدور حول هدف واحد هو حماية المصنوعات الوطنية من الغزو الأجنبي لها. ويعود ذلك إلى كرههم الشديد لمن سبقهم في الحكم أيام الملكية، وتساهلهم الشديد في هذا المضمار. فإذا بهم يتمسكون بكل التصورات الليبرالية. ولم يكتفوا بذلك بل أشركوا البرلمان في قرارهم، وطلبوا منه التصويت على تعرفة جمركية ثقيلة (١٧٩١)، حدّت من تدفق البضائع الأجنبية المزاحمة. ثم

جاءت الحرب وجاءت المفرزات الثورية، فساعدت على تطبيق مجموعة تشريعات قانونية غرضها جعل التجارة الفرنسية أكثر مناعِة أمام المزاحم البريطاني :

أولاً : نقد بنود اتفاقية عام (١٧٨٦) والتشهير بها .

ثانياً : فسخ عام لكل الاتفاقيات التجارية .

ثالثاً : إقرار العقد الملاحي Acte De Navigation الذي خص السفن الرافعة للعلم الفرنسي وحدها بكل الأعمال التجارية بين المرافىء الفرنسية، وإقرار رسم (٥٠) فلساً (جزء من عشرين من الفرنك) لكل طن.

وأخيراً منع دخول أية بضاعة إنكليزية إلى المناطق الأوربية التي تحتلها فرنسا .

إن اتفاقية آميان بأسلوبيها الواضح والخفي لم تلغ الممنوعات، ولا أملت الحكومة البريطانية الوصول إلى بعض التسهيلات الخاصة بفتح أسواق فرنسا وأوربة أمام إنتاجها الوطني. لذا صدمت برفض قاطع، رافق ذلك عدة حوادث من مصادرات وإيقاف سفن الخ .. ووقفت الحكومة الفرنسية بما لا يقبل الشك موقفاً متشدداً وحريصاً على تطبيق القوانين التجارية والبحرية التي سنت حديثاً بكامل بنودها، وليس لديها استعداد للتهاون في شأنها. والمقصود بذلك كله حماية الإنتاج الوطني والمحافظة على أموال المستهلك .

وقد كره الشعب البريطاني اتفاقية آميان برغم استقباله الهادىء ذي بدء مرحباً مهللاً، بل وقد اعتبرها ضارة عديمة الفائدة كلها بالنسبة له وأنها جاءت لتقيد الشعب الفرنسي وحسب. وفهم أن النتائج الأولى لوقف القتال بين البلدين ليس انتشار البضائع والمصنوعات البريطانية في الأسواق الأوربية بل ارتفاع علم فرنسا فوق البحار والمحيطات .

وتأكيداً لهذا المحتوى اعتبر القنصل الأول بونابرت وشعبه اتفاقية السلام هذه بمثابة خطوة أولى على درب الدولة الكبرى المتعاظمة والمنتشرة حتى السيطرة الكاملة على العالم. وعلى فرنسا تجنيد كل الوسائط والإمكانات لتحقيق حلمها الكبير. وقد قال سوريل Sorel في هذا الشأن :

« بعد الحرب الطاحنة سيأتي سلام عظيم »

جهد نابليون في إطلالته الجديد على العالم بالظهور بمظهر المنقذ الذي يرأس حكومة عدل وسلام. فقد تسلح بمبادىء الثورة الفرنسية السابقة، ليعبر بوساطتها إلى كل بلد وإلى كل قرية. وهو يكره الحرب ومآسيها، ويعتبر خلاص فرنسا ــ من الأزمة العسكرية التي مرت بها حين تكتل

ضدها كل دول أوربة عسكرياً وسياسياً ـــ أمراً لا تقوى عليه دولة مهما عظمت قدرتها . وإن تجاوز مثل تلك الأزمة بشارة خير للشعوب المطالبة بحرياتها ، ودليلٌ على صحة الخطا وسلامتها .. وفرنسا رائدة دول عصرها مدعوة لأن تستعيد مكانتها المرموقة لتقود شعوب العالم نحو حياة أفضل . لذا عليها إعادة بناء جيوشها لصالح السلام ، والنهوض بمستواها الاقتصادي لمعونة المتخلفين ، وتسخير كل الطاقات الحيوية وكل القوى الإنتاجية دون إهمال ، وخاصة في المجال الزراعي . مع زيادة حركة التجارة الداخلية منها أو الدولية ، والتي اعتبرتها دوماً علامة من علامات عظمة الأمة وتقدمها .

لكن تلك الطموحات لم تكن لتنسجم حقاً مع واقع فرنسا . فبعد عشر سنين من الحروب المنهكة لم يكن لها خلالها إلا هدف الحفاظ على حريتها ، والدفاع عن حدودها ، ومقاومة التجمع الأوربي ضدها . فكانت شبه معزولة عن كل اتصال مع الخارج تعيش بمفردها تستهلك ذاتها ، وتهمل مصالحها الحيوية .. ولا بد لها بعد تلك السنين الطويلة من مرحلة تأمل وبحث لإيجاد العلاج الفاعل لمصاعبها العديدة :

كانت أولى الخطوات على درب الإصلاح :

ـــ إعادة تنظيم البلاد داخلياً ، وتأمين سلامة المواطنين وأمنهم ، وإيقاظ روح العمل الدؤوب .
ـــ الاهتمام بالنقل ووسائطه البرية والبحرية .
ـــ تحسين ظروف العمل التجاري ، وتوسيع مجالات تبادله في سبيل رفع المستوى الاقتصادي العام .
ـــ تشجيع الصناعات المحلية وتطويرها .. عن طريق دعم الصناعيين مالياً .. وحثهم على توسيع مصانعهم .
ـــ توجيه رجال الاقتصاد والمال وتشجيعهم على إقامة صناعات ثقيلة وحديثة تشابه في إنتاجها المصانع البريطانية .
ـــ حماية الإنتاج الوطني بسن قوانين تمنع مزاحمة البضائع الأجنبية وخاصة الإنكليزية .
ـــ رفض كل التماس يتقدم به الصناعيون الإنكليز لبيع سلعهم على الأرض الفرنسية ، ومهما لطفت شروطه لذلك .

ولقد كان لتشدد الفرنسيين أثر سيء لدى الإنكليز ، خصوصاً حين حلت البضائع الفرنسية محل البضائع الإنكليزية ، في كل من بلجيكا ووادي الرين والبلاد الألمانية والإيطالية . وقد قال بونابرت يصف السلام الذي قدمته اتفاقية آميان :

« هذا السلام لم يكن هدفاً بل وسيلة »

وكما قال نابليون، بدأت فرنسا تجني ثمار هذا السلام، وإذا بالجمهورية السيسالبينية تصبح الجمهورية الإيطالية ٢٦ كانون الثاني (١٨٠٢)، ويرأسها رئيس وزراء فرنسا، ثم تضم جزيرة ألبا، وتعود فرنسا وتحتل مقاطعة بيمون Piemont. وبذا أصبح كل شمال إيطاليا، وكل أراضي سويسرا ضمن إطار النظام الفرنسي. وانتشرت سلسلة من التمردات، وبعض الانقلابات العسكرية الصغيرة في الجوار، وانضمت جمهورية باتافيا مع عدة مقاطعات أخرى إلى الدولة الفرنسية.. الخ.. كل هذا وإنكلترا تنظر بقلق شديد لهذا التوسع السريع.. وأكثر ما أرعبها وصول يد فرنسا حتى بحر الشمال ومصب نهر الراين، باحتوائها الأقاليم المنخفضة روتردام Rotterdam، تيكسيل Texel وامدين Emden، وهذا ما جعل كوربيه Corbett يصف هذا التوسع بقوله:

«من هذا الاحتواء الخفي ستلد حرب جديدة، فالحرب نتيجة أحداث داخلية ولا دخل للأحداث الخارجية في إشعالها» وهكذا انفجرت مناطق السلام (الأمياني) من جديد.

لو أن فرنسا اكتفت بما اتفق عليه، وبقيت في حدود دول أوربة لهان الأمر على الإنكليز، لكن نابليون الطموح لا يقبل بذاك التقسيم الذي أقرته الاتفاقية، والقائل بجعل البر لفرنسا والبحار لإنكلترا.. لأن البحار معناها طرق التجارة الخارجية، ولا يمكن لدولة أن تحميها إلا بقوة بحرية قادرة، وبممتلكات عبر البحار تنتشر استراتيجياً في كل أرجاء المعمورة.

أرسل نابليون ما يزيد عن (٥٠) ألف مقاتل إلى ما وراء الأطلسي لاستعادة إمبراطورية المستعمرات، ليعوض عما ضاع أيام لويس الخامس عشر. وحتى لا يغضب الولايات المتحدة الأمريكية رد بيع لويزيانا من قبل الإسبان، ثم أرسل الجنرال ديكان Decaen إلى الهند والكابتن بودان[١٤١] Baudin إلى أوستراليا بحجة بعثة ظاهرها علمي، وحقيقتها إقامة مؤسسة استعمارية في القارة الجديدة، مزامناً بعثاته تلك مع إعادة إنشاء سريع لسلاح البحر، وبقدرة تتماشى مع سعة الجمهورية الفرنسية، ومصالحها الاقتصادية. وعندما تأزمت أوضاع سان دومينغو، واشتدت المطالبة بالاستقلال، أنزل نابليون إلى البحر كل القوى المتوفرة لديه. وهذا التصرف رفع من شدة تخوف الإنكليز، وزاد اقتناعهم بسعة أطماع نابليون وطموحاته الواسعة التي تصل حتى الهيمنة على العالم كله. وتأكد لديهم بما لا يرقى له شك أن التعايش بسلام غير قابل للتحقيق مع دولة طامعة قوية كفرنسا.

هكذا كانت الظروف المحيطة بالبلدين فرنسا وبريطانيا. ومن هذا المنطلق غدت الاستعدادات لحرب جديدة في غياب القناعة بجدية السلام الهش الذي تمخضت عنه معاهدات

آميان .. وتحولت الدبلوماسية البريطانية الهادئة الودية والمتسامحة إلى دبلوماسية متعجرفة عدائية، تشرح لمواطنيها ضرورة إشعال الحرب لإقامة سلام مقنع. وبذلك تقلصت فكرة مقاومة الحروب لدى بعض الفئات، وأخذ يحل محلها حتمية القتال. وقد أكد ذلك التصويت البرلماني الذي أعطى فكرة الحرب (٣٦٧) صوتاً ضد (٦٧) صوتاً فقط، حتى إن أكثر الرجال خصومة لرئيس الوزراء بيت اللورد غراي Grey أيد الخطة القتالية بمزاج عدائي.

جاءت أحداث المتوسط سبباً في تصعيد الأزمة إلى ذروتها .. ويبدو أن إنكلترا، وبعد نصرها الساحق في أبي قير، اعتبرت هذا البحر من البحار التي تسودها، وعليها التمسك به والمحافظة على تلك السيادة، لما لها من أثر إستراتيجي كبير على مصالحها في القارة الهندية. إلا أن هذا الاعتبار لم يرق لنابليون وقد قال فيه:

«البحر الأبيض المتوسط يخص البلدين فرنسا وإسبانيا بموجب موقعهما الجغرافي».

وهذا القول اضطر فرنسا بعد إخلائها لمصر، إلى رفض إخلاء توسكانيا، وعلى العكس التمسك بها وتعزيزها عسكرياً، حتى لا تقع ليفورنو مرة ثانية في قبضة الخصوم، وتعود كما كانت سابقاً مركزاً تعبوياً ولوجستياً لإنكلترا في المتوسط. وجاءت أوامر نابليون في الإبقاء على جنوده في مملكة نابولي وانكونا، للتعويض عن خسارة موقع الجزر الايونية التي سقطت في أيدي الروس، وكذلك تعزيز حاميته في كورسيكا، والتفكير الجدي في احتلال جزء من شواطىء الجزائر. ومنها العودة ثانية إلى الشرق، حلمه الكبير مقلداً بذلك أباطرة روما السالفين.

من خطوات نابليون الأولية في غزو الشرق من جديد، إيفاد برون إلى الهند، وسباستيان إلى سورية ومصر (١٨٠٢)، وإقامة علاقات وطيدة مع الجهات السياسية هناك. وقد نشرت مجلة المونيتور Monitéur في ٣٠ كانون الثاني (١٨٠٣) تقريراً تحليلياً خلصت فيه إلى نتيجة لم تكن متوقعة تقول «إن الظروف السياسية والعسكرية أفضل ما تكون لاستعادة احتلال مصر .. وإن ستة آلاف مقاتل فقط قادرون على تحقيق ذلك» .. إلا أن الحقيقة كانت بعيدة كل البعد عن الواقع. ولم يكن التقرير إلا خدعة دبلوماسية ولدت إحساساً جديداً بخطر وشيك لدى جميع البريطانيين، فعقدت الوزارة اجتماعاً مطولاً وعاجلاً، وخرجت بقرارات تؤيد مطالب الشعب الإنكليزي بسلوك أسلوب الاستعداد للحرب، من باب الحيطة، لعلها تلجم أطماع نابليون التوسعية، والتي بدت تزيح عن وجهها اللثام.

كانت معاهدة آميان قد نصت على إعادة جزيرة مالطة إلى القوات النابوليتانية، خلال أربعة أشهر من التوقيع. لكن شيئاً من هذا لم يحدث واستمر الإنكليز باحتلال الجزيرة لمركزها الاستراتيجي الكبير.. إلا أن نابليون. وكعادته استدعى سفير بريطانيا في باريس اللورد وايتورث Whitworth، وطالبه بإبلاغ حكومة بلاده ضرورة إخلاء الجزيرة. وهدد وتوعد خلال اللقاء الصاخب ١٨ شباط. فانسحب على أثر ذلك السفير البريطاني. وفي ٨ آذار بدأت إنكلترا بتعبئة ميليشياتها العسكرية.. فردت فرنسا على ذلك بالمثل.

رفضت بريطانيا التقيد بالشروط ما دامت فرنسا لم تنفذ تعهداتها في إخلاء البيمون Piemont والفاليه Valais، وسويسرا وهولندا. وهكذا تبودلت الاتهامات وبقيت إنكلترا سيدة المتوسط برغم شكوى بونابرت ولجوئه إلى لجنة تحكيم عليا، للفصل في النزاع الخاص بهذا البحر. وأخيراً رضخت فرنسا مرغمة، واحتفظت إنكلترا بمالطة. وقد وعدت بإخلائها خلال عشرة أعوام.. إلا أن الموقف ازداد تأزماً بين ١٣ و ١٦ مايس، وجرى سحب السفراء. وفي ١٨ منه دوت أصوات المدافع في خليج أوديرن Audierne إيذاناً بعودة العمليات الحربية بين البلدين.

طبقت فرنسا، تخلصاً من الفوضى السابقة في قواتها البحرية، أسلوباً جديداً في إدارة مرافئها الحربية والتجارية، يتلخص في تعيين رجل مسؤول على رأس إدارة كل ميناء أطلق عليه اسم الحاكم البحري Prefer Maritime، جمعت في يده كل السلطات المدنية والعسكرية، وجعلته المسؤول الوحيد ذا القرار النافذ، واتصاله مباشر مع الوزارة، وهو نوع من تركيز السلطة بيد واحدة كما كان معمولاً فيه قبل الثورة، ولكن بأسلوب أفضل، وحرص نابليون على حسن اختيار هذا الحاكم بغض النظر عن كونه عسكرياً أو مدنياً، المهم أن يتحلى بجميع الصفات المطلوبة في هذا المنصب، لأداء دوره بالكامل في مهمة واسعة وحساسة يعتمد عليها في بناء قوة فرنسا البحرية.

عمل بالنظام الجديد في إدارة البحرية اعتباراً من ٢٠ تموز (١٨٠٠). وسرعان ما ظهرت نتائجه الباهرة للعيان. وأولى الثمار كانت وقف الخصام الحاد بين أهل السيف وأهل القلم. وانصرف الجميع لمهمة بناء السلاح البحري ومنشآته، وعلى جميع الأصعدة، وضمن أطر حديثة.. إلا أن سرعة إعلان الحرب (١٨٠٣) لم يدع الفرصة الكافية لاستكمال الخطا، ودخلت فرنسا الحرب وهي لا تملك أكثر من (٣٠) بارجة حربية موزعة، (٢٠) منها في برست و (٤) في روشفور و (٧) في طولون.

مرت بحرية إنكلترا بأزمة هي الأخرى.. واستدعى جيرفيه العظيم بطل سان فانسان وأسند

إليه منصب اللورد الأول في الأميرالية البريطانية. وسرعان ما وجد نفسه منسجماً في تلك المهمة الرفيعة، فقاد خطواتها الجريئة بكثير من الشدة حتى وصفه نيلسن بقوله:

«يستعمل فأساً في عمل قد يكفيه موسى صغيرة».

وغالباً ما كان يرسل السفن ولم تكن قد استكملت عدتها أو تدريبها، فهو من المدرسة الجديدة مدرسة إبحار السفن وإبعادها عن الموانىء. وقد حرك ذلك غضب الجماهير، ووجهت الملامة أحياناً لوزارة ادينكتون على تصرفات لورد أميراليتها الأول. إلا أن ذلك لم يقلق الأميرال العظيم، وتابع مسيرته في تعزيز عظمة أساطيل بلاده. فبلغت قوة المملكة المتحدة البحرية مائتي بارجة حربية، بعضها من النوع الثلاثي السطوح، وتعد من أجمل وأقوى سفن العصر. يضاف إلى هذه القوة مجموعة من الطرادات الخفيفة ذات الخمسين مدفعاً السريعة الحركة، اعتمدت للمهمات البعيدة، ولم يكن لها مثيل في أسطول فرنسا. إلى جانب عدد كبير من الفرقاطات والسفن الحربية المساعدة، متفوقة في النوع وفي الكم. وقد جهزها بمقاتلين أكفاء حتى بلغ عدد العاملين في سلاح البحر (١٤٠) ألف رجل، يعاملون بأفضل الشروط الحياتية، ويقودهم أمراء بحر متخصصون، سطروا على مر السنين ملاحم بحرية خالدة، زرعت في قلوب مرؤوسيهم ثقة وفداء مطلقين.

استعدت إنكلترا بسرعة لحربها الجديدة. وفي مدة لا تتجاوز ثلاثة الأشهر أرسلت إلى البحار (١٠١) بارجة و (١٢٥) طراد وفرقاطة، وبعد عام ارتفع هذا العدد حتى بلغ (١٨٩) بارجة و (٢٢٦) طراداً وفرقاطة. وأضافت إليها (٢٧٤) سفينة تسمى سلوب Sloop أو وحيدة الشراع.

في ١٧ مايس خرج كورنواليس بتشكيل المحيط، واتجه نحو مدخل ميناء برست، في مهمة حصار وقتال استمرت خمسة عشر شهراً.. وفي الوقت نفسه أقلع نلسون إلى المتوسط ليفرض هناك احترام سيادة إنكلترا البحرية. وبذلك جمدت مجموعات فرنسا البحرية في مواقعها، لأنها لم تستكمل بعد استعداداتها، ولأنها لا تقوى على مجابهة قوى بريطانيا المتعاظمة.

استمر الموقف جامداً، وإنكلترا سيدة البحار، وفرنسا محجوزة في الخلجان. وهذا ما دفع نابليون لاتخاذ قراره الشهير بترك المستعمرات تتصرف بمفردها، وتدافع بوسائطها المتوفرة. إذ إن كل محاولة لمد يد العون إليها عن طريق إرسال الحملات البحرية ستبوء بالإخفاق. وقد يضاف ذلك إلى قائمة الانتصارات الإنكليزية المتزايدة.. وستكون انتصارات سهلة لاختلال توازن القوى البحرية بين الخصمين المتنازعين. وهنا يشهد التاريخ تراجع نابليون عن أحلامه التوسعية، وانصرافه لمعالجة

مشاكله المستجدة.. خصوصاً بعد تعرض العديد من مستعمراته لمصاعب، وإغارات حدثت في كل من سانت لوسي.. وسان بيير، وميكلوز الخ، بعد أن فقدت فرنسا من قبل سان دومينيغ، التي انتقلت بعد صراع طويل إلى لائحة الممتلكات البريطانية، وأصبح اسمها هايتي Haiti في ٨ تشرين أول (١٨٠٤).

أسطول حملة بولونيا

كانت سيادة فرنسا على البر الأوربي ساحقة ومطلقة، لم تجسر أية قوة برية على التصدي لها. فخلال ثلاثة أسابيع، وبدون مقاومة تذكر، اجتاحت فرنسا مورتييه Mortier وهانوفر، ووصلت نهر ألبا. وكانت على استعداد تام للمضي في كل الجبهات البرية. لكن هذا كله ما كان ليبدل الموقف العام، ولا يقدم الحل الناجع. إذ بقيت فرنسا عاجزة عن فرض إرادتها على إنكلترا. وإنكلترا عاجزة هي الأخرى، وبدون حلفاء أو جيوش برية أن تستعيد أقدامها على البر الأوربي. وبالفعل فإن بلداً تعداد سكانه (١٥) مليوناً غير قادر على الوقوف أمام فرنسا التي تعد أكثر من (٤٥) مليوناً، برغم نشاط أسطول إنكلترا الكبير، وقصفه خلال الأشهر الثلاثة الأولى آلاف القذائف على المنشآت والمدن الساحلية من كاليه حتى غراندفيل. فالخسائر المادية التي أصابت الشاطىء الفرنسي لم تتعد الـ (٤٥) ألف فرنك آنذاك، أما الخسائر البشرية فلا ذكر لها لضآلتها. وهذا الأسلوب من القتال لم يكن في يوم من الأيام ذا شأن كبير. ومع ذلك كله، وبرغم عجز الطرفين عن النيل من أراضي الطرف الآخر لتضارب واختلاف الوسائط، لم يفكر أحد في العودة إلى طريق السلام وللدبلوماسية في حل العقد.

في حزيران من العام نفسه ناشد القنصل الأول نابليون روسيا وطالبها بالتدخل لحل أزمة مالطة فقط. لكن الوساطة لم تجد نفعاً، فالإنكليز لا يوافقون على سلام يعيدهم خطوات إلى الوراء، ويحفظ لفرنسا سيادة برية مطلقة على البر الغربي الأوربي، وروسيا الوسيطة لم تكن صادقة في تحركها. فقيصرها يرغب هو الآخر في دخول المتوسط بكثافة، ليقضم بعض الممتلكات المتوسطية الخاصة بالإمبراطورية العثمانية، وبحضور كل من فرنسا وإنكلترا كخصمين لا صديقين، لأن ذلك يسهل مهمته.

إلا أن تعنّت الإنكليز وعنادهم اضطر الفرنسيين إلى المناداة بالحرب الشعبية بقيادة القنصل الأول القائد الكبير.. لتكون حرباً مصيرية تضرب في القلوب، ولو أدى ذلك إلى الذهاب حتى عاصمة الجزر البريطانية لندن.. وإملاء الشروط عليها. وجيش الشمال وقد احتشدت قواته

منذ مايس كان التعبير الصادق عن مشاعر كل فرنسي، وآمال الحكام. فهو جيش جرار متمرس ضم خيرة القادة، وتحلى بالشجاعة والإخلاص، ولا ينقصه إلا الوسائط البحرية التي تؤمن حمايته، ونقله عبر بحر المانش إلى أرض المعركة المقبلة في الجزر البريطانية المجاورة. وللأسف لا الأسطول الحربي بالحجم الذي يغطي حماية العبور، ولا الأسطول التجاري قادر على تنفيذه. وأفضل السبل في أدمغة القادة آنذاك والذي قد يحقق المهمة بمدة وجيزة، هو اعتماد الخطة القديمة التي طرحت وبدىء في تنفيذها عام (١٧٩٧) وعام (١٨٠١).. وتتلخص ببناء أسطول حاشد من الزوارق الصغيرة، بعضها مسلح بمدفعية ثقيلة.. واعتباراً من شهر تموز صدرت التشريعات اللازمة، وأعقبتها الأوامر التفصيلية، تطلب إعداد السفن الحربية التي بدىء بتعميرها، ثم بناء كل ما يلزم من سفن وزوارق، وتسليحها وإعدادها لصالح مهمة العبور.

نشطت ورش بناء السفن في كل مكان حتى داخل الخلجان والموانىء النهرية، وبدأت عملية مد هياكل الزوارق المسطحة القيعان بالمئات. وما إن يجهز الزورق حتى يساق عبر القنوات والأنهر إلى المصبات النهرية، حيث تحشد هناك وتنقل إلى موانىء التجمع الرئيسية والتي أهمها بولونيا وجوارها، وتتجمع هناك بحماية مظلة من مدافع القلاع الساحلية، وداخل مصب نهر ليان، حيث جهز حوض نصف دائري رُصَّت الزوارق فيه جنباً إلى جنب وبصفوف عشرة، وكذلك الأمر في الموانىء الأخرى حتى وصلت كاليه ودونكرك واوستاند، وكلها محمية بمظلة مدفعية يقال إن بولونيا وحدها كانت تمتلك على مرتفعاتها وقلاعها ما يزيد عن (٥٠٠) مدفعٍ.

أسندت عملية التحضير والإعداد للأميرال الكبير برويكس الذي وزع سفنه القتالية على فصائل وألوية وأساطيل. وخصص كل مجموعة لوحدة برية معينة، وأقام المشاريع التدريبية المتكررة والعديدة، متوخياً تدريب البحارة والجنود على المناورة والقتال سوياً. وتضمنت عمليات إنزال وإصعاد ضمن مشاريع تكتيكية، وتحت غطاء من مدافع الأسطول. أما تدابير الحيطة فقد أعطيت كامل الوسائل، أمن فيها الرصد البعيد بوارج كبيرة رست في مداخل الموانىء تقلع بالتناوب من آن لآخر، لتأمين المراقبة البعيدة وتعويد الرجال على حياة البحر، وزرع الثقة في نفوسهم، ولإيهام سفن الخصم بمناورات وهمية تجعله مشدوداً يترقب تحركات سرية. وكان لا يخلو ذلك من اشتباكات قتالية لرفع روح معنوية المقاتلين. ضمت مجموعة نقل واقتحام بولونية، وحدات من الحراقات الخاصة يطلق عليها اسم برام Brames (غراب) وهي سفن ذات هيكل خاص تحمل (١٢) مدفعاً ضخماً من عيار (٢٤)، بالإضافة إلى وحدات السفن الصغيرة وكانت على نوعين:

ــ زوارق مدفعية تقوم بمهمة الاقتحام والرمي المدفعي.

ــ قوارب نقل يبلغ طول أكبرها (٢٤) متراً سميت باللوغر Lougre، تحمل مدفعين أو ٤ مدافع من عيار (١٢) أو (٢٤)، وتستطيع نقل سرية مشاة كاملة، وقوارب أصغر منها سميت بالبنيش Peniche والقايق Caiique. وهي قوارب عادية غير مسلحة ليس لها سطح علوي تسير بالمجذاف غاطسها لا يتعدى الـ (١٥٠) سنتمتر، أما قعرها فمسطح ومدعم يستطيع الجنوح على الشواطىء. وهي بمثابة صنادل للإنزال على البر حيث تنقل جنود المشاة وتقترب بهم حتى رمال الشاطىء، تحميها مدافع الزوارق المسلحة، وهي لا تحتاج لميناء أو رصيف. وقد لحظ في هذين النوعين من القوارب تأمين مهمتين أساسيتين: نقل الجنود والعتاد، واقتحام الممرات والعوائق. وتحمل أسلحة ثقيلة تستطيع الاشتباك مع أكبر السفن فهي سريعة الحركة، سهلة المناورة بمجاذيفها العديدة.. صعبة الإصابة لصغر حجمها.. أما أسلوب قتالها فقد كانت تحتشد بمجموعات من (٢٠) إلى (٤٠) زورقاً، تتقدم بالنار والحركة مستخدمة كل مدافعها حتى تصل رمال الشاطىء بفعل غاطسها الصغير، فتفرغ حمولتها من المقاتلين، وإن اعترضها هدف بحري كبير، تناور لتحيط به وتفتح نيرانها عليه من كل جانب، وكانت قادرة على التغلب على أي هدف حربي عائم بقوة نيرانها، وسرعة مناورتها بأقل الخسائر.. وكل ما تحتاج إليه بعض الشروط الطبيعية نلخصها بالتالي:

ــ اختيار أول يوم هادىء الريح عقب عاصفة، وهذا الشرط أي (ريح ساكن) يحرم شراعيات الخصم من قدرة المناورة السريعة، أما شرط (بعد العاصفة) فتكون سفن الخصم قد أقلعت مبتعدة عن الشواطىء والصخور وهذا يعني أنها أخلت المداخل ولن تعود إليها إلا بعد هدوء الريح، وتكون سفن الاقتحام قد تجاوزت حصار مداخل موانئها.

ــ استغلال ليل مظلم لا قمر فيه، في دور المحاق القمري، أو ليل كثيف الغيوم وهذا يسهل عنصر المفاجأة، ويفضل أن يكون الفصل شتاءً، حيث تخلو الساحات من كثافة الأعين والمراقبة.

وقد التزم العديد من قادة البحر في فرنسا الصمت فيما الاستعدادات قائمة، وكانوا لا يرون نجاح الحملة بالحماسة نفسها التي يراها أترابهم من المؤيدين، ويعتبرون كل هذا مغامرة مناقضة للواقع، والعلم، خاطئة وخطيرة.. وأثرها الوحيد هو الثمرة التي جنيت بتسرب أخبارها إلى الجانب الآخر، فزرعت الخوف في قلوب سكان الشواطىء الإنكليزية من تورباي وهول حتى وصل الرعب شواطىء ايكوسيا الشمالية.. ولرفع وقع هذا الشعور من قلوب المواطنين رضخ ادينكتون لضغط جماهيري، وقرر تنفيذ الخطوات اللازمة لإفشال هذا الغزو، وذلك بتقوية الدفاعات الساحلية

بإضافة أبراج مدفعية جديدة، مع إقامة مواقع وحدات مشاة للتدخل قرب الشواطىء القابلة للإنزال. وإلى الخلف نظمت خطط إخلاء الشواطىء، حتى إن هذا شمل مدينة لندن نفسها. ثم أقيم جيش الاحتياط ومهمته قتال المهاجمين على البر الإنكليزي، وطورت قوات الميلشيا واستدعي العديدون للخدمة، حتى إن بيت رئيس الوزراء السابق عاد برتبة عقيد احتياطي. وهكذا استطاعت إنكلترا، وخلال أشهر قليلة تعبئة (٧٠٠) ألف رجل للدفاع عن الجزر. ولو أن العديد منهم لم يكن سلاحه إلا عصا أو وتد.

وفي البحر.. اعتمدت بريطانيا نظام البلوكوسات العائمة، وهي سفن حربية انتشرت على طول الساحل كنقاط مقاومة بحرية لحين وصول ألوية الدعم، أو أساطيل الإسناد القريبة، والمكلفة بمراقبة المرافىء الهولندية المجاورة. إلا أن الأميرال جيرفيه لم يهمل قط مراقبة شواطىء ومرافىء فرنسا، إذ خصص لكل ميناء حربي أسطولاً يراقب ويقاتل وهو بالقوة الكافية لكل طارىء. أما في حالة نجاح أية مجموعة فرنسية بخرق الحصار فتلاحق بكافة الوسائط لتدمر قبل وصولها الشواطىء الإنكليزية. وفي حال فقد الاتصال بها، على كافة المجموعات البحرية المتواجدة في المنطقة الإسراع إلى مداخل بحر المانش الذي اعتبرته بريطانيا الخط الدفاعي الأول عن بلادها، والذي يجوبه بشكل دائم الأميرال كورنواليس على رأس الأسطول الكبير. وقد وزعه قائده إلى خمس مجموعات يرسل، إحداها بالتناوب، لمراقبة مدخل برست بصورة مستمرة. وفي حالة الطقس السيء يسمح لتلك المجموعة باللجوء إلى خليج دوارنونيز المجاور، حتى مرور العاصفة. أما باقي المجموعات فتجوب المنطقة، وقد حرم عليها تجاوز شرق خليج تورباي. وتكون على اتصال دائم مع وحدات مراقبة روشفور وفيرول (الشاطىء البلجيكي). وخصص لها موقعان فقط تلجأ إليهما في حالة العواصف الشديدة وتبعاً لجهة الريح. إما أمام الايرواز Iroise، أو إلى الجنوب من آرمين Ar-men.

مضى عام (١٨٠٣) بكامله.. وخلافاً لكل التوقعات، لم يبدأ هجوم فرنسا. فهل كان نابليون حقاً جدياً في تنفيذ عملية اجتياح البر البريطاني لأنه ذكر بعد أعوام عدة وبالتحديد في عام (١٨٠٠) ولمترنيخ القول التالي:

«لم أصل بعد إلى درجة من الجنون تدفعني إلى النزول على الأرض الإنكليزية. ولا أفعلها إلا في حالة نشوب ثورة قوية هناك. أما حشدي للقوات في بولونيا فكانت دوماً موجهة ضد النمسا، وأنت تعلم شدة قرب بولونيا من النمسا».

وبالفعل ما كانت خطة النزول إلا حجة لتحضير وتدريب الجيوش في معسكرات بعيدة عن

المدن ومشاكلها، لإقامة قوة عسكرية كبيرة يواجه نابليون فيها العالم الأوربي، وتجاوزاً للعالم بأسره كما يخيل له. لكن برغم ما قاله نابليون أو صرح به فإنه من الصعب تصديق صرف مئات الملايين من الفرنكات في وسائط النقل، والدفاع البحرية دون وجود النية الفعلية في الغزو. أما لو كانت العملية تظاهرة احتيالية فبإمكانه الوصول إليها بسهولة أكبر، دون تبذير تلك الأموال الطائلة. والصحيح المقنع هو أن نابليون عزم في البداية على الاجتياح، وقرر خوض التجربة، ولم يتراجع عنها إلا بعد أن لمس ضعف ما أعده، وعدم صلاحيات الوسائط وفاعليتها، في حين جاءت البرمجة سليمة ووصل عدد السفن الخاصة إلى (١٨١٠) سفينة في مطلع عام (١٨٠٤) من أصل (٢٠٠٨). واستطاعت التجمع في بولونيا وجوارها، ولم يتخلف عنها إلا السفن التي بنيت في الموانىء المطلة على المحيط الأطلسي، (وصل من أصلها (٢٦) سفينة أما الباقي فلم يستطع اختراق سفن المراقبة والحصار، وبقيت في مواقعها حتى بعد إلغاء الحملة.).

وصف نابليون فيما بعد تحضيراته البحرية بأنه مهما أطريت فليست إلا سفناً فاشلة لا تستطيع حتى في أهدأ الظواهر الطبيعية من بحر وريح استخدام مدافعها الثقيلة بشكل سليم. لأن تلك المدافع لا تتناسب وصغر حجم السفن. أما سيرها فبطيء شراعياً كان أم مجذافاً. وتبدأ في تلقي ماء البحر وهذا يعني احتمال غرقها لمجرد وجود موج بسيط، فهي بعيدة كل البعد عن تحمل أية أنواء بحرية مهما صغر شأنها، وتصبح حركتها شبه مستحيلة، فكيف يمكنها ركوب البحر في الظروف الطبيعية الصعبة؟ وكيف لها أن تواجه سفن الخصم وهي الأضعف والأصغر؟ عندما تكون هي بمصاعب مع الطبيعة ومع نفسها. أما بالنسبة للعبور شتاءً وتأمين عنصر المفاجأة فهذا أمر مستحيل، لأن تلك السفن مضطرة للرسو خارج المرفأ خلال الأشهر الواقعة بين تشرين الثاني ومايس وهذا مرفوض بسببين: تواجد سفن الخصم، وعدم تحملها أنواء الشتاء. أما إذا رُصَّت داخل الأحواض فهي لا تستطيع الخروج منها إلا بمعدل مائة سفينة تقريباً في كل مد بحري (موانىء بحر الشمال والمانش معروفة بظاهرتي المد والجزر الكبيرتين. وعند حدوث الجزر تجنح السفن على رمال الميناء ولا تطفو إلا بعد ست ساعات. أي خلال المد الذي يلي لأن الظاهرة نصف يومية). وحتى يتم إخراج جميع السفن، وإصعاد الجنود عليها، وتسييرها لمنطقة العبور، يحتاج ذلك لعدة أيام ويكون الخصم قد تنبه واستعد للقائها. وبذا تنعدم المفاجأة المنشودة. أما إذا بدأت العبور وفاجأها الخصم هناك فكأن الجنود قد نقلوا إلى ساحة حرب كبيرة ستنتهي بالغرق أو الاستسلام. أما العبور على بوارج حربية قوية فهذا أسلم وأضمن، لكن من أين لفرنسا بالبوارج اللازمة لنقل (١٥٠) ألف

مقاتل و (٨) آلاف حصان و (٤٠٠) مدفع .. وظروفها المالية تكاد لا تكفي نفقات جيوشها البرية .. وأعباءها الدفاعية . لهذا كله تخلى نابليون في عام (١٨٠٤) عن العملية نهائياً . وصدرت الأوامر إلى الأساطيل أن تعمل وكأنها قوى احتياطية ، تقوم بعمليات تقليدية بحرية مستقلة . وأسطول فرنسا في برست لا يضم إلا (٢٠) بارجة في حين تربّص له كورنواليس في المياه المحيطة به بتشكيل ضم (٢٥) بارجة يردفه ما يزيد عن (٤٠٠) بارجة وزعت ضمن مجموعات دعم بإمرة كل من الأميرلات سوماريز وكيت ، وسيدني سميث الخ ..

وفي المتوسط حافظت الأميرالية البريطانية على تقليد قديم وهو إسناد منصب قائد الأسطول إلى رجل شجاع قدير . وقد برهنت الأعوام الأخيرة على أهمية سيادة هذا البحر الصغير نسبياً ، وأثر ذلك في امتداد نفوذ بريطانيا فيه .. فأوكلت المهمة إلى الأميرال الشاب نلسون . وكان نده في الجانب الفرنسي الأميرال لاتوش تريفيل .

لم تسنح الفرصة لهذين القائدين الكبيرين دخول اختبار قتالي بينهما ، إذ عاجلت المنية أميرال فرنسا ٢٠ آب (١٨٠٤) ، حيث قضى على سفينته بوسانتور ، كما قضى الأميرال الفرنسي برويكس Bruix هو الآخر في أثناء قيامه بالواجب ، وبغياب هذين القائدين أسند ديكريه قيادة المتوسط إلى فيلنوف Villenewve الضابط الشجاع والذكي ، الذي برز في معركة أبي قير ، وفي عدة مواقع أخرى .

تبدلت العلاقات السياسية بين الأمم ، ونهجت كل دولة منهجاً مختلفاً ، ففي إنكلترا سقطت وزارة ادينكتون ، وعاد بيت للسلطة من جديد ، وألف وزارة وطنية قوية ، كل همها القضاء على القوة البحرية الفرنسية المتنامية ، والتي غدت تهدد تهديداً مباشراً البر البريطاني .

طلب بيت من الأساطيل الإنكليزية القوية مخر عباب البحار ، والتفتيش عن الخصم الفرنسي وقتاله وتدميره لتحقيق أمن متكامل للجزر البريطانية وشعبها ، وبصورة نهائية .. إلى جانب ذلك كرس بيت جهوداً دبلوماسية كبيرة لتخفيف حدة التهديد المتربص له في بولونيا (فرنسا) . والظاهر ، أن الظروف كانت دوماً في خدمة بريطانيا ، إذ إن تتويج نابليون إمبراطوراً على فرنسا ١٨ مايس (١٨٠٤) أزعج ملوك أوربة القدامى ، وهدد عروشهم ، وأكد من جديد تحذيرات بريطانيا لهم فيما يتعلق بسعة طموحات هذا الإمبراطور المحدث ، خصوصاً بعد حادث اختطاف وإعدام دوق اينغهن Duc D'Enghien ، الأمر الذي أغاظ نبلاء أوربة ، وقدم لهم الدليل الساطع على أطماع حكام فرنسا ، حتى وصل الخوف قلوب كل النبلاء والملوك ، بعدما خاطبت الثورة الفرنسية

شعوبهم تحضهم على الثورة ضد السلطات العابثة بالقوانين، والخارقة للأعراف، والسالبة لحقوق المواطنين المشروعة.

بدأت روسيا تحركاً معادياً لفرنسا وثورتها الشعبية. فاستدعت سفيرها واستبدلته بقائم أعمال. وهنا سارع بيت رئيس وزراء بريطانيا إلى استغلال الحدث بدبلوماسيته الثعلبية، وطالب روسيا بالانضمام إلى صفه، وأقنعها بربط مصيرها بمصيره.. وهكذا بدأت خيوط تكتل جديد مضاد لفرنسا أشرف على تدبيره بيت بدهاء ومكر.

أعلنت روسيا مطالبتها ضمان أمن جنوب إيطاليا التي كانت تتعرض لزحف فرنسي بقيادة الجنرال غوفيون سان سير Gouvion Saint-Cyr. واعتبر هذا المطلب وحده سبباً لإشعال حرب أوربية جديدة. وتأهبت كل من السويد ونابولي تنتظر الإشارة لتنضم إلى التكتل. وباركت النمسا الحلف، وهي لم تنس بعد كوارث الحرب الماضية. وأخيراً انضمت بروسيا، وهي الدولة الأكثر استعداداً لدخول مثل هذا التجمع، بعد أن أهينت دولياً إثر اعتقال الوزير البريطاني رومبلدت Rumboldt في هامبورغ. وقد اعتبرت هذا الإجراء خرقاً للأعراف الدولية، ولحقوق الإنسان والتي اعتاد نابليون الاتيان بمثله من آن لآخر.

بدأ أفق السياسة الدولية حالك السواد بالنسبة لفرنسا. وضاعت جميع فرص إعادة الثقة إلى شعوب الدول المجاورة، ووجد نابليون نفسه ضمن ورطة كبيرة. فما هي إلا أيام حتى احتشدت على طول حدوده قوات بلغت (٧٠٠) ألف مقاتل جاءت جميعها تسترد اعتبارات عسكرية سابقة. وتلك مغامرة كبيرة محفوفة بالأخطار، مجهولة النتائج. فهل ستقوى فرنسا نابليون على تخطيها.

ظهرت نظرة متشائمة على تصرف نابليون. فقد كتب إلى ديكريه Decrés إثر تعيين القائم بالأعمال الروسي اوبريل Aubril (إنذار قطيعة دبلوماسية وشيكة بين البلدين) يقول:

«من الصعب التكهن بما سيحدث خلال الأشهر الثلاثة المقبلة، أبطل كل العقود والالتزامات، وتحفظ علي كل ما تستطيع حمايته».

وطبعاً وإثر هذا التوتر الأوربي الساخن غابت فكرة غزو بريطانيا، وترقبت القوات الفرنسية المحتشدة في بولونيا وجهة جديدة، أو لعلها ستقوم بدورين أساسيين هما: استمرار تهديد الجزر

البريطانية ، وتهديد النمسا ، في آن واحد . والنمسا كما نعلم الدولة الأكثر عداء لفرنسا على الساحة الأوربية .

بالنسبة للقوات البحرية الفرنسية فقد طلب إليها القيام ببعض الأعمال البحرية الإيجابية ، أهمها مشاغلة أساطيل إنكلترا ، لإجبارها على تطبيق حالة استنفار دائمة إزاء خطر خارجي محتمل ، ولمنعها من الحضور أو مساندة أية جبهة ساحلية أوربية .

صدرت الأوامر بإقلاع أسطول برست لينقل جيش الماريشال أوجيرو Augereau إلى إيرلندة ، وفي الوقت نفسه طلب من أسطول هولندا (حليفة فرنسا) القيام بعملية استعراضية وإزعاجية على السواحل الايكوسية (أفكار خيالية صعبة التنفيذ) أما بالنسبة لوحدات روشفور بقيادة ميسيسي Missiessy ، وأسطول طولون بقيادة فيلنوف Villeneuve فقد طلب إليهما الاتجاه بسرعة إلى بحر الآنتيل ، لتزويد الحاميات الفرنسية هناك بالمواد الضرورية ، واحتلال بعض النقاط الاستراتيجية الهامة في المنطقة وجوارها ، هما جزيرتا سانت هيلين Saint-Hélene ، وسورينام Surinam .

من الطبيعي أن تأتي كل تلك التحركات البحرية الاستعراضية ثمارها من حيث شد الأساطيل الإنكليزية ، وإبعادها عن ساحة العمليات الكبرى ، لتتيح للإمبراطور نابليون الفرص للتكفل بحلفاء بريطانيا على البر الأوربي ، وإنزال ضربات قاصمة في قواتهم المحتشدة على طول الحدود الفرنسية . وبمعنى أبسط جر الخصم إلى عمليات متشعبة متباعدة وثانوية ، غايتها تشتيت حشده ، وإضعاف بأسه على الساحة الرئيسية .

سميت تلك الخطة التي استهدفت مشاغلة وهمية للبريطانيين بخطة ٢٧ ايلول (١٨٠٤) وحدد موعد بدء تنفيذها في ١٢ كانون الأول .

لم ينفذ غانتوم Ganteaume نقل الحملة إلى إيرلندة ، وظل جامداً في ميناء برست يخيل له أنه محاصر ، علماً بأن فرصاً عديدة مرت ، وكان بإمكانه الإقلاع ، وأمام مدخل برست بضع بوارج إنكليزية للمراقبة فقط .

كان الإنكليز لا يجرؤون على المكوث طويلاً في خليج غاسكونيا العاصف الخالي من أي مأوى يلجؤون إليه .. إذ ليس لهم في هذا البحر أي مركز تمويني ، وكان عليهم العودة من آن لآخر إلى الشواطىء البريطانية ، للتزود بالاحتياجات ، أو للاحتماء من أمواج المحيط العاتية .

في غمرة من غياب المراقبين أقلع ميسيسي من روشفور في يوم عاصف من أيام الشتاء ١١ كانون الثاني (١٨٠٥)، وابتعد داخل المحيط، دون أن يلحظ تحركه أحد. وقطع الأطلسي خلال (٤٠) يوماً، فوصل جزيرة المارتينيك في الآنتيل، وأنزل على شواطئها العتاد والجند، ثم انتقل إلى سانت دومينغو، وحصّل غرامة قدرها مليون من الفرنكات من جزر بريطانيا هناك، وهي دومينيك Dominique، نيفيس Nevis، مونتسيرا Montserrar وسان كريستوف Saint Christoph. وعندما انتهى من مهمته عاد إلى أورية، ودخل في روشفور في ٢٠ مايس ثانية.

غادر فيلنوف هو الآخر طولون في فرصة غياب مراقبيه، فغريمه نلسون يعرف عنه كرهه الشديد لأسلوب الحصار البحري، ويفضل عليه خوض معركة حاسمة وفاصلة عن أي تربص وانتظار مملين. لذا، ترك لفرقاطاته عملية مراقبة مداخل ميناء طولون وأقام مع كامل أسطوله في أجينكور Agincourt (سردينيا) تارة، أو مادالينا Maddalena تارة أخرى، يسعى بين تلك القاعدتين وبين السواحل الإيطالية ينتظر قوات فرنسا البحرية التي يعتقدها ستأتيه لا محال. فالفرنسيون يفكرون جدياً بالعودة إلى مصر، وعلى نلسون تغطية المحور المؤدي إلى سواحل مصر إضافة إلى مهمة مراقبة مملكة نابولي ودعمها.

علم نلسون بخروج فيلنوف في ١٧ كانون الثاني، فتوجه مسرعاً نحو الشرق باتجاه الإسكندرية، ولما لم يعثر على خصمه عاد غرباً. ولم يهنأ له بال حتى علم في ١٧ آذار أن فيلنوف كان قد عاد إلى طولون منذ أيام عديدة، وبالتحديد في ٢١ كانون الثاني.

وصف فيلنوف خروجه هذا إلى وزير بحريته ديكريه في كتاب رفعه له يصف الحالة المتردية في تشكيله:

«يا سيادة الوزير، أعترف لك بأن بوارجنا الحربية في تجهيزها الحاضر ضعيفة الطواقم، مثقلة بجنود البر، تجهيزاتها قديمة ومن النوع الرديء. فأي ريح تحطم سواريها وتمزق أشرعتها. وعندما يتحسن الطقس تستنفذ الطواقم كل وقتها في إصلاح الأعطاب التي كانت نجمت عن الرياح والأنواء، أو لسبب سوء استخدامها في السابق ولرداءة صنعها، ولجهل البحارة العاملين عليها، ويمكن اعتبارها عبئاً ولا يمكن الإفادة منها. وقد كان حدسي قبل الإقلاع من طولون في محله، وإنني أقوم بمغامرة نتائجها مرّة».

وبالفعل فبعد يومين اثنين من إقلاع فيلنوف في طقس عاصف غدت غالبية سفنه شبه عاطلة وتائهة، فاضطر للعودة بها على عجل ودخول طولون ثانية.

وأنهى فيلنوف كتابه إلى وزير حربيته طالباً إعفاءه من قيادة ذلك التشكيل المنهك.

خطة ٢ آذار (١٨٠٥)

بدلاً من أن يتقبل نابليون ملاحظات فيلنوف حول أسطول المتوسط بالتفهم العميق، أصدر له أمراً أشد قسوة عن سابقه، يكلفه فيه بمهمة إزعاج إنكلترا في مياه الهند، وتتلخص العملية بأن يقوم كل من فيلنوف وغانتوم بنقل جيش بري، وإنزاله على البر الهندي لمقاتلة الإنكليز هناك.

وبالطبع لم يكتب لهذه المهمة الحياة، وككل مرة تطرأ أحداث مفاجئة تلغي سير الخطة.

لم تستطع بريطانيا تقبل وصول السلع والبضائع الفرنسية القادمة من البر الأمريكي. وعزمت على التصدي لتلك القوافل، وهي الدولة الأقوى بحراً. فأصدرت أوامرها إلى الكومودور موور Moore لاعتراض قافلة قادمة إلى أوربة تحمل السلع والأموال من العالم الجديد، وتواكبها سفن حربية قليلة العدد بإمرة نائب الأميرال الإسباني بوستامنت Bustamente.

على أثر التماس رفض القائد الإسباني التخلي عن قافلته، وقاتل مهاجميه بشراسة، برغم قلة ما بين يديه من سفن. ووقعت ثلاث سفن من قوته أسيرة في أيدي موور وهي من طراز الفرقاطة، وانفجرت رابعة (مرسيدس)، وكان على متنها العديد من المسافرين بينهم نساء وأطفال ٥ تشرين أول (١٨٠٤). وأدى هذا الاعتداء السافر إلى هياج الشعب الإسباني، وأعلنت إسبانيا الحرب على إنكلترا في ٤ كانون أول ووقعت مع فرنسا اتفاقية بحرية دفاعية مشتركة ٨ كانون الثاني (١٨٠٥).

بدخول إسبانيا الحرب إلى جانب فرنسا ارتفع تعداد البوارج الحربية العاملة إلى الضعف، فأسطول إسبانيا بشهادة السفير الفرنسي بورنونفيل Beurnonville أسطول قادر على القتال، يضم أجمل وأضخم السفن الحربية المعاصرة، ورجاله مقاتلون أشاوس.

بعد دخول إسبانيا الحرب.. استعاد نابليون خططه السابقة مع بعض التعديل، وأحيا فكرة مجابهة بريطانيا في جزرها، أو في مستعمراتها الأمريكية. وكان لنجاح حملة ميسيسي في بحر الآنتيل، التي لم تكن من صلب الخطط الرئيسية أصلاً، أثر، أوحى لنابليون فكرة القتال في المياه الأمريكية. فقرر ضرب تجمعات بريطانيا البحرية هناك، وتدمير قوتها بعيداً عن الساحة الأوربية. وعندما يتحقق له ذلك يعود أسطولا الحليفتين فرنسا وإسبانيا إلى المياه الأوربية بكامل المجموعات لتأمين تفوق عددي وسيادة بحرية.. ولو حتى لفترة وجيزة (بضعة أسابيع) لتأمين تحضيرات اجتياح الجزر البريطانية وتنفيذها.

تلك هي الأسس الرئيسية لخطة ٤ آذار (١٨٠٥)، إذ على غانتوم الإقلاع من برست، وعلى فيلنوف الإقلاع من طولون. وعندما يلتقي التشكيلان يتوجهان إلى بحر الآنتيل ليلقيا هناك ميسيسي. وفي الطريق ينضم أسطول إسبانيا لتشكيل فيلنوف، قادماً من قرطاجة وقادس. وعندما يتم اللقاء في مياه بحر الآنتيل تقوم القوات الحليفة بتدمير قوات بريطانيا البحرية المتواجدة هناك وعندما تنتهي من مهمتها، تعود الحشود البحرية الحليفة إلى المياه الأوربية. وفي طريق العودة تحرر أسطول غرانديلانا Grandellana وأسطول غوردون Gourdon المحاصرين في فيرول، ومن ثم تتابع سيرها حتى المياه الأوربية. وعليها أن تصله في مطلع شهر تموز. وسيضم هذا التشكيل عند عودته (٥٦) بارجة كبيرة في حين لن يكون لدى بريطانيا سوى (٢٠) بارجة.. وبمجرد ظهور الحشد الكبير ستنتقل سيادة بحري المانش والشمال إلى يد فرنسا وإسبانيا.. وستختفي المجموعات البريطانية من الساحة، وبذلك تسهل عملية عبور المانش والنزول على البر البريطاني.

«إذا حققتم لي السيادة البحرية خلال أيام ثلاثة في مضيق كاليه، سأضع حداً نهائياً لوجود بريطانيا».

هذا ما كتبه الإمبراطور مخاطباً أميراله.

إلا أن الرياح تأتي بما لا تشتهي سفن فرنسا وإمبراطورها. وكان على نابليون أن يعرف أن العملية ليست بتلك البساطة. وتحريك الأساطيل من غرف العمليات يختلف كلياً عن تحريكها في عباب البحار (الحرب بالنظارات سهل) فلا اللقاءات سهلة، ولا الخصم بالأمر الذي يستهان به، فإنكلترا موجودة في كل البحار، ولن تختفي أساطيلها مهما كانت الظروف، ولن تدع فرنسا تنزل على جزرها مهما حشدت من قوى وأساطيل. وستحدث ملاحم بحرية كبيرة في الآنتيل وفي المياه الأوربية. وبالفعل فالذي حصل أظهر خطأ حسابات نابليون، فإمعانه في التفاؤل غير ما كتبته صفحات التاريخ، ويعزى ذلك إلى إهمال العديد من الشروط الأساسية الواجب توفرها في كل إعداد حربي. أضف إلى ذلك التردد المتواصل في القرارات الحاسمة، الأمر الذي يورث الفوضى. وهذا ما حصل فعلاً إذ إن الفوضى ماشت جميع المراحل، ورافقت العملية من بدايتها إلى إخفاقها، وخلفت ظروفاً صعباً وخاصة في حرب البحار، لا يمكن معالجتها. أما التقدير الخاطىء لساسة فرنسا، وخاصة فيما يتعلق بتقييم خصمهم وما كان سينتظر منه، فكان من أولويات عوامل الفشل، فالحرب ليست إعداداً من السفن، بل هي إرادة وتصميم إلى جانب الدراية والمعرفة. والأسطول الإنكليزي حديث التنظيم، رفيع التدريب، وذو كفاءة قتالية. وجميعها صفات شبه مفقودة في

وحدات التجمع الإسباني الفرنسي. والأهم من ذلك كله أمراء البحر قادة التشكيلات، حيث امتلكت بريطانيا منهم العديد، وتميزوا عن أقرانهم بالمصداقية والإخلاص. ولم يذكر التاريخ قبلاً أفضل منهم شجاعة وكفاءة، تمرسوا على أعمال البحر، وتميزوا بعقول نيرة، وكانوا سريعي البديهة، أتقنوا القتال الجماعي خلال خمسة عشر عاماً من الحروب البحرية، فكانوا مثال التعاون والتساند، يتصرفون في الأزمات القتالية المفاجئة بالحضور نفسه، وبكامل التصميم في اتخاذ القرار الصحيح الذي يخدم المعركة والوطن.

إن كفاءة سلاح البحرية البريطاني الرفيع الشأن والذي يديره قادة حكماء واسعو المعرفة، ويدعمه حكم وطني مخلص، قادرة على التعامل مع الخصوم في كل مكان وزمان. فمن لندن عاصمة بريطانيا ومستعمراتها تدار عمليات بحرية تغطي كل أصقاع الأرض بإتقان وانتظام. كل هذا الوصف غاب عن ذهن بونابرت، بل ظل يعتقد أن الحكومة التي خلفت وزارة ادينكتون المترددة ستتبع النهج نفسه. ولم يلحظ أن الأميرال جيرفيه المتصلب ذا العقلية العسكرية الغابرة، والذي استنفذ طاقاته في محاربة الفساد الإداري مهملاً شؤون الأسطول القتالية الهامة، قد غاب عن السلاح وخلفه لورد أول للأميرالية من المدرسة المتطورة الجديدة التي تعتبر الاستعداد القتالي الهمّ الأول والأخير في سلاح بحرية بريطانيا العتيد.

حاول رئيس الوزراء الجديد بيت عدم النيل من خصمه جيرفيه، وكلفه بإدارة أسطول بحر المانش وقيادته، إلا أن هذا الأخير رفض قبول المنصب إلا بشرط واحد هو إلغاء الانتقادات التي وجهت إليه إبان إدارته في الأميرالية. ورفض بيت شرط جيرفيه، وتخلى عنه، واستدعى لورد ميلفيل Melville هاري دونداس[١٤٢] Harry Dundas. لكن سرعان ما أبعده إثر دسيسة برلمانية قاسية، واستدعى شخصية بحرية عريقة أمضت ما ينوف عن ثلاثين عاماً في الأميرالية البريطانية، فكان نجمها الساطع وهو العجوز السير شارل ميدلتون لورد براهام Charles Middlton lord Braham. فبفضل عبقرية هذا الأخصائي الكبير عاد النظام، وعادت الطاعة إلى صفوف الجميع، ونشط سلاح البحر وامتلأ فخاراً واعتزازاً.

وكانت أولى خطوات اللورد الجديد التواجد البحري البريطاني أمام ميناء بولونيا الفرنسي (تقييم صحيح لواقع الخصم). ونصت الأوامر على إبقاء عدة سفن قديمة ومن نوعية النسق الثاني، مهمتها المراقبة والإعلام، على أن تترك باقي المجموعات القتالية حرة الحركة تبحث عن يوم قريب،

تخوض فيه معركة حاسمة ومصيرية، لتدمير قوى فرنسا وحليفتها إسبانيا، وشطب كل خاطر يدور حول تهديد جزر الوطن الأم.

اتصف الأميرال البريطاني العجوز والذي بلغ ثمانين حولاً من العمر بخبرة واسعة علماً بأنه لم يستلم قيادة بحرية فعلية طيلة حياته، لكن إخلاصه الشديد جعله يتطلع على كل تفاصيل أقسام الخدمة. واستطاع بحزمه وسلامة قراراته إدارة السلاح بأفضل السبل، وبالعديد من الانتصارات، وطلب من رئيس وزرائه بيت تصفية آلية الدفاع الضخمة والبالغة التكاليف التي أقامها سلفه، والتي ابتلعت ملايين الجنيهات دون طائل ومنها:

ـــ إلغاء عمليات التجنيد الجماعي.

ـــ خفض عدد الميليشيات (لا لزوم لها في حال إنهاء تهديد الغزو للجزر).

ـــ إلغاء جيش الاحتياط، والاكتفاء بالجيش النظامي المتهن، حيث أعيد تنظيمه، وطبقت عليه أحدث الأساليب في التدريب والتجهيز. ولما وصل إلى مرتبة عالية من الكفاءة القتالية قسم إلى عدة جيوش مستقلة قادرة على تنفيذ حملات عسكرية عبر البحار. وكانت بحرية إنكلترا بحاجة ماسة إلى تغطية برية لمعادلة تفوق فرنسا الساحق على البر الأوربي في المجالين العسكري أو السياسي.

وقد واكبت الإعدادات العسكرية نشاطات دبلوماسية في عواصم البلدان الأوربية كنسان بطرسبرج وبرلين وفيينا اتصفت بالعدائية والهجومية. وانتشر عملاء إنكلترا في كل الأقطار ينثرون الأموال، ويعدون الشعوب لحرب عالمية ضخمة، ستنجيهم خطر طموحات نابليون الطامعة: ولم تهمل بريطانيا دول الحياد المترددة، والتي لا تعرف إلى أي جانب ستنضم، أمثال السويد والدانمرك ونابولي.. بل ناظرتها بدبلوماسية هادئة، ولم تنس جنوب إيطاليا حيث البحر الأبيض المتوسط وموقعه الستراتيجي، فأوفدت بعثة بإمرة Graig غريك، وأخرى بإمرة كنايت Knight، ثم إرسالية أخرى لألمانيا الشرقية.. وهكذا غطت أوربة غمامة منذرة قاتمة جعلت من نابليون خصماً لها، هب ليدافع عن إمبراطوريته الواسعة بشن هجوم وقائي.

وهكذا اشتعلت كل الجبهات في آن واحد.

جبهة برست

تلقى غانتوم الأمر بالخروج، لكنه اعتذر عن تنفيذه ضمن الشروط التي فرضها عليه

الإمبراطور، والقاضية بتفادي القتال مع الإنكليز، وللتواجد البحري الإنكليزي الكثيف أمام مدخل معبر برست.

حاول غانتوم التسلل عدة مرات، لكن جهوده باءت جميعها بالفشل، فبمجرد تحرك وحداته تتقدم البوارج الإنكليزية لتسد عليه الممر (الغوليه Goulet)، وتنشد النزال الأمر الذي نهاه عنه الإمبراطور ضمن التعليمات القتالية الصادرة له، والتي قالت:

«إن نصراً بحرياً في مثل تلك الظروف لا يؤدي إلى أي كسب استراتيجي، والمهم الخروج من المرفأ دون قتال».

وكان الإمبراطور يمنع عنه القتال ويرغب في خروجه بكامل قوته استعداداً للمعركة الكبيرة. وفي إحدى المحاولات تقدم الأميرال الفرنسي حتى خارج المرسى يترقب فرصة سانحة للنفاذ إلى عرض البحر، إلا أن البوارج البريطانية لم تمهله، واقتحمت موقعه والتحمت بسفنه المتقدمة لساعات وكاد القتال يصبح شاملاً لولا أن فضل غانتوم الاستدارة والعودة إلى داخل ميناء برست ٢٦ آذار.. وهناك أقام ينتظر عودة فيلنوف من جزر الآنتيل، ليفك عنه الحصار من جهة المحيط، حيث أن الـ (٢١) بارجة التي في حوزته غير قادرة على مجابهة الظرف الدرامي المحيط بها لوحدها.

في طولون.. استمرت الأمور هادئة حتى خرج الفرنسيون ،وفي فترة من غياب نلسون عن مداخل الميناء، وكان ذلك في ٣٠ آذار.

تحركت القوة الفرنسية المؤلفة من (١١) بارجة وعدة فرقاطات، وتسللت بسرية تامة دون أن تترك أي أثر يدل على وجهتها، قد يفيد منها الخصم نلسون المقيم في بولا Pula (سردينيا) مع تشكيله البحري.

بلغ نلسون خروج الأسطول الفرنسي بعد عدة أيام فأقلع لفوره من مرساه، وبعامل الفكرة التي سادت اعتقاده بأن وجهة الخصم ستكون مصر.. توجه نحو باليرمو في صقلية، فوصلها في ٩ نيسان. ولم يجد له أثراً.. فعاد إلى الساحل الإفريقي، وجاب المنطقة المتوسطية لعدة أيام، دون أن يجد دليلاً يرشده في بحثه. فقلق لجهله مكان فيلنوف، وراح يستعلم من كل عابرة بحرية لعله يجد خيطاً من أمل.

في أثناء ذلك كان الأسطول الفرنسي يتجه نحو جزر الباليار، ماراً بقرطاجة حيث حاول هناك جاهداً إقناع سالسيدو Salcedo الانضمام إليه، دون جدوى. وتابع الأسطول الفرنسي بإمرة

فيلنوف سيره غرباً، وعبر في ٨ نيسان المضيق ووصل في اليوم التالي مشارف قادس، حيث انضم إليه غرافان Gravein القائد البحري الفارس. وبذلك ارتفع تعداد البوارج الفرنسية إلى (١٨) بارجة. وتابع التشكيل دون تمهل السير غرباً وبأقصى سرعة.

شاهد الأميرال أورد Orde قائد المجموعة الإنكليزية المكلفة برقابة ميناء قادس التشكيل الفرنسي الكبير فانسحب باتجاه بحر المانش، طبقاً للتعليمات الصادرة له، وأضاع التماس مع الفرنسيين. إلا أنه أخطر قائد فصيلة الطرادين المسؤولين عن رقابة مضيق جبل طارق، وكلفه بالإقلاع بطراديه إلبيغل Beagle والفيشغارد Fishguard، بعد تجاوز الفرنسيين للمضيق، وطلب منه التوجه بأقصى سرعة إلى الجزر البريطانية (وصلها في ٣٠ نيسان)، لينذر كافة الوحدات والمجموعات التي يصادفها في طريقه، ويعلم الأميرالية بحركة الأسطول الفرنسي الكبير.

إثر بلوغ الأمر للورد براهام في الأميرالية البريطانية أعطى أوامره إلى مجموعتي كريغ وكنايت في ليشبونة للتريث، خشية وقوعهما في أيدي التجمع الفرنسي. ومن ثم أعقبها بأمر إلى الأميرال غاردنر Guardner نائب كورنواليس (كان كورنواليس آنذاك مريضاً) يطلب إليه إرسال مجموعة بحرية قتالية إلى الجنوب، بإمرة كولينغوود.. وعلى هذه المجموعة تدبر خط سيرها وسرعتها طبقاً لحركة الأميرال نلسون، وتتعقب تشكيل فيلنوف حتى جزر الآنتيل، إن دعت الضرورة لذلك.. إذ وردت تقارير للأميرالية من بعض العيون عن احتمال وصول فيلنوف إلى بحر الآنتيل في حدود التاسع من شهر أيار.

وصل نلسون تطوان في الخامس من مايس، والريبة في وجهة الأسطول الفرنسي تقض مضجعه. وتردد في الوجهة الواجب عليه سلوكها. وفي ١٠ مايس وبناء عن معلومات أعطاه إياها قائد إنكليزي يعمل في الأسطول البرتغالي كامبل Campbell قرر التوجه نحو بحر الآنتيل، ليحمي جزيرة جامايك من غزو فرنسي وشيك الوقوع.. حيث إن القوة البحرية المدافعة عن الجزيرة لا تقوى على مجابهة تشكيل فيلنوف الكبير، وبذلك أصبحت مواقع المجموعات الإنكليزية الباحثة عن الأسطول الفرنسي كالتالي:

ــ نلسون يتعقب فيلنوف.
ــ كولينغوود يصل قادس ويتوقف هناك، ثم يقيم حولها حصاراً بحرياً.
ــ بيكرتون وبإمرته (٩) بوارج Bickerton يدخل المتوسط لمراقبة قرطاجة، ولمنع البوارج الست الفرنسية التي بإمرة سالسيدو من الإقلاع.

وصل فيلنوف جزيرة المارتينيك في ١٤ مايس ، ووصلت آخر سفنه في ٢٦ منه لتبحث عن الأميرال ميسيسي دون طائل ، حيث كان قد عاد هذا الأخير إلى فرنسا منذ أكثر من شهر .

توقف فيلنوف عدة أسابيع في مياه المارتينيك يتوقع وصول غانتوم ، وفي نهاية الشهر انضم إليه نائب الأميرال ماغون Magon قادماً من رشفور ، وبإمرته بارجتين ، ثم وصلت الفرقاطة د.يدون Didon ، وهي التي حملت إليه أيضاً التعديلات التي طرأت على الخطة البحرية العامة ، والتي نصت على التالي :

على فيلنوف الانتظار مستغلاً الظرف المناسب لاستخدام القوى الموضوعة تحت إمرته بأفضل السبل ، وللمصلحة القومية العليا . وحتى يعود إليه ميسيسي ثانية (صدرت الأوامر لميسيسي بالعودة إلى الآنتيل فور وصوله للمياه الأوربية) .. وعندما ينضم هذا الأخير إليه يعود فيلنوف بكامل القوة إلى أوربة ، ويعمل على تحرير غوردون Gourdon وغلانديلانا Grandellana وغانتوم ، حتى لو أدى ذلك إلى قتال فعلي ، ثم يتابع الجميع التقدم نحو مدخل بحر المانش ، ويكون تعداد التشكيل قد بلغ (٥٠) بارجة .

أجلت العملية الكبيرة المضادة للجزر البريطانية حتى أواسط شهر آب .. تبعاً للتعليمات الجديدة ، على أن تكون عملية حاسمة وفاصلة . وقد كتب في هذا الشأن يقول :

« بنجاحنا في الوصول قبالة شاطىء بولونيا (الفرنسي) سيتحدد مصير إنكلترا والعالم ، وعلينا تحقيق ذلك مهما كلفنا من تضحيات ، وحتى لو اضطررنا للالتفاف حول الجزر البريطانية من الشمال المهم إيصال التشكيل البحري الكبير إلى قاعدة انطلاقه الرئيسية » .

وصل نلسون في الرابع من شهر حزيران إلى بارباد(١٤٣) Barbade ، وانضمت إليه مجموعة حماية الآنتيل بقيادة كوشران(١٤٤) Cochrane ، فجال في المنطقة باحثاً عن الفرنسيين ، مفتشاً كل مرسى وكل جزيرة ، امتداداً من جزيرة الترينتيه وحتى جزيرة آنتيغا .

علم فيلنوف بوصول نلسون ، فقرر في ٧ حزيران برغم التعليمات التي تفرض عليه البقاء حتى الرابع من تموز الإقلاع والعودة إلى أوربة ، متخلياً عن توقف له في جزر الكناري (تلك كانت رغبة نابليون لعل غانتوم يحالفه الحظ ويلقاه هناك) .. وبالفعل تحرك فيلنوف في ١١ حزيران . وبلغ نلسون خبر إقلاع خصمه في اليوم التالي ، فأرسل الكوريو Curiew وهي شراعية بصاريين تحمل النبأ

لإنكلترا، وتعلم الأميرالية البريطانية بعزمه ترك الآنتيل هو نفسه والعودة إلى جبل طارق، حيث لا زال يعتقد إن فيلنوف سيعود إلى المتوسط وستكون وجهته الأخيرة مصر.

شاهد قائد الكوريو في ١٩ حزيران التشكيل الفرنسي في النقطة التي إحداثياتها ١٢ ٣٣° درجة عرض شمالاً و ٥٨° درجة طول غرباً. وكانت وجهة السير واضحة. وقدر وصول فيلنوف إلى خليج غاسكونيا في حدود الثامن من تموز.. فأعلم اللورد براهام بذلك لاتخاذ التدابير اللازمة.

طلب الأميرال براهام ستيرلنغ(١٤٥) Stirling رفع حصاره عن روشفور العديم النفع، والتوجه لدعم مجموعة كالدر Calder المكلفة بمراقبة فيرول، وقد ضمّت مجموعة ستيرلنغ (١٥) بارجة، وكان عليها قطع الطريق على (١٠) أميال من رأس فينيستير، وإيقاف الفرنسيين فيما لو حاولوا متابعة طريقهم شمالاً، حيث كان كورنواليس، والذي اعتبر خطاً دفاعياً ثانياً قبل بحر المانش.

طلب من قوة كورنواليس الابتعاد قليلاً، ولو مؤقتاً عن برست، والانتظار على مسافة (٣٠) ميلاً إلى الجنوب من بينمارك Pen.march.

في ٢٢ تموز، ومع اقتراب فيلنوف من الشواطىء الأوربية، اصطدم في النقطة التي إحداثياتها ١٧َ ٤٤° درجة عرض شمالاً و ٥٢َ ١١° درجة طول غرباً، وهي إلى الغرب من فيغو Vigo بقوة كالدر، و نشبت معركة تأرجح النصر فيها، وسميت بمعركة الـ (١٥) إلى (٢٠) كناية عن أعداد البوارج التي اشتركت في القتال.

جرت مراحل المعركة في جو مكفهر، ضبابه كثيف، وانطلقت قذائف المدافع كما اتفق، دون أن يسعى أحد للاقتراب من غريمه، حتى قيل إن لا أحد عرف إن كان عن مجنباته صديق أو عدو. ولم يكن بالإمكان تطبيق أية خطة تكتيكية. وفي غرة المعركة أحس فيلنوف أن كالدر يحاول مهاجمة مؤخرة تشكيله، فالتف بقوة ليحميها، واندفع إلى الجانب الآخر من الريح يبعد السفن الإنكليزية عن سفنه. أُسِرت سفينتان إسبانيتان هما الفيرم Firme والسان رافائيل Saint Raphael بعد تحطم أجزاء من صواريهما.. وهدأت المعركة مع هبوط الظلام، وابتعد المقاتلون حتى اليوم التالي حيث حمل فيلنوف على كالدر بعنف وتصميم، فقرر القائد الإنكليزي الاكتفاء بما حققه بالأمس، وأن عليه الحفاظ على أسطوله سليماً لمعركة المانش المرتقبة، فانسحب شمالاً، ولحقه فيلنوف يطارده دون أن يستطيع إجباره على قبول المعركة. وعندما اختفت السفن الإنكليزية وراء الأفق استدار فيلنوف بتشكيله عائداً به إلى فيغو، ثم إلى فيرول. وهناك وجد بانتظاره تحذيراً من الإمبراطور يمنعه

من دخول ذلك المرفأ فتركه وقصد مرسى كورون Corogne حيث التقى هناك بمجموعة غوردون التي انتقلت إمرتها إلى القائد ديمانوار Dumanoir وكذلك بمجموعة غرانديلانا .. وهكذا ارتفع تعداد بوارج فيلنوف إلى (٣٤) بارجة ، بعد أن أتم المراحل الأولى من مهمته .

هاج الشعب البريطاني لما علم بالأحداث الأخيرة ، وبانسحاب كالدير من المعركة . وانعقد المجلس الحربي الأعلى ، وانتهى بالتنديد الشديد بقائد المجموعة البريطانية . أما فيلنوف فقد دخل كورون ورسا بتشكيله فيه ، وتوقفه هناك أخّر وصوله إلى بحر المانش ، وبالتالي حدث تأخير جديد في تنفيذ المرحلة الثانية من المهمة ، لكن لفيلنوف أسبابه التي شرحها في وصفه التالي :

« عندنا صوارٍ سيئة ، وأشرعة سيئة ، وأجهزة سيئة ، وضباط سيئون ، وبحارة سيئون . ونحن في حالة مزرية لا يمكن وصفها . أتوقع كل أمر جلل ، ولا أمل لي في أي نجاح مهما جهدت نفسي . وقد تبين لي بما لا يدع مجالاً لأي شك أن البحرية الفرنسية والإسبانية يلزمها الكثير قبل أن تناور وتقاتل في معارك ضمن تشكيلات كبرى . أما في مجال القتال الفردي فهي جيدة ، إلا أن البريطانيين الذين أتقنوا قتال المجموعات يفرضونه علينا في كل لقاء ، وليس لدى قادتنا الكفاءة الكافية لمجابهة الواقع وتفادي الصعاب ، خاصة أمام عدو جريء مفعم بالفخار ، يعرف تمام المعرفة نواحي الضعف فينا ، فيستغلها أحسن استغلال . أنشد الرحيل ، لست أدري ما علي فعله ، هذا الاضطراب المخيف والهرج السخيف الذي أنا سيده يشعرني كل ساعة باقتراب كارثة فادحة » . ثم أنهى فيلنوف وصف يأسه العميق بالجملة التالية « أود الخلاص مَن هذا البكاء وهذا النحيب .. لماذا لم تستمعوا إلي قبل مغادرتي طولون » ؟ .

برغم نظرة فيلنوف السوداوية لم يكن الأسطول الفرنسي يبدو بهذا الضعف ، والموقف القتالي ليس ميؤوساً منه ، فإنكلترا تمتلك (٤٠) بارجة في بحر المانش ، ويسهل على فرنسا حشد ضعف هذا العدد بسهولة . وهناك (١٥٠) ألف مقاتل كاملي العدة بأسلحتهم وخيولهم جاهزين للصعود . فكل شيء أعد لعملية الغزو ، وما على الأساطيل الفرنسية إلا التجمع لليوم الكبير .

تضمنت الخطة أن يقلع فيلنوف ثانية ، ويلتقي بمجموعة رشفور التي هي بإمرة العميد البحري الماند Allemand . وعندما يبلغ تعداد تشكيل فيلنوف (٤٤) بارجة يتقدم هذا التشكيل إلى مشارف برست ليرفع الحصار عن غانتوم ، برغم وجود أسطول كورنواليس في المنطقة ، وبانضمام أسطول غانتوم يرتفع تعداد البوارج الفرنسية إلى (٦٦) بارجة . وعندها يدخل هذا الحشد الكبير

بحر المانش ليكنس كل تواجد معادٍ فيه. ومن ثم عليه بلوغ مشارف قاعدة الانطلاق (بولونيا الفرنسية) في العشرين من شهر آب على أبعد حد، استعداداً لبدء عملية الغزو.

نفذ صبر غانتوم وهو في مرساه ببرست، إذ جاءته الأوامر بأن يقلع بمجرد غياب قسم من سفن محاصريه البريطانيين. ونحن نعرف أن لدى غانتوم (٢٢) بارجة، وهي قوة لا بأس بها. إلا أن الأوامر الصادرة له منعته من الاشتباك، إلا إذا كانت بوارج العدد تقل عن (١٦) بارجة.

خرج غانتوم[١٤٦] بمجموعته في (٢١) آب ورسا في بيرتهوم Bertheaume جاهزاً لبدء المهمة، فوجد بانتظاره (١٨) بارجة إنكليزية حديثة عشرٌ منها من البوارج الضخمة ذات ثلاثة الجسور (ثلاث طبقات من المدفعية) تترقب إقلاعه.. عندها فضل البقاء في موقعه الجديد ينتظر.

وفي اليوم التالي تقدمت البوارج الإنكليزية تنشد القتال. ونشبت بالفعل معركة بالمدافع شاركت فيها بطاريات القلاع البرية على الشاطىء البروتوني في كرياشمور Creachmeur وسان ماتيو Saint Mathieu. ولكي لا يضيع غانتوم أثر تلك المعركة سدى أعطى إشارةً لقادة سفنه يأمرهم عبور المضيق (الممر إلى برست) ثانية والعودة إلى مرسى حوض برست. إذ إن خروجه لعرض البحر شبه مستحيل، فالقوات البريطانية أكبر من أن يستطيع النفاذ منها، وحتى لو استطاع، فهناك قوات أخرى داعمة تجوب المنطقة يومياً بين جزيرة أويسانت واوديرن، أبلغه عنها المراقبون الفرنسيون، وقدروا عددها بـ (٤٠) بارجة وقيل إن هذا العدد ارتفع بعد الـ (١٥) آب إلى (٦٠) بارجة، وهي من أمنع وأقوى بوارج بريطانيا آنذاك.. وهذا هو السبب الرئيسي في تريث غانتوم، وعدم مجازفته مترقباً تعليمات جديدة.

وفي الحقيقة وصلت أعداد بوارج بريطانيا إلى (٤٦) بارجة حسب المعلومات المستقاة عن الجانب البريطاني، بعد وصول كل من كالدر وستيرلنغ، وانضمامهما إلى الأمير كورنواليس.

وصل نلسون في أثناء ذلك إلى جبل طارق في ١٨ تموز، فطلب منه كولينغوود عدم دخول المتوسط، والتوجه إلى الشمال إلى ساحة القتال الفعلية، حيث انتظمت حشود القوات المتحاربة قرب مدخل بحر المانش، وكان الهدف الأول لاستراتيجية نابليون في المنطقة. علماً بأن الموقع هو في صالح البريطانيين، حيث يتمتعون بجميع المزايا الحربية من خطوط داخلة، واتصالات قريبة سهلة، وقوات بحرية ضخمة، وكأن الحملة الفرنسية بتوقيتها سخرت لإقامة أمن وسلام الجزر البريطانية.

انتظرت الحشود البريطانية في مواقعها قرب ويسانت تنتظر الخصم الذي لم يحضر. وفي ١٩

آب أخذت هذه التجمعات تتفكك وتتجزأ، فانتقل نلسون إلى إنكلترا استعداداً لحملة بحرية جديدة، وعاد كورنواليس إلى موقع المراقبة الأصلي قبالة فتحة مرسى برست.. وأرسلت مجموعة كالدر (٢٠) بارجة إلى الجنوب لاعتراض فيلنوف في حال ظهوره.

فضّل كورنواليس تقسيم تشكيله إلى مجموعتين تقل كل مجموعة بتعدادها عن أسطول فرنسا، وجعل مهمة المراقبة بالتناوب بينها. وكان بالإمكان القضاء على تلك القوة المنفردة، فيما لو كان لدى فرنسا أمير بحر يسعى للقتال فعلاً.

أشار كوربيت Corbett في حديث له مستعرضاً القوات المتحاربة فقال:

«إن التفاوت العددي لم يكن وحده كبيراً، فأكثر سفن بريطانيا بوارج ذات ثلاثة الجسور وهي أكثر قوة، وأشد مقاومة، وأفضل أداء. وكل بارجة من تلك البوارج الضخمة توازي اثنتين من ذوات الجسرين التي يتألف منها أسطولا فرنسا وحليفتها إسبانيا. أضف إلى ذلك عدم وجود وجه مقارنة بين قيمة هيئة أركان قيادة الأسطول البريطانية مع نظيرتها في الأسطول المشترك».

تشعبت مهام كورنواليس وتعددت، فإلى جانب سلام بحر المانش، كان عليه حماية كل مصالح إنكلترا في المياه الأوربية، إذ إن بعضها جوهري، خصوصاً وأسطول فيلنوف في البحر يشكل خطراً دائماً. وهناك حملة صقلية المعلقة والتي قد يؤدي سقوطها لأصداء واسعة، وحملة الأميرال بوبهام Pobham الذي غادر كورك Cork، وبرفقته جيش الجنرال بيرد Baird متجهين إلى رأس الرجاء الصالح، وأسطول الأميرال رينيه Rainier العائد من الهند يحمل (٣٧٥) مليوناً من الجنيهات، وألوية السير آرثور ويلسلي Arthur Wellesley قاهر المهراجات. وأهم من ذلك كله القوافل الأمريكية، والقوافل الهندية، وقوافل البحر الأبيض المتوسط، هذا البحر الصغير الذي لا يقل أهمية عن بحر المانش نفسه. وظهور فيلنوف على رأس (٥٠) بارجة قد يقض مضاجع المسؤولين البريطانيين. والحل هو في إرسال أسطول قادر على مجابهة هذه القوة الضخمة، وتدميرها قبل أن تعبث في المنطقة. وبذلك تأمن بريطانيا على سبل تجارتها الخارجية، وتعود الثقة لقلوب مواطنيها.

ما كان على كالدر أن يقاتل.. وفيلنوف المسكين مكبل بأوامر إمبراطوره، والإعداد لحملة الغزو القائمة في بولونيا على قدم وساق.. فلنستعرض نشاط حركة أميرال فرنسا من البداية.

أقلع فيلنوف في ٣ آب على رأس قوة ضمت (٢٩) بارجة فرنسية وإسبانية، وهو فاقد لكل

أمل في النجاح. فالمعركة في جوار برست والتي كان الإمبراطور نابليون ينشدها، لم يتوقع منها فيلنوف إلا كارثة. فغانتوم المحاصر لا يستطيع المشاركة فيها، إذ إن الرياح الغربية مؤاتية لفيلنوف، وهي وحدها التي تسمح له بالوصول إلى مشارف برست. لكن تلك الرياح نفسها تجعل خروج غانتوم من ممر برست صعباً عسيراً (الرياح الغربية مضادة لخط سيره). وقد يحتاج إلى حركتي مد وجزر متعاقبتين، وكأن بالفرنسيين يسعون لكارثتهم بإصرار وتصميم.

تعاقبت المآسي على تشكيل الأميرال فيلنوف. ومن سجلات السفن أمكن استخلاص بعض الوقائع، منها أن سفن التشكيل الفرنسي الإسباني شاهدت في النقطة التي إحداثياتها ٣٣َ ٤٥° درجة عرض شمال و ٣١َ ١٣° درجة طول غرب بعض السفن في الأفق البعيد، ولم يجسر أحد على الاقتراب منها، خشية أن تكون بريطانية. وبعد جمع معلومات أوفى من قبل سفينة محايدة مرت بهم (خدعة دبرها البريطانيون للإيقاع بالأسطول المشترك) قيل لهم إنها سفن فرنسية من قوة ميناء روشفور.

وقع فيلنوف وتشكيله في الفخ، وخاض معركة غير متكافئة بسبب المعلومات المغلوطة التي نقلت له، وقد أوشكت تلك الحادثة أن تحطم شرفه العسكري. وحتى لا يضيع سفنه في قتال بلا هدف، تصرف طبقاً للتعليمات الصادرة له في الحالات المتماثلة، وانسحب من المعركة قاصداً قادس، ودخل مينائها في ١٨ الجاري.

بلغ نابليون إقلاع تشكيل فيلنوف. ولما لم يصله أي خبر عن وجهته، ومكانه هاج حتى بلغ به الغضب حداً لا يوصف. وكتب إلى وزير حربيته ديكريه يغلظ بالقول على أميراله:

«لقد تجاوز فيلنوف كل الحدود.. هناك ولا شك خيانة.. تصرفه لا اسم له.. إنه بائس تجدر معاقبته.. حمل لنا الخزي والعار.. لقد ضحى بكل شيء في سبيل إنقاذ جلده. ماذا يهمه أن يرى الأميرال الماند يتعرض للقاء العدو بنسبة واحد إلى أربعة.. إنه وكأنه ليس هنا...».

وتابع الإمبراطور ينعت أميراله بكل الصفات السيئة، وحمله وحده الإخفاق في تنفيذ الخطة العظيمة، خطة غزو الجزر البريطانية. فبدلاً من أن يجعلها نصراً كبيراً قلبها إخفاقاً تندى له الجباه.

وتغير الموقف سريعاً، ويجدر الاعتراف بأن خطط فرنسا الورقية لا بد لها وأن تنهار، لأن هيئة أركان حرب نابليون قومت قواها البحرية بأكثر مما تستحق، وأنكرت على نفسها قوة الخصم الجبارة.. فالحشد البحري الإنكليزي مستمر، وبكثافة على طول السواحل الفرنسية والإسبانية،

وغانتوم محاصر في برست، لا يقوى على الخروج، وفيلنوف في قادس يعمل على حماية أرواح جنوده وبحارته، بالإبقاء على سفن تشكيله القديمة المنهكة بعيداً عن أساطيل بريطانيا الفتية .. أما الماند فقد تاه في وسط المحيط .. وسقطت كل سبل تأمين حرية الحركة في بحر المانش أو إمكانية تواجد الحليفتين فيه، فكيف بالأحرى عبوره بعملية الإنزال الموعودة وأساطيل المواكبة والحماية مختفية؟.

جاء على لسان نابليون وصف لوحدات أسطوله يقول:

«إنها وسائط لهو وسياحة، باهظة التكاليف، عديمة النفع .. أو باختصار كانت نزوة عابرة وانتهت ..».

غادر نابليون ميناء بولونيا الفرنسي في الأول من ايلول، بعد أن ضاع حلمه الكبير. وقصد ستراسبورغ في الأول من تشرين الأول، ثم تبعته الجيوش المعسكرة والمحتشدة لصالح الغزو، فاجتازت الأراضي الفرنسية والتحقت في جبهات القتال الحدودية لبدء عملياتها الحربية ضد التحالف الأوربي عام (١٨٠٥) فكانت معارك الما، وفيينا، وغيرها .. وتنفس الشعب البريطاني الصعداء.

هل كانت حقيقة خطيئة فيلنوف؟ وهل هو سبب إخفاق الخطة في لجوئه إلى قادس؟ وهل الإمبراطور محق في التشهير بأميراله؟ سؤالات كثيرة، ومن يسعى للواقع يشك في تلك الاتهامات .. فنابليون لم يأخذ علماً مفصلاً بمواقع تشكيلاته البحرية إلا في الثاني من شهر ايلول، وكل ما ورده في السابق كان مبهماً، غير متكامل، وأشبه بالتكهنات، ولا يفي في حسن اختيار القرار. وعندما وصلته الصورة الصحيحة وجد أن عملية الإنزال على الشاطىء البريطاني مستحيلة، ومن الأفضل استخدام هذه القوة البرية الضخمة في جبهات أوربة، حيث عملها أجدى لفرنسا. ففي الأسبوع الأخير من شهر آب توصل نابليون، وهو على ثقة تامة، إلى حقيقة خطأ تقديراته السابقة، لذا أصدر تعليمات مجددة يرويها دارو Daru تضمنت لائحة مفصلة اشتهرت باسم «أمر الحركة ذو المراحل المتعدد الواجبات» خصصت مناطق التحشد في الزمان والمكان مع الالتزام بسرعة الحركة، وأعطى لكل جيش من جيوشه السبعة المتواجدة في سهول سواب Souabe وسهول فرانكوني Franconie أوامر مهماتها بتفصيلات دقيقة. ومثل تلك التعليمات لا يمكن أن تكون وليدة ساعة من الزمن، بل هي عملية أشبعت بحثاً ودراسة وتقديراً بين الإمبراطور وهيئة أركان حربه العليا. وإرسال إنذاره إلى النمسا في ٢٢ آب دليل قاطع على استباق نابليون أميراله في تبديل الخطة. وقد حدث هذا قبل أن يأخذ علماً بعودة فيلنوف إلى قادس (بلغه لجوء الأميرال فيلنوف إلى قادس

في ٢ ايلول) . وعليه نجد أن قرار نابليون في التخلي عن الغزو للجزر البريطانية سبق تصرف فيلنوف بأكثر من أسبوعين ، ومما يؤكد القول رسالة الإمبراطور إلى تاليران في ٢٢ آب والتي جاء فيها التالي :

« أركض في أقصى عجالة ، أرفع الخيام ، وأسير نحو فيينا » وهذا يعني إقرار ببدء العمليات الحربية البرية ، واستبدال العدو الإنكليزي بالعدو النمساوي .

كان السبب الحقيقي الذي دفع فيلنوف إلى اتخاذ قراره بالانسحاب ، وتعطيله للخطة هو السبب نفسه الذي جعل نابليون يتراجع عن الخطة ، وينقض قراره فيها مستبقاً أميراله بأكثر من أسبوع ، فما هو يا ترى هذا السبب الملح ؟.

لعل رؤية للموقف تشابهت لدى القائدين ، فظروف قتال البحر مخيفة ، ومعركة بحرية في جوار برست لفك الحصار عن غانتوم أمام الحشد البريطاني الكبير تهور فاضح ونتائجه معروفة ، ففيلنوف وكل أمراء البحر في الأسطول المشترك يعرفون مسبقاً أن النصر لن يكون حليفهم ، خصوصاً بعد أن وصل إلى أسماعهم انضمام ويلسن بتشكيله ١٥ آب إلى جبهة القتال ، ليدعم القوات المتواجدة هناك . وحتى في غياب نلسون كان التفوق العددي إلى جانب الإنكليز فكيف في حضوره ؟ وكيف للأسطول المشترك (الفرنسي ــ الاسباني) تأمين السيادة البحرية ، وهو الأضعف قوة ، والأقل عدداً ؟ إن استعادة فرنسا السيادة على بحر المانش ، ولو مرحلياً ، أسطورة انتهت وإلى الأبد .

وهناك من يرى من المعلقين العسكريين أن ضغط نابليون على أمراء بحره ، وخاصة فيلنوف وغانتوم ، ما كان إلا نوعاً من التمويه في سبيل تمرير وتغطية تحركاته البرية ، إثر الحملة الدبلوماسية المضادة له ، والتي طوقت فرنسا من جميع جبهاتها البرية . ولعله يجدر بنا ذكر ثمرة هامة من ثمرات تلك الحملة وهي :

ــ الارتباط الانكلو ــ روسي بمعاهدة عسكرية ، والاتفاق على تجميد نقاط الخلاف (١٨٠٥) بين البلدين ، والتعهد البريطاني بتمويل روسيا بمبلغ سنوي قدره (٣٦) مليون جنيه ، مقابل تعهّد روسي بإمدادها بالرجال المقاتلين ، وانضمام النمسا بعد أربعة أشهر إلى الحلف الثنائي ليصبح ثلاثياً . ومن نتائج هذا الحلف زحف ٢٦ آب الجيوش على غاليسي[١٤٧] Galicie ، من ألبا حتى الأدرياتيك والبحر التيراني .

وجدت فرنسا نفسها أمام (٧٠٠) ألف مقاتل احتشدوا على طول حدودها .. فكان لا بد

لها من مواجه فعالة وقوية، وهذا ما دفع بنابلوين لقلب كل خططه السابقة رأسا على عقب. وبدلاً من أن يقوم بدور الغازي للجزر البريطانية استدار ليدافع عن حدود بلاده على القارة الأوربية. وما فعله فيلنوف كان غاية في الحكمة، وحتمه عليه الواقع الجديد الذي طرأ على جبهات القتال. إذ ليس معقولاً ترك حدود الوطن عرضة للاجتياح والذهاب عبر البحر لفتح جبهة ثانوية لا يمكن من خلالها حسم الموقف العسكري العام.

وقد جاء تعديل نابليون لخططه العسكرية في أفضل ظرف إذ فاجأ مهاجميه بجيوش قوية حسنة التدريب، عالية الكفاءة، وخلال أسابيع قليلة حطم قوة النمسا الحربية واندفع بقواته زاحفاً عبر بافاريا ومورافيا والنمسا.

توقف الزحف بعد توقيع معاهدة برسبورغ Presburg وهي الاتفاقية التي اعترفت النمسا فيها بكامل مصالح فرنسا الثورة، أما انكلترا فقد نجحت بسياستها في نقل العمليات الحربية من مياهها وأراضيها إلى أراضي غيرها في السهوب الأوربية، بعيداً عن أجوائها، وبرهنت من جديد على قدرة رفيعة في معالجة الأزمات بإدارة حكيمة واعية.

الطرف الأغر

إن صدور المرسوم الإمبراطوري بإنهاء تعبئة الأساطيل الحربية الفرنسية ٣ آب أبعد عن كاهل البريطانيين عبء كابوس غزو جزرهم إلى غير رجعة، إلا أن المرسوم وحده لا ينهي واقع وجود أسطول فيلنوف، وإمكانية هذا الأسطول المدعم بالأسطول الإسباني من الخروج إلى البحر ثانية، فيما لو غيّر الإمبراطور رأيه من جديد. وهذا يعني في أهون الشروط تعرض سلامة القوافل التجارية البريطانية للخطر. فالأمن الذي سعى إليه البريطانيون غير مطلق. ثم إن سيادة البحر الأبيض المتوسط أمر جوهري وحساس، وعلى الإنكليز تأمين تواجدهم في هذا البحر، لأنه عقدة التجارة مع الشرق. وفرنسا بموقعها الجغرافي تتحكم بجزء كبير منه. وقد تهدد كامل رقعته، خصوصاً وتطلعاتها نحو مصر والهند ما فتئت تشغل بال الإمبراطور وإدارته السياسية..

.. جاءت أولى الإنذارات عندما هاجمت فرنسا مملكة نابولي (غوفيون[١٤٨] سان سير في ٧ ايلول)، وبذلك تأكدت لإنكلترا مصداقية الأخطار. وإن أرادت فعلاً حسم الموقف لصالحها فعليها متابعة عملياتها البحرية بمعارك حاسمة، تنهك وتدمر قوى فرنسا وإسبانيا البحريتين، وخاصة الأسطول القابع في ميناء قادس.

« هذا الحيوان غرافينا[١٤٩] Gravina الذي يعشق الحروب (وصفه لوريستون[١٥٠] Lauriston) » هو الذي أصر على فيلنوف في ٢٩ آب للخروج إلى البحر ثانية . فقد طالب رئيسه وهو أحد قادة مجموعاته المخلصين بالعودة إلى البحر قائلاً :

« نترك قادس إلى المتوسط ، وندفع أمامنا البوارج البريطانية القليلة هناك ، ثم ندخل مرفأ طولون الحربي . وهناك سيتجمع لدينا أكثر من (٥٠) بارجة ، وداخل ميناء منيع ، إضافة إلى موانىء جنوة وقرطاجة . ومن هناك ننطلق في عمل كبير .

لم يقنع فيلنوف بمطلب مرؤوسه ، بل فضل البقاء في قادس ، بعد خمسة أشهر طويلة من المطاردات عبر الأطلسي وبحار الآنتيل . إذ لم تعد لديه الطاقة لركوب البحر من جديد ، وهو أكثر الرجال معرفة بأحوال أسطوله ، وحدسه ينبئه بمعركة كبيرة تتربص بتشكيله . حتى إنه ضرب بأوامر باريس التي طلبت منه البقاء مبحراً عرض الحائط ، وخالف الأمر ، ودخل فرسا في مياه قادس كما أسلفنا .

مهما قيل عن فيلنوف .. وعن تصرفه .. فالأميرال كولينغوود عنيد ، ولن يدعه ينعم طويلاً في قادس .. وبرغم صعوبة المرابطة مقابل الميناء قدم كولينغوود ، مفعماً بالشجاعة على رأس قوة من ثلاث بوارج ، وأقام يراقب مدخل الميناء اعتباراً من ٢١ آب ، ويحاصر قوة لخصمه فاقته عشرات الأضعاف .

ما كان على كولينغوود البقاء طويلاً في هذا الموقف الصعب ، لكن طموحاته الكبيرة في تسطير الأمجاد جعلته يتخلى عن جميع مهامه الأخرى ، ويطلب من قادة مجموعاته الإسراع للحاق به . وخلال فترة وجيزة وصلته عدة مجموعات جاءت من كل صوب . إذ حضر بيكرتون Bickerton من قرطاجة ، وكنايت Knight من ليشبونة ٢٣ آب . وبذلك تجمع لدى كولينغوود في ٢٨ آب (١١) بارجة . وأخيراً ظهر كالدر بأسطوله لينضم إليه . وهنا عادلت القوة البريطانية نظيرتها الفرنسية الإسبانية ، وأمن البريطانيون البحر الأبيض المتوسط ، بعد أن أمنوا بحر المانش من قبل .

وقد كان حصار قادس تدبيراً احترازياً صعب المنال ، شهدنا مآسيه خلال أعوام (١٧٩٦ ــ ١٨٠٠) وهو مهمة شاقة أمام بحر مفتوح على المحيط بأمواجه العاتية الدائمة ، يرهق المحاصر ولا يقدم له أي كسب حربي ، وأمراء بحر بريطانيا الذين يجهلون مجريات الأحداث على الساحة الأوربية وزّعوا اهتماماتهم بين المتوسط ، وبحر المانش ، يرسمون خطة لتدمير القوة الكبيرة

الملتجئة في حوض ميناء قادس. فهل يرسلون عليها الحراقات؟ أو يرمونها بالأسهم النارية الكونغرافية نسبة إلى كونغريف (١٥١) Congrève ؟ أم يطلقون عليها طوربيدات فيلتون (١٥٢) Fulton البدائية ؟ (عرض فيلتون خدماته على الأميرالية البريطانية بتقديم طوربيدات، وبعد دراسة العرض اعتبرته الأميراليه ضرباً من الخيال) ؟ لا بد من سبيل وأفضله خوض معركة بحرية حاسمة ولكن كيف وما العمل وتشكيل الخصم آمن في الميناء.

من حسن حظ بريطانيا أن أساطيلها لم تنتظر طويلاً ففي ١٥ أيلول أصدر الامبراطور أوامره بخروج الأسطول المشترك ثانية إلى البحر. وقد اتهم قادة تشكيلاته من فرنسيين وإسبان بالتواري بأسلوب مخجل، مع أنهم الأقوى والأكثر عدداً (هذا ما كان يوحى به لنابليون عن طريق إدارته البحرية).

وبالطبع لم يكن نابليون يريد من أسطوله المشترك العودة إلى المانش، لأن حملة غزو الجزر البريطانية انتهت وطواها النسيان، بل يريد إخراج وحداته القتالية إلى البحر، إذ عز عليه أن يرى جيوشه البرية تحتل أوربة، وبالخطوة السريعة، في الوقت الذي تقبع قواته البحرية داخل الموانىء، متخلفة عن كل جهد حربي. ولهذا السبب طلب من تشكيله الكبير الخروج من قادس في أول فرصة، والتوجه نحو سواحل نابولي لمساندة الجيوش البرية الزاحفة هناك، على مقربة من مملكة توسكانيا. والواقع أن الاستخبارات البريطانية بلغها الخبر في حينه، فأصدرت الأميرالية البريطانية تعليماتها باتخاذ كامل الاحتياطات، وتغطيتها بحملة بحرية كبيرة، عقد لواؤها للأميرال غريك Graig قادمة من المحيط، وجهتها صقلية وللمنطقة نفسها التي حددها نابليون لتشكيله.. وعموماً فإن جنوب إيطاليا موقع استراتيجي هام يمتد في المتوسط، ويتحكم بقسميه الشرقي والغربي. فمن يبسط سلطانه على هذا الامتداد البري، إضافة إلى جزيرة صقلية تؤول إليه سيادة المتوسط دون عناء.

شدد الإمبراطور على أمراء بحره بالمحافظة على السفن البحرية، وعدم تعريضها للخطر. لا سيما وأن فرنسا لا تملك الكثير منها، وطالبهم بتفادي المعارك البحرية، حتى لو كانت لصالحهم !! وبناء على ذلك عقد فيلنوف مع كبار قادته من فرنسيين وإسبان ٨ تشرين الأول مؤتمراً استشارياً ناقش فيه كل جوانب الموقف، وخلص إلى القول بأنه خروج الأسطول في الظروف الحاضرة ضرب من الجنون. وطالب القيادة بتأجيل الحركة إلى موعد لاحق. وبالفعل كان ذاك المطلب ينسجم مع تصورات الإمبراطور، وعبر عنه في تعليماته النهائية التي أصدرها في ١٨ تشرين

الأول، والتي وجهها لوزير بحريته ديكريه، والتي فصلها ديكريه إلى قادة التشكيلات المشتركة بالتفسير التالي:

«يرى جلالته على الأقل العمل على إخراج بعض القوى أو المجموعات في كل مرة تجدون فيه ظرفاً مناسباً». وهذا يعني مزيداً من حرية التصرف والمناورة، واختيار الزمان المناسب. إلا أن هذا التوجيه لم يبلغ فيلنوف. وكانت آخر التعليمات هي ما وصلته قبل شهر ١٦ ايلول، والتي كانت مصوغة بعبارات قاسية خشنة، طالب من خلالها الإمبراطور بالتحرك البحري الفوري ملقياً كل الأعباء والنتائج على كاهل أميراله فيلنوف، ومحملاً إياه مسؤولية فشل خطة الغزو من جديد. ولم يكتف نابليون بالتهديد والوعيد بل فكر في معاقبة أميراله، بإحالته على مجلس حربي للتحقيق معه ومحاكمته، مبتدئاً ذلك بإصدار أمر عزله عن قيادة تشكيله، ليحرمه من آخر فرصة متاحة قد يستطيع هذا الأميرال التعيس البرهنة بها لإمبراطوره عن ولائه التام، وتفانيه في خدمة شعبه وبحريته.

في ١٧ ايلول أسندت قيادة التشكيل للأميرال روزيلي Rosily.. إلا أن حادثاً في أثناء الطريق منع وصول الآمر الجديد في الوقت المناسب، ويقال إنها فعل وفاعل. ولما وصل كان فيلنوف قد أقلع مغادراً الميناء.

إن عبارات الإمبراطور القاسية أذهلت فيلنوف، فجعلته منبوذاً حتى من أصدقائه ومن ديكريه الذي كتب يقول:

«لا أحب أن أصفك بالخوف والإهمال.. بل أنت رأس تائه».. وبالفعل بدا أميرال فرنسا بائساً يعيش فترة ضياع، عرضة للهواجس، تتجاذبه عوامل عدة بين واجبه القومي كقائد كبير وبين الحكمة والنظرة الصائبة فيما سيؤول له تشكيله ورجاله، إن هو جابه عدوه الضخم. وعبر عن حالته بصدق من خلال رسالته الحزينة التي أرسلها في ٦ تشرين الأول يطلب فيها بتواضع بيانات وحقائق قادرة على إثبات تخلفه عن القيام بواجباته. وقد تكررت كتبه، وكان يقابل بصمت مزعج أو رد قاس. عندها اختار لنفسه حلاً يرضيه ولو ضحى بنفسه وبأسطوله، وقرر المجابهة مهما كانت النتائج في سبيل الحفاظ على شرفه وشرف الذين يعملون معه، وكتب لإمبراطوره يقول:

«إن كان لا ينقص سلاح البحرية إلا الشجاعة والإقدام فأنا قادر على تأمينها لك كاملة يا صاحب الجلالة والمهمة الحالية سنتوجها بنصر كبير».

ثم أقلع تشكيله الذي ضم (٢٠) ألف مقاتل إلى مذبحة رهيبة لا طائل منها.. وقبل أن يقلع

تردد من جديد للمسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتقه، لكنه استسلم في النهاية لآراء مرؤوسيه المتشددين، وخاصة الأميرال الإسباني الذي شجعه على ركوب البحر. فقرر تنفيذ المهمة بنبل وفروسية. وتساءل من ذا الذي يستطيع الاعتراض على رغبات الإمبراطور؟ وهل ننتظر حتى تسوء ظروفنا أكثر، ويزداد الحشد البريطاني المتربص بنا؟.

في ١٩ تشرين الأول ابتعد قسم من الأسطول الإنكليزي عن مشارف الميناء وقصد تطوان للتزود بالماء العذب. واستمرت (٢٩) بارجة متربصة تنتظر. ويمكن القول بأن التفوق العددي فقط كان إلى جانب الأسطول المشترك. وفي أثناء ذلك بلغ فيلنوف عن طريق الأهالي قرب قدوم خلفه روزيلي.. فازداد بؤسه وشعر بأنه مجرد من كل دعامة فتخليه عن القيادة معناه فقدٌ لشرفه العسكري، وعجزٌ عن غسل العار الذي ألصق به. وخلص إلى قراره الجريء في الخروج إلى البحر، ولقاء الأسطول الإنكليزي مهما كانت النتائج.

«سأكون سعيداً في أن أتخلى عن المركز الأول في القيادة لو أنهم حفظوا لي المركز الثاني، لكن إبعادي كلية أمر أذهلني وأضاع عليَّ كل فرصة قد أستطيع من خلالها البرهنة عن أنني كنت دوماً أهلاً للتقدير» هذا ما أسر به فيلنوف إلى أصدقائه قبل أن يصدر أوامره إلى سفن تشكيله بالخروج إلى عرض البحر، قائلاً «نحن ذاهبون لننفذ آخر أمر للإمبراطور»، وكأنه كان يتوقع المصير الذي سيؤول إليه.

وهكذا خرج الأسطول المشترك الفرنسي الإسباني بإمرة الأميرال فيلنوف واتجه شرقاً دون أن يسعى إلى خداع أو تمويه.. وسار يبحث عن معركته يؤكد حصولها ويستعجل توقيتها.

في ٢٠ تموز صباحاً انتظمت حركة التشكيل وخرج ماغون Magon مع عدة بوارج ليلاً. وإثر ذلك ارتفعت شارات الإنذار على طرادات الكابتن البريطاني بلاكوود والمكلف بمراقبة ميناء قادس وجواره. ثم أمر القائد الإنكليزي وحداته بالتراجع نحو عرض البحر، في حين كان الأسطول الإنكليزي على بعد (٦٠) ميلاً إلى الجنوب من ميناء قادس، يجوب المنطقة، ليبقى سيداً لمناورته في حال ورود أي إشارة عن تحركات خصمه.

أحيط الأسطول الإنكليزي علماً بخروج الأسطول المشترك، وهو على مقربة من رأس سبارتل. فسارع للحاق بالفرنسيين والإسبان، قبل أن يبلغوا مضيق جبل طارق ويعبروه إلى

المتوسط. كان على رأس الأسطول الإنكليزي نلسون العظيم الذي سعى لعدة شهور خلت إلى خوض معركة حاسمة مع الفرنسيين، وكتب بالمناسبة لرفاقه يقول:

«لقد حانت الفرصة (ويعني المعركة) ولن أدعها تفوتني قط».

أسندت قيادة التشكيل البريطاني للأميرال نلسون بعد زيارته الأخيرة للندن في نهاية شهر آب، حيث استقبل هناك استقبال الأبطال، واعتبر منقذاً لبريطانيا. وعرفاناً وتقديراً لشجاعته، وبناء على طلبه في تخويله حق إنزال الضربة القاسمة في أسطول فرنسا، والذي خبر أمره واستعد له، أجيب إلى طلبه. فغادر بريطانيا في ١٢ ايلول، ووصل مياه قادس في ٢٨ منه، واستلم قيادته الجديدة، وكانت تضم (٢٧) بارجة.

إثر وصول نلسون طلب الاجتماع بقادة مجموعاته، وشرح لهم خطته في المعركة ولخص لهم مراحلها ضمن مذكرة وزعها عليهم، لترشدهم خلال مراحل القتال. وعرفت بالمذكرة الشهيرة ٩ تشرين أول.

كان باعتقاد نلسون أن سفنه ستبلغ (٤٠) بارجة مقابل (٤٦) بارجة إسبانية وفرنسية. وكان يرى أن تحريك هذا العدد الضخم، وأداء مناورة صحيحة به أمر في غاية الصعوبة، لكن تحفظه هذا قد زال، لأن تعداد بوارجه لم يتجاوز الـ (٢٧) بارجة، عليها (٢٣٦٨) مدفعاً مقابل (١٨) بارجة فرنسية و (١٥) بارجة إسبانية يحملن (٢٧٨٠) مدفعاً.

كان هم نلسون فرض المعركة على جزء من تشكيل عدوه، فيحمل على هذا الجزء حملة ساحقة، وبأكبر عدد من سفنه، وبفضل التفوق العددي الكبير على هذا الجزء المختار، ويحرز نصراً رناناً، برغم كثرة عدد سفن الأسطول الخصم. وما إن يبلغ هذا النصر أسماع باقي سفن التشكيل حتى تكون معنوياتهم قد انهارت، ويذهب كل فريق يطلب مأوى يلجأ إليه.

تتلخص خطة نلسون الحربية بوقف تقدم سفن خصمه، والإحاطة بمجموعة منها، واحتوائها وشل حريتها في المناورة، دون أن يدخل مدى نيران باقي سفن الأسطول المشترك. وتقوم مجموعة قتالية هجومية بالاقتراب من الجزء المحاصر، تمطره بوابل من قذائفها، في حين تشاغل مجموعة أخرى باقي سفن الأسطول المشترك، وتمنعها من الالتفاف لنجدة الجزء المشتبك. وبمجرد تدمير سفن الجزء المطوق تعلن أولى تباشير النصر، ويسهل بعدها الإجهاز على الباقي بالأسلوب نفسه، لو رغب الخصم في متابعة القتال. تلك كان الخطة الأولى بافتراض سفن خصمه تحت ريحه. ولقد فرض

نلسون على قادة مجموعاته السعي لتحقيق هذا الشرط الأساسي. أما في حال عدم الوصول إلى الموقع الصحيح، أي وجود الخصم في ريحه فتطبق مناورة أخرى.

وزع نلسون قواته ضمن مجموعتين رئيسيتين، كل مجموعة تناور مستقلة عن الأخرى. وعلى المجموعة الأولى والتي ضمت (١٦) بارجة بإمرة الأميرال كولينغوود خرق رتل الأسطول المشترك عند البارجة الثانية عشرة من نهاية الرتل، ليفصلها ويعزلها عن باقي التشكيل، ثم يطوقها ويدمرها، وهو الأقوى عدة وعدداً، والأفضل موقعاً في ساحة المعركة، في حين تقوم المجموعة الثانية بعمليات مشاغلة لسفن المقدمة بالحركة والنار واقتناص بعض بوارجها المنتشرة طولياً في بعد شاسع، والتي لن تجد الوقت الكافي للعودة ومساندة سفنها المطوقة في ذيل الرتل.

وقرر نلسون المهاجمة في مركز التشكيل، وبذلك يبعد (٢٠) بارجة فرنسية إسبانية مرحلياً عن المعركة. وفي حال اكتشاف خطته وعودة السفن الفرنسية الإسبانية إلى خضم المعركة تنقض كل سفن الأسطول الإنكليزي عليها، وهي في طريق عودتها، قبل أن تأخذ مواقعها القتالية، فتمطرها بوابل من قذائفها وبغزارة. أما إذا حاولت تلك السفن الانسحاب فعلى السفن القوية والسريعة مطاردتها وتدميرها.

تركز هم قادة المجموعات الإنكليزية على منازلة العدو بتفوق عددي بالانفراد بمجموعات معادية تقل عددياً وعدة، ومحاولة تدمير الوحدات أو أسرها. وترك للأميرال كولينغوود حرية التصرف معتمداً على سلامة حكمه، وطلب إلى جميع قادة المجموعات المحافظة على مواقعهم القتالية، باعتبارها نقاط ازدلاف وتجمع. كما طلب من قادة السفن تفادي تعريض وحداتهم للتدمير. وفي حال الالتحام تعمل كل سفينة بمسؤوليتها الخاصة.

تلك كانت خطة القتال العامة، وقد اعتراها بعض التعديل، إثر تشكيل نلسون لمفرزة ثالثة، طلب إليها التقدم ومشاغلة سفن المقدمة، حيث يتواجد الأميرال الفرنسي فيلنوف قائد التشكيل.

نصت الخطة على نوعية التشكيلة الهجومية فجعلتها جبهية في المقدمة، في حين تتخذ سفن الذيل تشكيلة الرتل المتعامد مع رتل سفن الخصم، وهي التشكيلة التقليدية في معارك السفن الحربية الشراعية.

اتصفت خطة نلسون بالطابع الهجومي الجريء المفرط في الإقدام، مع المحافظة على مبدأ الاقتصاد بالقوة بعقلانية متطورة، وبحسن استخدام للسلاح تبعاً لظروف المعركة، التي ستفرض على

الخصم، كما خطط لها، وكما أرادها الأميرال الإنكليزي الفذ. وقد قوبلت هذه الخطة بالاستحسان الشديد من قبل كافة قادة المجموعات المشتركين.

يقول نلسون «عندما شرحت الخطة نزلت على الرجال كالرعشة الكهربائية، حتى إن العديد منهم ترقرقت مآقيهم بدموع الفخار. فالجميع أيدها، لجديتها ولسهولة تطبيقها، وأصبح الجميع على علم مسبق بما عليهم فعله وبأعصاب هادئة».

كم كان الفرق كبيراً بين هذه الثقة المؤيدة لحتمية النصر، وبين المشاعر البائسة التي حملها الأميرال الفرنسي، وهو يخطو بخطواته الأخيرة نحو مصيره، ففيلنوف يعرف برغم كل شيء النتيجة مسبقاً، فهو ذكي ومفعم بالخبرة، لكنه لن يقع فريسة سهلة، ولن يدع خصمه يفاجئه، ولن يجعل خطة نلسون ومناورته سهلة كما تصورها، وقد حذر قادة مجموعاته قبل بدء القتال بقوله:

«لن يكتفي نلسون في أخذ تشكيلة الخط الموازي لتشكيلنا.. بل سيسعى للالتفاف حول مؤخرتنا، وخرق صفوفنا، والإحاطة ببعض بوارجنا التي سينفرط عقدها فيحاصرها ويدمرها. وعليكم إحباط محاولاته بالتساند والتماسك، والمحافظة على المواقع القتالية في التشكيل.. الخ». ويلاحظ وكأن فيلنوف قد تنبأ مسبقاً بتكتيك نلسون الجديد.. فما هو السبيل لإفشاله؟

السبيل معروف وكان يجدر بالقيادة العامة معالجته من زمن بعيد حتى لا ترى الأساطيل الفرنسية يوماً عصيبياً كهذا اليوم. وكان من الواجب الأخذ بآراء فيلنوف الإصلاحية، ففي أساطيل فرنسا خلل كبير، ويجب تبديل كل شيء من عادات وطباع وتقاليد، ومنذ زمن بعيد. أما الآن فليس أمام فيلنوف ما يفعله إلا التقدم أمام خصم عنيد فاقه عدة وعدداً وكفاءة. ويضيف فيلنوف في وصف حالته المتردية فيقول:

لدينا تكتيك بحري بال وقديم، لا نحسن إلا الاستعراض أمام الخصم، وهذا ما يرجوه منا دوماً. وليست لدينا الوسائل والإمكانات، ولا حتى الوقت في تبني أسلوب متطور، خصوصاً مع قادة للسفن (يقصد السفن الإسبانية والفرنسية على السواء) ستدخل المعركة لأول مرة، وأغلبهم لم يتعرض لموقف حرج، ولم يختبر قدرته في إدارة المعارك، وفي سرعة التدخل، وفي حضور البديهة. إن أذهانهم تعجز عن إيجاد الترابط السريع بين ما يجري، وما عليهم مجابهته عندما تتبدل الظروف.. إنهم يحسنون المحافظة على مواقعهم في التشكيل، لكن تعوزهم الموهبة عند حتمية اتخاذ قرار جريء وحاسم.

قرر فيلنوف تشكيل مجموعة ضاربة مؤلفة من أفضل شراعياته وبوارجه، ووضعها تحت إمرة غرافينا. وأطلق على هذه المجموعة اسم مجموعة المراقبة، التي عليها التواجد في ريح الأسطول المشترك جاهزة لتقديم واجب الإسناد والمعاونة لأية جهة من جهات التشكيل قد تتعرض للتهديد. وعلى هذه المجموعة واجب آخر هو الرد بالتعاون مع المجموعات الأخرى، والقيام بعمليات قصف مدفعي كثيف لإحباط أية مناورة جريئة يقوم بها البريطانيون واحتوائها. إلا أن هذا التحضير البسيط المتصف بالفكرة الدفاعية البحتة لم يكن سهل التحقيق. وقد لحظ هذا الأمر فيلنوف نفسه خلال المناقشة العامة للمعركة، والتي أجراها مع كبار قادته، قبل بدء القتال. فمجموعة المراقبة تواجدت بكل بساطة في نهاية الأسطول المشترك في أثناء المعركة، ولم يختلف دورها القتالي في أثناء الاشتباك عن أي دور من أدوار المجموعات الأخرى. يضاف إلى ذلك حجم المناورات الجريئة التي توقعها فيلنوف من خصمه أمام استكانة قادة مجموعاته وضعفهم وضياعهم في تحركاتهم المضطربة والبطيئة. وقد قال في هؤلاء القادة يصفهم:

«إنهم لا يعرفون إلا اللحاق بمن يتقدمهم»،.. «وهذا يعني أنهم يدخلون المعركة مقلدين من تقدمهم دون أية مبادهة شخصية. وعلى القائد العام وحده إرشاد كل واحد منهم وتوجيهه على حدة». ويضيف فيلنوف:

«هؤلاء القادة يعملون ضمن أطر محدودة، فلا الإقدام الشخصي، ولا التطلع إلى إحراز النصر قادرين على دفعهم لابتكار السبل المتجددة، بل تشد أنظارهم على أعلام ورايات الإشارة المرفوعة على سواري القائد العام (أسلوب تلقي الأوامر بالإعلام قبل ظهور اللاسلكي) ليتلقوا من خلالها إرشادات القيادة. فلو حدث واشتبكت سفينة القائد في خضم المعركة، وغابت أعلام الإشارة ضمن سحب الدخان الكثيفة المتصاعدة من فوهات المدافع.. تتوقف قدرات هؤلاء القادة عن المتابعة أو التصرف».

«كل قائد ليس في خضم المعركة بالنار يخرج طوعاً من التشكيل، وبذلك يخل بالأبعاد والمسافات، ويعرض السفينة التي تتقدمه أو التي تلحق به لنيران من العدو أكثر غزارة لبعدها عن رفيقاتها المساندة لها، فيسهل والحالة هذه حصرها والانقضاض عليها، وتدميرها».

أما إن لحظ القائد العام سوء التصرف هذا، ولفت نظر الخارج عن التشكيل بإشارة مرئية يطالبه فيها بالعودة إلى مكانه، فيعتبر القائد المعني هذه الإشارة بمثابة إهانة لشرفه العسكري... وماذا ينفع لفت النظر أو التوجيه في اللحظات الأخيرة والحاسمة؟ أمام عادات متأصلة كلها سلبيات،

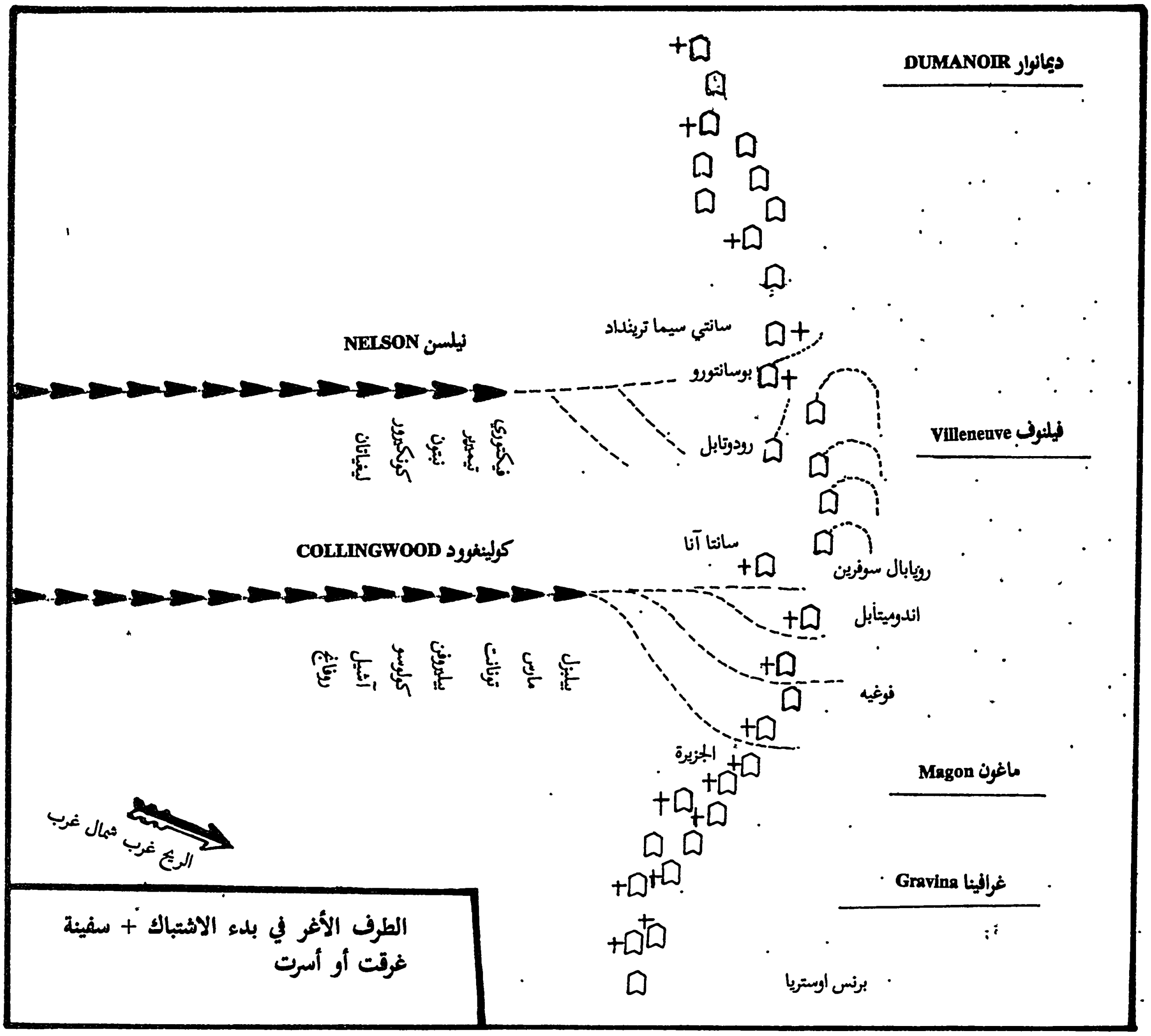

الطرف الأغر في بدء الاشتباك + سفينة غرقت أو أسرت

نيلسن على الفيكتوري
كولينغفورد على رويال سوفران
آلافا على سانتا آنا
فيلنوف على البوسانتور

غرافينا على برنس اوستريا

غدت بحكم التقادم من أسوأ الصفات، أو بالأحرى طبيعة ثانية اتصف بها قادة سفن فرنسا آنذاك.

معركة الطرف الأغر

خرج كامل التشكيل المشترك في صباح ٢١ تشرين الأول بريح تعصف من جهة الغرب ــ شمال ــ غرب، وتشتد مع تقدم ساعات النهار، ومع ارتفاع الشمس في السماء استدارت هذه الريح نحو جهة الجنوب ــ غرب.

تقدمت سفن التشكيل المشترك نحو المضيق باتجاه الجنوب الشرقي، وبرتل طويل سيء التنظيم، وفي السابعة صباحاً ظهرت صواري الخصم في الأفق وهي تتجه جهة الجنوب ــ غرب أيضاً مغلقة المسافة بين التشكيلين.

بدت مع مرور الزمن الصورة أكثر وضوحاً، وكأن القادمين تجمع كبير من السفن اختلفت أحجامها وتباينت قياساتها، وصعب تقدير عددها، ثم انشطر هذا التجمع فبدا تجمعين مميزين، الكتلة الأقرب تبدو وكأنها تسعى لتهديد مؤخرة التشكيل المشترك الفرنسي الإسباني.

في الساعة ٨٫٣٠ وصل الأسطول المشترك لمسافة ٤ أميال من رأس الطرف الأغر، وعلى (٢١) ميلاً من ميناء قادس.. وهنا أصدر فيلنوف أوامره بتغيير خط السير لعدة درجات فقط لينقل الريح إلى الجانب الآخر من أشرعة سفنه. وتسمى تلك المناورة بحركة Lof Pourlof. وما إن تم التنفيذ حتى غدت جميع السفن تسير بريح يسارية أمامية وباتجاه قادس. وكانت غاية الأميرال الفرنسي السعي لحماية سفنه المنهكة، فيجعلها للريح، ويدفعها إلى ملجأ أمين يتمثل بميناء قادس، حيث لا يجرؤ الإنكليز على اللحاق بها.. وكانت مناورة واعية ولو أن المؤرخين اعتبروها هروباً من المصير، تؤكد ضعف إيمان الأميرال فيلنوف بقدرة أساطيله.

بعد أن تمت تلك المناورة العاجلة.. والتي نفذت بصعوبة وفوضى أصبح الأسطول المشترك بتشكيلة الرتل ينقصها النظام. وتبعثرت الوحدات من الشمال غرب إلى الجنوب شرق وبمسافات مضطربة امتدت ما يزيد عن ستة كيلومترات راسمة قوساً من السفن اقترب بطن هذا القوس من أرتال الإنكليز المهاجمة.

بقيت عدة بوارج فرنسية إسبانية خارج مراكزها في التشكيل، وصنعت فيما بينها على الجانب الأيمن ما يشبه الرتل الثانوي يوازي الأول، ففقدت بذلك مواقع المشاركة الفعلية في مخطط

النار، لوجود التشكيل الأصلي بينها وبين السفن البريطانية. كما أنها بعملها هذا فتحت المسافات والفرج فيما بينها، وعلى سبيل المثال وُجد بين سفينة الأميرال فيلنوف البوسانتور Bucentaure وسفينة نائب الأميرال الإسباني آلافا Alava سانتا آنا Santa-Ane غياب سفينتين فرنسيتين وسفينتين إسبانيتين، كان يفترض تواجدهما. واتساع المسافات زادت من نقاط الضعف، برغم تصرف الكابتن لوكاس lucas قائد الرودوتابل Redoutable، والذي هب بمبادهته الشخصية واختار لسفينته ذات الـ (٧٤) مدفعاً موقعاً داخل الفرجة يغطي منها جبهة صغيرة، ما كانت إلا نذراً يسيراً من الفجوة العريضة التي خلفتها غياب السفن الأخرى.

تقدمت الوحدة البريطانية بثبات. وفي الساعة ١١ر٣٠ طلب كولينغوود من مجموعته اتخاذ تشكيلة متدرجة بالنسبة لسفينته الرويال سوفران Royal Souvereign. وأمرهم بالدوران ٤٥° درجة إلى جهة اليمين. لم يأت التنفيذ جيداً نظراً لاختلاف سرعات السفن، وأسلوب استخدام أشرعتها للريح، حيث وصلت إلى مواقع فتح النار تباعاً، وبفرج مختلفة بدلاً من أن تصل دفعة واحدة. حتى إن بعضها لم يجد خصماً يفتح عليه النار. واضطرت المجموعة للدوران حول مؤخرة التشكيل الفرنسي الإسباني المشترك، لتأتيه من تحت ريحه، أي من الجهة المقابلة (الميمنة).

أما رتل نلسون، الذي ضم (١١) بارجة، تسير في أثر بارجة نلسون (الفيكتوري Victory) فقد تقدمت شمالي الساحة، والفيكتوري في المقدمة، وقد شدت على أعلى صاريها الإشارة الخالدة:

«تتوقع إنكلترا من كل رجل القيام بواجبه»

« England expects every man will do his duty »

وبعد عدة محاولات توصل نلسون إلى أخذ تشكيلة الرتل الصحيح، وتقدم إلى المعركة والسفن الأخرى تتبعه. وكان يبحث عن سفينة فيلنوف ليختارها خصماً له. تعذر عليه الأمر ضمن هذا الحشد الكبير من البوارج خصوصاً والمسافة بعد بعيدة لا يمكن تمييز راية القيادة عليها.

اقترب نلسون باحثاً بين السفينة السادسة والسفينة الثالثة من رتل خصمه مستخدماً نصف نيران مدفعيته. ومن ثم قرر خوض المعركة بكامل قدرته، فاستدار نحو الميسرة، ودفع ببارجته مستخدماً جميع أشرعتها. وانقض على تجمع معاد من ثلاث بوارج رباعية الأسطح هي الإسبانية سانتيسيما ترايناداد Saintisima Trinidad، والبوسانتور Bucentaure والرودوتابل Redoutable.

سمعت أولى قذائف المعركة في الساعة ١١ر٤٥، ومصدرها البارجتان الإسبانيتان موناركا

Monarca وسانتا آنا Santa-Ana إيذاناً ببدء القتال. ثم احتدمت الأصوات وانتشر وميض المدافع حتى وصل إلى جنوب التشكيل، خصوصاً بعد وصول الرتل البريطاني الآخر تتقدمه الرويال سوفران.

في الساعة ١١٫٥٥ مرت الرويال سوفران بين سانتا آنا والفوغو Fouguewa، أي بين السفينة السادسة عشرة والسفينة السابعة عشر من الرتل المشترك. وبعد دقائق من ذلك وصلت الفيكتوري إلى مؤخرة البوسانتور. ولكي يغطي قائد الرودوتابل سفينة أميراله فيلنوف وثب معترضاً طريق الفيكتوري ذات الأسطح الثلاثة، ودخل بين بارجتي أميري البحرين المتخاصمين نلسون ــ فيلنوف والتصق بالفيكتوري بعد قذف الكلاليب، وبدأ ينحرف سوية معها وهو في قتال عنيف وجسد إلى جسد. في أثناء ذلك اقتربت كل من النبتون Neptune والكونكيرور Conqueror تصبان الحمم على البوسانتور. واستمرت المعركة محتدمة وفي الساعة ١٣٫١٥ كانت على أشدها، فكل سفن المجموعة الثانية والمجموعة الثالثة الحليفة مشتبكة بعنف مع سفن الأسطول الإنكليزي. وكان بعضها يقاتل على الجنبتين.

في الساعة ١٤٫١٥ استسلمت الفوغو بعد أن فقدت (٥٢٢) من أصل (٧٠٠)، والتحمت على جانبها التيمورير Temeraire ذات الـ (١٠٨) مدافع، تساندها كلاً من البيلايل Belleille ومارس Mars. وفي الوقت نفسه تمزقت السانتا ــ آنا تحت وابل مدافع الرويال سوفران والبيلايل، وتحطمت صواريها وتمزقت أجنابها، وقتل آلافا Alava نائب الأميرال، ثم استسلمت.

أصيبت الرويال سوفران إصابات خطيرة، فقد سقط صاريها الرئيسي، ودُمّرت أشرعتها، وعدت عاجزة عن الحركة، فطلبت نجدتها وقطرها خارج المعركة، وانتقل قائدها كولينغوود من عليها إلى الفرقاطة أوريالوس Euryallus، وبذلك حوصرت كل وحدات المؤخرة الفرنسية الإسبانية، وازداد الضغط عليها، وبدأت تستسلم الواحدة تلو الأخرى، قبل الساعة الرابعة من بعد الظهر.

كان القتال في الوسط حامي الوطيس بين الرودوتابل والفيكتوري، واتخذ طابعاً ملحمياً شرساً. وقبل الثانية بقليل أصابت قذيفة فرنسية الأميرال نلسون فقصمت عموده الفقري، وسقط على السطح العلوي متأثراً بجراحه المميتة، وأوكل القيادة لنائبه هاردي Hardy الذي هرع لنجدته وقال له:

«لقد تخلص الفرنسيون مني، إلا أن المعركة ستبقى مستعرة».

وعلى أثر الحادث تقدمت كل من التيموريير Temeraire والنبتون لمساندة الفيكتوري وإنقاذها .

في الثالثة والنصف من بعد الظهر انسحب القائد المقدام لوكاس من المعركة ، بعد أن أبلى بلاءً حسناً ، وفقد (٦٠٠) من رجاله بين قتيل وجريح ، وترك البوسانتور والسانتسيماترينداد تواجهان مصيريهما لوحدهما ، ضد سبع بوارج بريطانية .

حدث كل هذا بين (١٣) سفينة من الأسطول المشترك والأسطول الإنكليزي بكامله ، في حين بقيت سفن المقدمة ، والتي بلغت (١٠) بوارج بإمرة دومانوار Dumanoir بعيدة عن المعركة تتابع سيرها نحو الشمال ، بعد أن شاركت بعدة صليات من مدافعها . وكان قد طلب فيلنوف في الساعة ١٥ر١٣ من جميع سفنه التدخل والاشتراك الفعلي في المعركة ، طالباً إليها سلوك أقرب طريق يقربها من ساحة القتال . وفي الساعة ٣٠ر١٤ لاحظ الأميرال الفرنسي أن لا شيء من أمره قد نفذ ، فطلب من مجموعة دومانوار الدوران الجماعي والعودة لمساندة سفن مركز التشكيل . لكن قائد مجموعة المقدمة تجاهل الأمر وتلكأ في تنفيذه مبرراً تلكؤه هذا فيما بعد بانخفاض سرعة الريح ، وهو تعليل مرفوض لا يعتمد على الواقع ولا يستند إلى حقيقة . إذ إن السفينة البريطانية آفريكا Africa التي بعدت في أثناء الليل استطاعت استعادة موقعها في المعركة بسرعة مستخدمة كامل أشرعتها ، في الوقت نفسه الذي زعم فيه دومانوار انعدام الريح . وأخيراً تجاوب دومانوار قرابة الساعة الثالثة من بعد الظهر ، ونفذ المناورة التي طلبها منه قائده مع بضع بوارج من مجموعته ، في حين تابعت البقية خط سيرها الأصلي . جاءت ثلاث بوارج إسبانية واستدارت متخذة ريحاً خلفية ، فوقعت تحت ريح جبهة القتال ، وبذلك فقدت دورها القتالي ، في حين قامت البوارج الأخرى ، وبمساعدة الزوارق بالدوران متخذة ريح مقدمة ، فشكلت سرباً مقاتلاً في الريح بين الأسطولين ، قادرة على مد العون لمن احتاجها . وهكذا استمر تردد دومانوار في تنفيذ الأوامر ، ثم في تنفيذها بشكل بطيء وسيء . كل هذا في مجرى العملية عامة ولم يشذ عن ذلك إلا القائد انفيرنيه Infernet قائد البارجة انتربيد Interpid الذي اخترق الصفوف لمساعدة البوسانتور ، وتبعته البارجة الإسبانية نبتونا Neptuna ، وصاح بهما دومانوار : أين تذهبان ؟ فأجابه البريفادييه الوفي فاليديس Valdes : إلى النار Au feu . واقتحما ببارجتيهما السفن المحيطة ببارجة الأميرال فيلنوف يصليانهما نيراناً حامية حتى سقط القائدان قتيلين في خضم المعركة .

في الخامسة مساءً وصل دومانوار مع الفورميدابل Fomidable ، والسبيون Seipion ، والدوغاي تروين Dugay-Troin ، والمون بلان Mont-Blane . لكن الوقت كان متأخراً جداً ، ورزحت البوسانتور منذ أكثر من ساعة تحت ثقل نيران عدة بوارج إنكليزية مجتمعة ، في حين تفرقت السفن الحليفة الأخرى ، وتحلقت ببرانسيب دو اوستريا Principe de Asturies التي ترفع علم غرافينا Gravina . وكانت في طريقها إلى قادس .. وهنا وجد دومانوار نفسه وحيداً مع من تبقى معه ، فانسل من ساحة القتال ، واتجه نحو المحيط محاولاً دخول خليج غاسكونيا للقاء مجموعة آلماند هناك . وابتعد عن دخول مضيق جبل طارق لعلمه بوجود البريطاني لويز Louis هناك ، الذي سيمنعه من دخول المتوسط .

أحيل دومانوار أمام مجلس عسكري في ١٣ ايلول (١٨٠٩) بتهمة التقاعس وعدم تنفيذ أوامر رؤسائه .. وبعد جلسات عدة بريء من كل التهم التي نسبت إليه ، لكن الرأي العام البحري والوطني أداناه واعتبراه مسؤولاً عن حجم كبير من الكارثة .

معركة الطرف الأغر نصر عظيم لبريطانيا وهزيمة مروعة لفرنسا وحليفتها إسبانيا . ومع أنها كارثة للحليفتين فإنها لم تعدم الإقدام والبطولة ، فشجاعة فيلنوف الأميرال الذي قاتل وزملاؤه الشجعان بضراوة طالبين الموت في سبيل الكرامة ، مسطرين برغم الهزيمة المنكرة بطولات حازت الإعجاب والتقدير ، فخلدوا في سجل البطولة صفحات مشرقة من تاريخ الحروب البحرية . ويجدر بنا أن نذكر بطولات خصومهم وراء قدوتهم نلسون العظيم .. صاحب العبقرية البحرية الفذة في التواجد الدائم في كل مراحل القتال ، وبعقلية قتالية نيرة ، وأسلوب مقدام جريء .

ولْنعد إلى الفصل الأخير من تلك المعركة الطاحنة ، ففي الرابعة من بعد الظهر وصلت البوسانتور بارجة الأميرال إلى نهاية المطاف ، وقد تمزقت بضراوة وغمرت عنابرها مياه البحر ، وغدت حطاماً عائماً .

حاول الأميرال فلينوف هجرها لبارجة أخرى ، ليكمل المعركة . لكن زوارقه تحطمت وأتت عليها النيران . ولما عدم الوسيلة ، استكان لمصيره ، وسقط أسيراً في يد قائد الأسطول البريطاني الذي نقله إلى بريطانيا معززاً ، وعومل هناك بكرامة . ثم منح حق العودة إلى فرنسا ، ليدافع عن نفسه أمام إمبراطوره الذي اتهمه بالتقاعس والجبن .

كتب فيلنوف إلى ديكريه[١٥٣] يتوسطه أمام الإمبراطور ويطلب حمايته ، وجاء رد ديكريه صمتاً

مطبقاً.. فوضح لفيلنوف تخلي الجميع عنه، وزادت خيبة أمله في عفو الإمبراطور، فقرر التخلي عن الحياة، وانتحر طاعناً نفسه ست طعنات من سكين حادة في نزل رين Rennes، ومات متأثراً بجراحه في ٢٣ نيسان (١٨٠٦) تاركاً لزوجته كلمة قال فيها:

«آه، لم أولد لأنتهي بمثل هذا المصير الذي لم أسع إليه بل أجبرت عليه رغماً عني».

هكذا كان مصير فيلنوف. أما الأميرال غرافينا، والتي آلت إليه قيادة التشكيل البحري المشترك من بعد فيلنوف فقد أعطى أوامره، بعد أن شاهد علم فيلنوف ينزل عن صارية البوسانتور (دليل الاستسلام)، وكان ذلك في الساعة الرابعة والنصف من بعد الظهر.

تضمنت أوامر غرافينا إلى جميع الوحدات البحرية القادرة على الحركة بالانزلاق في الريح باتجاه قادس. (٥) بوارج فرنسية و (٦) بوارج إسبانية نجحت في الوصول إلى الميناء، وهي محطمة الصواري مثخنة بالجراح.

وفي الساعة ٥٫٣٠ من بعد الظهر انفجرت آشيل Achille بعد أن ارتفعت فيها ألسنة اللهب قرابة الساعتين، وتناثرت أجزاؤها في الجو، وغاص حطامها في اليم. وفي الساعة السادسة استسلمت الانتربيد Interpide وأنزلت علمها بعد قتال مرّ ضد (٧) بوارج إنكليزية دفعة واحدة.

وأخيراً توقفت أصوات المدافع بعد غرق بارجة، وأسر (١٧) من الأسطول المشترك. وخيم سكون حزين، ثم دخل الليل وكان عسيراً مرعباً. فالريح اشتدت مع غروب الشمس، وانقلبت إلى عاصفة هوجاء. وكانت آخر إشارات نلسون لخلفه في القيادة الأميرال كولينغوود: أنصحكم باللجوء إلى أول خليج آمن والرسو فيه تفادياً لعاصفة تقبل. قليل من الوحدات البحرية استجاب للنداء وبقي القسم الأعظم منها في عرض البحر متناثرة تائهة بفعل الرياح العاتية. أما السفن الفرنسية التي بقيت في البحر عاجزة عن الحركة بفعل الدمار الذي أصابها أو لنقص في طواقمها فقد وقعت فريسة الأمواج الصاخبة، وغرقت الرودوتابل وتبعتها السانتسيماترينداد، وغرقت أخريات غيرها أو تحطمت على صخور الشواطىء القريبة، وأحرق الإنكليز الانتروبيد، وسان أغوستين، والبوسانتور، والجزيرة للتخلص منهما، ولعدم قدرة جرهما، وأسروا الباقي.

في اليوم التالي من المعركة أقلع الكابتن كوزماو Cosmao بمبادرة شخصية منه، وقد وجد في نفسه الجرأة على الخروج للبحر ثانية، يحاول الثأر لكوارث الأمس. واتجه وبإمرته ثلاث بوارج فرنسية وإسبانية، وهاجم مجموعة بريطانية، واسترجع منها النبتونا وسانتا آنا.

عبر الإنكليز مضيق جبل طارق وبحوزتهم بارجة فرنسية واحدة اسيرة، وثلاث إسبانيات، واحدة منهن بقيت صالحة للاستعمال هي السان جوان نيبوموسينو، والتي أصلحت على عجل وضمت فيما بعد إلى الأسطول البريطاني.

وثلاث سفن أخرى واحدة فرنسية واثنتان إسبانيتان انجرفن بفعل العاصفة وجنحت على الشاطىء فتحطمت.

حصيلة معركة الطرف الأغر كانت كالتالي:

٣٣٧٠ قتيلاً و ١١٦٠ جريحاً فرنسياً

١٠٢٨ قتيلاً و ٢٥٤٥ جريحاً إسبانياً

وقتل الأميرال الفرنسي ماغون Magon، والأميرال الإسباني غرافينا، حيث مات متأثراً بجراحه، كما جرح ثلاثة أمراء بحر و (١٩) قائد سفينة من أصل (٣٣)، في حين كانت خسارة الإنكليز:

٤٤٩ قتيلاً و ١٢١٤ جريحاً، كما قضى قائد التشكيل الأميرال نلسون نحبه.

ولم يسلم أحد من الفرنسيين من كارثة الطرف الأغر، حتى البوارج التي ابتعد بها دومانوار إلى عرض المحيط (مساء ٢١ تشرين الأول) اصطدمت في ٢ تشرين الثاني وعلى مقربة من رأس أورتيغال Cap Ortegal بمجموعة الكومودور ستراشان Strachan التي كان كورنواليس قد أرسلها في مطاردة مجموعة آلماند الفرنسية.

اشتبكت القوتان، وقد توازت في عدد بوارجها، إلا أن المجموعة البريطانية فاقتها بأربع فرقاطات. وقد نشبت معركة شرسة استمرت عدة ساعات، وانتهت بوقوع كامل السفن الفرنسية أسيرة في أيدي مهاجميها.. وهكذا.. لم تعد أية سفينة فرنسية إلى ميناء فرنسي، وضاعت جميعها، حتى السفن التي لجأت إلى قادس وقعت فريسة سهلة أمام الخصم في ١٤ حزيران عام (١٨٠٨) إثر ثورة إسبانيا على فرنسا وعلى الغزو الفرنسي لأرضها.

لم ينج من قوة فرنسا البحرية إلا مجموعة آلماند التي ضمت (٥) بوارج و (٣) فرقاطات، والتي أقلعت من جزيرة ايكس في ١٧ آب لتنضم إلى فيلنوف، وانتظرت في عدة نقاط لقاء حددت لها دون جدوى. وقد سلك آلماند طرقاً بعيدة منعزلة عن التشكيلات البريطانية العديدة المنتشرة في المنطقة، وهذا جعله يسرف في الابتعاد عن السواحل باتخاذ خط سير يمتد بين رأس ليزارد Cap

Lizzard على الساحل البرتغالي وتينيريف . وهناك اعترض في أثناء ترحاله عدة سفن إنكليزية ، واستولى عليها ، كما أوقع في الأسر بارجة حربية بريطانية ، وزرع الرعب في قلوب قادة السفن والقوافل التجارية القادمة عبر المحيط . وأخيراً وفي ٢٤ تشرين الثاني عاد إلى جزيرة ايكس Ile d'aix بعد قضاء (١١٦) يوماً في البحر ، وكان في جهل كامل عن كل ما دار على الساحة البحرية .

عاد الأميرال كولينغوود في ٢٢ تشرين الأول لمهمة مراقبة مداخل ميناء قادس .. وخضعت موانىء فرنسا وإسبانيا للحصار كسابق عهدها . واحتدمت الحرب الاقتصادية التجارية البحرية من جديد ، واحتل الأسطول البريطاني المكانة الأولى في العالم ، وسيطر سيطرة كاملة على البحار ، وخاصة على المحيط الأطلسي وعلى البحر الأبيض المتوسط ، دون أي منازع أو متحد . فالإمبراطورية البحرية التي خلفتها معركة الطرف الأغر أكدت خفقان العلم البريطاني في كل البحار ، وعلى البحار فقط ، أما على البر الأوربي فالأمر مختلف للغاية والسيادة لا زالت لفرنسا المنتصرة ، وقد تأكدت تلك السيادة بعد الانتصارات الباهرة والكبيرة التي حققها نابليون بونابرت في معركة أوسترليتز (٢ كانون الأول) والتي من خلالها حطم زخم الاندفاع الروسي النمساوي ، وفتح أبواب النمسا أمام جحافل جيوشه فدخلها ومزقها ، وأزال اسم الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة من قائمة الدول . وفي معركة ايينا (في العام التالي) Iena ومعارك اورستايدت Ouerstaedt ، وبرلين .

اختفت بروسيا عن الساحة ، وتبعتها ايلو Eylau ، وفريدلاند Fried Land وتيلسيت Tillsit ، وانضوت روسيا تحت هيمنة النظام الفرنسي ، وانتظم جزء كبير من عالم أوربة المتمدن في ركاب الإمبراطورية الفرنسية ، وحصل نابليون على أولى ثمار طموحاته الواسعة فها هي أوربة الغربية تحت وصايته .

وقد خسرت الدول الأوربية حروبها .. إلا أن فرنسا تعبت من معاركها العديدة على البر الأوربي ، وبرغم انتصاراتها العديدة لم تكن هي المنتصرة الحقيقية ، بل كان النصر نصيب بريطانيا التي استغلت معركة الطرف الأغر ، كما حدث من قبل واستغلت معركة الهوغ La Hougue ، وبدت سيطرتها البحرية في كل مكان لخدمة اقتصادها وتجارتها . وكانت فرنسا تمر آنذاك بمرحلة التقزز من البحر ومن طموحاته الباهظة التكاليف . وتوقف الصراع على إمبراطورية البحر . لكن هل حروب البر وحروب البحر قد انتهت أم أنها قد بدأت مرحلة جديدة من الصراع ؟

ذاك كان السؤال الذي تردد على ألسنة الحكام . وكان السؤال في الحقيقة قد صيغ بأسلوب جديد وهو :

أسيؤثر نفوذ القدرة البحرية على العمليات البرية الواقعة على القارة الأوربية ومستعمراتها؟ أم إن الضغط العسكري المسيطر براً على القارة قد يصل إلى عمق الشعوب التي اعتمدت البحر ومجالاته كمنطلق لها؟.

الفصـــل الثـانـي

الصـراع بيـن بونابـرت وبريطانيـا
أو بيـن البـر والبحـر

لم يغير يوم ٢١ تشرين الأول من عام (١٨٠٥) شيئاً مما كان يسود على الساحة الأوربية. فالقوة العسكرية الفرنسية الجبارة على امتداد أقاليم الإمبراطورية ما اهتزت أو تأثرت، بل استمرت تمعن في الاتساع والتوغل، دون عائق يوقف انتشارها. وراح بونابرت يوزع عروش أوربة على أخوته، وكأنها من ممتلكاته الخاصة. فقلد أخاه جوزيف مُلك إيطاليا ٢٥ مايس (١٨٠٥)، ثم ألحق له ملك نابولي إضافة نيسان (١٨٠٦)، ونصب لويس ملكاً على هولندا حزيران (١٨٠٦)، ووحد الجميع تحت سيطرة نظام ائتلافي فيدرالي، ضم غالبية دول أوربة الغربية بسيادة فرنسا. ثم أعقب ذلك كله إقامة كونفيدراسيون الراين (١٢ تموز ١٨٠٦) الذي ضم تحت إشراف فرنسا مباشرة ألمانيا الوسطى وألمانيا الغربية وبروسيا.. الخ.

امتدت أطماع نابليون بعيداً فهو لم ينس أحلامه الكبيرة في إقامة النفوذ الفرنسي في المشرق، عن طريق التوغل في المتوسط، وتهديد طريق الهند المجال الحيوي الهام لإمبراطورية بريطانيا العسكرية والاقتصادية، وعلى البقاع الواقعة تحت سيطرة الإنكليز في البر والبحر. وبالفعل فعن طريق انكونا Ancône وبرنديزي Brindisi من جنوب إيطاليا استولت فرنسا (كانون الثاني ١٨٠٦) على كل الجنوب الإيطالي، وعلى مقاطعة دالماتيا Dalmatie، ومقاطعة راغوز Raguse اللتين انتزعتهما من الإمبراطورية النمساوية. ثم عبرت إلى شبه الجزيرة البلقانية لمجابهة روسيا القيصرية. وقد عبر مع جيوشها وفي الوقت نفسه عملاء الإمبراطور فوصلوا بخارست واسطنبول، بهدف إثارة شجاعة

القدرات العسكرية الإسلامية وإقدامها مطالبين بتوحيد قوى المسلمين والانضمام إلى الجانب الفرنسي، بعد أن قطع الإمبراطور على نفسه وعداً بحماية الإمبراطورية العثمانية واستمراريتها إثر ترسيخ نفوذ فرنسا فوق حطام السيطرة الروسية المتعبة في بلاد البلقان الشرقية. والحق أن ما جرى على الساحة الأوربية أيقظ مخاوف البريطانيين، وتوقعوا المزيد من المآسي. وكانت آخر كلمات رئيس وزراء بريطانيا الشهير بيت Pitt، وهو على فراش الموت إذ قال:

«آه يا وطني، في أي ظرف أتركك»

بعد موت بيت لم تعمر وزارة توري Tory كثيراً، واستقالت بعد أسابيع قليلة وكأنها تفتش مع الجموع البريطانية عن وزارة قوية، تجابه التحركات البونابرتية على القارة الأوربية. وبالفعل استلمت إدارة البلاد وزارة وطنية شعبية سميت بوزارة كل المواهب ألفها غرينفيل Greenville، وطالبها الشعب البريطاني بمتابعة خطا وزارة بيت القومية، بعد أن ساد أذهان الجميع شعار واحد، هو عدم التفريط بأي سنت أو جندي في سبيل مصالح دول القارة الأوربية.. وعلى إنكلترا الالتفاف حول مصالحها الخاصة لتحميها من أطماع نابليون وتطلعاته.

في تلك الظروف المأساوية بالنسبة لإنكلترا، كان لا بد من حل سريع يوقف مسيرة تدهو الأوضاع. ورشح حل طلب الصلح مع فرنسا فوق كل الحلول الأخرى، خاصة وأن القتال ليس في مصلحة الشعب البريطاني. وكان على رأس المنادين بهذا الحل شارل فوكس Charles Fox عدو الحرب، وداعي السلام، والصديق الحميم لفرنسا.

في آذار كلفت الحكومة البريطانية اللورد يارموث(١٥٤) Yarmouth بفتح المفاوضات، على أن يعرض كل جانب مطالبه بنوايا طيبة. إلا أن قضية عرش نابولي عقدت المباحثات. ففرنسا تسعى لضم كل إيطاليا، لتصبح الدولة الأكثر سيطرة وامتداداً في المتوسط. وإنكلترا وإن أقرت كل التوسعات الفرنسية على البر الأوربي، فإنها لا تقبل أبداً وقوع مملكة نابولي في قبضة الفرنسيين، لأن ذلك معناه خطر عظيم على مصالحها العامة في المتوسط وعبر الشرق. وتوتر الموقف، وزحفت الجيوش البريطانية فاحتلت صقلية لمجابهة الجيوش الفرنسية على البر الإيطالي. وبدا الخصمان متمسكين بمواقفهما الثابتة، واشتدت الأزمة وانتهت بقطع المفاوضات الدائرة بين البلدين.

كانت دول أوربة في أثناء ذلك، وأخص بالذكر روسيا، ترقب التفاوض الفرنسي البريطاني بحذر شديد، فوفاق الخصمين القديمين مع ضمان تكامل الإمبراطورية العثمانية، وإشراكها في التفاهم المقبل، يعني ضياع كل طموحات روسيا وإلى الأبد. فما إن توقفت المفاوضات الفرنسية البريطانية حتى تنفست روسيا الصعداء، وتحركت دبلوماسياً وبمكر مدروس لإفشال أي تقارب

مستقبلي. وأوفدت القائم بالأعمال الروسي أوبريل Oubril يعرض اتفاقية وقعت فعلاً في ٢٠ تموز. كانت ظاهرياً أكثر إغراء لفرنسا مما كانت تتوقعه باتفاقها مع إنكلترا. وضمت هذه الاتفاقية الروسية الفرنسية الجديدة ضمانة تكامل الإمبراطورية العثمانية بتنازل روسيا عن كل مطالبها السابقة دون مقابل، وإقرار سيطرة فرنسا على كامل الأراضي الإيطالية، كما توافق روسيا على تواجد فرنسا في كل المواقع التي احتلت خلال الحرب، وتضم الأراضي الواقعة على المتوسط والبحر الادرياتيكي. إلا أن هذه الاتفاقية كانت غير ذات قيمة لأن أوبريل الذي وقعها لم يكن يملك صلاحية ذلك. وبالفعل رفض قيصر روسيا (١٤ آب) تصديقها ففقدت قيمتها. وكانت تعرف روسيا مسبقاً وهي على ثقة تامة أن أي تفاهم فرنسي إنكليزي لن يكون أبداً على حسابها الخاص، أو مصالحها الحيوية في شرقي أوربة، أو في المضائق البحرية (البوسفور والدردنيل).

أحرجت المناورات الدبلوماسية الروسية بريطانيا، وجعلتها تشعر بخطر متزايد يحيق بها. فعبّرت عن مخاوفها بإرسال اللور لودردال Louderdale المطلق الصلاحية إلى فرنسا، يقترح إعادة دراسة الأمور المختلف عليها نقطة نقطة، مُقِراً لفرنسا بنفوذها الأوربي، ومتنازلاً حتى عن صقلية إذا لزم الأمر.

برزت صعوبات جديدة على طاولة المفاوضات فنابليون يصر على الاحتفاظ بكل ما توصل إليه على البر الأوربي من خلال معاركه العسكرية، مع الامتدادات عبر البحار. فمثلاً عند بحث المستعمرات الهولندية، وخاصة معبر رأس الرجاء الصالح الذي كان قد وقع بيد الإنكليز في كانون الثاني المنصرم، طالب نابليون بعودته إلى هولندا. إذ لا يمكن للإمبراطور توقيع اتفاقية مع إنكلترا تحمل الخسارة إلى حليفته هولندا. وكان يرمي من وراء ذلك سراً للاحتفاظ بهذا الممر الحيوي الهام لتنفيذ مخططاته التوسعية عبر البحار وبين المستعمرات.

في ٩ آب قطعت المفاوضات ثانية لتوتر الأجواء، وتصاعد الخلاف من جديد. وقد كرس قطعها موت فوكس ١٣ ايلول، وهو الهادىء المحب للسلام والمتعاطف مع فرنسا.

في ١٨ ايلول حاولت فرنسا إعادة المباحثات بعرض بعض التنازلات، منها الابتعاد كلية عن أطماعها في الهند، مع الاحتفاظ بصقلية تعويضاً عن جزر الباليار، فجاء جواب المفاوض المعتمد البريطاني بطلب الإخلاء لدى ألمانيا ونابولي. وبذلك انهارت نهائياً مفاوضات البحر الأبيض المتوسط، بعد أن اعتقد الجميع أنها تسير في طريق التسوية الصحيحة.

عادت الأحوال الدولية للتأزم ثانية، وعزلت بريطانيا في جزرها، ولم يعد لها من حليف.

وفقدت كل مجال يسمح لها بمعاودة قتال الفرنسيين على القارة الأوربية . وانحازت روسيا لجانب أعداء فرنسا بعد رفض القيصر تصديق اتفاقية أوبريل .

في ٢٩ تموز سرب لورد يارموث خبراً أتقن حساباته ، يعلم فيه السفير البروسي لوكشيسيني Lucchesini بأن فرنسا عرضت على الملك جورج إعادة هانوفر إلى بريطانيا . وكانت قد تنازلت إنكلترا عنه لبروسيا ثمناً لانضمام هذه الأخيرة إلى الحلف المضاد لفرنسا .

غضبت بروسيا لهذا الخبر خصوصاً والأعوام الأخيرة قد مرت عليها تحمل لها العديد من المصاعب التي أثرت تأثيراً كبيراً على موقعها في المجتمع الأوربي . وتعرضت للعديد من الإهانات ، وأضاعت الكثير من المصالح. لذا قررت في التاسع من شهر آب استدعاء الاحتياط استعداداً للحرب . وعلى أثر ذلك قام التحالف الرابع ضد فرنسا .. فعاد الأمل يدغدغ أفئدة البريطانيين ، إذ هاهي تسنح الفرصة لتعود بريطانيا إلى البر الأوربي عبر هذا الحلف الجديد ، فتقاتل جيوش بونابرت ، وتقلص إمبراطوريته الشاسعة ، وتدفع الفرنسيين خلف حدودهم الدولية الأصلية .

فاجأ الحلف الجديد غير المتوقع نابليون . إذ كان يعتقد أن أوربة ستنعم بفترة سلام ، وهذا ما جعله يصدر أمراً في ١٣ آب بعودة كل الجيوش الفرنسية من ألمانيا . إلا أن توقعاته لم تتفق والواقع . وكعادته في مجابهة الأخطار سارع يصد الموقف الجديد قبل أن يستفحل أمره ، وتستطيع الجيوش البروسية استكمال تجمعها وتحشدها .

تقدم نابليون بجيوشه فدخل برلين في ٢٧ تشرين الأول ، دون أن يلقى مقاومة تذكر من القوات البروسية . وعندما استتب له الأمر زحف يقاتل الجيوش الروسية حلفاء بروسيا . وكان قتالاً شرساً استغرق ثمانية أشهر ، دارت رحاه في كل بولتوسك Pultusk وايلو Eylou وفريدلاند Friedland . حتى قبل قيصر روسيا بالهدنة عقب الهزائم المتكررة . وهكذا انهار الحلف الرباعي الجديد قبل أن يتسنى لبريطانيا نقل قواتها ، ودخول جبهات القتال الأوربية بصورة فعلية .

نعم .. لقد انهار الحلف المضاد ، وانهزمت جيوشه ، لكن بريطانيا التي بقيت في عزلة عن تلك الهزيمة ، لم تهزم عسكرياً ، بل استمرت منيعة في جزرها .. سيدة للبحار ، تمنع عن فرنسا وحلفائها واردات المستعمرات ، وتحرم عليها موارد الشرق وخيراته ، برغم كل انتصارات فرنسا العسكرية البرية .

عقدت عدة حلقات من اجتماعات دولية بعد توقف القتال تمخضت عن خيبة أمل مرّة

لنابليون . إذ شعر أن العالم الأوربي يكن له العداء ، وينتظر الفرصة المناسبة للغدر به . ولن يدعه هذا العالم بسلام طويل كان نابليون بأمس الحاجة إليه ، وهو المتطلع إلى فترة هدوء يستطيع من خلالها إعادة بناء قوته البحرية ، ويعزز تجارة فرنسا وحلفائها عبر البحار ، ويخفف من عبء تحكم بريطانيا بالمعابر والممرات البحرية ، وبطرق المواصلات . ولم يكن هذا التطلع البونابرتي في الحقيقة إلا حلماً لم يتح لنابليون تحقيقه ، ولا حتى البدء في وضع أسسه .

سادت المحادثات بين عامي (١٨٠٩ ــ ١٨١٠) جو من طرح الأفكار للجم المطامع على أمل تحقيق صلح قريب . ولم يكن هذا الصلح المرتقب كما سنرى إلا جعب مترعة بالدسائس والمؤامرات ، نسجتها فئة من المضاربين في مصالح الشعوب المدعين الخونة . ولم تأخذ بريطانيا بآرائهم على محمل الجد . وكما حدث في أعوام (١٧٩٣) و (١٨٠٣) التزمت إنكلترا جانب الحذر مع الكثير من العناد . فالإنكليز لا يستطيعون تصور رؤية شواطىء بحر الشمال تحت سيطرة الفرنسيين ، ولا يمكنهم قبول حرية عمل وتجارة فرنسا في المتوسط . فكل الحروب التي خاضوها سابقاً كانت لمنع فرنسا من تحقيق هاتين الميزتين ، فكيف لها أن تقبل التنازل عن هدفين مصيريين حيويين ؟ إنها ترفض ولو بقيتِ لوحدها في ساحة الوغى ، فالقضية بالنسبة لها قضية حياة الشعب البريطاني أو موته .

بحرية فرنسا

استمرت أوضاع فرنسا ثابتة لا تتغير ، فهي البلد الأقوى براً والأضعف بحراً . ولم يتبق لها بعد كارثة الطرف الأغر البحرية سوى (٣٠) بارجة ، القسم الأعظم منها محاصر في ميناء برست ، والباقي محاصر في الموانىء الأخرى الموزعة بين المحيط والمتوسط . وهبطت أعداد سفنها التجارية من (٢٠٠٠) سفينة قبل الطرف الطرف الأغر إلى (٣٠٠) بعده ، أما مرافئها فمهملة معطلة لا تعرف لها صيانة . وتوقفت ورشها البحرية حتى غدت غير قادرة على تقديم أبسط المساعدات . وتباطأت عمليات الشحن والتفريغ فيها لتوزّع قدراتها بين المجهود الحربي والمجهود التجاري . فنجد مثلاً بولونيا Boulogne وآمبليتوز Ambleteuse وفيسان Wissant وقد تكدست فيها الزوارق الحربية المهجورة ، وعلت أرصفتها القاذورات وساءت أحواضها البحرية ، وقد علاها الطمي من طول الإهمال ، وأصبحت تحتاج حقاً إلى جهود جبارة لإعادتها مرافىء حقيقية .

لم يقبل نابليون تخلي فرنسا عن أهدافه البحرية ، ولم يقبل الاستسلام أمام عدوته العنيدة بريطانيا التي سادت كل البحار ، ولأعوام طويلة . ولم يسمح لنفسه أن يعيش في ظل تهديد بحري دائم لشواطئه ومنشآته الساحلية ، بل عل العكس كان كل همه إعادة بناء القوة البحرية الفرنسية بأسس

سليمة، وبسرعة، لتعود إلى سابق عهدها، ولتثأر من كوارث الأمس وويلاتها. فهو يريدها قوة تستطيع شل الخصم، وتدميره كخطوة أساسية على درب سيادة العالم المتمدن، (أحلام متغطرسة).

إن للأحلام والطموحات حدوداً، وما طلبه نابليون في العجالة التي عهدناه بها وفي زمن محدود عمل يفوق طاقة الإنسان وطاقة مؤسساته. ونابليون مشتت الأفكار بين إدارته وحكومته من جهة وقادة جيشه من جهة أخرى. فهو يجهل أمور البحر ومصاعبه، ويجهل الأهلية الفنية الواجب توفرها في العاملين به. وما إن لمس أطراف خيوط تلك الصعاب حتى لجأ إلى لجنة خبراء عليا أطلق عليها اسم «المفتشون العامون» إضافة إلى لجنة استشارية بحرية، أوكل إليها مهمة دراسة إعادة بناء القدرة البحرية الفرنسية، على أسس متطورة وصحيحة. لكن سرعان ما اكتشف أن هاتين اللجنتين لا تضما إلا مرؤوسين ليني العريكة، مجاملين، طاعنين في السن همهم إرضاء الإمبراطور، ولا يستطيعون تقديم حل أو سبق أو إبداع، و لا حتى تجديد في القديم الرث، فأعفاهما، وتراجع عن خطته، وقرر وضع المهمة بين أيدي رجل مهنة اعتبره نابليون رجلاً فذاً متقد الفكر واسع الإطلاع، فأوكل إليه إعادة بناء قوة فرنسا البحرية لمستوى الطموحات التي ينشدها. ووقع خياره وبالفعل على الرجل الصحيح وهو الأميرال دوكريه. وكان بالإمكان التوصل إلى نتائج عظيمة لو أن الإمبراطور منحه كامل الثقة والإمكانات.

دنيس دوكريه Decrès (١٧٦٢ ــ ١٨٢٠) ضابط في البحرية الفرنسية القديمة أبعد عنها ورفض من مجتمعها، لكونه نبيلاً من الأشراف، دخل الخدمة البحرية عام (١٧٩٥)، وشارك في حملة إيرلندة، وحملة الشرق، وبرز في ملحمة غيوم تيل الكبرى Guillaume Tell بمالطة ٢٠ حزيران (١٨٠٠)، ثم لمع نجمه، فقربه نابليون بعد أن خبره في حملة مصر. وهو محدث لبق شيق الكلام يبطن قوله بقوارص القول، دون إحراج أو إسفاف، مداهن، ممالق يأسر سامعيه، ارتقى بسرعة لمصاف المقربين الموثوقين وأصبح دوقاً. وهو الوحيد الذي حاز على ذلك اللقب في سلاح بحرية فرنسا الإمبراطورية. أسندت لدوكريه وزارة البحر في الأول من تشرين الأول عام (١٨٠١)، وبقي فيها طويلاً برغم الصعوبة الصعبة التي مر بها، والتي لم يكن له فيها يد. وأمضى في الوزارة (١٤) عاماً إضافة لكونه قائداً أعلى لقوات البحرية. وحاز على ثقة نابليون فمنحه سلطات واسعة دون باقي الوزراء. وكان إدارياً كفوءاً ومخلصاً. ولكونه قائد بحرية سابق فقد عرف مصاعب السلاح فأجاد إصلاحها، إلا أن عيبه الوحيد كونه سادي الطبع يسعد بمآسي الآخرين، ويتلذذ في كره الناس،

ويشعر بالغيرة من كل ذي حظوة لدى الإمبراطور، فيسعى لإبعاده عن كل المناسبات التي قد تؤثر على زعامته المطلقة. لم يغفر لسلفه فورفيه Fourfet ولتصرفاته، ولاحقه بحقد أسود حتى جرده من كل صلاحياته كمستشار دولة ونائب حاكم بحري ومهندس في عمليات البناء البحري.

وصف جوليان Julien دوكريه بقوله:

«إما لخطأ في حكمه، أو لخطأ في ثقته بالآخرين، كان دوكريه لا يختار أعوانه لحل القضايا الهامة والمصيرية إلا رجالاً متوسطي الذكاء والمعرفة، وأقل بكثير من المهمة الموكلة إليهم، ليستطيع المنّ عليهم، وتوجيههم، وكشف أخطائهم، وتقريعهم، وهو لا يؤمن بأحد، ولا يثق بالحظ، حتى إن رأيه الخفي بالإمبراطور القائد الذي حقق المعجزات مختلف عما كان يظهره. وقد أسر بذلك إلى مارمون[١٥٥] Marmont بقوله «هل تريدني أن أسرَّ لك حقيقة هذا الرجل (يعني نابليون) إنه مجنون ومجنون مطلق. وكل ما يقوم به سيعود علينا وعلى فرنسا بكارثة مروعة».

وخبرة دوكريه في البحرية ومعلوماته الوافرة عنها جعلته كثير الحرص، فهو يدرس كل حركة بحرية مهما صغر شأنها، ولو كانت من مرفأ لآخر. وخلال عامي (١٨٠٤ و ١٨٠٥) دأب على وضع العراقيل أمام عملية غزو الجزر البريطانية، إذ اعتبرها مهمة صعبة المنال. وحاول بشتى الوسائل ثني الإمبراطور عنها، وعن استدعاء فيلنوف من المتوسط إلى بحر المانش. وعندما طويت صفحة هذا الغزو حمل دوكريه على كل من نادى بها، أو دعا إليها أو لأية مغامرة بحرية مماثلة. ورأيه في هذا المجال واضح وصريح، إذ على سفن فرنسا لزوم الموانىء أمام تفوق الخصم الإنكليزي البحري الكبير ويتلخص قوله بالتالي:

«حالة الحرب مع إنكلترا حرب بائسة بالنسبة للإنكليز (وهنا يعني القتال البري) فما دمنا نبحث عن أساهم فعلينا أن لا ندع لهم فرصة تخفيف هذا الأسى، بإعطائهم فرص نصر فوق سطح المحيطات. فعدونا مقاتل كفء في البحر، لكنه لا يستطيع إحراز هذا النصر فيما لو أخلينا له البحر. وهكذا نقتل في رجال البحرية البريطانية السمعة الذائعة الصيت بحرمانهم تلك الفرص».

عمل دوكريه على إنعاش المرافىء الفرنسية، ولحق هذا الإنعاش مرافىء إيطاليا وألمانيا وهولندا الواقعة تحت النفوذ الفرنسي. وقامت الإدارة البحرية في تطوير الفنيين وتدريبهم على أعمال بناء السفن وأعمال المسح البحري. إذ برغم خسائر فرنسا العديدة في سفنها الحربية خلال فترة حكم نابليون، بقي لها بعد سقوطه (١٠٣) بوارج و (٥٤) فرقاطة إضافة إلى العديد من السفن المساعدة

والزوارق الحربية . أما بالنسبة للطواقم ، فنظراً لامتداد فترات الحروب ، وتعدد الأزمات الاقتصادية ، فقد ندر وجود المقاتلين الأشداء ، ولم يبق منهم إلا المسنون والعاجزون . وهنا قرر دوكريه الاعتماد على الغرباء أو المساجين ، ووضع عليهم وحدات مقاتلة لمراقبتهم ، ثم طوع أغراراً وأهَّلهم على غرار جنود البر . ولأول مرة في تاريخ بحرية فرنسا ، يعم النظام صفوف البحارة . إذ إن الغالبية كانت من خريجي المدارس والمعاهد ، وقد تحلوا بروح الانضباط مع إخلاص للعمل . وهكذا اختار سلاح بحرية فرنسا منحى جديداً عسكرياً نظامياً مخالفاً لما كان عليه بالأمس ، حيث كان البحار في المدرسة القديمة خارجاً على القانون قاتلاً أو سجيناً يفتقر للعديد من الصفات الخلقية والاجتماعية . وحتى يجعل دوكريه حياة البحر أليفة على مقاتليه ، أكثر من الرحلات التدريبية الطويلة لرفع مستوى الكفاءات والمعرفة الفنية والقتالية ، فارتفع بالعاملين لمستوى قتالي مرموق ، وأصبح الرجل منهم شجاعاً قوياً اعتاد مشاق البحر وأهواله ، يعمل جماعياً بانسجام وتجانس . وراحت سفن فرنسا تتهاوى فوق أمواج المحيطات تصارع العواصف وتصد الرياح ، وعلى متونها رجال أشداء خبروا البحر وصعابه ، بقوة وعزيمة .

لمس القائمون على إدارة البحرية الفرنسية أن أفضل مدرسة في خلق التمرس البحري لدى العاملين فيه هو في ركوب البحر ، والبقاء عليه ، والتعامل مع أنوائه . أما القبوع في الموانىء فسبيل للاسترخاء والترهّل . ومن هذا المنطلق قامت حرب خفية بين المدرسة القديمة المتمسكة بالعادات الموروثة والتقاليد البالية ، والمدرسة الحديثة المسلحة بالمعرفة والانضباط . وسرعان ما انتصر أصحاب الفكر المتجدد ، وأقاموا المعاهد البحرية والكليات لإعداد رجال البحر من مختلف الرتب والاختصاصات . وبدأت الدراسات على متون السفن القديمة الراسية في الموانىء كخطوة أولى ، ومن ثم توسعت وسلكت منحى الأكاديميات والكليات العسكرية الأخرى في البلاد ، أمثال مدارس فونتينبلو وسان سير الخ .. وبدأت جموع الشباب المثقف المتحمس تنتسب لتلك المعاهد ثم ترقى في الرتب حتى تصل إلى مراتب أمراء البحر قبل أن يصلوا بسنهم الأربعين حولاً . وقد نجد منهم عبر التاريخ مثال دوبريه **Duperré** وروسان **Roussin** وريغني **Rigny** الخ .

طرد فرنسا من المحيطات

ظلت رغبة نابليون في امتلاك بلاده أسطولاً بحرياً حديثاً قائمة ، فهو يريد أن يرى فرنسا دولة بحرية . ولقد استطاع تحقيق جزء من رغبته هذه ، فخصص لكل من شربورغ ولوريان ورشفور

مجموعة بحرية مقاتلة، كما خصّ طولون وبرست وأنغرس بأسطول حديث. وجاء أسطول أنغرس بقيادة ميسيسي Missiessy أكثر الأساطيل البحرية عدة وأهمية.

ظل العاملون في إدارة البحرية الفرنسية يعتقدون وهم على ثقة بأن تلك المجموعات قادرة على التحرك من مرفأ إلى آخر، لكنها ليست بالكفاءة الكافية لدخول معارك بحرية كبيرة. وعلى رأس هؤلاء الواثقين الإمبراطور نفسه. إذ اعترف بواقع قواته البحرية مراراً واصفاً إياها بالسلاح الباهظ التكاليف، والذي لا يمكن له أن يرقى لمستوى مجابهة قوة بريطانيا البحرية المتعاظمة، بل يمكنه فقط لعب دور مصدر إزعاج لها، يضطرها إلى تجنيد أعداد كثيرة من سفنها ومجموعاتها، وتسخيرها لحصار القوى الفرنسية المتنامية ومراقبتها في الموانىء والمرافىء. وبالفعل لا أحد يشك بما وصل إليه نابليون من نتيجة، إذ إن الفرق بين أسطولي الدولتين واضح وضوح الشمس. فبريطانيا بشهادة الجميع تمتلك أقوى سلاح بحري في العالم، ضم تشكيلات قتالية عالية التأهيل، جاهزة لأي عمل يطلب إليها، تستطيع انتزاع النصر تلو النصر. ويقود تلك التشكيلات أمراء بحر أكفاء أمثال كولينغوود وبيلو Pellew وغامبيه Gambier وديوكرس Duewkerth. وقد أقاموا حصاراً محكماً على سواحل فرنسا، فشلّوا وحداتها البحرية داخل الموانىء امتداداً من البحر الأبيض شمالاً (شمال القارة الأوربية) وحتى بيلوبونيز Pelopponnése في شبه جزيرة اليونان في البحر الأبيض المتوسط، ثم راقبوا كل نشاطات السفن الفرنسية وتحركاتها، حتى التجارية منها، واستطاعوا بالفعل شل حركة الملاحة الفرنسية، بفضل التعليمات المشددة التي كان قد وضعها كل من جيرفيه، ونلسون، وكورنواليس.

لم تكتف بريطانيا بالمراقبة البحرية بل أن جرأتها دفعتها للاستيلاء على العديد من الجزر المجاورة للسواحل الفرنسية، وجهزتها بكل الوسائط لتستخدمها قواعد رسو، وتخزين وتموين وراحة واستجمام. من تلك الجزر سان ماركوف Saint Marcouf والشوسيه Les Chausy ومولين Moléne والكليمان Les Clemans وهوات Houat وهوديك Hoedic جزر هيير Hyéres، كما قامت البحرية البريطانية بوضع العوارض والسدود في حوض كيبرون Quiberon، وخليج دوار نونيز Douarnenez، ونظمت تلك السدود وجمعتها حتى جعلتها تصلح مأوى لسفنها، تستطيع اللجوء إليه عند الحاجة، كما تستطيع إجراء إصلاحات لسفنها المعطوبة فيه. أما أسطوله في المتوسط فقد اعتاد اللجوء إلى خليج فوس Fos عند كل عاصفة. وقد تصعد زوارقهم الحربية أحياناً حوض نهر الرون، ولعدة مئات من الأمتار لمزيد من الأمان، وكأن المرفأ ملكهم وحوض النهر ملجؤهم.

طال الحصار البريطاني لفرنسا، إلا أنه لم يخل من محاولات اختراق جريئة قامت بها مجموعات

فرنسية. ففي كانون الأول (١٨٠٥) خرج لواء ليسغ Leysségues ولواء ويلوميز Willaumez من مرسى برست دون أن يعترضا من أية سفينة بريطانية. وكذلك خرج آلماند عام (١٨٠٨) على رأس ست بوارج حربية ليلتقي بأسطول طولون الذي كان بإمرة غانتوم Ganteaume، وقصد الاثنان كورفو Corfou، حيث التقيا هناك بالأسطول الروسي الذي رحب بهما إثر اتفاقية تيلسيت Tilsitt، وأمن لهما الوصول إلى مجموعة سينيافيان Seniavin. وهناك أقاما فترة أعدّا خلالها شؤون دفاع الجزيرة، ثم عادا إلى طولون، دون أن يعترضهما معترض.

في عام (١٨٠٩) فكر الفرنسيون القيام برحلة إلى جزر الآنتيل، تنطلق من روفور. وانتهت هذه الرحلة بكارثة بحرية وتتلخص بالتالي:

أقلع ويلوميز بلوائه البحري من برست إلى روشفور، ثم لحق به القائد جوريان Jurien على رأس ثلاث فرقاطات حضر بهما من ميناء لوريان. مر التجمع في ٢٤ شباط أمام رمال ألون Allonne، فشاهده الإنكليز، فتحركوا خلفه بقيادة الأميرال غامبيه، وكانت بإمرة الأميرال البريطاني (١١) بارجة.

انضمت القوة الفرنسية القادمة لقوة آلماند، وراحت فرست جميعها (١٢) بارجة و (٣) فرقاطات على ثلاثة أرتال بين جزيرة ايكس والبر. واحتمت خلف حاجز مائي وأسطول من (٧٣) زورقاً صغيراً، إلا أن احتياطات الأمن لم تكن فاعلة، إذ أرسل غامبيه اللورد كوشران Cochrane في ١١ نيسان على رأس (٢١) حرّاقة من نوع غير مألوف، لتهاجم السفن الفرنسية الراسية خلال أحوال جوية سيئة ورؤيا متدنية وأمواج صاخبة. وما إن ظهرت الحراقات في الأفق القريب حتى دبّ ذعر شديد في صفوف الفرنسيين، واختلط الحابل بالنابل، وهب قادة السفن يقلعون خلال الليل، بعد أن قطعوا مراسيهم وسلاسلهم ضمن جو من الفوضى العارمة.

نجت بارجتان في حين جنحت الأخريات على شاطىء بال Palles الصخري وبقيت هناك عدة أيام لا تستطيع الحراك أو القتال. وأخيراً استطاع بعضها الخلاص من الجنوح ودخل حوض نهر شارانت. وكانت النتيجة النهائية أسر الإنكليز لبارجتين وإحراق ثلاث.

ثار الإمبراطور لتلك الكارثة وتملكه غضب شديد، وتشدد في إجراءاته، وحكم على قائد البارجة كالكوتا الذي هجر سفينته، وكانت لا تزال قادرة على القتال بالموت، ونفذ فيه الحكم فوراً. وكان إجراءً لم يعهده سلاح البحرية من قبل. أما في الجانب البريطاني فقد حنق الشعب والحكم على

غامبيه لأنه لم يدمر كامل الأسطول الفرنسي، وقدم إلى محكمة عسكرية فأدانته وسحبت منه قيادته. وعلى أثر الكارثة اقتصرت حملة فرنسا لجزر الآنتيل على لواء القائد ترود Troude البحري الذي أقلع من لوريان، ووصل مقصده دون حادث يذكر.

لم تكن الظروف قاسية على فرنسا في المحيطات فقط بل شملت البحار الداخلية والمياه الإقليمية المحيطة أيضاً، ومن أهم الأحداث التي مرت:

كلف نائب الأميرال بودان[١٥٦] Baudin بنقل لواء بحري من برشلونة إلى طولون فاعترضه في الطريق تشكيل بريطاني أجبره على الفرار واللجوء إلى ميناء سيت Cette تاركاً خلفه سفينتين جنحتا على البر. ولما تعذر على طاقميها النجاة أضرموا النار فيهما حتى لا تقعا أسيرتين في أيدي الإنكليز ٢٦ تشرين الأول (١٨٠٩).

في الوقت نفسه غادر القائد البحري ديبورديو Dubourdieu انكونا على رأس فرقاطتين فرنسيتين وفرقاطتين إيطاليتين، فوقع في كمين قرب ليسا Lissa. وقاتلت سفن ديبورديو بضراوة، والتحمت مع السفن الإنكليزية حتى المجانبة بالسلاح الأبيض. واستمرت المعركة حتى وقع القائد الفرنسي قتيلاً، فانسحبت السفن الملتحمة، وقد أصابها الكثير من الدمار. وهكذا استمرت الظروف البحرية الفرنسية على ما هي عليه من جمود ينطبق عليها القول التالي: سواحل فرنسية مياهها إنكليزية.

أثبت البريطانيون نجاعة حصارهم البحري، وأكدوا من جديد سيادتهم المطلقة على جميع البحار. إلا أن هذا الإنجاز لم يتعد حدود البحر، فبرغم تلك الإنجازات الضخمة بقيت فرنسا الدولة الأقوى تسيطر على كامل أوربة، واتسعت إمبراطوريتها في كل الاتجاهات. ولم يغب ذلك عن أذهان رؤساء وزارات إنكلترا المتعاقبين. فمنذ بيت والتحضيرات الفعلية قائمة لبناء جيش بري قوي يؤمن الدفاع عن الجزر البريطانية، ويغطي احتياجات المستعمرات العديدة، ويشارك في العمليات الحربية البعيدة عن أرض الوطن عامة. وقد برزت اهتمامات عدة بفضل جدارة وزراء الحرب الذين تعاقبوا على الحكم، بدءاً من ويندهام Windham حتى كاستيليريغ[١٥٧] Castlereagh، الذين قضوا على الشطط الناجم عن الشعور بخوف البريطانيين من غزو جزرهم، فاعتمدوا سلسلة من التشريعات الهامة شملت القوات المسلحة. إذ منذ عام (١٨٠٧) وبريطانيا تطور قواتها المسلحة بإدخال صفات جديدة عليها، منها خفة الحركة والاستعداد المتواصل، مع بعث روح الاطمئنان والثقة، خاصة إثر الانتصارات البحرية الرائعة التي حققها رجال البحر بإقدام وشجاعة. فأكدوا لكل

بريطاني يعيش على الجزر استحالة غزو ديارهم أو اجتياح أوطانهم، وأعطوا المسؤولين عن الحكم بانتصاراتهم تلك زخماً جديداً شجعهم على اتباع سياسة القوة في ظل الحفاظ على الكرامة، باتباع أفكار شجاعة دخلت خططهم المستقبلية. وبرغم كل ذلك بقيت قوات بريطانيا البرية قليلة العدد نسبياً ففي عام (١٨٠٩) وصل تعدادها إلى (٢٠٠) ألف مقاتل تحت السلاح، وزع من أصلهم (١١٧) ألفاً كحاميات خارج البلاد، إضافة إلى حرس الشواطىء، وحامية صقلية. ومعنى ذلك أن تعداد جيش غزو من (٢٠ إلى ٣٠) ألف مقاتل يشكل عبئاً صعب التنفيذ. فإرسال مثل هذا الجيش خارج بريطانيا، وحتى لو قدر له النزول بأمان على الأرض الفرنسية، يبقى عاجزاً عن أداء مهمته، دون وحدات خيالة، ودون بطاريات مدفعية ثقيلة. وإنزال مثل هذا العدد على أرض غريبة بعيداً عن مركز تعبئته وقواعد خدماته اللوجستية قد يعرضه لهزيمة منكرة، خلال أيامه الأولى. وهذا ما جعل ستروغونوف Strogonoff يعرض تقديم جيوش روسية مساندة لدعم القوات البريطانية، فيما لو نزلت على البر الأوربي.

كشف الجنرال الفرنسي سارازان Sarrazin بعد أعوام ثلاثة، ضعف دفاعات فرنسا الساحلية آنذاك. إذ إن معظم قواتها البرية قد توزعت بين النمسا وإسبانيا وإيطاليا. وما تبقى للدفاع عن السواحل الفرنسية لم يكن ليتعدى عدة آلاف من الجنود الأغرار الذين يجهلون استخدام بنادقهم. وكان بإمكان بريطانيا لو غامرت في غزو البر الفرنسي قطع المسافة بين بولونيا الفرنسية وباريس عن طريق آبيفيل Abbeville وآميان Amiens وبوفيه Beauvais دون أن تشعل فتيلاً لمدفع واحد. لكنها لم تفعل، واقتصرت على القيام بعمليات محدودة كمحاولة الجنرال ستيوارت Stuart الإنزال قرب كالابر Calabre، معتمداً على العناصر المنشقة المؤيدة لآل بوربون. لكن توقعات الجنرال الإنكليزي لم تتحقق إذ لم ينضم إليه إلا قطاع الطرق والخارجون على القانون، فاضطر بعد شهرين من انتصاره في معركة سانت أوفيمي Saint Euphemie إلى العودة والصعود إلى السفن بسرعة، خشية وقوعه وقواته في الأسر أمام زحف جحافل الملك جوزيف شقيق الإمبراطور.

استطاع البريطانيون بعد ثلاثة أعوام احتلال ايشيا Ischia وبروسيدا Procida في المتوسط، لكنهم لم يستطيعوا التقدم على البر الإيطالي والتوسكاني، أو على سواحل الادرياتيك، وقد يعود السبب لنقص في عدد قواتهم المسلحة.

فكر مستشارو أمير ريجنت (بريطانيا) وخلال انشغال القوات الفرنسية في معارك النمسا

بالاستيلاء على القلاع المجاورة والمطلة على ميناء آنغرس، ليتخلصوا من ميناء معادٍ لهم يُـؤي (١٦) بارجة فرنسية، اعتبرت مصدر تهديد دائم لأمن الجزر البريطانية.

نجحت عملية غزو آنغرس وجاء البريطانيون فأحرقوا العديد من السفن الفرنسية داخل الميناء. وجرى ذلك خلال فترة تراجع نابليون أمام ايسلنغ Essling ٢٢ مايس (١٨٠٩.) لكن تراجع نابليون كان تكتيكياً، إذ عاد ونظم وحداته في لابو Labau ليخوض معركة واغرام Wagram الشهيرة ٦ تموز.

تحرك الناقمون والمتهورون أعداء الإمبراطور، ونجحوا مع الإنكليز في الاستيلاء على آنغرس. وتراجع النظام البونابرتي لينقل المعارك إلى حدود فرنسا القديمة. وكان ذلك بمثابة دعوة لإعلان العصيان الدولي العام على نظام بونابرت. وتحرك الأميرال ستراشان Strachan واللورد شاتهام Chatham شقيق بيت على رأس حملة قوامها (٣٩) بارجة و (١٠٠) سفينة حربية أخرى و (٥٠٠) سفينة نقل أقلوا (٤٠) ألف مقاتل ووصلوا مدخل نهر ايسكو Escaut ٢٩ تموز، لمساندة القوات النمساوية العاملة هناك. إلا أن وصولهم غدا عديم النفع إثر طلب النمساويين وقف القتال ١٢ تموز. عندها تحولت الحملة ونزلت في جزيرة والشيرين Walcheren، دون أن تلقى مقاومة تذكر. وطالب القادة الفرنسيون المدافعون عن المنطقة قيادتهم بالتوجيهات التي تتعلق بالموقف الواجب اتخاذه حيال الغزاة عارضين إغراق السفن داخل الميناء لتعطيله ولمنع البريطانيين من أسر سفنهم والاستفادة منها. وحدث هرج ومرج عظيمان خاصة في باريس والبلدان المتاخمة للساحل. ومما زاد في مخاوف الفرنسيين إجراءات فوشيه(١٥٨) Fouché الدفاعية الصاخبة، والتي ولدت لدى الباريسيين بالذات خوفاً كبيراً لا مبرر له. ولحسن حظهم لم يخطر ببال البريطانيين استغلال الظرف بل توقفوا عن الزحف بعد استيلائهم على قلعة فليسنغ Flessingue ١٥ آب، حتى إنهم لم يحتلوا آنغرس صعوداً داخل فتحة مصب النهر، بل اكتفوا بما أحرزوه من نصر، وأقاموا دفاعاتهم على الضفة اليمنى. وهناك تسنى للجنرال الفرنسي المدافع عن المنطقة روسو Rousseau مقاومة المهاجمين فشاغلهم في معبر برابان Brabant ومنطقة غادزاند Gadzand، وبذلك أعطى بعمله هذا القوات الفرنسية الرئيسية والحرس الوطني المتواجدين في الشمال الوقت الكافي للوصول إلى ساحة المعركة. وهكذا احتشد للقائد برنادوت(١٥٩) Bernadotte جيش حقيقي في جبهته الواسعة. وتوقفت العمليات الحربية ثلاثة أسابيع. وقد عسكرت القوات البريطانية في مستنقع نهر الموز السفلي، فتفشت فيها الأوبئة، وانتشر مرض التيفوس بين صفوف المقاتلين، وقلت مواردهم الغذائية، فانخفضت معنوياتهم حتى وصل عدد المرضى في المستشفيات إلى (١٢) ألف رجل.

أقرّت وزارة الحرب البريطانية بفشل حملتها فأوعزت في ٢ ايلول لأسطولها بإصعاد الجند والعودة بهم إلى أرض الوطن، وانتهى كل شيء مع نهاية العام.

*كلف حملة آنغرس البريطانيين (٤) آلاف رجل، قتل منهم في المعارك (١٠٦) فقط والباقون ذهبوا ضحية الأوبئة الفتاكة. وتعدت كلفة الحملة الـ (٦٠٠) مليون فرنك.

كان خطأ إنكلترا في تلك الحملة واضحاً ويكمن في تجاهلها أمراً كان لا يجوز أن يخفى عليها، وهو أنها تحارب فرنسا بونابرت، وليس فرنسا حرب السنوات السبع، وأن (٣٠ إلى ٤٠) ألف مقاتل لا يمكنهم قط التأثير على جيوش فرنسا الجرارة إبان الحكم البونابرتي. فمثل هذا الحجم لا يقدم عملاً حاسماً ولا حتى ظرفاً مربكاً. ولهذا جاءت الحملة فاشلة وحملت معها درساً مرّاً لبريطانيا، جعلتها تقرر عدم المغامرة ضد سواحل الإمبراطورية الفرنسية لوحدها ثانية. وفهمت هي والدول البحرية الأخرى أن قوة عسكرية معزولة ستتعرض ولا شك، وفي زمن قصير، لتجمع معاد كثيف قد يقلب ميازين القوى بسرعة. وفرنسا قادرة في البر الأوربي على قلب تلك الموازين، بفضل نظامها العسكري الحديث المطبق في القوات البرية، وبفضل وسائط النقل السريعة المحسنة. وعلى هذا فكل قوة معزولة ستؤول إلى ما آلت إليه حملة الإنكليز، وليست هي الطريقة الأنسب لاستثمار سيادة البحر.

معارك إفريقية وجزر الآنتيل

لما كانت ظروف بريطانيا العسكرية أفضل في البحار البعيدة عما هي عليه على الساحة الأوربية، ولما كان تفوقها البحري سائداً ومطلقاً، فقد أتيح لها نقل قوات عسكرية إلى المستعمرات، فاقت كل قوات الدول الأوربية المستعمرة الأخرى، وخاصة عدوتها الأولى فرنسا. وإن الرجوع عن فكرة إقامة إمبراطورية بحرية فرنسية إثر هزيمة الطرف الأغر سمح لبريطانيا بالاستيلاء على معظم ممتلكات فرنسا عبر البحار، فتحقق بذلك هدفان أساسيان:

الهدف الأول:

انشغال فرنسا الأوربي، وضعف إمكاناتها العسكرية في المستعمرات البعيدة، ويندرج تحت هذا العامل الأساسي سبب آخر وجدته وزارة بيرسوفال[١٦٠] Perceval البريطانية، وهو إيجاد مجالات حربية ترضي طموح الشعب البريطاني في ساحات قتال، تستطيع بريطانيا فيها تأمين تفوق عسكري، بعد فشل محاولاتها على الساحة الأوربية.

الهدف الثاني

حرمان قراصنة فرنسا من قواعد استنادهم وانطلاقهم الموزعة في أرجاء المعمورة. فبالاستيلاء على تلك القواعد تشل حرب القراصنة. وقد تستطيع بريطانيا الإفادة من تلك القواعد بعد تحصينها، لتأمين حرية ملاحة قوافلها التجارية العديدة، والقادمة من العالم الجديد. وبالفعل باشرت بريطانيا مخطط الاستيلاء هذا اعتباراً من عام (١٨٠٩)، مبتدئة بالمواقع المعزولة من مستعمرات فرنسا.

وقد حدثت مجابهات عديدة في بحار الآنتيل مع الأميرال ميسيسي أولاً، والأميرال فيلنوف فيما بعد. وقد أدى ذلك إلى نوع من الاستقرار في تلك القوى لتوازن القوى. إلا أن تناقص وحدات القوات البحرية الفرنسية واقتصارها على سفن بسيطة جعلا بقاء فرنسا عرضة لغزوات المجموعات البريطانية المقيمة والقوية. وبالفعل فقد انتهى الوجود الفرنسي في بحار الآنتيل مع نهاية عام (١٨٠٩)، أي بعد فشل الحملة الفرنسية، وحدوث الكارثة التي مر ذكرها سابقاً. وهكذا غدت المستعمرات الفرنسية في بحر الآنتيل معزولة تماماً، تعتمد على قوتها الذاتية في الدفاع عن نفسها، حيث كانت الفوارق العددية بين الخصمين هائلة. وعلى سبيل المثال نجد تعداد المدافعين الفرنسيين عن جزيرة المارتينيك من جنود وبحارة وحرس وطني يصل إلى (٢١٣٨) مقاتلاً مقابل (١٨) ألف مقاتل بريطاني، هي قوات بيكويث Bickwith، وقوات بروفوست Provost اللتان نزلتا في كانون الثاني من عام (١٨٠٩)، وأجبرتا القائد العام الفرنسي في المارتينيك فيلاريه جوايوز Billarei Joyeuse ٢٤ شباط والقائد الفرنسي المقيم في غوادلوب Guadeloupe ايرنوف Ernouf على الاستسلام كليهما في العام اللاحق.

لحقت بالمارتينيك والغوادلوب جزر تاباغو، وسانت لوسي، وسانت دومينغو التي قاوم قائد حاميتها الجنرال فيراند Ferrand الإنكليز بضراوة، برغم حصارهم له براً وبحراً. ولما أعيته الحيلة وقلّت موارده بالرجال والعتاد، وشعر بفداحة الموقف انتحر بائساً، بعد أن طلب إلى الجنود الاستسلام لغزاتهم الإنكليز، ليمنع عنهم الوقوع في أيدي الملك كريستوف[١٦١] Christophe المتوحش الطاغية، الذي كان قد حل مكان ديسالين[١٦٢] Dessaline.

على البر الأمريكي تعرض فيكتور هوغ Hugues لهجوم إنكليزي بحري كبير إلى جانب غزو بري جاء عن طريق البرازيل.. واستعادت إثر ذلك البرتغال غوانا ١٢ كانون الثاني (١٨٠٩).

وبعد ثلاثة أشهر فقدت فرنسا السنغال في إفريقية، برغم الحفاظ عليها طيلة مرحلة الثورة الفرنسية الصعبة. وهكذا ضاعت كل ممتلكات فرنسا في أمريكا وإفريقية. واستعاضت عنهم بالسيطرة على الممتلكات الهولندية والإسبانية، إثر انتصاراتها الأوربية الساحقة على تلك الدولتين، أي بالهيمنة على ثلث مستعمرات العالم.

لم يرق هذا المصير لبريطانيا، وفكرت جدياً بالاستيلاء على المستعمرات المتبقية لحلفاء فرنسا عبر البحار، ومنها سورينام(١٦٣) Surinam وكوراسو Curaçao، وسانت أوستاش Saint Eustache، والآنتيل الهولندية، والآنتيل الدانمركية، التي استسلمت جميعها إثر تبادل بضعة قذائف مدفعية فقط. ثم أعقب ذلك الجزر البرتغالية وجزر الآسور، وجزيرة مادير Madère. وغدت جميعها نقاط تموين وقواعد استراتيجية لأساطيل بريطانيا التجارية والحربية. وهنا يجب أن لا ننسى أيضاً سقوط رأس الرجاء الصالح عام (١٨٠٦) في أيدي المهاجمين الإنكليز، بعد قتال عنيف ومُرّ.

بالنسبة لأمريكا الجنوبية كان الموقف هناك مختلفاً، إذ تركت المستعمرات الإسبانية العديدة تجابه هجمات الغزاة لوحدها، دون معونة خارجية. فعندما انتهى بوبهام Popham من الاستيلاء على الكاب Capاستغل الظرف المتاح له ووسع انتصاراته، فأرسل بمبادهة شخصية الجنرال بيريسفورد Beresford على رأس جيش صغير إلى البلاتا La Platta المنطقة التي كانت على علاقات تجارية هامة مع بريطانيا منذ أيام عقد الآسيانتو Asiento. ونجحت الحملة الإنكليزية في البداية، وفرت الحامية الإسبانية إلى داخل البلاد. وبعد (١٧) يوماً دخل بيريسفورد بونس آيرس Boenos-Ayres ٢٧ حزيران (١٨٠٦) دخول الفاتحين. وهناك تصدى له ضابط بحري فرنسي استطاع إثارة السكان ضد الاجتياح الملحد (بروتستانت ضد كاثوليك). وفي ١٣ آب خسر بيريسفورد (٥٠٠) من جنده بين قتيل وجريح، فاستسلم إلى جاك دولينييه Jacques De Liniers مع (١٢٠٠) رجل و (٦٤) مدفعاً.

حاولت إنكلترا الثأر لهزيمة بونس آيرس، فأرسلت مع بداية العام الجديد حملة مؤلفة من (٢٠) بارجة تواكب (٩٠) ناقلة جند، فأنزلت على شاطىء البلاتا (١٢) ألف مقاتل. وتقدمت القوات الغازية فاستولت على مونتفيديو Montevideo ٧ شباط (١٨٠٧)، ثم تابعت زحفها نحو بونس آيرس. في أثناء ذلك.. وجد القائد الفرنسي دولينييه وقتاً كافياً لإعادة تنظيم جيش دفاعي. وما إن تم له ذلك حتى سارع بصد هجمات البريطانيين. ووقع قتال مرّ بين المتحاربين، استمر

(٥) أشهر متواصلة، اضطر الجنرال الإنكليزي في نهايتها لتوقيع هدنة ٧ تموز (١٨٠٧) تفادياً لهزيمة نكراء تنتظره، وتعهد بإخلاء البلاد على الفور.

طردت إنكلترا من أمريكا اللاتينية (الإسبانية)، وفهمت أنها غير مرغوب بها في تلك البلاد. وكان ذلك بفضل القوى الواعية التابعة للسلطة الإسبانية، وهي قوى جديدة برزت مرة واحدة، فخورة تعتز بقوميتها، مارست نفوذاً قوياً على مستقبل أمريكا والعالم. فكما في بونس آيرس كان في أماكن أخرى من العالم الجديد، وتعرض الغزاة فجأة لمدافعين قوميين أشداء في أوطان حقيقية تعاظمت تحت غطاء السيطرة الإسبانية الساهية، تماماً كما حصل من قبل في أمريكا الشمالية، إبان وصاية بريطانيا عليها.

برزت أمم ودول جديدة على المسرح العالمي عازمة على الحفاظ على وجودها والتمسك بكل حقوقها الوطنية في إطار الاستقلال. هذه الشعوب في الأمريكيتين شعوب غنية انحدرت من عرق أصيل، واختلطت بشعوب الدم الأبيض، وتحولت أمماً أبـيّة مستعدة للدفاع المستميت ضد أي معتد يحاول مس مقدراتها، مهما كانت جنسيته. ولم يكن من مطلب لها إلا تركها وشأنها تعيش بسلام، بعد أن أفهمت كل المستعمرين من إنكليز وإسبان وفرنسيين بأن عليهم التخلي عن أحلامهم التوسعية هناك.. وإن أهل تلك البلاد مستعدون للتعاون ولقبول أية مساعدات حضارية تطور مجتمعهم البدائي، دون أن تمس حريتهم وسيادتهم. وهنا تبدلت أساليب الدول المستعمرة، بحضور جديد وتنافس على كسب ثقة تلك الشعوب. وعادوا يدخلون البلاد تحت شعار التعاون والصداقة والتبشير الديني، ويتزاحمون طمعاً بما تحويه تلك الأرجاء الواسعة من ثروات طبيعية طائلة. وبدأت سياسة حرب الاقتصاد حين أرسل المستعمرون عملاءهم وكلاء يلازمون نواب الملوك والحكام، يطلبون الحظوة لدى السلالات الملكية الجديدة. وهكذا تحقق حلم لويس الرابع عشر القديم عندما طمع في دخول أمريكا الجنوبية تحت ستار اسم إسباني، وجعل تلك البلاد مناطق نفوذ لفرنسا باسم إسباني.

لم يكن الخطأ الذي ارتكبه الانكليز أولاً ووقع فيه الفرنسيون ثانياً إلّا تجاهلهم رغبات شعوب أمريكا الجنوبية ومصالحها الوطنية. فعدم فهم حقيقة طموحات تلك الشعوب الفتية وأسباب رفضها لكل أنواع السيطرة الخارجية، حتى سيطرة الإسبان، أجدادها، جعلها تعيش أعواماً من الحزن والمعاناة.

في خلال الأشهر بين نيسان وايلول من عام (١٨١٠) ثارت جميع شعوب المستعمرات دفعة واحدة، وشكلت حكومات محلية مؤقتة، وطالبت بكامل حقوقها المشروعة في الاستقلال والحرية. حتى إن لينيبه نفسه المحرر الشهير والمنادي بحقوق الشعوب المضطهدة طعن في ولائه للثورة، وقبض عليه وأعدم رمياً بالرصاص. وهكذا قضى على أيدي من حررهم بالأمس ٢٦ آب سنة (١٨١٠). ومع عام(١٨١٢) وضعت أسس الاستقلال في كل مكان من القارة الجنوبية الأمريكية.

جاءت الثورات في المستعمرات لصالح المملكة المتحدة. فأولى نتائجها هو في فتح أسواق أمريكا الجنوبية أمام التجارة الخارجية، وبتحديد أدق أمام التجارة البريطانية والأمريكية فقط.

تدفقت على شعوب أمريكا المتحررة المصنوعات الإنكليزية غير المتوفرة في البلاد. وسرعان ماعقدت علاقات تجارية وطيدة. وتحولت أمريكا الجنوبية سوقاً كبيراً لبريطانيا. ونظراً لضخامة المنافع المشتركة قامت صلات طيبة ومشاعر صحيحة. وشيئاً فشيئاً انزلقت تلك الأمم الجديدة في تيار المصالح البريطانية، وأصبحت جاهزة لدخول النظام السياسي البريطاني.

حصل تطور مشابه في أقاليم مجاورة أخرى، فحينما اجتاحت فرنسا بلاد البرتغال، لم تجد الأسرة المالكة البرتغالية سلاماً وأرضاً تلجأ إليها إلّا في الممتلكات القائمة عبر الأطلسي. وقام أسطول إنكليزي بامرة سيدني سميث، ونقل العائلة المالكة إلى الريو تشرين الثاني (١٨٠٧). وتحولت تلك العائلة براغانس[١٦٤] Bragance (نسبة إلى مدينة براغانس في البرتغال) إلى أسرة مالكة تحميها بريطانيا، فتسيطر على المستعمرات البرتغالية في بلاد البرازيل الشاسعة. ونادى الملك البرتغالي باستقلال البلاد، وفتحها أمام حماته الانكليز، لتصبح سوقاً لهم. ثم انضمت السفن البرازيلية (في الأصل برتغالية) تجوب البحار وقد أعفاها البريطانيون من شروط الاتفاقية الملاحية Acte De Navigation، واستقبلت في جميع المرافىء البريطانية ومرافىء المملكة المتحدة عبر البحار بصفة السفن البريطانية نفسها، أو سفن المستعمرات. وإمعاناً في التلاحم الاقتصادي خفضت إنكلترا الرسوم على المنتجات البرازيلية بنسبة (١٥٪)، واعتبرت البرازيل البلد الأكثر ارتباطاً بالمملكة المتحدة البريطاينة عن باقي مناطق أمريكا الإسبانية. وتم لبريطانيا المغلوبة على البر الأوربي السيطرة الكاملة على سبل التجارة عبر البحار والمحيطات، بعد أن هزمت فرنسا بحرياً، وطاردتها في ممتلكاتها، وممتلكات حلفائها.

في المحيط الهندي قاومت فرنسا حيناً قدرة خصمها. فهي منذ مغامرة حملة مصر لا تغفو عينها عن بلاد الهند البعيدة الشاسعة والغنية. وعلى أثر توقيع معاهدة آميان أرسل نابليون قائداً من أفضل قادته وهو الجنرال ديكان Decaen إلى الهند بمهمة الملاحظة والترقب، وإعداد البلاد لحرب جديدة، ينوي نابليون إشعالها، الغاية منها حسم النزاع الطويل مع الإنكليز في تلك المناطق الواسعة من العالم.

وبدت الظروف مؤاتية برغم سقوط تبو صاحب Tippou Sahib، فالعديد من أمراء الهندوس لم يستحسنوا مجابهة الشروط المهينة التي فرضتها عليهم الشركة الهندية البريطانية. وأحس أعضاء اتحاد المهراجات بالخطر الذي يتهددهم، فهبوا يقاتلون الغزاة. وسنحت لهم فرص نصر عديدة لو أن قوة أوربية مضادة لبريطانيا مدت لهم يد المساعدة، وعملت على تماسكهم، أو أنها طعمت قواتهم بقوات أوربية، تقوم بالتعاون والتنسيق بين كافة الأطراف. ولو حصل هذا لتغير مصير الهند واختلف تاريخها.

تحمس ديكان للدور الذي أسند إليه، بعد فشل تحضيرات غزو فرنسا للجزر البريطانية. وبدا له أن عملاً حربياً في الهند بإب جدير بأن يطرق، بوجود وسائط نقل بحرية كبيرة، أعدتها فرنسا آنذاك، ويجب أن تستغل. وعلى هذا الأساس خطط لإرسال حملة بحرية قوامها (٣٠) بارجة و(٢٠) فرقاطة، و(٢٠) سفينة نقل كبيرة تتحرك من الموانىء الثلاثة، برست، روشفو، وفيرول، وتتجه إلى شواطىء الهند لتنزل (٢٠) ألف مقاتل فرنسي و(٣) آلاف مقاتل إسباني، خلف خطوط دفاع القوة البريطانية المتمركزة هناك، والتي تعد (٨) آلاف مقاتل بريطاني و(١١) مقاتل مرتزق ألماني. وكانت النية قوية في تحقيق الخطة، وحتى لو ضحي بكل سفن ووسائط نقل الحملة.. لكن الخطة بقيت حبراً على ورق، وصدم نابليون من جديد أمام العائق الأزلي لتحركه البحري، فبحرية فرنسا أعجز من تلك المهمة الضخمة، وإمكاناتها ليست بالمستوى المطلوب للمهام المشابهة. ويقول دوكريه في هذا الشأن:

«لا يوجد في العالم بحرية تستطيع إرسال حملة بتلك الضخامة وراء خط الاستواء. ويجب لتحقيق نجاح مثل تلك المهمة أن يكون قائدها قوي الشكيمة ذا عزيمة صلبة، وصاحب فطنة ومبادهة. ولا أعرف شخصاً بتلك الصفات في كل سلاح البحر، ولا حتى في أسلحة بحريات العالم. شخصاً يعجب ويرتاب في الوسائط والإمكانات في آن واحد، ويحسن تقدير عظمة مسؤولية المهمة وكبرها».

وكخطة غزو بريطانيا رقدت خطة غزو الهند على الرف، برغم إلحاح ديكان الشديد، والذي طالب بإرسال ولو عدة آلاف من المقاتلين، ينقلون على أسطول من الفرقاطات السريعة. فهذه القوة قادرة على تعطيل السيطرة البريطانية وتقليصها. إلا أن نابليون رفض المجازفة بأمجاده العسكرية في لعبة صغيرة، مجهولة النتائج. فهو لا يوافق إلا في حملة كبيرة وعلى نطاق واسع. وقد كان بنية إعداد مثل تلك الحملة لولا انفجار الحرب الإسبانية.

وسقطت بعد ذلك الإمبراطورية الفرنسية، قبل أن تستطيع مد يد المساعدة إلى الهند بحملة ظاهرها مساندة أمرائها، وباطنها السيطرة على تلك القارة الشاسعة الغنية، وإخراج بريطانيا منها.

تنبهت بريطانيا لنيّات فرنسا في الهند، فعززت حاميتها هناك. وما إن تهيأت لها القوة الضرورية حتى شنت حرباً لا هوادة فيها على مهراجات الهند، فقضت على مقاومتهم، وانحسر نفوذ فرنسا، وتقلص لبضع مواقع وجزر معزولة، تقوم بدور مرافىء تموين يلجأ إليها البحارة أو القراصنة الذين انتشروا خلال تلك الحقبة من الزمن، يشنون هجماتهم على السفن التجارية، وبمبادهة شخصية بعد أن غاب علم فرنسا الرسمي.

لعبت المواقع الفرنسية المتبقية في القارة الهندية دوراً أساسياً في معاونة سفن القراصنة الذين أقضوا مضاجع المسؤولين البريطانيين من إغاراتهم المتكررة.. وارتفعت نسب الخسائر المادية في قوافلهم وسفنهم التجارية. ووجد الإنكليز أن خير ما يفعلونه هو في حرمان سفن القراصنة من تلك القواعد والجزر. وبالفعل سقطت جزيرة رودريغز Rodriguez (١٨٠٩) وتبعتها جزيرة بونابرت (بوربون) ٩ تموز (١٨١٠)، ثم بدأت العمليات الحربية ضد جزيرة فرنسا Ile De France، حيث هاجم بيم Pym الكومودور البريطاني ١٣ آب جزيرة ايل دولاباس Ile De La Passe واستولى عليها، وتربص أمام المدخل الرئيسي للمرفأ الكبير، لكن دوبريه(١٦٥) Duperré حضر لنجدة الجزيرة على رأس قوة بحرية، وكان في طريق العودة من رحلته، واصطدم دوبريه بقوة بيم، ودارت معركة بحرية بين الصخور والرمال البيضاء، لمدة خمسة أيام متعاقبة. وانتقلت قيادة القوة الفرنسية إلى بوفيه بعد إصابة دوبريه بجروح، وانتهت المعركة البحرية بنصر لفرنسا حيث استولى الفرنسيون على فرقاطتين إنكليزتين وأحرقوا اثنتين.

كان لتلك الموقعة أثرها الكبير في نفس ديكان، حيث أعادت له الأمل، فطلب من جميع السفن الفرنسية التي بحوزته أو تحت إمرته ملاحقة السفن التجارية البريطانية أينما وجدت. فهب كل من هامولان، وبوفيه، ودوبريه يضربون كل ما يقع في طريقهم من سفن إنكليزية واستولوا على العديد

منها وعلى إحداها قبضوا على القائد العام البريطاني الجنرال اوبيركرومبي Obercromby. لكن لم تطل مرحلةالعبث الفرنسي طويلاً، إذ قام الأميرال البريطاني بيرتي Bertie يعاونه الكومودور رولي Rauley على رأس قوة بحرية كبيرة يطاردون العابثين من قادة فرنسا وفي ١٧ ايلول استولوا على فينوس سفينة القائد هامولان Hamelin، وكنسوا الساحة من جميع المغامرين. وفي ٢٩ تشرين الثاني أنزل الإنكليز على البر الهندي قوة عسكرية بلغت (٢٣) ألف مقاتل نقلت فوق (٧٦) سفينة تجارية وبحماية بارجة و (١٢) فرقاطة، وقاومهم ديكان، وكان بحوزته (١٣٠٠) جندي و (٣٠٠٠) من الحرس الوطني بالإضافة إلى بضعة مئات من البحارة.

وفي الثاني من كانون الأول استسلمت الحامية الفرنسية. وتوافق ذلك مع سقوط جزيرة فرنسا التي أصبحت تدعى جزيرة موريس Ile Maurice من الممتلكات البريطانية.

تعاقب سقوط المواقع الفرنسية أمام الهجمات البريطانية. ففي ٢٤ نيسان (١٨١١) ضاعت السيشيل Seychelles، وتاماتاف Tamatave. واستطاع الأميرال دروري Drury احتلال جزائر فرنسا المنتشرة في أرخبيل جزر السوند Sonde، وجزائرالهند النيرلاندية، وسقطت باندا Banda، وتبعتها جزيرة جاوا Java، بعد معارك طاحنة بين الغزاة البريطانيين والمدافعين الهولنديين. وهكذا ضاعت ممتلكات فرنسا وحليفاتها عبر البحار، بسبب عدم توفر القوة البحرية الضرورية لإمداد القوات المدافعة عن تلك المواقع وحمايتها.

حروب القراصنة

«من خلال عمليات غريبة لا يتوقعها العدو ستضعه في مواقف ميؤوسة، و ستؤذيه خلال ظروف مقيتة.. سنعد ألوية بحرية سريعة يقودها رجال أشداء، سيقضون مضاجع المسؤولين البريطانيين».

بهذا العرض الجميل أقنع دوكريه إمبراطوره نابليون بمتابعة حرب الإنكليز عبر قوافلهم البحرية التجارية العديدة، وذلك عن طريق إرسال مجموعات بحرية قوية وسريعة تقوم بالإغارة المباغتة على سفن مواكبة القوافل، وتقنُص سفنها التجارية، ويجب أن تتمتع تلك المجموعات الهجومية بتفوق في سرعتها، لكي تتخلص من خصم يفوقها قوة وعدداً.

حدثت أولى تلك الإغارات عقب الطرف الأغر، إذ خرج أسطول غانتوم بعد حصار الإنكليز له في ميناء برست مدة عامين ١٣ كانون الأول (١٨٠٥).

وانقسم أسطول غانتوم إلى مجموعتين ، وابتعد بهما غرباً متغلغلاً داخل المحيط الأطلسي برغم لشتاء وعواصفه العاتية . تنبه الإنكليز لإقلاع غانتوم المفاجىء فأرسلوا في أثره أسطولي وارين Waren واستراشان Strachan اللذين راحا يجوبان المنطقة المحصورة بين جزائر ماديرا ، والآنتيل ، وسانت هيلين والكاب . كما أرسلوا مجموعة ثالثة من أسطول المتوسط بإمرة الكومودور دوك ورث Duck Worth تتربص لمجموعات غانتوم في المياه الأمريكية .

وقد وقع اشتباك بين مجموعة فرنسية في ليبسغ Leysségues (على طريق سانتو دومينغو) ، ومجموعة دوك ورث ٦ شباط (١٨٠٦) . وقاتل الفرنسيون بضراوة مدة ثلاث ساعات ، ثم انتهت المعركة وخسر الفرنسيون الديوميد Diomide والامبريال Imperiale اللتين جنحتا على الصخور ، وأقدمت الطواقم على إحراقها لكي لا تقعا في الأسر . وانسحب الأميرال ويلوميز Willaumes قائد المجموعة الفرنسية من المعركة ، وقصد ماديرا وتوارى هناك من تعقب دوك ورث له . ثم من ماديرا اتجه إلى غوايانا ، ومن ثم إلى الآنتيل . وفي طريقه استولى على العديد من السفن البريطانية التجارية . وعندما شدد البريطانيون الحصار عليه هناك لجأ إلى مياه محايدة ، ثم منها إلى قنال باهاما Bahama . ومن باهاما عاد إلى برست .

وجد دوكريه بعد تلك التجربة المثيرة أن من الأصلح اعتماد طريقة أقل كلفة وأكثر نجاعة ، فاختار أسلوب المركب الواحد بدلاً من المجموعات ، وانتقى أقوى السفن وأسرعها ، لتقوم بأعمال الإغارة والقنص .. لكن نوعية سفن فرنسا عامة في غير المستوى المطلوب من حيث الصلابة والكبر والتسليح . وسرعان ما وقعت غالبيتها بالأسر بين أيدي السفن البريطانية العتيدة . ومع سقوط الإمبراطورية انتهت أعمال القرصنة الفرنسية رسمياً . وقد عالج البريطانيون موجة القنص التي تعرضت لها سفنهم التجارية بموضوعية تميزت بالنقاط الرئيسية التالية :

— فرض نظام الانتقال بحراً ضمن قوافل منتظمة ، وبمعنى آخر فرض على مالكي السفن التجارية اعتماد نظام القوافل . وكل مخالف لا يلتزم بقانون الانتقال المواكب يتعرض لعقوبات صارمة ، إذ يترتب على كل مالك إدراج سفينته في قافلة ، مع دفع رسم الحماية التي تقدمها المراكب الحربية المواكبة .
— تجهيز السواحل المشرفة وتحصينها بالمدافع ، وإقامة الحصون على مداخل الموانىء الهامة في البلاد .
— تنظيم دوريات بحرية كثيفة بوساطة مجموعات حربية ضاربة قادرة على القتال في أي ظرف وأي مكان ، وخاصة في البحار المطروقة والمعابر البحرية .

على أثر اعتماد بريطانيا للتدابير الوقائية، غابت سفن القراصنة بعد أن غابت من قبل سفن أساطيل فرنسا الحربية. ونعمت بريطانيا بسلام كامل، بعد أن دانت لها كل البحار، وسادتها دون مزاحم. حتى إن مالكي السفن الفرنسية التجارية اضطروا لتسيير سفنهم تحت رايات دول محايدة، وغدت سفن فرنسا وحلفائها من إسبان وهولند تملح تحت رايات شركات بروسية أو دانمركية ليأمنوا خطر الإنكليز. واستطاعوا تحقيق استمرارية وصول الإمدادات من قمح أمريكي وأخشاب ومواد أولية ومنتجات، دون أن يجبروا على استيرادها عن طريق أسواق إنكلترا.

أزعج تدبير فرنسا وحلفائها البريطانيين. ويتضح ذلك من قول أحد سكرتاري الدولة للشؤون الخارجية، إذ وصف الحياد La Neutralité بقوله:

«يجب أن لا يستغل الحياد على أنه ميزة إيجابية لجانب أحد المتحاربين، حيث إنه ومن خلال تلك المزايا، قد يزيد من مكاسب البلد المحايد. ومهما كانت نتائجه على البلدان المتحاربة فمن الأفضل الحفاظ عليه بتجرد ونزاهة، وأن يعمل به بشرف وأمانة، وخاصة في تقييد المعاملات التجارية، ضمن أسلوب عادي كما في أيام السلم، لا أن يجعل وسيلة في تقديم المعونة والإسناد إلى أحد الخصمين المتحاربين على مصالح الخصم الآخر».

قامت الوزارة البريطانية بإعطاء تعليمات مشددة لقادة السفن والتشكيلات البحرية في التشدد بتطبيق قواعد عام (١٧٥٦) المتعلقة بالملاحة، ومصادرة كل بضاعة منشؤها فرنسي، أو مملوكة لفرنسا أو لحلفائها، بغض النظر عن جنسية العلم التي ترفعه السفينة الناقلة. وشملت تلك الإجراءات توقيف السفن وتفتيشها بعد أن لجأت فرنسا وحليفاتها إلى استخدام سفن الدول المحايدة في نقل البضائع. وعلى أثر التعليمات البريطانية الجديدة تعددت حوادث مصادرات البضائع المحملة على السفن المحايدة، لخرقها قواعد التجارة البريطانية. وأكدت بريطانيا للعالم أجمع أن سيادتها على جميع المحيطات والبحار أمر مطلق. وكل من يرغب في النقل والإتجار والملاحة عليه استئذان بريطانيا نفسها، والعمل ضمن القيود التي سنتها. وهكذا حصرت ثروات العالم القديم بتشريعات بريطانيا التعسفية لسببين: الأول ضعفها، والثاني ارتباطها بمشاغل اقتصادية تفوق بالأهمية قضية نقل بضائع فرنسا وحلفائها. وفي أثناء ذلك كانت قدرة الولايات المتحدة الأمريكية البحرية تنمو بسرعة مذهلة حتى وصلت حمولة أسطولها التجاري عام (١٨١٠) إلى مليون برميل. وبدا للعالم أن أمريكا راضية عن تصرفات بريطانيا البحرية، لاعتقادها بأن تصرفها هو بمثابة رد فعل طبيعي لأعمال قرصنة فرنسا في البحار. إلا أنها رفضت فيما بعد الخضوع لقواعد التفتيش والتوقيف والمصادرة. ورأت في ذلك

تطاولاً لا مبرر له. وقد بدا الرفض واضحاً في التصرفات حيال السفن البريطانية التي تؤم المرافىء الأمريكية، ومن ثم، تبع ذلك إرسال وفود قدمت احتجاجات رسمية على الأسلوب البريطاني المتبع.

خشيت بريطانيا على علاقاتها الطيبة مع أمريكا وهي الزبون الأدسم، إذ إن العلاقات التجارية والسياسية مزدهرة بين البلدين، ويعز على بريطانيا الإخلال بها، لذلك عمدت إلى تخفيف القيود التي كانت تمارسها سابقاً، واستعاضت عنها بحصار شامل لسواحل فرنسا ومرافئها البحرية الممتدة من مصب نهر ألبا وحتى ميناء برست، ومارست قيوداً مشددة وبشكل حازم ودقيق في حين تخلت عن باقي المناطق، وتركت للمحايدين حرية الملاحة على أن يلتزموا بعدم نقل بضائع تخص فرنسا.

هذا الحصار لم يكن في الحقيقة إلا ضرباً من الدعاية، إذ لا يعقل محاصرة شاطىء يمتد إلى أكثر من (٢٠٠٠) كيلومتر بشريط من السفن الحربية، ويمكن القول بأنه قليل الفاعلية عديم الأثر. ومع ذلك فقد جعل حكام فرنسا يستشيطون غيظاً، وراحوا يفتشون عن أسلوب اعتزموا تطبيقه للثأر من تعسف بريطانيا وتسلطها البحري.

إن الإجراءات التعسفية التي مارستها بريطانيا على دول القارة الأوربية، حلفاء فرنسا خرق فاضح لحقوق الإنسان أثارت ضمائر الشعوب فراحت تفتش عن حل مناسب أو إجراء مضاد يؤدي إلى مقاضاة أعداء حقوق الإنسان. إلا أن الإبقاء على الروابط الطيبة مع البلدان الواقعة وراء البحار، ومع دول القارة الأوربية كسب كبير للإنكليز، ويتطلب منهم إقامة المصانع، وتقديم المواد الأولية، والحفاظ على الروابط. وكل عجز مالي يقع قد لا يعوض إلا بأرباح البيع إلى الخارج. فتعطيل هذا التبادل لا يخلق أزمة اقتصادية قد تصيب كل فرد من أفراد الشعب البريطاني فحسب، بل تتناول مباشرة وفي الصميم الأوضاع المالية العامة في المملكة، فتضعف من توازنها المصرفي، وقد ينعكس ذلك ولا شك على أوضاعها السياسية، ومن ثم على قدرتها العسكرية.

قد يقوم أسطول إنكلترا بمهمة تأمين المواصلات البحرية، فهو سيد البحار، إلا أن فرنسا وهي سيدة البر الأوربي، والبلد الأكثر قوة هناك، والأقوى على البر من قوة بريطانيا في البحر باستطاعتها فرض قيود على الدول الأوربية التي تدور في فلكها، والتي تسمح مواقعها الجغرافية المطلة على البحار، أو حتى الدول الأخرى التي قد تطالها جيوش نابليون الجرارة. وهذا ما دفع بالإمبراطور لسنّ قانون يلزم الدول الأوربية الخاضعة لسيطرته بإغلاق موانئها في وجه البضائع البريطانية،

ولا أحد يستطيع آنذاك إجباره على العودة عن مثل ذلك القانون كما لا أحد يستطيع منعه من تطبيقه . وهكذا صدر مرسوم برلين الشهير ، ونشر في ٢١ تشرين الثاني (١٨٠٦) وتضمن التالي :

« باعتبار أن إنكلترا لا تقبل التسليم بحقوق الناس المشروعة والتي أقرتها جميع الدول المتحضرة ، وإمعانها في اعتراض السفن التجارية ، والاستيلاء على ممتلكات غيرها خاصة بدون حق الأمر الذي لا يمكن أن يطبق إلّا على ممتلكات الدول التي في حالة حرب فقط ، كذلك حصارها لمرافىء الآخرين التي لا تتواجد فيها سفن تابعة لها وحصارها لكل سواحل الإمبراطورية الفرنسية ، والاستيلاء على كل ما يخرج أو يدخل إليها . كل هذا الخرق الفاضح لحقوق الشعوب ، إضافة إلى إقامة الحصار حول سواحل الدول المستقلة ذات السيادة في سبيل منع التبادل التجاري معها .. وأخيراً فرض تجارة وصناعة بريطانيا فوق أنقاض صناعات ومنتجات دول القارة الأوربية .... الخ .

كل من يبادل تجارياً مع المملكة المتحدة يعتبر متواطئاً معها يقع عليه القصاص ، ويرسم الإمبراطور هذه القواعد الأساسية ، ويرفض تطبيقها حتى تعترف بريطانيا بأن حقوق الحرب واحدة ومتساوية على البر وفي البحر . ويجب في كل الأحوال ألّا تطال الممتلكات الخاصة ، وأما الحصار فليس هو حق بمقدار ما هو حقيقة .

إن الجزر البريطانية جميعها محرمة ، وكل تبادل تجاري أو اتصال بريدي ممنوع معها ، وإن الفئات الإنكليزية الحاكمة والمسؤولة عن التدابير التعسفية يجب أن توقف عند حدها ، وتعاقب على أنها سجينة حرب . وكل ملك ، أو بضاعة إنكليزية ، أو من مصدر إنكليزي ، أو تقصد إنكلترا (وهو المهم) ستصادر على كل الأراضي المحتلة من قبل القوات الفرنسية ، أو على أراضي حلفاء فرنسا . وهذا التدبير يشمل فقط الموانىء والمرافىء ولا يطال البحار فالحصار الفرنسي يشمل البر دون البحر » .

كرر نابليون هذا الأمر ثانية عام (١٨١٠) حيث صرح بأن السفن القادمة من إنكلترا لا تصادر بل تبعد .

اهتمت جميع دول العالم بالمرسوم الإمبراطوري ، وحرصت على تنفيذه . حتى غدا في نهاية عام (١٨٠٧) شبه كامل ، وشمل القارة الأوربية بما فيها الدول المحايدة .

توقعت إنكلترا شغباً داخلياً إثر صدور مرسوم برلين .. وأصيب الحكم بهلع شديد لمجرد التفكير بعواقب الأزمة الاقتصادية المرتقبة . وبدأت تفكر بأسلوب تجاوزها دون حدوث آثار سلبية ..

إذ إن الأمر سيكون خطيراً جداً. فإغلاق دول أوربة أبوابها أمام فيض التجارية البريطانية.. معناه كارثة وطنية.

أسرعت الحكومة البريطانية في إصدار تشريعات جديدة تفادياً للأزمة، تتراجع من خلالها عن قراراتها السابقة. وصدر التشريع الأول في ٧ كانون الثاني والتشريع الثاني في ١١ تشرين الثاني من عام (١٨٠٧) وتضمنا موافقتها على منح رخص تسمح بموجبها الاستيراد من الموانىء الأوربية، شريطة أن لا يكون ذلك المرفأ مغلقاً في وجه السفن والبضائع الإنكليزية. وعلى المستفيد من الرخصة المرور فيما بعد لمرفأ الوصول البريطاني للتحقق من بضاعته. ونظراً لكبر حجم المبادلات التجارية البريطانية مع دول أوربة فقد وصلت أعداد الرخص الممنوحة أرقاماً خيالية، وقفزت من (٢٦٠٠) رخصة عام (١٨٠٧) إلى (١٥) ألف رخصة عام (١٨٠٩)، و (١٨) ألف رخصة عام (١٨١٠). وبذلك تكون المملكة المتحدة قد سمحت بالتبادل التجاري، وعلى نطاق واسع مع القارة الأوربية، برغم الحرب القائمة، ولكن تحت شعار لا تجارة إلا عبر بريطانيا العظمى.
No Trade Except Through The Great Britain.

وتحول الحصار إلى احتكارات مؤسسات تجارية ضخمة. ويقول لورد باتهورست Bathurst في هذا الصدد:

«عزمت فرنسا على إبطال تجارتها مع إنكلترا، وبالمقابل قالت إنكلترا بأن فرنسا يجب أن تتاجر مع إنكلترا، ومع إنكلترا وحدها». وكما قال رئيس وزراء بريطانيا بيرسيفال Perceval:

«إن أهداف التشريعات ليست في تدمير التجارة مع القارة الأوربية، لا بل على العكس في سبيل إنعاشها وتقويتها».

لكن نابليون لم ينظر للأمر بمثل ما رآه الإنكليز. فإغلاق أبواب القارة الأوربية أمام المنتجات البريطانية رد فعل طبيعي وبسيط يجب التمسك به وإنجاحه تحدياً للإجراءات الكيدية (المغيظة) التي طبقتها بريطانيا، ولقد تبلورت القضية لدينا (يقول نابليون) فوجدناها الوسيلة الناجعة التي فتشنا عنها طويلاً لكي نهزم مصالح بريطانيا البحرية سيدة البحار، دون أن نتكبد نفقات مثل تلك السيادة.. ولقد قدمت إجراءاتنا حلاً مثالياً لإنعاش قدرة فرنسا الصناعية التي تعثرت عبر السنين السابقة بعامل مزاحمة الإنكليز لها.. وكلنا أمل في أن تحل صناعة القارة الأوربية مكان صناعة بريطانيا المتطورة.

رفض نابليون للدول المحايدة الأوربية (روسيا، الدانمرك، ...) الخضوع لرغبات حكومة لندن وأصدر في ١٧ كانون الأول عام (١٨٠٧) مرسوم ميلان Milan وضمنه التالي:

«كل سفينة مهما كانت جنسيتها، تعرضت لصعوبات زيارة سفينة إنكليزية لها أو أجبرت على السفر إلى إحدى الموانىء البريطانية أو دفعت غرامة أو أتاوة للسلطات البريطانية تفقد جنسيتها، وتفقد كفالة علمها، وتصبح بالتأكيد عرضة للتوقيف والمصادرة..».

هنا وجد المحايدون أنفسهم في ورطة وعليهم التوفيق بين المتطلبات المتضاربة الفرنسية والإنكليزية، وأنه من المستحيل عليهم قبول شروط الأولى دون معاداة الأخرى وبمعنى أصح لم يعد يستطيعون الوقوف على الحياد، وبذلك نجح الحصار القاري رغم كل شيء حيث وصفه الإمبراطور بقوله:

«إنه أعظم آلة حرب أعددناها للانتصار بحراً بالقدرة البرية».

لم يكن التصرف الذي تم بين الخصمين حرباً اقتصادية كما كان شائعاً أي بمعنى مطاردة سفن الخصم التجارية والاستيلاء عليها وبيع حمولاتها في غياب سيطرة بحرية بل كان حقبة لم تصب إلا بعض أصحاب الرساميل الضخمة (أعوام الاحتكارات)، وغالبيتهم تحصنوا ببوليصات ضمان، غطت أكثر المبادلات التجارية من صادرات أو واردات. والإمبراطور قصد في تشريعاته البضائع وليس السفن التي تحملها، فالبضائع ستلاحق أينما وجدت، وحتى بعد دخولها المستودعات، وحتى لدى الخاصة الذي حصلوا عليها لاستخدامهم الشخصي. وبهذا.. قطع حبل التصدير نحو القارة.

جاء أثر التدبير البونابرتي سيئاً على اقتصاد بريطانيا حينما رفضت القارة الأوربية تسلم البضائع الإنكليزية، خشية إجراءات نابليون القصاصية.. فاضطربت الحالة الاقتصادية، وخاصة في مجالات الصناعة، بعد فقد الزبائن. لأن ثلثي شعب الجزائر البريطانية يعتمد في مداخيله على التجارة الخارجية مع أوربة.. ولم يقتصر الأمر على الأفراد، بل تعداه إلى الحكم، فحدث شلل اقتصادي، وتناقصت الاعتمادات المالية الحكومية بانهيار العديد من أصحاب رؤوس الأموال في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا بأمسّ الحاجة إلى اعتمادات إضافية لظروف الحرب ومتطلباته المتزايدة. فالتطور الصناعي، والازدهار التجاري، والغزو الاستعماري التي جعلت من العالم الاستوائي مناطق نفوذ بريطانية توقفت. ولم يعد بالإمكان تصريف المنتجات الصناعية الضخمة. وتكدست البضائع، وأعقبت الأزمة الاقتصادية أزمة اجتماعية طالت كل بيت، وكل مجال وبدأ الحكم يخشى انفجار ثورة اجتماعية حادة.

تلك كانت أهم النتائج الفعلية لتدبير نابليون. ولو استمر الحصار القاري عدة سنوات أخرى لانهارت بريطانيا، وزالت مملكتها التي لا تغيب عنها الشمس.

نفذ الحصار القاري في البداية بزخم شديد، وقد ساعد على تحقيقه التواجد العسكري الفرنسي الضخم، وآلية الرقابة الجيدة التي حققها العسكر في معاونة جيش ضخم من رجال الجمارك انتشروا على طول السواحل، وفي الموانىء امتداداً من البحر الأبيض في شمال أوربة، وحتى البحر الأسود. وتعاقبت أعمال المداهمة والمصادرة، ولوحق المهربون حتى أوكارهم الرئيسية ومستودعاتهم الضخمة. وتكدست المصادرات أكواماً عارمة حرقت في الساحات العامة. إلا أن كل تلك التدابير الصارمة لم تستطيع إغلاق كل منافذ القارة، بل اتسعت عمليات التهريب، وتنوعت تحت قيادات منظمات قوية قدمت للعمليات الحماية والدعم والتمويل. وتوضعت في مواقع حساسة حول شواطىء القارة، وكانت بمثابة أوكار ضخمة تمد الدول الأوربية بالمهربات على اختلاف أنواعها. ونذكر منها، جبل طارق، وجزائر مالطة والباليار وآسور ومادير، والعديد من الجزائر النورماندية الواقعة بين البرين الفرنسي والبريطاني داخل بحر المانش. كما أصبحت كل من مدينتي غوتمبورغ وهيليوغلاند مراكز إمداد بالنسبة لألمانيا، ومن ألمانيا تنتشر الممنوعات في كل بلدان القارة.

استخدمت بعض السفن المشبوهة كمستودعات عائمة تتواجد في نقاط محددة في البحر اتفق عليها مسبقاً، يأتيها المهربون ويعقدون على متنها الصفقات، أو يتظاهرون بلعب دور القراصنة، فيهاجمون السفينة المستودع، ويستولون على البضائع فيها ويدخلونها خلسة إلى البلاد.

تعاظم التهريب على نطاق واسع خصوصاً عندما ابتعد نابليون عام (١٨٠٩) متغلغلاً داخل الأراضي البولونية. وكأن ذلك دعوة عامة لتنشيط عمليات التهريب. وفتحت أبواب ألمانيا على مصراعيها أمام الممنوعات. ويقال إن نابليون نفسه سمح بغض النظر عن أعمال التهريب، بدءاً من عام (١٨١٠) بصورة إدارية غير معلنة، ولبعض أنواع المهربات، على أن تبادل ببضائع فرنسية وطنية من حرائر وأقمشة وخمور وعطور. وأوعز إلى إدارة الجمارك بتخفيض الرسوم عن بعض السلع الضرورية حتى وازت أسعارها أسعار المهربين فبطل تهريبها.

لو أمعنا النظر في نتائج الحصار القاري للمنتجات البريطانية لوجدنا إفادة فرنسا منه عميمة. ويكفي مقارنة أرقام حجم المستوردات الذي كان (٤٦٥) مليون فرنك عام (١٨٠٢)، وهبط إلى (٢٥٧) مليون فرنك عام (١٨١٢)، علماً بأن الإمبراطورية الفرنسية اتسعت أضعافاً ثلاثة، وتضاعف عدد سكانها. ومن النتائج الظاهرة المباشرة على المملكة المتحدة البريطانية التالي:

ــ معاناة اقتصادية ومالية.
ــ عزل معنوي لبريطانيا، وحجرها في جزائرها.
ــ تزايد في الإنتاج مع انخفاض في التصدير، وهذا الأمر أصاب مستقبل رجال الأعمال والصناعيين، فأدى إلى نفاذ في السيولة النقدية، وتراكم هائل في المنتجات. ولقد تراكم إلى جانب المنتجات المحلية المنتجات الآتية من المستعمرات، لتوقف إعادة تصديرها لفقدان الأسواق لها. فعلى سبيل المثال تكدست أكياس البن على أرصفة ميناء لندن لا تجد من يشتريها حتى بأبخس الأثمان، في حين وصل سعر القهوة في ميناء آنغرس القاري (بلجيكا) عشرة أضعاف سعرها في بريطانيا. ويمكن أن نقول إن هذا الارتفاع في الأسعار قد شمل كل المنتجات الاستوائية الآتية من العالم الجديد، والتي تضمنت الحبوب والتوابل والألبان الخ....

مرت على إنكلترا أيام مرّة، لكن البورجوازية البريطانية تصدت بمعونة الحكومة، وجابهت الأزمة بإجراءات عديدة منها:

ــ عدم الاعتراف بوجود أزمة اقتصادية، وتجاهل ما يحدث، وحث المصانع على متابعة الإنتاج، وتشجيع التجار على شراء السلع والمحصولات القادمة عبر البحار البعيدة.
ــ استبدال أسواق أوربة المغلقة في وجه الإنتاج البريطاني بأسواق الهند، وأسواق المستعمرات، وأسواق أمريكا الإسبانية بصورة خاصة. وبالفعل فاعتباراً من فتنة إسبانيا عام (١٨٠٨) فتحت الأسواق الإسبانية أبوابها العريضة أمام السلع البريطانية.
ــ المحافظة على رواتب العاملين في المصانع، وفتح الاعتمادات المالية اللازمة لأصحاب المعامل، وإتاحة الفرص لهم للاستدانة من خزينة الدولة لمتابعة عمليات الإنتاج، على أن تسدد تلك القروض بعد أن يعاد فتح أسواق القارة الأوربية أمام التجارة البريطانية من جديد. وبهذا العمل أمنت الحكومة البريطانية من شر ثورة عمالية محتملة مضحية بمبلغ (١٣٧) مليون فرنك متوسط سنوي طيلة سنين الحصار. وتوصلت بريطانيا بتضحياتها المالية الضخمة لمقاومة أسلوب الحرب الاقتصادية الفرنسية، برغم ما خصصته من ميزانيات ضخمة إضافية لصالح المجهود الحربي، وبالذات لسلاح البحر الذي ضم عام (١٨٠٩) (٩٦٩) سفينة منها (٧٦٤) كاملة التجهيز والتطقيم، بلغ مجموع حمولاتها (١٫٠٦١٫٠٠٠) برميل وضمت (١٤٥) ألف رجل، إضافة إلى (٣٠٠) ألف مقاتل قوام جيشها البري.

بلغت نفقات بريطانيا خلال الأعوام العشرة (١٫١٣١) مليار، دون الإشارة إلى المساعدات

لمالية الضخمة التي كانت ترسلها بريطانيا لحلفائها على البر الأوربي ، والذي قدرته مجلة التايم في عام (١٨٥١) بـ (٤٦) مليون جنيه استرليني ، ويعادل آنذاك (١٥٧ر١) مليار من الفرنكات . وقد وصلت النفقات العامة للدولة البريطانية خلال الحرب إلى (٣٠) مليار فرنك فرنسي سنوياً ، وهذا يعادل ضعف ما أنفقته بريطانيا في حروبها إبان الثورة الفرنسية ، وخمسة أمثال ما أنفقته في حروبها خلال حرب التحرير الأمريكية .

لكي تحافظ بريطانيا على ميزان مدفوعاتها . ومجابهة الإنفاق الضخم فرضت ضرائب جديدة غير مباشرة ، ثم ضرائب تصاعدية . إلا أن هذا الفرض لم يغط إلا مبلغ (٦٠٠) مليون فرنك سنوياً ، واستمر الخلل عظيماً . وهنا لجأت إلى أسلوبها السابق نفسه ، وهو إعلان الإقراض القومي ، وهو قرض يقدمه الشعب من أمواله الخاصة . وبإيمان البريطاني العظيم بوطنه واعتزازه به وفخاره بأمته تسابق ككل مرة في بذل التضحيات . وجمع الشعب (٢٦٣ر١٩) ملياراً من الفرنكات ، أي ما يعادل (٧٤٪) من ميزانية الإنفاق العامة طيلة سنين الأزمة . وبذلك العطاء الكبير تخطت بريطانيا أزمتها الاقتصادية ، كما فعلتها في السابق ، خلال حروب الثورة الفرنسية . إذ كانت المشاركة الشعبية بمقدار (٥٦٪) من ميزانية الإنفاق ، وخلال حرب التحرير الأمريكية بمقدار (٢٣٪) من ميزانية الإنفاق .

تجاوب أصحاب رؤوس الأموال البريطانيون لنداء الدولة وشاركوا بحماسة مطلقة . أما في فرنسا فقد اختلف الأمر تماماً ، إذ عندما طلبت الحكومة الفرنسية قرضاً من الشعب والذي بلغ (١٢٥ر١) ملياراً اضطرت الحكومة لإصدار صكوك (رهينة) لقبول المواطنين في المساهمة .

لم يشعر المواطن البريطاني بآثار الحصار ومآسيه كما شعر به الفرنسي أو الأوربي .. إذ ما إن زال خطر الإنزال على جزره عام (١٨٠٥) حتى استعاد الشعب الإنكليزي اطمئنانه في أرضه ، ومرت الأزمات عليه ضمن حدود معقولة ، ظهرت بارتفاع بسيط في أسعار الحاجيات غطته الدولة برفع الأجور والأرباح والفوائد . وازدهرت الزراعة ، إذ أعطيت الأرض بفضل جهود الفلاحين عناية أكبر ، وارتفعت مقادير المحاصيل ، حتى وصلت أرقاماً لم تبلغها من قبل ، فغطت بذلك النقص الحاصل في منع المنتجات الزراعية الأوربية من الوصول إلى الجزائر البريطانية .

تأثر فقراء الإنكليز ولا شك في مراحل الأزمة المختلفة ، لكن من يفكر بالفقراء في تلك الأزمان الغابرة ، إذ ليسوا من الناخبين ، ولا وزن لأصواتهم .. ففي الحروب أغنياء بريطانيا وحدهم هم الذين يمثلون شرعية البلاد .

قد يتساءل القارىء إلى متى سيصمد هذا الفخار الإنكليزي المتعنت؟ وحتى متى ستدعم الرساميل الخاصة السلطة والحكم؟ وإلى أي مدى سيصل دعم التسليح؟ أوليس لتلك المجالات من حدود؟ بالفعل بدت بعض الظواهر المقلقة تلوح في الأفق البريطاني، وارتفعت أعداد الإفلاسات الكبيرة (٢٣٥٧ إفلاساً عام ١٨١١)، وبدأ الشعب يطالب بإقامة سلام عام وإنهاء حالة الحرب. واشتد المعارضون في البرلمان البريطاني ونادى العمال بزيادة الأجور، وحدث عصيان في كل من يوركشاير وميدلاند، مما اضطر الحكومة لاتخاذ تدابير قمعية. إلا أن التمرد وصل لصفوف رجال الجيش والبحرية، ودخل مرحلة من العنف.. وابتدأ الفرار من القوات المسلحة، حيث فر من البحرية وحدها بين أعوام (١٨١١ و ١٨١٣) (٢٧ر٣٠٠) رجل. وقد قيل: لو استمر حرب الحصار القاري سنوات أخر لانهارت بريطانيا أمام الأزمات الداخلية المتلاحقة، ولتغير وجه التاريخ.

هذا ما حدث في بريطانيا. ولنلق نظرة شاملة عما حدث في فرنسا خلال تلك الحقبة من الزمن، ونتساءل: هل يستطيع البر الأوربي التخلي عن المنتجات البريطانية المتطورة وهل تستطيع إنكلترا تجاهل أسواقها الأوربية؟

عانت فرنسا هي الأخرى من القيود معاناة كبيرة وجاءت أولى نتائج الحصار القاري على شكل ارتفاع بالأسعار مذهل، وللعديد من الحاجيات، وبنسبة من خمسين إلى مائة في المائة، كانت كلها بالأصل ترد عن طريق إنكلترا، أما بالنسبة لمستوردات المستعمرات فقد أصبح الحصول عليها مستحيلاً لانقطاع ورودها بحراً، وحتى إن وصلت فإن أسعارها تتعدى كل الحدود، وأصبحت ممتنعة على المستهلكين لغلاء أسعارها. وأوعز نابليون إلى مواطنيه لمحاولة إنتاج احتياجاتهم محلياً، أي تطبيق مبدأ الاكتفاء الذاتي.

راقبت دول الحصار الأسلوب المطبق إضافة إلى أساليب أخرى اشتقت عن تطبيق بعض النظريات الاقتصادية، كنظرية فيشت Fichte عام (١٨٠٠)، والنظرية المسماة بالاتحاد الاقتصادي Geschloscene Handelstaate، والتي أعطت نتائج (حمائيه) (مذهب حماية التجارة والصناعة)، وحصلت على حدود قصوى من المكاسب. وتأكد للصناع وخاصة الفرنسيون أنهم لن يجابهوا أية مزاحمة فعالة، وسيطرتهم على احتكار الأسواق الداخلية ستكون مطلقة، وستصل إلى فروع تلك الأسواق التي انتشرت فغطت جميع مدن أوربة الغربية والوسطى. وكان للعون الحكومي ولاشك أثره الفعال في ازدهار الحركة التجارية القارية وتقدمها. وقد ساهم في إنجاح ذلك رجال مَهَرة شجعان أمثال ابر كامبف Ober kampf، ريتشارد Richard، لونوار Lenoir، تيرنو

Ternaux ، جاكار Jacquart والبلجيكي ليفنس ــ بوفنس Lievens-Bauwens ، إذ حققوا جميعهم نتائج ما كان بالإمكان الوصول إليها في نظام المزاحمة التقليدي . وهكذا غدت كل أوربة زبائن لمنتجات فرنسا .

وصلت صناعة الأقمشة والأنسجة والخردوات في فرنسا مستوىً رفيعاً ، ماعدا الصناعات التي تعتمد موادها الأولية من الخارج . وفتشت فرنسا عن البدائل ، فزرعت مثلاً القطن في سهل لومبارديا ، واستبدلت أوراق شجر الجوز فصنعته تبغاً ، وحمصت أوراق الهندباء بديلاً للقهوة ، واستخرجت السكر من العنب ومن الفواكه الأخرى . إلا أن جميع تلك البدائل لم تكن إلا محاولات هادئة تنقصها الشجاعة ، فجاءت ضعيفة النتائج (استخراج السكر من الشمندر والذي قلب كل الموازين في مهنة صناعة السكر لم يكن آنذاك إلا في طوره الاختباري البدائي) .

على أثر الحصار الاقتصادي وانقطاع البضائع المستوردة عن دول أوربة اضطر المستهلك الفرنسي وبالتالي الأوربي (الأوربي بنسبة أقل لارتفاع نسبة التهريب هناك) للتخلي عن العديد من مظاهر الترف التي اعتادها سابقاً ، والتي غدت ضرورة في حياته المتطورة . هذا الحرمان المزعج أثر في سياسة الإمبراطور نفسه ، وبدأ التذمر يتسع ويعلو صوته ، وبأشكال متنوعة . واتهم الحكم بوقف الحياة السياسية على فئة مختارة من أعوان الإمبراطور ، راحت تغرف من خيرات الشعب ووسائل رفاهيته ، وتحجبها عن غالبية المواطنين ، ناهيك عن الحمل الثقيل الذي ناء به المواطن الشريف ، فهو الذي ينخرط في الجيش ، وهو الذي يقوم بالخدمة الإلزامية ، وهو الذي يضحي بالمال والدم ، وهو الذي يشقى ويتعب في الحقل والمصنع وغيره ينعم بالرفاه والحياة الزغدة .

اتسعت النقمة بين صفوف الفئات الشعبية الرافضة ، وغدت أكثر عداءً بعد أن حرمت العديد من حقوقها المشروعة ، واعتبرت نفسها قد استغلت من قبل فئة قليلة دون أن تصل إلى أبسط درجات تسهيلات الحياة اليومية ، وإن كان الخوف من البطش قد أخرس أفواههم في السابق ، فهم الآن بعد أن لاحت بوادر تداعي الإمبراطورية لا يخشون شيئاً ، ويعبرون عن غضبهم جهاراً في وجه سيدهم الغاصب وأعوانه المستغلين ، خصوصاً بعد أن بدأ يأفل نجم نابليون . وأكبر مثال على ذلك المشاهد العديدة التي جرت في جلسات المجلس الوطني عام (١٨١٢) ، والخيانة عام (١٨١٤) ، وهي تعبير واضح عن التململ من الأوضاع الاجتماعية المتردية التي وصل إليها الشعب الفرنسي .

لم يدر بخلد نابليون أن هذا الضغط السياسي والاقتصادي الممارس على فئات الشعب قد يكون أحد أسباب انهيار سلطته، فقد عاش بونابرت حياته بين أعوانه المخلص منهم والمتكسب لا يرى ما يدور حوله إلا ما يسمح به هؤلاء الأعوان من صور بهيجة عبقت بالتمجيد، حتى أصابه غرور قاتل، وابتعد عن جموع الشعب الذين كانوا وراء مجده العسكري والسياسي، واستقر في بوتقة رجال البلاط.

تسارع تفاعل الشعب وتعاظمت غضبته، وتحين الفرص للانقضاض والإطاحة بإزاحة المدير الأول له. وهذا ما أكده كتّاب تلك الحقبة ومفكروها، بعد تحليلهم لفترة حكم نابليون، ودوره في اغتصاب الثورة الفرنسية، وتسخيرها لشخصه ولأحلامه الجنونية. ولقد نجح نابليون في استغلالها فأعطى فرنسا أعظم مجد عرفته خلال تاريخها الطويل، لكنه مجد للأسف نخر العود، سرعان ما تهاوى تحت وقع الأزمات التي لاحقته، فلم يعش هذا المجد طويلاً، وكان أقصر مجد عرفته الأمم بمقارنتها بأمجاد الإمبراطوريات الأخرى. فنابليون هذا الذي نقل فرنسا سريعاً إلى مصاف الدولة العظمى عاد بها القهقرى سريعاً حيث وجدت نفسها متخلفة، شأنها شأن أية دولة في طريق البداية.

يقول المفكرون: إن البورجوازيين في المدن التجارية الكبيرة لعبوا دوراً أساسياً في سقوط نظام بونابرت، أما الطبقات الشعبية الأخرى، وهي الغالبية العظمى فكانت محجمة لم تلعب دورها المفروض، لغياب الديمقراطية الحقة، فيما لو قورنت هذه الغالبية بغالبية الشعب البريطاني ونظامه البرلماني الحر.

وقد بقيت قدرات طبقات الشعب الفرنسي معدومة ما دامت حكومتها بغير حاجة لها ولأموالها. لذلك لم تقف تلك الطبقات إلى جانب الحكم كما وقفت طبقات الشعب البريطاني أيام الأزمات. ولولا أن الجيوش الفرنسية كانت ترمي ثقل نفقاتها على البلدان التي تتواجد فيها، إضافة إلى جمع الضرائب وغرامات الحرب، والتي كانت تتجاوز أحياناً أرقام الموارد العادية لانهار الاقتصاد الفرنسي قبل موعده بكثير.

اعتمد الحكم الفرنسي على فرض ضرائب مباشرة على الأرض وعلى المنتجات الزراعية المزدهرة. وكانت ضرائب سهلة التحصيل لمحبة الفلاح لإمبراطوره وإخلاصه له، فالتململ بحق جاء من الفئات الغنية قبل الفقيرة، لأن مجد نابليون العسكري حرمهم الكثير من أسباب البذخ والترف الذي

تعودوه، ثم انتقل هذا التململ للفئات المتوسطة، أما الفئات الشعبية العمالية والفلاحية فلم تشعر بفقد الحاجة لأنها لم تعتدها أصلاً، وغضبتها جاءت نقمة على المستغلين الجشعين.

آخر خطط نابليون، وحاجته لحرب هجومية

عززت حتمية استمرار قتال العملاقين (الفرنسي والإنكليزي) ثقة الجنود والفلاحين بقائدهم الكبير نابليون، فجعلتهم يتحملون مشاق الحرب وبلائها في أعوامها الأخيرة والطويلة التي لا تنتهي. وعززت ثقة أصحاب رؤوس الأموال والناخبين البريطانيين في مستقبل المملكة المتحدة، وفي الحكم. وأخيراً في الصناعة البريطانية المزدهرة. هذه الثقة هنا وهناك سمحت للقائمين على الحكم بطلب المزيد من الجهد ومن التضحية، فقدم الشعبان الفرنسي والإنكليزي دون حساب، ودون السؤال عن الهدف والمصير.

كان أفضل سبيل لإنهاء تلك الحرب الطويلة هو تحطيم الثقة بين المقاتل وزعيمه. وحرص البريطانيون على التأكيد لجميع دول أوربة بأن الجيوش الفرنسية ليست بالجيوش التي لا تقهر، كما حرص الفرنسيون على التأكيد بأن الأرض البريطانية ليست بالأرض المنيعة التي لا تُطال، فالحرب الاقتصادية التي دارت بين الخصمين المتنازعين ما كانت إلا حرب استنزاف لحدث قادم وحاسم. وكل هذا دفع بالمتنازعين للبحث عن قتال مباشر بعد أن أدت حرب الاستنزاف غرضها. وهبت بريطانيا تدافع عن نفسها بسياستها التي اعتمدتها مبدأً، فعرضت أساطيلها وجيوشها على من يفتقر لها من أعداء فرنسا بغرض شن هجوم حقيقي ووجهاً لوجه.

دلت جميع الظواهر على أن نابليون اعتمد الحصار القاري على أنه تدبير احتياطي لمد أجل الحرب، وإضعاف عدوته بريطانيا، حتى يصل بها لمرحلة الإنهاك، فيستطيع والحالة هذه هزمها بقوة بحرية مناسبة، وبجيش بري جرار (بعد إشاعة السلام في ربوع دول القارة الأوربية طبعاً) فيتوجه نحو الجزر البريطانية ويكتسحها بهجوم كبير. ولقد أشارت المراسلات التي تبادلها الإمبراطور مع دوكريه عن مدى تشوق نابليون لمعرفة مراحل تطور بناء أسطول فرنسا الحربي، والموعد الذي سيصبح فيه هذا الأسطول قادراً على تخطي القنال الإنكليزية (بحر المانش) والوصول إلى البر البريطاني.

وبالفعل بدأ نابليون مراحل خططه بعد هزيمة الطرف الأغر مباشرة.. إذ طالب الجميع ببذل الجهد والعرق، وأرسل الوفود إلى الهند وأمريكا وإلى كل مكان، يعد العالم لغزوه المرتقب، وخيل إليه

بأن أميرال البحر غانتوم والـ (١٧) بارجة التي تحت إمرته في مرسى طولون قادرة على إنجاح مهمة العبور ، ولقد عبر عن ذلك بقول له :

« إن الفرصة اقتربت وإن البحرية الفرنسية تسير قدماً نحو تطوير إمكاناتها » .

أصدر نابليون أمراً بإرسال (٧٥) سفينة نقل تحمل (٣٢) ألف مقاتل تواكبها قوة غانتوم الحربية .. إلا أن أمره لم ينفذ ، وتأجل نتيجة اشتعال فتنة إسبانيا الشهيرة التي أفقدته (٣٢) بارجة حليفة إسبانية ، كان قد لحظها الإمبراطور على أنها من عداد أسطول الغزو .

لم يتراجع نابليون بل قال « ليكن عام (١٨١١) عام إنهاك بريطانيا حصاراً ، وعام (١٨١٢) عام الانقضاض عليها حين ستصل أعداد بوارجنا إلى (١٠٤) بوارج . ومثل هذه القوة قادرة على حماية ومواكبة أسطول ايسكو التجاري الذي سينقل (٤٢) ألف مقاتل ، وأسطول بولونيا التجاري الذي سينقل (٦٠) ألف مقاتل ، وأسطول جوار جزيرة صقلية الذي سينقل (٢٠) ألف مقاتل .. عندها سيجد البريطانيون أنفسهم في ظرف يختلف عن كل توقعاتهم وحساباتهم . » . ويضيف الإمبراطور قائلاً « وهنا نستطيع إتمام عملية الغزو التي باشرناها منذ عام (١٨٠٥) والتي أجهضت مراراً لأسباب عسكرية أو سياسية متعددة ، وفي أسوأ احتمال سنستطيع توزيع قوانا ضمن أسطولين كبيرين الأول يهدد إيرلندة ثم يتجه بعدها إلى بحار الآنتيل ليستعيد مجدنا هناك ، والثاني يعود إلى المتوسط لاستعادة صقلية ومصر » .

كان في اعتقاد نابليون أن اليوم الموعود بات وشيكاً ، وحانت فرصة إعادة الحسابات مع العدو الأزلي .

للأسف لم يأت هذا اليوم قط ، ولم يخرج أسطول بونابرت من مرافئه ، ولم يقصد إيرلندة أو المستعمرات ، ولم يقترب حتى من الجزر البريطانية . وانهارت أحلام بونابرت الخيالية للنقص الكبير في الطاقة البشرية التي تطلبتها معاركه على البر الأوربي . ففي عام (١٨٠٩) مثلاً اضطرت البحرية الحربية الفرنسية لإعارة المئات من سدنة المدافع لتطقيم مدفعيي جيش واغرام ، كما أن حملة روسيا تطلبت التعزيز بالآلاف من المقاتلين سحبوا من عداد القوات البحرية ، يضاف إلى ذلك معارك لايبزيغ Leipzig وهانو Hanau وباريس والتي قاتل فيها جنود البحر . ولما استتب الأمر لنابليون براً .. عاد لبناء قوته البحرية ، إلا أن بريطانيا سبقته في بناء جيش بري قوي مهمته الدفاع عن جزرها . ثم أرسلت عملاءها في طول القارة الأوربية وعرضها يؤلبون الحكام على نابليون وغطرسته . وبهذا

الأسلوب حولت بريطانيا المعركة البحرية المرتقبة إلى معركة سياسية، ثم برية، واختارت ساحة لها على القارة الأوربية، وبمعونة غالبية دول أوربة كحلفاء لها.

قد تجدر بنا العودة قليلاً إلى الوراء، وبالذات لعام (١٨٠٦) حين برز اتجاه في شرق أوربة جعل فرنسا تطمع في البلدان الواقعة فيه، وتتدخل بدافع ظاهري نابع عن الموقف السياسي العام في تلك المنطقة، حيث وقفت روسيا موقفاً معادياً لها، باعتبارها حليفة للعثمانيين.. هذا الأمر أجبر الإمبراطور على إرسال الجنرال سيباستياني Sebastiani سفيراً فوق العادة ليسخر دهاءه، ويستخدمه في إيقاظ الحماسة لدى تلك الشعوب، ويوقظ اعتزازهم بالدين الإسلامي، وبالدفاع عن الدولة العثمانية، حامية هذا الدين، ويلفت انتباه السلطان للخطر الكبير الذي قد يتعرض له من قبل جارته روسيا الأرثوذوكسية المتعصبة. ولقد أهاب بتلك الشعوب همة إعادة قدراتها العسكرية.. ثم أقام حلفاً تركياً ــ فرنسياً شاملاً قدم لفرنسا الهيمنة من خلال هذا الحلف على جميع شواطىء البحر الأبيض المتوسط.. مقلصاً تواجد الإنكليز فيه. وقد يكون ذلك بمثابة منطلق جديد لعودة فرنسا لمجدها البحري المتوسط الآفل، قد تتبعه وثبة توسعية نحو مستعمرات الهند البريطانية.

اعتقدت بريطانيا بأن تفوقها البحري في المتوسط لن يسمح للفرنسيين بالتطاول. وقررت المبادهة قبل استفحال أمر الحلف التركي الفرنسي الجديد، فأوعزت إلى الأميرال دوكورث Duckworth ١٩ شباط (١٨٠٧) بالتوجه إلى المنطقة.

انتقل الأميرال البريطاني بقوته التي ضمت (٧) بوارج وعبر الدردنيل فجعل الأسطول التركي الصغير المتواجد قرب رأس ناغارا Nagara ينسحب دون قتال.

وتقدم دوكورث ورسا ببوارجه أمام السراي القديمة. وبعد عدة صليات من مدافع بوارجه أرسل إلى السلطان العثماني إنذاراً يطالب فيه فك التحالف التركي الفرنسي، واستسلام الأسطول التركي، وتخلي تركيا عن قلاع الدردنيل المنيعة.

اجتمع مجلس السلطان وماطل في المفاوضات ليستجمع القوات اللازمة لملاقاة الغزاة الإنكليز. وبدلاً من أن يعتبر القائد البريطاني غازياً منتصراً، وجد نفسه محاصراً في بحر لا مخرج له منه.. فأحس بالخطر وأسرع هارباً مستغلاً ريحاً شمالية أبعدته بسرعة عن مضيق الدردنيل. وفي خلال ساعة ونصف اجتاز الممر الضيق إلا أن مدافع القلاع التركية لم تدعه يمر بأمان وأصلته حمماً من المرتفعات البرية المشرفة على الممر البحري. وقيل إن قذائف الأتراك كانت كرات رخامية صلبة اشتهرت بها تلك المدافع.

أصيبت بارجتان من بوارج دوكورث وقتل وجرح (١٧٧) رجلاً من أطقمها. ولو أن الأتراك استعدوا مسبقاً لما تركوا لأية سفينة بريطانية فرصة النجاة.من بحر مرمرة ٣ آذار (١٨٠٧).

وعلى الرغم من إلحاح الأميرال الروسي سينيافن Siniavin الذي انضم إلى دوكورث فقد رفض الأميرال البريطاني إعادة الكرة، فقام سينيافن بالمحاولة لوحده، وكاد أن ينجح. إذ استطاع هزم الأسطول التركي، ثم استولى على ليمنوس Lemnos وتينيدوس Tenedos ثم أقفل الدردنيل بقواته، لكن اتفاقية تيلسيت أنهت عملياته في المنطقة.

خططت لندن لمهمة جديدة تعود عليها بالنفع. فمصر التي بقيت عشرة أعوام قطعاً تجذب الغزاة الطامعين قد تنفع في إرباك فرنسا، فأوعزت إلى الجنرال فرازر Fraser وقوته المؤلفة من (٥) آلاف بمهاجمة بر مصر.

تصدى الجنرال العثماني الألباني محمد علي للقوة البريطانية، وقاتل الغزاة بإمكانات عسكرية محدودة. واستخدم فطنته العسكرية وذكاءه المشهود. وخلال أسابيع قليلة هزم فرازر وحملته ثم أجبره على الاستسلام الطوعي في ١٠ آب (١٨٠٧). وفي الوقت نفسه تمت على الساحة الأوربية تغيرات خطيرة في غير صالح المملكة المتحدة. فالقيصر الروسي الإسكندر الذي وقف وحده يصد هجمات نابليون، وجد أن امتداد الحرب هو في صالح بريطانيا، ولن تفيد روسيا منه شيئاً.. واستمع للعرض الصداقي الذي قدمه نابليون، فقبل به ووافق على الانسحاب من مناطق الصراع في أواسط أوربة متخلياً للإمبراطور عنها، وعن أوربة الغربية. وفي اجتماع تيلسيت Tilsitt نجح التقارب القيصري الإمبراطوري، وانقلبت الحرب الضروس بينهما لحلف سعيد، وتحولت روسيا لدولة تعادي بريطانيا. هذا التحول قلب ميزان القوى في المنطقة، لكنه لم يدهش البريطانيين، إذ منذ قرن مضى والعقول المتفتحة تتوقع مثل تل الأحداث لتباين المصالح الدولية وتضاربها. وقد تعود سيرتها الأولى بمثل سرعة ماحدث في تيلسيت، وقد تتكرر أحداث عام (١٧٨٧)، وعام (١٨٠٤)، وتعود فتظهر بصمات روسية جديدة على شواطىء المتوسط. إذ تأكد للوزارة البريطانية كما تأكد لأعدائها صحة أطماع التسار (القيصر) التي لا حدود لها، إضافة إلى مطامع كل من فرنسا والنمسا في شواطىء وممالك المتوسط، هذا البحر الاستراتيجي العظيم الأهمية.

وبناء على معلومات مغلوطة، نشرتها دائرة الاستخبارات البريطانية أشرف على بثها الداهية كانينغ (تماماً كما حصل عام ١٨٠٠).ساد اعتقاد بأن هجومياً مرتقباً آنياً وساحقاً سيتم يرافقه تصرف سري يبلبل الخواطر ويحرم على فرنسا وضع خططها السابقة موضع التنفيذ، ويمنع استخدام

التسهيلات التي يمكن أن تقدمها الدانمرك في التشكيلة الدفاعية. وكما جرى عام (١٨٠٠) تحملت الدانمرك كل الغضب البريطاني وأصابها في الصميم وهي البلد الصغير. علماً بأنها ثابرت دوماً على إعطاء البرهان تلو البرهان عن حياد كامل بين قوى أوربة المتصارعة، وانضمت إلى التجمع الأوربي القاري شأنها شأن الأخيرين، بفعل الضغط الفرنسي العسكري على دول القارة.

وفي ٣١ تموز عام (١٨٠٧) ردت على إنذار بريطاني بحشد قواتها المتواجدة في الهولستين Holstein لصد الاعتداء.. وكان هذا ما تسعى إليه بريطانيا فجيش صغير وضعيف يغري، وبالفعل هاجمت بريطانيا بقسوة جيش الدانمرك الفتي متعمدة البطش به لتجعله درساً لباقي الشعوب الأخرى المتحالفة مع فرنسا والتي ترفض الخروج من الحصار القاري وترفض الإذعان به لمشيئة المملكة المتحدة.

في ٣ آب قدم تشكيل اللورد غامبيه Gambier الذي ضم (٢٥) بارجة وظهر في كاتغيت Gattegat.. لم يتبع غامبيه خطة نلسون السابقة حين هاجم الدانمرك وطبق مناورته الجريئة عام (١٨٠١) واقتحم الممر الجنوبي للسوند، بل فضل إنزال المقاتلين في السيلاند Sealand، وهاجم دفاعات كوبنهاغن من الخلف، دون أن يعرض قواته النازلة إلى أية أخطار فعلية.

تعرضت كوبنهاغن لقصف مدفعي كثيف خلال أيام ثلاثة (من ٢ ايلول إلى ٥ ايلول)، واشتعلت الحرائق في عدة أحياء من المدينة، وقتل ما يقرب من الألفين. وفي السابع منه استسلمت المدينة فدخلت أرتال البريطانيين قلبها، وأقامت فيه طيلة الفترة اللازمة لإعادة تجهيز الأسطول الدانمركي المستولى عليه إلى حالته القتالية. واعتبر ذلك الأسطول غنائم حرب ضم إلى أسطول بريطانيا وتضمن (١٨) بارجة و (٨) فرقاطات، قيدت جميعها في ٢٠ تشرين الأول إلى مرافىء المملكة المتحدة.

واعتبر استيلاء بريطانيا على الأسطول الدانمركي المكسب الوحيد الذي جنته في حملتها الغادرة على الدانمرك، هذه الحملة التي عادت على بريطانيا فيما بعد بالأثر السيء، وبانطباع كرهه جميع الأوربيين، واعتبروه تدخلاً شنيعاً لا مبرر له، أكسب بريطانيا سخط العالم الأوربي، واضطر كاسترلينغ لتخفيف وطأة حملة الضغط هذه تقديم تعويضات مالية سخية، مع تنازلات إقليمية واسعة. وقد توافق ذلك مع وساطة قيصر روسيا لإقامة السلام بين العدوين اللدودين فرنسا وإنكلترا.

بالغ القيصر وتشدد حتى وجد نفسه في ٧ تشرين الثاني يعلن الحرب على المملكة المتحدة. وعملت إنكلترا على جعل القيصر يتراجع عن قراره بإعلان الحرب عليها. وكان أسطول سوماريز Saumarez البريطاني يعمل في بحر البلطيق. ولما لم تنفع الوسيلة تحرك جيش موور Moore فنزل في سكانيا ومورانيا لمساعدة ملك السويد، وتأليب السكان على نابليون. لكن ماذا يستطيع فعله جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، أو حتى عشرون ألفاً أمام الحشود الضخمة الروسية الفرنسية المتواجدة على طول خط الجبهة؟

وسقطت مقاطعات سترالسوند Stralsand وروغين Rügen في أيدي الفرنسيين وسقطت فنلندا بكاملها في أيدي الروس. وفهم سوماريز أن بقاءه في الجوار خطر عليه وعلى الشعوب التي جاء لنجدتها، والتواجد على أرضها. وحينما انفجرت ثورة آذار (١٨٠٩) لم يستطع حتى منع السويد من توقيع معاهدة فردريخمان Fredericshman. عندها قرر التخلي نهائياً عن بحر البلطيق، والانسحاب منه. وبذلك عادت جميع سواحل القارة الأوربية إلى نظام الحصار القاري مجدداً. ولم يقتصر هذا الحصار الجديد على دول التبعية الفرنسية، ولا على ممالك أشقاء نابليون، ولا بروسيا التي حجم دورها، وأصبحت دولة من الدرجة الثانية، ولا روسيا التي غدت الحليفة القوية لفرنسا، والتي تنسجم مع أطماعها ونواياها، كما ظهر ذلك جلياً في تصريحات علنية عديدة، بل تضمن ذلك الحصار الكبير كل الأمارات الألمانية، وكل الدول الاسكندنافية. وهكذا ولأول مرة تقف كل أوربة صفاً واحداً ضد المملكة المتحدة البريطانية.

الحرب الأنكلو أمريكية

لم يحتج العالم إلى جهد كبير ليتضافر، فقد انحازت جميع دول العالم، وشكلت فيما بينها اتحاداً عالمياً ضد سيادة البحر والغاصبين له.. الذين بقيودهم الجائرة أصابوا الأمم في تجارتها وعملياتها الاقتصادية، بالإضافة إلى المس بكرامتها واستقلالها.

وإذا كان الحصار القاري قد طبق على أنه التزام وتنازل وانسجام في القارة الأوربية، فهو غير ذلك بالنسبة لأمريكا. والأمريكيون، اعترضوا، واغتاظوا، ثم استنكروا فهم يرفضون إجبار سفنهم على المرور عبر مرفأ بريطاني لتسديد رسوم جائرة، فهذا يعني حرمانهم من الإتجار إلا عبر سادتهم السابقين، الأمر الذي رفضه الأمريكيون سابقاً فهو عقدة حرب الاستقلال أصلاً، وكذلك رفضوا أسلوب فرنسا القاضي بالاستيلاء على السفن المحايدة (الأمريكية)، وبيعها (استولت فرنسا على

١٣٤ سفينة بلغ ثمنها ١٠ ملايين دولاراً عام ١٨٠٩) وهبَّ الشعب الأمريكي يعترض كل الإجراءات التعسفية، وطالب حكومته باللجوء إلى القوة.. وأقر الكونغرس مطالب الشعب واتخذ إجراءات قمعية ووقائية ضد أساليب كل من فرنسا وإنكلترا على السواء. وتضمنت تلك التدابير قطع كل الصلات التجارية بين الولايات المتحدة الأمريكية وشواطىء أوربة آذار (١٨٠٩).

تنبه نابليون للخطأ الكبير الذي ارتكبه بحق الأمريكيين، وهو بحاجة ماسة لمواردهم الغذائية والأولية، فأوقف على الفور العمل بمرسوم ميلانو بالنسبة للأمريكيين، في حين رفضت بريطانيا بعناد وكبرياء التراجع عن تدابيرها (تراجعت عنها متأخرة وبالضبط في ٢٥ حزيران ١٨١٢ إثر قرار من مجلس العموم) وغالت في التعنت حتى طلبت من القادة البحريين استخدام العنف مع السفن الأمريكية في البحار.

تعاظم سخط الأمريكيين، خصوصاً إثر حادث اعتداء طراد بريطاني على فرقاطة فيدرالية. واعتبر الأمريكيون ذلك العمل مساً فاضحاً لشرفهم العسكري، ورفضوا ادعاء بريطانيا في تبرير الحادث، واستنكروه بشمم واعتزاز. وهبَّ الشعب يتظاهر منددا بالبريطانيين وتصرفاتهم، وحصلت عدة حوادث شغب. وأخيراً انتهى الأمر بإعلان أمريكا الحرب على بريطانيا ١٣ حزيران (١٨١٢). ولقد أطلق الأمريكيون على تلك الحرب اسم حرب الاستقلال الأمريكية الثانية.

فاجأت الحرب الأمريكية العالم. فإنكلترا التي استهانت بها وقبلت خوضها دون أن يعتريها أي قلق لمست سريعاً خطأها الفادح، بعد تقدير سليم للموقف. فالولايات المتحدة الأمريكية أدهشت البريطانيين بإقدامها. فمنذ الأيام الأولى سلكت أسلوب الهجوم، وبرهنت على أنها دولة قوية قادرة على لعب دور عسكري من الدرجة الأولى.

هاجمت أمريكا السفن البريطانية التجارية دون هوادة في غياب التشكيلات البحرية الحربية البريطانية، والتي كانت موزعة بجوار الشواطىء الأوربية، وسواحل فرنسا وإسبانيا بالذات. واستغلت الطرادات الأمريكية الحديثة وفرقاطاتها الكبيرة والسريعة ذات المدافع الضخمة فهاجمت قوافل بريطانيا، وأنزلت فيها خسائر فادحة (٢٢ طراد و ٢٥٦ فرقاطة أمريكية أنجزوا (١٥٠٩) عملية استيلاء).. اشتهر من قادة البحر بورتر Porter، وخاصة في المحيط الهادي الجنوبي. وهكذا تعاظم وجود الأسطول اليانكي (الأمريكي)، بعد العديد من الانتصارات، وأصبح من القوة بمكان، حتى إنه هدد ممتلكات بريطانيا في العالم الجديد (١٨١٤)، وكاد يجتاح بلاد كندا البريطانية.

تحركت بريطانيا بعد أن التقطت أنفاسها من الهجمات العديدة التي أصابتها في المحيطات، وأرسلت تشكيلاتها البحرية تحمي سفنها التجارية، ثم أنزلت قوات لها في ماريلاند، واحتلت بالتيمور Baltimore، وأحرقت واشنطن ٢٥ آب (١٨١٤). وهنا هبَّ الأمريكيون يداً واحدة يدافعون عن وطنهم المجتاح. وعندما حاول جيش بريطاني آخر بعد عدة شهور تكرار الإغارة في منطقة نيو أورليانز صدّته الميليشيات الأمريكية الوطنية، ودحرت جيش الغزو البريطاني، بعد أن كبدته خسائر فادحة. وقاد ميلشيات نيو اورليانز الجنرال جاكسون Jackson.

لم تدم الحرب الأمريكية البريطانية طويلاً، ومرت وكأنها مغامرة عابرة، ثم توقفت نهائياً بعد توقيع معاهدة سلام غاند Gand ٣١ كانون الأول (١٨١٤). وكان الحصار القاري الأوربي قد انتهى هو الآخر، وعادت قضايا الحياد، وحرية التجارة إلى طاولة المناقشات والمفاوضات مرة أخرى.

كان بالإمكان استغلال نتائج الحرب البريطانية الأمريكية بصورة أفضل لو حاول أعداء إنكلترا زيادة ضغوطهم على البر الأوربي، وفي الأرض الجديدة (أمريكا).. حتى إيقاع الهزيمة الكاملة بها وإقصائها عن المسرح البحري. لكن لم يحاول أحد استغلال ذلك، حيث اتضح فيما بعد بأن فرنسا جهلت كل ما كان يدور في رؤوس الحكام الأمريكيين، ومدى تصميمهم في حرب مصيرية حاسمة، علماً بأن نشوب الحرب نفسها قد امتص أثره من قبل الكونغرس الأمريكي، فهزلت نتائجه على البر الأوربي، وفي ساحات القتال. والسبب يعود إلى تفكير الأمريكيين أنفسهم. فهم عرفوا بانعزاليتهم عما يدور على الساحة الأوربية، ولا يحبون الانجراف في قضايا العالم القديم ونزاعاته التي لا تنتهي، خصوصاً بعد الفتور الذي اعترى علاقاتهم بفرنسا عام (١٧٩٦)، وتجاوزات نابليون القاسية بصددهم. فادعاء الفرنسيين بحق خلع الجنسية عن السفينة التي تخضع لشروط البريطانيين، واعتبار البضائع التي عليها مادة قابلة للمصادرة الخ.. حزّ في نفوس الأمريكيين واعتبروه مساً صارخاً بحقوقهم.

بالعودة إلى الحصار القاري ونتائجه نجد أن هذا الحصار للجزائر البريطانية طريقة فعالة لو أحكم تطبيقها، إلا أن هذا لم يتم بكامل الزخم الذي أريد له، فإحجام بعض الدول عن تطبيقه أضعف نتائجه. وأولى تلك الدول البرتغال، وهي البلد الساحلي القريب من مسرح العمليات.

عاشت البرتغال سنين طويلة تمارس تجارة الخمور، تصدرها إلى المملكة المتحدة وتكسب منها الكثير. وعندما أعلن الحصار التزمت بشروط فرنسا، لضعف قدرتها العسكرية، ووافقت على

مضض، وأغلقت موانئها في وجه السفن البريطانية، وامتنعت ظاهرياً عن الإتجار معها، ووافقت في النهاية على إعلان الحرب، إلا أنها رفضت اعتقال المواطنين البريطانيين المتواجدين على أرضها، والذين يعملون بموجب اتفاقيات سابقة. وكان منهم العديد من وكلاء الأعمال وتجار الخمور.

لم يرق لفرنسا رفض البرتغاليين، ولم تمهلهم بل أرسلت جيشاً اخترق حدود البلاد ونزل وادي تاج Tage ٢٠ تشرين الأول (١٨٠٧) وسيطر بسرعة على البلاد وأسقط حكم أسرة براغانس.

لم يكتف نابليون بما فعله بل تطلع نحو البرازيل (أكبر مستعمرات البرتغال) وقرر الاستيلاء عليها لتكون بمثابة تعويض عظيم له لما فقده من المستعمرات العديدة، وتطلع أيضاً للسيطرة على أسطول البرتغال، وضمه إلى قواه البحرية العاملة. ونحن نعلم أن تشكيلات البرتغال البحرية ذات شأن ومكانة عالميتين.

ما إن تحركت سفن الإمبرا طور لتحقيق رغبته في الاستيلاء على تشكيلات البرتغاليين حتى تصدى الأميرال سيدني سميث البريطاني فاعترض مرة أخرى خطط نابليون، وتقدم بتشكيله برغم صعوبات عديدة، ودخل هذا القائد الكبير المسرح العملياتي، واستطاع حماية مستعمرات البرتغال وأسطولها. وأدخلها داخل اللعبة البريطانية المعادية لفرنسا. وكان ذلك متوقعاً نظراً للتفوق البحري الكبير وهو العامل المهم في إنقاذ بريطانيا من عثراتها المتعاقبة. واعتبر نجاح سيدني سميث في إحباط التدخل الفرنسي في مستعمرات البرتغال أول نجاح فعلي بريطاني بعد نصرها في معركة الطرف الأغر.

ما إن هدأت عاصفة البرتغال، حتى اشتدت أزمة إسبانيا.. الحليفة المخلصة لفرنسا، والتي قاتلت بجيوشها وأساطيلها إنكلترا خلال حروب طويلة. لكن ضعف الحكم فيها قلل من شأنها دولياً، فرأي نابليون إهمال الحكام والتوجه نحو الشعب الإسباني، يمنحه ثقته ليعينه على إحكام حصاره للبريطانيين.

بدأ نابليون لعبته بالمؤسسات الإسبانية وأدخل عليها صفات عصرية متطورة شابهت الصفات التي أدخلها عَلى مؤسساته إبان السنوات الأولى من حكمه، فنشطت تلك المؤسسات وأصبحت قادرة على لعب دورها الكامل كدولة عريقة لها ماض مجيد. وكان ذلك العمل أشبه بالعودة إلى سياسة لويس الرابع عشر، ودهاء رجله القوي شوازيل Choiseul. لكن ما حصل بالفعل لم يكن لرفعة شأن إسبانيا، بل مصادرة للكيان الإسباني وحلّه في بوتقة المجد البونابرتي، الأمر الذي اعترف به نابليون لاحقاً، فقال وهو يعني ما تم في إسبانيا:

«إن التصرف المشين اللاأخلاقي كان فاضحاً وحرك ضمائر الإسبان ودفعهم إلى العصيان والتمرد» .

ففي غد الأحداث المخجلة التي حدثت في كل من آرانجويز Aranjuez وبايون Bayonne هبَّ كل الشعب الإسباني يحمل السلاح باندفاع لم يتوقعه أحد ويهاجم مراكز فرنسا . ولأول مرة تجد السلطة الطاغية البونابرتية الكبيرة والتي تصدت لكل دول أوربة مجتمعة صعوبة في رد التمرد الإسباني الهائج المتأجج (إسبانيا البلد الذي أنقذ فرنسا عام ١٧٩٢) والمشبع غضباً وسخطاً .

لم تتردد فرنسا في قمع الثورة الإسبانية ، وقابلت العنف بالعنف ، وقاتلت الإسبان بتفوق عددي ساحق ، وسقط القتلى بالألوف ، وانتهت المقاومة الإسبانية الوطنية بحرب إفناء طاغية ، كادت أن تودي بماضي إسبانيا وحاضرها ، لولا مساندة البريطانيين لها في محنتها . وبالفعل قام المجلس الثوري الوطني الإسباني واتصل بحكام المملكة المتحدة يطلب العون منها . وإنكلترا كما نعلم مستعدة لدعم أية قوة أوربية تثور على فرنسا ، وعلى حكم الطاغية بونابرت .

استجابت إنكلترا لطلب الإسبان ، وأرسلت لهم المال والسلاح والذخائر . ولم تكتف بذلك بل أعقبت المساعدات بإرسال أسطولها وجيشها لمساندة الثوار . ولأول مرة منذ قيام الثورة الفرنسية تتعرض فرنسا لضغط سياسي وعسكري هامين وعلى أطراف الإمبراطورية البونابرتية .

لم يتبع الإنكليز أسلوب العمليات الحربية السابقة التي تمت في كل من الفانديه ، وهولندا وإيطاليا ، أي أسلوب التقرب بحراً والنزول على الأرض بقوات رمزية قليلة العدد ، بل بإنزال واسع النطاق ، وبتواجد كامل ، لأنهم جاؤوا في هذه المرة يساندون شعباً ثائراً ، وليخوضوا معه معركة التحرير من عدو مشترك . وهذا دور أتقنه الإنكليز بعد خبرتهم الواسعة التي اكتسبوها في حملات الهند ومصر ، ونجحوا في دورهم على البر الإسباني .

في مطلع حزيران من عام (١٨٠٨) تحرك جيش رومانا Romana الإسباني والذي نقله بونابرت إلى الجزر الدانمركية للدفاع عن حدود الشمال . وانتقل هذا الجيش بمعونة الإنكليز وعلى سفن تشكيل كيات Keats ، فقدم إلى إسبانيا ليعزز القوات الثائرة . وكان قوام جيش رومانا (١٤) ألف مقاتل من خيرة جنود إسبانيا ، وتبعهم جيش بريطاني جاء معززاً قوة رومانا ، ونزل في ٦ آب في فتحة نهر مونديغو Mondego ، ليعزل قوات جونو Junór الفرنسية ، ويحصرها بين نهر التاج والبحر . وبالفعل تم للإسبان والإنكليز ما أرادوا ، وأجبروا الفرنسيين على الاستسلام في ٣١ آب قرب سنترا

Cintra . وكان قد استسلم من قبلهم جيش فرنسي آخر قرب بايلين Baylen ٢٣ تموز أمام قوات إسبانية ضخمة قدمت من قادس ، ومن جبل طارق .

اندهش العالم الأوربي للهزائم المتلاحقة التي أصابت المعسكر الفرنسي (القوة التي لا تقهر) . وزادت دهشته عندما علم أن القوات الإسبانية الثائرة تحركت نحو كاستيلا القديمة حيث الملك جوزيف الذي كان يستعد للفرار بعد تسعة أيام من وصوله إليها . إلا أن نابليون العظيم لا يقبل بالهزيمة . ففي تشرين الثاني وصل بجزء من جيشه الكبير فاجتاز جبال البيرنيه ، واخترق مركز القوات الإسبانية المحتشدة هناك ، فبعثرها شرازم فرت في سهول الكاتالانغ ولم تقو على صد القادمين .

أما الجيش البريطاني المتورط في عمق البلاد فقد هاجمه سولت Soult وهزمه وتعقبه محاولاً قطع الطريق عليه من جهة البحر لتطويقه وأسره . وشعر القائد البريطاني بفداحة الموقف فأوعز لقواته بالانسحاب كيفياً وبسرعة وشتاتاً عبر جبال غاليسيا . وبذلك نجا من عملية التطويق . وفي ١١ كانون الثاني (١٨٠٩) وصلت فلول هذا الجيش المندحر كورونا منهكة القوى فاقدة عتادها ، وراحت تتجمع إلى جانب بعضها البعض تنشد الصعود والهرب بحراً . ولما لم تجد سفناً تنتظرها فكر قادتها في طلب الاستسلام ، لكن الحظ أنجدهم في آخر أيامهم ، إذ بعد ثمانية أيام من القلق والرعب قدم الأسطول البريطاني المقيم في فيغو Vigo بتأثير رياح شمالية قوية ينشد مرفأً آمناً يتقي فيه شر العاصفة ، ففوجىء بجند بلاده المندحرين وقد تجمعوا في أرصفة الميناء فهبَّ على الفور لنجدتهم ، وباشر عمليات إصعادهم استعداداً للعودة بهم إلى أرض الوطن . وكانت خسارة الجيش البريطاني حوالي (١٠) آلاف مقاتل أي تقريباً ثلث القوة التي نزلت على البر الإسباني ، كما فقد قائدين كبيرين .. وانتهت فتنة إسبانيا ، أو هكذا اعتقدها نابليون .

بدء التململ الأوربي

أخطأت دول أوربة للمرة الثانية في توقيت تمردها على أساليب الاحتلال الفرنسي البونابرتي . فالقوات الفرنسية لم تنهك ، ولا زالت في كامل عدتها ، ولم تنفع معارك بافيار ومارشفيلد النمسا ، إذ سرعان ماعادت واستسلمت للمنتصر بونابرت . ولم ينفع معها تدخل البريطانيين في فيلسنغ Flessing ، وباءت كل محاولات التمرد إلى جانبها بالفشل ، وخاصة في مقاطعات ويستغاليا وبروسيا والتيرول .

غرقت أمارات أوربة الوسطى بالدماء من جديد، وحاق بها الدمار والخراب. وراح الفرنسيون يقتصون من الثائرين، فينزلون الضربات القاسية في المتمردين، متبعين أساليب زجرية همجية، خلت من كل صفات الرحمة. وكان تصرفهم هذا ناجحاً عن فقدهم الثقة بحلفاء الأمس. وقد تأكد لهم بما لا يدع مجالاً للشك أنه لا يمكن الاعتماد إلا على أنفسهم، وأن دول أوربة لا ولاء لها إلا بقوة السلاح. فالحصار القاري حول المملكة المتحدة يخرق كل يوم، والبضائع تتسرب إلى دول أوربة بلا حساب. وهنا رأت فرنسا أن خير سبيل لوقف أعمال الخرق هذه هو في إغلاق موانىء الدول الحليفة التي اشتبهت بها تتعامل مع البضائع البريطانية بطريقة غير مشروعة. وبالفعل أغلقت آنغرس وأمستردام وهامبورغ وتريستا وليفورن وسالونيك. وأصبحت فرنسا بعد هذا العمل الجرىء عدوة دول أوربة كلها لا يهمها إلا التوسع بالقضاء على قوميات الأمم الأخرى وجنسياتها. وقد وصف الموقف العام بأن لا أمن لأحد ما بقيت إمبراطورية فرنسا.

وبالفعل قضت فرنسا ومنذ أمد بعيد على كل دويلات إيطاليا الصغيرة، والتهمتها الواحدة تلو الأخرى. ونذكر بالإسم جمهورية البندقية ودوقية بارما Parme ومملكة أترروري Etrurie. وتخطت الجيوش الفرنسية الحدود الرومانية القديمة شباط (١٨٠٨)، واعتقلت البابا ونقلته كالسجناء إلى سافونا. هذا العمل أضاف إلى الأزمات الداخلية والخارجية العديدة أزمة دينية شديدة الحساسية عميقة الأثر. ولم ينجح الملوك الأشقاء من تعسف بونابرت وتصرفات رجاله، وعانوا من تلك التجاوزات. فلويس Louis المخلص الأمين لشعبه لم يستطع الصمود في ظل القيود التجارية القاسية التي فرضت على شعبه، ووجد نفسه مجرداً من جميع فوائد المبادلات التجارية، ومن الأرباح التي كانت تصله من جنوب نهر الراين، فاضطر للتنحي عن الحكم، والفرار وانضمت مملكته من بعده مكرهة للإمبراطورية البونابرتية.. أما هولندا فلم يكن نصيبها أفضل من نصيب الممالك التابعة الأخرى، وقد وصفها نابليون بقوله:

«ما هولندا إلا جزءاً من فرنسا تكونت بفعل طمي أنهار الراين والموز والايسكو، وقد آن الأوان لتعود إلى طبيعتها الأصلية».

بالنسبة للشقيق الآخر جوزيف Joseph فقد وجد نفسه وقد أضاع العديد من مناطق الايبر Ebre، بعد أن سيطر الفرنسيون على الحكم متجاوزين الممثلين الشرعيين في البلاد، وقبضوا بحزم على كل النواحي الإدارية، وجعلوا الحياة في المناطق المذكورة لا تطاق.

نشط التهريب عن طريق موانىء هانوفر وويستغاليا ومدن هانسيا. وتخلى جيروم Jerome عن

كل القوى البحرية في المملكة، فخضعت جميع سواحل بحري الشمال والبلطيق للإمبراطور، وارتبطت بحكمه، حتى إن مقاطعة لوبيك Lübeck غدت مقاطعة فرنسية، ومن ثم جاءت معاهدة فيينا ١٤ تشرين الأول (١٨٠٩) فكرست لفرنسا تنازل النمسا عن كارنيتي Carinthie وايستري Istrie وكارنيول Carniole، لإكمال امتداد أقاليم ايليريين Illyriennes. وغدت جميع مناطق أوربة من جوتلاند Jutland شمالاً حتى ألبانيا جنوباً خاضعة للنفوذ الإمبراطوري البونابرتي. وامتدت رقعة الإمبراطورية مساحات شاسعة مترامية الأطراف ضمت (١٣٠) مقاطعة، احتوت حشداً بشرياً كبيراً ضم العديد من الجنسيات (هولندي نمساوي ألماني وإيطالي)، فُقِد بينهم الارتباط الوطني. ومع تعدد انتصارات الفرنسيون يفقد التبعيون المزيد من حرياتهم المدنية والسياسية، أضف إلى ذلك الحرمان العام الذي ساد البلاد، ورافقه ركود اقتصادي وتصاعد في فرض الضرائب نتيجة نفقات الحروب الباهظة، أو أخطار تلك الحروب من دمار وخراب، في ظل استمرار الاحتلال الأجنبي البغيض.

وصل التململ فرنسا نفسها، فآلام الحروب وويلاتها طغت على كل ما حولها، وقللت من شأن الانتصارات الحربية الباهرة، وأطفأت في نفوس المواطنين جذوة الاعتزاز بالنصر. ونقص عدد الرجال، فاضطرت النساء للعمل في الحقول والمصانع، وارتفعت الضرائب والرسوم وانخفضت المداخيل، حتى بلغت نسباً خطيرة. ولم يبق من عظمة فتوحات فرنسا وكبرياء قادتها إلا جيشها صاحب تلك الانتصارات، وبطل السنوات العشر من سني الحروب التي ملهاالشعب وفقد إيمانه بها.

تسلل الملل لصفوف الجند، فبدأ هذا الجيش يفقد تجانسه التقليدي، وامتلأت صفوفه بالناشئين من صغار السن، وغدا ثلث تعداد جيش فرنسا من منشأ غير فرنسي. ولم يعد بالخلاصة جيش أوسترليتز العظيم.

وبرهنت حرب إسبانيا عن بوادر ضعف في التركيبة العسكرية الفرنسية، فبرغم تواجد (٣٠٠) ألف مقاتل في ساحات عمليات الثوار عجز قادة فرنسا العسكريون، ولأول مرة، عن إخماد تلك المقاومة، وظلوا بين كر وفر حتى تدخل الإمبراطور نفسه عسكرياً، فقاد معركة إسبانيا، وأعاد الهدوء إليها. ومما شد في أزر الثوار آنذاك قوات بريطانية النظامية التي أتت تدعم جموعهم في شمال غرب شبه جزيرة ايبريا، وهي التي أقامت هناك أربعة أعوام بإمرة الجنرال ويلسلي Welesley، وكانت أفضل قوات بريطانيا تدريباً وتنظيماً. وقد استطاع ويلسلي إطالة أمد الحرب، دون أن يعرض ١

عناصره لخسائر كبيرة .. فكانت أشبه بحرب استنزاف وإثارة . ومما دعم موقف القوات البريطانية البرية تواجد أسطول نقل بحري كبير تبعاً لتحركات القوات الأرضية مستعداً لإصعاد كامل القوة البريطانية النازلة خلال ساعات ، فيما لو دعت إلى ذلك ظروف المعركة .

اتبع ويلسلي في حرب إسبانيا الزحف البطيء الآمن . وكثيراً ما كان يتراجع متخلياً عن أرض كسبها لضرورة المعركة ، ولا يعود فيدخلها إلا إذا تأكد من حتمية النجاح فيها . وفي عام (١٨٠٩) عزز نجاح البريطانيين بظهور الإسباني تالافيرا Talavera الذي أقام عهد إشراق جديد في تاريخ إسبانيا ، إذ عندما جاءه ماسينا Massena واجتاح البرتغال ليثأر منه انسحب هذا الأخير ، دون معارك وترك لماسينا الأرض التي كانت بحوزته ، والتحق بخطوط دفاع قوة تورس – فيدراس Torres-Vedras إلى الشمال من ليشبونة ، وأقام خلف (١٦٨) معقلاً حربياً أحاطه البحر من جهات ثلاث . وكان الإمداد الحربي يصله بانتظام ، فاستطاع المقاومة خمسة أشهر متعاقبة يصد فيها هجمات الفرنسيين . لكن القائد الفرنسي مل ذلك الموقف الصعب والمتأرجح ، وقرر خوض معركة حاسمة ، يخرق فيها دفاعات الإسبانيين . وكان له ما أراد وانتصرت العزيمة ، وتقدمت قوات ماسينا فدحرت القوات الإسبانية في كل من آزابيل Azapiles وسالامنك Salamanque ٢٢ تموز (١٨١٢) . وكانت بداية حملة عسكرية طويلة وشاقة حملت فرنسا عبأها على امتداد الجبهة ، وحتى مشارف جبال البيرنيه .

أكدت حرب فرنسا في إسبانيا لجميع الأمم أن جيوشها لم تعد تستطيع تحقيق أهداف الإمبراطور السياسية التوسعية بالسهولة التي كانت تتم من قبل . وليست تلك الجيوش بالقوى التي لا تهزم ، لكن برغم ذلك كله لم يجرؤ زعيم أو قائد أوربي على الانتفاض والتخلص من حكم الإمبراطور لاستمرارية قيام حلف تيلسيت الشهير الذي ظلّ يوحد بين أكبر قوتين حربيتين عالميتين معاصرتين .

عندما فكر قيصر روسيا بتحسين أوضاع بلاده وجد أن عليه التخلي عن بريطانيا (١٨٠٧) ، لأنها دولة ضعيفة براً ، ولم تكن سخية في تعويضه عن الخسائر التي لحقت به ، فتحول نحو بونابرت آملاً المزيد من الخير له ولبلاده ، غاضّاً بذلك الطرف عن العديد من تصرفات نابليون الجائرة في بلدان أوربا ، وآملاً تغلغله في الشرق . وقد اعتمد القيصر على كره نابليون للأتراك ، ووصفه لهم بالفوضويين المفككين الذين لا يعتمدون على قاعدة ثابتة في تعاملهم مع الغرب .

لكن نابليون أحرص من أن يدع حليفه الجديد (القيصر) ينفذ داخل الإمبراطورية العثمانية ،

ففرنسا الدولة الأوربية العظمى لا تفرط بالتوازن الدولي، خصوصاً ولها أطماع في مصر والمتوسط والشرق كله، ومصالحها تتعارض مع طموحات القيصر الروسي.

دبّ شقاق مبدئي بين الحليفين، حاول نابليون رأب صدعه بتأخير انفكاك هذا الحلف، وترك للقيصر حرية العمل في فنلندة (دفعت السويد ثمن تلك الانطلاقة لتعاطفها الطويل مع عدوة حلف تيلسيت إنكلترا).

وعندما نشبت أزمة إسبانيا كان على القيصر الروسي تأمين سلام مستقر في ألمانيا بموجب تحالفه مع الفرنسيين. ولتحقيق ذلك اضطر نابليون لتقديم تنازل جديد لحليفه القيصر تم إبرامه في لقاء ايرفورت Erfurt (تشرين الأول ١٨٠٨). وتضمن موافقة نابليون على إطلاق يد قيصر روسيا في إمارتي مولدافيا Moldavie وفالاشي Valachie. وتلك كانت بالنسبة لنابليون الحدود القصوى التي يمكن أن يبلغها في تنازلاته. ورفض بعدها كل اقتراح تقدم به قيصر روسيا حول اقتسام الإمبراطورية العثمانية برغم طمعه الشديد في بر مصر. فنابليون لا يمكنه تصور القسطنطينية مدينة روسية، والاسكندر الروسي وريث عرش بيزنطة.

وهكذا فمنذ نهاية عام (١٨٠٩) والعلاقات الحميمة بين الدولتين بدأت في التردي. وعندما قامت الحرب ضد النمسا عام (١٨٠٩) شاركت روسيا في الحرب إلى جانب حليفتها فرنسا من حيث الشكل فقط. وتبين للروس أن حلفهم هذا لن يجر عليهم إلّا الويلات المرّة. وقام سادتهم الذين وصلوا المناصب الرفيعة في الحكم عن طريق الأرباح الكبيرة التي جنوها في إتجارهم بالحبوب مع المملكة المتحدة البريطانية والذين تضرروا بفعل الحصار القاري يعلنون إيقاف الحصار، لأنه يدمر اقتصاد بلادهم، ويمنع عنهم تدفق الأموال، في حين يعود هذا الحصار على حليفتهم فرنسا بالخير والازدهار، وبانتعاش صناعاتها المختلفة.

اختمرت فكرة التغيير بالتخلي عن الحرب في ذهن القيصر قبل عام (١٨١٠) فابتدأ يتقرب من إنكلترا ثانية، وكانت السويد قد سبقته إلى ذلك وهي تحت حكم الأمير الملكي شارل جان (برنادوت)، واتخذت موقفاً معادياً لفرنسا. وكان ذلك إيذاناً بعودة حلف مضاد جديد لفرنسا (اتفاقية ٣ مايس ١٨١٢) برر وجوده النزاع المستقبلي مع فرنسا، بحجة حقوقية صحيحة، إذ طلب من اليونانيين وهم الشعب الارثوذكسي السائر في ركاب روسيا تغطية عمليات نقل البضائع والمنتجات القادمة من المستعمرات تحت لواء علم محايد، واعتبر عملاً جريئاً هدم كامل نظام الحصار القاري، واستفز عظمة فرنسا، وخرق قيودها.

حاول نابليون في البدء تفادي القطيعة برغم تعدد الاستفزازات القيصرية وتكرارها . لكن أشدها وقعاً حدثت في ٢٤ نيسان يوم طلب القيصر منع دخول البضائع الفرنسية من خمور وحرائر وصناعات إلى بلاده . وقبل أن يدع لنابليون فرصة التقاط أنفاسه من هول ذلك القيد ، والاستعداد لما هو آت أرسل القيصر في ٢٧ نيسان إنذاراً يحظر فرنسا بأن عليها إخلاء الأراضي الروسية .

اجتاز جيش فرنسا الكبير نيمين Niemen في ٢٤ حزيران إيذاناً ببدء حملة روسيا البونابرتية المعروفة بكل دقائقها ، والتي بدأت بزحف فرنسي سريع وصلت فيه فرنسا العاصمة موسكو (ايلول) دون أن يتاح لهذا الجيش الكبير خوض معركة واحدة حاسمة ، مع جيوش روسيا (لانسحاب هذا الأخير من جبهات القتال) . وانتهت تلك الحملة المشؤومة على بونابرت بكارثة قومية التهمت الجيش الكبير وسمعته ، وبلغت ببريطانيا ذروة البشر للحظة من العمر نشدتها من زمن بعيد .

تراجعت قدرة فرنسا العسكرية أمام مهامها الجسام ، واندفعت دول أوربة كلها بحقدها الكامن في صدورها تنتظم صفاً واحداً معادياً لفرنسا ، وتلتف حول بريطانيا حاملة لواء إسقاط طغيان سادة الإمبراطورية .. مغتصبي حريات شعوب دول أوربة ، وحقوق شعوبها المشروعة . لكن نابليون لم يصل بعد للحضيض ، ولا زال يملك في ربيع عام (١٨١٣) نصف مليون مقاتل على الأراضي الألمانية وحدها ، وسوف لن يدع هؤلاء المقاتلين مكتوفي الأيدي . فإما صلح الند للند وإما قتال حتى النهاية . أما هدنة كهدنة سلام آميان Amiens فمرفوضة لدى جميع الأطراف المتنازعة .

وقد فكر أعضاء الحلف الأوربي الجديد المعادي للإمبراطورية بأسلوب مختلف ، فهم حريصون على الانتهاء كلية من جبروت فرنسا بتحطيم قوتها العسكرية لكي لا تقوى مستقبلاً رفض الشروط أو المطالبة باستعادة الامتيازات . ولا بد للحصول على مثل هذا الظرف من حرب جريئة شاملة . ولقد أقر الحلفاء المبدأ وبدؤوا منذ الشتاء بالاستعداد لتلك الحرب الضروس ، بقيادة إنكلترا الرأس المفكر والممول لتلك الحرب . فإنكلترا انتظرت عشرين عاماً لتصل لهذه الفرصة الذهبية ، فما هو دورها فيها يا ترى؟

برغم دروس التجارب العديدة التي تكررت مراراً ، لا زال البعض ينسى أو يتناسى نقاط الضعف التي ألفوها في الحملات السابقة . ولا زال البعض يفكر بجيش إنزال كأداة اجتياح ، لهجوم رئيسي ومباشر يأتي من البحر إلى البر . فديموريه Dumoriez يود استغلال تفوق بريطانيا البحري ليقذف إلى النورماندي بجيش إنكليزي سويدي ، يحتل رأس الجسر ويندفع نحو باريس لينهي عرش

نابليون. لكن القيادة العليا للاتحاد وبعد تقدير سليم للموقف ارتأت واجباً آخر لقدرة بريطانيا البحرية ولدورها القتالي فيه، عبر عنه قيصر روسيا في مذكرته الشهيرة قائلاً:

«تقوم القوات البحرية البريطانية بعمليات تحويل أنظار ومشاغلة على النحو التالي»:

ــ مشاغلة أمام النمسا والممتلكات الفرنسية في بحر الادرياتيك.
ــ مشاغلة ثانية بالاشتراك مع قوات إنزال في المنطقة الشمالية من سواحل بحر البلطيق.
ــ هجوم كبير في الأراضي الإسبانية.
ــ حصار في كورفو Corfou.
ــ إزعاج على جميع موانىء السواحل الفرنسية.
ــ حملة عسكرية لزيلندة (يجب عدم الخلط بينها وبين سيلاند Sealand) الدانمركية.
ــ حملة على سواحل الدانمرك.

ولما كانت الحرب التي ستنفجر في الساحة الأوربية هي سبيل تحرير الشعوب واستقلال الممالك فإن دور بريطانيا هو في المشاركة بحراً، وتمويل العمليات البرية في جبهات القتال.

وقد يتضح مما تقدم بأن دور القوات البحرية للمملكة المتحدة البريطانية قد تضمن مهمة تأمين استخدام البحار، دون قيود، وتحقيق سلامة جميع جيوش أعضاء الحلف المضاد بمنع كل تواجد بحري فرنسي خارج الموانىء، و تأمين حرية حركة مطلقة في تنقل الجيوش المتحالفة، وإمداداتها بحراً، دون الخوف من مداهمة أو إغارة. وهذا ما سهل بالفعل عملية إنزال الجيش السويدي مع نهاية الربيع في مقاطعة بوميرانيا Pomeraine (إمارة بلطيقية) هذا الجيش الذي زحف بسرعة ليرفد القوات الحليفة العاملة حول برلين. كما قدم عند نشر أساطيله حول سواحل فرنسا، وفي مدى الرؤيا مصدر إزعاج كبير أقلق الإمبراطور، فجعله يحتفظ على البر المتاخم بمئات الآلاف من المدافعين مع أعتدة عسكرية ضخمة، كان وجودها في ساحات القتال أجدى وأنفع. ونظراً لتوقع عمليات إنزال على البر الفرنسي فرض الإمبراطور على قادته اتخاذ تدابير دفاعية وقائية مشددة، عملت على إضعاف الثقة في قلوب المواطنين، وجعلتهم في خوف مستطير من هجمات ساحلية مفاجئة. وبالفعل لم يخل الموقف من بعض الإغارات العابرة امتد أثر بعضها مساحات واسعة أرهبت المدافعين وجعلتهم يخشون التطويق أوالمهاجمة من الخلف. كما حدث في شهري مايس وحزيران من عام (١٨١٣) من خلال العمليات البرمائية التي حدثت على فتحة مصب نهر بياف Piave وفورانو Vorano في أثناء حصار البندقية، أو، عملية الهجوم على لوك Lucques كانون الأول (١٨١٣)

وليفورنو Livorno (١٨١٤) الموقعتان اللتان أجبرتا القائد الفرنسي أويجين Eugène على الانسحاب السريع، ودفعتا بمورا Murat للانضمام لحلف أعداء بلاده.

اتخذت بعض عمليات الإنزال طابعاً أكثر أهمية في ربيع عام (١٨١٣)، إذ قامت الفرقة (٧٣) البريطانية والتي كانت بإمرة والمودين Walmoden فنزلت في فتحة مصب نهر البا Elbe، وشكلت نقطة عسكرية سرعان ماالتف حولها كل الغاضبين في المنطقة من ألمان وهانوفريين، وتحولت تلك النقطة بفضل الثائرين لقاعدة قوة عسكرية كبيرة، استطاعت تجميد نشاطات الجيشين الفرنسي والدانمركي اللذين كانا بإمرة دافوست Davoust يدافعان عن هامبورغ وجوارها. فلما زال أثر الخوف من قلوب السكان، وأن لا ثأر لنابليون بعد اليوم، هبوا في كل من ويستفاليا وبلاد الراين وهولندا، وثاروا على المحتلين الفرنسيين، وطردوا ممثليهم، ودحروا حامياتهم.. وتزامن كل ذلك مع استعادة ويلنكتون Willington زمام الموقف المتدهور في إسبانيا. واستطاع بمساعدة جيشها دحر القوات الفرنسية، ثم التقدم واختراق الحدود قرب طولون (١٨١٤). وهذا ماأجبر قادة السفن الفرنسية المتواجدة في حوض نهر الجيروند على إحراق سفنهم خشية وقوعها في أيدي الزاحفين.

لم تنج بريطانيا من بعض النكسات الحربية منها أزمة اللواء الذي نزل قرب تاراغونا Taragona بمهمة قطع الإمدادات عن جيش سوشيه الفرنسي. وكاد هذا اللواء أن يباد على أيدي الفرنسيين لولا مسارعة الأسطول البريطاني وتدخله بحراً ومساندته بمدافع سفنه. وانتهت معركته وقد نزلت برجاله خسائر فادحة. كذلك جيش غراهام Graham الذي نزل في ربيع عام (١٨١٤) على شواطىء سهول الفلاندر والذي لم يقو على خرق دفاعات آنغرس المنيعة، وانتهى أمره بهزيمة نكراء، بعد معركة بيرغ اوب زوم Berg-Op-Zoom الشهيرة، التي وصف على أثرها قيصر روسيا القوات البريطانية البرية بأنها جيدة في عمليات الإلهاء والمشاغلة، لكنها غريبة عن المعارك الكبرى. حتى عمليات الإلهاء تلك والتي قلل الإسكندر من شأنها قدمت للجيوش الحليفة عوناً كبيراً في استنزاف قوى فرنسا، ومشاغلة العديد من وحدات بونابرت المدافعة، فأضافت عبئاً كبيراً على عاتق القيادة الفرنسية، ولعبت دوراً هاماً في مجريات الحرب عامة، برغم أنها معارك جانبية غير مصيرية. وإن تدخل البريطانيين فيها كان من فئة الدرجة الثانية أو الثالثة، من حيث تصنيف المعارك البرية التي دارت آنذاك. إلا أن بريطانيا حصدت في النهاية النصيب الأكبر من محصول النصر. وقفزت دفعة واحدة إلى المرتبة الأولى، عندما قادت بسياستها الحلف ومولته بكنوز خزانتها المترعة. ولولا هذا التمويل

المجزي لما كان هناك حلف تشكل، ولا جيوش تعد، لأننا نعرف حق المعرفة ظروف أوربة المالية الحرجة، ولدى جميع الأطراف المتنازعة على السواء.

ولإعطاء فكرة عن حراجة المواقف المالية لدى بعض الأطراف المتنازعة نذكر:

ــ خفضت روسيا قيمة عملاتها الورقية بنسبة ٦٣ بالمئة.

ــ خفضت بروسيا قيمة عملاتها الورقية بنسبة ٧٣ بالمئة.

ــ أعلنت النمسا إفلاساً احترازياً بنسبة ٥٠ بالمئة على فوائد ديونها وخفضت عملاتها بنسبة ٧٥ بالمئة الخ.. الخ..

لم يكن بالإمكان فرض ضرائب جديدة على شعوب فقيرة منهكة عانت عشرين عاماً من الاحتلال والاستغلال، فلما تنادت ألمانيا لتبرع وطني لم تجمع من مواطنيها، برغم شدة الحماسة أكثر من مليون واحد من الماركات.

راقبت بريطانيا كل المظاهر الاقتصادية الأوربية المتردية بعين ساهرة، ووعدت في ١٤ حزيران، وخلال معاهدة رايخنباغ Reichenbagh دفع (٣٣) مليون فرنك روسي لروسيا شهرياً، و (١٧) مليوناً لبروسيا، كما قدمت للنمسا بموجب اتفاقية سرية بينهما مبالغ مماثلة تشجيعية لدخول الحرب، هذا إضافة إلى الحصص التي وزعتها على السويد وإسبانيا والأمارات الألمانية. وقد قيل إن جميع الجيوش التي حاربت نابليون غطت بريطانيا نفقاتها. لذا فبرغم انتصارات الروس والألمان الطنانة، وبرغم تعداد جيوشهم الجرارة، تربعت بريطانيا عرش رئاسة التجمع الحليف، دون منازع، بفضل أموالها الطائلة التي أنفقتها في سبيل إسقاط فرنسا، وإبعاد حكمها الديكتاتوري البغيض. واستطاعت استغلال مركزها القوي في الحلف، ومنعت كل نقاش يتعلق بمستقبل الأقاليم والممالك المحررة، وتركت البت فيه إلى ما بعد إعلان النصر.

تصرفت بريطانيا بحكمة بعد انتهاء القتال فأعادت هانوفر وبرونزويك لأصحابها الأصليين، وفرضت تسويات جماعية علنية، ورفضت المفاوضات الثنائية الخاصة. وبذلك قطعت على الطامعين من أعضاء الحلف كل محاولة ابتزاز أو سيطرة أو كسب، فنجحت في تنظيم الأسرة الأوربية بعد نابليون من خلال بنود اتفاقية شومون Chaumont آذار (١٨١٤)، وجعلت دول أوربة في حلف دائم ضد أي تحرك فرنسي جديد، وأجبرتهم على تجنيد (٦٠٠) ألف مقاتل في أول بادرة مضادة فرنسية. وتعهدت الخزينة البريطانية بتمويل هذه القوة بمبلغ (١٢٥) مليون جنيه استرليني سنوياً.

إن هذا البند في اتفاقية شومون قطع على فرنسا أمل إعادة زرع الشقاق ثانية بين صفوف دول الحلف. حتى إن النصر الذي حققته في شمبانيا لم يجد معها نفعاً فأوربة متآلفة قوية تقودها المملكة المتحدة البريطانية الغنية بتعقل ودهاء، بعد أن أمنت شر عدوتها فرنسا، وميعت شأنها بين حليفات الأمس لها.

عقد النصر.. ليس لجيوش روسيا وبروسيا والنمسا الذين دخلوا باريس في ٣١ آذار بل للذين دخلوا بوردو في ١٢ آذار وحرضوا الملكيين والبورجوازيين في تلك المدينة، بعد أن أنقذوهم من ويلات الحصار القاري وطالبوهم بالمناداة بعائلة البوربون كورثاء شرعيين للحكم. وكان ذلك بمثابة طلقة رحمة لفرنسا الثورة، فرنسا الفتوحات، فرنسا نابليون ومعركة واترلو Waterloo ١٨ حزيران (١٨١٥).

على ذكر يوم واترلو، هذا اليوم الخالد في تاريخ أوربة المعاصرة، والذي تصورت الشعوب المتحررة أن ما بعده سيكون الخلاص الكامل من سنين رهيبة في عمر الأمم، لم تكن في الحقيقة إلا حقبة بغيضة من المهانة تشبه ممارسات المستعمرين للمستضعفين كلها ازدراء ومهانة، تعاونت على تنفيذها أمم مستعمرة جشعة، غزت العالم البعيد وامتصت خيراته، وما إن بلغت أشدها من القوة والعزم حتى راحت تتنازع فيما بينها، بدوافع الطمع المادي، فاستباحت أعراف الحقوق المشروعة، وولدت أمم أوربة من جديد، بعد أن سحق ويلنكتون وحلفاؤه جيوش نابليون المغتصبة، فماذا كان شكل العالم يا ترى لو أن نابليون هو الذي سحق جيوش التجمع الأوربي المضاد؟.

إن تنحية فرنسا عن الدور الكبير الذي بلغته بعد الثورة الفرنسية وإبان حكم نابليون مطلب جماهيري أممي، تكاتفت كل دول أوربة على المشاركة فيه، بتخطيط متقن إنكليزي، وبتمويل سخي من مالهم، ودهاء ماكر من رجالهم، فخزينة بريطانيا الممتلئة مالاً، وحكومتها الحازمة القوية سيطرا على الاقتصاد العالمي، واستغلا خيرات المستعمرات الشاسعة، فازدادت مناعة بريطانيا وثراؤها، وانعكست هذه المناعة صلابة على أرضها وجيشها وتجارتها وصناعتها وسياستها وعلاقاتها الدولية. ولم يعد أحد بعد سقوط نابليون على الجزر البريطانية أو في المستعمرات يخشى قوة فرنسا وتهديداتها. والنصر الكبير لم يأت يوم استسلم نابليون، بل بدأ فعلاً يوم انسحقت أساطيل فيلنوف أمام أساطيل نلسون قرب رأس الطرف الأغر. ولهذا السبب يعتز البريطانيون في ذاك النصر البحري المبين، ويحييون ذكراه كل عام لأنه حقيقة كان باكورة انتصاراتهم ومجدهم.

المملكة المتحدة البريطانية سيدة البحار وسيدة التجارة فيه

انتهى صراع السيادة ونزاع التفوق العالمي بين فرنسا القارية وبريطانيا البحرية .. هذا الصراع الطويل الذي بدأ مع أولى سنوات القرن السادس عشر ، وانتهى في مطلع القرن التاسع عشر ، بانتصار بريطانيا الساحق وبمعونة الحلفاء الأوربيين .

انتزعت بريطانيا الداهية ثمرة النصر من خلفائها بمكر مدروس ، ولم تسمح لهم بتدمير فرنسا المهزومة . بل تمسكت بالحفاظ عليها أمة من الدرجة الثانية ، توجهها في خدمة مصالحها المستقبلية ، وفي ظل سيادة المملكة المتحدة البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس .

لم تكن جيوش بريطانيا هي وحدها التي انتصرت ، فجيوش القيصر والجيوش الألمانية هي التي دخلت باريس ، وأجبرت الحكم هناك على قبول شروط أعضاء الحلف . وفي غمرة من نشوة النصر وابتهاج شعبي كبير تاه القيصر الروسي بمظاهر الحماس الخالدة والتي لم يعرفها قائد من قبل .

غضّت بريطانيا الطرف عما يدور من فرح شعبي إلى حين . وما إن استفاقت الشعوب المنتصرة من سكرة النصر .. حتى دخلت بريطانيا اللعبة وجردت المبتهجين من نصرهم ، لتأخذه نصيباً لها . إذ لا شيء يمكن أن يبرم إلا بموافقتها . فهي التي أقامت الحلف ، وهي التي منحته إرادة القتال ، وهي التي بمالها جعلته يقوى على دفع فرنسا من درسدن إلى لايبزيغ ، ومن لايبزيغ إلى فرانكفورت ومن فرانكفورت أخيراً إلى باريس .. ثم اتبعت ذلك فأكملت الخطا بفضل نفوذها المالي ، ومنعت انتماء أوربة المحررة ، ثم تمنع فرنسا نفسها من أن تكون مدينة لأحد . وربطتها بخيط دقيق متين يصعب رؤيته يتمثل بعرش عائلة بوربون ، التي أخذت موقع الحكم السامي لتدخل في ألعاب بريطانيا المقبلة التي تستهدف إعادة تنظيم شؤون العالم ضمن إطار مصلحتها القومية .

تلك كانت صفات سياسة المملكة المتحدة البريطانية الخفية منذ مطلع عام (١٩١٣) . فبينما كان قيصر روسيا يبحث عن أسلوب لإعطاء الفرنسيين حكماً يواليه يمقت عائلة البوربون .. وثبت بريطانيا وأخذت المبادهة من الآخرين ، ونادت بشرعية هذه الأسرة الملكية القديمة خلفاً لحكم نابليون . وبذلك ضمنت حكماً يساير مشيئة الإنكليز في المنطقة ، ويبعد الأفكار الثورية البغيضة على عقول البريطانيين . إذ إن ملوك فرنسا الجدد أكثر الفئات ارتباطاً بالجارة القديمة إنكلترا ، البلد الأوربي الوحيد الذي رفض مهادنة الثورة الفرنسية ، منذ انطلاقتها الأولى ، وكان قد صرح لويس الثامن عشر قولاً يؤيد الواقع قال فيه :

«على ملك إنكلترا وحده من بعد الله أن يدين تاجي وملكي» .

نجحت إنكلترا في تحقيق مصالحها بعد الحرب مباشرة ، في حين انتظرت الدول الأخرى الأعضاء في الحلف اجتماع فيينا لاقتسام ثمرات النصر . وما حصلت عليه بريطانيا مباشرة ليس في عودة آل بوربون إلى عرش فرنسا ، وإقامة مملكة الأقاليم المتحدة فحسب ، بل في حل معضلة بحر الشمال ، وفتحات مصب نهر الراين السبب المباشر لكل حروب أوربة الشمالية ، والتي حدثت عام (١٧٩٢) وما بعده . أضف إلى ذلك دعم مملكة سردينيا الموالية لبريطانيا ، والتي كلفت بمراقبة وحراسة الحدود الجنوبية الشرقية من فرنسا ، وإلى شروط أخرى عديدة أهمها ضم الكثير من الممتلكات الفرنسية ، ودون تأخير إلى التاج البريطاني ، منها على سبيل المثال جزيرة فرنسا Ile De France وجزائر سيشيل Seychelles وسانت لوسي وتوباغو الخ .. ولم تحصل النمسا إلّا على الوعود ، إذ لم تسمح لها بريطانيا بالاتساع في اتجاه إيطاليا .. أما بروسيا فقد عوضت ببضع مقاطعات من حوض نهر الراين .. في حين لم تنل روسيا شيئاً آنذاك .

حضرت بريطانيا اجتماع فيينا تتظاهر بالزهد في اقتسام المكاسب ، وإنما هي هناك مع حلفائها لتساعدهم في السلم على إقامة تسويات عادلة لإعادة رسم حدود الأراضي الشاسعة من أوربة ، والتي حررت من نفوذ فرنسا ، والتي أكثرها أقاليم تائهة كالسفينة بلا ربان ، تنتظر من يقودها إلى بر الأمان .

اتخذ دور بريطانيا موقف القوي الذي جاء بسلام في غير طمعة ليعود بأوربة إلى حياة هادئة رغدة ، تؤمن سلامة الشعوب ومصالح بريطانيا في المنطقة .

لكن فرنسا لم تكن وحدها الدولة الخطرة على بريطانيا . وجاءت الحرب لوقف الزحف البونابرتي اللا محدود على أن تبقى فرنسا في حدودها الدولية معززة موالية لمصالح بريطانيا وجميع أمم أوربة الغربية ، تلك المصالح التي تعارضت مع القوى الفتية القادمة من الشرق ، وهذا ما جعل كاستليريغ Castlereagh يقول :

«إن أخذنا بعين الاعتبار تعاظم بعض القوى وخاصة روسيا فإنني أؤكد وأنا بأشد درجات القناعة أن فرنسا في حدودها الحالية لن تكون إلا عضواً نافعاً في النظام الأوربي» .

ما أشبه الأمس باليوم فعقلية الغربي لم تتغير مع مرور القرون الطويلة . فروسيا برأي الإنكليز خطر جديد عليهم ، وعلى التوازن الدولي في القارة الأوربية ، لأن تطلعاتهم طامعة في آسيا ، وفي رقعة

الإمبراطورية العثمانية الشاسعة وفي المصالح الحيوية التي يقدمها البحر الأبيض المتوسط وممالكه . وهذا يعني تهديد مباشر لطريق الهند نعمة بريطانيا وعظمتها ومجدها . فإذا أضفنا إلى قوتها الكبيرة والنابعة من امتداد أراضيها الشاسعة عبر أوربة الشرقية وعبر القارة الآسيوية ، ومن وفرة عدد جيوشها ، ومن الفوائد التي قد تجنيها في نفوذها المتصاعد عبر أوربة عامة ، تجد بريطانيا بأن روسيا أكثر خطراً عليها من البونابرتية نفسها ، وعلى الدبلوماسية الإنكليزية المحنكة واجب الحد من شهوات روسيا القيصرية التوسعية الجامحة .. بالضغط والترهيب لكبح جماح نياتها .. وهذا تطلب من بريطانيا الظهور بوجهين مختلفين متنافرين ، وجه كله استعمار واستغلال خارج العالم القديم ، ووجه آخر كله طهر وبراءة ضمن دولة أوربية محافظة نصيرة للحرية بامتياز !!

اتخذت المملكة المتحدة البريطانية كامل احتياطاتها ، وحددت موقفها مسبقاً قبل انعقاد اجتماعات براغ . وكانت هي التي دفعت النمسا بقوة لدخول حرب الخلاص ، تنشد من وراء ذلك إضعاف النفوذ الروسي الراجح في أوربة الوسطى . تماماً كما فعلت مع ألمانيا حين شجعتها في كل المجالات لإضعاف نفوذ البروسيين الدائرين في فلك قيصر روسيا .

أتاحت بريطانيا للنمسا بعملها هذا فرصة محو الإهانات الحربية التي أصيبت بها بين أعوام (١٨٠٥) و (١٨٠٩) . وهيأت لها الظرف لتأخذ دوراً طليعياً هاماً في جوقة الدول العظمى . وكانت لها نصيراً تميز في المواقف الحرجة خلال اجتماعات درسدن وفرانكفورت إبان الحملة الكبرى على فرنسا . ولئن كانت سياسة المحنك مترنيخ الواعية والمنهجية قد انصبت غضباً أسوداً على التوصيات المتحمسة لقيصر روسيا ، فإنها امتدت بقسوتها فطالت صلاحيات الدبلوماسيين البريطانيين الذي كان لهم فضل كبير في مستقبل النمسا وفي النتائج التي وصلت إليها . ولعل هذا التطاول حنكة سياسية مدبرة ومدروسة . إذا استمرت بريطانيا مع كل ذلك في ممارسة ضغطها وبالاتجاه نفسه ، محققة للنمسا خلال المساومات السياسية في كل من باريس وفيينا مكاسب تفوق حجم خدمات جيوشها الفعلية . إذ باركت لها بإيطاليا كاملة تحت حكم أمراء انحازوا لعائلة هالسبورغ ، فغدت أرضاً نفوذها نمساوي ، ثم تحولت بريطانيا فضمت الاتحاد الجرماني الذي قام ليناوىء حرية عمل بروسيا في المنطقة . وهكذا حصلت المملكة المتحدة على كل ما خططته ، وربطت تلك الممالك الجديدة بوثاق حميم على الأقل في المجالات السياسية .

قد يتساءل المرء عن مدى جدوى التواجد النمساوي أمام الحشد العسكري الكبير الروسي المشترك . كان لا بد في نظر حكام بريطانيا من الإبقاء على فرنسا دولة كبيرة ، تدعم نفوذها في

المنطقة لتحميها من الانزلاق في تيار الجذب الروسي، وذاك كان سبب وقوف الحكام البريطانيين معارضين كل طلب يعرض بمكانة فرنسا ويمس حريتها .. وبذلك تكون بريطانيا قد أوجدت نواة ثورية ثابتة سهلة التحريض أو بمعنى آخر صمام أمان للسلام تتحكم الجزر البريطانية في توقيته . وقد وصف البروسي غنيزنو Gneisenau وبغضب تصرفات إنكلترا نحو فرنسا فقال :

« إنها لا تريد السوء بفرنسا »

لما كانت الدبلوماسية البريطانية ملتزمة بخط ثابت يعتمد أساساً على قدرة بحرية بريطانيا العظيمة، وعلى خزينتها التي لا تنضب، فقد استطاعت ببراعة وقف اسكندر روسيا عن ممارساته في إذلال المهزومين، ومنعته من المس بمصالح فرنسا القديمة، وأجبرته على احترام كامل حدودها الأصلية، (أي حدود ما قبل الثورة) عدا بضع تعديلات إقليمية طفيفة، ثم منعت البروسيين من أن يثأروا لأنفسهم، والذين نادوا بتقسيم فرنسا لأقاليم مستقلة حتى يضعف جبروتها، وطالبوا بنزع الألزاس منها . وهكذا وبفضل بعد نظر ساسة بريطانيا احتفظت فرنسا بقدرتها ونفوذها بعد واترلو، وبمقدار الدول الكبرى، وفشل قيصر روسيا بتخطي الحدود الدنيا، كما فشل من قبل في طرح القضية العثمانية واقتسام إمبراطوريتها . إلا أن أخطر المواضيع بحثاً والتي عرضت في مؤتمر الدول الأعضاء هي قضيتا بولونيا والساكس .

ابتدأت قضية بولونيا برغبة القيصر الروسي في ضم أراضيها إلى ملكه تعويضاً عن التضحيات العسكرية الجسام التي قدمها لأوربة .. وأقنع أصدقاءه البروسيين لدعم مطلبه، واعداً إياهم بالساكس La Saxe وهي بلاد يحكمها ملك موال لنابليون . لكن النمسا اعترضت على هذا المطلب البروسي، فهي لا تحب أن ترى دولة كبيرة تتاخم حدودها . وساندتها بريطانيا لأنها لا ترغب هي الأخرى في أن ترى روسيا، وعن طريق حليفتها بروسيا تقترب من قلب القارة الأوربية . وتأزمت على أثر ذلك الأوضاع السياسية الدولية، وخاطب القيصر الروسي المؤتمرين قائلاً :

« لدي مائتا ألف مقاتل في ربوع بولونيا وليأت من يشاء ليطردهم منها » .

في ٣ كانون الثاني من عام (١٨١٥) عقدت معاهد ثلاثية ضمت إنكلترا والنمسا وإسبانيا لمجابهة حرب اعتقدوها وشيكةً . وقد اتفقوا فيما بينهم على أن تقدم كل دولة ولأول مرة إنذاراً يعلن تعبئة (١٥٠) ألف مقاتل، أو إعانة مالية مكافئة للدفاع عن مصالحهم المشتركة .. وكانت فرنسا قد غدت في أقل من عام واحد بعد استسلامها في باريس دولة ذات شأن تشارك في المحادثات الدبلوماسية وتعاضد بريطانيا في سياستها الدولية .

لم يكن ضرورياً اللجوء إلى السلاح، إذ سرعان ما تلاشت رياح الحرب واندثرت واعترف قيصر روسيا بسياسة الأمر الواقع، برغم معارضته الشديدة للاتفاق الثلاثي المشار إليه، وبرغم محاولاته العديدة تصديع سياسة التعاون والالتزام البريطاني الفرنسي المشترك، واكتفى بالتوسع الإقليمي الذي سمح له به أعضاء الحلف تقديراً لمشاركته الفعالة في حرب الخلاص.

مع حلول شهر شباط ارتفعت أخطار نشوب حرب جديدة، ولفترة وجيزة، ثم عادت وخمدت. وانتظمت بعدها هذه المحادثات السياسية بشكل جيد، وانتهت في ٩ مايس (١٨١٥) بتوقيع ومصادقة القرار النهائي لمؤتمر فيينا. وكانت النتيجة ولادة وثيقة السلام لأوربة المتآخية الموحدة، لا نفوذ لدولة فيها على أخرى حتى بريطانيا نفسها.. وعادت فرنسا لحدودها الأصلية، وحرصت الدول الأوربية على مراقبتها عن كثب لتمنعها في الوقت الحرج من محاولة إحياء ثورتها التوسعية. أما بروسيا فلم يكن همها إلا في السيطرة على ما آل إليها في الساكسون وويستفاليا ورهينان Rhénans والنمسا بدورها دأبت على الحفاظ على كيانها ضمن المجتمع الأوربي، في حين بقيت كل من ألمانيا وإيطاليا دون وجود سياسي حقيقي.

قَبِل القيصر الروسي بالأمر الواقع واستمر قوة كبيرة نصف أوربية محرج الظروف، وبلاده البعيدة عن الأجواء السياسية وعن أوضاع شعبه الاجتماعية المتخلفة نسبياً، لكنه ظل يبحث عن السبل التي تسمح له بولوج المجتمع الأوربي، فكان أن نادى بقيام التجمع المسيحي، وطالب به ليلتف حول عرش روسيا القيصري المقدس مستغلاً علو نسبه الديني، وقوته العسكرية الكبيرة. لكنها اعتبرت خرافة قد تخلق تعقيدات عديدة رفضها ملوك وحكام أوربة، وبالذات بريطانيا التي وقفت ترقب الموقف بحذر شديد.

ويمكن تلخيص الموقف الدولي العام بعد سقوط نابليون بالتالي:

ــ سيادة بريطانية مطلقة في البحار وفي التعامل التجاري.

ــ فشل في محاولات روسيا القيصرية في فرض شروطها وتحقيق أطماعها ضمن المجتمع الأوربي، عبر أوربة الوسطى والشرق العثماني.

ــ إقامة توازن أوربي دولي، والحفاظ على فرنسا دولة كبيرة ضمن حدود ما قبل الثورة.

ــ اعتراف فرنسا بوضعها الجديد والانغلاق على نفسها ضمن تلك الحدود.

ــ تسوية نهائية لكل المسائل الأمريكية المستعصية، وتحت هذا البند يجدر بنا أن نذكر بعض الصعوبات الاقتصادية التي مر بها المجتمع الأمريكي، فإقامة السلام، وعودة حرية الملاحة في

البحار كانا سببين أساسيين أثرا على العديد من شعوب أمريكا اللاتينية . ولقد كان همّ إسبانيا بعد عودة السلام إلى ربوع أوربة خروج سفنها من المرافىء، واستعادة جيوشها وراء البيرنيه، لتعود إلى ممتلكاتها المهملة عبر المحيط . وبالفعل فمع نهاية عام (١٨١٥) أرسلت إسبانيا جيوشها لاستعادة غرانادا الجديدة ففينزويلا والبيرو الشيلي . ونجحت في كل المستعمرات حتى في المكسيك . ولم يخرج عن هذا الإجماع إلا جمهورية البلاتا التي استطاعت المحافظة على وجودها دون معونة الإسبان . وكان هذا الأمر بمثابة دعوة عامة لكل الأمريكيين للمطالبة باستقلالهم، بعد أن نعموا طويلاً بحرية مطلقة في غياب مستعمريهم خلال الحروب الأوربية . وبدأت نسائم الحرية تهب آتية من البلاتا فدخلت الشيلي، وطردت الإسبان منها، ولحق البيرو ببلاد الشيلي، ثم تساقطت باقي الدول الأمريكية تطالب باسقلال بلدانها .. وهنا لعبت أمريكا الشمالية دوراً فعالاً في تحرير تلك الشعوب . وأبلغ دليل على ذلك تصريح مونرو الشهير Monro في ٢ كانون الأول (١٨٢٣) إلى الكونغرس الأمريكي الذي جعل أمريكا للأمريكيين وحدهم . وبطرد الأوربيين المستعمرين . واعترفت حكومة المملكة المتحدة البريطانية باستقلال الجمهوريات الأمريكية (١٨٢٥)، وتراجعت إسبانيا عن مستعمراتها هناك، وكان مصير أمريكا البرتغالية مشابهاً لمصير أمريكا الإسبانية .

بهذا الموقف الدولي العام في السنين الأولى من القرن التاسع عشر طوى التاريخ البحري حقبة من الصراعات الطويلة ليستقبل حقبة أخرى امتدت حتى إعلان الحرب العالمية الأولى، ستتناول أحداثها في الجزء الثالث من تاريخ الملاحم البحرية .

حواشي الباب الرابع

١٤١ ــ بودان Baudin نقولا (١٧٥٤ ــ ١٨٠٣)

بحار ومستكشف فرنسي وصل سواحل أوستراليا .

١٤٢ ــ ميلفيل Melville هاري دونداس Dundas (١٧٤٢ ــ ١٨١١)

نائب بريطاني استلم وزارة الداخلية ، ثم وزارة الحربية ، وأصبح أميرالاً أولاً للأميرالية البريطانية .

١٤٣ ــ بارباد Barbade

جزيرة في الآنتيل البريطاني بالإنكليزية بارباودس مساحتها (٤٣١) كم٢ .

١٤٤ ــ كوشران Cochrane توماس (١٧٧٥ ــ ١٨٦٠)

أميرال بريطاني ، نائب في مجلس العموم قاهر الأسطول الفرنسي قرب جزيرة ايكس (١٨٠٩) . أسقط من عداد البحرية البريطانية عام (١٨١٤) ، وغادر إلى الشيلي ، وحارب في سبيل استقلالها ، ثم انتقل إلى البرازيل ، وعاد أخيراً إلى بريطانيا .

١٤٥ ــ ستيرلنغ Sterling

مقاطعة ايكوسية في بريطانيا فيها قلعة شهيرة .

١٤٦ ــ غانتوم Ganteaume هونوريه (١٧٥٥ ــ ١٨١٨)

أميرال فرنسي قاد أسطول برست (١٨٠٤) وأسطول المتوسط (١٨٠٩).

١٤٧ ــ غاليسي Galicie

مقاطعة كبيرة من الإمبراطورية النمساوية حالياً قسمين غربية في بولونيا وشرقية في اوكرانيا بروسيا السوفييتية .

١٤٨ ــ غوفيون Gouvion سان سير (١٧٦٤ ــ ١٨٣٠)

ماريشال لفرنسا ووزير لحربيتها أيام لويس الثامن عشر قائد مجموعة الجيوش البونابرتية على روسيا .

١٤٩ ــ غرافينا Gravina فردريك كارلوس (١٧٥٦ ــ ١٨٠٦)

أميرال إسباني شارك في حملة فرنسا إلى سانت دومينغو، وأصبح سفيراً في باريس. قاد السفن الإسبانية في فيرول والطرف الأغر وقضي في المعركة متأثراً بجراحه .

١٥٠ ــ لوريستون Lauriston جاك برنارد (١٧٦٨ ــ ١٨٢٨)،

ماريشال لفرنسا شارك في حملة المارتينيك تقلب في وظائف دبلوماسية عديدة، أهمها سفير في روسيا، وأسر في ليبزغ (١٨١٣). وخدم عائلة البوربون، وأصبح وزيراً للدولة .

١٥١ ــ كونغريف Congrève سير ويليام (١٧٧٢ ــ ١٨٢٨)

نسبة لمخترع الأسهم النارية عام (١٨٠٤)، حسن في صناعة البارود، وهو واضع نظام إنارة المدن بالغاز .

١٥٢ ــ فيلتون Fulton روبرت (١٧٦٥ ــ ١٨١٥)

ميكانيكي أمريكي بنى أول غواصة بمحارة (نوتيلوس) ورُفضت من فرنسا ومن بريطانيا بعد أن جربها تحت مياه نهر السين . وهو الذي صنع أول سفينة بخارية (١٨٠٧) في خليج هدسن (الكليرمونت) Clermont، أمنت الاتصال بين نيويورك وألباني . وفي عام (١٨١٥) كلف ببناء أول سفينة حربية أمريكية أطلق عليها اسم ديمولوغوس Demologos، وهي بمثابة بطارية عائمة .

١٥٣ ــ ديكريه Decrès دنين (١٧٦١ ــ ١٨٢٠)

دوق وأميرال فرنسي قاد أسطول برست وشارك في معركة أبي قير، وأصبح وزيراً للحربية أيام نابليون (١٨٠١ ــ ١٨١٤).

١٥٤ ــ يارموث Yarmouth

ميناء صيد في المملكة المتحدة على بحر الشمال.

١٥٥ ــ مارمون Marmonr اوغست (١٧٧٤ ــ ١٨٥٢)

ماريشال لفرنسا قاد جيوش دالماتيا وأصبح دوق راغوس. حارب في كل من البرتغال وإسبانيا، ودافع عن باريس، وفاوض في عملية الاستسلام. اعتبر فيما بعد خائناً، ثم استعاد اعتباره، وأصبح وزيراً رافق شارل العاشر إلى منفاه.

١٥٦ ــ بودان Baudin جان باتيست (١٧٥١ ــ ١٨١١)

سياسي فرنسي وعضو في البرلمان التشريعي. قتل أمام حاجز ثوري في انقلاب ٢ كانون الأول.

١٥٧ ــ كاستليريغ Castlereagh روبرت ستيوارت (١٧٦٩ ــ ١٨٢٢)

سياسي بريطاني سكرتير أول لإيرلندة انضم إلى بيت، وأصبح سكرتير دولة للحرب والمستعمرات، وعين قائداً لحملة إسبانيا، ولعب دوراً هاماً في إسقاط نابليون، حيث كان يشغل وزارة الخارجية. شارك في مفاوضات باريس، وعارضه كل من قيصر روسيا وميترنيخ النمسا.

١٥٨ ــ فوشيه Fouché جوزيف (١٧٥٩ ــ ١٨٢٠)

سياسي فرنسي وصل لوظيفة وزير البوليس في حكومة المديرين ثم صار قنصلاً وفقد حظوته عام (١٨٠٢) وعاد عام (١٨٠٤)، بعد كشفه لمؤامرة كادودال Cadoudal. عارض نابليون بالنسبة لزواجه بالأسرة النمساوية فاستبدله بـ سافاري وعاد ثانية إلى الوزارة لفترة وجيزة، وأخيراً انسحب وأكمل حياته في النمسا.

١٥٩ ــ برنادوت Bernadotte جان باتيست (١٧٦٣ ــ ١٨٤٤)

ماريشال فرنسا، ملك السويد والنرويج تحت اسم شارل XIV. كان قائداً من قادة جيوش بونابرت، حارب في إيطاليا، وعين سفيراً في النمسا، وقاد جيوش الراين، ثم أصبح وزيراً للحرب، وماريشالاً عام (١٨٠٤). عين وريثاً لعرش السويد (١٨١٠)، وحالف روسيا ضد النمسا، وحصل على تاج السويد والنرويج المتحدة.

١٦٠ ــ بيرسوفال Perceval سبنسر (١٧٦٢ ــ ١٨١٢)

سياسي بريطاني ورئيس وزراء لها، بحكمته تجاوزت بريطانيا أزمتها عام (١٨١١).

١٦١ ــ كريستوف Christophe هنري (١٧٦٧ ــ ١٨٢٠)

ملك هايتي، عبد سابق قاتل لتحرير السود في سان دومينيك، وأصبح رئيساً في بورت دو فرانس، وتوج ملكاً عام (١٨١١) باسم هنري الأول.. سياسته القاسية ولدت ثورة ضده وقتل على أثرها.

١٦٢ ــ ديسالين Dessaline جان جاك (١٧٥٨ ــ ١٨٠٦)

إمبراطور هايتي عبد أسود ترأس عصابة ثورية، وأقام دولة سوداء بعد أن أقام مذبحة في المستعمرين البيض. قتل على أثر ثورة مضادة.

١٦٣ ــ سورينام Surinam.

أرض نيرلندية في جنوب أمريكا تشرف على الأطلسي تقع بين غوانا الفرنسية وغوانا الإنكليزية عاصمتها باراماريبو.

١٦٤ ــ براغانس Bragance

مدينة برتغالية على السابور خرجت منها أسرة براغانس. وقد اعتلت عرش البرتغال من عام (١٦٤٠) وحتى عام (١٩١٠)، ومن عام (١٨٢٢) إلى عام (١٨٨٩) في البرازيل.

١٦٥ ــ دوبريه Duperré لويس ايسيدور (١٧٨٦ ــ ١٨٦٥)

ملاح وهيدروغرافي فرنسي دار حول الأرض عام (١٨٢٠)، وقاد رحلة لا كوكيل، وقدم معلومات هامة عن المحيطات.

المـراجـع

DONIOL Participation de la France à la guerre de l'indépendance de États Unis.

JAMES Naval History of the Great Britain.

J. HOLLAND ROSE: William Pitt and the great war.

STRUDGE'S JACKSON: Logs of the great Sea Fights.

Day History of Commerc.

J. TRAMOND et A. REUSSNER: Élements D'HISTOIRE Maritime et coloniale Contemporaine.

فهرس المجلد الأول

المقدمة ٧

الجزء الأول
منشأ القدرات البحرية وحتى عام ١٦٠٠م

الباب الأول
الحضارات القديمة

□ الفصل الأول
شعوب الشرق ٢٥
□ الفصل الثاني
اليونانيون ٣١
□ الفصل الثالث
الرومان ٣٥
حواشي الباب الأول ٤٣
بعض التواريخ الهامة في الشرق العربي وخلال القرون الوسطى ٤٧

الباب الثاني
العرب والبحر

☐ الفصل الأول
النشاط البحري لدى العرب قبل وبعد الاسلام والمسلمين ٥١
☐ الفصل الثاني
النشاط البحري خلال الحملات الصليبية ٦٥
☐ الفصل الثالث
تطور البحرية الحربية في العصر العباسي الثاني ٧١

الباب الثالث
تاريخ البحر في العصور الوسطى وحتى الاكتشافات الكبرى

☐ الفصل الأول
العصور الوسطى في الغرب ٧٩
☐ الفصل الثاني
نشوء القوى البحرية في أوربة الحديثة ٨٥
☐ الفصل الثالث
أول الحروب بين انكلترا وفرنسا (حرب المائة عام) ٩٩
☐ الفصل الرابع
مرحلة بعد حرب المائة عام (الاكتشافات الكبرى) ١٠٩
حواشي الباب الثالث ١٤١

الباب الرابع
السيطرة على البحار والاقتتال الكبير
إسبان، هولاند، إنكليز، فرنسيون
حتى القرن السابع عشر

☐ الفصل الأول
الصراع البحري الأوربي للقوى العظمى ١٥١
☐ الفصل الثاني
إمبراطوريات الاستعمار ــ وبحريات المحيطات ١٥٥

□ الفصـــل الثـالـث
بحرية القرن السابع عشر ـــ الحرب البحرية الكبرى ـــ القتال بين انكلترا وهولندا . ١٧٩
□ الفصـــل الرابـع
انتعاش بحرية فرنسا زمن هنري الرابع وريشيلو هنري الرابع وشرعية لويس الثالث عشر ٢٠٩
□ الفصـــل الخامس
أوج القوة البحرية الفرنسية منجزات كولبير وسيفنلي البحرية التجارية ٢٢٧
□ الفصـــل السـادس
الحرب البحرية الكبرى إبان عهد لويس الرابع عشر ـــ حرب هولندا ٢٣٥
□ الفصـــل السـابـع
الحرب البحرية الكبرى إبان عهد لويس الرابع عشر ـــ حرب عصبة أوغسبورغ . ٢٥٥
□ الفصـــل الثـامـن
التقهقر البجري في فرنسا خلال القسم الثاني من حكم الملك لويس الرابع عشر ـــ الحرب البحرية الصناعية ٢٨١
□ الفصـــل التـاسـع
انهيـار القدرة البحرية الفرنسية ـــ حرب عرش إسبانيا ٢٩١
حواشي الباب الرابع ٣٠٧

الجـزء الثـانـي

١٦٠٠ ـــ ١٨١٤م

البـاب الأول

الصـراعـات

□ الفصـــل الأول
الصراع بين فرنسا وإنكلترا ٣٢٥
□ الفصـــل الثـانـي
السلام بين عام ١٧١٥ و عام ١٧٤٠ .... ٣٣٣
□ الفصـــل الثـالـث
حرب السنوات السبع ٣٤٩

حواشي الباب الأول ٣٦٧

الباب الثاني

الاكتشافات البحرية العلمية

□ الفصل الأول

استكشاف المحيط الهادي ٣٧٧

□ الفصل الثاني

التطور البحري خلال القرن الثامن عشر ـ ذروة مجد البحرية الشراعية ٣٩٥

حواشي الباب الثاني ٤٠٣

الباب الثالث

تجدد الصراعات الاستعمارية

□ الفصل الأول

الحرب الامريكية وأسبابها الأولية ٤١١

□ الفصل الثاني

التوازن البحري الاقتصادي في نهاية القرن الثامن عشر قبل الثورة الفرنسية ٤٤٣

□ الفصل الثالث

الصراع بين فرنسا وإنكلترا لسيادة البحار والسيطرة العالمية الثورة الفرنسية والامبراطورية البونابرتية ٤٥١

حواشي الباب الثالث ٥١٥

الباب الرابع

الصراع الفرنسي البريطاني في عهد الامبراطورية البونابرتية

□ الفصل الأول

نابليون وإنكلترا ـ والصراع على إمبراطورية البحر ـ الطرف الأغر ٥٢٩

□ الفصل الثاني

الصراع بين بونابرت وبريطانيا أو بين البر والبحر ٥٧٩

حواشي الباب الرابع ٦٣٩

بعـون الله تعـالـى

انتهى المجلـد الأول

الذي ضـم الجزءيـن الأول والثـانـي

ويـلـيـــه

المجـلد الثـانـي

ويحوي الجزءين الثالـث والـرابـع ـ الأخيـر ـ

تاريخ البحر وملاحمه/أحمد مفيد صالح باشا. ــ دمشق: طلاس، ١٩٩٠. ــ المجلد الأول (٦٥٢ ص): موضح؛ ٢٠ سم.

المجلد الأول يضم الجزأين الأول والثاني.

١ــ ٩٠٩ ص ا ل ت ٢ــ ٣٥٩ ص ا ل ت
٣ــ العنـوان ٤ــ صالح باشا

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ٥٠٠/٦/١٩٩٠

رقم الإصدار ــ ٤٨٩

المقدم البحري المتقاعد
أحمد مفيد صالح باشا

تاريخ البحر وملاحمه

في مجلدين

المجلد الثاني

دمشق ـــ أوتوستراد المزة

هاتف

٢٤٤١٢٦ ـــ ٢٤٣٩٥١ ـــ ٢١٣٨٢١

تلكس: ٤١٢٠٥٠

ص.ب: ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

ريع الدار مخصص

لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

تاريخ
البحر وملاحمه

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الأولى
١٩٩٠

المقدّم البحري المتقاعِد
أحمد مفيد صالح باشا

تاريخ البحر وملاحمه

الحموي

في مجلّدين

المجلّد الثاني

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

الجـزء الثالـث

١٨١٥-١٩١٤م

الباب الأول

الحروب البحرية في العالم
وحتى عام ١٨٧٠

الفصـــل الأول

القـدرات البحريـة فـي العالـم

البعث البحري الأوربي بعد عام (١٨١٥)

لم تعد فرنسا بعد عام (١٨١٥) قوة بحرية ذات شأن ، وارتضت واقعها مكرهة . ففي خلال العشرين عاماً التي انصرمت توقف علم بلادها عن الخفقان خارج مياهها الإقليمية ، واختفت مراكبها من البحار البعيدة ، وتضاءل حجم أسطولها البحري ، برغم جهود الإمبراطور نابليون المكثفة . وجاءت الضربة القاضية عند إعلان معاهدات السلام ، وانتزاع (٥٠) بارجة من أفضل بوارج أسطولها ، حيث لم يترك لها إلا السفن التي بنيت على عجل من خشب حديث ، لم يصلب عوده ، ضعيف المقاومة ، سريع التآكل (تؤكد الإحصاءات الرسمية عن امتلاك فرنسا لـ ٧٠ بارجة عام ١٨١٥ هبط عددها إلى ٣١ عام ١٨١٩) .

وقد لحق الأذى بالعاملين في القوات المسلحة ، فأصيبوا بخيبة من الألم مرة ، وهبطت معنوياتهم ، وفقدوا روح النظام الذي تحلّوا به أيام الحكم الإمبراطوري . وقصد الملكيون الإمعان في اضطهاد رجال الأسطول بالذات . وفي جرة قلم واحدة خفضت رواتب (٤٠٠) ضابط بحري إلى النصف ، كما سرح العديد منهم ، والسبب في ذلك إخلاصهم وتفانيهم في أداء الواجب ، أيام الحكم الإمبراطوري . وليملأ الملكيون الفراغ الذي سببوه استدعوا إلى الخدمة كل الضباط ذوي الرتب العالية الذين غادروا مراكزهم وهجروا ديارهم مع قيام الثورة ، وأكثرهم ترك الخدمة الفعلية ما يزيد عن (٢٥) عاماً ، وعمل في صفوف الأعداء . وكانت حصيلة هذا الإجراء الذي لم يصمد طويلاً هدماً

لسلاح البحرية، ولقدرته القتالية. وسرعان ما شعر الحكم بفداحة ما ارتكبه من خطأ جسيم، فعمل على التخلص من الشراذم التي استقدمها، بعد أن أمعن هؤلاء الدخلاء بدوافع الريبة والغيرة والحسد بتفتيت القوات البحرية المسلحة، وتهديم ما تبقى لها من تراث، بالقضاء على كرامة الرجال وإبائهم. فاختفت كل المؤسسات البحرية الهامة التي كان قد أقامها الحكم الثوري والإمبراطوري. وعادت الخلافات الحادة للظهور على أشد ما تكون عنفاً، خصوصاً بين القادة والمعتمدين. ثم أغلقت المدارس البحرية التي ترفد الأساطيل بالرجال، وألغي العمل بنظام المحافظين البحريين. ولكي يغطي الملكيون العجز الحاصل في رجال البحر أنشؤوا في آنغوليم Angoulême الكلية الملكية البحرية، وألحقوا بها الشبان الذين يختارهم الملك بنفسه، ومن بينهم أبناء الحكام، وأبناء الضباط الذين ادعوا إخلاصهم للملكية، فنقلوا ولاءهم لأبنائهم. وهكذا غدت البحرية الفرنسية مزرعة مقدسة، لا يدخلها إلا الملكي، وأبناء الحاشية، شبان القصور والصالونات. وقد ازدانوا بالحلل الجميلة، وانتثرت على مناكبهم الرتب الرفيعة، ومنحوا الألقاب السامية، وأضحى ولي العهد أميرالهم الأكبر.

واستمر التدهور بعنف. وشمل التخلف والتسيب كل الأمور وتراجعت أحوال العاملين في البحر، بعد أن خفضت نفقاتهم بتخفيض ميزانية الأسطول إلى الربع. ومع تناقص الأموال توقفت التدريبات، فلم تعد هناك سفن تبحر، بل هياكل سفن قابعة في الموانىء عاجزة عن أداء أية خدمة بحرية مهما كانت بسيطة، وتهدمت المنشآت البحرية، ونقصت المواد الأساسية، واختفى العتاد. وبالخلاصة انهارت البحرية الملكية.

وقد استمرت تلك الأوضاع المتردية حتى عام (١٨١٩). وشعرت الحكومة بفداحة ما أقدمت عليه، وما آل إليه سلاح البحر، وما خلفه الحقد الأعمى من تخلف فادح في مجال النقل البحري، بين فرنسا والعالم الآخر. فتحرك ديكاز[(١)] Decazes ليسند حقيبة الشؤون البحرية إلى البارون بورتال[(٢)] Portal الذي استطاع، وهو مالك قديم لسفن نقل، إقناع الحكومة في أثناء مناقشة الميزانية العامة لعام (١٨٢١) تخصيص مبلغ محترم لرفع القدرة البحرية الحربية لحماية سواحل البلاد، والمحافظة على الاستقلال، والدفاع عن الممتلكات. والأهم من ذلك كله الدفاع عن الملكية. هذه القدرة التي تمثل في أيام السلم مظهراً من مظاهر الثقة والاحترام في الموانىء الغريبة.

خصص مبلغ (٦٥) مليوناً من الفرنكات ميزانية للسلاح، وقدّره المالي الكبير بورسان Boursaint، واعتبره كافياً لتسليح (٤٠) بارجة، و(٥٠) فرقاطة.

ترك بورتال الوزارة في ١٥ كانون الأول (١٨٢١) بعد أن كسب الجولة الأولى ، وخلفه الجنرال دوكليرمون تونير Declermont Tounere الذي قال مبتهجاً عندما أبلغ خبر التصديق على ميزانية البحر : حقاً لقد تقرر مصير وجود سلاح البحر .

خطت البحرية الفرنسية خطوات جدية خلال الأعوام التي تلت . وتعاقب على وزارتها رجال إداريون أكفاء ، نهضوا بشؤونها بمساعدة الأخصائيين ، واستطاعوا إعادة الثقة إلى نفوس العاملين في البحر ، وأقاموا نظام المحافظين البحريين الذي عمل به في السابق . ثم أعلنوا عن مسابقات لدخول سلاح البحر ، وتخلصوا من عقدة الحسد والاحتكار . وتقدم المتطوعون ، وانتسبوا إلى مدارس البحرية وبالذات إلى كلية بوردا Borda في مرسى خليج برست التي شرعت في إعداد الضباط الأكفاء ليرفدوا كل أقسام السلاح الناشيء ، ليخدموه بأمانة وإخلاص . لكن ضعف الإمكانات المادية (المعروف عن سلاح البحر أنه سلاح باهظ التكاليف) حد من هذا التطور ، وجعله وئيد الخطا . ويمكن اعتبار المرحلة التي وصل إليها السلاح مرحلة النقل والتجوال أو بحرية لأيام السلم ، ويحتاج إلى جهد كبير ليعود قوة حربية فاعلة كأيامه الغابرة .

وعلى أثر ثورة إسبانيا عام (١٨٢١) صوت كونغرس فيرون Vèrone على التدخل لإعطاء جيش فرنسا الناشيء فرصة للمجد في قتاله لليبراليين ، ولإعادة نفوذ فرنسا في المنطقة بعد التغلغل البريطاني الكبير فيها . وبالطبع كان على البحرية الحربية الفرنسية عبء حربي وجب عليها تأديته خلال فترة العمليات .

أعدت القيادة (٦٧) سفينة للمشاركة بحراً منها (٣) بوارج و (١٢) فرقاطة والباقي سفنٌ مختلفة . إلا أن خط هذا التشكيل جاء مخيباً للآمال . ففي حين دخلت القوات البرية الفرنسية إسبانيا نيسان (١٨٢٣) دون مقاومة تذكر ، تعرضت القوات البحرية لمعاناة شديدة بعض أسبابها نقص في التنظيم ، وقلة في العتاد وتخلف في أهلية القتال ، وحتى نهاية شهر آب لم تستطع تلك القوة تأمين حصار ميناء قادس . وتخلى الأميرال هاملين Hamelin عن قيادته لخلفه دوبريه Duperré ، الذي سارع مع زميله الأميرال آنغودورتور Angot Des Retours فقصف قلعة سانت بتري ، فأمن بذلك للقوات المحمولة فرصة النزول على جزيرة ليون Leon (٢ أيلول) . وكان هذا القصف كافياً لاستسلام الحامية . وانتهت المعركة في الأول من تشرين الأول (١٨٢٣) باحتلال الجزيرة .

تحسنت أوضاع البحرية الفرنسية إثر الحرب الإسبانية ، وإثر حرب الاستقلال الهيلينية حيث قامت بدور أكثر فعالية ، رد لها بعض اعتباراتها الماضية والحاضرة . وقاتل الثوار اليونانيون الأتراك

المحتلين لأراضهم (١٨٢١)، واستطاع بحارتهم أمثال كاناريس Canaris وميوليس Miaulis إحياء عصر استخدام الحراقات، واستخدموها في عرقلة تحركات الأساطيل التركية، ومنعوهم من حشد قواتهم البرية السلطانية. إلا أن قدوم باشا مصر (١٨٢٤) بأسطوله الحديث والحسن التدريب أفقد التوازن القتالي، ورجح كفة الأتراك على اليونانيين. وانحاز الرأي العام الأوربي كعادته وبدوافع دينية إلى جانب اليونانيين، وهب يطالب بتحرير أراضهم من الاحتلال العثماني. وحتى لا تتدخل روسيا المتحفزة لوحدها في المعركة تفاهمت انكلترة وفرنسا على تصرف مشترك، وقررتا بالاشتراك مع روسيا فميا بعد التدخل بدءاً بوساطة دبلوماسية رافقتها عملية عرض بحري للعضلات. لكن سرعان ما تحول هذا العرض إلى قتال فعلي، فكانت معركة نافاران Navarin الشهيرة ٢٠ تشرين الأول عام (١٨٢٧).

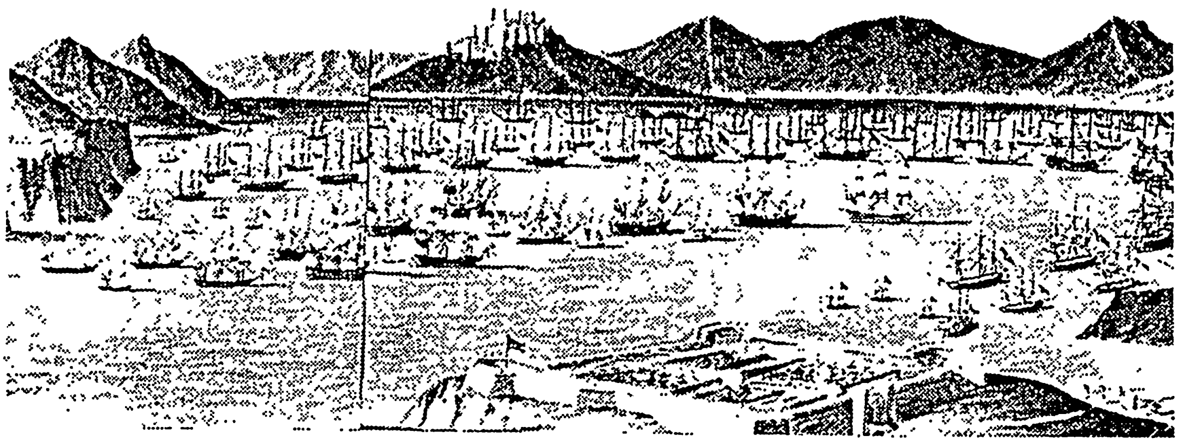

~~La flotte alliée entrant dans la baie~~

معركة نافاران

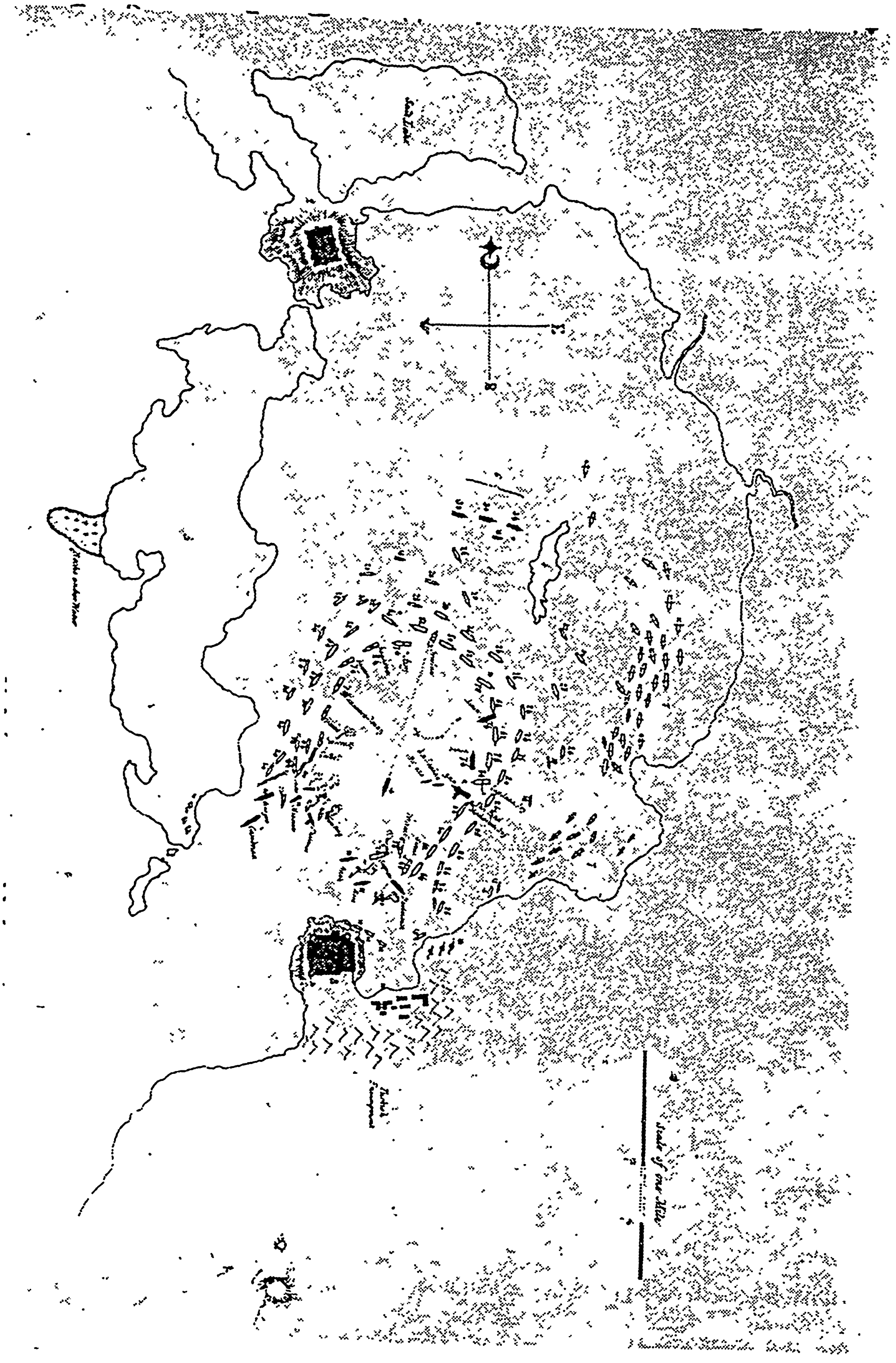

عبر أمراء البحر الثلاثة كودرينكتون[٣] Codrington ، ودو ريغني De Rigny ودو هايدن De Heuden معبر خليج نافاران حيث يرسو إبراهيم باشا وأمراء بحره طاهر باشا ومحرم بيك ، بقصد منع المصريين من التحرك لمساندة حملة هيدرا[٤] Hydra ، وليحكموا مراقبة السفن المصرية عن قرب . وتقدموا بسفنهم ورسوا إلى جانب السفن المصرية .

في أثناء الرسو الجماعي للحشدين المتنازعين انطلقت قذيفة مجهولة المصدر فأصابت زورقاً بريطانياً سرعان ما فجر هذا الحادث قصفاً مدفعياً غزيراً تناول جميع سفن الأسطولين ، وكان إيذاناً ببدء معركة نافاران .

كانت قوة الأتراك والمصريين (٣) بوارج و (١٦) فرقاطة و (١٢٠) سفينة تركية مصرية تونسية ضمت (٢٢٠٠) مدفعاً وعليها (٢٠) ألف مقاتل ، وكان لدى الأوربيين (١٠) بوارج ثلاث إنكليزية وثلاث فرنسية وأربع روسية ، (١٠) فرقاطات وعدة غرابات Corrette . وكان التفوق الحربي الأوربي أكبر بكثير من قوة الأتراك والمصريين عددياً وإعداداً .. ففي خلال (٤) ساعات من القتال العنيف غرقت أو جنحت كل السفن التركية بعد إندلاع النار فيها ، وقتل (٦٠٠٠) رجل في حين فقد الأوربيون (١٧٧) رجلاً .. واتصف القتال بالعنف الشديد ، ومن مسافات قريبة . وكانت مدافع الأوربيين أكبر عياراً ، وأكثر عدداً . وانتهت المعارك على العديد من السفن بالسلاح الأبيض .

على أثر معركة نافاران سقط كل احتمال في قبول وساطة أوربية ، واستغل الفرنسيون المعركة البحرية وأنزلوا جيشاً برياً احتل مورية Moreé ، في حين تخطى الجيش الروسي نهر الدانوب . وعلى أثر ذلك وافق السلطان العثماني على منح اليونان استقلالها ، وكان ذلك في شهر ايلول من عام (١٨٢٩) .

استمر الاضطراب في شرقي البحر الأبيض المتوسط طويلاً . إذ ظلت التشكيلات البحرية الأوربية تجوب الأصقاع لسنوات عديدة وقد خلا لها البحر . وراحت تشتبك في أرجاء الأرخبيل اليوناني والبحر الايوني وتلاحق المغامرين اليونانيين والأتراك الذين صمموا على مهاجمة السفن الأجنبية بدوافع وطنية ، أو بدافع القرصنة والكسب . ولم تنعم المنطقة بهدوء حقيقي إلا بعد عام (١٨٣٥) . وقد عرفت فرنسا خلال تلك الحقبة من الزمن عهداً في التطور والبناء الوئيد نسبياً في مجال أسطولها التجاري ، واقتصر نقلها البحري في المجالات الساحلية القريبة عامة ، وعلى بضع رحلات بعيدة ضرورية في مجال إعادة التماس مع المستعمرات .

ضم الأسطول التجاري الفرنسي عام (١٨٢٨) (٢٢٩٧) سفينة تزيد حمولة الواحدة منها عن (٦٠٠) برميل، مجموعها (٣٨٨ر٢٤٥) برميلاً في حين كان أسطول بريطانيا التجاري يضم آنذاك (٢٥) ألف سفينة، والأسطول الأمريكي (١٤) ألف سفينة.

فقدت فرنسا، كما ورد ذكره آنفاً، العديد من مستعمراتها (بعد ١٨١٥). نذكر منها سانت دومينيك، وتاباغو، وسانت لوسي، وجزر موريس. وبقي لها بحدود الـ (٥) آلاف كيلومتر في الغوادلوب والمارتينيك والبوربون. وفي أثناء ذلك طلبت بريطانيا وقف عمليات الإتجار بالرقيق الأسود، وقبلت كل حكومات الدول الأوربية هذا المطلب بما فيها فرنسا.. وأعلن كونغرس فيينا أسس حقوق الإنسان. وهنا وقع المزارعون الأوربيون بنقص فادح في اليد العاملة القادرة على العمل في الأجواء الاستوائية الشاقة، ترافق مع ضخامة في إنتاج المزروعات من قطن ونيلة وقهوة... الخ، في كل من الهند وأمريكا الجنوبية. وتضاءل شأن جزر بحر الآنتيل أمام التدفق الكبير للخيرات القادمة من أمريكا الجنوبية، وجزائر الهند الشرقية. ولم يبق إلا السكر كإنتاج هام في جزائر البحر الكاريبي. ولهذا قررت فرنسا التوجه نحو إفريقية لتعويض خسائرها التجارية في ممتلكاتها الأخرى المحدودة.

تنازعت بريطانيا وفرنسا جزيرة مدغشقرالغنية، والتجأت الأولى إلى أساليبها السياسية الملتوية، واعترفت براداما[٥] Radama ملكاً مستقلاً على مدغشقر، وجعلته حليفاً لها (١٨١٧). فلما شرعت فرنسا في إقامة مؤسسات تجارية لها في سانت ماري تصدى لها الملك الجديد، ونشب قتال بين المستعمرين وأهل الجزيرة. واستطاع القائد غوربير Gourbeyre احتلال بعض المواقع الصغيرة فقط (حرب على بعد ٢٠٠٠ ميل عن الأرض الأم في مطلع القرن التاسع عشر مهمة شاقة شديدة النفقات لا يرضى عنها برلمان الأمة، ولا يقرها شعبها. خصوصاً في غياب قوة بحرية مناسبة). إلا أن الإنكليز طردوا الفرنسيين في الجزيرة بالكامل.

فتش الفرنسيون عن مجالات أخرى لاستغلالات فردية، وأقاموا بعض المشروعات التجارية في عدة بلدان من الشرق الأقصى، ظاهرها تجاري، وباطنها عميق الجذور في أسلوب مبتكر من الاستعمار المنمق. إلا أنهم صدموا دوماً بدبلوماسية بريطانيا المحنكة التي لم تدع لهم مجالات التغلغل. فكانوا ينكفئون على أعقابهم أو يجمدون أوضاعهم لظروف سياسية أفضل (يرجع ذلك لضعف وجود أسطول بحري قادر على المساندة أمام قدرة بريطانيا البحرية العظيمة).

تكررت المحاولات في أمريكا الجنوبية أيضاً دون جدوى. واقتنعت فرنسا في النهاية أن لا مجال

لها في استعادة مجدها الاستعماري السابق ، وكل مخططاتها كان مصيرها الإخفاق التام . ووجدت أن عليها التخلي عن الأساليب البالية ، وإيجاد بديل مقبول في إقامة مستعمرات جديدة بقراعد وأسس مختلفة . ولقد حالفها الحظ حين حدثت أمور غير متوقعة ، أعطتها المبرر الذي فتشت عنه طويلاً ، والذي بدل وجه الاستعمال الأوربي السابق .

استعمار الجزائر

سيطرت قبائل البربر على القسم الغربي من المتوسط ردحاً طويلاً من الزمن . وقد وصفهم الأوربيون تجنياً بأنهم مفارقة تاريخية لا يمكن قبولها في صدر القرن التاسع عشر . ومضوا يبتكرون الاتهامات لهم ، فاعتبروهم مملكة للقراصنة يجب القضاء عليها . وتلك كانت حجة أولى في بدء عصر جديد من الاستعمار الغربي البغيض . فبرغم التهديد والوعيد وقصف اللورد ايكزموت Exmouth عام (١٨١٦) لمدينة الجزائر لم يتوقف رجال بحر بلدان شما ل إفريقية وهم خليط من العرب والبربر الإفريقيين الذين يقطنون المدن الساحلية عن ممارسة نشاطاتهم في البحر ، وسيلتهم الوحيدة التي اتقنوها في سبيل تأمين أودهم ، بعد أن ابتلع المستعمر الغربي الممتلكات الغنية ، وسيطر على كل سبل العيش من انتاج ونقل واتجار .

في ٣٠ نيسان (١٨٢٧) احتج القنصل ذوفال Deval بعد قبوله أمام الداي حسين على أسر سفينتين رومانيتين في خدمة البحرية الفرنسية ووصايتها . وكانت العلاقات بين الجزائر وفرنسا متوترة أصلاً لأمور تتعلق بتجارة القمح ، ومن أيام الثورة الفرنسية .

استقبل داي الجزائر ممثل فرنسا المفاوض ببرود شديد ، ثم طرده من حضرته بعد أن ضربه بطاردة الذباب (منشة) ، لتصرف القنصل المتعجرف . وعلى أثر هذا الحادث قطعت فرنسا علاقاتها الدبلوماسية مع الجزائر .

نشطت أعمال القرصنة ضد السفن الفرنسية بشكل ملحوظ ، ولم تكن فرنسا بالقوة الكافية بحراً ، فطراداتها لم تجهز بعد لتمنع سفن القراصنة الأشاوس ، والذين تقصدوا إذلال قدرة فرنسا البحرية في المتوسط والجوار .

في ٣ آب (١٨٢٩) قصفت القلاع الجزائرية البارجة بروفانس حاملة علم الممثلين البرلمانيين . وافتعلت فرنسا الحادث وتعمدت تحريض الجزائريين لتبرر غزوها للبلاد . وقد أوجدت

الحجة المناسبة لذلك وهذا شأنها وشأن كل المستعمرين، تماماً، كما حدث إبان حكم لويس الرابع عشر.

استغلت فرنسا الموقف لتقوم بمغامرة وأنزلت قواتها على البر الإفريقي بعملية واسعة النطاق رفضتها في البدء وزارة فيليل[٦] Villéle ثم وزارة مارتيبناك[٧] Martipnac، خشية عواقبها العديدة. حيث ان بريطانيا لا زالت تعارض انتشار نفوذ فرنسا في غربي المتوسط، ولم تخف امتعاضها لنيات فرنسا الجديدة.

ارتبكت فرنسا في البدء للاذلال الذي تعرض له قنصلها، وفكرت باللجوء إلى الأمير محمد علي باشا، تطلب منه مهمة تهذيب الداي. ومحمد علي لا يطلب إلا ذلك، لكن بلداً كفرنسا لا يحق لها رد اعتبارها بالوساطة، خصوصاً وروسيا القوية لازالت صديقة حميمة لها بعد عودة المتطرفين الرجعيين إلى سدة الحكم في البلاد، الذين كانوا وراء تحريض حكام فرنسا على الإقدام بوجود الوزير بولينياك[٨] Polignac الذي كان بحاجة ملحة إلى مجد حربي، ليقنع به الجماهير الفرنسية مبرراً الانقلاب الذي كان قد دبره.. إذن لا بد من عمل حربي وغزو الجزائر العربية هو ذاك العمل.

تضمنت خطة حملة الجزائر نقل (٣٧) ألف رجل بكامل عتادهم، وإنزالهم على البر الجزائري. إلا أن القيادة البحرية اعترضت معتذرة على أن الحملة أكبر من إمكاناتها. كان ذلك في شهر آذار، ولا شيء أعد بجدية. والمعلوم أن رياحاً شرقية شمالية أو غربية شمالية تعصف بشدة اعتباراً من مطلع شهر تموز، فتصيب السواحل الافريقية، وتجعل التقرب منها خطيراً، ولا يمكن للسفن أن تقترب أو ترسو لانعدام الخلجان الأمينة. والمجازفة بقوات بمثل هذا الحجم في عرض البحر وبأنواء قوية، والسفن تغص بالمقاتلين والخيول والمدافع مغامرة محفوفة بالأخطار.

تحفظ الأميرال روسان Roussin، وقال إن لاأمير بحر يتحمل مسؤولية تلك الحملة. لكن الوزير هوسيه D'Hossey ليس بالرجل الذي ينثني عن قرار. وأكد من خلال محادثات خاصة الصلاحيات الواسعة التي سيخص بها قادة التشكيلات التي ستشارك في الحملة، والتي جعلت بشكل تخرس كل الاعتراضات.

قبل الأميرال دوبريه تسلم المهمة، وأشرف بنفسه على إنجاز الإعدادات الأخيرة للحملة. وفي ٢٣ مايس أقلعت العمارة البحرية من طولون، والتي ضمت (٦٥٧) سفينة منها (١٠٣) سفن حربية مواكبة لمرافقة ثلاث فرق عسكرية بإمرة الجنرال بورمون[٩] Bourmont.

جرت الأمور كما توقعها أمراء البحر ، إذ وصلت الحملة في ٣١ مايس الساحل الإفريقي وقد لفتها عاصفة هوجاء اضطرتها للتخلي والعودة لجزر الباليار ، حيث توقفت العمارة هناك عدة أيام تتفادى العاصفة ، لتلحق بها السفن التي تاهت بفعل الرياح . وفي ١٢ حزيران استطاعت العودة للشاطىء الإفريقي ثانية ، وبدأ الإنزال في ١٤ منه في خليج يدعى سيدي فيروش Ferruch إلى الغرب من مدينة الجزائر . وقد جرى الإنزال بسرعة وانتظام لأن الطقس لم يمهلهم طويلاً ، بل عادت العاصفة ثانية . وفي ٢٦ منه أقلعت العمارة البحرية لتنتشر في عرض البحر بفعل الرياح الشديدة .

رجع السكون للمنطقة .. وفي ١ تموز تبودلت قذائف المدافع البحرية مع بطاريات قلاع الجزائر .. وقاتل المدافعون قتالاً شديداً ليومين متعاقبين ، ثم انسحبوا بفعل تفوق المهاجمين الكبير . وسقطت قلعة الإمبراطور ، واستسلمت بقية الحامية في الخامس من تموز ، بعد أن تعهدت القوات الفرنسية احترام عادات سكان البلاد وتقاليدهم الدينية .

وقعت فرنسا في حيرة من أمرها ، فقد أتت الجزائر وهي لا تدري حقاً لماذا أتت ؟ كما أنها لا تريد إعادة هذا البلد إلى الدولة العثمانية . حتى إن الأميرال دوبريه لم يسمح للأميرال طاهر باشا العثماني الذي حضر ليساند الفرنسيين في غزوهم بالنزول على أرض الجزائر ، كما أنه لم يكن في نية فرنسة إخلاء البلاد والعودة منها بدون مكسب ، لأن التفكير الاستعماري البغيض يسود عقول حكام بلدان القارة المتفوقة ، ويدفعهم للبقاء في مستعمرة جديدة وبأسلوب عصري ، يزيل كل انتماء سابق للمقهورين ، ويفقدهم قوميتهم وتراثهم ، ويعتبرهم مقاطعة من أرض فرنسا ، أو امتداد لها عبر المتوسط . وقد يمتد بفضل هذه المستعمرة الجديدة نفوذ فرنسا في شمال إفريقية وفي البحر الأبيض المتوسط على السواء ، وتتسع السلطات ، وتتحسن سبل التجارة . وبالفعل تحركت الفرق التجارية فبثت العرائض والشعارات ، وطلبت من الحكومة الفرنسية المساعدة بإبقاء الجند على أرض الجزائر ، لحماية استثماراتهم . وهكذا تقرر قدر فرنسا في استعمارها الجديد بالمتوسط ، بعد تردد طويل . وفجأة نشبت ثورة عام (١٨٣٠) ، فعادت الأسئلة السابقة تطرح نفسها من جديد ، بعد أن استقدمت تلك الثورة إلى سدة الحكم الرجال الذين عارضوا حملة الجزائر في السابق وعارضوا ما شابهها من توسعات استعمارية بحرية مماثلة .

الفصـــل الـثـانـي

إنكلتـرا
وعهـد سلطـة ملكيـة تمـوز الفرنسيـة

جاءت حركة عام (١٨٣٠) في فرنسا تحمل في طياتها التهديد والعصيان، وتوقع الجميع نشوب حرب أوربية على نطاق واسع، وضمن أجل قريب. إلا أن لويس فيليب Louis Philippe تفادى تلك الأزمة، وعرف كيف يبعد شبح حرب لا يعرف أحد أبعادها، ونتائجها. ولقد لعب تاليران Tolleyrand السفير الفرنسي في بريطانيا آنذاك دوراً كبيراً في استثمار الريبة التي طغت على العلاقات الدولية منذ عام (١٨١٥)، وواجه كلاً من إنكلترا وروسيا بدبلوماسية هادئة، واستطاع اقناع حكومتي البلدين بالتفاهم وإقامة علاقات وثيقة بينهما وبين فرنسا، بلغت حد التحالف. وبهذا التفاهم الوثيق أمن شر بريطانيا، وجعل من بلاده فرنسا بلداً غير غريب عن مصالح هذا الحلف الثنائي البريطاني الروسي، بل يعتمد على مساعداتهما المالية والسياسية والبحرية. ولم يعد يخشى حدوث تجمع مضاد لمصالحه كما حدث في السابق، لأن فرنسا تقف الآن إلى جانب الأقوى في القارة الأوربية.

عادت الدول الأوربية المنتظمة في التجمع القديم تتقبل الوضع الجديد فتنشد صداقة فرنسا وودها. وبذكاء مشهود استطاع تاليران جعل إنكلترا وفرنسا نواة لتجمع تعاوني أوربي وثيق، فتحلّقت بهما كل دول أوربة الغربية التي تعشق الحرية، فتنادوا لمواجهة دول وسط وشرقي أوربة التي بقيت أمينة لأنظمتها الديكتاتورية الاستبدادية.

في زمن التحالف الرباعي (١٨٣٤) والذي ضم البرتغال وإسبانيا إلى جانب إنكلترا وفرنسا والذي غدا قوياً منذ الأيام الأولى لتشكله، والذي فرض احترامه على جميع دول أوربة .. بارك هذا الحلف قيام المملكة البلجيكية المحايدة، ليفصل بين دول الاتحاد وألمانيا، وبارك قيام دولة إيطاليا، بحيث لا تقوى النمسا على بلوغ أهدافها التوسعية جنوباً. ثم وقف في المتوسط أمام أطماع روسيا، ومنعها من التسلل حينما ساند إسبانيا في رفضها التخلي عن مينوركا لصالح روسيا. ودعم الملك أوتون Othon في مملكته الجديدة اليونان، وحقق سلاماً بين مصر وتركيا. وكان هذا السلام سداً منيعاً أمام أطماع قيصر روسيا في المنطقة. ولم يعد لجحافل روسيا الضخمة من مكسب في وقوفها على مشارف البوسفور. وأخيراً غضت إنكلترا الطرف عن صديقتها فرنسا، وسمحت لها بإقامة وجود متين لها في الجزائر. وهكذا بقيت الدولتان صاحبتا النفوذ في البحر الأبيض المتوسط.

كسبت فرنسا بتقاربها مع إنكلترا، وأصبح الأسطول الإنكليزي عدو الأمس المعين لها في تجارتها، وفي إحياء طاقتها الاقتصادية. وحرصت بريطانيا بدورها على تمتين علاقاتها مع حلفائها في الغرب الأوربي، وأفهمتهم بأن مصالحهم مرتبطة بديمومة هذا التفاهم، بشرط أن لا تعود فرنسا وتبسط نفوذها على الأقاليم المنخفضة (هولندا)، لأن ذلك يتعارض ومصالح بريطانيا في المنطقة، وأن كل تدخل في الأحداث هناك قد يهدم التفاهم الثنائي، ويلغي أسس التعاون من أساسها وما دام حاجة فرنسا لقدرة بريطانيا البحرية كبيرة فعليها الحفاظ على تفاهم مطلق وثابت. وكان هذا الشعار هو نفسه شعار حكام فرنسا، وعلى الأقل حتى نمو الأسطول الفرنسي العصري المرتقب.

مرت أحداث بحرية عديدة خلال تلك الحقبة من الزمن، وكانت البحرية البريطانية بطلة كل تلك الأحداث. فهي وحدها التي منعت الهولنديين بحراً من اجتياح بلجيكا، وهي التي أمنت نصر دون بيدرو Don Pedro في البرتغال، وهي التي عالجت قضية نهر التاج Tage، الحدث الذي استدعى اهتمام الدول المجاورة، حين قام دون ميجيل Don Miguel ملك البرتغال (١٨٢٦) يدعم، وفي عدة مناسبات، حكوماته الليبرالية المتطرفة، فاضطرت بريطانيا رغبة منها في خنق الشغب إلى إرسال أسطول بحري إلى مياه البرتغال، ليلزم البرتغاليين باحترام اتفاقياتهم الدولية. وقد حذت فرنسا حذو بريطانيا، وخرج الأميرال روسان ١٦ حزيران (١٨٣١) على رأس قوة بحرية لتأديب عصاة ليشبونة.

قدم روسان إلى شواطىء نهر التاج الحصينة، وكان بعمله هذا يختار السبيل الأصعب. وفي الساعة الواحدة من ١١ تموز دخل مصب النهر بـ (٦) بوارج و (٧) فرقاطات، ورسا في

الخامسة صباحاً أمام رصيف ليشبونة . ورضخ دون ميجيل لضغط صليات مدافع الأسطول الفرنسي ، وقبل تنفيذ التعليمات التي صدرت إليه من قبل المغيرين . وعادت القوة الفرنسية بعد إتمام مهمتها مصطحبة معها إلى برست السفن الحربية البرتغالية التي استسلمت عند بدء الاشتباك كغنائم حرب .

انتعشت البحرية الفرنسية إثر تلك العملية الناجحة ،التي تمت بأقل الكلف ، ووضعت بحرية فرنسا مجدداً على طريق البناء والتطور .

كان لسنوات السلام الطويلة أثر كبير في عودة نشاطات الاستكشافات البحرية . وتحركت البعثات العلمية عبر رحلات بحرية طويلة ، وتضافرت جهود الدولتين البحريتين فرنسا وإنكلترا فجابت سفنهما وبعثاتهما العلمية البحار البعيدة ، وبلغت أقصى حدود البحار المعروفة ، واقتربت من المناطق القطبية غير المستكشفة . ونشطت المؤسسات الهيدروغرافية في رسم حدود وسواحل المحيطات وسواحل البحار ، بالذات سواحل البحر الأبيض المتوسط . وبذلك تقلصت الساحات المجهولة على الخرائط البحرية ، بعد توقيع الاكتشافات الجديدة ، وحلت محل الخرائط القديمة خرائط حافلة بالمكتشفات من جزائر وأرخبيلات ومعابر ومضائق ... الخ .

توسع البحث الجغرافي وطرق أبواباً جديدة علمية وهيدروغرافية ، تناولت المجالات المغناطيسية وأثرها على الملاحة . وهذا ما دفع الباحثين إلى الارتقاء في درجات العرض شمالاً حتى وصلوا إيسلندة وغروئنلاندة بحثاً عن المعرفة . وتاه بعضهم وفقد البعض الآخر ، واختفت سفن عديدة ، إلا أن العديد منها عاد يحمل إلى العالم المعرفة لينقلها إلى الخلف ، لتعينه على متابعة البحث والاستقراء .

بلغت البعثات البحرية العلمية درجة عرض ٦٤° جنوباً ، وتجاوزت هذا العرض شمالاً ، واستكشفت العديد من الجزر القريبة من الدائرة القطبية .

إلى جانب البحث العلمي والرحلات الاستكشافية تابع المستعمرون استيلاءهم على الجزر النائية ، بعد أن فقدوا كل حظ لهم في القارة الهندية ، لأن بريطانيا أحكمت سيطرتها على تلك البلاد الشاسعة الغنية ، وحرّمت على أي غريب اختبار حظه هناك . وسرعان ما استقطب الشرق الأقصى أنظار الطامعين وبالذات فرنسا . إذ وجد الطامعون في تلك البلاد تنفساً لهم بعد أن جُردوا وأبعدوا ، ووجدوا أن المستقبل في جزائر الهند الشرقية زاهر (١٨٤٠) ، فأعلنوا حربهم على تلك البلاد والتي أطلق عليها اسم حرب الأفيون .

أخفقت فرنسا في تثبيت أقدامها بفعل مقاومة الإنكليز لمشاريعها، فاستعاضت عن الأسلوب القديم بفكرة جديدة تدعو لحماية الإرساليات التبشيرية الدينية. وأصبحت فرنسا الدولة التي تحمي الكاثوليك في الشرق الأقصى والصين، تماماً كما فعلت من قبل عند تحرشها بالدولة العثمانية.

نجح هذا الباب الجديد من أبواب الاستعمار، بعد اختفائه وراء الدين، وأعطى فرنسا خياراً واسعاً في الشرق الأقصى تفرض من خلاله سيطرتها وشروطها. وتقاسم المستعمرون المواقع فاختار البريطانيون هونغ كونغ وجوارها، وتوضع الفرنسيون في آنام بعد تدمير أسطول الآناميين المتواضع في خليج توران Tourane عام (١٨٤٤).

كان أسلوب الغزو التبشيري الكاثوليكي قد بدأ فعلاً في المحيط الهادي منذ عام (١٨٢٨) وسار لويس فيليب على خطا سلفه شارل العاشر. وتنبهت بريطانيا لهذا الزحف الفرنسي الجديد، وقام وكلاء الجمعية التبشيرية اللندنية في تنظيم دفاع قوي ضد تسلل الكاثوليكيين عن طريق إقامة حكومات ثيوقراطية من الكهنة ورجال الدين، لتبعد عنها المزاحمة الدينية. فتوقف الانتشار الكاثوليكي لفترة، إلا أنه عاد ببدعة جديدة تحت ستار البحث العلمي. وتسللت سفنهم بحجة الدوران حول الأرض تارة، وملاحقة القراصنة، أو حماية سفن النقل تارة أخرى.. ونزلت فرنسا في هاواي بعد أن تعهدت للحكام الأصليين باحترام عقائدهم وتقاليد شعبهم. وكاد الأمر أن يكون كذلك في جزر السوسيتيه Iles de Societé عام (١٨٣٨)، لكن مكائد المبشرين البريطانيين أمثال بريتشارد[١٠] Pritchard أوقف تغلغل الفرنسيين، وقاومت حرب عام (١٨٤٦). وتدخل البريطانيون ومنعوا فرنسا من السيطرة على تلك الجزر، وأنهوا العملية بإعطائهم حق الحماية لها.

انتقل الفرنسيون إلى جزر الماركيز وجزر غامبيه وجزر واليس دون صعوبات تذكر، ووصلوا حتى كاليدونيا الجديدة. وتجاهلت بريطانيا هذا التسلل الفرنسي لأنها كانت في خضم تسللها الكبير عبر القارة الأوسترالية، حيث عمد البريطانيون إلى احتلال كل ما له قيمة في ذلك البر الشاسع من اوقيانوسيا. وأقاموا مؤسساتهم دون غيرهم، وسيطروا على تلك الأصقاع الشاسعة من بحار الجنوب، دون منازع. إذ إن فرنسا لا تقوى على تجاوز حدود ما رسم لها، لغياب أسطولها البحري والتجاري، وهما عصبا استثمار المستعمرات البعيدة.

في أمريكا تصدت الولايات المتحدة الأمريكية لكل محاولات المستعمرين الأوربيين، تمنعهم من

التسلل إلى القارة الجديدة عبر المناطق الضعيفة ، أو عبر البلدان البكر أمثال المكسيك والأرجنتين ودول أمريكا اللاتينية ، فاقتصر نشاط الأوربيين على بضعة محاولات فردية .

في المكسيك اشتكى المستوطنون الفرنسيون من سوء معاملة الحكومات المكسيكية لهم ، وطالبوا الوطن الأم بنجدتهم . وكانت فرصة ذهبية لفرنسا تنتحل فيها صفة المدافع عن مواطنيها ، فأوعزت للأميرال بودان[11] Baudin باستخدام قوته البحرية مستغلاً ظروفاً جوية فريدة ومؤاتية . وكان من ضمن وحداته سفينتان بخاريتان سمحتا له بالمناورة داخل حوض فيراكوروز Veracruz المحاط بالصخور الخطرة . واستطاع الأميرال الفرنسي الرسو بجوار صخور عالية حجبته عن أعين المدافعين في غاليغا Gallege . وتقدمت فرقاطاته حتى (٩٠٠) متر وسفن المنجنيق حتى مسافة (١٥٠٠) متر من قلعة سان جان دولوا Saint Jean d'ulloa وضمن الزاوية الميتة من الحصون ، واختار مواقع سفنه بنباهة تامة . إذ إن (١٩) مدفعاً من أصل (١٩٣) مدفعاً للقلعة استطاعوا التدخل في مخطط النيران (أما البقية فلا تطال السفن لوجودها في زوايا الحصن الميتة) . بدأ تبادل القصف في الساعة ٢٫٣٥ . وفي التاسعة تم تدمير القلعة ، واستسلمت حاميتها ٢٨ تشرين الثاني (١٨٣٨) . ولقد وصف ويلنكتون هذه المعركة بأنها حالة فريدة في تدمير موقع حسن التحصين من قبل قوة بحرية خالصة .

لم تتأثر الحكومة المكسيكية ، وقررت متابعة المقاومة . فاضطر بودان للنزول إلى اليابسة بسراياه القتالية ، وهاجم الثكنة الحربية ودمر مدافعها . إلا أن الأميرال الفرنسي يعزف مسبقاً الحدود التي لا يحق له تجاوزها . واكتفى بما حصل عليه ووقع مع المكسيكين معاهدة ٩ آذار (١٨٣٩) .

في الأرجنتين كان الحكم منذ خمسة عشر عاماً بيد الطاغية روزاس Rosas الذي رفض كل علاقات دبلوماسية مع الغرب . ولجأت فرنسا إلى إقامة علاقة ودية مع الأرغواي عدوة روزاس ، لتتسلل داخل الأرجنتين . وفجأة وجدت نفسها مضطرة لخوض القتال في حرب أهلية أرجنتينية لا تنتهي . ولم ينفع معها احتلال مارتان غارسيا Martin Garcia عام (١٨٣٨) ، ولا العمليات التي تمت في بارما Parma (١٨٤٠) . وظلت الثورة مستعرة بضراوة ، وفضلت فرنسا الانسحاب من الأرجنتين برغم وصول تعزيزات فرنسية بلغت ٤٠ سفينة وستة آلاف مقاتل . وهكذا انتهت حملات بحار الجنوب وأمريكا الوسطى بإخفاق ذريع لفرنسا ، بعد أن لاحت بوادر حرب أوربية جديدة ، ووقع الأميرال ماكو Mackau صلحاً ٢٨ تشرين الأول (١٨٤٠) لتفادي كارثة حربية على أرض الأرجنتين واستعاد روزاس نفوذه من جديد ، وحرّم على الأوربيين مرة ثانية الملاحة في بارانا Parane ، مما دفع بريطانيا

للتحرك مع فرنسا للرد على هذا المنع. وأرسلت الدولتان أسطولاً مشتركاً بإمرة القائدين هوتهام Hotham وتريهوار Trehouart . وحضرت القوة المشتركة ودمرت العوائق البحرية التي أقامها روزاس في جوار اوبليغادو Obligado ١٨ تشرين الأول (١٨٤٤) ، فارتفعت درجة حدة توتر العلاقات ، واستمرت كذلك حتى سقوط روزاس عام (١٨٥٢) .

كل تلك الأحداث الطويلة في البحار البعيدة ونتائجها الواهية أكدت فكرة الاهتمام بالمستعمرات القريبة قبل البعيدة ، والاعتماد عليها لسهولة الوصول إليها ، ولقربها من البر الأوربي . وكان من الأولويات استعمار إفريقية ، باقتسام هذه القارة بين بريطانيين وهولنديين وألمان وبلجيك وفرنسيين . ولقد حرص الفرنسيون على احتلال الشريط الساحلي الشمالي للقارة ، بدءاً من الجزائر العربية والتي اعتبرتها فرنسا امتداداً طبيعياً لبلادها عبر المتوسط .

صدق البرلمان الفرنسي ٣٠ نيسان (١٨٣٥) قرار دعم الجيش وتعزيز تواجده في الجزائر . وهذا القرار يكرس احتلالاً محدوداً يشمل النقاط الاستراتيجية الهامة على طول الساحل الجزائري ، وترك باقي البلاد بين أيدي السكان الأصليين ، مع محاولة إقامة علاقات حسنة ، وتشجيع التبادل التجاري معهم ، أو بالأحرى فتح أسواق الجزائر أمام منتجات المستعمر الفرنسي .

لم يكن القرار البرلماني إلا حبراً على ورق . واستمرت فرنسا في التهام الجزائر جزءاً بعد جزء ، وبريطانيا مغمضة العينين عنها . وكيف لها أن تحاسبها وهي المستعمرة الكبرى في القارات الأربع .. احتلت فرنسا وهران وبونه وقسطنطينية ... الخ . فتصدى لها الأمير عبد القادر الجزائري الزعيم الكبير الذي رفض التواجد الفرنسي فوق أرض بلاده برغم المغريات الكثيرة التي حاول المستعمرون تقديمها له ، وأعلن الثورة ، وأفهم المستعمرين أن لا مجال للتفاهم على حساب استقلال شعبه وحريته ، ولن يكون هذا إلا على اشلاء المواطنين . ولم يمهل الزعيم الجزائري فرنسا بل بدأ بمهاجمة مواقعها العسكرية عام (١٨٣٩) معلناً الجهاد المقدس .

فرت القوات الفرنسية أمام هجمات الثوار ، وتراجعت . وكانت تعد (٩) آلاف مقاتل ، لكن سرعان ما رفدت بتعزيزات هامة وأسلحة ضخمة ، وصلت من فرنسا ، حتى بلغ تعداد الجند مئة ألف . ومن الطبيعي أن غزواً بمثل هذا الحجم لبلد صغير كالجزائر لا يمكن مقاومته طويلاً . وبرغم ذلك قاتل الأمير الشجاع بالقلة من المجاهدين ، وخاض معارك حاسمة مصيرية ، واستبسل المسلمون خاصة بين أشهر مايس وأيلول (١٨٤٣) ، إلا أن الغلبة للكثرة . وانتهت مقاومة الزعيم الجزائري بعد أن أطبقت عليه جيوش المستعمر الحديثة من كل حدب وصوب .

وقد تدخلت مراكش في النزاع . وكان على فرنسا قتال تلك السلطة ، وبالفعل وقعت معركة ايسلي Isly وانتصر فيها الفرنسيون بقيادة الجنرال بيجو Bugeaud في ١٤ آب (١٨٤٢) ، وحضر أسطول البرنس جوانفيل Joinville فاستعرض عضلاته أمام طنجة ، ثم قصف مدينة موغادور المراكشية Mogador في ١٦ آب ، وأغلق ميناء المدينة ، ومنع عن سلطان المغرب الإمدادات البحرية . فوقعت مراكش في قبضة الفرنسيين . وهنا تحرك الأسطول البريطاني يمنع المستعمرين الفرنسيين من التمادي في الانتشار ، ولأن وجودهم في شمال القارة الافريقية أصبح كبيراً يقلق بريطانيا ، خاصة وأن هذا التواجد الغريب قد يؤثر مستقبلاً على مستعمراتها في القارة الهندية .

وقعت اتفاقية طنجة ١٦ أيلول (١٨٤٤) واعترفت بريطانيا بالسيطرة الفرنسية على القطر الجزائري ، وبدأ تنكيل المستوطنين بالمواطنين ، وبشتى أنواع الأساليب الظالمة ، واشتعلت المقاومة الجزائرية من جديد ، واستعرت الثورة ثانية ، ولعدة سنوات ، وحتى سقوط الأمير عبد القادر الجزائري أسيراً ٢٣ أيلول (١٨٤٧) .

دانت كل بلاد الجزائر لحكم المستعمرين . وابتدأت مرحلة استغلال البلاد زراعياً (حبوب وكروم) مع محاولات لزرع القطن والقهوة . وازدادت هجرة المستعمرين واستوطنوا البلاد حتى وصل عدد القادمين إلى (٤٠) ألف عام (١٨٤٦) . وأعلنت الجزائر أرضاً فرنسية خالصة .

لم يقم الأسطول الفرنسي بدور كبير في تلك الحقبة ، واقتصر عمله على نقل القوات والمعدات نظراً لضعف إمكاناته الحربية والتجارية . وظلت أعين بريطانيا لا تغفل عنه وتراقب مراحل تطوره ، لتوقف هذا التطور عندما يتعدى شروط معاهدات سلام عام (١٨١٥) .

لم تكن فرنسا وحدها هي التي تكبر وتتعاظم في المتوسط ، بل خرجت قوة فتية جديدة على المسرح تمثلت بقوة محمد علي الكبير والي مصر الألباني منذ عام (١٨٠٦) . وقد استطاع هذا الأمير تطوير مصر ، وأقام لها جيشاً قوياً ، واسطولاً بحرياً منيعاً ، فرض احترامه على الجوار ، وبسط نفوذه على السودان ، وجزء من الجزيرة العربية ، حتى وصل إلى جزيرة كريت ، حيث ضمها الأمير والي مصر إلى بلاده ، بعد أن غنمها من الدولة العثمانية تعويضاً له على مساعداته لها في حرب اليونان .

إن تعاظم قوة إسلامية بهذا الحجم لا يسعد بريطانيا الطامعة في بر مصر . وكان ذلك سبباً من أسباب تفاهمها مع فرنسا ، بعد ظهور القوة العربية الإسلامية في المنطقة . ومن البديهي أن تتوحد

جهود المستعمرين مهما كانت ظروفهم الأخرى، ويتكاتفون ضد المد الاسلامي في أي رقعة من رقاع العالم.

نشبت حرب أولى بين سلطان بني عثمان وأمير مصر (١٨٣٢ ـ ١٨٣٣) وقادت تلك الحرب القوات المصرية والسورية حتى حدود الأناضول. ولم يتوقف الزحف العربي إلا بعد تدخل روسي كثيف، حيث أرسل قيصر روسيا قواته إلى آسيا الصغرى، ليمنع الجحافل العربية من المضي عبر الأراضي التركية. وهنا تحرك المحور البريطاني الفرنسي ليمنع الروس من دس أنفهم في المنطقة، وطالبوا محمد علي الكبير بقبول الدخول في المفاوضات ليفرضوا على الروس سحب قواتهم من المنطقة.

خلال ست سنوات من الحرب استعد السلطان العثماني للثأر من والي مصر، وعندما شعر بتفوقه العسكري عقد معاهدة مع بريطانيا ظاهرها تجاري، وهاجم باشا مصر. لكنه وللمرة الثانية انتصرت جيوش محمد علي الكبير على جيوش السلطان في معركة نيزيب ٢٤ حزيران (١٨٣٩)، ولم تنفع سلطان بني عثمان معاهداته. ومات بعد فترة وجيزة وقد تخلى عنه أمير البحر العثماني الذي ثار على سلطانه، وقاد أسطوله البحري إلى الاسكندرية واستسلم لباشا مصر الكبير.

وقفت بريطانيا ترقب بقلق شديد تسارع الأحداث في منطقة الشرق الأوسط. وقررت عدم السماح لروسيا بالتواجد كسلطة نافذة في القسطنطينية، بحجة حماية السلطان العثماني ورد تهديدات حاكم مصر. واعتمدت سياسة الوضع الراهن، ومنعت تقدم المصريين واضعة الدولة العثمانية بحماية كل القوى العظمى آنذاك. وقد كشف بالميرستون[١٢] Palmerston عن خطته عقب اتفاقية لندن ١٥ تموز (١٨٤٠)، والتي تضمنت اتفاق كل من بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا على إرسال إنذار مشترك لمصر وموجه أيضاً وبصورة غير مباشرة لفرنسا صديقة محمد علي. وهذا أساء لفرنسا لأنها اعتبرته تصرفاً جماعياً ابتدعته بريطانيا لإخراجها عن الإجماع الأوربي، وتوطئة لحرب جديدة ضدها.

تحرك رئيس وزراء فرنسا تيير[١٣] Thiers ١ آذار (١٨٤٠) يعدّ البلاد للقتال، وصادق على تخصيص (١٠٠) مليون فرنك فرنسي لتقوية الأحزمة الدفاعية عن باريس. وطالب بزيادة تسليح الأسطول، واستدعى (٨٠٠) ألف رجل للخدمة العسكرية، وعاشت فرنسا أياماً عصيبة كأيام عام (١٨١٣)، تستعد لمجابهة دول أوربة مجتمعة خلف بريطانيا. إلا أن لويس فيليب رفض نقض

التعهدات الدولية الملزمة لفرنسا، وتعريض بلاده للاحتلال والتدمير، فأقال تيير، وأقام وزارة برئاسة غيزو[١٤] Guizot ٢٠ تشرين الأول (١٨٤٠) التي أصدرت بياناً توضيحياً تضمن التالي:

إن فرنسا التي تخلت عنها القوى المتحالفة الأوربية خارج الاجماع الأوربي ترقب وتحتفظ بحقها، ولن تتخلى عن التزاماتها لكنها لن تضحي بكرامتها.

وهكذا خذل الفرنسيون محمد علي الكبير. وبتأثير وقع قذائف المدافع البريطانية أخلت قواته سورية ١٣ تموز (١٨٤١)، وأعادته إتفاقية لندن لمصر، وأسقطت عنه صفة العنصر النشط في السياسة الدولية، وأعادت للسلطان العثماني نفوذه على سورية، بعد أن تعهد هذا الأخير لحلفائه بإجراء إصلاحات سياسية في المنطقة. والأهم من ذلك كله توقيعه على الاتفاقية المتعلقة بالمضائق، أي إغلاق البوسفور أمام جميع السفن الحربية الأجنبية. وبذلك حققت بريطانيا نصراً جديداً بتحجيم فرنسا في الشرق، وبطرد روسيا من المتوسط.

حافظ لويس فيليب ووزارته على علاقات وطيدة مع بريطانيا، إلا أن الشعب الفرنسي رفض الإهانة التي أصابته عام (١٨٤٠)، والمتمثلة بشروط بالميرستون المجحفة، وبدأ بلوم الملك ورئيس وزرائه واصفاً مواقفهما بالخيانة.

توالت القضايا الشائكة بين بريطانيا وفرنسا، فباعدت من تقاربهما، ونخص بالذكر تدخل فرنسا في عرش إسبانيا بإبعاد مرشح بريطانيا، أو بالأحرى مرشح الملكة ايزابيلا، وتعيين ابنٍ للويس فيليب ولياً للعهد (١٨٤٣).

ترقب الشعب البريطاني ولادة تجمع مضاد لبلاده، وسارع ويلنكتون[١٥] Willington فطالب بزيادة ميزانية الدفاع بعدة مئات من الملايين تخصص لإقامة دفاعات ساحلية حصينة للبلاد.

وفي العام الذي تلا ذلك نشبت حرب المغرب. وعملت بريطانيا على إحباط مخططات فرنسا التوسعية في شمال إفريقية. وقد دأبت على التواجد في كل مكان تطمع به فرنسا، لتربك نياتها. وهذا ما تكرر في كل من عدن وبيريم[١٦] Perim وزيلندة الجديدة وتاهيتي ... الخ. وأخيراً حدثت مأساة بريتشارد Pritchard التي كادت تتمخض عن حرب بين البلدين (١٨٤٤). وتعالت صيحات الاحتجاج في فرنسا، وقامت الجماهير تطالب بالمساواة مع بريطانيا في توزيع المكاسب. ووصل الرفض إلى أكثر الناس اعتدالاً. ونادى الجمهوريون مع لامارتين Lamartine بالسلام وقالوا:

«نطالب بالسلام وليكن سلاماً كريماً صلباً، سلاماً فرنسياً لا سلاماً بريطانياً» وباتت حرب

برية بحرية وشيكة الوقوع ، وعلى أسلحة البحر الاستعداد لها . إلا أن بريطانيا ليست معنية ما دامت تتصدر ومنذئذ المركز الأول بين القدرات البحرية الدولية ، وعلى فرنسا وحدها الإعداد لأسطول بحري قوي يبعد عنها احتمالات الغزو ، برغم كونها دولة برية قوية .

كانت قوة فرنسا البحرية في الشرق تتألف من ثمانية بوارج بإمرة الأميرال لالاند[١٧] Lalande وفي أقل من سنة أضيف للقوة (٢٠) بارجة أخرى . وهذا العدد هو أقصى ما تستطيع ميزانيتها البحرية توفيره برغم كل المبالغ الاستثنائية التي منحت ، وعلى أمل إعداد (٢٠) بارجة أخرى خلال العام الذي سيلي . وبرغم كل تلك الجهود صرح الأميرال جوانفيل[١٨] Joinville (١٨٤٤) وهو يقصد سلاح البحر فقال :

« نحن أضعف من الإنكليز ، ومن الأمريكيين ، ومن الهولنديين ، ومن النابوليتانيين ومن الروس » .

تطور البحريات الحديثة

في نهاية القرن الثامن عشر وصلت السفن الشراعية إلى أعلى درجات الكمال . وتوقفت جهود الفنيين في محاولات التطوير إلى الأفضل . ومع امتداد فترة السلام بين دول العالم الأوربي تهيأ للمصممين والباحثين الوقت اللازم لتحسين شروط بناء السفن الحربية ، وإيجاد السبل الفضلى التي من شأنها رفع قدرتها في المناورة والقتال ، مع تعزيز شروط السلامة ، وتأمين رفاهية العاملين في البحر .

استبدلت الحبال الليفية التقليدية بالسلاسل المعدنية ، وضوعفت أعداد قوارب النجاة ، وأصبح إنزالها إلى الماء أسرع تنفيذاً بفضل استخدام مرفاع (رافعة) خارجي . ثم جهزت السفن بصناديق حديدية للماء العذب ، وطورت المطابخ ، وعدلت ممرات التهوية ، واستعيض عن غسل سطح السفن بالماء المالح بالقحط والتنظيف على الناشف . وعممت الألبسة الصوفية بأزياء جميلة ومريحة ثم خزنت المواد الغذائية بشكل أفضل أبعد فسادها وانتشار الأوبئة المخيفة فيها ، والتي كانت تحصل من تجرثمها . أما في المجال الحربي فقد وحدت أعيرة المدافع ، وأقيمت على قواعد ثابتة ، وطورت عمليات التلقيم والتسديد ، وفتح النار ، فغدا استخدام المدفع سريعاً أميناً وسهلاً . وتشابهت بحريات العالم كلها في نظم إحكام الرمي وضرب الأهداف ، كما تشابهت ألبسة البحارة ، وكسوة الضباط لدى جميع الأطقمة البحرية الدولية . وتوحدت الأصبغة والدهانات التي تطلى بها السفن ، وغدا استخدام السفن الحربية والتنبؤ بمستقبلها المتطور متقارباً لدى جميع الأمم .

توحدت مواصفات السفن الحربية لدى أكثر الأمم البحرية، وأصبحت الكبيرة منها ذات سطح منخفض قريب من خط الماء، وذات شكل انسيابي مستقيم تعلوها ثلاث صوارٍ ممشوقة وصلبة. وزيدت أبعاد السفينة للارتقاء بكفاءتها القتالية، فأصبحت تحمل العديد من المدافع، لكنها وئيدة صبعة المراس في المناورة، وأقل تحملاً للأنواء العاتية.

قلص عرض هيكل السفن لزيادة سرعتها، وجُعل الكوثل (مؤخرة السفينة) مستديراً مع تقوية مضاعفة للبدن وللقاع بالذات. فكانت بالفعل ثورة في مجال التعمير، ابتدأت مع عام ١٨٢٤. وقد وصفها القائد مونتجيري Montgéry بقوله:

«إن التحسينات التي طرأت على السفن في هذا العصر لا تقل أهمية عمّا تم اكتشافه خلال القرن الثامن عشر من حيث اكتشاف البارود الأسود واستخدامه، واكتشاف البوصلة والطباعة والعالم الجديد».

البخار

عرف البخار بصفاته وقدراته الحركية منذ زمن بعيد إلا أنه لم يستخدم قبل القرن التاسع عشر إلا في مجالات ضيقة بدائية. وأول من استخدم البخار الصادر عن غليان الماء ادوارد سومرست Edward Somerset مركيز ورسيستر Woreester عام (١٦٦٠). وبعد (٢٠) سنة جاء الطبيب الفرنسي دينيس بابان[١٩] Denis Papin مساعد هيوجنز Huyghens وقام بعدة دراسات، وقدم برنامجاً متطوراً لكولبير مستبدلاً البارود في آلته ببخار الماء داخل جزء سفلي من أسطوانة مغلقة بمكبس متحرك. واستُعيض عن احتراق البارود ببخار يولده داخل مرجل، احتراقه خارجي، والمكبس في نهاية مطافه. فبفعل التكثف البخاري يحدث فراغ نسبي بعد التبريد داخل الأسطوانة، وهنا يعمل الضغط الجوي عمله على السطح الخارجي للمكبس فتحدث حركة نزقة سريعة عالية الجهد بتفاضل الضغطين، قد يحسن استخدامها ميكانيكياً. لكن بابان قضى قبل أن يستطع شد انتباه المسؤولين لاكتشافه.

تصور الكابتن الإنكليزي سافيري[٢٠] Savery إحداث فراغ (خلاء) في وعاء، عن طريق دفع بخار الماء المنتج من مرجل منفصل داخل الوعاء. وبتكثيف البخار عن طريق التبريد الخارجي.. ولقد تحقق له ذلك، واستطاع استخدام هذا الفراغ الناتج في امتصاص ماء، مثلاً (جسم

مضخة) . واستخدم هذا الأسلوب فيما بعد في امتصاص المياه المنخفضة ورفعها ، أو في تجفيف برك الماء داخل المناجم العميقة ، والتي كان فيها الماء عائقاً في استثمارها .

في عام (١٧٠٥) استطاع كل من نيوكومن[٢١] Newcommen وكاولي Cawley تصميم آلة عملية بنيت على مبدأ دمج الأسلوبين السابقين باستخدام بخار ماء مولد في مرجل سافاري ، يدفع على وجه أسطوانة بابان . وبإحداث التكثيف بالتبريد السطحي أولاً ، وعن طريق دفع ماء بارد داخل الأسطوانة ثانياً ، يعمل الضغط الجوي عمله وتحدث حركة ذهاب وإياب ، يسهل استخدامها في مجالات الصناعة الواسعة . وليحمي نيوكومن تصميمه من خطر الانفجار ابتدع صمام أمان بمخل (عتلة) ، واستخدم هذا الاختراع البخاري في إنكلترا مقصوراً على رفع المياه نظراً لمردوده الضعيف ، حين مقارنته بالكلفة إذ إن قسماً كبيراً من القدرة الحرارية المنتجة يُهدر .

وفي نهاية القرن الثامن عشر جاء الايكوسي جميس وات[٢٢] James Watt (١٧٣٦ ــ ١٨١٩) وهو بالأصل عامل ثم عالم ، وبتوجيه من أستاذه بلاك[٢٣] Black أوجد عدة حلول ، فبدلاً من استخدام وطأة الضغط الجوي ، استخدم ضغط البخار نفسه ، واستغل خاصية انتشاره وامتداده ، فظهرت الآلة المبسطة ذات الشوط الواحد (١٧٦٩) ، ثم تبعتها الآلة ذات الشوط المضاعف (١٧٨١) علي وجهي المكبس ، فبدلاً من هدر القدرة الحرارية في عملية التبريد ، استعيض عن التكثيف داخل الأسطوانة بتكثيف داخل مكثف منفصل (١٧٧٣) . وأخيراً وبمساعدة رقاص وسواعد ومدورات Mauivelles حولت الحركة المتناوبة في ساق المكبس إلى حركة دائرية متواصلة . واستخدم الدولاب المعدل (١٧٨٣) ، وأجيد التصميم ، وحسنت الآلة باستخدام أجسام لينة لتأمين الإحكام ، ولحسن حركة الأجزاء المتحركة ، وصنع الزناد ، ثم المعدل ذو الكرات .. وتقدمت الآلة البخارية شوطاً واسعاً ، وأصبحت جاهزة لكل الاستخدامات . وشارك وات رجل الأعمال والمالي الكبير بولتون Boulton فأقام مصنع سوهو الشهير قرب برمنغهام لانتاج الآلة البخارية ، والتي بيع منها المئات لأوربة وأمريكا .

ومع استخدام الآلة البخارية حدث انقلاب كبير في مختلف الصناعات النسيجية منها والميكانيكية ، وشمل ذلك المعامل والمطاحن . وأعطيت نتائج أفضل من حيث جودة الانتاج وسرعته . وفي عام (١٧٧٩) اخترع كيغنو[٢٤] Cugnot سيارة بدائية على البخار . إلا أن الاستخدام الحقيقي في مجال النقل بدأ فعلاً بتطبيقه في الخطوط الحديدية عام (١٨٠٤) . ويعود الفعل بذلك لعدة مهندسين أشهرهم جورج ستيفنسون[٢٥] Stephenson . وعمت منذ عام (١٨٢٩) القاطرات

البخارية على الخطوط الحديدية، وبتطور سريع. ووصلت الخطوط الحديدية عام (١٨٤٣) إلى (٤٨٠٠) كيلومتر في الولايات المتحدة الامريكية و (٤٦٠٠) كيلومتر في انكلترة و (٦٠٠) كيلومتر في فرنسا و (٢٠٠) كيلومتر في باقي دول أوربة.

لم يصل التطبيق العلمي لاستخدام البخار درجة الكمال إلا في وسائط الملاحة البحرية، ويعود ذلك إلى بلاسكو دو كاري عام (١٥٤٣) Blasco De Carray الذي قدم إلى شارل كنت سفينة تعمل على آلة بخارية بدائية بمرجل. ثم جاء بابان فاقترح تعميم تلك الآلة على السفن. إلا أن التاريخ الفعلي لدخول البخار هو عام (١٧٥٣) عندما قدمت أكاديمية العلوم مسابقة لإيجاد واسطة دفع بدلاً عن الريح في تحريك السفن. وربح الجائزة دانييل بيرنويي[٢٦] Daniel Bernoulli الذي وجد الحل باستخدام البخار، أو المتفجرات نظرياً. ولم يستطع ترجمة ذلك عملياً حتى جاء الضابط جوفري دابان[٢٧] Jouffry D'abans فوجد الحل القطعي ١٥ تموز (١٧٨٣) وصنع البيروسكاف Pyroscaphe (السفينة التي تعمل على القدرة الحرارية)، وجهزها بآلة واط وحيدة الشوط، تدير عجلة بشفرات. وعرض سفينته في ليون أمام جمع غفير، وكانت السفينة بطول (٤٣) متراً. وجرت التجربة بنجاح، واستطاعت البيروسكاف صعود نهر السون بعكس التيار النهري، وبقيت تلك السفينة تملح بين ليون وماكون لعدة شهور، حتى جاء الأخوان بيريه Perrier فكادا لجوفري، وطالبه كالون قبل أن يمنحه المكافأة باعادة تجربته في نهر السين، قرب باريس، لكن المال قل بين يدي المسكين، وجاءت الثورة الفرنسية فلم يستطع تلبية الرغبة. وهاجر جوفري من البلاد، وضاعت عن فرصة تحويل واسطة الملاحة البحرية.

عديدون بعد جوفري درسوا الحلول، وقاموا بتجارب نجد منهم في إنكلترا لورد دونداس Dundas، وميلر Miller وتايلور[٢٨] Taylor وسيمنغتون Symmington. وفي الولايات المتحدة الأمريكية فيتش[٢٩] Fitch وإيفان Èvans وستيفنس[٣٠] Stevens وغيرهم. وكانت النتائج توحي بالثقة حتى ظهرت سفينة فيلتون[٣١] Fulton، وكانت في الحقيقة الخامسة عشرة من حيث التسلسل. ودرست حركة تنقلها بالمقارنة للسرعة التي وصلت إليها (٤) عقد، فاعتبرت ضعيفة، إذ إن المحرك لم يتعدَّ خمسة الأحصنة البخاري. وانتهت تجربة فيلتون في فرنسا بمأساة، إذ انقلبت سفينته في منتصف قعرها بفعل وزن المحرك. وتضافرت آراء الهيئة التي عاينت المشروع، وقررت بالاجماع رفضه. وعلى أثر ذلك عاد فيلتون إلى وطنه أمريكا خائب الرجاء. وفي نيويورك بنى عام (١٨٠٧) الكليرمون Clermont، وقطع بها أول رحلة مائية لمسافة (١٥٠) ميلاً، بين نيويورك والباني، واستغرقت الرحلة (٣٢)

ساعة. وكانت الكليرمون بطول (٣٩) متراً، انسيابية الشكل، مسطحة القعر، عرضها (٥ر٥) متراً. وزودت بمحرك بقوة (٢٠) حصاناً صنعه واط في معمل سوهو الشهير وقد أدار عجلتين بشفرات قطر الواحدة (٥ر٤) متراً. وسرعان ما عم هذا التصميم كل السفن البخارية لنجاعتها.

تكاثرت السفن البخارية بسرعة وخاصة في أمريكا بسبب قلة الطرق البرية، ولوجود الأنهار الكبيرة، والبحيرات الصالحة للملاحة. ووصل عدد البخاريات عام (١٨٣٥) إلى (٨٢٨) بخارية أكثرها تعمل في المسيسيبي وروافده. في حين لم يزد العدد عن (٦٠٠) بخارية في كل أرجاء المملكة المتحدة البريطانية ومستعمراتها. وبقي انتشار البخاريات في أوربة محدوداً نظراً لتوفر وسائط النقل الأخرى التي اعتادها المواطنون.

لم يفكر أحد للوهلة الأولى بأن تلك البخاريات قد تصبح سفن بحر، بل اعتقدوها ستقصر على الأنهار والبحيرات فقط، نظراً لطولها وضعفها والمساحات الكبيرة الصادة للريح في أجسامها، ولاستهلاكها الكبير لمادة الفحم. إذ كان عليها أن تتوقف مراراً لتملأ مستودعاتها بالفحم. وبرغم ذلك خرج بعضها عام (١٨٠٨) يحاذي سواحل الولايات المتحدة، وتجاسر شيئاً فشيئاً فعبر البحار. وفي عام (١٨٢٥) انتقلت أول بخارية من بريطانيا إلى الهند مستخدمة أشرعتها في جزء هام من طريقها. وكانت أول سفينة قطعت المحيط بين أوربة وأمريكا غريت ويسترون Great Western، ثم تبعتها سيروس Sirius عام (١٨٣٨). واستغرقت الرحلة (١٩) يوماً ذهاباً و(١٥) يوماً إياباً. وأنشئت أول شركة سفن نقل بخارية الـ Peninsular & Oriental عام (١٨٣٧)، ووصلت سرعات سفنها إلى (٨) عقد، ثم ارتفعت السرعات فوصلت عام (١٨٤٨) إلى (٧٥ر١٠) عقدة وعام (١٨٥٥) إلى (١٢) عقدة وفي عام (١٨٦٠) بلغت سرعة السفينة كانوغت Cannaught التجريبية (١٨) عقدة، وسرعتها العادية (٥ر١٥) عقدة في السير الطويل. وبذلك تخلت الملاحة البحرية عن صديقين حميمين رافقاها قروناً عديدة هما الريح والتيار، واستقلت عنهما إلى الأبد.

بنيت أول سفينة بحرية بخارية عام (١٨١٢)، وهي من طراز فرقاطة كبيرة، بناها فيلتون، وأطلق عليها اسم فيلتون الأول. وكان طولها (٤٦) متراً وبعرض (١٧) متراً، وجعل لها هيكلان بينهما دولاب الحركة، الذي يعمل بآلة قوتها (١٢٠) حصاناً بخارياً ويعطي سرعة (٤) عقد. وجهزت السفينة بأربع دفات توجيه، وجعلت جدرانها بسماكة (٥ر١) متراً. أما السطح فقوي بالخشب المضاعف وبداخله حشوة قطنية، سلحت هذه الفرقاطة بـ (٣٠) مدفعاً من عيار ٣٢، وبأربع مدافع تحت مائية. وجهزت بمضخات تقذف الماء الغالي أو البخار الحارق، يستخدم في

حالات الالتحام. إلا أن فرقاطة فيلتون لم تكن ذات شأن عسكري، لأن مثل تلك السفن لا تستطيع التمليح إلا في الأنهار والبحيرات والمياه الساكنة، وتفقد كل صفاتها في بحر مضطرب الأمواج. وحكمت لجنة من الضباط الخبراء في الولايات المتحدة بعدم صلاحيتها كسفينة حربية عام (١٨٢٠)، لأن لا مجال لاستخدام البخار في السفن الحربية الكبيرة، ويفضل اقتصار البخاريات على القاطرات، وسفن البريد، وزوارق خفر السواحل.

طالبت الشعوب البحرية حكوماتها بتبني البخار أساساً للحركة على السفن عامة لأنه اكتشاف جديد. واعتقدوا أن حرب السباق وحرب الحراقات سيستعيدان شأنهما بمثل تلك السفن. ويمكن بالبخاريات تدمير سفن الخصم، وبأقل الكِلَف، وخاصة سفن الخصم الكبيرة الضخمة.

تنوعت السفن البخارية وزيدت أبعادها، وضخمت أشكالها، وزودت بمحركات بخارية وصلت حتى (٤٥٠) حصاناً بخارياً. وأعطيت أسماء مختلفة مثل السميرية Avisos والغراب Corvette والفرقاطة. واختفت السفن المتوسطة واقتصرت مهامها على نقل الأشخاص والبضائع للمسافات البسيطة.

اشتكى قادة البحر من ضخامة السفن البخارية آنذاك، واعتبروا أن بناءها العالي يصلح هدفاً ممتازاً لقذائف مدافع الخصم، ويتعرضها للريح التي تضعف سرعة انسيابها على سطح الماء، وتجعل سيرها على الشراع شبه مستحيل لكثرة تواجد القمرات وأماكن العيش على سطحها. كما أن السير على البخار يحتاج إلى مخزون هائل من الفحم، وقد لا يتسنى للسفينة فرص التزود به في خط سيرها. ولذا لا بد من السير بالشراع كلما كان ذلك ممكناً لتوفير مادة الفحم. أما الدواليب المحركة فقد شغلت حيزاً كبيراً من مؤخرة وجوانب السفينة فقللت من مساحات تواجد المدافع الجانبية من (١٠٧) مدافع سابقاً إلى (٢٠) مدفعاً فقط وتلك نسبة هبوط في التسليح كبيرة، عولجت بوضع مدافع متمحورة إضافية ضخمة على الجسر العلوي ترمي بكل الاتجاهات. هذه الإضافة زادت من حمولة مقدمة السفينة ومؤخرتها بأكثر من طاقتها الفعلية، وبالتالي أضعفت سرعتها، وقللت من صلابتها، وغيرت قوانين توازنها وتحملها للبحر، دون أن تزيد فعلياً في قدرتها القتالية. هذا السبب هو الذي أضعف أهمية البخار واستخداماته في المجالات الحربية. ولقد قال فيه العضو البرلماني بينيون[٣٢] Bignon.

«قد يطلب من البخار اتخاذ موقعه الحساس في الاستراتيجية البحرية فهل ياترى سيسهل

استخدامه حركات الأسطول ، أو يزيد من قدرته القتالية ؟ الذي أراه حقاً غير هذا ، بل قد يكون فعالاً في قطر سفن الشراع ، وتأمين سلامة التقرب ، لكنه لن يكون قط سلاحاً قتالياً فعالاً » .

استخدام المحارة (الرفاص)

جاء الحكم على البخار قاسياً وذلك نتيجة استخدام الدواليب الدافعة الواسطة الوحيدة التي عرفت آنذاك ، والتي اعتبرت طريقة سيئة المردود ، إذ إن حجمها كبير وعرضة للتدمير . وكان لا بد من البحث الجدي عن وسيلة بديلة تحل محل الدولاب الدافع .

عمل كل من براماه[٣٣] Bramah في بريطانيا وبوشنيل[٣٤] Bushnell وفيتش Fitch وستيفنس Stevens في أمريكا وداليري Dallery في فرنسا على وضع اللمسات الأخيرة للرفاص البحري . وسبقت أمريكا الآخرين في تجاربها على الرفاص أو على لولب أرخميدس كما كان يسمى . وتبعها المهندس الفرنسي دوليزل Delisle الذي قدم الدراسة النظرية ، وأوضح رياضياً أفضلية مردوده عن أية واسطة دافعة أخرى . ثم جاء فردريك سوفاج[٣٥] Sauvage فقرن الدراسة با لتصميم ، وقدم عام (١٨٣٢) رفاصاً صغيراً إلى اللجنة العليا البحرية صممه بنفسه ، وطالب بحق تصنيعه . لكن رغبته اصطدمت برفض قاطع . وقد تزامن البحث الفرنسي ببحث مماثل بريطاني قام به وودا كرافت Woodcraft ، ثم جاء المزارع الإنكليزي سميث Smith فجهز الآرشيميد برفاص أعطاها سرعة تجاوزت الـ (٩) عقد ، وأبحر بسفينته واستدار حول الجزر البريطانية (١٨٣٩) .

تمت في السويد وعلى يد إيريكسون[٣٦] Ericson تجارب مماثلة أعطت نتائج إيجابية ، ثم بفضل التعاون الحثيث بين أوغدين Ogden البريطاني وبرينستون[٣٧] Princeton الأمريكي (١٨٤٠) ثم تحقيق سرعة للسفن تجاوزت الـ (١٣) عقدة .

ولعل مردود الرفاص كان أقل أهمية من مردود الدولاب (العجلة الدافعة) ، لكنه يتصف بمزايا جديدة أهمها ما يتعلق بتوازن السفينة ، إذ إن الدولاب زاد من ارتفاع مركز ثقالة السفينة . وكان لا بد من زيادة الصابورة . وبهذا تحسن ثبات السفينة في الأنواء الجوية ، وبالتالي غدت أكثر حفاظاً على خط السير ، لا تتأثر كثيراً بفعل الريح والتيار ، وأكثر استجابة في مناوراتها ، نظراً لصغر قطر دورانها ، وبما أن الرفاص يقع تحت خط الماء فهو يشغل حيزاً أقل ويبقى أميناً من قذائف مدافع الخصم .

بتطبيق مبدأ الرفاص على المراكب الحربية انحسر الوهم القديم الذي ساد رؤوس العاملين في

البحر. فلم تعد السفينة الحربية البخارية خرافة. إذ سرعان ما عم استخدام البخار. ولم يأت عام (١٨٦٧) حتى غدت كل السفن الحربية لدى الأمم البحرية سفناً بخارية. ولم يبق من بحرية الشراع إلا الذكرى.

أدخلت التعديلات اللازمة على السفن، وجرت إلى اليابسة، أو أدخلت الأحواض الجافة، وأضيف على طولها طول تراوح بين ثمانية وعشرة أمتار، ضم المرجل والآلة والرفاص. وكان ذلك بمثابة تدبير عملي سريع للإفادة من السفن القديمة في حين راح مهندسو السفن يبنون سفناً حربية بخارية حديثة التصميم، أحاطوها بالرعاية، وأدخلوا عليها تحسينات متطورة وايجابية. وتركت السفن الشراعية القديمة غير القابلة للتعديل قابعة في الموانيء، تستخدم كمدارس للبحرية أو كثكنات للجند.

بدأت بوادر استخدام الحديد بدلاً من الخشب في بناء السفن.. فالخشب لا يسمح عملياً ببناء سفن تزيد أطوالها عن ٥٠ أو ٦٠ متراً، لأنه يزيد من عامل طفوها فيجعلها قليلة الاستقرار ضعيفة التوازن. كما أن صيانة الخشب باهظة التكاليف وصعبة تحتاج إلى قلفطة وإصلاح مستمرين ما بقيت السفينة تعمل في الماء. أما إن خزنت في الأحواض فتتآكل بسرعة أكبر، وتجف أعوادها ويفسد خشبها ويتفتت بسرعة عجيبة. أضف إلى ذلك أن بعض الدول وبالذات بريطانيا لم تكن تمتلك الغابات الكثيفة، والخشب في بلادها مادة عزيزة مرتفعة الأسعار، أغلبها يستورد مع استيراد القنب والقطران من بلاد السويد أو بلاد روسيا. وهذا ما جعلها تؤيد استخدام الحديد أو النحاس كبدائل عن الخشب.

في عام (١٧٩٧) قام ويلكينسون Wilkinson (٣٨) برحلة مائية على زورق معدني كتجربة أولى. إلا أن استخدام المعادن في بناء هياكل السفن لم يطبق إلا بعد عام (١٨٢٢). وأولى تلك السفن كانت الآرون مامبي Aaron Mamby، التي قطعت في أول رحلة لها سفرة بين لندن وباريس.

لا شك في أن عمر المعدن على المراكب يطول ويسهل صونه ضمن كلف بسيطة. وهو عنصر غير قابل للاحتراق. وباستخدامه نأمن شر اندلاع النار كما كان يحدث غالباً على السفن الخشبية، فإن وزن سفينة حديدية مماثلة لأخرى خشبية يجعل نظيرتها تفوقها في استطاعة التحميل. وهذا يعني كفاءة أفضل. وعلى هذا الأساس الاقتصادي تكاثرت السفن المعدنية خاصة في الأنهار والقنوات. ثم تسللت إلى البحر وهي منه راهبة. فرجال البحر والعاملون به يفضلون السفن الخشبية القديمة التي اعتادوها وآمنوا بقوة طفوها مهما تعرضت لفوهات المياه، أو غرقت عنابرها. وهم

لا يؤمنون بالمعدن خاصة على مركب حربي ، لأن انهيار الجدران وتفككها تحت تأثير القذائف ، أو إذا ما حدث شرخ نتيجة اصطدامها في الصخر ، سيجر الهلاك السريع لطاقم السفينة لأنها ستغوص في اليم خلال دقائق قليلة في حين تبقى سفينة الأمس الخشبية طافية برغم امتلاء قيعانها بالماء .

فكر مهندسو بناء السفن بطريقة الجدران الكتيمة . وكان رائدهم في البحث المهندس مونتجيري Montgery (١٨٢٤) الذي أشبع الطرح درساً ، لكن التطبيق تأخر (٤٠) سنة . وتعرض تعمير السفن بالحديد لمقاومة شديدة بادىء ذي بدء . ولولا إقدام بريطانيا على تذليل العقبات والشروع في تطبيق الأسلوب ، لتأخر الموعد عما هو عليه . وبالفعل سبقت بريطانيا جميع الأمم البحرية ، وغدت كل سفن أسطولها معدنية مع حلول عام (١٨٦٠) .

المدافع البحرية والتصيفح

بعد أن ربح مهندسو السفن الجولة الأولى في بناء الهياكل من معدن الحديد ، راحوا يشحذون الفكر لإيجاد أفضل السبل ، في سبيل إعطاء المركب الحربي صفات المقاومة وقوة التدمير . فاستهلوا أعمالهم باستبدال الكرات المعدنية القديمة بقذائف تحمل المتفجرات وتقذف بشحنة صغيرة من البارود بزوايا رمي كبيرة ، من فوهات نار خاصة ، ولم تنفع مدافع الهاون على السفن الكبيرة ، واقتصرت على الزوارق الصغيرة ذات الصفات القتالية الخاصة . وفي خلال القرن الثامن عشر وضع المكتشفون أسس قذف القنابل لمسافات بعيدة ، وأجروا تجارب ناجحة ذللوا من خلالها الصعاب السابقة . إلا أن العاملين في البحر نفروا من استخدام ذلك السلاح الرهيب ، وطالبوا بالإبقاء على الوسائط القديمة . ومرة أخرى تخلف سلاح البحر ، ومرت حروب أوربة خلال الثورة الفرنسية ، وخلال الإمبراطورية الأولى والمدفع الجديد يعمل في الجبهات البرية ، دون أن يجرؤ أحد على تجهيز السفن به ، لمعارضة ضباط أسلحة البحر له . واستمر الموقف متأرجحاً سنين طويلة حتى نشر الجنرال بيكسهانز Paixhans كتابه الشهير « القدرة البحرية الجديدة عام ١٨٢١ » ، الذي طرح على صفحاته فكرة تبني القذائف المخروطية الشكل أو الأسطوانية المدببة ، بعد أن أثبت بالحجة نجاعتها وحسن إصابتها لأهدافها . وتساءل عن أسباب رفض رجال البحر لهذا السلاح الحديث وكان لكتابه أثر كبير في خطط تسليح السفن . ودخل المدفع ذو السبطانة الطويلة ظافراً ، واتخذ مكاناً بارزاً على سطح السفن ، وأثبت مقدرته الخارقة . وكانت قذيفة واحدة منه تغني عن مئات الكرات المعدنية القديمة ، إذ لها من القوة الكافية لتدمير أقوى بوارج العصر .

تزامنت آراء بيكسهانز في فرنسا مع اختبارات سيتفنسن في أمريكا، وتجارب شركة كارون Carron في بريطانيا. واتفق الجميع على تعميم استخدام المدافع الحديثة على المراكب، برغم معارضه ضباط سلاح البحر في الدول الثلاث المذكورة. وسرعان ماعمت المدافع الجديدة ذات القذائف المخروطية المدببة، والمحشوة بالمتفجرات أكثر سفن الدول البحرية. إلا أن السلام الذي ساد أكثر من (٣٠) عاماً في العالم لم يعط فرصة اختبار هذا السلاح، ولم يسمع أحد بتجارب ميدون Meudon على المدفع الجديد حتى وقعت حرب القرم. وأظهر هذا السلاح قدرته المكنونة، ففي ٢٧ تشرين الثاني من عام (١٨٥٣) فاجأ الأسطول الروسي بإمرة الأميرال ناحينموف الأسطول التركي بإمرة حسين باشا في خليج سينوب Sinope، والسفن الروسية مجهزة بالمدافع الجديدة. ودارت المعركة فجاءت مذهلة للمراقبين. إذ استطاع الأسطول الروسي تدمير أو أسر كامل سفن الأسطول التركي، خلال ساعات قليلة من تبادل النيران. ولم ينج من سفن الأتراك إلا بخارية واحدة، في حين شبت الحرائق بأكثر السفن المصابة فالتهمتها، وغرقت البقية الباقية تحت وطأة القذائف الروسية الخارقة. وكانت حصيلة المعركة قتل وجرح ٤٥٠٠ مقاتل تركي، وخلال ساعات قليلة. وبمقارنة هذا الاحصاء مع خسائر معركة الطرف الأغر نجد فارقاً فاق ثلاثة الأضعاف.

بعد عام واحد من معركة القرم، وبالتحديد في ٢٥ تشرين الأول (١٨٥٤) قدمت (٢٦) بارجة حليفة (إنكليزية، فرنسية، تركية) واستعرضت أمام دفاعات جبهة سواسيتول وكان عليها (٥٧٨) مدفعاً، وهدفها تدمير مدافع قلاع كونستانتان، والكسندر، والكرنتينا. وبلغ مجموع مدافع القلاع (٧٩) مدفعاً فقط (لكنها مدافع برية من الطراز الحديث). وبرغم أن كرات مدافع الأسطول الحليف أصابت جدران القلاع الروسية الضخمة، فقد رد المدافعون بقذائفهم المخروطية الحديثة فأنزلوا الدمار في السفن المهاجمة. وأصيب العديد منها بأضرار جسيمة حتى اضطروا لجر عشر بوارج مدمرة خارج المعركة. ففي خلال /٥/ ساعات من التبادل المدفعي فقد الحلفاء (٥٢٧) رجلاً بين قتيل وجريح، في حين أصيب (٢٨) مدفعاً روسياً بأعطال بسيطة تم إصلاحها في اليوم التالي. ولم تتوقف القلاع عن الرمي إلا فترة وجيزة. وبالطبع جاءت تلك الملحمة البحرية برهاناً ساطعاً لفاعلية المدفع الحديث، ودرساً بليغاً للفئات الرافضة له، كما أوحى للقائمين على أسلحة البحر في الدول بالتفكير الجدي لإيجاد حماية ناجعة للسفن، عن طريق تصفيح هياكلها وتدريع مجنباتها.

والتقت الأفكار في كل من بريطانيا وفرنسا، وأقر مبدأ زيادة سماكة الجدران المحيطة بالمحركات، ومخازن القذائف، ومستودعات الفحم، إضافة إلى مواقع تواجد الأطقم، ولما كانت القذائف الحديثة

ذات قوة خرق عالية، كان لا بد من اللجوء إلى التصفيح. جاء استخدام الحديد ملبياً المطلب الجديد. فقشرة من الصفائح المعدنية بسماكة (١) سنتمتر تغلف طرحية من الخشب السميك قد توقف خرق كرة مدفع من عيار (٦٨) كغ، إلا أن هزيمة سيواستيول أجبرت مهندسي السفن على تدريع الجسور والمجنبات، فبنيت من العوارض الخشبية السميكة، وصولبت لزيادة مقاومتها، واستندت على جدران خشبية بسماكة (٢٠) سنتمتراً، وصفحت من الخارج بألواح حديدية وصلت سماكتها إلى (١٠) ستنمتر، وهي صفائح حديدية متصالبة لزيادة مقاومتها.

لم تتح الفرصة لمثل تلك السفن في معارك سيواستيول وقلاع كروسنتاد. وكان أول اختبار لها في الهجوم على قلعة كينبورن Kinburn، حيث اقتربت السفن المهاجمة ورست على مسافة بين (٦٠٠ و ١٠٠٠) متر، وقصفت مدافع القلعة، وتلقت وابلاً من النيران الأرضية لكنها لم تصب بكبير أذى (سفن مصفحة)، واقتصرت الخسائر على مقتل بضعة رجال وصلتهم القذائف عبر الكوى والفتحات. واستطاعت السفن المهاجمة وخلال (٤) ساعات من الاشتباك المدفعي إسكات مدافع القلعة، وتدمير الموقع، وجعل عاليه سافله، وانتهت به إلى الاستسلام المطلق.

تقرر جعل السفن الحربية في البلدان البحرية مدرعة، إلا أن بطاريات مدافعها الضخمة ظلت وئيدة الحركة.. فاتجه التفكير نحو تصغير حجم تلك السفن بإجراء تعديلات جذرية تناولت تخفيف الوزن الكلي، بإلغاء السطح العلوي وبطاريات مدافعه، وخفض مخزون الماء، ومخزون المواد التموينية، لصالح مخزون الفحم، ولم يزد طول السفينة عن الأطوال القديمة إلا بضعة أمتار فقط، وأحيطت الجدران بتصفيح معدني سميك وصل حتى ١٢ سنتمتراً، ولارتفاع (٤ر٥) متر فوق خط العوم، ولعمق مترين تحته. وأطلق على هذا الطراز من السفن اسم الفرقاطة المدرعة. وكانت مقاييسها من (٧٠ إلى ٨٠) متراً طولاً و(١٥ إلى ١٧) متراً عرضاً، وبوزن (٦) آلاف برميل، ومحركها بقوة (٩٠٠) حصان، وسرعتها حتى (١٢) عقدة. جاءت فرنسا سباقة في تعمير مثل ذلك الطراز، وتبعتها إنكلترة بعد عام واحد (١٨٥٩)، مع زيادة في طول السفينة وزيادة في حمولتها وصلت حتى (١٨) ألف برميل، فغدت سفناً ضخمة صعبة المراس سيئة المناورة. ولكي يخفف الإنكليز من حجم التصفيح قصروه على طول (٧٠) متراً فقط من الجوانب أي دون المقدمة والمؤخرة، فما إن تحتدم المعركة وتصاب المناطق غير المدرعة حتى تتناثر أخشابها فتطفو على سطح الماء، وتشتبك في شفرات الرفاص فتبطل عمله.

تقدمت فرنسا وبريطانيا باقي الدول البحرية في مضمار تصفيح السفن. وسرعان ما لحقت

بهما الولايات المتحدة وإسبانيا وتركيا وإيطاليا . وما إن هلت سبعينيات القرن التاسع عشر حتى غدت كل السفن مدرعة ، وتقاس قدرة كل دولة بحرية بعدد دارعاتها البحرية . وهكذا تغيرت شروط توازن القدرات البحرية بين الدول ، ولم يعد تفوق الأمس البحري قائماً إلا بمقدار ما تمتلكه الدولة من السفن الحديثة المدرعة . وعلى البلد ذي الأمجاد البحرية البدء من الصفر ، وانتاج سفن حديثة قوية مدرعة . وهذا يحتاج إلى مال وفير وجهد كبير . وبذلك تراجع التفوق البحري البريطاني الكاسح الذي ساد أيام بحرية الخشب والشراع ، وتقاربت مستويات قدرات الدول البحرية من بعضها البعض . ولمست بريطانيا حراجة موقفها عند ظهور الدارعات الفرنسية الحديثة في مياه بحر المانش ، إذ يعني ذلك عودة خطر غزو الجزر البريطانية من جديد .

الفصـــل الـثـالـث

حـروب البحريـات الحديثـة الأولـى
حـرب القـرم

إلى أي مدى وصل التقدم العلمي في علم حرب البحر ، وفي حياته البشرية ؟ وإلى ماذا سيؤول إليه مستقبل سيادة البحار ؟ وما هي آثاره على العمليات العسكرية البرية ، وعلى السياسة العامة العالمية ؟ وما هي طبيعة الحملات البحرية الجديدة ؟ وما صفات المعارك البحرية وملاحمها ؟ كل تلك الأسئلة وأسئلة أخرى عديدة ، ومتشعبة حملت المسؤولين في الدول المعاصرة واختصاصييهم على إشباع التطور البحري دراسة وتحليلاً . ولم يجدوا في النهاية إلا أجوبة نظرية سطحية تنقصها الخبرة الصادقة . وهنا كمنت الفائدة المميزة التي ارتبطت أصلاً بدراسة الظروف الاستثنائية التي اعترضت أعمال البحريات المعاصرة الحديثة .

قضية الشرق والحلف البريطاني الفرنسي

أولى حروب هذا العصر حرب بريطانيا مع الخصم الجديد روسيا . وهي حرب واقعة لا محالة بعد توجس الإنكليز شراً من اطماع قيصر روسيا في امتداد نفوذه عبر أوربة وآسيا ، والذي بدأ منذ عام (١٧٢٥) . وراقب الحكام البريطانيون بقلق متزايد تعاظم هذا البلد الكبير ، وتهديده للتوازن العام الأوربي الذي يتعارض مع مصالح بريطانيا الحيوية في العالم ، وخاصة في الشرق من آسيا . وخلال

الأعوام (١٨٢٩) و (١٨٣٣) و (١٨٤٠) استطاعت بريطانيا بدبلوماسيتها الفذة منع روسيا من الحصول على أي موقع استراتيجي في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، برغم ادعاءات هذه الأخيرة المتكررة بتنصيب نفسها حامية لأرثوذوكس اليونان والدولة العثمانية.. لكن لم يكن هذا يعني أن قيصر روسيا قد تخلى عن برامجه الطموحة والتي لا حدود لها في المنطقة والتي كان قد وضع أسسها ورسم أبعادها بطرس الأكبر وأكدها في وصيته الشهيرة مدفوعاً بتعصبه الديني والعرقي، إلى جانب مصالح روسيا السياسية والعسكرية في المنطقة.. وبالفعل كان كل شيء قد أعده حكام روسيا مترقبين فرصة دولية ليعرضوا أفكارهم كحل نهائي لا بديل له يتعلق بإعادة تكوين الإمبراطورية القيصرية البيزنطية وبخلاص الشعوب المسيحية من الإمبراطورية العثمانية وباقتطاع مساحات شاسعة من شرق أوربة وآسيا الصغرى لتنفذ روسيا من خلال ذلك إلى البحر الأبيض المتوسط، هذا البحر الاستراتيجي العظيم الذي يصل بين القارات الثلاث، والذي يلعب دوراً هاماً في سياسة الأمم وشعوبها، فتصبح روسيا (اعتقاد ساد أفكار حكامها) زعيمة لكل مسيحي الشرق، تجمعهم تحت لوائها، وضمن إمبراطوريتها..

على أثر الأزمة التي اجتاحت أوربة عام (١٨٤٨) بدت الظروف الدولية مؤاتية لروسيا. فالدولة العثمانية مفككة الأوصال، وفرنسا مأخوذة بثوراتها المتعددة، بعيدة عن مشاغل المسرح الأوربي وهمومه، والنمسا وبروسيا دولتان حليفتان لها، وليس في الأفق الا بريطانيا وحدها الحائل أمام اطماع القيصر وطموحاته.

اعتقد نيقولا الأول(٣٩) أن أمر الإنكليز سهل فيما لو أغراهم باقتسام المناطق الحيوية في المنطقة. ولم يخف قيصر روسيا رغبته في تنفيذ مآربه ضمن أمد قريب، إثر سلسلة لقاءات تمت بين القيصر والسفير هاميلتون سيمور Hamilton Seymaur في كانون الثاني (١٨٥٣) باقتسام الرجل المريض (الدولة العثمانية)، حيث اعتبر ذلك حقاً طبيعياً له. وقد لا يمانع في أن تأخذ بريطانيا حقها بالسيطرة على أرض مصر، وعلى جزيرة كريت مثلاً، وحتى ولو لم يحصل هو نفسه على القسطنطينية.

اعتبر قيصر روسيا تخطيطه مقبولاً لدى الإنكليز، فأرسل إلى القسطنطينية الأميرال مينشيكوف(٤٠) Menchikoff يحمله تعليماته التي تعرض على الباب العالي الاعتراف الرسمي بحق الروس في حماية الأرثوذوكس داخل الإمبراطورية العثمانية.

ونحن نعلم أن بريطانيا لا تهتم كثيراً بتملك الأرض، وتفضل عليه الانتشار الآمن لتجارتها،

وتؤمن بمبدأ تحقيق سلامة وحسن سير حركة التجارة الخارجية شرطاً ضرورياً لها في الحفاظ على مكانتها الدولية، ضمن ميزان القوى العالمي. وإقامة روسيا في حوض المتوسط وفي القسطنطينية بالذات يبدو أسوأ احتمال، ولا يمكنها تقبّله، خصوصاً إذا امتدت السيطرة الروسية على سورية ومصر. وهي ترفض أي تواجد روسي في شرقي البحر الأبيض المتوسط، ولو منحت نفوذاً على كل مناطق الدولة العثمانية في مصر وسورية، وتعتبر ذلك توزيعاً غير عادل. وتسلل نيقولا المتهور إلى المنطقة أمر بالغ الخطورة يجب وقفه وبشدة، لأنه قد يحمل خطراً كبيراً لبريطانيا ولدول أوربة الغربية. وإن أفضل سبيل لايقاف المد الروسي هو في المحافظة على تكامل الإمبراطورية العثمانية قوية. وأصبح هذا الشعار هدف دبلوماسيتها الرئيسي.

وبريطانيا ولا شك، قدرة بحرية كبيرة، لكنها ذات قدرة برية محدودة بمقارنتها بقدرة روسيا العسكرية، وبجيوشها الجرارة. والتي هي أكثر جيوش العالم عدداً.. إذ لا بد من حليف بري قوي يغطي النقص الكبير، أو بالأحرى جيش أوربي يقف براً إلى جانب بريطانيا. وليس هناك غير فرنسا سنداً، فهي الدولة الأوربية الأكثر اهتماماً بالحفاظ على التوازن الدولي، وبإيقاف التوسع الروسي عدو الشعوب الحرة والثورية. ونابليون الثالث[٤١] ملك فرنسا الذي أمضى سنوات طويلة في الجزر البريطانية يتعاطف مع الإنكليز، ومع سياستهم الخارجية، وخاصة مع السياسي المحنك بالمرستون، ويضمر لنيقولا الكره والازدراء، على أثر التنافس الشديد بين الروس والفرنسيين حول الأماكن المقدسة في فلسطين، حيث النصارى الكاثوليك (لاتين) تحميهم فرنسا بموجب اتفاقيات دولية، والذين تعرضوا لتحجيم تدريجي منذ عام (١٨٠٨) من قبل المسيحيين الشرقيين المتعاطفين مع روسيا، بسبب شهوة فرنسا في الظهور، وبكل المناسبات الدينية، على أنها المدافع الغيور عن شرف فرنسا في حماية الدين الكاثوليكي.

تحمس نابليون الثالث (١٨٥١) وطالب بالاعتراف بحقوق بلده، وتصحيح الأخطاء التي أصابت محاسيبهم في المنطقة. وأيده اللورد ستراتفورد دو ريدكليف Stratford De Redcliffe سفير بريطانيا في القسطنطينية. وأضاف مسألة الأماكن المقدسة، إلى جانب مطلب حماية المسيحيين، بالمشاركة الحميمة لحكومته، بالاتفاق مع سفير فرنسا السابق. وكان السفير على يقين بأن المطالب التي عرضها ستلقى الدعم الكامل من قبل حكومتي البلدين الغربيين.

رفض الباب العالي العثماني الإنذار الروسي المبطن الذي قدمه مينشيكوف، والذي سمي

بإنذار ٣١ مايس، والذي طالب العثمانيين بالاعتراف الفوري بحماية الروس للرعايا المسيحيين اليونانيين.

وقد رد الروس على الرفض العثماني باحتلال إمارتي مولدافيا Moldavie وفالاشيا Valachie في تموز. إلا أن الإجراء الارهابي لم يأت بنفع، فالتفاهم الفرنسي البريطاني كامل ومطلق، ولا بد من الحرب، وفرنسا تتطلع إليها بشدة لتثأر من أحداث عام (١٨١٥).

وجدت روسيا نفسها فجأة معزولة عن باقي الدول الأوربية، فالنمسا التي اعتقدها الروس ستهب لمساعدتهم رداً لصنيعهم لها عام (١٨٤٩)، صرحت دون تحفظ بعدائها الواضع لروسيا، فأذهشت العالم بنكرانها الفضل الروسي عليها. ثم قلدتها بالموقف بروسيا. ولم تنفع اجتماعات فيينا في تموز (١٨٥٣). وبدا التصميم على الحرب أكيداً لدى الفرنسيين والبريطانيين.

تحركت أساطيل الدولتين والتقت في حوض سالونيك، وانضمت تحت قيادة موحدة. وتقدم الأسطول الفرنسي البريطاني المشترك ورسا بسفنه في بيزيكا Bezika عند مدخل مضيق الدردنيل. وفي أيلول تحرك إلى داخل بحر مرمرة بجاهزية قتالية عالية، واستعرض أمام القسطنطينية ليلبي أول إشارة تعطى له من سفيري بلديهما، وليقف سداً منيعاً بين الأسطول الروسي والعاصمة التركية.

تورط قيصر روسيا في خطواته المتعاقبة التي كانت أجرأ من إمكاناته، وأقسى من أن يتراجع عنها. فلما جاءه الإنذار التركي بإخلاء الإمارتين مولدافيا وفالاشيا رد عليها بإعلان الحرب ٢٠ تشرين الأول. وخرج أسطوله في ٢٧ تشرين الثاني ودمر تشكيلاً بحرياً تركياً في سينوب. وفي أثناء ذلك تقدم الأسطول الفرنسي البريطاني التركي المشترك بإمرة دونداس Dundas وهاملان Hamelin فاتخذ موقعاً له في بيكوس Beicos لحماية القسطنطينية من أي هجوم معاد، ثم تقدم فدخل البحر الأسود ٣ كانون الثاني (١٨٥٣) ولدى اقترابه من المياه الروسية انسحب الأميرال ناحينموف إلى سيباسيتبول وأخلى البحر الأسود تفادياً لوقوع حرب شاملة مع الحلفاء فغدت جميع سواحل الدولة العثمانية آمنة.

لم يكن الإعداد الحربي الحليف لخوض المعركة الحقيقية كافياً إنما كان نوعاً من الضغط العسكري لإجبار الروس على إخلاء الامارتين مولدافيا وفالاشيا. إلا أنه تبين للحلفاء أن الروس ماضون في تنفيذ خططهم التوسعية، ولن يوقفهم التواجد البحري الحليف في البحر الأسود، ولا عرقلة تجارتهم فيه، لأنه بالأصل غير ذات قيمة. وبرغم الإنذارات المتكررة، التي كان آخرها في ٢٤

شباط ، زحفت القوات الروسية فقطعت نهر الدانوب وحاصرت سيليستري[٤٢] Silistrie وهاجمت آخر معقل على طريق القسطنطينية . وهنا وجد الحلفاء أنفسهم مطالبين بعمل عسكري عاجل ، خصوصاً بعد توقيع التحالف الثلاثي إثر عدة اجتماعات تمت بين ١٢ آذار و ١٠ نيسان ، وأهمها اجتماع ٢٧ آذار ، والذي أعلنت فيه كل من بريطانيا وفرنسا الحرب جهاراً على روسيا إلى جانب حليفتهما تركيا .

أبحرت سفن الحلفاء من فارنا Varna في ١٧ نيسان ، وقصدت مياه أوديسا ، فوصلتها في ٢٠ منه . وقد قدمت لمعاقبة الموقع الروسي هناك الذي فتح نيران مدافعه على زورق بريطاني يرفع علماً برلمانياً دلالة على وجود وفد صلح على الزورق .

تقدمت ثماني فرقاطات بخارية حديثة وقصفت دار صناعة السفن في الميناء ، ثم وجهت نيرانها على ثكنات الجند مجنبين المدينة والممتلكات الخاصة نيران سفنهم ، ولما انتهى عقاب موقع أوديسا تحرك الأسطول المشترك نحو سيباستيبول حيث الأميرال الروسي ناحينموف ، وبإمرته (١٦) بارجة و (٦) فرقاطات ، على كل فرقاطة (٦٠) مدفعاً ، في حين ضم الأسطول الحليف (١٧) بارجة و ٨ فرقاطات .

قرر الأميرال الروسي التخلي عن موقعه ، إذ كان يعرف مسبقاً عدم جدوى خوضه معركة مع الأسطول المشترك الذي يفوقه تسليحاً وتدريباً ، الذي يضم عدة سفن بخارية أربع منها ذات رفاص ، إضافة إلى أن البحارة الروس مزارعون في الأصل ، ومبتدئون جداً في أمور القتال البحري . ولهذا فهم لا يقوون على مجابهة بحارة الأميرالين دونداس وهاملين الذين تمرسوا في أمور قتال البحر وتكتيكه . ومجرد تواجد الحلفاء في المنطقة معناه انتقال سيادة البحر الأسود لهم . ولعل هناك سبباً آخر دفع بالأميرال الروسي للتخلي عن موقعه ، إذ خشي عدم تمكن تأمين الإمداد لأسطوله في موقعه المنعزل . لذا أقلع بعد أن أحرق القلاع الخمس عشرة الواقعة على شاطىء سيركاسي[٤٣] Circassie ، لكي لا يستفيد منها المهاجمون ، وقصد المجرى الأسفل لنهري الدون والدنيبير Don Dnieper ليعزز الدفاعات الروسية هناك ، متخذاً هو الآخر خطة دفاعية بحتة ، تناقض كلياً حماسه القتالي السابق ، والذي عبر عنه في عدة مناسبات . عندها عادت أساطيل الحلفاء في ٢٩ مايس إلى فارنا Varna ثانية ، دون أن تؤدي تحركاتها لأي نصر حربي .

وتتابع وصول القوات البرية الفرنسية والتركية والبريطانية إلى غاليبولي بإمرة اللورد البريطاني

راغلان[٤٤] Raglan والماريشال الفرنسي سانت آرنو[٤٥] Saint Arnaud ومن هناك نقلوا بحراً إلى فارنا بحماية تشكيل الأميرال برويا[٤٦] Bruat الذي قدم من المحيط معززاً القوى البحرية المهاجمة .

شعر الجنرال باسكيفيتش Paskiewitch قائد الجيش المحاصر لموقع سيلستري أن هناك خطة لتطويق جيشه وقطع الإمداد عنه ، فرفع حصاره واجتاز الدانوب عائداً ٢٥ حزيران . إلا أن انكفاءه لم يأت بالحل المنشود . فحتى النمسا التي حسب الحلفاء أنها ستنضم للقوى المدافعة عن الإمبراطورية العثمانية فاجأت الجميع بموافقتها على خطة الروس بعد أن حصلت منهم على وعد قاطع بإخلاء الإمارتين سبب الحرب . وبالفعل تقدمت الجيوش النمساوية فدخلت إمارتي مولدافيا وفالاشيا ، بعد انسحاب الروس منهما .

بقيت روسيا تحت السلاح جاهزة لاستخدامه في أول فرصة سانحة ، وبقي الخطر يهدد الدولة العثمانية من الشمال . وبقي خطر خروج المسيحيين في شرقي أوربة على تركيا والمطالبة بالانضمام إلى روسيا ، أو إعلان استقلال بلادهم . وحتى لا يجرؤ اليونانيون على بدء العصيان ومهاجمة الأتراك ترك الفرنسيون قوة عسكرية كبيرة في أثينا لهذا الغرض .

كيف السبيل إلى اقناع قيصر ؟ هل بإجراء عسكري حاسم يستهدف عاصمة ملكة ؟ أو بمهاجمة القلاع المحيطة بكرونستاد Cronstadt ؟ لإجباره على التراجع .

إن استطلاعاً عميقاً ومكثفاً تم في حزيران قام به كل من أمير البحر نابييه[٤٧] Napier وأمير البحر بارسيفال دي شين Parseval Des Chênes . وقد وجدا استحالة إجراء هجوم شامل لنقص في السفن الخاصة التي لم تكن قد أعدت بعد ، أما الهجوم عن طريق البر عبر الدانوب أي فرقة كانروبيرت Canrobert العسكرية المقيمة في دوبرودجا Dobroudja بزحف عبر بصربيا Bessarbie فقد أظهرت الاستطلاعات وجود صعوبات جمة قد تتعرض الهجوم البري ، لخطورة البلدان التي على القوات البرية عبورها ، إذ ستتعرض حتماً لنقص في الإمداد . وجاء قرار القيادة الحليفة يستبعد الحملة البرية ، لأنها حتى لو نجحت فلن يكون تأثيرها كبيراً على روسيا البلد الشاسع ، ولن يضطرها ذلك إلى طلب الصلح (عمق استراتيجي ووعورة في المسالك) .

مرت الأيام والتردد يهيمن على أفكار قادة الحلفاء ، فالإمدادات التي خزنت في بلغاريا بدأت بالتناقص وبسرعة مقلقة ، وأصيبت القوات البرية والبحرية بظروف صحية سيئة ، وانتشر وباء الكوليرا

(آب) فقضى على (٨٠٠) بحار خلال خمسة عشر يوماً . وكان معدل الموتى في الجيش البري من الوباء يزيد عن (١٠٠) رجل يومياً ، وضعف أو ثلاثة أضعاف هذا العدد مرضى ومصابون .

جرت مشاورات كثيفة بين قادة الحملة تضمنت دراسة عامة للموقف . ووجدوا أن هذا التدخل الكبير في حجمه تافه في أثره لدول عظمى . وحسماً للجدل اعتمد الطرح البريطاني القاضي ببدء حملة القرم .

كان على الحلفاء نقل قواتهم المشتركة إلى شبه جزيرة القرم لتدمير أحواض السفن الواسعة هناك ، والتي بناها الروس في سيباستيبول . والغاية من ذلك إضعاف قدرة روسيا البحرية في البحر الأسود ، واجبار الروس على قبول المفاوضات ، وحرمانهم ولمدة طويلة من سيادتهم على البحر الأسود ، قاعدتهم الهجومية الرئيسية ضد البر التركي . ولعل ذلك يخدم خطط البريطانيين في المنطقة ويمنع الروس من الارتقاء إلى مصاف الدول البحرية العظمى في المتوسط .

حملة القرم عملية شاقة تنبأ أمراء البحر بصعوباتها الخطرة ، ليس في عمليات النقل والإنزال فحسب ، بل لاضطرار الحلفاء لقضاء فصل الشتاء القارس هناك فيما لو تأخر النصر ، وامتدت معاركه في بلاد قليلة الموارد ، صعبة المسالك ، قاسية البرودة . فالعبء الكبير والحالة هذه سيقع ولا شك على عاتق الأسطول الذي سيقوم وحده بإمداد القوات البرية الضخمة في جبهة عمليات واسعة ، تبعد عن الوطن الأم ما يزيد عن ألف فرسخ ، وفي بحر مجهول اشتهرت عواصفه ، وعظمت أمواجه ، ويخلو من المرافىء الأمينة ، أو الملاجىء الطبيعية ، وفي ظروف قاسية تفوق طاقة البشر .

قضت التعليمات بتنفيذ الحملة مع كل ما أحاطها من صعاب . ففي ٣١ آب بدأ إصعاد الجند على السفن وانتهى في ٥ أيلول وبلغت قوة الحملة (٧) فرق عسكرية زاد عددها عن (٦٠) ألف مقاتل من فرنسيين وبريطانيين وأتراك ، جهزوا بكامل أعتدتهم القتالية من مدافع وذخائر وخيول وبغال ، شحنوا على متن (٣٥٦) سفينة ، (٨٩) منها حربية ، وضم الأسطول الفرنسي (١٥) بارجة ، (٤) منها ذات رفاص و (٦) فرقاطات بخارية ، وخمس شراعيات ، و (٢٩) سفينة حربية أخرى ، و (١١٧) سفينة نقل مستأجرة . أما الانكليز فقد نقلوا كل جنودهم بسفن تجارية بحتة ، وكانت قوتهم الحربية تماثل قوة فرنسا ، وقد قامت بدور المواكبة والحراسة .

جرت مرحلة الانتقال بهدوء دون عواصف تذكر . وأدارت عملية العبور هيئة أركان حرب مشتركة رشيدة ، احتسبت كل التوقيتات بتقدير دقيق ، ووصلت الحملة إلى سواحل القرم في ١٢

أيلول . وكانت قد سبقتها عدة سفن بخارية استطلعت بدقة سواحل الإنزال ونقاطه ، واختارت منطقة اولد فور Old Fort التي تقع على بعد (٤٥) كيلومتراً إلى الشمال من سيباستيبول ، وهي شواطىء رملية مفتوحة تستطيع مدفعية الأسطول المواكب قصفها من كل الاتجاهات ، ويحدها من الداخل مجموعة كبيرة من البحيرات المعزولة .

تعمد الحلفاء تحويل انتباه الروس في ايباتوريا Eupatoria وكاتشا Katcha خلال إنزال قواتهم في أولد فور (١٤ إلى ١٩ تموز) دون أحداث تذكر ، وبعد أن نزلت القوات اندفعت على الفور نحو مدينة سيباستيبول .

لم يتوقع الروس الهجوم بذاك الحجم وتلك الجدية ، إذ حشدوا معظم قواتهم المدافعة بعيداً في بروث Pruth وقدروها الموقع الذي وقع عليه اختيار الإنزال .

لم يواجه الحلفاء النازلون من قوة الروس التي قدرت بـ (٢٧٠) ألف مقاتل إلا بحدود (٥٠) ألفاً فقط تواجدوا في شبه الجزيرة .

هرع الأميرال الروسي لصد الهجوم (٢٠ أيلول) فمن وراء استحكاماته خلف نهر آلما Alma فتح نيران مدافعه ليوقف الزحف الحليف .. تسللت في أثناء ذلك فرقة بوسكيه Bosquet وعبرت النهر في مصبه عن مخاضة أشار إليها القائد البحري لارونسيير لونوري La Ronciére Le Noury ثم تسلقت جدار الشاطىء الصخري تحت حماية نيران الفرقاطات البحرية ، وطوقت جناح الروس اليساري . وبذلك أمنت حرية الطريق إلى سيباستيبول . حث الحلفاء خطاهم نحو الجنوب لاستكمال احتلال ميناء المدينة ، ليسهلوا على تشكيلاتهم البحرية تجاوز الحاجز المائي ، ودخول الميناء رغم نيران قلاع الاسكندر والكرنتينا وليفاجئوا الروس من الخلف ويجبرونهم على الاستسلام .

لمست السفن البخارية المتقدمة نحو مدخل المرفأ في ٢٣ منه بأنها تأخرت كثيراً ، وأن المدخل قد سد بإحكام لا يمكن تجاوزه ، إذ أغرق الأميرال الروسي سفناً في مدخل المعبر المائي بلغت (٦) بوارج وفرقاطتين ، لما تأكد له عدم قدرته على مجابهة الأسطول المغير .

توقفت السفن المهاجمة الحليفة بعد أن غدت عرضة لفيض من نيران بطاريات المدافع البرية ومدافع بقايا سفن الأسطول الروسي المتواجد في الميناء ، ففشلت مهمة الاستيلاء على المنشآت البحرية الواقعة على الضفة الشمالية من المرفأ . عندها قرر القائد الحليف التخلي عن خطة التسلل

بحراً، وأعطى أوامره للقوات البرية للقيام بهجوم جبهي، وتطويق المعسكرات الروسية المدافعة عن المدينة. وتم بالفعل خرق خط الدفاع وتطويقه في ٨ تشرين الأول، وبذلك بدأ حصار مدينة سيباستيبول الشهير.

والحق يقال إن سيباستيبول مدينة حصينة من البحر بسبع قلاع ضخمة ضمت (١٥٠) مدفعاً، لكن لم يفكر واضع خطة الدفاع عنها بتحصينها من جهة البر ألا بجدار بسيط ضعيف المقاومة. وفي خلال الأسابيع الأولى من بدء الغزو قام المهندس العسكري الروسي تولد ليبين Toldleben بتعزيز الموقع بمجموعة خنادق على مستوى سطح الأرض، وأنزل الأسطول الروسي مدافعه البحرية وربصها داخل الموقع، وبلغت (٢٠٠٠)مدفع، وأنزل معها (٢٠) ألف بحار ممن اعتادوا استخدام تلك المدافع الضخمة، يقودهم أمراء البحر ناحينموف، كورنيلوف Kornilof، وايزتومين Istomine، وحصنت المدينة من كافة جهاتها، وطلب إلى السكان إخلاء مساكنهم والقدوم داخل التحصين احترازاً من أي هجوم حليف.

اعتقد اللورد راغلان، والجنرال كانرو بيرت أنهما يستطيعان الاستهانة بالتحصينات الجديدة، والتخلص منها بقصف مفاجىء ومركز، فطلبا من سفن الأسطول الحليف المشاركة في مخطط النيران وقصف جبهة الروس الشاطئية.

مُني الحلفاء بالإخفاق، إذ لم تستطع سفن الأسطول المهاجم والتي بلغ عددها (٢٦) سفينة حربية الاقتراب من مواقع رمي مناسبة، بسبب العائق والمياه الضحلة التي أحاطت بالمعبر. وكان عليها لتكون قذائفها مؤثرة الاقتراب لمسافة (٤٠٠) متر من الحصون الروسية في حين لم يدعها الحاجز المائي واصطفت على مسافة بين (١٠٠٠ و ١٦٠٠) متر، وفتحت نيرانها (٤) ساعات متواصلة، قذفت في أثناءها (٤٠) ألف قذيفة أحدثت تهديمات بسيطة في جدران قلاع كونستانتان والكسندر المنيعة فقط. عندها استدارت السفن وعادت إلى مرساها تحمل إصابات جسيمة. واضطرت القيادة لإرسال العديد منها إلى القسطنطينية لإجراء الإصلاحات اللازمة عليها.

جرت معارك البر مخيبة للآمال أيضاً، فبواسطة (٢٠) مدفع هاون و(١٢) قاذف و(٢٤) مدفع ميدان لا يمكن عمل الكثير أمام مدافع بطاريات الخطوط الدفاعية، ذات الطرا ز البحري والعيارات الضخمة. واضطرت القوات المهاجمة لاستقدام (٣٠) مدفعاً بحرياً من الأسطول

لتعزيز القدرة النارية، لكن دون جدوى، واقتنع المهاجمون باستحالة خرق الدفاعات الروسية. واجتمعت الهيئة الحربية العليا في ٧ تشرين الثاني، وارجأت هجومها إلى العام المقبل.

تحققت الصعوبات التي تنبأ بها أمراء البحر، وأهمها قضاء فصل الشتاء في موقع غير مضياف من شبه جزيرة القرم. وفي ١١ تشرين الثاني وصلت للأساطيل الحليفة الأوامر باتخاذ التدابير الوقائية اللازمة لقضاء فصل الشتاء في بحر القرم، وقرب شواطئه، وفي مياه البحر الأسود عامة، حيث العواصف العاتية والأمواج العالية. وفي ١٤ تشرين الثاني لم تمهل الطبيعة المغيرين، واجتاحت المنطقة عاصفة مدمرة أكدت سمعة هذا البحر وشهرته، وأن ما يروى عنه ليس بالأساطير الروسية بل حقائق مرعبة.

شملت العاصفة كل مواقع الحلفاء، بالاكلاف Balaclave وكاميش Kamiesch وايباتوريا Eupatoria وانفرط عقد التشكيلات البحرية، وتاهت السفن بفعل الأعاصير.. وفقد العديد منها دفات التوجيه وجنحت على صخور الشواطىء ورمالها. وفقد البريطانيون في بالاكلاف (٤٠٠) رجل، ولم ينج من السفن الفرنسية في ايباتوريا إلا بخارية واحدة وجنحت الباقية أو غرقت. وكذلك كان النصيب ذاته لعدة سفن تركية.. ويقال أن تلك الفاجعة البحرية نبهت العلماء لإعطاء علم الرصد الجوي والتنبؤات عن حالة الطقس الأهمية اللازمة. فعلى أثر عاصفة البحر الأسود هذه ولد علم جديد سمي بعلم الأرصاد الجوية.

كانت مجمل الإصابات الكبيرة في السفن الشرعية لأن البخاريات استطاعت في الوقت المناسب المناورة والابتعاد. ما ان هدأت العاصفة حتى قرر أمراء البحر استبقاء قوة بحرية لمتابعة الحصار فقط واعادة ما تبقى إلى القسطنطينية.. وبالفعل بقيت (٨) بوارج و (٦) فرقاطات كبيرة وعدة فرقاطات متوسطة لتأمين الحصار المضروب بحراً وللتدخل في حال حدوث طارىء.

لم يحاول الروس تغيير موقفهم الدفاعي، وبقيت مواقعهم صامدة تتبادل القذائف ولفترات قصيرة، ولتعريف المهاجمين بإصرارهم على الصمود الطويل.

تكفل الأسطول الحليف بمهامه في تأمين إمداد وتموين القوات البرية التي وصل عددها في ربيع عام (١٨٥٥) إلى (١٥٠) ألف رجل. وكانت تلك المهام عبئاً كبيراً على أسلحة البحر، إذ من المستحيل الاعتماد على موارد البلاد، لأن الجيش الروسي المحتشد، والذي زاد تعداده عن الـ(١٠٠) ألف مقاتل حرم على الفرنسيين والبريطانيين أي نصيب من المنتجات المحلية. بل على

العكس زاد من أعباء المغيرين بشن إغارات شرسة مفاجئة عليهم، كما حدث في بالاكلاف ٢٥ تشرين الأول وانكرمان Inkerman ٦ تشرين الثاني وايبوتوريا Eupotoria ١٥ شباط. وإن أقل تهاون من قبل الحلفاء في سد ثغرات خطوطهم الدفاعية معناه كارثة عسكرية.

لم يستطع الحلفاء تحسين مواقعهم، وظلوا سادة الأرض التي تمركزوا عليها فقط، وقد كان عليهم إحضار كل احتياجاتهم من ألبسة وذخائر وأسلحة ومواد تموينية، حتى إن حطب التدفئة استقدموه، وبكثافة، لمحاربة البرد الذي عانوه خلال فصل الشتاء.

لعب الأسطول دور قاعدة للعمليات طيلة فترة تواجد الحلفاء في البحر الأسود. وكان الأداة الوحيدة للاتصال بالوطن الأم، وعصب حياة الحملة في جميع مراحلها، ولا يمكن الاستغناء عن خدماته المتواصلة التي فاقت حدود التصور. ولقد أدى العاملون على سفن الدول الحليفة مهامهم بحماس واندفاع منقطعي النظير، واتخذ البريطانيون ميناء بالاكلاف مرفأ رئيسياً لهم، كما اتخذ الفرنسيون كلاً من ميناء كامييش Kamiesch وميناء كاتشا Katcha قواعد رئيسية لهم. ووجد الجميع في تلك الموانىء الأمان من الهجمات الروسية البحرية من جهة، ومن خطر عواصف البحر وأمواجه من جهة أخرى. إلا أنه لم يخل الأمر من بضع حوادث عابرة ككارثة السفينة سيميلانت Semillante وهي إحدى سفن التموين الرئيسية بين أوربة والبحر الأسود، والتي فقدت في ١٦ شباط بعد أن تحطمت على صخور جزيرة لافيزي Lavezzi جنوب كورسيكا خلال قيامها بإحدى رحلاتها العادية، ولم ينج أحد من بحارتها أو من الجنود العابرين عليها والذين بلغ عددهم (٧٠٠) رجل.

احتلال مدينة سيباستيبول

عادت العمليات الحربية الحقيقية مع قدوم الربيع. فبعد أن وصل للحلفاء المعدات والأعتدة والأسلحة التي صممت خصوصاً لمد أمد الحصار وقع العبء البري كله على عاتق الفرنسيين، لأن الإنكليز أقروا منذ البداية بعدم استطاعتهم تحمل مطاليب الجهد العسكري، لقلة مواردهم القتالية البرية، وكلفت القوات الفرنسية تعاونها بعض الوحدات التركية والإنكليزية بمهاجمة النقطة المركزية مفتاح طوق روسيا الدفاعي والممثلة بحصن مالاكوف Malakoff الشهير.

كانت رغبة نابليون الثالث مهاجمة الجيش الروسي من الداخل، مع ترك حامية بسيطة أمام مدينة سيباستيبول كغطاء خفيف من المقاتلين تسند إليه مهمة المراقبة والمشاغل. وطلب من قادته

البحث عن معبر بري والتسلل منه، لمهاجمة الدفاعات الروسية من الوراء لقطع الإمدادات العسكرية عنها.

اعتذر القادة العسكريون عن تحقيق رغبة مليكهم، لعدم وجود مثل هذا المعبر، وخشوا حشد جيوشهم داخل أراضي يجهلونها، وفضلوا متابعة حصار المدينة بشكله التقليدي.

استغرق زحف القوات المهاجمة شهوراً عدة، إذ كانت تنتقل داخل خناق دفاعية بلغت عدة كيلومترات، حتى وصلت إلى خندقها الأخير المواجه لتحصينات الروس، والواقع على مسافة (٢٥) متراً من حصن مالاكوف. ورافق هذا الزحف تبادل مدفعي مخيف تزايدت فيه أعداد المدافع وأعيرتها. وكان تساقط الرجال صرعى تحت وابل القذائف يزداد يوماً بعد يوم. وبدأ المهاجمون يتساءلون عن موارد دولهم وهل هي كافية لتعززهم بالرجال والعتاد، والسلاح حتى نهاية أيام الحملة!!

طال الحصار دون حدوث معركة حاسمة، واتهم الجنرال كانروبير Canrobert بتردده في المعارك ليحمي أرواح رجاله، واستبدل الجنرال بحاكم سابق للجزائر هو الجنرال بيليسيه Pelissier. وما إن وصل القائد الجديد حتى أمر جميع قواته بالزحف العام، إلا أنه صدم بواقع المقاومة العنيفة لحصن مالاكوف، ووقعت إصابات ضخمة في صفوف المهاجمين مما اضطره إلى التراجع. وقد اصطلى رجاله بنيران بطاريات البر، وبنيران مدافع الأسطول الروسي الراسي في خليج كاريناج Carenage.

أحرز بيليسيه في هجومه الكبير مكسباً تكتيكياً وحيداً هو حرمان الروس من التزود بمياه نهر الدونا، حيث أقاموا. وكان لهم في آزوف Azov وتاغانروغ Taganrog وبيرديانسك Berdiansk مستودعات تموين ضخمة، فلما انسحبوا عنها في بدء القتال استولى عليها المهاجمون ودمروها ودمروا كل المنشآت الحيوية.

في ٢٤ مايس قام كل من أمير البحر برويا Bruat وأمير البحر ليونز Lyons، على رأس قوة من (٥٦) سفينة حربية بخارية، ودخلوا خليج كامييش Kamiesch وأنزلوا قوة على البر، دمرت معاقل وسدود كيرتش Kertch وايثيكابيل Ienikabel من الخلف، فأمنت بذلك حرية استخدام المعبر المائي، الذي لم ينجح الروس في سده، وفتح الخليج على مصراعيه أمام سفن الحلفاء وزوارقهم، فراحوا يمرحون في بحر آزوف بحرية تامة، وينتقلون بين كل مرافىء الشاطىء، وينزلون على اليابسة

فيدمرون المنشآت ، أو يحرقون السفن الروسية ، ويستولون على المواد التموينية ، وعلى أعتدة الحرب ، التي كدست بكميات ضخمة داخل الميناء .

نجح الحلفاء في إقامة كمائن برية على عقد مواصلات الروس ، فقطعوا السير بين سهم آرابات Arabat وبحر بوتريد Putride ، وعزلوا شبه جزيرة القرم عن الوطن الأم روسيا . وغدا جيش الأمير غورتشاكوف[48] Gortchakof عاجزاً عن أي عمل حاسم للنقص الشديد الذي أصابه في إمداداته ، فبعد قتاله المرّ والمركز على طول خطوط التماس ، (معارك تراكتير Traktir وتشيرنايا Tchernaia) ١٨ آب ، اضطر إلى الالتزام بالحيطة ، داخل خطوط دفاعه ، حفاظاً على ذخيرته الحربية المحدودة حتى نهاية الحصار ، وصل الحصار إلى مرحلته النهائية في ٨ أيلول ، إذ قذف بيليسيه بجميع جيوشه من فرنسية وانكليزية وإيطالية (شاركت إيطاليا فيما بعد) وتركية باتجاه خنادق دفاعات الروس ، كما استطاع الجنرال ماكماهون Macmahon الثبات قرب حصن مالاكوف .

قاوم الروس الهجوم الحليف بضراوة مشهودة ، لكنهم قرروا التخلي عن المدينة بعد إخلائها وإشعال النيران فيها ، وتركها أرضاً محروقة أمام الغزاة ، وإغراق باقي سفنهم داخل الميناء ، ثم الانسحاب باتجاه سيمفيروبول Simferopol .

توصل الحلفاء إلى تحقيق جزء من هدفهم بعد (١٣) شهراً ، وأخليت سيباستيبول فقط . لكن بقي القسم الأعظم من شبه الجزيرة في أيدي الروس . وقدرة روسيا العسكرية كما نعلم لا يمكنها أن تتأثر بمثل هذا النصر الحليف الصغير ، وبالتالي لن تقبل بشروط المهاجمين ، وهنا تساءل الحلفاء عن خطوتهم التالية .

بعد أن انهارت آمال الحلفاء في قبول روسيا المفاوضات ، أو في حدوث تفكك داخل الإمبراطورية القيصرية الروسية ، بسبب المعارضين المسلمين الذين اعتقدوهم سيهبون في مناطقهم قفقاسيا وبلاد بحر الخزر يثورون على القيصر الروسي ونظامه ، إلا أن حلمهم هذا لم يحدث ، وظل الصمود الروسي قائماً .

تابع الحلفاء زحفهم ببطء شديد ، واحتلوا فاناغوريا Fanagoria وتامان Taman ٢٥ أيلول من باب الاحتياط لجبهة جيوشهم ، في حين لم يشكل سقوط هذين الموقعين بالنسبة لبلاد روسيا الواسطة إلا وخزة إبرة صغيرة مثله مثل الحريق الذي شب في حزيران على سواحل بحر آزوف .

لم يحاول الحلفاء الاقتراب من مدينة أوديسا ، برغم انها بلد مفتوحة واستعاضوا عنها بالهجوم

على كيرسون Kerson ونيكولايفسك Nikolaievsk ، وهما موقعان حربيان هامان يتحكمان بفتحة نهر الدنيبير حيث يجلب الروس منه مجمل إمداداتهم لجيش القرم. ويدافع عن هذين الموقعين قلعتا اوتشاكوف Otchakof وكينبرن Kinburn المنيعتان .

هاجم الحلفاء كينبرن أولاً ، وكان هجوماً مدروساً تضمن العديد من الفوائد الحربية التي كسبها الحلفاء خلال خبرة عامين من القتال في الربوع الروسية . وبفضل التنسيق الكامل بين جيوش البر وقوى البحر جاءت النتيجة إيجابية وسريعة . ففي ١٤ تشرين الأول تسللت (٩) زوارق مدفعية إلى المناطق الضحلة من فتحة النهر ، وقطعت كل اتصال نهري بين نيكولايفسك ، وكينبرن ، ومنعت وصول الإمدادات ، إضافة إلى مهاجمتها لبطاريات المدافع الروسية من الخلف . وفي ١٥ منه نزل (٨٠٠٠) مقاتل من قوة الجنرال بازين(٤٩) Bazaine ، وقطعت اللسان البري الممتد في البحر ، والذي تحصن عليه الروس وفي (١٧) منه وفي التاسعة صباحاً تقدمت ثلاث بطاريات مدفعية عائمة فتمركزت على (٨٠٠) متر مع (١١) زورقاً مدفعياً على مسافة (١٣٠٠) مترٍ و (١٣) قاذفاً طويلاً على مسافة (٢٥٠٠) مترٍ من القلعة ، وبدأ القصف المباشر . وفي الساعة (١١) دخلت (٩) بوارج مخطط النيران ، وساندت المهاجمين بمدافعها . وفي أثناء المعركة لحقت بالبوارج (٩) فرقاطات بخارية انتظمت هي الأخرى إلى جانب زوارق المدفعية تصب نيران مدافعها على مواقع القلعة ، وطوقت أسوار القلعة بالنيران من كل اتجاه ، ولم يعد هناك أي منفذ للانسحاب . وقرر الجنرال كوكونوفيتش Kokonowitch رفع العلم الأبيض دليل الاستسلام ، وسقطت القلعة الشهيرة ، واستسلمت حاميتها وعددها (١٤٠٠) مقاتل ، وبحوزتهم (١٧٦) مدفعاً .

لم يؤثر هذا الحدث أيضاً على حجم قدرة روسيا وتصميمها . ووجد الحلف ، أن انتصاراتهم المزيلة لا تقدم ولا تؤخر ، وأن سبيلهم الوحيد هو في بدء المباحثات لتوفير الجهد والمال ، وليعطوا الروس الجدية في القول باشروا بالانسحاب قبل بدء المفاوضات . ففي ٧ تشرين الثاني رحل نصف المحاربين على البر مع معظم السفن الحربية بإمرة الأميرال بروبا إلى القسطنطينية ، وبقيت قوة مناسبة تحتل سيباستيبول ، التي قرر الحلفاء الاحتفاظ بها حتى توقيع معاهدات السلام .

عمليات بحر البلطيق والبحار البعيدة

أرادت بريطانيا نقل معاركها الرئيسية إلى جوار العاصمة الروسية ، لتكون أداة ضغط فاعلة ، بعد فشل تأثير المعارك الدائرة في أطراف الدولة الواسعة . ولهذا أعطت أمير بحرها دونداس (١٠)

بوارج شراعية لعملياته في البحر الأسود، في حين خصت الأميرال نابييه Napie المكلف بعمليات بحر البلطيق بأقوى اسطول بخاري معاصر، تضمن (١٣) بارجة مختلطة (بخارية شراعية)، و(١٢) بخارية برفاص، وورشة إصلاحات عائمة، إضافة إلى عمارة مؤلفة من (٦) بوارج شراعية قوية.

في مطلع نيسان من عام (١٨٥٤) وصل نابييه سواحل فنلندا، ومشارف كرونستادت Cronstadt. وهناك التحق به الأسطول الفرنسي المؤلف من (٩) بوارج، واحدة منهن بخارية بإمرة الأميرال بارسيفال ديشين Parsival Deschênes.

مر البريطانيون والفرنسيون بسفنهم أمام كرونستادت في عرض للعضلات. ولما لم يتحرك الروس أرسلوا قسماً من سفنهم بعيداً، وأبقوا (١٢) بارجة بريطانية و(٦) بوارج فرنسية فقط. ومع ذلك لم يشجع الموقف الجديد والمتوازن الـ (٢٥) بارجة روسية والراسية في الميناء على الخروج، ومقاتلة القادمين. ولم يجرب الحلفاء الهجوم على الموقع لمناعته فهو محصن بـ (٣٠٠٠) مدفع خلف أسوار ضخمة لا تؤثر فيها القنابل إلا من مسافات قريبة، وهذا مستحيل التحقيق بحراً، لأن الأعماق المحيطة بسيطة، لا تسمح باقتراب السفن المغيرة. عندها اكتفى الحلفاء بشل حركة الروس التجارية وتدميرها في بحر البلطيق مع تدمير التحصينات الثانوية المنتشرة على طول الساحل.

نجح الحلفاء في بومرساند Bomarsund من جزر آلاند Aland، بعد أن طلب البريطانيون، كما فعلوا في القرم، نجدة برية فرنسية، جهزت في كاليه، ثم نقلت وأنزلت ٦ آب على البر.. فأجبرت حامية الموقع على الاستسلام بعد أيام قليلة من القتال. وعند اقتراب فصل الشتاء انسحب الحلفاء من بومرساند، وتخلت سفنهم عن بحر البلطيق، لأن القوة البرية مهما عززت ستبقى عاجزة عن مقاومة القوات الروسية التي باستطاعة روسيا نقلها عبر الحدود الفنلندية مروراً فوق المياه المتجلدة.

باشر الحلفاء انسحابهم في ٢ أيلول بعد أن دمروا كل المنشآت التي كان الروس قد أقاموها في جزر آلاند. وأقلع الأسطول المشترك مبتعداً عن الجوار على أمل العودة مع إطلالة الربيع. إلا أن عام (١٨٥٥) لم يكن عام الحلفاء. فقد استنفذت فيه كل طاقاتهم المتاحة، وتأخر إعداد السفن الخاصة التي بنيت خصوصياً للهجوم على كرونستادت، ولم تجهز في الوقت المحدد لها. وخفضت مهام الأسطول في بحر البلطيق، واقتصرت على عمليات قطع خطوط المواصلات، وازعاج الملاحة ووقف أعمال التبادل التجاري، مع شن إغارات محدودة على الشواطىء وبنطاق ضيق. والغاية من

ذلك استنزاف الروس وإجبارهم على تخصيص جزء كبير من قواتهم في الجبهة الشمالية، ليخف ضغطهم العسكري على باقي مسارح العمليات.

قام الأسطول الحليف بالمهام المنوطة به خير قيام، وقد أوهم الروس بعملية وشيكة الوقوع، تشمل إنزالاً واسع النطاق، يستهدف عاصمة ملكهم. فاضطروهم لاستبقاء أكثر من (١٧٠) ألف مقاتل في استونيا وفنلندا، كان بإمكانهم المشاركة في عمليات القرم، وازعاج المغيرين هناك وتغيير نتائج الحرب أساساً.

من أهم العمليات الحربية التي جرت على المسرح الشمالي العملية التي استهدفت سفيبورغ Sveaborg وهو الموقع الحصين المقام على مدخل خليج هيلسنكفور Helsingfors. وقد استخدمت فيها السفن البخارية الحديثة من زوارق مدفعية وزوارق قواذف. ففي خلال الأيام ٩، ١٠، ١١ آب قامت السفن المسلحة الصغيرة بمساندة من مدافع فرنسية، نصبت في جزيرة ابراهام Abraham، فقذفت (١٨) ألف قذيفة وقنبلة على تحصينات ومنشآت الميناء. ولم تنسحب السفن المهاجمة إلا بعد أن أنزلت بهما خسائر مادية كبيرة، وأعطبت (٦) بوارج، و (٣) فرقاطات روسية راسية في حوضه.

بحث البريطانيون والفرنسيون في البحار الأخرى عن السفن الروسية لتدميرها. وقد جرهم هذا البحث حتى بحار الشمال حيث الجبال الجليدية، ودمروا كولا Kola، ثم دخلوا البحر الأبيض ودمروا عدة أديرة محصنة استخدمتها القوات الروسية ثكنات لجنودها. وفي الشرق قام أمراء البحر برايس Price وفيبفريه Febvrier وديسبوانت Despointes بمحاولة تدمير منشآت بيتروبافلوسك Petropavlosk في خليج آفاتشا Avatsha، إلا أن انتحار الأميرال الإنكليزي أدى إلى التردد في اختيار محاور العمليات، إثر محاولة إنزال مُحْبطه قام بها الحلفاء، فأصيبوا بخسائر بشرية فادحة وانسحبوا ٤ ــ ٧ أيلول. وفي العام الذي تلا عاد الأميرالان بروس Bruce وفوريشون Fourichon مجدداً أمام بيتروبافلوسك فوجدا المكان خالياً، وقد هجره المدافعون، بعد أن دمروا كل منشآته.

لم تتأثر روسيا بمعارك عامي (١٨٥٤ ــ ١٨٥٥)، لكنها لمست إعداد الحلفاء لحملات أكثر ضراوة وحدة لعام (١٨٥٦)، ولمست أيضاً عداء أوربياً لها عندما أعلنت سردينيا العداء لروسيا علانية كانون الثاني (١٨٥٥)، ثم جاء دور السويد، وقد أغرتها وعود فنلندا، فانحازت إلى صف الحلفاء. وخلال ذلك اعتقدت النمسا أن بانحياز سردينيا للصف الحليف سيصيبها الأذى فقررت

إعادة النظر في ارتباطات القوى المحافظة والرجعية ضد القوى الثورية القادمة من أوربة الغربية، وحاولت التقرب من روسيا. إلا أن بروسيا وقفت في وجه تعبئة العنصر الجرماني، عندها قرر البلاط الملكي في فيينا الذي اقتنع بضرورة وقف نمو النفوذ الفرنسي الناجم عن الانتصارات على الجبهة الروسية، وذلك عن طريق وقف تلك الحرب. وتوسطت لإنهاء النزاع، فقامت في تشرين الثاني (١٨٥٥) بتوجيه إنذار إلى قيصر روسيا بهذا المعنى.

فهمت حكومة بطرسبرج أن اللعبة قد ضاعت من يدها، وأن لا مجال للنيل من الإمبراطورية العثمانية. إذ وقف الكل سداً يمنع الرياح الروسية الطامعة في الوصول إلى جنوب شرقي أوربة، ومات في أثناء ذلك نيقولا الأول القيصر الحديدي الذي لم يسجل له التاريخ تراجعاً عن قرار ٢ آذار (١٨٥٥) وخلفه ابنه الاسكندر الذي سعى وراء سلام مشرف، حتى إن سيباستيبول التي وقعت في أيدي الحلفاء بقيت مدينة مجيدة للمهزومين، كما هي للمنتصرين. وان الجيش الروسي في آسيا وبعد حملة ناجحة استولى فيها على كارس Kars ٢٥ تشرين الثاني (١٨٥٥)، لم يستغل نشاطه الحربي، وقرر ١٦ كانون الثاني (١٨٥٦) الإصغاء لعرض النمساويين. وبعد شهر ٢٥ شباط عقد أول اجتماع في باريس ضم كل ممثلي القوى العظمى، وجرت مشاورات جادة انتهت في ٣٠ آذار بتوقيع معاهدة السلام العامة، والتي نصت على هذه المقولة:

«كل القوى تعترف وتضمن استقلال وتكامل الإمبراطورية العثمانية»

تنازلت روسيا عن مطالبتها بحماية الارثوذوكس، وتخلت عن حقها في الرقابة التي كانت تمارسها منذ عام (١٨١٢) على حكام الأمارات، وانسحبت من المواقع التي كانت قد احتلتها على دلتا نهر الدانوب. وبقي البوسفور كما كان في الماضي محرماً على الأساطيل الحربية ولجميع الأمم. وقصرت الملاحة في نهر الدانوب على السفن التجارية فقط، وشكلت هيئة عالمية كلفت بتأمين مدخل مصب هذا النهر وإدارته وصيانته. وأخيراً أُعلن البحر الأسود بحراً محايداً، وتعهدت تركيا وروسيا بعدم إقامة أسطول حربي فيه، كما وعد القيصر بعدم اعادة تحصين سيباستيبول.

توقف الإمتداد الروسي نحو القسطنطينية، لكن الظروف بقيت دون حل جذري، عرضة للانتكاس في أول فرصة دولية مؤاتية. ولقد حدث هذا فعلاً عام (١٨٧٠) عندما تقلص الزخم الأوربي الغربي في المنطقة، فمزقت روسيا عهودها السابقة، وأعادت سيباستيبول مدينة حصينة، وعاد أسطولها الحربي يجوب مياه البحر الأسود أكثر قوة وبأساً. وبعد ثمانية أعوام بدأت عملية تقطيع أوصال لتركيا وممتلكاتها من جديد.

أما ما عاد بالنفع العام على القوى العظمى من حرب القرم فهو قضية التوازن البحري الحربي. فبريطانيا هدأت حين طردت روسيا من المتوسط، وحين عززت نفوذها في تركيا الموحدة، وحين غدت أسيرة الكرم في بلاد اليونان (تقديم الجزر الايونية هدية بمناسبة تسلم الملك جورج العرش عام ١٨٦٣)، لكن الرابح الحقيقي برغم التضحيات الكبرى هو نابليون الثالث الرجل الذي أطل على أوربة بوجه وسيط السلام، المدافع عن حقوق الشعوب المستضعفة. وهذا يعد تغييراً جذرياً بالنسبة لفرنسا، فجهزت بصوتها بعد كبت طويل إثر هزيمة نابليون الأول عام (١٨٤٥). وأولى ثمار هذه الحقبة هو في إعلان ١٦ نيسان (١٨٥٦) المتعلق بالحقوق البحرية، وهذه بعض نقاطها الهامة:

١ ــ تكون الملاحة والتجارة أيام الحرب للدول المحايدة حرة على شواطىء وفي مياه الدول المتحاربة.
٢ ــ تبقى البضائع التي تخص العدو حرة تحت علم دولة محايدة، أما البضائع التي تخص الدول المحايدة فهي حرة حتى تحت علم دولة معادية.
٣ ــ كل حصار فعال وحقيقي يعتبر مشروعاً. وهذا هو المذهب الذي سعت إليه فرنسا دوماً، ومنذ أكثر من قرن، وقبلت به بريطانيا. وهكذا تخلصت شعوب العالم من قوانين إنكلترا القديمة الجائرة.

بحرياً لم تكن النتائج باهرة، وبتحليلنا للدروس المستقاة من حرب القرم نجد أن الدور الأول الذي أنيط بسلاح البحر آنذاك، والذي أدى إلى نجاح المهمة هو دور النقل. وهي مهمة شاقة قد تكون ذات أثر في الحروب المستقبلية، لكن يجب أن لا يغرب عن البال أن الأسطول الحربي في الأصل قوة عسكرية جهزت لتقاتل قوة عسكرية معادية. وقبل أن نستخدم البحر في الخدمات علينا أن نستولي عليه، ونفرض احترامنا فيه، ونسوده. وهذا الأمر لم يحدث فعلاً في حرب القرم، إذ لم تحدث معارك بحرية بمعناها الحقيقي، فالروس انسحبوا من ساحات القتال البحرية، وأخلوها لعدو قدروه يفوقهم عدة وعدداً. واعتقد بعض الباحثين أن الأمر سيكون كذلك مستقبلاً، لا معارك بحرية، بل يعلن النصر لمجرد تواجد الأقوى على الساحة، بعد أن يحشد أساطيله بأسلحتها المدمرة المتطورة، وبتجهيزاتها العلمية الراقية... فكرة تنبع من الضرورة، شهدنا أمثولات لها عديدة، آخرها كان التواجد البحري الغربي في (حرب لبنان الأهلية ١٩٨٣).

غدا الإعداد الفني للحرب البحرية هو الأهم إن قورن بالحرب نفسها. وأصبحت فكرة استخدام الأجهزة العلمية التي طورت أيام السلم، والتي تطرح للتجربة في أيام الحرب، وتقلص دور

البحار المقدام الذي جاب المحيطات ، وشاركه بالمجد المهندس والفني ، وكلهم بحاجة للمال الوفير . وساد اعتقاد دام طيلة نصف قرن ، تنبأ باضمحلال شأن القتال البحري وتكتيكه ، لكن معارك البحر الضارية خلال الحربين العالميتين قد أعادت إلى الأذهان شأن القائد الكبير ، وإعداد خطط القتال وأثرها في إحقاق النصر .

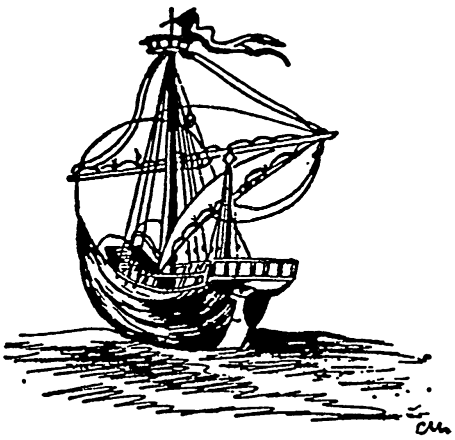

الفصل الرابع

الحروب الأولى للبحرية الحديثة
(حرب الانفصال)

اقتصرت العمليات البحرية في حرب القرم على السفن البخارية وبقايا السفن الشراعية. وقامت جميعها بمهمة النقل فقط، ولم تجد فرصة لخوض معارك بحرية حقيقية، وتأخر ظهور السفن الحديثة حتى حرب الانفصال الأمريكية.

أخذت الأساطيل البحرية المتطورة دوراً جديداً في حرب الانفصال الأمريكية، فهي أداة احتلال وسيطرة، إضافة لما عرفناه عن مهامها السابقة العديدة. ولا بد قبل أن نخوض في تفاصيل حرب الانفصال الأمريكية من أن نشير إلى أسبابها المباشرة والأولية.

بدأ الإعداد القتالي لدى الجنوبيين وكأن الحرب أمر لا بد واقع. وقد سبق ذلك حربهم ضد الفرنسيين والإنكليز، نتيجة خلافات عميقة باعدت بين مصالحهم ومصالح المستعمرين، خصوصاً بعد نمو ولايات الاتحاد وتقدمها.

انتشرت المدن المكتظة بالسكان في شمال البلاد الأمريكية، وامتدت السهول الشاسعة إلى الغرب منها حيث سكنها القادمون الجدد من المزارعين، وأقاموا فيما بينهم مجتمعاً جديداً شاباً، عنيفاً وطموحاً، لعب الدين في مرحلة نشوئه دوراً كبيراً.

تمسكت الولايات الجنوبية بتقاليدها القديمة. كيف ولا وهي ولايات الارستقراطيين كبار الملاك، الذين يفخرون بثرواتهم الضخمة، ويتبجحون بحقوقهم الجائرة ويمثلون بأفكارهم الخاصة المجتمع الغاضب الذي يرفض الرضوخ لمشيئة الغالبية، وينكر التضحية الذاتية، ولا يتخلى عن المزايا التي اغتصبها بغطرسة المستعمر وعجرفته. وهكذا تعايشت في الوطن الأمريكي فئتان مختلفتان متباينتا الأفكار والمعتقدات، أمر الوفاق بينهما مستحيل. وإن حصل فهو تفاهم ضمن تسويات مؤقتة ضعيفة البنية، لينة العود.

أولى القضايا التي باعدت بين الشمال والجنوب قضية الرق، وهي سبب رئيسي في وقوع النزاع المسلح. فالوجود القائم لمؤسسة الرق لا يقره سفسطة أو عرف، والمؤسسة أثارت بتصرفاتها ضمائر المتدينين، وعنفوان الإنسان المتحضر من شعوب الشمال.

حاول الشماليون إبطال مفعول هذه المؤسسة بقانون اتحادي (فيدرالي) دون جدوى، ثم منعوا الاتجار بالعبيد (١٨٠٨)، وساووه بعمل القرصنة تماماً (١٨٢٠)، واخضعوه لعقوباته، ثم أصدروا في العام نفسه اتفاق كلاي[٥٠] Clay الذي أعطى المعادين للرق حق تملك الأرض إلى الشمال من خط عرض (٥٣٦)، واعتبروها أرض استيطان الأحرار. ونجح الحزب الجمهوري في إقرار إعتاق العبيد السود، ومنع الرق عليهم.

بقيت كل النظريات والتوصيات والقرارات حبراً على ورق بالنسبة لسكان الولايات الجنوبية، حيث أعلنوا مراراً تمسكهم باستعباد السود، لأنهم عصب مصالحهم الاقتصادية. بدون سواعد السود لا يمكن تحقيق زراعة ضخمة، خاصة زراعة القطن المزدهرة، واستعبادهم ضرورة للحفاظ على النظام ضمن مجتمعهم المتكبر، وقتل لنزوات الرافضين الإفريقيين. ولولا هذا لتعرضت حياة كل أبيض للخطر.

رفض الجنوبيون كل عرض اتحادي للإشراف على شؤون العبيد، واعتبروا ولاياتهم وان انضمت إلى الاتحاد سابقاً، فانضمامها منطقي يدين بتسلسل زمني وقدر تاريخي. وهذا لا يلزمهم بشيء، وهم متمسكون بكل الحقوق التي لم يأت عليها الحلف الاتحادي، ونظام حقوق الولايات، الذي نادى به الحزب الديمقراطي واعتبره عقيدته الرئيسية. فبفضل شعار هذا الحزب حافظ الجنوبيون على تسلطهم الجائر، وقاوموا بشدة كل الجهود التي بذلت لرفع المعاناة عن العبيد، وتحريرهم من غطرسة الرجل الأبيض. وتشددوا في تملك العبد الأسود، برغم انعتاق أمثالهم في ولايات أمريكا الشمالية، ومنذ أمد بعيد.

من الأسباب الجوهرية الأخرى التي أججت كوامن الغضب بين الشمال والجنوب ، التعرفة الجمركية التي كانت ذات أثر كبير ، والتي فرضت بقسوة على كل المستوردات ، فكانت وحتى نهاية القرن الثامن عشر ضد مصالح ولايات الشمال ، لأن كل ثرواتهم تأتي عن طريق التجارة الخارجية ، أو عن طريق الصيد والتعمير البحري ، إلا أن تزايد السكان ونشوء صناعات محلية كثيرة خلقت مزايا جديدة حفظت للأمريكيين أسواقهم . فبعد عام (١٨٣٩) ألغيت الديون ، وبدأت الولايات الجنوبية تعاني من ارتفاع نسب التعرفة الجمركية ، التي كانت هي وراءها بالأمس ، فإذا بها تنقلب ضدها وتشكو ثقلها ، نظراً لعدم امتلاك تلك الولايات للسفن التجارية ، وليس على أرضها صناعات . وكان عليها أن تستورد كل احتياجاتها من الخارج ، تحت عبء رسوم جمركية مرتفعة . واتجهت نحو تعزيز روابطها مع أوربة .. لا محبة بها ، بل لتجعلها تستوعب كميات القطن الضخمة التي تنتجها محلياً . وتأزم الموقف العام .. وبادرت كارولينا الجنوبية فأعلنت بطلان القوانين الاتحادية عليها (١٨٣٥) .. إلا أن تدخلاً سريعاً أصلح الشأن وخفض التعرفة بنسبة ٢٠ بالمئة فقط كحل مؤقت .. لكن ظل الكره يتفاعل بين الشمال والجنوب ، خصوصاً بعد حرمان العمال عند الجنوبيين من أبسط مطالب الحياة المعيشية ، لأن الشماليين يمنعون الجنوبيين من الأثراء الفاحش والسريع .

استمر الخلاف سلبياً وهادئاً ، وعملت القوانين الدستورية على تأييد وجهة نظر الجمهوريين القاضية باعتاق العبيد ، لكن تلك القوانين تخضع دوماً للطعن والتعديل من قبل الكونغرس . وهنا كان يكمن الخطر . خصوصاً وفارق عدد السكان بين الشمال والجنوب بدأ يتعاظم ، حيث كان عام (١٨٢٠) (٥) ملايين في الشمال مقابل (٤) ملايين في الجنوب . ويعود السبب في ذلك للطف مناخ الولايات الشمالية وطبيعتها التي تستقطب الوافدين الجدد ، حتى أصبحوا الأكثرية في مجالس النواب لانتخابهم مباشرة وبنسبة التعداد . إلا أن تعديلاً طرأ فجعل لكل ولاية مهما عظم تعدادها نائبين . ولما كانت ولايات الشمال تساوي عدد ولايات الجنوب فقد بقيت القرارات متوازنة ، واستطاع الجنوبيون المحافظة على القوانين السارية المتعلقة بالرق وتفرعاته .

لم يستمر الوضع طويلاً ، فبعد حرب المكسيك (١٨٤٦ ــ ١٨٤٨) وتعاطف أمريكا الوسطى وجزر الآنتيل ، ومسألة التكساس ، والمساحات الشاسعة في الغرب الأمريكي ، وقضيتا كوبا ونيكاراغوا ، نادى رؤساء الحزب الديمقراطي بالمحافظة على قوانين الرق ولو أدى ذلك إلى محاربة الدول الأوربية وإنكلترا بالذات (بعد قضية نيكاراغوا ١٨٥٢ وقضية اريغون Aregon ١٨٥٦) .

لم تأت سياسة التشدد التي مارسها الجنوبيون بثمارها فتدفق المهاجرين الأوربيين الكبير عبر المحيط الأطلسي ارتفع عدده إلى (١٠٠) ألف عام (١٨٤٠) وإلى (٤٢٨) ألف عام (١٨٥٠) . ووصل إلى (٥ر٢) مليون نسمة خلال الخمسة أعوام التي تلت ، وغالبية القادمين ألمان وايرلنديون جاؤوا إلى الولايات الشمالية ، حيث الأرض خيرة والعمل وفير . وهذا التدفق أخل بالتوازن العددي بين الشمال والجنوب (٥ر١٣ مليون سكان الولايات الشمالية مقابل (٥ر٩) مليون نسبة سكان الولايات الجنوبية ، منهم (٥ر٣) مليون من العبيد) . ولمس كافة الفرقاء أن الأغلبية لن تسكت طويلاً عن تصرفات الأقلية الجنوبية . والشماليون يتمثلون بأجدادهم في تحريم الرق ، وعلى الجنوبيين إقرار رغبة الأكثرية في الاتحاد .

جرت انتخابات رئاسية عام (١٨٦٠) ، وكانت حدثاً مهماً في تاريخ الولايات المتحدة ونجح أبراهام لينكولن[٥١] مرشح الـ (٨ر١) مليون جمهوري على مرشحي الـ (٨ر٢) مليون ديمقراطي (السبب توزعت أصوات الديمقراطيين على مرشحين ثلاثة) وجاء لينكولن محرر العبيد ، وعدو الحركات الانفضالية إلى الحكم في ٦ تشرين الثاني .

أعلنت كارولينا الجنوبية انفصالها في ٢٠ كانون الأول (١٨٦٠) وتبعتها على الفور الآباما ، وفلوريدا ، وجورجيا ، ولويزيانا ، والمسيسيبي . واجتمع ممثلون عن الانفصاليين في مونتغمري ٩ شباط (١٨٦١) ، وأقروا إقامة اتحاد كونفيدرالي للدفاع عن استقلال ولاياتهم من السيطرة الاتحادية . وانضمت إليهم فيما بعد ولايات تكساس ، وفرجينيا وأركانساس وتينسي ، وكانتاكي ، وميسوري . وتمت إقامة الاتحاد الكونفيدرالي برئاسة الديناميكي جيفرسون ديفيس Jefferson Davis ، وأعلنت ريتشموند Richmond عاصمة له ، وجمعت الأموال ونظمت الجيوش ، وأقيمت حكومة قوية هيمنت على التجمع الجديد ، وأخذت تستعد لمهاجمة الولايات الأخرى التي بقيت أمينة للاتحاد .

رفض لينكولن هذا الانفصال ، وطالب مواطنيه بالاعداد للدفاع عن قانون الاتحاد ، وعن الوحدة الوطنية .

بدأ الانفصاليون ، ومنذ مطلع شهر كانون الثاني بالاستيلاء على المنشآت الفيدرالية الواقعة ضمن أقاليمهم . وقاومت عدة نقاط عسكرية تأتمر بحكومة واشنطن (منها حصن سومتير Sumter) القائم قرب مدينة شارلستون ، ولم يسقط هذا الحصن إلا في ١٢ نيسان ، وكان سقوطه ايذاناً ببدء حرب الانفصال .

على أثر الاعتداءات المتكررة جندت. حكومة واشنطن قوة مهمتها مراقبة الانفصاليين في الولايات اللأخرى كولاية ماريلاند، وتأمين سلامة واشنطن وسلامة الكونغرس فيها، لم تنجح هذه القوة، وأصيبت في ٢١ تموز بصدمـة حين انهزم جيش ماك دويـل Mac Dowell الزاحـف نحو ريتشموند في معركة بولزران Bull's Run، وعاد القهقرى حتى وصل ضواحي واشنطن معترفاً بصعوبة مهمته، وبأنها ليست عملية قمع عصيان بل حرب حقيقية بين قوتين مستقلتين كبيرتين أعد الخصم لها منذ عشرات السنين.

كان لدى الشماليين يوم نشب القتال كل التسهيلات العسكرية لصالح المعركة فهم يمتلكون الخطوط الحديدية العديدة، ولديهم سلاح بحري قوي يتمركز في الشمال، إضافة إلى مئات من السفن التجارية يسيطرون بوساطتها على التجارة الخارجية، في حين لم يكن عند الجنوبيين إلا القطن فقط، وهم بحاجة لجيرانهم الشماليين في عملية تسويقه ونقله إلى أوربة.

بدأ التحرك الشمالي ضمن تجمعات من الرجال الشجعان تنقصهم الخبرة العسكرية، وضروب القتال. وظلوا في تخبطهم حتى برز بينهم قادة أفذاذ أمثال غرانت[٥٢] Grant وشيرمان[٥٣] Sherman وتحولت الميليشيات البسيطة لجيوش نظامية تحاكي بإعدادها جيوش أوربة المعاصرة.

اختلف الموقف في البحر فالجنوبيون لا يملكون السفن الحربية، ويفتقرون للمنشآت الخاصة ببناء السفن، لذلك قرروا ترك البحر لعجزهم عن مجابهة الشماليين فيه. أما الشماليون فقد امتلكوا أسطولاً ضخماً ضم كل أنواع السفن الحربية والعديد من السفن التجارية. ولم يكتفوا بذلك بل سارعوا إلى تجهيز سفن مدرعة. ولقد توصلوا بفضل ورشهم العديدة في نيويورك وإنكلترا الجديدة إلى تجهيز العديد من الدارعات. وبلغت قوة الشماليين خلال أعوام ثلاثة (١٤١) بخارية حربية، و(٦٢) دارعة، وارتفع تعداد السفن المسلحة من (٢٥٠) سفينة عام (١٨٦٢) إلى (٤٠٠) سفينة عام (١٨٦٣)، وإلى (٧٠٠) سفينة عام (١٨٦٤)، منها (٢٣٦) مركب قتال، و(٥٥٩) بخارية تضم جميعها (٤٦١٠) مدافع، ويطقمها (٨٠) ألف رجل. وبسرعة أصبحت أمريكا أقوى دول العالم بحراً، ووقعت في موضع حسد الدول الأوربية العريقة في أمور البحر. وتفاءل الأوربيون خيراً عند بدء أحداث حرب الانفصال، واعتقدوا أن تلك الحرب ستمزق هذه الدولة القوية المزاحمة. وهذا لا يزعجهم حقاً بل على العكس سيزيح عن طريقهم خصماً فتياً، وسيعود العالم ومن جديد لقبضة أيديهم، ولسيطرة دول الاستعمار القديم. وهذا ما جعلهم يقفون مع انتصار الجنوب وتحلل الاتحاد.

كان بود الفرنسيين والإنكليز على السواء دخول الحرب لتعجيل سقوط الاتحاد ، لكن دخولهما الحرب معناه تأييدهما للرق ، وهذا أمر تظاهرا بعدائه ، ولن تغفر لهما جماهير شعبيهما وجماهير دول أوربة قاطبة . وبالفعل وقفت جموع العمال في تلك الحقبة موقفاً رائعاً خصوصاً في كل من فرنسا وبريطانيا ، إذ برغم وجود آلاف العاطلين عن العمل بسبب توقف ورود القطن الأمريكي لم يطالبوا حكوماتهم بالتدخل ، ورفضوا عودة القطن لمصانعهم إن كان ذلك سيكرس بقاء النير في رقاب العبيد ، بل على العكس طالبوا حكامهم بالتعاطف مع الشماليين في سبيل تحرير العبيد .

قدم نابليون الثالث اقتراحاً للوزير بالمرستون كانون الثاني (١٨٦٣) اعتبر وساطة مشتركة . رفض بالمرستون العرض مع أنه كتم شعور النقمة التي أصبح كل بريطاني يكنها لحليف الأمس أمريكا .

في تشرين الثاني من عام (١٨٦١) قام ضابط أمريكي بدافع من حماسة وطنية وقبض على وكيلين كونفيدرالين (جنوبيين) كانا على السفينة البريطانية ترانت Trent ، فأثار هذا السلوك مشاعر البريطانيين ، وبدأت جندوهم تصل تباعاً إلى كندا على متن السفينة الحديثة غريت ايسترن Great Eastern إعداداً لتدخل بريطاني . وأنفقت بريطانيا مبلغ (٢٠٠) مليون فرنك في الإعداد الحربي . إلا أن العقل تغلب على العاطفة ، وأيقنت بريطانيا أن أية مغامرة حربية مع الأمريكيين وفي بلادهم أمر لن تحمد عقباه ، خصوصاً وأمريكا خصم بحري قوي ، تتواجد وحداته في كل بحار العالم .

لم تتدخل أوربة عسكرياً بل ساعدت الجنوبيين بالخفاء، باعترافها السريع في كيانهم . وصرحوا رسمياً عن حيادهم إنكلترا في ١٣ مايس وفرنسا في ١١ حزيران من عام (١٨٦١) وكان ذلك بمثابة منح البركة للانفصاليين ، وتخلٍ واضح عن حكومة واشنطن الشرعية .

حصار السواحل الجنوبية

من أهم الأحداث التي فرضت نفسها هي في قطع علاقات الجنوب الأمريكي مع الدول الغربية . فالولايات الكونفدرالية الجديدة لا تمتلك صناعة متطورة ، وليست قادرة على إقامة حياة اقتصادية متوازنة . وهي تعتمد على ما تستورده من العالم الخارجي بمبادلة قطنها الوفير . فإذا أغلقت موانئها أمام السفن الأوربية توقف إمدادها الخارجي ، وتوقف تصدير قطنها . وهذا معناه عجز في تغطية مطالب الحرب المالية ، وتناقص بالسلاح والذخيرة وضعف في قدرتها القتالية .

فحصار الشواطىء الجنوبية التي دعا إليه لينكولن ١٨ نيسان (١٨٦١) عمل هام فيما لو تم احكامه ، يحتاج إلى قوة بحرية كبيرة تمنع كل محاولة عبور أو تسلل ، وتعطل الممرات البحرية الهامة .

أولى مراحل الحصار عملية أسطول الصخور ، وهي عملية عائق اصطناعي تألف من (٢٥) زورقاً دعموا بالاسمنت ، وأغرقوا أمام شارلستون كانون الأول (١٨٦١) . لم يصمد هذا العائق طويلاً ، إذ دمرته التيارات والأمواج البحرية القوية . وعاد مدخل الميناء صالحاً للملاحة من جديد .

وقعت مهمة حصار الشواطىء على كاهل الأسطول . وكان عليه مراقبة سواحل تزيد أطوالها عن (٤٥٠٠) كيلومتر ، وتمتد من رأس هنري حتى رأس مات مور . وقد احتوت العديد من الخلجان والبحار الداخلية الصغيرة التي يصعب الاقتراب منها ومراقبة مايجري داخلها من استعدادات حربية . ونظراً للاتساع الهائل لحدود المهمة قصرت على مراقبة المرافىء الرئيسية التي تقع على مصبات الأنهار القابلة للملاحة ، أو المتصلة بعقد شبكات الخطوط الحديدية .

بدأ الحصار بـ (٤٠) سفينة حربية وارتفع العدد حتى أصبح يضم أربعة أساطيل ضخمة يضم كل أسطول من ٣٠ إلى ٥٠ سفينة أطلق عليها اسم مجموعة فكانت :

- مجموعة الأطلسي الشمالي .
- مجموعة الأطلسي الجنوبي .
- مجموعة الخليج الغربي .
- مجموعة الخليج الشرقي .

هدد الجنوبيون سفن الشماليين باستخدام المبتكرات الهجومية الحديثة ، وصنعوا بإشراف موراي Mauray دفاعات تحت مائية ، واستخدموا ألغاماً بحرية وطوربيدات ساكنة ، نصبت تحت سطح الماء تحرس مداخل المعابر الضيقة وتصيب من يجرؤ على تجاوزها . وبالفعل غرق للاتحاديين نتيجة اصطدام سفنهم بتلك العوائق الدفاعية سفن عدة ؛ غرقت خلال دقائق قليلة . ومن تلك السفن الدارعات باتابسكو Patapsco وتيكومش Tecumsch ، وعدد غير قليل من الفرقاطات والزوارق المسلحة .

تشجع الجنوبيون فهاجموا سفن الشماليين وهي في عرض البحر ، وكانوا يقتربون منها ويربطون

على أجنابها عبوات من البارود تحملها زوارق بخارية أو قوارب تجذيف ومن السفن التي غرقت بتلك الطريقة الشراعية هوساتونيك Housatonic في ١٠ كانون الأول (١٨٦٤) وحدث ذلك أمام مرفأ شارلستون . .

حقق الشماليون جزءاً من حصارهم وحافظوا عليه حتى نهاية الحرب ، واستخدموا فيه (١٤٠٠) سفينة جميعها مسلحة بكافة أنواع الأسلحة .

تعددت محاولات الجنوبيين في فك الحصار . وكان آخرها استخدام سفن خاصة أطلق عليها خارقات الحصار Blockade-Runners . وأصبحت تلك الوسيلة واسطة ملاحية معتمدة ، عادت على العديد من مالكي السفن بالربح الوفير ، وتنفذ تلك الطريقة بوساطة سفن قوية بنيت خصوصاً لتلك المهمة ، غاطسها ضئيل وسرعتها كبيرة (١٧ إلى ١٨ عقدة) ، تأتي من مرفأ محايد مجاور مثل ناسو باهاما Nassou des Bahamas أو برمودا Bermudes أو هافانا . وبعد أن تتخلص من المطاردات المحاصرة تتقدم لمدخل الميناء المقصود ، وتخترق حصاره بسرعتها القصوى تحت نيران سفن الاتحاديين ، متفادية كل اشتباك قتالي . وما إن تملأ عنابرها بالقطن حتى تعود كما أتت مسرعة فتخترق الحصار إلى البحر ، وتقصد موانىء السفن القادمة من أوربة لتفرغ حمولتها عليها .

وبرغم خارقات الحصار هذه أصيب الجنوبيون بأزمات مالية حادة ، واستهلك مخزون البلاد ، واضطرت حكومة ريتشموند إلى رفع الضرائب بنسبة ١٥٪ على الأرباح وإلى ٥ر١٪ على رؤوس الأموال . ومع ذلك ظل العجز يتفاقم ، واستمر ميزان المدفوعات في تراجع ، والحالة الاقتصادية في تدهور . ولتغطية هذا العجز الكبير لجأت حكومة الجنوبيين إلى إصدار أوراق نقدية إضافية وضعت في التداول ، فارتفع سعر الذهب إلى (٩٠٠) بالمائة ، وأصبحت قيمة عملة أهل الشمال أربعة أمثال قيمة عملة أهل الجنوب . وتبع ذلك ارتفاع شديد في أسعار المواد الأولية ، والمواد الاستهلاكية . وبدأ الشعب يفقد حماسته للحرب لكثرة ما أصابه منها من ويلات الجوع والبؤس والعجز .

لم يكن الحصار وحده كافياً لهزيمة الجنوبيين . فالمستودعات وخزائن البلاد التي كانت مترعة بالخيرات قبل نشوب الحرب مدّت في مقاومتهم ، واعتمدوا على ما تنتجه البلاد اعتماداً كلياً . ومن ثم نهجوا خطة الدفاع في البر والبحر ، ليقتصدوا في قدراتهم القتالية ، فبعد أن كانت أفضل جيوشهم (جيش فرجينيا) الذي دافع عن ريتشموند وهدد واشنطن التي تنتهج أسلوب الهجوم اعتمد الدفاع للنقص الكبير في إمداداته ، وفضل التمركز في مواقعه مدافعاً . ثم انهزم مع إنهزام الجيوش الأخرى يوم انهارت الجبهات القتالية نتيجة قلة الموارد .

أما بالنسبة لقوات الشمال، فسيادة البحر التي في أيديهم أمنت لهم استمرارية تدفق الإمدادات بالمواد الحياتية والقتالية، وجعلت قواتهم البرية مدججة بالسلاح والذخيرة وقادرة على كل أنواع القتال، إضافة إلى تفوق عسكري مدعم باستراتيجية ناجحة وسياسة حكيمة.

فكرت هيئة أركان حرب الاتحاديين باستغلال سيادتهم البحرية، وقدرتهم على الانتقال السريع، وفتح جبهات حربية في مسارح عمليات جانبية لم يحشد فيها الانفصاليون قدرات قتالية كبيرة. وكان أول المنفذين الجنرال ماك كليلان(٥٤) Mac Clellan الذي شهد حرب القرم، وأعجب بالحضور الجديد لبحرية البخار، ومدى العون الذي قدمته لجيوش البر. واقترح على لينكولن إنزال ضربة مفاجئة قد تكون حاسمة عن طريق عملية إنزال بحرية إلى الجنوب من شيسابيك Chesapeake، حيث تتقدم القوات المهاجمة فتحتل مصبين نهرين هما يورك York وجيمس James، ثم تصعد شمالاً فتهدد ريتشموند وتهاجمها من الخلف، وتفاجىء جيش الانفصاليين في رابا هانوي Rappahanoe الذي يثبت من الجهة المقابلة بجيوش تتحرك باتجاه بوتاماك Potamac. لكن حدثاً بحرياً هاماً أوقف تنفيذ الخطة فما هو هذا الحدث؟

فرقاطة نصف محترقة عثر عليها الجنوبيون في حوض صناعة السفن بنورفولك هي الماريماك Marrimac، فأصلحوا شأنها وصفحوها بقضبان السكك الحديدية وسلحوها بـ (٨) مدافع ضخمة وأحاطوها بمعاقل من الجدران المائلة الضخمة فكانت أشبه بالأبراج، وأطلق على الماريماك اسم فرجينيا. ولما جهزت قتالياً خرج بها قائدها بوشانان(٥٥) Buchanan من نورفولك، وهاجم خليج هامبتون رودز Hampton Roods حيث يرسو الأسطول الاتحادي الذي أوكلت إليه مهمة المواصلات بين واشنطن وقلعة مونرو Monroe ومهمة حماية مصب نهر جيمس.

حدث الأمر بسرعة مدهشة ففي لحظات أصاب بوشانان (٤) فرقاطات اتحادية جنحت منها اثنتان على الصخر، وغرقت الثالثة واشتعلت بالرابعة النيران. وتقدمت فرجينيا فيما بعد وصدمت الشراعية كامبرلاند صدمة قوية بمخمزها ففتحت فيها كوة ضخمة ودخل ماء البحر جوفها وغرقت ٨ آذار (١٨٦٢).

وصلت أنباء تلك الكارثة البحرية الكبيرة إلى شمال البلاد فخيم الخوف والأسى وتوقفت إعدادات حملة الإنزال في مصب نهر جيمس، ليس لوجود الفرجينيا التي لا تقهر فحسب بل بالخوف على حصن مونرو نفسه، والذي يعتبر الخط الدفاعي الأول عن هاتيرا وواشنطن. وتوجس القادة العسكريون خيفة من تلك السفينة الخارقة التي قلبت ميازين القوى في المنطقة.

لم يستمر هذا القلق طويلاً ، وفي غد المعركة المذكورة آنفاً حاولت فرجينيا (الميريماك) تتويج نصرها بتدمير الفرقاطتين اللتين جنحتا على الصخر واقتربت لتجهز عليها بمدافعها القوية ، إلا أن خصماً عنيداً يليق بها برز للساحة وهو المونيتور [٥٦] Monitor الجديد ، وهو عبارة عن سفينة حربية قوية مدرعة.وكانت بإمرة الملازم واردن Warden ، التي قادها من نيويورك مباشرة إلى مسرح العملية .

اشتبكت السفينتان ومن مسافة بسيطة ، وانهالت القذائف بغزارة مرعبة دون نتائج إيجابية لأحد الطرفين على الآخر . فالقذائف لا تقوى على خرق صفائح تدريع المركبين المشتبكين .

حاول بوشانون تكرار القصف في اليوم التالي ، ثم اقترب ليطعن المونيتور بمخمزه (رمح المقدمة) لكن يقظة واردن فوتت عليه الفرصة . واستمر النزال بين المركبين حتى تعطلت أجهزة دفع الفرجينيا ، وجرح قائدها جرحاً بليغاً . عندها تخلى الطاقم عن القتال ، وانسحبت السفينة الجنوبية إلى مرفأ نورفولك ولم تخرج منه قط .

اقتصرت عملية ماك كليلان بعد غياب فرجينيا على نهر يورك فقط ، ونفذ إنزاله بين ١٦ و ١٩ آذار بجيش ضم (١١٠) آلاف مقاتل و (١٥) ألف حصان و (٣٠٠) مدفع جاؤوا جميعهم من الاسكندرية وآنابوليس . وتم الإنزال دون حادث يذكر . سوى غرق (٨) بغال .

حرر المهاجمون بعد عدة أيام فرجينيا واستولوا على يوركتاون ونورفولك . وهنا أحرق الانفصاليون أسطولهم خشية وقوعه في أيدي المهاجمين . واحترقت فرجينيا (الميريماك) قبل أن يصل إليها الشماليون .

حاول القائدان البحريان غولد سبورو Gold Sborough وروجرز Rodgers استغلال النصر ودخلا مصب نهر جيمس ووصلا حتى (١٠) كيلومترات من عاصمة الجنوبيين ريتشموند ، لكنهما اضطرا للتوقف أمام الدفاعات الكثيفة ، والعوائق لحصن دارلنغ Darling .

كان بإمكان الدارعات من طراز مونيتور أمثال نانغاتوك Nangatuck وغالينا Galena المساعدة في تحطيم بطاريات المدافع الأرضية ، لولا رفض قادتها المجازفة في دخول الميناء المليء بحطامات سفن الجنوبيين الغارقة ، وبالألغام البحرية الكثيرة التي زرعها الجنوبيون قبل انسحابهم . وفضلوا انتظار الجيش البري الذي وصل في الأول من حزيران .

دارت معارك طاحنة بين القوات الشمالية وقوات جيفرسون دافيس لم تسفر عن شيء .

عندها شن الانفصاليون هجوماً مضاداً واسع النطاق لم يتوقعه الشماليون ، وتقدمت قوات الانفصاليين حتى بوتوماك Potomac وشيناندواه Shenandoah ، وتراجع ماك كليلان ، وأسرع في إصعاد قواته على السفن من جديد لنجدة واشنطن المهددة . وهكذا انتهى آخر فصل من حملة فرجينيا الجنوبية .

لم يمنع تقهقر الفيدراليين عن متابعة استغلال تفوقهم البحري وسيادتهم المطلقة على شواطىء البلاد . وقرروا مهاجمة سواحل الجنوبيين بلا هوادة ، وشن إغارات متعاقبة لإضعاف معنويات المدافعين ، وفي أثناء ذلك جهز الجنوبيون سفينة تجارية ضخمة صفحوها على طريقة الميرماك التي ورد ذكرها ، وأطلقوا عليها اسم البيمارل Albemarle ، وأرسلوها تزعج مواصلات الشماليين في البحيرات القليلة الأعماق ، والتي لا تستطيع السفن العادية ولوجها . واستمرت الالبيمارل في عمليات إزعاج الشماليين وتهديدهم حتى هاجمها الضابط كوشينغ Cushing وأغرقها في مرسى بليموت بطوربيد أطلقه عليها خلال استيلاء الشماليين على الميناء . ولسقوط هذا الموقع البحري الجنوبي الأخير غدت كل مياه كارولينا الشمالية الإقليمية في قبضة الشماليين وتعاقبت بدءاً من آب (١٨٦٤) عملسات استسلام المواقع الجنوبية الأخرى وسقط بور رويال Port Royal وحصن بولاسكي Pulaski وحصن ماك اليستر Mac Alister وحصن سان أغوستين San Augustinee إثر إنزال قوات تحادية صغيرة تحت حماية مدافع السفن الاتحادية المدرعة .

استسلمت آخر سفن الجنوبيين أمثال أتلانتا Atlanta وويهاو كن Weehaw Ken فساد الاتحاديون كل النقاط الهامة الساحلية باستثناء شارلستون وويلمذكتون على الأطلسي وموبيل Mobile وكالفستون Calveston في الخليج . وكان أشد المواقع الجنوبية مناعة حصن سومتر Sumter ذو الجدران الخمسة القوية والـ ١٣٥ كوة مدفع .

شيد حصن سومتر على جزيرة في منتصف مدخل النهر ، في موقع يشرف على كل الاتجاهات . وكلف الأميرال ديبون Dupont بمهاجمته ، فقدم في ٧ نيسان (١٨٦٣) على فرقاطة مدرعة تحرسها ثمانية مونيتورات (زوارق مسلحة ومدرعة) . واتخذ موقعاً على مسافة تتروح بين (٨٠٠ و ١٧٠٠) متراً ، وقذف الحصن بـ(٥٠) قذيفة خدشت جدرانه فقط ، وتعرضت القوة المهاجمة لوابل من مدافع الحصن حتى إن الفرقاطة كيوكوك Keokuk غرقت خلال الليل .

حاول دالهغرين Dalhgreen خليفة ديبون ، الذي تصور أن بإمكانه خرق جدران الحصن من

جهة شارلستون ، فيما لو جعل قناة الجنوب صالحة لملاحة الاتحاديين ، عن طريق احتلال مواقع الجنوبيين في جزيرة فولي Folly ، وجزيرة جيمس ، James المسيطرتين على القناة .

بدأ دالهغرين عملياته بإنزال الجند لحصار حصن واغنر Wagner ، وكانت معركة طويلة امتدت لأربعة أشهر ، قلبت خلالها قذائف المهاجمين أرض الحصن رأساً على عقب ، قبل أن يقرر الجنوبيون التخلي عنه . وبعد سقوط حصن واغنر وصل المهاجمون إلى سومتر Sumter . وبدأت معركة الحصن المنيع من أول أيلول وحتى منتصف شهر تشرين الثاني . وقامت البطاريات الشاطئية إضافة لمدافع السفن والزوارق فقصفت الحصن دون هوادة ، حتى هدمت جدرانه . ولقد ذكر التقرير الرسمي للجنرال الانفصالي بوروغارد[٥٧] Beauregard أن الحصن أصيب بـ (٤٣٤٢) قذيفة ، وتحولت جدرانه إلى أكمة من الأنقاض ، وبقيت بطارية واحدة من مدافعه فقط ترمي من الخربة وترد على مدافع المهاجمين ، وحاولت أفواج من الجنوبيين النزول في الجزيرة لنجدة حامية الحصن ، دون طائل . وردوا على أعقابهم مثخنين بالجراح .

ساء موقف الجنوبيين وانقطعت صلتهم بالخارج . واحتجز السكان ضمن كانتوناتهم لا يستطيعون مد يد العون فيما بينهم ، وغدا الدفاع مجزأً ، ووقع الحمل الأكبر من القتال على مقاطعة فرجينيا التي قدمت بسخاء المال والرجال والعتاد ، حتى رزحت تحت عبء الإنهاك .

حرب الأنهار

نشبت معارك ضارية في السهول الفسيحة الواقعة في ولايات الوسط الأمريكي ، ولقد أدهش السلاح البحري المؤرخين آنذاك بالدور الفعال الذي قدمه في تلك المعارك ، والتي جرت في مناطق أنهار المسيسيبي العظيم وروافده . ولقد قدم سلاح البحر كل طاقاته في رفد القوات الأمريكية بالعتاد والرجال ومواد التموين ، طيلة فترة القتال ، وعبر خطوط المواصلات النهرية الطويلة .

قدم نهر المسيسيبي للقوات الزاحفة الأمان وحرية الحركة والارتباط بالقيادة وبالوحدات الخلفية ، ولعبت الزوارق النهرية البخارية المدرعة دور سفن نقل حربية ، تحرسها أساطيل من زوارق المدفعية ، تقوم بمهام الاستكشاف والدعم والإسناد .

هذه الخلفية هي التي دفعت بالفيدراليين والكونفيدراليين على السواء إلى إقامة أساطيل نهرية قتالية سريعة الحركة . وكان الفيدراليون متقدمين على خصومهم في هذا المضمار حيث قذفوا في

النصف الأول من عام (١٨٨٢) (٤٥) سفينة حربية منها (١٥) مدرعة إلى حوض نهر المسيسيبي، وأضافوا عليها (٣٨) زورق هاون، وعدة مئات من الزوارق البخارية وصنادل الإنزال التي اعتبرت جميعها سفناً مساعدة لتحركات القوات البرية، وانتهجت عقيدة القتال الهجومي.

التزم الجنوبيون وهم الأضعف على الماء أسلوب الدفاع، فأقاموا العوائق والسدود في الأماكن التي تتيح لهم طبيعتها ذلك، وأطلقوا على تلك العوائق اسم بلووف Bluffs، وحموها ببطاريات مدافع منخفضة ترمي سطح الماء، وبيطاريات مدافع مرتفعة تقذف قنابل غاطسة، وتشترك تلك الرمايات برمايات أجهزة دفاعية أخرى نصبت في نهايات الإنحناءات الجيبية لمجاري الأنهار، ثم عززوا المدن الواقعة على ملتقى رافدين، أو عند عقدة تقاطع مواصلات برية مع أخرى نهرية، وجعلوها مواقع حصينة خزنوا فيها العتاد بحيث غدت معسكرات حقيقية يُقتضى الدفاع عنها.

حروب الغرب

تطورت الحرب الأمريكية في غرب البلاد وغدت معارك طاحنة تدور حول المناطق المحصنة التي تسيطر على الأنهار بين قوات الشمال البرية والعائمة المتحركة، وقوات الجنوب الثابتة والمدافعة. ولقد أبدع الجنوبيون في قتالهم المستميت وأظهروا مقدرة وكفاءة عاليتين.

استطاع الاتحاديون عام (١٨٦١) عزل الميسوري والسيطرة على المسيسيبي الأعلى وأصبحت لديهم الحرية الكاملة في حشد القوات البحرية داخل الأنهار الطويلة استعداداً للهجوم المقبل. وبالفعل، ومع حلول شهر شباط (١٨٦٢)، تقدمت زوارقهم المسلحة نحو تينسي، وهيأت للقوات المهاجمة المحلية فرصة الاستيلاء على حصون هنري Henry ودنيلسن Denelson، ثم شاركت مشاركة فعالة في إسناد القوات البرية بنيران مدافعها الغزيرة، وفرضت على الجنوبيين التراجع، وسمحت لجيش غرانت الفيدرالي بالتقدم واتخاذ خطة هجومية بعد أن كان يعاني وضعاً تكتيكياً سيئاً.

تراجعت قوات الجنوبيين حتى شاتانوغا Chattanooga في الآباما وكورانت Cointh في المسيسيبي، وانهزمت سفنهم التي كانت بإمرة الكومودور مونتغمري، قرب حصن بيلو Pillow ١٠ مايس، ثم انسحقت أمام ممفيس Memphis (٦ حزيران). وبضياع القوات البحرية الجنوبية سقطت في أيدي الفيدراليين كل من ولاية كنتاكي وولاية تينيسي.

بقيت مدينة نيوأورليانز في الجزء الأسفل من النهر بعزلة عن المعارك الحربية، وسد المعبر النهري المؤدي إليها بالعديد من العوائق ومن كل نوع، واحتفظت المدينة لنفسها وداخل تحصيناتها المائية بقوة بحرية تألفت من (١٣) سفينة اثنتان منهما مدرعتان، إلا أن كل هذا لم يمنع الكومودور الفيدرالي فاراغو[٥٨] Farragot قائد تشكيل الخليج من مهاجمة نيوأورليانز بتشكيله الذي ضم (٤٦) سفينة.

تقدم فاراغو بجزء من قوته البحرية واجتاز معبر الدلتا، وهاجم بالمدفعية، ولعدة أيام، الحصون المدافعة عن المدينة، وقذفها بـ (٨) آلاف قذيفة، فتصدعت الجدران، وقتل وجرح من حاميتها (٤٧) رجلاً، لكن لم ينه هذا الإنجاز معركة نيورأورليانز.

غير فاراغو خطته وسلك مسلكاً جريئاً وصعباً وتجاوز الحصون قبل سقوطها، وتقدم بسفنه حتى رصيف المدينة، وتم له ذلك في ٢٥ نيسان وعلى النحو التالي:

في صباح ٢٤ تقدم فاراغو بقوة بحرية ضمت (١٨) سفينة وزورقاً، وعلى رتلين متوازيين داخل مجرى النهر، واجتاز المنطقة المحصنة بأقصى سرعة، ووابل من القذائف تتساقط حوله. وخرق دفاعات المدينة المائية، واجتازت (١٤) سفينة من سفنه العائق، واشتبكت مع قوة الجنوبيين بمعركة بحرية، وانتصرت عليهم خلال فترة زمنية قصيرة، ثم رست السفن المهاجمة أمام رصيف مدينة نيورأورليانز، وفتحت المدافع نيرانها تقذف المدينة وشوارعها، إلا أن افتقار فاراغو للجند جعله يتوقف عند هذا الحد لأن سفنه لا تستطيع احتلال الأرض.. وبقي عاجزاً أمام المدينة حتى الأول من مايس لحين وصول جيش الجنرال بتلر[٥٩] Butler.

قاومت حاميات الحصون المهاجمين بضراوة، ولم تستسلم إلا بعد ضغط الجند الثائرين داخلها ٢٨ مايس. وأتاحت تلك المقاومة الطويلة الفرصة للحاكم الجنوبي لويل Lowell مغادرة المدينة بعد أن رحّل كل ما يمكن نقله. ولما دخل الشماليون المدينة وجدوها خالية مدمرة. وسقطت بسقوط نيوأورليانز أكبر مدينة جنوبية في أيدي الاتحاديين، وغدا نهر المسيسيبي مفتوحاً للملاحة من جهة البحر، وأسرع الكومودور فاراغو مستغلاً الموقف وأقام على الشطآن النهرية المخافر المعززة في كل النقاط الاستراتيجية الهامة. وما إن تمّ له ذلك حتى توجه شمالاً، فاحتل باتون روج Baton Rouge وناتشير Natcher، لكنه اضطر للتوقف أمام بطاريات المدافع الضخمة التي توجت مرتفعات فيكسبورغ Vicksburg، والتي تقع على مسافة (٦٣٢) كيلومتراً من البحر.

لم يتغير موقف فاراغو إلا بعد وصول الكومودور دافيس[٦٠] Davis صاحب نصر معركة ممفيس Memphis الذي نزل جنوباً لنجدة أسطول الخليج، وتوقف هو الآخر في الجهة المقابلة لمدافع مرتفعات فيكسبورغ التي أوقفت تقدم فاراغو.

وجد القائدان نفسيهما لا يستطيعان شيئاً أمام تلك القلاع القوية، إلا باللجوء إلى المخادعة. ففاراغو الذي عرفناه جريئاً مغامراً كرر عملية نيوأورليانز، واختار ليلة ٢٨ حزيران التي كانت كثيفة الضباب، سيئة الرؤيا، فتسلل أمام تحصينات فيكسبورغ خلسة، وانضم إلى قوة دافيس النهرية القادمة من الشمال استعداداً لهجوم جبهي مشترك.

وقع حدث بحري هام ظهر فجأة فبدل الخطط، وهو ظهور مدرعة بحرية جنوبية بنيت في نهر يازو Yazoo وأطلق عليها اسم (الاركانساس). وظهرت هذه الدارعة خلال شهر تموز في مياه الجزء الجنوبي من النهر، وهددت سفن الفيدراليين المقيمين هناك (الجزء الأكبر من أسطول الخليج التابع للكومودور فاراغو). تخلى فاراغو عن مهاجمة فيكسبورغ، وتوجه جنوباً لمطاردة الدارعة الجنوبية وتدميرها، قبل أن تلحق الأذى بتشكيله البحري. وطارد فاراغو اركانساس لعدة أيام ثم قضى عليها في ٥ آب.. وبتدميرها عادت حرية العمل للفيدراليين كالسابق، لكن انخفاض منسوب الماء في الأنهار فرض على دافيس وفاراغو إيقاف عملياتهما البحرية عبر الأنهار أشهراً عدة، حتى حلول فصل الشتاء.

لقد كان للتفوق البحري الفيدرالي في المياه الغربية أثره الكبير في حرية تحرك الجند، وفي نقل العتاد ضمن ظروف أمنية جيدة، في حين عانى الجنوبيون الأمرين في انقطاع الإمدادات عنهم، حيث توقفت الحركة بين الجنوب من جهة والشمال والغرب من جهة أخرى، واقتصرت إمداداتهم على عمليات غير مشروعة، تجري في الخفاء وعلى أيدي المهربين، تنقصها الكفاية والسلامة.

ومع قدوم الربيع، وبسقوط كانتاكي وتينيسي وممفيس تم خنق اركانساس، وقطعت سبل الملاحة إليها، وأصبح الجنوبيون في عزلة عن ولاياتهم الغربية الغنية كاركانساس وتكساس. وانعكس ذلك على خططهم الحربية خصوصاً والولايات الجنوبية المجاورة لهم وهي جورجيا وكارولينا وآلاباما، أهملت الزراعات الغذائية والمشاريع الحيوانية وتخصصت في زراعة القطن، مصدر تجارتهم الكبير مع القارة الأوروبية، معتمدين على ولايات الغرب، لتمدهم بالمنتجات الغذائية من حبوب ولحوم. وبعزل

تلك الولايات وقعت أزمة اقتصادية خانقة تعاظمت مع الأيام، خصوصاً وأوربة بعيدة لا تمد الجنوبيين إلا بالكماليات.

استمرت مقاومة فيكسبورغ على النهر طويلاً، وشلت حركة أسطول الفيدراليين المهاجم، مما أتاح لحكومة ريتشموند الجنوبية فرصة إعادة الاتصال مع الشاطىء الأيمن لنهر المسيسيبي، وإمكانية نجدة المعزولين بالمواد الغذائية.. وبالفعل فقد بذل الجنوبيون جهوداً فائقة، وجندوا جيشاً كاملاً، وأقاموا منطقة حصينة أطلقوا عليها اسم سيباستيبول أمريكا، وعززوها بنقاط دفاعية محيطة، فاستعاد الجنوبيون بها سيطرتهم على مسافة لا تقل عن (٤٠٠) كيلومتر من شواطىء المسيسيبي الاستراتيجية، وعادت فأصبحت تلك الشواطىء ممتلكات كونفيدرالية محرمة على الفيدراليين. واستطاع الجنوبيون استخدام النهر الأسود، والنهر الأحمر لسفنهم، وبذلك أعادوا الاتصال بكل من تكساس ولويزيانا فتدفقت خيرات الغرب الأمريكي عليهم من جديد.

اعتقد الشماليون بأن مجرد تجوال زوارقهم المسلحة في الأنهر سيؤمن لهم السيطرة، لكن تدمير قوة اليت Ellet التي غامرت حتى مشارف فيكسبورغ شباط (١٨٦٣) جعلتهم يعيدون النظر بخططهم، خصوصاً بعدما بلغ مسامع فاراغو إقامة الجنوبيين لقلعة حصينة في بور هيدسن. وكان لا بد من إجراء حاسم وجريء لإبطال مفعول كل تلك الحصون والقلاع الجديدة، إما بالالتفاف حولها داخل قنوات مائية جانبية أو بمهاجمتها جبهياً. ووقع القرار على الخيار الثاني ونجح الفيدراليون بالاستيلاء على حصن الخليج الكبير Grand Gulf في الأول من مايس ثم أتبعوه بحصار كامل للموقع. ومن حسن حظهم لم يدم هذا الحصار طويلاً، واستسلمت قوة فيكسبورغ في ٤ تموز، وضمت (٣٢) ألف مقاتل، و(١٧٥) مدفعاً، ثم تبعتها قوة حصن بور هيدسن في ١٢ منه. وهكذا فتحت الملاحة أمام الفيدراليين من جديد وشطرت الولايات الجنوبية إلى شطرين، فأضحت غير قادرة على مديد العون فيما بينهما.

الأزمة المصيرية

بقيت إلى الغرب كل من أركانساس ولويزيانا متأهبتين تحت السلاح، إثر فتنة داخلية لم يكن لها كبير الأثر في مجريات حرب الانفصال.

تخلت واشنطن عن غالفستون Galveston للتكساسيين بعد أن استولت عليها، وإثر هزيمة حملة بانكس Banks في النهر الأحمر آذار (١٨٦٤)، وقررت بالتالي التخلي عن كل عمل عسكري مباشر في تلك المنطقة، لأن المقاومة المسلحة اقتصرت على عصابات صغيرة لم تعد تشكل خطراً حقيقياً. وعلى الفيدراليين إعطاء اهتمامهم شرقي البلاد لدورها المهم.

بقيت الولايات الجنوبية إلى الشرق من واشنطن أمثال فلوريدا، جورجيا، كارولينا، وفرجينيا تخضع لحكومة ريتشموند الانفصالية، وتشكل فيما بينها القوة الحقيقية للتجمع الكونفيدرالي وتمتلك مساحة في الأرض تبلغ ثلاثة أمثال مساحة إسبانيا والبرتغال مجتمعتين...

أصيب هذا التجمع بضعف إثر سيطرة الأسطول الفيدرالي على المسيسيبي ومحاصرته من جهة البر، كما حاصره أسطول الأطلسي من جهة البحر. وقد حمل هذا الحصار المضاعف العديد من المصاعب للكونفيدراليين، وتركهم عرضة لأزمة اقتصادية تمثلت بارتفاع أسعار المواد الغذائية (ارتفعت أسعار اللحوم والطحين إلى ٧ أو ٨ أمثال أسعارها الأصلية). وتنبأ المراقبون بقرب سقوط الاتحاد الكونفيدرالي، وحدوث مجاعة عارمة ستجتاح الولايات.

تنبه دافيس جيفرسون للخطر الوشيك الحدوث، فأرسل نداءه الشهير ١٠ مايس (١٨٦٣) يخاطب سكان الولايات الشرقية بعد أن عزلوا عن الغرب، وطالبهم بوقف زراعة القطن واستبداله بزراعة المنتجات الغذائية، والاعتناء بتربية الأبقار والأغنام. واستجاب المواطنون باندفاع وتفان، ولبوا نداء رئيسهم، وانقلبت ولايات القطن بلداناً تنتج الحبوب، وجاءت مواسم خصبة من القمح فاضت عن طاقات العنابر والمخازن، ونجت الولايات الكونفيدرالية من شبح المجاعة.

هذا الحدث العظيم الذي حمل الثروة والبحبوحة للمواطنين في الولايات الشرقية أنقذ الكونفيدراليين في الوهلة الأولى، وكان سبب سرعة سقوطهم في المرحلة التالية. إذ لولا البحبوحة الغذائية لما استطاع القائد الشمالي غرانت تحقيق خطته القتالية الجديدة والتي صدقها رئيس الجمهورية.

اقترح غرانت قاهر فيكسبورغ استغلال نصر العام المنصرم كقاعدة لبدء عمليات جديدة، غرضها وضع حد للقتال الطويل، وبخوض معارك مصيرية حاسمة.. وما دام الجنود الفيدراليين متواجدون في بوتوماك Potomac، فعليهم التوجه نحو جبهة الكونفيدراليين، ومهاجمتهم، في حين يتقدم جيش من أعالي المسيسيبي فيطرد الخصوم من الأراضي الواقعة بين اليغانيس Alleghanys

والبحر ثم ينقض على فرجينيا ليوقعها ضمن فكي كماشة بين قوات غرانت وقوات شيرمان **Sherman** قائد جيش المسيسيبي الذي عليه تنفيذ حركة الالتفاف الضخمة .

نجح القائدان في تطبيق الخطة المشتركة لأنهما تخليا عن التحركات التقليدية المتبعة في جيوش أمريكا آنذاك ، وتركا بتصميم منها التماس الدائم بقواعد انطلاقهما ، وقرار الاعتماد على الموارد الغذائية التي تقدمها البلدان التي يقاتلون على أرضها . وكانت تلك الموارد كما شهدنا وبفضل نداء جيفرسون الشهير فائضة بكميات هائلة سهلت عليها سرعة الحركة ، وحرية التوغل . أضف إلى ذلك التعاون المطلق الذي قدمه سلاح بحر الفيدراليين في الأشهر التي سبقت الهجوم ، والذي استمر بكامل الوعي طيلة مرحلة الالتفاف ، فأعطى تلك الحرب صفة خاصة جديدة . ولم يكتف الأسطول بمتابعة حصار الشواطىء الجنوبية ، وإضعاف القوات الكونفيدرالية ، وإجبارها على اعتماد خطط الدفاع المنتشرة والمجزأة فحسب ، بل أمنت نقل الجند في العديد من المراحل الهجومية ، وسرعت خطاهم ضمن مسالك آمنة ، وحافظت على اتصالهم بقواعد انطلاقهم . وأخيراً قدمت ، وفي عدة مناسبات ، بعض الهجمات القتالية التي استهدفت مواقع شاطئية حصينة فأسكتتها . ولقد برهن أمراء البحر بالعمل على اثبات فاعلية الأسطول في تقديم المساعدات القتالية اللازمة لإتمام عملية الالتفاف الضخمة التي نفذها جنرالات جيش الاقتحام ، ضمن مساحات شاسعة من الأرض ، أحيطت بالماء وبروافد المسيسيبي الضخمة في كل اتجاه . وكانت عمليات الأسطول الفيدرالي بحق عمليات شجاعة اتصفت بالإقدام أمام تحصينات الكونفيدراليين المنيعة .

حدثت أولى العمليات الهامة بين شهري شباط وآذار (١٨٦٤) غير أنها أخفقت . وتقهقرت القوات المهاجمة ، لكن فاراغو ليس بالقائد الذي يقبل الهزيمة ، فأعاد الكرة في ٥ آب على رأس (١٤) سفينة وزورقاً حربياً ترافقه (٤) مونيتور ، واقتحم بأقصى سرعة الممر بين حصني غين Gaines ومورغان Morgan ، ونجح هجومه بعد أن أصيبت إحدى سفنه بطوربيد عائم ، وغرقت مع كامل طاقمها . .

إلى الوراء من فاراغو وقعت معركة بحرية غاضبة بين بقية سفن الفيدراليين وأسطول الجنوبيين الذي قدم لمساعدة الجبهة البرية . واستطاعت الدارعة تينسي الجنوبية مقاومة كل سفن الشماليين في معركة بالمدافع ، استمرت عدة ساعات ، وحتى الاجهاز عليها ، بعد صدمها ثلاث مرات بمناخر سفن الشماليين . وأنزلت علمها مستسلمة بعد تعطل محركاتها .

ظل الشماليون حريصين في حركتهم خشية الطوربيدات العائمة التي نشرها الجنوبيون ، ولم يقتربوا من المدينة التي ظلت بأيدي الكونفيدراليين حتى ١٢ نيسان (١٨٦٥) . وأصاب حصار الشماليين الكونفيدراليين بالصميم ، وانقطعت عنهم الامدادات ، وعانوا صعوبات جمة . واستغل القائد البري شيرمان الموقف وأسرع الخطا نحو الاباما ، واجتاحها . وسقطت مدينة آتلانتا (في ٢ أيلول) . وآتلانتا كما نعرف مدينة متوسطة فيها عقدة الخطوط الحديدية التي تقصد ريتشموند عاصمة الكونفيدراليين ، والتي أصبحت معزولة من البحر ، ومن عدة خطوط حديدية أخرى ، ولم يتبق لها إلا الخط الحديدي الذي يوصلها بمدينة ويلمنكتن Wilmington .

حث جنرالات الشمال خطاهم على أثر الانتصارات البحرية العديدة التي حققها الاتحاديون فتراجعت جيوش الجنوبيين حتى استسلم جنرالهم لي Lee في بيترسبورغ Petersburg ٩ نيسان مع (٤٠) ألف مقاتل .

من أكثر السفن القتالية شهرة في حرب الانفصال السفينة الجنوبية الآباما ، وهي بخارية طولها (٧٤) متراً ، وسرعتها (١١) عقدة ، سلحت جيداً ، وكانت تحمل (٣٠٠) برميل من الفحم اللازم لمحروقاتها مما أعطاها مدى عمل واسع النطاق .

خرجت الآباما من ميناء ميرسي Mersey في ٢٩ تموز (١٨٦٢) وقصدت جزر آسور حيث حملت هناك مدافعها وطاقمها الحربي ، وكانت بإمرة القائد سيمس Semmes الذي لمع اسمه في حملة بحر الآنتيل سابقاً على السفينة سومتر Sumter .

أقلع سيمس بسفينته الحديثة الآباما لمدة (٢٢) شهراً يطارد سفن نقل الشماليين . وكان يظهر في المناطق التي لا يتوقعها خصومه فيهاجم سفنهم التجارية وأكثرها شراعيات لا تقوى على القتال ، فيستولي على حمولتها ، ويحرقها ضارباً بحقوق الدول البحرية عرض الحائط . وما إن تصل أخباره سفن الفيدراليين القتالية حتى يكون قد غاب عن الأنظار ليظهر في منطقة أخرى غير متوقعة .

كانت الآباما تتزود بحراً خلال رحلاتها الطويلة من سفينة النقل آغريبين Aggrippine حيث كانت تلقاها بنقاط يتفق عليها فتمونها ، ثم تبتعد مسرعة والآغريبين بخارية سريعة تستطيع الفرار والتخلص من طرادات الخصوم وبسهولة . وهكذا استطاع سيمس زرع الفوضى على سواحل الأرض الجديدة ، وقبالة نيويورك ، وفي بحار الآنتيل (حوصر لفترة في خليج المكسيك لكنه نجا بعد أن أغرق

أمام غالفستون سفينة حربية من سفن الحصار هي هاتيراس Hatteras) . وبعد ترك سيمس لخليج المكسيك توجه إلى الأطلسي جنوباً فالمحيط الهندي فشواطىء إفريقية ، ودمر خلال تلك الرحلة (٦٩) واحدة فقط بخارية . وعندما قصد السواحل الأمريكية ثانية تصدت له الدارعة الفيدرالية كيارساج Kearsage وأجبرته على دخول القتال ١١ تموز (١٨٦٤) ، ولم يستطع سيمس خرق جسم الكيارساج بمخمزه لتدريعها بالسلاسل في حين شقت مجنبته طولياً بقنابل السفينة المهاجمة والتي من عيار (١١) بوصة ، وسرعان ما غاصت الآلاباما الشهيرة تحت الماء بعد أن أنزلت علمها علامة الاستسلام .

عدة سفن أخرى سلكت أسلوب الآباما نفسه ، منها فلوريدا التي جالت في المحيط الأطلسي لفترة (٣٢) شهراً تهاجم سفن الفيدراليين التجارية حتى قيض لها الاستسلام في مرفأ باهيا ، بعد أن انقضت عليها زوارق الدارعة الفيدرالية واتشوست Wachussett وخلق الحادث أزمة دبلوماسية بين البرازيل وحكومة واشنطن لخرق الأخيرة حياد مياه الأولى واحتجت البرازيل بحزم .

من سفن القرصنة الامريكية الجنوبية الأخرى ، جورجيا وناشفيل Nashville وريتروبيشن Retribution وشيناندواه Shenandoah التي كانت الأكثر حظاً ، والتي بقيت تعمل في المحيط الهادي دون أن تقع في الأسر حتى نهاية الحرب . وعادت إلى جزر الآليوتين Aléoutinnes ورفعت تسليحها في أحد الموانىء البريطانية متفادية الأسر .

وصل مجموع السفن التي قنصتها قراصنة الجنوب (٢٦٩ سفينة فيدرالية) وقد عجز سلاح البحر الفيدرالي في القضاء عليها . وبذلك خلفت في نفوس الفيدراليين أثراً معنوياً عميق الجذور .

وعلى الرغم من الانتصارات البحرية الفيدرالية بقي القنص الكونفيدرالي يمس بحزم نفوس التجار ، ومالكي السفن . وقد اعتبرت لفترة ما كل سفينة تترك المياه الإقليمية مفقودة . واضطربت التجارة الخارجية ، وارتفعت رسوم التأمين ، وتوقف مالكو السفن عن تحريك سفنهم ، وعرضوها للبيع بأبخس الأسعار . وكانت بريطانيا العظمى المستفيدة الأولى .

شاع هذا الخوف حتى وصل الأوربيين ، فأوقفوا التبادل التجاري عبر البحار ، وانخفضت أرقام الاستيراد والتصدير ، وانعزلت أوربة عن العالم الجديد ، وتراجعت أمريكا عن مركزها الأول كدولة بحرية ، ولم تعد القوة الأعظم ، وغدا نقلها البحري يعتمد على الجنسيات الأخرى .

لم يكن كل هذا ليزعج أمريكا ، بل ظلت تنتج حاجياتها من أرضها ، وتؤمن ضرورات الحياة

متخلية عن كماليات الغرب. وصمدت بواقعية صادقة، وضحت حتى هزمت الجنوبيين المتعصبين، وحررت ولاياتهم وأطلقت حرية العبيد فيها.

عندما اندحرت جيوش الجنوب وسقطت قلاعهم سقطت معها قضيتهم الأساسية، واستكان دعاة الرق واستعباد الأسود إلى قانون الأقوى. وعاد الاتحاد الأمريكي أكثر قوة وتماسكاً حول دولة مركزية قادرة على إقامة الأمن في الداخل، وفرض الاحترام على الآخرين في الخارج. وأطلت أمريكا المتحدة على العام الخارجي دولة غنية قوية وفتية، فأرهبت أكبر المستعمرين (تخلت فرنسا عن المكسيك لمجرد إنذار بسيط، وقبلت بريطانيا دفع غرامة ٧٥ مليون فرنك لأمريكا إثر تحكيم حول خرق الانكليز لقواعد حياد الدول). وبلغت أمريكا من الناحية العسكرية والبحرية شأناً مرهوب الجانب له دوره في توازن القوى.

عالجت أمريكا آثار الحرب الداخلية بخطوات سريعة وفاعلة، فقوت وضعها المالي والاقتصادي، مما جعلها تجتاز محنة ما بعد الحرب، وتعيد بناء البلاد بسرعة أدهشت الجميع. فكانت نهضة اقتصادية صناعية وزراعية. وغدت مزاحمة لبريطانيا وفرنسا في إنتاج النسيج والآلات والمحركات. وعاد القطن ينتج بكميات مذهلة، واختفت كل آثار حرب الانفصال في الداخل والخارج على السواء.

دلت حرب الانفصال مرة أخرى ما لأثر السيطرة على البحر، وحسن استخدامه من مزايا عديدة، وما للقدرة البحرية من شأن. إن أُحسِن إعدادها، بتوفير المال لها. وأن التفوق البحري لبلد ما يجلب له الثروة، وينهض به على جميع الأصعدة. وسيادة البحار قد تدفع الدول الكبرى للاختصام، وقد تكون هناك ملاحم ومعارك بحرية طاحنة سيذكرها التاريخ، ويذكر أسبابها ونتائجها لأنها عنصر هام في مراحل تطور الشعوب.

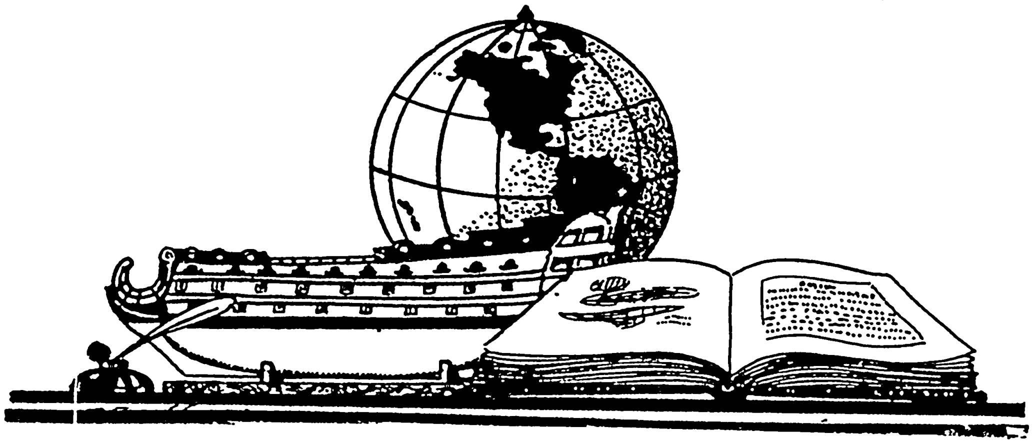

الفصـــل الخـامـس

الحـرب الإيطاليـةـــ النمساويـة

جاءت الحرب الايطالية النمساوية (١٨٦٦) كأول حرب بحرية حقيقية بين تشكيلات من السفن المدرعة ، فتركت انطباعاً جديداً وعميقاً ، وظهرت نتائجه بعد (٣٠) عاما من قوع تلك الحرب .

ظلت كل من روما والبندقية حتى عام (١٨٦٦) خارج المملكة الإيطالية الفتية التي قامت عام (١٨٦١) . وكان أمل إيطاليا في ضم هاتين الولايتين سلمياً عن طريق تدخل دبلوماسي يقوم به نابليون الثالث ، ويقنع النمسا بالتخلي عن البندقية . وحيث يصبح أمر روما سهلاً .

خاب هذا الأمل بعد فشل المفاوضات ، ولم يعد لإيطاليا إلا خيار الحرب في استكمال وحدة أراضيها. وبالفعل أعلنتها على النمسا ٨ نيسان عام (١٨٦٦) بعد أن عقدت حلفاً هجومياً مع بروسيا ، نص هذا الحلف على تعاون عسكري مطلق تنال بروسيا بموجبه البندقية ، تعويضاً لها على مشاركتها في الحرب .

نشب القتال يوم ١٦ حزيران في مقاطعة الساكس على الجبهة البروسية ، وبعد أربعة أيام اجتازت الجيوش الإيطالية حدود مينيسيو Minicio تنفيذاً للاتفاق البروسي الايطالي المشترك .

عمل الايطاليون منذ بدء إقامة مملكتهم على بناء قوة بحرية متوسطية متمسكين بشعار يقول :

إن إفريقية الشمالية تعود لإيطاليا أو هي امتداد لها عبر المتوسط. وهو الشعار نفسه الذي نادى به الزعيم مازيني Mazzini[٦١] عام (١٨٣٨) باسم رجال إيطاليا المخلصين، وباسم تاريخ امبراطوريتها المجيدة، وعظمة روما القديمة. وتضمن النداء إقامة قوة بحرية كأداة هامة في سياسة إيطاليا الحديثة، بحكم موقعها الجغرافي، وبعامل الفخر بأمجاد روما.. وقدم الإيطاليون لهذا الهدف المال الكثير وجمعوا التبرعات الضخمة لإقامة هذا السلاح. ولما كانت تنقصهم مصانع وترسانات بناء السفن فقد تعاقدوا على بنائها في خارج البلاد، وخاصة في ترسانات إنكلترا وفرنسا وأمريكا.

عند إعلان الحرب الإيطالية النمساوية كان تعداد سفن أسطول إيطاليا الفتي يبلغ (١٢) دارعة و (٦) فرقاطات كبيرة، جهزت بأحدث المدافع، إضافة إلى عدة سفن مساعدة حربية ضخمة سلحت أفضل تسليح، وإلى أكثر من ٢٠ شراعية حربية من بقايا الماضي منها (٧) فرقاطات كبيرة قادرة على خوض المعارك الحديثة لقوة تسليحها. ويمكن اعتبار قوة إيطاليا البحرية آنذاك أداة حرب من الطراز الأول، سلحت بأحدث المدافع البريطانية من ماركة ارمسترونغ الشهيرة، وبأعيرة متقدمة وصلت حتى (٢٣) سم، فكانت أقوى مدافع عصرها. إلا أن ما افتقدته هذه القوة هو العنصر البشري اللازم، أو بالأحرى الأطقمة المدربة، ولقد وصفها معاصروها فقالوا بها

«إن الأسطول الإيطالي جسد ضخم بلا روح، وبلا تراث، أطقمه خليط من البيمون (سكان مقاطعة إيطاليا) ومن النابوليتانيين، ومن عدة مناطق أخرى من شبه جزيرة إيطاليا، لا تربطهم ذكريات مشتركة، ولم يسمح لهم الزمن في رفع الجذر الذي شاب علاقاتهم، ولم تتح لهم الفرص لإقامة التجانس والتكامل بين فئاتهم المختلفة، قدموا يحملون معهم عيوبهم العصبية المتأصلة. وكانوا بحاجة لفترة اندماج غنية بالتدريبات العملية المشتركة، لإسقاط السدود الخفية القائمة بينهم. أما بالنسبة للتشكيل البحري النمساوي فالأمر على عكس ذلك تماماً، والعنصر البشري في القوة البحرية النمساوية عنصر هام عالي الكفاءة، شديد التماسك متلاحم في كافة طواقم السفن، وحصل على قدر كاف من التدريب، يخوله خوض المعارك بثقة واطمئنان.

ضم التشكيل النمساوي (٧) فرقاطات مدرعة فقط. ولتغطية العجز الواضح في حجم الأسطول طلبت القيادة البحرية النمساوية تجهيز كل السفن الخشبية القديمة وإعدادها للقتال وبذلك أصبحت قوة النمسا البحرية تضم، إضافة إلى الـ (٧) فرقاطات التالي:

بارجة خشبية مسلحة بـ (٩٠) مدفعاً .

خمس فرقاطات خشبية مسلحة .

عدة سفن زوارق مدفعية صغيرة .

لم تصل القوة البحرية النمساوية لنصف حجم التشكيل الإيطالي ، برغم كل ما أعدته من سفن لكن ليس بالعتاد وحده تقوم القدرات القتالية ، فرجال أطقمة سفن النمسا تميزوا بكفاءة قتالية عالية ، ومعرفة كاملة لاستخدام السلاح الذي بين أيديهم . وقد أحرز كل فرد تدريبات فنية وعسكرية ، وأعدته معاهد عسكرية ، إضافة إلى الحياة الطويلة في البحر ، والتي احتوت العديد من التمارين والرمايات والمناورات ، فتآخى مع سلامة وتآلف ، وأتقن القتال الجماعي ، فتعززت قوة النمسا المتواضعة بمعنويات رجالها العالية .

فاجأ إعلان الحرب الخصمين المتنازعين في كل من بولا Pola وتارانت Tarante . وقبل أن يتم إعداد السفن قتالياً . وكان لاندفاع الأميرال النمساوي الفتي تيغيتهوف (٦٢) Tegethoff لخوض حرب مبكرة أثر في دفع أطقم سفنه ، فأنهوا إعداداتهم القتالية خلال أيام قليلة ؛ في حين لم يكن أسطول إيطاليا قد وصل بعد إلى قاعدة تجمعه في مرفأ آنكونا

وصلت أوامر وزير الحربية الايطالية دبيرني في ٩ حزيران تحث أميرال البحر بيرسانو Persano وتقول

« استعد لطرد العدو من الأدرياتيك بحصاره أو بالهجوم عليه أينما وجد » .

ولم يكن بيرسانو للأسف ذلك القائد الملهم الذي ينهض بمهمة واسعة الحدود ، وهو الحريص الدقيق الذي لا يعمل إلا بتوجيه ، وتغلب على طباعه صفات اللين المشوب بالتردد . وقد تقدم به السن فازداد حرصاً على حرص ، إلا أنه جيد كقائد مساعد يعمل بجد وإخلاص تحت أنظار ومشيئة قائد أعلى . وهذا ما جعله ينتظر من وزير حربيته أوامر تفصيلية لتنفيذ المهمة الموكلة إليه . ولما لم تأته بعث للوزير يستفسره قائلاً

« لازلت انتظر التوجيهات فأنا لم أستلم منكم إلا ما جاء في ٩ حزيران ، وأرجوكم إعلامي ، هل علي مهاجمة العدو ، وهو ضمن حماية البطاريات الساحلية ، أم انتظر مغادرته الميناء ؟ أنتم تعرفون الموقف وتستطيعون إعطائي الأسلوب الأفضل » .

إن المطلب الذي طرحه أميرال إيطاليا ولا شك بعيد كل البعد عن اختصاص وزيره. وإن دل على شيء فهو ولا شك ضعف في الشخصية، وفقدان للثقة. إذ كيف له أن يسأل أمراً قتالياً لرجل سياسة؟ وحتماً لن يكون رد الوزير خطة تكتيكية.

يرجع المؤرخون تلكؤ بيرسانو لكونه ضابطاً من البحرية النابوليتانية التي يكرهها البيمونتيين. ولقد تنبأ منذ تسلمه القيادة بسلبية مرؤوسيه. وهذا ما جعله متردداً يؤثر المماطلة والتأخير. وبذلك أعطى قيادته انطباعاً سيئاً، سرعان ما بلغ هذا الانطباع الجماهير الايطالية، فاغتاظت من قائد بحريتها، خصوصاً بعد أن وصل إلى الأسماع قرار الأميرال النمساوي بالمبادهة وبدء الهجوم. وبالفعل شوهدت السفن النمساوية الحربية مع إطلالة الفجر تجول حول مشارف آنكونا البحرية تنشد قتال التشكيل الإيطالي القابع في الميناء وتتحين الفرصة لتنقض عليه، وهو في مرساه، برغم قلة عدد الواحدات المغيرة (٦ دارعات مقابل ١١ دارعة إيطالية وعدة بطاريات مدفعية ساحلية).

وأخر الاميرال النمساوي هجومه بعد أن لاحظ تلوي السفينة الإيطالية الايسبلوراتور Esplorator وهي تعبر مدخل ميناء آنكونا، واتباع طريق ملتوٍ متعرج دليل على وجود عوائق وألغام. واعتقد النمساويون أن التشكيل الإيطالي يحتمي وراء سدود دفاعية من الألغام البحرية والطوربيدات العائمة. وتيغيتهوف لا يجرؤ على التفريط بسفنه القليلة وتعريضها لتلك الأسلحة المريبة التي أثبتت فعاليتها في حرب الانفصال الأمريكي.

انتظر تيغيتهوف ساعتين في عرض مرفأ آنكونا محترساً في حين رفض بيرسانو المعركة بحجة عدم تسلمه لثلاث من دارعاته، برغم أن قوته تفوق قوة المهاجمين بمراحل.

تركت سلبية الأميرال الإيطالي أسى في نفوس أبناء وطنه، تجاوزت ما تملكهم من حزن عند ورود أخبار جبهات القتال البرية السيئة، وما أصاب جيشهم في كوستوزا Custozza ٢٤ حزيران والآثار الخطيرة التي قد تنجم عن ذلك. لكن أدرك الخطر الإيطاليين عندما انهارت بعد تسعة أيام فقط جبهة النمساويين أمام ضربات جيش بروسيا القوي في معركة سادوا Sadowa. وهنا انتظرت الجماهير الإيطالية نصراً بحرياً يمحو هزيمتهم على البر، لهذا لم يغفروا لأميرالهم تلكؤه في الميناء، وأميرال النمسا يختال زهواً في عرض الأدرياتيك.

لم ينفع بيرسانو إقلاعه لأربعة أيام ٨ إلى ١٢ تموز، فهو لم يلتق النمساويين، ولم يسع إليهم. وعادت عليه هذه النزهة بالمزيد من السخط فحطت من شأنه وشأن القوة البحرية التي بإمرته.

وثارت جماهير الشعب بعنف تحمل يافطات وصفت القائد البحري بأسوأ النعوت ، وملأت جدران ميلانو بالكتابات التي تندد به وبالمشتركين معه . عندها اضطر وزير الحربية لإرسال تهديد صريح لأميراله ، وبتجريده من قيادته إن استمر خاملاً في مرساه . وطالبه لتهدئة الشعور العام بمهاجمة جزيرة ليسا Lissa التي تتوسط الأدرياتيك ، وتتحكم بأرخبيل وألماتيا ، لعلها تنفعه كمركز انطلاق بحري لعمليات بحرية مقبلة ضد الشواطىء النمساوية .

ومهاجمة جزيرة ليسا ذات الدفاعات الساحلية القوية وإنزال قوات استكشاف كانت مغامرة محفوفة بالأخطار ، ومجهولة النتائج ، خصوصاً وتشكيل بيرسانو يجهل الموقع ، ولا يملك الإرادة والتصميم ، كما أن الإيطاليين تعوزهم السيادة البحرية في المنطقة والسفن النمساوية ليست بالبعيدة عن الجزيرة .

أقلع بيرسانو ثانية من آنكونا بعد ظهر يوم ١٦ تموز فوصل صباح ١٨ مشارف الجزيرة ، وجزيرة ليسا شواطئها جبلية حراجية في الجنوب ، ومنبسطة مفتوحة سهلة البلوغ في الشمال ، تجوفت فيها موانىء طبيعية عدة ككاروبير Carober وسان جورجيو San georgio ، وحصنت بقلاع ضمت العديد من مدافع السواحل القوية .

قرر الأميرال الإيطالي تركيز جهود سرب من تشكيله لمهاجمة المنحدرات الجنوبية ، لأن العوائق هناك أقل منها على الشواطىء الشمالية المنبسطة . وطلب من مساعده نائب الأميرال آلبيني Albini مهاجمة العوائق الجنوبية بالسفن الخشبية ، وبعد اقتحامها ينزل الوحدة العسكرية على البر في خليج مانيغو Manego ، في حين يقوم سرب الدارعات وبإمرة نائب الأميرال فاكا Vacca فيهاجم الغرب للمشاغلة قاصداً مرفأ كوميزا Comisa . وقد طلب من مدفعية السفن الثقيلة قصف التحصينات الواقعة على الشواطىء الشمالية ، وإلهاء القوة المدافعة هناك لإبعادها عن موقع الإنزال ، تمهيداً للغزو الحقيقي للجزيرة . وخلافاً لكل التوقعات فشلت خطة الإيطاليين . فبطارية سان فيتو San Vito التي تحكمت بخليج مانيغو والمتربصة فوق هضبة عالية (١٧٠٠) متر ، لم تتأثر بنيران السفن الخشبية المغيرة ، وعلى العكس أصلت المهاجمين نيراناً كثيفة ، ولم يوفق الأميرال آلبيني بإنزال جنده .

اختلف الأمر في الشمال . فقد أحرز بيرسانو بعض النجاحات ، وأسكت بعد ظهر يوم الهجوم نيران مدافع القاعدة المدافعة عن مرفأ سان جورجيو . وهذا النجاح جعل بيرسانو يعدل من أوامره ، واستدعى القائدين آلبيني وفاكا وطالبهما بالانضمام إليه ، وقرر تكثيف عملياته الحربية ليوم (١٩) ضد سواحل الجزيرة الشمالية .

كان على بيرسانو الإسراع قبل تدخل التشكيل البحري النمساوي في المعركة، لئلا يفسد عليه عملية الإنزال .. وكان لسوء تصرف بعض المسؤولين الايطاليين أثر كبير في تأخير عملية الغزو، برغم البطولات التي قامت بها الدارعة فورميدابل Formidable، فهي اقتحمت بمفردها مدخل سان جورجيو، ورست على مسافة (٣٠٠) متر من الشاطىء، وقاتلت بطاريات المدافع النمساوية الساحلية فأسكتت العديد منها، ولم تنسحب من المعركة إلا بعد أن تمزقت أجنابها، وشبت النيران فوق سطحها.

تعثرت العملية البحرية مرة أخرى دون أن تثني الأميرال بيرسانو عن تصميمه. واعتبر كل تخلٍ عن غزو الجزيرة سينال من شرفه العسكري. وفي ٢٠ تموز صباحاً، وقد غدا احتمال اصطدامه بالتشكيل النمساوي كبيراً، وبرغم سوء حالة البحر وارتفاع موجه إثر رياح اشتدت ليلاً فقد أصدر بيرسانو أوامره بتنفيذ العملية. وبدأت استعدادات الاقتحام، إلا أن السفينة ايكسبلوراتور Explorator أبلغت في الثامنة صباحاً ظهور التشكيل النمساوي إلى الشمال من الجزيرة.

تتبع الأميرال النمساوي عن كثب خطوة خطوة كل الأحداث الدائرة. فالمعلومات تصله تباعاً بوساطة جهاز الإرسال البرقي الموجود في جزيرة ليسينا Lessina، والتي غاب عن الإيطاليين أمر تعطيله. ولما وضحت الصورة وعرف تيغيتهوف نية بيرسانو أقلع للقائهم برغم أوامر حكومته بعدم الابتعاد عن بولا.

وفاجأ ظهور النمساويين الطليان الذين انتشروا على طول سواحل ليسا ببعثرة غير قتالية. وعلى الفور أصدر بيرسانو الأمر لدارعاته بأخذ تشكيل جبهي لجهة الغرب. وعندما تبينت له المواقع الحقيقية لسفن خصمه غير التشكيلة إلى الرتل باتجاه شمال شرق فتباعدت السفن الايطالية عن بعضها البعض، حتى وصلت إلى أكثر من (١٠) كيلومترات. وكان ذلك نتيجة اختيار بيرسونا نقل قيادته من على متن ري ديتاليا Ré d'Italia إلى الطراد آفونداتور Affondatore. وتوقفت سفينة الأميرال لإتمام عملية الانتقال، ولكامل هيئة أركان حرب التشكيل، في حين استمر الرتل في سيره مبتعداً.

تقدم الأميرال النمساوي قرابة الساعة العاشرة والنصف، وانقض على الإيطاليين. وانفجرت أصوات الحمم والمدافع. وكان التقرب النمساوي بتشكيلة منضمة متراصة مثلثية صعبة المناورة والحركة، لكنها كثيفة النيران. وقد اختارها القائد النمساوي لإحراز تفوق عددي على جزء من تشكيلة خصمه التي اختارها للمعركة.

اخترقت السفن النمساوية الرتل الإيطالي واختفت خلف دخان القذائف الكثيف. واختلطت السفن بعضها ببعضها الآخر، وازدادت إمعاناً في التبعثر والتشتت، وانخفضت الرؤيا، ولم يسلم إلا سرب الأميرال فاكا الذي حافظ على نظام ترتيبه. وبتصرف جريء انتقل إلى ميسرة المعركة، وأخذ سفن النمساويين الخشبية هدفاً، مستعرضاً لقذائفه، وأرسل عليها حمماً نزلت على جسور المراكب وأسطحها، فأعملت بها حرقاً وتدميراً. ولم يدع الأميرال النمساوي فاكا يجهز على سفنه الخشبية، فتقدم طالباً من كل دارعاته تغيير الاتجاه، والعودة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

تمكنت الفوضى بفعل سحب الدخان الكثيفة، وفقدت السيطرة. ولقد وصفها التقرير النمساوي فقال: كانت معركة مختلفة تجاوزت فيها السفن بعضها البعض الآخر في مساراتها، وهي لا تدري إن كانت صديقة أو عدوة.

استطاع سرب السفن النمساوية التملص بعد جهد شاق، واتجه نحو ليسا، في حين اشتبكت الدوارع بمعارك فردية حامية الوطيس. واشتدت حول مجموعة من السفن الايطالية، وانسحبت الباليسترو Palestro الإيطالية، وقد شبت على سطحها حرائق هائلة. وهاجمت السفينة النمساوية كايسر Kaiser السفينة الإيطالية ري دي بورتوغالو Ré Diportugalo فنخزتها والتحمت معها بعد أضطدامها بها. .ووقع على السفينة الإيطالية العديد من القتلى والجرحى، وكذلك حصل على الكايسر إذ سقط ساري الميزان على السطح فحطم المدخنة وانسحب المركب النمساوي إلى الجزيرة ليصلح شأن أعطاله.

كان لمناورة السفينة فرنياند— ماكس الجريئة والتي يقودها الزعيم البحري فون ستيرنيك Von Sterneek الأثر الكبير في سير المعارك، فبعد أن حاول ولمرتين الالتحام بدارعتين إيطاليتين دون جدوى شاهد من خلال الأدخنة ري ديتاليا تتحرك ببطء لعطل في جهاز الدفة، وقد استعرضت هدفاً سائغاً. حمل ستيرنيك على السفينة المتعثرة، ونخرها في منتصفها ففتح جسمها، وتدفقت المياه إلى عنابرها، وغرقت البائسة خلال دقائق معدودات، حاملة معها أكثر رجال طاقمها.

نشرت هذه المأساة رداءً من الحزن لف كل السفن الإيطالية، وانهارت المعنويات، وبدأ الشك يتعاظم في قدرتهم على احتلال الجزيرة، وبعد أن وقف التشكيل النمساوي حائلاً بينهم وبين ميناء سان جورجيو، ولم يبق لأميرال إيطاليا إلا خيار وحيد برغم استمرارية تفوقه العددي، وهو الانسحاب نحو الغرب، بعد أن فقد البالسيترو أيضاً، إذ أتت عليها النيران، وتبعثرت اشلاؤها. وكان ذلك في حوالي الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر.

انسحب الإيطاليون وتوقفوا في مشارف ليسا حتى حلول الظلام. وفي الليل اتجهوا نحو آنكونا، وانتهت معركة جزيرة ليسا، وعاد تيغيتهوف في مساء ٢١ تموز هو الآخر واتجه نحو بولا.

نتائج معركة ليسا

جاءت خسائر النمساويين طفيفة لم تتعد الـ (٢٢) قتيلاً والـ (٩٣) جريحاً، وفقدوا سفينة خشبية واحدة، في حين فقد الطليان (٨٤٣) رجلاً بين قتيل وجريح، أكثرهم غرق، أو فقد في أثناء انفجار البالسيترو. واحترقت لهم دارعتان، وغرقت الافانداتور المعطوبة أمام مدخل ميناء آنكونا، بفعل الأمواج، وبرغم ذلك كله بقي الأسطول الإيطالي الأكثر عدداً، ولم تكن معركة ليسا إلا اشتباكاً عابراً، لأن الحرب النمساوية الإيطالية حسمت في مكان آخر، وبالتحديد في غابة بوهيميا حيث انتصرت جيوش بروسيا حليفة إيطاليا في سادوا، وانتهت الحرب بتوقيع الهدنة في نيكولوسبورغ Nikolsburg ‏٢٢ تموز.

لقد حملت معركة ليسا البحرية الصغيرة والأولى بين سفن مدرعة حقيقية معاني عديدة دخلت علم التكتيك البحري، وأثرت على خطط بناء السفن الحربية المستقبلية وتطورها، وتأثير المدفع في خرق هياكل السفن والأجهاز عليها خلال دقائق معدودة.

حواشي الباب الأول

١ ــ ديكاز Decazes ايلي (١٧٨٠ ــ ١٨٦٠)

سياسي فرنسي عمل مع آل بوربون وأصبح وزيراً للبوليس (١٨١٥) ثم وزيراً للداخلية (١٨١٩) ورئيساً لمجلس النواب .

استقال بعد اغتيال دوبيري ، واعتبرت سياسته هي المسؤولة عن الحادث ، ابنه لويس (١٨١٩ ــ ١٨٨٦) أصبح وزيراً للخارجية ، عرف عنه بأنه هو الذي حل الأزمة الفرنسية الألمانية عام (١٨٧٥) .

٢ ــ بورتال بييربارتيلي Portal (١٧٦٥ ــ ١٨٤٥)

سياسي فرنسي استلم وزارة البحرية والمستعمرات ، أعاد بناء أسطول فرنسا الحديث ، وبارك عمليتي استعمار غوايانا ومدغشقر .

٣ ــ كودرينكتون Codrington ادوارد (١٧٧٠ ــ ١٨٥١)

أميرال بريطاني قاد مجموعة أساطيل بريطانيا وفرنسا وروسيا في نافاران (١٨٢٧) .

٤ ــ هيدرا Hydra

جزيرة يونانية في بحر ايجه .

٥ ــ راداما Radama (١٧٩١ ــ ١٨٢٨)

ملك مدغشقر من عام (١٨١٠) استولى على ايميرينا ووسع ممتلكاته بدعم من البريطانيين.

٦ ــ فيليل Villéle جان باتيست جوزيف (١٧٧٣ ــ ١٨٥٤)

سياسي فرنسي جمع ثروة طائلة من جزر موريس والرينيون، شارك في الحركة الملكية عام (١٨١٤) في طولوز، أصبح عضواً في البرلمان ووزيراً للمالية (١٨٢١)، ثم رئيساً لمجلس الأمة.. سقط في انتخابات لاحقة فاستقال (١٨٢٨).

٧ ــ مارتيبيناك Martipnac جان سيلفر (١٧٧٨ ــ ١٨٣٢)

سياسي فرنسي ملكي خلف فيليل في وزارة الداخلية.

٨ ــ بولينياك Polignac جول أوغست (١٧٨٠ ــ ١٨٤٧)

من الملكيين المتعصبين في عهد لويس الثامن عشر، عين سفيراً في لندن، واختاره شارل العاشر وزيراً للخارجية، ثم أصبح عام (١٨٢٩). رئيساً للبرلمان، خضوعه للكنيسة والإنكليز أفقده شعبيته، أشرف على حملة الجزائر، ترك الحكم وقبض عليه وسجن ثم شمله عفو عام (١٨٣٤).

٩ ــ بورمون Bourmont لويس (١٧٧٣ ــ ١٨٤٦)

ماريشال لفرنسا عمل مع بونابرت، ثم مع آل بوربون، شارك في حملة إسبانيا (١٨٢٣)، أصبح وزيراً للحربية، قاد جيش حملة الجزائر، وأصبح ماريشالاً لفرنسا (١٨٣٢)، اشترك في محاولة الدوقة دوبيري في الفاندية، حكم عليه بالموت غيابياً، عاد لفرنسا بعد صدور العفو عنه (١٨٤٠).

١٠ ــ بريتشارد Pritchard جورج (١٧٩٦ ــ ١٨٨٣)

مبشر بروتستانتي بريطاني وقنصل في تاهيتي، استخدم نفوذه (١٨٢٤) لطرد المبشرين الكاثوليك، أوقفه الكابتن اوبيني (١٨٢٣) فنشأت أزمة دبلوماسية حادة بين فرنسا وبريطانيا.

١١ ــ بودان Baudin نقولا (١٧٥٤ ــ ١٨٠٣)

مكتشف وبحار فرنسي اكتشف سواحل أستراليا .

١٢ ــ بالميرستون Palmerston فيكونت هنري عام (١٧٨٤ ــ ١٨٤٥)

سياسي بريطاني وزير للخارجية مرتين ، دافع عن مصالح بريطانيا أمام روسيا وفرنسا ، شن حرباً على الصين (١٨٤٠) لفتح أبوابها أمام النازحين الأوربيين ، تسلم رئاسة الوزارة .

١٣ ــ تيير Thiers ادولف (١٧٩٧ ــ ١٨٧٧)

سياسي ومؤرخ وصحافي فرنسي أصبح وزيراً للداخلية في حكومة لويس فيليب خلافه مع غيزو جعله يرأس اليسار المعارض .. أصبح رئيساً للوزراء مع حقيبة الخارجية لكنه انسحب بعد صراع طويل مع غيزو لكنه عاد من جديد وأصبح رئيساً للجمهورية (١٨٧١) .

١٤ ــ غيزو Guizot فرانسوا (١٧٨٧ ــ ١٨٧٤)

سياسي ومؤرخ فرنسي درّس مادة التاريخ في السوربون أصبح نائباً في المجلس ثم وزيراً للداخلية ووزيراً للخارجية ورئيساً للوزراء عاضد مترنيخ في عداءه للحريات ، انسحب من السياسة بعد عام (١٨٤٨) وكرس حياته للتاريخ ، ترك مؤلفات عديدة :

١٥ ــ ويلنكتون Willington آرثور (١٧٦٩ ــ ١٨٥٢)

عسكري وسياسي بريطاني قاتل في الهند وقاد حملة البرتغال وانتصر في فيميريو Vimerio ، عاد ثانية إلى البرتغال قائداً عاماً للقوات البريطانية في شبه الجزيرة الإيبرية ، هزم الجيوش الفرنسية واجتاز جبال البيرنيه ، ربح معركة واترلو الشهيرة ، أصبح سفيراً في باريس وعضواً في مجلس فيينا ، عين قائداً لقوات احتلال فرنسا ، أصبح رئيساً للوزراء (١٨٢٨ ــ ١٨٣٠) ، وأخيراً قائداً عاماً للقوات البريطانية حتى وفاته .

١٦ ــ بيريم Perim

جزيرة بركانية صغيرة في جنوب البحر الأحمر ١٣ كم٢

١٧ ـ لالاند Lalande ميشيل (١٧٦٦ ـ ١٨٣٩)

فلكي فرنسي اشترك في وضع مخطط للكرة السماوية، ووصف كل النجوم التي تظهر من فرنسا، ووضع مدار السيارة المريخ، وساعد دولامير في حساباته التثليثية Triangulation حول باريس.

١٨ ـ جوانفيل Joinville فرانسوا فرديناند (١٨١٨ ـ ١٩٠٠)

الابن الثالث للويس فيليب عضو برلماني (١٨٧١)، أعيد إلى مرتبته كنائب أميرال في القوات البحرية الفرنسية.

١٩ ـ بابان Papin دينيس (١٦٤٧ ـ ١٧١٤)

مخترع فرنسي عمل مع هوجينس Huyghens ثم رحل إلى بريطانيا وعمل مع بويل Boyle، وضع صمام الأمان، أقام في ألمانيا وقام بتجارب عدة على الآلة البخارية ذات المكبس، ووضع مواصفاتها (١٧٠٧)، بنى سفينة بخارية، عاد إلى بريطانيا ومات فيها معدماً.

٢٠ ـ سافيري Savery توماس (١٦٥٠ ـ ١٧١٥)

ميكانيكي بريطاني اخترع جهاز ضخ الماء من مناجم الفحم باستخدام البخار كقوة ميكانيكية.

٢١ ـ نيوكومن Newecommen (١٦٦٣ ـ ١٧٢٩)

ميكانيكي بريطاني صمم أول آلة بخارية مع سافيري قابلة للاستخدام، وجاء جيمس وات فيما بعد وأدخل عليها تحسينات عدة.

٢٢ ـ جيمس وات James Watt (١٧٣٦ ـ ١٨١٩)

مهندس بريطاني إيكوسي طور آلة نيوكومن، وقام بعدة تجارب على البخار، صمم المكثف البخاري وآلة واط التي لا أثر للضغط الجوي عليها. ابتدأ اعتباراً من عام (١٧٨٠) تجاربه في إخضاع وجهي المكبس للبخار، وأوجد الدولاب المعدل والمعدل ذا الكرات.

٢٣ ـ بلاك Black جوزيف (١٧٢٨ ـ ١٧٩٩)

فيزيائي وكيميائي ايكوسي درس غاز الفحم، واكتشف المنغنيز، درس القدرة الحرارية.. وقدر كميتها:

٢٤ ـ كيغنو Cugnot جوزيف (١٧٢٥ ـ ١٨٠٤)

مهندس عسكري ابتكر أول سيارة تعمل على البخار عام (١٧٧١)، وهو أول من نقل الحركة المستقيمة وحولها لحركة دائروية.

٢٥ ـ ستيفنسون Stephenson جورج (١٧٨١ ـ ١٧٤٨)

مهندس بريطاني والمخترع الحقيقي لاستخدام البخار في الخطوط الحديدية، بنى قاطرة بخارية قادرة على جر غدة عربات، جربها عام (١٨١٤)، وانتشرت قاطراته على الخطوط الحديدية بين ليفربول ومانشستر، ثم استخدم المرجل الذي صممه سيغان Seguin ذا الأنابيب، جاء ابنه روبير من بعده، وتابع خطاه في بناء الخطوط الحديدية، وابتكر الجسور الأنبوبية، وأشرف على بناء العديد منها.

٢٦ ـ بيرنويلي Bernouilli دانييل (١٧٠٠ ـ ١٧٨٢)

عالم من عائلة بيرنويلي البلجيكية اشتهرت بالعديد من العلماء من رياضيين وفيزيائيين، درس دانييل الرياضيات في جامعة بطرسبرج، وهو أحد مؤسسي الهيدروديناميكا، أسس نظريته استخدام قدرة الغاز حركياً، درس ظاهرة وأثر المد والجزر.

٢٧ ـ جوفري دابان Jouffry D'abans

مهندس فرنسي أول من سير سفينة بالبخار بالتجذيف الميكانيكي، ثم استبدل التصميم بدولاب ذي شفرات، لم يستطع المتابعة لقلة ما بيده، مات بالكوليرا.

٢٨ ـ تايلور Taylor برودك (١٦٨٥ ـ ١٧٣١)

عالم رياضيات بريطاني ترك دراسات ومؤلفات عديدة منها حركة القذيفة على مسارها.

٢٩ ـ فيتش Fitch جون (١٧٤٣ ـ ١٧٩٨)

مهندس أمريكي أول من استخدم المرجل البخاري بضغوط عالية (١٨٠٣)، صمم سفينة برمائية بدواليب سميت باسمه، وأطلق عليه اسم وات أمريكا.

٣٠ ـ ستيفنس stevens جون (١٧٤٩ ـ ١٨٣٨)

مخترع أمريكي طور الملاحة المائية باستخدام البخار، وعمل في تصاميم الخطوط الحديدية، ابتدع المرجل المتعدد الأنابيب، بنى عام (١٨٠٨) سفينة تعمل على البخار، عملت بين نيويورك وفيلادلفيا، أولاده روبرت وادوين تابعا خطاه من بعده.

٣١ ـ فيلتون Fiilton روبرت (١٧٦٥ ـ ١٨١٥)

ميكانيكي أمريكي اخترع أول غواصة، لكنها رفضت من قبل فرنسا وبريطانيا، كلف بتعمير أول سفينة حربية أمريكية بخارية، وبطارية المدفعية العائمة ديمولوغوس Demologos.

٣٢ ـ بينيون Bignon (١٧٧١ ـ ١٨٤١)

سياسي فرنسي سكرتير أول في وزارة الخارجية، هو الذي فتح باريس أمام الحلفاء (١٨١٥).

٣٣ ـ براماه Bramah جوزيف (١٧٤٩ ـ ١٨١٤)

ميكانيكي بريطاني قدم مبتكرات عديدة منها قفل الأمان الذي يحمل اسمه، والضاغطة الهيدروليكية بعد أن استخدم الجلد المضغوط، ابتكر آلة لترقيم الأوراق النقدية.

٣٤ ـ بوشنل Bushnell داوود (١٧٤٢ ـ ١٨٢٤)

مخترع أمريكي صمم غواصة صغيرة بحارة سماها السلحفاة هاجمت فرقاطة بريطانية (١٧٧٦)، دون أن تستطيع إحداث أضرار بها.

٣٥ ـ سوفاج Sauvage فردريك (١٧٨٦ ـ ١٨٥٧)

عالم فرنسي توصل لاستخدام الحارة في جهاز دفع السفن، لم يستطع إقناع المسؤولين بأفكاره، أصيب بالجنون ومات في مصح.

٣٦ــ إريكسون Ericson نيلز (١٨٠٢ــ ١٨٧٧)

مهندس سويدي ينحدر من أسرة كلها مهندسون، بنى العديد من القنوات والمعابر والجسور، جون أخوه (١٨٠٣ ــ ١٨٨٨) ابتكر المرجل كآلة حرارية تدفع عنفة، ابتكر المختبر الهيدروستاتيكي لقياس سيولة الانصباب تحت الضغط، وبنى في حرب الانفصال (١٨٦٢) الدارعة ذات الأبراج مونيتور Monitor.

٣٧ــ برينستون Princeton

جامعة أمريكية خاصة ذات سمعة عالمية نسبة للعالم الفيزيائي انشتاين الذي درس فيها.

٣٨ــ ويلكينسون جون Wilkinson (١٧٢٨ــ ١٨٠٨)

صناعي بريطاني صمم مخرطة التسوية لداخل الأسطوانات، ولسبطانات المدافع (١٧٨٧)، شيد أول سفينة من الحديد وفي (١٧٩٨) صنع أنابيب الفونت، واستخدمها في مياه قنوات باريس.

٣٩ــ نيقولا الأول Nicolas 1 (١٧٩٦ــ ١٨٥٥)

قيصر لروسيا ابن بول الأول وزوج شارلوت بروسيا، بعد موت إسكندر الأول اعتذر كونستانتان عن العرش فاعتلى العرش وأخمد الثورة العسكرية التي قامت ضده في كانون الأول (١٨٢٥)، ثم سحق ثورة بولونيا (١٨٣١)، وجعلها إقليماً من أقاليم ملكه، ثم استولى على إيرفان Ervan في إيران، وقاتل تركيا، وحصل على مصب نهر الدانوب، وبعض السواحل الشرقية للبحر الأسود. تقرب من بروسيا ومن النمسا، ودافع عن تركيا ضد المصريين عام (١٨٣٣)، وغدا أقوى عاهل في أوربة، لكن تدخله في تركيا رفض من قبل إنكلترا وفرنسا، وكانت حرب القرم (مات قبل إنهاء تلك الحرب).

٤٠ــ مينشيكوف Menchikoff الأمير الكسندر (١٧٨٧ــ ١٨٦٩)

أميرال روسي حفيد مينشيكوف دانيلوفتش مارشال روسيا ورجلها القوي (١٦٧٢ــ ١٧٢٩) قاتل الحفيد الأتراك عام (١٨٢٨)، أصبح وزيراً للبحرية (١٨٣٦)، فشل في مهمة دبلوماسية لدى الباب العالي (١٨٥٣)، ووقعت حرب القرم في زمنه وقادها حتى عام (١٨٥٥).

٤١ ــ نابليون الثالث Napoleon III شارل لويس (١٨٠٨ ــ ١٨٧٣)

ابن لويس بونابرت إمبراطور لفرنسا (١٨٥٢ ــ ١٨٧٠) طالب بالعرش بعد موت نابليون الثاني، وحاول الثورة في بولونيا وستراسبورغ، واعتقل في قلعة هام Ham، لكنه فر منها إلى إنكلترا عام (١٨٤٦). وبعد ثورة (١٨٤٨) عاد إلى فرنسا، ونجح في الانتخابات، ثم توج إمبراطوراً بعد تخلصه من خصومه. عرف بتشدده في الحكم، شارك في حرب القرم، وأرسل قواته إلى الصين وتدخل في إيطاليا، وحصل على نيس وسافوا، ثم أرسل الحملة الفاشلة إلى المكسيك، هزم أمام البروسيين في سيدان وأسر في ألمانيا، ثم انسحب إلى إنكلترا.

٤٢ ــ سيليستري Silistrie

موقع على الدانوب في بلغاريا وعلى الحدود الرومانية.

٤٣ ــ سيركاسي Circassie

مقاطعة في قفقاسيا (بلاد الجركس).

٤٤ ــ راغلان Reglan جيمس هنري (١٧٩٨ ــ ١٨٥٤)

فيلد ماريشال بريطاني قاتل إلى جانب ويلنكتون في إسبانيا وواترلو، عمل في الدبلوماسية، قاد القوات البريطانية في القرم ومات هناك بالكوليرا.

٤٥ ــ سانت آرنود Saint Arnaud آشيل لوروي (١٧٩٨ ــ ١٨٥٤)

ماريشال لفرنسا برز اسمه في حرب الجزائر وأصبح وزيراً للحربية، أمن لنابليون الثالث انقلابه عام (١٨٥١)، قاد قوات فرنسا في القرم وهزم الروس في الما Alma ومات بوباء الكوليرا.

٤٦ ــ بروبا ارمان جوزيف Bruat (١٧٩٦ ــ ١٨٥٥)

أميرال فرنسي فاوض الملكة بوماري لإقامة الحماية على تاهيتي (١٨٤٣)، قاد الأسطول الفرنسي في حرب القرم.

٤٧ ــ نابييه Napier شارل جيمس (١٧٨٢ ــ ١٨٥٧)

جنرال بريطاني برز في حرب إسبانيا وفي الهند، وأصبح قائداً عاماً لجيوش بريطانيا فيها، ابن عمه شارل أميرال (١٧٨٦ ــ ١٨٦٠)، خدم لدى ملكة البرتغال، ودمر أسطول المنشق دون ميفيل، برز في حملة سورية، قاد الأسطول الإنكليزي في البلطيق، وفي حرب بريطانيا لروسيا (١٨٥٤ ــ ١٨٥٦).

٤٨ ــ غورتشاكوف Gortchakoff ديمتريفتيش (١٧٩٠ ــ ١٨٦٨)

جنرال روسي حاكم لسيبريا الشرقية، برز في حرب القرم، أخوه ميكائيل (١٧٩٣ ــ ١٨٦١) رئيس أركان جيوش روسيا. عين قائداً عاماً لقوات روسيا في القرم، استطاع الفرار من سيباستيبول فنجا من الأسر، والابن العم الآخر إسكندر (١٧٩٨ ــ ١٨٨٣) سياسي روسي.

٤٩ ــ بازين Bazaine آشيل (١٨١١ ــ ١٨٨٨)

جنرال فرنسي اشترك في حربي القرم وإيطاليا، قاد حملة المكسيك عام (١٨٦٣) وأصبح قائداً للحرس الإمبراطوري، وقاد جيوش اللورين (١٨٧٠)، وأسر في ميتز Mitz، حكم عليه بالإعدام. فر وأكمل حياته في إسبانيا.

٥٠ ــ كلاي Clay هنري (١٧٧٧ ــ ١٨٥٢)

سياسي أمريكي وأحد زعماء الحزب الوطني الجمهوري، ترشح عدة مرات لرئاسة جمهورية الولايات المتحدة، لكنه لم يفز، اشتهر اسمه بتسوية سميت تسوية كلاي.

٥١ ــ ابراهام لينكولن Lincoln (١٨٠٩ ــ ١٨٦٥)

محرر العبيد رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية، اغتيل قبل خمسة أيام من انتصار الشماليين ١٤ نيسان (١٨٦٥).

٥٢ ــ غرانت Grant سمبسون (١٨٢٢ ــ ١٨٨٥)

جنرل أمريكي، أصبح قائداً لجيش الشمال، أوصله حزبه إلى رئاسة الجمهورية مرتين عام (١٨٦٨ ــ ١٨٧٢).

٥٣ ــ شيرمان Sherman ويليام (١٨٢٠ ــ ١٨٩١)

جنرال أمريكي برز في حرب الانفصال ضمن قوات الشمال، قام بالمسيرة الكبرى نحو البحر The great March to the sea مسيرة يومين من أطلنطا إلى سافانا (١٨٦٤)، حقق تسليم جونستوف، قاد جيوش الاتحاد وأعطى اسمه لدبابه شهيرة صنعت خلال الحرب العالمية الثانية.

٥٤ ــ ماك كليلان Mac clellan جورج برنتون (١٨٢٦ ــ ١٨٨٥)

جنرال أمريكي فيدرالي هاجم ريتشموند ودافع بشجاعة عن واشنطن، وهزم الجنرال الجنوبي لي. بعد الحرب فشل في الانتخابات الرئاسية وانتهى حاكماً لولاية نيوجرسي.

٥٥ ــ بوشانان Peauchanan جيمس (١٧٩١ ــ ١٨٦٨)

سياسي أمريكي، رئيس للولايات المتحدة الأمريكية (١٨٥٧ ــ ١٨٦١)، تبنى سياسة تشجيع الرق.

٥٦ ــ مونيتور Monitor

سفينة مدرعة متوسطة الحجم صنعت في الولايات المتحدة خلال حرب الانفصال، قلدت صنعها دول أخرى بحرية، مهمتها مهاجمة السواحل، أو الدفاع عنها وعن المعابر المائية.

٥٧ ــ بوروغارد Beauregard غوستاف (١٨١٨ ــ ١٨٩٣)

جنرال انفصالي من أصل فرنسي، قاد أول هجوم جنوبي على حصن سومتر Sumter، استسلم إلى شيرمان إثر هزيمة الجنرال لي Lee، أصبح بعد الحرب حاكماً معاوناً للويزيانا.

٥٨ ــ فاراغو Farragut داوود (١٨٠١ ــ ١٨٧٠)

أميرال أمريكي قاد أسطول الشماليين في حرب الانفصال، برز في معركة احتلال نيوأورليانز وفي انتصارة في خليج موبيل Mobile عام (١٨٦٤).

٥٩ ـ بتلر بنجامان Butler فرانكلين (١٨١٨ ـ ١٨٩٣)

محامي وجنرال أمريكي شمالي، أنقذ واشنطن لكنه فشل في هجومه على غريت بيتيل، أصبح حاكماً لماساشوسيت، وفشل في انتخابات رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية.

٦٠ ـ دافيس Davis جيفرسون (١٨٠٨ ـ ١٨٨٩)

سياسي أمريكي ضابط وسيناتور، ثم أصبح وزيراً للحربية. حارب الاتحاديين وانتخب رئيساً لجمهورية الانفصاليين الجنوبيين (١٨٦١)، هرب بعد سقوط ريتشموند واعتقل وسجن لعامين في حصن مونرو.

٦١ ـ مازيني Mazzini غيوسيب (١٨٠٥ ـ ١٨٧٢)

مناضل إيطالي، دكتور في الحقوق قاد الوحدة الإيطالية، وقاد إيطاليا الفتاة، وأصبح رئيساً لاتحاد مقاومة الأمراء، كان يحلم بروما الثالثة بعد روما القياصرة والبابابوية. قاد المقاومة في ميلانو ضد النمساويين، نفي عدة مرات، اشترك في الحملة على صقلية، اعتقل عام (١٨٧٠) ثم أفرج عنه، ومات تحت اسم مستعار.

٦٢ ـ تيغيتهوف Tegethoff ويلهم (١٨٢٧ ـ ١٨٧١)

أميرال نمساوي اشترك في معركة هليفولاند البحرية ضد الدانمركيين عام (١٨٦٤)، وبرز في معركة ليسا عندما انتصر على الأميرال الإيطالي بيرسانو عام (١٨٦٦).

الباب الثاني

الآثار السياسية
للعلاقات الاقتصادية
في عصر الاستعمار

الفصــــل الأول

المصــالح الاستعماريــة البحريــة الجديــدة

تطور العتاد البحري وتقنيته بين أعوام ١٨٧٠ و ١٩١٤

لعبت القوى البحرية في العالم المتمدن دوراً منفتحاً واسع الأرجاء. وقد علت جبهتها أكاليل غار من التقدم والتطور، تمثلت بنوعيات جديدة من السلاح والعتاد، كان لها شأن كبير في تاريخ البحر. وقد نجد أنفسنا ملزمين على ذكر مراحل هذا التطور السريع، لنقف على تحديث آلة البحر بعتادها وأجهزتها واستخداماتها، وعلى الإنجازات التقنية التي تحققت بين أعوام (١٨٧٠) و (١٩١٤)، وأثرها في عصرنا الحديث.

في خلال الثلاثين عاماً الأخيرة من القرن التاسع عشر أسقط البخار عرش الشراع، وأسقطت السفن المدرعة الحربية السفن البخارية البسيطة. وجاء الحديد فانتزع مركز الصدارة في مجالات بناء السفن. وتراجع الخشب حتى اختفي. ويعزى ذلك للتطور المستمر في الصناعات المعدنية، وفي علم بناء السفن، وفي تصميم أسلحة البحر، ونعني المدفع وأنواعه.

كان لطموحات إنكلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية عظيم الأثر في امتلاك القوى البحرية الكبيرة التي تضم الأساطيل من الدرجة الأولى. وكان لهم ما أرادوا. وسرعان ما انتشرت هذه العدوى إلى الدول الأخرى، ولحقت بالمركب. حيث نجد ألمانيا واليابان، وحتى النمسا وإيطاليا وروسيا تسعى جميعها وراء امتلاك القدرات البحرية التي تؤمن لها سيادة البحر في جوار برها

القاري. ونجد ألمانيا وقد عنيت ببحر الشمال، وروسيا في المحيط الهادي والبحر الأسود، وإيطاليا والنمسا في الأدرياتيك والمتوسط.

التطور الصناعي وبناء السفن معدنياً

في عام (١٨٧٠) باشر الإنكليز في استخدام معدن الحديد لبناء سفنهم. وسرعان ما أصبحت كل السفن الحربية البريطانية حديدية. أما فرنسا البلد الغني بغاباته الخشبية، فقد ظلت أمينة للخشب واستخداماته في البحر. ولم تبن سفينة حديدية إلا عام (١٨٧٣)، فكانت الرودوتابل Redoutoble التي بلغ وزنها (٩ر٥٠٠) طن.

إن أسلوب بناء السفن معدنياً يعتمد أساساً على نظام العوارض الطولية والعوارض العرضية، مع تشابه في نظام البناء الخشبي، من حيث الهيكل والدعائم.

ونظام العوارض الطولية الوحيدة للمجنبات، والذي يستند على الهيكل كقاعدة أسلوب اعتمد على السفن التجارية القليلة الوزن التي تنقل البضائع، لسهولة صنعها وقلة كلفتها، ولأن وزن جسم السفينة يؤثر في طاقة حمولتها، فكلما خف الهيكل زادت قدرة التحميل. أما سفن النقل والسفن الحربية الكبيرة، والتي تتعرض بسبب أطوال أبعادها إلى تعب بدن السفينة Fatigue من البحر وأمواجه، فتستخدم طريقة الوصل الطولي بهيكل مضاعف، مع سدود عرضية يكثر تقاربها، لتصبح السفن، وخاصة المعدة لنقل الركاب، أكثر أماناً في حالات الجنوح أو التصادم. وجاء الحديد، ومن بعده الفولاذ (الأكثر مقاومة والأقل سماكة) فأتاح إقامة جدران كتيمة، دون أن يزاد في وزن هيكل السفينة.

لعب نوع المعدن أو نوع خليطته الدور الأهم في علم صناعة السفن المتطورة. ففي عام (١٨٤٥) ظهر في عالم الصناعة مفولذ بيسمير(٦٣) Bessemer، ثم فرن مارتان(٦٤) Martin اللذين بفضلهما زيد عامل مقاومة الفولاذ، بتجانس ربط القسوة بالطوعية، فأخذ هذا الخليط الجديد درجة متغيرة من المقاومة. ورحنا نشهد أنواع عديدة من الحديد المقاوم، كالفولاذ الطري، والفولاذ نصف القاسي، والفولاذ القاسي جداً. وبتعاون فرن مارتان عام (١٨٨٠) مع طريقة توماس غيلهريست(٦٥) Thomas Gilhrist في معالجة المعادن المفسفرة (تخلط بالفسفور) توصل الصناعيون لمجالات واسعة في خيار الخلائط، وكما هزم الخشب في الماضي جاء الفولاذ ليهزم الحديد.

اتسع استخدام الفولاذ في بناء السفن، وأمكن بناء الضخمة منها دون خشية حدوث ضعف

في نقاط الوصل والاستناد بين مختلف العوارض والمساند التي تدخل في بناء الهيكل. وشهد العالم سفناً كبيرة كالبريتانيك Pritanic (٨٥٠٠) طن والأوبريا Ubria (١٠٥٠٠) طن. وتسارعت خطا الأوزان وبنيت الغرين ايسترن green Eastern بوزنها الضخم الذي وصل إلى (٥٨) ألف طن، وكانت جبارة عصرها.

عادت الأوزان واستقرت بين الـ (١٥) ألف والـ (٣٠) ألفاً، أمثال كونارد Gunard (١٨) ألفا وكايزر ويلهلم ٢ Kaiser-Wilhelm II (٢٦) ألفاً. وتزايدت أوزان الدارعات الحربية من الرودوتابل (٥٠٠ر٩) طن إلى دريدنوهت[٦٦] Dreodnought (٩٠٠ر١٧) طن، حتى جاءت أعوام (١٩١٠) إلى (١٩١٢) ووصلت إلى (٢٣) ألف طن، وأكثر. ويرجع الفضل بذلك لاستخدام الفولاذ القوي المقاوم الذي منح السفن الحربية الكبيرة قدرة قتالية عالية.

المحركات

استخدمت معظم سفن العصر مبدأ التبخير داخل مراجل من أنابيب دخان محوطة بكمية كبيرة من الماء. وهي الصورة البدائية للمرجل الذي بدا ثقيلاً ضخماً وضعيف المردود بطيئاً في سرعة رفع درجة الضغط فيه، ويكثف البخار الخارج من الأسطوانة بمزجه بماء البحر داخل مكثف وبطريقة الحقن المباشر. ولهذه الطريقة محذور كبير فتزويد المرجل بماء البحر يترك ترسبات أملاح عالية تتطلب تنظيفاً متواصلاً، ويعرض المراجل عند اختناق فتحاتها بالملح إلى الانفجار. وللتخفيف من هذا الأثر السيء خفض الضغط المطلوب إلى (٢) كغ، فكانت كل المحركات البخارية تعمل بضغط متوسط.

بعد عام (١٨٦٠) شاع استعمال المكثف ذي الأسطح (صممه الإنكليزي هول[٦٧] Holl عام ١٨٣٨)، ويتألف من أسطح كتيمة تحول بين البخار وماء البحر.. ثم جاء جون الدير John Elder الإنكليزي وبنجامان نورماند[٦٨] Benhjaman Normand الفرنسي فقدما الماكينة المركبة، التي تستخدم البخار المنفلت ضمن أسطوانتين متعاقبتين. ويتم استخدام البخار بصورة أفضل مستفيدين من قوة انفلاته. وأصبحت الماكينة المركبة الآلة الشائعة في عصرها. ورفع الضغط من (٣ إلى ٥) كغ، وانخفض عامل الهدر والاستهلاك إلى (١) كغ بدلاً من (٧ر١) كغ سابقاً لكل حصان بخاري، حتى إن وزن الحصان انخفض من (٧٥٠) كغ إلى (١٥٠) كغ فقط.

استمر التطور في الأعوام التي تلت بعد إدخال الآلة البخارية ذات المراحل الثلاث، ثم آلة

المراحل الأربع (في البحرية التجارية فقط)، ثم باستخدام المرجل المحشو بالمواسير الذي يستهلك قدراً قليلاً من الماء، والقليل الوزن إن قورن بسابقه.

اكتشفت عام (١٩٠٥) العنفات البخارية Turbines، وجهزت البواخر الضخمة بها فحلت محل المحركات المتناوبة (ماكينات سميت بذات المحور ثلاثية الانفلات والمراحل، تغذى من قبل مرجل من نموذج تامبل Temple أو نورماند Normand أو نيكلوس Niclausse أو بيلفيل Belleville). وقد بلغ وزن الحصان البخاري في تلك الآلات (٨٠) كغ، وبلغ الاستهلاك الساعي له (٠,٧) كغ من الوقود.

لمس العلماء والمهندسون سبقاً كبير المردود في استخدام الأجهزة الرحوية التي تحرك مباشرة رفاص السفينة، فاستخدموا العنفات التي تستخدم قوة البخار الحية بدلاً من ضغطه، ووجدوا بأن العنفات أجهزة قوية الاحتمال زهيدة التهالك، سهلة المراقبة، تتجاوب بسرعة، وتفوق بتجاوبها في رفع الضغط الآلات المتناوبة.

اختبرت أولى العنفات البخارية بين أعوام (١٨٩٣ ـ ١٨٩٧) على قاذفة الطوربيد الإنكليزية توربينيا Turbinia والنسافة الإنكليزية فيبر Viper، ففاقت بميزاتها الآلة المتناوبة. واستطاع المصممون إدخال عدة تحسينات عليها، منها إضافة عنفة خصصت للسير إلى الخلف، إلى جانب عنفات السير إلى الأمام، بعد أن عانوا كثيراً من مسألة استحالة تغيير جهة دوران الحركة، ومسألة تخفيض استهلاك الوقود في السرعات المنخفضة.

لحق التطور نوع الوقود، فبعد الفحم نزل إلى الميدان المازوت البترولي ففاق بطاقته الحرارية طاقة الفحم لحجم مساوٍ، وغدا الوقود الشائع الأكثر سهولة في الاستخدام، وبالتالي على السفن، وارتاح الوقادون له ولاستخدامه، حيث أعطاهم قدرة على الانطلاق أكبر، لم تعرفها مراكب البحر من قبل.

حاول المصممون في مطلع القرن العشرين إشراك الآلة ذات الانفجار الداخلي، وآلة الديزل ذات الاحتراق المتصاعد. وجاء المهندس الألماني ديزل[٦٩] Diesel مخترع آلته الشهيرة الصلبة والعملية، وأجرى تجاربه الأولى، فلم يصل إلى المستوى المنشود، فاقتصرت آلته على الزوارق والسفن الصغيرة، في حين عمت المحركات الانفجارية السفن الحربية، وخاصة الغواصات متسخدمين مادة البنزين، ثم الكيروسين. ولكن مع حلول عام (١٩١٠) سيطرت آلة الديزل، وأصبحت الآلة المحركة للغواصات عامة.

أما في المجال التجاري وحيث للوقت قيمته فقد تنافست شركات النقل البحرية العالمية، الأمريكية منها أو الأوربية على تطوير سفنها، فجعلتها ضخمة جميلة أمينة، وسريعة، تقطع المحيط، وتحمل الركاب والبضائع والطرود البريدية بأزمان اعتبرت آنذاك آية في السرعة. فكانت سباقة عن غيرها في تجهيز سفنها بأحدث الاكتشافات العلمية المتعلقة بآلية دفع السفينة.

المدفعية الجديدة

اعتبر تطور المدفع بطيئاً بمقارنته بتطور بناء السفن، وظل يراوح في مكانه حتى ظهور أسلوب التصفيح للسفن الحربية، الأمر الذي فرض إيجاد قوة خرق لسلاح السفن أكبر. ولكي يتم ذلك كان لا بد من إعطاء سبطانة المدفع قوة تماسك أكبر مع زيادة شحنة البارود، ثم أعيد النظر في أسلوب التسديد على الأهداف.

ومع ازدياد تصفيح السفن الحربية ازدادت أعيرة المدافع، وارتفع هذا العيار من (١٦٠) ملم حتى الـ(٤٥٤) ملم على بعض البوارج الإيطالية، أمثال دويليو Duilio وداندولو Daudolo (حتى الدارعات الانكليزية التي قصفت ميناء الإسكندرية (١٨٨٢) رمت بمدافع من عيار (٤٠٠) ملم).

ولكي يصل المدفع لدقة في التسديد، وليبلغ مدى في الرمي أكبر باشر المصممون عام (١٨٥٥) حلزنة سبطانته، ثم استعيض عن تلقيمه من الفوهة بشحنة من المؤخرة بوساطة أكياس من البارود، وطور مغلاقه ليتحمل صدمة اشتعال البارود القوية، ولتخفيف تآكل السبطانة بعامل البارود الأسود المحترق داخلها استطاع المصممون تقويتها من الخارج بأطواق فولاذية ومن الداخل بماسورة من الفولاذ تولج على الساخن.

ازدادت السرعة الابتدائية في انطلاق القذيفة بعد استخدام الظرف النحاسي الجاهز بقذيفته وشحنته وصاعقه، وأصبح استخدام مثل هذا الظرف شائعاً حتى عيار (١٦٠) ملم. وأخيراً توصل الاختصاصيون، وعن طريق المزج اكتشاف البارود الغرائي المتجانس Colloïdal الذي يحترق طبقياً وبانتظام. فأصبح بالإمكان زيادة الشحنات، دون خشية انفلاق المدفع، وبإطالة السبطانة ازداد المدى، باستخدام كل الغاز المنطلق من احتراق البارود الجديد. ووصلت السرعة الابتدائية في انطلاق القذيفة من (٨٠٠) إلى (٩٠٠) متر/ثانية. وهذا يساوي تقريباً أربعة أمثال سرعتها في

الأمس القريب . وغدا المدفع سلاح السفن الحربية المرعب ، ووصلت أعيرته مع السنوات الأولى للحرب العالمية الأولى حتى (٣٨٠) ملم ، وبقوة خرق وتدمير كبيرتين .

تطور التصفيح على السفن الحربية

وهل سيستسلم الصفيح أمام المدفع ؟ لم يكن هذا رأي الكثيرين عام (١٨٨٥) فالتصفيح زاد باضطراد ، مع ارتفاع عيار المدفع وقوة خرقه ، حتى وصلت السماكة إلى (٣٥) سم من الحديد على السفن عامة ، وإلى (٥٠) سم على الفورميدابل Formidable وإلى (٦١) سم على الانفليكسيبل Inflexibe إحدى الدارعات الإنكليزية التي شاركت في قصف الاسكندرية .

تزايد وزن السفن نتيجة التصاعد في سماكة الصفيح (وزن الفورميدابل ٩ر١١ ألف طن) وتعاظم حجم إزاحتها حتى وصل أرقاماً كبيرة بالغة الكلفة ، وطوربيد واحد قد يكفي لإرسالها إلى قاع اليم . فبدأ التفكير في تغيير نسب السماكة للصفيح المستخدم في دروع السفينة طبقاً للضرورات القتالية ، وللمراكز الأكثر حساسية في جسم السفينة . وقصر الأمر على خط العوم وبرج القيادة ، والأبراج الثلاثة التي تضم بطاريات المدافع الرئيسية . واختفى في باقي أجزاء السفينة مقتصراً على الضروري فعلاً . وعملاً بالمقولة البريطانية الشهيرة :

« تفضل أن تغرق السفينة وهي ترمي بجميع مدافعها ، من أن تبقى حطاماً طافياً حسن التدريع ومدافعها بائسة متوقفة » .

تجاوز البريطانيون القاعدة المتبعة ، وخففوا من تصفيح خط العوم إلى الحد الأدنى ليزيدوا من تصفيح برج القيادة وأبراج المدافع . ولما كان من غير الممكن الاكثار من تلك الأبراج الضخمة ، والتي يزيد وزن الواحد منها عن (١٠٠) طن ، استعاضوا عنها بجدران ضخمة من الصفيح السميك لحمايتها .

بعد معركة جزيرة ليسا الشهيرة لم تعد كثافة النيران العامل الأهم في المعركة البحرية بقدر قوة خرق السلاح لدروع السفينة المعادية : فكما كان المهماز في مقدمة السفينة بالأمس (اختفى المهماز بعد تطور أسلحة البحر ، وأصبح أثراً من مخلفات الماضي يزين مقدمة بعض السفن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر) . وأصبح المدفع الضخم هو السلاح الذي عليه تقع مهمة خرق مجنبات سفن العدو ، ثم إغراقها ، وخاصة عند إصابتها تحت خط العوم مباشرة . وهذا ما دفع باني السفن الحربية إلى رفع أبراج المدافع حتى الجسر العلوي أولاً لكي لا تتأثر بأمواج ورذاذ البحر ،

ولتتخلص من الزوايا الميتة من جسم السفينة ثانياً . والأهم من هذا وذاك إعطاء المدفع مدى وساحة رمي وزوايا سقوط كبيرة تتيح للقذيفة إصابة الخصم في زوايا حادة ، تصل حتى تحت خط العوم . ومن ثم ركزت بطاريات المدافع قرب برج القيادة حيث يسهل إدارة نيرانها . وبرغم كل ذلك بقيت السفن الحربية بحاجة لتدريع العديد من النقاط الضعيفة فيها ، فالسطح العلوي غير مصفح وهو يرتفع قليلاً عن خط العوم ، فإذا أصيب ، وفقدت السفينة توازنها زاد احتمال ترنحها وانقلابها (لم يكن هذا المحذور معترفاً به قبل ظهور البارود الغرافي الذي أعطى القذائف سرعات ابتدائية عالية وبالتالي قوة خرق رهيبة) . وبما أن سرعة تساقط القذائف أصبح بين ٣ و ٦ قذائف بالدقيقة بدلاً من واحدة كل ١٠ أو ١٥ دقيقة في السابق فيمكننا تصور ما قد يحدث بجسم سفينة تتعرض لمثل هذا التواتر السريع ، إضافة إلى تهديد خطير لكل العاملين وإمكانية إصابتهم ضمن أقسام السفينة المختلفة .

بحث الاختصاصيون طويلاً حتى أوجدوا خليطة معدنية مقاومة قليلة الوزن تحيط بكل أقسام السفينة تمنع عنها آثار تدمير المدافع القوية . وبالفعل أعلن صانعو الفولاذ عن صفائح من خليطة حديدية قابلة للتطريق من النوع المطواع ، يعلوها غطاء من الفولاذ القاسي .

هذا الاكتشاف الجديد خفض من سماكة التصفيح حتى (٢٨) سم فقط ، للمقاومة السابقة نفسها واستطاع بناؤو السفن رفع الطوق الواقي حول خط العوم لمتر أو مترين عن سطح الماء ، تبعه تصفيح أدق غطى الجدران حتى أربعة أو خمسة أمتار . ويعلو الجميع سطحان مصفحان متتاليان يحصران فيما بينهما صندوقاً مدرعاً حوفظ عليه من تسرب الماء بإقامة جدران كتيمة ومتقاربة أشبه بخلايا النحل .

خصصت الحجرات الجانبية للسفينة كمخازن للفحم تساعد على الإقلال من خطر خرق القذائف ودخولها بطن السفينة (ترتيب أول ما ظهر على الدارعة الإنكليزية ماجستيك عام ١٨٩٥) وبهذا الأسلوب ارتفع وزن الدارعات إلى (١٥) ألف طن بشكل إنسيابي يطفو بتوازن وأمان ، وأحيط جسم السفينة وقيعانها التي تضم المراجل والمحركات والذخائر بنطاق إضافي يقيها خطر القذائف والمتفجرات .

وفي الوقت نفسه وإثر معركة بونتا آغاموس Punta-Agamos الشهيرة ٨ تشرين الأول (١٨٧٩) قام الأخصائيون أمثال يالو Yalou بدراسات حول أفضل السبل لاستخدام المدافع ، فوجدوا أن على السفن استخدام تشكيلة الرتل الأحادي لإشراك جميع مدافعها بالرمي حيث تسهل إدارتها ، وتفادي تشكيلة النسق الجبهية البطيئة والتي تترك معظم مدافع السفينة خارج المعركة .

اعتمدت أربعة الأبراج عيار (٣٠٥) مزدوجة السبطانة، كقوة الرمي الرئيسية على معظم سفن القتال، واتخذت المدافع المتوسطة الأعيرة (حتى ١٩٠ ملم وعددها من ١٢ إلى ١٦ مدفعاً) أماكن أقل أهمية على سطح المركب، وجعلت جميعها داخل صناديق مدرعة، وزعت بشكل يسهل قيادتها، والتحكم برميها، مع إتاحة زوايا رمي مناسبة لكل مدفع.

جاء النصر الكبير الذي حققه اليابانيون في معركة تسوشيما[٧٠] Tsoushima ٢٧ مايس (١٩٠٥) ليؤكد مزايا المدرسة الجديدة في استخدام المدفعية الثقيلة على السفن. وانتشرت الفكرة بين باقي الأمم البحرية الأخرى، وابتدأ سباق في التسليح عجيب، الكل يسعى فيه لاقتناء السفن القوية الحديثة المسلحة بأفضل المدافع، دون النظر للكلف الباهظة. وجاءت ألمانيا سباقة في اعتماد بناء أسطول قوي، هدد عظمة كل من بريطانيا وفرنسا في قدراتهما البحرية. واستدركت بريطانيا شأنها فهي سيدة البحار، وأنزلت عام (١٩٠٦) الدارعة الدريد نوهت Dreadnought التي وزنت (١٧ر٩) ألف طن ووصلت سرعتها إلى (٢١) عقدة، وسلحتها بـ (١١) برجاً مدفعياً من عيار (٣٠٥) ملم مزدوج السبطانة، ثمانية من هذه الأبراج تستطيع الرمي مجتمعة ومن مجنبة واحدة، (ميسرة أو ميمنة).

كان لنزول هذه الدارعة أثر كبير لدى قوى البحر الأخرى، لأن سفينة من هذا الطراز قد تقلب كل موازين القوى المعتمدة. ولا بد والحالة هذه من المجاراة، حتى وصلت حمى التنافس إلى الدول البحرية الصغيرة أمثال الأرجنتين والبرازيل، والكل بنى مثيلة دريدنوهت وحتى سوبر دريد نوهت Super Dread Nought أي بأطوال أكبر وتسليح أضخم. ووصلت الأوزان حتى (٢٧) ألف طن، والسرعة حتى (٢٣) عقدة، وأعيرة المدافع حتى (٣٨٠) ملم. ورُصّت كل المدافع داخل أبراج محورية متدرجة الارتفاع، تستطيع القصف من جانب واحد برشقة كبيرة من القذائف في كل صلية، في حين خصصت مدافع الأعيرة المتوسطة لصد هجمات قاذفات الطوربيد أو النسافات.

الطرادات الحديثة

إضافة للبوارج والدارعات والعمارات الضخمة كان لا بد للتشكيلات البحرية القتالية من سفن قوية سريعة ذات مدى عمل بعيد، لتستكشف الأرجاء، وتعلم القيادة عن نتيجة رصدها لتحركات العدو، فتؤمن للصديق الوقت اللازم ليستكمل استعداداته القتالية.

لعبت الفرقاطات دور الاستطلاع في بحريات الخشب العتيدة، ثم انتقلت تلك المهمة فيما بعد إلى الغرابات والحراقات والسميريات البخارية، ثم تراجعت عن أدائها هذا الواجب لضعف تسليحها، ولأنها هالكة لا محالة لو أجبرت على القتال، وأوكلت مهماتها إلى البوارج الحربية. إلا أن مثل تلك السفن ثقيلة الحركة ووزنها كبير، وكلفتها باهظة، ولا بد من كشاف بسريع يتحرك أمامها وينقل إليها المعلومات الأولية. وهكذا كان مولد الطراد البحري السريع علاجاً للمشكلة. والطراد قطعة بحرية متوسطة الوزن (٥ إلى ٧) آلاف طن لها سرعات عالية قليلة التدريع، قوية الجسم، دعم الهيكل بعوارض خشبية، وغلف من الخارج بالنحاس لمنع اتساخ الهيكل بتوضع قواقع البحر عليه، نظراً لبقائه مبحراً أشهراً طويلة.

طورت الطرادات وحظيت ببعض التدريع، وخاصة في المناطق التي تحيط بخط العوم. وكلفت بمهام الكشف والرصد والمراقبة، وببعض الأعمال القتالية الخفيفة، نظراً لقوة تسليحها وعلو سرعتها. وبتكثيف مهامها القتالية ولدت الطرادات المدرعة، كنموذج قوبل بالترحيب، لأنه حديث اقتصادي يقاتل ويفر عندما لا تبدو المعركة في صالحه، وأصبح السفينة القرصانة المثالية القادرة على تدمير أي هدف يلحق بها.

تعاظم حجم هذا الطراد حتى وصل وزنه إلى (١٣) ألف طن، وغدا دارعة خفيفة، أثبتت معركة تسوشيما فعاليتها، عندما أشرك الأميرال توغو Togo طرادات الأميرال كاميمورا Kamimoura في المعركة، وجاءت النتائج لتؤيد القول باستبدال الطرادات بالدارعات الخفيفة ذات التسليح الموازي لتسليح الدارعات الضخمة، لكنها أقل حماية وتدريعاً وأكبر سرعة وقادرة على قبول أو رفض المعركة بالانسحاب منها، أو مساندة الدارعات الكبيرة بقوة نيران كثيفة.

أولى تلك الموجات الجديدة من السفن الانفانسيبل البريطانية Invencible، والتي أنزلت إلى الماء عام (١٩٠٧)، وكانت تزن (١٧٫٥) ألف طن وسرعتها (٢٥) عقدة، وعلى متنها (٧) مدافع مزدوجة من عيار (٣٠٥) ملم. والحقيقة أن الانفانسيبل طراد قتالي وليس طراداً مدرعاً، كما حاولوا تسميته.

لحق الألمان بالإنكليز وبنوا طرادات قتالية وصلت أوزانها حتى (٢٨) ألف طن، مع (٨) أبراج مدافع مزدوجة من عيار (٣٤٣) ملم، وبسرعة (٢٨) عقدة عام (١٩١٤). وقد لعبت تلك الطرادات دوراً هاماً في معارك الحرب العالمية الأولى.

بعد ظهور الطرادات القتالية أعيدت مهام الرصد والاستعلام، فأوكلت للطرادات الخفيفة فقط، والتي احتفظت بأوزانها الثابتة (٥ إلى ٧) آلاف طن، مع تسليح خفيف وسرعات عالية جداً، واعتبرت أسرع الطافيات آنذاك. وانقرضت على أثر ذلك الطرادات المدرعة، ولم تعمر أكثر من ربع قرن. واقتصرت الأساطيل على البوارج المدرعة، وطرادات القتال والطرادات الخفيفة ... الخ.

الأسلحة الجديدة (الطوربيد) والسفن القاذفة له

الطوربيد سلاح جديد، وقد كان للمخترع فيلتون Fulton وتجاربه الأولى عليه في بداية القرن التاسع عشر أكبر الأثر في وضع أسس هذا السلاح الفتاك الذي يتألف من عبوة ناسفة كبيرة، تعمل تحت سطح الماء بمجرد ملامسة بدن السفينة. وسمي في البدء الطوربيد الثابت، وهو أشبه باللغم البحري. ويتم إشعال فتيله بتفاعل كيماوي عن طريق جهاز اسمه آلة جاكوبي Jacobi، ثم تطور الاشعال فأصبح كهربائياً عن طريق إغلاق دارة صغيرة وضعت أسسها خدمات أسلحة تحت الماء، في معبر شارلستون وموبيل خلال حرب الانفصال الأمريكية. إن جميع تلك الأسلحة بما فيها الطوربيدات الروسية واليابانية التي زرعت قرب شواطىء ليباو تونغ عام (١٩٠٤) والتي سببت خسائر للدولتين المتنازعتين (غرق عدة دارعات اعتبرت من أقوى سفن عصرها، إذ خسر الروس في ١٣ نيسان بيتروباولوسك Petropawlosk، وفقد اليابانيون في ١٥ مايس هاتسوس Hatsuse وياشيما Yashima). كانت أسلحة دفاعية أشبه بالألغام البحرية التقليدية، وفي خلال حرب الانفصال الأمريكية حاول الجنوبيون تفجير طوربيدات منقولة تلصق بمجنبات الفرقاطات والسمبريات التابعة لقوات الفيدراليين، تنقل بزوارق صغيرة (الداووديات Davids) فشكلت تلك الطوربيدات خطر على السفن الراسية فقط، أما المبحرة فسرعتها أكبر من سرعة الداوودية حاملة الطوربيد. وحل الخطر الحقيقي حينما استطاع المخترع الإنكليزي تورنيكروفت Thornycroft تصميم آلة بخارية متناهية في الصغر جهز بها الزوارق الصغيرة فأكسبها سرعات عالية تصل لسرعات السفن الكبيرة وأصبح الوصول للسفن المبحرة ممكناً.

ظهرت عدة طرازات من الزوارق الصغيرة الحاملة لأنابيب الطوربيد والمجهزة بمحركات قوية تجاوزت سرعاتها الـ (١٨) عقدة. وكان أثرها القتالي واضحاً خلال معركة فوتشيو Foutchiou التي جرت في ٢٣ آب (١٨٨٤)، ومعركة شايبو ١٥ شباط (١٨٨٥).

ظل الطوربيد سلاحاً بدائياً صعب الاستخدام، يحتاج لكثير من الشجاعة خصوصاً عند

مهاجمة السفن الحربية الكبيرة والمجهزة بالعديد من المدافع المختلفة الأعيرة. وقد كان استخدام الطوربيد في مراحله الأولى بوساطة مخل طويل يبلغ العشرة أمتار، يثبت السلاح في رأسه ويرسل ليصدم الهدف ثم تحول إلى داخل أنبوب خاص به صممه العميد البحري النمساوي لوبيس Luppis وبناه المهندس البريطاني وايتهيد[٧١] Whitehead في مصنعه في فيون Fiune.

وفي عام (١٨٦٨) ولد الطوربيد ذو المحرك الذي يعمل على الهواء المضغوط، وجهز برفاص صغير، فغدا صورة مصغرة لغواصة، ويستطيع قطع مسافة عدة مئات من الأمتار ذاتياً، حاملاً في رأسه كمية كبيرة من المتفجرات يصدم فيها هدفه فيدمره.

وفي عام (١٩١٤) طرأ تطور جديد على طوربيد وايتهيد، وأصبح مدى عمله (٨٠٠٠) متر، وينطلق بسرعة (٣٠) عقدة، ويحمل (١٠٠) كغ من مادة قطن البارود Fulmi-Coton وهي كافية لخرق أقوى الدروع.

تطور الطوربيد في العالم بسرعة مدهشة، فهو سلاح فعال خفيف الحمل زهيد الكلفة، واستخدم هجومياً ضد الأهداف البحرية، ودفاعياً ضد هجمات السفن المعادية للشواطىء والموانىء. وقد أرهب السفن في مرساها، خاصة في الموانىء والخلجان، وفرض إحاطتها بشبكات من الأسلاك الفولاذية تمنع عنها وصول الطوربيد إليها، سميت تلك الشبكات الوقائية بشبكات بوليفان Bullivan، وجهزت السفن الحربية وخاصة الكبيرة منها بأسلحة رمي أوتوماتيكية عديدة تطلق على الطوربيد المقترب فتحاول إغراقه قبل أن يتم إصابته، وزودت تلك المدافع السريعة الطلقات بأنوار كاشفة، توجه على سطح الماء من جهة قدوم الطوربيد ليسهل كشفه والتسديد عليه.

نجح سلاح الطوربيد في الحرب اليابانية الروسية وهاجم البوارج المدرعة وأغرق بعضها، وأصبح اسمه بعد ٨ و ٩ آب على كل لسان. وطور شأن السفن التي تحمله. فبعد أن شهدناها زوارق صغيرة (وزن ٤٦ طناً وطول ٣٣ متراً عام ١٨٨٠) أصبحت زوارق كبيرة (وزن ٨٥ طن عام ١٨٩٥) وغدت سلاحاً دفاعياً للخلجان والموانىء. وبعد أن تعدت تلك الزوارق الـ (١٠٠) طن وزناً سميت بقاذفات الطوربيد لأعالي البحار، أو بالسفن المضادة للطوربيد أو النسافات. وكانت سفناً متوسطة الحجم تحمل أنابيب عدة لقذف الطوربيد إضافة إلى أسلحة أتوماتيكية عدة ترمي سريعاً. وتطورت النسافة فأصبحت سفينة ذات شأن تعمل في البحار البعيدة وفي الأنواء القاسية. وارتفع وزنها لأكثر من ألف طن، وأعطيت مهام حماية السفن المبحرة، تواكبها وتقاتل إلى جانبها. وأطلق عليها اسم جديد هو المدمرة.

الغواصة والطيران البحري

هناك سلاح جديد وثب إلى سدة الصدارة إلى جانب المدفع والطوربيد وهو سلاح الغواصات، وبرغم بطء سيره أثبت وجوده كسلاح هجومي يعمل في الخفاء، ويؤمن عنصر المفاجأة، ولا يخضع لقواعد التفوق العددي. وغدا خلال فترة وجيزة سلاح البحريات الضعيفة.

قام بوشنيل[٧٢] Bushnell الأمريكي عام (١٧٦٦) ببناء غواصة تقاوم السفن البريطانية العاملة حول سواحل بلاده. وكانت طرازاً بدائياً يعمل بمحارة عمودية يدوية، صابورة الغواصة ماء. وجاء فيلتون فتبنى المبدأ وبنى غواصته الشهيرة نوتيلوس Nautilus عام (١٨٠١)، ثم أتبعتها بالغواصة داوود David التي ضربت بطوربيداتها في ١٧ شباط (١٨٦٤) الفرقاطة الاتحادية هوستانيك Houstanic.

كان التوازن في مثل تلك الغواصات البدائية ضعيفاً حتى قيل إن الغواصة دافيد غرقت وانتشلت ست مرات..

في أعوام (١٨٦٠ ــ ١٨٦٣) استطاع العميد البحري بورغوا Bourgois والمهندس البحري بران Prun إجراء تجارب لهما في روشفور، على أول غواصة محركها ميكانيكي، يتم الغوص بها بفعل الهواء المضغوط. وظلت هذه الغواصة برغم كل التحسينات التي أدخلت عليها تفتقر لحسن التوازن وللسرعة، حتى يئس المصممون في تدارك نواقصها، فأهملوا شأنها.

في عام (١٨٨٧) قام غوستاف زيديه[٧٣] Zédé وروماززوتي Romazzotti بدراسة تجارب در زيويسكي Drzewiceki الروسي وغوبيه Goubet الفرنسي، وحللا النتائج التي توصلا إليها، ووضعا أسس غواصة عملية متوازنة ثابتة، تغوص بسرعة، وتناور بإتقان، أطلقا عليها اسم الغيمونت Gymonte. وقد جهزاها بمحرك كهربائي وصلت سرعته إلى (٧) عقد فوق سطح الماء و (٤) عقد تحته، ولم تسلح تلك الغواصة، بل تركت لاختبارات تجارب الغوص والسرعة عليها. ولما اكتملت الأبحاث بنيت غواصة جديدة سميت بغوستاف زيديه أكبر من الغيمونت (٢٢٦ طناً والغيمونت ٣٠ طناً) وجُهزت بأنبوب قاذف للطوربيد، وكان ذلك عام (١٨٩٣).

بقيت الغواصة برغم التحسن الذي طرأ على صفاتها سلاحاً غير فعال لأنه أعمى تحت الماء. ولتغطية هذا النقص جهزت بنوافذ لترى ما يحيط بها، ساعدها في التقرب والملاحة، لكنه لم يعطها أي كسب تكتيكي. وظل سنمها (ظهرها) العلوي يدل على وجودها، إضافة إلى فقاعات الهواء

التي تترك أثرها على سطح الماء، فتكشف موقعها. ولم تستطع الغواصة مد مدى اما، وظلت سفينة الجوار، لا يقوى محركها الكهربائي على الإبحار الطويل.

لم تدم صعوبات الغواصة كثيراً. ومع تقدم العلم والتكنولوجيا تقدمت صفاتها الفنية. وجاء المهندس لوبوف[٧٤] Laubeufe فأعطاها محركاً بخارياً جيد التصميم، يعمل فوق سطح الماء، ومحركاً كهربائياً يعمل تحته. ومن خلال تجارب عديدة امتدت حتى عام (١٩٠٠) توصل مصنع غويرتز Goertz الألماني، وبمساعدة الخبراء أمثال غارنية وروماوزوتي وفيوليت[٧٥] Violette وكاربانتييه[٧٦] Carpantier تصميم البيريسكوب (المنظار الأفقي) الذي أتاح لقبطان الغواصة استكشاف ما حوله ورؤيته وهو غائص تحت الماء.

قطعت الغواصة بعد هذا التاريخ شوطاً واسعاً في التطور، وارتفع وزنها حتى بلغ الـ (٣٠٠٠) طن وسرعة (١٨) عقدة سطحاً و (١٢) عقدة غوصاً (بفضل الشنوركل وهو أنبوب ينفث العادم فوق سطح الماء والغواصة مختفية تحت سطح البحر). وتحسنت مزاياها الهجومية، وجَهزت بمحرك انفجاري بدلاً من المحرك البخاري العالي الاستهلاك، واتسعت رقعة مدى عملها، وكسبت قدرة على الغوص والطفو بسرعة وأمان، واختفت في أثرها سحب الدخان التي كان يطلقها المحرك البخاري، وأصبحت أكثر تهديداً لسفن السطح. واعتبرها المراقبون سلاحاً خطيراً فهي تستطيع بسرعتها الكبيرة اللحاق بالسفن الحربية الكبيرة والترصد لها، إضافة إلى أنها سلاح دفاعي يقوم بحماية مداخل الموانىء والمعابر الإجبارية، حتى إن بريطانيا سيدة البحار التي لم تأخذ واقع الغواصة بالجدية اللازمة، ولم تعطها الأهمية التي تستحق وجدت نفسها مضطرة لزيادة أمن وسلامة سواحلها وموانئها، بأعداد كبيرة من سفن السطح، خوفاً من تسلل هذا السلاح الجديد إلى عقر دارها.

وبالفعل جاءت الغواصة سنداً للدول البحرية المحدودة الموارد فأمنت منشآتهم البحرية بعدد بسيط زهيد الكلفة.

بدأت الغواصة ولوج باب المغامرة بلحاق الأساطيل وقنص سفنها، وغدت إحدى مهامها القتالية الرئيسية فبعد عام (١٩١٤) لعبت الغواصة دوراً كبيراً في توازن قوى البحر خلال الحرب العالمية الأولى، وخلال الحرب العالمية الثانية على السواء، وأصبحت ركناً من أركان تشكيلات قوى البحر.

ما هو السبيل لمحاربة الغواصة والتخلص من مفاجآتها ؟

سؤال طرح نفسه منذ بدأ نشاط هذا السلاح المخيف . وكان لا بد من إيجاد رد سريع وفعال . وظهرت كما أسلفت النسافات ، والمدمرات وقانصات الغواصات ، وهي سفن سريعة قوية مجهزة بأسلحة مكافحة تهاجم الغواصات وترميها بالقذائف وقنابل الأعماق حتى تدميرها . ولقد حث الخبراء الخطا في إيجاد وسائل كشف للغواصة في مدى مجدٍ ومحاربتها ، قبل أن تصل إلى مدى قذف طوربيداتها .

أهم وسائط كشف الغواصات (اللاقط الصوتي الميكروفون) ، وكان من تصميم الأميرال الروسي ماكاروف[٧٧] Mackaroff ، وهو عبارة عن قرن يلتقط أصوات رفاص الغواصة تحت الماء ، والكاشف بدائي محدود المدى ، في كفاءته الوقائية ككفاءة الشباك الفولاذية . ثم ظهر جهاز الآزديك الكاشف الصوتي فأعطى علم محاربة الغواصات سبقاً متطوراً . وجاء السلاح الجوي ليحتل دوراً إيجابياً في مكافحة الغواصات . فمنذ عام (١٩٠٨) والتطور الكبير في أسس الطيران ، شد إليه الأنظار ، بعد أن برهن عن مقدرة عسكرية كبيرة . وخلال أعوام قليلة طلب من هذا السلاح الناشيء مهمة استطلاع الغواصات المعادية وكشفها والاعلام عن مواقعها . وامتلكت البحريات العالمية الطائرات المائية لتقدم لصالح الأسطول مهام رصد الغواصات ومكافحتها بالتعاون مع المدمرات ، ومع المناطيد التي تحلق للكشف البعيد .

عمليات أعوام (١٧٨٠ ـ ١٨٩٤)

تعاظمت قوى البحر لدى الدول الكبرى وتطورت الأسلحة فيها ، إلا أن ما كان ينقصها بالفعل هو خوض تجربة عملية لمعرفة مدى جودة تلك الأسلحة واختيار الصحيح منها . ولقد تطلع الخبراء العسكريون لليوم الذي يستثمرون فيه أسلحتهم ، مع مطالبة جادة من الفنيين لمتابعة أبحاثهم . وكان لا بد من معركة خفيفة تستخدم فيها كل الوسائط المتاحة لمعرفة مدى فعالية السلاح ومدى تفهم القائمين عليه . وصدق مواهبهم الخاصة في حسن استخدامه ، فاختيار العنصر البشري مطلب هام لمعرفة مدى تآلف هذا العنصر مع سلاحه ، خصوصاً والمركب الحربي معمل فيه كل الأمور الفنية والتقنية وكل أنواع الأسلحة ، يتطلب مهرة من الرماة يقف إلى جانبهم الكهربائي والميكانيكي وعنصر الاشارة والاتصال ورجل الكشف تحت المائي وفرق حصر العطب ومكافحة فجوات الماء والحرائق ، والطبيب والممرض والطباخ ... الخ . ضمن خلية كاملة فيها كل أسباب الحياة ، وأسباب تدميرها .

هذه السفن الشامخة في تقنيتها تطلبت مصانع عديدة لتبني أقسامها ثم لتجمع في النهاية داخل أحواض السفن محاطة بأفضل المستويات العلمية، وكل هذا توجب على القيادة إقامة مدارس تخصص في كل المجالات المتوفرة والمطلوبة.

أجريت مناورات بحرية عديدة خلال هذه الحقبة الزمنية بعضها بسيط لا مكان في عرضنا لذكره، لأنه يخلو من الدروس المستقاة، وبعضها الآخر ينطبق عليه ظرف عدم التكافؤ العددي والقتالي، فانعدم فيه منطق المحاكمة والتحليل. ولما أتت العمليات الحربية الحقيقية انطبق عليها ما وصفت به المناورات تماماً فمثلاً ضرب مدينة الإسكندرية عام (١٨٨٢) والتي قام بها الإنكليز يوم ١١ تموز في السابعة صباحاً، تم بقوة جبارة لا مجال لمقارنة قوة المدافعين بها، حيث هاجم البريطانيون بـ (٨) دارعات و (٥) سفن مدفعية تابعة للأميرال سيمور Seymour قوة بحرية مصرية لا يمكن حتى ذكرها لقلة عددها وضعف شأنها.

أما الحروب الأخرى كالحرب التركية الروسية (١٨٧٧ ــ ١٨٧٨)، وحرب الشيلي الأهلية (١٨٩١)، وحرب البرازيل الأهلية (١٨٩٤)، أعطت سلاح الطوربيد شأناً كبيراً، فمقابل (١٠) بوارج تركية تراوحت حمولاتها بين (٩ و ١٠) الآف طن لم يكن أمام الروس، وهم الأضعف في البحر الأسود (كانوا لا يملكون إلا سميريات عدة وزوارق طوربيد عدة) بموجب اتفاقية باريس التي حيدت مياه البحر الأسود، إلا استخدام الطوربيد وعلى نطاق واسع فهاجموا بلا هوادة السفن التركية الراسية في باتوم Batoum وشوفهوم خالي Soakhoum-Kali بشجاعة، يتقدمهم القائد ماكاروف Mackaroff والقائد ساتزاريني Zatzareunyi فأغرقوا طراداً تركياً في باتوم ٢٥ كانون الثاني، والبارجة التركية سيفي Seifi ٢٥ مايس في خليج ماتشين، ثم اقترب الروس من السواحل التركية وزرعوا طوربيداتهم البدائية في نهرب الدانوب وبرايلا Braila، وفي عدة مناطق من الشاطىء فحرموا على الأتراك ارتيادها.

في حرب الشيلي أغرق الثوار البارجة بلانكو انكالادار Blanco Encalador في مرسى كالديرا ٢٣ آذار (١٨٩١) بوساطة قاذفتي الطوربيد لينش Lynch وكونديل Condell.

أما في البرازيل فقد تم تدمير البارجة الثائرة على الحاكم آكيدابان Aguidaban بواسطة الزورق الطوربيدي كوستافو سامبايو Qustavo Sampaîo خلال حرب انتزاع السلطة من فئات محلية. ويجدر بنا الاشارة إلى معركة بونتا آغاموس Pute Agamos التي هاجم فيها أسطول الشيلي سفن البيرو

في حروب بيروشيلي عام (١٨٧٩)، وأجبر بارجة البيرو الشهيرة هواسكار Huascar على الاستسلام، بعد أن أوقعت في سفن المهاجمين الشيليين العديد من الإصابات، وانتهت المعركة بانتصار الشيليين لكثافة نيران سفنهم. وحاصروا بعدها المدن البيروفيانية، ثم أنزلوا قواتهم على أرضها، واحتلوا بمساعدة الجيش البري البلاد عنوة.

كل تلك الحروب الصغيرة لم تعط الأثر الحقيقي لتقدم سلاح البحر. والدروس الحقيقية هي التي تؤخذ عند صدام قوى عظمى متساوية كما حدث في معارك بالو تسوشيما، وذكريات معركة جزيرة ليسا، ومعارك الحربين العالمين الأولى والثانية.

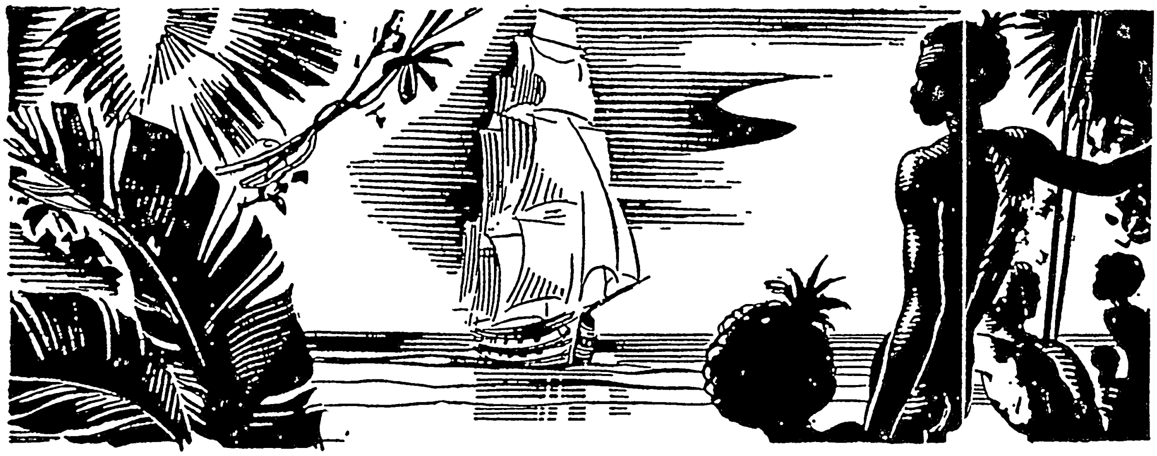

الفصـــل الثـانـي

الثــورة الاقتصاديــة
خــلال القــرن التاسـع عشـر وآثارهــا السياسيــة

التوازن الدولي والسلام العالمي

إن عدم الاستقرار الدولي الذي ساد العالم والقارة الأوربية بالذات، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ترك آثاراً شديدة الخطورة سرعان ما تجلت نتائجها بصدامات مسلحة هامة، قادت الأمم إلى صراع شرس محلي ودولي انتشر في أرجاء المعمورة. وقد كان للبحر دوره الهام في تلك النزاعات لكونه تارة هدفاً وتارة أخرى سبيلاً، واكتسب البحر طابعاً مميزاً جديداً لا يقبل المقارنة بالدور الذي لعبه في العصور السابقة وصف هذا الطابع بالحاد العنيف وبأنه شكل جديد لم تعرفه تاريخ البشرية من قبل.

أصبح للجماهير رأيها خلال تلك الحقبة في علاقاتها مع جماهير الشعوب الأخرى. ومن البديهي أن يكون لهذا النهج آثاره ونتائجه. فقد استبعدت الجموع الشعبية فكرة نشوب نزاع عالمي شامل ينفجر في أية لحظة، واستندت في حكمها على تضاؤل تواتر الحروب بين الأمم المتمدنة حتى جنحت إلى رأي يؤكد المزيد من تضاؤل هذا التواتر وانعدامه. وقد ساد هذا الرأي الغالبية العظمى حتى وصل بها ليقين مطلق بلغ حد الشمول. فالعهود الماضية عرّفت السلام بأنه حقبة من الزمن استثنائية لا تدع الدول الكبيرة الطامعة الطامحة العالم يسعد بها أو يهنأ، بل تدفعه دوماً لحالة من

التوتر ، حالة حرب باردة ، أو بتعبير آخر حالة حرب معلقة لفترات من الهدنة تتفاوت في المدة طبقاً للظروف الدولية والتاريخية .

إن الأعوام التي امتدت بين (١٨١٥ ــ ١٨٧٠) شذت عن المألوف ، لأن العالم الأوربي حافظ على سلام طويل تجاوز الـ (٣٠) عاماً اعتقدها الكثيرون بداية ظروف طبيعية من السعادة البشرية سوف تشمل الإنسانية جمعاء .

طرأ تحول ظاهر في تركيبة دول المجموعة الأوربية نتيجة عوامل عديدة بعضها شديد التعقيد نذكر منها :

ــ التجمهر السياسي الأوربي ضمن دول مركزية كبيرة بدأ تشكلها منذ نهاية القرن السابق .

ــ نشوب أزمات ثورية هامة وعديدة خصوصاً بعد مؤتمرات النمسا ومعاهداتها .

وإن أمعنا الفكر في تلك الدول الكبيرة لوجدناها تجمعت ضمن الإطار الأوربي ، وكأنها قوة واحدة هدفها الحفاظ على توازن مكاسبها المشتركة .. وقد حققت هذا التوازن بين القانعين من الأمم لكنه للأسف لم يرض هذا التوافق كل شهوات الطامعين . ووقع إرباك واسع ، ولد سوء تفاهم ، فرفضت الدول المعنية هذا التجاوز ، واعتبرته إيحاءً قومياً ومطلباً جماهيرياً . وأقر المراقبون التباين الواضح في صفاته وجذوره . فمن الطبيعي أن يفجر الخلاف القومي أزمات حادة . وهذا ما حدث بالفعل بين أعوام (١٨٤٨ ــ ١٨٧٠) ، حيث ظهر توازن أممي جديد ، انبثق عن الدول والأمارات ذات الصفات الوطنية القومية المشتركة التي نشأت على أسس وحدوية . ورأينا الوحدة الألمانية ، والوحدة الايطالية بتبيان صرحيهما على أشلاء التحلل الجزئي للشعوب الأوربية والبلقانية . وظهرت تركيبة جديدة لأوربا أُقِرَت بعض نقاطها خلال معاهدات أعوام (١٨٥٩ ــ ١٨٧٨) ، واحتاجت إلى المزيد من الجهد ، وكأنها عمل لم يكتمل . وقد رافق نشوءها تظاهرات من الرفض والاستنكار لدى الطامعين . ويمكن القول إن أوربة بعد تلك الحقبة الزمنية ضمت دولاً كبيرة ذات قواعد وطنية ، انضوت تحت أجنحتها شعوب عديدة ، ونتج عن هذا الانضواء شهوة السيطرة والتوسع . وقد نجد بين رؤساء تلك الدول الكبيرة بعض الرجال الذين لا يزالون يحلمون بمخططات توسع إقليمية أطلقوا عليها اسم الاخضاع أو الإلزام Assujettissement . وبما أن نتائج أحلامهم غير مضمونة أو معقولة ، فقد تآلفوا فيما بينهم يخشون على التوازن العالمي من أن ينهار ، لأنه عزيز على أفئدة الشعوب الحرة الأخرى . فكل إجهاض لهذا السلام قد يخطو بالعالم خطوات خطيرة ، ما من أحد يجسر على

مجابهتها أو تحمل نتائجها. فخرق السلام كارثة وعمل مفضوح لا يقره ظاهرياً أي زعيم. والحفاظ عليه شعار معلن تنادى به ساسة العصر جميعاً، خوفاً من الحرب وويلاتها. وقد حل هذا الشعار في ضمائر البسطاء، وانتقل إلى ضمائر رؤسائهم، مكان الطموحات السابقة التي كان قد مارسها حكام القرون الآنفة، والتي اتصفت بالأمجاد العسكرية والفتوحات التوسعية، والغزوات في سبيل إشباع شهوة الغنيمة والربح.

بدت هذه الصور بالفعل أكثر إخافة للعالم، ليس بعامل التطور العلمي الذي وضع بين أيدي المغامرين أسلحة فتاكة، فاقت كل ما سبقها من قوة التدمير والخراب فحسب، بل بصفة الحرب التي تبدلت جذرياً. ففي خلال القرن الثامن عشر كنا نشاهد الاشتباكات الشرسة تتم في مناطق نائية محددة، يتقاتل في ساحاتها الجند وتنتهي المعارك، بعد كسب بضعة عشرات من الكيلومترات أو باحتلال عدة حصون. والشعب يرقب المعارك عن كثب، ويعيش حياته العادية، لا يشعر بها إلا إذا تناولت رفع نسب الضرائب.

استمر الحال كذلك حتى جاءت الثورة الفرنسية، والحكم الإمبراطوري، وانتشرت المبادىء الجديدة، التي ترجمت باتحادات إقليمية قومية توزعت في أرجاء القارة الأوربية فتسربت عبر البحار، ومست العالم الجديد. وانتهى المفهوم القديم للحرب وأصبح القتال يستمر حتى يخضع أحد المتخاصمين لإرادة المنتصر، ويقبل بقوانينه وشروطه. وانتهت إلى الأبد حرب القلاع والحصون، ونزلت الجيوش الجرارة تجتاح البلدان وتخضع الشعوب والجماهير من وراء مقاتليها، ترفدهم بالرجال والعتاد، وترفع من معنوياتهم حتى النصر.

ويمكن وصف حروب العواصم التي حدثت أيام نابليون الأول بمثابة خطوة أولى نحو موجة الاقتتال الجديدة، أو نتيجة مباشرة لها. حيث نزل الشعب بأسره يشد أزر مقاتليه، بعد أن تجاهلهم في الأمس، لأن الحرب مست موارده، وأسلوب معيشته اليومية. ورجال الحكم الذين كانوا يلهون بالحروب على أنها لعبة السادة الكبار أخذوا يترددون اليوم في اتخاذ قرارها المخيف، لأنها دخلت بآثارها كل بيت وكل أسرة، وتناولت السادة الكبار قبل الأفراد الصغار، وطالت كل مواطن. فإن لم تصبه في أبنائه أصابته في بيته وأرضه ومزرعته ومصنعه ومتجره. ومست حركة الحياة الاقتصادية للبلاد من كل جوانبها، في نقص باليد العاملة، أو هبوط في الانتاج. وامتد هذا الأثر على الأغلب بعد وضع الحرب أوزراها، لأن مخلفاتها تتطلب المزيد من الجهد والعرق، في إعادة البناء والتعمير،

وعلى جميع الأصعدة. فالكوارث كانت تصيب البلاد بعد الحرب مهما كانت نتيجة تلك الحرب نصراً أو هزيمة.

نشطت إنكلترا بمبادراتها اليقظة جذوة الحركة التجارية العالمية، واستعادت، كما خططت توسيع صادراتها وبتزايد عجيب. وارتفعت النسبة السنوية من (٣) بالمئة عام (١٨٠٠) إلى (١١) بالمئة عام (١٨٥٠)، ودخلت منتجاتها الصناعية كل دور زبائن دول العالم، وتضمنت القطنيات والصوفيات والمعدنيات بأنواعها. وغزت صناعاتها الثقيلة أسواق العالم، تمد دولها بالعديد من الآلات لصالح المشاريع الصناعية، وعلى رأسها الخطوط الحديدية. وازدهرت بلاد المملكة المتحدة اقتصادياً، وهبط عدد العاطلين عن العمل والمعوزين، وتضاءلت حوادث الإجرام، وعاشت بريطانيا في جزرها وممتلكاتها عصرها الذهبي.

استغلت الزراعة البريطانية هذا الغنى الفاحش الذي هبط على البلاد، وأخذت المنتجات الزراعية الضخمة تصل إلى المواطنين في المدن بانتظام، فعمت الخيرات كل المدن، وبدأت بالتكاثر والاتساع، وتضاعف عدد السكان فيها.

ودبّت الحماسة في نفوس البريطانيين، وأصابتهم نشوة من النصر جديدة، بعد أن أصبحوا سادة أسس التعامل بأسلوب التبادل الحر، وفي جميع أطراف البلاد. وولد من جراء ذلك تفكير عرقي جديد، يبحث في مستقبل المنشأ الأنكلو ساكسوني، وفي إيجاد السبل الكفيلة بحفظ حقوقه وحرياته، وفي تطوير حياته، وأصبح الحزب الليبرالي هو الحزب الوطني الوحيد الذي قاد البلاد خلال أربعة أعوام متعاقبة يسعى وراء إنجاح تطبيق أفكاره.

ظهرت بعض المزاحمات الاقتصادية الكبرى، فنجم عن ذلك مولد المذهب الحمائي (الوقائي) للزراعة والصناعة والتجارة، وكانت إنكلترا سباقة في توحيد الصفوف بدلاً من زرع الفتن، وأقامت التنظيمات الكفيلة بجمع كبار التجار ورجال الأعمال لتغزو بهم العالم بديلاً عن الغزو العسكري الذي عرفته الشعوب في العصر السابق، وغدت القوة العسكرية البريطانية أداة لحفظ السلام في العالم لا لتهديده.

«فالدم البريطاني والدم الأوربي لن يسيلا أبداً في حرب عالمية جديدة» بهذا المعنى خاطب كل من كوبدن Cobden وبرايت Bright أصدقاء السلام وأضافا: وحتى ضد الشعوب المتخلفة يجب أن

لا تستخدم إلا الوسائل السلمية وبطرق مقنعة لكي تحقق لهم مصالحهم العامة ولا اسوأ من استغلال ضعف بلد للاستيلاء عليه .

بتلك الشعارات الطنانة توجهت بريطانيا نحو الشعوب الأخرى ، تنشر قواعد مدرسة جديدة في أصول علاقات الأمم ، كيف لا وقد هيمنت على كل المكاسب وكل المزايا ، وغدت بلداً متخماً بالمال والجاه . وهذا الواقع حقيقة ثابتة لا تستطيع الدول الأخرى مجاراته . فإنكلترا الأقوى في كل مضمار ، وانتاجها الصناعي الضخم معدنياً كان أم نسيجياً اكتسح أسواق العالم دون مزاحم ، لوفرته وزهد ثمنه ، ولضرورته في الحياة العصرية . فالمصنوعات البريطانية القليلة الكلفة سيطرت نتيجة توفر المواد الأولية ، ونتيجة وجود اليد العاملة الماهرة إلى جانب المال . وهكذا استطاعت بريطانيا تخفيف قيودها الملاحية السابقة التي درت عليها الوفير من المال خلال فترة الحصانة (تحصين) الصناعية . ولما ملكت سوقاً غنياً مترفاً يستطيع تأمين الرأسمال اللازم باشرت نهضتها الصناعية الضخمة ، وأغرقت الأسواق بمنتجاتها ، وأحكمت سيطرتها من جديد ، فملكت الأسواق الخارجية ، واستعاضت عن القيود الملاحية بقيود اقتصادية تجارية أكثر نفعاً . ولم تقتص أو تنتقم وكان بمقدورها ذلك لأنها تعتبر كل تدبير انتقامي من خصوم الأمس قد يقف في وجه مصالحها وقد يقودها إلى حصار اقتصادي جديد يقف في وجه منتجاتها الضخمة وفي مواقع إمداداتها بالمواد الأولية .

أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد أدهشت الجميع بالمثل المتطور والسريع الذي سعت إلى تحقيقه ، ضمن ظروف فجائية ، وضرورات مالية وقائية . وبدأت برفع نسبة رسوم تعرفاتها الجمركية حتى (٤٨) بالمئة بغية تغطية نفقات الحرب .

قاوم الحزب الديمقراطي القيود الجديدة ، وطالب بالعودة للاعتدال ، رأفة بالمستهلك . لكن الجدار الشاهق الجمركي من الرسوم العالية شجع الأمريكيين على إقامة صناعات نشطة عادت بالفوائد المشتركة والمترابطة بين الرأسماليين الذين يبحثون عن مجالات توظيف لأموالهم ، وبين العمال المتمسكين بأجورهم . واستغل الحزب الجمهوري الموقف وصوت عام (١٨٨٨) على مشروع قانون ماكينيلي Mac-Kunely الذي حد من الجنوح المفرط والباهظ للمصانع التي أعدت للإنتاج الأمريكي . وبرغم كل الجهود التي بذلها الديمقراطيون ازداد إحكام الشروط (تعرفة دينغلي Dingley عام ١٨٩٧ وتعرفة باين ـــ الدريش Payne-Aldrich عام ١٩٠٩) ، حتى وصلت نسب الرسوم إلى (٧٠) في المئة أو أكثر ، وأغلقت أمريكا خلال (٥٠) عاماً الباب أمام منتجات الدول الأخرى ،

حتى إن بريطانيا التي كانت تستورد من أمريكا بـ (٢٩ر٧٠) مليون فرنك عام (١٩١٤) لم تصدر لها إلاّ بنصف هذا المبلغ تقريباً (١٤ر٧٠) مليوناً .

نشطت الصناعة الأمريكية برغم ارتفاع الأجور بفضل توفر الموارد الطبيعية الضخمة ووجود الفكر المبدع لرجال الأعمال ، وحسن اختيار الأساسيات والضروريات للبلاد وللمستهلك . وسرعان ما فاض الانتاج عن الحاجة ، فغزا الدول الأخرى ، وزاحم حتى أسواق بريطانيا فيها .

في ألمانيا طبقت المدرسة الجديدة بدءاً بتوحيد التعرفة الجمركية ، لتشمل جميع البلاد البروسية والألمانية ، حتى أصبحت قانوناً مالياً حقيقياً . وقوبل هذا التدبير ببعض المقاومة . لكن القوة والدبلوماسية انتصرتا في النهاية وتم التوحيد Zollverein عام (١٨٦٨) (ولم تطبقه هامبورغ إلا عام ١٨٧١ ومع بعض التحفظ) .

كانت التعرفة معقولة لجودة اليد العاملة الألمانية ، وتوفر المواد الأولية (معادن ، فحم) بغزارة فاقت بكمياتها كل دول أوربة (ماعدا إنكلترا) . وبوصول الغرامة المالية التي دفعتها فرنسا لها وفرت الرأسمال اللازم . ودبت حماسة خلاقة نحو إنشاء مشاريع صناعية إنتاجية ضخمة ، دعمتها الدول حتى اضطر بسمارك إلى دخول نزاع حاد مع الليبراليين Freisinnigen بهذا الشأن (١٨٧٤) ، وظهر بنظام يشبه إلى حد بعيد النظام الحمائي . وجاءت نجاحات الصناعة الألمانية مفاجأة كل تصور وخاصة في الصناعات المعدنية والكيميائية حتى غزت تلك المنتجات أسواق بريطانيا نفسها رائدة الصناعة في عالم القرن التاسع عشر .

في حوالي عام (١٨٩٤) انتهت فترة تطوير الصناعة الألمانية ، فدخلت مرحلة غزو الأسواق العالمية ، كما فعلت بريطانيا من قبل . وجاءت معاهدة فرانكفورت فأمنت لها وبدبلوماسية هادئة علاقات حسنة مع كل من روسيا والنمسا وهنغاريا وايطاليا وأوربة الوسطى والشرقية . وقام المصدرون الألمان بخطوات جريئة باحثين عن الزبائن في كل أصقاع المعمورة . وخلال ثلاثين عاماً عرف الاقتصاد الألماني وثبة إعجازية رائعة .

بدأت الشعوب الأخرى المتحضرة تلتزم أسلوبي الولايات المتحدة وألمانيا في إنشاء صناعات خاصة بها . وهكذا ولدت الصناعة الروسية بمعونة الألمان أنفسهم ، وبتمويل فرنسي . وولدت الصناعة اليابانية والصينية . نزلت الهند لسوق تصنيع الأقطان ، وانتزعت من بريطانيا صناعة الجوت (ألياف القنب والخيش) ، وانتقلت من مدينة دنديه Dundée إلى مدينة بومباي Bombey .

عملت فرنسا كباقي الدول الأخرى على تنشيط تجارتها الخارجية واعتمدت على المنتجات الزراعية ووضعت رسوماً على القمح، ونظمت عمليات تصديره، وأخذت تزاحم بريطانيا في مجالات الاتجار بالحبوب.

المتسلطون الجدد

لعل قوة الظروف هي التي فرضت سياسة متسلطة متجددة على الشعوب المستضعفة. فكل الحكومات، حتى التي عارضت بتقاليدها نظريات التسلط واستخدام القوة، لم تستطع الوقوف في وجه الاستعمار الجديد. وحتى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، والتي بقيت أكثر من مئة عام تنتقد بشدة أساليب المستعمرين ووسائلهم سقطت في الدوامة، وضمت إلى بلادها أرض الغير. وتكلم روزفلتهم عن العصا الكبيرة Big Stick بوقاحة لم يدركها أي مستعمر أوربي.

وأما الحروب التي تفادتها الشعوب أزماناً طويلة، فقد عادت بصفة اقتصادية حيوية حياتية لتتفجر وتندلع بشراسة لم يعرفها تاريخ البشرية من قبل. ومن نظرة خاطفة خاصة نجد أن أسس الصفات الاقتصادية للحروب الحديثة ترابط باقتصاد كل دول المعمورة. وكان للبحر فيها دور أساسي لأنه الوسيط الأكبر بين أطراف القارة، فهو الهدف الهام لمن أراد استغلاله أو السيطرة عليه، وهو في الوقت نفسه سبب أساسي في كل الملاحم الكبرى، من وجهة الإعداد للحرب أو تنفيذ معاركه، حتى أصبحت جميع الحروب تتضمن مسارح بحرية، وجميع السياسات الدولية تتضمن الاقتصاد القادم من البحر.

الفصـــل الثـالـث

الاستعمـــار الحديـــث

لمسنا في فصول سابقة من بحثنا أهمية المصالح الاقتصادية وأثرها عبر بلدان العالم. هذه المصالح التي في غالبيتها منافع بحرية، أعطت الأبعاد الاستعمارية مجالات مختلفة، ولعبت دوراً فعالاً في السياسة العامة للدول، وفي السياسة البحرية بشكل خاص. وأطلت علينا بوجه مغاير عن الأسس القديمة التي ألفناها، والتي كانت مجال نزاع طويل بين ساسة القرنين السابع عشر والثامن عشر. وقد يجدر بنا والحالة هذه دراسة تلك المعالم الجديدة حتى يتسنى لنا التعرف على القوى المتخصصة في صراع تلك الحقبة الزمنية من تاريخ العالم.

بدأت بريطانيا منذ عام (١٨١٥)، وهي أكبر دولة استعمارية في العالم تتفهم، دون تصميم مسبق، أوضاع المستعمرات، وتدرس ظروفها المستقبلية. واعتبرتها قضية أساسية لها دورها الفعال في الأنشطة السياسية والعسكرية، فحققت من وراء هذا الاهتمام الخاص سبقاً على جميع أترابها، إذ غدت سيدة كندا، وغالبية جزائر الآنتيل، وجزائر المحيط الأطلسي. وأقامت العديد من المؤسسات الاستعمارية على طول الساحل الإفريقي، والقارة الأوقيانوسية، وجزيرة فرنسا. وسيطرت على القارة الهندية الغنية التي شدت أطماع المستعمر البريطاني منذ عصور طويلة. وغدا المواطن البريطاني واثقاً من أن له كل ما يشتهيه من مجد في هذا العالم، وأنه لم يدع للآخرين إلا النذر اليسير، وأن موطنه بريطانيا سيد كل المستعمرات، وكل الممتلكات في العالم الجديد.

من تلك الأسس الثابتة والغنية نشطت صناعة إنكلترا، وازدهرت تجارتها الخارجية، واتسعت خطوط مواصلاتها البحرية، وتضاعف دخلها فأثرت ثراء فاحشاً. وكان لا بد لها من المحافظة على تلك المستعمرات الغنية، والتي هي مصدر مجدها وتطورها. إلا أن الدفاع عن أكثر من نصف المعمورة أمر شديد الصعوبة، بالغ التعقيد. فلا بد من أسلوب متطور حديث يرعى تلك المستعمرات، ويحافظ عليها، دون تعريضها لأطماع الآخرين. خصوصاً بعد أن نهج الهولنديون والفرنسيون والبرتغاليون والإسبان منهج التبادل التجاري الحر الذي حرض الشعوب المستعمرة على المطالبة بالمزيد من الحرية، وبالمساواة في الحقوق التجارية، وبرفع القيود الجمركية القاسية، وبإلغاء القوانين الجائرة. وتلك كانت أهم الدوافع التي عجلت في اختيار بريطانيا للأسلوب الجديد، خصوصاً مقت الشعوب المستعمرة للمؤسسات التي تتعامل مع أنصار الرقيق الأسود، بعد أن رفض هذا الاستعباد إثر معاهدة فيينا (١٨١٥)، التي أقرت ببعض بنودها وقف ممارسة الاتجار بالرقيق ومنعها ضمن إطار الدول الأوربية، وبعد حملة اللورد ويلبرفورس[٧٨] Wilberforce وأصدقاؤه عام (١٨٣٣)، ودفاعه عن العبيد، والمطالبة بتحرير الرق. وقد نتج عن تلك الحملة تحرير ماينوف عن نصف مليون عبد.

لم تلق تلك الحملة ترحيباً من المستعمرين المتزمتين وحصلت أحداث عدة منها حرب البوير. وأصر الساسة البريطانيون في النهاية على محاربة الطغاة لكي يضمنوا على المدى البعيد استمرارية بقاء مصالح بريطانيا الاقتصادية مزدهرة في المستعمرات البعيدة. ولقد تحقق لهم ذلك بعد إقامة مجتمعات بريطانية أو أوربية في قطاعات واسعة من المستعمرات أسندوا إليها إدارة وحكم المستعمرة. وأصبحت تلك المجتمعات حكومات حقيقية مسؤولة، لها حرية العمل والإدارة والسياسة، بصلاحيات تماثل صلاحيات الحكم في الوطن الأم بريطانيا.

حافظت بريطانيا بهذا الأسلوب على ولاء مستعمراتها، دون أن تلزم على الاحتفاظ بقوات برية وبحرية ضخمة تتناسب مع ضخامة ممتلكاتها العديدة وسعتها والموزعة في جميع أطراف المعمورة. ولقد منحها هذا الأسلوب مكانة مميزة بين باقي شعوب أوربة، جنّبها العديد من المفاجآت الخطيرة التي كانت ترد من المستعمرات، والتي أصابت الدول المستعمرة الأخرى وأنهكت قواها ومصالحها. واحتفظت بريطانيا بسلام دائم وطويل سمح لها بتطوير تبادلها التجاري وتوسيعه والذي لم يكن ليتحقق إلا بوقف نهم المستعمرين، والحد من طرقهم البالية المتزمتة. وقد ساعد في تطبيق النهج الجديد التجمع المسمى بإصلاح المستعمرات Reforme Coloniale، والذي نظمه كل من اللورد جون

روسل John Russel[٧٩] واللورد ويليام موليسورث William Mollesworth ، وبمعونة أصدقاء عديدين من كبار المفكرين . وقد تضمن هذا النهج النقاط الرئيسية التالية :

ــ تحرير المستعمرات من حكم الطغاة المستغلين .

ــ إعطاء المستعمرات حكماً ذاتياً ، وتمويل نفقات جهاز الحكم بسخاء .

وهو تشريع غوبدن Gobden الذي أعطى كلاً من كندا العليا وكندا السفلى وايكوسيا الجديدة ، وبرونزويك الجديدة حكومات برلمانية شرعية لها صلاحيات التشريع والتنفيذ ، باستقلالية عن الحكم البريطاني . ثم شمل هذا التشريع باقي المستعمرات كالكاب أو زيلندة الجديدة ، وفيكتوريا وتاسمانيا ، وأوستراليا . وطلبت بريطانيا من تلك الحكومات تأمين القوات اللازمة للدفاع عن أراضيها ، وبذلك تسنى لبريطانيا سحب قواتها من وراء البحار ، حيث غادرت آخر القوات البريطانية زيلندة الجديدة وكندا عام (١٨٧١) .

أصبحت المستعمرات البريطانية ظاهرياً بلداناً مستقلة لا ترتبط إلا بحاكم عام بريطاني ، يمثل الملكة ، ويقيم الاتصال ، وينسق مع حكومة الوطن الأم . ولتلك البلدان حقوقها وقوانينها وتشريعاتها ، دون أي تدخل بريطاني ظاهر . ولم تتأثر اقتصاديات بريطانيا بالنهج الجديد إلا باليسير . وقد وصف غوبدن ذلك بقوله : لا تزدهر المستعمرات وتتطور إلا عن طريق ازدهار الحركة التجارية فيها . والتجارة الخارجية تأتي في المقام الأول ، وتعتبر العنصر الأكثر أهمية في مجال تقدم المستعمرة وتحضرها . وأما مصلحة بريطانيا فتكمن في إيجاد المزيد من المستهلكين لمنتجات بريطانية الصناعية الوفيرة .

وبالفعل عزز التبادل التجاري الحر التلاحم بين المستهلك والمنتج . وازداد الطلب على صناعات بريطانيا . وكانت أمريكا الدولة السباقة في هذا المضمار ، حيث أقامت مع بريطانيا الأم روابط متينة مبنية على العدل والمساواة . وتوقع ساسة ذلك العصر قرب مطالبة الشعوب المستعمرة الأخرى بالحكم الذاتي ، وأن لا قبل للمستعمر برد هذا المطلب الشعبي المشروع ، فلماذا الانتظار ؟

بهذا المفهوم ساس الحكام الشعوب الفتية ، واعتبروها جيلاً جديداً يحتاج إلى التوجيه والرعاية ، وليست ممتلكات للاستغلال أو الامتصاص . ومن هذا المجال قدموا بعض الحرية قاطعين الطريق على المنادين بالاستقلال الكامل غير المشروط . ويمكن وصف الأسلوب الجديد بأنه منهاج استبدل المستعمرات القديمة بمستعمرات حديثة ، يقطنها البيض ، ويحكمها البيض ، على أنهم عنصر مميز مؤهل لحكم السكان الأصليين الأدنى منهم مرتبة وقدراً .

وتخلت بريطانيا عن أسلوبها القديم، وتبنت الاتجار الحر، وأطلقت يد الحكومات المحلية، لا تتدخل في شؤونها إلا في حال تعرض مصالحها الاقتصادية للضرر. وهذا هو مطمحها الوحيد الذي يؤمن لها الازدهار الدائم عبر السنين الطويلة. وقد اضطرت من أجل تحقيق ذلك الاستيلاء على بعض النقاط الحيوية التي تقع على خطوط مواصلاتها البحرية، فاحتلت كلاً من مالاقا وسنغافورة (١٨٤١) والفوكلاند (١٨٣٣) وعدن (١٨٣٨) وهونغ كونغ (١٨٤١) لتمنع دولاً أخرى من وضع قدم لها في تلك النقاط. فجابهت فرنسا في مدغشقر وتاهيتي، وجابهت روسيا في زيلندة الجديدة، وأفغانستان

تضاءلت فعاليات مستعمرات كل من إسبانيا وفرنسا خلال حروب الثورة والإمبراطورية، لانقطاع الصلات مدة تزيد عن خمسة عشر عاماً. واستنشقت الشعوب خلال تلك الفترة هواء الحرية. وما إن وضعت الحروب الطويلة أوزارها، وعادت البحار حرة وأمينة، حتى عاد المستعمرون يودون استئناف أساليبهم القديمة في امتصاص خيرات الشعوب وثروات بلادهم. إلا أنهم صدموا بواقع المقاومة الوطنية، ولم يستطيعوا تنفيذ مخططاتهم، لفشلهم في تطويع الشعوب المتطلعة للاستقلال والحرية. فهزموا برغم شدة بأس قواتهم الحربية. وانعتقت المكسيك، وتحررت البرازيل (١٨٢١)، وغادر آخر جندي إسباني القارة الأمريكية عام (١٨٢٨). وأصبحت التجارة الخارجية حرة تتوافق مع نظريات المستعمر البريطاني ومخططاته ورغباته.

أما هولندا فقد تخلت لبريطانيا عن معظم مستعمراتها خلال الحروب. ولكي تبقى بريطانيا حليفاً لها على القارة الأوربية يصد أطماع الفرنسيين أعادت لهولندا جزيرة جاوا والجزر المحيطة بها بموجب معاهدة لندن ١٣ آب (١٨١٤) بعد أن أمنت المشاركة الفعالة في خيرات تلك البلاد.

الاستعماريون البريطانيون الجدد

مع وصول بانجامان دزرائيلي (اليهودي الأصل) إلى الحكم في بريطانيا، نشط حزب المحافظين من جديد، وراح يقف في وجه البورجوازيين الأحرار ممثلاً النظرية الرأسمالية المزاحمة. وسرعان ما استقطب من حوله الفقراء ليوقظ الروح الصارمة المتزمتة في نفوسهم، والسهلة التحريض، ليجعل منهم سداً يحمي من ورائه مصالح بريطانيا الوطنية الكبيرة. وحتى تتحقق رؤى الإله على العالم (دعوة دينية) نادى باستعادة المجد العسكري عن طريق الفتوحات، وإرسال الحملات. وبذلك استطاع امتصاص العاطلين عن العمل في أراضي الإمبراطورية المترامية الأطراف،

والتي لا تغيب عنها الشمس، وأطلقهم يبحثون وراء البحار عن مصادر جديدة لمواد أولية، بدأت تتناقص أو تنضب في مناجم الأمم الأوربية القديمة ومصانعها عامة وبريطانيا خاصة، وفي سبيل تعزيز أسواق المنتجات البريطانية الوفيرة، التي بدأ الآخرون يرفضونها.

ما إن وصل دزرائيلي إلى الحكم وكسب ثقة الوطن والملك حتى ضم الباسوتلاند[٨٠] Basutoland (١٨٨٦) ثم الغريكلاند[٨١] Griqualand (١٨٧١)، وأعلن الحرب على الزولولاند[٨٢] Zululand (١٨٧٦)، واستعاد الترانسفال Transvaal، وعاد ودخل البحر الأبيض المتوسط أكثر قوة وبأساً ليحيى فيه من جديد استعمارية طامعة، فاحتل جزيرة قبرص وابتاع أسهماً في قناة السويس التي كانت حجة لدخوله الفاضح من جديد لأرض الكنانة واحتلاله لها. وأخيراً انتزع للملكة لقب إمبراطورة الهند.

حاول بعض الأحرار الوقوف في وجه هذا التيار التوسعي العسكري الجديد دون جدوى. وقد وصف غلادستون[٨٣] Gladstone الموقف بقوله:

«من أسوأ المصائب التي قد تصيب الأمة هو في تعدد مستعمراتها واتساعها».

دافع غلادستون عن آرائه وظل أميناً لها. ولما وصل إلى الحكم أوقف حرب الترانسفال الجائرة التي كانت تسعى لغرض الهيمنة البريطانية على شعب رفض الخنوع والاستسلام. وبرغم الهزيمة العسكرية البريطانية هناك، لم تثن عزائم الكثيرين من البريطانيين الداعين إلى حرب الثأر. إلا أن غلادستون لم يوافق وودبيرن Wood Burn على ضم كافزيري[٨٤] Cafrerie. ومنعه من التمادي في أرض السودان، بعد عجز قوى الغزو البريطانية أمام ثورة المهديين. لكن ماذا يستطيع الرجال فعله أمام رغبة جشعة طامعة استساغت التهام خيرات الآخرين؟ وماذا تنفع الاعتراضات البليغة والمفخمة لجون برايت[٨٥] JohnBright، واستقالته من الوزارة؟ كل هذا لم يثن المستعمرين عن قصف الإسكندرية واحتلال كامل أرض مصر، واستمرار زحف الموجة الاستعمارية، وعلى رأسهم كبار المستعمرين الإنكليز أمثال بيكر[٨٦] Baker وبورتون[٨٧] Burton وليفنكستون[٨٨] Livingston وستانلي Stanely وغوردون[٨٩] Gordon وويلسلي[٩٠] Walselay، وكيتشنر[٩١] Kitchner، وكرومر[٩٢] Cromer وكيرزون[٩٣] Curzon وكثيرون غيرهم. وغاب المعتدلون أمام الهجمة المسعورة، وامتدت الأيدي العابثة البريطانية في الهند حتى وصلت جبال هيمالايا، ثم اجتاحت برمانيا وسواحل شبه الجزيرة العربية، ثم الصومال وأفغانستان والتيبت وإيران، وتجاوزت السويس لتربط جبل طارق عبر مالطة وصقلية وعدن وبريم

وسوكولولا ، واحتلت الأرض في إفريقية شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً ، واستخدمت لهذا الغرض (٥) ملايين و (٣٠٠) ألف رجل . وهذا رقم قياسي خيالي لم تصل إليه كل حروب نابليون السابقة مجتمعة .

تضاعفت ممتلكات بريطانيا خلال (٣٠) عاماً ووصلت في عام (١٩١٠) إلى (٢٨ر٥٠٠ر٠٠٠) كيلومتر مربع ضمت (٤٤٨) مليون نسمة من السكان . وقد كانت في عام (١٨٨٠) تقدر بـ (١٢ر١٦٢ر٠٠٠) كيلومتر مربع و (٣٠٦) مليون نسمة من السكان ..

طالبت بريطانيا مستعمراتها وممتلكاتها بالتحالف معها تحالفاً وثيقاً ، ونادت في عام (١٩١٠) بإدوارد السابع ملك المملكة المتحدة وإيرلندة والهند ملكاً على كل الممتلكات البريطانية فيما وراء البحار ، والتي ضمت آنذاك الدومينيون الكندي القوي والكومنولث الأوسترالي ، ودومينيون زيلندة الجديدة ، واتحاد جنوب إفريقية بشقيه الترانسفال والأورانج . وأخذت المستعمرات تلعب دوراً هاماً في مستقبل الإمبراطورية من الناحيتين السياسية والعسكرية . وقد أقامت المستعمرات الكبرى قوات دفاعية محلية ضخمة . خفضت بذلك العبء العسكري عن بريطانيا نفسها . ولم تكتف بالجيوش بل نشرت القواعد الحربية والبحرية في كل مكان ، وتكفّلت تلك القوات بدعم جيوش الوطن الأم ، فوجدنا جحافل القوات الهندية ترفد الجيوش البريطانية المنتشرة في آسيا والساحل الشرقي لإفريقية ، كما شاركت القوات الأوسترالية والكندية في إخماد ثورة المهديين ، وفي حرب البوير . وخلال أعوام قليلة تمكنت الأساطيل البحرية التابعة لتلك المستعمرات من الانتشار تحت هيمنة بريطانيا . وارتبطت معها بقيود دفاعية مشتركة .

كان الأهم من ذلك كله الأثر الكبير الذي حققته بريطانيا بأسلوبها الاستعماري الجديد في ازدهار الحياة الاقتصادية ، الأمر الذي لم يعرف له نظير سابق من قبل في حضارات الأمم الأخرى . وقد تدفقت الخيرات العميمة على الوطن الأم حيث جاءتها من جميع المستعمرات . واغتنى الشعب البريطاني والشعوب الدائرة في فلكه غناً فاحشاً لم تصله إمبراطورية من قبل . وتدفقت الأخشاب من كندا ، والمعادن من الأرض الجديدة وأوستراليا والترانسفال والذهب من جنوب إفريقية إضافة إلى القمح الكندي ، واللحم الأمريكي ، والخروف الأوسترالي . ودارت عجلات المصانع ترمي بالمنتجات لتغرق الأسواق الأوربية والعالمية ، حتى وصل مجموع رؤوس الأموال الموظفة في المستعمرات (٢١) مليار جنيه عام (١٩١٤) . وانتشرت المصارف العديدة ، ونشطت الشركات الكبيرة ، وخاصة شركات الخطوط الحديدية ، إضافة إلى العديد من المؤسسات الاقتصادية المنتشرة في طول المستعمرات وعرضها ، والتي يديرها بريطانيون محنكون .

على أثر تلك النهضة الاقتصادية العارمة التي اجتاحت البلدان والممالك المرتبطة ببريطانيا نشطت الهجرة، وبحجم ضخم، حتى غدا البريطاني واسع النفوذ عالي الجاه حيثما اتجه، وأي البلاد قصد. ويمكن القول باختصار إن مستعمرات بريطانيا غدت العنصر الرئيسي في عظمة المملكة المتحدة وسموها، وبفضل تلك المساحات الشاسعة من الممتلكات تحولت مملكة الـ (١٢) مليون نسمة وبخلال أقل من قرنين من الزمن إلى امبراطورية شاسعة تضم (٤٠٠) مليون نسمة، وتعد أقوى دولة في العالم، وأوسعها تجارة، وأكثرها تطوراً، وغدت بحق الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. فما المانع لتلك الإمبراطورية الشاسعة من نهج سياسة التبادل التجاري الحر؟

فكر شامبرلان وزملاؤه[٩٤] M. Chamberlain بأسلوب المنطقة الجمركية Zollverein التي تمتد في جميع أرجاء العالم، وبأفكار شبه ليبرالية. وعندما جرت انتخابات عام (١٩٠٦) نجح الليبراليون وحلفاؤهم نجاحاً ساحقاً، واستنتجوا من تلك الأحداث درساً حدد مصير ومستقبل بريطانيا بوضوح لا يمكن تجاهله. ويجيب هذا الدرس على أسئلة عديدة دارت في مخيلة المستعمرين الجدد في العالم الحديث ويتلخص بالتالي:

«قبل (١٠٠) عام كانت المستعمرات تمد الدولة المستعمرة بالمال والعظمة فتذكي خزائنها بالمال والجاه، في حين أصبحت الدولة المستعمرة في مرحلة الاستعمار الجديد تعيش على خيرات مستعمراتها، ويتعلق وجودها باستمرارية وجود المستعمرات».

النزاع الاستعماري الحديث وتقسيم العالم

لم تدع الدول الاستعمارية الأخرى بريطانيا تنعم وحدها بخيرات العالم كله، وتحركت للمشاركة والمزاحمة. وأولاها فرنسا التي فقدت العديد من مستعمراتها خلال حروب الثورة الإمبراطورية، والتي استمرت تتعامل مع ما تبقى لها من مستعمرات بالأسلوب القديم نفسه، أي بعقلية عسكرية اجتياحية، لا بعقلية المستكشف المغامر التي غلبت على طريقة المستعمر البريطاني الجديد.

تململت فرنسا وتحركت لتصيب نصيباً أوفر، مدعية إحقاق توازن دولي سياسي واقتصادي. ولقد أفلحت في إفريقية وآسيا فاحتلت العديد من المواقع واستولت على مساحات شاسعة من أراضي غيرها. ولم تكن فرنسا لوحدها، بل كانت هناك كل من هولندا والبرتغال بأسلوبيهما السياسيين المتميزين، وكذلك إيطاليا بعد إقامة وحدتها الوطنية، إذ كشفت عن أطماعها في أراضي تونس

وليبيا ، وبعض أجزاء شواطىء البحر الأحمر ، ويجدر بنا أن نذكر بلجيكا وما سعت إليه في أواسط إفريقية (الكونغو) .

تجسدت مخاوف الدول المستعمرة ، وتوقعت قيام حروب فيما بينها . ولقد انقسم العالم الأوربي على إثر ذلك إلى فريقين متميزين : فريق الدول المتطورة الشابة كبريطانيا ، وفريق الدول الخاملة الهرمة كالبرتغال .. وكان يكفي في بعض الأحيان إقامة عرض عضلات بسيط يُجريه الأقوى ، فيقنع الأضعف دون اللجوء إلى السلاح . إلا أن الخوف الحقيقي كمن بين القوى العظمى . فكل صراع بينها قد يجر العالم إلى عواقب وخيمة . وكان هذا الصراع متوقعاً في أية لحظة ما دام هناك مزيد من الأرض لم يبسط المستعمر يده عليها . وكأن ما استولى عليه لا يكفي أطماعه الشرهة التي لا حدود لها .

رسم مستقبل العالم الأوربي بعد عام (١٨٧٨) أي بعد انتصار روسيا على الأتراك ، إذ تعرضت الدولة العثمانية لشهوات القياصرة ، وانفتحت أبواب شبه الجزيرة البلقانية أمام أطماعهم . وقد أدى ذلك إلى انفصام خطير في توازن القوى الأوربية ، مما دفع بيسمارك[٩٥] Bismark الألماني وبيكونسفيلد[٩٦] Beaconsfield البريطاني إلى توحيد جهودهما في تخفيف حدة التوتر العالمي ، عن طريق لجم الروس ، ومنعهم ولو بالقوة ان احتاج الأمر من التسلل إلى المواقع الاستراتيجية التي حلموا بالسيطرة عليها .

استخدم الزعيمان بيسمارك وبيكونسفيلد أسلوب تقوية أخصام الروس في المنطقة . فساندا النمسا والبوسنة والهيرسك وأوكلا إليهما مهمة حماية دول البلقان . وهنا اكتشفت بريطانيا في جزيرة قبرص موقعاً دفاعياً هاماً ضد التغلغل الروسي في الأناضول فاحتلتها . وأعقبت ذلك احتلالها الكامل لمصر . وبذلك أمنت سيطرة تامة على جميع ساحات الحوض الشرقي للمتوسط . وغضت الطرف عن مصالح فرنسا في شمال إفريقية ، وأطلقتها تعبث في تونس والجزائر ... الخ .

وهكذا هب الأوربيون من جديد يقتسمون الأراضي الجديدة وخاصة الممتلكات الواسعة والغنية من القارة الإفريقية . واستغل بيسمارك نفوذه الدولي إثر أزمة عام (١٨٧٨) ، ولعب دور الوسيط في حل النزاعات . وسرعان ما انتقل بألمانيا إلى دول النسق الأول ، ليشاطر المستعمرين مصالحهم .

عقد مؤتمر برلين في ١٥ تشرين الثاني (١٨٨٤) لبحث قضايا إفريقية بعامة ، والقضية

الكونغولية وموقعها بين جاراتها الافريقيات بخاصة. وبعد عدة أسابيع من المباحثات صدر تصريح موقع من قبل القوى المشتركة، عرف ببيان برلين ونص على التالي:

تبقى القارة السوداء (إفريقية) مهما كانت الظروف نوعاً من المجال الحيوي، وقاعدة أساسية شرعية لكل المشاريع التي قد تقوم بها المنشآت الاستعمارية مستقبلاً.

وأولى آثار ذلك البيان بروز أحقية الدول الاستعمارية في توسيع أنشطتها الاستعمارية. وقد سارع الجميع يتسابقون في الاستيلاء على المزيد من الأرض بعد أن زالت العراقيل القديمة التي كانت قائمة بين الدول الاستعمارية، واعترف البيان بأحقية أول محتل للأرض.

جاء التزاحم العنيف على انتزاع الأراضي الإفريقية، وكأنه سباق معلن بأجراس، أو مباراة تنافسية، وكان احتمال تحوله إلى خشونة وعنف تعجز صفات الطيبة والحلم عن وقفه أو امتصاص نتائجه. لكن حسن التفاهم بين المستعمرين حل عقد التوتر، وأبعد شبح الصدام المسلح. وغالباً ما كانت تنتهي الأزمات بحلول حبية على حساب أرض الشعوب المستضعفة السوداء وكرامتها، عن طريق إجراء صفقات تبادلية أو تعويضية، أي مبادلة بالأراضي المحتلة أو قبول مبالغ مالية. ومع إطلالة القرن العشرين غدت القارة الإفريقية برمتها موزعة بين الطامعين. وقد طوقت أراضي كل مستعمر بمناطق هامشية لتحمي ما بداخلها من أطماع المستعمرين الآخرين، ولتخنق أنفاس سكان المناطق المحتلة، دون أن يرجع صدى الكوارث التي كانت تتم داخل المستعمرة.

أعطى هذا الأسلوب الاستعماري الجديد ثماره. وسرعان ما انتقل إلى باقي المستعمرات خارج أراضي إفريقية، فشارك في إخماد حركات تحرر الوطنيين في البلاد، وتحول الكره القديم بين الغاصبين تعاوناً وتفاهماً، وحسن نوايا. إذ نجد مثلاً ألمانيا تتخلى عن إدعاءاتها القديمة في زانزيبار وتقبل بتسوية شملت هيليغولاند Heligoloud، فأمنت سلامة الشوطىء عام (١٨٩٠). وأخفت فرنسا تصرفاتها في مدغشقر بتسوية مماثلة عام (١٨٩٠) أيضاً، وحلّت مشكلتها القديمة والشديدة الحساسية مع بريطانيا وهي مشكلة البر الفرنسي في الأرض الجديدة French Shore, Terre-Neuve، وانتهت تلك الأزمة التي استعصت طويلاً بتفاهم حبي عام (١٩٠٤).

لم يمهل المستعمرون الآسيويين بل أخضعوهم إلى تسوياتهم الجائرة، كما فعلوا في القارة السوداء، وأجروا مقايضات عدة تمت على النحو التالي:

انفردت بريطانيا بالهند، واستولت فرنسا على الهند الصينية، واحتلت روسيا سيبريا وتركستان .

لم يمنع التفاهم الدولي من قيام مناطق احتكاك واسعة في القارتين إفريقية وآسيا كانت كافية لخلق ظروف دولية متوترة، تعجل على نشوب صدام مسلح، لازال كامناً في النفوس. لكن حكام ذاك العصر أوجدوا سبلاً مخففة فعّالة. فبدلاً من تجاور المستعمرات الدولية أقاموا فيما بينها مناطق محايدة، أطلقوا عليها اسم الدول الصادّة Etats Tampons ليجنبوا مستعمراتهم الصدامات الحدودية. وهكذا رسمت حدود أفغانستان عام (١٨٨٧)، وسيام عام (١٨٩١) والتيبت، ومنغوليا وإيران، دون التخلي عن جعل تلك الدول المحايدة بمثابة مناطق نفوذ للمستعمرين الكبار، يتواجدون فيها متى أرادوا وبأسلوب نظيف وخفي .

نجت القارة الأمريكية من المصير الذي أصاب كلاً من آسيا وإفريقية، والفضل بذلك يعود للولايات المحدة الأمريكية ذات الوعي الفتي والتفهم الثابت لمبدأ مونرو آنذاك فساد السلام لفترة طويلة بعد أن أصابت الدول الكبرى ما أصابته من حصص في تجزئة العالم واقتسام خبراته .

الصراع الجديد في السيطرة والاستغلال

بدأ صراع متجدد بين بريطانيا وفرنسا بدافع أحقاد الأمس، حيث تخشى كل واحدة الأخرى. وقد ظهر ذلك جلياً في مناسبات عدة، ارتفعت فيها حدة التوتر شأناً رفيعاً، نذكر منها قضية الأرض الجديدة Terre-Neuve عام (١٨٨٦ ـــ ١٨٩١). وقد مررنا على ذكرها، وقضية سيام Siam (١٨٩٣). وتوقع العالم حرباً جديدة قد تستعر بين البلدين، لولا تدخل قوى عظمى أخرى خفف من حدة التوتر. وهنا لا بد من أن نذكر المشاكل الإفريقية، وبالذات مسألة مصر والنيجر حيث كانتا أكثر المسائل تعقيداً وأشدها خطراً على السلام العالمي. واقتنع المراقبون آنذاك بأن الحلول الهادئة لم تعد تفي بالغرض.. بعد أن توجت كل تلك الأزمات أزمة فاشودا Fachoda التي دفعت بالأطراف المتنازعة للتهيؤ استعداداً لإعلان الحرب. لكن عودة المنطق الهادىء بينهما من جديد أدخل الوئام محل الخصام. وعولجت القضية مع قضايا أخرى كثيرة كقضية مصر، والمغرب، وسيام، وجزر هبريد Hebrides. وشعرت كل من فرنسا وبريطانيا بأن مصالحهما الاستعمارية مشتركة تسير جنباً إلى جنب بتوازن كامل. وعليهما التعاون في كل المجالات الحيوية المشتركة، عن طريق اقتسام متعادل .

واقتسام العالم أصاب دولاً وأبعد آخرين لكونها أتت متأخرة، ولم تستغل الفرص المتاحة لها. فهل ستقبل تلك الدول الانطواء، في حين يتعاظم شأن الآخرين ويشتد ساعدهم؟ وهل سيكتفون بموارد بلادهم المحدودة في حين تصاب الدول المستعمرة بالتخمة والعظمة؟ وهل تستطع المعاهدات الدولية الصمود وهي التي كانت السبب في تقسيم تلك الممتلكات، وحققت رغبة المناهدين بأن العالم ليس حكراً لأحد، ولا يمكن استمرار الوضع طويلاً وسيأتي اليوم إن آجلاً أو عاجلاً، ويطالب المقهورون استعادة ملكية أجدادهم. وهنا سيتفتق عقل المستعمر عن أسلوب آخر، بحيث يجد من خلاله حقوقاً جديدة تمنحه التمسك بما استولى عليه، أو تجعله يطالب بالمزيد من المزايا كانت مجهولة له في السابق.

كان الأمريكيون هم أول من أعطوا إشارة الخطر فحربهم عام (١٨٩٦) التي وصفت بحرب شريعة مونرو جاءت لخلاص الشعوب المضطهدة، والنصر يقود إلى الحل، والحل يفرض السلام. وهكذا تحررت كوبا، بور توريكو والفيليبين.. ولكن لم يدم التعفف الأمريكي طويلاً. إذ انحرفوا عن شريعتهم المعلنة وسيطروا على هاواي، بجعلها أرضاً أمريكية ثم مدوا نفوذهم في بورتوريكو والفيليبين وآلاسكا وساموا Samoa (التي حصلوا عليها من باغو ـــ باغو Pago-Pago). وهكذا تحول المتحدرون من الفئات الثائرة على الظلم البريطاني لمحتلين يستعمرون الشعوب الضعيفة.

أعقب اليابانيون المركونون في جزرهم البعيدة الأمريكيين، وراحو يسعون وهم أمة غنية في حضارتها لمجال حيوي وسعة في الأرض، فوجودها في ممتلكات الجوار. فغداة نصرهم عام (١٨٩٤) زحفوا إلى فور موزا، بدافع حقد عارم على الأوربيين الذين وقفوا حائلاً أمامهم ومنعوهم من استغلال فرصة نصرهم الكبير، واندفعوا يثأرون بقتال حانق استمر عامي (١٩٠٥) و (١٩٠٦)، وحقق لهم سيادة كل من كوريا ومنشوريا وساخالين.

في أثناء ذلك تكونت قوى أوربية عديدة، نذكر منها روسيا التي كانت سبباً هاماً في تخلخل التوازن العالمي، فكان كل ذلك بمثابة بشائر حرب عالمية طاحنة، قد تعيد للمستعمرين الكبار سيطرتهم المهتزة، وقد يكون من العدل ذكر أسباب أخرى لها صلة في رفع حدة التوتر بين الشعوب، منها أطماع إيطاليا في البر الإفريقي، إثر عقد معاهدة اوشي Oushy عام (١٩١٢) التي ضمنت لإيطاليا حق امتدادها ليس في البر الليبي فحسب بل في جزر الدوديكانيز، أو مطامع الأوربيين في الإمبراطورية العثمانية الهرمة، وبروز قضية الشرق الأدنى والأوسط، وأثرها في اختلال التوازن الأوربي.. ويجدر بنا أن لا ننسى موقف ألمانيا الذي عبر عنه زعيمها الكبير بيسمارك.

« بريطانيا أكثر أهمية لنا من زنزبار ، ومن كل إفريقية الغربية » .

حدد بيسمارك موقفه بقوله هذا ورفض الانزلاق في مستنقع الطرق الاستعمارية الملتوية ، وفضل حصر اهتمامه على الساحة الأوربية (أوربة الوسطى ، والشرق الأدنى) . وقد أسعده جداً رؤية الآخرين ، وخاصة فرنسا ينغمسون في متاهات مناطق النفوذ حول ممتلكات ما وراء البحار ، دون أن يعود عليهم بالنفع إلا بأنصبة ومعدلات لا توازي المصاعب والمشاق التي كانوا يتكبدونها ، وعرض داخل المجال الأوربي ، ساعياً لتشجيع إطالة أمد المحادثات بين الأطراف المتنازعة حول تلك الممتلكات التي تنبأ بيمسارك لها أمداً قصيراً ، قد لا يزيد عن ثلاثين عاماً ، إذ إن شعوب تلك المستعمرات الأصليين لن يستكينوا طويلاً ولا بد لهم من أن ينشدوا الانعتاق عن طريق التحرر والاستقلال .

بلغت مستعمرات ألمانيا الفعلية مليونين وثمانمئة ألف كيلو متر مربع ضمت (١٤) مليون نسمة ، وهي توغو والكاميرون ، وغينيا الجديدة ، وبعض الجزائر في المحيط الهادي . فالمانيا بعقلية زعيمها بيسمارك ترجح مبدأ التسلط الصناعي على التسلط الاستعماري ، أو بمعنى آخر استعمار دون مستعمرات . وعن طريق تطوير الصناعة لغزو العالم الخارجي ، ومزاحمة بريطانيا وفرنسا في هذا المجال ، حتى تؤمن سيادة اقتصادية وسياسية .

اصطدم بيسمارك بواقع احتياجه لبعض المواد الأولية والأساسية في الصناعات الحديثة ، والتي غالبية منشئها في المستعمرات البعيدة الخاضعة لدول استعمارية هرمة كهولندا والبرتغال . وكاد بيسمارك يتم السيطرة على بعضها لولا معارضة القوى الاستعمارية الأخرى ، وخاصة فرنسا . إذ هبت تعطل عليه مشاريعه ، وتقف حائلاً في طريق مخططاته . ولم يسمح الزمن بمعالجة الموقف ، كما كان يحدث سابقاً ، وتسارعت الأحداث بشكل مفاجيء وخطير ، وعاد دور البحر الذي يجمع كل الجهات ويشمل كل البلدان المنتشرة في بحاره ومحيطاته ، وعاد لسلاح البحر شأن مستقبلي زاهر ، لم يعرف له التاريخ بعصوره قدراً أعظم وأقوى .

طرحت فرنسا على العالم شعاراً جديداً لتكسب من ورائه ما يمكن كسبه ، بعد أن فقدت الكثير خلال حروب الثورة والإمبراطورية . وطالبت بحكم موقعها الجغرافي المتميز بدور سياسي أكثر فعالية في أسرة دول المجتمع الأوربي ، وأصرت على تواجدها الكامل في عملية رسم سياسة التوازن الدولي ، وقد تطلب منها ذلك انتهاج سياسة أكثر تشدداً . وقد قال في هذا المعنى جول فيري :

« لا يمكن أن تكون فرنسا غائبة عن عملية تقاسم العالم ، وهي الدولة الكبيرة ، وعليها أن تكون قوة مستعمرة » .

وبالفعل استغلت فرنسا بنود معاهدة برلين التي أتى ذكرها ، وبدأت تطبق خطة إقامة نفوذ كبير لها في إفريقية ، محققة محور ذكر ــ سان لويس الذي كان حلم المستعمرين الفرنسيين الأولين . ولعب كورسيل Courcel وزير خارجيتها آنذاك ، بالتنسيق مع غامبيتا(٩٧) Gambetta وفيري(٩٨) لعبة عملية الاستيلاء على تونس . وقد أكد ذلك قول غامبيتا الشهير لفيري :

« بدأت فرنسا تستعيد النسق المتقدم الذي فقدته لتعود لدورها السابق كقوة كبرى » .

ولقد جاء إقرار البرلمان الفرنسي لمعاهدة باردو Bardo بـ (٤٣٠) صوتاً ضد صوت واحد تكريساً لهذا المنهج الاستعماري الجديد .

بدأت حملات فرنسا العسكرية في كل مكان . وما إن خضعت المناطق المحتلة لقوة السلاح ، حتى سارعت المؤسسات المدنية ، وتحت اسم « خدمات فنية » إلى إقامة منشآت مستغلة أمينة على مصالحها الحيوية ، عن طريق إشراك وكلاء أو عملاء محليين استعدوا للتعاون المطلق سياسياً واقتصادياً . فبعد مرور سنوات عدة فقط تم تواجد فرنسي كثيف سيطر على كل مقدرات البلاد المحتلة . والأمثلة كثيرة ، ففي خلال الأعوام بين (١٨٨٠ ــ ١٨٨٥) انتشرت فرنسا في شمال إفريقية وتونكين ومدغشقر وفي إفريقية الغربية والإستوائية .

تنبهت بريطانيا في نهاية القرن التاسع عشر لأمر فرنسا ، إذ بعد أن باركت لها خطواتها الأولى في توسعها الاستعماري تحفظت من جديد بعد أن لمست مدى خطورة هذا التوسع السريع الذي تخطى كل الأطر المتفق عليها .. لكن الظرف العسكري الذي مر على البلدين آنذاك فرض عليهما عدم الاحتكام إلى قوة السلاح ، كما حدث خلال القرن السابق ، وفضلا التفاهم الودي والاتفاق على معالجة القضايا الساخنة بدبلوماسية باردة .

تلك كانت خلاصة التطورات السياسية التي تمت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . إذ استطاعت فرنسا استعادة العديد من المستعمرات بعد النكسة الطويلة التي أصابتها خلال النصف الأول من القرن نفسه . وسرعان ما أعادت تواجدها في أرخبيل الآنتيل ، وعلى وجه التحديد في جزائر المارتينيك والغوادلوب والرينيون Reunion ، فأمنت احتياجها من مادتي القهوة والسكر . ثم انتقلت بالحجة نفسها إلى المحيط الهادي ، تستولي على بعض جزائره لتقيم محطات بحرية لأسطولها

التجاري، ولسفن صيدها هناك ووضعت يدها على العديد من الجزائر الصغيرة، «التي لا تتجاوز مساحة بعضها كيلو مترات مربعة عدة، فوجدناها تقيم في تاهيتي والجزر المجاورة لها واليس[99] Wallis ... الخ. وقد ازدادت أهمية تلك المحطات البحرية بعد افتتاح قنال بناما الشهيرة، وغدت تلك المواقع الفرنسية في المحيط الهادي نقاطاً استراتيجية هامة على طريق الأمريكيتين وما ورائهما إلى كالدونيا الجديدة الغنية بمعادنها ومنتجاتها الزراعية، وإلى غوانا Guyane وسان بيير Saint Pierre وميكلون[100] Miquelon ... الخ.

إلا أن الأهم من ذلك كله احتلال الهند الصينية، واستعمار تونكين. وهو مشروع فيري ومن أعقبه في الحكم من بعده. تم عقد اتفاقية سايغون ١٥ آذار (١٨٧٤) التي كرست وأكملت شروط اتفاقية عام (١٨٦٢)، والتي أعطت فرنسا حق امتلاك المناطق الست من كوشنشين Cochinchine، وفرضت على آنام الالتزام بسياسة خارجية مطابقة لسياسة فرنسا العامة، وفتح ثلاثة مرافىء جديدة تتعامل مع فرنسا، والسماح بتواجد إداري فرنسي في هانوي. على أن تعترف فرنسا بالمقابل بسيادة آنام واستقلالها، وتنسحب من تونكين. لكن الأحداث التي رافقت تلك المعاهدة جعلتها تموت قبل أن ترى الحياة. وعندها اضطرت فرنسا من باب الحيطة لعقد اتفاقيات اقتصادية مع كل من إنكلترا وألمانيا وإسبانيا، لتتجنب بعض التعقيدات الأوربية في مرحلة معالجتها للمقاومات المحلية في مستعمراتها الجديدة.

أسهمت الصين في مساعدة المعتدين بالتزامها صمتاً طويلاً حول ما يدور من أحداث في الجوار، وخاصة عقب معاهدة سايغون. إلا أنها اضطرت لتغيير سياستها بتشجيع من الآناميين، وقامت بتدخل عسكري مكشوف دفعت من خلاله بقواتها البرية حتى تونكان، حيث استقبلت تلك القوات من قبل المواطنين بالترحيب الشديد. وعلى أثر ذلك كشف سفير الصين في باريز الماركيز تسنغ عن قرار حكومته الداعي بدعم حقوق آنام الشرعية، وضمان سيادتها، ومطالبة كل الوحدات العسكرية الفرنسية بالانسحاب الفوري عن تونكان.

تراجعت فرنسا أمام الضغط الصيني، وقبلت بإقامة شريط حدودي كمنطقة فاصلة محايدة، واعترفت للصين بحق دخولها لجزء من تونكان، والبقاء فيه.

تبنت فرنسا هذا النهج بغية تفادي أزمة عسكرية حادة، قد تقع فيها، وهي على بعد أكثر من أربعة آلاف فرسخ عن الوطن الأم، قد تجر عليها العديد من الولايات والصعوبات.

ترقبت فرنسا فرصة سنحت عام (١٨٨٢) فسارعت واحتلت كل النقاط الاستراتيجية الهامة، ثم احتلت نام دين Nam-Diun ٢٧ آذار (١٨٨٣). لكن قائد الحملة والعديد من ضباطه وقعوا في كمين وأبيدوا.

ولد هذا الحدث أزمة لدى الحاكمين في فرنسا. وبغية امتصاص أثر تلك الهزيمة أرسلت الحكومة الفرنسية الأميرال كوربيه(١٠١) Courbet على رأس حملة بحرية كبيرة لإخضاع الآناميين. كما أرسلت في الوقت نفسه الأميرال ميير(١٠٢) Meyer على رأس تشكيل بحري لمراقبة الصينيين ورصد تحركاتهم. وبلغت قوة فرنسا البحرية في المياه الصينية (٢٩) قطعة بحرية منها (٩) دارعات.

وصل كوربيه على رأس قوته البحرية والتي ضمت بارجتين وطراداً وثلاثة مراكب مدفعية، وناقلتي جنود عليها (٧٠٠٠) مقاتل، وستة مدافع ميدان. واستعرض أمام قلاع توان آن Thuan-An، يطالب بوضع المنطقة تحت الحماية الفرنسية. وقوبل طلبه بالرفض، فما كان من كوربيه إلا أن فتح نيران مدافع أسطوله فأسكت مدافع القلاع، ثم أنزل الجند على البر وأعدهم للتوجه نحو العاصمة. وهنا تراجعت حكومة آنام وقبلت شروط المهاجمين، ووقعت معاهدة هويه Hué ٢٥ آب التي أقرت، وبشكل نهائي، احتلال فرنسا للهند الصينية. وعلى أثر ذلك أوقدت فرنسا شعلة حرب جائرة للسيطرة على كل موارد البلاد، فخاضت معارك طاحنة مع المقاومة الوطنية. ونظراً لتفوقها العسكري الكبير استطاعت حملة كوربيه المعززة احتلال أكثر أجزاء الدلتا. وبذلك تحقق حلم جول فيري، واستطاع إقامة مستعمرة قوية لفرنسا في الشرق الأقصى، دون أن يعلن حرباً حقيقية على الصين.

نعم لقد تحقق الشق الأول من حلم فيري، ولتحقيق الشق الآخر كان لا بد من دخول نزاع مسلح مع الصين، بعد محاولات فرنسية فاشلة عدة لجعل الصينيين يتخلون عن التزاماتهم نحو آنام. عندها وجدت فرنسا نفسها مضطرة لسلوك الأسلوب العسكري، وعلى نطاق واسع. وكلفت الأميرال كوربيه بالعملية، وهو الأمر الذي سعى إليه طويلاً.

معركة فوتشيو Fou-Tchéou البحرية

أصبح من الصعب على كوربيه مهاجمة التشكيل البحري الصيني في بيتشيلي Pe-Tchi-Li في يانغ تسيه، إذ إن أمر مفاجأته لم يعد ممكناً كما كان في السابق. وفضل عليه مهاجمة تشكيل صيني آخر منعزل أحكم كوربيه مراقبته أسابيع عدة خلت.

في ١٩ تموز اقترب كوربيه بقوته البحرية ورسا بها قرب أحواض سفن فوشيو . وكانت قد عززت بالطرادين دوغاي ــ تروين وفولتا ، إضافة إلى عدة سفن مدفعية . وجاء رسوه في نهر مين Min قريباً من تواجد التشكيل الصيني التابع للأميرال تسينغ Tsing .

تواجه التشكيلان المعاديان مدة شهر من الزمن بأجواء متوترة لا يمضي يوم إلا ويقع حدث استفزاز بين الطرفين . وظل الموقف كذلك حتى إعلان الحرب في ٢٢ آب . وقرر كوربيه بدء القتال في اليوم التالي ، وفي العاشرة صباحاً ، ولأن الأميرال الفرنسي في ظرف صعب داخل النهر تحيطه تحصينات معادية في كل اتجاه .

تألفت قوة الصينيين من (٤) طرادات صغيرة ، وسفينتين مرافقتين ، وخمس سفن مدفعية ، و (٧) زوارق حاملة طوربيد ، و (١١) زورقاً صينياً من طراز جونك Jonques .

قرر كوربيه خوض المعركة بأقل خسارة ممكنة ، ودون أن يدع للعدو فرصة للانسحاب ، واضعاً ضمن احتمالاته تدمير المنشآت البرية في الميناء ، وحال إتمام ذلك ينسحب من النهر متجاوزاً كل العقبات التي قد تعترضه من قبل المدافعين .

بلغ تعداد طواقم الصينيين (٢٥٠٠) رجل ، وهذا يعادل تقريباً ضعف عدد الفرنسيين ، إضافة إلى تواجد بطاريات مدفعية عديدة على الروابي المشرفة على النهر ، ومفرزة بقوات من المشاة .

إن عدم وجود أعماق كبيرة في حوض الميناء فرض على السفن الفرنسية المهاجمة البقاء بعيدة عن الأحواض والمنشآت الرصيفية ، فرست في وسط الحوض ، وفي منطقة تسمى باغودا Pagoda . وانتشرت على رتل بطول كيلومتر واحد تقريباً ، رأس هذا الرتل مركب القيادة فولتا Valta ، وأعقبه ثلاثة طرادات بلغ غاطس كل منها أكثر من خمسة أمتار :

أما السفن الصينية فقد رست خارج مرأى السفن الفرنسية ، عدا ثلاثاً منها واجهت الطرادات الفرنسية ، وإلى الأسفل من سفينة القيادة فولتا ، في حين راح البعض الآخر فجانب على رصيف الميناء .

وزع الأميرال كوربيه أوامره في الخامسة من مساء ٢٢ على أن تبدأ المعركة في اليوم التالي .

في صباح اليوم التالي قامت بضع قاذفات طوربيد صينية بعملية استعراضية مثلت من خلالها خطة هجوم بالطوربيد . لم ترد السفن الفرنسية على التحدي . ومع اقتراب الساعة الثانية من بعد

الظهر ، وكان تأثير ظاهرة الجزر أعظمياً وقد جعل من السفن الصينية تلتف معرضة مؤخراتها ، وهي الزاوية الأقل تسليحاً في السفينة .

استغل الفرنسيون وضع السفن الصينية الجديد ، وأقلعوا بسفنهم . وبدأت مدافعهم تصب حممها . وسرعان ما جنحت سفينة الأميرال الصينية ، بعد إصابتها بطوربيد . وخلال ذلك أغرقت الطرادات الفرنسية السفن الصينيَّة الثلاث المواجهة لها في حين اشتبكت سفينة القيادة فولتا مع الشراعيات الصينية المسلحة التي قاومت المهاجمين بضراوة .

في الساعة ٢٫٣٥ . توقف القصف بعد أن تم تدمير التشكيل الصيني الظاهر للعيان عدا زورقين مسلحين صعدا في النهر واختفيا ، ولم تستطع السفن الفرنسية اللحاق بهما لقلة الأعماق .

عاد الفرنسيون وفتحوا النار ثانية في الساعة ٢٫٤٥ . مستهدفين التحصينات البرية والمنشآت الساحلية . وفي الرابعة مساءً توقف كل شيء وتقدمت السفن الغازية ورست لقضاء الليل .

حاول الصينيون التسلسل مع الظلام بزوارقهم الطوربيدية فهاجموا الطراد الفرنسي ايستانغ وأصابوه ، إلا أن الطراد رد على المتسللين وأغرقهم .

كانت نتيجة المعركة البحرية محزنة بالنسبة للصينيين ، حيث فقدوا (٢٢) سفينة ، وقتل لهم (٢٤) ضابطاً ، وأكثر من (١٥٠٠) رجل من طواقم السفن والمدافعين ، في حين لم تتجاوز الإصابات عند الفرنسيين المئة بين قتيل وجريح .

لم يحاول الفرنسيون النزول إلى البر واحتلال منشآت الميناء لقلة عدد المقاتلين لديهم . ومكثوا أربعة أيام ثم انسحب تشكيلهم إلى عرض البحر عبر النهر واستغرق منهم ذلك ثلاثة أيام تعرضوا خلالها للعديد من رشقات مدافع التحصينات البرية .

وأخيراً أقامت فرنسا حصاراً بحرياً منعت به دخول مادة الأرز الأساسية للصين ، وخاصة لمحيط العاصمة وضواحيها ، حيث لا تنتج هذه المادة هناك علماً بإن استهلاكها كبير جداً ، إلا أن معاهدة السلام التي وقعت في ٤ نيسان أنهت ذلك الحصار ، وانتهت بتوقيع المعاهدة مهمة الأميرال كوربيه في المنطقة ، بعد أن فرض على الفرنسيين الانسحاب من فورموزا .

البحر الأحمر ومدغشقر وإفريقية

لم يقتصر نشاط المستعمرين الفرنسيين على الهند الصينية فحسب بل تعداها إلى نقاط هامة أخرى عديدة منها مدخل البحر الأحمر والشيخ سعيد وأوبق Obock والساحل الصومالي، وجيبوتي، والحبشة المسيحية.

حاول الفرنسيون هناك إقامة مكاتب ومنشآت تسهل لسفنهم العديدة التي تقصد الهند الصينية أمورهم الملاحية والتموينية، وتأتي جزيرة مدغشقر الهامة في مقدمة المواقع الاستراتيجية الحساسة.

في مدغشقر استغل شعب الهوفا Hova الظروف الساخنة القائمة بين الفرنسيين والبريطانيين على أرض الجزيرة فسيطروا على جميع المواقع، وتعاونوا مع الإرساليات البريطانية في استرجاع كل الممتلكات التي كانت في حوزة فرنسا سابقاً.

لم ينجح الفرنسيون في سلوك مبدأ استخدام القوة، خصوصاً وبريطانيا لهم في المرصاد. والأمثلة على إخفاقهم قريبة في كل من مصر وتونكين وتونس. واختاروا مرغمين سبيل المباحثات، وانتهوا إلى توقيع اتفاقية ١٧ تشرين الثاني (١٨٨٥) على ظهر السفينة ناياد Naïade في مرسى تاماتاف Tamatave، وهي اتفاقية فرنسية بريطانية تعترف شعوب الهوفا بمطالب فرنسا في حق حماية شعوب الساخالاف Sakkalaves حلفاء فرنسا، وبالملكة مانجاكا Manjaka ملكة على مدغشقر، وتواجد تمثيل فرنسي عسكري في تاناناريف Tananarive، مع ترك أمر الأمن وإدارة شؤون البلاد للهوفا. واحتفظ الفرنسيون بتاماتاف رهينة حتى تدفع البلاد غرامة مليوني فرنك تعويضاً لفرنسا. وكذلك تخلت الهوفا عن كل منشآتها في خليج ديغو ـ سواريز Diego-Suarez سامحة لفرنسا بإقامة قاعدة بحرية هناك، مقابل تخلي فرنسا عن باقي أقسام الجزيرة للهوفا.

لم يرق هذا الصلح بالطبع للمستعمرين الفرنسيين. واعتبروا سيطرة الهوفا أصبحت شاملة على كل أنحاء الجزيرة بدعم البريطانيين ومباركتهم. وهذا الوضع الجديد خطر على طبيعة وجودهم على أرض الجزيرة، ولا بد بحكم التنافس الاستعماري الحاد من ايجاد طريقة لاسترجاع ما فقد، حتى ولو عن طريق القوة. وقد نجح دعاة العنف المغالون في تزعم الجولة الجديدة، وطرحوا مبدأ العمل العسكري على البرلمان فنال الموافقة، ورصد مبلغ (٦٥) مليون فرنك لاجتياح الجزيرة.

وأول المتحركين كان الأميرال الفرنسي بيان ايميه Bienaimé الذي سارع فاستولى على أكثر

النقاط الاستراتيجية الساحلية ، ثم تقدمت الحملة البرية ، فاحتلت ماجونكا Majunga كقاعدة للهجوم الشامل ١٥ شباط (١٨٩٥) .

تلكأت الحملة في تحقيق أهدافها لعوامل عدة ، أهمها ضعف التنسيق والخلاف بين قادة البر وقادة البحر ، ومقاومة السكان الأصليين . واضطر قائد الحملة للتقهقر ، واعتبرت المرحلة الأولى من تلك الحملة عملية فاشلة ، وصفعة مهينة لقوات فرنسا . ولحفظ ماء الوجه هب الجنرال دوشيسن[١٠٣] Duchesne على رأس (٤) آلاف مقاتل يمحو عار الهزيمة ، فتقدم نحو العاصمة ، ووصل مشارفها ، وأمطر قصر الملكة في تاناناريف بقنابل مدافعه .

قبلت الملكة بالشروط الفرنسية ووقعت في ١ تشرين الأول إتفاقية تاناناريف للسلام . وتضمنت قبول مدغشقر للحماية الفرنسية بكل اعتباراتها ، وإبعاد مستشاري الملكة السابقين ، مع نفي رئيس وزرائها إلى الجزائر . واسناد مهام الحكم إلى مقيم فرنسي . وفي غضون فترة وجيزة فرض المستعمرون الفرنسيون سيطرتهم الكاملة ، وأجبروا ملكة البلاد على توقيع صك إعلان تملك فرنسا للجزيرة على أنها إحدى مستعمراتها ١٩ كانون ثاني (١٨٩٦) .

اشتعلت الثورة المضادة في كل أرجاء الجزيرة ، وكاد المناضلون الأحرار أن يستعيدوا السلطة لولا مسارعة الوزير الفرنسي ميلين Milène بإعلان قرار العودة إلى الحكم العسكري على أرض الجزيرة ، وبإرسال الجنرال غاليني Galiénie أيلول (١٨٩٦) كحاكم عام عسكري . وقد أقام أكثر من عشرة أعوام متواصلة يحكم الجزيرة بالحديد والنار ، بعد أن قضى وبشراسة على كل بؤر المقاومة الوطنية ، وأعدم الزعماء والأمراء .

في أثناء ذلك كانت فرنسا ناشطة على القارة الإفريقية . واستولت على إفريقية الغربية واضعة يدها على السنغال والنيجر وغينيا وساحل العاج وموريتانيا ، ثم دخلت إفريقية الإستوائية عن طريق الغابون ، وانتشرت في إفريقية الشمالية انتشاراً سريعاً .

أما في إفريقية الشمالية فقد شددت قبضتها على الجزائر العربية عام (١٨٧٠) برغم ثورة الجزائريين عام (١٨٧١) ، واعتبرتها امتداد لبر فرنسا عبر المتوسط ، وأنكرت أصالة تلك المملكة العربية الجذور ، وسمحت للجزائريين المتعاونين معها بحق التمثيل في المجلس الوطني الفرنسي وفي البرلمان . وقد لعب اليهود الجزائريون دوراً هاماً في دعم السيطرة الفرنسية ، بعد أن تجنسوا بالجنسية الفرنسية . فأسندت إليهم الوظائف الهامة ، وسلمتهم مقادير البلاد الجزائرية . وعندها بدأ المقيمون

الفرنسيون والإسبان وغيرهم يغدون بالآلاف ويتوضعون بكثافة في المناطق الساحلية الغنية من البلاد ، ويبنون القرى الأوربية العديدة فوق أرض الجزائر . حتى وصل تعداد الوافدين عام (١٩١١) إلى ثلاثة أرباع المليون ، أي بنسبة سدس سكان الجزائر العرب آنذاك .

انتشرت فرنسا في إفريقية الشمالية جنوباً ، لكنها توقفت أمام الصحاري الواسعة ، وأمام مقاومة شعب الطوارق Tuoreg ، الذين حرموا على فرنسا الاقتراب من أراضيهم . واتجهت نحو تونس فاستولت على الأرض ، ووقفت تمنع أي تواجد غربي أو تركي في الجوار . وخلال فترة ضعف في الحكم التونسي زحف الجيش الفرنسي ٢٤ نيسان (١٨٨١) بقوة بلغت (٢٨) ألف جندي وبسرعة أذهلت البريطانيين والطليان . ثم جاء الأسطول الفرنسي فقصف بحراً طبرقة وبنزرت . وفي أول مايس تقدم جند فرقة بريار Breart (٨) آلاف رجل ، ونزلوا في ميناء بنزرت عن طريق البحر ، واتجهوا مباشرة إلى العاصمة تونس . ووقع باي تونس في ١٣ مايس اتفاقية باردو[١٠٤] Bardo ، أو اتفاقية قصر سعيد التي فرضت الحماية على البلاد التونسية . وسرعان ما أطبقت فرنسا سريعاً على كل مقدرات البلاد ، وبقي حكم الباي رمزياً فقط .

طبعاً قاوم التونسيون المحتلين خاصة سكان الشريط الساحلي من البلاد ، إلا أن الأسطول الفرنسي تدخل على عجل ، وقصف صفاقس التي ثارت بوجه الفرنسيين بألفي قذيفة ، ثم أتبع القصف بعملية إنزال واسعة تضمنت (٥٠) ألف مقاتل ، احتلت الحملة النازلة المدينة ثم تابعت تقدمها فاستولت على غابس والمهدية والموناستير وسوس ودجيربا ، حتى وصلت في شهر تشرين الأول لمدينة القيروان المقدسة . وهكذا استولت فرنسا على كل الأراضي التونسية .

وإلى الجهة المقابلة من المملكة الجزائرية تقع بلاد المغرب . وعرف المغاربة بشدة مقاومتهم للغرباء ، وعلى مر العصور . وبرغم محاولات بريطانيا العديدة لم تفلح إلا بالسيطرة على طنجة مفتاح المتوسط . وكان ذلك في مطلع القرن السابع عشر .

لمست بريطانيا أهمية طنجة الاستراتيجية فحصنتها وحاولت احتلال رأس جوبي Juby لزيادة منعة طنجة ، وبذلك لفتت أنظار المستعمرين الآخرين ، إذ تجمعت مصالحهم في تلك المنطقة الهامة والصغيرة من العالم ، وشمل الاهتمام كلاً من فرنسا وإسبانيا وبريطانيا ، وحتى هولندا وبروسيا .

عقد اجتماع دولي في مدريد عام (١٨٩٠) تقرر بموجبه المحافظة على حرية المغرب في التجارة وفي التعامل مع الآخرين . واستمر الحال كذلك حتى نشوب ثورة مولاي عبد العزيز

عام (١٨٩٩)، وقيام حرب أهلية في البلاد. وهنا استغلت فرنسا الموقف، وكشفت عن أطماعها الواسعة في تلك البلاد، وقررت في البدء التسلل الهادىء لتخفف ما أمكن من النفقات وتتفادى الأخطار. لكنها لم تفلح واضطرت بدءاً من عام (١٩٠٠) بتحويل التسلل إلى تدخل بالقوة. واشتبكت مع المغاربة في عدة معارك جنوب أورانيس.. وأخيراً وفي عام (١٩١٢) أعلنت فرنسا حمايتها على بلاد المغرب، وكان ذلك إيذاناً بتفجير جديد، وثورة شاملة في كل بلاد المغرب. وهنا سارع الجنرال ليوتي[١٠٥] Lyautey واحتل مدينة فاس، فقتل الثورة في مهدها. ودانت كل البلاد لسيطرة الفرنسيين الغزاة، وتنازل السلطان عن الحكم لأخيه الذي تعاون مع الفرنسيين، وأقرهم على احتلال بلاده. وعلى أثر ذلك شهدت بلاد المغرب همجية من الوافدين الأوربيين. وجاؤوا فسكنوا الدار البيضاء والرباط ودمغوا المدن المغربية الرئيسية بطابع أوربي بحت، وفي الريف أقام المستعمرون المزارع الأوربية توطئة لاستيطان طويل الأمد كما حدث في بلاد الجزائر وسائر مستعمرات فرنسا الأخرى في العالم.

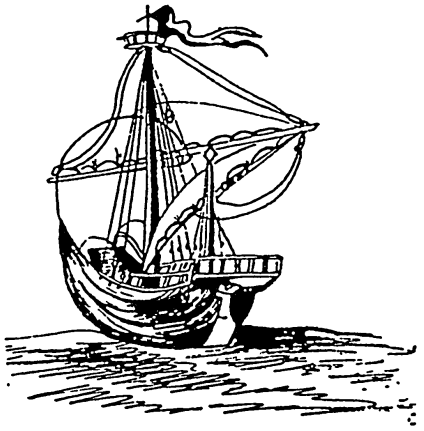

حواشي البـاب الثانـي

٦٣ ـ بيسيمير Bessemer سيرهنري (١٨١٣ ـ ١٨٩٨)

صناعي بريطاني له عدة اكتشافات منها استخراج الفولاذ المسمى باسمه بتبديل الفونت بعد تعريضه للهواء المضغوط. بنى بيسيمير في شيفلد مصانع كبيرة تطبق في إنتاجها نظريته في الفولاذ.

٦٤ ـ مارتان Martin بيير (١٨٢٤ ـ ١٩١٥)

مهندس فرنسي استنبط طريقة لتذويب الفولاذ بالفرن المسمى باسمه.

٦٥ ـ توماس غيلهريست Thomas Gilchrist سيدني عام (١٨٥٠ ـ ١٨٨٥)

مخترع بريطاني استطاع فصل الفوسفور عن الحديد الفونت المستخرج من المناجم الفوسفورية.

٦٦ ـ دريدنوهت Draednought

تسمية تعني التي لا تخشى شيئاً لطراز من الدارعات البريطانية الشهيرة.

٦٧ ـ هول Holl ادوين هيربرت (١٨٥٥ ـ ١٩٣٨)

فيزياني أمريكي اكتشف انحراف خطوط التيار في الصفائح المعدنية الرقيقة الموضوعة داخل ساحة مغناطيسية إضافة إلى عدة اكتشافات في الخلائط المعدنية.

٦٨ ــ بنجامان Benjaman Normand (١٨٣٠ ــ ١٨٨٨)

مخترع فرنسي من عائلة مخترعين قدم الآلة البخارية ذات الشوطين وذات الثلاثة أشواط . ابنه جاك اغوستان (١٨٣٩ ــ ١٩٠٦) درس هيكل السفينة السريعة ، وخاصة قاذفات الطوربيد ، واكتشف المرجل ذا الأنابيب المائية .

٦٩ ــ ديزل Diesel رودلف (١٨٥٨ ــ ١٩١٣)

مهندس ألماني أشهر من أن يعرف صاحب ماكينة ديزل ، والعديد من الآلات ذات الانفجار الداخلي .

٧٠ ــ تسوشيما Tsuchima

معركة بحرية انتصر فيها اليابانيون بإمرة الأميرال هيساشيرو توغو (١٨٤٧ ــ ١٩٣٤) Togo على الأسطول الروسي بإمرة الجنرال رودجستفنسكي Rodjestvensky في ٢٧ ــ ٢٨ مايس (١٩٠٥) .

٧١ ــ وايتهيد Whitehead روبرت (١٨٢٣ ــ ١٩٠٥)

مهندس إنكليزي بنى عدة سفن حربية لصالح النمسا ، تخصص في صنع الطوربيد الأوتوماتيكي وقد زوده يسير فوموتور .

٧٢ ــ بوشنيل Bushnell داوود (١٧٤٢ ــ ١٨٢٤)

مخترع أمريكي ابتدع غواصته الأولى التي أطلق عليها اسم السلحفاة ، بناها عام (١٧٧٥) ، وهي التي سمحت للرقيب لي Lee بمهاجمة فرقاطة إنكليزية .

٧٣ ــ زيديه Zedé غوستاف (١٨٢٥ ــ ١٨٩١)

مهندس بحري فرنسي واضع مخطط الغواصة جيمنوت Gymnote وأصبح خبيراً للغواصات في سلاح البحرية الفرنسية عام (١٨٨٨) .

٧٤ــ لوبوف Laubeuf مكسيم (١٨٦٤ ــ ١٩٣٩)

مهندس بحري تخصص في ملاحة الغواصات وكان له فضل وضع طراز عام (١٩٠٤) أصل غواصات اليوم.

٧٥ــ فيوليت Violette لويز (١٨٦٩ ــ ١٩٥٠)

أميرال فرنسي تخصص في البصريات حقق التلوسكوب الذي استخدم على الغواصات إبان الحرب العالمية الأولى.

٧٦ــ كاربانتييه Carpentier جول (١٨٥١ ــ ١٩٢١)

مهندس فرنسي قدم عدة أجهزة دقيقة لقياس الكهرباء والضوء وفي مجال التصوير الفوتوغرافي، أول من وضع أسس المنظار الأفقي للغواصات، وأول من صنع آلة السينما للأخوة لوميير Lumiere.

٧٧ــ ماكاروف Makaroff اسطفان (١٨٤٩ ــ ١٩٠٤)

نائب أميرال روسي برز في دراساته الفنية واكتشافاته العلمية، قاد طراداً في الحرب الروسية التركية، وهو أول من استخدم الزوارق حاملات الطوربيد، أصبح مستشاراً في البحرية الروسية، ثم قائداً عاماً لأسطول المحيط الهادي في بداية الحرب اليابانية الروسية. قتل على ظهر الدارعة بيتروبافلومنسك إثر اصطدامها بلغم ياباني، مصمم سفن كاسحات الجليد.

٧٨ــ ويلبرفورس Wilberforce ويليام (١٧٥٩ ــ ١٨٣٣)

سياسي بريطاني حارب كل حياته الرق الأسود.

٧٩ــ جون روسل John Russel (١٧٥٩ ــ ١٨٣٣)

سياسي بريطاني عضو في البرلمان ورئيس للوزراء.

٨٠ــ باسوتولاند Basutoland

محمية بريطانية في جنوب إفريقية.

٨١ ــ غريكلاند Griqualand

جزء من اتحاد جمهوريات إفريقية الجنوبية حول الكاب يسكنها الفريكاس، وهم مولدون من البوير والهوتانتوس. Boers & Hotantots.

٨٢ ــ زولولاند Zoulouland

مقاطعة في إفريقية الجنوبية ومحمية بريطانية ضمت إلى ناتال وترانسغال التي عاصمتها بريتوريا.

٨٣ ــ غلادستون Gladstone ويليام (١٨٠٩ ــ ١٨٩٨)

سياسي بريطاني اشترك في عدة وزارات وانضم إلى الأحرار. استلم رئاسة الوزراء، أبعده دزرائيلي، لكنه عاد ثلاث مرات وعاصر أحداث إفريقية وأفغانستان وإيرلندة.

٨٤ ــ كافريري Cafrerie

بلاد الكفر تسمية عربية لمقاطعة إفريقية جنوب خط الاستواء قطنها غير المسلمين (كفار) حالياً من ضواحي الكاب.

٨٥ ــ جون برايت John Bright (١٨١١ ــ ١٨٨٩)

سياسي بريطاني صديق لغوبدن Gobden نائب في المجلس عارض حرب القرم واشترك بإحدى وزارات غلادستون.

٨٦ ــ بيكر Baker صموئيل (١٨٢١ ــ ١٨٩٣)

رحالة بريطاني حارب الرق الأسود وخدم في السودان ومصر، أما بنجامان بيكر فهو الذي شيد سد أسوان (١٨٤٠ ــ ١٩٠٦).

٨٧ ــ بورتون Burton ريتشارد فرنسيس (١٨٤٠ ــ ١٨٩٠)

رحالة بريطاني زار مكة المكرمة والمدنية المنورة، اكتشف بحيرة تانغانيكا وشارك في اكتشاف إفريقية الفرنسية والبرازيل.

٨٨ ــ ليفنكستون Livingston داوود (١٨١٣ ــ ١٨٧٣)

مبشر ورحالة ايكوسي، طبيب اكتشف بحيرة نيفامي. واجتاز إفريقية الجنوبية، وتعرف على زامبيزي. حارب الرق الأسود، بالاشتراك مع ستانلي وترك عدة مؤلفات.

٨٩ ــ غوردون Gordon شارل (١٨٣٣ ــ ١٨٨٥)

ضابط وسياسي بريطاني أخذ لقب باشا. خدم في كل من مصر والصين كحاكم عام وقتل على يد المهديين عند تحريرهم مدينة الخرطوم.

٩٠ ــ ويلسلي Wolesley جوزيف (١٨٣٣ ــ ١٩١٣)

ماريشال بريطاني حارب في برمانيا والقرم والهند والناتال Natal وقبرص والترانسغال، أصبح قائداً عاماً للجيوش البريطانية عام (١٩٠١).

٩١ ــ كيتشنر Kitchener هربرت (١٨٥٠ ــ ١٩١٦)

فيلد ماريشال بريطاني وسرداراً في مصر حارب الدراويش في أم درمان، وصل فاشود لرد حملة مارشان الفرنسية، قاد جيوش بريطانيا في الترانسغال وأنهى حرب البوير، ونظم جيش الهند. ذهب بمهمة إلى روسيا، غرق مع السفينة التي نقلته قرب اركاديا.

٩٢ ــ كرومر Cromer افلين (١٨٤١ ــ ١٩١٧)

دبلوماسي بريطاني ووزير مقيم في مصر خسر معركة الخرطوم عام (١٨٨٥)، واسندت مهمته إلى كتشنر في استعادة السودان.

٩٣ ــ كيرزون Curzon جورج (١٨٥٥ ــ ١٩٢٥)

سياسي بريطاني ونائب الملك في الهند اختلف مع كتشنر فاستقال، عاد وزيراً في وزارة لويد جورج عام (١٩١٦) ثم سكرتيراً للشؤون الخارجية وهو من كبار منظمي معاهدة لوزان (١٩٢٣).

٩٤ ــ شامبرلان M.Chamberlain جوزيف (١٨٣٦ ــ ١٩١٤)

سياسي بريطاني ورجل أعمال، أصبح وزيراً للتجارة، اختلف مع غلادستون وفجر حزب الأحرار، من كبار المنادين باستعمار الشعوب.

٩٥ ــ بيسمارك Pismark اوتوفون (١٨١٥ ــ ١٨٩٨)

زعيم ألمانيا الحديثة، سياسي محنك، بدأ سفيراً في روسيا وفرنسا، ثم وزيراً للدولة فوزيراً للخارجية. أقام وحدة ألمانيا، وأصبح مستشاراً لها ورئيساً لمجلسها.

٩٦ ــ بيكونسفيلد Beaconsfield

هو نفسه بنجامان دزرائيلي.

٩٧ ــ غامبيتا Gambetta ليون (١٨٣٨ ــ ١٨٨٢)

سياسي فرنسي وعضو في البرلمان. نادى بالجمهورية وأصبح وزيراً للداخلية، ثم رئيساً لمجلس النواب. لم يستطع مقاومة الراديكاليين فانسحب.

٩٨ ــ فيري Ferry جول فرانسوا كامبل (١٨٣٢ ــ ١٨٩٣)

محامي وسياسي فرنسي تولى مناصب هامة، وأصبح وزيراً للخارجية كان وراء انتداب تونس (معاهدة باردو عام ١٨٨١) واحتلال تاماتاف ودييفو سواريز والكونغو الأسفل.

٩٩ ــ واليس Wallis

مجموعة جزر في بحار الجنوب أعطيت اسم الملاح البريطاني الذي اكتشفها.

١٠٠ ــ ميكلون Miquelon

جزيرة تابعة لفرنسا في خليج سان لوران قرب الأرض الجديدة Terre Neuve.

١٠١ ــ كوربيه Courbet اناتول (١٨٢٧ ــ ١٨٨٥)

أميرال فرنسي استعمر آنام، وعين قائداً عاماً للقوات الفرنسية في الصين، احتل فورموزا، ودمر الأسطول الصيني. مات فوق السفينة بايارد بعد يومين من توقيعه معاهدة السلام.

١٠٢ ــ ميير Meyer

أسرة ألمانية برز فيها الفيزيائي لونهار (١٨٣٠ ــ ١٨٩٥) والفيزيائي فيكتور (١٨٤٨ ــ ١٨٩٧).

١٠٣ ــ دوشيسن Duchesne جاك (١٨٣٧ ــ ١٩١٨)

جنرال فرنسي قاد حملة مدغشقر عام (١٨٩٤).

١٠٤ ــ باردو Bardo

ضاحية لمدينة تونس مكان إقامة الباي (قصر سعيد)، عقدت فيها اتفاقية تكريس احتلال تونس من قبل الفرنسيين.

١٠٥ ــ ليوتي Lyautey (١٨٥٤ ــ ١٩٣٤)

ضابط فرنسي خدم في مدغشقر والجزائر. استلم وزارة الدفاع خلال الحرب العالمية الأولى. عين حاكماً في المغرب وكان له الفضل في تطوير القوات العسكرية الفرنسية. سمي ماريشالاً لفرنسا.

الباب الثالث

من عام ١٨٧٠
وحتى مطلع القرن التاسع عشر

الفصـــل الأول

التـوازن البحـري والاستعمـاري فـي العالــم للأعــوام بيـن ١٨٧٠ و ١٩١٤

الولايات المتحدة الأمريكية وحربها مع إسبانيا

كانت أمريكا أول المتأثرين في العالم من الاستعمار ونتائجه العديدة، خاصة فيما يتعلق بالتطور الصناعي الحديث الذي شمل شعوب أوربة الغربية ودولها. وحملت هذه المرحلة من تاريخ العالم محصلات عدة تضمنت مزايا عديدة وفريدة، ليس كدولة عصرية أوربية فحسب، بل لتجمع حضاري أبيض العرق، هاجر إلى القارة الجديدة مستعمراً، ثم تحول إلى قوة مسيطرة نافذة، تقف حائلاً أمام نفوذ الآخرين. وهكذا قامت الولايات المتحدة الأمريكية، وارتفعت إلى مصاف الدول العظمى، آخذة بأسلوب التدخل والتحكم بمصائر العالم.

إن المرحلة التي أعقبت حرب الاستقلال اتصفت بالتزام أمريكا مبدأ الابتعاد عن الأحداث الخارجية في مجاليها السياسي والاقتصادي، وتسخير طاقاتها ليس لشعبها المتخلف في الغرب والجنوب فحسب، بل باستخدام المواد الطبيعية الوفيرة زراعية منها أو معدنية. فكانت نهضة تخطت بضخامتها كل التوقعات، فوازنت بإنتاجها الكبير الانتاج الأوربي مجتمعاً، من حيث السعر والجودة. وأخذ ميزانها التجاري يرقى، وغدت الولايات المتحدة الأمريكية دولة غنية وممولة لدول العالم،

خصوصاً بعد اكتشاف معدن الذهب، وتوافره في كل أرجاء البلاد. وهكذا انتصبت الولايات المتحدة الأمريكية عملاقاً زاحم بريطانيا في موقعها الرأسمالي العالمي.

فرض التطور الاقتصادي السريع على الولايات المتحدة الأمريكية نوعاً من السياسة الدولية المتحفظة التي تعتمد على مسالمة العالم الخارجي، وعدم التدخل بقضاياه السياسية. وأصبح هذا الأسلوب شعاراً تقليدياً لمؤسسي تلك الدولة.

فرفضوا فكرة الحاق الآخرين تحت سيطرتهم. ويتمثل ذلك بقول سكرتير الدولة الامريكي عام (١٨٨١) حين خاطب شعب هاواي المطالب بالانضمام إلى الاتحاد:

«أصدقاء فقط ليس إلا»، وكذلك رفض الكونغرس لمقترحات الرئيس غرانت Grant المتعلقة بسانتو دومينغو وبأرخبيل الآنتيل عامة.

ومع انتهاء حرب الاستقلال تقلص جيش أمريكا، واقتصر على قوى الأمن فقط حتى سلاح البحر ظل أميناً لمبادئه، ولم يسع للسيطرة على البحار برغم قوته الكبيرة. ونشهد خلال الأعوام العشرة الأخيرة تراجعاً في مقدرة هذا الأسطول، وتناقصاً في عدد سفنه التي اقتصرت على الوحدات الدفاعية الساحلية فقط. ويمكننا القول إن الولايات المتحدة انسحبت من العالم الخارجي، ومن بحاره، وعاشت فترة ركود بعد إهمالها لأسطولها التجاري الذي حقق لها فيما مضى مجداً عريقاً واسع الانتشار.

اعتباراً من عام (١٨٩٣) تغيرت الملامح، وباشر الأمريكيون بمعالجة اهتمامات جديدة، هي في استثمار خيرات العالم الأمريكي. وكانت أولى تلك الخطوات إقامة تجمع دول أمريكا برغم تفاوت الظروف. وحاول بلين Blaine تطبيق شعار أمريكا للأمريكيين، وكاد أن ينجح، لولا معارضة مندوب الأرجنتين له بقوله: شعار أمريكا والانسانية.. وعلى الرغم من ذلك توصل المؤتمر الأمريكي إلى صيغة مقبولة، وإقامة مكتب مركزي يراسل ويدرس. وقد كانت قنال باناما إحدى القضايا الهامة في حياة الولايات المتحدة والشعوب الأمريكية الجنوبية. وقد دار مشروع شقها على الألسنة ما يقارب الـ(٥٠) سنة، حتى جاء فرديناند ديلسبس، وبتمويل فرنسي، فحفرها مذللاً العديد من العقبات. وهنا وجدت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها مضطرة للاهتمام بتلك القناة الحيوية لها وللعالم. وأصبح عليها واجب السيطرة على بحر الآنتيل الذي يشبه بموقعه الحيوي البحر الأبيض المتوسط وقناة السويس فيه في العالم القديم. وهذا ما دفع بالأميرال ماهان Mahan لأن يقول:

« إن الظروف الجديدة تفرض على الولايات المتحدة إقامة قوة بحرية تتناسب وعظمتها ومدى نفوذها في المنطقة الجديدة من العالم » .

بدأت الترسانات البحرية الأمريكية في بناء الطرادات والفرقاطات، ومن ثم البوارج والدارعات . وصادق الكونغرس على مقترحات تراسي Tracy عام (١٨٨٩) على بناء أسطولين قتاليين ، الأول للأطلسي والثاني للهادي ، يضمان (٢٠) بارجة و (١٠) طرادات مدرعة و (٤٠) طراداً خفيفاً . وأرادت أمريكا من وراء ذلك إيجاد وسيلة حربية تدعم تدخلها السياسي في القارة الأمريكية وبصورة مميزة .

أولى مواقع الإختبار حدثت في فينزويلا ، على أثر اشتباك حدودي شائع الحدوث . وأبدت بريطانيا رغبة في حل الخلاف بالضغط على مصلحة الشعب المستضعف . إلا أن أمريكا عارضت ، ومنعت البريطانيين من تنفيذ خطتهم . وصرح السنياتور كولوم Cullem يقول :

« إن على أوربة أن تعرف بأن الـ (٧٥) مليوناً من الأمريكين متوحدون للدفاع عن أميركا وعن إعلان مونرو الشهير » .

كما صرح سكرتير الدولة الأمريكي أولني Olney قائلاً :

« على العالم أن يعرف أن الولايات المتحدة الأمريكية هي سيدة القارة ، وكل تجاهل لهذا الواقع قد يستوجب تدخلها » .

وبالفعل أثبت الأمريكيون فيما بعد صدقاً فيما قالوه وصرحوا به .

قضية كوبا

لم تختف إمبراطورية إسبانيا السابقة كلية بعد أحداث عام (١٨١٠) إلى (١٨٣٠) . ففي عام (١٨٩٤) اعترف الاسبان باستقلال هوندوراس . وعادت جزر الآنتيل وكوبا وبورتوريكو ، وغيرهما لنشاطهما الاقتصادي المميز . وعاد مرفأ هافانا يستعيد مجده كمرفأ حر لكل العمليات التجارية لبحر الآنتيل (تبغ وقصب سكر ...) . إلا أن قرب كوبا من بر الولايات المتحدة الأمريكية فرض عليها ظروفاً استثنائية في النواحي الاقتصادية والسياسية والعسكرية .

أولى مظاهر التململ السياسي ثورة لوبيز Lopez (١٨٥١) ، ثم حرب السنوات العشر ، وأخيراً وقعت إتفاقية زانجون Zanjon في ١٠ شباط عام (١٨٧٨) التي حفظت للإسبان سيادتهم .

إلا أن توقيع الاتفاقية كان بمثابة إنذار صادق للكوبيين . إذ سرعان ما توقفت نشاطاتهم الاقتصادية ووقعوا تحت أعباء ديون مالية كبيرة ، خصوصاً وميزانية الدفاع التي تصرف على القوات المسلحة ضخمة ، لا تتمشى مع حجم الجزيرة ومدخولها . ولقد نتج عن ذلك انفجار جديد عُـرِف بأحداث شباط (١٨٩٥) . وحدث تقسيم في الجزيرة إذ قام الجنرالات الإسبان بحفر الخنادق الطويلة ، وأقاموا التحصينات عليها لحصار الثوار والقضاء عليهم زمراً صغيرة . وشاعت الاضطرابات في أرجاء كوبا ، وحدثت مضاعب عمت البلاد ، واستبيحت فيها الحرمات .

هبت إسبانيا ترسل التعزيزات العسكرية للجزيرة حتى وصل تعداد قواتها هناك إلى (٢١٧) ألف رجل . وكادت تسيطر على الجزيرة لولا تدخل أمريكي صاحبه تأييد عالمي أعاد الهدوء للجزيرة . وقد شهدت بعده كوبا حقبة من المعونة الأمريكية تمثلت في توظيف رؤوس أموال بملايين الدولارات . إذ انطلق رجال الأعمال الأمريكيون فتعاطفوا مع رجال السياسة ، واعتبروا قضية كوبا قضيـة سياسية ، يعتمد مستقبل امتداد نفوذ أمريكا في المنطقة عليها .

وجد الإسبان أنفسهم في خضم حرب مصيرية خصوصاً بعد اغتيال كانوفـاس ديـل كاستيلو . وبدأت طبول الحرب تقرع من جديد . وهنا أرسلت أمريكا البارجة Maine مين في ٢٤ كانون الثاني (١٨٩٨) مدعية أنها تقوم بزيارة صداقة . لكن كارثة غير متوقعة سارعت في إحداث الحرب . ففي ليل ١٥ ـــ ١٦ شباط وفي التاسعة والنصف مساءً دوى انفجار هائل أتى على البارجة الزائرة فغيَّبها في مياه ميناء هافانا حاملة معها (٢٦٧) ضحية من طاقمها . ولم ينج من أفراد الطاقم إلا خمسة عشر رجلاً .

هرعت إسبانيا فأعلنت تنصلها من مسؤولية الحادث . وأتبعت ذلك تشكيل لجنة عليا للتحقيق سرعان ما انعقدت لتضع تقريرها ، الذي عزت فيه سبب الانفجار لإهمال في تهوية مستودع الذخيرة . أي أن السبب داخلي ، وهو الذي أدى إلى الفجيعة ، في حين أثبتت لجنة أخرى أمريكية كلفت بالتحقيق عكس هذا الافتراض ، واعتبرت هذا الحادث مدبراً ، وبفعل فاعل ، وعلى الحكومة الأمريكية الأخذ بالثأر لأولئك الضحايا عملا بشعار أطلقوه يقول :

تذكروا المين (اسم البارجة الزائرة) Remember the Maine .

وكان شعاراً يعبّر بصدق عن نوايا الرأي العام الوطني الأمريكي .

امتصت حكومة واشنطن النقمة بين صفوف أفراد الشعب باتخاذ تدابير هادئة . ولم تدع

للحادث أن يؤثر على سياستها المستقرة آنذاك، برغم أن التحقيق التالي والذي جرى عام (١٩١٢)، وبعد تعويم البارجة، قد أكد أن حادث الانفجار أتى من خارج السفينة وليس من داخلها.

في ١١ نيسان طالب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بصلاحيات إضافية لوقف التدخل الخارجي في كوبا، وللعمل على إقامة حكومة وطنية مستقرة فيها. وطالب الكونغرس التصويت على ضرورة إرغام إسبانيا على مغادرة الجزيرة فوراً. إلا أن هذا الأمر أزعج حكومة مدريد، واعتبرت مثل هذا الطلب دعوة إلى الحرب. ولم يخب ظنها طويلاً إذ صدر قرار حكومي أمريكي في ٢٦ نيسان يعلن الحرب رسمياً على إسبانيا.

تباينت القوى المتواجدة على ساحة العمليات من حيث التجهيز والتركيب. وبدت قوى إسبانيا للوهلة الأولى الأكثر عدداً وعدة. فهي جيوش على الطريقة الأوربية وصل تعدادها إلى (٤٠٠) ألف رجل في جزيرة كوبا وجوارها، منهم (٢٧٨) ألف في كوبا وحدها، في حين لم تكن القوات الأمريكية إلا تجمعات من حرس الحدود ضمت وحدات مقاتلة صغيرة، اعتمدت غالبيتها على المتطوعين. والمشكلة الأخرى هي في عدم وجود حدود مشتركة تفصل بين الخصمين المتنازعين، إذ إن المحيط يفصل بينهما.

وهنا لا بد لسلاح البحر من أن يؤدي دوره الأول في بدء القتال. وهذا ما ميز أمريكا عن إسبانيا، فقد تضمنت قوتها التكتيكية آنذاك ثلاث بوارج متجانسة التعمير سريعة الحركة، قوية البنيان، جيدة التسليح، حملت على أسطحها (١٨) مدفعاً من عيار ٣٠٥ و ٣٤٠ و ٣٢ مدفعاً من عيار (٢١٠) و (٢٤) مدفعاً من عيار ١٥٢ و ١٢٠، إضافة إلى طرادين ثقيلين هما نيويورك وبروكلين، و (١٥) طراداً خفيفاً سريع الحركة حديث التعمير. وجميعها من ذوات الجسر المدعم، وكذلك (١٦) سفينة حربين نسافة ومدمرة ومركب مدفعية، مع ستة قاذفات طوربيد.

لم تكن قوة إسبانيا البحرية تقل شأناً عن القوة الأمريكية ففي عام (١٨٨٨) تبنى وزير الحرب بيرنغر Berenger برنامجاً ضخماً في تسليح قوى البحر، تضمن إعداد ثلاث تشكيلات بحرية لكل من فيرول Ferrol وقادرس Cadis وقرطاجنة. إلا أن الظروف المالية والاقتصادية لإسبانيا أخرت تحقيق ذلك البرنامج، وتركت إسبانيا تعتمد في قواها البحرية على سفنها القديمة التي أعيد تحديثها، أو على سفن جديدة أهمل تسليحها لنقص الإمكانات، فغدت غير قادرة على مجابهة سفن أمريكا

الحديثة الصنع والكثيفة التسليح . وبالفعل دخلت إسبانيا حربها البحرية بقوة انعدم فيها الانسجام ، فشق على قادتها قيادتها . وكانت تضم بارجة وثلاثة طرادات حديثة ، لكنها ليست بقوة مثيلاتها الأمريكيات ، مع العديد من الطرادات القديمة والنسافات وسفن الحراسة والمواكبة التي تنفع في أعمال الدورية ، وليس لها دور حقيقي في العمليات الواسعة . ويمكننا أن نخلص إلى النتيجة التالية ، وهي أن أمريكا أعدت نفسها لحرب بحرية حقيقية بالرجال والعتاد ، في حين لم تستعد إسبانيا لتلك الحرب ، لا بالرجال ولا بالعتاد .

بدا هدف الحرب الأول الاستيلاء على جزيرة كوبا ، وعن طريق البحر . وكان لا بد من تحقيق سيادة بحرية مطلقة للمنطقة ، لتأمين هذا الغزو . ولكي تحقق أمريكا تلك السيادة كان لا بد لها من تواجد أسطولين قويين ، الأول يقيم في الممر الواقع قرب قناة باهاما ، مع مفارز متقدمة في قناة لامونا ، والثاني يقيم في معبر يوكاتان . وبذلك يتم حصار الجزيرة بحراً فتفقد القوات الإسبانية قدرتها على التحرك والمناورة .

غاب عن القوة البحرية الأمريكية عنصر القيادة الحقيقي بالأميرال الاحتياطي سامبسون(١٠٦) Sampson القائد الأعلى للتشكيلات والذي كان بإمرته ستة أمراء بحر ، وعشرة قادة ، كلهم أقدم منه في السلاح . وقد أخذ يعاني من تلك العقدة ، ويشعر بأن قيادته مهزوزة ، وليست على مستوى مسؤوليته .

تنادى سكان كوبا وقد مسهم رعب شديد من غزو قريب . وطالبوا بحماية لهم أفضل . لكن السفن الصغيرة من طراز « مونيتور » لم تكن على مستوى المسؤولية ، ويحتاجون بالفعل إلى تشكيل بحري قتالي فعال .

بدأ حصار كوبا بغرض الحصار على الجزء الشمالي منها في ٢٣ نيسان ، وقد ضم الشواطىء المحصورة بين كارديناس وباهيا هولندا ، ثم امتد إلى سيانفيوغومس جنوباً ، وكان حصاراً قاسياً مرت عليه أحداث عديدة ، منها الاستيلاء على سفينة النقل الفرنسية « لافاييت » في جوار هافانا .

طال الحصار ، وطالب الرأي العام الأمريكي بعمل فعال جاد لإنهاء تلك الحرب الطويلة ، عن طريق إمداد حلفائهم على الجزيرة بالرجال والعتاد . وكادت الحكومة الأمريكية أن تحقق غزوها للجزيرة لولا ورود أنباء مقلقة ، تفيد بأن التشكيل الإسباني البحري الكبير أقلع في ٢٩ نيسان من الجزر الخضراء في المحيط الأطلسي ، وتوجه نحو بحر الآنتيل ، ويتوقع وصوله بين آونة وأخرى . وفي أثناء

ذلك وردت أنباء أخرى تفيد بأن التشكيل الأمريكي للشرق الأقصى اشتبك مع اللواء البحري الإسباني المقيم في جزائر الفيليبين ، وفي مرسى كافيت Cavite ودمره في الأول من مايس .

حاولت إسبانيا بتحركها البحري الحفاظ على بقايا إمبراطوريتها الواسعة المتداعية ، وخاصة في الجزائر المجاورة للقارة الأمريكية ، والتي تسعى أمريكا للنفوذ فيها لتكون لها بمثابة قواعد عسكرية في مسرح عملياتها الضخمة ، ولصالح تجارتها البحرية التي امتدت إلى جزائر الفيليبين ، وإلى العديد من المناطق الأخرى في العالم .

في الواقع لا يمكن توقع هجوم القوات البرية الإسبانية في الجانب المشرف على المحيط الأطلسي بل من المعقول أن تتم عمليات إنزال محدودة مثلاً على سواحل كاليفورنيا .. ولهذا السبب انصرف انتباه الأمريكين كله نحو الشواطىء الآسيوية ، وهذا ما أكده روزفلت في برقيته المشهورة التي أرسلها بتاريخ ٢٥ شباط للكومودور ديوي(١٠٧) Dewey قائد التشكيل قائلاً :

« إن مهمتكم هي في منع الإسبان من ترك الشواطىء الآسيوية ، ومنعهم أيضاً من الاعتداء على الشواطىء الفيليبينية » .

ثم أتبع ذلك ببرقية أخرى في ٢٥ نيسان تقول :

« تحركوا نحو الفيليبين على الفور ، وهاجموا الأسطول الإسباني هناك ، استولوا عليه أو دمروه بكل وسائطكم المتاحة » .

لم يتلكأ ديوي في تنفيذ الأوامر ، وهو على يقين بأن تشكيله البحري يضم أكثر القطع البحرية الحربية الأمريكية قوة وتسليحاً ، فهو يضم (٤) طرادات حديثة ، وسفينتي مدفعية ، والعديد من السفن الحربية الخفيفة المساعدة ، عليها (١٠) مدافع من عيار ٢٠٣ و (٤٣) مدفعاً من عيار ١٥٢ أو ١٢٧ .

تحرك الكومودور ديوي من خليج ميرز Mirs قرب هونغ كونغ ، بعد أن تزود بالفحم اللازم لرحلته وتوجه نحو الأرخبيل الأرجنتيني .

كان التجمع الإسباني البحري في الفيليبين يضم طرادين قديمين وفرقاطة الأميرال « زينيتا كريستينا » وطراداً كبيراً هو « الكاستيلا » Castilla ، رفعت بعض مدافعه عنه ، وربضت على اليابسة لتعزيز الدفاعات الساحلية . ونظراً لكثرة شعاب الأرخبيل الفيليبيني وصعوبة الملاحة فيه فقد قدّر

الإسبان تعذر مغامرة السفن الأمريكية في دخوله لأنه يقدم السبيل الفعال في إقامة كائن بحرية تقنص المهاجمين .

فكر الأميرال الإسباني المدافع بإنزال جنده ومدافع سفنه على البر للقتال على اليابسة ، إلا أن القائد الأعلى للتشكيل فضل إبقاء السفن مسلحة خشية لحدوث شغب . وهذا الأمر متوقع ، خصوصاً عندما ينقلب الموقف على السفن الإسبانية ، فتصبح عاجزة عن الدفاع حتى عن نفسها .

تحرك الأميرال الإسباني مونتوجو Montojo ودخل خليج مانيلا ينتظر ، ورسا أمام كافيت Cavite . وفي الليلة نفسها وصل الأمريكيون وانتظروا خارج مياه كافيت احتراساً من وجود دفاعات تحت مائية .

في الصباح وفي الساعة ٥٫٥٣ . تقدمت السفن الأمريكية برتل أحادي مقتربة من سفن إسبانيا الراسية . ولما أصبحت على مدى مرمى مدافعها أرسلت بصلياتها دون كبير عناء فأمطرت السفن الإسبانية الراسية بوابل من قذائفها .

حدث هرج ومرج بين سفن الإسبانيين ، وكانت المفاجأة كبيرة . وحاولت سفينة الأميرال الفرقاطة زينيتا كريستينا التخلي عن مرساتها ، والتقدم نحو أوليمبيا (سفينة الأميرال الأمريكية) . لكنها أصيبت واشتعلت فيها النيران ، واجتاح الماء عنابرها من كل جانب ، وقتل قائدها كادارسو Cadarso ، وجرح الأميرال ، فما كان منه إلا أن جنح بالسفينة على الشاطىء القريب ، لينقذ من بقي فيها على قيد الحياة ، وليطفىء النار المستعرة فيها .

في الثامنة صباحاً توقف القصف الأمريكي حفاظاً على الذخيرة ، بعد أن تم تدمير القوة الإسبانية . وخلال الساعتين من المعركة غرق للإسبان (١١) سفينة بين محترقة وجانحة ، وفقدوا (٣٨١) رجلاً منهم (٢٢٠) فقط من الفرقاطة كريستينا . ولم تستطع مدافع السفن الإسبانية رمي إلا (٢٠) قذيفة فقط ، جاء أثرها ضعيفاً على دروع السفن الأمريكية القوية . وكانت خسارة الأمريكيين (٥) جرحى .

لم يكن لدى الأمريكيين العدد الكافي لحفظ النظام في المنطقة التي سيستولون عليها . خصوصاً بعد أن ثار السكان الأصليون بضراوة على المستعمرين الإسبان . وهذا قد يعني خطورة على العرق الأبيض مهما كانت جنسيته .

فضل القائد الأمريكي الانتظار حتى وصول القوات البرية التي كان قد طلبها على عجل، والتي غادرت أولى طلائعها سان فرانسيسكو في ٢٤ مايس. وبقي الموقف العسكري حتى ذلك التاريخ على حاله. العلم الإسباني يخفق فوق أسوار مانيلا تحت تهديد مدافع سفن الأمريكيين.

لم يبدل الانتصار الأمريكي الكثير في الموقف الحربي العام، وخاصة على ساحة القتال الرئيسية، ولم يلعب دوره المنشود في مصير جزيرة كوبا، بل على العكس أعطاه ضجة موهومة، رفعت من معنويات المهاجمين. فاعتقد الأمريكيون بأنهم البحارة الأول، وهم الأفضل في العالم. وقد يكون ذلك نابعاً عن شدة غرور الأمريكيين. وفي كل المضامير. فهم يتصورون أنهم الشعب الأغنى والأقوى والأذكى. فعلى أثر هذا النصر المحدود امتلأت نفوس مقاتليهم بثقة لا حدود لها، بدلت فيهم تخوفات الأمس القريب، في حين غلب على شعور الإسبانيين روح فقدان الأمل، وأن موعد إنكماش إمبراطوريتهم بات وشيكا.

لم تكن القوات البحرية الإسبانية التي ألفت تشكيل الأميرال سيرفيرا[١٠٨] Cervera قوات متجانسة، بل كانت مجموعة من السفن الحربية، وصل تعدادها إلى (٤٠) قطعة بحرية، كان من بينها وحدات مختارة من أحدث الطرادات والنسافات التي أنجزها برنامج بيرينجر Berenger للتعمير البحري.

اعتقد قائد التشكيل الإسباني أنه قادر على الإقامة في قواعد جزر الآنتيل خصوصاً والبارجة فيسكايا تجوب المنطقة، وتزرع الرعب في خطوط ملاحة الأمريكيين البحرية، حيث قامت بعدة عمليات تدميرية في شمال الأطلسي. وهذا ما دفع بالقيادة الإسبانية إلى تعزيز تواجدها بنسافات حديثة عدة، لتستطيع توسيع أعمالها الحربية. لكن متابعة خطة التعزيز هذه اصطدمت وتوقفت بعامل الموقف الدولي العام الذي استنكر مثل تلك الأعمال.

طلبت إسبانيا من التعزيزات التوقف في الجزائر الخضراء (الأطلسي)، أو المتابعة، ولكن لوجهة بحر الآنتيل، للانضمام للطرادين الإسبانيين الموجودين هناك. وهكذا تكوّن تشكيل إسبانيا في بحر الآنتيل، وعلى رأسه سيرفيرا القائد الرصين الذي لا يصاب بغرور القوة الكبيرة الموضوعة تحت إمرته والذي نقل عنه قوله:

«إذا أرادوني مقاتلاً عليهم تزويدي بـ (٥٠) ألف طن من الفحم و (١٠) الآف طلقة مدفعية لاستخدمها في تدريب طواقمي الحربية».

وقيل عن الأميرال سيرفيرا إنه دوَّن أفكاره هذه في مذكرة تنبؤية تضمنت توقعات أودعها مكاناً أميناً لدى كاتب بالعدل، تحققت فيها أكثر توقعاته. وكان غرضه من هذا التدبير رفع المسؤولية عن شخصه وقيادته.

في ١٢ شباط طالب سيرفيرا بمزيد من الإمدادات، فرد عليه الوزير بيرميجو[١٠٩] Bermejo بإحصائيات غريبة بعيدة عن الواقع مدار شعارها أن التفوق العددي الإسباني خير ضمان للمعركة المقبلة، دون الأخذ باعتبار الفارق الكبير الذي يميز طواقم السفن الأمريكية عن طواقم السفن الإسبانية، من حيث التجانس والانضباط والتدريب. ورد الأميرال على وزيره بقوله:

«إن الذين هزموا آباءنا في معركة الطرف الأغر هم أنفسهم (ويعني أبناءهم)».

ثم طلب من وزيره السماح له بالحضور إلى مدريد ليشرح أفكاره، لكن طلبه رفض وأمر بالتوجه إلى الجزائر الخضراء، ينتظر فيها التعليمات ٧ نيسان التي كانت كناية عن خطة للدفاع عن بورتوريكو وجوارها.

اقترح سيرفيرا من جديد العودة بتشكيلة إلى جزر الكناري ليكون تحت غطاء أوربة المجاورة له تاركاً كوبا وجزر الآنتيل تدافع عن نفسها بنفسها.

حاز هذا الاقتراح على موافقة غالبية قادة سفنه إلا أن حكومة إسبانيا استنكرته لأنه انسحاب من المعركة وإسبانيا الإمبراطورية المترامية الأرجاء التي تفخر بفتوحاتها ومستعمراتها؛ وصوت البرلمان الإسباني على وجوب البقاء وكان ذلك تأييداً لرغبة قائد عام قوات إسبانيا في جزيرة كوبا الجنرال بلانكو Blanco الذي طالب بالدعم البحري له. وهكذا سقط اقتراح سيرفيرا أمام مجلس القادة الأمراء، وصدرت له الأوامر في ٢٣ نيسان للتوجه نحو جزر الآنتيل حيث تكون بورتوريكو محطته الأولى.

على أثر ذلك صرح سيرفيرا وبكل وضوح بقوله:

«إني ذاهب إلى المذبح وبضمير نقي مشبع بالحماسة لكني لم أفهم قرار القادة الأمراء، وكان بإمكان أي منهم الحلول مكاني».

أقلع سيرفيرا في ٢٩ نيسان، لكن نظراً لحالة سفنه الحربية غير المجهزة فقد استغرقت رحلته طويلاً، بسرعة متوسطة بين ٦ و ٧ عقد، حتى اعتقد الأمريكيون أن التشكيل الإسباني ارتد ودخل ميناء قادس.

لم تصل سيرفيرا إمدادات الفحم له كما كان متوقعاً ، فحاول التزود بتلك المادة من جزيرة المارتينيك الفرنسية دون جدوى . فاضطر للتخلي عن وجهته بورتوريكو ، وقصد جزيرة كوراسو Curacao حيث أعطاه الهولنديون هناك (٥٠٠) طن من الفحم . وعلم من الهولنديين أن الكومودور الأمريكي سامبسون Sampson يجوب سواحل بورتوريكو بانتظاره . وهذا يعني امتناع بورتوريكو عن التشكيل الإسباني . ولم يبق لسيرفيرا إلا التوجه نحو كوبا التي وصلها في ١٩ مايس ورسا بسفنه أمام سانتياغو ولم يستطع الوصول حتى هافانا لنقص في محروقاته .

تلكؤ سيرفيرا في تنقله ولد قلقاً متزايداً في أمريكا .. إذ وصلت أسماع الأمريكيين أخبار متعددة منها وصوله إلى جزر بارباد ، ثم إلى كي ويست ، وإلى سواحل مين في جوار إيكوسيا الجديدة . وخشي الأمريكيون على بارجتهم أوريغون Oregon التي كانت قد غادرت سان فرانسيسكو في ٦ آذار ، ثم غادرت الريو في ٤ مايس ، وقد تقع فريسة سهلة عند لقاء غير متعادل مع القوات البحرية الإسبانية . ولقد ازداد قلق الأمريكيين إثر وصول أنباء تحركات الأسطول الإسباني المبهمة . وسارعت قيادة البحرية بطلب تشكيل شيلي Scheley البحري ، وطلبت منه التوجه نحو الغرب ، من باب الحذر . فقام التشكيل المذكور واجتاز مضيق يوتاكان ، لكنه لم يجرؤ على البحث عن الخصم حتى وصلته أوامر سامبسون ، والتي تدعوه لدخول المعركة مع طرادات الخفر الساحلية الإسبانية .

بالعودة لسيرفيرا نجده متباطئاً في حركته لقلة وقوده . وإبان ذلك تبدلت الوزارة الإسبانية ، وجاءت الوزارة الجديدة تطلب منه التوجه لأرخبيل الفيليبين ، حيث ثورة السكان الأصليين مستعرة ، والموقف يستدعي حضوره . إلا أن بلانكو وهو القائد الأقدم رفض تنفيذ أوامر مدريد ، وأجبر سيرفيرا على البقاء في جوار كوبا . في أثناء ذلك وصل شيلي وأقام حصاره البحري حول الجزيرة ، وأُحكم هذا الحصار بقدوم سامبسون .

لقد تواقتت اللحظة الحاسمة وتركزت كل نتائج المعركة على ما سيقدمه التشكيل الإسباني ، وعلى مستقبله القتالي ، وما سيقدمه من منجزات ، خصوصاً وأن إسبانيا عاجزة عن تقديم المزيد من المعونة إلى سيرفيرا ، حتى إن الأسطول الثاني والذي بإمرة الأميرال كامارا Camara كان أسطولاً ضعيف التجهيز ليس بمستوى المهمة .

معركة سانتياغو

لجأ الاسبان إلى سانتياغو ، ورسوا بسفنهم في مياه الميناء المغلقة والمحاطة بقلاع برية عالية ،

انتشرت فيها عدة بطاريات مدفعية قديمة . ثم أقاموا حاجزاً من الألغام البحرية في مدخل القناة . ولما حضر سامبسون لم يجد طريقة أفضل له من حصار القوة الإسبانية الكبيرة داخل الميناء ، مبتعداً عن مغامرة دخوله المعبر المزروع بالألغام . وإحكاماً لحصاره سد الممر بإغراق سفينة نقل كبيرة فيه وبذلك ساعد على شل حركة الإسبان .

حاولت بعض السفن الإسبانية المحاصرة الخروج ليلاً ونجح بعضها إلا أن المحاولة لم تكن ذات نفع .

طلب سامبسون من حكومته إنجاده بقوات برية ليبدأ عملية الغزو . وبالفعل تحركت قوة مؤلفة من (١٦) ألف مقاتل محمولة على (٣٥) سفينة نقل، ونزلت على البر في موقع يدعى بيكيري Baiquiri يقع على (١٦) ميلاً شرقي سانتياغو ، ومهمة تلك القوة إقامة جسر ، ثم الزحف على القلاع المحيطة والاستيلاء عليها ، وبعدها التقدم نحو سانتياغو نفسها .

اصطدمت القوة النازلة في الأول والثاني من شهر تموز بالمقاومة الإسبانية إلى جوار الكانيه Elcaney . ولو أن سيرفيرا تدخل ببعض مدافع سفنه داعماً القوات المدافعة الإسبانية لكان قد استطاع وقف الزحف الأمريكي . إلا أن هذا الشيء لم يحدث . وتابعت القوات الأمريكية النازلة تقدمها ، ولما شارفت على سانتياغو صدرت الأوامر لسامبسون باقتحام المرفأ من البحر ، خصوصاً بعد أن بلغ مسامع القيادة الأمريكية بأن أسطول كامارا الإسباني ترك قادس في ١٧ تموز واتجه نحو بحر الآنتيل إسناداً لقوة سيرفيرا . وحتى لا يتفاقم موقف الأمريكيين في كوبا قرروا إرسال تشكيل بحري مشاغل سمي بأسطول الشرق ، وبإمرة داتسون ، ليتجه نحو أوربة ، وليقيم المتاعب في مياهها ، أو إذا دعت الضرورة يطارد تشكيل كامارا في المحيط الهندي . لكن حتى هذا القرار لم يتحقق لظهور بعض الصعوبات الفنية في اللحظات الأخيرة من بدء التنفيذ .

لم تكن القيادة الإسبانية أفضل حالاً ، إذ أصابتها بلبلة عامة في قرارات رجال السياسة فيها ، حول مصير الأسطول الإسباني المحاصر ، والإجراءات الواجب اتخاذها حيال الموقف الصعب . هل بمحاولة الخروج واقتحام الحصار ؟ أم بتدمير السفن لمنع وقوعها في أيدي الأمريكيين ؟

تُرك الأمر لبلانكو الذي قرر خروج تشكيل سيرفيرا بوحداته ، وحدد يوم (٣٠) تموز موعداً للتنفيذ طالباً من الوحدات البحرية الإسبانية اقتحام الحصار والخروج للجوء إلى سيانفييغوس Cienfuegos التي تقع على مسافة (١٥٠) ميلاً إلى الغرب من سانتياغو .

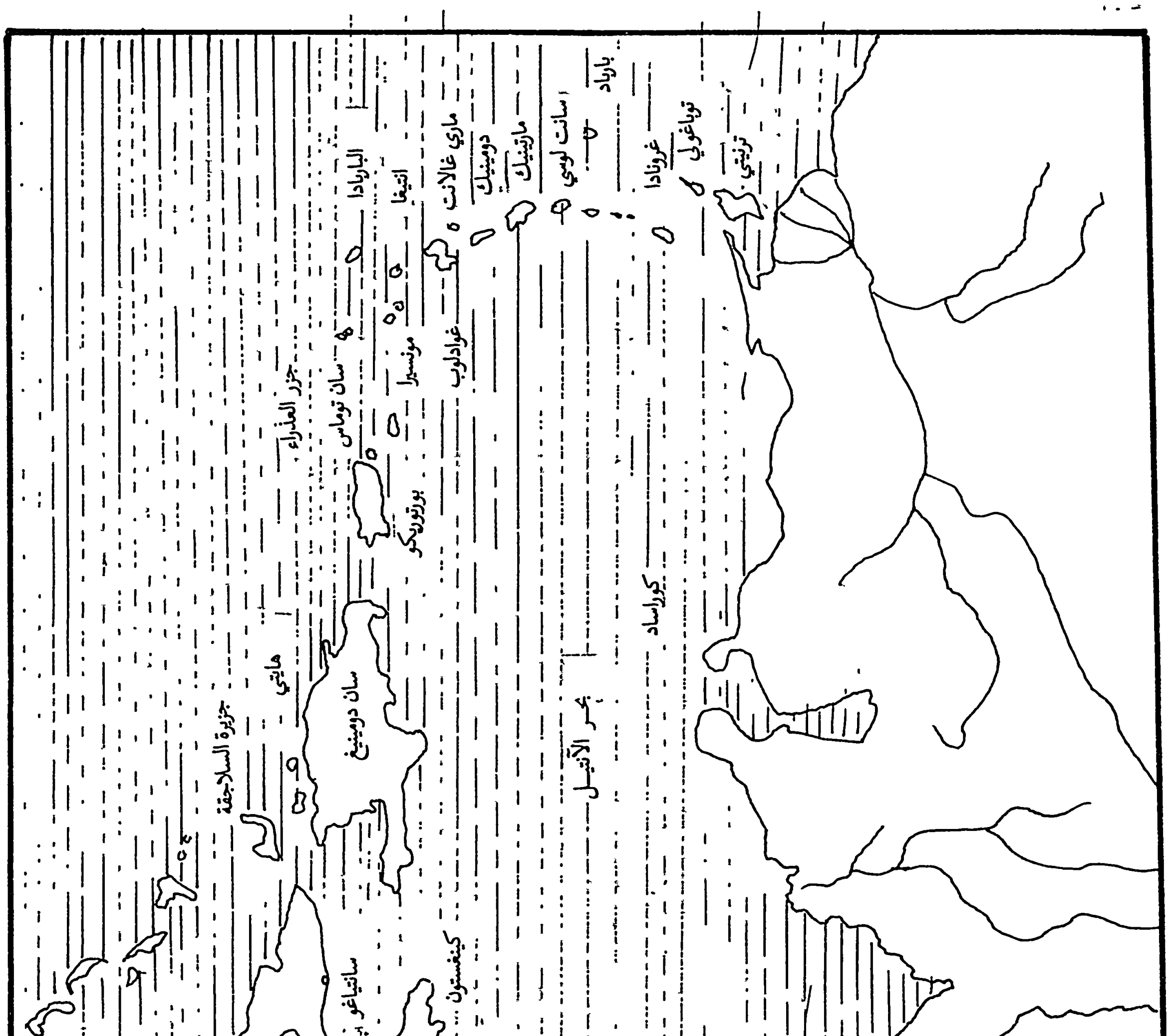
فلوريدا
كوبا
جزيرة السلاحفة
هاتي
جزر العذراء
سان توماس
سان دومينغ
بورتوريكو
سانتياغو
كينغستون
جامايك
الباربادا
انتيغا
مونسيرا
غوادلوب
ماري غالانت
دومينيك
مارتينيك
سانت لوسي
باربادا
غرونادا
توباغو
ترينتي
كوراساو
بحر الأنتيل

أخفقت خطة الإسبان ، إذ بمجرد وصول المعلومات عن تحركات سفنهم استعد الأسطول الأمريكي المحاصر للقائهم ، وفتح عليهم نيرانه الكثيفة . وكانت أولى الضحايا الآنفانتا ماريا تيريزا التي جنحت في الساعة ١٥ر١٠ على الشاطىء والنيران تحصد هيكلها ، ثم لحقتها الفيسكايا في الساعة ١٥ر١١ . وفي الساعة ٣٠ر١١ جاء دور أوكيندا التي أصيبت بدمار كامل ، بعد أن انفجرت مخازن طوربيداتها . واحترقت إضافة إلى ذلك نسافتان ، ولم ينج من المعركة إلا كولون ، التي استفادت من سرعة محركاتها ، وعبرت بسلام . إلا أن الأوريغون الأمريكية والمعروفة بسرعاتها العالية لحقت بها وأمطرتها بوابل من نيرانها ، فأصابتها بقذيفتين كبيرتين جعلت الفوضى تدب على متنها فاضطر قائدها للجنوح بها على الشاطىء ، انقاذاً للرجال . وكان ذلك على مسافة (٤٥) ميلاً من سانتياغو .

جاءت نتيجة المعركة مفجعة للإسبان فقد دمر أسطولهم ، وخسروا (٣٠٦) رجال بين قتيل وجريح ، وأسر (١٧٠) رجلاً ، فر منهم (١٠٠) على البر ، بعد الأسر ، ودمرت بوارجهم الأربع . ونسافاتهم الثلاث في حين خسر الأمريكيون قتيلاً وجريحين على ظهر البارجة بروكلين .

وأخيراً استسلمت الحامية الإسبانية البرية للقوات الزاحفة الأمريكية بعد مفاوضات شاقة وطويلة .

بالنسبة لتشكيل كامارا الذي أقلع قادماً لمساندة سيرفيرا وصل بور سعيد فتعرض هناك لمناورات تسويفيه من قبل البريطانيين أصدقاء أمريكا ، وأخروا عبوره إلى البحر الأحمر ، حتى وصلتهم أخبار تحرك أسطول واتسون Watson الأمريكي الذي مر ذكره ، والمكلف بالتوجه نحو سواحل أوربة . وهنا وصلت كامارا الأوامر بالتخلي عن التوجه إلى جزائر الفيليبين ، والعودة بسرعة إلى الشواطىء الإسبانية حتى لا تغدو تلك الشواطىء بدون دفاعات (٢٨ تموز) . ومعنى هذا ترك القوات الإسبانية في الفيليبين تعالج مشكلتها لوحدها ، حيث غزاها الجنرال ميريت Merritt ، ونزل بقوة معززة في ٤ آب وفرضى على المدافعين الاستسلام .

في بورتوريكو أنزل الأميرال سامبسون الجنرال ميلز Miles قوته في ٢٦ تموز . وتقدمت القوة الأمريكية دون مقاومة كبيرة . وهكذا تهاوت نقاط مقاومة إسبانيا ، فسارعت تطلب عبر سفير فرنسا في واشنطن فتح باب المفاوضات من موقع المغلوب . وجاءت شروط خصمهم قاسية تقضي بالتخلي عن بورتوريكو وكوبا ، وإغلاق قواعد التموين الإسبانية في جزر لادرون والفيليبين ... الخ .

وقعت في النهاية معاهدة السلام في باريس بتاريخ ١٠ كانون الأول والتي قضت على كل أمل لإسبانيا في الفيليبين نظير (٢٠) مليون دولار أمريكي، وانحسرت إسبانيا كدولة مستعمرة في تلك الأصقاع، ولم يترك لها إلا بضع جزر في أرخبيل ماريان وكارولين وبالاوس، وتخلت عنها فيما بعد لألمانيا، مقابل عدة ملايين من الماركات.

نجحت أمريكا خلال الـ (١١٣) يوم حرب مع إسبانيا في السيطرة على مياه بحر الآنتيل الذي اعتبرته دوماً ضرورة حيوية لسلامة بلادها. وحصلت كوبا على استقلالها المشروط بأحقية أمريكا في التدخل لحمايتها، عند حدوث خطر خارجي يتهددها، مع احتفاظ الولايات المتحدة بقاعدتين بحريتين في كل من غوانتانامو وباهيا هولندا.

تحرك النفوذ الأمريكي جنوباً نحو أمريكا الجنوبية والمحيط الهادي، بعد أن أمن لنفسه نقاط استناد قوية له في أمريكا الوسطى (كوبا وبورتوريكو)، وفي المحيط الهادي (جزائر الفيليبين)، حيث تنشب حرب تحريرية صعبة، تدور رحاها منذ أربع سنوات. وبلاد الفيليبين تربة خصبة وأرض مفتوحة للإدارة المحسنة الأمريكية التي قدمت تتعامل مع شعوب المنطقة، معتبرة إياها من الفئات الدنيا، مانحة السلطات المحلية قدراً محدوداً من الحكم الذاتي.

تابعت أمريكا زحفها، فاستولت على هاواي (١٨٩٨)، وعلى جزء كبير من ساموا (١٨٩٩). وامتدت ممتلكاتها في كل مكان. وأصبحت هذه الدولة الفتية إمبراطورية واسعة الأرجاء خارج حدود بلادها، تحاكي المستعمرين الأوربيين الأولين، ولكن بأسلوب متطور ذكي، رافقه تطور ضخم في الإنتاج، وفي كل المجالات الحياتية، زراعية أم صناعية. وقفزت أمريكا إلى سلم صدارة الدول المصدرة، حتى أصبحت في أعلى درجاته، وذلك بفضل ما تملكه من مواد أولية، ومن مكننة صناعية. ودخلت دوامة المستعمرين الأولين، ووقعت في مشاكل شؤون الدول الأخرى حاذية حذو أوربة، كدولة فاتحة مزاحمة بمدنية جديدة تحملها إلى العالم الخارجي. وقد وضحت معالمها على الجوار أي على البر الأمريكي الذي اعتبرته ملكاً مغلقاً للأمريكيين وحدهم، ولنشاطهم المطلق، عملاً بمبدأ مونرو التقليدي، الذي بقي غافياً زمناً طويلاً ينتظر الفرصة ليحقق نفسه بأسلوب سلمي، كما هي حال احتلال جزر الفوكلاند من قبل البريطانيين عام (١٨٤٤)، أو تدخل الفرنسيين في جزيرة روزا Rosas، أو تدخل الإسبان في كل من البيرو والتشيلي.

بعث جديد لمبدأ بلين Blaine الذي أخفق خلال مؤتمر واشنطن عام (١٨٨٠)، والذي

استيقظ من جديد بحيوية أقوى، وبتفكير شجاع، وباعتزاز وفخار بوحدة الدول الأمريكية في مؤتمرات متعاقبة، مكسيكو عام (١٩٠١)، وريو عام (١٩٠٦)، وبونس ايرس عام (١٩١٠)، فحقق برغم أنف الأمم الأوربية التقليدية منح جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية لقب عميدة الجمهوريات الأمريكية جمعاء، تمثل حقوقهم، وترعى مصالحهم، كقيِّمة عليهم، وكيلة لهم. وأقاموا في واشنطن مكتب الجمهوريات الأمريكية ليرعى مصالح كل دول أمريكا. إلا أن هذا التدبير لم يعمر طويلاً. وسرعان ما ظهر الخلاف العرقي بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، واستطاعت دول الجنوب الالتفاف حول بعضها ضمن تجمع خاص (A.B.C) بني على أساس تفاهم سياسي ضم كلاً من الأرجنتين والبرازيل والتشيلي. وهنا اضطرت الولايات المتحدة الأمريكية للتفتيش عن سياسة متجددة تعقب سياستها السابقة، فوجدت في سياسة دولارها القوى عصا كبيرة مؤدبة للشعوب الأمريكية الرافضة. وتساقطت دول أمريكا اللاتينية وأولاها المكسيك في مغريات الدولار، وجاذبية رؤوس الأموال الأمريكية. حتى وصل تورط المكسيك في دوامة الدولار بـ (١٧) ملياراً. وقد تواقت ذلك كله مع اكتشاف حقول النفط الغنية في كل من أوكلاهاما وتكساس، وامتزجت الأفكار الوطنية بالأفكار المادية، ودبت الفوضى في بلاد المكسيك الغنية، وأدى ذلك كله في النهاية إلى إنزال أمريكي في فيرا كروز (١٨١٤)، كلف يوم قتال واحد منه من الضحايا أكثر مما كلفته حرب كوبا. وابتدأت أمريكا تميط اللثام الذي حجبها طويلاً فكشفت عن دورها الصريح، وأخذت تلجأ إلى القوة في حال تعثر برامجها المخططة.

راح الأمريكيون يفتشون عن مجالات حيوية لهم لم يطرقها الغرب الأوربي من قبل. فوجدوا في الشرق الأقصى مبتغاهم. وسارعوا يحكمون سيطرتهم الاقتصادية على طرفي بلاد المحيط الهادي، وبأسلوب الباب المفتوح، ومبدأ المساواة مع الجميع كدعاة سلام بأدوات حرب. ولم يحجموا عن استخدام القوة، كما حدث في الصين عام (١٩٠٠)، برغم المقاومة الشديدة التي لقوها هناك، وبرغم مزاحمة اليابانيين لهم الذين تفاهموا مع المكسيكيين جيران الولايات المتحدة الأمريكية، فاضطروهم إلى التفكير بمزيد من الوعي. وهنا ازدادت علاقاتهم مع دول أمريكا اللاتينية تعقيداً وكلفتهم جهوداً مضنية، وحلولاً خطيرة نقلتهم لمجالات جديدة واسعة ومتشعبة. حتى أصبح السلام الأمريكي الذي نادت به الولايات المتحدة الأمريكية مطلباً وطنياً إثر أزمة قناة باناما، ومشاكل أمريكا الوسطى، هذه الأزمات التي فلقت وحدة القارة الأمريكية شرقاً وغرباً في المحيطين الأطلسي والهادي، وشمالاً وجنوباً بين الأمريكتيين وقناة باناما. فالحياد، والتعاون المشترك مطلبان حاولت معاهدة كلايتون بلور Clayton-Blower تحقيقهما عام (١٨٥٠)، إلا أن شق القناة البانامية وتحييدها لم

تقبل به أمريكا ولم تقبل بإشراف أوربة عليه، إذ إن تنفيذه من قبل الفرنسيين قد يخلق الصعاب نفسها التي حدثت في قناة السويس. وهذا ما دفع بالرئيس غرانت Grant لأن يصرح بأن:

«القناة أمريكية وعلى بر أمريكي، وستنشأ برؤوس أموال أمريكية».

وبالفعل سارعت الولايات المتحدة الأمريكية بشراء كل الحقوق الخاصة بالشركة الفرنسية، وأقامت تحكيماً دولياً تمثل بدولة كولومبيا المستقلة، والتي كانت في غمرة من الفوضى يسهل التأثير عليها، وقد تم لأمريكا ما أرادت.

وعلى أثر اغتيال رئيس الولايات المتحدة ماك كينلي عام (١٩٠١) تولى تيودور روزفلت الحكم، وقدم برنامج عمل لحكومته متناولاً سياسة بلاده الخارجية. وصرح من خلاله بالتالي:

«القضية ليست بمعرفة هل إن الولايات المتحدة الأمريكية ستلعب دوراً في الحروب الخارجية، بل بمعرفة هل ما ستلعبه سيكون جيداً أم سيئاً؟ وعلى الشعب الأمريكي بناء قوة بحرية فعالة، وإلا فعليه أن يقبل الموقع الثاني في السياسة الدولية».

وبالفعل فإمكانات الولايات المتحدة الأمريكية المتعاظمة كانت كافية وكفيلة لتحقيق آمال روزفلت وأصدقائه في الحكم. وقد لمس الجميع صحة المطلب، بعد أن أحسوا بالتهديد المباشر لبرهم، عندما اقترب الألمان من باناما وجزيرة مارغارينا، خلال أزمة فنزويلا بالذات، والتي أعقبها التهديد الياباني لنفوذهم، برغم كل المعاهدات المعقودة معهم. وأعدت الولايات المتحدة مع مطلع عام (١٩١٤) الوحدات البحرية التالية:

٣١ دارعة إضافة إلى سبع قيد التعمير.
١٥ طراداً مدرعاً.
١٥ طراداً خفيفاً.
٢١ نسافة أو مدمرة.
٦٨ نسافة صغيرة وقاذفة طوربيد.
٥٤ غواصة.

إضافة إلى أسطول ضخم من السفن المساعدة وسفن حرس الشواطىء.

إن الولايات المتحدة الأمريكية، وبدافع الحاجة، وليس بدافع الرغبة، غدت ومن خلفها دول

الأمريكتيين تجمعاً سياسياً ضخماً فاعلاً في توازن قوى العالم، يمتلك قوة بحرية ضخمة، ويستطيع أداء دوره في كل الاحتمالات التي قد تحدث في أطراف العالم.

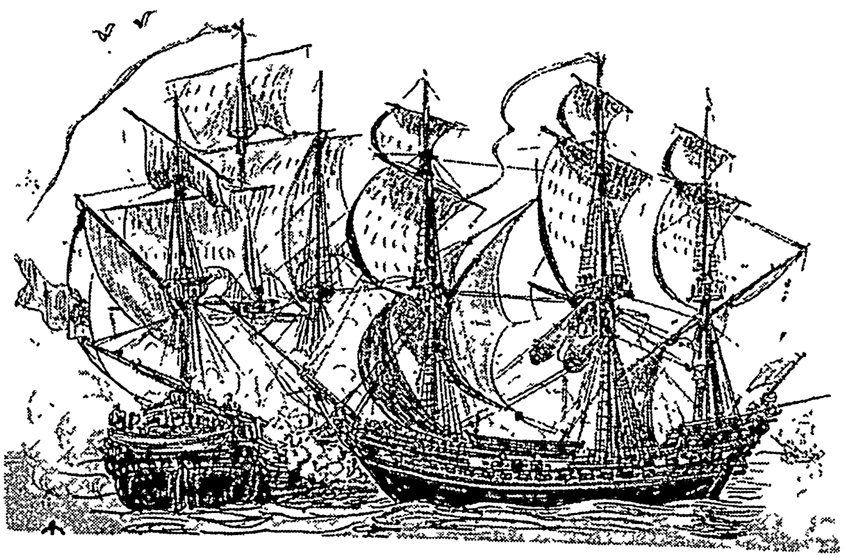

الفصـــل الثـانـي

قضـايا الشـرق الأقصـى
الحـروب الصينيـة اليابانيـة
والحـروب الروسيـة اليابانيـة

كبحت الولايات المتحدة الأمريكية التسلط الأوربي في الاستيلاء على المزيد من المستعمرات، لكنها لم تستطع تجنيب الشرق الأقصى من أطماع المستعمرين. فبريطانيا العظمى وروسيا القيصرية عمدتا دوماً إلى نقل حدودهما المتقدمة وتوسيعها نحو الشرق بأسلوب متطور جديد ساعين وراء مد إمبراطوريتهما الآسيويتين، فهددتا الصين من الجنوب ومن الشمال عبر الهند، وعبر سيبريا، حتى وصلت تشكيلاتهما البحرية سواحل الصين، تحمل الجند لتناوش عن طريق البحر، فتضغط على الحكومة الصينية، لتفتح مرافئها أمام التجارة الأوربية، فتكسب من عملها هذا قواعد استناد متقدمة، تنفعها في المزيد من التوسع، ومد النفوذ، خاصة عبر البلاد الصينية المترامية الأطراف، في مرحلة صعبة من حياة الصينيين، وفي أجواء تخلف عسكري وسياسي كبيرين.

لم تجرؤ القوى العظمى قبل عام (١٨٧٠) على احتلال أجزاء من بر الصين إلا بعد أن دخلت تلك البلاد في دور عصر الانحطاط والضعف في مؤسساتها العسكرية. وهنا تدافع المستعمرون ينهشون من أرضها الواسعة، عندما تأكد لهم التفوق عليها عسكرياً بالأسلحة الحديثة برغم وفرة عدد المدافعين الصينيين، وسعة أرضهم، وغنى بلادهم بالحضارة والتراث.

تنبه اليابانيون قبل الصينيين لجشع المستعمرين، خصوصاً عندما حاول هؤلاء المستعمرون

التعامل معهم بقسوة، وتحت تهديد مدافع الكومودور بيري Perry الذي هاجم يدو Yeddo وقصفها من البحر محاولاً فتح موانىء شيمودا Shimoda وهاكوداتي Hakodaté (معاهدة كاناغافا Canagava عام ١٨٥٤) أمام التجارة الخارجية الأمريكية، ثم اتبع ذلك كل من يوكوهاما وناغازاكي. وهنا تدافع البريطانيون والفرنسيون والروس يجنون بعض المكاسب، فحصلوا على المزايا نفسها التي حصلت عليها الولايات المتحدة الأمريكية في المرافىء الأربعة السالفة الذكر، مستخدمين الأساليب القاسية من قصف وقتل وتدمير لشعب لم يحتمل في يوم من الأيام الغريب على أرضه. وهو عريق في أصالته، حريص على تراث أجداده، مدافع شرس عن وطنه. وبالفعل تجمع المقاتلون الأشداء حول الميكادو الشاب يطالبونه بتحرير الأرض اليابانية من رجس المستعمر البغيض.

نشبت في اليابان حرب أهلية طاحنة بدأت عام (١٨٦٣) وانتهت بعد معارك دامية عام (١٨٦٨) بنصر للميكادو الفتي هيتسوهيتو Hitso-Hito الذي قاد حملة طرد الأغراب عن الجزر اليابانية. ولقد أدرك هذا القائد أن قتال المستعمرين الأوربيين قد يتطلب منه استخدام سلاحهم نفسه، وأسلوبهم نفسه. ولا بد له من تطوير قوة بلاده العسكرية ليجعلها عصرية تتناسب وإمكاناته الاقتصادية.

أمضى الميكادو وأعوانه مرحلة شاقة طويلة يقنع فيها العديد من اليابانيين بتطبيق الأساليب الأوربية العصرية. وهذا يعني التخلي عن العديد من أساليب حياتهم القديمة المحافظة. ولقد توصل بحكمة وطول أناة في إعادة سبك الشعب الياباني ببوتقة الأسلوب المعاصر المماثل للشعوب الأوربية، مع الحفاظ على الماضي العريق. ثم بنى وبسرعة قوته العسكرية والبحرية، وسلحها بأفضل سلاح.

تجاهلت أوربة طويلاً تنامي قوة اليابان الحديثة، إلا أنها اضطرت في النهاية لقبول الواقع والتعامل معها بأسلوب مختلف، ينطوي على الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة. ولقد تجاوب الشعب الياباني بكامله لتلك الخطوات الجريئة، وسمح بحرية التجارة في كل أرجاء إمبراطوريته محتفظاً لنفسه بحق تطبيق الإجراءات الجمركية المتشددة والتي تحفظ له حقوقه بمساواة كاملة بين جميع الأطراف المنتفعة. ومن هذا المنطلق الجديد استطاعت حكومة اليابان مد نشاطها الدبلوماسي الهادىء فحصلت من الروس على جزر كوريل Kouriles مقابل الجزء الخاص بها من شبه جزيرة سخالين، كما حصلت من الولايات المتحدة الامريكية ونتيجة تحكيم دولي على جزر كيو ــ كيو Kiou-Kiou المتنازع عليها مع الصين، وتوسعت اليابان وازداد ت رقعة أراضيها، وأخذت تكبر طموحاتها وأطماعها مع كبر قوتها العسكرية.

الحرب الصينية اليابانية (١٨٩٤ ــ ١٨٩٥)

كوريا هي السبب المباشر لتلك الحرب ، فمنذ العصور الوسطى واليابان تطالب بتلك الرقعة من الأرض ، والممتدة من بلاد الصين ، والمعزولة بسلاسل جبال عالية . فعلى أثر الحوادث الدامية التي دارت عام (١٨٩٠) في أرجاء بلاد كوريا ، وجد اليابانيون الفرصة مؤاتية للتدخل متسترين وراء أسباب اعتبروها موجبة . منها إنعزالية المنطقة ، ونزاعها الطويل مع الإمبراطورية الصينية المتداعية . والأهم اعتبارها امتداداً حيوياً للشعب الياباني .

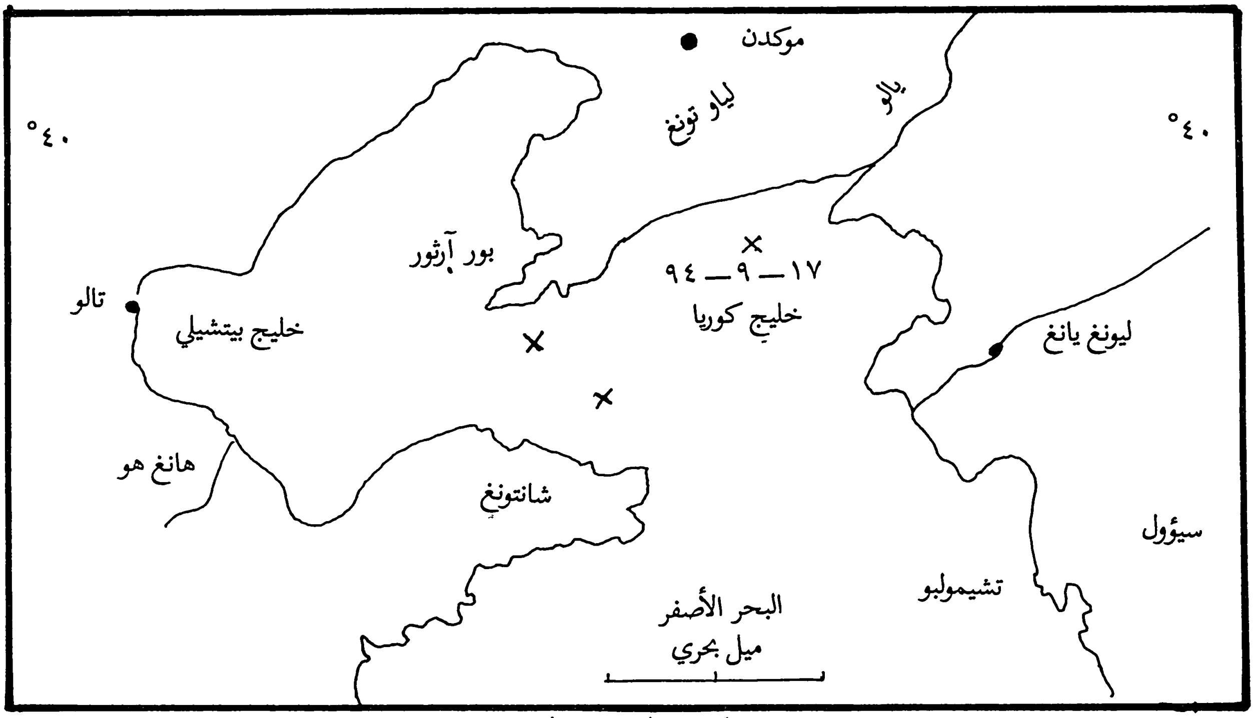

الحرب الصينية اليابانية

عرف عن الشعب الكوري كرهه الشديد لليابانيين . والتاريخ حافل بالشواهد العديدة ، ففي شهر آب من عام (١٨٧٥) هاجم الكوريون السفينة الحربية اليابانية أونيكوان Unyokwan في أثناء قيامها ببعض الأعمال الهيدروغرافية أمام تشيمولبو Tchemulpo . واعتبر اليابانيون هذا الحادث سببا وأجبروا الكوريين على عقد معاهدة كانغ هاو ٢٦ شباط (١٨٨٦) ، التي تضمنت فتح أبواب عدة مرافىء كورية أمام التجارة والملاحة اليابانية . ونجح اليابانيون في أمر أخفق فيه من قبل الفرنسيون والأمريكيون . وجاءت هذه المعاهدة بمثابة إنذار مبطن للإمبراطورية الصينية . إذ حدثت هجرة يابانية واسعة النطاق لكافة المدن الساحلية الكورية ، وللعاصمة سيؤول بالذات . وبدأت الأحداث

باشتبكات بين القادمين الجدد والشعب الأصيل الكاره للعرق الياباني ، فاضطرت اليابان لإقامة قوة عسكرية مناسبة في سيؤول لحماية رعاياها . وكان تواجد هذه القوة العسكرية بمثابة احتلال عسكري للمنطقة . إذ سرعان ما سقطت مقدرات البلاد في أيدي القوة الغازية . وعلى أثر ذلك استعرت عام (١٨٩٤) ثورة عارمة لم يجد ملك كوريا المسكين القدرة على إخمادها ، فاستنجد بجيرانه الصينيين الذين هبوا لنجدته بعامل كرههم لليابانيين . ووصلت الطلائع الصينية وبكثافة ، وأنذرت الصين الغزاة اليابانيين ، وطلبت منهم رفع أيديهم عن كوريا الدولة الجارة الرافدة للصين .

جاء الإنذار من حكومة بكين أخرق قصير النظر ، يتصف بالتبجح والرعونة ، وخرق للإتفاقية الصينية اليابانية المعقودة في تشيمولبو عام (١٨٨٥) ، والتي نصت على تعاون الطرفين في وقف الاضطرابات الكورية .

ليس اليابانيون ممّن يقبلون مثل هذا الإنذار المتعجرف . وكانت تلك فرصة لهم لاختبار قوتهم العسكرية المتنامية ، إذ سرعان ما ردوا على التبجح الصيني بإنذار وجهوه لملك كوريا يطلبون فيه رفضه للمساعدة الصينية ، واللجوء إليهم في إعادة النظام لملكه . وعندما تأخر رد الملك قلب اليابانيون نظام الحكم في كوريا ٢٣ تموز ، واعتقلوا الملك وحاشيته ثم اضطروه لإعلان الحرب على الصين ، وأجبروه على طلب المساعدة العسكرية العاجلة منهم . وبالفعل ، وفي ١ آب أعلنت الحرب الصينية اليابانية ، وبدأت قذائف المدافع تدوي في عرض بحر سواحل كوريا .

لقد سبق بدء الحرب بأيام قليلة وبالذات في ٢٥ تموز اصطدام تشكيل بحري ياباني يضم ثلاث طرادات مدعمة بإمرة الأميرال تسوبوي Tsuboï قرب آزان Asan ، إلى الجنوب من تشيمولبو بطرادين صينين ، يرافقان سفينة نقل ، على متنها قوة عسكرية محمولة ، قوامها (١١٠٠) رجل ، لإسناد القوات الكورية في جوار سيؤول .

أصيب الصينيون بمفاجأة لم يتوقعوها . وفي أقل من ساعة واحدة أعطب لهم طراد ، ففر من المعركة ، ودمر الآخر ، وأغرق اليابانيون سفينة النقل كوشينغ Kowshing ، بعد أن رفضت الحامية المحمولة الاستسلام لهم .

على أثر هذا الحادث الأليم قررت البحرية الصينية القتال ، وطلبت حكومة بكين من الأميرال تينغ Ting الاستعداد ، لكنها منعته من المغامرة ، وظهرت الصين من خلال هذا المنع وكأنها سلبية في قرارها القتالي ، وكان بإمكانها عمل الكثير ، وهي الأقرب من قواعدها البحرية ، ومن السهل عليها

جداً إقامة سيادتها البحرية على كل الجوار، مع إغلاق كل الممرات البحرية المؤدية للمرافىء الكورية، ومن ثم تستطيع نقل جندها عبر خليج بيتشيلي Petchili عوضاً عن سلوك الطريق البري الطويل المضني. وبالفعل لم يلق اليابانيون كبير عناء في قتال القوات البرية الصينية المتعبة، وانتهوا إلى نصر كبير بقيادة الماريشال ياماغاتا(١١٠) Yamagata في بينغ يانغ Ping Yang ١٦ أيلول، وبخسائر لا تذكر. وسرعان ما سيطروا على كامل شبه الجزيرة الكورية.

لمست الصين خطورة الموقف فأرسلت التعزيزات الضخمة عن طريق البحر، وأنزلتها في شمال كوريا تحت حماية أسطول الأميرال تينغ ١٧ أيلول وفي فتحة يالو Yalou.

خلال عملية الإنزال الشاقة ظهرت أدخنة سفن معادية من الأسطول الياباني في الأفق البعيد، وكانت أدخنة وحدات الأميرال ايتو(١١١) Ito الذي أوفد خصوصاً لمنع عملية إنزال الصينيين في المنطقة.

اضطربت القوة الصينية المواكبة وبادر قائدها لأخذ تشكيلة النسق باتجاه الأفق تاركاً عدة نسافات من قوته لحماية مدخل يالو، وبالتالي حماية سفن النقل القائمة بعملية إنزال الجند.

كان أصل القائد الصيني من سلاح الخيالة، وقد التحق بالقوات البحرية وهو لا يتقن قتالها، ويكره التجديد، ويحن للخطط القديمة في القتال، التي تعتمد على المواجهة الجبهية، وعلى ما يمتلكه من فوهات مدافع. في حين كان خصمه ايتو Ito بحاراً فذاً خبر ضروب القتال البحري بألوانه، وسيداً للموقف حاضراً لكل احتمالات المعركة، أعد سفنه وطواقمه إعداداً حسناً.

تمهل ايتو عند مشاهدته للصينيين يتجهون نحوه وناورهم حتى حلول الظهيرة، ثم اتخذ تشكيلة التقرب بالرتل، وقد وضع لواء الطرادات الخفيف والذي بإمرة تسوبري في المقدمة، تتبعه بوارج ايتو الضخمة.

وقع الصينيون ضحية عصبيتهم في القتال، وبادروا بفتح النار قبل أن يدركوا العدو في مدى أسلحتهم في حين لم يرد اليابانيون على النار إلا بعد أن وصلت المسافة إلى ثلاثة كيلومترات. وهنا طلب ايتو من وحداته الالتفاف بمناورة تطويق للجناح الأيمن من نسق الصينيين مع صلي القطع الصينية بوابل من الرمايات المحكمة، جعلت الفوضى تدب في صفوفهم والنيران تتصاعد في معظم سفنهم. وغدا التشكيل الصيني كقطيع غنم بلا راعٍ. وانفرط عقد التشكيل. وحين استدارت

السفن المهاجمة لتتفادى خطة التطويق. حجبت نيران بعضها عن البعض، فلم تجد مناصاً من ترك ساحة المعركة ناجية بنفسها وإفرادياً.

تعرضت البارجة اليابانية القديمة هي. يي Hi-Yei التي تركت في آخر التشكيل لضعف سرعتها (١٣) عقدة فقط مع سفينتين حربيتين قديمتين لا قدرة قتالية عالية لهما لهجوم مركز من عدة سفن صينية قوية، وكادت تصاب بالدمار لولا أن قرر قائد المجموعة خرق النسق الصيني للحاق بالقوة الضاربة اليابانية. ولم يكن هذا القرار يسيراً، فقد أصيب بإصابات فادحة. وهذا ما أجبر الأميرال ايتو على وقف عملية الالتفاف، والاسراع إلى نجدة المتخلفين من تشكيله. وانقض على السفن الصينية من الخلف، بينما كان اللواء الخفيف للأميرال تسوبري يصلي الصينيين جبهياً. ووقعت عدة وحدات صينية ضمن نيران كثيفة ومن الاتجاهات كلها، ففرت الوحدتان الصينيتيان اللتان في أقصى اليمين، واتجهتا نحو يالو والنيران مستعرة فيهما، وغرقت الأولى قبل أن تدخل الميناء، وقد أتت عليها النيران. في حين أغرق اليابانيون الثانية في اليوم التالي، بقذيفة طوربيد. وغرق للصينيين أيضاً البارجة كينغ ين، بعد أن أتت عليها النيران، وانقلبت على مجنبتها، ثم غابت في غياهب اليم وتبع ذلك الطراد الثقيل تشي بي الذي أصيب بعطب في دفة توجيهه فراح يتخبط في سيره، وهاجمه الطراد الياباني تاكاشيهو وأغرقه بصلية من مدافع مجنبته، قذفه بها على مسافة (٤٠٠) متر فقط. وبغرق هذا الطراد القوي تفرقت باقي الطرادات وأكثرها تأكله ألسنة النار. وسارع قادتها في جنحها على الشاطىء لإنقاذ الرجال. وبقيت البوارج الصينية وحدها في المعركة تتلقى رشقات مدافع اليابانيين. إلا أن شدة تصفيحها دفع عنها الكثير من الويلات، واستطاعت الصمود حتى أقبل الظلام. حتى أنها أصابت سفينة الأميرال الياباني ايتو الماتسوشيما بأعطال جسيمة، وأجبروها على ترك المعركة.

في الخامسة مساءً انسحب اليابانيون حشية نفاذ ذخائرهم، إذ توقعوا هجوماً ليلياً مضاداً من قبل الصينيين، وبوساطة قاذفات الطوربيد التي لم تشترك في المعركة، وفضلوا الابتعاد عن ساحة المعركة متجهين جنوباً.

اعتبر الصينيون انسحاب اليابانيين نصراً لهم، لأنهم بقوا سادة المنطقة، واحتفلوا في العاصمة بيكين بنصر يالو Yalou، لكن الأميرال الصيني كان أكثر الناس علماً بالهزيمة التي أصيب بها، بعد أن فقد العديد من سفنه، واضطر للجوء إلى بور آرثور، ومنه إلى ديهايوي للإصلاح. ودون أن يخرج منه ثانية. ثم جاء قصف اليابانيين ليالو لينتزع منه آخر أمل له في صراعه معهم.

دخل الأميرال الياباني ايتو خليجاً على الساحل الكوري، وأجرى لسفنه الإصلاحات اللازمة، وأعاد سفينة القيادة ماتسوشيما إلى اليابان لشدة الإضرار عليها. وبعد أن تم له إعداد تشكيله من جديد أرسل فصيلة بحرية تراقب تحركات الأسطول الصيني القابع في ديهايوي، وترك بقية قوته البحرية كوحدات إسناد لميسرة جيش الماريشال ياماغاتا Yamagata، في زحفه نحو شمال البلاد الكورية. كما قام في أثناء ذلك بمواكبة قافلة نقل الجيش الثاني الياباني التي بإمرة الجنرال اوياما(١١٢) Oyama وحمى نزولها في شبه جزيرة «لياوتونغ». هذا الجيش البري الذي احتل فيما بعد بور آرثور، وأسقط المقاومة الصينية. إلا أن سوء الأحوال الجوية، وشدة البرد القارس فيما بعد، أخر تقدم العمليات الحربية في سهول منشوريا، حيث كانت العواصف تتوالى بين رملية صيفاً، وثلجية شتاءً. وانتظر اليابانيون فصل الربيع، حتى يجهزوا على كامل المقاومة البرية.

وفي البحر حاصر الأميرال ايتو بعد إنزاله الجيش الثالث الياباني الذي كان بإمرة الجنرال كورودو Kurodo في ٢٠ كانون الثاني (١٨٩٥) الموقع الحصين في ديهايوي، والواقع إلى الشمال من شانتونغ، ليمنع الصينيين من استعادة تنظيم مقاومتهم. وشدد الحصار عليهم حتى بدء المعركة التي جاءت ضارية، حيث اشتبك المتقاتلون بالسلاح الأبيض. وهكذا سقطت القلاع الصينية الواحدة تلو الأخرى، ودخل اليابانيون المدينة في ٢ شباط عام (١٨٩٥).

استسلمت حاميات أكثر المعاقل الصينية المحيطة بشبه جزيرة لو ـ كينغ ـ تو Leu-Kung-Tau، برغم استمرار المعركة البحرية واحتدامها بين مدافع سفن اليابانيين المهاجمة، ومدافع سفن الصينيين، تساندها البطاريات الساحلية. ووجد الأميرال ايتو Ito أن عليه إزالة هذا الخطر القائم باقتحام الميناء بحراً، مستخدماً نسافاته وقاذفات طوربيده لإغراق السفن الصينية المتبقية. ولقد قام بعدة محاولات مستخدماً ظلام الليل في طقس عاصف مثلج، وكانت مهمة سفنه صعبة، لبرودة الجو، وتجمد الطوربيدات داخل أنابيب قذفها، والتي أدت إلى جرح العديد من البحارة السدنة وإيذائهم من جراء استعصاء تلك المقذوفات. وأخيراً وفي محاولته الرابعة، وكان ذلك في ٥ شباط، نجحت النسافات اليابانية في إغراق الدارعة نينغ بون، وإغراق الطراد المدرع لاي بون، وعطب الطراد الخفيف شين يون الذي غرق في التاسع منه. ولكي لا تستسلم السفن الصينية الباقية والتي ضمت قاذفات الطوربيد خرجت تقتحم سد المهاجمين ونجا منها اثنتان ودمرت وأسرت الباقي، ولم يتبقَّ للأميرال الصيني تينغ إلا بارجة وبعض السفن المساعدة التي لا قيمة حربية لها، فاستسلم في ١٢ شباط، وانتحر قبل أن تتم عملية أسره.

سقطت وي هي وي Weï-Haï-Weï ، وانتهت الحرب وضاع على الصينيين كل أمل في استعادة الدور البحري ، وأصبحت تاكو وتين تسين المدينتان المجاورتان لبكين مهددتين . وكان لا بد من صلح يوقف تدهور الموقف الصيني الصعب ، ويوقف تخوف اليابانيين على حد سواء من بعض الشائعات التي راجت ، تفيد بأن القوى الأوربية العظمى تستعد للتدخل في هذا النزاع الشرق أقصوي ، وإلى جانب الصين ، بعد أن وجدوا في اليابان الحديث غريماً صعباً ينازعهم المكاسب على كل الصعد .

بدأت المفاوضات في ٢٠ آذار في مدينة سيمونوساكي Simonosaki وقوات الماريشال ياماغاتا تتابع زحفها البطيء مقتربة من موكدن Moukden مدينة مقابر الأباطرة الأجداد .

بدت المفاوضات متباطئة . وقد لوحظ تعمد الصينيين ذلك بإيحاء من سفراء الغرب ، لعلهم يفيدون من نفاد صبر اليابانيين . لكن طوكيو تصرفت على عكس ما سعت إليه بكين ، وصدرت الأوامر القتالية مجدداً طالبة من ياماغاتا حث خطاه نحو موكدن ، كما طلبت من الأميرال ايتو إنزال الجند في كيلونغ Kelung وبيسكادور Pescadores .

في ١٧ نيسان اقتنع المفاوضون الصينيون بعدم جدوى أسلوبهم ، وخضعوا لكل طلبات اليابانيين ، وتنازلوا دون شروط عن لياو تونغ وبور آرثور وفورموزا والبيسكادور ، واعترفوا باستقلال كوريا ، ودفعوا غرامة حرب (٢٠٠) مليون تايل ، تساوي حوالي (٧٠٠) مليون فرنك ، وقبلوا عقد إتفاقية تجارية تناسب طموحات اليابان التجارية . وهكذا وأمام أعين كل القوى الغربية صعدت اليابان لمصاف القوى الكبرى المهيمنة في الشرق الأقصى والمحيط الهادي ، تسيطر على جزائر كوريل ، وجزائر ريو ــ كيو ، وجزيرة فورموزا ، وجزائر البيسكادور ، وعلى كوريا المستقلة إسمياً ، وتقيم رقابة محكمة على كل شواطىء آسيا الشرقية ، وتراقب الممرات والمعابر التي تتحكم في المحيط .

لمست روسيا جدية خطر التواجد الياباني الجديد في المنطقة ، وهي التي كانت تتطلع ، ومنذ زمن بعيد ، للسيطرة على أحد المرافىء الهامة التي استولى عليها اليابانيون ، ليكون لها بمثابة منفذ واسع وأمين على البحر المفتوح ، خصوصاً بعد أن سمحت لها معاهدة بكين عام (١٨٦٠) بحق السيطرة على القطاع الساحلي من سيبريا الشرقية ، والواقعة بين أوسوري Oussouri والبحر في ميناء فلاديفستوك (سيد الشرق) . هذا الميناء الحربي الذي بنته روسيا في خليج بطرس الأكبر ، والذي أتاح لها المزيد من الطموحات في البر الصيني ، حيث أن مياه هذا المرفأ تتجمد أكثر أشهر السنة ، ولا بد

من وجود ميناء تبادلي يقع أكثر جنوباً كميناء بور آرثور الهام، ذي الموقع الجيد على خليج بتشيلي، والذي سقط في أيدي حكام طوكيو مؤخراً.

وجدت روسيا في ألمانيا حليفاً ممتازاً بعد أن انتهت هذه الأخيرة في عهد غليوم الثاني من القضايا الأوربية، وراحت تتطلع كغيرها من الدول الاستعمارية نحو آفاق جديدة، تقيم عليها قواعد استعمارية. ووجدت في بر الصين مبتغاها متخفية وراء شعار الحد من شراهة اليابانيين. وكذلك كان الأمر بالنسبة لفرنسا، فهي حليف ثان مناسب يكره التوسع الياباني المهدد لممتلكاتها في الهند الصينية.

قبل أن تنتهي المفاوضات الصينية اليابانية في سيمونوساكي، كان الحلفاء الثلاثة روسيا ــ ألمانيا ــ فرنسا، قد استقدموا أساطيلهم المقيمة في بحر الصين ضمن المياه اليابانية، ووجهوا بتصرف جماعي إنذاراً مبطناً لليابان، سموه بالملاحظات الصديقة Observations Amicales وتضمن التالي:

إن تواجد اليابان في لياو تونغ وبور آرثور يهدد استقلال وسيادة كوريا، ويهدد حرية الحكومة الصينية، ونطالبكم باسم مصلحة السلام بإعادتها إلى الصين.

هبت الجماهير اليابانية بكل فئاتها تعترض على الإهانة التي وجهها الحلفاء الثلاثة والتي أصابت عزتهم الوطنية. وطالب المتحمسون منهم بإعلان الحرب لدرء الإهانة، الأمر الذي دعت إليه روسيا سراً، وشجعته في سبيل القضاء على القوة البحرية اليابانية المتنامية، قبل أن يفوت الأوان. وهنا تدخل الأميرال الفرنسي بومون Beaumont بما عرف عنه من حكمة وبرودة أعصاب، فاستوعب غضب الأميرال الروسي تيرتوف الجامح، وتفادى بذلك نشوب نزاع بحري مسلح، وجاءت حكمة الميكادو فساعدت الداعين للسلام في تهدئة الخواطر. وانطلاقاً من مبدأ حفظ مصالح شعبه تغاضى عن ثورة الروسي الجامحة، وقرر سلوك مبدأ التعقل. وبالفعل في ٥ مايس انحنت اليابان أمام الضغط الأوربي، وقررت إخلاء لياو تونغ وأعادته إلى الصين، لكنها لم تنس الإهانة التي جرحت كبرياءها، وتطلعت ليوم قريب تثأر فيه من روسيا صاحبة القرار. إذ بدأت تستعد وخلال عشر سنوات متعاقبة واضعة كل إمكاناتها الاقتصادية في الإعداد مادياً ومعنوياً لحرب الثأر مع روسيا، والتي اعتبرتها واقعة لا محالة.

تفجرت الأوضاع الداخلية في الصين إثر الهزيمة على أيدي اليابانيين، وغدت الإمبراطورية الصينية المترامية الأطراف فريسة سهلة لكل الطامعين من سياسيين وصناعيين وشابه حالها حال

القارة الإفريقية ، أو حال جزر المحيط الهادي . وقد تحلق حولها كل الساسة المستعمرين وأتباعهم ، ينفذون شعار تقسيم بلاد الصين .

The Break up of China

بدأ الاجتياح للبر الصيني اقتصادياً قبل أن يكون عسكرياً وأخذت الامتيازات الغربية تتوضع في كل مكان على شكل بنوك أو شركات أو احتكارات ، أو سكك حديد أو مناجم . وراحت تلك المصادر الاقتصادية تسقط من حساب الحكومة الصينية لتنقل لحساب أفراد أو تجمعات استعمارية ، عن طريق المداهنة المصحوبة بالتهديد المبطن . فكان لكل من فرنسا وألمانيا وروسيا وأمريكا وإنكلترا نصيب كبير ، تقسم فيه ثروات البلاد خلف ظاهرة نقل الحضارة ، وإيفاد البعثات والإرساليات الدينية لتطوير الشعب الصيني وتحضيره . وبدأت البنوك المشتركة تفعل فعلها في إغراق الصين بقروض لا مبرر لها ، أخذت تنتشر في أنحاء البلاد ، فولدت متاعب مالية في مشاريع إنمائية ، كان بإمكانها أن تنتظر ، كمشروع خط حديد فلاديفستوك ، عبر منشوريا وتفرعاته باتجاه موكدن وبور آرثور وبكين ، والذي حمل مع امتداده النفوذ الروسي في المنطقة باعتبار أن روسيا هي المشرفة الوحيدة على المشروع الكبير .

قلدت دول أخرى روسيا . فألمانيا لجأت لأسلوب إقامة مؤسسات احتكارية تجارية في المرافىء الصينية ، ونالت فرنسا امتياز بناء الترسانة البحرية في فو ــ تشو Fou-Tchou ، ومنه تسللت حتى يون ــ نان Yun-Nan .

لم يكتف المستعمرون بتسللهم الاقتصادي ، بل فكروا باحتلال الأرض وسيادة البلاد ، وإقامة القواعد البحرية والعسكرية ، وسن القوانين التي تخدم مصالحهم الاستعمارية ، وتتفق مع نواياهم في عمليات الاستيراد والتصدير ، وفي تحديد الرسوم الجمركية حسب أهوائهم . وبذلك خضعت لهم أجزاء من البلاد كمستعمرات منفصلة عن الوطن الأم .

سبقت ألمانيا جميع الدول الأوربية المستعمرة ، إذ استغلت مقتل اثنين من مبشريها الدينيين . وقدم أميرالهم فون ديدريش Diederichs بتشكيله البحري ، فاحتل مرفأ كياوتشو Kiaotchou الواقع في منطقة غنية بمعادنها ، وخصبة في مزروعاتها ، وقريبة من مدينة شانتونغ Chantoung .

أصيبت روسيا بغيرة شديدة من سبق الألمان وهاجمت كلاً من بور آرثور وتاليان فان Talian-Var (١٨٩٨) ، واستولت عليهما . ثم جاءت بريطانيا فوضعت يدها على وي ــ هي ــ

وي Weï-Haï-Weï ، وأخيراً فرنسا حيث استولت على خليج كوانـــغ تشو Kouang Tchou (١٧٩٨) . وبذلك أخذت الدول الاستعمارية القوية تقضم أجزاء الإمبراطورية الصينية الهرمة .

ثارت الصين على المستعمرين ، وحدثت مذابح عديدة في صفوف البيض سنة (١٩٠٠) وخاصة المسيحيين وجماعات الإرساليات الدينية ، وبعض الدبلوماسيين ، أمثال الوزير الألماني فون كيلر وكانت أزمة خطيرة للأوربيين المقيمين أشد خطراً عليهم من أزمة عام (١٨٦٠) .

تدخل اليابانيون مع جمع من المهاجرين وأعادوا الهدوء في العاصمة بكين . وقبل أن تصل التعزيزات الأوربية المشتركة ، التي بإمرة الماريشال الألماني فون والديرسي Von Walderrsee . وهدأت الثورة الصينية ، لكن ظل خطرها حاسماً على المقيمين البيض ، لأن الصين لم تكن بعد مستعدة للتجزئة أو القطاف . وفي انتظار ذلك اليوم بدت قطاعات شاسعة من أرضها مفتوحة لتوغلات جديدة أمثال مقاطعات يونان Yunan والكوانغ ـــ سي Kouang Si ، ومنشوريا ، وكوريا .

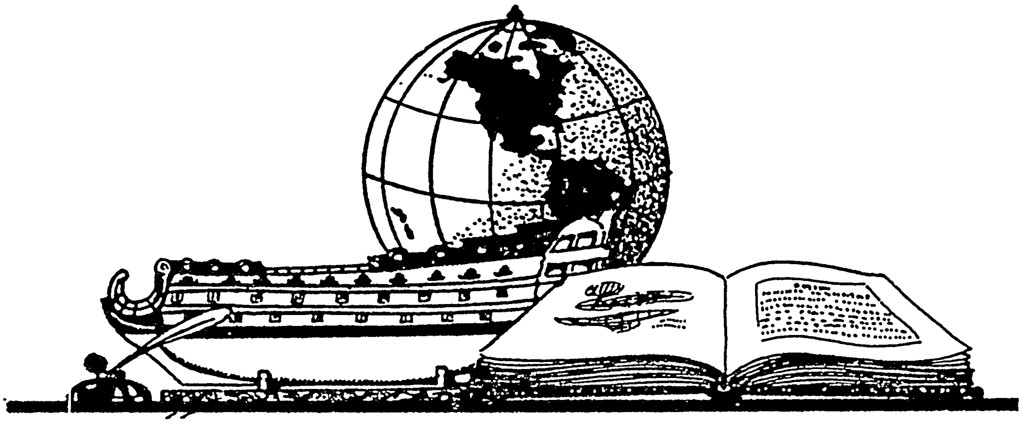

الفصـــل الثـالـث

الحـرب الروسيـة اليابانيـة
(١٩٠٤ ـــ ١٩٠٥)

أخفقت كامل قوى أوربة الاستعمارية خلال أحداث عام (١٩٠٠) في الشرق الأقصى، باستثناء روسيا التي استغلت الزمن المناسب، وجمعت قواتها أمام كل من بكين وبيتشلي، استعداداً لاجتياح منشوريا، المقاطعة الواسعة التي كانت ترى فيها روسيا مستعمرة غنية بالخيرات قليلة السكان، مواشيها عديدة، وثرواتها المعدنية وفيرة، ومدنها مزدهرة التجارة، أمثال موكدين **Moukden** وخاربين **Kharbin** وجيرين **Girin**.

إن إقامة روسيا لتواجد عسكري كبير سيسهل لها السيطرة على شبكة الخطوط الحديدية بالكامل. فمنشوريا كما روسيا مجاورة لكوريا، البلد المكتظ السكان، وذي الأهمية الاستراتيجية في بحر الصين، مقابل جزر اليابان، وبالتالي فإن التواجد الروسي في منشوريا معناه سد مجال الزحف الياباني على أرض الصين، وإبطال سيادة البحرية اليابانية في البحار المجاورة المفتوحة على المحيط. فالمجال الحيوي الياباني لهذا البلد الناهض بشعبه الناشط بحيويته لن يكون إلا على البر الكوري مطمح اليابانيين منذ الأجداد. وهنا لا بد من تضارب مصالح البلدين روسيا واليابان في سهول منشوريا، وفي السواحل الكورية، لعدة أسباب جوهرية نذكر أهمها:

ـــ الاستيلاء على أراضٍ جديدة ضرورية لزراعة الأرز، القوت اليومي والأساسي لشعوب العرق الأصفر.

ـ إيجاد مجال للتزايد السكاني المتفجر في الجزر اليابانية الصغيرة والعاجزة عن استيعاب هذا التضخم البشري ، عن طريق تخطي الحدود والوثوب إلى البر الصيني الشاسع لحل الأزمات السكانية والحياتية .

التوسع الاستراتيجي لليابان مطلب وطني ، بعد أن وصل تهديد القوى العظمى حتى عقر دارها ، وروسيا أول المهددين ، وهي البلد الذي كرهه الشعب الياباني ، وكره أسلوب تعامله القيصري .

إن سبع سنوات من الإعداد العسكري الدقيق جعلت من اليابان قوة قادرة على منازلة دولة روسيا القيصرية ، خصوصاً بعد أن تلقت دعماً من قوى عالمية أخرى . فحنيما تحركت روسيا في منشوريا ، أغضبت الولايات المتحدة الأمريكية ، البلد المنادي دوماً بالمرافىء المفتوحة أمام التجارة العالمية .

ولما شعرت روسيا تبليد الغيوم حولها سارعت تخطب ود الصين ، وعقدت اتفاقاً معها عام (١٩٠٢) ، وقد تعهدت فيه بإخلاء منشوريا تدريجياً ، وخلال (١٨) شهراً . وكانت ترمي من وراء ذلك إلى خداع التقارب الأمريكي الإنكليزي الياباني . إلا أن هذا التعهد بقي حبراً على ورق ، بل على العكس زاد نفوذ الروس رسوخاً ، واستمرت قواتهم في تحصين تمركزها على البر المنشوري . ولكي تعطي روسيا لوجودها صدى رسمياً في الأوساط الدولية ، رفعت من شأن مسؤوليها أمام السكان المحليين ، وأصدرت قراراً قيصرياً عام (١٩٠١) ربطت به كل المناطق المتواجدة فيها بإمرة نائب الأميرال اليكسيف[١١٣] **Alexeiff** . وأصبح يطلق عليه في الصحف الروسية لقب نائب القيصر في الشرق الأقصى ، وكذلك كان الشأن في المناطق الكورية .. ثم راحت تبدل في تسميات المرافىء وتعطيها أسماءً روسية ، كمرفأ نيقولا مثلاً ـ وكل تلك الدلائل تشير إلى أطماع روسيا في المنطقة ، خصوصاً بعد أن أخذت تقتطع مسافات واسعة من منشوريا وكوريا ، لتضمها إلى بلادها الواسعة ، برغم تعارض ذلك مع الاتفاقات الدولية القائمة آنذاك .

لمست اليابان التهديد الصريح لمصالحها ، فحاولت جاهدة معالجته دبلوماسياً . لكنها لم تنجح ، خصوصاً وروسيا لم تخل منشوريا في الوقت المحدد . فقام البارون كومورا **Komura** وزير خارجية اليابان بتقديم اقتراح في سان بطرسبرج يعترف فيه الطرفان الروسي والياباني بمصالحهما المشتركة في كل من منشوريا وكوريا ، مع المحافظة على احترام السلطتين الشرعيتين في كل من سيؤول وبكين ، والتعهد بالحفاظ على المساواة والعدل في المعاملات التجارية ، ولكل الدول . إلا أن روسيا

رفضت العرض الياباني، وماطلت في المفاوضات، بغية كسب الوقت لمزيد من الإعداد العسكري في منشوريا. وفي ٣ تشرين الأول قدمت روسيا ردها الرافض، والذي لا ينسجم مطلقاً مع مقترحات اليابانيين. وطالبت بإقامة شريط محايد في كوريا. وعند خط العرض ٣١° شمالاً، مبعدة كل منشوريا عن مصلحة اليابانيين. وبرغم ذلك استمرت المفاوضات طويلاً، وروسيا تحشد القوات حول موكدين براً، ثم تستقدم القوات البحرية الإضافية إلى بور آرثور بحراً.

مل الشعب الياباني مماطلات روسيا، وطالب حكومته بإعلان الحرب، بعد أن فقد كل أمل في حل سلمي.

استدعى الميكادو ٥ شباط (١٩٠٤) سفيره في سان بطرسبرج، وكان ذلك معناه قطع العلاقات، واختيار الحل القتالي. ثم قرر مع أركان حكومته أخذ باب المبادهة بالسيطرة على البحر، وفرض السيادة عليه، لأنه المجال الوحيد في الانتقال إلى البر الصيني، ولا بد والحالة هذه من تحقيق نصر بحري كبير، يقطع كل السبل أمام البحرية الروسية.

ــ امتلكت اليابان قبل نشوب القتال القوات البحرية التالية:

(١٢) قطعة بحرية كبيرة متجانسة قوية وحديثة، من نوع عمارة منها (٦) بوارج بوزن ١٢ إلى ١٥ ألف طن وبسرعة (١٩) عقدة و (٦) طرادات ثقيلة بوزن ٩ إلى ١٢ ألف طن وبسرعة (٢٠) عقدة مجهزة بأسلحة ثقيلة توازي أسلحة السفن الروسية الضخمة. ويضاف إلى ذلك لواءان من الطرادات الخفيفة السريعة، و (١٦) نسافة، و (١٦) سفينة قاذفة طوربيد. وقد وزعت كل تلك الوحدات ضمن تشكيلين تكتيكيين متجانسي القوة قادرين على القيام بكل المهام المتوقعة. وقد احتفظ اليابانيون بتشكيل ثالث لم يأت ذكره أعلاه، اعتبر احتياطياً ولحماية الجزر اليابانية ومياهها الإقليمية، وكان يضم السفن الحربية الأقل حداثة، والتي لازالت ذات قيم تعبوية عالية قادرة على القتال والمنازلة من ضمنها ثلاث عمارات قوية.

اتصف رجال أركان حرب وطواقم الوحدات البحرية اليابانية والذين كانوا بإمرة الأميرال توغو Togo «القائد العام» بالانضباط والمقدرة، وقائدهم توغو رجل شجاع رغم تردده في بعض المواقف التي تطلبت منه الجرأة فأحجم عن تنفيذها، إلا أنه بطل في ساحة الوغى، سريع البديهة، عبقري كنلسن في إعداد وتحقيق المعركة ضمن الظروف الاستراتيجية المتغيرة، وقد اتصف بفكر خلاق صادق التصور. وكان هذا القائد مخزناً من الطاقة مع تصميم على النصر وذكاء خارق، وقد استطاع

قيادة رجاله في مواقف شديدة الصعوبة ، رغم أن العديد منهم كانوا أقدم منه في السلاح دون أن يدع لهم أي فرصة لنقد تصرفاته ، مانحهم ثقته ومحملهم مسؤولياتهم كاملة .. وهذه دلالة واضحة عن شدة تمرسه في شؤون القتال . ومن أمراء البحر الذين في أمرته الأميرال كاميمورا Kamimoura قائد وحدات الطرادات الثقيلة المدرعة ، والأميرال كاتاوكا Kataoka قائد المجموعة الثانية ، وأميري البحر ديوا Dewa وايريو Uryu قائدي مجموعات الطرادات الخفيفة .

كان التشكيل القتالي بالفعل « قادة أخوة » خلفهم طواقم من الجند مدربة ، توحدهم عظمة المنشأ والفخر في التراث مع وطنية جامحة تنشد الموت في سبيل الإمبراطور ، وكأن ذلك ارث وطني للشعب الياباني يتداولونه جيلاً بعد جيل مع كره شديد للروس الذين يمثلون بالنسبة لهم الأجنبي الدخيل والبربري الغربي عدو العرق الأصفر .

كانت القوة البحرية الروسية كبيرة لكنها لم تكن تعرف قدر المعرفة قوة عدوها واستعداده ، واعتمدت على التحصينات البرية في مرفأ بور آرثور ، وعززت تشكيل الشرق الأقصى بإلحاق عدة سفن كبيرة أتت بها من تشكيل بحر البلطيق .

ضمت القوة البحرية الروسية عند بدء العمليات الوحدات التالية :

(٧) بوارج جديدة أقل وزناً وسرعة من مثيلاتها اليابانيات (١٠ إلى ١٢ ألف طن وسرعة ١٧ عقدة) .

(١٤) طراداً ثقيلاً أربعة منها طرادات مدرعة .

(٩) سفن مدفعية .

(٢٥) نسافة وسفينة قاذفة طوربيد ، وعدة سفن زراعة للألغام . والقوة كما يظهر تساوي عددياً قوة الخصم ، لكنها تتخلف عنها في القيمة القتالية ، مع وجود سوء تفاهم ملحوظ بين القادة ، وتقاعس في تأهيل الطواقم القتالية .

في السادس من شهر شباط وقبل إعلان الحرب بأيام أقلع الأميرال توغو باتجاه بور آرثور ، وكان يبغي مفاجأة الأسطول الروسي ليلاً ، وهو في مرساه في الميناء الخارجي ، لينزل به ضربة قاصمة ، قبل أن ينتقل هذا الأخير إلى دور القتال الفعلي . وبذلك يحقق عنصر التفوق البحري المستقبلي الضروري لصالح عمليات إنزال الجند على السواحل الكورية والسواحل الصينية .

تقدم أسطول توغو بتشكيلة منضمة، وأرسل الأميرال أوريو على رأس مجموعة خفيفة ضمت عدة طرادات ونسافات لمهاجمة مرفأ تشيمولبو، وتدمير تحصينات الروس البرية التي كانت متهيئة لعمليات إنزال القوات اليابانية المحمولة بأمان.

وفي ٨ شباط، وفي السادسة مساءً وصل توغو لمسافة (٤٠) ميلاً إلى الشرق من ميناء بور آرتور، قبل الجزيرة المستديرة. وهناك أرسل قاذفات طوربيده بهجوم مفاجىء على السفن الروسية الراسية. وكانت مفاجأة إذ حسب الروس أن السفن المقتربة هي سفنهم التي كانت بمهمة دورية في عرض البحر لصالح الإنذار البعيد.

فوجئت السفن الروسية وهي في حالة راحة والمراجل بضغط بخاري منخفض، وشبكات حماية أجسام السفن غير مثبتة (شبكات لمنع وصول الطوربيدات والضفادع البشرية وتنصب أحياناً درءاً للأخطار) فكانت فريسة سهلة عاجزة أمام طوربيدات اليابانيين.

وقرابة منتصف الليل أيقظت الانفجارات الروس من سباتهم، وحدث هرج ومرج وفوضى لا يمكن وصفها. وكانت السفن المهاجمة اليابانية قد استغلت الظلام الكثيف، وقذفت حوالي عشرين طوربيداً ثلاثة منها أصابت وأعطبت البارجتين الحديثتين سيزاروفيتش Cesarowitch وريتفيزان Retvizan والطراد المدرع بالادا Pallada. وعلى الأثر انسحب المهاجمون دون أن يصابون بأية طلقة من طلقات المدافع الروسية الصادرة عن سفن مدفعيتهم. وقد جاءت الخسائر قليلة بنسبة لما توقعه توغو، لكن أثرها المعنوي كان كبيراً. وحملت أجهزة الاعلام العالمية الخبر على أنه نجاح كبير. إذ استطاع اليابانيون وفي لحظات إخراج أفضل ثلاث سفن روسية من مجموعة بور آرثور، مع إحباط حاد في معنويات البحارة الروس.

حاول توغو إعادة الكرة في ٩ شباط لكنه قوبل بنيران غزيرة من السفن والمواقع الساحلية الروسية، فتراجع دون أي مكسب سوى أن القوة الروسية لم تعد قادرة على الخروج لمقاتلة اليابانيين في عرض البحر، أو إزعاجهم في عملية إنزال جيوشهم على البر الكوري.

بدأ الإنزال الياباني منذ الثامن من شباط في جوار تشيمولبو بحماية طرادات الأميرال ايديو، دون أن تستطيع البارجتان الروسيتان فارياغ Varyag والكوريتس Koreetz المحصورتان داخل الميناء من التدخل نظراً للتفوق الياباني العددي بنسبة خمسة إلى واحد. إلا أنهما زجتا في المعركة بعد ظهر اليوم

التاسع من شباط ، وبعد أن أصبح اليابانيون في كل مكان على البر . وقاتلتا بضراوة وبطولة في معركة غير متكافئة . ولما شعرتا بقرب استسلامهما أغرقتا نفسيهما حتى لا تقعا في أيدي اليابانيين .

حصار مجموعة بور آرثور

بفضل التفوق العددي للأميرال توغو انتزع من الروس نصرين متعاقبين ، واتجه نحو حصار القوة الروسية الراسية في ميناء بور آرثور ، دون أن يخشى خرق الروس لطوق حصاره .

إلا أن شهر شباط هو شهر البرد القارس في النصف الشمالي من الكرة الأرضية . فبحره عاتي الموج ، وأجواؤه عاصفة مثلجة ، وحصار بحري على عمق (٦٠) ميلاً من المرسى تجربة مرة محفوفة بالأخطار لأسطول كأسطول توغو الكبير . وبالفعل تخلى الأميرال الياباني عن فكرة الحصار الفعلي ، واكتفى بإسناد مهمة المراقبة لوحدات الروس ، ببعض الطرادات الخفيفة التي كانت تستبدل تباعاً . ولجأ بوحداته البحرية الأخرى إلى الساحل الشمالي الغربي من البر الكوري ، وتجمع هناك بحماية القوات اليابانية البرية المحتلة للمشارف مستعداً للإقلاع ، وملاقاة أسطول بور آرثور الروسي عند أول إشارة ترده من سفن دورياته ، وفيما لو حاول الأسطول الروسي الخروج إلى عرض البحر .

لم يتوقف توغو عن العمليات الحربية خلال الفترة السابقة ، بل تابع حملاته المزعجة المفاجئة بهجمات متكررة على السفن الراسية الروسية . واستطاع إغراق المزيد منها . وكانت غايته الأولى تحطيم معنويات رجال البحر الروس ، لكي يمنع عنهم كل أمل في الخروج . وأغرق سفناً محملة بمواد ثقيلة لسد المعبر الواقع بين ذنب النمر وجبل الذهب (ممر مائي ضيق للميناء) ، وترك لنفسه معبراً بعمق ستة أمتار فقط في فترة مرحلة الجزر ليستخدمه عند الحاجة .

خمس محاولات فاشلة قامت بها النسافات اليابانية بإسناد من مدفعية البوارج والدارعات في الأشهر الواقعة بين شباط ومايس دون جدوى . وحاول الأميرال توغو دفع بعض البخاريات إلى داخل الميناء كطعم يكتشف بوساطته قوة دفاعات الخصم الروسي البرية عند فتحها للنيران .

أسندت الإدارة الروسية قيادة أسطول بور آرثور إلى الأميرال الشهير ماكاروف Makaroff القائد الشجاع المعروف بسعة اطلاعه وقوة تصميمه حتى درجة العناد ، وهو محبوب من رؤسائه ، مطاع من مرؤوسيه ، فكان الرجل المنتظر . إذ أعاد إلى التشكيل البحري حيويته بحركة دناميكية متواصلة ، مبتدئاً في إصلاح البارجتين سيزاروفيتش والريتفيزان . ثم باشر تنفيذ خطة تدريب متكاملة

وجميع المستويات، ونظف معبر الميناء، وخرج بالوحدات في تدريبات عملية جماعية، الغاية منها رفع القدرة القتالية للسفن. لكن القدر لم يمهله طويلاً، وانفجرت بارجته بيتروبافلوسك Petropavlosk صباح يوم ١٣ نيسان، وهي عائدة إلى الميناء مصطدمة بلغم طاف ياباني، وانفجرت الطوربيدات الموجودة على ظهر السفينة، وتبعتها المراجل ومستودعات البارود، وانشطرت البارجة شطرين، وغرقت خلال ثوان قليلة حاملة معها الأميرال الروسي الكبير و (٦٠٠) من رجال سفينته. وكانت كارثة لأسطول بور آرثور مادية ومعنوية. وقد وصف شاهد عيان أثر الكارثة على رجال البحر فقال:

الكل في أبراج مدافعهم مشدوهون أصيبوا بصدمة مؤلمة برغم كونهم في غمرة العمل اليومي، فالبعض صلّى والبضع الآخر بكى، وآخرون سقطوا غائبين عن الوعي حسرة على الأميرال العظيم، وعلى رفاق السلاح. وقيل إن الدوق الكبير بوريس Boris الموجود في موقع على الجبل الذهبي سقط في غيبوبة إثر تلقيه خبر الحادث الأليم.

استغل اليابانيون الجمود الذي أصاب الروس بعد ١٣ نيسان وسارعوا في إنزال الجيش الثاني الذي بإمرة الجنرال أوكو Oku، في خليج ين تاي Yen-Taï، وعلى (٢٣) ميلاً إلى الشمال من تاليان فان Talien Wan. وكان لا بد لهم من تجميد السفن الروسية في مواقعها، فشددوا الرقابة عليها. واضطر الأميرال توغو للتخلي عن مرساه في المياه الكورية، وقدم فأقام قاعدة عمليات متقدمة له، ضمت كل الوسائط التموينية في جزر آليوت Elliot التي لا تبعد أكثر من (٦٠) ميلاً عن مسرح العمليات (أي أربع ساعات بحراً). وحقق بذلك حصار الأسطول الروسي من جديد وبقوات أكثر عدداً. ونجح في ليل ٢ ـــ ٣ مايس ومع بداية عاصفة بحرية بسد الثغرات في المعبر الوحيد ليجعل حركة المغادرة للسفن الروسية صعبة ودقيقة، وتستغرق وقتاً أطول. وبذلك أمن لنفسه الوقت اللازم لتحركه في جزر اليوت في الوقت المناسب.

في ليل ١٤ ـــ ١٥ أصيب اليابانيون بكارثة إثر ضباب كثيف واصطدم طرادهم المدرع كاسوغا Kassugo بالطراد يوشينو Yoshino فأغرقه. وفي اليوم التالي انفجرت البارجة هاتسوس Hatsuse وغرقت ولحقتها ياشيما Yashima، برغم الجهود الكبيرة التي بذلت لإنقاذها واضطر الأميرال توغو لاتخاذ تدابير وقائية جديدة لحماية ما تبقى له من سفنه.

•

نزل الجيش الثاني الياباني في ين تاي Yen-Taï في النصف الأول من شهر مايس. وتقدم نحو

مشارف بور آرثور محتلاً دالني Dalny وخليج تاليان ــ فان Talien-Van . ثم عزز هذا الجيش بالجيش الياباني الثالث بإمرة الجنرال نوغي Nogi الذي قدم ليحث الخطا في هجومه لحصار القلاع الساحلية .

اضطربت الحكومة الروسية لهذا التغيير المفاجىء على الساحة القتالية ، وخشيت اتساع الاضطرابات المحلية في المقاطعات المحتلة ، فطلبت من الجنرال كوروباتكين Kouropatkine ، برغم ضعف قوات روسيا في منشوريا ، القيام بهجوم مضاد لينقذ بور آرثور وجواره ، إلا أن نتائج معركة فافنغو Vafangou المخيبة للآمال زادت من حده حصار اليابانيين للمدينة وبين ٢٦ و ٣١ تموز وقعت معارك عدة بين الطرفين انتهت بسقوط آخر الدفاعات عن المدينة .

حاول الأسطول الروسي في أثناء ذلك منازلة اليابانيين للسيطرة على المعبر . وخاض معركة حاسمة حاول من خلالها النفوذ من الحصار المضروب حوله ، للتوجه إلى فلاديفستوك ليلاً ، خلال ضباب كثيف ، وجرت المحاولة على النحو التالي :

قاد الأميرال وايتفت Whiteft خليفة ماكاروف خرق الحصار ، الحصار المضروب حوله تنفيذاً لأوامر نائب الملك الروسي اليكسييف ، وخلال عملية الخرق شاهد على ثمانية أميال وحدات الأسطول الياباني تستعد لسد الطريق عليه ، فاضطر للاستدارة والعودة ودخول مرفأ بور آرثور ثانية دون أن يطلق قذيفة واحدة .

إن انسحاب وايتفت السريع من المعركة خيب آمال الروس ، وجعلهم يبدون غير مصممين على القتال . لكن الأميرال الياباني توغو ظل متحفزاً يرقب عن كثب أية محاولة جديدة . وعزز رقابته البحرية ليلاً ونهاراً . ولم يخب توقعه . ففي ١٠ آب أعاد الأميرال الروسي الكرة ، بناء على أوامر مشددة صادرة عن موسكو ، وأقلع ليلاً ليجتاز المعبر مع أول ضوء النهار ، مستبقاً اليابانيين بساعات عدة . إلا أنه أضاع أكثر من ساعتين وراء السفن الكاسحة للألغام التي تقدمته تنظف له خط سيره . وبالفعل لم تبدأ رحلة التشكيل الروسي بالسرعة الكلية إلا بعد العاشرة صباحاً .

معركة البحر الأصفر

خرج الأسطول الروسي بتشكيلة الرتلين ، وقد تضمن الرتل اليميني البوارج الست ، بعد أن تم إصلاح كل من سيزاروفيتش وريتفيزان وبوبيدا ، إضافة إلى الطرادات اسكولد Askold وبالادا

Pallada وديانا Diana ، في حين ضم الرتل اليساري الطراد نوفيك Novik مع ثماني سفن قاذفة للطوربيد .

في الساعة ١٢٫٣٠ ، وعلى خمسين ميلاً إلى الشمال الغرب من رأس سانتونغ ، تقابل الخصمان في فرصة غير متوقعة ، انتظرها الفريقان بفارغ صبر ، ليتخلصا من أشهر المعاناة الطويلة ، منذ شهر شباط المنصرم .

أشعر الأميرال توغو ببرقية عاجلة عن خروج الروس ، فأقلع على الفور بالقوات التي كانت آنذاك بحوزته (٤) بوارج . وتقدم بسرعة وشجاعة يقطع طريق فلاديفستوك ، دون أن ينتظر عودة باقي وحداته المقاتلة بمهام قتالية بعيدة عن ساحة العمليات . ولو ان الأميرال الروسي استغل فرصة تفوّقه العددي الكبير لحقق نصراً أكيداً على اليابانيين ، وغير مجرى أحداث العمليات في المنطقة . إلا أن التزامه جانب الحذر معتقداً بأن المعركة البحرية قد تمتد حتى وصول باقي المجموعات اليابانية ، وبالتالي سيبعده هذا عن هدف إقلاعه الأساسي ، وهو دخول الميناء الروسي . لذلك فضل التفريط بنصر أكيد في سبيل النجاة بكل سفنه . وبالفعل هذا ما كان يتمناه الأميرال الياباني المصمم على مداعبة الروس عن بعد ، بمعركة مشاغلة بالمدفعية ، تستغرق الزمن اللازم لوصول كامل قواته . وهنا سيستدرج خصمه إلى عرض البحر ليخوض معه معركة غير متكافئة .

اقتصر نشاط التشكيلين المتعاديين خلال ساعات الظهر الأولى على المرور متوازيين ، وجهتهما الجنوب ، واليابانيون يتقدمون قليلاً على ميمنة الروس . وكانت السفن المتقابلة تتبادل صليات مدافعها ، وعلى مسافات بعيدة من ٨ إلى ١١ كيلومتر دون أي أثر تدميري لها .

في الساعة ١٥٫٢٠ توقف الروس عن الرمي بعد أن لمسوا عدم جدوى رماياتهم وكانت المجموعات اليابانية الأخرى والتي استدعاها توغو لترد ساحة المعركة قد بدأت في الوصول ، عدا مجموعة طرادات كاميمورا التي كانت في مهمة خاصة أمام فلاديفستوك .

في الساعة ١٧٫٣٠ بدأ القصف المدفعي الياباني من جديد ، وعلى مسافة (٧ إلى ٨) كيلومترات . وكان ذلك إيذاناً بالهجوم ، ولكن بتحفظ ، وعلى مسافات لا زالت بعيدة نسبياً . وقد وجّه اليابانيون نيران مدافعهم على العديد من السفن الروسية ، فأخفقوا في إحداث إصابات مميتة لعدم تركيزهم على أهداف معينة تخرج نهائياً من المعركة .

كاد الظلام يعم دون أن يحرز فريق على فريق نصراً ، لولا تدخل القدر في الساعة ١٧٫٤٥ ،

إذ أصيب الأميرال ويتفيت إصابة قاتلة على البارجة سيزاروفيتش . وكان من الواجب انتقال القيادة إلى الأميرال أوشتومسكي Ouchtomskuy المقيم على البيريزفيت Peresviet ، لو أن غرفة الإشارة في البارجة سيزار وفيتش سلمت .

بقيت سفينة الأميرال السيزاروفيتش تقود الرتل وهي بلا قائد . وفي الساعة ١٢ر١٨ أصيبت بقذيفة أخرى ، أصابت العديد من أركان القيادة ، وقتلت ربان البارجة نفسه ، ورجل الدفة الذي مات ووجهة سفينته إلى أقصى اليسار . وأخذت السيزاروفيتش تنحل بمسار دائروي ناشرة الفوضى داخل التشكيل الذي سارعت وحداته بالابتعاد منتشرة خشية اصطدامها بالبارجة المنكوبة ، ودون أن يفكر أحد بالتدخل لحمايتها من نيران اليابانيين ، عدا السفينة المرافقة لها الريتفيزان التي هبت تنجدها فاتحة أقصى سرعة لها ، واتجهت نحو الرتل الياباني معترضة ، ترشقه بمدافعها وعلى مسافة (٣٢٠٠) متر فقط فأصابت البارجة اليابانية ميكازا Mikasa إلا أنها أصيبت هي بدورها ، وشب على متنها حريق اضطرها للعودة منسحبة من ساحة المعركة .

في خضم فوضى القتال علم الأميرال أوشتومسكي بموت أميراله فاستلم القيادة في ظروف قتالية سيئة ، وهو المعروف عنه شدة خجله ، وعجزه في الأزمات ، خصوصاً وظروفه في غير ما يشتهي والسفن مبعثرة مشتتة أمام عدو منظم قدم ليسد المنافذ على الروس وليقاتلهم بتشكيلة قتالية منضمة .

لم يجهد الأميرال القائد الجديد نفسه في إعادة النظام داخل صفوف وحداته ، بل لجأ إلى سحب إشارة مرئية على أعلى الصاري ، يطلب من الجميع اللحاق به ووضع وجهة سفينته مرفأ بور آرثور ثانية .

جاءت الإشارة المرفوعة ملبية لرغبة أكثر قادة الوحدات الروسية . إذ سرعان ما لحقوا بأميرالهم الجديد ، وانتظموا برتل ضم كل من بوبيدا وبولتافا وسيباستيبول وريتفيزان وبالادا وعدة نسافات ، تحت وابل من صليات مدافع بوارج اليابانيين التي لاحقتهم ليلاً وحتى مشارف بور آرثور . وتخلفت اسكولد والتي على متنها نائب الأميرال ريتزنشتن Reitzenstein والديانا ونوفيك ، و (٤) نسافات ، بعد أن نجحت في خرق حصار توغو ، وتوجهوا جنوباً وبأقصى سرعة ، ودخل بعضهم شانغهاي ، والبعض الآخر سايغون وكياوتشو . ولحقت بهم فيما بعد ١١ آب البارجة المنكوبة سيزاروفيتش ، برغم إصاباتها العديدة ، وانخفاض سرعتها على (٤) عقد ، وصدها للعديد من هجمات النسافات اليابانية .

نوفيك هي السفينة الروسية الوحيدة التي حاولت رد اعتبارها واعتبار سمعة البحرية الروسية إذ أقلعت بعد أن تزودت بالفحم اللازم في كياوتشو قاصدة فلاديفستوك شرقي اليابان رغم الجموع الحاشدة من أساطيل الخصم.. وخلال طريقها هاجمها طرادان حديثان إلى الجنوب من ساخالين فقاتلت بشجاعة وعندما أحست بضياع فرصتها جنحت على البر لتفادي الأسر في أيدي الأعداء.

لم تكن معركة البحر الأصفر نصراً كبيراً لليابانيين لأن الأسطول الروسي نجا، ودخلت خمس من بوارجه الضخمة ميناء بور آرثور.. ويرجع ذلك إلى شدة حرص توغو وعدم مغامرته في معارك ملتحمة مصيرية، إلا أن هذا لم يمنع من إنزال الخسائر في معدات الروس. والأهم إصابتهم في كبريائهم، إذ اعتبر المراقبون نتائج المعركة إنهاء لدور أسطول روسيا القتالي في المنطقة.

أما بالنسبة لمجموعة الطرادات الروسية في فلاديفستوك فلم يكن مصيرها أحسن حظاً من باقي مجموعات الأسطول، وظلت قابعة في الميناء لا تخرج إلى البحر إلا لفترات لم تتجاوز الخمس، قامت خلالها بأعمال قرصنة وقطع لخطوط تموين مواصلات اليابانيين البحرية، دون نتائج إيجابية تذكر، عدا إغراق بضعة سفن تموين أو عتاد. لكن توغو رفض هذا الموقف وقرر وقف أعمال القرصنة هذه، وأوفد مجموعة كاميمورا لمشاغلتهم ومنعهم من الاستمرار في عبثهم.

في ١٤ آب شاهد المراقبون على السفن اليابانية في مجموعة كاميمورا تشكيلة من السفن الروسية ضمت الروسيا Rossia، وغرومبوي Gromboï وروريك Rurik، تتجه نحو بور آرثور، عبر المضائق. وكانت تلك المجموعة بإمرة الأميرال جيسين Jessen. تحرك كاميمورا نحو مجموعة الطرادات الروسية وقوته تفوقهم عدداً (٤ طرادات ثقيلة و ٤ طرادات خفيفة تابعة للأميرال أورري Uryu)، فما كان جيسين إلا أن استدار بطراداته الثلاثة واتجه بأقصى سرعة نحو فلاديفستوك.

توقع كاميمورا مثل تلك المناورة فلحق بالهاربين وطاردهم، وفي الساعة ١٧٫٠٠ أرسل أول صلية مدفعية على مسافة (٨٤٠٠) متراً على الروريك الطراد الأخير في الرتل الروسي، والأقل سرعة فأصابه وأخرجه من الرتل بعد تعطل أجهزة التوجيه فيه، ثم وجه عليه كل نيران سفنه.

حاول الطرادان المتبقيان روسيا وغرومبوي اعتراض نيران اليابانيين حتى إصلاح العطل على الروريك، واشتبكا حتى الثامنة والنصف مساءً بضراوة، حتى شارفت ذخائرهما على النفاد. ثم انسحبا منهكين تاركين الروريك تقاتل لوحدها وببسالة، حتى فقدت (٥٠٠) رجل من أصل (٨٠٠) من طاقمها، بين قتيل وجريح رافضة الاستسلام. وغرقت في العاشرة واثنتين وأربعين

دقيقة، أمام خليج باميا ديديموفا Pamia Didimova. في حين وصلت كل من روسيا وغرومبوي، ودخلتا الميناء مثخنتين بالإصابات، وباشرتا الإصلاحات. إلا أن غرومبوي غرقت فيما بعد، إثر اصطدامها بصخور في خليج بطرس الأكبر.

حصار بور آرثور

غدا اليابانيون سادة البحر بعد نصريهما في البحر الأصفر، وخليج باميا ديديموفا. وأخذت قواتهم البرية تكنس أمامها فلول الجيوش الروسية في منشوريا، وتم لهم النصر براً في معارك ضارية، دامت عشرة أيام متعاقبة، قرب موكدين. وهزمت جيش كورباتكين ٣ أيلول، ثم هدأ القتال نسبياً بعد ذلك التاريخ، وانقلب سجالاً بين الطرفين خلال فصل الشتاء القارس.

أما بالنسبة للسفن الروسية الراسية في الميناء فقد تحركت من مرساها في الجهة الغربية، وانتقلت إلى الجهة الشرقية التي أصبحت أكثر أماناً من سابقتها، دون أن تجسر على مغادرته. وفي أثناء ذلك راجت أخبار مفادها قدوم أسطول روسي ثانٍ نحو الباسفيك، دعماً للأسطول الأول. فقرر الأميرال توغو اقتحام ميناء بور آرثور، قبل أن ينضم الأسطول الجديد للمعركة. وبدأت العمليات الحربية براً وبحراً بالتنسيق بين الأميرال توغو والماريشال نوغي. وكانت أياماً عصيبة على الروس قاتلوا خلالها ببسالة، حتى استخدام السلاح الأبيض. إلا أن اليابانيين سيطروا في النهاية على الهضاب المحيطة بالميناء، وكان ذلك معناه تهديد خطير للمدينة وللسفن الروسية الراسية في حوض المرفأ.

بدأت معركة بور آرثور عندما انصبت نيران المدافع البحرية على السفن العاجزة فأصيب أكثرها ١٠ كانون الأول، وهي بولتافا Poltava وبوبيدا Pobieda والبريزفيت، والريتفيزان والبايان Bayan والبالادا Pallada، فغاصت في مياه الميناء الآسنة، لا تجرؤ على مغادرته، حيث كان توغو في عرض البحر ينتظر الإجهاز عليها، عدا سيباستيبول التي اجتازت المعبر، ولجأت إلى شبه جزيرة النمر. إلا أن هجمات قاذفات الطوربيد اليابانية أغرقتها في ١٦ كانون الأول. وهكذا قضت كل وحدات الأسطول الروسي الأول المقيم في بور آرثور. وتنفس توغو الصعداء فأقلع عائداً إلى قاعدته في جزر آليوت، ومنها إلى اليابان تاركاً الأميرال كاتاوكا Kataoka مع بضعة سفن قديمة، تراقب مدخل بور آرثور، حتى تاريخ ٢ كانون الثاني الذي استسلمت فيه الحامية الروسية للجنرال نوغي.

وصل خبر سقوط بور آرثور سمع قيادة الأسطول الروسي الثاني الموجود في مياه مدغشقر،

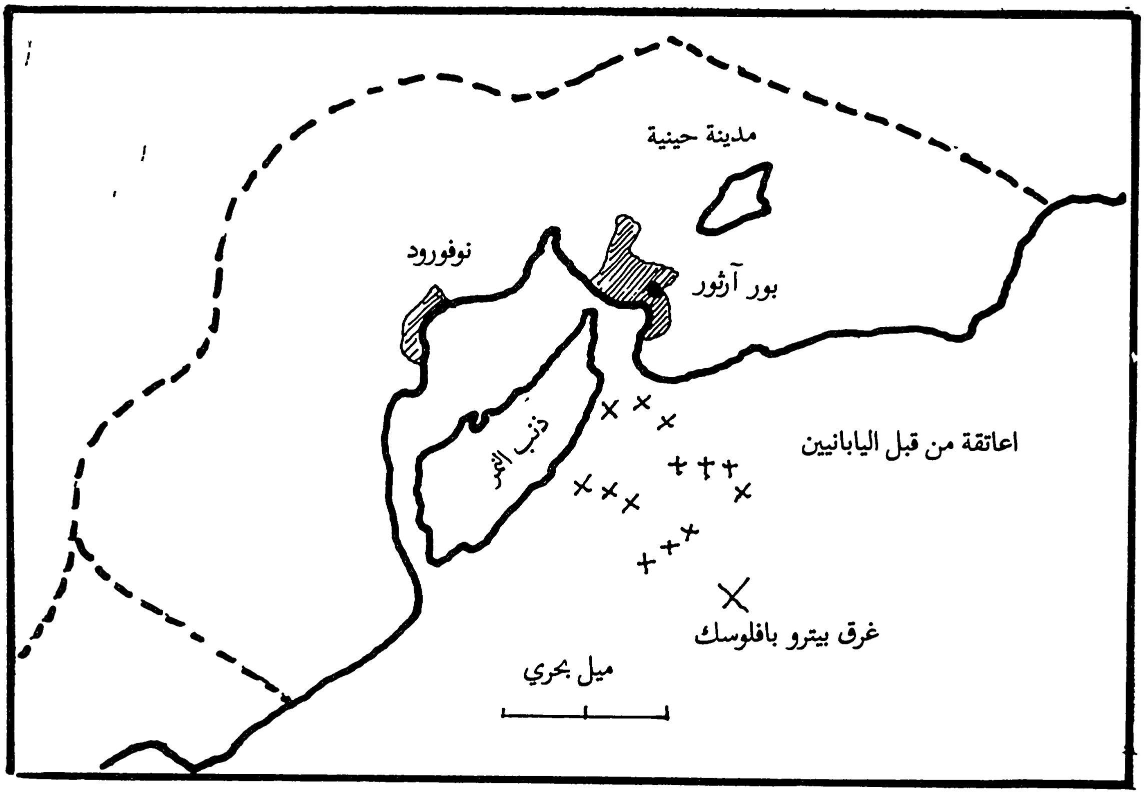

بور آرثور ١٩٠٤

يتزود بالوقود. وهذا معناه سيادة اليابانيين على البحر الأصفر، فطلبوا من موسكو التوجيه، وانتظرو ورود الرد.

تضمن الأسطول الثاني الروسي، الذي بإمرة الأميرال رودجيستنسكي (٤) بوارج حديثة. تزن الواحدة (١٣٫٥٠٠) طن، وسرعتها (١٨) عقدة، مع مجموعة من الطرادات الثقيلة (٤)؛ ومجموعة من الطرادات الخفيفة ٤ و ٩ نسافات، وعدة سفن خاصة للخدمات والتموين والإصلاح. وبرغم أن هذا التشكيل الكبير قد تضمن بوارج قوية، فقد كان ينقصه الانسجام، لاختلاف سرعات وحداته. وقد غدا القديم منها مهمل الصيانة خاصة فيما يتعلق بأجهزة الدفع. وقد تعددت الأعطال الميكانيكية وتتابعت منذ اليوم الأول من اقلاع الأسطول أما الطواقم فقد كانت شابة وأكثرها من الاحتياط، تنقصها الخبرة والإبحار الطويل. والكل يسوده شعور بالخيبة للمصير الذي سينتظرهم، بعد أن وصلت أسماعهم أخبار رفاقهم في السلاح في الأسطول الأول، خلال حصار بور آرثور.

أقلع الأسطول الثاني من ليبو Libou ١٥ تشرين الأول باتجاه الشرق الأقصى، بظروف سيئة،

والإشاعات تتحدث عن وجود ألغام وطوربيدات وغواصات يابانية تنتظرهم في المضيق الدانمركي ، وبحر الشمال ، ومضيق كاليه . فتوترت الأعصاب ، وزيدت أعمال المراقبة ، ووضعت الأنوار الكاشفة تستطلع كل سفينة تعبر .

في ٢٢ تشرين الأول كادت تندلع حرب أوربية إثر حادث مؤسف وليد التوتر الروسي المرافق لكل مراحل الرحلة . ففي الساعة ٤٥ر٨ تخلفت السفينة الورشة كاماتشاتكا Kamatchatka لعطل طارىء في محركاتها ، واختفت وراء الأفق فجاءت ، إشارة تبلغ قيادة الأسطول عن وقوعها فريسة هجوم بسفن طوربيد (تهيأ لها ذلك) . وبعد أربع ساعات ، وعلى ظهر البارجة دوغر بانك ، والأعصاب مشدودة قلقاً وخوفاً من المجهول ، شاهد المراقبون سفناً عديدة في الأفق ، ظنها الروس معادية ، ففتحوا عليها النيران . وبعامل التوتر وقعت بعض القذائف على البارجة الروسية أورورا Aurora فجرحت عدة رجال (قلة دراية في استخدام السلاح) .

ولما هدأت المشاعر تبين للروس أن ما ظنوها سفناً يابانية معادية ما كانت سوى سفن صيد إنكليزية أغرقوا إحداها ، وأعطبوا بعضها ، وأنزلوا خسائر في الأرواح . وانسحب الروس ، دون أن يمدوا يد المساعدة للمنكوبين من الصيادين ، حيث قوبل ذلك باستنكار أوربي عارم .

احتجت بريطانيا بشدة ، وهاج الشعب يطالب بمعاقبة المعتدين . واشتدت الحملة الصحفية على الروس ، وصدرت الأوامر برفع حالة الاستعداد في أساطيل بريطانيا المتواجدة في المتوسط ، وفي أسطول الهوم فليت Home fleet . وأعطيت التعليمات لجميع الموانىء الإنكليزية برفض تموين السفن الروسية بالمحروقات . إلا أن مبادرة روسية عاجلة خففت من حدة الأزمة ، إذ قبلت روسيا بقرار محكمة تحكيم عقدت في باريس ٢ شباط عام (١٩٠٥) ، بدفع غرامات مالية لبريطانيا .

تابع الأسطول الروسي الثاني سيره ، ثم انقسم إلى مجموعتين عند طنجة ، المجموعة الأولى وتضمنت البوارج القديمة ذات الغاطس الضعيف مع الطرادات والنسافات وعدة سفن نقل ، فسلكت طريق قناة السويس ، في حين راح الأميرال قائد الأسطول مع باقي الوحدات والبوارج الجديدة (غاطسها لا يسمح بعبورها قناة السويس) ، وسلك طريق الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح ، على أن يكون الالتقاء في نوسي . بي Naussi-Bé .

التقى التشكيلان حسب الموعد المحدد بعد إبحار دام طويلاً ، دون أن تلمس أرجل الطواقم اليابسة . لأن أكثر الموانىء التي وردوها رفضتهم ، بناء على توجيهات مسبقة من بريطانيا واليابان .

حتى إن تزويدهم بالفحم كان يتم خارج الموانىء، وبشروط قاسية عانى منها بحارة الأسطول الروسي الكثير خصوصاً في المناطق الشديدة الحرارة.

خلال التوقف في نوسي بي لاجراء الاصلاحات وإراحة الطواقم، وردت أنباء سقوط بور آرثور.. ولمست القيادة العليا في بطرسبرج عدم جدوى متابعة أسطولها الثاني لعجزه عن المهمة المرسل لها، وقررت تعزيزه باسطول ثالث بإمرة الأميرال نيباغاتوف Nebagatoff الذي أقلع في ١٥ شباط باتجاه الشرق الأقصى وبإمرته كل الوحدات البحرية القديمة المتخلفة في روسيا والتي لا قيمة تعبوية لها.

في منتصف شهر آذار حُلت أزمة تزويد الأسطول الروسي الثاني الرابض في نوسي— بي بالفحم، بعد طول انتظار. وأقلع دون أن يعرف أن هناك أسطولاً ثالثاً روسياً يلحق به، وسيرفده في مياه بحر الصين.

قطع الأسطول الثاني مسافة (٤٥٠٠) ميل بحري المسافة التي تفصله عن ممر مالاقا، ودخلها في ٥ نيسان، دون حوادث تذكر. واستقبل هناك بشائعات عديدة عن تواجد ياباني كثيف من غواصات ونسافات في جوار بورنيو، تنتظر قدومه، وبأعداد هائلة تفوقه بأضعاف. لكن الحقيقة غير ذلك تماماً. فالوجود الروسي ضخم وكبير، وما ينقصه فقط نصر بحري حاسم، ومن ثم قطع لخطوط إمدادات اليابانيين البحرية. إلا أن الهزائم المتعاقبة أصابت المقاتل الروسي في الصميم إضافة إلى الأخبار المتضاربة عن الاضطرابات الداخلية الثورية في أرض الوطن، التي جعلته يشعر بالملل والإحباط. وكانت كل الشواهد تدل على أن إطالة أمد الحرب لن يكون سهلاً إذا تقرر المصير بحراً بين الأميرال الياباني توغو والأميرال الروسي رودجيستنسكي، وفي مياه بحر تسوشيما حيث بدأت الاستعدادات الحربية تنشط لمعركة بحرية طاحنة وشيكة الوقوع. واستنفرت كل أساطيل الإمبراطورية اليابانية من تشكيلات الأميرال توغو وكاميمورا وكاتاوكا، وبدأت تتجه نحو المضائق تنتظر بحماسة يوم المعركة.

أما في الجانب الروسي فقد توجس القادة خوفاً من مفاجأة يابانية، فضاعفوا الحراسة، واحتاطوا للأمر، مع اقترابهم من أرض المعركة والتي أخذت توقظ فيهم إدراكاً خفياً يزيد من توتر البعض، ويحبط البعض الآخر.

وفي ١٣ نيسان تقدموا ورسوا في خليج كام رانه على ساحل آنام، وعلى مسافة

(١٦٠) ميلاً من سايغون . وهناك وصلت مسامع الأميرال رودجيستنسكي بعد اتصاله بالبر تعليمات حكومته ، لينتظر الأسطول الثالث بقيادة الأميرال نيباغانوف . وقرر البقاء . لكن فرنسا طلبت منه تحت تأثير ضغوط إنكليزية يابانية مغادرة المياه الإقليمية الآنامية ٢٢ نيسان ، ومغادرة كام رانه ، وخليج فانغونغ في ٣ مايس .

ستة أيام والسفن الروسية تتسكع بائسة على طول الساحل ، دون مأوى من العواصف ومن هجمات النسافات اليابانية . وكانت فترة ضياع عصيبة في ظروف قاسية أتت على البقية الباقية من معنويات المقاتلين . فحدثت حوادث شغب عديدة ، مع حالات سكر شديد ، وصلت بهم إلى الخروج على أوامر الرؤساء . لكن الأمر لم يدم طويلاً ، إذ وصل نيباغانوف في ٩ منه ، وسارع فتزود بالمؤن والفحم ، وانضم إلى الأسطول الثاني ، وأقلع الأسطولان في ١٤ منه باتجاه بحر الصين .

سلك الأسطولان الروسيان طريقاً منعزلاً بعيداً عن السواحل الصينية واختار رودجيستنسكي معبر المضيق الكوري فعبره في ٢٣ مايس ، وهو يتوقع لقاءً حتمياً مع الأسطول الياباني . ثم توقف التشكيل الكبير في جزر سادل Saddle ، مقابل شانغهاي للتزود بكامل الطاقة من مادة الفحم ، وللمرة الأخيرة قبل المعركة .

في ٢٦ مايس صباحاً بدأ الروس يلتقطون إشارات لاسلكية يابانية ، تفيد عن تواجد قريب . وخشي الأميرال القائد العام الروسي مفاجأة النسافات اليابانية له ليلاً ، فأعاد احتساب سرعة تشكيله ليجعل ساعة وصوله إلى قناة كوريا الشرقية ظهر يوم ٢٧ ، مقابل جزيرة تسوشيما Tsoushima .

وعلى الجبهة البرية ظلت روسيا ترفد قواتها البرية بالرجال والعتاد طيلة فترة القتال ، دون عناء ، مستخدمة خط حديد سيبريا الواصل حتى جنوب بحيرة بيقال Baïkal .

معركة تسوشيما ٢٧ مايس (١٩٠٥)

في الساعة ٢٫٤٥ من صباح ٢٧ مايس شاهد الطراد الاحتياطي شينانو ــ مارو Shinano-Maru في أثناء مهمة مرور في مدخل المضيق الكوري ، وفي الظلام ، شبح سفينة غريبة تعرف عليها فيما بعد . وكانت السفينة المستشفى للأسطول الروسي . فشدد المراقبة منتظراً ساعات الصباح الأولى . وفي حوالي الرابعة والنصف تأكد له ، ومن خلال الضباب ، تواجد الأسطول

الروسي . إذ شاهد عشرات السفن وقد انتشرت أدخنتها في الأفق ، فسارع وأبرق الخبر إلى الأميرال توغو الموجود على البارجة القيادة ميكازا Mikasa . وقد طلب منه هذا الأخير المحافظة على التماس مع الروس ، بعد أن عززه بوحدات أسطول الأميرال ديوا Dewa مع ساحات الصباح الأولى .

كان تقدم الروس على رتلين . وقد ضم الرتل الأيمن بوارج المجموعتين الأولى والثانية في حين ضم الرتل الأيسر مجموعة الأميرال نيباغاتوف وقسماً من الطرادات . في حين انتشرت باقي الطرادات والنسافات من سفن الأسطولين بمجموعتين ، إحداها في المقدمة تلعب دور الكشاف ، والثانية على شكل مروحة واقية ، من جهة احتمال ظهور اليابانيين . أما السفن المساعدة (مشافي رحبات) فقد رصت في المؤخرة ، تحميها مجموعة من النسافات المواكبة .

ما إن شاهد رودجيفتسكي وحدات ديوا وكاتاوكا إلى ميسرته حتى قدر أن القوة الضاربة الرئيسية ستكون في الاتجاه نفسه وإلى الخلف من الطلائع . فطلب من تشكيله انضمام الرتل اليميني إلى رتل اليسار مشكلاً رتلاً آحادياً (الساعة ١١) . ولم ينتظم الوضع إلا بعد سقوط قذيفة ، وبالخطأ ، من البارجة الروسية اوريل Orel ، ففجرت قصفاً مدفعياً بين الأسطول الروسي ومجموعة الطرادات اليابانية ، استمر عدة دقائق ، برغم كون المسافة بينهما تزيد عن (٩٠٠٠) متر . وبذل الأميرال الروسي جهداً كبيراً في إيقاف الرمي . وما إن توصل إلى ذلك حتى ابتعد اليابانيون يختفون وراء الأفق . فارتاح الروس لذلك وأمر الأميرال الروسي بتناول طعام الغذاء .

وفي الظهيرة وفي عرض الرأس الجنوبي لتسوشيما ظهر ديوا في المقدمة ، وبرفقته عدة نسافات . واجتاز خط سير الأسطول الروسي قاطعاً إياه من الغرب إلى الشرق . وتظاهر بقذفه للطوربيدات الآلية في مياه خط سير الروس ، ليخلق عندهم شعوراً بالقلق . وبالفعل ولكي يبتعد الأميرال الروسي بسفنه عن خط سير المهاجمين طلب من مجموعة البوارج الأربع المتقدمة التحول إلى تشكيلة النسق ، واضعاً السفن اليابانية المهاجمة إلى ميسرته . ثم استدار فجعلها إلى ميمنته ، إلا أن عدم التنفيذ الصحيح جعل السفن الروسية تعود إلى وضعية الرتلين المتوازيين ، وهي تشكيلة مكروهة في القتال ، لأنها تحجب نيران بعضها البعض .

حاول الأميرال الروسي تصحيح الخطأ ، وطالب وحداته بالعودة إلى الرتل الأحادي . وفي أثناء التنفيذ اختفت السفن اليابانية في ضباب كثيف ، يغطي الأفق من جهة الشمال . لكن ذلك لم يدم طويلاً ، إذ استدار اليابانيون ثانية في الضباب ، وخرجوا قاطعين خط سير الروس ثانية ، وبطريق مائل . وفي تمام الساعة ١٠ر١٤ فتحوا نيرانهم ، وعلى مسافة تقل عن (٦٤٠٠) مترٍ ، ولم يوزعوا

تسوشيما ١٩٠٥

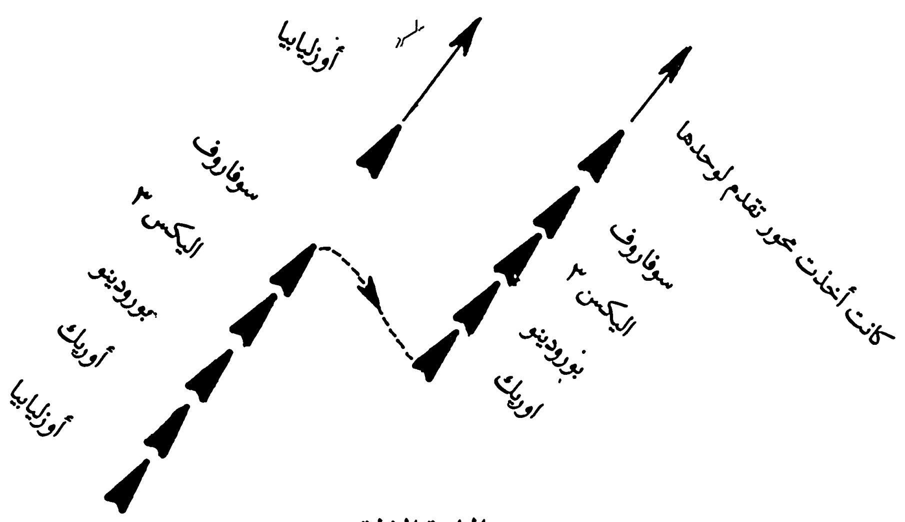

المناورة المنفذة

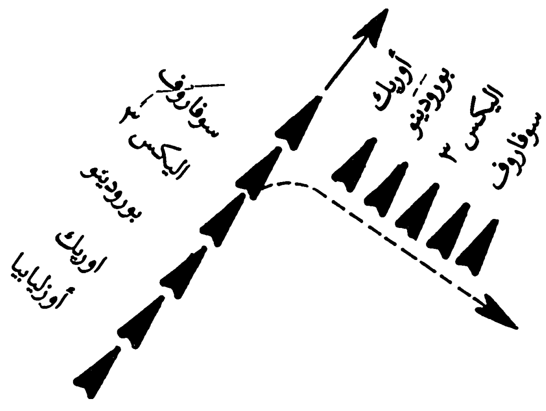

المناورة المطلوبة

رماياتهم كما فعلوا في معركة ١٠ آب، بل ركزوا قصفهم على البارجتين الرأسيتين في التشكيل اوسليابيا Osliabia وسواروف Souwaroff، فسقطت الحمم عليها غزيرة رغم صعوبة التسديد (تمايل شديد نتيجة ريح جنوبية غربية) إذ ان طواقم السفن اليابانية تمرسوا القتال وأحسنوا التسديد في ظروف جوية قاسية، وكانت سرعة صليات مدافعهم تفوق ٤ إلى ٥ أمثال سرعة رمي الروس، مع دقة متناهية في التسديد.

اشتعلت النيران على سطح البارجتين المنكوبتين، وبدأت الانفجارات تفتت الأجزاء وتناثرها، مما تفرض عليها التخلي عن خط السير وترك المعركة. وغرقت الأولى في الساعة ١٥ر٠٧، بعد أن غمرتها المياه التي اجتاحت مقاطعها الكتيمة، في حين بدت السواروف حطاماً بعد أن دمرت كل صواريها وأبراجها، وامتلأت أسطحها بالضحايا. وانتقل الأميرال الروسي من على متنها في الساعة ١٧ر٣٠ وأقام قيادته على متن النسافة بويني Bouiny. إلا أنه أصيب بجروح كثيرة وغاب عن الوعي. عندها انتقلت القيادة حكماً للأميرال نيباغانوف على البارجة نيقولا الأول، الذي استطاع بصعوبة لم الشمل، برغم حدة القتال وانتشار الفوضى. وفي الساعة ١٩ر٢٠ غرقت البارجة سواروف، بعد أن قاتلت حتى آخر مدفع صالح عليها.

أخذ خط سير الأسطول الروسي ينحرف يميناً منذ بدء المعركة، والرتل الياباني يتابعه موازياً. ولما أصبحت البارجة الروسية الإسكندر الثالث في رأس التشكيل انصبت عليها الحمم اليابانية، فغيرت وجهة سيرها بسرعة، وتوجهت نحو فلاديفستوك مارة خلف الطراد الياباني ايوات Iwate الموجود في مؤخرة الرتل. لكن الأميرال الياباني لاحظ تسلل البارجة الروسية فهب بمجموعته، يسانده الأميرال كاميمورا، فانقض على البارجة الروسية المنسحبة.. وبمدى لا يزيد عن (٣٠٠٠) متر سحق الإسكندر الثالث بوابل من قذائفه، وخص البارجة بورودينو Borodino بجزء من تلك القنابل، وهي البارجة المرافقة للإسكندر الثالث.

حاولت البارجتان المنسحبتان تغيير خط سيرهما، فتلقفتهما السفن اليابانية ثانية وأصابتهما بمزيد من القذائف.

انسحب الرتل الروسي بعد أن خفت وطأة تساقط الحمم. وتوقف القصف في الساعة ١٦ر٣٠، وأخذت البوردورينو رأس الرتل الروسي تنسحب، في حين خرجت الإسكندر الثالث من الرتل، وانقلبت على جنبها، وغاصت في اليم (١٩٠٠) وتابع الرتل الروسي طريقه ودخل الضباب الكثيف بعد هدوء المعركة.

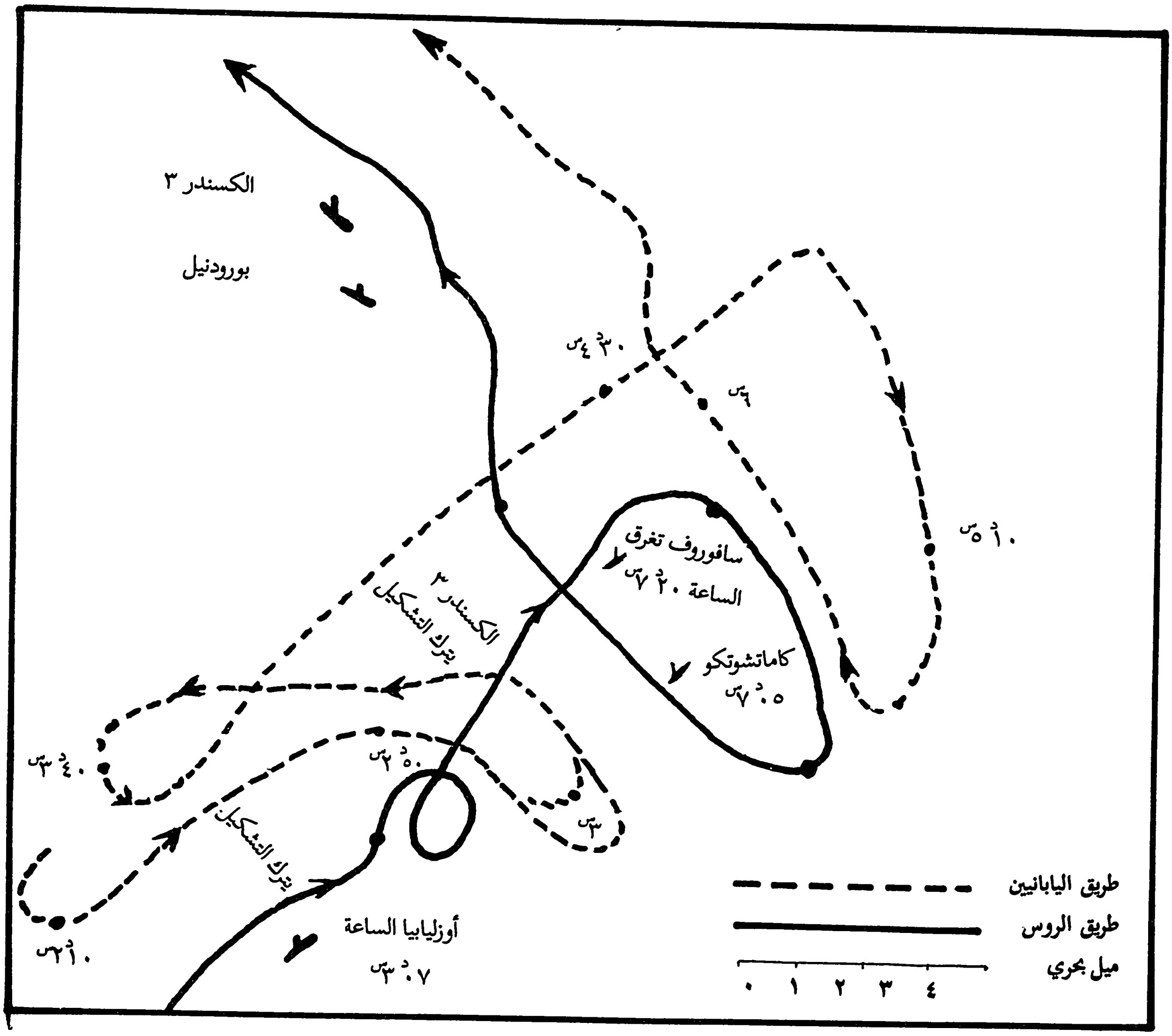

تسوشيما ١٩٠٥/٥/٢٧

فقد توغو تماسه مع الروس، وحاول البحث عنهم مدة ٤٥ دقيقة في اتجاه الجنوب، دون جدوى. ولما لم يقع عليهم نظره استدار بتشكيله وأخذ طريق الشمال، وبأقصى سرعة، في حين تابع الأميرال كاميمورا بأسطوله خط سيره الأولي بحثاً عن العدو.

في الساعة ١٧ر٥٠ كشفت مجموعة الأميرال الروسي انكيست Enquist مكان اليابانيين. وكان الروس في هذا المسرح الجديد أكثر عدداً.. فهاجموا دون تردد الكازاكي Kasagé والنانيوي Nanioï رافعتي علمي الأميرالين اليابانيين ديوا واوريو فأصابوهما بطلقات عدة.. وأجبروهما على الفرار. ولو أن الأميرال الروسي لاحقهما بقوته المتفوقة لأغرقهما بسهولة. وقد منعه عن ذلك اضطراره المحافظة على مكانه في التشكيل، حتى لا يتخلى عن القوة الضاربة الرئيسية.

وفي مكان آخر من مسرح العمليات، وفي غفلة عن الجميع، تدخل كاميمورا ثانية، وأرسل بقذائف بوارجة الضخمة تصيب الطرادات الروسية المرافقة لسفن النقل. وتبدل الموقف فجأة، وتراجعت سفن الحراسة متخلية عن سفن النقل فانقض اليابانيون يمعنون فيها القصف، فأغرقوا بعضها، وأسروا البعض الآخر. ولما انتهى كل شيء الساعة ١٨ر١٥ توجه كاميمورا بمجموعته واضعاً وجهة سيره نحو الشمال ليلحق بأميراله توغو.

وقع الحمل الأكبر من الفصل الأخير لمعركة تسوشيما على عاتق توغو وبوارجه الضخمة التي استمرت مدافعها تطلق دون هوادة، فبعد إغراق البوارج الروسية الثلاث التي أتينا على ذكرها سدد توغو مدافع سفنه على الأوريل Orel فأخرسها خلال فترة بسيطة، ثم حول مدافعه على البورودينو Borodino فأغرقها، بعد أن انفجرت مستودعات ذخائرها في الساعة ١٩ر٢٠.

مع غروب الشمس اكتفى توغو بالإنجازات التي حققها. وكانت الحصيلة إغراق (٤) بوارج، وعطب خامسة. وقرر إعطاء طواقم سفنه قسطاً من الراحة، وطلب من القادة الالتحاق في اليوم التالي بجزيرة ماتسوشيما، حيث أمن لهم هناك مأوى يصعب على أي مغير الوصول إليه، وبالتالي يقع هذا المأوى على طريق انسحاب الروس نحو فلاديفستوك، ويستطيع من هناك تحريك نسافاته لقنص سفنهم.

سكتت الريح مع حلول الظلام لكن البحر بقي هائجاً، والسفن الخفيفة أمثال قاذفات الطوربيد تتمايل بين ٥٠° و ٦٠°درجة. وكثيراً ما كانت تشارف على الاصطدام ببعضها بفعل الأمواج. ولقد ساعدتها أضواء انفجارات القنابل لكي تسلك طريقها بين الجموع. واستطاعت

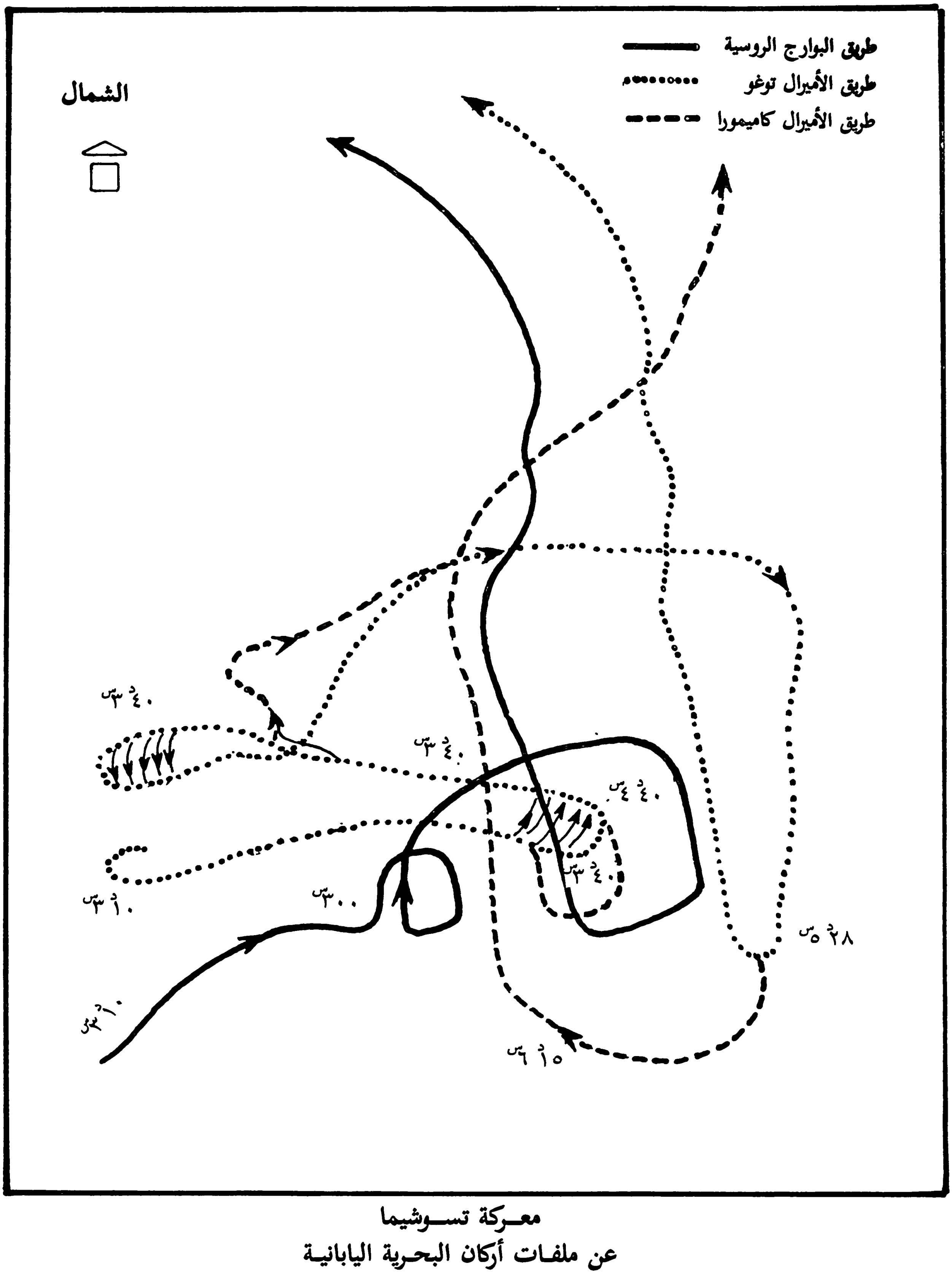

معـركة تسـوشيما
عن ملفـات أركان البحـرية اليابانيـة

التقرب حتى (٣٠٠) متر من سفن الروس، لقذف طوربيداتها. وقد نجحت في إصابة النافاران Navarin إصابة قاتلة، غرقت السفينة على أثرها، كما أعطبت كلا من سيسوفيليكي Sisoïveliki والأميرال ناحينموف Nahimoff وفلاديمير مونماك Vladimir Monamach التي غرقت في اليوم التالي ٢٨ مايس، ولم تستطع الجنوح على بر تسوشيما.

أصيبت سفن الأسطول الروسي المتبقية بالهلع الشديد، وفُقد فيها كل نظام. وانتشرت الأحداث بلا رقيب، تسعى كل سفينة للنجاة بنفسها، بعد أن أصابتها الشدائد. ولم يشذ عن ذلك إلا مجموعة الأميرال نيباغاتوف، التي حافظت على ترابطها وتشكيلها، وتابعت سيرها يحمي بعضها البعض. وفي الصباح شاهدتها الطرادات اليابانية المستطلعة فأبلغت الأميرال توغو عن موقعها، فاتجه إليها مقلعاً من تسوشيما وبأقصى سرعة. وبلغها فحاصرها قرب رأس ليانكوّر Liancourt. وكانت قوة توغو تفوق خمسة أمثال قوة نيباغاتوف.

لم يتردد الأميرال الروسي طويلاً وفضل حقن دماء رجاله عن أن يدخل معركة لا أمل له فيها، كما لا أمل له بالنجاة والفرار إلى فلاديفستوك، واستسلم لليابانيين دون أي شرط سبق. إذ سلمهم البوارج اوريل Orel ونيقولا الأول، والخافرتين ابراكسين Apraxine والأميرال سينامين Seinamine. ومع هذا الاستسلام انتهى الأسطول الروسي الكبير الذي ضم الأسطولين الثاني والثالث. أما ما تبقى من وحداته فهام على وجهه تطارده الطرادات اليابانية المنتصرة. وقد لجأ الأميرال الروسي انكيست مع ما تبقى له من السفن وهي الطراد اوليغ Oleg واورورا Aurora وليمتشونغ Lemtechoung متخلياً عن دخول فلاديفستوك إلى مانيلا، فوصلها في ٣ حزيران. وهناك وفي أرض محايدة نزع سلاحه وبقي من السفن الروسية الطرادات اوتاكوف، ديمتري دونسكوي، وسفيلتانا التي قاتلت اليابانيين ببسالة وعناد وحتى الرمق الأخير. وقد غرقت أو أسرت كل النسافات الروسية المرافقة لهما، وكان على إحداها الأميرال رودجيستنسكي الجريح الذي أسره اليابانيون. ولم ينج من السفن الروسية ويدخل ميناء فلاديفستوك سوى الطراد المازونسافتين. وكان ذلك يوم ٢٨ منه.

لم يعرف التاريخ البحري مأساة كبرى كمأساة معركة تسوشيما. إذ فقد الروس خلالها (١٧) سفينة حربية من أفضل سفنهم، غرقت جميعها، وخمس أسرت، وأربع نزعت أسلحتها في مرفأ محايد. ومن أصل (٢٩) سفينة حربية أقلعت من ليبو (٢٦) منها ضاعت، كما قتل وغرق للروس (٨٠٠٠) رجل وأسرلهم (٦٠٠٠)، في حين جاءت خسائر اليابانيين متواضعة جداً هي فقدان ثلاث نسافات، ومقتل وجرح (٥٥٧) رجلاً، مع بضع سفن أصيبت بأعطاب خلال

الاشتباكات، وأعيد إصلاحها فيما بعد. وقد يعود الاخفاق الروسي الكبير إلى العوامل الهامة التالية :

ــ جابهت روسيا المعركة بظروف غير مؤاتية، فهياكل سفنها التي اشتركت في القتال قذرة، بعد قطعها مسافة (٢٠) ألف ميل، وقضائها فترة طويلة في المياه الاستوائية الحارة (توضع قواقع وأعشاب مائية على جسم السفينة الغاطس بفعل المياه الاستوائية يخفض سرعة السفينة بحدود ٢ بالعشرة من سرعتها الأصلية) اخفض من سرعاتها وانقص كفاءتها القتالية.

ــ استخدمت روسيا قطعاً بحرية قديمة غير مدرعة ومتخلفة في التسليح الحديث.

ــ حملت السفن الروسية حمولات ضخمة من الفحم والمؤن والذخائر جعلت السفن تغطس في الماء، وبالتالي غطس النطاق المدرع من جسمها الذي يحيط بالسفينة، وتعرض الجسم الأقل تصفيحاً لقذائف اليابانيين.

ــ كثرة الأعطال في الأجهزة والمعدات وآلات الدفع والتوجيه وأجهزة ضبط الرمي والتسديد.

ــ ضعف في القيادة، وتخلف في تأهيل الطواقم قتالياً، إن قورنت بطواقم اليابانيين المدربين تدريباً عالياً، وعلى مدى (١٥) شهراً متواصلة سبقت موعد المعركة.

ــ استفادة اليابانيين من الدروس المستقاة في حربهم السابقة ١٠ آب فتفادوا الأخطاء المرتكبة، خصوصاً في أسلوب توزيع النيران على الأهداف.

ــ اعتماد اليابانيين مبدأ الهجوم المفاجىء والشديد الذي يفقد الخصم توازنه في المعركة.

ــ تركيز الرمايات على البوارج الرأسية (القدوة) من أرتال الخصم. ففي التجربة الأولى وبعد (٤٠) دقيقة فقط أخرجت تلك البوارج من التشكيل ومن المعركة محطمة.

ــ دقة في رمي اليابانيين، وسرعة في إرسال الصليات.

ويتضح من ذلك كله أن معركة تسوشيما كانت هزيمة بحرية روسية، أدت إلى خلوٍّ كامل للمنطقة من تواجدهم، وحرية مطلقة لليابانيين، ولخطوط مواصلاتهم البحرية. إذ أصبحت إمداداتهم العسكرية تصل إلى البر الصيني تباعاً دون عائق، حتى بلغت طوابيرهم نصف مليون مقاتل، في حين لم تستطع روسيا إرسال المزيد من القوات البرية لظروفها الداخلية، وظروف حدودها الأوربية المضطربة مع جارتها ألمانيا. وبالفعل فقد اتسعت العمليات الحربية البرية، وتواصل زحف اليابانيين في منشوريا. وقد قدم الأميرال كاتاوكا في مطلع شهر تموز، وعلى رأس أسطول داعم، ساند إنزال فرقة عسكرية يابانية على سواحل جزيرة ساخالين، وسقطت الجزيرة بكاملها في أيديهم مع نهاية الشهر نفسه. ولم يهدأ الأسطول الياباني، بل تابع نشاطاته بشن إغارات جديدة

وعديدة على السواحل الروسية في بحر اوخوتسك Okhotsk، وسواحل كامتشاكا، حتى وصلت سفنهم المغيرة جزيرة بيرنغ في الشمال قاصفين السواحل الروسية، والمنشآت والمستودعات، ومحطات الإشارة والمخافر الساحلية بمدافع بوارجهم الضخمة، وغرضهم من ذلك مضاعفة ضغطهم على الروس قبل الشروع بمفاوضات السلام.

أقلقت انتصارات اليابانيين الولايات المتحدة الأمريكية، واعتبرتها مزاحمة قوية في بحر الصين وفي الشرق الأقصى والمحيط الهادي. ووجد روزفلت نفسه مضطراً في ٩ حزيران لعرض وساطته الطيبة لإعادة السلام، ووقف الزحف الياباني. وقوبلت تلك الوساطة بموافقة الطرفين المتنازعين. إذ اعتبرت روسيا نفسها مهزومة لا أمل لها في استعاضة ما أضاعته بالطرق العسكرية خصوصاً والحكومة القيصرية مهددة بحركات ثورية داخلية، كما أن اليابان وجدت نفسها ترزح تحت عبء مالي ضخم نتيجة المصاريف الباهظة للحرب، لا قبل لها على تحملها.

تأزمت أوضاع روسيا الداخلية، ووعدت حكومة القيصر بإقامة حكم دستوري في البلاد ٢٧ كانون أول (١٩٠٤)، لكن برغم الوعد استمرت التظاهرات الدامية. ففي ٢٢ كانون الثاني من عام (١٩٠٥) تجمع العمال أمام القصر الشتوي يطالبون بعدالة اجتماعية. فاشتبك الجيش معهم، ووقعت أحداث دامية وضحايا عديدة. وسرعان ما امتدت حوادث العنف إلى المقاطعات الأخرى. وكان في كل يوم حادث جديد من أعمال العنف والحرائق والاغتيالات.

في ٥ آب اجتمع المتفاوضون من البلدين على متن اليخت الرئاسي الأمريكي في ماي فلاور. وفي ٩ منه بدأت جلسات المفاوضات حثيثة في مدينة بورتسموث (نيوهامشاير). وقد بدت شروط اليابانيين أقسى مما توقعه الروس، وكادت تنهار المحادثات، ويعود الحسم عسكرياً، لولا وساطة الأمريكيين. وفي النهاية تم الوصول إلى إتفاق، ووقعت معاهدة السلام في ١٥ تشرين الأول، وسميت بمعاهدة بورتسموث وتضمنت التالي:

- تعترف روسيا بحق انتداب اليابان على كوريا، وتتخلى لها عن لياو تونغ وبور آرثور والخط الحديدي الممتد إلى نشانغ تشرين، وتسمح لها بحق الصيد على السواحل الروسية الواقعة في بحر اليابان.
- يسحب الخصمان قواتهما العسكرية من منشوريا، ويحترمان السيادة الصينية عليها. وهذا يعني تحرر العرق الأصفر من التسلط الروسي الأبيض بإبعاد روسيا خلف حدود الصين، ووقوف اليابان أمام أي امتداد أوربي في تلك المناطق، وفي الهند الصينية بالذات، والحلول محلها في الشرق

الأقصى، مع ولادة إمبراطورية صفراء جديدة تقف باعتزاز وقوة أمام المستعمرين التقليديين في العالم. وفعلاً التزمت سياسة اليابان منحى جديداً بعد انتصاراتها الرائعة، واعتبرت البر الصيني بمثابة مجال حيوي للعرق الأصفر وللشعب الياباني تخصصاً، وهو أحد هذه الشعوب.

عولجت قضية كوريا أولاً، وضمتها اليابان إلى إمبراطورتها ٢٢ آب (١٩١٠) إثر قيام أحد الوطنيين الكوريين باغتيال الأمير ايتو Ito في خاربين Kharbine واندفع المقيمون في استغلال خيرات كوريا الزراعية والمعدنية.. وما إن استقر بهم المقام حتى أخذوا يتطلعون إلى المزيد من الأرض، لمد مجالهم الاقتصادي. وكان لهم في البر الصيني الآسيوي على سواحل منشوريا وسيبريا خير منطلق. واختاروا خطوتهم الثانية بلاد منشوريا الواسعة الكبيرة.

لم تحرك روسيا ساكناً أمام الزحف الياباني السريع. وكانت معذورة فمشاغلها الداخلية عديدة، إذ فضلت الانطواء على نفسها في الشرق الأقصى، والاكتفاء بحل أزمتها الأوربية، بعد أن أخذ النفوذ الألماني يمتد بسرعة في دول البلقان وآسيا الصغرى. وحتى لو أرادت التدخل لما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، بسبب غياب قواها البحرية الضرورية والهامة.

أزمات المحيط الهادي

كان لليابانيين طموحات أخرى لا تُقل عن طموحاتهم في الصين. فهم ينظرون إلى المحيط الهادي الكبير، وإلى جزره الغنية العديدة نظرة تلهف ونهم، ويسعون لاحتلال مركز الصدارة فيه، كقوة عظمى، يفرضون فيه إرادتهم، ويسهلون تجارتهم، خصوصاً والمحيط زاخر بحزام من المرافىء التجارية الهامة، مطمح كل دولة صناعية، أمثال يوكوهاما، وشانغهاي، وهونغ كونغ، وسيدني، وأوكلاند، وسان فرانسيسكو، وفانكوفر.. التي رابطت بعضها بخطوط مواصلات تجارية بحرية ناشطة، تُجاري بأهميتها خطوط مواصلات المحيط الأطلسي البحرية. وكان لا بد للقوى العظمى المتواجدة في المنطقة من المحافظة على مصالحها، لجني المزيد من الفوائد في أصقاع جديدة، تنبىء بمجد اقتصادي مزدهر. فسارعت تقتنص المزيد من الجزر والمستعمرات، لتقيم عليها قواعد بحرية متقدمة لأساطيلها البحرية، تماماً كما فعل الأوربيون بالقارة الافريقية. فأتوا إلى المحيط الهادي ليقتسموا جزره. وكانت بريطانيا الدولة الأكثر انتشاراً فيه، وهي الإمبراطورية الأوسع استعماراً في العالم. فبعد أن هيمنت على أوستراليا ضمت إليها جزر فيجي Fidji، ذات الموقع الهام بين سيدني وسان فرانسيسكو (١٨٧٤)، ثم استولت على كونيزلاند (الجزء الجنوبي الشرقي في غينيا الجديدة)

(١٨٨٧) ، وامتدت بسيطرتها على أرخبيل تونغا Tonga (١٩٠٠) . ثم أتت فرنسا التي كانت موجودة في كاليدونيا الجديدة منذ عام (١٨٥٣) ، فاستولت على تاهيتي ، وغامبيه Gambier ، وتواموتو Toamotou وتوبواي Toubouaî ، كمحطات طبيعية بين سان فرانسيسكو وأوكلان وزيلاندة الجديدة (١٨٨٢) . ولحقت بهما ألمانيا ، فوضعت يدها على جزر ماريشال ، واستولت على الجزء الشمالي الشرقي من غينيا الجديدة ، والجزر المجاورة لها ، واحتلت أرخبيل بيسمارك ، وقسماً من جزر سليمان (١٨٨٨) ، واشترت من إسبانيا جزر كارولنيا والبالاوس وجزر ماريان (١٨٩٩) .

من بين دول العرق الأبيض التي نازعت الأوربيين الولايات المتحدة الأمريكية التي جاءت بزخم كبير ، وانقضت وبسرعة تلتهم المستعمرات في المحيط الهادي ، بعد أن كانت ولأمد غير بعيد عدوة للتوسع الخارجي . ولم تمض سنتان حتى انتزعت من إسبانيا جزيرة غوام ، وجزر أرخبيل الفيليبين ، وجزءاً من ساموا وأرخبيل هاواي .

طالب الأوربيون باقتسام أوستراليا الغنية المتحضرة ، مع كل من فيكتوريا وبلاد الغال الجديدة وكونيزلاند . لكن بريطانيا رفضت مثل هذا الطلب ، واتفقت مع فرنسا على تحييد بعض المناطق ، كجزر هبريد الجديدة التي كانت تطمع فرنسا في الاستيلاء عليها . وغدا مسرح المحيط الهادي مجال نزاعات بين شعوب البلاد الأصليين وبين الطامعين الأوربيين . وأخيراً انتهى الأمر بتفاهم دولي ، وإقامة سلام دائم ، يعتمد على توازن في التوزيع . لأن حروباً بحرية في محيط واسع تزيد مساحته عن (١٦٠) مليون كيلومتر مربع أمر شاق باهظ التكاليف ، ولا يجدي نفعاً ، خصوصاً بعد أن برز للمستعمرين التقليديين دولة فتية منتصرة ، جاءت تهز أركان هذا التوازن ، وتطالب بحصتها في التوزيع ، وهي الدولة الصناعية والتجارية المزدهرة التي تبحث عن أسواق لحريرها وخزفها وشايها لتستعيض به عن الصلب والبترول والقطن ، حاجاتها الحيوية في تحريك مصانعها . ولا بد والحالة هذه من استيلائها على نقاط استراتيجية في هذا الخضم الواسع ، لتجعلها قواعد بحرية لسفنها ، ومن ثم تفتح أبواب تلك النقاط لتستوعب المزيد من المهاجرين اليابانيين خارج بلادها ، خصوصاً واليابان بلد فتي تمتد حدوده من خط عرض ٢٠ إلى خط عرض ٥٠ وتسيطر قواته البحرية على أكثر المعابر البحرية الهامة التي تصل بين القارة الأمريكية والشرق الأقصى . وعندها من الأساطيل ما يؤمن لها سيادة بحرية مطلقة في المنطقة ، وقادر على سد المعابر أمام السفن التجارية الأخرى ، غير المرغوب بجنسيتها . وكان لا بد والحالة هذه من أن يتحرك ويستولي على قواعد بحرية في المحيط الكبير ، لخدمة مصالحه الحيوية .

الخلاف الأمريكي الياباني عام (١٩٠٦ ـ ١٩٠٨)

أقلق تعاظم الإمبراطورية اليابانية في المنطقة حكام الولايات المتحدة الأمريكية ، برغم العلاقات الوطيدة التي كانت قائمة بين البلدين . وسادت فترة وجوم بينهما ، حينما وجدت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها أمام إمبراطورية فتية قوية ، لاحدود لطموحاتها ، تزاحمها في أسواق آسيا ، وتحتفظ على أرضها بقوات عسكرية ، تفوق احتياجات أمنها ، وخاصة فيما يتعلق بقواها البحرية الضخمة . ولقد اعتبرت الولايات المتحدة القوة البحرية اليابانية الموضوعة تحت السلاح قوة مهددة لأمريكا ، بعد أن سحقت أساطيل قيصر روسيا . وليس من خصم حقيقي في الباسفيك غيرها . ولقد شغل أذهان الأمريكيين أيضاً كبر حجم المهاجرين اليابانيين للبر الأمريكي . واضطرت للتمييز بينهم وبين العرق الأبيض للحد من حجم هذه الهجرة . وتفجرت الأزمات ، خصوصاً بعد أن قررت حكومة كاليفورنيا عزل طلاب العرق الأصفر عن باقي طلاب العرق الأبيض في المدارس . ووقعت حوادث دامية في كل من سان فرانسيسكو وأوغدين Ogden ، وشاركت الصحافة في تأجيج الشعور القومي في كلا البلدين ، وهاج الرأي العام الياباني ، وقدمت حكومة اليابان احتجاجاً شديد اللهجة إلى حكومة واشنطن ، تذكرها باتفاقية عام (١٨٩٤) ، التي منحت المقيمين اليابانيين في الولايات المتحدة الأمريكية حقوق الأمريكيين الآخرين نفسها . وكادت تحدث القطيعة . وتحرك الأمريكيون واستعدوا للحرب ، وأرسلوا أحدث سفنهم الحربية إلى مرافىء المحيط الهادي (أسطول من البوارج يضم (١٦) بارجة حديثة ، في ١٦ كانون الأول (١٩٠٧) ، أقلع من هامبتون رودز Hampton Roads) ، معتمدين على دعم بريطاني أوسترالي كندي لهم ، وجميعهم قلقون من نجاحات اليابان الاقتصادية .

تراجعت اليابان عن مواقفها المتشددة ، وهي لم تلتقط بعد أنفاسها من حربها مع الروس . وعاد التفاهم مجدداً بين البلدين ، بعد أن فرضت حكومة الاتحاد على حكومة كاليفورنيا إعادة النظر في قرارها ، وانتهت الأزمة في ٣٠ تشرين الثاني عام (١٩٠٨) بتبادل مذكرات صداقة ، تتعهد بالمحافظة على التوازن العسكري في الباسفيك ، وعلى احترام سيادة الصين فوق أراضيها . إلا أن الظواهر ماكانت لتؤكد النيات الطيبة . فاليابانيون كانوا في أزمة حقيقية لتوفير الطعام لشعبهم الذي يعيش على جزرهم الفقيرة .. والسكان في تزايد كبير .. فما هو الحل ياترى ؟

أليس في المجالات الحيوية في الجزر وعلى البر القريب تارة وعن طريق الزحف الاقتصادي تارة أخرى ؟ وبقوة السلاح ؟ وهنا لا بد إذن من زيادة في ميزانية سلاح البحر الذي سيجر حتماً زيادة في

ميزانية سلاح بحر الولايات المتحدة الأمريكية، للمحافظة على التوازن الاستراتيجي وهذا سيرجح جداً لجوء الدولتين في يوم ليس ببعيد إلى قواتهما البحرية، لدعم حركاتهما التجارية، من تصدير واستيراد. ولا بد من إقامة سيادة بحرية على البحار المحيطة حيث انتقل الثقل البحري الاستراتيجي من دول أوربة الهرمة إلى دولتي الباسفيك الفتيتين: الولايات المتحدة الأمريكية رائدة العرق الأبيض، والإمبراطورية اليابانية رائدة العرق الأصفر. واعتبرتا المنطقة كلها مجالاً حيوياً لهما لا يسمحان لأرجل غريبة تطأ أرضها فهي طبيعية وشرعية لهما وحدهما.

حواشي الباب الثالث

١٠٦ ـ سامبسون Sampson ويليام توماس (١٨٤٠ ـ ١٩٢٠)

أميرال أمريكي قاد أسطول الهند الغربية في حرب أمريكا ـ اسبانيا ـ ودمر أسطول سيرفيرا في سانتياغو بكوبا عام (١٨٩٨).

١٠٧ ـ ديوي Dewey جورج (١٨٣٧ ـ ١٩١٧)

أميرال أمريكي عمل مع الشماليين. دمر الأسطول الإسباني خلال الحرب الأمريكية الإسبانية في كافيت عام (١٨٩٨)، استولى على مانيلا.

١٠٨ ـ سيرفيرا Cervera باسكوال (١٨٣٩ ـ ١٩٠٩)

أميرال إسباني ووزير للبحرية عام (١٨٩٢) قائد الأسطول الإسباني في الأطلسي، أصيب بهزيمة.

١٠٩ ـ بيرميجو Bermejo

نهر في أمريكا الجنوبية ينبع من جبال الآند في بوليفيا طوله (١٨٠٠) كم.

١١٠ ـ ياماغاتا Yamagata آرتيومو (١٨٣٨ ـ ١٩٢٢)

ماريشال وسياسي ياباني حارب في الصين، رأس الحكومة وأصبح قائداً عاماً خلال الحرب الروسية اليابانية، ثم رئيساً لمجلس النواب.

١١١ ــ ايتو Ito (١٨٤١ ــ ١٩٠٩)

سياسي ياباني اشترك بانقلاب الإمبراطور موتسوهيتو ، اغتيل في كوريا .

١١٢ ــ اوياما Oyama (١٨٤٢ ــ ١٩١٦)

ماريشال ياباني أصبح وزيراً للحرب وقائداً للجيش والقوات المسلحة . هزم الصينيين في بور آرثور ، وانتصر على الروس في موكدن .

١١٣ ــ اليكسيف Alexeiff ايفانوفيتش (١٨٤٣ ــ ١٩٠٩)

أميرال روسي نائب القيصر في منشوريا قاد القوات الروسية في بداية الحرب الروسية اليابانية ، حل مكان كوروباتكين Koropatkine .

الباب الرابع

القوى العظمى
واقتسام المستعمرات

الفصـــل الأول

الصـــراعات الدوليـــة
واقتســـام القـارة الإفريقيـــة

الحرب الأمريكية الإسبانية جعلت جميع الأوربيين يدركون أن القارة الأمريكية خرجت نهائياً من نطاق طموحاتهم الاستغلالية الاستعمارية، وكذلك الأمر بالنسبة للقـارة الأوستراليـة التـي احتكرتها بريطانيا، وآسيا الشرقية مجال الإمبراطورية اليابانية الحيوي. ولما كانت شهوات المستعمرين لا تعرف الكفاية فقد راحوا يتطلعون بنهم إلى أرض جديدة، يستغلون خيراتها ويستعبدون شعبها، بتسلل اقتصادي سياسي. ومع انغلاق القارات الثلاث في وجههم، لم يعد لهم إلا إفريقية. فهبوا إليها يقتطعون أجزاءها، كما يقتطع الكاسر أجزاء فريسته، وينهلون من خيراتها العميمة، وهي القارة البكر الغنية بمعادنها وثرواتها الحيوانية التي لم تكتشف بعد، بسبب شدة قسوة الطبيعة، وارتفاع الحرارة فيها.

اكتفى المستعمرون في البداية بالتوضع على طول السواحل، وإقامة المؤسسات التجارية لهم، مبتعدين عن الغوص في عمق البلاد خشية الطبيعة والسكان، ما دامت تلك المؤسسات تؤدي الغرض الذي يسعون وراءه في تأمين حرية معاملاتهم التجارية عام (١٨٧٠).

وقد شذ عن القاعدة بعض المستعمرين، فدخلوا عمق البلاد، واستغلوا أرضها، واستعمروا شعبها، كما حدث في الجزائر، والسنغال، وبلاد الكاب، وجزيرة مدغشقر. إلا أن الأوضاع السياسية باشرت في التغيير منذ عام (١٨٧٢) حينما تحركت دول أوربية كثيرة أمثال فرنسا وألمانيا

وإيطاليا وبلجيكا ، وإثر نهضة صناعية ضخمة فرضت عليهم التفتيش عن أسواق لترحيل مصنوعاتهم ، وفتح أسواق تجارية لهم ، مزاحمين بريطانيا الدولة السباقة في هذا المضمار .

ابتدأ استعمار إفريقية أول ما بدأ عن طريق المستكشفين ، أمثال ليغنكستون وبيكر وستانلي وبورتون ودويرازا ، وعديدون غيرهم ، حضروا يبحثون عن صفات القارة السوداء وخصائصها ، تحت ستار شعار تحضير الشعوب المتخلفة . واستطلعوا المناطق الهامة ، أمثال البحيرات الكبرى ، وبلاد الموزامبيق ، وبلاد الكونغو ، ووادي النيل ، واكتشفوا ثروات العاج ، والنباتات الزيتية ، وشجر المطاط ، والخشب القاسي الثمين . ووجدوا بالشعوب البريئة السوداء خير معين لهم في مد مصانعهم باليد العاملة الرخيصة ، وبترحيل منتجات معاملهم الضخمة . وقد ساعدهم في ذلك كله تدشين قناة السويس (١٨٦٩) ، واكتشافهم لمناجم الذهب والماس ، كمصادر لإمدادهم بالرساميل الضخمة .

هذه الهجمة الأوربية على إفريقية كان لا بد لها من أن تصاب بالمتاعب ، نتيجة تزاحم المستعمرين ، وعلى رأسهم بريطانيا وفرنسا ، ثم تبعتهما ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال ، والكل يسعى في مد مجاله الجغرافي كمطلب حيوي قومي .

قبل أن ينهي مؤتمر برلين آخر جلساته في ٢٣ شباط (١٨٨٥) اتفق المؤتمرون على أن كل استيلاء جديد لأراض في القارة الإفريقية يجب أن يبرر أمام الأعضاء الموقعين على الأتفاقية . وحقق هذا الشرط احترام الحقوق الخاصة المتعلقة في حرية الاتجار والترانزيت . وبالفعل توزع المستعمرون أراضي القارة الإفريقية ، عدا الحبشة ، التي قاومت المعتدين ، فحافظت على استقلالها بقوة السلاح . وكذلك نجت جمهورية ليبريا من أطماع الطامعين . واشتد الصراع بين القوى المستعمرة على المناطق الغنية ، أو التي كانت تبشر بخيراتها ، أمثال حوض نهر زامبيزي ، والبحيرات الكبرى في إفريقية الشرقية ، والنيل الأعلى وروافده ودلتاه ، ونهر النيجر . ونتيجة لذلك ضاع حق الضعفاء والمترددين . ووقفت بريطانيا تحول دون التوسع الفرنسي في شمال إفريقية ، وانتهى بينهما هذا الصراع كما انتهى من قبل في القارة الأمريكية والقارة الهندية بانتصار بريطانيا ، مالكة القدرة البحرية الكبرى ، وصاحبة السيادة البحرية المطلقة . وقد حاول سيسيل رودس Cecil Rhodes إحقاق حلمه الكبير في ضم المستعمرات ، ووصلها حتى تؤمن ارتباط شرقي إفريقية بغربيها ، وتحت السلطة الإنكليزية .

حاولت البرتغال استغلال الظروف وعالجت أمورها بقسوة متناهية . لكن بريطانيا التي كانت

تقف للجميع بالمرصاد ردّتها على أعقابها ، وطالبتها بإخلاء بلاد الماكولولوس Makololos ، وماشوناس Machonas ثم استولت عليها ، وأتبعتها بمملكتها في جنوب إفريقية .

أما ألمانيا فقد وصلت مقاطعة نياسا Nyassa وتانغانيكا وفيكتوريا ، وبسطت نفوذها ، واقتصرت على تلك البلاد ، وابتعدت عن الصراعات الدولية . وبقيت فرنسا وبريطانيا وحدهما في الميدان ، وهما أكبر دولتين استعماريتين . واشتد تزاحمها في أكثر المناطق الإفريقية ، وكان أشدها على وادي النيل الذي تعتبره بريطانيا مكملاً لتواجدها في مصر منذ عام (١٨٨٢) ، ولتقيم عليه رقابة اقتصادية وعسكرية بعد أن وضعت قناة السويس موضع الاستثمار ، وهي باب تحكمها بطريق الهند . ولمست أهمية هذا الوادي وأهمية البحيرات الكبرى التي تكوّن دربها للاستيلاء على الكاب Cap مفتاح بحار الجنوب .

فتنبت بريطانيا بفكرة الاستيلاء على طول هذا الشريط الاستراتيجي ، وكان همها منع القوى الغربية من الاقتراب منه . وجاءت الثورة المهدية المظفرة فأخرت تواجدها فيه ، والتوضع في مناطقه الحساسة . وازداد قلقها مع اقتراب الفرنسيين من مرتفعات أوبنغي Oubangui ، ففكرت بقطع طريق الريف المصري عليهم ، وأسندت هذه المهمة لحكومة الكونغو ، بعد أن أوردت هذا الشرط باتفاقيتها المعقودة مع ملك البلجيك في ١٢ مايس (١٨٩٤) ، وأجرّته بحر الغزال والضفة الغربية للنيل ، وبحيرة البيرت وفاشودا ، مقابل شريط عريض من الأرض يقع بين بحيرات البيرت وتانغانيكا ، حيث كانت تقيم بريطانيا فيه خطاً حديدياً يعتبر جزءاً هاماً من خط حديد القاهرة ـــ الكاب

رفضت فرنسا الاتفاق البريطاني البلجيكي ، واعتبرته موجهاً ضد تطلعاتها التوسعية بين الكونغو والنيل ، علماً بأن بحر الغزال ملك لمصر ، وتساءلت : من أين لبريطانيا حق التصرف به ؟ .

وقف الألمان إلى جانب الفرنسيين في مطلبهم ، واستطاعوا إلغاء الاتفاقية . لكن سير أدوار غراي وجه لفرنسا في جلسة ٢٨ آذار عام (١٨٩٥) تحذيراً مبطناً من على منبر البرلمان البريطاني قال فيه :

« بريطانيا وصيفة لمصر ، مكلفة بالدفاع عن مصالحها ، ومتعاطفة مع مطالبة مصر بوادي النيل . ولقد طلب مني إذا ما توجهت حملة فرنسية من الكونغو نحو وادي النيل ـــ وليس هناك سبب لمثل هذا الافتراض ـــ أن أفهم الحكومة الفرنسية أن عملاً كهذا سيعتبر عملاً عدائياً ، وكأنه سيصيب بريطانيا نفسها » .

وبرغم محاولة تلطيف التصريح عن طريق القنوات الدبلوماسية ، فقد اعتبرته فرنسا كلاماً يعكس المشاعر العميقة والمكنونة في صدر الوزارة البريطانية ، ويعبر عن الرأي العام البريطاني . وهو تصريح جدير أن يؤخذ بعين الاعتبار . وكادت الأمور تصل إلى حد نشوب عمليات عسكرية ، لولا عقد مؤتمر باريس تشرين الثاني (١٨٩٧) الذي كاد ينجح في تهدئة النفوس ، لولا تغيير مفاجىء في الوزارة الفرنسية . وجاءت وزارة متشددة انطلقت على أثرها حملة فرنسية ، غادرت برازفيل في آذار عام (١٨٩٧) ، وأطلق عليها اسم حملة مارشان Marchand ، ووصلت بحر الغزال . لكن انخفاض مستوى الماء في المعابر المائية منع تقدمها ، فاستقرت في المنطقة ستة أشهر كاملة ، وأقامت نقاطاً دفاعية . ومع حلول حزيران (١٨٩٨) استأنفت الحملة تقدمها ، فوصلت بعد قطعها مسافة (٥٠٠) كم من المستنقعات فاشودا Fachoda في ١٨ تموز .

تحرك جيش مصري ــ بريطاني مشترك بقيادة السردار كيتشنر Kitchner للقاء الحملة الفرنسية ، فوصل دونغولا Dongola واستولى على بربير Berber ، بعد سقوط المملكة المهدية ، إثر معركة أم درمان القاسية . وسقطت الخرطوم عاصمة المهديين في أيدي الحملة . ثم تابعت الحملة بالزوارق صعوداً في نهر النيل باتجاه فاشودا ، لملاقاة الفرنسيين . لكن التفاوت العظيم في حجم الحملتين فرض على فرنسا التراجع عن مواقعها العسكرية ، فأخلت فاشودا وانسحبت نحو دجيبوتي .

والخلاصة فإن إعلان ٢١ آذار (١٨٩٩) أنهى اقتسام القارة الإفريقية التي ضمت مملكتين كبيرتين متوازيتين ، واحدة في الغرب وأخرى في الشرق . وقد ضاعت بينهما ممتلكات القوى الأخرى الأوربية الضعيفة ، والتي لم تحصل ــ عدابلجيكا ــ إلا على فتات موائد الآخرين .

الفصـــل الثـانـي

قضـايـا البحـر الأبيـض المتـوسط والحـروب البلقانيـة

١

إن السنين التي أعقبت مؤتمر باريس (١٨٥٦) قد أعطت فرنسا مركزاً مرموقاً في الشرق الأوسط خصوصاً بعد مساندتها لبريطانيا في أزمتها مع روسيا، ومشاركتها لها براً وبحراً في عمليات البحر الأسود. وقد تعزز هذا المركز بتحالفها مع الدولة العثمانية، وتعهدها بالمحافظة على تكامل أقطارها، متخذة عبء وصاية رسمية على المسيحيين في تركيا والأقطار التي تحت سيطرتها. وقد حضرت عام (١٨٦٠) مؤتمراً لحماية موارنة لبنان، إثر نزاعهم مع الدروز والمسلمين في المنطقة، ونصبت نفسها وصياً عليهم. كل هذا أدى بفرنسا وبهدوء إلى تعزيز مركزها العالمي، ومسح آثار الاتفاقيات المهينة (١٨١٥)، فاستعادت بذلك بعضاً من ذاتها، وأخذت تزاحم بريطانيا في الشرق الأوسط، لاعبة دور بطلة الديانة المسيحية، دون أن تغضب السلطان العثماني. فحققت العديد من النجاحات، ورفعت من مستوى تجارتها، بعد أن فتحت قناة السويس (١٨٦٩) أمام الملاحة الدولية.

٢

عاد الاخفاق يلاحق فرنسا من جديد بعد هزيمتها الثانية عام (١٨٧٠) وتدهورت سمعتها العسكرية لدى العثمانيين، بعد أن كانوا يصنفونها بالدولة الأوربية الأكثر قوة. وساءت أحوالها الاقتصادية، ونضبت مواردها، فانطوت داخل حدودها تعالج آلامها، وتعيد تنظيم مؤسساتها العسكرية والسياسية، مبتعدة عن كل تدخل أو توسع خارجي ــ عدا القطر الجزائري ــ الذي

اعتبرته آنذاك امتداداً طبيعياً لفرنسا عبر المتوسط. ويمكن القول إن اهتمامات فرنسا انحسرت عن الحوض الشرقي للمتوسط، واكتفت بحوضه الغربي.

أمم أخرى عديدة اعتقدت بنفسها المقدرة على أخذ مكانة فرنسا في المنطقة، وأولاها إيطاليا التي أنهت وحدتها، واستولت على روما عاصمة للبلاد. وتوجهت نحو البحر تجاري الآخرين، تمد من ممتلكاتها، وتحيي ذكرى أمجاد الإمبراطورية الرومانية المنقرضة. وجهدت بالفعل، وفي جميع المضامير لتعزيز موقعها الجغرافي في حوض البحر الأبيض المتوسط، واندفعت جهاراً تطلب حيناً، وتتوعد حيناً آخر، تطالب بنصيب من تركة الدولة العثمانية الهرمة، وفي مستعمرات فرنسا في المتوسط وشمال إفريقية، وفكر بعض قادتها المتحمسين باستغلال استكانة فرنسا، ومهاجمة جزيرة كورسيكا، لضمها للاتحاد الإيطالي (١٨٧١)، ومهاجمة سواحل تونس بأسطول سبيزيا Spesia، لولا تصدي البريطانيين والعثمانيين لنزواتهم الذي جعلها تتراجع عن أفكارها المتهورة. وقد قيل آنذاك إن إيطاليا تتطلع لتكون دولة عظمى في المنطقة، على حساب ممتلكات الآخرين، ساعية وراء كلمات بيسمارك الشهيرة التي تقول:

«إيطاليا وفرنسا لن تصلا إلى تفاهم يخدم مصالحهما المشتركة في المتوسط لأن هذا البحر إرث صعب التجزئة بين أفراد الأسرة الواحدة».

وفي الدول التي استفادت من تعثر فرنسا روسيا القيصرية. إذ أنها أرسلت بعد أربعة أيام من تاريخ الاستسلام الفرنسي في ميتز Metz، وعلى لسان مستشارها غورتشاكوف[١١٤] Gortchakoff مذكرة إلى الوزارات الأوربية مرسلة من القيصر نفسه، يتحلل من ارتباطاته وتعهداته الدولية السابقة التي صادق عليها في مؤتمر باريس، وطالب باستعادة سيادته على البحر الأسود.

ثارت بريطانيا من هذا الإخلال الذي يعني انتزاع كل الفوائد التي كانت قد جنتها من حرب القرم. إلا أنها لم تستطع دعم احتجاجها بالقوة لضعف حليفاتها، فلجأت إلى عقد مؤتمر لندن ٣١ آذار (١٨٧١)، وفيه أقر التصرف الروسي، وعادت الآمال للقيصر، فاستعاد سيواستيول، وبدأ تعمير أسطول حربي كبير خصصه للبحر الأسود. وبدأت أحلام الأمس تراود مخليته من جديد (١٨٧٧)، حول سيطرة روسيا على الشعوب السلافية في البلقان، وتوحيدها ضد الدولة العثمانية المسلحة، للنفوذ عبرهما إلى قلب دولة بني عثمان الهرمة، وكسر قيود المضائق البحرية في البوسفور والدردنيل، والنفوذ إلى البحر الحر، حلم بطرس الكبير.

اندلعت الحرب في ٢٤ نيسان (١٨٧٧)، وكانت حرباً صليبية بين الشعوب السلافية والدولة العثمانية، غير متكافئة. وتوقع المراقبون العسكريون انهيار الجبهة التركية السريع. وهذا ما حدث فعلاً. وقد تلكأ الأسطول البحري التركي في دخول المعركة، برغم تفوقه العددي في البحر الأسود.

ونقدمت الجحافل الروسية على الجبهة البرية ثم توقفت أمام بليفنا Plevna لشدة المقاومة العثمانية، ثم استعادت سيرها بعد وصول إمدادات جديدة. وتتابع الزحف بعد العاشر من كانون الأول، واجتازت الجيوش الروسية بلاد الروملي، ووصلت طلائعهم ضواحي الآستانة (استنبول)، قرب سان ستيفانو في شباط (١٨٧٨)، وتقدمت جيوشهم في أرمينيا فاستولت على آرزروم وكارس، ووصلت عقدة الطرق التي تتحكم بالقوقاس وإيران، مع تهديد استنبول عاصمة البلاد.

تحركت بريطانيا لتوقف تمادي الروس، وهي التي حاربت من أجله في السابق، واعتبرت تسلل النفوذ القيصري تهديداً كاملاً لمصالحها في المنطقة. وتلك رغبتها منذ البداية، فهي تتمنى وقوع مثل تلك الحرب، لتختار الزمان والمكان المناسبين لتتدخل في وقف الحرب دبلوماسياً إن أمكن، ساعية من وراء ذلك لانتزاع حقوق مسيحيي البلقان بأسلوب دبلوماسي، عملاً بتصريحات دزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا التي تقول:

«الصراع واقع لا محالة، والأفضل أن يحدث بسرعة ونحن بحاجة لتضحية».

وهذا يعني مباركة بريطانيا للحرب، لكنها لا تبارك أو تعترف بأية مكانة روسية في المنطقة، وستقوم بسد الطريق عليها، بتجميع قوى أوربة ضدها، حتى تجنب نفسها وضع قيود دولية عليها، قد تعرض تواجدها الاستراتيجي في حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي، وبالذات في جزيرة قبرص وأرض الكنانة.

وبالفعل ماإن وصل التهديد الروسي لاستنبول حتى أصدر دزرائيلي أوامره لأسطول الأميرال هورنبي Hornby الذي كان يرسو بسفنه في بيزيكا Bezika، وطلب منه مراقبة تحركات الروس عن كثب، ليقف سداً لهم عبر المضائق، وحتى جزر البرانس في البوسفور شباط (١٨٧٨).

أُبعد اللورد ديربي من وزارة الخارجية البريطانية، وقد عرف عنه طيبة قلبه، وعين اللورد سالزبوري خلفاً له وهو المعروف بتشدده في الأزمات الدولية. وسارع في أول أيام تسلمه للمنصب الجديد إلى إصدار الأوامر المتعلقة بتعزيز الوحدات الدفاعية البريطانية في كل من جبل طارق وجزيرة

مالطة . ثم استدعى قواتٍ إضافيةً من الهند ، وضعها متأهبة في المنطقة . ولما أعد كل شيء طالب في أول نيسان روسياً رسمياً بإعادة نظرها في إتفاقية سان استفانو التي اعتبرتها بريطانيا مضرة بمصالحها الحيوية .

أسقط في يد الروس وتوقعوا انضمام دول أوربية أخرى إلى جانب بريطانيا دولياً ، خصوصاً بعد أن تخلت ألمانيا عن روسيا ، ورفضت الوقوف إلى جانبها ، إثر هزيمة سادوا Sadowa ٣ تموز (١٨٦٦) التي أبعدت بلاد النمسا عن أحلام ألمانيا التوسعية . وقام الهنغاري آندراسي[١١٥] Andrassy الذي يكره السلافيين فوقف يعادي ، وبتوجيه من بيسمارك الروس ، ويقيم تجمعاً مضاداً لهم في المنطقة ، ويساند السياسة النمساوية في البلقان . وهذا يعني تحالفاً بين بسمارك وآندراسي لدعم الإنكليز في موقفهم المتشدد من الروس .

عقد مؤتمر برلين ، وخرجت روسيا منه خالية الوفاض عام (١٨٧٨) ، وأنقذت تركيا ، وحجمت بلغاريا ، ووقف الاتحاد الهنغاري النمساوي حارساً لألمانيا في وجه السلافيين . وكسبت بريطانيا حق التواجد العسكري الكامل في جزيرة قبرص ، بعد أن بارك السلطان العثماني مطلبها ، بحجة أن وضعها في الجزيرة مطلب استراتيجي يسمح لها منه مراقبة خطوط المواصلات البحرية والتحركات الحربية في المنطقة ، فتحمي بذلك طريق الهند عبر قناة السويس ، وتكون بالمرصاد لروسيا بحراً ، تاركة لألمانيا حق التواجد في أوربة الوسطى ، كمنافس للسلافيين ، وحليف لها في المنطقة .

العمليات الحربية البحرية حتى إعلان سلام ٣ كانون الأول

كان تحقيق سيادة بحرية في منطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط وحده كفيلاً بإنقاذ تركيا من صراعها المرّ على مختلف الجبهات . فجيوشها تحارب في تراس Thrace وماسيدونيا ، وبقوات تزيد عن (٣٥٠) ألف مقاتل ، تصارع جيوش التجمع البلقاني التي تزيد أعدادها عن (٦٠٠) ألف مقاتل . وقد حاولت تركيا تعزيز جبهتها الأوربية ، بنقل العديد من الفرق العسكرية المتواجدة في الشرق الآسيوي ، إلا أنها لم تستطع تنفيذ ذلك بحراً عن طريق الشواطىء السورية عبر المتوسط لقلة وحداتها البحرية وضعفها ، وبعدم رغبة الأسطول التركي في دخول معركة حربية غير متكافئة ، يمكن أن نسميها بدقة أكثر ، غياب سيادة بحرية تركية في المنطقة . والأسطول التركي كان يضم آنذاك (٢٤)نسافة وطرادين خفيفين ، هما مجيدية وحميدية ، وثلاث بوارج خفيفة هي مسعودية وخير

الدين بربروس وترغوت ريس . والذي بقي يتجول في بحر مرمرة دون أن يخرج منه عدا خرجتين اثنتين إلى البحر الأسود ، قصف خلالها مرفئي بورغاس وفارنا .

طالبت تركيا بوقف القتال بعد أن أنهكت قواها خلال معارك طويلة وقاسية . ولم يعترض البلقانيون لأنهم لم يكونوا أكثر حظاً من الأتراك ، ويرغبون في إنهاء تلك الحرب المرة الشاقة ، خصوصاً وأنهم في موقف المنتصر . حتى إن بحرية اليونانيين استطاعت إثبات فعاليتها في المنطقة ، حيث احتلت العديد من الجزر دون أن يحاول الأسطول التركي مجابهتها . ولو فعل وكان أكثر استعداداً للمعركة لغير الكثير من نتائج الحرب البلقانية ، وحرم اليونانيين من سيادة البحر في المنطقة . لكن انقلاباً في تركيا ٢٣ كانون الثاني (١٩١٣) أسقط الحكومة لصالح حزب تركيا الفتاة ، وأزيح قائد البحرية القديم طاهر بك ، وعين بديلاً عنه رمزي بك الشجاع المقدام ، الذي عبر الدردنيل لمرتين ، وهاجم الأميرال اليوناني كوندوريوتيس Condouriotis في ١٦ كانون الأول ، وفي ١٨ كانون الثاني ، وأخيراً سطر العقيد البحري التركي رؤوف بك صفحات من المجد البحري لدولته ، إذ خرج دون أوامر من الدردنيل بطراده حميدية ، ودخل الأرخبيل اليوناني ، وهاجم سفن اليونان التجارية وقطع خطوط مواصلاتهم البحرية ، واستطاع إغراق الطراد اليوناني ماكيدونيا قرب جزيرة سير Syra ، وأنزل الرعب في قلوب اليونانيين ، فاضطرت قيادتهم لاستنفار عدة وحدات بحرية كلفت بمطاردة الحميدية . وهنا عبر رؤوف بك قناة السويس يسعى وراء السفن اليونانية التجارية في البحر الأحمر ، ثم عاد في ٩ شباط إلى المتوسط ، وقرب مالطة أغرق سفينتين يونانيتين ١٢ آذار ، ثم قفل راجعاً إلى الاسكندرية ، وأغرق في طريقه سفينة يونانية ثالثة محملة بالجنود الصربيين . واستطاع هذا القائد الشجاع وبمبادهة شخصية إزعاج اليونانيين بعد أن هدد خطوط مواصلاتهم البحرية عبر المتوسط . لكن نشاط هذا القائد حدث متأخراً ، حيث الجبهات البرية تنهار أمام حشود المهاجمين ، وقادة تركيا ينتظرون معاهدة السلام التي جرت أحداثها في لندن ، والتي أنهت الوجود التركي على البر الأوربي ، إلا من رقعة بسيطة لحماية استنبول والمضائق . إلا أن معاهدة السلام هذه لم تنه الأحقاد في النفوس ، وتركيا تقبلت شروطها على مضض ، لأنها تتطلع إلى الصلح بعد أن أصبحت غير قادرة على متابعة الحرب ، وقد تألبت عليها جميع شعوب البلقان . أما السلام المنشود فلم يتم ، با تفجر بين دول البلقان نفسها ، حيث هاجمت بلغاريا حلفاءها بعد شهر واحد من مؤتمر لندن ، لأنها خسرت مكاسبها في ماسيدونيا ، فحقدت تنتظر فرصة أخرى للثأر من حلفاء الأمس .

على أثر التحولات العديدة التي طرأت على شعوب البحر الأبيض المتوسط أخذت أمم هذا

البحر الصغير باستعادة توازنها السياسي. وهذا طبيعي جداً، بعد الأحداث العسكرية التي شهدتها المنطقة. إلا أن فوضى التكامل جعلها طعماً للدولتين الكبيرتين بريطانيا وفرنسا، ومجالاً لأحلام أطماع روسية جادة نحو استنبول والمضائق البحرية، وبابا تطرقه إيطاليا الموحدة لتغرف نصيباً من إمبراطوريتها القديمة البائدة، وهدفاً تسعى إليه اليونان مدفوعة بوطنية إحياء الإمبراطورية الهيلينية، ويبحث عن مكان لها في خضم الصراع الدولي المتكالب على شواطىء المتوسط من طنجة إلى المضائق عبوراً بقناة السويس.

استعمر الشاطىء الإفريقي من البحر الأبيض المتوسط من قبل أربعة سادة أوربيين. ولم تصب روسيا أي مكسب، وبقيت محشورة في بحرها الأسود، عاجزة، وهي التي لم تصح بعد من ضربات اليابانيين المؤلمة التي أصابتها في الشرق الأقصى. أما إيطاليا فقد استفاقت من مرارة أحداث عام (١٨٩٦)، ونجت بصعوبة من الأخطار التي أصابتها من جراء سياستها المغامرة التي لا يمكن أن تتلاءم مع مواردها المالية. واكتفت بالأرض الليبية، واعترفت بمصالح اليونانيين في الأرخبيل، وبمصالح فرنسا الواضحة في تونس.

بالنسبة لفرنسا كان الموقف مختلفاً عن الآخرين. وتمسكت بقوة بمكاسبها التي حققتها في الشرق الأوسط عامة، لكنها شعرت بقلة مردود تمسكها هذا، فضحت بالكل في سبيل إمبراطوريتها الجديدة على الساحل الشمالي لإفريقية. ولم يبق من الحضور إلا بريطانيا التي دخلت السباق الدولي متسلحة بأفضل سلاح، وهو سيادتها البحرية المطلقة. واستطاعت بسهولة الاستيلاء على كل مفاتيح البحر الأبيض المتوسط في كل من جبل طارق ومصر وقبرص. وعندما شعرت بتزايد النفوذ الألماني في المنطقة تزايداً قد يهدد مصالحها تخلت عن انعزاليتها مدفوعة بهدف الحفاظ على مكاسبها، واقتربت من فرنسا فهادنتها لتقف أمام مخاوف قد تكون مشتركة، وقد يكون لروسيا فيها دور كبير. ويمكن القول إن ضمن القوى المتوسطية، أي بين كل الورثة الشرعيين للإمبراطورية العثمانية المحتضرة، قام توازن وصف بالتلقائي. وهو بالنسبة لدول أوربة التي وقعت أحياناً ضحايا أزمات ساخنة هبت عليها من الشرق، بمثابة حد أمين قائم على السلام، يقف حيال أية هجمات دخيلة وخطيرة، قد تفجرها الإمبراطورية الجرمانية الجديدة.

الفصل الثالث

القوى العظمى
والتوازن البحري بين أعوام (١٨٧٠ ـ ١٩١٤)

يتضح من كل ما مرّ ذكره أن النتائج الأساسية للتطور العالمي في القرن التاسع عشر هو في تحويل قوى الأمس الأوربية إلى تجمعات دولية. وتأتي المصالح الحيوية لتلك الدول لتفرض لعبتها على كل أطراف المعمورة. فقضايا التوازن والأمن الأوربيين لم يفقدا حدّتهما، برغم اشتراك آخرين في اللعبة، حتى شملت أكثر شعوب الأرض. وتصرفت التجمعات الدولية بما يخدم مصالحها، فارضة على الأولين دوراً جديداً أساسه البحر، وسيادته، وعلاقات الآخرين به. وهو الذي وحد اتجاهات تلك القوى وسيرها في طريق تحقيق المنافع المتشابهة، فدخل في حياتها العامة، سلماً كان أو حرباً، ووصل إلى درجة من الأهمية لم يصل إليها من قبل. ولم يعد للقوى البرية وحدها مثل هذا الوزن إلا بتضافرها مع القدرات البحرية. ففي خلال الـ (٥٠) عاماً الأخيرة اعتمد التوازن الدولي الأوربي على القدرات البحرية، وعلى تطور وتعاظم هذا السلاح الذي اعتبر أساسياً في عظمة الأمم وسياستها ومظهراً من مظاهر مجدها الأكثر حساسية.

التفوق البريطاني البحري خلال أعوام (١٨٧٠ ـ ١٨٨٥)

عرفت بريطانيا مجداً بحرياً وسياسياً قل ما وصلت إليه دولة معاصرة من قبل. فهي الأولى بحرياً، وأكثر الدول استعماراً في العالم. وكل ما عداها كان نشاطاً محدوداً خاصاً ومحلياً. ومثال ذلك

البحرية الاسكندنافية المزدهرة، والبحرية الهولندية العريقة، والبحرية الألمانية الشابة، التي توحي بالمزيد من التعاظم والتطور. ولم يشذ عن ذلك إلا البحرية الأمريكية التي ضمت أعداداً ضخمة من السفن التجارية، تعمل في كل البحار، وعلى كل شواطىء المعمورة، والتي يمكن اعتبارها منافساً حقيقياً لسفن العلم البريطاني. وهي وحدها كفيلة بمزاحمة أساطيل الآخرين، حتى فرنسا التي ظلت بتعداد أسطولها البحري بين حربي وتجاري ضمن حدود معقولة، كبلد قارّي، عليه التزاماته البرية في الساحة الأوربية تفوق إمكاناته. وكذلك الأمر في إيطاليا وإسبانيا. أما روسيا فسفن أسطولها من الحجم الصغير وكانت مخصصة للبحر الأبيض المتوسط فقط.

استمرت البحرية البريطانية تزداد عدداً وعظمة، ترفدها بحريات مستعمراتها العديدة، أمثال كندا وأوستراليا. وغدت قادرة على تأمين كل المواصلات البحرية بين دول أوربة والمستعمرات، وقادرة أيضاً على نقل منتجات العالم فوق سفنها العديدة، وبامكاناتها الضخمة. ولهذا نستطيع الجزم بأن من المستحيل في ظروف كهذه أن تتهاون بريطانيا في مبدأ تحقيق سيادتها على البحر. لأنها تعتمد عليه في تأمين سيطرتها المطلقة. وقد كان بالفعل هم كل الوزارات البريطانية المتعاقبة، برغم الكلف الباهظة. إذ دأبت على تحسين أوضاع هذا السلاح الثمين، بإعادة تنظيم مؤسساته على أسس حديثة، سرعان ما لمست نتائجه الباهرة. وكان هذا الاندفاع الفطري والشرعي في تطوير سلاح البحر رائد كل الكتل البرلمانية البريطانية المختلفة، تساند وجوده وترقب تنفيذه، دون أية تحفظات، برغم أن نفقاته تدرج عادة في باب النفقات غير المنتجة.

Depenses Improductive

جاء على رأس المساندين لسلاح البحر البريطاني، وبشهادة العديد من المراقبين الإنكليز والأجانب اللورد م. شيلدرز [١١٦] M. Childers، وهو اللورد الأول في الأميرالية البحرية في وزارة غلادستون (١٨٦٨ ــ ١٨٧١) الذي حقق قدرة الأسطول البريطاني الفاعلة، مع اقتصاد في الإنفاق واكتفاء ذاتي في الخدمات. وقد سعى إلى تطبيق برامجه التطويرية مدفوعاً بواجب وطني بأعلى مستويات الوفاء والاخلاص لذاك السلاح. وقد ارتقى بسلاح البحرية البريطاني عام (١٨٧٠) بطواقمه الثابتة المتطوعة، والمفرزة بقادة نظاميين، تلقوا المعرفة العلمية، وتخصصوا في امتهان عملهم في أعلى المعاهد، وطبقوها ميدانياً في أحدث سفن جهزت بأفضل المستكشفات البحرية العلمية، وأرقى الأجهزة، حتى أصبحت البحرية البريطانية جيشاً فوق سطح البحر، بكامل صفاته القتالية.

استطاع شيلدرز تفجير ثورة تحديث في الأميرالية البريطانية، مستبعداً الإدارة القديمة، لاغياً

غرفة المستشارين البحريين التي كانت تضم عجائز رجال البحر، ثم استعاض عنها بوكلاء للوزراء من الوسط الشاب المثقف بفكر حديث، ضم الأخصائيين الفنيين، وجعل لكل فرد منهم حصانة لمستقبله ليقدم أقصى طاقاته. وتم له كل شيء بدقة مدروسة. وخير دليل على ذلك ميزانية سلاح البحر التي جاءت أقل من أية ميزانية للبحرية خلال (٢٥) عاماً منصرماً، مع المحافظة على مستوى عال من التفوق الفني والعددي، اعتبره ضرورياً لمجاراة القوى البحرية الأخرى في العالم، والتمسك بمركز الصدارة بينهم.

لقد جاء تعاظم القدرات البحرية في العالم نتيجة رغبة الحكومات، وتوفر الموارد المالية. ونخص بالذكر الدول الغنية التي تحولت إلى أمم بحرية، خلال فترة قصيرة من الزمن، دون أن يكون تطورها هذا متوقعاً. وأولى هذه الدول النمسا التي أعطت هذا الموضوع وبصورة مفاجئة اهتماماً متزايداً لضرورات سياسية نابعة عن موقعها الجغرافي المجاور لإيطاليا الموحدة.

يعود الفضل في تطوير سلاح البحر النمساوي لتيغيتوف Teghetoff، وبتوجيه من بيسمارك ليكون سلاحاً شاملاً للتحالف النمساوي الهنغاري والذي وصل تعداد وحدات أسطوله عام (١٨٩٠) إلى (١١) بارجة حديثة، شاركت في رسم سياسة واستراتيجية الموقف البحري المتوسطي الأوربي بشكل عام.

ظل سلاح البحرية الهنغاري النمساوي ضمن الإطار الذي رسم له، باعتباره لدولة قارية قليلة السواحل، على عكس الجارة إيطاليا التي أعطت سلاحها مزيداً من الاهتمام، حتى جعلته في عداد المتفوقين في حوض البحر الأبيض المتوسط. إلا أنه سرعان ما خمل واستكان، بعد احتلال فرنسا لتونس. وكان المهندس العبقري بران M.Brin الذي أفاد من المخصصات المالية الضخمة التي وضعت بين يديه يبني وحدات هذا السلاح على أسس علمية صحيحة، مستعيضاً بالكيف عن الكم، حتى وصل بها إلى مصاف سفن الدول الأوربية العريقة بحراً، من حيث الميزات التعبوية والإمكانات القتالية. وبذلك ضمن لبلاده سلاحاً هجومياً قوياً يضم أكبر البوارج المدرعة طراز ايتاليا Italia سبع منها مسلحة بـ (٢٨) مدفعاً ضخماً، وتصل سرعتها لأكثر من (١٨) عقدة (غالبية البوارج بـ (١٤) مدفعاً وسرعة (١٤) عقدة). وكان هم إيطاليا الأول في تعزيز قدرتها البحرية السريع تحقيق أمنية غالية على أذهان رجال البحر بجعل المتوسط بحيرة إيطالية.

إن تطوراً مشابهاً في سلاح البحر تم لألمانيا التي حولت كل الغرامات الحربية لصالح ميزانية الأسطول، فعززت موارده المالية، وحققت تنفيذ برنامج بناء السفن لعام (١٨٦٧)

Flottengrîndungsplon . فخلال سنوات عشر ملكت ألمانيا أسطولاً ضخماً ، ضم (٦) دارعات جميلة ، وعدة طرادات رائعة ، لها قدرة العمل في كل الظروف ، وتستطيع تقديم الحماية لخطوط المواصلات البحرية ، وتأمين مصالحها الاقتصادية .

لم ينح بيسمارك السياسي الفذ منحى إيطاليا في معاداة فرنسا في المتوسط ، بل كسب ودها ، وأبقى على بريطانيا صديقة تضمن له سياسته الأوربية ، ورفض طلب مولتكيه [(١١٧)] Moltke رئيس أركانه في تسليح الشواطىء الألمانية ضد أي حصار ، أو إنزال معاد ، وأصر عليه للاهتمام بسفن السطح التي أرادها سريعة وقوية ، تستطيع التحرك للتدخل الحربي في أي مكان يريده . وبالفعل وصلت دارعاته لـ (١٢) دارعة قادرة على مجابهة قوى الآخرين ، بكفاءة عالية . وهذا ما برهنت عليه وحداته في المواقع الحربية البحرية التي حدثت خلال الحرب العالمية الأولى ، والتي أدهشت العالم ، فدخلت قائمة مجتمع القوى العالمية الكبرى .

جاء تطور الأساطيل في دول أمريكا الجنوبية وئيداً ، فقد امتلكت كل من البيرو والشيلي والبرازيل والأرجنتين أساطيل متواضعة ، اتصفت بصفة الواقعية المحلية ، وليس لها كبير شأن في الأدوار السياسية العالمية . في حين نشطت أساطيل الصين واليابان نشاطاً ملحوظاً ، حيث بنت كل دولة قوة بحرية كبيرة قادرة على التصدي لأية هجمة استعمارية أوربية ، في عصر جال المستعمرون التقليديون بحارهم يسعون وراء المزيد من المكاسب والممتلكات .

أما الولايات المتحدة الأمريكية فأمرها فريد ، وهي التي حملت كامل مسؤولية الدفاع عن شعوب القارة الجديدة ، بعد أن طوت عهد الانطواء ، ودخلت مشاكل العصر من بابه الواسع ، متسلحة بقوة عسكرية بحرية ضخمة قادرة على فرض شرائعها في دول أمريكا أولاً ، ودول العالم الحر إن دعت الضرورة ثانياً . ثم روسيا التي حافظت وعلى مدى (٤٠) عاماً على قوة بحرية كبيرة في العدد ، صغيرة في الوحدات ، ضمت عائمات وزوارق صغيرة مسلحة ، وزعتها بين بحري البلطيق والأسود ، وبضعة طرادات جعلتها في بحر الصين . إلا أن أحداث عام (١٨٧٥) وما تعاقب عليها فرض على الروس بناء أسطول حديث من البوارج المدرعة لمقارعة اليابانيين في أحداث الشرق الأقصى . وكانت أغلبها من طراز التشيسما Tchesma للبحر الأسود وطرازي نافاران ورويك . وهي أثقل من التشيسما ، وزعتها على البحار البعيدة ، والمرافىء الواقعة في مواجهة اليابانيين .

لا بد لنا وقد استعرضنا أساطيل العالم من أن نأتي على ذكر أسطولي تركيا وإسبانيا اللذين حاولا التأقلم مع الظروف المستجدة في بلديهما. وقد قدما تضحيات مالية كبيرة لا تتناسب وأوضاعهما الاقتصادية، لرفع مستوى قدراتيهما البحرية، مدفوعتين باعتزاز تاريخهما العريق الذي فقداه أمام ضغوط الأحداث الداخلية والخارجية على حد سواء، فراحتا تتخطيان، وبالنظر فقط، آفاق الحاضر وتعجزان بالفعل عن اللحاق بركب تطور بحريات الآخرين لقلة مواردهما المالية.

في غمرة كل تلك النشاطات ظلت بريطانيا القدرة البحرية المميزة في العالم، تخطو بثقة وجدارة مدعومة بشعبها الذي لم ينكر في يوم من الأيام حق هذا السلاح ومتطلباته، ولم يأسف على أي درهم أنفق عليه، حتى غدا أسطورة العصر. ولقد زاد من اهتمام البريطانيين في هذه القدرة تطور البحرية الألمانية السريع. وألمانيا كما نعرف ليست بالحليفة الأمينة لها، خصوصاً ومصالحهما متضاربة، برغم التجانس العرقي الذي كان من واجبه شد عرى الترابط الثقافي والسياسي. ولطالما تطلعت بريطانيا إلى تكريس الجهود للمحافظة على المركز البحري العالمي الأول، بتقوية أساطيلها في الأطلسي والشمال، لمجابهة قطع ألمانيا البحرية الحديثة جداً وفي المتوسط، لمجابهة وحدات أسطول إيطاليا الغنية، التي تقصمت ظاهرياً دور شرطي في المتوسط، يعمل لصالح بريطانيا أحياناً، عندما يكون دوره إزعاج القوة البحرية الفرنسية هناك.

وبرغم كل الاعتبارات السياسية التي أحاطت ببريطانيا التي عززت دورها السياسي في عصر التوسع والاستعمار، بدت حذرة من توسع رقعة الممتلكات الفرنسية وراء البحار، وفي إفريقية. واعتبرتها مزاحماً خطيراً شديد البأس فوق البر الأوربي، ومزعجاً في بحاره.

في الشرق الأوسط وعلى أثر أحداث الإسكندرية وتصريحات عرابي باشا ١١ حزيران (١٨٨٢)، قررت كل من بريطانيا وفرنسا إرسال مجموعة من السفن لمياه الإسكندرية، تعبيراً عن تواجدها هناك. وطلبت فرنسا عقد مؤتمر دولي بتشجيع من بريطانيا التي كانت ترمي من ورائه توريط فرنسا في فخ نصبته لها، في حين تستعد هي للجوء إلى السلاح، لإعادة الاستقرار في ربوع مصر، التي تعتبرها منطقة نفوذ لها، مبعدة فرنسا. وقد أرسلتها تغوص في متاهات المؤتمر ومباحثاته. وبالفعل أصدرت الوزارة البريطانية ٤ تموز أوامرها إلى الأميرال بوشامب سايمور Beauchamp Saymour بقصف قلاع الإسكندرية فيما لو رفض عرابي باشا تسليمها، الأمر الذي فاجأ فرنسا، وجعلها تتخلف عن المشاركة، وكان ذلك سبباً في سقوط وزارتها.

في ١١ تموز وبسهولة تامة اصطفت سفن بوشامب، وفتحت نيران مدافعها على القلاع المحيطة بالإسكندرية فدكتها. في حين تقدمت جيوش الجنرال ويلسلي Wolseley تحتل أرض الدلتا، وتحاصر القوات المصرية في موقع يسمى بالتل الكبير، فتقطع عليها طريق انسحابها نحو القاهرة، وتشتتها فلولاً. ثم تتابع القوات البريطانية الغازية زحفها فتدخل القاهرة في ١٥ منه، وتسيطر على العاصمة المصرية. ومن هناك تسيطر على أرض مصر، وتحبط ثورة عرابي باشا الشهيرة، حيث تدفعه بعيداً عن العاصمة، وعن قناة السويس، فتؤمن بذلك ملاحتها فيها، ثم تتبع ذلك إرسال المستشارين البريطانيين للخديوي فيقيمون في كل مكان حساس من أرض مصر حكاماً حقيقيين. كل ذلك أدى إلى توتر في العلاقات الفرنسية البريطانية، والتركية البريطانية على حد سواء.

أرسلت تركيا حملة عسكرية لقناة السويس محمية من شرقها بسيناء الواسعة وجنوبها بالسودان في ظل حكم الدراويش. لكن الحملة لم تفلح وجاءت اتفاقية استنبول الدولية ١٢ كانون الأول عام (١٨٩٨) فحيدت القناة، وأعطت بريطانيا مواقع استراتيجية أحاطت بالبحر الأحمر، باستيلائها على قاعدة عدن الشهيرة، وبإقامة حكم موال لها في السودان، وبطرد الفرنسيين والأتراك في آن واحد. وسيطرت بريطانيا بسياستها النافذة على كل أرض مصر، وعلى قناتها الشهيرة. وأبعدت روسيا عن الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط عبر مؤتمر برلين الذي جاء نصراً كبيراً لبريطانيا في المنطقة ببنوده المقرة وهي:

- إبعاد روسيا عن الآستانة (استنبول)، ووضع دولة مستعرضة هي رومانيا المستقلة، مع إقامة محور جرماني مضاد للمحور السلافي في المنطقة.
- تحجيم بلغاريا وانتزاعها من الوصاية الروسية، وإخضاعها للنفوذ النمساوي الألماني، بعد أن انتخب الأمير فيرديناند دوساكس كوبور أميراً لبلغاريا عام (١٨٨٧).

حاولت روسيا أثر أبعادها عن البلقان التوجه نحو آسيا عن طريق إيران وتركستان. لكن بريطانيا لم تدعها تفعل، ووقفت لها بالمرصاد، حيث عززت على حدودها دولة الأفغان تجابه تركستان الروسية، إضافة إلى الحدود الطبيعية التي تفصلها عن بلاد الهند بالجبال الشامخة والصحاري الشاسعة. أما على حدود آسيا الصغرى فقد لجأت بريطانيا إلى أسلوب إحياء قوميات الأقليات هناك للوقوف أمام التوسع الروسي (أرمن، أكراد، شركس). واعتبرت بريطانيا نفسها حامية لتلك الأقليات، بمعرفة سلطان الدولة العثمانية. وبذلك قطعت روسيا كل المحاور التي كانت

ترغب التسلل منها عبر الشرق. وما إن طاب لبريطانيا المقام، واستقرت أوضاعها السياسية في المنطقة حتى باشرت تقطيع أجزاء الدولة العثمانية بخطة استعمارية مدروسة.

دخلت ألمانيا الصراع البلقاني التركي ليس بإشهارها للسلاح بل بغزو تجاري صناعي، سرعان ما أعطى ثماره في تلك البلدان، حتى إن غليوم الثاني الذي وقف إلى جانب الدولة العثمانية لقب بصديق الـ (٣٠٠) مليون مسلم. وفتحت أسواق الدولة العثمانية المترامية الأطراف أمام منتجات ألمانيا الصناعية المزدهرة، وقدم رجال الأعمال الألمان فأقاموا في أطراف الدولة العثمانية، يديرون أعمالهم، وبوشر على أثر ذلك بمد خط حديدي يربط استنبول بحلب وحتى بغداد.

قلقت كل من روسيا وبريطانيا من التقارب التركي الألماني. والتقى الملك البريطاني إدوار السابع بقيصر روسيا نيقولا الثاني في ريفيل بجو مفعم بالصداقة، وتحدثا عن فكرة إقامة محور ثلاثي روسي بريطاني فرنسي يجابه التقارب الألماني التركي. وفي الوقت نفسه عملت بريطانيا جاهدة لحماية تواجدها في الخليج العربي. ونجحت في مفاوضاتها مع تركيا وحصلت على حق انتدابها للكويت. وهو الميناء الأفضل المجاور لشط العرب. وحصلت أيضاً من تركيا على تعهد موثق تتعهد به تركيا بعدم مد الخط الحديدي خارج البصرة إلى البحر إلا بعد أن تستشير بريطانيا، وحتى تكون لبريطانيا إمكانية مراقبة هذا الطريق التجاري، ومراقبة السياسة المستجدة في الشرق.

خرجت فرنسا من لعبة الحوض الشرقي للمتوسط خالية الوفاض، فانسحبت إلى حوضه الغربي تعزز تواجدها فيه.

بالنسبة لإيطاليا وأطماعها في المنطقة كان لا بد لها من التحرك. وبالفعل ففي خلال أعوام (١٩١١ ــ ١٩١٢) أعلنت حربها على السلطان، وباشرت وضع يدها على ليبيا. وهاجمت الحبشة، واستولت عليها بعد أن كانت قد أصيبت بهزيمة نكراء في محاولتها الأولى، حيث دافع الأحباش عن بلادهم بضراوة ودفعوا بالطليان إلى شريط ساحلي صغير من أرض أرتيريا.

قدم الأسطول الإيطالي إلى السواحل الليبية دون أن يلقى أية مقاومة بحرية عثمانية، وأنزل ما يقرب من (٨٠) ألف مقاتل بكامل معداتهم وذخائرهم. وقد أشرف الأميرال أوبري **Aubry** على سير العمليات بصفته قائداً عاماً للحملة. واستطاعت طراداته تدمير بضعة النسافات التركية المتمركزة على الساحل الألباني، عندما حاولت إزعاج عملياته البحرية حول شواطىء ليبيا، وخلت

له المنطقة فجاء بأسطول ايطاليا الكبير وحاصر سواحل طبرق وطرابلس الغرب ، وأجرى عمليات إنزال الجند دون كبير مقاومة على البر الليبي .

حارب السنوسيون الطليان المغتصبين فترة طويلة ومنعوهم من التغلغل في البلاد ، وتركوهم لا يتجاوزون الشريط الساحلي . ووصلت الليبين بعض الإمدادات التركية البسيطة عبر مصر ، واشتركت مع السنوسيين في مقاومة الغزاة . واستطاعوا تدمير العديد من المخافر الإيطالية المتقدمة ، وأغاروا على ثكناتهم في كل من طبرق وطرابلس وبنغازي ودرنة . ولولا وجود الأسطول الإيطالي الذي ثابر على دعم المهاجمين بالرجال والعتاد والأسلحة الضخمة لآل مصير الحملة الإيطالية إلى إخفاق ذريع .

حمت إيطاليا أيضاً الشريط الذي احتلته من الساحل الإريتيري بوساطة وحداتها البحرية . فقد أرسلت مجموعة من أسطولها قبالة الساحل تقصف مدنه ، وتقصف أيضاً مدن الساحل العربي المقابل من الجزيرة العربية ، حيث قصفت الحديدة والفقية ومكة . وحاصرت الساحل اليمني لتمنع عنه إمداد الإريتيريين وفي الوقت نفسه كانت قواتها البحرية تعمل في بحر إيجه ، وإلى جوار الآسنانة ، وتحتل بعض الجزر هناك . وقد أسندت إلى وحداتها القتالية العاملة في شرقي حوض البحر الأبيض المتوسط مهام المراقبة والتربص بالوحدات البحرية التركية . وفي ١٨ نيسان اقتربت دارعاتهم من الدردنيل ، وقصفت القلاع التركية هناك ، ثم أوفدت بضع نسافات فدخلت مياه ناغارا Nagara حيث يرسو الأسطول التركي تحاول إغراق وحداته . لكن قوة الدفاعات الساحلية التركية في عنق تشناق قلعة أجبر الإيطاليين على التراجع والعودة من حيث أتوا ، دون أن يحرزوا أي كسب عسكري . وعلى العكس أصيبت وحداتهم المهاجمة بنيران البر الكثيفة . وأدرك الطليان أن المضائق التركية منيعة ، لا يمكن تجاوزها ، فراحوا يبحثون عن صيد سهل ، وبالفعل استولوا على جزيرة ستامباليا Stampalia المنعزلة وحولوها لقاعدة بحرية لهم ، اعتبرت أكبر من قاعدتي تورنت ، وآغوستا آنذاك . ثم احتلوا فيما بعد في ١١ حزيران الجزائر المجاورة من الأرخبيل المسمى بأرخبيل الدوديكانز Dodécanes ، وقاموا بمحاولة ضد رودس عرفت بمعركة يسيتوس (١٧ مايس) .

سارعت تركيا فوقعت معاهدة لوزان ١٨ تشرين الأول التي أقامت السلام بعد أن غدت الدولة العثمانية تهاجم في كل الاتجاهات ، ويغير أعداؤها عليها من حدودها في البلقان واليونان وصربيا وماسيدونيا . وقد تخلت تركيا بموجب هذه المعاهدة لإيطاليا عن سيرانايك وليبيا ورودس وجزر الدوديكانز . ولقد تم ذلك بسبب ضعف قواها البحرية ، .وعدم استطاعتها مجابهة المغيرين بحراً ،

والتصدي لهم عبر معارك بحرية تمنع بقاءهم على البر، وكذلك لعدم استطاعة قواتها البحرية تأمين الإمدادات اللازمة بحراً للقوات البرية المدافعة.

توازن القوى مع مطلع القرن العشرين

إن الجهود الضخمة التي بذلتها الدول الكبرى في تطوير أسلحة البحر لديها لم تكن بدافع الاعتزاز والتظاهر فحسب، بل بمطلب شعبي لخدمة السياسة وتطلعاتها بشكل عام، والدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية بشكل خاص. وإنكلترا البلد الأول بحرياً بقدراته الضخمة تحسّب للأخطار التي قد تأتيه من ألمانيا، فزاد من بناء قوته حتى وصول حفيد لملكة بريطانيا إمبراطوراً على عرش ألمانيا، فتبددت المخاوف، وعادت العلاقات الطيبة سيرتها الأوى وهدأت الحروب الاستعمارية في خارج أوربة. مما أعطى بريطانيا الفرصة لإعادة ترتيب أوراقها في أوربة، وإقامة مصالحة كاملة مع الإمبراطورية الألمانية، خصوصاً بعد أن أعادت لها آخر شريحة من أرض ألمانيا، كانت تحت سيطرة البريطانيين، وهي مقاطعة هيليغولاند Helegoland في ١٤ حزيران (١٨٩٠).

استعادت العلاقات البريطانية الألمانية عافيتها بمنهج صادق من التفاهم والتعاون وفي الوقت نفسه شعرت بريطانيا بمرارة إثر نجاحات فرنسا غير المتوقعة على الصعيد العالمي، فساءت العلاقات بينهما، لكنها لم تصل حد الانقطاع. واستفاقت لدى الإنكليز ذكرى قانون بيت Pitt الشهير، واعتبروا التطور الفرنسي تقدماً يمس مصالحهم، ويضعف مركزهم العالمي كقوة بحرية تهيمن على كل بحار العالم. حتى إن الفرنسيين أنفسهم تنبهوا لسوء تصرفاتهم، وعرفوا إنها قد ولدت لدى الآخرين ردود فعل ألهبت الإحساسات، وأيقظت الأحقاد، خصوصاً في المجتمعات الدولية التي في ماضيها حقد دفين على أيام عظمة فرنسا. وثأر مؤجل لظروف دولية أفضل، وهو الذي عُبّر عنه مراراً ببعض الاشتباكات المحدودة في مواقع التواجه بين الخصوم. وكان لا بد والحالة هذه من إعادة تنظيم العلاقات الدولية وإصلاحها من مبدأ حفظ السلام، وإقامة التوازن، برغم الاشتباكات المحدودة، أو المضايقات المقصودة التي تعاقبت دون توقف، وخلقت حالة من الغضب الكامن.

سعت بريطانيا بكل وزنها الدولي لإقامة تفاهم دولي، شهدناه فعلاً في التقارب الألماني النمساوي الذي أنقلب فيما بعد حلفاً سياسياً ثلاثياً، فرض على الروس خروجهم من عزلتهم السياسية، فمدوا يدهم إلى فرنسا لإقامة حلف مضاد ثنائي، يواجه الحلف الثلاثي. وكانت تسعى إنكلترا من وراء تشجيع هذين الحلفين إلى تأكيد التوازن الدولي الأوربي، فأمنت نفسها من محاولة

امتداد النفوذ الروسي في كل من الشرق الأقصى والأدنى وآسيا الوسطى وشرقي أوربة، وبمعنى آخر في كل موقع يجاور مستعمراتها الواسعة. ولكنها ظلت ترقب تفاعلات الحلفين بعين حذرة، إذ قد ينقلبان عليها ويهددانها بمصالحها السياسية والاقتصادية.

وإنه لمن الطبيعي أن تخرج بريطانيا من عزلتها الفوقية، وتقيم صداقات بين قوى أخرى تسير على درب مزاحمتها في المجتمع الدولي. وبالفعل تقربت من الحلف الثلاثي، لكنها صدمت بتحفظ نمساوي، لأن النمسا لا تستطيع الانفتاح على بريطانيا إلا بمقدار، حيث ألمانيا شريكتها في الحلف تكون قوة كبرى لا تقبل الانقياد، ولا ترضى مهادنة المصالح البريطانية الاقتصادية التي تزاحم مصالحها في القارة الأوربية. وهذا يعني أن لا درب مشترك بينهما، بل برهنت ألمانيا وحلفها الثلاثي مراراً على أن أمورها الاقتصادية تتوافق مع أعداء بريطانيا، خصوصاً في بلدان الشرق الأقصى، وموقفها لا يختلف عن مواقف الآخرين هناك. وقد يشابه ظروف إنكلترا ظرف إيطاليا نفسه في غربي البحر الأبيض المتوسط، بعد فقدها قضية تونس، وتحويل فرنسا لمرفأ بنزرت ميناء حربياً (١٨٩٥).

وجدت بريطانيا نفسها ومن جديد في ظروف مقلقة تتعلق بسلامتها، فدعمت قدراتها البحرية بإصدار قانون الدفاع البحري Naval Defence act وانبثق عنه برنامج تعمير سفن حربية إضافية، دعي ببرنامج هاملتون Hamilton وقبل أن ينتهي مفعول هذا البرنامج صدر ملحق للقانون سمي بـ Suplementery Naval Defence act في عام (١٨٩٣) دعماً للأول، وتعبيراً عن رغبة الرأي العام البريطاني وصحافته التي قالت وبعناوين ضخمة في صفحاتها الأولى عبارة «نحتاج إلى قوات بحرية» The need of the Navy..

وبالفعل لحق ببرنامج هاملتون برنامج آخر هو برنامج سبنسر(١١٨) Spencer، وتلاه برنامج غوشن(١١٩) Goshen ... الخ. وكلها تدعو لرفع مستوى أساطيل بريطانيا، وتطالب بزيادة ميزانية سلاح البحر، حتى أرقام خيالية. والجدير بالذكر أن جميع الأطراف من معارضين ومؤيدين دعموا هذا التطوير وأيدوه. وقد توج ذلك كله كلادستون Gladestone خلال توليه الوزارة، إذ رفع ميزانية سلاح البحر لـ (٨٠) مليون جنيه دفعة واحدة، وكان هذا الرقم آنذاك مبلغاً هائلاً. وقد حقق رغبات مواطنيه المتمسكين بشعار واحد هو:

على بريطانيا امتلاك أسطول بحري يوازي أسطولي أكبر دولتين بحريتين معاصرتين مجتمعين ويزيد عنهما بنسبة (١٠) بالمئة .

وبالفعل وصلت قوة بريطانيا البحرية عام (١٩٠٠) إلى المستوى الموضح في الجدول التالي مقارنة مع دول أوربة . وقد تضمن الجدول القطع البحرية التي كانت قيد التعمير في أحواض السفن أيضاً .

القطعة البحرية	انكلترا	فرنسا	روسيا	ألمانيا	النمسا وهنغاريا	ايطاليا
دارعة طراز أول	٢٩	١١	٧	٧	—	٤
دارعة طراز ثاني	١٢	٧	١٥	١٠	٣	٣
دارعة طراز ثالث	١١	١٣	—	—	٤	٤
دارعة طراز رابع قديم	١٣	٨١	٨	٤	٥	
خافر سواحل	١٠	١٨	٨	١٩	٣	—
طراد مدرع	٢٠	٢٤	٢	٢	٣	٩
طراد خفيف	١٢٥	٤٠	٢٠	١٥	١٠	١٤
مركب مدفعية أو طوربيد	٣٣	١٥	٤٠	٨	١٢	١٧
قاذفة طوربيد	١٠٩	٢٣	٣٣	١٩	—	١٩
نسافة	١٠٨	١٧٦	١٩٣	١٣٨	٧٠	١٨٩
غواصة	—	٢٢	١٥	—	—	١

لو أخذنا بعين الاعتبار إعداد الوحدات البحرية الحديثة التي أنزلت إلى الماء بعد عام (١٨٨٦) لوجدنا :

بريطانيا وأنزلت (٢٩) قطعة بحرية عليها (١١٧) مدفعاً ضخماً ، و (٣١٤) مدفعاً متوسطاً

فرنسا وأنزلت (٢٠) قطعة بحرية عليها (٧٣) مدفعاً ضخماً و (١٨٦) مدفعاً متوسطاً

وروسيا وأنزلت (١٤) قطعة بحرية عليها (٦٠) مدفعاً ضخماً و (١٣٤) مدفعاً متوسطاً .

اعتمد الخبراء العسكريون في تقدير قوى الدول العظمى البحرية بعدد الأساطيل أو التشكيلات التعبوية التي يمكن للدولة تحريكها في البحار فكان بالطبع لبريطانيا مركز الصدارة وتليها

ألمانيا بحداثة قطعها البحرية وحسن إعدادها القتالي ، ولقد أمنت بريطانيا لنفسها شروط سلامة كاملة عن طريق تدعيم أساطيلها القتالية ببرامج بناء سفن متعاقبة ، ففي عيد الملكة فيكتوريا الماسي أقامت عرضاً بحرياً في سبتهيد Spithead تضمن مرور (٢١) بارجة و (٣٩) طراداً و (٨٠) مركب قاذف للطوربيد ، أو مركب مدفعية ويقوم على خدمة هذا العرض (٣٨) ألف رجل . وكان مفخرة بحرية لم يحدث أن جرى عرض مثله من قبل ، ولأية دولة أخرى في العالم .

في فرنسا كان الوضع مختلفاً جداً ، إذ لا يمكن لهذا البلد أن يجاري بقدرته البحرية قدرة بريطانيا . ويقول أكثر الوطنيين حماسةً إن ذلك ولا شك خير لفرنسا ، خصوصاً وهي في مجابهة للحلف الثلاثي الأوربي ، وإن حرباً بحرية بينها وبين أعضاء الحلف لن يؤثر على سير العمليات العسكرية البرية إن وقع صدام عسكري مباشر أو غير مباشر ، لأن النتائج ستكون مرتبطة بموقف القوات على الساحة البرية فقط . وحتى لو حدثت اشتباكات بحرية فستكون مثل تلك الاشتباكات مجرد صراعات جانبية مستقلة لا أثر كبير لها في مجريات القتال ، حتى يمكن اعتبارها دون فائدة . وان ثمن دارعة واحدة تضيع في اليم يغطي أو يعد فيلقاً كاملاً من سلاح الخيالة ، ومثل هذا الفيلق له وزن كبير في ميزان القوى المتحاربة على الجبهات البرية ، يفوق بكثير أثر بارجة تمخر عباب البحر ، وتقاتل بارجة أخرى معادية .

يقول كانروبيرت (١٢٠) Canrobert :

« ماذا أفادنا المتوسط يوم وصلت حشود آتيلا المدمرة وقائدهم الطاغي هضاب رومانفيل » .

وهذا القول يعني ضآلة أثر القوة البحرية في صراع قاري على البر الأوربي ، وهو قول أيده العديدون من رجال حكم فرنسا ، حتى قادتها البحريون ، إذ يقول الأميرال الفرنسي ريفيير Reveillére :

« إذا وقعت فرنسا أو ألمانيا في فخ ، أو أزمة مجابهة حربية ، فسيكون دور القدرة البحرية في كلا البلدين ثانوياً » .

أيد تلك المقولتين غالبية أفراد الشعب الفرنسي ، بضغط من الأحزاب الديمقراطية ، وعارضت بشدة ضخامة المبالغ المخصصة لسلاح البحر ، والتي بلغت على مدى عشر سنوات ثلاثة مليارات من الفرنكات . واعتبرتها أموالاً مهدورة لا طائل منها ، وطالبت حكوماتهم بوضع حد لهذا

البزخ الجنوني على سلاح البحر، سلاح الطبقة الراقية، وطالبت بتخصيص تلك الأموال في إصلاح المؤسسات الاجتماعية وتحت شعار:

«يجب الاختيار بين الدارعات والإصلاح».

وعلى الرغم من ذلك كله ثابرت فرنسا على عمليات تطوير السلاح ضمن الإمكانات المالية المتوفرة، وتمشياً مع تطور أسلحة البر أيضاً، دون أن يحظى هذا التطوير بنظرة شاملة للموضوع ككل، ودون أن يضبط بخطة مشتركة، تتحكم بمراحل تقدمه. وكانت الطامة الكبرى عندما رحل الأميرال أوب Aube عام (١٨٨٧) عن إدارة السلاح، وضاعت كل المعايير، وحلت فترة طويلة من الفوضى، وتعاقب على إدارتها أربعة عشر رجلاً. فكان أربعة عشر أسلوباً، ولم يتح لأي منهم فرصة التفكير بإدارة الأمور بحزم وتصميم. كان همّ كل واحد من الإداريين الذين تعاقبوا الكفاح المرّ مع المعارضة في سبيل تصديق الميزانية اللازمة لمتابعة برامج التعمير الأساسية والضرورية، لا كما تخيله الحالمون بل كما سعى إليه الواقعيون ليماشوا سلاحهم البحري بخطوات سلاح إيطاليا في المتوسط، وسلاح ألمانيا في بحري المانش والشمال.

البحرية الألمانية

تبدلت أوضاع العالم وتسارعت أحداثه من خلال حروب المستعمرين على أرض إفريقية الجنوبية، وأجبرت الحكومات على تخصيص أموال إضافية كبيرة، كانت أكثرها على حساب مخصصات القدرات البحرية. وقد أدى هذا التخصيص إلى تبدل جذري في ميازين القدرات البحرية العالمية، وبالتالي للتغيير في توازن القوى عالمياً.

ومن البديهي جداً أن نربط هذا التطور المفاجىء بالنهضة الصناعية الكبيرة التي رافقت هذا العصر، وما تمخض عنه من توسع في الأعمال التجارية. وأخص بالذكر الدول الغنية الحديثة التي غدت فعلاً مزاحماً كبيراً لبريطانيا وفرنسا، ونزلت تزاحم بضائعها ومنتجاتها في الأسواق العالمية، حتى غزت أسواقها المحلية، وما جر هذا التطور التجاري من حاجة ماسة لتوسيع السبل التجارية البحرية، وبالتالي لتوسيع سبل الحماية البحرية. ويكفينا أن نلقي نظرة على نسبة تعاظم الأساطيل التجارية في بعض الدول الناشئة لندرك حجم هذا الزحام الاقتصادي العالمي وأثره على الدول التقليدية. فمثلاً تزايد نسبة الأسطول التجاري الياباني كان (٣٠٠) بالمئة في حين لم يصل تزايد الأسطول التجاري البريطاني وللمدة نفسها لأكثر من (١٨) بالمئة. وهذا أكبر دليل على انهيار

الفوارق السابقة، وما جر معه من انهيارات في القدرات البحرية التجارية والحربية. وكل ذلك يوصلنا إلى نتيجة واحدة واضحة، وهي أن عظمة بريطانيا وسلامتها في العالم، وحتى في جزرها بصورة خاصة ستتعرضان لتهديد مباشر في اقتصادها، وبالتالي غير مباشر في مركزها البحري الأول، وأن التقدم السريع الذي شهدناه في إيطاليا وألمانيا واليابان مثلاً لم يقتصر على هذه البلدان فحسب بل شمل دولاً أخرى فتية نزلت ساحة اللعبة الدولية، وبكامل طاقاتها، لتلحق بالركب، وتستغل الفرص مع المستغلين. وعلى رأس هؤلاء جميعاً الولايات المتحدة الأمريكية التي سارت على طريق انتزاع مركز بريطانيا المتصدر في عالم القدرات البحرية، فقلصت من سيادتها المطلقة على المسطحات البحرية، خصوصاً عندما أصبح لدى الدول الأخرى المعاصرة الإمكانات المالية التي تخولها مسايرة خطا بريطانيا البحرية والتجارية. وهنا كان لا بد لبريطانيا والحالة هذه من أن تستعيض عن تراجعها الدولي بخطط جديدة، فوجدت أفضل سبيل لها في مرحلتها الحاضرة نشدان صداقة القوى الأخرى الجديدة للمحافظة على مصالحها القديمة، وللوقوف في وجه مزاحمتها الأولى الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن تعرضت روابط الصداقة الأمريكية البريطانية بعد عام (١٨١٥) إلى أزمات متعاقبة في فينزويلا ودول أمريكا الوسطى والمكسيك:

واتجهت بريطانيا نحو مواقف جديدة تبدو فيها مستعدة لقبول الأوضاع المستحدثة، عاقدة العزم على نسج خيوط صلات حميمة مع قدرات عظمى أخرى في العالم. ولقد اتضح من خلال الأعوام العشرة التي مرت بأن انتصار اليابانيين على الروس كان انتصاراً بريطانياً أيضاً. وبالفعل نجحت بريطانيا في بقعتين مهمتين من العالم: أمريكا والشرق الأقصى، وبسياستها العميقة، فتداركت موقفها الصعب ببذل بعض التنازلات البسيطة قدمتها في وقت مناسب، عاد عليها بمزيد من السلامة وحفظ المصالح. وقد أقر المؤرخون هذا النجاح، كما أقروا أيضاً إخفاقها في اتباع أسلوب مماثل على القارة الأوربية. إذ إنها برغم كل عراقتها السياسية لم تستطع مجابهة الخطر الجسيم الذي بدأ يتعاظم على الساحة الأوربية، والممثل بدولة ألمانيا الحديثة التي أفاقت على قضايا العالم بفعل مبادىء بيسمارك الكبير، وطالبت بطموحات لا حدود لها، وبقسمة عادلة على القارة الأوربية وبمجالٍ أوسع في مناطق العالم الأخرى. وجاء ستوتش Stosch وأراد لها سلاحاً بحرياً قوياً عملاً بشعاره الذي أطلقه وهو:

تطوير المصالح البحرية الألمانية قوة ودعماً للمجد الجرماني ولمصالح ألمانيا في العالم، لكن كابريفي[١٢١] Caprivi (جنرال في سلاح الخيالة الألماني) عارض زميله في الرأي فقال:

« السلاح البحري لن يكون إلا من ثانويات القوات الحربية ومهمته تخفيف الأزمات بتقديم بعض المهام في حال نشوب صراعات على الجبهة الألمانية » .

على كل حال أجبرت ألمانيا على سلوك درب تدعيم وتطوير سلاحها البحري بفعل تنامي حجمها الدولي ، وشقت قناة كييل البحرية ، وبنت سفناً حديثة من مهامها الأساسية الدفاع عن سواحل الإمبراطورية الألمانية الحديثة . ولم تجتز تلك الخطوة أو تتعدّها لقلة مواردها المالية .. لكن مع وصول غليوم الثاني للحكم وهو الرجل الطموح الذي أراد دخول التاريخ من بابه العريض ، تبدل الموقف وبدأ بناء ألمانيا الجديدة بعقلية متطورة وأسلوب حديث وهنا لا بد للبحر من دور أساسي محققاً مقوله له هي :

« مستقبلنا فوق البحر »

وليس غريباً على غليوم الثاني هذا الاهتمام وفي عروقه دم بريطاني (من ناحية امه) . وبالفعل أعطى البحر كل اهتماماته ساعياً لتأمين كل متطلباته ، واعتبره مهمة شخصية لإمبراطور ألمانيا ، ليعطي بلاده عبرها منزلة بحرية متقدمة تتناسب وعظمة ألمانيا الموحدة .

أقر الرايخشتاغ برنامج التعمير البحري عام (١٨٨٩) الذي خطط ولستة أعوام مقبلة بناء (٢٦) سفينة حديثة ليعطي ألمانيا قوة بحرية توازي الدول القوية المعاصرة .

لكن جهات عديدة رفضت الكلف الباهظة التي تصرف على سلاح البحر ومنشآته ، وتمسكت بمبدأ جعل سلاح البحرية سلاحاً دفاعياً متنقلاً حول سواحل ألمانيا ، يصد هجمات المغيرين ، ويشتبك مع القوات البحرية المغيرة في المياه المجاورة . وبقيت الأمور معلقة بين أخذ في وجهة نظر الإمبراطور ورد من المعارضين ، حتى وصل إلى الحكم المستشار بيرنارد فون بولوي[١٢٢] Bernard Von Bülow ، ومع وزير للبحرية الفريد تيربيتز[١٢٣] A. Terpitz اللذان اعتبرا إن على ألمانيا في ظرفها الحاضر الانغماس في السياسة العالمية ، مع مشاركة الآخرين في السيطرة على المستعمرات ، عملاً بمبدأ سيطرة العرق الأبيض على العالم . وان سياسة ألمانيا الوطنية يجب أن تنبع من واقع السعي الحثيث نحو الأمام ، وفي كل المشاريع ، وعلى كل الأصعدة . وأن أحلام الوطن الألماني لا تقف عند حدود ، وعلى جميع أحزاب ألمانيا رص الصف ، وتوحيد المناهج ، ودعم الحكومة ليس بإقرار حقوق جديدة للبرلمانيين ، بل بإيقاظ الشعور الوطني نحو سياسة عامة ذات مصلحة لجميع فئات الشعب حية قوية هادفة ونشيطة ، ستسخر لها كل الوسائط الفاعلة وتيربيتز سيقدم لها أنجع الوسائط .

كان الأميرال الألماني وزير البحرية قائداً من عامة الشعب، دخل خدمة البحر ليس بحاراً بالفطرة والمنشأ، بل بالفكر والتصميم. واستطاع خلال فترة قصيرة النهوض بسلاحه، وتحقيق مشاريع بحرية ناجحة. ولقد رفض فكرة السابقين بجعل سلاح البحر سلاحاً يؤمن حماية سواحل الإمبراطورية فقط. إذ ليست سواحل بلاده مهدده فعلاً بل يريد مد يد هذا السلاح ليفرض وجوده في كل مكان، على أنه حضور لألمانيا الحديثة كدولة عالمية تفرض شريعتها على البحر، كما على البر، ليس بسلام مطلق بل بسلام مشرف. وإن سلامة ألمانيا تقوم على تطوير مصالحها الإقتصادية وأعمالها التجارية، لا تسعى وراء سيادة البحار، لكنها تحب أن تكون قوية مرهوبة الجانب، يحترم الآخرون حدودها، ويرعون مصالحها، ويخطبون ودها ما دامت قوية وأسطولها متواجد.

قضى تيربيتز أكثر سنين خدمته في سفن الطوربيد، فنشأ على حبها والتعصب لها، وعمل على تطويرها، وجعلها أشد سفن السلاح فعالية. وكان يقول دوماً، يجب على ألمانيا أن تمتلك أسطولاً قتالياً عماده الطوربيد، قادراً على تغطية رقعة البحر بين هيليفولاند، ونهر التايمس، لا يخشى أسطول بريطانيا ولا خططها الهجومية التي تعتمد على حصار ألمانيا. وإن كنا نملك هذا الأسطول القتالي فعلى عدونا أن يحاول تدميره قبل أن يبدأ مرحلة الحصار. ومثل هذا الأسطول يتطلب منا الجهد والعرق. وسنلهث طويلاً في صراعنا مع الفئات البرلمانية المعارضة لتحقيقه.

وفعلاً تعرض الأميرال الألماني لتقلبات في الرأي، وتبدلات في حماسة الرئيس. واضطر في النهاية لإعداد برنامج متكامل طرحه على التصويت، وانتزع الموافقة عليه بصورة نهائية، ولفترة زمنية محددة، ليتفادى التقلبات التي قد تعترض ظروف التنفيذ، نتيجة الأوضاع الاقتصادية في البلاد، وتوفر الاعتمادات اللازمة لذلك. وكان هذا البرنامج بمثابة قانون بحري كقوانين بيسمارك العسكرية السابقة.

عمل الأميرال الألماني بحماسة لإنجاح مشروعه. ولقد نشره قبل عرضه على البرلمان، ليحوز على مساندة الرأي العام له. فبرهن عن مهارة وموهبة، خصوصاً لما تبنت الصحافة ووسائل الإعلام الدعاية للمشروع، بإفهام كل مواطن ألماني الصفات الإيجابية فيه، التي ستقود ألمانيا لمركز رفيع بين قوى البحر العالمية، الأمر الأساسي في بناء الأمة وكبرها وقوتها. وهو حلم شخصي لكل فرد في ألمانيا. وبفضل الحملة الدعائية الضخمة التي دامت عامين، واحتوت أربعة آلاف محاضرة وستة ملايين نشرة، دخل المشروع قلب كل مواطن، وفي كل مكان من أرض الإمبراطورية. وهنا طرح مشروعه على التصويت طالباً التأييد والمشاركة، ونجح في حشد مؤيديه فانتصر على المعارضين،

وسارع في تأهيل العنصر البشري للطواقم البحرية لتكون جاهزة قبل العتاد. يقال إن مشروع القانون البحري الثاني لعام (١٩٠٠) حاز على أغلبية ثلثي أصوات المجلس.

نفذت الخطوات عملياً للمشروع، وشكل أسطولان قتاليان، تضمن كل منهما (٨) بوارج، ومركب قيادة، ومركبين احتياطيين، و(٨) خافرات سواحل، و(٦) طرادات ثقيلة، و(١٠) طرادات خفيفة للمياه المحيطة بالإمبراطورية إضافة إلى ثلاثة طرادات ثقيلة، و(١٠) طرادات خفيفة خصصت لمهام البحار البعيدة. كما لحظ المشروع مجموعة احتياطية تضمنت ثلاثة طرادات ثقيلة وأربعة طرادات خفيفة، مع عدة سفن أخرى مساعدة.

نص البرنامج البحري على بناء (١١) بارجة قبل عام (١٩٠٤)، مع خمسة طرادات ثقيلة، و(١٧) طراداً خفيفاً. والغاية من ذلك استبدال كافة السفن القديمة الموروثة عن العهد السابق بسفن حراسة حديثة، تتلاءم ووضع ألمانيا الحديث.

جاء القانون البحري الألماني الثاني بعد تزايد خطر بريطانيا إبان حرب الترانسغال، واستيلاء الإنكليز على سفن نقل ألمانية في البحار، أمثال هرتزوغ Hertzog وبندرات Benderath، فرفع حجم الأسطولين وجعلهما أربعة أساطيل، ضمن خطة تنفذ خلال العشرين عاماً القادمة.

حدثت بعض التعديلات البسيطة على البرامج السنوية، وعدل عدد الأساطيل إلى خمسة بدلاً من أربعة، وعدلت أعداد الوحدات ضمن كل أسطول، وأدخل لأول مرة سلاح الغواصات عنصراً أساسياً في برامج البناء والتطوير، تبع ذلك تطوير شامل في المرافئ والقواعد البحرية، وفي أسس الإمداد والتموين، بشكل يتمش مع تنامي تلك الأساطيل. وقد عدلت أيضاً برامج التأهيل، واتخذت خطا ناشطة وسريعة جاءت نتائجها رائعة. وسرعان ما ملكت ألمانيا طواقم فريدة في أهليتها القتالية وانضباطها العام.

صراع إنكلترا وصراع ألمانيا والتسليح والوفاق

لا يمكن لبريطانيا بالطبع الانتظار حتى يتفاقم الأمر، وهي التي ترى كل يوم تعاظم قوة ألمانيا البحرية المهددة لمصالحها الحيوية في العالم، والتي كانت سبباً في دفع العديدين من رجال الفكر والسياسة لدق ناقوس الخطر. ونذكر منها حملة ويليامس Williams الشهيرة التي أدخلت في قلب كل مواطن بريطاني خوفاً من المستقبل، من جانب ألمانيا، ومن جانب دول العالم الأخرى على حد

سواء، والتي بدأت تتحول بمعاملاتها الاقتصادية عنها لتتعامل مع القادمين الجدد في باب التجارة. هذا الخوف لمسه البريطانيون أول مالمسوا في تراجع الحركة التجارية البحرية، وفي تناقص آلاف الاطنان التي ينقلها أسطولهم التجاري سنوياً وتحولها إلى الأساطيل التجارية للدول المزاحمة، التي أخذت أرقام الأطنان المنقولة فيها تتزايد باضطراد.

فكرت بريطانيا كثيراً ووجدت في النهاية أن المزاحمة مشروعة من الوجهة القانونية، ويمكن معالجتها بقوانين وسلوكيات، وعقد صفقات، وهي في مستواها الحالي، لأنها لم ترق لمستوى التهديد المباشر لوجودها، ولم تصل لمستوى التفكير باستخدام القوة لحلها، وقد اعتقد البريطانيون مع صدور أول قانون بحري ألماني أن هذا القانون ليس إلا بدافع تدبير احترازي فقط، مع استعادة الألمان لذكريات بلنهايم Bleinheim وواترلو Waterloo، وليكونوا على استعداد لمجابهة التطورات العسكرية الروسية والفرنسية التي تجري على حدودها الشرقية والغربية. وليس للبريطانيين أن يخشوا الألمان، وهم أخوة لهم في العرق والحضارة، والحلفاء الحتميون لهم في حال اشتداد الأزمات (لمح بذلك علنا شامبرلين Chamberlain عام ١٨٩٨)، حتى إن بريطانيا فكرت جدياً في منح بعض المستعمرات البرتغالية لألمانيا بدافع التفاهم والتعاون وشد أواصر الصداقة. لكن الألمان ثابروا على متابعة خطاهم، دون تحسب لشكوك الآخرين، وخاصة البريطانيين. لأن قضايا الشرق الأقصى عام (١٨٩٥) وإقامة الحلف الثلاثي الذي أوقف الزحف الياباني أثلج صدور الدول الأوربية المهتمة بقضايا الساعة آنذاك.

تأزم في العام التالي الموقف بين ألمانيا وبريطانيا على أثر برقية كروغر[١٢٤] Kruger التي اعتبرها كل بريطاني تهديداً مبطناً له ولوطنه، إضافة للمحاولات التى قام بها إمبراطور ألمانيا[١٢٥] إبان حرب الترانسفال ليستغل الظروف الصعبة التي مرت على المملكة المتحدة، ثم الخطط التي بقيت مخفية في جيوب المستشارين، وكلها نيات سيئة تمس الشعب البريطاني، ثم التظاهرات العديدة والمعبرة التي قادها الألمان، وإفتعال الحواث والأزمات، كقضية جزيرة مادير Madére، ومشكلة فتحة نهر ايسكو Escau، التي أصرت برلين على تحصينه بدافع أمنها، وغيرها كثير. وكلها تعبر عن رغبة الألمان في استغلال كل الفرص ليغيّروا ولمصلحتهم الخاصة التوازن القائم في المنطقة. ولما جاء القانون البحري الألماني الثاني جاء ليؤكد تصميم الحكم في ألمانيا على تغيير الأوضاع السائدة. وهنا لم تجد بريطانيا تفسيراً لهذا القانون إلا أنه تهديد لغزو أو بأضعف الايمان تعطيل للتجارة البريطانية، كخطوة أولى في درب تدميرها، في حالة نشوب نزاع بين البلدين. وهذا معناه تجويع بريطانيا التي تعتمد في

طعامها اليومي على موارد البحر . وهذا ممكن لو توصل الألمان لقطع خطوط إمداد الجزر البريطانية بحراً .

تبين لبريطانيا أن العدو الحقيقي لها هو الذي يعد نفسه لحرب معها ، ويضاعف تسليحه ، ويعارض بسياسته سياستها ، وهو بالتأكيد ليس فرنسا العدو التقليدي ، لها بل ألمانيا صديق الأمس وحليفها في الأزمات .

من هذا التحليل السياسي قومت بريطانيا موقفها من جاراتها ، ووجدت أن عليها التقرب من فرنسا لمواجهة الخصم الجديد . وتم تفاهمها معها عام (١٩٠٤) على أسس ثابتة غاية في الدقة والثقة ، متخطية كل العقبات المادية السابقة . واعترفت بريطانيا بكل الخطوات التي خطتها فرنسا في شمال إفريقية ، منذ عام (١٨٨٠) ، واعتبرت التغلغل الفرنسي في شمال إفريقية عاملاً فعالاً في التوازن العالمي ، خصوصاً وفرنسا بلد عسكري قوي على الجبهة البرية المتاخمة لحدود ألمانيا ودولة ترتبط مع بريطانيا بمصالح مشتركة وعليها اعباء تماثل أعباء بريطانيا في مجابهة خطر واحد مشترك ، وان إضعاف أو تدمير قوة الواحدة منها يعتبر تدميراً للأخرى .

اعتبرت فرنسا حلفها مع بريطانيا (الحلف الصداقي) عاملاً مهماً في أمنها ، وأثبتت للمجتمع الأوربي نجاعته ، على أنه درب السلام الوحيد في الأزمات الدولية ، كالتي حدثت في طنجة عام (١٩٠٥ـــ١٩٠٦) وكازابلانكا عام (١٩٠٨) وآغادير عام (١٩١١) . وهكذا عزلت ألمانيا عن باقي دول المجموعة الأوربية ، وشعرت بوحدة مرة ، فراحت تعالج أمورها السياسية بخطا محسوبة ، وبحرص رياضي (حسابي) لكي لا تتورط في نزاع مبكر لم تستعد بعد له فتخسر نتائجه . وطبيعي أن تسلك ألمانيا مثل هذا السلوك الحذر ، بعد أن أصبحت تواجه براً وبحراً أكبر تجمع عسكري شهدته المنطقة خصوصاً بعد أن أقنعت فرنسا روسيا وبطريق غير مباشر بالانضمام إلى هذا الحلف الثنائي (١٩٠٧) ، على أثر طي أحداث المتوسط ، وبعد أن جهدت بريطانيا في مد يد الصداقة إلى دول أوربة الأخرى ، تغريهم بوعود أو تحذرهم بوعيد . وضمنت إلى صفها كلاً من إيطاليا وإسبانيا في الساحة الأوربية ، وكلاً من الولايات المتحدة الأمريكية واليابان في العالم . وشعارها دوماً ليس تدمير ألمانيا بل المحافظة على توازن دولي يسمح للجميع بحرية الاتجار والحركة . وهكذا سخرت بريطانيا العالم كله ، وبفضل قدراتها البحرية الهائلة لإقامة طوق حول الإمبراطورية الألمانية برياً بجبهتين قويتين متمثلتين بروسيا وفرنسا ، وعالمياً بقدرات بحرية ضخمة تحد من شطط أحلام

الألمان في توسع استعماري، وتعمل على مراقبة تسلحها البحري، وتعمل على تحجيمه ان تخطى حدود السلامة.

لما وصل اللورد فيشر كيلفرستون[١٢٦] Fisher Kilverstone لمركز لورد أول للأميرالية البريطانية حسن أوضاع البحرية الإنكليزية بإلغاء الخطا المتبعة أيام السلم بتظاهراتها الكاذبة، وسلك مسلكاً جريئاً في تطوير القَدرة القتالية للسلاح إعداداً لحرب واقعة قريباً. وأنهى العشرات من السفن الجميلة التي لم تعد تنفع في الحرب، وأحالها للتحطيم، وطالب الترسانات البريطانية ببذل الجهد لإنتاج سريع. وما إن تنزل السفينة إلى الماء حتى تسند إليها مهمتها في نظام لتوزيع الوحدات القتالية، غطى كل أرجاء الوطن. وقد أعطى البحار المحيطة بالجزائر البريطانية القدر الأكبر من الاهتمام، وحشد فيها أساطيل ضخمة، إذ كان يعتبرها الساحة الأكثر خطورة على الإمبراطورية البريطانية، خصوصاً بعد طي مسألة الشرق الأقصى، وعقد الاتفاقات السلمية مع اليابانيين.

خفض فيشر عدد البوارج البريطانية السبع المفرزة لبحر الصين لبارجة واحدة، وكذلك فعل بالنسبة للمتوسط، وضم ما توفر لديه من وحدات بحرية إلى أساطيل بحر المانش، كما عزز أسطول الأطلسي، وجعله يقيم في جبل طارق (ثماني بوارج)، ثم سحب الباقي إلى المرافىء البريطانية لتكوين مجموعات قتالية داعمة في الحوزة، مهمتها التدخل السريع، حيث يدعو تواجدها. وأطلق على تلك المجموعات اسم هوم فليت Home Fleet الذي ضم (٢٠) قطعة بحرية مجال عملها بحري الشمال والمانش. وقد أسند عمليات كل تلك الأساطيل إلى هيئة أركان حرب بحرية عليا حلت محل الأميرالية، وعلى رأسها خيرة قادة التشكيلات. وقد وصف الأميرال لي Lea التنظيم الجديد بقوله

«سيصبح الأسطول البريطاني قادراً على إجراء الضربة الأولى لعدوه قبل أن يستطيع الموجودون في الطرف الآخر من بحر الشمال (ويعني الألمان) إيجاد الوقت الكافي لقراءة خبر إعلان الحرب في الصحف».

كان كوبرتي Cuberti الإيطالي قد توصل لتصميم الدارعة القتالية أو العمارة Dreadnought حينذاك. وسارعت بريطانيا تتبنى هذا التصميم الجديد، وتزود قواتها البحرية بالعمارات الضخمة (الدارعات القتالية العملاقة)، لمجاراة أساطيل الآخرين الذين تبنوا مثل هذا الطراز من السفن الضخمة، ولحقت ألمانيا بريطانيا في إنتاج مثل تلك العمارات الضخمة مجاراة للموقف، ومحافظة على توازن القوى في المنطقة، لكن مثل هذا التوازن الحربي البحري ظل مرفوضاً من قبل البريطانيين. وقد عبر عن ذلك اللورد كاودور Cawdor فقال:

« يجب ألاّ يؤخذ بعين الاعتبار إلا بالتنظيم التقديري للقدرات .. وبريطانيا لا تسمح بأن تصبح بلداً مفتوحاً للغزاة » .

حتى ستيد Stead داعية السلام البريطاني والمطالب بتخفيض برامج التسليح نادى بشعاره الشهير Two Keels to one ويقصد بهذا أنه لقاء كل بارجة ألمانية تصنع يجب أن تصنع بارجتين بريطانيتين ، وتلك قاعدة ثابتة ٢ ضد واحد غير قابلة للنقاش كمثل السبّاح فهو لا يناقش أمر وضع رأسه خارج الماء .

كذلك نادى الليبرالي روزبيري[١٢٧] Rosebery :

« إذا بنت بعض القوى العالمية أساطيل لا ضرورة موجبة لها ، تزيد عن متطلباتها الأمنية فيفرض علينا وضعنا الدولي بناء المزيد من البوارج حتى آخر شلن في الخزانة ، وحتى آخر رجل في الأطقم » .

وبالفعل اتجهت بريطانيا نحو بناء حربي كثيف خصوصاً بعد صدور القانون البحري الألماني الثاني الذي عنى بإعداد القوات البحرية الألمانية لحرب وشيكة الوقوع ، مع حملة تدريب وإعداد وتأهيل طواقم قتالية ، وبإعداد كبير لخطط مستقبلية توسعية ، مع إخفاء كل ذلك خلف خطة معلنة على إنها بناء طرادات متوسطة ، هي بالحقيقة بوارج وعمارات ضخمة زادت أوزانها عن (٢٢) ألف طن ، وسلحت بأضخم العيارات ، وأقوى الأسلحة الفتاكة . ولقد قدم مستر بالفور[١٢٨] Balfour في كانون الأول من عام (١٩١١) تقريراً لحكومته تنبأ من خلاله إن استمرت ألمانيا على نهج التعمير البحري نفسه فستصل عماراتها البحرية لـ (١٣) عمارة مقابل (١٢) لدى البريطانيين ، وهذا يعني تفوقاً عددياً على الإنكليز في بحر الشمال . وقد تستطيع ألمانيا السيطرة على هذا البحر ، والتحكم بمداخله ، ولن يعود هذا البحر خطاً دفاعياً للبريطانيين أمام أقوى جيش على البر الأوربي (جيش ألمانيا) . وانهى تقريره بالجملة التالية :

« موقفنا سيكون مرعباً ورهيباً » .

وأيد القول اللورد روبرتس Roberts قائلاً :

« ليس هناك مساومة في الخطر ، نحن بلد يتغذى يومياً عن طريق البحر ، وتعزيز قواتنا البحرية ليس لدعم حركتنا التجارية ومواصلاتنا البحرية عبر البحار بل لحفظ حياتنا والدفاع عن حريتنا » .

وقد جاراه اسكيت Asquith بالمعنى نفسه فقال

«لن تكون إنكلترا دولة عظمى إن فقدت قدرتها البحرية لكن ألمانيا تبقى أكبر دولة عظمى على البر الأوربي دون أية قدرة بحرية تملكها».

وأخيراً جاء تشرشل يطالب حكومته ويقول :

«إن النزاعات الدولية كثيرة ويمكننا السيطرة عليها بمجرد أن نكون أقوياء، ودون حاجة لاستخدام تلك القوة».

من كل ما تقدم ذكره نستخلص دلائل وعي بريطاني عميق وشامل لكل ما يدور على الساحة الدولية من أحداث دفعت بالحكام لمعالجة الموقف بمزيد من المخصصات المالية، لتحقيق برامج تعمير تستطيع انتاج (٤) بوارج ضخمة سنوياً، مع تنسيق كامل لدى الدول المرتبطة بالمملكة المتحدة والدول الصديقة لها. ووصلت قوة بريطانيا وحدها في مطلع عام (١٩١٤) لـ (٢٦) عمارة و (١٠) طرادات ثقيلة مقابل (١٦) عمارة لألمانيا و (٤) طرادات.

أعادت بريطانيا توزيع المهام على أساطيلها من جديد وقلصت أعداد الوحدات العاملة في البحار البعيدة، وأخلت المتوسط تاركة أمر حمايته لفرنسا، وأخلت الشرق الأقصى معتمدة على اليابانيين هناك. ثم نقلت أسطول المتوسط من مالطة إلى جبل طارق، وكلفته مع أساطيل بحري الشمال والمانش بمهمة تكوين قوة ضاربة لشمال الأطلسي، تستطيع التدخل خلال (٢٤) ساعة من موعد النداء.

خف زخم التسابق في التسليح البحري بين ألمانيا وبريطانيا إثر لقاء جاد بين مسؤولي البلدين، لأنه أنهك خزائن المال لديهما وتوصلا في نهاية عام (١٩١٣) لاتفاق جعل نسبة أعداد بوارج ألمانيا إلى بوارج بريطانيا نسبة ١٠ إلى ١٦. وارتاحت على أثر هذا الاتفاق الأعصاب لفترة وجيزة حسب الجميع فيها أن مشاكل البلدين المعلقة ستحل سياسياً خصوصاً فيما يتعلق بأزمتي الكونغو ومستعمرات البرتغال. إلا أن التدهور السياسي وقع فجأة، ونشبت الحرب الكبرى، والعالم يمتلك القدرات البحرية المبينة في الجدول أدناه :

نوع المركب	إنكلترا	ألمانيا	فرنسا	روسيا	ايطاليا	النمسا	اليابان وهنغاريا	أمريكا
عمارة (بارجة قتال)	٢٦	١٦	٤	٢	٤	٢	٧	٢٢
دارعة	١٠	٤	–	–	–	–	١	٩
طراد ثقيل	٣٨	٢٤	١٥	٦	٨	٩	٧	١٥
طراد متوسط	٣٧	٩	١٩	٦	٩	٣	١١	١٠
طراد خفيف	٧١	٤١	١١	١٦	١١	٧	١١	٢٤
مدمرة أو نسافة	٢٢٧	١٥٢	٨٠	٨٠	٣٦	١٨	٥٤	٦٠
مركب قاذف طوربيد أو مدفعية	١٠٢	٤٥	١٥٣	١٨	٨٥	٨٧	٥٥	٢١
غواصة	٧٨	٣٠	٦٧	٢٥	٢٠	١١	١٥	٥٠
المجموع	٥٨٩	٣٢١	٣٤٩	١٥٧	١٧٣	١٣٦	١٦١	٢١١
الوزن بالطونات	٢١٠٠ر٠٠٠	٩٢٠ر٠٠٠	٦٣٨ر٠٠٠	٢٧٧ر٠٠٠	٢٩٣ر٠٠٠	١٧٦ر٠٠٠	٤٧٧ر٠٠٠	٥٦٠ر٠٠٠
مدافع أكبر من ٥ بوصات	٢ر١١٠	١ر٣٨٨	٨٥٧	١٧٤	٤٨٤	٣١٥	٦٢٤	

وهكذا آل العالم الأوربي والعالم بعد مئة عام من نصر عام (١٨١٥) إلى ساحة وغى في لحظة هدنة، والكل يترقب ساعة الصفر ليختبر اعتدته الجديدة، والتي تعب في صنعها وتحديثها. ولم يعد أحد قيّماً على الآخر، وضاعت سيادة بريطانيا المطلقة في البحار، وتراجع ميزانها الاقتصادي مع التطور الصناعي في الدول الحديثة، فما كان منها إلا أن لجأت لاستقطاب الأصدقاء ضمن تجمعات مستقلة، أو بالأحرى لإعادة توزيع اتصف بالتوازن الصداقي القائم على العلاقات الطيبة بين أعضاء المجموعات.

أما في المجال العسكري فقد وجدت بريطانيا أن توازناً عسكرياً مع الأصدقاء قد يخدم مصالحها ويحفظها بعيدة عن كل حدث مفاجىء وخصوصاً وهي أمام قوة عسكرية ضخمة، لا يمكن تجاهلها أو التعاون معها. وليس أمام بريطانيا وأصدقائها إلا طريق واحدة، هو طريق الأحلاف القائم على القوة لاستخدامه في الأزمات. وفرنسا حليفتها القوية خطت خطوات واسعة بعد سنين الهزيمة، ووجدت نفسها هي الأخرى في موقف جدي محفوف بالمخاطر، قد يطال أمنها وأمن مستعمراتها الكثيرة، فقررت التخلي عن عزلتها برغم ذكريات الأمس المرة، ومدت يدها تضم قدراتها الحربية لقدرات جيرانها، مدفوعة بعامل موقعها الجغرافي والتاريخي.. وتم لقاء الجارتين فرنسا وبريطانيا، برغم عدائهما الطويل يوحدهما خط مشترك أخذ يتعاظم ويهدد مصالحهما الاستعمارية، فاستعدتا لحرب عالمية وشيكة الوقوع.

حواشي الباب الرابع

١١٤ ـ غورتشاكوف Gortchakoff

جنرال روسي برز في حرب القرم.

١١٥ ـ آندراسي Andrasay جول (١٨٢٣ ـ ١٨٩٠)

بطل استقلال هنغاريا ورئيس للاتحاد الهنغاري، وزيراً للخارجية في الاتحاد النمساوي الهنغاري.

١١٦ ـ شيلدرز M. Childers (١٨٢٥ ـ ١٨٩٦)

سياسي بريطاني لورد في الأميرالية ووزير للبحرية في وزارة غلادستون.

١١٧ ـ مولتكييه Moltke هيلموت (١٨٠٠ ـ ١٨٩١)

ماريشال ألماني شهير له أسلوب تكتيكي مميز، خطط لأكثر حروب ألمانيا، أبعد من قبل غليوم الثاني مع إبعاد بيسمارك.

١١٨ ـ سبنسر Spencer جون (١٨٣٥ ـ ١٩١٠)

سياسي بريطاني أصبح لورداً أولاً للبحرية البريطانية عام (١٨٩٢).

١١٩ ـ غوشن Goschen جورج (١٨٣١ ـ ١٩٠٧)

سياسي ومالي بريطاني دخل وزارة غلادستون وأصبح لورداً أولاً للبحرية .

١٢٠ ـ كانروبيرت Canrobert فرانسوا (١٨٠٩ ـ ١٨٩٥)

ماريشال لفرنسا قاد حملتها في القرم ، وبرز في معركة سانت بريفات (١٨٧٠) ، أصبح بعد الحرب نائباً .

١٢١ ـ كابريفي Caprivi جورج ليو (١٨٣١ ـ ١٨٩٩)

جنرال وسياسي بروسي من أصل إيطالي خلف بيسمارك ، أدخل بلاده الحلف الثلاثي .

١٢٢ ـ بيرنارد فون بولوي Bernard Von Bülow عام (١٨١٥ ـ ١٨٧٩)

سياسي دانمركي ثم ألماني أصبح ابنه كارل ماريشالاً ، وأخوه وزيراً للخارجية . أبعده غليوم عن الحكم .

١٢٣ ـ تيربيتز Tirpitz الفريد (١٨٤٩ ـ ١٩٣٠)

أميرال ألماني رئيس أركان ، ثم وزير للبحرية ، هو الذي شيد الأسطول الألماني لأعالي البحار ، وأصبح ثاني أسطول عالمي عام (١٩١٤) . لم يسمح له غليوم الثاني بخوض معركة بحرية مع الهوم فليت البريطاني ، واقتصر على حرب الغواصات .

١٢٤ ـ كروغر Krüger (١٨٢٥ ـ ١٩٠٤)

سياسي بريطاني في جنوب إفريقية شارك في إقامة الترانسغال ، وأصبح نائباً للرئيس فيها بعد إلحاقها ببريطانيا ، ثم رئيساً لها . عارض التعامل مع البريطانيين ، وحاربهم ، وخسر فانسحب إلى فرنسا ثم سويسرا .

١٢٥ ـ غليوم الثاني Gullaume II (١٨٥٩ ـ ١٩٤١)

ملك وإمبراطور ألمانيا حفيد الملكة فيكتوريا استعماري تدخل في المغرب وخلق أزمة عالمية . انسحب آخر حياته إلى الدانمرك .

١٢٦ ــ فيشر كيلفر ستون جون Fisher (١٨٤١ ــ ١٩٢٠)

أميرال بريطاني اشترك في حملة الصين، قصف الإسكندرية عام (١٨٨٢) . قاد أسطول العمارات البريطانية، أصبح لورداً أول للأميرالية، عارض حملة الدردنيل، واختلف مع تشرشل فتخلى عن مركزه عام (١٩١٥).

١٢٧ ــ روزبري فيليب Rosebery (١٨٤٧ ــ ١٩٢٩)

سياسي بريطاني وزير للخارجية ورئيس للوزراء.

١٢٨ ــ بالفور ارثور جيمس Balfour (١٨٤٨ ــ ١٩٣٠)

سياسي بريطاني رئيس وزراء ثم لورد أول في الأميرالية البريطانية، صاحب الوعد المشؤوم.

الجزء الرابع

الصراع البحري
خلال الحربين ١٩١٤ و ١٩٣٩

مقدمة المؤلف

لو تطلعنا إلى خارطة العالم بشيء من الفضول، وأمعنا النظر في تقاطيع السواحل، وفي أعماق المياه، واهتممنا بالظواهر الجوية، وتصورنا حركات مد الملاحة وجذرها الناتجين عن التبادل الاقتصادي، والتبادل البشري لحصلنا على رسم يتضمن طرق المواصلات البحرية بكثافتها ونوعيتها. وحتى لو لم نكن معنيين في علم الاستراتيجية، فإننا سنلمس مقدار الخطر الذي يجسم على المناطق الجغرافية الخاصة من ممرات إجبارية، ومياه قليلة الأعماق، وقنوات بحرية، ومصبات أنهار، ومن عواصف بحرية، وتيارات مائية، وجبال جليدية. وليس البحارة وحدهم يعرفون ما للتضاريس التحت مائية والتضاريس البرية من تأثير على نهج التجارة العالمية. فبالامعان في سيالة التبادل التجاري المتعاظمة مع مرور الأيام، ومن قارة إلى قارة، أو من بلد إلى بلد سنجد ما تعنيه الممرات، وخطوط المواصلات البحرية، وما تلعبه من دور أساسي في قدرات الشعوب البحرية.

أما شهوات الأفراد فلها دوماً حججها التي يرفضها العقل، لكنها تفرض نفسها على الإنسانية بالقوة، حتى تلتقي بفئات مضادة تهب لتحجم تلك الشهوات وتبطلها، وهكذا تنشب الحروب. لكن الرجال يمضون، وأهداف الشعوب تبقى حججاً صحيحة تساعد على حفظ البقاء داخل الأوطان، ضمن إطار من الازدهار والحرية.

الباب الأول

الحرب البحرية العالمية الأولى
١٩١٤-١٩١٨

الفصـــل الأول

الحرب البحـرية العالميـة الأولـى

١٩١٤ ــ ١٩١٨

كتب المؤرخ البحري الألماني فون مانتي يقول :

لو درسنا الحرب البحرية خلال الحرب العالمية الأولى لوجدنا أنه يحق للبحرية الألمانية الفخر والاعتزاز بالأعمال الحربية الباهرة التي قامت بها ، خاصين بالذكر النصر المعنوي لمعركة جوتلاند .. بطولات أسطول الطرادات .. الهجمات عبر بحر الشمال وبحر البلطيق .. معارك سلاح الغواصات . ونستطيع الجزم بأن الساحل الألماني حرس حراسة تامة حتى إنه لم يتعرض لأية قذيفة بحرية عدوة برغم تفوق الحلفاء العددي . إن ألمانيا لم تخسر الحرب في البحار .

في الحقيقة ما قاله هذا المؤرخ صحيح نسبياً إذا أخذنا بعين الاعتبار كفاءة البحار الألماني وجلده . لكن ظروف ألمانيا خلال الحرب كانت غير مواتية ، من حيث وضعها الجغرافي والاقتصادي والاستراتيجي ، وإلا لكان حظها في انتزاع النصر أكبر .

كانت مواصلات البحرية الألمانية مراقبة من قبل الحلفاء ، ومع ذلك عجز هؤلاء على فرض سيطرتهم الكاملة ، وإحكام سيادتهم على جميع البحار لأسباب جمة أهمها :

ــ انعزال روسيا عن حليفاتها ببحريّ البلطيق والشمال .

ــ إنعدام وجود قواعد حليفة ضاربة قرب سواحل ألمانيا ، وحليفتها النمسا .

ــ نشاط سلاح الغواصات الألماني وقدرته على منع الحلفاء من فرض سيادتهم المطلقة في البحار والمحيطات .

ــ وأخيراً فتفوق الحلفاء العددي لم يعطهم كسباً حقيقياً في إحراز النصر ، أو لأن البحرية الحليفة كانت مكلفة بنقل القوات المقاتلة من أرجاء المعمورة ، ونقل المواد الغذائية والأولية لإنكلترا المحاصرة أو لفرنسا المجتاحة .

إن النصر البحري مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنصر البري وهذا الأخير يلعب دوراً هاماً في معنويات رجال البحر ، وهذا ما جعل الحلفاء يحققون النصر النهائي نتيجة انتصاراتهم البرية .

خطط المانيا البحرية

بحر الشمال

انتقد العسكريون الألمان بعد الحرب الأولى خطط البحرية للإمبراطورية الألمانية خلال الحرب . وقد وجهوا النقد بالذات إلى خطأ اعتبروه جسيماً ، وهو اعتبار بحر الشمال بحراً عديم النفع ، والخليج الألماني زاوية ميتة . واستندوا في ذلك على أن طبيعة ألمانيا الجغرافية غير الملائمة كانت تفرض على قيادة البحرية فيها تأمين السيطرة الكاملة على الممرات البحرية الألمانية ، حيث إن جميع طرق المواصلات البحرية المؤدية إلى ألمانيا لا بد وأن تمر من بحري الشمال والبلطيق ، ومن السهل جداً قطعهما من قبل الحلفاء ، وذلك بسد ممر كاليه ، وبحر الشمال . خصوصاً وأن وضع إنكلترا الاستراتيجي يحقق لها السيادة على هذه الممرات .

ظهرت عيوب الاستراتيجية البحرية الألمانية فيما يتعلق ببحري الشمال والبلطيق منذ بداية الحرب ، إلا أن الانتصارات البرية في الجبهة الغربية ، والاستعدادات لغزو إنكلترا ، والقصف الجوي العنيف للجزر البريطانية ، ونتائج معركة جوتلاند البحرية .. كل هذا جعل الحلفاء يتأخرون في تطبيق مبدأ إقامة حصار بحري على ألمانيا وطرق مواصلاتها البحرية ، عن طريق تأمين سيادة بحرية كاملة على بحر الشمال وممر كاليه .

في الحقيقة أن ألمانيا نفسها قصرت في وضع خطط حربية طويلة الأمد ، وأهملت بالتالي تنسيق التعاون بين مختلف القوات البرية والبحرية والجوية . وقد كانت تعتقد أن حربها ستكون خاطفة ، فوضعت من أجل ذلك خططا آنية ، دون التفكير في المستقبل البعيد . وأبلغ دليل على

ذلك خطة شليفن[1] البرية التي نصت على إخراج فرنسا من المعركة منهزمة بمعركة عنيفة **صاعقة ، ثم** الاستدارة للقضاء على الجيش الروسي، وبعدها يصبح أمر إنكلترا سهلاً. ويقال إن هذه الخطة نفسها كانت مجهولة تماماً لدى قيادة القوات البحرية، ولذا لم يقدم الأسطول الألماني أية حماية أو دعم بحري، بل تركت له حرية العمل والرقابة في البحار. وكذلك لم تطبق فكرة استخدام السواحل النرويجية والدانمركية، إلا بعد فترة طويلة من بدء الحرب. واكتفت ألمانيا بسد مداخلها بحقول من الألغام قرب جزر بيلتز والاحتماء خلفها.. حتى إن أمر العمليات الخاص ببحر الشمال، والصادر عن قيصر ألمانيا بتاريخ ٣٠ تموز عام (١٩١٤) كان بمثابة خطة دفاعية بحتة، اعتبرها النقاد خطيئة جسيمة نتج عنها عواقب كثيرة أهمها:

ــ ترك الأسطول الإنكليزي حراً.

ــ عدم تأمين الطرق البحرية عبر بحر الشمال.

ــ ترك أمر المبادهة للحلفاء في تعيين ساعة الاشتباكات البحرية ومكانها.

بحر البلطيق

تقع قناة كييل بين بحري الشمال والبلطيق، وهي تسمح بمرور سريع ومضمون عبر البحرين. وقد كان بإمكان ألمانيا استخدام هذه القناة والترسانات البحرية الموزعة حولها، وجعل بحر البلطيق بحيرة ألمانية مغلقة، ومسرحاً للتمارين البحرية، بعد إغلاق جزائر بيلتز بالألغام، ومنع كل اتصال بين روسيا وحلفائها. وكذلك السيطرة على خلجان فنلندة التي كانت تقدم للأسطول الروسي الامكانات لتأمين تعاون مشترك بين جيش روسيا وأسطولها إبان عمليات الجبهة الشرقية. إلا أن أمر عمليات غليوم[2] قيصر ألمانيا الخاص ببحر البلطيق جاء ناقصاً وعلى النحو التالي:

ــ إزعاج كل هجوم بحري روسي وتعطيله.

ــ حماية خليج كييل وقناته.

ــ ازعاج خطوط مواصلات الحلفاء في بحر البلطيق.

ــ زرع حقول ألغام في مياه السواحل الروسية.

يتضح من ذلك أن ألمانيا قصرت في تقدير أهمية بحر البلطيق، وبالتالي تركت هذا البحر

الذي كان بالإمكان جعله بحيرة لها مسرحاً لنشاط أساطيل الحلفاء. مما أدى إلى صرف مجهود بحري ألماني كبير، في سبيل إنجاح العمليات البحرية الألمانية في المنطقة وجوارها.

البحر الأبيض المتوسط

لم تكن هناك خطة معينة لألمانيا في هذا البحر. وكانت قطع ألمانيا فيه تقتصر على البارجة غوبن، والطراد الثقيل برسلو اللذين اشتركا في العمليات البحرية مع أسطولي إيطاليا والنمسا، وتحت القيادة الإيطالية، ثم انضما للبحرية التركية فيما بعد.

البحار البعيدة

لم تفكر القيادة البحرية الألمانية عام (١٩١٤) في وضع خطة معينة للمسارح البعيدة، نظراً لتبعثر قواتها البحرية فيها. وكانت أغلب الأوامر الصادرة حينذاك تتضمن مهاجمة قوافل الحلفاء، وقطع خطوط مواصلاتها، ومنع القوات البحرية الحليفة من التسلل إلى البحار الداخلية.

فكرة عن مخططات العمليات البحرية لدى المحاربين

القوى البحرية الأوربية عام (١٩١٤)

بريطانيا العظمى

٣١ بارجة حديثة وزن ٢٧ ألف طن
٣٠ بارجة قديمة
١٠ دوارع ثقيلة قتالية
٣٤ طراد ثقيل
٥٦ طراد خفيف
٣١٦ نسافة ومدمرة وفرقاطة
١٠٠ سفينة قاذفة طوربيد
٩٨ غواصة . .

فرنسا

٧ بوارج حديثة
١٨ بارجة قديمة
٢٢ طراد ثقيل
٨٨ طراد ثقيل

٨٨ نسافة وفرقاطة

١٤١ مدمرة

٦٩ غواصة

إيطاليا

٦ بوارج حديثة

٦ بوارج قديمة

٧ دوارع قتالية

٦ طرادات خفيفة

٨٨ مدمزة ونسافة

٢٥ غواصة .

ألمانيا

٢٠ بارجة حديثة

٢٠ بارجة قديمة

٧ دوارع ثقيلة قتالية

٩ طرادات ثقيلة

٤١ طراد خفيف

١٧٧ نسافة ومدمرة

٣٢ سفينة قاذفة طوربيد

٤٢ غواصة

النمسا والمجر

٤ بوارج حديثة

١٢ بارجة قديمة

٣ دوارع ثقيلة

٤ طرادات ثقيلة

٢٥ مدمرة

٧٣ نسافة .

خطط الحلفاء

بحر الشمال

استوحيت الخطط الإنكليزية من العقيدة النلسونية القديمة، نسبة لنلسن[٣]، وذلك بجعل مسرح العمليات قرب شواطىء ألمانيا. إلا أن هذه الخطط أبعدت عندما استلم ونستن تشرشل وزارة الحربية البحرية عام (١٩١١)، واستبدلت بخطط وبأفكار جديدة مخالفة للعقيدة النلسونية. وقد تضمن أمر العمليات الانكليزي الصادر عام (١٩١٢) ما يلي:

- يتجمع الأسطول الكبير في شمال ايكوسيا بمهمة سد طريق بحر الشمال وحماية الشواطىء الإنكليزية الشرقية وتأمين طرق المواصلات نحو البلاد الاسكندنافية.
- يتجمع قسم من الأسطول في الجنوب عند ممر كاليه لسد هذه الممر وحماية الشواطىء الجنوبية، وتأمين طرق المواصلات عبر المحيط الأطلسي.
- يبقى هذان الأسطولان بعيدين عن مسرح العمليات البحرية. وما دام أن الأسطول الألماني باق داخل حوضه فالمهمة إذن حصار ألمانيا باتباع خطة سلبية، طبقها الحلفاء على أساطيلهم وكانوا يخشون قوة الأسطول الألماني، وأسلحته الحديثة، من غواصات وطرادات وزارعات ألغام وطيران بحري خصوصاً وان ألمانيا كانت المتفوقة آنذاك.

تظهر هذه الخطة للوهلة الأولى وكأنها خطة حكيمة في إحكام الحصار على ألمانيا. إلا أن الحصار السلبي أيام الحرب يعتبر هرباً من المعركة، ويفضل عليه الحصار القريب الإيجابي قرب سواحل العدو، وإلا ترك العدو حراً سيداً لمنطقته، يختار بنفسه ساعة فك الحصار ومكانه. وهذا ما حصل فعلاً. فسيادة ألمانيا على بحر البلطيق كانت شبه كاملة، واختارت في الوقت المناسب مسرحاً لمعركتها، فقصدته، واشتبكت مع الأسطول الإنكليزي في البحار العالية البعيدة عن حوضها المدافع عنه، وانتهت إلى نتيجة مرضية اعتبرت سبقاً في علم البحر، وهي اختيارها الزمان ومكان المعركة.

الاتفاقات البحرية الانكلو فرنسية للمسارح البحرية الأخرى

تم الاتفاق بين الدولتين الحليفتين في تشرين الثاني عام (١٩١٢) على توزيع المهام كالتالي:

ــ الدفاع عن بحر الشمال ويناط بالأسطول الإنكليزي .

ــ الدفاع عن مضيق كاليه وبحر المانش للأسطولين الإنكليزي والفرنسي على السواء وذلك بتشكيل تعبوي من مراكب وغواصات من كلا الطرفين .

ــ الدفاع عن غربي بحر المانش ، ويناط بالأسطول الفرنسي المعزز بأربع طرادات إنكليزية .

ــ الدفاع عن حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي ، ويناط بالأسطول الإنكليزي المتمركز في جزيرة مالطة .

ــ الدفاع عن البحر الأبيض المتوسط عدا الشرقي منه ، ويناط بالأسطول الفرنسي .

إلا أن التزام إيطاليا بالحياد ، ووقوفها متأرجحة في مطلع الحرب بين المعسكرين جعل الحلفاء يعدلون اتفاقيتهم ، بحيث أصبحت بتاريخ ١٦ آب (١٩١٤) كالتالي :

ــ تبقى الاتفاقية السابقة سارية المفعول ، ويستثنى منها ما يتعلق ببحر المانش والمتوسط ، وتسند إدارة العمليات في بحري الشمال والمانش إلى الأميرالية البريطانية .

ــ بالنسبة للمتوسط تسند إدارة العمليات بالأميرالية الفرنسية ، وتعمل القوات البحرية الإنكليزية العاملة فيه بإمره الأميرالية الفرنسية طيلة وجود الطرادين الألمانيين غوبن وبرسلو ، وفي حال أسر أو تدمير هذين الطرادين تنفك القوات البحرية الإنكليزية ، لتعمل منفردة في شرقي المتوسط .

ــ على البحرية الفرنسية تأمين جميع خطوط المواصلات في المتوسط ، وحماية مضيق جبل طارق ، وقناة السويس ، وإحكام مراقبة بحر الأدرياتيك ، حيث الأسطول النمساوي .

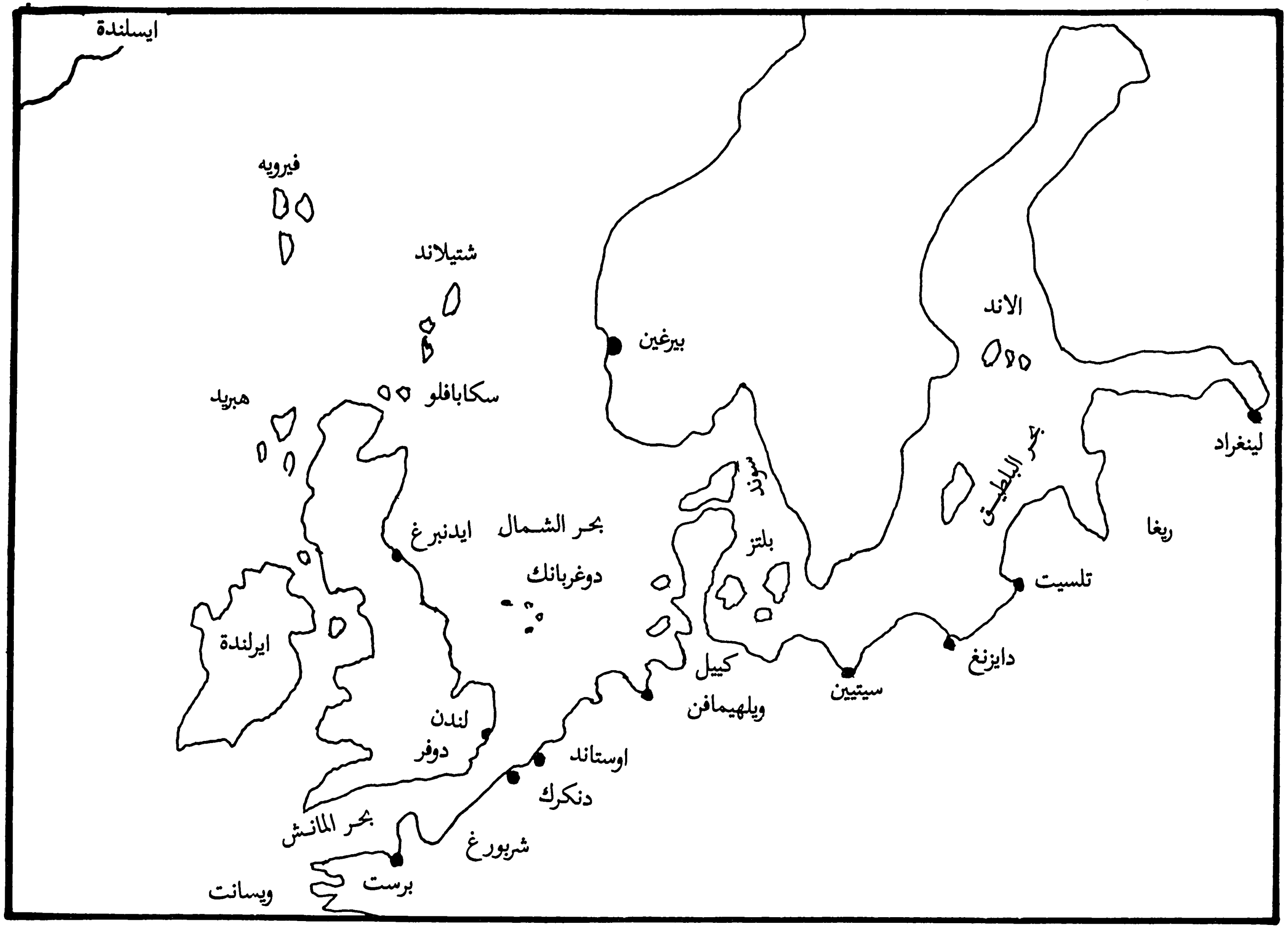
ايسلندة
فيرويه
شتيلاند
هبريد
سكابافلو
ايرلندة
ايدنبرغ
بحر الشمال
دوغربانك
لندن
دوفر
بحر المانش
برست
ويسانت
شربورغ
دنكرك
اوستاند
ويلهيمافن
كييل
بلتز
سوند
بيرغين
الاند
بحر البلطيق
سيتيين
دايزنغ
تلسيت
ريغا
لينغراد

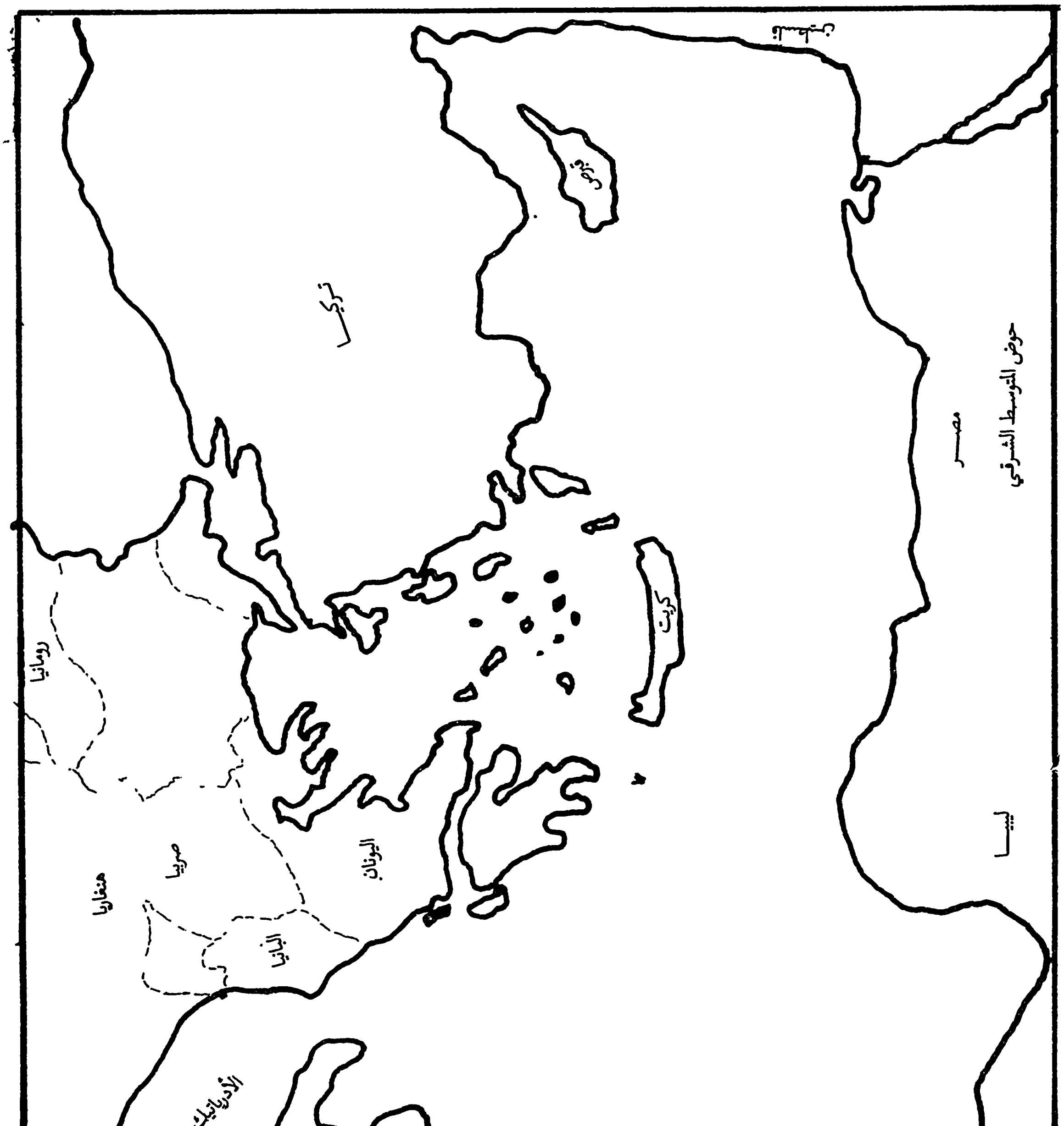
رومانيا
هنغاريا
صربيا
ألبانيا
اليونان
الأدرياتيك
إيطاليا
صقلية
مالطة
تركيا
قبرص
كريت
مصر
ليبيا
حوض المتوسط الشرقي

الفصـــل الثـانـــي

مـراحـل الحـرب البحريــة
خــلال الحـرب العالميـة الأولــى ١٩١٤ ــ ١٩١٨

المرحلة الأولى عام (١٩١٤)

١ ــ البحر الأبيض المتوسط

كان الموقف البحري في المتوسط عند بدء الحرب كالتالي :

ــ تجمع الأسطول الفرنسي في ميناء طولون الحربي جنوب فرنسا .

ــ تجمعت القوة البحرية الإنكليزية في جزيرة مالطة ، وكانت مؤلفة من (٣) بوارج و (٤) طرادات ثقيلة و (٤) طرادات خفيفة و (١٦) نسافة . بالمقابل كان الأسطول النمساوي بكامله متأهباً قرب قواعده في بحر الأدرياتيك ومعززاً بالبارجة الألمانية غوبن ، والطراد الألماني بريسلو .

النقل الخاص

تضمنت الخطة رقم (١٧) والصادرة في نيسان (١٩١٤) نقل الجيش الفرنسي التاسع عشر من شمال إفريقية إلى فرنسا بوساطة سفن تجارية سريعة على أن يجري العمل إفرادياً وبحماية عامة

بسيطة يقدمها أسطول طولون ، إلا أن التهديد المباشر من قبل المفرزة الألمانية (غوبن وبريسلو) والقصف الذي أصاب مدينتي بونه وفيليبفيل دفع بالحلفاء إلى نهج أسلوب النقل الجماعي بقوافل بحرية مجمعة وبحماية بحرية مباشرة ، دعيت هذه الطريقة بعملية النقل الخاص ، وفعلاً فقد تمت العملية بنجاح ونقل الجيش التاسع عشر بكامله وكان تعداده (٤٩٠٠٠) محارباً و (١١٨٠٠) حصاناً .

غوبن وبريسلو

تحرك الطرادان غوبن وبريسلو في ليل ٢ ، ٣ آب بمهمة قطع طريق قوافل الحلفاء ، ومهاجمة قوافل النقل الخاص. إلا أن أمراً صادراً عن الأميرالية تبع تحركهما ، دعاهما إلى دخول ميناء القسطنطينية بأسرع ما يمكن ، فاستدار الطرادان وفي أثناء الطريق وفي ٤ آب ضربا مدينتي بونه وفيليبفيل ثم تابعا سيرهما ، واستطاعا الافلات من القوة الإنكليزية التي لحقت بهما ، ودخلا مضائق الدردنيل حيث انضما فيما بعد للأسطول التركي ، عندما دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا .

إن دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا في مطلع شهر تشرين الثاني قلب ميزان القوى في المتوسط ، إذ عمد الحلفاء إلى تشكيل مفرزة خاصة مهمتها مراقبة المضائق والإعلام عن تحركات الأسطول التركي الألماني هناك .

مسرح الأدرياتيك

كانت المهمة الملقاة على الأسطول الفرنسي كبيرة وصعبة في بحر الأدرياتيك . ويمكننا اعتبارها مهمتين في آن واحد ، الأولى سد فتحة بحر الأدرياتيك بصورة مستديمة لمنع الأسطول النمساوي الخروج إلى المتوسط عن طريق أوترانت ، والثانية تدمير الأسطول النمساوي في البحر نفسه ، وكان هذا الأسطول قوة لا يستهان بها . فهو يتألف من ثلاث بوارج ، وثلاث دارعات ، وثلاث طرادات ثقيلة ، وسبع طرادات خفيفة ، مع ثماني عشرة نسافة ، وأربع وستين مدمرة ، وثماني غواصات ، كلها متمركزة في بحر الأدرياتيك ، وإلى جانب قواعدها البحرية .

جاءت نتيجة الصدام بين الأسطولين الفرنسي والنمساوي لصالح الحلفاء ، لأن الأسطول

النمساوي بقي محاصراً بعد المعركة في بحره المغلق، لكن خسارة فرنسا كانت أكبر من خسارة النمسا في تلك المعركة، إذ تعطلت البارجة جان بارت، ودمرت البارجة ليون غامبيتا، وفقدت عدة مدمرات في حين خسرت النمسا طرادين وغواصة واحدة، وكل ذلك تم خلال عام (١٩١٤).

الشرق الأدنى

كان غرض الحلفاء في الشرق الأدنى السيطرة على قناة السويس وحماية طريق الهند، وكذلك حماية مصالح فرنسا في شمال إفريقية. وقد كلفت بذلك مجموعة بحرية تعبوية أهم وحداتها الروكان ـــ والأميرال شارنر بالإضافة إلى قاعدة طيران بحرية فرنسية في مدينة بورسعيد.

٢ ـــ في البحار البعيدة

وزعت ألمانيا قواتها البحرية في المسارح الخارجية والبعيدة على النحو التالي:

في الأطلسي: خمس طرادات مختلفة الأحجام تعمل إفرادياً في مهاجمة طرق امدادات الحلفاء وقطعها.

في الهادي: أسطول الأميرال فون سبي(٤) والمؤلف من البارجتين شارنهورست وغنيزنو، وخمس طرادات مختلفة الأحجام.

في الهندي: طرادان هما كونيسبورغ وجيير.

ووزع الحلفاء قواتهم البحرية على النحو التالي:

في الأطلسي: ست مجموعات تعبوية هي:

١ ـــ أسطول جزر كاناري، والجزيرة الخضراء.

٢ ـــ أسطول البرتغال، وجزيرة مادير.

٣ ـــ أسطول إنكلترا وإيرلندة.

٤ ـــ أسطول إفريقية الاستوائية الفرنسية.

٥ ـــ أسطول أمريكا الجنوبية.

٦ ـــ أسطول أمريكا الشمالية.

في الهادي: خمس مجموعات تعبوية هي:

١ ـــ أسطول بحار الصين.

٢ ــ الأسطول الروسي والمؤلف من طرادين .
٣ ــ الأسطول الاسترالى .
٤ ــ الأسطول الخاص بزيلندة الجديدة .
٥ ــ الأسطول الخاص بجزائر الهند الشرقية .

كورونيل وفولكلاند

عند إعلان الحرب كان أسطول الأميرال فون سبي قرب جزائر كارولين ، ولقد تردد القائد الألماني بين أمرين اثنين ، البقاء حيث هو ، أو العودة سريعاً إلى ألمانيا عن طريق رأس هورن (جنوب أمريكا الجنوبية) ، ولكن تسارع الأحداث ، وتجمعات السفن الإنكليزية ، وتهديد اليابان اضطره للنزول جنوباً ، والاتجاه نحو جزائر ماريشال في المحيط الهادي ، حيث ضرب مدينة بابيت في جزيرة تاهيتي ، وهاجم جزر باك ثم اتجه نحو الساحل الأمريكي الجنوبي ، وتزود بالمحروقات ، وكانت الأميرالية الإنكليزية تجهل تماماً تحركات هذا الأسطول ، فكلفت الأميرال كرادوك(٥) قائد أسطول الأطلسي والمكلف بالبحث عن الطرادين درسدن ، وكالسروه بالتخلي عن بحثه والاتجاه لملاقاة أسطول فون سبي الذي بادر منذ مطلع شهر تشرين الثاني بإزعاج القوات الحليفة . فقرب كورونيل قام الطرادان شارنهورست وغينزنو بإغراق الطرادين البريطانيين كودهوب ، وومنموث ، وأجبرا الطرادين غلاسكو واترانتو على الفرار .. وهكذا أخفقت عملية ملاقاة أسطول فون سبي .. فعاد واجتاز رأس هورن ، واتجه نحو جزائر فولكلاند لتدمير الترسانات والمحطات البحرية هناك ، وهنا خشيت الأميراليـة الإنكليزية انتصارات الأميرال فون سبي ، فأعدت قوات بحرية ضخمة في مونتفيديو ، وأرسلتها بتاريخ ٧ كانون الأول إلى فولكلاند حيث نشبت في اليوم التالي معركة بحرية رهيبة بين الأسطولين غرق فيها للحلفاء (٤) قطع كبيرة ، وثلاث قطع متوسطة ، وغرق للألمان شارنهورست وغينزنو وطرادان آخران . أما درسدن فقد أغرقت فيما بعد قرب الشواطىء الشيلية . وكان لنصر الإنكليز في هذه المعركة فائدة كبرى ، إذ ارتفع خطر التهديد الألماني عن البحار البعيدة ، وصار باستطاعة إنكلترا استعادة وحداتها البحرية الموزعة هناك وإعادتها إلى مياهها المحلية .

مطاردة الوحدات الألمانية

أغرق الإنكليز في المحيط الأطلسي الطراد الألماني القيصر غليوم ، بعد أن أزعج الإنكليز في خطوط مواصلاتهم ، وأغرق لهم عدة مدمرات . وتبعه الطراد الألماني الكرونبريز غليوم ، بعد أن أغرق

للحلفاء ما يزيد عن (٧٠) ألف طن مراكب ، ثم التجأ لأحد مرافىء الولايات المتحدة واستسلم هناك . أما الطراد درسدن فقد عمل منفرداً ، وأغرق عدة مئات من الأطنان للحلفاء ، ثم انضم لأسطول فون سبي ، وغرق فيما بعد . وأخيراً الطراد كالسروه وأغرق للحلفاء (١٧) مركباً في بحر الآنتيل وقرب الشواطىء البرازيلية ، ثم غاب في أعماق المحيط على أثر انفجار داخلي وقع فيه .

وفي المحيط الهندي قام الطراد الألماني كونسبرغ بعدة هجمات على قوافل الحلفاء ، وأغرق الطراد الإنكليزي بيكاسوس ، ثم دخل نهر روفيجي . وهناك هاجمته سفن نهرية على حين غرة وأغرقته . وقام الطراد الألماني امدين والمعزز ببعض الوحدات من أسطول فون سبي بقطع خطوط مواصلات الحلفاء بين كولومبو وكالكوتا ، ودمر مدينة مادراس ، وأغرق الطراد الروسي يمتشوغ والمدمرة الفرنسية موسكيه في خليج البنغال ، ثم دمر محطات جزر كيلنغ قرب أوستراليا ، وأخيراً أغرقه الطراد الأوسترالي سيدني في ٩ تشرين الثاني .

المستعمرات الألمانية عبر البحار

لم تفكر ألمانيا في حماية مستعمراتها عبر البحار لاعتقادها بأن حربها ضد الحلفاء ستكون خاطفة وسريعة . وجاء التفكير بعيداً عن الواقع ، وبذلك تسنى للحلفاء احتلال كافة مستعمرات ألمانيا في المحيط الهادي ، وفي قارة إفريقية دون كبير عناء .

بحر الشمال

طبقاً للخطة الموضوعة ، حاصر الحلفاء بحر الشمال بمنافذه الثلاثة ، ومنعوا الأسطول الألماني من حرية العمل . وبذلك دفعوه لرد فعل تمَّ بمعارك بحرية صغيرة طيلة عام (١٩١٤) . وفي نهاية العام تقدم الأسطول الألماني نحو بحر الشمال . وهناك اصطدم بأسطول (إنكلترا إيرلندة) في معركة هيلفولان ومني بخسائر فادحة . وبذا فقدت ألمانيا توازنها البحري في المنطقة ، فلجأت تارة لحرب الغواصات ، وأخرى لزرع مساحات كبيرة بالألغام البحرية . وبذلك سدت منافذ البحر عن مياهها المحلية ، وقواعدها البحرية .

لقد ارتكبت ألمانيا خطأً كبيراً في الاشتباك بمعركة هيلفولاند غير المتكافئة عددياً ، علماً بأن جزءاً كبيراً من هذا الأسطول لم يشترك فعلياً في المعركة نظراً لتبعثره على شكل مجموعات موزعة في البحر . وكان بإمكان ألمانيا الإفادة أكثر لو أنها استغلت قواتها البحرية في فرص أفضل ، ومنها مثلاً :

ــ مهاجمة القوات الإنكليزية المنقولة بحراً إلى شواطىء فرنسا .

ــ ضرب سواحل الفلاندر لإنهاء معركة الايزر الساحلية على بر فرنسا ، وإخراج الجيش البلجيكي من المعركة .

ــ مهاجمة الأسطول الإنكليزي الفرنسي في جنوب بحر الشمال الذي كان من شأنه إعطاء ألمانيا نصراً حاسماً ، لتوزع هذا الأسطول وتشتته في منطقة واسعة .

من ذلك نستطيع القول إن هذا الخطأ الجسيم كان نتيجة طبيعية لنقص التعاون بين القوات الألمانية الثلاث ، وجهل القيادة البحرية للخطة البرية ، وأثر العمليات البحرية في الجبهة الغربية (جبهة فرنسا وبلجيكا) .

خلاصة عمليات عام (١٩١٤)

اتصف عام (١٩١٤) بتفوق الحلفاء البحري النسبي في جميع المحيطات ، وهذا بديهي نظراً لتفوقهم العددي الساحق ، لكنهم أصيبوا بخسائر فادحة ، أما ألمانيا فقد أنزلت بالحلفاء في مطلع الحرب خسائر جسيمة ، لكن سرعان ما تقلص نشاطها ، وانكمش نتيجة فقدها للعديد من طراداتها .. واكتفت في نهاية العام بمهاجمة طرق إمدادات الحلفاء ، واتباع حرب الغواصات .

المرحلة الثانية عام (١٩١٥)
البحر الابيض المتوسط

غزو الدردنيل

قام الحلفاء خلال هذا العام بعملية إنزال مشتركة في مضائق الدردنيل حشدوا لها مليون عسكري و (٣٠٠) مركب حربي ، وعدة مئات من مراكب النقل التجارية . وكانت النتيجة هزيمة شنعاء لهم ، إذ أضاع الإنكليز (٢٠٠) ألف جندي بين قتيل وجريح وأسير ، وأضاع الفرنسيون (٥٠) ألفاً وغرق لهما (٥) بوارج ، وعدة طرادات وعشرات المدمرات ، وفيما يلي دوافع هذه العملية ومراحلها :

بعد أن أحرز الحلفاء نجاحاً نسبياً في كافة الجبهات استطاعوا حصر ألمانيا وحليفتها النمسا

بحراً، فأسطول ألمانيا في بحري البلطيق والشمال، وأسطول النمسا في بحر الأدرياتيك وحرب الغواصات الألمانية لا زال بعد في المهد. وكان من الطبيعي أن يبحث الحلفاء عن مجال جديد بفتح جبهة برية إضافية على ألمانيا لزعزعة موقفها في الجبهات البرية الأخرى. وبدأت الدراسات لدى القيادة الحلفية، وكان عليها اختيار إحدى الخطط التالية:

- فتح جبهة نهر الدانوب وسالونيك في البلقان.
- إجراء عملية إنزال قرب قناة كييل ومهاجمة ألمانيا عن طريق الدانمرك.
- مهاجمة مضائق بحر مرمرة بعملية بحرية بحتة.
- مهاجمة مضائق بحر مرمرة بعملية مشتركة تعقبها عملية إنزال واسعة النطاق لاحتلال المضائق، والتقدم في البر التركي لإسقاط حليفة ألمانيا، وشل أسطولها، والقضاء على كل من غوبن وبريسلو.

وأخيراً فازت بالفعل الفكرة الأخيرة التي نصت على عملية إنزال مشتركة، ومهاجمة تركيا في أراضيها.

لقد انتقد الأميرال كاستكس[٦] العملية بشدة ووصفها بمأساة عسكرية ومما قاله فيها:

إن الجبهة الغربية «جبهة فرنسا» كانت صعبة على الحلفاء، وتتطلب مزيداً من العتاد والرجال، وليس من الحكمة البتة سحب احتياطي تلك الجبهة لزجه في تركيا، البلد المنعزل والبعيد والعاجز عن القيام بأي عمل فعال في القوقاز أو في الشرق العربي عند قناة السويس، وحتى لو نجحت عملية الدردنيل فإن المضائق قضية عسيرة ستجر متاعب جمة مع الحليفة روسيا نظراً لأطماع هذه الأخيرة، ورغبتها في السيطرة على هذا الممر الحيوي بالنسبة لها..

وخلص الأميرال كاستكس إلى القول «**بأنه ما كان يجب مهاجمة تركيا حتى في عام (١٩١٥)، وحتى عن طريق الدردنيل**».

اعتبرت غزوة الدردنيل باتفاق جميع المؤرخين مأساة من خمس فصول، من أسبابها المباشرة لجوء البارجة غوبن والطراد بريسلو إلى المضائق، وضمهما إلى الأسطول التركي، مما أجبر الحلفاء على تخصيص أسطول مراقبة دائم في تلك المنطقة لمنع الأسطول التركي المفرز من الخروج إلى البحر الأبيض المتوسط، إلا أن تخصيص هذا الأسطول الحليف بكامله أمام المضائق مهمة عسيرة وباهظة

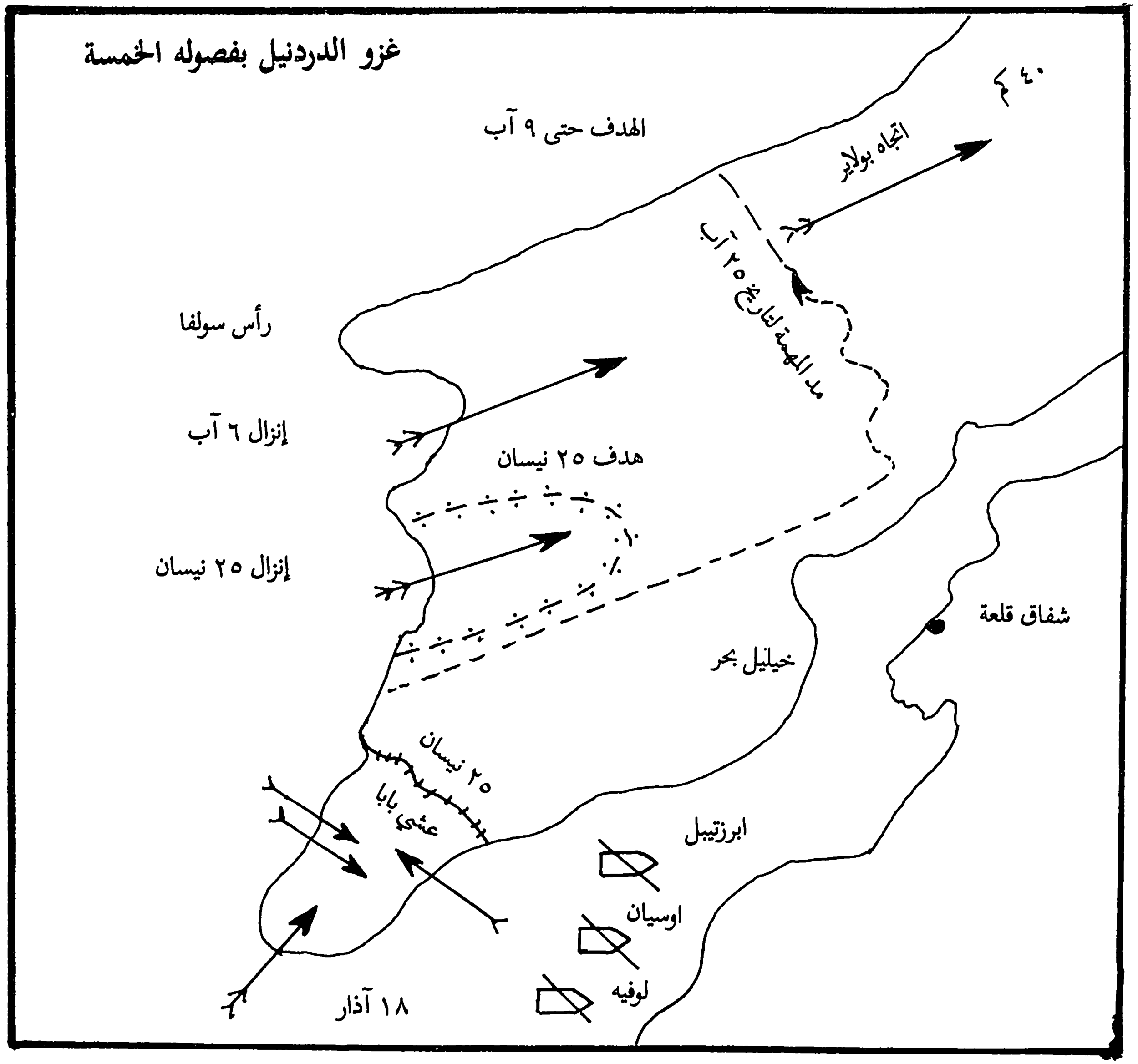
غزو الدردنيل بفصوله الخمسة
٤٠ كم
الهدف حتى ٩ آب
اتجاه بولاير
مد الهجمة لتاريخ ٢٥ آب
رأس سولفا
إنزال ٦ آب
هدف ٢٥ نيسان
إنزال ٢٥ نيسان
شفاق قلعة
خيليل بحر
٢٥ نيسان
عشي بابا
ابرزتيبل
اوسيان
لوفيه
١٨ آذار

التكاليف، لبعد هذا الأسطول عن قواعده، لذا ولدت فكرة مهاجمة الدردنيل للتخلص من هذا التهديد، ولضرب الأسطول التركي المفرز وتدميره.

الفصل الأول

ضرب القلاع الخارجية للمضائق تمهيداً لعملية الغزو وكان ذلك بتاريخ ١٨ شباط (١٩١٥) ودون إحراز أي كسب حربي.

الفصل الثاني

هجوم بحري في ١٨ آذار دون إنزال أية قوات على البر نظراً لافتقار الحلفاء إلى القوات البرية اللازمة في ذلك الحين.

كانت نتائج هذا الهجوم سيئة على الحلفاء إذ خسروا ثلاث بوارج بتأثير الألغام، واستمرت المعركة البحرية حتى أتيح للحلفاء ارسال مجموعة كاسحات الغام لكسح المنطقة كما استقدم الحلفاء تعزيزات بحرية من أسطول فرنسا المرابط في غربي حوض البحر الأبيض المتوسط، وبدأت فعلياً تحضيرات عمليات الإنزال.

بتاريخ ٢٠ نيسان وصلت القوات البرية من احتياطي الجبهة الغربية، وكان عددها (٣٠) ألف محارب.. ونزلت الدفعة الأولى بتاريخ ٢٥ نيسان، وذلك بمهمة قطع شبه جزيرة عشي بابا، وإقامة رأس جسر للقوات الرئيسية.

لقد اخفقت عملية الإنزال هذه أيضاً وخرج من المعركة وفي ساعاتها الأولى ٦ آلاف محارب بين قتيل وجريح، وانسحب الحلفاء متنازلين عن فكرة احتلال شبه الجزيرة المذكورة ويعزى اخفاق هذه الحملة إلى الأسباب التالية:

- صعوبة منطقة الإنزال الطبيعية.
- ضراوة القوات التركية في الدفاع.
- عناد الإنكليز في تطبيق الخطة بطريقة حمقاء.

الفصل الثالث

تميز الفصل الثالث من هذه العملية بهدوء نسبي في المنطقة خلال أشهر أيار حزيران تموز.

وازداد قلق الحلفاء، إذ اضطروا إلى استدعاء المزيد من القوات الاحتياطية البرية والمزيد من السفن الحربية، بدعوة باقي أسطول فرنسا في غربي المتوسط خصوصاً بعد أن دخلت إيطاليا الحرب.

الفصل الرابع

جرت عملية إنزال جديدة في منظمة سولفا بتاريخ ٦ آب واستمرت المعركة حتى ٩ منه ونجح الحلفاء في تقدمهم، واندحر الأتراك نحو داخل المنطقة بعد نشوب معارك طاحنة كانت الخسائر فادحة لدى الطرفين المتحاربين.

الفصل الخامس

اضطر الحلفاء إلى إخلاء المضائق بين ٢٨ كانون الأول و ٩ كانون الثاني من عام (١٩١٦) بعد أن تدهور موقفهم في باقي الجبهات البرية الأخرى، وترجع أسباب التخلي عن المضائق إلى العوامل التالية:

ــ انكسار الفرنسيين قرب مدينة شامبانيا في الجبهة الغربية.

ــ اندحار الحليفة روسيا في الجبهة الشرقية.

ــ انكسار القوات الصربية في الجبهة المتوسطة واستسلام قسم كبير منها.

ــ دخول بلغاريا الحرب إلى جانب المحور. وقد أدى ذلك إلى تأمين الاتصال بين ألمانيا وحليفتها تركيا براً.

لهذا شعر الحلفاء بضرورة انسحابهم من المضائق لتغطية مواقفهم وتصحيحها في باقي الجبهات. وقد تم الانسحاب بعد أن شهد مناقشة طيلة شهرين بين قيادات القوات الحليفة.

نستخلص من غزوة الدردنيل النتيجة التالية:

كانت عملية الإنزال ممكنة ومعقولة في مطلع شهر نيسان لو أن الحلفاء أعدوا لها الإعداد اللازم.. وفي الحقيقة كان التحضير سريعاً ومرتجلاً، ولم يقذف بالإمكانات الحربية المتوفرة دفعة واحدة، مما أضعف موجات الهجوم.. ولو نجح الحلفاء في توطيد أقدامهم لكان بالإمكان إحراز بعض المكاسب منها:

ــ تأخير أو تفادي سقوط روسيا.

ــ رفع الخطر عن الشرق الأدنى.

ــ شل قوات تركيا الموزعة ، وتخفيف الضغط عن الجبهة المتوسطة (جبهة البلقان)

ــ رفع خطر التهديد البحري في البحر الأبيض المتوسط .

الشرق الأدنى

هاجم جمال باشا القائد التركي في مطلع شباط من عام (١٩١٥) قناة السويس بحملة خاطفة مؤلفة من (٢٥) ألف مقاتل واجتاز صحراء سيناء إلا أن استطلاع طيران الحلفاء أنقذهم من عامل المفاجأة وقاموا بهجوم معاكس من قبلهم؛ ودعموا هذا الهجوم بعملية إنزال على سواحل سورية لقطع خطوط إمداد القوات التركية، وبقيت معركة السويس غامضة خصوصاً بعد أن تدخل السنوسيون إلى جانب الأتراك .

أما في البحر الأحمر فلم يطرأ أي تغيير على الموقف ، فالأسطول الإنكليزي المعزز بعدة مراكب فرنسية يجوب البحر ، ويقدم الحماية اللازمة للمنطقة .. وظل الموقف على ما هو عليه حتى ثاز العرب على الأتراك .

بحر الأدرياتيك

تأكد الحصار البحري المضروب حول الأدرياتيك بدخول إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء . وكانت قوات إيطاليا للبحرية تتضمن (٦) بوارج، (٦) دارعات (٧) طرادات ثقيلة، (٦) طرادات خفيفة ، (٨٨) مدمرة ، (٢٥) غواصة ، أضف إلى ذلك قواعدها البحرية الهامة في شرقي ساحلها على الأدرياتيك ، وفي الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. ويلخص نشاط الحلفاء في بحر الأدرياتيك بإغراق غواصة نمساوية في شهر آب ، تبعتها عدة سفن حربية .. ولكن أهم ما في الأمر هو تحقيق إقفال ممر أوترانت بسد متحرك من المراكب الحربية ، همه مراقبة الأسطول النمساوي ومنعه من الخروج. وقد ظل هذا السد قائماً حتى عام (١٩١٨) حين استبدل بعدها بسدود ثابتة ، وحقول ألغام حول مرافىء النمسا . ومن العمليات البحرية الناجحة في بحر الأدرياتيك هي قيام الأسطول الفرنسي قرب كورفو بإنقاذ الجيش الصربي المندحر وإصعاده ونقله خلال (٢٥) يوماً .

بحر الشمال

بقي أسطول ألمانيا دون عمل إيجابي طيلة العام ، وظل إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني يرفض زج

أسطول بحر الشمال بمعركة غير متكافئة مع الحلفاء. وترك لقادة الأسطول المباشرين الحرية التامة في مهاجمة قوافل وسفن إمداد الحلفاء وشلّها في تلك المنطقة. وقد أعد قادة أسطول الشمال الألماني عملية هجوم بمجموعة الطرادات الألمانية لضرب سواحل إنكلترا، خلال شهر كانون الثاني، وتألفت هذه المجموعة من السفن الحربية التالية:

الطرادات.. سيدلتز، مولتكيه، دير فلونجر، معززة بالبارجة بلوشر القديمة مع عدة مدمرات.

علمت الأميرالية البريطانية بأمر الهجوم قبل وقوعه فأرسلت للقاء المجموعة الألمانية المهاجمة مجموعة أضخم منها تضمنت السفن الحربية التالية:

البوارج والطرادات الثقيلة.. دوبيتي، ليون، التايغر، برنسيس رويال نيوزيلند مع عدة نسافات ومدمرات.

تم الصدام بين المجموعتين في منتصف بحر الشمال وفي منطقة تدعى دوغر ـــ بانك وجرت معركة حامية فتساقطت الحمم على المراكب بضراوة وقسوة وأسفرت المعركة عن غرق البارجة الألمانية بلوشر، وخسر الإنكليز الطرادين تايغر، وليون.

اعتبر كل من الحلفاء والألمان المعركة خاسرة لكلا الطرفين.. وصرح الأميرال الألماني تيربتز (٧) «بأن فرصة خوض معركة ناجحة ضد أسطول إنكلترا في بحر الشمال قد ضاعت نهائياً. وهنا يجب تعويض ذلك بمضاعفة هجمات المناطيد زبلين على لندن، ودفع حصار الغواصات الألمانية حتى حوض نهر التايمز».

حرب الغواصات خلال عام (١٩١٥)

لم تكن إمكانات الغواصات معروفة خلال عام (١٩١٤) وألمانيا لم تكن تملك إلا (٢١) غواصة. ولكن النجاح الذي أحرزته في قنص المراكب الحليفة دفعها لتنظيم برنامج تعمير طويل الأمد يستهدف بناء (٧٢) غواصة.

ومن الأعمال التي قام بها هذا السلاح الحديث خلال عام (١٩١٥) إغراق الطراد البريطاني باثفايندر، والبارجة أبي قير، والطرادات كريسي، هوغ، هاوك في بحري الشمال والمانش،

وإغراق البوارج الفرنسية : جان بارث ، ليون غامبيتا ، والتريومف ، والماجستيك في البحر الأبيض المتوسط بالإضافة إلى (٦٢٥) ألف طن مراكب تجارية للحلفاء ، و (١٠٨) آلاف طن مراكب تجارية لدول محايدة .

أعلنت القيادة البريطانية في الثاني من تشرين الثاني عام (١٩١٤) جعل بحر الشمال منطقة حربية ضد كل خرق معاد ، فقدر الألمان أنه بالامكان الإفادة من ذلك . وبعد دراسة حركة المرافىء الإنكليزية دراسة وافية ، قرروا مهاجمة قوافل الحلفاء دون هوادة مستعينين بسلاح الغواصات ، لكن عارض الأميرال تربتيز ذلك لقلة عدد الغواصات ، وللمضاعفات التي ستنجم عن استفزاز شعور الدول المحايدة .

سعى رئيس أركان حرب القوات الألمانية فون بوهل مع الإمبراطور غليوم الثاني لاستصدار إنذار بحري للدول المحايدة أعلن خلال شهر شباط من عام (١٩١٥) وتضمن التالي :

آ ـــ المياه المحيطة بالجزائر البريطانية وإيرلندة وبحر المانش مياه خطرة واقعة في المنطقة الحربية ، فاعتباراً من ١٨ شباط ستغرق كل سفينة تجارية تشاهد هناك حتى ولو كان انقاذ بحارتها غير ممكن .

ب ـــ ستتعرض كل السفن التجارية التابعة للدول المحايدة للاخطار المذكورة نفسها في الفقرة (آ) دون تمييز .

جـ ـــ الملاحة في شمال الجزر البريطانية وشمال جوتلاند وشرقي بحر الشمال وحول الساحل الهولندي مسموحة نظراً لعدم وقوعها في المنطقة المهددة .

مهما يكن من نتائج حرب الغواصات في الوضع الحربي العام ومن الخسائر التي ألحقت بمراكب الحلفاء الحربية منها والتجارية ، فإننا نستطيع القول إن مردودها كان ضعيفاً نسبياً ولم يأت بالفوائد المرجوه فمثلاً :

خسرت بريطانيا عام (١٩١٥) مقدار (٧٧٩) ألف طن مراكب بين تجاري وحربي في حين انتجت ترساناتها (٦٥٥) ألف طن مراكب في العام نفسه .

أما بالنسبة للنتائج السياسية فقد كانت خطيرة للغاية ، إذ استفزت ألمانيا جميع الدول المحايدة لعدم تمييزها المراكب التجارية المحايدة عن المعادية ، حتى إن من أسباب دخول أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء ضرب سفينة الركاب الأمريكية لويزيانا في ٧ أيار عام (١٩١٧) .

إن إخفاق حرب الغواصات خلال عام (١٩١٥) اضطر ألمانيا لايقافها في المحيطات ، وقصرها على البحار الداخلية .

المرحلة الثالثة عام (١٩١٦)

خروج الأسطول الألماني

بدأ الوضع العام في ألمانيا يتدهور منذ مطلع عام (١٩١٦) . وحصل جمود كلي في مختلف الجبهات الشرقية والغربية ، واشتدت خطورة الأزمة الاقتصادية نتيجة الحصار البحري المضروب حولها ، فبدأت القيادة العليا تفكر بحل ناجع للسيطرة على الموقف ، فوجدته في توسيع عمليات أسطولها من جديد . وعلى هذا الأساس تركز العمل على البرنامج الذي وضعه الأميرال شيير(٨) وصادق عليه الإمبراطور في ٢٣ شباط ويتضمن النقاط التالية :

آ ــ لا تسعى البحرية الألمانية إلى الاشتباك مع القوات البحرية الإنكليزية مجتمعة في معركة فاصلة ، بسبب عامل تفوق الإنكليز العددي .

ب ــ تتم جميع الإغارات التي تستهدف ضرب السواحل الإنكليزية ، وتدمير السوار البحري المحيط بالجزائر ، ومهاجمة خطوط الإمداد التجارية باشتراك جميع القوات البحرية الألمانية .

جـ ــ تؤمن الغواصات وسفن الاستكشاف الأمن البعيد للأسطول الألماني لتفادي المفاجأة ، وبالتالي لتفادي دخول معركة غير متكافئة .

د ــ تبقى الوحدات البحرية الضخمة على مقربة من مراكب الإغارات لتستطيع مديد المساعدة لها في حال ظهور الأسطول الإنكليزي الكبير .

هـ ــ لا تعمل الغواصات الألمانية في منطقة الاشتباك حتى لا تحد من حرية عمل الأسطول الألماني ، بل تبقى خارج حدود المنطقة ، لتعمل إفرادياً على إزعاج أسطول الحلفاء وإشغاله عن مكان الهجوم .

و ــ تشتبك الوحدات الألمانية المهاجمة فوراً وبسرعة قبل إعطاء فرصة لاحتياطي الحلفاء الموزع بالتجمهر واللحاق بالمعركة .

ز ــ تسهر القوات البحرية وفي كل الظروف على منع كل تسلل حليف داخل الحوض الألماني وقرب سواحله ، وتمنع كل هجوم انكليزي داخل بحر البلطيق .

طبق هذا البرنامج تطبيقاً كاملاً في حدود الخطة الدفاعية، واشتركت الأسلحة البحرية الأخرى كل بدورها، فقد قامت الكاسحات وزارعات الألغام بمهامها تماماً، وذهبت دوريات السفن السطحية بعيداً، وتدخلت الغواصات مراراً، وطار سلاح الجو لتحقيق أمن قوات ألمانيا البعيدة.. وفي ٢٥ نيسان خرج أسطول هوش ودمر البارجة لويستوفت. وقد قام الأسطول الإنكليزي الكبير في المنطقة بضرب حصار بحري حول ألمانيا، وبسد مداخلها، ليمنع عنها التموين، ويحمي قوافل الحلفاء وإمداداتهم من هجمات ألمانيا المفاجئة. وكانت مهمة هذا الأسطول شاقة ومعقدة إزاء خطر غواصات ألمانيا المتزايد وحقول ألغامها الموزعة بكثافة.

تجنب قائد الأسطول الكبير دخول معركة فاصلة مع الألمان، واكتفى بصد الهجمات ومنع الإغارات، وأحياناً التغرير ببعض التشكيلات في الابتعاد عن مراكزها لإدخالها معركة غير متكافئة القوى.. والخلاصة كان الخصمان القائدان في بحر الشمال يتجنبان الصدام بمعركة فاصلة إلى أن وقعت معركة جوتلاند الشهيرة، التي حصلت بمحض المصادفة، ولم يسع إليها أحد الطرفين المتنازعين بل هيأتها ظروف استثنائية.

معركة جوتلاند ٣١ مايس عام (١٩١٦)

كانت الخطة الإنكليزية ترمي إلى دفع مجموعتين خفيفتين من المراكب معززة بعدة بوارج إلى مضيق بيلتز الشمالي، لإغلاق الطريق أمام أسطول ألمانيا لأعالي البحار. وقد فكر الأميرال الألماني شيير باستدراج طرادات الأميرال الإنكليزي بيتي(٩) ليدمرها.. إلا أن إنكلترا علمت بالاستعدادات البحرية الغريبة التي يجريها الألمان، فسارعت إلى استدعاء كافة مراكبها المخصصة لتلك المنطقة، وأخرجتها لملاقاة الأسطول الخصم.

كان من حسن حظ الأميرالية الإنكليزية أنها حصلت على شيفرة البحرية الألمانية منذ عام (١٩١٤)، وتمكنت من حل طلاسمها.. وفي أواخر شهر أيار عام (١٩١٦) تمكنت شعبة الاستخبارات في الأميرالية الانكليزية من التقاط بعض الاشارات اللاسلكية التي تدل على وجود حركة غير عادية في الأسطول الألماني، استنتجت منها إمكانية خروجه إلى البحر، فاتجه الأسطول الإنكليزي نحو المرافىء الاسكتلاندية، إذ كان في اعتقادهم أن الألمان إذا أرادوا مهاجمة المرافىء الإنكليزية، فهم ولا ريب سيبدؤون بالمرافىء الاسكتلندية قبل سواها.

خرج الأسطولان من قواعدهما. وكان الأسطول الإنكليزي متفوقاً من حيث عدد وحداته

وسرعتها وتسليحها . وقد توجه الأميرال جيليكو[١٠] قائد الأسطول الإنكليزي بأسطوله الكبير إلى عرض البحر ، وأرسل أمامه الأميرال بتي مع (٦) طرادات ثقيلة ، وأربع دارعات من طراز الكوين اليزابيت المشهورة ، وبعض سفن الحراسة الصغيرة .

معركة الطرادات

في الساعة ١٤٫٢٠ من يوم ٣١ أيار أرسل الطراد الإنكليزي الخفيف غلاسيا إلى الأميرال بتي برقية تنبئه باقتراب سفن الأعداء . كان الأميرال بتي على الدارعة ليون ، وأمر عند سماعه أصوات المدفعية وحداته المتقدمة باللحاق به ، والمناورة خلف العدو كي يقطع عليه خط الرجعة .

اكتشف الأميرال هيبر[١١] قائد مقدمة الأسطول الألماني تقدم السفن الإنكليزية نحوه فتراجع نحو القوات الألمانية الرئيسية التي كانت بانتظاره .

بدأت المعركة في الساعة ١٥٫٤٥ ، وفتح الألمان نيران مدافعهم فأصابوا الدارعة ليون بعد دقيقتين من بدء المعركة ، وشبت فيها النيران ، وبعد دقيقة واحدة أغرق الألمان الدارعة الإنكليزية الكوين ماري ، وأتبعوها بالدارعتين تايغر والنيوزنلاند وفقد الأميرال الإنكليزي ثلث قوته بينما لم يخسر الألمان شيئاً البتة .

في أثناء ذلك كان الأسطول الإنكليزي الكبير يتقدم نحو الأميرال هيبر ، ولما علم الأميرال شيير الألماني ذلك أسرع لنجدة هيبر .

وفي الساعة ١٦٫٣٣ تلقى الأميرال بتي من إحدى سفن الاستطلاع برقية تنذره بتقدم الأسطول الألماني نحوه ، فارتد مستدرجاً الألمان نحو تجمع الأسطول الإنكليزي القوي بقيادة الأميرال جيليكو نفسه .

أخذت المسافة بين الأسطولين تتناقص وفي الساعة ١٧٫٣٦ فتح الألمان نيرانهم على الطراد الإنكليزي المستطلع شستر فمزقوه تمزيقاً ، ولما ظهرت في الأفق طلائع الأسطول الإنكليزي الكبير استدارت البوارج الألمانية نحوه ، إلا أن أسطول الأميرال جيليكو بادر بفتح نيرانه فمزق الطراد الألماني لويزبادن . واضرم النيران على الطرادين بيلو وفرنكفورت .

ولما رأى القائد الألماني الخطر المحدق به انسحب من الميدان تاركاً الـلويزبادن تصارع

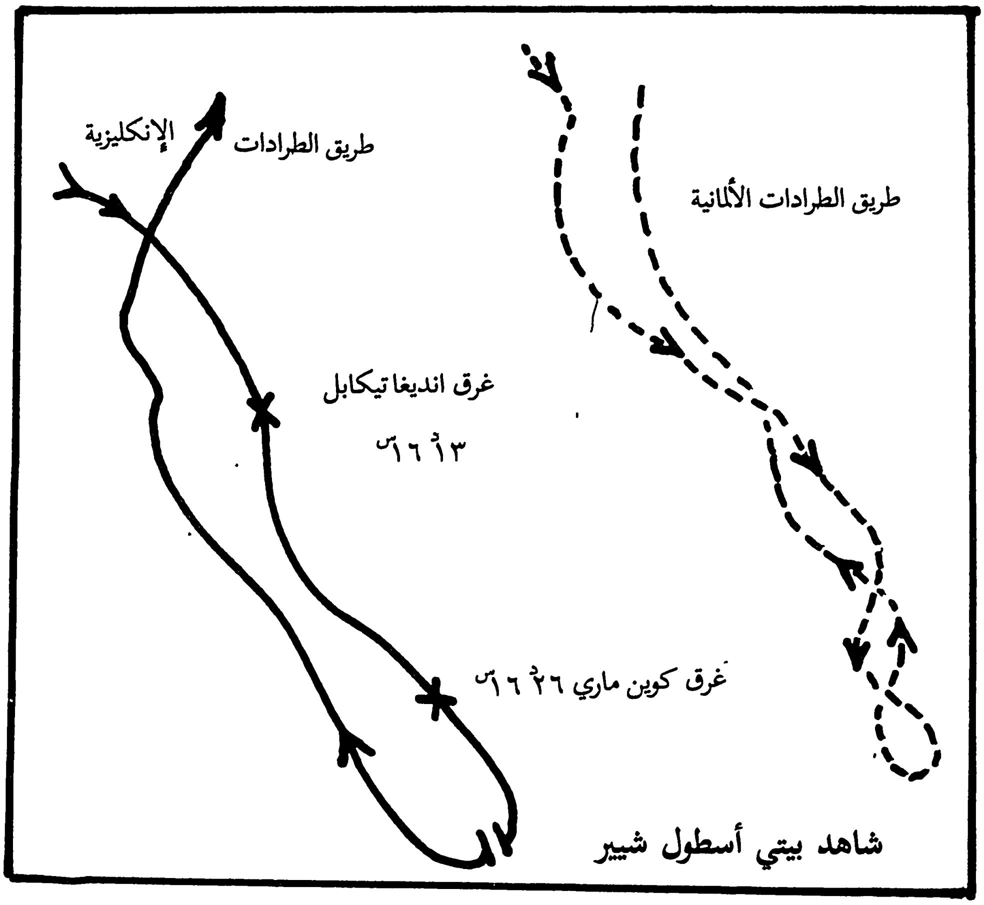

وحدها .. حيث اقتربت منها الدارعة ديفنش الإنكليزية لتجهز عليها ، وما كادت تفعل حتى ظهر الأميرال هيبر بطراداته القوية وأمطرها بقنابله فغرقت الديفنش في الحال ونجت الـ لويزبادن .

انسحاب الأسطول الكبير الانكليزي

في الساعة ١٧٫٥٥ عاد الأميرال بتي للالتحام مع طرادات هيبر الذي ارتد تحت تأثير نيران المدفعية ، وغاب عن الأنظار متجهاً نحو مجموعة الأسطول الألماني .. ولما انضم الأميرال بتي إلى الأميرال جيليكو كان الأسطول الألماني قد اختفى عن أنظارهم .

في الساعة ١٨٫١٠ وصلت برقية من الدارعة بارهام تعلم عن موقع الأسطول الألماني ، فقام حينئذ الأميرال جيلكو بتعبئة أسطوله ، بعد أن حدد موقع أسطول عدوه . وفي الساعة ١٨٫٤٧ تم الالتحام كاملاً ، وتعرض الأسطول الألماني لنيران حامية فقرر قائده العودة إلى قواعده محتفظاً بهيبته

بعد أن تمكن من إغراق الدارعة الأنفاتيكابل. إلا أن غريمة الإنكليزي جيليكو قطع عليه الطريق بمناورة حادة أصاب خلالها الدارعة الألمانية لوتزو، فانسحب الأسطول الألماني وانتهت المعركة عند هذا الحد.

لم يكن الأميرال الإنكليزي جيليكو من على ظهر البارجة الايرون دون على علم بتطورات المعركة، لأن البرقيات التي وصلته كانت متضاربة المعلومات. وكان تقديره لموقع الأسطول الألماني أقرب من واقعه. وفي الساعة ١٨ر١٥ غير تشكيلته واتخذ تشكيلة النسق باتجاه شرق جنوب شرق تاركاً الأسطول الكبير يحمي ميسرته، وكانت مناورته بحد ذاتها جيدة لو كان أسطول الاعداء قريباً منه ولكن جاء خطأ التقدير في غير صالح الإنكليز وهبط الظلام وضاعت فرصة إنكلترا خصوصاً والتفوق العددي بجانبها.

استمرت المعركة بين هيبر وبتي وفي الساعة ١٨ر٥٥ غرقت البارجة انفنسيبل فأسرع الأسطول الكبير الإنكليزي للحاق بالمشتبكين واتجه بسرعة نحو الشرق. ولكن ضياء المعركة من بعيد منعه من تقدير المكان والمسافة لكلا الطرفين، وما إن شعر هيبر بتقدم الأسطول الكبير نحوه حتى تخلى عن المعركة، واتجه نحو الغرب قاذفاً بطوربيداته ليحمي انسحابه وليضمن عدم تطويقه وترك مجموعة الطرادات الألمانية وحدها تحمي انسحابه. وبالفعل وقفت هذه المجموعة بضراوة ترمي العدو

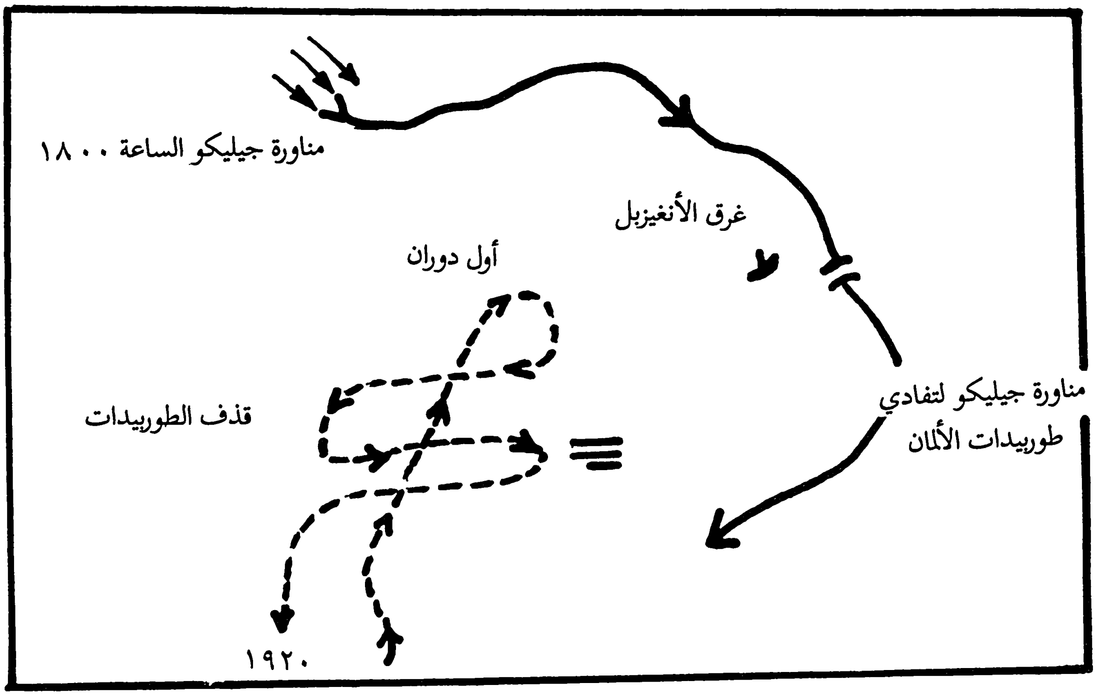

بوابل من نيرانها مظهرة شجاعة فائقة سطرت لها في صفحات التاريخ باعتراف كلا الخصمين . وهكذا انتهت معركة جوتلاند الشهيرة .

انسحاب الأسطول الألماني

كان للأسطول الألماني طريقان للانسحاب بين حقول الألغام ممر جوتلاند (هورنز ريف) وممر هيلفولاند .. واستخدم الأسطول الألماني كلا الممرين ، وانسحب خلف تجمعات الإنكليز وعلى عدة أميال منها ، دون صدام ، نظراً لرفض الإنكليز خوض معركة ليلية مع الأسطول الألماني في منطقة مجهولة غنية بحقول الألغام .

خسائر الطرفين المتنازعين

في معركة جوتلاند خسر الإنكليز ..

(٣) بوارج انديفاتيكابل (١٩) ألف طن .
كوين ماري (٢٧٫٥٠٠) ألف طن
انفنسيبل (١٧٫٥٠٠) ألف طن

(٣) دارعات الديفانس ـــ البرنس الأسود ـــ واريور
طراد واحد سبع نسافات والمجموع :

(**١١٥٫٠٢٥**) طن مراكب و (**٦٠٩٤**) مقاتلاً .

وخسر الألمان :

البارجة لونزو (٢٦٫٧٠٠) طن ، الدارعة القديمة بوميون (١٣) ألف طن (٤) طرادات خفيفة و (٥) نسافات . والمجموع :

(**٦١١٨٠**) طن مراكب و (**٢٥٥١**) مقاتلاً .

انتهت معركة جوتلاند بلا كسب سوقي لطرف دون الآخر ، وبقي الموقف كما كان عليه سابقاً . الألمان يتحينون الفرص لشن الغارات . والإنكليز يصدون الهجمات ويحمون قوافلهم وشواطئهم .

وقد انتقدت معركة جوتلاند في إنكلترا بعد الحرب بقسوة حتى أطلق عليها الأميرال باكون اسم فضيحة جوتلاند .

وخلاصة القول :

إن معركة جوتلاند مفخرة أسطول ألمانيا لحرب (١٩١٤ ــ ١٩١٨) ، ولكنها للأسف لم تعطها أي سبق بحري . وظل الأسطول الإنكليزي الكبير سيد الموقف في تلك المنطقة ، برغم وجود أسطول هوش الألماني الذي لم يصب بكبير أذى في معركة جوتلاند التاريخية .

حرب الغواصات خلال عام (١٩١٦)

ظلت الجبهات البرية خلال عام (١٩١٦) على ما هي عليه بين كر وفر للطرفين المتنازعين ، وكان على ألمانيا أن تعيد النظر في خططها البرية . وبالفعل قررت زيادة نشاط عملياتها البرية بعد أن تأكد لها ضعف فرنسا العسكري والاقتصادي وانهيار الدفاع الروسي . وعدم أهمية إيطاليا عسكرياً .. وكانت أولى الخطوات ضرب فرنسا ضربة قاضية في معركة فردان ، وإعلان حرب غواصات شاملة ضد إنكلترا حتى لو أدى ذلك إلى قطع العلاقات مع الولايات المتحدة .

في مطلع عام (١٩١٦) أقر الإمبراطور الألماني إعادة حرب الغواصات على نطاق واسع ، وضد مختلف الجنسيات . وكان سلاح غواصات ألمانيا يتضمن (٢٥) غواصة ضخمة و (٤٣) غواصة متوسطة . وكانت الترسانات البحرية تنتج بمعدل (١٢) غواصة شهرياً وبرنامج الصنع يتضمن (٥٢) غواصة ضخمة و (٤٩) غواصة متوسطة ، ويقال إن إمبراطور ألمانيا تردد كثيراً في اتخاذ قراره خشية هياج رأي العالم المحايد حتى يروى بأنه أصدر (١٤٦) أمراً كل واحد منها يتضارب مع الآخر . وفي ٢٤ آذار صدرت الأوامر بإيقاف كافة المراكب التجارية ، وفحص أوراقها ، فإذا تبين بأنها لمساعدة الحلفاء أغرقت في الحال بعد إنقاذ رجالها .

تأكدت ألمانيا بعد معركة جوتلاند ٣١ مايس أن لا فائدة ترجى من صدام بحري مع الأسطول الإنكليزي ، وأن خير وسيلة لإضعاف إنكلترا قطع إمداداتها من البحر .. ومن أسباب تردد الإمبراطور الألماني الكتاب الذي أرسله الأميرال شيير إذ قال فيه

«إن النصر الحقيقي لن يكون إلا عن طريق تدمير إنكلترا اقتصادياً ، واعني استعمال سلاح الغواصات الألماني في حرب لا هوادة فيها . ولكنه يجدر بي أن ألفت نظركم باحترام لما لحرب

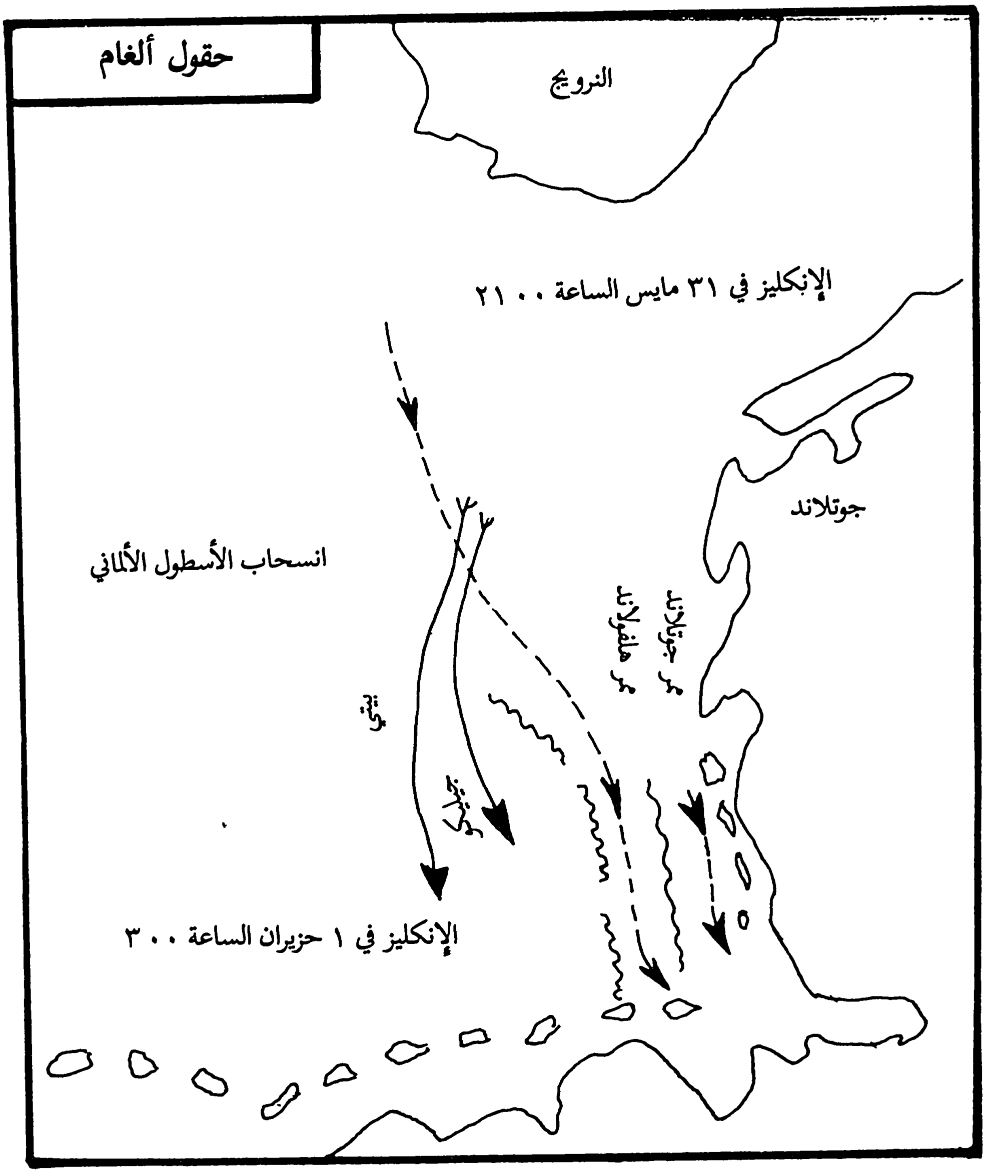

الغواصات من قساوة ستعود علينا بأوخم العواقب، وستزجنا في أخطار مع الرأي العام العالمي وخاصة المحايد».

وبالفعل تردد قادة ألمانيا فيما يجب عمله، وظهر هذا التردد جلياً في مجموعة الأطنان المغرقة شهرياً. ففي الربع الأول من عام (١٩١٦) وصل عدد الأطنان المغرقة إلى (١٣٤) ألف طن شهرياً، وفي الربع الثاني وصل إلى (٢٤٨) ألف طن شهرياً (كان لمعركة جوتلاند كبير الأثر في الزيادة)، وفي مطلع الخريف ازداد نشاط سلاح الغواصات حتى ظهر بعضها قرب سواحل أمريكا وروسيا الشرقية، وسواحل إفريقية.

وكانت حصيلة حرب الغواصات في بحر الشمال إغراق الطرادات الإنكليزية هامبشاير نوتنغهام ـ فم الحوت، وفي المتوسط أغرق الألمان (٢١٦) مركباً حمولتها (٧٥٠) ألف طن و(٩٦) مركباً شراعياً حمولتها (٥١) ألف طن، وأغرقت الألغام المزروعة من قبل الغواصات (٨١) ألف طن مراكب. ويقال بأن الغواصة الألمانية ـ يو ـ ٣٥ ـ أغرقت وحدها نصف مليون طن مراكب خلال الحرب. وكانت فرائسها بصورة خاصة السفن حاملات الجنود من وإلى سالونيك في جبهة البلقان، ويتفق المؤرخون على أن عام (١٩١٦) كان عاماً مثالياً لحرب الغواصات، ولولا تردد ألمانيا في مطلعه لكان بالإمكان تغيير مجرى الحرب..

المرحلة الرابعة عامي (١٩١٧ ـ ١٩١٨)

اتصف عام (١٩١٦) بصفة الغموض في تبلور الموقف العام عند الطرفين المتنازعين. فمعارك فيردان كانت قاسية وعنيفة، واستبسل فيها الفرنسيون دفاعاً عن أراضيهم، وكذلك الأمر بالنسبة لمعارك نهر السوم.. أما الجبهة الشرقية فكانت في البداية أحسن حالاً من الجبهة الغربية. إذ استطاع القائد الروسي بروسيلوف[١٢] رفع الحصار النمساوي الهنغاري إلا أن انهيار رومانيا أمام القوات الألمانية الزاحفة شرقاً في نهاية عام (١٩١٦)، دهور الموقف العام في البلقان، ورجح كفة ألمانيا.

بدأ عام (١٩١٧) والألمان يتحرقون شوقاً لإنهاء الحرب بالطرق الدبلوماسية. ووسطوا الرئيس ويلسون[١٣] رئيس الولايات المتحدة في التحكيم بين المتنازعين. إلا أن الأمل ضاع عندما صرح الحلفاء بأنهم يتركون للعمليات الحربية القرار النهائي، بعد أن استشموا رائحة النصر. ولما فشلت مساعي ويلسن قررت ألمانيا إعلان حرب الغواصات غير المشروط.

إعلان ٣١ كانون الثاني عام (١٩١٧)

قررت القيادة العليا الألمانية (الماريشالان: هندنبرغ[١٤] ولوندوندورف[١٥]) لضرورات عسكرية بدء حرب الغواصات غير المشروط، وكتب لوندوندورف في ٢٠ كانون الأول عام (١٩١٦) في مذكراته ما يلي

«أعلن لويد جورج[١٦] في مجلس العموم البريطاني رفضه عرضنا للصلح، وإني أعتقد، واعتقادي هذا مستمد من نتائج حرب الجبهة الغربية، أن على ألمانيا شن حرب غواصات عنيفة

وبكل الإمكانات المتوفرة » وفي ٢٢ كانون الأول كتب الماريشال هندنبرغ إلى رئيس حكومة ألمانيا يقول

« صاحب السيادة

كانت نهاية شهر آب موضع نقاش حول ابتداء حرب الغواصات من جديد وعدم الحد من نشاطه . واني أرى أن الفرصة ذهبية ، لكي لا ندع لأعدائنا الوقت والراحة لإعادة استعداداتهم البرية في مختلف الجبهات ، ومن ثم ندرس إن كان بالإمكان إيجاد اعتبارات خاصة في حماية مراكب الولايات المتحدة . وعلى كل فحرب الغواصات أقوى من كل اعتبارات ، ونتائجها بالنسبة لألمانيا عظيمة الفائدة »

وأجاب رئيس الحكومة بتهمان هولويغ مبدياً بعض التحفظات على المشروع فرد عليه هندنبرغ بجفاف قائلاً

« يتنبأ قادة البحر بأنه خلال خمسة أشهر ستضطر حرب غواصاتنا إنكلترا إلى طلب الصلح أما دخول أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء فليس بذي بال ، لأن قوات أمريكا البرية لاتستطيع الانتقال إلى أوربة بالسهولة التي تتصورها — لقلة سفن النقل — ولا فائدة من الأموال الأمريكية .. والذي أريده هو الحل الوحيد لإحراز النصر الباهر لألمانيا » .

- ومع هذا يتضح بأن العسكريين الألمان اتفقوا جميعاً على المخاطرة بدخول الحرب ضد الولايات المتحدة خصوصاً بعد تحذير السفير الألماني في واشنطن ، وكشف نوايا الولايات المتحدة في حال تجدد حرب الغواصات .

وفي التاسع من كانون الثاني وخلال اجتماع ترأسه رئيس الحكومة الألمانية وحضره كل من هندنبرغ ولوندندورف انتصر العسكريون ، وصدر في اليوم نفسه قرار الإمبراطور غليوم الثاني يدعو البحرية إلى بدء حرب الغواصات في مطلع شهر شباط .

كان لهذا القرار وقع سيء على الرئيس الأمريكي ويلسن داعية السلام آنذاك ، لا سيما وأن وساطته لعقد الصلح لم تنجح ، وكان لا بد له من أن ينحاز لجانب الحلفاء ، لعدم احترام ألمانيا مصالح الدول المحايدة ، فبدأ بقطع علاقاته مع ألمانيا ، أما الحرب فلم تعلن على ألمانيا إلا في ١٥ نيسان ، إثر انتشار الدسائس الألمانية في المكسيك .

النتائج الأولية لحرب الغواصات

وصل تعداد غواصات ألمانيا في مطلع شهر آب من عام (١٩١٧) إلى (١٢٨) وحدة. وظل هذا العدد ثابتاً تقريباً حتى نهاية الحرب، بحيث تعادل عدد المفقود مع عدد المصنوع ووزعت هذه الوحدات على النحو التالي

٥٩ غواصة في القواعد الألمانية
٢٨ غواصة في قواعد الساحل الفلمنكي (الهولندي ــ البلجيكي)
٢٦ غواصة في بحر الأدرياتيك .
٣ غواصة في بحر مرمرة .
٢ غواصة في بحر البلطيق .

ونظراً لأسباب عدة أهمها ضعف مدى عمل الغواصات خلال الحرب الأولى، وقلة سرعتها مما جعل عددها غير كاف للقيام بدوريات دائمة في جميع أصقاع المتوسط والأطلسي، يضاف إلى ذلك قفل الحلفاء لمضيق كاليه، واضطرار الغواصات العاملة في الأطلسي إلى الالتفاف حول الجزر البريطانية من الشمال، وهذا يعني إضاعة ستة أيام .

فكرت ألمانيا بتعزيز برنامج التعمير وزيادة الانتاج إلى (٢٥٥) غواصة لعام (١٩١٧) ولكن (١٠٨) غواصات لم تخرج من ترسانات التعمير، وقد دار لغط كثير حول هذا الموضوع بعد انتهاء الحرب، وحامت الشبهات حول بعض المسؤولين .

كانت المراحل الأولى لحرب الغواصات بين شهر شباط وأيار من عام (١٩١٧) مذهلة ومخيفة بالنسبة للحلفاء. ففي شهر كانون الثاني أضاع الأسطول التجاري الإنكليزي (٣٧) سفينة بفعل الغواصات، و(٨) سفن بفعل الألغام، وكان مجموعها بالأطنان (٣٥٠) ألف طن، وفي شباط وثب الرقم إلى (٥٤٠) ألف طن، وفي آذار إلى (٥٧٠) ألف طن.. أما في نيسان فقد كانت الوثبة كبيرة، إذ وصل الرقم إلى (٨٧٥) ألف طن، منها (٥١٦) ألف طن مراكب إنكليزية. ويتضح حسابياً أن إنكلترا ستخسر جميع مراكبها في نهاية عام (١٩١٧)، وهذا معناه تسليمها المحتم .

بدأ القلق يساور أدمغة القادة الإنكليز خصوصاً بعد تصريح سكرتير وزارة الحربية الألمانية الذي حدد فيه شهري حزيران وتموز موعداً لاستسلام إنكلترا. وقرر الحلفاء إعادة النظر في خططهم

الدفاعية وفي طرق مواصلاتهم .. وبالفعل بدأ التحسن يظهر . إذ حمل شهر أيار (٥٩١) **ألف** طن خسائر للحلفاء فقط ، ولكن كان يرجع ذلك لتحسن الطقس في البحار ولقصر **ساعات الليل** (**أفضل الأوقات** بالنسبة للغواصات لمهاجمة المراكب هو الليل والطقس الرديء)

رد الفعل عند الحلفاء

نظم الحلفاء في المتوسط برنامجاً واسعاً لدوريات بحرية ، غايتها الرصد والاستعلام والإعلام لحماية القوافل التجارية البحرية . وابتاعوا لهذا الغرض قوارب صيد مختلفة الأحجام من هولندة وإسبانيا ، ثم صادروا كافة مراكب الصيد الفرنسية في المتوسط وسلحوها ، ثم بدؤوا في بناء مراكب حربية صغيرة للقيام بالدوريات . وقد نشرت هذه الدوريات بشكل واسع وفي كل مكان . أما في الأطلسي فقد سد الحلفاء مضيق كاليه بسلسلة من العوائق الثابتة ، عززوها بشبكات متحركة ومقطوزرة ، وكان في حماية هذه السدود دوريات بحرية انكلو فرنسية دائمة . وجاءت بعض الاحتياطات فعالة جداً ما عدا السدود على الساحل الفلمنكي ، فلم تؤت غايتها ، نظراً لبعد قواعد الحلفاء ، وصعوبة المراقبة ، وتعذر تصليح الثغرات في حالة حدوثها .

أقام الحلفاء إدارة مستقلة دعوها بالإدارة العامة لمكافحة الغواصات الألمانية . وكان من أبرز أعمالها اقناع الولايات المتحدة بتعمير قانصات غواصات بكميات كبيرة ، وإعارتها للحلفاء لسد العجز الحاصل في سفن الكشف والقنص . وهكذا بدأت ثمار هذه الإدارة تظهر للوجود ، بعد أن تعادل تقريباً العجز في السفن مع الانتاج والتعمير .

تنظيم القوافل

لم يقر الحلفاء الطريقة الكلاسيكية في تسيير القوافل البحرية إلا بعد تردد طويل . وتساءلوا كثيراً هل بالإمكان تسيير مراكب مختلفة الأحجام والصفات في قافلة واحدة محمية بعدة سفن حربية ومدمرات ؟ أليس هذا النوع من القوافل بعظيم الكلفة ومضيعة للوقت ؟ إلا أن فرنسا سبقت غيرها في نظام القوافل . وقد طالعنا كيف أنها لجأت إلى نقل قواتها من شمال إفريقية إلى فرنسا بنجاح . واستمرت تعمل بهذا النظام في نقل الفحم إلى بلادها ونصحت مراكبها باجتياز بحر المانش بمجموعات متجانسة ، وبسرعات مطابقة لسرعة مراكب الدورية هناك .

وفي منتصف شهر آب انتظمت مواصلات الحلفاء بقوافل محمية بشكل مرض فهبطت

نسبة الخسائر هبوطاً ملحوظاً وبدأت الإمدادات الأمريكية تصل تباعاً على مراكب نقل سريعة، تحميها مدمرات وطرادات خفيفة، دون أن تتعرض لأخطار كبيرة.

السدود

ــ سد كاليه

قررت القيادة الحليفة تعزيز سد كاليه بإضافة حقول ألغام قرب قواعدها. وانتهت من هذه العملية في مطلع عام (١٩١٨) بأن زرعت حقلين كبيرين من الألغام يحوي الأول اثنى عشر شريطاً متوازياً والثاني أربعة وعشرين شريطاً، وبين الحقلين الرئيسيين حقلان للمراقبة والإنذار.

ــ السد الكبير في بحر الشمال

اقترح فرنكلين روزفلت سكرتير وزارة البحرية الأمريكية آنذاك إقامة سد في بحر الشمال على غرار سد ممر كاليه.. إلا أن الأميرالية البريطانية استعظمت هذا المشروع الضخم الصعب التحقيق. وبعد مداولات مع الولايات المتحدة وبالتعاون معها زرع حوالي (١٠٠) ألف لغم مضاد للغواصات، زرعت الولايات المتحدة منها (٦٥٫٨٠) لغماً.

ــ سد اوترانت

يبلغ عرض ممر أوترانت في بحر الأدرياتيك حوالي (٤٠٠) ميلاً بحرياً وتصل الأعماق فيه إلى ألف متر، ومن المستحيل سده بالألغام كبحر الشمال. وبعد دراسة طويلة، قرر الحلفاء وضع شبكات فولاذية ممسوكة بعوامات ضخمة، تصل هذه الشبكات حتى عمق (٥٠) متراً تحت الماء (العمق الأقصى الذي تصله الغواصات في ذلك الحين) من شأنها منع الغواصات من اجتياز الممر. وعززت الشبكات بمراكب حربية وقانصات وغواصات. على أن هذا السد البالغ التكاليف لم يعط الفائدة المرجوة، لأنه لم يقنص إلا غواصة ألمانية واحدة هي الـ يو بو ت ٥٣ وذلك بتاريخ ٣ آب.

القنص والمطاردة

في عام (١٩١٧)، وبعد تجارب عديدة توصل الحلفاء إلى وسيلتين في كشف الغواصة تحت الماء الأولى بوساطة الأنبوب الأمريكي «ج» والثانية بطريقة والسر الفرنسية. وطريقة والسر WALSER تعتبر أفضل من الأمريكية لإمكانية استعمالها في أثناء سير المركب الكشاف. والطريقتان تقريباً متشابهتان من حيث التصميم.. والجهاز مؤلف من قمعين كرويين يغوصان في الماء على

جانبي المركب الكشاف ، هذان القمعان مثقوبان ومجهزان بستيتوسكوبات Stethoscopes أو بالأحرى مجموعة طبلات صوتية تنقل صورة كاملة للقدرة الخارجية المنبعثة عن الغواصات بطابع متغير ، وبالتفتيش عن أوضح صورة صوتية (بتحريك قرن متحرك) نصل إلى تحديد اتجاه الهدف .

وفي عام (١٩١٨) أصبح عدد المراكب المجهزة بوسائط الكشف كثيرة حتى صار بالإمكان تشكيل مجموعات منها للبحث عن الغواصات بطريقة فعالة .. وغالباً ما كانت تشكل المجموعة من ثلاثة مراكب واحد منها على الأقل سريع ، وبعد كشف الغواصة تهاجمها مراكب السطح بالألغام المقطورة . إلا أن عام (١٩١٨) كان عام قنابل الأعماق ، حيث أعدت بأعداد كبيرة واستعملت بشكل فعال . وقد أغرق الحلفاء خلال هذا العام (١١) غواصة بقنابل الأعماق و (٥) غواصات بالألغام المقطورة ، وساهم الطيران البحري بإغراق غواصتين .

كان الطيران البحري غير فعال خلال الحرب العالمية الأولى لضعف سرعة الطائرات ، ولقصر مدى عملها . لكنه قام بواجب كبير وأدى خدمات فعالة في الكشف والإعلام . ومن الأساليب التي استعملها الإنكليز في محاربة غواصات العدو (مركب الفخ) ، وهي مراكب مسلحة تبدو كالمراكب التجارية ، وتلجأ إلى الخديعة ، وتحسب الغواصة أنها أمام طريدة فتقوم على سطح الماء لمهاجمة طريدتها بالطوربيدات ، عندها يكشف المركب الفخ عن هويته ، ويصب حمم مدفعية على الغواصة الضعيفة فوق سطح الماء فيغرقها .. وقد استطاع الإنكليز إغراق (٧) غواصات بهذه الطريقة .

تدمير الموانئ الألمانية وقصف اوستاند وزيبرغ

ركز الحلفاء اهتمامهم ، بعد رجحان كفتهم في جميع البحار على تدمير موانىء العدو ، تارة بقصف جوي وتارة أخرى بسفن السطح الثقيلة . وكانت الغاية من ذلك ضرب تجمعات السفن الحربية الألمانية ، وقواعد الغواصات ، ومن ثم تدمير المنشآت البحرية الهامة لشل حركة الأسطول . وكانت أشهر هذه العمليات قصف اوستاند وزيبرغ وهما ميناءان حربيان في بلجيكا كانا تحت سيطرة ألمانيا ، ويعتبران من أهم القواعد البحرية المهددة لبريطانيا وسواحلها .

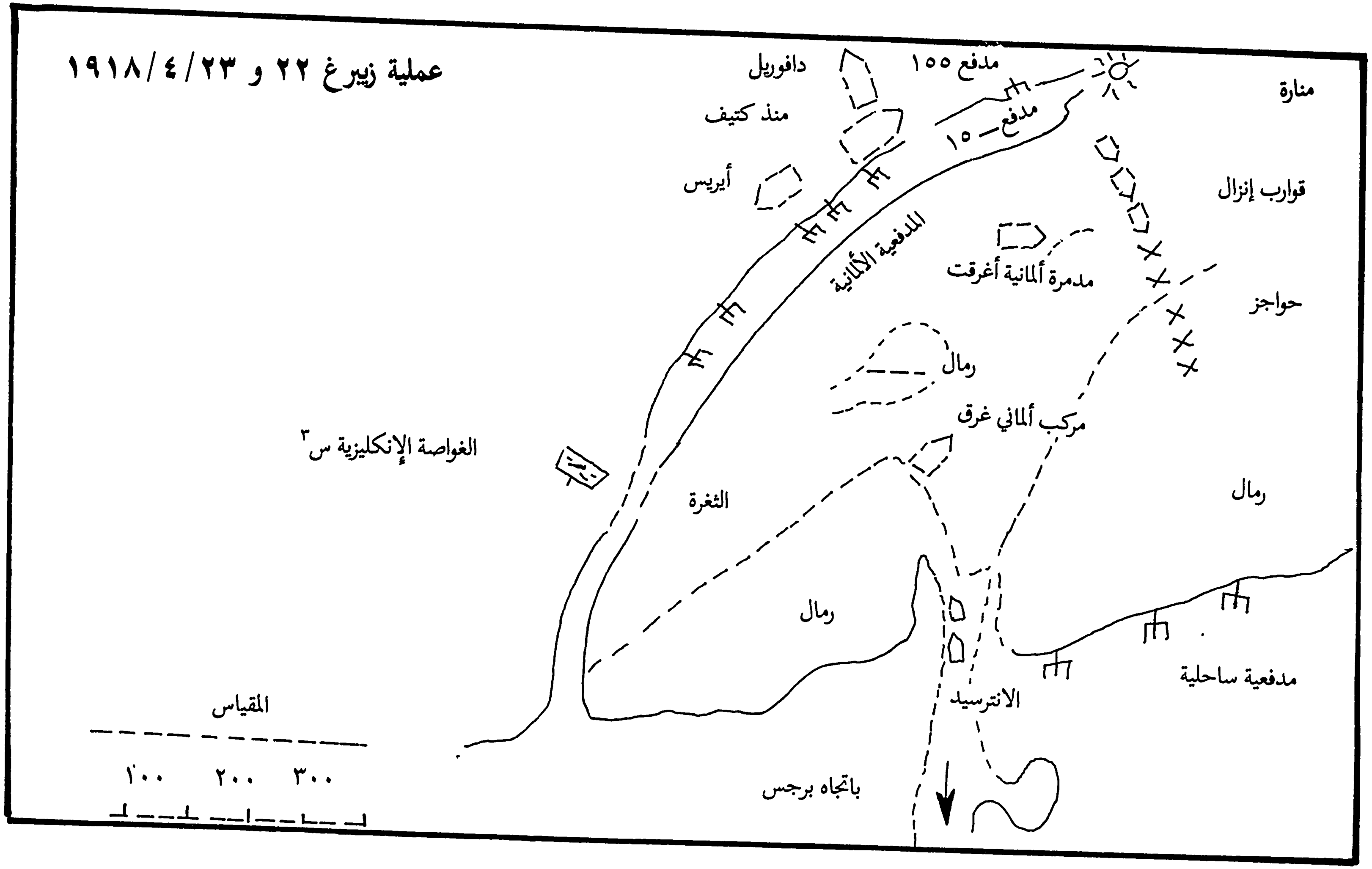

عملية زيبرغ ٢٢ و ١٩١٨/٤/٢٣
دافوريل
منذ كتيف
أيريس
مدفع ١٥٥
مدفع ــ ١٥
منارة
قوارب إنزال
الدفعية الألمانية
مدمرة ألمانية أغرقت
حواجز
رمال
مركب ألماني غرق
الغواصة الإنكليزية س٣
الثغرة
رمال
رمال
الانترسيد
مدفعية ساحلية
المقياس
٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠
باتجاه برجس

كانت العملية عبارة عن قصف بحري مركز على المنشآت والتجمعات البحرية الألمانية في هذين الميناءين، وهي عملية صعبة تحتاج لكثير من السرية، ولشروط جوية حسنة، بالإضافة إلى دقة في الملاحة. لأنه ليس من السهل أبداً قيادة (١٦٨) مركباً مهاجماً في مياه قليلة العمق، ضحلة غنية بالألغام البحرية، ومحمية بمدفعية ساحلية ضخمة على طول حاجز الأمواج.

وفي ليل ٢٢ نيسان أطبقت السفن الحليفة بهجوم صاعق قامت به مجموعات متعاقبة. وابتدأت مجموعتا فيندكتيف ودافوديل بتدمير المدفعية الساحلية وإخراجها خارج المعركة. عندها تقدمت الغواصة الإنكليزية C_3 فنسفت الجسر الواصل بين الحاجز الطبيعي والأرض لتمنع وصول إمدادات ألمانية إلى مواقع المدفعية الساحلية، ثم قام الحلفاء بإغراق بعضٍ من مراكبهم عمداً داخل الميناء لتعطيل منافذه، ثم تابعتِ السفن الحربية الكبيرة قصفها الشديد للميناء ومنشآته الهامة، فتغرق السفن الألمانية أو تدمرها.. وقد ساهم الطيران الحليف في أثناء ذلك مساهمة فعالة..

تمت العملية بنجاح، وأصبح الميناءان عديمي الجدوى، فتخلت عنهما ألمانيا وهجرتهما بتاريخ ١٤ تشرين الأول بعد أن عجزت عن إصلاحهما.

الخلاصة

نستطيع القول إن شهر مايس من عام (١٩١٧) كان شهر تحول بالنسبة لألمانيا ومشاريعها. إذ هبط مجموع الأطنان المغرقة للحلفاء إلى (٥٩٠) ألف طن مقابل غرق (٧) غواصات. وفكر قادة البحر لتغطية القصور بمضاعفة عملياتهم خلال شهر حزيران، وتم لهم ذلك إذ استطاعوا رفع الرقم إلى (٦٩٥) ألف طن. وجاء شهر حزيران بذروة الخسائر الحليفة من حرب الغواصات الألمانية ثم بدأ الرقم يتناقص كما يوضحه الجدول المرفق:

آب	١٩١٧	٥٠٦ ألف طن	مقابل	٤ غواصات
أيلول	١٩١٧	٣٥١ ألف طن	مقابل	١٢ غواصة
تشرين الأول	١٩١٧	٤٥٥ ألف طن	مقابل	٨ غواصات
تشرين الثاني	١٩١٧	٢٨٨ ألف طن	مقابل	٩ غواصات
كانون الأول	١٩١٧	٣٩٩ ألف طن	مقابل	٨ غواصات
كانون ثاني وشباط	١٩١٨	٢٢٠ ألف طن	مقابل	٦ غواصات
آذار ونيسان	١٩١٨	٢٠٠ ألف طن	مقابل	١٤ غواصة
حتى شهر أيلول	١٩١٨	١٠٠ ألف طن	مقابل	٧ غوصات

وهكذا تدهور موقف ألمانيا البحري تماماً، وكانت النتيجة النهائية لخسائر كلا الطرفين كالتالي:

غرق للحلفاء (٤٨٣٧) مركباً تزن (١٣٥ر١١) ألف طن في حين أضاع الألمان (١٩٤) غواصة، وفقدوا (٥١٥) ضابطاً و (٤٨١٩) بحاراً. فلماذا خسر الألمان الحرب يا ترى؟

خسر الألمان للأسباب الأساسية التالية

١ ــ اشتعال الحرب في ظروف غير مؤاتية، وعمليات عام (١٩١٥) لم تكن باهرة.

٢ ــ تردد الألمان كثيراً عام (١٩١٦) في حين كانت الظروف إلى جانبهم.

٣ ــ تضارب آراء العسكريين والسياسيين أدى إلى تأخير اتخاذ القرارات الحاسمة.

٤ ــ دخول أمريكا الغنية الحرب إلى جانب الحلفاء رجح كفتهم لإمكاناتها الضخمة ومواردها الكبيرة.

٥ ــ تأخر إعلان حرب الغواصات أعطى الحلفاء وقتاً كافياً للتفكير والابتكار وابتداع وسائل الدفاع. ولو تقدم حرب الغواصات عاماً واحداً لتغير مجرى الحرب.

٦ ــ عملت الغواصات إفرادياً دون تنسيق مع الأسطول العائم (سفن السطح) ولم تكن هناك فكرة استراتيجية معينة.

المرحلة الأخيرة من عام (١٩١٨)

البحرية الألمانية وشروط الصلح

إن التناقص المتلاحق في خسائر الحلفاء أمام غواصات ألمانيا، والخمول الطويل الذي لازم الأسطول الألماني خلقا نوعاً من القلق. واشتدت المناقشات منذ آب (١٩١٧) في الرايخستاغ. إذ تناولت عقم الطرق المتبعة في الحرب، وعدم كفايتها في تحقيق النصر البحري. عندها فكرت القيادة البحرية ــ لاستعادة ثقة الشعب الألماني عامة ورجال الأسطول خاصة ــ بنشر عمليات واسعة النطاق في البلطيق والشمال، إلا أن حركات العصيان بدأت، ثم تزايدت حتى إنه في ٢١ تشرين الأول رفض القائد فون هيبر أوامر الإمبراطور ببدء عمليات مهاجمة الأسطول الإنكليزي، وأجاب على الأوامر بأنه لا يستطيع إطاعتها ٢٦ تشرين أول. وكانت بداية تمرد بدأت في الموانىء وتوغلت في عمق البلاد.

إن أسباب التمرد كثيرة، ومعقدة، وأهمها يرجع إلى تفشي الفوضى في البلاد. فالشعب يعيش حياة الحرمان، والحصار المضروب حول البلاد أفقر الفرد الألماني، ثم تدهور الموقف الحربي في معظم الجبهات والميادين، وتردد القادة بتضارب آرائهم في الأسلوب الحربي، وخيبة الآمال في الخطوات التي اتبعت لتحسين الموقف، كل هذا عمل على انخفاض الروح المعنوية في الأسطول، وبدأت فكرة إنهاء الحرب والعودة إلى السلام تخامر أدمغة الألمان جميعاً ورجال البحرية خاصة.

في المتوسط

إن انهيار روسيا وخروجها من الحرب، وخوف الحلفاء من أن يقوم الألمان بتسليح المراكب في البحر الأسود لمعاونة البحرية التركية هناك أجبرهم في مطلع عام (١٩١٨) على إنشاء قوة ضاربة بحرية في بحر إيجه لمجابهة الموقف في حالة ترديه. وقد تميزت في المتوسط ثلاثة مسارح عمليات هامة تم فيها الآتي

آ ــ بحر الأدرياتيك

بالإضافة إلى حصار قناة أوترانت الثابت قام الحلفاء بعمليات ضد سواحل العدو، واستطاعوا إيقاف وتدمير كل من الطرادين زنت استفان، وفيريبوس في ميناء بولا وقصف وشل حركة الميناءين الحربيين كاتارو، ودورازو.

ب ــ بحر ايجه

خرج الأسطول التركي الألماني في ٢٠ كانون الثاني لمحو عار الهزيمة في فلسطين، ولفك الحصار البحري المضروب على المضائق، ولكن انفجار بريسلو فوق لغم وتعطل غوبن (حيث عادت هذه الأخيرة بعد أن جنحت في الممر المائي) غير فكرة الخروج من أساسها. وعاد الأسطول إلى قواعده، أما من جهة الحلفاء فقد فكروا في عملية تستهدف تطويق عاصمة تركيا واحتلالها، إلا أن الهدنة وقعت قبل البدء بهذه الخطة، وانتهت الحرب بالنسبة لتركيا في ٣١ تشرين الأول.

جـ ــ الشرق الأدنى

تابع الإنكليز تقدمهم واحتلوا فلسطين. وفي تشرين الأول احتلت البحرية الفرنسية موانىء بيروت وطرابلس واللاذقية.

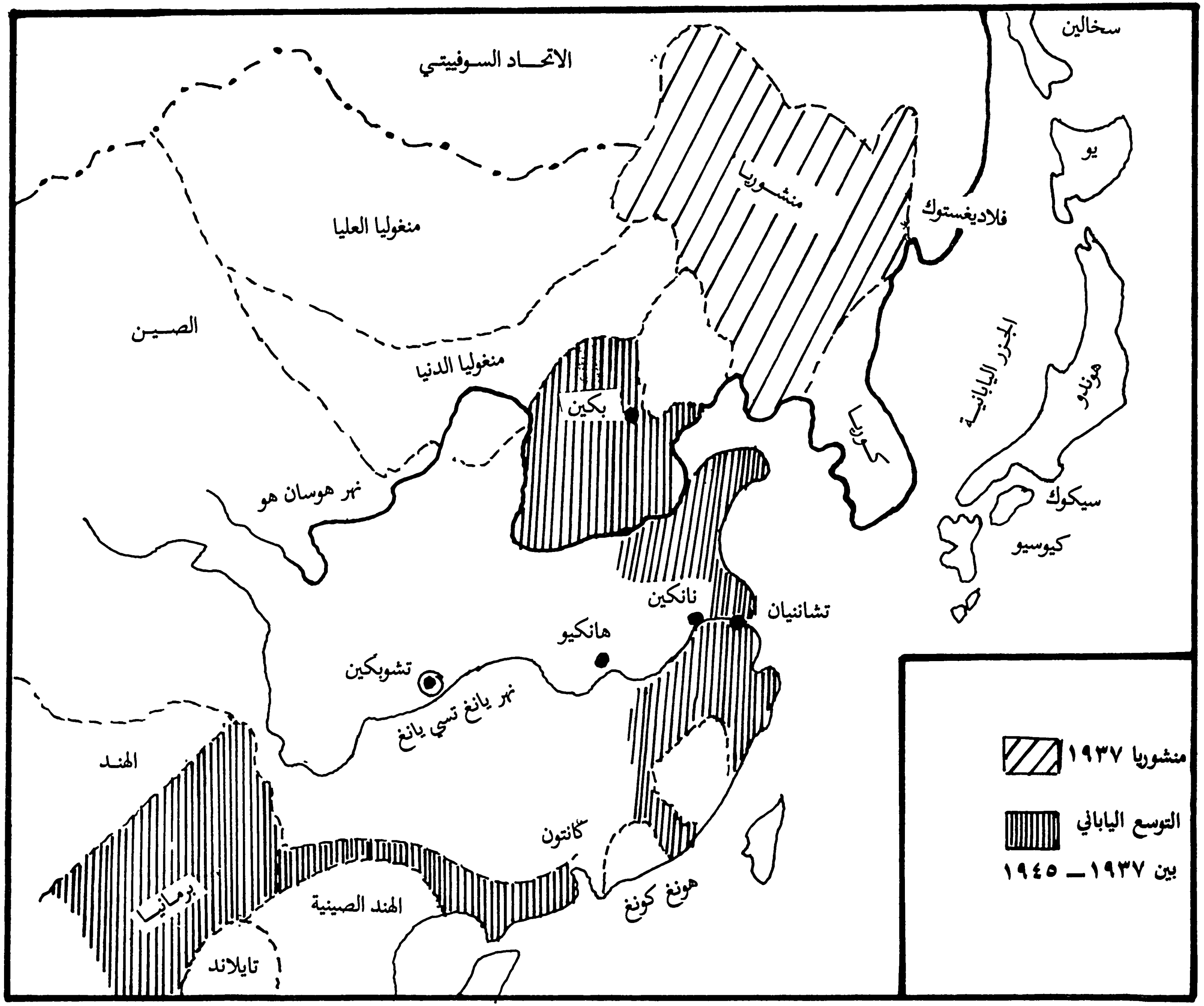
الاتحـاد السوفييتي
سخالين
منغوليا العليا
منشوريا
فلاديغستوك
يو
الصيـن
منغوليا الدنيا
الجزر اليابانيـة
هوندو
بكين
كوريا
نهر هوسان هو
سيكوك
كيوسيو
نانكين
تشانتيان
هانكيو
تشوبكين
نهر يانغ تسي يانغ
الهند
كانتون
هونغ كونغ
برمانيا
الهند الصينية
تايلاند
منشوريا ١٩٣٧
التوسع الياباني
بين ١٩٣٧ ـ ١٩٤٥

الفصـــل الثـالـث

معاهـدات الصلـح

مع ألمانيا

تضمنت معاهدة الصلح مع ألمانيا فيما يخص البحر أربعة عشر شرطاً ألزمت ألمانيا بتنفيذها، أهمها :

ـــ تسليم كافة الغواصات العاملة.
ـــ تحويل (١٠) بوارج إلى المقبرة البحرية في أحد الموانىء يحدد مكانه فيما بعد، وكذلك تحويل ستة طرادات ثقيلة، وثمانية طرادات خفيفة، وخمسين نسافة.
ـــ رفع تسليح كافة السفن الحربية الأخرى.
ـــ فتح بحر البلطيق للملاحة الحرة.
ـــ إعلام الحلفاء عن جميع العوائق، وحقول الألغام الألمانية.
ـــ إقامة ما يشبه الحصار الاقتصادي على ألمانيا، بمعنى الحد من حرية التجارة الخارجية إلا عن طريق الحلفاء.

مع هنغاريا (المجر) والنمسا

إن إنهيار الإمبراطورية الهنغرو نمساوية، ومطالبة اليوغوسلاف بالاستقلال ٢٨ تشرين الأول

خلقا أزمة حادة للحلفاء، إذ إن معاهدة لندن عام (١٩١٥) كانت قد وعدت إيطاليا بإعطائها (الترانتان) و(الدالماتي)، والجزر المحيطة بها، وكذلك (فالونا) أي السيطرة الكاملة على بحر الأدرياتيك. لكن مطالبة اليوغوسلاف بالسيطرة نفسها واستيلاءهم على كافة أسطول الأميرال هورتي النمساوي في ٣٠ أيلول أثارا إيطاليا. ولم يخف حدته إلا بعد إجراء محادثات دقيقة، ثم الاتفاق فيها على حراسة الأسطول النمساوي المسلم إلى يوغوسلافيا ببحاره من الجنسيات التالية: فرنسية أمريكية ــ إيطاليا ــ ودون أن يحمل أي علم على سواريها.

مع تركيا

تضمنت المعاهدة البحرية المعقودة مع تركيا فتح واحتلال المضائق.. وبقيت هذه المعاهدة غير سارية المفعول حتى عقد معاهدة سيغر عام (١٩٢٠) بعد أن انتصرت تركيا على اليونان. وتبعت هذه المعاهدة معاهدة لوزان عام (١٩٢٣) والتي ضمنت لتركيا السيادة الكاملة على جميع آسيا الصغرى.

أما بالنسبة للشرق الأدنى فقد تضمنت اتفاقية سايكس بيكو عام (١٩١٦) تقسيم المنطقة إلى ثلاثة قطاعات نفوذ. قطاع ساحلي فرنسي، قاعدة عسكرية إنكليزية في الجنوب ــ وبين القطاعين مملكة عربية تحت النفوذ البريطاني، ينصب عليها فيصل الأول ملكاً. وقد طالبَ مسيحيو لبنان تبعيتهم لفرنسا، في حين حاول فيصل ضمها إلى مملكته.

استغلت فرنسا ظرفاً مواتياً واحتالت على المسؤولين في سورية ودخلتها عام (١٩٢٠) فكانت بداية الثورة العربية في تلك المنطقة. ثم جاءت معاهدة لوزان عام (١٩٢٣) فقسمت المنطقة إلى قسمين الأول سورية، وتكون تحت النفوذ الفرنسي، والثاني فلسطين والأردن والعراق، وتكون تحت النفوذ البريطاني. وحصلت إيطاليا على جزر الدويديكانز، وإنكلترا على قبرص.

العمليات الأخيرة في البلطيق والبحر الأسود

إن وقف إطلاق النار وعقد الاتفاقات لم يوقف عملياً القتال فقد قام الفرنسيون والإنكليز بتدخل في البلطيق، وفي البحر الأسود. لمعاونة خصوم الحركة البلشفية في روسيا إلا أن نتائج تدخلهم كانت هزيلة.. ففي البلطيق طلبت كل من ليتوانيا وليتونيا واستونيا العون من الحلفاء ضد الروس، فأرسلت كل من إنكلترا وفرنسا أسطولاً ليدعم جيش ليتونيا البري.

وفي البحر الأسود كان الألمان قد سلحوا بعض المراكب في سواستبول مما اضطر الحلفاء لإرسال أسطول إلى شبه جزيرة القرم، وبقوا هناك متذرعين بتلك الحجة حتى نجح الجيش الأحمر في ثورته، وطلب مغادرتهم.

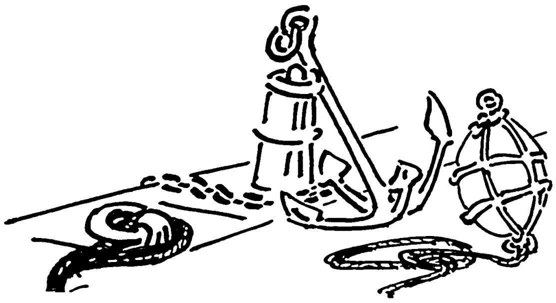

مشاهير الأعلام

١ ـ شليفن Schlieffen

نسبة إلى الماريشال الألماني الفريد شليفن (١٨٣٣ ـ ١٩١٣) الذي عمل على تطوير الجيش الألماني، وخلفه في المنصب مولتكييه عام (١٩٠٦). وخلال تقاعده تفرغ للكتابة، وأخرج عدة دراسات تاريخية، ووضع خططاً دفاعية سميت باسمه وطبقت عام (١٩١٤).

٢ ـ غليوم الثاني Guillaum II

(١٨٨٨ ـ ١٩١٨) ملك بروسيا وإمبراطور ألمانيا ابن فردريك الثالث، وحفيد فيكتوريا ملكة الإنكليز من أمه، اصطدم مع بيسمارك في السياسة الخارجية، واضطره للاستقالة عام (١٨٩٠). شجع البحرية الألمانية بقيادة الأميرال تيربيتز، وتنازل عن العرش بعد هزيمة ألمانيا في تشرين الثاني (١٩١٨)، والتجأ إلى هولندا.

٣ ـ نلسن Nelson

هو راسيو نلسون عام (١٧٥٨ ـ ١٨٠٥). أميرال بريطاني عمل في حرب أمريكا وعمل تحت إمرة الأميرال هود في المتوسط، وشارك في حصار باستيا وكالفي حيث فقد عينه عام (١٧٩٤)، وشارك في حصار قادس، وانتصر في معركة رأس فانسان، وفقد ذراعاً في حصاره ليتنيريف (١٧٩٨)، دمر الأسطول الفرنسي في خليج أبي قبر، واحتل نابولي (١٨٠٠)، وأصبح قائداً لأسطول المتوسط. وفي عام (١٨٠٥) وفي الطرف الأغر انتصر على الأسطول الفرنسي الإسباني المشترك لكنه قتل خلال المعركة.

٤ ــ الأميرال فون سبي مكسيميليان SPEE

(١٨٦١ ــ ١٩١٤) أميرال ألماني انتصر على الأميرال الإنكليزي كرادوك في المعركة البحرية، مقابل ساحل الشيلي قرب رأس كورونيل، في ١ تشرين الثاني (١٩١٤)، وخسر أمام الأميرال ستيرديه في معركة فالكلاند، وغرق مع سفينته في ٨ كانون الأول (١٩١٤).

٥ ــ كرادوك Cradock

كريستوفر كرادوك (١٨٦٢) أميرال بريطاني قاتل في معركة كورونيل (في عرض الشيلي عام ١٩١٤)، وقاد المجموعة التي حالت دون عبور أسطول فون سبي الألماني إلى الأطلسي. لكنه هزم من قبل فون سبي، وغرق مع الطراد كوودهوب good hope.

٦ ــ كاستكس راوول Castex

(١٨٧٨ ــ ١٩٣٨) أميرال فرنسي نشر العديد من النظريات العسكرية، ومدير أول لمركز الدراسات العليا للدفاع الوطني. نشر العديد من المؤلفات التاريخية والعسكرية منها، النظريات الاستراتيجية، من جنكيزخان وحتى ستالين.

٧ ــ تيربيتز الفرد Tirpitz

(١٨٤٩ ــ ١٩٣٠) أميرال ألماني رئيس أركان البحرية عام (١٨٩٢)، ثم وزير للبحرية عام (١٨٩٨)، وهو الذي أوجد أسطول ألمانيا، وجعله ثاني أسطول في العالم عام (١٩١٤). لم يستطع الحصول على إذن من غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا في الدخول بمعركة فاصلة مع (هوم فليت) الأسطول الانكليزي، فتوجه نحو حرب الغواصات حتى استقال عام (١٩١٦).

٨ ــ شيير رينهارد Scheer

(١٨٦٣ ــ ١٩٢٨) أميرال ألماني رئيس أركان الأسطول عام (١٩٠٩)، ثم سكرتير عام مساعد لتيربيتز في وزارة البحرية (١٩١١) قاد أسطول ألمانيا لأعالي البحار في جوتلاند عام (١٩١٦) واستقال عام (١٩١٨).

٩ ــ بيتي داوود Beatty

(١٨٧١ ــ ١٩٣٦) أميرال انكليزي قاد وأسطول الطرادات هوم فليت، وبرز في معركة هفلاند عام (١٩١٤) ودوغريانك عام (١٩١٥) وجوتلاند عام (١٩١٦). قاد الأسطول الكبير غراند فليت بين عام (١٩١٦) و(١٩١٨)، ثم أصبح اللورد الأول للأميرالية البريطانية (١٩١٧).

١٠ ــ جيليكو جون روشوان Jellicoe

(١٨٥٩ ــ ١٩٣٥) أميرال بريطاني متخصص في سلاح المدفعية البحرية وله نظرياته في إدارة رميها، رأس أسطول هوم فليت (١٩١٤) وقاد معركة جوتلاند (١٩١٦) ثم أصبح اللورد الأول (١٩١٦) للأميرالية ثم حاكم زيلندة الجديدة (١٩٢٠).

١١ ــ هيبر فرانز Hipper

(١٨٦٣ ــ ١٩٣٢) أميرال ألماني قاد مجموعة الطرادات في معركة جوتلاند (١٩١٦) وأصبح قائداً عاماً للقوات البحرية الألمانية آب (١٩١٨).

١٢ ــ بروسيلوف اليكس اليكسيفيتش Broussilov

(١٨٥٣ ــ ١٩٢٦) جنرال روسي قاد الجبهة الجنوبية الغربية، وظهر في الهجوم المضاد على الألمان (١٩١٦)، ليخفف الضغط عن الجبهة الفرنسية في فردان، وأسر (٤٠٠) ألف ألماني، انضم إلى البولشفيك بعد إبعاد القيصر.

١٣ ــ ويلسون توماس وودرو Wilson

(١٨٥٦ ــ ١٩٢٤) رئيس جمهورية الولايات المتحدة عام (١٩١٢) أول مرة عام (١٩١٦) للمرة الثانية اشتهر بنقاطه الـ (١٤) المتعلقة بسياسة أمريكا العالمية.. حصل على جائزة نوبل للسلام (١٩١٩).

١٤ ــ هندنبرغ كارل فون بينيكيندورف Hindenburg

(١٨٤٧ ــ ١٩٣٤) ماريشال ورجل دولة ألماني خدم مولتكييه في قيادة أركان حربه، وأحيل على التقاعد عام (١٩١١)، ثم استدعي (١٩١٤)، وعين على رأس الجيش الثامن البروسي الشرقي. أنقذ

ألمانيا من الغزو الروسي، ثم عين قائداً عاماً للجبهة الشرقية حتى آب (١٩١٦)، ثم أخذ مكان فالكنهاين في القيادة العليا للجيش. وبعد هدنة ألمانيا مع روسيا نقل كل قواته إلى الجبهة الغربية. (١٩٢٥). وانتخب لرئاسة الرايخ حتى عام (١٩٣٢)، أقنعه فون بابن لتعيين هتلر في مستشارية ألمانيا.

١٥ ــ لودندوندورف ايريك Ludendorff

(١٨٦٥ ــ ١٩٣٧) لودندوندورف جنرال ألماني عمل تحت إمرة شليفن ومولتكييه، أعد خطة الهجوم على فرنسا عام (١٩١٤)، ثم عين رئيس أركان هندنبرغ في الجبهة الشرقية، وشارك في النصر على الروس وأصبح مساعد هندنبرغ الأول في القيادة العامة، وفي إدارة البلاد. وكان له نفوذ كبير، عزل قبل الهدنة بقليل لآرائه الخاصة بالحكومة آنذاك، وعمل بالسياسة وأصبح نائباً في عام (١٩٢٤). اهتم بالأميرالية الألمانية.. له مؤلفات عدة منها «الحرب الكاملة» عام (١٩٣٥)، هاجم اليهود بعنف وهاجم الكنيسة الكاثوليكية.

١٦ ــ لويد جورج دافيد Lloyd-George

(١٨٦٣ ــ ١٩٤٥) رجل سياسة بريطاني رأس حزب الأحرار، رأس وزارة الحرب عام (١٩١٦)، ورئيس للوزارة حتى (١٩٢٢). اعترف عام (١٩٢١) باستقلال ايرلندة.

الباب الثاني

فترة ما بين الحربين

الفصـــل الأول

تنظيـــم الســـلام
عـــام (١٩١٩ــ ١٩٣٠)

إن المعاهدات التي عقدت بين الحلفاء وخصومهم عامي (١٩١٩ــ ١٩٣٠) رسمت الجدود الجديدة بين الدول الأوربية ونظمت علاقاتها، ثم أوجدت عصبة الأمم. وهذه المعاهدات هي فرساي مع ألمانيا عام (١٩١٩)، وسان جرمان مع النمسا عام (١٩١٩)، وتريانون مع هنغاريا عام (١٩٢٠)، ونيلي مع بلغاريا عام (١٩١٩) وسيفر مع تركيا عام (١٩٢٠)، ولـوزان عام (١٩٢٣).

عدم كفاية معاهدات الصلح

كانت مفاوضات عامي (١٩١٩ــ ١٩٢٠) صعبة حتى وصفها كليمنصو[١٧] بأنها مفاوضات رائعة، إذ إن جميع الأطراف المعنيين فيه على خلاف في كل الأمور. وكل دولة تدافع عن مصالحها لزيادة مكاسبها. وكان الشقاق واضحاً بين الأقطاب الثلاثة كلمينصو ــ ويلسن ــ ولويد جورج.

طالب ويلسن بتقوية الروابط العالمية لتأمين السلام وحماية الحريات وتأكيد النظم الديمقراطية. إلا أن القوى الأوربية سعت إلى غير ذلك متسترة وراء حجج واهية، فهمُّ فرنسا مثلاً خنق ألمانيا بمعاهدة قاسية خوفاً من أن تستعيد هذه الأخيرة أمجادها، وتنتقم من جارتها، فكانت تستشهد

بحروب (١٨١٥)، (١٨٧٠) و (١٩١٤). وسعت إنكلترا إلى تأمين مصالحها الاقتصادية في أوربة، والمحافظة على سيادتها البحرية. أما إيطاليا فقد أخذت تنادي مطالبة بتحقيق الوعود المقطوعة لها عام (١٩١٥) حول إلحاق ترانتان، واستري، والدالمات بالمملكة الإيطالية.

وأخيراً سعت اليابان إلى مد نفوذها في الشرق الأقصى.

تلك كانت حالة الدول المنتصرة.. فكل دولة تحاول الاستزاده من المكاسب دون مراعاة رغبات الشعوب وحقوقها في تقرير مصيرها.. ولو نظرنا إلى خريطة العالم بعد الحرب لوجدناها تبدلت بحيث عرضت العالم بأسره لمشاكل عديدة نذكر منها:

مدينة فيلنو عاصمة الدوقية الليتوانية خلال العصور الوسطى أصبحت مدينة بولونية، ودانزيغ أعطيت استقلالاً ذاتياً الغاية منه تجزئة ألمانيا إلى شطرين ألمانيا وبروسيا الشرقية. وأعطيت بولونيا ممراً على بحر البلطيق، وسلخت مدينة ميميل الألمانية لتصبح مدينة ذات طابع عالمي، وتحت النفوذ الليتواني. أضف إلى ذلك قضية روسيا البيضاء، والحرب مع بولونيا، بعد أن اغتصبت هذه الأخيرة قطعة من أرض روسيا. وكذلك إلحاق صرابيا برومانيا، ثم اقتطاع مساحات واسعة من النمسا وإعطائها إلى الدول المجاورة، وأخيراً من إلحاق حوالي (٢٠٠) ألف مواطن ألماني من مقاطعة البترول البحرية بإيطاليا... الخ.

لو اعتبرنا كل الأخطاء التي وردت أعلاه بسيطة فإننا لا نستطيع تجاهل القضية الألمانية نفسها، لأن ألمانيا خرجت من الحرب وهي ذات قوة وسيادة. وكان ذلك كفيلاً بإعادة الاضطراب في المنطقة، خصوصاً وأن جميع جاراتها دول صغيرة يمكن التوسع على حسابها. وبالفعل بدأ الشك يساور جميع الشعوب منذ عام (١٩٢٠). وحكموا بأن قدرة معاهدات الصلح في تأمين السلام العالمي ضعيفة خصوصاً بعد رفض مبادىء ويلسن وخذلانه في أمريكا، حين انتخب هاردينغ[١٨] الجمهوري رئيساً للولايات المتحدة، وبأغلبية (٧) ملايين صوت.

الشروط البحرية في معاهدات الصلح

حققت معاهدات الصلح كافة البنود البحرية التي فرضها الحلفاء على ألمانيا وتلخص بالتالي:

ــ تسليم كافة الغواصات العاملة ورفع تسليح الغواصات غير العاملة.

ـ قبر في أحد الموانىء (١٠) بوارج (٦) طرادات ثقيلة (٨) طرادات خفيفة و (٥٠) نسافة .

ـ جعل المرور حراً في مدخل البلطيق والإعلان عن جميع العوائق والسدود وحقول الألغام في البحار .

وبالفعل فقد وصل الأسطول الألماني المنوي قبره إلى سكابا فلو في إنكلترا بتاريخ ٢٦ تشرين الأول (١٩١٨) ، وطالبت إنكلترا وأمريكا بإغراقه كاملاً في حين رغبت فرنسا بالاستيلاء على بعض قطعة محتجة بأن أسطولها البحري قد دمر خلال الحرب ، وأنها غير قادرة على التعمير من جديد ، بعد تحويلها الترسانات إلى مصانع للانتاج الحربي البري . وكان طلب فرنسا محقاً وشاركتها في الطلب إيطاليا إذ إن ميزان القوى البحرية اضطرب بين الدول وأصبح على النحو التالي :

بريطانيا ٢٫٧١٥٫٣٩٥ طن يضاف إليها ١٫٢٢١٫٠٥٤ طن تعمير حديث

أمريكا ١٫١٨٤٫٠٠٠ طن يضاف إليها ١٩٠٫٠٠٠ طن تعمير حديث

فرنسا ٦٩٥٫٠٠٠ طن كلها ما قبل الحرب

اليابان ٦٧٠٫٠٠٠ طن منها ٢٠٠٫٠٠٠ طن تعمير حديث

إيطاليا ٥٣٨٫٠٠٠ طن .

وبعد أخذ ورد تم الاتفاق على تسليم كل من فرنسا وإيطاليا (٥) طرادات خفيفة و (١٠) نسافات وترك لألمانيا الأسطول التالي :

(٦) طرادات ثقيلة ، (٦) طرادات خفيفة ، (١٢) مدمرة ، (١٢) نسافة مجموعها بالأطنان (١٠٨٫٠٠٠) طن وحدد تعداد أفراد البحرية الحربية بـ (١٥٠٠) ضابط و (١٥) ألف صف ضابط وبحري ، إلا أن مشكلة الغواصات كانت أعقد من مشكلة مراكب السطح . فبعد إغراق (١٢١) غواصة ألمانية في ١ كانون الأول (١٩١٨) في هارويش بإنكلترا رفضت ألمانيا تسليم باقي غواصاتها . وانبرت بعض الدول تدافع عن وجهة نظر ألمانيا لأن سلاح الغواصات سلاح الدول الضعيفة بحرياً . ولكن أمام إصرار بريطانيا سلمت ألمانيا (١٠) غواصات عاملة إلى فرنسا ، ودمرت الباقي وباعته حديداً .

لم تتعرض الاتفاقية لأسطول ألمانيا التجاري ، بل كان هناك اتفاق سري بين لويد جورج

وويلسن على احتجاز المراكب التجارية الألمانية وتوزيعها . وكان الأمر نفسه بالنسبة للأسطولين التجاريين النمساوي والهنغاري .. ولقد تم التوزيع كالتالي :

(١٫١٢٠٫٠٠٠) طن حجزتها الولايات المتحدة ووزعتها على النحو التالي :

(٥٨٠٫٠٠٠) طن لنفسها (٢٢٣٫٠٠٠) طن للبرازيل (١٥٦٫٠٠٠) طن للبرتغال .

واحتجزت بريطانيا (٢٫٠٠٠٫٠٠٠) طن وفرنسا (٥٠٠٫٠٠٠) طن وإيطاليا (٥٥٠٫٠٠٠) طن .

وقد روعي في توزيع المراكب التجارية نسبة خسارة كل دولة منها خلال الحرب ، وكانت هذه النسب كالتالي :

٢٧٪ إنكلترا ٥٥٪ فرنسا ٧٥٪ إيطاليا ١٧٠٪ للولايات المتحدة .

الحقائق السياسية والاقتصادية بعد الحرب العالمية الأولى

اقتصادياً

وهنت أوربة اقتصادياً بعد الحرب نتيجة التدمير والتقتيل واختفاء رأس المال اللازم للنهوض بالمشاريع الكبرى ، ونجت من ذلك إنكلترا . إذ لم تصب مصانعها وأراضيها بالدمار ، وحاولت بعد الحرب مباشرة استعادة أسواقها التجارية ونجحت . وكانت مجبرة على ذلك لأن عليها تسديد (٦) ملايين دولار لأمريكا ديون نفقات الحرب .

خسرت ألمانيا في الحرب ١٥٪ من تعداد سكانها ، وخسرت بالتالي أسطوليها التجاري والحربي . إلا أن التدمير في أراضيها لم يكن كبيراً . وباشرت منذ نهاية الحرب في إحياء صناعاتها السابقة لرفع مستواها ولتسديد أقساط الغرامة الحربية المفروضة عليها . أما فرنسا فقد خرجت من الحرب منهكة متعبة ، مدينة . واستدانت من جديد مبالغ ضخمة لتغطية العجز في ميزان مدفوعاتها . هذا في أوربة أما في العالم الجديد فقد أثرت كل دول أمريكا اللاتينية وعلى رأسها البرازيل ، وتحولت الولايات المتحدة إلى دولة ذات نفوذ اقتصادي وسياسي ، وضاعفت من انتاجها ، واستولت على اقتصاديات العالم بأسواقها ، حتى ملكت نصف رصيد العالم من الذهب .

سياسياً

تباينت وجهات نظر القوى المنتصرة في العالم

آ ــ سياسة الولايات المتحدة كانت ترتكز أساساً على مبدأ الرئيس ويلسن حين قال في خطابه الأخير قبل ترك رئاسته الثانية مؤكداً تصريح مونرو[١٩] الشهير عام (١٨٢٣) :

«لنبتعد بأمريكا عن كل نزاع أوربي ، ولا ندع أوربة تدس أنفها في مشاكلنا ، أو بمعنى آخر أمريكا للأمريكيين وحدهم» أو اتباع مبدأ الانعزال التام .. إلا أن هذه الإنعزالية انحرفت وراء المطامع السياسية وحب السيطرة ، فمنذ عام (١٨٩٨) ، وبعد انتصار أمريكا على إسبانيا استولت الولايات المتحدة على كوبا ، وضمتها لها ، ثم أتبعتها بهاواي ، واحتلت جزر الفيليبين .. ومن ثم دخلت الحرب العالمية الأولى بجانب الحلفاء مدفوعة وراء زيادة مكاسبها ولو أنها زعمت غير ذلك تماماً ، إذ نادت بالدوافع الثلاثة التالية لدخولها الحرب وهي :

١ ــ مثالية (ايديولوجية) لأن الحلفاء على حق في حربهم .

٢ ــ دفاعية ، لحماية حرية مواصلاتها البحرية عبر البحار ومحاربة غدر الغواصات لها

٣ ــ سياسية ، انهيار سياسة الأنكلو ــ ساكسون في العالم وتبدل أوضاع العالم المتمدن وبعد أن انتهت الحرب وجدت أمريكا نفسها بمأمن من كل خطر أوربي ، وشعرت بأن النظام الأنكلو ــ ساكسوني استطاع استعادة مكانته ، وعادت الحرية (**على حد زعمها**) للشعوب الديمقراطية ، فرغبت أمريكا عن مشاكل أوربة وعادت ثانية إلى إنعزاليتها ، ولم تبد من النشاط في المضمار الأوربي إلا كونها عضواً عادياً في عصبة الأمم .

لم تدم هذه الإنعزالية طويلاً خصوصاً أمام التوسع الياباني ، وأمام تزايد التسلح في العالم وأمام مشاكل الشرق الأقصى عامة .

ب ــ بعد أن وقعت إنكلترا معاهدة فرساي .. اتجهت بخطوات واسعة نحو استعادة سياستها الموجهة حيال أوربة خاصة والعالم عامة . ودافعت عن سمعتها البحرية بإعادة تنظيم أسطولها لتبقى الدولة الأولى بحرياً .وخشيت أن تقفز فرنسا إلى مصاف الدول العظمى في أوربة خصوصاً بعد انهيار روسيا ، وانكسار ألمانيا .. فخططت منذ البداية لتنظيم اقتصاديات أوربة وإعادة ألمانيا إلى مجدها ،

لتحقيق التوازن . ونهجت أسلوباً خاصاً بها وخلاصته « **كل دولة بحرية عدوة لإنكلترا دون تحديد ، والذي يحدد ذلك هو الوضع الجغرافي لهذه الدولة وسياستها البحرية** » .

جـ ـ استاءت إيطاليا لحرمانها ماوُعدت به ، علماً بأنها شاركت في الحرب مشاركة **فعلية** ـ ولكن دون انتصارات تذكر ـ واجتاحتها موجة من الحقد والغيرة على حليفتيها فرنسا **وإنكلترا** ، لاستئثارهما بكافة مستعمرات ألمانيا ، وهذا ماجعلها تتقبل الفكرة الفاشستية عام **(١٩٢٢)** .

د ـ وكما استاءت إيطاليا استاءت فرنسا أيضاً من فكرة إحياء ألمانيا ، وشعرت بأنها سوف **تترك** وحيدة في أوربة لتواجه خطر ألمانيا من جديد .

اجتماعات واشنطن ١٢ تشرين الثاني عام (١٩٢١) إلى ٦ شباط عام (١٩٢٢)

تمت بين أمريكا وإنكلترا وفرنسا وإيطاليا واليابان ، وبحثت خلال هذه الفترة المواضيع التالية :

١ ـ الحد من الأساطيل البحرية .

٢ ـ وضع أسس ثابتة لمراقبة طرق الحرب الحديثة .

٣ ـ الحد من التسلح البحري .

٤ ـ معالجة مشاكل المحيط الهادي والشرق الأقصى .

وانتهت الاجتماعات بإقرار البنود البحرية التالية :

اتفقت الدول الثلاث إنكلترا أمريكا واليابان على جعل نسب القوات البحرية لديها بالنسبة **التالية** ٥ ـ ٥ ـ ٣ وفرضت نسبة ٧ر١ لفرنسا ، و ٧ر١ لإيطاليا ، على أن تحتفظ فرنسا بقوة برية كبيرة .

وكانت النسب بالنسبة للبوارج وحاملات الطائرات كالتالي :

إنكلترا	٥٢٥ ألف طن بوارج	١٣٥ ألف طن حاملات طائرات
الولايات المتحدة	٥٢٥ ألف طن بوارج	١٣٥ ألف طن حاملات طائرات
اليابان	٣١٥ ألف طن بوارج	٨١ ألف طن حاملات طائرات
فرنسا	١٧٫٥ ألف طن بوارج	٦٠ ألف طن حاملات طائرات

إيطاليا ١٧٥ ألف طن بوارج ٦٠ ألف طن حاملات طائرات

لا تتجاوز حمولة البارجة (٣٥) ألف طن ولا يزيد عيار مدفعيتها عن (٤٠٦) ملم .

لا تتجاوز حمولة حاملة الطائرات (٢٧) ألف طن ولا يزيد عيار مدفعيتها عن (٢٠٣) ملم .

وقد أخفقت اجتماعات واشنطن في تحريم استخدام الغواصات ، لأن الدولة الوحيدة التي حرصت على تحريمها هي إنكلترا لما قاسته من ويلاتها خلال الحرب . إلا أن معارضة كل من فرنسا واليابان وسلبية الولايات المتحدة أنجح موضوع السماح . باستخدام هذا السلاح .

اتضح لإنكلترا فيما بعد أنها لن تستطيع ابداً مجاراة الولايات المتحدة في سباق التسلح البحري ، ولكنها رضيت فيما وصلت إليه من تحديد عدد المراكب الكبيرة في كل من فرنسا وإيطاليا ، وبذلك تكون قد ضمنت سيادتها البحرية الأوربية .

مشاكل الشرق الأقصى بعد الحرب العالمية الأولى

آ ــ .. تحسنت أوضاع اليابان في نهاية حرب ١٤ ــ ١٨ ، إذ استولت على مستعمرات ألمانيا في الصين ، وفي المحيط الهادي ، وامتد نفوذها في الصين مستغلة فرصة الثورة في روسيا حتى وصلت لمشارف سيبريا .. ولم تلحظ الولايات المتحدة المنشغلة في حروب الجبهة الغربية هذا التطور السريع في الشرق الأقصى ، ووجدت نفسها فجأة أمام خصم عنيد يحاول السيادة على الشرق الأقصى بكامله ، بعد انكسار ألمانيا وانهيار روسيا ، وخروج الدول الحليفة من الحرب المنهكة القوى .

طالبت اليابان خلال معاهدة الصلح باستملاك شانتونغ وسيبريا الشرقية مع فلاديفستوك ، وكذلك باحتلال الجزر الألمانية في المحيط الهادي (مجموعة كارولين ، مارشال ، وماريان) . وبالطبع رفضت الصين الإذعان ، إلا أن الحرب الأهلية المستعرة فيها وانقسامها على نفسها لم يعطها الفرصة لمقاومة أطماع اليابانيين . وخشي الحلفاء اتفاقاً ثنائياً بين اليابان وروسيا إن رفضت مطالب اليابانيين ، فتساهلوا وأعطوا اليابان حق الاتساع في شانتونغ ، وأخذوا تعهداً على اليابانيين بعدم طلب المزيد . أما الجزر الألمانية في المحيط الهادي فقد وزعت كالتالي :

ــ كافة الجزر الألمانية جنوب خط الاستواء تقع تحت حماية أوستراليا وزيلندة الجديدة .

ــ كافة الجزر الألمانية شمال خط الاستواء تخضع للحماية اليابانية .

ــ تبقى جزيرة ياب من مجموعة كارولينا حرة ، إذ طالبت بها الولايات المتحدة لوجود عقدة شبكة هاتفية فيها تصل غويام ، والهند النيرلاندية ، وشانغهاي ... الخ .

ب ــ وافقت اليابان على الشروط إلا أن الصين رفضت توقيع المعاهدة ، وقام الطلاب والمفكرون بمظاهرات احتجاج عمت الصين . كما لاقى ويلسن معارضة شديدة في الكونغرس لسيره في طريق يتعارض ومبادئه التي أعلنها على العالم . ورفض الكونغرس نهائياً شروط المعاهدة فيما يتعلق بالشرق الأقصى ، وظهرت موجة كراهية لليابانيين في أمريكا ، وانتشرت حتى عمت جميع الولايات وأطلق على اليابان اسم **ألمانيا الجديدة في الشرق الأقصى** .

جـ ــ راقبت الولايات المتحدة النشاط الياباني بحذر خصوصاً حين حاولت كوريا المحتلة الملحقة باليابان منذ عام (١٩١٠) التحرر ، فقاومها اليابانيون بغلظة وقسوة . وكان لهذا التصرف أثره السيء لدى الأمريكيين . وخلال مؤتمر واشنطن عارضت الولايات المتحدة وجود اليابانيين في سيبريا ، وحرمانها من بعض جزر كارولينا .

ترددت إنكلترا في هذا المؤتمر وحارت أي الطرفين تدعم ــ فإن هي دعمت الولايات المتحدة قامت اليابان في إضرام الاضطرابات القائمة آنذاك في الهند ، وإن دعمت اليابان تطالبها أمريكا بالديون الكبيرة ، فتحدث عليها ضغطاً مالياً يهدد نقدها الأوسترليني وجاء ترددها هذا لصالح اليابانيين .

المعاهدات الثلاث المنبثقة عن اجتماعات واشنطن

١ ــ معاهدة الدول الأربع الكبيرة (فرنسا ، اليابان ــ الولايات المتحدة ــ إنكلترا) وخلاصتها التعهد لمدة عشر سنوات بعدم التدخل في الشؤون التي تتعارض ومصالح الدول المشتركة في هذه المعاهدة ، وفي الممتلكات في المحيط الهادي بالذات . وبذلك أصبح الحلف البريطاني الياباني القديم باطل المفعول .

٢ ــ معاهدة الدول الخمس الكبيرة ، تضاف إيطاليا إلى الدول الأربع السابقة . وكانت هذه المعاهدة عبارة عن دراسة لموضوع تخفيض التسلح البحري ، وتعتبر امتداداً لاجتماعات واشنطن . ولقد تمخضت هذه المعاهدة عن معاهدة أخرى دعيت بمعاهدة الدول التسع .

٣ ــ معاهدة الدول التسع تضمنت المعاهدة السابقة يضاف إليها :

ــ التعهد باحترام استقلال الصين ومساعدتها في إقامة حكم ثابت ، وعدم استغلال اضطراباتها وإعطاؤها حق حرية التبادل التجاري مع جميع الشعوب .. إلا أن هذا الشرط لم ينفذ وبقي حبراً على ورق .

ــ على اليابان سحب جميع قواتها من سيبريا خلال تشرين الثاني (١٩٢٢) .

ــ ونتيجة التدخل الأمريكي السريع في قضية شانتونغ وعدت اليابان بإعادة مقاطعة كياتشو إلى الصين ، على أن تحتفظ فقط بملكية الخط الحديدي لشانتونغ ، وحتى تسدد الصين مبلغ (٣٢) مليون دولار المستحق عليها .

ــ أما بالنسبة لجزيرة (ياب) فقد ظلت تحت سيطرة اليابانيين مع حقوق الأمريكيين في دخولها وصيانة الشبكة الهاتفية فيها .

تخلت اليابان عن شانتونغ وسيبريا ، وخفضت تسليحها البحري ، ولكنها بالمقابل احتفظت بمنشوريا ، وحصنت جزرها في الباسفيك ، وبصورة خاصة جزيرة (غويام) . ولم تجدد معاهدتها مع إنكلترا ، ومرت خلال هذه الفترة بأزمة اقتصادية حادة .

لم تلحظ الولايات المتحدة الخطر الياباني في الباسفيك في حينه ، وقال السير وليجان في كتابه « سياسة الولايات المتحدة الخارجية » :

« لقد غاب عن فكرنا أن احتلال اليابان للجزر الألمانية في الباسفيك شمال خط الاستواء حمل ضربة قاصمة إلى خط دفاعنا في هذا المحيط » .

السياسة العامة في المتوسط والقضية الألمانية خلال المدة بين (١٩٢٢ ــ ١٩٣٠)

برز موضوعان هامان خلال هذه الفترة : الفاشستية في إيطاليا ــ والقضية الألمانية .

آ ــ ايطاليا

يمكن القول إن الفاشستية في إيطاليا كانت قضية داخلية بحتة تخص إيطاليا وحدها إلا أننا يجب أن لا ننسى أن هذا النظام خرج خارج نطاقه الداخلي ، واتخذ صورة مقت وضغينة للقوى الأخرى ــ بعد حرمان إيطاليا من مكاسب الحرب ــ وأصبح الوضع في المتوسط على النحو التالي :

ــ احتلال إنكلترا لكل من مصر، فلسطين، قبرص، مالطة، جبل طارق والعراق.
ــ احتلال فرنسا لسورية ولبنان، وسيطرة كاملة على شمال إفريقية.
ــ احتلال إسبانيا لجزر الباليار ــ ولقسم من مراكش.
ــ احتلال إيطاليا لجزر الدوديكانز ورودس.

وفي مطلع عام (١٩٢٢) بدأت الاضطرابات في المتوسط «ثورة الريف» الحماية على مصر، مشاكل تونس، القضية الفلسطينية، هجرة اليهود، والثورة السورية.

أما أطماع إيطاليا فكانت كثيرة منها جعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة إيطالية، وإخراج جميع القوى منه (من خطاب لموسوليني في جنوه عام (١٩٢٣)).

وقد برز نشاط إيطاليا واضحاً في معالجة حدود ليبيا وفي القضية التونسية، وبالفعل فقد كانت سياسة موسوليني معارضة مصالح فرنسا وبريطانيا في المنطقة، وإقامة قواعد بحرية وجوية في رودوس، وهذه القواعد لا تبعد أكثر من (٤٠٠) كم عن الدردنيل وعن بور سعيد. والغاية منها الرد على احتلال مالطة المجاورة لشبه الجزيرة الإيطالية ــ وأيد العمل خطاب موسوليني عام (١٩٢٨) إذ قال فيه

«خلال فترة وجيزة سنصبح قوة تقسو على تاريخ أوربة، وسنستطيع إسماع صوتنا وإجبار الآخرين على الاعتراف بحقوقنا».

ب ــ القضية الألمانية

ــ هل ستدفع ألمانيا الغرامة الحربية البالغة (١٣٢) مليار مارك ذهب؟
ــ وهل ستتمسك بتعهداتها في حفظ السلام؟
ــ هل ستقبل ألمانيا انتزاع حوض الراين الغني من ممتلكاتها؟
ــ هل ستستكين ألمانيا للقيود المفروضة عليها؟

جميع هذه الأسئلة كانت الشغل الشاغل لفرنسا في حين كانت إنكلترا لا تعلق كبير أمل على دفع التعويضات. وكانت ترى في ذلك إعاقة لتطور الاقتصاد الأوربي، وكانت لا تشارك فرنسا مخاوفها من حيث عودة ألمانيا إلى قوتها خصوصاً وألمانيا بدون بحرية.

أما فرنسا فقد فكرت بإجراء محادثات سلام مع ألمانيا، إذ إن برياند[٢٠] قدر خطورة موقف

فرنسا الملتزمت لوحدها . وبالفعل جاءت معاهدة لوكارنو عام (١٩٢٥) تتعهد فيها كل من فرنسا وألمانيا وبلجيكا باحترام الحدود فيما بينها . وبإخلاء حوض الراين وقبول ألمانيا في عصبة الأمم ، وسحب منظمة مراقبة التسلح من أراضيها .

تبع هذه المعاهدة اتفاق باريس عام (١٩٢٨) المسمى بحلف بriاند .. كيلوغ[٢١] الذي منع كل سباق للتسلح إلا في حالة الدفاع عن الوطن ، أو في حالة صد اعتداء . وقد وقعت جميع الدول على هذا الحلف .

بعد انتخابات أيلول عام (١٩٣٠) في ألمانيا تبين للعالم أن الحزب الاشتراكي الألماني وصل تعداده إلى (٦) ملايين عضو أي بزيادة (٥) ملايين عضو عن الانتخابات السابقة .

المؤتمر البحري الأول مؤتمر لوندره عام (١٩٣٠)

منذ مؤتمر واشنطن والعالم يواجه قضايا هامة في تخفيض التسلح البحري ، فقد طالبت فرنسا حد الوزن الإجمالي المسموح به لكل دولة ، ولكن على شريطة أن يسمح لكل دولة بحرية بتوزيع هذا الوزن على مختلف أنواع المراكب حسب الحاجة والفائدة وثروة الدولة .. أما بريطانيا فكانت ترى عكس ذلك تماماً ، فهي تريد تصنيف المراكب وتحديد وزنها وصفاتها التعبوية ، وذلك حتى تتفادى المفاجأة في حالة نزاع عالمي آخر ، وحتى تضمن لنفسها الصدارة البحرية في العالم .

استعدت فرنسا لمؤتمر لوندره حتى لا توضع أمام الأمر الواقع كما حصل في واشنطن واشترطت عدم دخول المحادثات إلا في حالة قبول الجميع للبنود الثلاثة التالية :

ــ عدم الحديث في تخفيض أو إلغاء سلاح الغواصات .
ــ عدم التعرض لنوعية المراكب وكفاءاتها التعبوية في الدول المشتركة .
ــ التحضير فقط لمهمة تخفيض التسليح البحري .

عارضت كل من إنكلترا وأمريكا مقترحات فرنسا واعتبرتا مؤتمر باريس المنصرم وافياً للغرض ولا داعي لإعادة المناقشة في أمور اتفق عليها سابقاً .

برز خلاف جوهري بين إيطاليا وفرنسا بعد تصريح موسوليني[٢٢] عام (١٩٢٩) بقوله إن مقياس قوة الدولة وعظمتها بحريتها . ونحن نعلم أن كلا الدولتين تساوتا في وزن أساطيلها .. فطالبت

فرنسا برفع حجم قواها البحرية مقدار (٢٤٠) ألف طن زيادة عن إيطاليا .. ولم يتوصل مؤتمر لوندرة إلى حل حاسم لهذا الموضوع .

أثار مندوب إنكلترا من جديد مع المؤتمرين موضوع الغواصات ، وطالب ثانية بإلغاء هذا السلاح لتعارضه مع المبادىء الإنسانية ، فرد عليه مندوب فرنسا رداً حاسماً إذ قال

«إنني أعتقد أن الإغارات قاعدة متبعة في المعارك البرية وعمل الغواصة ضد المراكب التجارية هو إغارة ، فإذن هو عمل مشروع . والغواصة كمركب السطح في عملها غير الإنساني حيث إن مركب السطح يزرع ألغاماً عمياء تصيب بها المحارب والمحايد» وفي النهاية تم الاتفاق على أن يطبق على الغواصات الشروط نفسها التي تطبق على المراكب الحربية الأخرى .. وطالبت الولايات المتحدة حد وزن الغواصة بوزن أعظمي قدره (٢٠٠٠) طن فقط وتسلح بمدفع لا يزيد عياره عن (١٤٠) ملم ، ولكل دولة حق تعمير ثلاث غواصات فقط يزيد وزنها عن (٢٠٠٠) طن وبهذا استطاعت فرنسا تكملة غواصتها الضخمة (سيركوف) (٢٨٨٠) طن .

الخلاصة

كانت المؤتمرات وبصورة خاصة مؤتمر لوندره غير فعالة ولم يوقع على الاتفاق الخاص بتحديد أوزان المراكب وعددها إلا ثلاث دول وهي أمريكا ـــ إنكلترا ـــ اليابان ـــ أما المحادثات مع إيطاليا فقد استمرت شهوراً عديدة دون نتيجة ، ولم يلتزم موسوليني بالقيود المفروضة عليه ، إذ أعلن عام (١٩٣٤) البدء بتعمير بارجتين وزن كل منها (٣٥) ألف طن وهما فيتور يوفينيتو وليتوريو ، فردت فرنسا عليها ببناء بارجتين مماثلتين هما ريشيليو ، وجان بار .

الفصـــل الثـانـي

السياســة الاقتصاديــة
حتــى عــام (١٩٣٦)

الأزمة الاقتصادية الكبرى وآثارها

اجتاحت العالم أزمة اقتصادية حادة أثرت تأثيراً كبيراً على مناهج عمل بعض الدول. وقد بدأت هذه الأزمة بتدهور في بورصة نيويورك، وذلك بتاريخ ٢٤ تشرين الأول (١٩٢٩) ثم موضوع تعمير أوربة المهدمة خلال الحرب، وأخيراً الزيادة الضخمة في الانتاج الصناعي والزراعي دون أسواق تصريف.

في الحقل التجاري

كان النظام المعمول به آنذاك هو إعطاء رؤوس أموال وهمية للحصول على عملاء يملكون أرصدة مالية في أوربة الوسطى وأمريكا. وكانت نتائج هذه التصرفات أزمة مالية حادة نجم عنها إفلاس بنك نمسا الكبير عام (١٩٣١)، وتبعه البنك الألماني فصفى أرصدته الأجنبية، وأخرج رصيده من الذهب، ثم ضاع هذا الرصيد بانخفاض عملة إنكلترا.

عمت البطالة في العالم، وانخفضت عائدات الدول من الضرائب (انخفض معادل الانتاج الصناعي من ١٢٠ عام ١٩٢٩ إلى ٥٧ عام ١٩٣٢)، وهبطت نسبة التجارة مع الخارج بنسبة الثلثين، ووصل عدد العاطلين عن العمل في الدول العظمى إلى (٣٠) مليوناً، وظهر البؤس والفقر

بشتى صوره ، وتكدست كميات كبيرة من القمح والقهوة والقطن ، لا تجد من يشتريها . وكان لهذه الأزمة الاقتصادية نتائج هامة

آ ــ توقف دفع تعويضات التعمير المفروضة على ألمانيا في عام (١٩٣١)

وبرز عن ذلك نتائج أهمها :

ــ اعتماد فرنسا على ميزانيتها فقط في تعمير بلادها .
ــ رفض فرنسا دفع ديون أمريكا وحدوث توتر نسبي بين الدولتين .
ــ استعادة ألمانيا لرؤوس أموالها ساعدها في إقامة صناعات جديدة ضخمة حولتها فيما بعد للانتاج الحربي .

ب ــ أزمة النظام الرأسمالي

كان هذا النظام يعتمد على حرية التعامل الاقتصادي وعلى حياد الدولة في الميزان التجاري . وكان رأي كل مواطن الذم والقدح بهذا النظام الذي جلبا البؤس والفقر للأغلبية ، في حين نجد الخيرات مكدسة عند الأقلية المحتكرة . وطالبت الشعوب دولها باتباع نظام معين في الانتاج والاستهلاك من شأنه إعادة الحالة الاقتصادية إلى ما كانت عليه سابقاً .. ومن هنا انتشرت المناقشات الحادة في الدول بين الحكومة والمعارضة ، وأخذت الأزمة الاقتصادية في العالم تتحول إلى أزمة سياسية .

التغيرات السياسية ــ تحول ألمانيا إلى دولة اشتراكية

ما ذكرناه سابقاً نستطيع اعادته فنقول إن الأزمة الاقتصادية كانت أحد الأسباب الدافعة لوقوع ألمانيا في النظام النازي . ونجح هتلر [٢٣] عام (١٩٣٣) بانتخابه مستشاراً ، وفي عام (١٩٣٤) استولى على الحكم ، وأصبح رئيساً للرايخ . وكانت المبادىء التي يسعى لتحقيقها هي :

١ ــ استعادة استقلال ألمانيا ووحدتها وعظمتها .
٢ ــ استعادة المناطق المسلوخة عن ألمانيا عام (١٩١٩) .
٣ ــ منع وجود أية قوة عسكرية على حدودها (انفراد ألمانيا بأوربة) .
٤ ــ توسع حيوي يتجاوز الرقعة التي كانت تملكها عام (١٩١٤) وجمع كافة المقاطعات تحت سيطرة الرايخستاغ .

٥ ــ إيجاد فلسفة خاصة لألمانيا للعرق الجرماني نلخصها بالتالي :

المجال الحيوي :

لكي تضمن ألمانيا للعرق الألماني وسائل الحياة الكاملة عليها أن تسعى لزيادة رقعتها بنسبة عدد سكانها ، وهذا المجال سيكون نحو الشرق طبعاً ، لأن في الغرب فرنسا العدوة اللدود منذ الأزل ، وقد نجد مثل هذه الفلسفة عند اليابانيين والإيطاليين .

ففي اليابان قال ماتسيوكا عام (١٩٢٩) « يجب حماية حقوق كل عرق واعطاؤه الحق الكامل في الحياة ، ويجب إتاحة الحظ له ليسعد بحياة متمدنة حديثة » .

وفي إيطاليا قال موسوليني : « نحن نعمل لاستغلال أرضنا بأقصى ما نستطيع ، ولكننا سنصل قريباً إلى درجة الإشباع ، وشعبنا يتزايد بسرعة . إن أوربة تشيخ ، والدولة الفتية الوحيدة ستكون إيطاليا ، إن الأجيال الجديدة المنشأة نشأة فاشستية تعلم تماماً أن السلام لن يسود ما دام لها أرض جديدة تستغلها » .

نلحظ من ذلك كله **أن نظرية المجال الحيوي المغلوطة أسفرت عن وجهها بصراحة ، فهي تدعو للتوسع على حساب الشعوب الأخرى الضعيفة ، وأدت إلى اضطرابات عالمية كالتصادم الصيني الياباني ــ احتلال الحبشة ــ ضم النمسا وتشيكوسلوفاكيا ــ اجتياح بولونيا .**

نظرية سمو العرق

نادى الألمان بهذه النظرية وتبعهم بذلك اليابانيون والإيطاليون ، فصنفوا الشعوب حسب أهوائهم ، إذ ادّعت اليابان أنها في أرض الآلهة ، وادعت إيطاليا بأنها عودة للإمبراطورية الرومانية ، ثم نصبت ألمانيا نفسها قيمة على أوربة ، وعليها واجب سام يجب تأديته . ونادوا جميعاً بأن العالم مؤلف من إمبراطوريات ، كل إمبراطورية تقتسم المجالات الدولية ، لتلعب دورها في التوجيه العالمي ، ألمانيا وايطاليا في الغرب واليابان في الشرق (الحلف الثلاثي ٢٩ أيلول عام ١٩٤٠) .

نظرية الدفاع الاستراتيجي

لكل دولة الحق في حماية نفسها من أي هجوم مفاجيء ولها الحق في التمركز عسكرياً في أرض جاراتها ، فكان أن احتلت اليابان منشوريا لتضمن الحماية الاستراتيجية لإمبراطوريتها المنعزلة ،

واحتلت إيطاليا الحبشة ، لأن وضع هذه الأخيرة (**حسب ادعاء إيطاليا**) يهدد المستعمرات الايطالية في إفريقية ، ثم احتلت ألمانيا تشيكوسلوفاكيا المتاخمة لحدودها .

البحرية ومشروع تخفيض التسلح (جنيف عام ٣٢ ــ ٣٣)

اجتاحت الدول التي شملها تحديد الأساطيل فيها موجة من الاحتجاجات ، وكانت عصبة الأمم عاجزة عن فرض شخصيتها ، **وبرزت أنانية بعض الدول ، فحاولت بشتى الطرق التدخل في الدول الأخرى بأساليب جديدة كالتحكم والحيطة وخفض التسلح** ، وجاءت اجتماعات جنيف ضعيفة هزيلة دارت المناقشات فيها حول نقطتين هامتين :

١ ــ النقطة الأولى :

طلبت فرنسا تحديد التسلح في الأسلحة الثلاثة البرية ، البحرية ، والجوية بشكل يتناسب والدول دون تحديد إفرادي لكل سلاح . كما طالبت بتخفيض التسلح العام بصورة منتظمة وبخطوات متتالية لحفظ الأمن والسلام العالمي . **ولعبت ألمانيا دوراً هاماً في خلق جو عدم تفاهم بين القوى الحليفة ، الغاية منه رفع مستوى تسليحها بموجب تساوي حقوق جميع الدول** ، وبالتالي طالبت باعادة النظر في معاهدة فرساي .

لم توافق الكتلة الانكلو أمريكية على مناقشة الاتفاقيات السابقة بل اقترحت إجراء التعديل التالي عليها

ــ تخفيض ثلث مجموع أوزان البوارج .
ــ تخفيض ربع مجموع أوزان حاملات الطائرات والطرادات والنسافات .
ــ تخفيض ثلث مجموع أوزان الغواصات .

وبالطبع لم توافق فرنسا على المقترحات ، ورفضتها ألمانيا وانسحبت من الاجتماع .

٢ ــ النقطة الثانية :

اشترطت فرنسا التزام ألمانيا بالحد الذي فرض عليها بحرياً وهو (١٠٨) آلاف طن مراكب ، وأن يكون الأسطول الإيطالي معادلاً لثلثي أسطولها .. وطبعاً رفضت هذه الطلبات ، وأخفقت المحادثات ، وانسحب مندوب ألمانيا من عصبة الأمم عام (١٩٣٣) . وكان هتلر قد استلم القيادة في ألمانيا فضرب بشروط الصلح عرض الحائط ، وبدأ تنفيذ سياسة زيادة التسلح في ألمانيا .

الاتفاق الأنكلو ألماني ١٨ حزيران عام (١٩٣٥)

أعلن غورينغ[٢٤] بعد انسحاب ألمانيا من عصبة الأمم عن إنشاء قوة جوية ألمانية ، ثم أصدر هتلر قراراً بإعادة الخدمة الإلزامية في ألمانيا ، متحدياً معاهدة فرساي .

استغل هتلر إخفاق مؤتمر لوندره الأول فأبلغ إنكلترا عن عزمه زيادة نسبة الأسطول الألماني ليصل إلى ٣٥٪ من الأسطول البريطاني ، وقرر بناء بارجتين تزن الواحدة (٢٦) ألف طن وطرادين ثقيلين ، وعشرين غواصة ، ومجموعة ضخمة من المدمرات ومراكب الحراسة .. ونتيجة لهذا الإعلان بدأت محادثات أنكلو ألمانية في لوندره أقرت فيها مطالب ألمانيا برغم احتجاجات الفئات المعارضة في إنكلترا نفسها وفي الدول الأوربية ، وبذلك ارتفع الرقم المقرر لألمانيا من (١٠٨) آلاف إلى (٤٢٠) ألف طن مراكب .

مؤتمر لوندرة البحري الثاني (كانون الأول عام ١٩٣٥ وحتى آذار عام ١٩٣٦)

عقد هذا المؤتمر في جو مشحون بعدم الثقة بين الدول المجتمعة ، وكان الغرض منه بحث الأوضاع الراهنة من حيث توسع ألمانيا في أوربة ، والقضية اليابانية ، والتوسع الايطالي .

١ ــ القضية اليابانية

طالبت اليابان برفع نسبة تسلحها بالنسبة للدول الأخرى أو بمراقبة تنفيذ النسب المفروضة سابقاً وبشكل صحيح . وقد اعترضت بريطانيا على ذلك وعبرت عن رأيها بقولها إن الدولتين العظيمتين ــ بريطانيا ، أمريكا مضطرتان لتوسيع بحريتهما لما عليهما من التزامات في العالم أجمع .. ــ وقد كان اليابانيون يهدفون من طلبهم هذا الاعتراض على الاتفاق السري بين بريطانيا وأمريكا إزاء اليابان ــ ولما لم يستطع اليابانيون إحراز مكاسب انسحب وفدهم من المؤتمر في ١٦ كانون الثاني (١٩٣٦) .

٢ ــ القضية الألمانية

لم يشترك الرايخ في محادثات لوندره ، ورغبت بريطانيا في دعوته إلا أن معارضة أمريكا وفرنسا للمشاريع الألمانية المختلفة من حيث زيادة التسلح والتوسع في غرب أوربة جعلت الألمان يحجمون عن الاشتراك في هذا المؤتمر ، لأنهم كانوا يعرفون مقدماً أن مطاليبهم سوف ترفض كلها .

٣ ــ ايطاليا

اشتركت إيطاليا في المؤتمر بعد أن تأكد لها دبلوماسياً أن إنكلترا لن تعارض مطاليبها التوسعية في إفريقية، وفي تجاوزها القيود البحرية حول أوزان السفن الكبيرة... الخ. **وفي الحقيقة فمؤتمر لوندرة الثاني لم يأت بجديد نظراً لبدء تدهور الموقف في أوربة والشرق الأقصى.**

الفصل الثالث

بوادر نشوب الحرب العالمية الثانية
(١٩٣٦ـ ١٩٣٩)

الوضع العالمي عام (١٩٣٦):

تدهور الموقف الدولي فجأة عام (١٩٣٦)، وانحلت عصبة الأمم، وانتظمت الكتلة الألمانية اليابانية الإيطالية بالمعاهدات التالية:

ـ الحلف الألماني الياباني في ٢٦ تشرين الثاني عام (١٩٣٦)، وكان ظاهره حلفاً مضاداً للشيوعية.

ـ حلف محور روما برلين نهاية عام (١٩٣٦).

ـ **اشتراك إيطاليا في الحلف الألماني الياباني المضاد للشيوعية بتاريخ ٦ تشرين الثاني (١٩٣٧).**

ومقابل هذا التكتل أعلنت بريطانيا زيادة التسلح ١٠ كانون الأول عام (١٩٣٦) في سبيل حماية بلجيكا وفرنسا، في حالة تعرضهما لغزو ألماني، ثم تبعتها فرنسا بتصريح مماثل.

روسيا

تعرضت روسيا لحملة شعواء ضد نظامها الشيوعي من قبل ألمانيا النازية، فبادرت إلى عقد حلف مع فرنسا بتاريخ ٢ نيسان ١٩٣٦، وشاركت الغرب في قضايا أوربة. إلا أن بريطانيا بقيت

متحفظة مع روسيا لأن رأي حكومة المحافظين آنذاك تعمَّد اللامبالاة حيال روسيا ، لعدم وجود حدود مشتركة معها .

الولايات المتحدة

ثابرت الولايات المتحدة على مبدأ الحياد بين جميع الكتل Neutrality act مع مراعاة شرطين أساسيين هما :

١ ــ تحريم بيع عتاد حربي لأي دولة أيا كان طالبه ، ولكن سمح به فيما بعد لمن يدفع وينقل .

٢ ــ تحريم بيع البضائع للدول إلا بعد الدفع في أمريكا واستلام البضاعة من أمريكا وسمي هذا المبدأ بـ ادفع وانقل Cash & Carry .

الحرب الصينية اليابانية تموز عام (١٩٣٧)

كانت حكومة الصين ضعيفة تستمد المعونة من الخارج ، وقد تحالف نائب ملك منشوريا تشانغ سولين[٢٥] مع اليابانيين ، في حين اتفق الجنرال فينغ يوسيانغ[٢٦] مع الروس . وبدأت روسيا نشر مبادئها الشيوعية في الصين لمحاربة التغلغل الأنكلوساكسوني في البلاد ، وبدأ النزاع بين الطرفين الصينيين المتضادين في الشمال حتى ظهر الزعيم الصيني تشانغ كاي شيك[٢٧] في الجنوب ، واستطاع السيطرة ، ثم حارب الشماليين وأعاد الاستقرار النسبي للبلاد . ولقد لعبت زوجته دوراً سياسياً هاماً . أما في اليابان فقد برزت نقطة هامة هي الكثافة السكانية ، فبعد أن كان تعداد اليابانيين عام (١٨٧٢) (٣٣) مليوناً قفز هذا العدد إلى (٧٠) مليوناً عام (١٩٣٤) ، ووصلت الكثافة حتى (١٠٠٠) شخص في الكيلومتر المربع . واستغل اليابانيون أرضهم زراعياً بشكل كامل . وبدؤوا مرحلة التصنيع إلاّ أن نقص الفحم والحديد والبترول وقف حائلاً دون تنفيذ برامجهم الضخمة . وقد عرف عن الياباني عدم حبه الاغتراب ، ومعنى ذلك التوسع قرب الجزر اليابانية . وهذا يعني الصين الدولة المترامية الأطراف والمفككة الأوصال .

بدأت الحرب الفعلية في ليل ٧ ــ ٨ تموز (١٩٣٧) ، وتتابعت الأحداث بصورة مذهلة ، إذ انسحب الصينيون من بيكان واحتل اليابانيون شانغاي ، نانكين وهانكيو ، وامتدوا على الساحل

مسافة (٣٠٠٠) كيلومتر . وانقسمت الصين إلى دولتين دولة موالية لليابانيين في نانكين ، وأخرى معادية لهم في تشونكين العاصمة الجديدة لحكومة تشان كاي شيك .

مونيخ والحلف الروسي الألماني

بدأت أزمة تشيكوسلوفاكيا ، وصرحت كل من فرنسا وروسيا بأنهما مستعدتان للقيام بالتزاماتهما حيالها في حال تعرضها للغزو الألماني . أما بريطانيا فلقد لزمت الصمت ، وحاولت حل القضية سلمياً ، كما حاول روزفلت التدخل لمنع الغزو . إلا أن هتلر اجتاحها خصوصاً بعد أن لمس تردد الحلفاء في دعمها .

تتابعت الأحداث بعد احتلال تشيكوسلوفاكيا في آذار (١٩٣٩) ، إذ هاجمت إيطاليا البانيا في نيسان من العام نفسه وحركت ألمانيا مطالبتها بممر دانزيغ من جديد . وباعتبار روسيا هي الدولة الوحيدة المجاورة لهذا الممر ، فقد توصلت ألمانيا لعقد اتفاق مع روسيا باقتسام بولونيا حتى حدود ليتوانيا ، وباحتلال ألمانيا لممر دانزيغ وبالاتفاق على أن الدولتين تمتنعان عن الدخول في أي تكتل عسكري يستهدف الدولة الأخرى ... الخ . وهنا انبرت كل من فرنسا وبريطانيا للدفاع عن حقوق بولونيا وكان ذلك بداية الحرب العالمية الثانية

الأساطيل الحربية في الدول الكبرى عام (١٩٣٩)

الدول الحليفة

بريطانيا العظمى

البوارج	٥	من طراز كوين اليزابيت	٣١ ألف طن
	٥	من طراز رويال سوفران	٢٩ ألف طن
	٢	من طراز نلسون	٣٣٫٥ ألف طن
	٥	من طراز كينغ جورج	٣٥ ألف طن
	٣	من طراز ريبولز	٣٢ ألف طن

حاملات الطائرات

	٤	من طراز الومستريشن	٢٣ ألف	٤٨ طائرة
	٣	من طراز غلوريوس	٢٢٫٥٠ ألف	٤٠ طائرة
	٢	من طراز اميلاكابل	٢٣ ألف طن	٤٠ طائرة

	٣	مختلفة ايجل ـ هيرمس ارك رويال	أوزانها بين ١٠	و ٢٢ ألف طن
طراد ثقيل				
	٧	من طراز كنت	٩٫٨ ألف طن	
	٤	من طراز لندن	٩٫٨ ألف طن	
	٢	من طراز نورفولك	٩٫٨ ألف طن	
	٢	من طراز يورك	٨٫٣٠٠ ألف طن	
السفن الأخرى				
	٧٣	طراد خفيف		
	١٧	مركب قيادة		
	١٨٧	نسافة ومركب حراسة		
	٧٢	غواصة		

وعدة سفن في الترسانات قيد التعمير ، وعدة سفن حربية قديمة اعتبرت طرادات احتياطية .

فرنسا

البوارج	٥	من طراز باريس (قديمة)	٢٢ ألف طن	
	٢	من طراز دونكرك	٢٦٫٥ ألف طن	
	٢	من طراز ريشليو قيد التعمير	٣٥ ألف طن	٨ مدفع × ٣٨١ سرعة ٢٤ عقدة
حاملات الطائرات				
	١	بيارن	٢٢ ألف طن	٤٠ طائرة
	١	ناقلة طائرات كومندان تيست	١٠ آلاف طن	
الطرادات				
	٧	من طراز تورفيل	١٠ آلاف طن	
	١٢	من طراز لاموت بيكيه	٧ آلاف طن	
السفن الأخرى				
	٣٢	نسافة		
	٣٨	مدمرة		
	٧٧	غواصة أكثرها صغير وقديم		

الولايات المتحدة

البوارج				
	١	من طراز اركنساس	٢٦ ألف طن	١٢ مدفع × ٣٠٥ سرعة ١٩ عقدة
	١	من طراز نيويورك	٢٧ ألف طن	١٠ مدفع × ٣٥٦ سرعة ٢٠ عقدة

٢	من طراز نيفادا	٢٩ ألف طن	١٠ مدفع × ٣٥٦	سرعة ٢٠ عقدة
٢	من طراز اريزونا	٣٣ ألف طن	١٢ مدفع × ٣٥٦	سرعة ٢١ عقدة
٣	من طراز نيومكسيكو	٣٣ ألف طن	١٢ مدفع × ٣٥٦	سرعة ٢١ عقدة
٢	من طراز كاليفورنيا	٣٢ ألف طن	١٢ مدفع × ٣٥٦	سرعة ٢١ عقدة
٣	من طراز كولورادو	٣٢ ألف طن	٨ مدافع × ٤٠٦	سرعة ٢١ عقدة
٦	من طراز واشنطن	٣٥ ألف طن	٩ مدافع × ٤٠٦	سرعة ٢٧ عقدة
٤	من طراز ايوا	٤٥ ألف طن	٩ مدافع × ٤٠٦	سرعة ٣٣ عقدة

حاملات الطائرات

٢	من طراز لينكنسغتون	٣٣ ألف طن	٨٠ طائرة	سرعة ٢٤ عقدة
٢	من طراز انتروبرايز	٢٠ ألف طن	٨٠ طائرة	سرعة ٣٤ عقدة
١	من طراز رانجر	١٤٫٥ ألف طن	٨٤ طائرة	سرعة ٢٩ عقدة
٣	من طراز هوزيت	٢٠ ألف طن	٨٠ طائرة	سرعة ٣٤ عقدة

الطرادات

٢	من طراز بنياكولا	١٠ مدافع × ٢٠٣	سرعة ٣٢ عقدة
٦	من طراز اغوست	٩ مدافع × ٢٠٣	سرعة ٣٣ عقدة
٢	من طراز انديانابولس	٩ مدافع × ٢٠٣	سرعة ٣٢ عقدة
٧	من طراز استوريا	٩ مدافع × ٢٠٣	سرعة ٣٢ عقدة
١	من طراز ديشبتا	٩ مدافع × ٢٠٣	سرعة ٣٢ عقدة
٢٥	طراد خفيف مختلف		
٢٥٣	نسافة ومدمرة وسفينة حراسة		
١١٢	غواصة		

دول المحور

ألمانيا

البوارج

٢	من طراز شارنهورت	٢٦ ألف طن
٣	من طراز لوتزو	١٥ ألف طن
٢	من طراز بيمسارك	٣٥ ألف طن

الطرادات

٢	طراد ثقيل من طراز بلوش	١٣ ألف طن
٦	خفيف من طراز كونيفسبورغ	٦ آلاف طن
٤٦	مدمرة ونسافة	
٧٠	غواصة	

ايطاليا

البوارج

٤	من طراز كافور	٥ر٢٣ ألف طن
٢	من طراز ليتوريو	٣٥ ألف طن

الطرادات

٢	من طراز تورنتو	١٠ آلاف طن
٤	من طراز زارا	١٠ آلاف طن
١	من طراز بولزانو	١٠ آلاف طن
٢٦	طراد خفيف مختلف	
٦٩	نسافة	
٦١	مدمرة	
١١٩	غواصة	

اليابان

البوارج

٤	من طراز كونغو	٣٠ ألف طن
٢	من طراز قيسو	٣٠ ألف طن
٢	من طراز آيز	٣٠ ألف طن
٢	من طراز ناغاتو	٣٣ ألف طن
٢	من طراز ياماتو	٦٠ ألف طن

انتهتا مطلع عام (١٩٤٢)

حاملات الطائرات

١٢	حاملة من مختلف الأوزان	من ٢٩ ألف طن إلى ١٠ آلاف طن حتى ٦٠ طائرة
٥	ناقلات طائرات مختلفة	٥ر٧ ألف طن تحمل ٤٠ طائرة

الطرادات

٤	من طراز هوروتاكا	٧ آلاف طن
١٢	من طراز ناتي	١٠ آلاف طن
٢	من طراز تون	١٠ آلاف طن
٢٥	طراد خفيف مختلف	
١٢٧	نسافة ومدمرة	
٧٠	غواصة	

حواشي الباب الثاني

١٧ ــ كليمنصو جورج Clemenceau

(١٨٤١ ــ ١٩٢٩) رجل سياسة فرنسي، طبيب بشري انتخب نائباً، ورئيساً لبلدية باريس، كان يرأس المعارضة اليسارية الراديكالية، وعين وزيراً للداخلية عام (١٩٠٦)، عاد للمعارضة وأنشأ صحيفة الرجل الحر (١٩١٣) ثم عاد يرأس المجلس النيابي خلال سنين الحرب الأولى، وكان شديداً عاداه الكثيرون، وأبعد عن الرئاسة عام (١٩٢٠)، وانطوى على نفسه حتى مات. له عدة مؤلفات في القضايا السياسية.

١٨ ــ هاردينغ وارن غاماليل Harding

(١٨٦٥ ــ ١٩٢٣) سياسي أمريكي جمهوري انتخب رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة عام (١٩٢٠).

١٩ ــ منرو جيمس Monroe

(١٧٥٨ ــ ١٨٣١) سياسي أمريكي سيناتور، سفير في باريس، حاكم فرجينيا، رئيساً للجمهورية عام (١٨١٧ ــ ١٨٢٥).

٢٠ ــ برياند آريستيد Briand

(١٨٦٢ ــ ١٩٣٢) سياسي فرنسي اشتراكي (سكرتير الحزب الاشتراكي الفرنسي) نائب نادى

بفصل الكنيسة عن الدولة (١٩٠٥)، وأصبح وزيراً للثقافة العامة، وتولى ٢٣ مرة الوزارة و ١١ مرة رئاسة المجلس. عمل على تقارب فرنسي ألماني (١٩٢٦ حصل على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٢٦).

٢١ ــ كيلوغ فرانك بيلينغر Kellogg

(١٨٥٦ ــ ١٩٣٧) سياسي أمريكي حاز على جائزة نوبل للسلام عام (١٩٢٩)، مستشار دولة لحكومة الرئيس كوليدج (١٩٢٥ ــ ١٩٢٩).

٢٢ ــ موسوليني بنيتو Mussolini

(١٨٨٣ ــ ١٩٤٥) سياسي إيطالي ــ اشتراكي متطرف، رأس تحرير جريدة آفانتي Avanti، ثم رأس جريدة أخرى طرد من الحزب الاشتراكي جرح في الجبهة عام (١٩١٧). ثم عاد لنضاله وأنشأ الحزب الفاشي، وأصبح الرئيس (الدوتشي)، ووصل إلى الحكم بعد أن منحه الملك السلطة (١٩٢٢) فخنق كل معارضة، وحرّم الأحزاب وانقلب إلى ديكتاتور. وذاعت شهرته. عقد عالمياً عدة معاهدات مع الغرب ثم جنح كلية نحو هتلر، وعقد معه الحلف الفولاذي (١٩٣٨). أصيب بهزيمة في اليونان وأتت الحرب العالمية الثانية عليه بالويلات الكثيرة. طرد من الحزب بعد مؤتمر (١٩٤٣)، وقبض عليه بأمر من الملك، وأنقذه الألمان في ١٢ أيلول (١٩٤٣). وأعلن الجمهورية الاشتراكية الإيطالية في سالو تحت حماية الألمان وأعدم الكثير من زعماء الحزب الذين ناهضوه، ومنهم صهره شيانو وزير الخارجية. وبعد انحسار ألمانيا قبض عليه في ٢٧ نيسان (١٩٤٥) وهو يحاول الهرب إلى سويسرا، وأعدم مع عشيقته كلارا بيتاشي ٢٨ نيسان (١٩٤٥).

٢٣ ــ هتلر آدولف Hitler

(١٨٨٩ ــ ١٩٤٥) سياسي ألماني ابن جمركي نمساوي حاول دراسة الفنون فلم يفلح، وانتسب للجيش البافاري خلال الحرب الأولى، وجرح، ومنح وسام الصليب الحديدي. دخل عام (١٩١٩) حزب العمال الألماني اليميني المتطرف، وأزاح رئيس الحزب دريكسلر Drexler، وأخذ مكانه بعد أن سمى الحزب.. الحزب الوطني ــ الاشتراكي الألماني للعمل. ثار على الحكومة البافارية ٨ تشرين الثاني (١٩٢٣) أخفق وحكم عليه (٥) سنوات، لكن أزمة عام (١٩٢٩) أعادت للحزب اندفاعه ووصل (١٠٧) أعضاء نازيون للمجلس، رفض هتلر مركز مستشار (شانسولييه) عام (١٩٣٢)، وتقدم

لانتخابات الرئاسة وحصل على (١٣٫٤٠٠) مليون صوت. وقدر فون بابن بأن استغلال الحزب النازي ضروري فعينه مستشاراً لألمانيا ٣٠ كانون ثاني عام (١٩٣٤). وبعد حل المجلس النيابي وحريق الرايخستاغ حصل هتلر على كامل السلطة لمدة (٤) سنوات. وسيطر بعد أن أزاح المعارضين. وبعد موت هندنبرغ ضم جميع السلطات الخاصة بالرئاسة والمستشارية، وسمى نفسه فوهرر الرايخ. أقام بوليس الدولة الغستابو.. واستعد للحرب وخاضها وتعرض لمحاولة اغتيال في ٢٠ حزيران (١٩٤٤)، ثم انتحر في قبوه ببرلين ٣٠ كانون الثاني (١٩٤٥).

٢٤ ــ غورينغ هيرمان Goering

(١٨٩٣ ــ ١٩٤٦) ماريشال ألماني قاد عام (١٩١٨) التشكيل المطارد الجوي ريشتهوفن، وحصل على (٢٢) انتصاراً جوياً، دخل عام (١٩٢٢) الحزب النازي، وأصبح أحد أعوان هتلر، ووزيراً للطيران (١٩٣٣)، وقائداً أعلى للطيران الحربي الألماني ثم خلفاً لهتلر. قبض عليه بعد الحرب وحكم عليه بالإعدام في محكمة نورمبورغ كمجرم حرب، واستطاع الانتحار بالسم.

٢٥ ــ تشانغ تسولين Tchang Tso-lin

(١٨٧٣ ــ ١٩٢٨) ماريشال صيني حاكم لمنشوريا (١٩١١) احتل بكين (١٩١٨)، لكنه طرد منها عام (١٩٢٢) إلى منشوريا ثانية واستقل بها هناك وعندما انهزم (يوبي فاو) عاد فاحتل بكين ثانية (١٩٢٦ ــ ١٩٢٨) ثم مات اغتيالاً.

٢٦ ــ فنغ يوسيانغ Feng Yu-Siang

(١٨٨٠ ــ ١٩٤٨) جنرال صيني سمي بالجنرال المسيحي لاتباعه البروتستانتية، ثم حاول التقرب من الشيوعيين.

٢٧ ــ تشانغ ــ كاي ــ شيك Tchang-Kai Chek

(١٨٨٧ ــ ١٩٧٥) جنرال وسياسي صيني انضم إلى جيش الثوار عام (١٩١١)، ودرس في موسكو وأدار الأكاديمية الحربية في هوانغ بو، ثم تحول بعنف ضد الشيوعيين، وقطع علاقاته بالروس (١٩٢٧) واضطر إلى الالتجاء إلى الصين الشيوعية أمام زحف اليابانيين في منشوريا ثم استعاد مجد الصين خلال الحرب العالمية الثانية، لكن انتصار الشيوعيين دفعه إلى تايوان (فورموزا)، وأقام دولة هناك ثم انسحب من الحكم عام (١٩٥٠) وعاش في عزلة حتى مات في ٥ نيسان (١٩٧٥).

الباب الثالث

الحرب البحرية العالمية الثانية
١٩٣٩ — ١٩٤٥

الفصـــل الأول

التعـاون الفـرنسـي الانكليــزي
مـن أيلـول ١٩٣٩ حتـى حزيـران ١٩٤٠

١ ـــ السيطرة في البحار

اختفاء الأسطول التجاري الألماني

كانت أولى بوادر سيطرة الحلفاء في البحار هي آختفاء الأسطول التجاري الألماني . فحوالي (٥٠٠) مركب تصل حمولتها إلى (٥ر١) مليون طن تقريباً تلقت الأمر بتاريخ ٢٥ آب باللجوء إلى الموانىء المحايدة في جميع أصقاع العالم ، بعد أن نشطت البحرية الحليفة في صيد هذه المراكب منذ إعلان الحرب . وكانت النتيجة أن ضاع للألمان عدة سفن تجارية قنصت من قبل الحلفاء وشل أسطولها التجاري بالكامل .

نشاط بوارج الجيب الألمانية

في مطلع شهر تشرين الأول ظهرت البارجتان الألمانيتان الدوتشلاند ولوتزو في الأطلسي ، والبارجة غراف سبي في بحار الجنوب ومارست عمليات مهاجمة المراكب التجارية الحليفة واغرقت عدة سفن كان بعضها لدول محايدة ، ومركباً أمريكياً . وكان من المتعذر على الحلفاء إبطال عمل هذه البوارج نظراً لقوة تسليحها ، وسرعاتها العالية ومدى عملها الواسع النطاق . لذلك اضطروا لاتخاذ

ترتيبات سريعة وخاصة في توزيع بعض الوحدات البحرية على الطرق المطروقة لهذه البوارج فشكلت لهذه الغاية مجموعات هي

القوة ف	ومؤلفة من طرادين بريطانيين	للعمل في بحار الآنتيل .
القوة ك	ومؤلفة من أربع طرادات بريطانية	للعمل في شرقي الساحل الأمريكي الجنوبي .
القوة هـ	ومؤلفة من طرادين بريطانيين	للعمل قرب جنوب إفريقية .
القوة ي	ومؤلفة من طرادين بريطانيين	للعمل قرب جزيرة سيلان .
القوة ج	ومؤلفة من طراد وحاملة طائرات	للعمل في جنوب البحر الأحمر وقرب عدن .
القوة ق	ومؤلفة من طراد وحاملة طائرات	للعمل في جنوب البرازيل حتى جنوب إفريقية .
القوة ل	ومؤلفة من طراد وحاملة طائرات	لحماية قوافل الأطلسي .
القوة إكس	ومؤلفة من حاملة طائرات وطرادين فرنسيين	للعمل في غربي الساحل الافريقي حتى ممر جبل طارق .
القوة م	ومؤلفة من طرادين فرنسيين	للعمل أيضاً في غربي الساحل الإفريقي .

وكان واجباً على تلك التشكيلات البحث عن بوارج الجيب الألمانية وتدميرها في جميع البحار ، أما بالنسبة لنشاط المراكب الألمانية فقد عادت اللوتزو إلى ألمانيا ، بعد مدة وجيزة ، وبقيت الدوتشلاند والغراف سبي في الأطلسي ، وقد أغرقت الغراف سبي لوحدها عشرة مراكب تجارية حليفة خلال الأشهر الثلاثة الأولى من الحرب .

معركة لابلاتا ونهاية الغراف سبي

في ١٢ كانون الأول (١٩٣٩) شوهدت بارجة الجيب الألمانية غراف سبي أمام نهر لابلاتا (وهو نهر في الأرجنتين وعلى الحدود مع أورغواي) من قبل القوة (ك) والمؤلفة من ثلاث طرادات

إنكليزية الاكستر (٨٣٩٠) طن (٦) مدافع (٢٠٣) ملم وسرعة (٣٢) عقدة الأجاكس وآشيل طرادان متشابهان (٧٠٠٠) طن (٨) مدافع عيار ١٥٢ ملم سرعة ٣٢٫٥ عقدة.

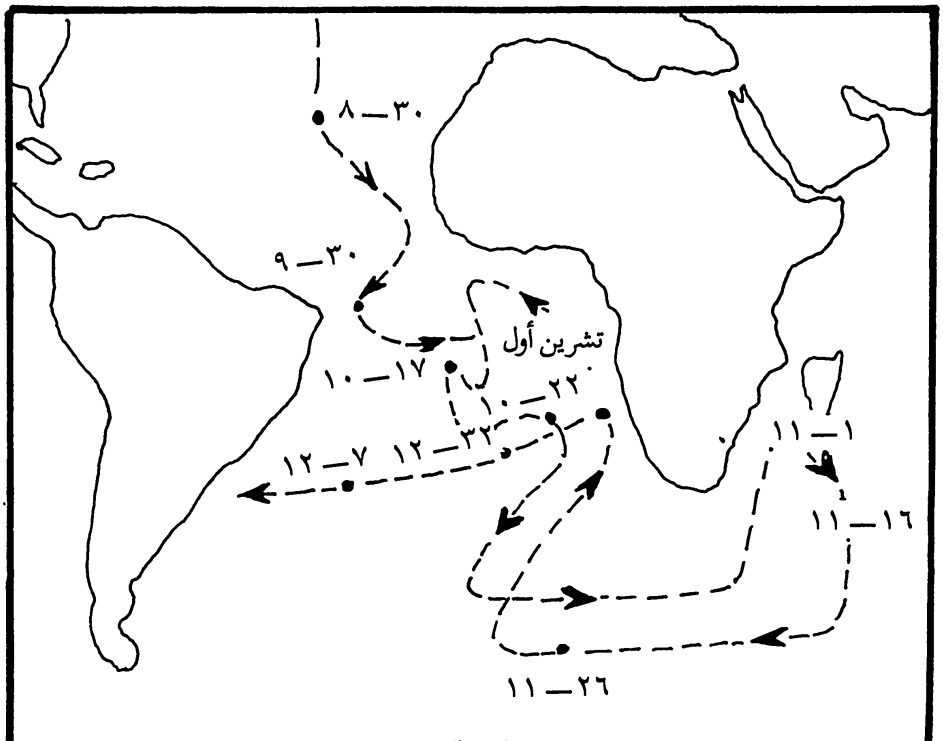

رحلة غراف سبي وإغراق عشر سفن

اشتبكت هذه المجموعة بمعركة مع البارجة غراف سبي (وزنها ١٥ ألف طن ٦ مدافع عيار ٢٨٠ ملم و ٨ مدافع عيار ١٥٠ ملم سرعتها ٣٢ عقدة) بمناورة أجبرت الطراد الألماني على توزيع نيرانه باتجاهات مختلفة. وبعد دقائق أصيبت الاكستر إصابات أخرجتها من المعركة، وأصيبت الاجاكس إصابات خطيرة، وانسحبت الغراف سبي من المعركة ودخلت ميناء مونتفيديو في الأرغواي المحايد.

لم تستطع البارجة الألمانية البقاء طويلاً في مونتفيديو، وأخرجتها السلطات بعد (٢٤) ساعة. وقد خدعت بمعلومات خاطئة أعلنها الحلفاء، وتفيد عن صول قطع حربية بريطانية هامة

جاءت لإغراق البارجة الألمانية حال خروجها من الميناء. كانت أوامر الفوهرر الالتجاء إلى بونس آيرس أو تدمير الغراف سبي كاملاً، وبالفعل قام قائدها بإغراقها وتدميرها أمام مونتفيديو بتاريخ ١٧ كانون الأول.

في الأطلسي

خرجت البارجتان شارنهورست وغنيزنو إلى الأطلسي وأغرقتا بتاريخ ٢٨ تشرين الأول ١٩٣٩ الطراد البريطاني راوال باندي بين إيسلنده وإيرلندة.

الاستراتيجية (السوقية) للبحرية الألمانية

كانت البحرية الألمانية عام (١٩٣٩) غير مستعدة تماماً، وأُخذت بإعلان الحرب عليها، حيث إن تعمير سفنها لم يكن قد قطع شوطاً كبيراً. وبافتراض أن جميع سفنها كانت جاهزة، فإنها

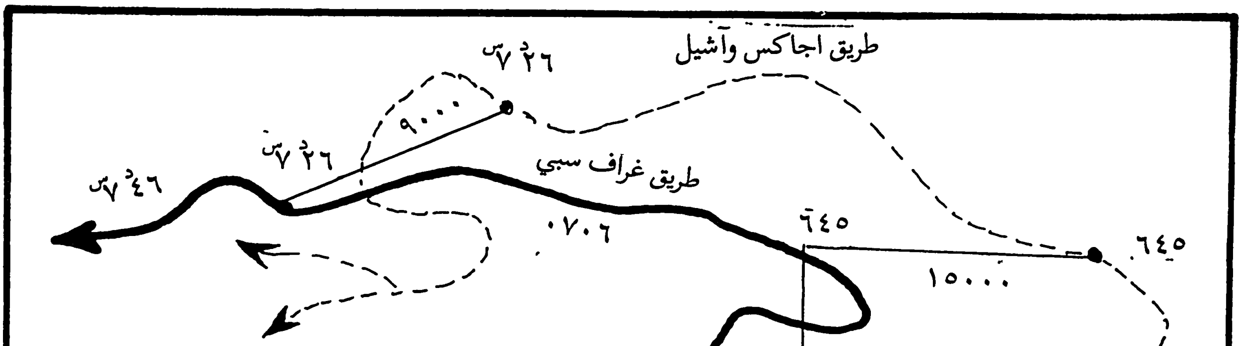

معركة نهر لابلاتا ١٣/١٢

لا توازي ثلث البحرية البريطانية آنذاك. وقد صرح الأميرال دونيتز[٢٨] قائد **سلاح الغواصات** الألماني بقوله:

«لا أملك في الحقيقة إلا (٤٢) غواصة ذات قيمة عسكرية فعالة».

أما هتلر فقد بدا لأول وهلة مهتماً برفع مستوى القوات البحرية الألمانية. ولكنه كان يجهل بالطبع ما يحتاجه ذلك من جهد طويل، مستنداً على سياسة بحرية متطورة، ويعتقد أنه كان سيعمل على تعمير أسطول بحري حديث لو لم يتلكأ قليلاً، عندما عرف أن إنكلترا نفسها لم تجدد في بحريتها، وأن أسطولها لا يحتوي إلا على بارجتين حديثتين هما رودني ونلسون، وأنها منصرفة إلى بناء طرادات حديثة فقط من طراز واشنطن، والتي اعتبرت فاشلة وليست ذات قيمة بحرية عالية، كما كان مقدراً لها. أضف إلى ذلك أن هتلر دوهم بالزمن ولم يجد الوقت اللازم لتحقيق فكرته. ومما يؤكد رغبته في توسيع أسطوله قوله في ٢٣ أيار (١٩٣٩) «لو أننا ملكنا خلال الحرب العالمية الأولى بالإضافة إلى أسطولنا بارجتين وطرادين، ولو أن معركة جوتلاند بدأت منذ الصباح (قبل تجمع الأسطول البريطاني، ومعناه ملاقاة مجموعاته إفرادياً) لانهار أسطول بريطانيا، ولركعت مستسلمة في اللحظة التي تنقطع عنها كل مواردها من تموين وعتاد ومحروقات عبر البحار».

في عام (١٩٣٥) تضمن برنامج التعمير الألماني للسنوات العشر القادمة بناء (١٣) بارجة (٢٠) طراداً، ٢ حاملة طائرات، (٢٥٠) غواصة، بحيث إن هذا الأسطول وبالتعاون مع أسطولي اليابان وإيطاليا يستطيع بثقة دحر الأسطول البريطاني وإنهاء أسطورة سيادة بريطانيا البحرية، وقطع الإمدادات عن الجزر البريطانية، وبصورة أوضح عزل بريطانيا واجبارها على التسليم (من مذكرات الأميرال ريدر[٢٩] بتاريخ ٣ أيلول ١٩٣٩).

أضاعت ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى فرصاً ذهبية نتيجة تمسكها بعقيدة متزمتة واستراتيجية بحرية خاطئة ساجنة نفسها في جنوب بحر الشمال..

لقد لمست هذه الحقيقة من خلال الدراسات التي قام بها الأميرال البريطاني كاستكس في موضوع الحرب البحرية خلال الحرب العالمية الأولى، وانتقاداته للبحرية البريطانية حول سوء

استخدام الأسطول البريطاني لدولة مثل بريطانيا قوية بحراً، ضعيفة نسبياً براً. ونتيجة للدراسات العميقة استنتجت ألمانيا النقاط التالية:

ــ تحديد العوامل الاستراتيجية، الجغرافية، والسياسية والطرق الواجب اتباعها لتحقيق أهدافها.
ــ دراسة القواعد السياسية في كل من (النرويج، الدانمارك، هولندا وأوربة الغربية).
ــ اتباع سياسة الحرب الاقتصادية.
ــ استغلال المساعدة التي يمكن أن يقدمها الموالون في الدول الأخرى (الطابور الخامس).
ــ تطوير سفن القتال الحديثة بزيادة امكانياتها الهجومية.
ــ إقامة تعاون وثيق مع أسطول إيطاليا.

وبتحقيق هذه النقاط تستطيع ألمانيا إقامة توازن في القوى، ثم سيطرة في البحار، ومن ثم حرمان بريطانيا من مواصلاتها البحرية.

من المؤكد أن تطور السلاح البحري كان له أهميته البالغة، فقد امتلكت ألمانيا سفن سطح سريعة حديثة، وذات صفات تعبوية عالية. ثم طورت سلاح غواصاتها بخطوات سريعة، أقامت تعاوناً وثيقاً بين سلاح البحر وطيرانها الحربي الجبار آنذاك. وقد أعطت هذه الخطوات نتائج باهرة في مطلع الحرب، إلا أن الذي أعاق ألمانيا في مثابرتها، وكما ذكرت سابقاً، ضعف قواتها البحرية عددياً، **إذ إن إعلان الحرب جاء قبل أوانه، وعلى غير ما قدرته ألمانيا، مما اضطرها إلى اتباع استراتيجيتها العامة في الحرب الأولى نفسها**، فكما حصل في الحرب العالمية الأولى تكرر في الحرب العالمية الثانية إذ اعتمدت ألمانيا على قواتها البرية، حيث أخرجت فرنسا منكسرة بعد عدة أسابيع من بدء القتال، ثم اجتاحت بلجيكا بحرب صاعقة، وقصف جوي مر. واندحرت القوات البريطانية إلى جانب حلفائها في القارة الأوربية، وانسحبت إلى جزرها. وكان على ألمانيا غزوها في عقر دارها، ولكن **أين ذلك الأسطول الكبير الذي سيؤمن نقل القوات الألمانية النازلة وحمايتها، خصوصاً وإنكلترا ثبتت بعناد وتستعد لمعركة مصيرية.**

٢ ــ تطور فكرة الألمان في الحرب البحرية

الألغام المغناطيسية

كان مبدأ الألغام المغناطيسية معروفاً لدى الطرفين المتحاربين إلا أن الألمان استخدموه بشكل

جيد، إذ ابتكروا نوعاً غريباً من الألغام، ترقد على سطح قعر البحر، وتنفجر بعوامل عدة كانت مجهولة للحلفاء. ونتج عن هذه الألغام الجديدة خسائر جسيمة. وكانت يمكن أن تكون أكثر فداحة لو أن الألمان استخدموا هذا السلاح على نطاق أوسع. ولحسن حظ الإنكليز أنهم استطاعوا التقاط لغمين قبل أن ينفجرا، وأجروا عليهما دراسة توصلوا بها لحل اللغز. وسرعان ما كافحوه بطرق مختلفة منها رفع مغناطيسية المراكب (باحدات دارة كهربائية مضادة على السفينة بحيث تبطل تأثيرات الكتلة المعدنية للمركب، ومغناطيسيتها) وابتكار أجهزة كسح كهربائية ناجعة.

حرب الغواصات

دخلت ألمانيا الحرب وهي تملك (٧٠) غواصة منها (٥٠) فقط قادرة على القيام بعمليات حربية. وباشرت هذه الغواصات عملها منذ البداية. ففي تاريخ ٣ أيلول (١٩٣٩) أغرقت الغواصة يو ٣٠ سفينة الركاب آثينا، وفي ليل ١٣ ، ١٤ من الشهر العاشر اخترقت غواصة ألمانية ممر سكابافلو شمال إنكلترا، وأغرقت بأربعة طوربيدات البارجة الإنكليزية الرويال اوك (٢٩ر١٥٠) طن، وفي ١٢ تشرين الأول أغرقت ناقلة البترول اميل ميجيه جنوب إيرلندة، وخلال التسعة أشهر الأول من الحرب استطاعت الغواصات الألمانية إغراق (٩٠٠) ألف طن من مراكب الحلفاء.

٣ ــ غزو النرويج

كان موقف الحلفاء في بداية الحرب العالمية الثانية ضعيفاً نسبياً على حين استعدت ألمانيا للقيام بحرب خاطفة قبل أن يستطيع الحلفاء تحسين وسائطهم الدفاعية، وبالتالي الهجومية. وقد جاء في مذكرات تشرشل بأنه فتش عن حلول فوجد خمسة تستطيع مجابهة الموقف العصيب وقد تبنى أحدها وهو:

زرع حقول ألغام كثيفة في المياه النرويجية لقطع خطوط مواصلات الألمان، وخاصة ما يرد من الدول الاسكندنافية.

كان هذا الإجراء صحيحاً في منع الألمان من استخدام المياه النرويجية شتاء فقط، أما صيفاً فكان الإمداد يأتيها عن طريق بحر البلطيق.

تعاونت بريطانيا وفرنسا في عملية زرع الألغام المشار إليها بوساطة السفن في المياه النرويجية والطائرات في الممرات الإجبارية لسفن إمداد المحور.

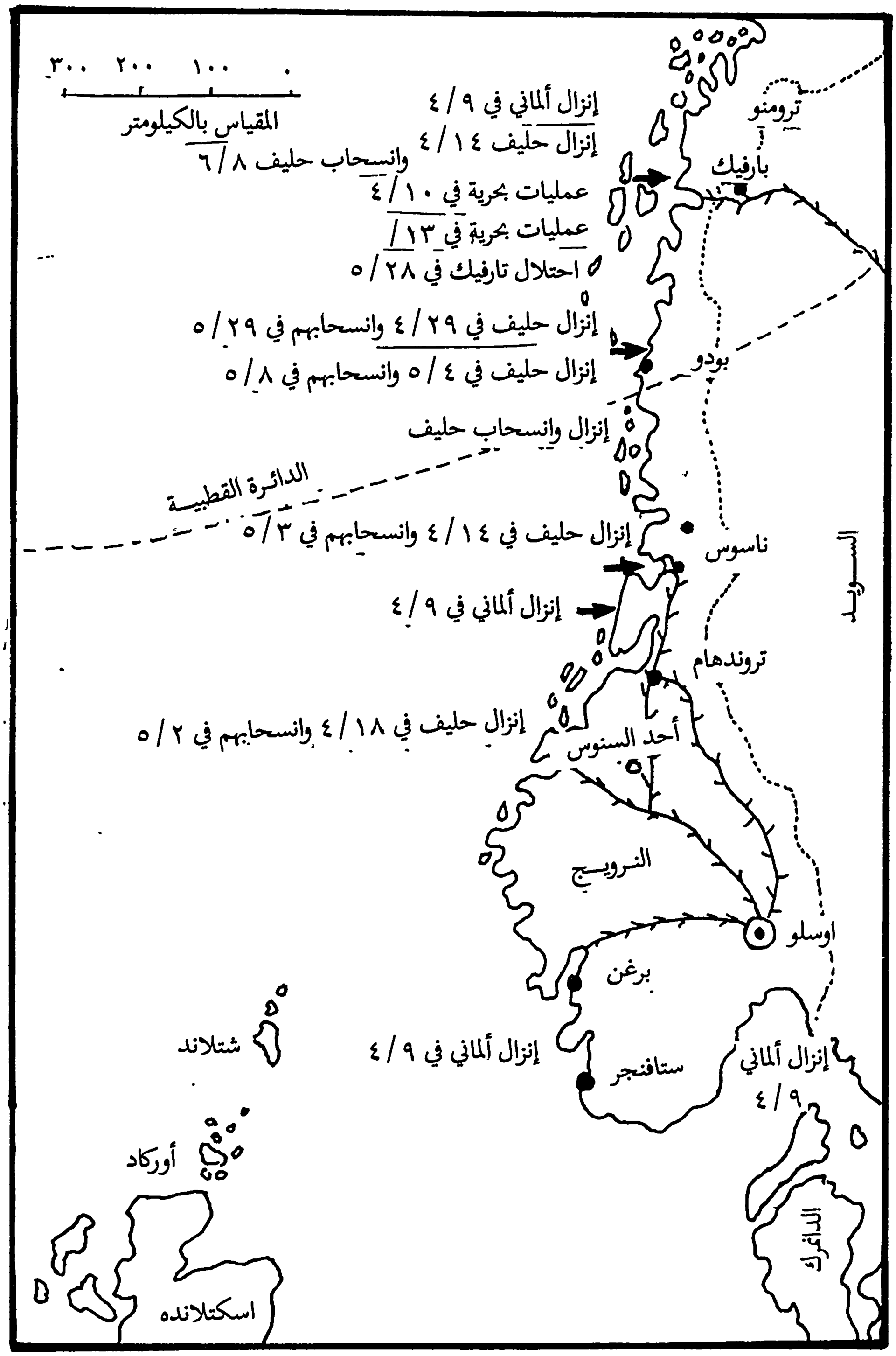

عمليـات النـرويـج

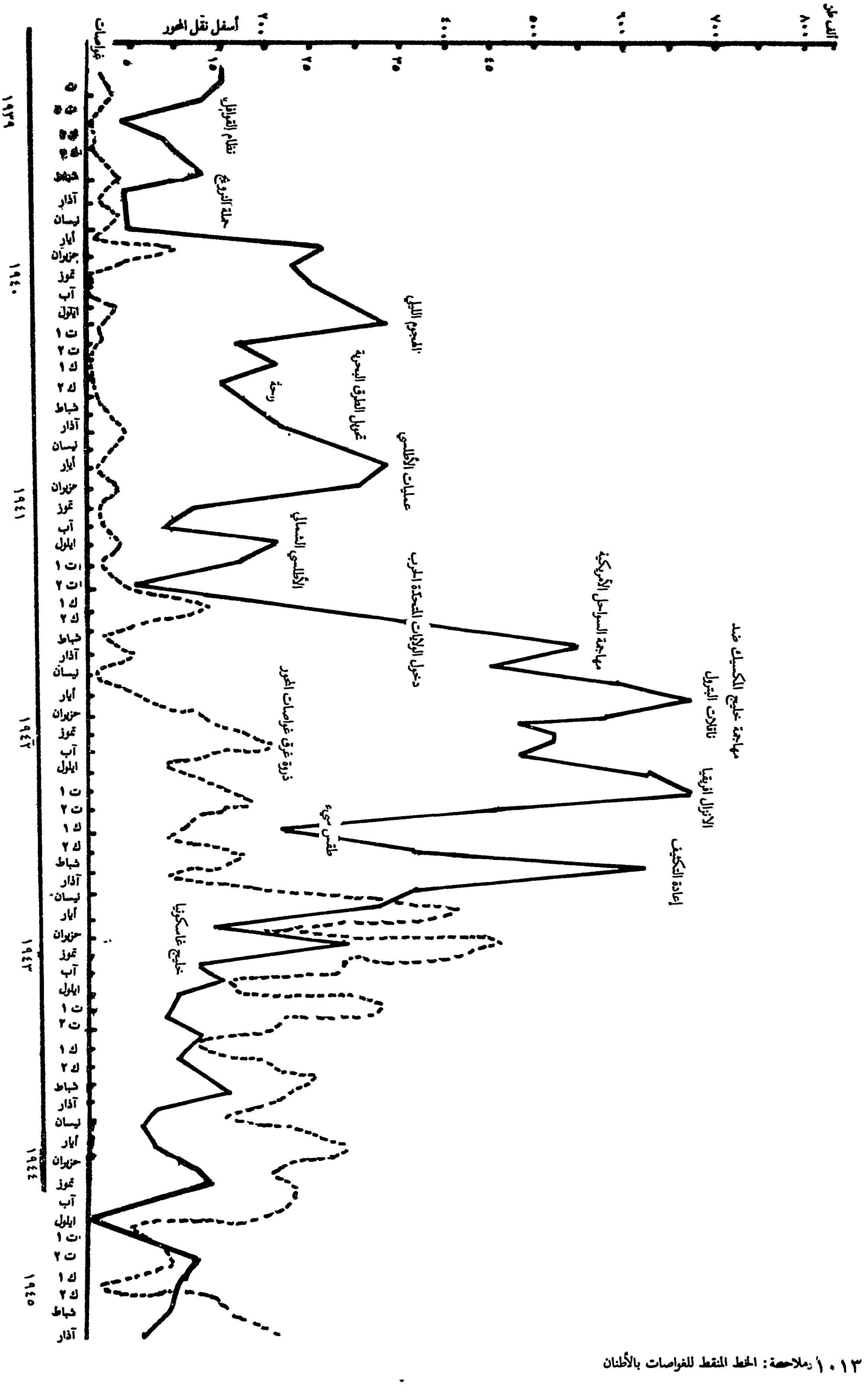

ملاحظة: الخط المنقط للغواصات بالأطنان

عندما شعرت ألمانيا بهذا الإجراء، وكانت قد عانت من حصار مماثل في الحرب العالمية الأولى، استعدت لمعالجته .. وضمنت الحل في الخطة الجديدة التي أطلقت عليها خطة **ويسيروبنغ**. وخلاصتها أن مثل هذا الحصار البحري يفقد أهميته فيما لو استطاعت ألمانيا استخدام سواحل النرويج المفتوحة على البحر كقواعد هجوم بالنسبة للجزر البريطانية.

وبالفعل اتخذ هتلر قراره بغزو سواحل النرويج ونفذ الغزو حيث تم الإنزال في ٩ نيسان (١٩٤٠) بقوات برية محموله على سفن حربية سريعة، وسفن إمداد تجارية تمر خفية لإمداد القوات النازلة في كل من برغن، تروندجيم، ونارفيك.

تفصيل عمليات النرويج

تحركت القوات الألمانية نحو سواحل النرويج بمنتهى السرية، وحملت القوات النازلة على السفن الحربية، ففي الشمال وخلال عاصفة ثلجية وصلت (١٠) مدمرات ألمانية تحمل القوات النازلة في نارفيك وفي مشارف المدينة أغرقت هذه المجموعة سفينتين من سفن الحراسة الشاطئية ثم أتمت عملية الإنزال بنجاح ..

غطيت عملية نارفيك بالبارجتين الألمانيتين شارنهورست وغينزنو. وكانت المهمة المعطاة لقوات التغطية حماية مجموعة نارفيك من الشمال، ومن تسلل أي وحدات إنكليزية للمنطقة. وقد اشتبكت الشارنهورست بالبارجة الإنكليزية **رينون** في عرض جزر **لوفوتن** النرويجية (الجزر المقابلة لنارفيك)، وانسحبت البارجة الإنكليزية بعد إصابتها.

بتاريخ ١٠ نيسان أي صباح اليوم التالي للإنزال قامت بضع مدمرات إنكليزية بمهاجمة مجموعة نارفيك، واستطاعت إغراق بضع مدمرات منها، وغرق للإنكليز مدمرتان.

وبتاريخ ١٣ نيسان قامت المجموعة الإنكليزية نفسها بمساندة البارجة **وارسبيت** (٣٠٫٦٠٠) طن، وحاملة الطائرات **فيريوس** (٢٢٫٤٥٠) طن بمهاجمة بقية سفن مجموعة **نارفيك**، واستطاعت إغراق جميع المدمرات الألمانية المتبقية من هذه المجموعة وغواصة، وقد أضاع الإنكليز مدمرتين وعدة طائرات. وسنرى لاحقاً كيف ثأرت الشارنهورست لمجموعة **نارفيك بإغراق حاملة الطائرات** الإنكليزية **غلوريوس**.

جرت عملية الإنزال في تروندجيم بسهولة وكانت غاية الألمان احتلال هذه المدينة لوجود

عقدة الشبكة الحديدية النرويجية فيها، وباحتلالها تمّ فصل شمال النرويج عن جنوبه والسيطرة على الخط الحديدي الرئيسي الذي يصل الساحل النرويجي بالسويد.

خصصت لعملية الإنزال تروندجيم مجموعة هيبر، يضاف عليها (٤) مدمرات وزن الواحدة (١٦٢٥) طناً، ولم يعترض هذه المجموعة أية مقاومة فعلية. وتم الإنزال في ٩ نيسان بنجاح، إلا أن ١٣ سفينة حربية نرويجية مختلفة استطاعت النجاة، والالتجاء إلى السواحل البريطانية، دون أن تبدي أية مقاومة في منع الإنزال الألماني.

في إنزال برغن تصدت المدفعية النرويجية الساحلية إلى المجموعة الألمانية المؤلفة من الطرادين **كولن وكونسيبرغ** وعدة مرات، وتم الإنزال بنجاح وأصيبت الكونسيبرغ وانسحبت فهاجمها الطيران الانكليزي وأغرقها.

في أوسلو أغرقت المدفعية الساحلية النرويجية الطراد الألماني **بلوخر** (١٣) ألف طن وأصيب الطراد الخفيف كالسروه (٦) آلاف طن بطوربيد من غواصة إنكليزية.

نجح الإنزال الألماني في النرويج إلا أن خسائرهم البحرية كانت كبيرة بالنسبة لضعف عدد سفنهم الحربية. ولقد حاول الحلفاء استعادة بعض النقاط على الساحل النرويجي بعمليات بحرية أو عمليات إنزال خفيفة نعدد منها:

١ ــ إغارة الطرادات الفرنسية الخفيفة **اندومتابل، المالان، والتريومفان** على ممر سكاجيراك بتاريخ ٢٣ ــ ٢٤ نيسان (١٩٤٠).
٢ ــ إغارة مجموعة **تارتو** الفرنسية تعاونها المالان، والشوفالييه بول على الساحل النرويجي الغربي قرب برغن.
٣ ــ نشاط الغواصات الفرنسية المتمركزة في هارويش ودونذز.
٤ ــ إنزال حليف في ١٤ نيسان قرب نارفيك، ثم انسحاب القوات دون إحراز أي نجاح.
٥ ــ إنزال حليف في ٢٩ نيسان قرب مدينة بودو النرويجية، دون إحراز أي نجاح.
٦ ــ إنزالات حليفة خفيفة في عدة نقاط على الساحل، ثم انسحاب سريع دون إحراز أية نتائج هامة. ولقد اضطرت جميع القوات الحليفة النازلة في النرويج إلى الانسحاب بعد تكبدها خسائر فادحة بالأرواح والعتاد، نتيجة قصف ألماني جوي شديد. وأخيراً قرر الحلفاء التنازل عن النرويج نهائياً. أما حكومة النرويج فلم تستسلم، وهربت إلى السويد، كما هرب كثير من

المقاتلين إلى إنكلترا، وبدؤوا تنظيم المقاومة الشعبية داخل بلادهم المحتلة؛ وفي ٨ نيسان قامت مجموعة شارنهورست غينزنو باعتراض مجموعة حاملة الطائرات الإنكليزية غلوريوس. وبعد معركة عنيفة أغرقت حاملة الطائرات مع عدة سفن من مجموعة حراستها. وهكذا ثأرت الشارنهورست لمجموعة المدمرات الألمانية في نارفيك التي استبسلت وغرقت جميعها في أثناء القتال في مياه النرويج الشمالية.

نتائج معركة النرويج

انتصر الألمان في معركة النرويج واحتلوا البلاد وأمنوا خطوط مواصلاتهم البرية في أراضي النرويج، وزادوا من حرية عمل سفنهم الحربية في شمال الأطلسي بسيطرتهم على عدة قواعد بحرية هامة في الشمال. ويرجع الفضل في هذه العملية إلى استبسال بحري فريد لم تعرفه ألمانيا خلال جميع معاركها البحرية، وإلى دعم جوي جبار كان له كبير الأثر في إبادة القوات الحليفة النازلة وإغراق الكثير من وسائطها البحرية.

وصف تشرشل حملة النرويج بمذكراته **بخطيئة استراتيجية كبيرة للألمان نظراً للخسارة البحرية الكبيرة التي تكبدوها، ولكن لم يشاركه هذا الرأي الكثيرون. وإلا فما هي الدوافع التي جعلت الحلفاء يحاولون مراراً استعادة سواحل النرويج، وتكبدهم في سبيل ذلك خسائر جسيمة في الأرواح؟** وفي الحقيقة فقد كان **لسيطرة ألمانيا على هذه المنطقة أثر فعال في إدارة معركة الأطلسي، حيث أفقدت الحلفاء سيطرتهم البحرية في بحر الشمال لامتلاك ألمانيا قواعد جوية هامة تغطي المنطقة، وتستطيع قصف الجزائر البريطانية من أقصاها إلى أدناها بسهولة.. والأهم** من ذلك كله إبطال فكرة **حصر ألمانيا داخل بحر البلطيق، وهي إحدى مقترحات تشرشل السابقة، إذ خرجت ألمانيا باحتلالها سواحل النرويج من كل محاولة مماثلة.**

٤ ـ الهجوم الألماني في الجبهة الغربية ومعركة دونكرك

في صباح ١٠ مايس ابتدأ الهجوم الألماني الصاعق على حدود كل من هولندا بلجيكا، ولوكسمبورغ، وتم الخرق في الآردن، وعزل الجناح اليساري الحليف عن قلب القوات المتمركزة في بلجيكا، مما اضطر الحلفاء إلى الانسحاب سريعاً نحو البحر. وقد طلب من القوات الحليفة بمساندة الوحدات البحرية المحافظة على رأس جسر في دونكرك لإتمام عملية الانسحاب وإصعاد القوات لنقلها إلى إنكلترا.

تعد عملية الانسحاب من دونكرك من أقسى العمليات الحربية التي تعرض لها الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية. واستطاع الأسطول بمعاونة عدة مئات من المراكب الصغيرة نقل (٢٤٤) ألف مقاتل إنكليزي و (١١١) ألف مقاتل فرنسي. وكانت بسالة رجال البحر الحليف خارقة في عمليات إصعاد ونقل المقاتلين.

كانت خسائر الحلفاء فادحة بالأرواح والعتاد والقطع البحرية، وخاصة أسطول فرنسا. وبتاريخ ٢٦ حزيران وصل الألمان إلى مدينة بايون في جنوب فرنسا، وسيطروا على شواطىء تمتد من شمال النرويج شمالاً وحتى جبال البيرنيه (الحدود الفرنسية الإسبانية) جنوباً.

خسر الفرنسيون العديد من قطعهم البحرية فأصيبت **الدونكرك**، وغرقت كل من **الادروا**، **الشاكال الأوراج** ... الخ. واستطاع بعضها الهرب واللجوء إلى الجزر البريطانية أو القارة الإفريقية **كالريشيليو**، **والجان بار**.

٥ ــ البحرية الفرنسية في البحر الأبيض المتوسط

دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب الألمان في ١٠ حزيران عام (١٩٤٠)، وقامت الغواصات الإيطالية ببعض النشاط. إلا أن الأسطول البحري لم يشترك فعلياً في المعركة البحرية، وظلت السيطرة البحرية للحلفاء فقامت مجموعات من القطع البحرية الفرنسية بضرب جنوه في ١٤ حزيران، وقام الطيران البريطاني الفرنسي بضرب القطع البحرية الإيطالية التالية.. **تريبولي**، **كاغلياري**، **تراباني**، **ليفورن**، **سبيزيا** إلا أن انهيار الجبهة البرية الفرنسية واندحار فرنسا، أضعف موقفها البحري في المتوسط. وبذلك تكون إيطاليا قد كسبت المعركة البحرية في المتوسط دون قتال.

الفصـــل الثانـــي

المقاومـة الإنكليزيـة
مـن حزيـران ١٩٤٠ وحتـى كانـون الأول ١٩٤١

الهدنة مع فرنسا ونتائجها :

إن توقيع الهدنة بين فرنسا وألمانيا معناه بقاء إنكلترا لوحدها في المعركة، إضافة إلى أن ظروف بريطانيا العامة سيئة للغاية. ومن المشاكل الهامة التي أقلقت الحلفاء مشكلة أسطول فرنسا المستسلمة. هل سيتابع هذا الأسطول القتال إلى جانب الحلفاء أم سينضم إلى ألمانيا؟ علماً بأن هتلر عرض على فرنسا من جملة شروطه الشرط التالي :

«قدموا لي أسطولكم البحري فادع لكم الألزاس واللورين». وكان معنى هذا العرض مضاعفة قوة ألمانيا البحرية خاصة وهتلر يفكر جدياً في غزو الجزر البريطانية، بعد نجاح غزو النرويج، والسيطرة على أورية الغربية بكاملها. إن عرض هتلر على فرنسا تهديد أكثر منه عرضاً إذ أضاف «**في حال عدم تسليم الأسطول سيضطر إلى تدمير المدن الفرنسية بالطائرات**».

في ١٦ حزيران أرسلت بريطانيا إلى سفيرها في فرنسا برقيتين تذكره فيهما بالاتفاق المشترك الذي يمنع من إقامة صلح منفرد مع ألمانيا. وإن كان لا بد من هذا الصلح فعلى الأسطول الفرنسي الاتجاه فوراً إلى الموانىء البريطانية.

إن مصير الأسطول الفرنسي يقلق كلاً من بريطانيا والولايات المتحدة على السواء، حتى إن روزفلت[٣٠] أبلغ فرنسا بأن عليها التأكد من عدم وقوع الأسطول الفرنسي بيد الأعداء، وإلا فستضطر الولايات المتحدة لاتخاذ خطوات إيجابية في هذا الصدد، وضد الإمبراطورية الفرنسية عبر البحار (المستعمرات). نتيجة لذلك أصدر الأميرال دارلان[٣١] أمره للأسطول بمتابعة القتال إلى جانب الحلفاء وحتى النهاية.

في الساعة ١٨ من تاريخ ٢٢ حزيران، وقعت إتفاقية وقف القتال بين ألمانيا وفرنسا، وتضمنت الاتفاقية الفقرة التالية:

«تتجمع كافة قطع الأسطول الفرنسي ــ ماعدا ماهو ضروري لخدمات فرنسا لمستعمراتها ــ في موانىء تحدد فيما بعد، ويرفع تسليحها كله بإشراف كل من من ألمانيا وإيطاليا.. وتتعهد ألمانيا بعدم استخدام هذا الأسطول طيلة فترة الحرب، شريطة أن تعود جميع القطع الفرنسية التي نصت عليها الاتفاقية والموجودة خارج البلاد إلى فرنسا نفسها لرفع تسليحها».

طبعاً لم يرق ذلك لبريطانيا والولايات المتحدة لعدم وثوقهما بتعهدات هتلر، وجرت اتصالات خفية مع فرنسا، وتم اتفاق سري على أنه في حال اخلال هتلر بشروط وقف القتال من ناحية استخدام الأسطول يقوم الفرنسيون بإغراق أسطولهم أو تهريبه إلى الولايات المتحدة.

تابع الإنكليز الحرب لوحدهم، وأعدوا خطة دعيت بخطة كاتابولت. وتضمنت تدمير قطع الأسطول الفرنسي وخاصة البارجتين دونكرك، واستراسبورغ الراسيتين في ميناء وهران، واللتين تعدان أقوى من البارجتين الألمانيتين شارنهورست وغينزنو.. إلا أن افتقار بريطانيا للبوارج والعمارات الكبيرة في عام (١٩٤٠) جعلها تتباطأ في تنفيذ الخطة. ويؤكد ذلك قول تشرشل «إنه أكره أمر أصدرته حتى الآن» وهو يعني خطة تدمير أسطول فرنسا.

استولى البريطانيون بالفعل على جميع القطع الفرنسية الموجودة في الموانىء البريطانية، وهاجموا أسطول فرنسا في مرسى الكبير بتاريخ ٣ تموز بعد أن رفض الأميرال جانسول[٣٢] العرض المقدم له للحاق بالقوات البريطانية، أو اللجوء إلى الولايات المتحدة. وأغرقت البارجة الفرنسية بروتانيا، وعطلت كل من البروفانس والدونكرك. ونجت استراسبورغ، حيث استطاعت الوصول إلى ميناء

طولون الفرنسي . كانت القوة البريطانية التي هاجمت المرسى الكبير مؤلفة من البوارج **هود** ، **فاليانت** ، ريزولوشن ، وحاملة الطائرات ارك رويال .

بعد حادث المرسى الكبير تم الاتفاق مع باقي قادة البحر الفرنسيين الموجودين خارج فرنسا على اللحاق بالقوات الفرنسية الحرة . وبدأت نواة أسطول فرنسا الحرة تتشكل في بريطانيا ماعدا أسطول دكر ، حيث رفض قائد هذا الأسطول عرض الجنرال ديغول[٣٣] بالانطواء تحت لوائه ، واشتبكت قوة دكر البحرية مع قوة إنكليزية فرنسية في صباح ٢٥ أيلول بمعركة حامية ، وكانت القوة المهاجمة مؤلفة من البارجتين الإنكليزيتين بارهام ، والروزليوشن ، وحاملة الطائرات آرك رويال و (٤) طرادات و (٦) مدمرات وثلاث نسافات فرنسية ، تابعة لفرنسا الحرة . وكانت نتيجة المعركة في غير صالح الحلفاء ، إذ أصيبت كل من بارهام والريزوليشن ، وغرق لفرنسا الحرة النسافة اوداسيو والغواصتين بيرسيه ، وأجاكس ، وبقيت دكر تلعب دوراً هاماً في معركة الأطلسي .

تطور سياسة أمريكا حيال الخطر الألماني

شعرت الولايات المتحدة أن بريطانيا لن تستطيع الوقوف طويلاً لوحدها ، فبدأت منذ حزيران عام (١٩٤٠) في إعادة تنظيم قواتها المسلحة ، وصادرت المعامل والمصانع وجندتها للإنتاج الحربي ، وعقدت اتفاقية مع بريطانيا في ٢ أيلول (١٩٤٠) تعهدت بريطانيا بموجبها السماح للولايات المتحدة بإقامة قواعد بحرية أمريكية على أراضي الإمبراطورية البريطانية ، وفي الأطلسي ، والأرض الجديدة ، وبرمودا ، وباهاما ، وجامايك ، وسانت لوسي ، والترينيداد ، وغينيا ، مقابل الحصول على (٥٠) مدمرة أمريكية ، وتبع هذه الاتفاقية اتفاقية أخرى في ١١ آذار (١٩٤١) تعهد روزفلت فيها تقديم المساعدة الحربية والمالية لجميع الدول المهددة بالغزو الألماني ، كما تعهدت الولايات المتحدة بحماية الطرق البحرية بسفنها الحربية ، وألحق بهذا الاتفاق بنود أخرى هي :

- إيجاد قواعد بحرية أمريكية في غروئنلاندة وفي إيسلندة .
- تجميد الأموال الألمانية والإيطالية في الولايات المتحدة في ١٤ أيار (١٩٤١) .
- حماية خطوط المواصلات البحرية في حدود دكر ـــ الجزائر الخضراء ـــ غروئنلاندة ، وإيسلندة .

وفي ١٤ آب (١٩٤١) تم لقاء بين تشرشل وروزفلت على البارجة برنس اوف ويلز ، ووضعت خطة الدفاع عن الأطلسي ، وفي ٣١ تشرين الأول (١٩٤١) غرق للولايات المتحدة أول المراكب الحربية ، وهي المدمرة روبان جمس ، وهي تقوم بحماية قافلة مراكب ، وأخيراً وفي ٧ كانون

الأول (١٩٤١) حدث هجوم بيرل هاربور الشهير . وكان ذلك إشارة بدء العمليات الحربية ضد اليابان وألمانيا ، ودخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء .

معركة الجزائر البريطانية

فكر هتلر في غزو الجزائر البريطانية بعد انهيار الجبهة البرية السريع في فرنسا .. ولو فعل ذلك مستغلاً ضعف القوات الإنكليزية المدافعة ، وعدم إمكانية الأسطول الإنكليزي تقديم أي دعم إلى القوات البرية لكان قد تغير وجه الحرب خصوصاً والطيران الألماني مسيطر سيطرة كاملة . في الحقيقة وضعت خطة غزو الجزائر البريطانية ، ولم يبق إلا مراحل التنفيذ . لكن هتلر أحجم في اللحظة الأخيرة وأرجأ العملية إلى العام الذي يليه ، منتظراً استسلام بريطانيا لوحدها بعد انهيار حليفتها الكبرى فرنسا . هذا من جهة ومن جهة أخرى كان يتوقع الإخفاق لمثل هذا الغزو ، نظراً لضعف وسائط الإنزال البحرية ، وعدم إمكانية الأسطول الجوي من تقديم المساعدة الفعالة في إنزال جوي كبير ، إلى جانب الإنزال البحري المقرر لذلك ..

مراحل تحضير عملية غزو الجزائر البريطانية ومراحل التنفيذ التي لم تتم :

آ ــــ من ٨ إلى ١٨ آب مهاجمة القوافل الحليفة ، وضرب الموانىء والمطارات جنوب إنكلترا . خسرت ألمانيا (٦٩٧) طائرة وخسرت بريطانيا (١٥٣) طائرة .

ب ــــ من ١٩ آب إلى ٥ أيلول ضرب المطارات الداخلية على الجزيرة البريطانية . خسرت ألمانيا (٥٦٢) طائرة وخسرت بريطانيا (١٣٢) طائرة .

جـ ــــ من ٦ أيلول حتى ٥ تشرين الأول قصف لندن قصفاً متواصلاً .

د ــــ من ٦ تشرين أول حتى ٣١ منه قصف ليلي متواصل للجزر البريطانية ، فقد الألمان خلال ذلك عدداً ضخماً من الطائرات يربو على الـ(١٥٠٠) طائرة وفقدت بريطانيا (٧٣٣) طائرة .

ونتيجة صمود بريطانيا أمام الغارات الجوية العنيفة فقد صار خطر غزو الجزر البريطانية مستبعداً .. وبالفعل توقفت العمليات المكملة للغزو عند تلك المرحلة وأحجم هتلر عن المتابعة ، وبدأ يفكر في شن حرب غواصات واسعة النطاق لإبقاء بريطانيا معزولة عن المساعدات الأمريكية ، ومن ثم بدأ يفكر في نقل المعركة إلى جبهة برية أخرى فاتجهت أنظاره نحو الشرق ، بعد أن لمس نيات روسيا التوسعية في الشرق والغرب .

حرب الغواصات من حزيران عام (١٩٤٠) وحتى نهاية عام (١٩٤١)

اعتمدت ألمانيا في حربها ضد قوافل الحلفاء على الغواصة نموذج ٧ والغواصة نموذج ٩ وهذه مواصفات كل من الغواصتين :

١ ــ الغواصة نموذج ٧

غواصة متوسطة وزنها (٥٠٠) طن سرعتها (١٧) عقدة و (٥ر٧) عقدة تحت الماء، تقطع مسافة عشرة آلاف ميل بحري بسرعة (٦) عقد، وتحمل مدفعاً واحداً من عيار (٨٨) ميلمتر، ومدفعاً مضاداً للطائرات من عيار (٢٠) ملم، وتحمل حتى (١٦) طوربيداً .

٢ ــ الغواصة نموذج ٩

غواصة متوسطة كبيرة وزنها (٧٥٠) طناً، سرعتها (٢١) عقدة و (٨) عقد تحت الماء، تقطع مسافة (١٨) ألف ميل بالسرعة الاقتصادية (٦) عقد، تحمل مدفعاً واحداً من عيار (١٠٥) ملم، ومدفعاً واحداً من عيار (٣٧) ملم مضاداً للطائرات، ومدفعاً من عيار (٢٠) ملم مضاداً للطائرات، وتحمل حتى (٢٣) طوربيداً. وكانت هذه الغواصة أحدث من سابقتها وأشد مقاومة من حيث تعميرها. وتستطيع النزول إلى أعماق كبيرة، كما جهزت بأجهزة تنصت وكشف (آزديك) جيدة، كما زودت بجهاز قذف شحنات تضلل أجهزة كشف ما تحت الماء. وكانت أجهزة قذفها للطوربيد من أحدث الطرق، وطوربيداتها كهربائية عديمة الأثر في الماء. (الطوربيد الهوائي له أثر فقاعات، والسفينة المهاجمة تستطيع بمناورة حادة تفاديه أحياناً، إن استطاعت رؤية أثره من بعيد، أما الطوربيد الكهربائي فلا فقاعات ولا أثر) .

أنزلت ألمانيا خلال عام (١٩٤٠) (٢٠٠) غواصة إلى البحر، وكانت تنتج شهرياً خلال عام (١٩٤١) بين ٢٠ و ٢٥ غواصة، وارتفع هذا العدد بعد أن شاركت ترسانات فرنسا المحتلة في الانتاج البحري .. وكانت الغواصات الألمانية تسارع بعد إنزالها إلى البحر لتلتحق بميناء ارتباطها فوراً وحسب الخطة الموضوعة، ومكانة قاعدة الارتباط، وذلك لإحكام تطويق طرق مواصلات بريطانيا البحرية الثلاث وازعاجها وهي :

١ ــ طريق أمريكا بريطانيا عبر المحيط الأطلسي .

٢ ــ طريق الشرقين الأقصى والأوسط عبر المتوسط، أو عبر شواطىء إفريقية الغربية .

٣ ــ الطريق الشمالي المؤدي إلى روسيا ويدعى طريق المساعدات الغربية .

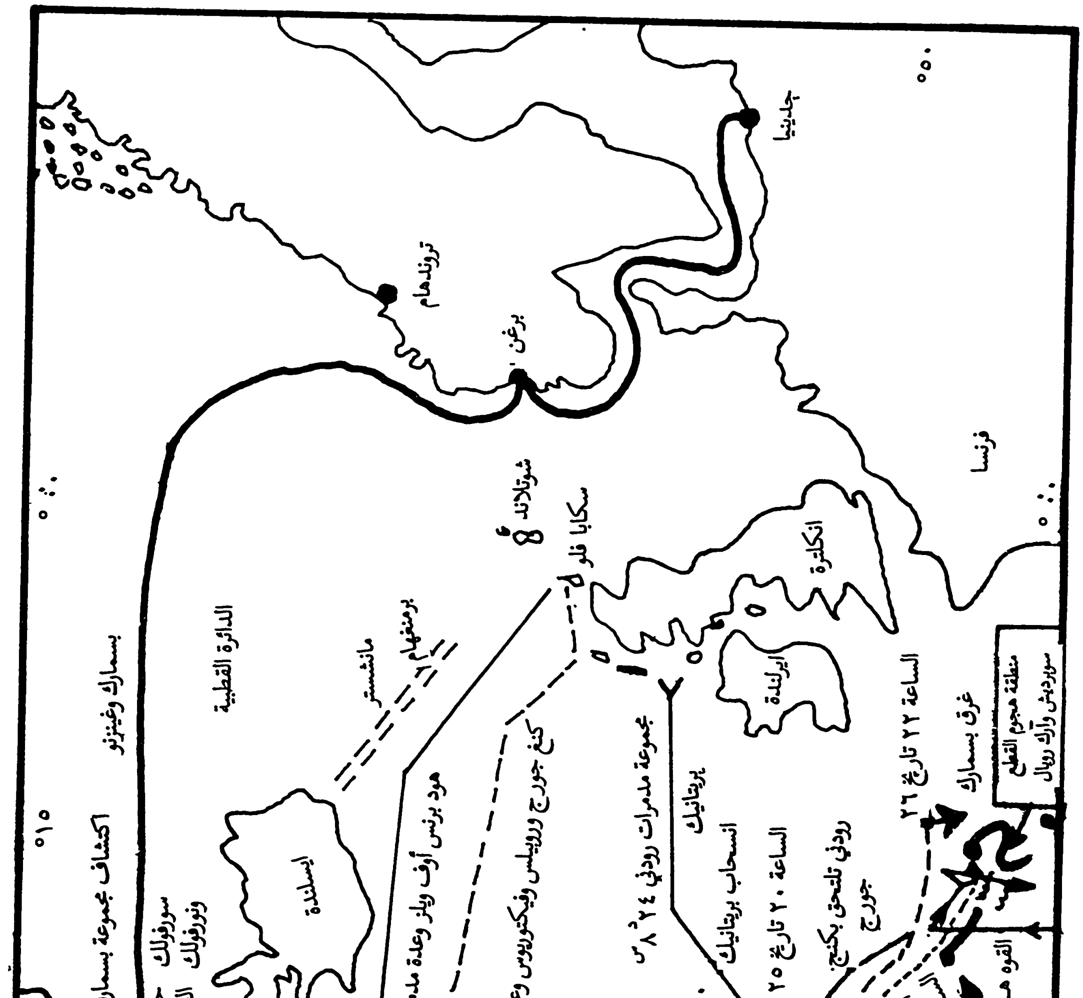
ترونداهام
برغن
فرنسا
انكلترا
ايرلندة
ايسلندة
الدائرة القطبية
شوتلاند
سكابا فلو
مانشستر
برمنغهام
غرونلاندا
انسحاب برنس أوجين
غرق بسمارك
الساعة ٢٢ تاريخ ٢٦
منطقة هجوم القطع
انسحاب بريتانيك
الساعة ٢٠ تاريخ ٢٥
هود تغرق
اكتشاف مجموعة بسمارك
حقول الغام

بنظرة عابرة سريعة لمخطط خسائر الحلفاء المرفق بالنسبة لحرب الغواصات الألمانية نلحظ النتائج الباهرة التي حققتها هذه الغواصات خصوصاً خلال مرحلة عام (١٩٤١ ــ ١٩٤٢).

الحرب البحرية في المحيط الأطلسي ونهاية بيسمارك

لم تفكر ألمانيا جدياً بدخول معركة فاصلة بحرية مع الحلفاء كما حدث خلال الحرب العالمية الأولى (معركة جوتلاند)، بل اكتفت بشن إغارات بوساطة سفنها الحربية في مختلف الأصقاع، حيث تميز الموقف العام بالنشاطات التالية:

١ ــ من تشرين الأول عام (١٩٤٠) حتى شباط (١٩٤١)، مخرت بارجة الأميرال شيير بحار جنوب الأطلسي ثم انتقلت إلى المحيط الهندي، وأغرقت مئات آلاف الأطنان من مختلف المراكب.

٢ ــ منذ مطلع عام (١٩٤١) قام الطراد الثقيل الأميرال هيبر، بإغارات موفقة في بحار جنوب المحيط الأطلسي.

٣ ــ في شهري شباط وآذار من العام نفسه قامت المجموعة الألمانية شارنهورست وغينزنو بمهاجمة قافلة محروسة جنوب جزر آسور، حيث جاءت النتائج باهرة، ثم تابعت هذه المجموعة نشاطها في الأطلسي، وفي المنطقة المحصورة بين الجزائر الخضراء ومشارف كندا. وفي نهاية شهر آذار عادت المجموعة فدخلت ميناء برست الفرنسي المحتل. علمت بريطانيا بعودة هذه المجموعة فألقت جهودها على ضربها من الجو، واستخدمت لهذه الغاية (٢٣٠٠) طائرة وحوالي (٤٠٠٠) طن قنابل، دون جدوى. وباءت جميع محاولات القصف الجوي بالإخفاق الذريع، وخسرت إنكلترا (٤٣) طائرة، وكان كسبها الوحيد هو منع هذه المجموعة من مغادرة برست ثانية وإبطال عملها لمدة طويلة.

وبتاريخ ١٢ كانون الثاني عام (١٩٤٢) أمر هتلر المجموعة بالعودة إلى مسرح العمليات في بحر البلطيق، ونفذ الأمر وغادرت المجموعة برست واجتازت مضيق كاليه تحت أنظار الحلفاء وسمعهم، واخترقت تحصيناتهم بعملية بحرية باهرة، تعد من مفاخر العمليات البحرية الألمانية. وكان الفضل في ذلك يرجع إلى الحماية الجوية المستمرة التي قدمها سلاح الجو الألماني طيلة مدة الرحلة.

٤ ــ في مطلع مايس (١٩٤٢) أمرت مجموعة بيسمارك مع البرنس أوجين بالخروج. وبدأت هذه المجموعة نشاطها في مهاجمة القوافل التجارية فقط، وتفادي مجابهة أو اعتراض الوحدات

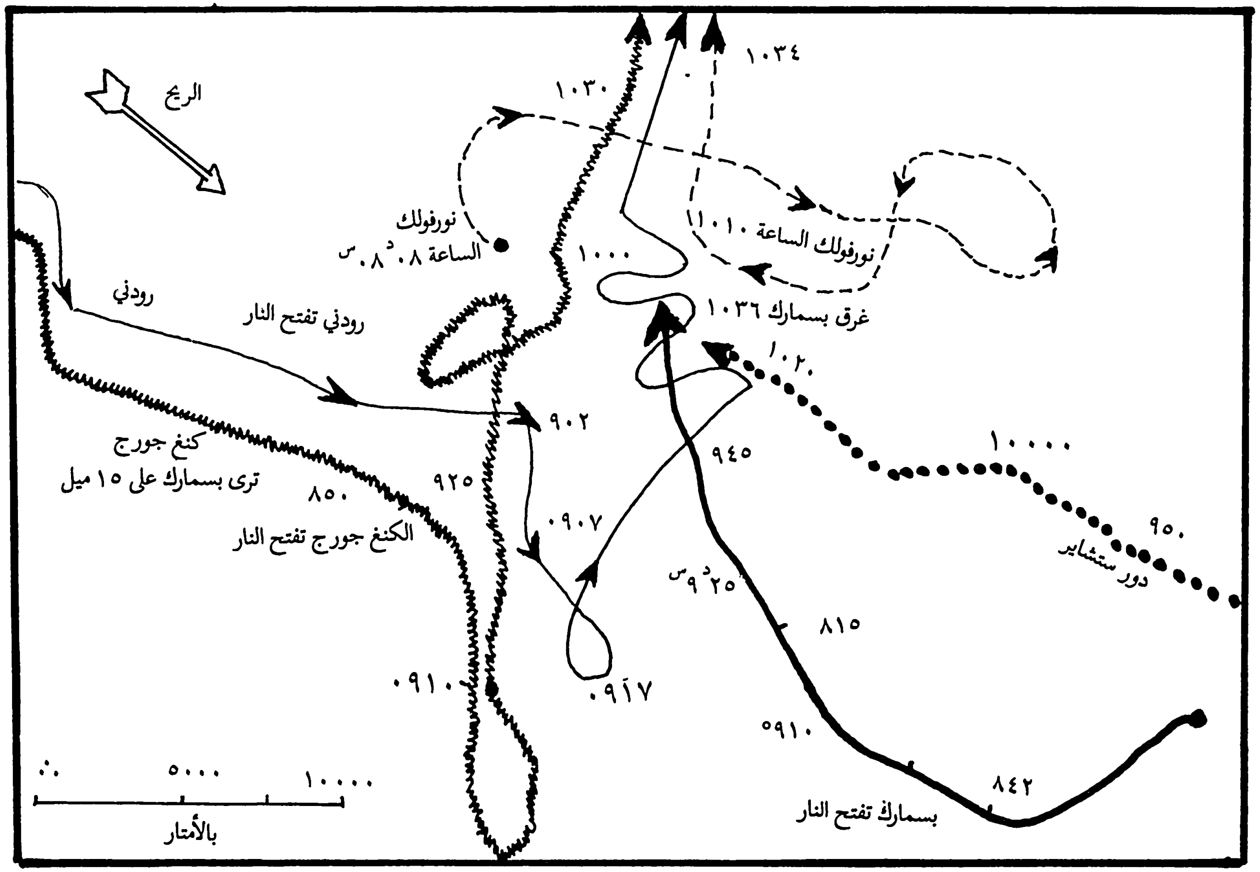

— نهاية بسمارك —

البحرية المقاتلة إلا في حالة الضرورة . وكانت المهمة بمعنى أصح اعتراض ومهاجمة واغراق السفن التجارية الحليفة في الأطلسي وشمالي خط الاستواء. ويوضح المخططان المرفقان معركة بيسمارك بمراحلها المختلفة ، ونذكر ببعض النقاط الهامة في تلك المعركة ونتائجها الحاسمة .

كان موقف الأسطول الحليف الموجود في منطقة عمل مجموعة بيسمارك كالتالي :

١ ــ البارجتان الإنكليزيتان رودني ونلسن مكلفتان بمهمة حماية قوافل الحلفاء القادمة من كندا .

٢ ــ البارجتان مالايا ووارسبيت مع عدة مدمرات ، مكلفة بمهمة البحث في المنطقة عن سفن ألمانيا الحربية . إلا أن هذه المجموعة اتصفت بصفة المجموعة البطيئة نظراً لضعف سرعتها بمقارنتها بسرعات مجموعة بيسمارك الحديثة (٣٠) عقدة . وكانت قدرة هذه المجموعة ضعيفة نسبياً في استطاعتها اللحاق بسفن ألمانيا ، حتى إنها قد عجزت عن القيام بأي دور فعال ضد مجموعة الأميرال شيير الألمانية ، ومجموعة الأميرال هيبر الألمانية أيضاً في مطلع عام (١٩٤١) .

٣ ــ المجموعة المؤلفة من البارجتين جورج الخامس ــ والبرنس أوف ويلز ــ وهي المجموعة الوحيدة الحديثة السريعة القادرة على مواجهة مجموعة بيسمارك .

٤ ــ المجموعة المؤلفة من الروبيلس وهود ــ ورينون (جبل طارق) وهي مجموعة قوية تضم أقوى وأسرع سفن إنكلترا . وقد اشتبكت مع مجموعة بيسمارك في المرحلة الأولى من المعركة ، إلا أنها انسحبت أمام بيسمارك بعد غرق هود بمعركة مذهلة وخاطفة .

٥ ــ حاملة الطائرات أرك رويال ، وحاملة الطائرات فيكتوريوس . وقد لحقتا بالمعركة قادمتين من جبل طارق ، وقامتا بدور فعال في نهاية بيسمارك .

لو تتبعنا المخطط المرفق لوجدنا أن مجموعة بيسمارك قد أقلعت من جدينيا واتجهت نحو برغن في النرويج للتموين ، ثم غادرت سواحل النرويج وارتقت شمالاً ودخلت الدائرة القطبية لتمر شمال إيسلندة متجهة نحو المحيط الأطلسي ، حيث كان عليها أن تعمل فيه . وقد كشفت هذه المجموعة قرب حقول الألغام المزروعة في ممر إيسلندة وغروئنلاندة . وتم كشفها بوساطة مجموعة سوفولك ونورفولك . وتلاحقت الحوادث كما هو موضح بالتفصيل على المخطط حتى كانت نهاية هذه البارجة الجبارة غرب سواحل فرنسا في الساعة ٠٠ر٢٢ من تاريخ ٢٦ مايس وبالمراحل التالية :

ــ كشف مجموعة بيسمارك بوساطة أجهزة رادار كل من سوفولك ونورفولك .

ــ فقد الاتصال وضياع مجموعة بيسمارك عن أعين الحلفاء، ثم استعادة رصدها بوساطة طائرة مرور من نوع كاتالينا.

ــ اشتباك البوارج هود وبرنس أوف ويلز مع عدة مدمرات ثم انسحاب البرنس أوف ويلز بعد إغراق بيسمارك لهود بتاريخ ٢٤ مايس الساعة السادسة صباحاً.

ــ قرار أميرال مجموعة بيسمارك بالاتجاه نحو مرفأ سان نازير الفرنسي، وإعطاء حرية المناورة والتصرف للبارجة برنس أوجين بتاريخ ٢٤ مايس مساء.

ــ هجوم جوي على بيسمارك من حاملة الطائرات فيكتوريوس بوساطة (٩) طائرات من نوع سوردفيش، و(٦) طائرات قاذفات طوربيد من نوع فيلمار، وإصابة بيسمارك بطوربيد وذلك بتاريخ ٢٤ مايس منتصف الليل.

ــ هجوم جوي جديد من قبل طائرات الحاملة آرك ورويال وإصابة بيسمارك بـ(٢) طوربيد أحدهما أصاب أجهزة توجيه السفينة، فانخفضت سرعة بيسمارك إلى (٢٢) عقدة، وذلك بتاريخ ٢٦ مايس الساعة ٠٠ر٢١.

ــ هجوم السفن قاذفات الطوربيد مجموعة دوفيان وإصابة بيسمارك بطوربيدين آخرين وبدء غرق السفينة.

يتضح مما تقدم أن معركة بيسمارك لم تكن بالمعركة المتكافئة فقد حشدت إنكلترا إمكانيات ضخمة في سبيل كشف هذه المجموعة التي أشاعت القلق في المنطقة وتدميرها، وغرقت بيسمارك بشرف بعد أن أغرقت البارجة هود، وعطلت كل من رودني والبرنس أو ف ويلز، بالإضافة إلى عدة قطع أخرى.

تخلصت بريطانيا من عدو مرعب هو بيسمارك الذي كان سيقلق أساطيلها في المحيط الأطلسي وبحر الشمال إلا أن نتيجة المعركة جعلت إنكلترا عاجزة عن السيطرة على تلك المياه، ولم يبق لها من البوارج الحديثة إلا الملك جورج الخامس، خصوصاً وقواعدها قريبة من شواطىء إسكندنافيا المحتلة من قبل الألمان شمالاً، ومن شواطىء فرنسا المحتلة أيضاً جنوباً. ولذلك فبريطانيا تحتاج إلى عدة انتصارات بحرية لتعديل موقفها.

في المتوسط عطبت كل من بارهام، وفاليانت، وكوين اليزابيت، ولم يتحسن الموقف إلا بعد قصف مرسى الكبير وشل حركة الأسطول الايطالي، حيث بدأت إنكلترا تتنفس الصعداء من جديد.

حرب الحلفاء الدفاعية في البحر الأبيض المتوسط

قسمت بريطانيا بعد انهيار حليفتها فرنسا أسطولها في المتوسط إلى مجموعتين اثنتين، الأسطول الشرقي ويتركز في شرقي البحر الأبيض المتوسط وأسطول الإسكندرية .. كان حجم الأسطولين ضعيفاً نسبياً إذا ما قورن بأسطول إيطاليا. وتضم هاتان المجموعتان البريطانيتان ست بوارج وعدة طرادات ومدمرات وقانصات. وكان بعض هذه السفن قديماً وبعضها الآخر ضعيف الكفاءة التعبوية وخاصة البوارج إذا ما قورنت ببوارج ايطاليا الحديثة الجبارة ذات حمولة الـ (٣٥) ألف طن.

آ ــ أحداث مسرح عمليات المتوسط الهامة

إن الطريق البحري الموصل بين الإسكندرية وجبل طارق والذي يبلغ طوله حوالي (١٤٠٠) ميل بحري تعترضه ثلاثة مضائق بحرية هامة تعتبر مناطق صعبة لقوافل الحلفاء وهي :

ــ مضيق أو ممر جزيرة سردينيا ــ إفريقية وعرضه (١٢٠) ميلاً.
ــ ممر صقلية ــ إفريقية وعرضه (٩٠) ميلاً.
ــ ممر ديرنا ــ كريت وعرضه (١٧٠) ميلاً.

كان التكتيك الوحيد الذي يضمن لإنكلترا تأمين إتصال أسطوليها العاملين في المتوسط هو المحافظة على جزيرة مالطة لكونها نقطة متوسطة بين شرقي وغربي المتوسط. ويمكن استخدامها كقاعدة بحرية وجوية متقدمة بالنسبة لأساطيل إنكلترا في المنطقة .. إلا أن ذلك كان لا يخلو من الصعوبة نظراً لقرب هذه الجزيرة من القواعد الجوية الإيطالية، ونظراً لنشاط سلاح الطيران الإيطالي في معاونة القوات البحرية. **وطبيعة شبه جزيرة إيطاليا مع صقلية المتقدمة في المتوسط والواقعة في مركزه عامل فعال في مرونة سلاح الجو الايطالي ونشاطه.**

تبنت إنكلترا في المتوسط تكتيك التشكيلات التعبوية المتكاملة Task Force. وكان التشكيل مؤلفاً من حاملة طائرات وبارجة وعدة سفن حراسة تجوب البحر وتحمي القوافل، واستطاعت هذه التشكيلات تأمين استطلاع بعيد وعمل واسع. وقد غدا مدى عمل التشكيل حتى (٣٠) ميلاً بحرياً بحراً وحتى (١٠٠) ميل بحري جواً، ولتأمين ذلك ضمت إنكلترا إلى أسطولها في المتوسط حاملات الطائرات التالية : آرك رويال ــ الايجل ــ والالستريوز.

بالرغم من تفوق أسطول إيطاليا البحري عددياً فقد نجحت التشكيلات التعبوية الإنكليزية

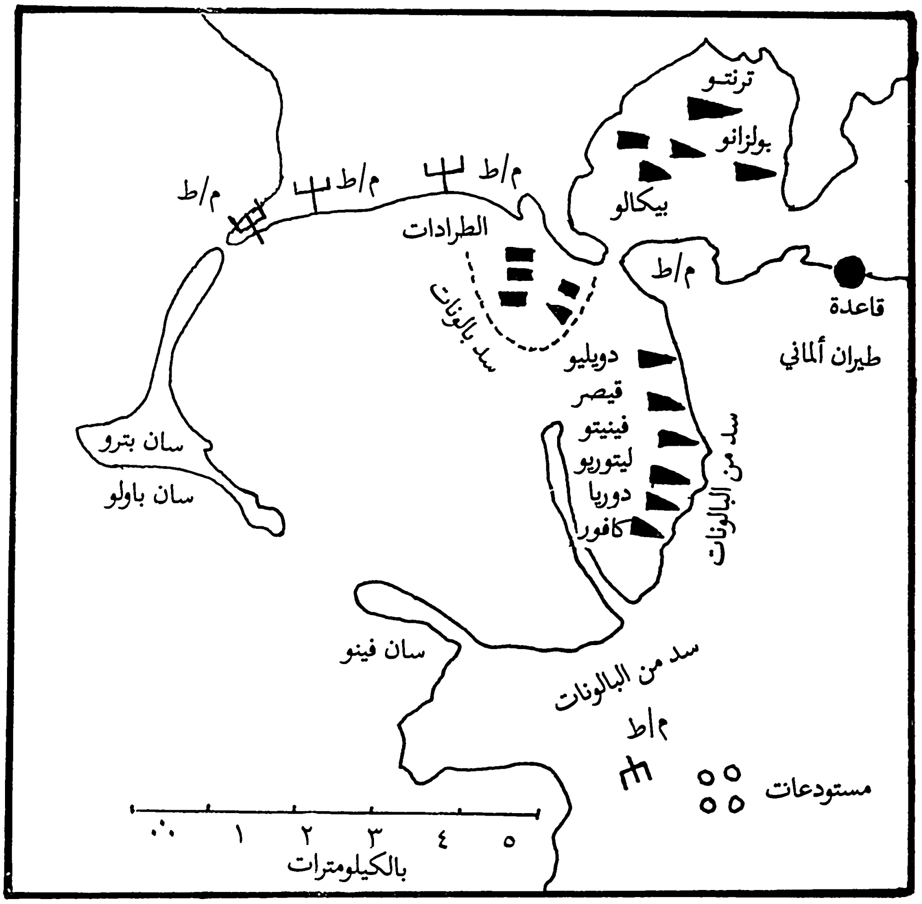

معركة تارانت ١١/١١/١٩٤٠

في حراسة القوافل بكل سهولة. ولم تحدث معارك ذات شأن إلا الاشتباك الذي تم في ٨ تموز بين أسطول الإسكندرية الإنكليزي والمجموعة الإيطالية التعبوية الضخمة التي كانت تضم البوارج كافور، قيصر، والطرادات زارا، وفيوم، وكوريجيا. وأطلق على المعركة اسم بونتا شيلو، وغرق فيها للإيطاليين مدمرة، ثم ولوا هاربين من المعركة قبل احتدامها. ثم خسروا فيما بعد الطراد كوليوني، قرب جزيرة كريت حيث أغرقه الطراد الاوسترالي سيدني.

ب ــ معركة تارانت تاريخ ١١ تشرين الثاني عام (١٩٤٠)

وقعت إنكلترا بحرج شديد في نهاية شهر تشرين الأول، إذ هوجمت اليونان من قبل إيطاليا، فهددت بذلك قواتها الموجودة في مصر، وكان واجبها يحتم عليها حماية سواحل اليونان وجزائرها عن طريق حماية قواعدها البحرية، وتعزيزها في شرقي المتوسط أولاً، وضرب الأسطول الإيطالي ضربة قاضية، وهو في موانئه ثانياً. وتبلورت فكرة الهجوم على ميناء تارانت الإيطالي لتدمير الأسطول المجتمع هناك. فكلف تشكيل إنكليزي تعبوي مؤلف من حاملتي الطائرات غلوريوس والالستريوز مع عدة قطع بحرية مكملة للتشكيل.

كان يرسو في ميناء تارانت (٦) بوارج و (٦) طرادات ثقيلة، وعدة مدمرات وغواصات وفي يوم ١١ تشرين الثاني قامت مجموعات جوية بريطانية من على الحاملات وهاجمت الأسطول الإيطالي في تارانت مستخدمة الطوربيدات المقذوفة جواً والقنابل الثقيلة وتم الهجوم بنجاح. وقد أعطبت ثلاث بوارج إيطالية هي كافور، ليتوريو، ودويليو، وأعطب طرادان ثقيلان وخسرت بريطانيا طائرتين فقط. وبنجاح هذه الإغارة تم للبريطانيين السيطرة البحرية التامة حتى سواحل اليونان ولمدة طويلة.

حاول الإيطاليون بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني وبعد هزيمتهم في تارانت الثأر من بريطانيا فجمعوا أسطولهم في نابولي وسردينيا وهاجموا قافلة بحرية حليفة تحرسها مجموعة بريطانية تعبوية قرب رأس توليدا جنوب شرقي سردينيا، ولكنهم لم يستمروا في المعركة طويلاً بل اكتفوا بضرب عدة رشقات من مدفعيتهم على كل من الطرادين الإنكليزيين سوثامبتون، ومانشيستر، وانسحبوا قبل أن تتدخل المجموعة البريطانية «هـ».

جـ ـــ معركة ماتابان ٢٨ و ٢٩ آذار (١٩٤١)

الوضع العام

أصيبت إيطاليا في معركتها ضد اليونان بخسائر فادحة وتوقف تقدمها. فاضطر هتلر لمساعدتها بشن هجوم شامل على البلقان للسيطرة عليه أولاً، ولإضعاف الروح المعنوية عند اليونانيين ثانياً، وللتحضير لحملة على روسيا ثالثاً.

أحس هتلر بأن الطليان عاجزون عن إحراز أي نصر بحري مهما صغر حجمه. فكلف طيرانه بمد يد المساعدة لاعادة ثقة الإيطاليين بسلاحهم البحري.

وبالفعل قام الطيران الألماني بنشاط ملحوظ، وأعطب حاملتي الطائرات البريطانيتين الالستريوز والايجل، عندها قرر الإيطاليون الخروج ثانية إلى البحر لمهاجمة قوافل الحلفاء، ولغسل عار معركة تارانت. خصوصاً بعد تأكدهم من إبعاد الحاملات البريطانية خارج المعركة، إلا أنهم لم يتصوروا سرعة تعزيز التشكيل البريطاني بحاملة طائرات جديدة هي الفورميدابل عوضاً عن الحاملتين المعطوبتين. وكانت مفاجأة جديدة للطليان انعكست على موقف أسطولهم في المتوسط.

خروج الأسطول الايطالي

في الساعة ٢١٫٠٠ من تاريخ ٢٦ آذار خرج الأسطول الإيطالي لكن خروجه لم يبق سراً، إذ كشف بطائرة استطلاع بريطانية ظهر اليوم الثاني، فأنذرت كافة القواعد والوحدات الحليفة في

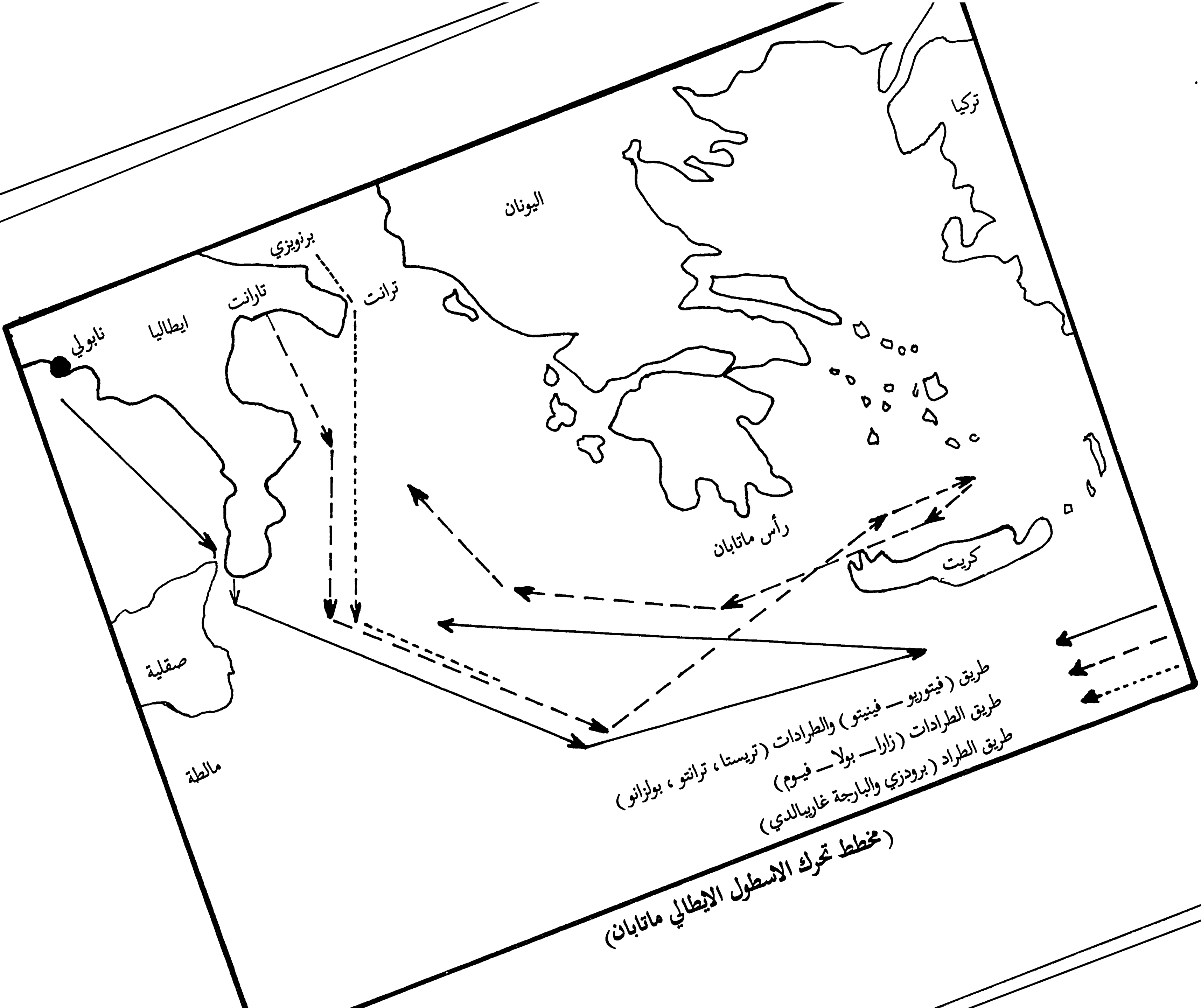

(مخطط تحرك الاسطول الايطالي ماتابان)

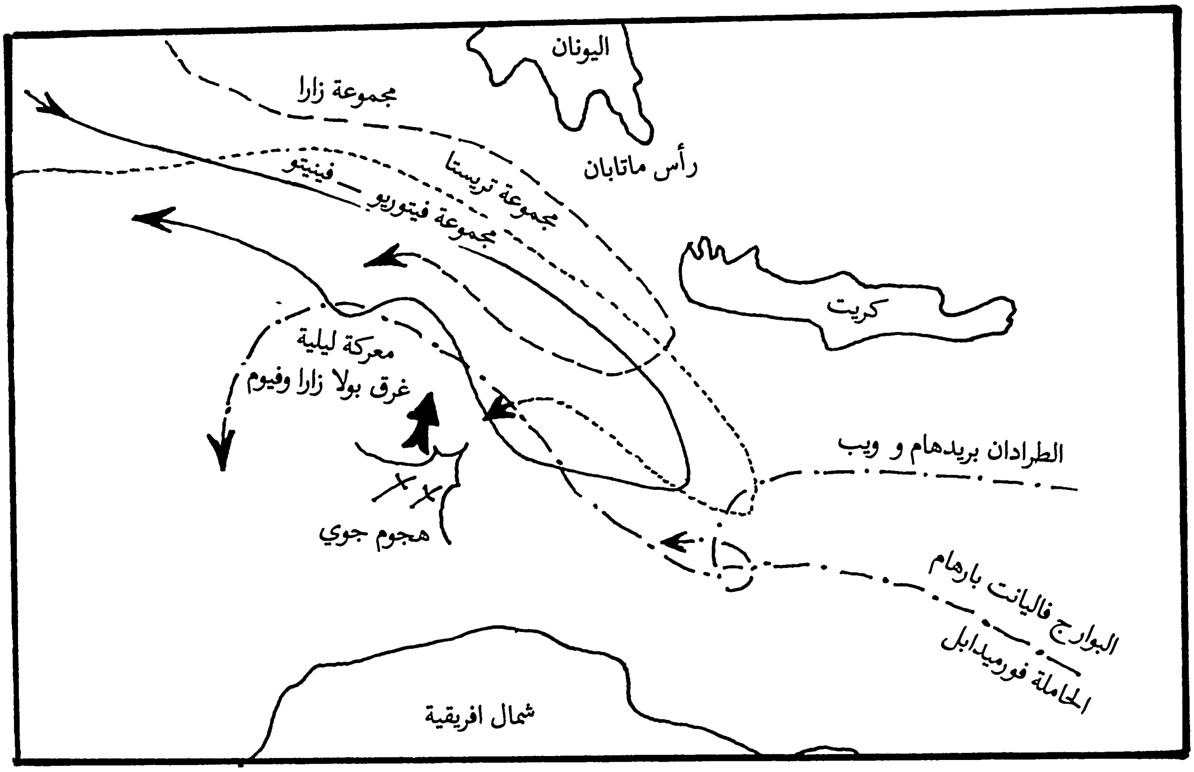

مخطط معركة ماتابان ٢٨ و٢٩ آذار ١٩٤١

المنطقة. ولما علم الطليان بالإنذار الحليف قسموا أسطولهم إلى ثلاث مجموعات واتبعوا المخادعة في خط سيرهم حيث تقدموا نحو الجنوب نهاراً، ومع حلول الظلام استداروا باتجاه جزيرة كريت، لتضليل الحلفاء (انظر المخطط).

خروج الأسطول الإنكليزي

بتاريخ ٢٧ آذار خرج أسطول الإسكندرية المؤلف من البوارج وارسبيت، فاليانت، بارهام، وحاملة الطائرات فورميدابل بحماية مجموعتين من المدمرات، وخرج أسطول إنكليزي آخر من بيريه (اليونان) يضم البوارج بريدهام، ويبل، والطرادات أوريون، اجاكس بيرت، غلوسستر مع عدة مدمرات.

تفاصيل المعركة

في الساعة ٨٫٣٠ من تاريخ ٢٨ آذار اكتشف أسطول بيريه البريطاني المجموعة الايطالية الأولى. وخشي الأميرال الإيطالي جاشينو الطرادات البريطانية الحديثة، واستدار مبتعداً فتبعه الأميرال على بريدهام مقتفياً أثره، منتظراً وصول أسطول الإسكندرية لبدء المعركة.

بدأت المعركة الفعلية في الساعة ١٥ر١١ بهجوم جوي من طائرات الحاملة فورميدابل، فانسحب الأسطول الإيطالي بعد اشتباك مدفعية بسيط دون نتائج. ونتيجة القصف الجوي أصيب الطراد فيتوريو ــ فينتو وانخفضت سرعته إلى (١٩) عقدة، وأصيب الطراد بولا.

انسحبت المجموعة الإيطالية الأولى من المعركة، ودخلت ترانت في الساعة ١٥ر٠٠ من تاريخ ٢٩ آذار دون الإفادة من التغطية الجوية الإيطالية، حيث كان التنسيق بين السلاحين معدوماً. وترك الطراد بولا لوحده فأجهزت عليه المدمرات البريطانية وأغرقته. وبعد قليل فوجىء كل من الطرادين زارا وفيوم بهجوم مركز صاعق قبل أن يستطيعا فتح نيرانهما وأغرقا من قبل فاليانت بارهام ووارسبيت خلال سبع دقائق من بدء المعركة.

كان نصر بريطانيا كبيراً في تلك المعركة. ويرجع ذلك إلى جودة الاستطلاع، وحسن التنظيم في تأمين تعاون مطلق بين الوحدات البريطانية والطيران، في حين كان الإيطاليون على عكس ذلك تماماً، فاستطلاعهم ضعيف والتعاون بين صنوف الأسلحة معدوم.

البلقان وغزو جزيرة كريت

استعرضنا في سياق حديثنا عن مساندة ألمانيا لإيطاليا في معركتها ضد اليونان باجتياح البلقان استعداداً لغزو روسيا في شتاء عام (١٩٤١). وبالفعل تم للألمان اجتياح البلقان بسرعة، واتجهت أنظارهم لغزو جزيرة كريت المعقل الحليف في شرقي المتوسط، ذي الموقع الاستراتيجي الهام في المنطقة.

غزيت الجزيرة بعملية حربية مشتركة ناجحة تعاون فيها الأسطولان الجوي والبحري في نقل الوحدات البرية المقاتلة وإسقاط المظليين على السواحل الشمالية لكريت بين ٢٠ و ٢٧ مايس. وساندت العملية عدة وحدات بحرية إيطالية، قدمت من رودوس، ونزلت شرقي جزيرة كريت.

لم يستطع الأسطول البريطاني المدافع عن كريت الصمود طويلاً لقلة عدد وحداته ولضعف تغطيته الجوية، ولتعرضه لهجمات جوية قوية من قبل سلاح الجو الألماني، فجاءت خسارة بريطانيا في معركة كريت كبيرة، إذ غرق لها الطرادان غلوسستر وفيجي، مع (٤) مدمرات، كما أغرقت زوارق الطوربيد الإيطالية الطراد الثقيل يورك.

كانت خطة هتلر غزو قبرص ومالطة بطريقة كريت نفسها، إلا أن انشغاله في تحضير عملية

باربروس (غزو روسيا) جعلته يستبعد مثل هذا الغزو، خصوصاً وأن الخسائر في الأرواح كبيرة في إنزال كريت. إذ خسرت ألمانيا (٤٠٠٠) مقاتل من خيرة جنودها المدربين. وتحرك هتلر نحو روسيا بادئاً عملياته ضدها اعتباراً من ٢٢ حزيران (١٩٤١) حاشداً كل مجهوده الحربي في سبيل إحراز نصر عاجل، وقبل تدخل الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب الحلفاء.

المتوسط والاستراتيجية الهتلرية

حين استبعد هتلر فكرة غزو بريطانيا طلب من قادته إعداد عمل آخر بديل لإضعافها، فاقترح عليه الأميرال ريدر السيطرة على المتوسط قائلاً «إن هذا البحر هو الشريان الحيوي للإمبراطورية العظمى». وأكد له غورنغ الفكرة عارضاً السيطرة على المتوسط باتجاهات ثلاثة.

— فون رونشتد(٣٤) يهاجم شمال إفريقية عن طريق إسبانيا.
— فون بوك(٣٥) عن طريق ليبيا.
— واتجاه ثالث عن طريق اليونان وتركيا حتى السويس.

كان موقف إسبانيا الحيادي وترددها تارة مع المحور وأخرى مع الحلفاء، وكذلك الحال بالنسبة لتركيا كل ذلك جعل هتلر يرفض عرضي كل من ريدر وغورنيغ، خصوصاً وأن عملياته ضد روسيا تمنعه من خرق حياد دولتين جديدتين في ظروفه الراهنة. كما أن إتفاقه مع إسبانيا لم يجد نظراً لأن الأخيرة كانت ذات أطماع توسعية كبيرة في شمال إفريقية، لو انحازت لكتلة المحور الأمر الذي لم يرق لهتلر.

يؤخذ على هتلر في استراتيجيته في البحر المتوسط أمران لو راعاهما لكان بالإمكان تغيير مجرى الحرب:

١ — عدم استغلال انتصارات رومل في شمال إفريقية حين وصل هذا الأخير حتى العلمين في مصر. إذ اعتبر هتلر جبهة شمالي إفريقية محوراً ثانوياً بالنسبة لعملياته الأساسية. ولو أعطى تلك الجبهة مجهوداً حربياً بسيطاً إضافياً لكان بإمكان قائده هناك اجتياح السويس وفلسطين. **فضعف حليفته إيطاليا في تأمين سلامة القوافل في المتوسط واتساع الجبهة الروسية أثرا تأثيراً كبيراً على جبهة رومل**، وعلى استثمار نصره، فضاعت جهود هذه الجبهة هباءً. وتقهقر رومل أمام القوات الحليفة.

٢ — انعدام تنسيق العمليات الحربية بين ألمانيا واليابان، إذ كانت هذه الأخيرة تعمل

لوحدها دون تشاور وتنسيق مع ألمانيا، وخاصة فيما يتعلق **بفتح جبهة شرقية يابانية روسية**.

مالطة والموقف في المتوسط من كانون الثاني عام (١٩٤١) وحتى تشرين الثاني عام (١٩٤٢)

بتاريخ ١٠ كانون الثاني عام (١٩٤١) هاجمت أربع مجموعات شتوكا من سلاح الجو الألماني المتمركز في صقلية وإيطاليا حاملة الطائرات الإنكليزية اليستروز في أثناء قيامها بحماية قافلة قادمة من جبل طارق. وأصيبت الحاملة إصابات مباشرة التجأت على أثرها إلى مالطة، ثم ارتحلت إلى الإسكندرية في ٢٣ منه، ومن الاسكندرية أرسلت إلى الولايات المتحدة لإجراء الإصلاحات. واجتازت الحاملة ايجل قناة السويس ودخلت البحر الأحمر والمحيط الهندي للمشاركة في حماية القوافل الحليفة هناك.

لحقت حاملة الطائرات فورميدابل حاملة الطائرة اليستروز إلى أمريكا لإجراء إصلاحات، بعد أن أصيبت إصابات مباشرة عطلتها عن العمل، وبذلك ضعف أسطول الإسكندرية نظراً لفقدانه أهم قطعة وسيطر الألمان سيطرة جوية مطلقة على البحر هناك، وخاصة المضائق الهامة فيه. وتعرضت قوافل الحلفاء إلى هجمات جوية عنيفة فاضطرت بريطانيا إلى تحويل سير قوافلها بالدوران حول إفريقية أي بزيادة (٨ر٥٠٠) ميل بحري لكل سفينة قادمة من الهند إلى شمال أوربة.

مالطة

إن موقع جزيرة مالطة الجغرافي جعلها بالنسبة لإنكلترا قاعدة بحرية هامة لزوارق الطوربيد وللقطع البحرية الأخرى، بالإضافة إلى كونها حاملة طائرات عملاقة، فيها ثلاثة مطارات حربية ضخمة محمية بدفاع مضاد فعال، وقاعدة متقدمة لعمليات الإمداد والتموين بالنسبة للحلفاء في المتوسط.

قامت مالطة بمجهود حربي ضخم خلال المرحلة الثانية من معركة المتوسط، إذ غدت قاعدة هجوم على قوافل المحور بين ايطاليا وشمال إفريقية، خصوصاً بعد تعزيز موانئها البحرية بعدة غواصات حديثة. واستطاعت شل حركة قوافل المحور بين الفترة الواقعة بين تموز وتشرين الثاني عام (١٩٤١).

ب ــ غواصات ألمانيا في المتوسط أيلول (١٩٤١)

حل سلاح الغواصات في المتوسط محل السلاح الجوي الألماني، وبدأ نشاطه بإحراز نتائج باهرة.. فقد أغرق حاملة الطائرات الإنكليزية آرك رويال (٢٢) ألف طن بتاريخ ١٤ تشرين الأول (١٩٤١) عندما كانت تقوم بمهمة الاتصال والتغطية بين جبل طارق ومالطة. وفي ٢٥ تشرين الأول أغرق البارجة الإنكليزية بارهام أمام شواطىء السلوم في مصر. وبعد ثلاثة أسابيع هاجمت الطوربيدات البشرية الإيطالية بمساعدة الغواصات الألمانية ميناء الإسكندرية وأعطبت بشدة البارجة فاليانت، والكوين اليزابيت، كما أغرقت الطرادين غالاتيا ونبتون. وبذلك خسر أسطول الإسكندرية جميع وحداته البحرية الهامة. وتأزم وضع الحلفاء في المتوسط، وعاد سلاح الجو الألماني يسيطر ويتدخل بحرية في المنطقة نظراً لاختفاء الطيران البحري الإنكليزي المحمول نتيجة غرق أو عطب كافة حاملات الطائرات هناك.

تدخل السلاح الجوي الالماني كانون الأول (١٩٤١) وقصف مالطة

أمز هتلر بعضاً من المجهود الجوي في الجبهة الروسية التدخل في المتوسط لإبطال مالطة وعزلها، خصوصاً وقد تأزم موقف قوافل المحور الواصلة بين إيطاليا وشمال إفريقية حتى غدا الاتصال شبه مستحيل لوقوع مالطة في منتصف الطريق.

بدأ قصف مالطة بتاريخ ٤ كانون الأول (١٩٤١)، واستمر القصف بصورة مستمرة وكان أشده في مطلع شهر نيسان (١٩٤٢). وتعرضت مالطة لمئات الغارات العنيفة وقصفت بـ(١٠٩٦) طناً من القنابل، وجاءت مقاتلات إنكليزية من طراز سبتفاير كدعم لقوة الجزيرة إلا أن المشكلة ليست مشكلة طائرات فحسب بل أزمة وقود وذخيرة. ومالطة جزيرة معزولة كلياً.

القوافل لمالطة خلال عام (١٩٤٢)

استطاع أسطول الإسكندرية بتاريخ ٢٢ آذار وبغياب حاملات الطائرات والبوارج إيصال قافلة تموين إلى مالطة، وذلك بحراسة (٤) طرادات وعدة مدمرات فقط. ولم يستطع الإنكليز تكرار هذه العملية حتى صيف عام (١٩٤٢). إذ ابتدعوا خطة جديدة في حماية القوافل إلى مالطة بتقديم حماية بحرية من قبل أسطول جبل طارق، حتى مجال مدى عمل المقاتلات المتمركزة في مطارات مالطة، ونفذوا العملية. وما إن عاد أسطول الحماية إلى جبل طارق حتى قامت قوات المحور بتاريخ ١٥ حزيران بمهاجمة هذه القافلة بحراً وجواً فغرق للإنكليز (٢) مدمرة و (٢) سفينة نقل من

أصل ١٢ واستطاع الباقي الوصول إلى مالطة . أما القافلة التي تحركت من الإسكندرية في الوقت نفسه باتجاه مالطة فلم تستطع مواصلة سيرها ، وتعرضت لخسائر فادحة بسبب الطيران الألماني الموجود في ليبيا ، كريت ورودس وعادت قافلة الإسكندرية مثخنة بخسائرها .

تأزم وضع مالطة بنهاية تموز وأصبح لزاماً على إنكلترا إمدادها بسرعة . فقرر الإنكليز اشراك (٤) خاملات طائرات هي ايجل، فوريوس ، اندوميتابل ، فيكتوريوس في حماية قافلة مؤلفة من (٢١) سفينة نقل وصل منها (٦) سفن نقل ، إحداها ناقلة بترول تحمل محروقات طائرات كانت مالطة بأمس الحاجة لها ، ولقطع الإمدادات عن رومل في شمال إفريقية . وكانت خسائر هذه القافلة فادحة . فبالإضافة لغرق (١٥) سفينة نقل غرقت حاملة الطائرات الإنكليزية ايجل بتاريخ ١١ آب (١٩٤٢) ، وكذلك أصيبت كل من الطرادات الإنكليزية التالية .. القاهرة ، ومانشستر . ومع ذلك كله استعادت مالطة نشاطها وتابعت دورها على أحسن وجه .

ألح الأميرال ريدر على هتلر الإجهاز على جزيرة مالطة هذه القاعدة الهامة ، والتي تلعب دور حاملة طائرات جبارة في قلب خطوط مواصلات المحور وعلى طرق إمداده .

وضعت خطة أطلق عليها اسم خطة (هرقل) لاحتلال الجزيرة . إلا أن انتصارات رومل في شمال إفريقية جعل هتلر يفكر في انتزاع قناة السويس قبل التفكير بمهاجمة مالطة ، خصوصاً والأخيرة تحتاج إلى تضحيات كبيرة نظراً لقوة تحصينها .

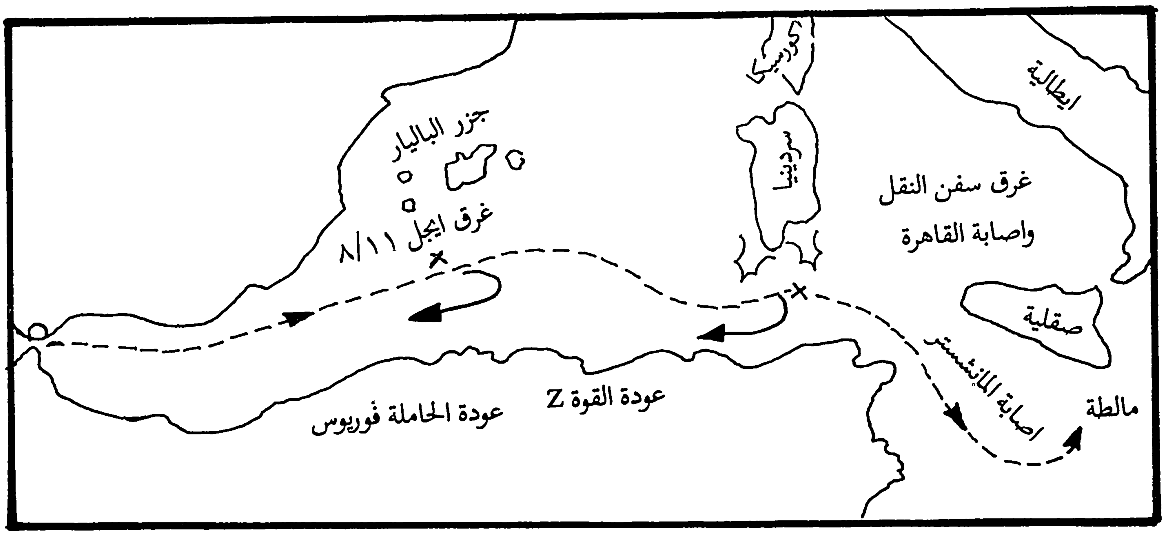

السيطرة الجوية والبحرية في المتوسط خلال العمليات البرية في المنطقة

بالنظر لارتباط الموقف البري بالموقف البحري لا بد وأن نعطي فكرة عابرة عن الوضع في الجبهات البرية خلال هذه الفترة .

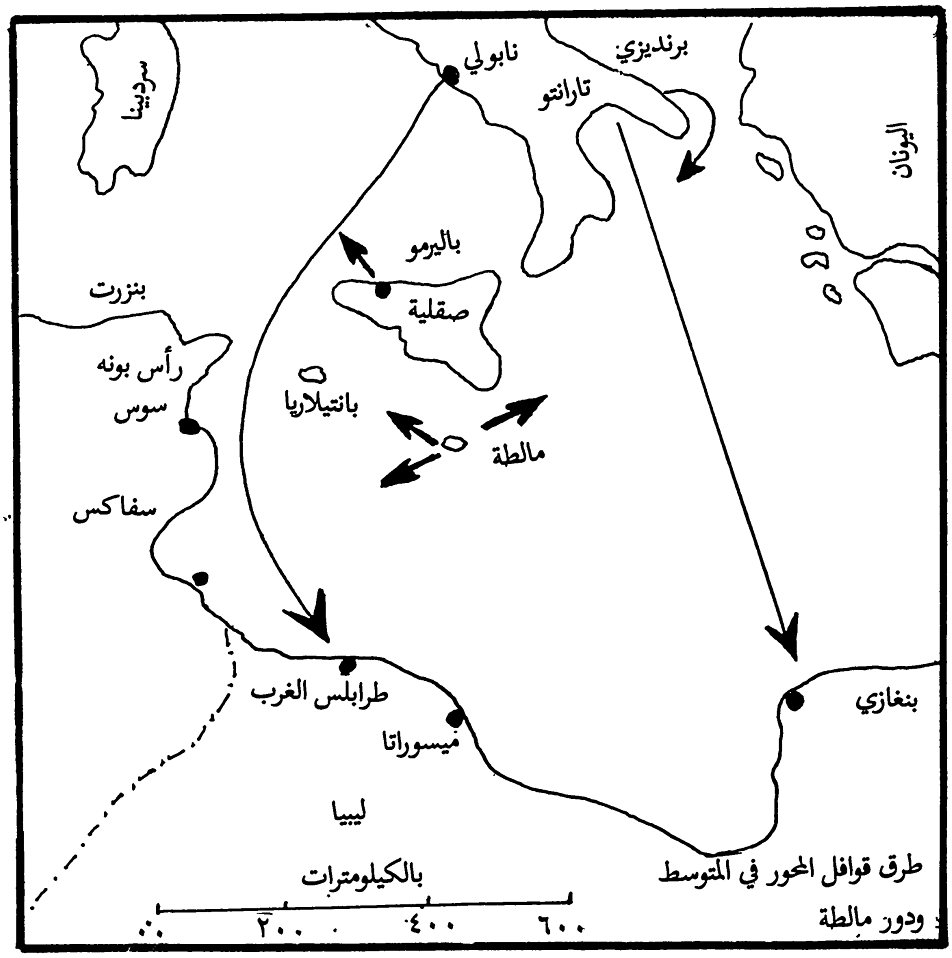

١ ــ احتلال أرتيريا ، والتقدم نحو أديس أبابا ، واستسلام القوات الإيطالية العاملة في إفريقية الشرقية بين كانون الثاني ومايس عام (١٩٤١) .

٢ ــ معركة سورية بين قوات فيشى الفرنسية والحلفاء في ٨ نيسان إلى ١٤ تموز (١٩٤١) ، والثورة في العراق .

٣ ــ احتلال إيران في تموز (١٩٤١) المنطقة الهامة في إمداد الاتحاد السوفييتي الحليف الجديد ، وحماية الشرق الأوسط وإفريقية والهند .

٤ ــ العمليات الحربية في جبهات ليبيا ومصر ، وكانت عمليات تجري بين مد وجزر نذكر أهم مراحلها :

ــ هجوم غرازياني[٣٦] الإيطالي ووصوله إلى سيدي براني في مصر بتاريخ ١٦ أيلول (١٩٤٠) .

ــ هجوم معاكس من قبل وافيل بتاريخ ٦ شباط (١٩٤١) ووصوله إلى بنغاري ، واستسلام (١٤٠) ألف مقاتل إيطالي مع (٤٢٠) دبابة و (١٣٠٠) مدفع .

ــ دعم ألمانيا لحليفتها إيطاليا في شمال إفريقية بوساطة سلاح الجو الألماني ، وإغراق وعطب كافة حاملات الطائرات الإنكليزية ، ثم تدخل جيش إفريقية الألماني ووصول رومل[٣٧] إلى السلوم نيسان (١٩٤١) .

ــ انشغال الطيران الألماني بالجبهة الروسية أضعف موقف المحور في شمال إفريقية ، فتقهقر رومل حتى مدينة الغيلة في ليبيا بتاريخ ٣١ كانون الأول (١٩٤١) .

ــ عودة الطيران الألماني إلى دعم جبهة إفريقية وعزل مالطة ، وتقدم رومل حتى العلمين ولمسافة (٨٠) كيلومتر من الإسكندرية في ١٦ حزيران عام (١٩٤٢) .

ــ وأخيراً بدأ تقهقر قوات المحور في شمال إفريقية نظراً لتدخل الطيران الأمريكي البريطاني بصورة فعالة ، وانقطاع الإمداد عن قوات المحور ، وعدم استثمار النصر لعدم تفهم قادة ألمانيا لمعركة شمال إفريقية ، والاستمرار في اعتبارها جبهة ثانوية ، ولاتساع الجبهة الروسية واستنفادها معظم المجهود الحربي الألماني .

الفصـــل الثـالـث

دخــول أمريكـا الحــرب
والموقـف بيـن كانـون الأول ١٩٤١ حتـى تشريـن الثانـي ١٩٤٢

مقـدمـة

إننا لنذكر في بحثنا السابق وفي معركة الأطلسي بالذات كيف أن ألمانيا قد أعلنت شبه حرب على الولايات المتحدة، عندما سمحت لغواصاتها بمهاجمة السفن التجارية المحايدة، **وكان بإمكان هتلر أن يسلك سياسة أكثر ليناً في معركة الأطلسي بحيث يستطيع كسب المزيد من الوقت ويؤخر من استفزازه للولايات المتحدة الامريكية.**

لقد أخطأ هتلر إذ اعتمد على قوة استعداد اليابان لحرب طويلة مع دولة كالولايات المتحدة الدولة التي لم تكن تفكر جدياً في دخول الحرب. وساعده في اتخاذ قراره قول غورينغ إن الأمريكيين لا يحسنون صنع الطائرات، بل يجيدون فقط صنع أمواس الحلاقة والثلاجات الآلية، يضاف إلى ذلك كله شعور هتلر بعد نجاح روزفلت بالرئاسة للمرة الثانية، بأن الحرب مع الولايات المتحدة أمر واقع، لا يمكن تفاديه، خصوصاً لما يعرف عن الرئيس الأمريكي من شدة عطفه على أوربة، وعلى المملكة المتحدة (بريطانيا) بالذات.

في ربيع عام (١٩٤١) أبلغ هتلر المسؤولين اليابانيين عن نياته في غزو روسيا، وأنه يوافق

على مشاريع الإمبراطورية اليابانية التوسعية في الشرق الأقصى، وعن استعداده للوقوف ضد الولايات المتحدة في حال تدخلها.. ثم، وفي ٤ نيسان أكد لماستوكا ـ بأن ألمانيا قد استعدت بشكل يمنع أي أمريكي من النزول في أوربة، وأن أسطول غواصات ألمانيا وسلاحها الجوي سيقومان بحرب لاهوادة فيها ضد أمريكا نفسها.

لم تفصح اليابان عن نواياها حيال الولايات المتحدة. وفي ٢٨ تشرين الثاني وبينما كان الدبلوماسيون يتحادثون في امكانات دخول اليابان الحرب، فوجئت ألمانيا كما فوجىء العالم كله بهجوم بيرل هاربور المعروف حتى قال غورينغ «إن هجوم بيرل هاربور كان مفاجئة تامة لنا».

تسارعت الانتصارات اليابانية وأحرزت الغواصات الألمانية عدة انتصارات قرب الشاطىء الأمريكي، فشعر كل من هتلر وغورينغ بأنهما محقان في تقديرهما للموقف العام في المحيط الهادي، إلا أن ذلك الشعور لم يطل أمده، إذ اتضح أنهما كانا يجهلان وضع الولايات المتحدة الجغرافي، وإمكاناتها الصناعية الضخمة، وقدرتها على الانتاج الحربي. وكذلك كان الأمر بالنسبة لليابانيين الذين أهملوا موضوع الإحصاءات في الموارد والانتاج العام. وبنظرة سريعة على الجدول المرفق نستطيع تشكيل فكرة واضحة عن إمكانات كل من البلدين المتحاربين في المحيط الهادي.

احصائيات بآلاف الأطنان لعام ١٩٣٨

	فحم	بترول	كهرباء مليار كيلوات	حديد	حديد صب	فولاذ	نحاس	ألمنيوم	مغنزيوم	صوف	قطن	حرير
اليابان	٤٦	٣٥ر٠	٢١	٥ر٠	٢ر٧	٥	١ر٠	٠٢ر٠	٠٣٤ر٠	–	–	٠٤٢ر٠
الولايات المتحدة	٣٥٢	٢٤٥	٢٤٠	٣٧ر٦	٢٩	٥٧	١	١٣ر٠	٠٢١ر٠	٢٠٧ر٠	٣ر٥	–

يتضح من هذا الجدول البسيط النقاط الهامة التالية:

ـ تفوق ساحق بقوة الانتاج والقدرة الأمريكية.
ـ سوء تقدير لإمكانات أمريكا المختزنة، وسهولة مضاعفة الانتاج، علماً بأن الانتاج الأمريكي عام (١٩٣٨) لم يكن مبنياً على أساس حربي.
ـ حاجة اليابانيين لثروات الجزائر الجنوبية في المحيط الهادي من المواد الأولية ثم نقص البترول بأنواعه للاستخدام الحربي والصناعي.

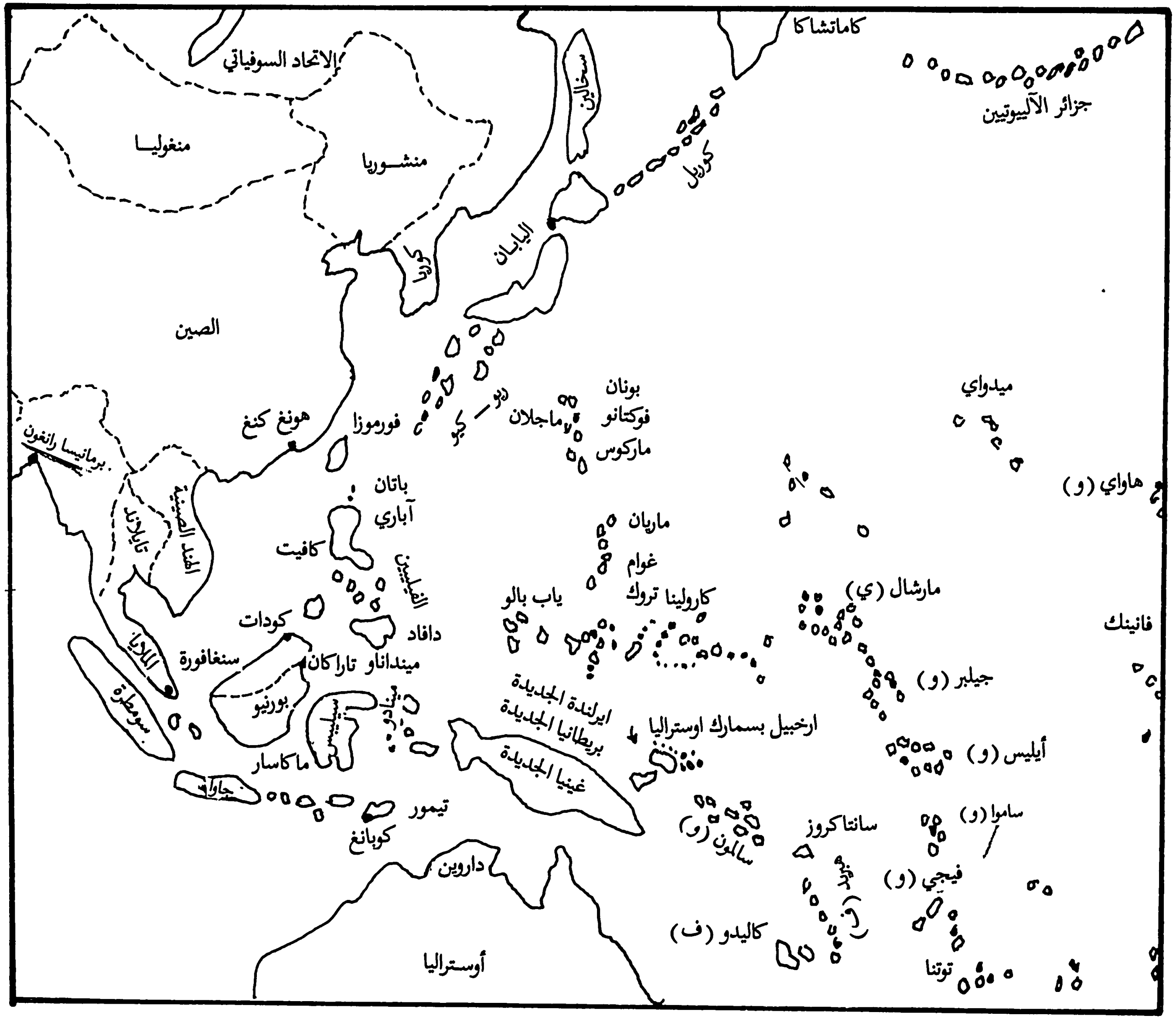

الاتحاد السوفياتي
كاماتشاكا
جزائر الآليوتيين
منغوليـا
منشـوريا
سخالين
كوريل
كوريا
اليابان
الصين
هونغ كنغ
فورموزا
بونان
فوكتانو
ماجلان
ماركوس
برمانيسا رانغون
الهند الصينية
تايلاند
باتان
آباري
كافيت
الفليبين
ميدواي
هاواي (و)
ماريان
غوام
ياب بالو
كارولينا تروك
مارشال (ي)
فانينك
كودات
دافاد
سنغافورة
ميناناو تاراكان
الملايا
بورنيو
سيليبس
ميناندو
سومطرة
ماكاسار
جاوا
تيمور
كوبانغ
ايرلندة الجديدة
بريطانيا الجديدة
غينيا الجديدة
ارخبيل بسمارك اوستراليا
جيلبر (و)
أيليس (و)
سانتاكروز
سالمون (و)
ساموا (و)
فيجي (و)
كاليدو (ف)
تونغا
داروين
أوستراليا

ــ أهمية ارتباط الاقتصاد الوطني ، بالعمليات الحربية والنتائج العامة للمعارك .
ــ عدم الأخذ بعين الاعتبار الإمكانات الأمريكية الضخمة في الميدانين العلمي والصناعي ، وإمكانية تطويرها لصالح الانتاج الحربي .

الشرق الأقصى

اليابان وسياستها العالمية

لإعطاء فكرة واضحة عن سياسة اليابان العالمية لا بد من الرجوع قليلاً إلى الوراء .

فقبل عدة سنوات من بدء الحرب اليابانية الصينية انسحبت اليابان من عصبة الأمم ، وتحررت من جميع التزاماتها الدولية ، وأضحت تتصرف بحرية تامة ٢٧ آذار (١٩٣٣) ، تبع ذلك رفضها لمعاهدة واشنطن الخاصة بتحديد الأساطيل البحرية في العالم ٢٩ كانون أول (١٩٣٤) ، ثم انسحبت من معاهدة المحيط الهادي وبدأت في التسلح وتخزين العتاد الحربي والوقود ووجهت عنايتها لأسطوليها البحري والجوي ولطيرانها البحري .

تعرضت اليابان لأزمة اقتصادية حادة نظراً لفقدان توازن اقتصادها ، فقد اشترت الكثير وخاصة المواد الأولية اللازمة للإنتاج الحربي ، ولم تستطع الحصول على قروض جديدة نظراً لفداحة مصروفاتها ، ولمرور العالم كله بأزمة اقتصادية خانقة . وتدنى النقد الياباني بشدة ، وبدأ التفتيش عن الحلول لإنقاذ الموقف الاقتصادي المتدهور ، فكان أن عقدت اليابان حلفها مع ألمانيا ، الذي سمي بالحلف المضاد للبلشفية ٢٥ تشرين الثاني (١٩٣٦) ، وانضمت إليه إيطاليا فيما بعد . كانت الغاية الظاهرة لهذا الحلف منع توسع البلشفية في العالم . إلا أن اليابان رغبت فيه لتدفع بأنظار الدول الأخرى إلى أوربة المهددة أمام روسيا البلشفية ، وبذلك يخلو لها الجو في المحيط الهادي .

لقد استطاع هذا الحلف والذي سمي فيما بعد بمحور برلين روما طوكيو المساومة في الأزمات الأوربية . فقد تدخل في الحرب الإسبانية عام (١٩٣٨) ، وفي أزمة تشيكوسلوفاكيا عام (١٩٣٨) ، وفي ألبانيا عام (١٩٣٩) ، وفي الشرق الأقصى في الحرب الصينية اليابانية .

شعرت الولايات المتحدة الأمريكية بتأزم الموقف في الشرق الأقصى والمحيط الهادي ، واتخذت موقفاً معارضاً لليابان ، ورفضت الاعتراف بأي تغيير في حدود دول الشرق الأقصى ، ثم أتبعت ذلك

الغاء الاتفاقية الاقتصادية مع اليابان ٢٦ تموز (١٩٣٩) والتي كانت معقودة منذ عام (١٩١١) . وكانت اليابان بموجبها تشتري البترول والحديد والقطن والكثير من المواد الأولية اللازمة لصناعتها الحربية .

اندلاع الحرب الأوربية

إن معاهدة عدم الاعتداء الروسية الألمانية ٢٣ آب (١٩٣٩) ألغت الحلف المضاد للبلشفية بطبيعة الحال إلا أن تسارع الأحداث في أوربة باندحار فرنسا السريع ، وسيطرة ألمانيا على كافة أوربة الغربية ، جعلت اليابان تتخذ سياسة جديدة فبدأت داخلياً تعديل الحكومة وألغت الإضراب ، وضمت جميع الفئات تحت لواء الحزب الوطني الواحد الذي سمي بالتجمع لتطوير سياسة الإمبراطورية . وبدأت باستغلال موارد الصين ، ثم اتجهت بانظارها نحو الجزائر الجنوبية ، للاستفادة من خاماتها . وبدأت التفكير جدياً باحتلال جزائر الهند الشرقية وجزائر الفيليبين الغنية بالمواد الأولية وخاصة المطاط .

في ٢٩ أيلول (١٩٤٠) وقع ماتسيوكا الياباني في برلين الحلف الثلاثي أو الحلف الفولاذي . وكان يعطي كلاً من ألمانيا وإيطاليا واليابان حق التوسع الحيوي على أن تتوسع ألمانيا وإيطاليا في أوربة ، واليابان في أراضي آسيا الواسعة .

حمت اليابان موقفها في المحيط الهادي ، إذ كانت تعلم بأنها سوف تصطدم مع الولايات المتحدة الأمريكية قريباً . وكانت لا ترغب في المحاربة على جبهتين . وكذلك الأمر بالنسبة لروسيا فعقدت مع هذه الأخيرة معاهدة صداقة وحياد وعدم اعتداء في ١٣ نيسان (١٩٤١) بحيث لا تلزم على مهاجمة روسيا في حال تعرضها لهجوم ألماني . ثم اتبعت ذلك اتفاقية مع الجنرال كاترو[٣٨] الفرنسي بعد إنهيار فرنسا تتعهد فرنسا بموجبها وقف الإمدادات التي كانت تقدمها للصين عن طريق الهند الصينية ، وسمحت لليابان بمراقبة ذلك ، وسمحت لها باستخدام بعض القواعد البحرية ، وثلاثة مطارات حربية في المنطقة . كانت فرنسا مجبرة على ذلك نظراً لضعف قواتها الموجودة في الهند الصينية ، أمام جيوش الإمبراطورية اليابانية الظافرة ، والمتاخمة لحدودها هناك .

اليابان والولايات المتحدة

لمست الولايات المتحدة الأمريكية الأخطار الناجمة عن توسع اليابانيين في منطقة الشرق الأقصى ، خصوصاً بعد أن اقتحم (٤٠) ألف مقاتل ياباني الحدود في الهند الصينية ، واحتلوا مدينة

سايغون ، ثم وقعوا الاتفاقية الخاصة بحماية الهند الصينية مع حكومة فيشي الفرنسية . فأمر روزفلت باتخاذ اجراءات مضادة لليابان كان منها التالي :

ــ في ٢٥ آب حجزت جميع الطائرات اليابانية الموجودة في الولايات المتحدة .

ــ ٢٦ آب أرسلت الولايات المتحدة بعثة عسكرية أمريكية إلى الصين ، واتبعت ذلك بقطع جميع الاتصالات البحرية والجوية واللاسلكية مع اليابان ، وأخيراً منعت تصدير البترول لها . وفرضت على المستعمرات البريطانية في المنطقة وعلى جزائر الهند الشرقية منع إمداد اليابانيين بأية محروقات .

قطعت جميع العلاقات الاقتصادية بين الولايات المتحدة واليابان ، ولكن التردد في إشعال الحرب كان واضحاً لدى الطرفين . والمعتقد أن اليابان قررت مهاجمة الولايات المتحدة بعد أن سمعت بالانتصارات الباهرة التي يحققها الألمان في الجبهة الروسية ، وبالصعوبات التي تعانيها بريطانيا في تلك الآونة ، وخصوصاً تدهور موقفها في المتوسط وشمال إفريقية . واعتقدت بأن الحرب باتت قريبة النهاية ففضلت بدء العمليات ضد الولايات المتحدة قبل أن تضاعف هذه الأخيرة من إنتاجها الحربي .

وأخيراً وفي تشرين الأول من العام نفسه استطاع الجنرال توجو[٣٩] الياباني ترؤس الحكومة التي قررت بدء العمليات الحربية ضد الولايات المتحدة نظراً للظروف المؤاتية انذاك . وبدأت اليابان إنهاء استعداداتها . ولكي تكفل مزيداً من الوقت أرسلت مبعوثاً فوق العادة إلى واشنطن لمفاوضة الولايات المتحدة حول بعض النقاط ، أهمها استعداد اليابان للانسحاب من الهند الصينية مقابل حصولها على المواد الأولية والمحروقات ، ورفع التجميد عن حساباتها في مصارف الولايات المتحدة ، وعدم تقديم أمريكا أية مساعدات إلى الصين .

في ٢٦ تشرين الثاني أوضحت الولايات المتحدة مطالبها على شكل إنذار بقولها إن حلف عدم الاعتداء المعقود بين بريطانيا والصين واليابان وهولندة وروسيا وتايلاند والولايات المتحدة يفرض احترام الأراضي الصينية . ومعنى ذلك انسحاب القوات اليابانية الغازية من أرض الصين ، والهند الصينية ، والاعتراف بحكومة تشونغ ــ كنغ على أنها الحكومة الشرعية الوحيدة في الصين ، وفي الوقت نفسه على الولايات المتحدة واليابان التخلي عن الحقوق والامتيازات الدولية لهما في الصين ، وبهذا يمكن العودة إلى عقد إتفاقية اقتصادية جديدة مع فك تجميد الأموال والحسابات اليابانية في الولايات المتحدة ... الخ .

قبل وصول رد الولايات المتحدة كان الجنرال توجو يلقي خطاباً هاماً يهاجم فيه الأنكلو ـ ساكسون، ويتهمهم بتمزيق الشعوب الآسيوية، واستغلالهم لأرضها وخيراتها، معتزماً إرسال المزيد من القوات إلى الصين.

كان مقرراً أن يقدم المبعوث فوق العادة الياباني رد حكومته على المقترحات الأمريكية الجديدة بتاريخ ٧ كانون الأول، ولكن بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني تحرك الأسطول الياباني نحو ميناء بيرل هاربور. وفي الخامس من كانون الأول صدر له الأمر بمهاجمته كما سنقرأ ذلك تفصيلاً.

الوضع الجغرافي

آ ـ فكرة عامة

أحببنا إعطاء فكرة عامة مختصرة عن المحيط الهادي وصفاته الجغرافية، نظراً لما لذلك من أهمية ضرورية في تتبع الأحداث فيه، ولنتصور الموقف الجغرافي حيث ستدور فيه أحداث وعمليات بحرية هامة.

١ ـ تبلغ مساحة المحيط الهادي (١٧١) مليون كيلومتر مربع أو ما يعادل أكثر من ربع مساحة الكرة الأرضية.

٢ ـ المسافات فيه شاسعة البعد، فمثلاً المسافة بين يوكوهاما في اليابان وبيرل هاربور (٣٤١٩) ميلا بحرياً (والميل البحري يعادل ١٨٥٢ متراً).

ـ المسافة بين سان فرانسيسكو وبيرل هاربور (٢٠٩٨) ميلاً بحرياً.
ـ المسافة بين سان فرانسيسكو ومانيلا (٦٢٣٨) ميلاً بحرياً.
ـ المسافة بين سان فرانسيسكو وسيدني أوستراليا (٦٥٢٤) ميلاً بحرياً.
ـ المسافة بين تاهيتي وباناما (٤٥٠٩) ميلاً بحرياً.

أما الجزائر فيه فكبيرة ضخمة مثلاً بورنيو طولها (١٥٠٠) كم وعرضها (١١٠٠) كم وغينيا الجديدة طولها (٢٣٩٨) كم وعرضها (٦٦٠) كم.

٣ ـ إن الطقس في هذا المحيط المترامي الأطراف متنوع فهو عند خط الاستواء المار بسومطرة وبورنيو وشمال جزائر سيليب وجنوب جزائر كارولينا وجيلبر، أي أن المنطقة المحصورة بين

العرض الجغرافي (١٠) درجات شمالاً و (١٥) درجة جنوباً حول خط الاستواء طقس استوائي حار جداً لا فصول فيه ، أمطاره متواصلة وغزيرة ، وجزر هذه المنطقة غنية بالغابات الاستوائية الكثيفة (سومطرة ــ بورنيو ــ غينيا الجديدة ــ جزر سالمون) . أما خارج حدود هذه المنطقة أي في جزر هبريد الجديدة وتاهيتي وجنوب غينيا الجديدة فتظهر الفصول المتباينة وتصبح الحرارة أكثر اعتدالاً والغابات أقل امتداداً .

ب ــ القواعد اليابانية

كانت القواعد اليابانية ممتدة في هذا المحيط من شماله إلى جنوبه مسافة (٣٠٠٠) كم تقريباً ، فهي تبدأ بالجزائر اليابانية شمالاً وتنحدر بجزائر بونان ، ماجيلان فولكانو ، ماريان حتى جزر كارولينا . وأهم القواعد في هذه الجزر هي سايبان ، أما شرقاً فهي تمتد من جزيرة بالو ، وتتجه نحو جزر كارولينا وماريشال . وأهم القواعد الأساسية هي ياب ، تروك ، أورلوك ، بونابي ، كوساي ، وجاليوت . أضف إلى ذلك القواعد الهامة التي كانت تحتلها في الصين ، وفي الهند الصينية الفرنسية ، والتي كانت تشكل نقاطاً استراتيجية هامة لعبت دوراً كبيراً في معارك هذا المحيط .

ج ــ القواعد الأمريكية

كانت القواعد الأمريكية في المنطقة قليلة نسبياً ، وموزعة بشكل غير منتظم ، وغير مجهزة تجهيزاً تعبوياً وأهمها كانت في جزر هاواي وميدواي حتى الفيليبين . ولكن مثلاً جزيرة ويك كانت معزولة تماماً وجزيرة غوام لوحدها ضمن مجموعة جزائر تمتلكها اليابان ، أما جزائر الفيليبين فقد كانت مهددة بصورة مستديمة من قبل فورموزا شمالاً ، وجزائر ماريان ويالو شرقاً ومن الهند الصينية غرباً ، ولم تكن هناك إلا جزائر الآليوتين شمالاً ، والتي كانت موجهة نحو اليابان . أما الظروف الجوية لتلك المنطقة فقاسية وغير مواتية في أكثر أيام السنة .

د ــ القواعد الحليفة

كانت القواعد الحليفة التي تمتلكها كل من بريطانيا وفرنسا وهولندا عديدة ، وكان باستطاعة أمريكا استخدامها في حالة اشتباكها مع اليابان ونعدد منها :

ميناء هونغ ــ كونغ الهام ، وقاعدة سنغافورة التي كانت تتحكم في طريق جزائر الهند الشرقية مع بحر الصين ــ وجزائر الهند الشرقية سومطرة جاوا والأرخبيل ، فكانت ذات مساحات واسعة ومأهولة ، وغنية بالخيرات ، ثم أوستراليا الشاسعة وكاليدونيا وزيلندة الجديدة .

في المنطقة المتوسطة من المحيط نجد غينيا الجديدة وجزائر سالمون وجزيرة سانتا كروز وجزائر هبريد وفيجي .

وفي أقصى الشرق نجد جزائر تونغا ، ساموا ، إبليس ، وجيلبر ، وللحلفاء فيها عدة قواعد ..

كانت هذه النظرة الخاطفة على المحيط الهادي ضرورية لتصور الموقف العام لكل من اليابان والولايات المتحدة جغرافياً . وطبعاً فقد كانت اليابان أكثر قوة من الحلفاء في المنطقة ، واستطاعت احراز انتصارات سريعة وباهرة .

الخطط اليابانية

تلخص الخطط اليابانية بالمفاجأة والضرب معتمدة على :

ـــ التحضيرات والاستعدادات الدقيقة منذ أمد بعيد .
ـــ الإقدام مقروناً بمهارة حربية وتكتيكية عالية .
ـــ أنانية مستحكمة في السيطرة مع معالجة الأمور بحكمة ودبلوماسية (حلفها مع روسيا في ١٣ نيسان ١٩٤١) .

وشملت الخطط اليابانية مجموعتين من العمليات هي :

آ ـــ مهاجمة القاعدة الأمريكية في بيرل هاربور لتدمير أسطول أمريكا الضخم في المحيط الهادي .

ب ـــ اقتحام جزائر الجنوب بحرب خاطفة .

آ ـــ مهاجمة بيرل هاربور

أمر الأميرال ياماموتو(٤٠) هيئة أركان حرب الأسطول الثاني بدراسة عملية هجوم خاطفة على الأسطول الأمريكي في هاواي . وفي ١٥ أيلول تم الانتهاء من وضع الخطة . في ٥ تشرين الأول وزعت على قادة الأساطيل ، وفي ٧ منه صدر الأمر محدداً يوم بدء العملية بتاريخ ٧ كانون الأول الذي يقع يوم أحد ، اختاره اليابانيون خصوصاً بحيث يكون أسطول أمريكا في قاعدته بيرل هاربور اعتباراً من بعد ظهر يوم السبت لقضاء عطلة نهاية الأسبوع .

بدأ ياماموتو بتاريخ ١٤ تشرين الثاني بإنجاز التحضيرات النهائية للعملية فقد جمع القوات

البحرية الضاربة في خليج منعزل من جزيرة ايتوروفو (من جزائر أرخبيل كوريل) وانتهى من تحضيراته بتاريخ ٢٢ من الشهر نفسه .

أصدر الأميرال أمر الحركة محدداً فيه تاريخ الاقلاع بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ، على أن يتم تزويد الأسطول بالمحروقات في الرابع من كانون الأول ، وفي النقطة ذات الإحداثيات (٤٢) درجة شمالاً و (١٧٠) درجة شرقاً . وعلى الأسطول المهاجم العودة إلى الجزائر اليابانية بعد انتهاء الهجوم .

تضمن أمر الحركة توزيع القوات المكلفة بالعملية وتشكيلاتها وهي :

١ ــ القوة الضاربة الرئيسية

وتتألف من (٢) بارجة طراز كونغو ، و (٢) حاملة طائرات طراز كاغا ، و (٢) حاملة طائرات طراز سوريد ، و (٢) حاملة طراز شوكاكوا و (٢) طراد ثقيل طراز تون وطراد خفيف و (١٦) مدمرة .

٢ ــ القوة الاستطلاعية

وتتألف من (٣) طرادات خفيفة و (٢٠) غواصة ثقيلة ، و (٥) غواصات جيب ، مع عدة سفن مساعدة تتضمن الكاسحات ، وسفن الاصلاح ... الخ . على أن تتقدم الغواصات القوة الضاربة الرئيسية للقيام بمهمتها الاستطلاعية ، وأن تتخلف السفن المساعدة وسفن الإصلاح لاستخدامها عند الحاجة .

٣ ــ القوة الداعمة الاحتياطية

وتتألف من عدة بوارج وطرادات ثقيلة وحاملات طائرات تبقى مستنفرة وجاهزة للحركة في الموانى اليابانية ، وتستخدم كقوة دعم واحتياط إن دعت الحاجة إليها ..

كلفت الغواصات اليابانية بمهمة استطلاع متحرك يمتد من جزر الاليوتين شمالاً وحتى جنوب جزيرتي فيجي وساموا جنوباً مشكلة ستارة جانبية أمام الأسطول الياباني المتقدم نحو جزائر هاواي . وأعطيت مهمة إضافية لبعض الغواصات بالبقاء في المنطقة ، بعد انتهاء الهجوم لضرب الوحدات البحرية الأمريكية في حالة تحركها من الميناء ، كما أعطيت مهمة لبعضها بالمرور أمام السواحل الأمريكية المتاخمة للمنطقة . أما مهمة غواصات الجيب فكانت التسلل إلى ميناء بيرل

هاربور ، والقيام بهجوم مفاجىء لضرب الوحدات البحرية الأمريكية الراسية في مدخل الميناء لتعطيل الممر المائي .

ب ــ خطة اقتحام الجنوب

الغرض من هذه الخطة تدمير القوات الأمريكية المحلية ، واحتلال الأرض بالترتيب التالي :

احتلال برمانيا وماليزيا في الغرب ، وجزائر الجنوب جنوباً ، وجزائر الفيليبين شرقاً . وضعت هذه الخطة من قبل هيئتي أركان حرب القوات البرية والقوات البحرية ، على أن يقدم الأسطول وسائط النقل والدعم للقوات البرية النازلة في الجزائر ، آخذين بعين الاعتبار الصعوبات التي يمكن أن تعترضهم في أثناء تنفيذ الخطة ، والاحتمالات المترتبة عن ذلك . وكان أهم هذه الصعوبات بالنسبة لليابانيين هي :

١ً ــ أسطول إنكلترا السريع والمؤلف من البوارج برنس أوف ويلز ، والريبولس ومن عدة مدمرات ، والذي يمكن دعمه سريعاً بطرادين وعدة مدمرات من الأسطول الأوسترالي ومن طرادين وحاملة طائرات من أسطول المحيط الهندي ، بالإضافة إلى مجهود جوي بريطاني ضخم متمركز في مطارات سنغافورة .

٢ً ــ أسطول هولندا في جزيرة جاوا .

٣ ــ أسطول أمريكا الآسيوي في الفيليبين ، والمؤلف من (٣) طرادات ، و(١٣) مدمرة و (٢٩) غواصة وعدة طائرة بحرية ، مع عدة مجموعات من مقاتلات وقاذفات قنابل متمركزة في مطارات مانيلا .

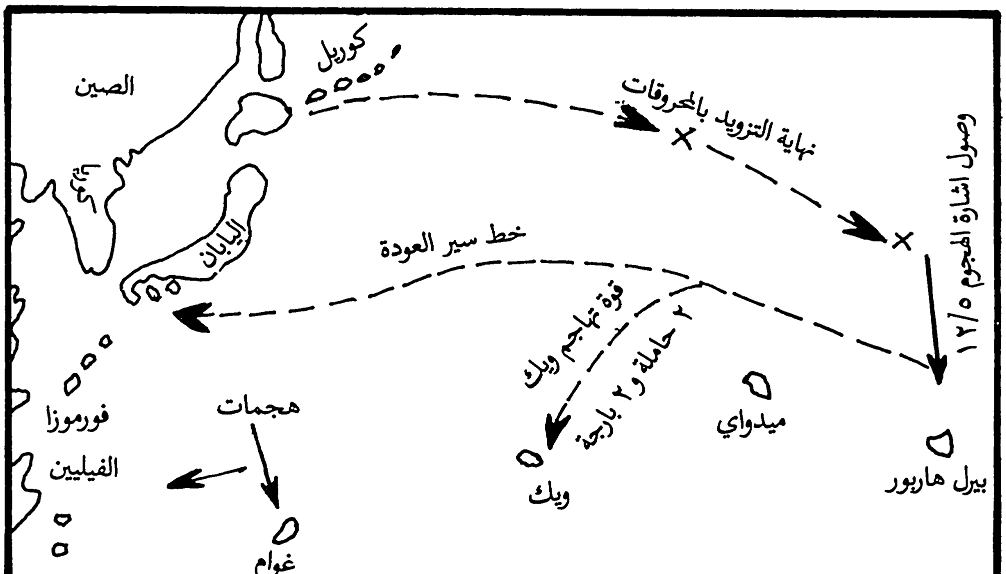

تنبأت اليابان بانعدام التنسيق بين القوات الحليفة في المنطقة ورأت مجابهة الأخطار المتقدمة بالمخطط التالي :

ــ تدمير أسطول بريطانيا الموجود في سنغافورة .
ــ شل مطارات الفيليبين بالغارات الجوية المتواصلة .

وخصصت لخطة اقتحام الجنوب القوات البحرية التالية .

١ ــ قوة دعم وإسناد مباشرة مؤلفة من (٢) بارجة طراز كونغو ، (٢) حاملة طائرات خفيفة (٤) طرادات طراز آتاغو ، و (٤) مدمرات .
٢ ــ قوة مضادة للفيليبين مؤلفة من (٤) طرادات طراز ناتي ، وطرادات خفيفة ، (١٠) مجموعات مدمرات ، (٢) ناقلة طائرات مع (٦٠) مركب احتياطي مختلف .
٣ ــ قوة مضادة لماليزيا مؤلفة من (٤) طرادات طراز موغامي ، (٤) مجموعات مدمرات عدة سفن نقل وإنزال .
٤ ــ قوة داعمة احتياطية ، وتتألف من البوارج الضخمة ياماتو ، موتسو ، ناغاتو أيس ، هيوغا ، فيزو ، ياماشيرو وحاملة الطائرات هوسير .

أما الغواصات فقد كلفت بكشف سفن بريطانيا وضربها في بحر الصين مع القيام باستطلاع في مياه جزر الفيليبين .

٥ ــ القوى الجوية التي خصصت لخطة اقتحام الجنوب تتألف من (٣٥٠) طائرة متمركزة في كل من الهند الصينية وفورموزا و(٤٠٠) طائرة من الأسطول الجوي الثاني التابع للقوات البحرية . وكان مؤلفاً من (١٦٨) طائرة زيرو و(١٩٨) طائرة بيني مع حوالي (٣٠) طائرة استطلاع .

الهجوم الياباني

آ ــ بيرل هاربور ٧ كانون الأول (١٩٤١)

تنفيذاً لخطة الهجوم على بيرل هاربور تحرك الأسطول الياباني في الساعة التاسعة من تاريخ ٢٦ تشرين الثاني متجهاً نحو الغرب وسالكاً الطريق الشمالي البعيد عن جزائر أمريكا في المنطقة (.ميدواي وويك) . وتضمنت التعليمات أن يتخلى الأسطول عن العملية في حال كشفه من قبل

العدو قبل يومين من تاريخ يوم الهجوم. أما إذا كشف قبل يوم واحد فيترك تقدير الموقف للأميرال ناغومو قائد الحملة.

حالف الحظ اليابانيين فلم يقابلوا في أثناء تقدمهم أية طائرة أو سفينة أمريكية. وتابعوا سيرهم إلى نقطة التموين بالمحروقات. وتم تزويد جميع السفن في بحر هادىء ورؤية جيدة. وفي ٥ كانون الأول وعلى بعد (٨٠٠) ميل من شمال جزائر هاواي تلقى الأسطول إشارة الهجوم وكانت عبارة عن جملة متفق عليها وهي «تسلقوا قمة جبل نييتاكا». وعندها تقدت حاملات الطائرات الست نحو الجنوب وبسرعة (٢٥) عقدة (العقدة ميل بحري واحد في الساعة).

تتصف جزر هاواي بصفة استراتيجية خاصة فهي تبعد (٢٠٠٠) ميل عن أمريكا و(٣٤٠٠) ميل عن اليابان و(٣٣٠٠) ميل عن قاعدة جزيرة غوام الأمريكية. وبيرل هاربور ميناء في جزيرة أواهو ثالث جزر هاواي، من حيث الاتساع (١٥٤٨) كيلومترمربع والأولى من حيث تعداد السكان والازدهار. والميناء عبارة عن حفرة إنهدامية واسعة متصلة مع البحر بفتحة عرضها (٢) ميل أما المدخل فعرضه نصف ميل فقط. وعلى أرض الجزيرة نجد عدة مطارات حربية هامة محمية بدفاع جوي جيد.

كان لأمريكا في المحيط الهادي (٣) حاملات طائرات، (٩) بوارج، (١٣) طراداً ثقيلاً (١١) طراداً خفيفاً وما يقرب من (٩٠) مدمرة و(٣٠) غواصة. وقسم من هذه القوة متمركز في جزائر الفيليبين والباقي وهو الأكثر أهمية في قاعدة بيرل هاربور، حيث نجد كافة حاملات الطائرات والبوارج وثلثي باقي سفن أسطول الهادي.

بمحض المصادفة فقد كانت اثنتان من حاملات الطائرات الأمريكية المتمركزة في بيرل هاربور خارج الميناء يوم الهجوم، فالحاملة ليكسنغتون على بعد (٣٠٠) ميل وإلى الجنوب الغربي من جزيرة ميدواي، والحاملة انتروبرايز والتي كان من المفروض دخولها الميناء بتاريخ ٧ تأخرت، وكانت على بعد (٢٠٠) ميل من بيرل هاربور عند الهجوم، أما الحاملة الثالثة ساراتوغا والبارجة كولورادو فقد كانتا في أمريكا للإصلاح. وعليه فهجوم بيرل هاربور كان بـ(٦) حاملات طائرات يابانية على ثمانية بوارج وعدة سفن أخرى ذكرت آنفاً.

قبل أن نصف معركة بيرل هاربور لا بد لنا من الإشارة لبعض النقاط الهامة التي كشفت

عنها التحقيقات الأمريكية التي أعقبت تلك المأساة التي لحقت بأسطول أمريكا في المحيط الهادي، وخاصة في النواحي الفنية وأثرها .

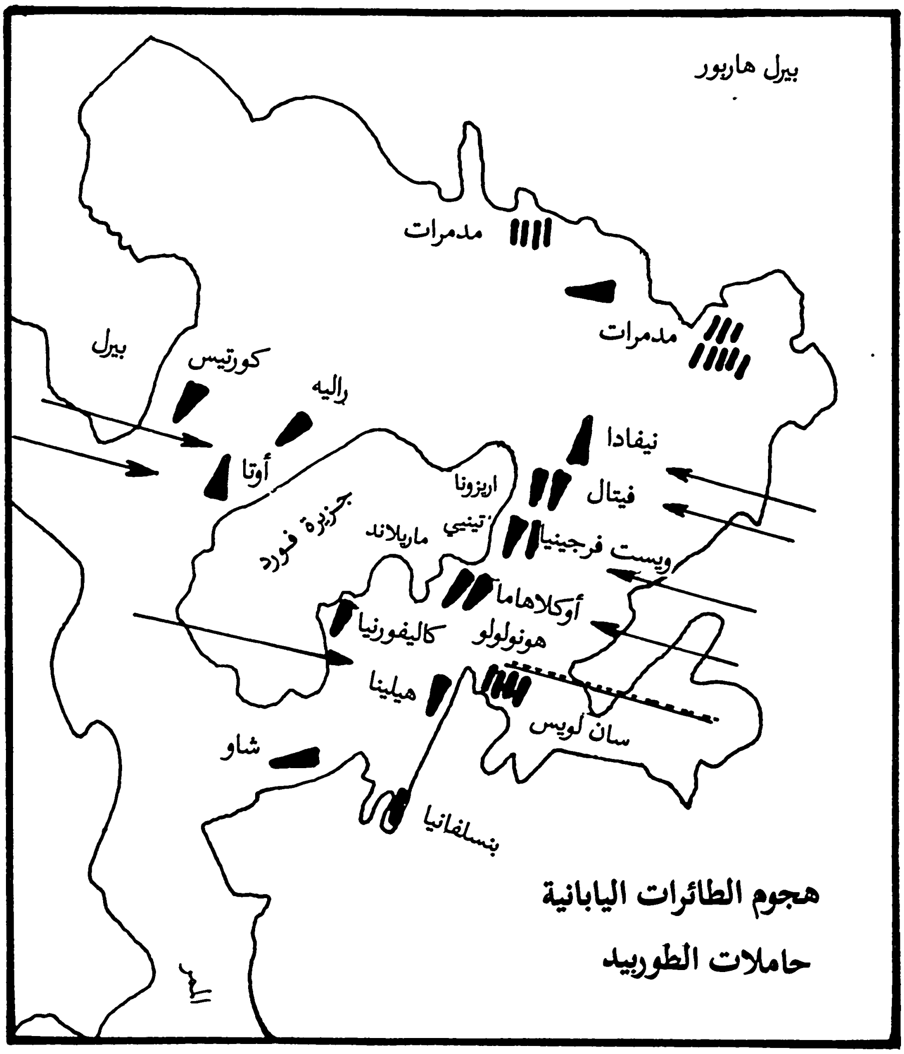

سعى الأميرال كيمل القائد العام لأسطول الهادي الأمريكي منذ تسميته لقيادة هذا الأسطول لتحسين دفاع جزيرة أواهو . فاستقدم قوات تعزيز للوحدات الجوية ، وبدأ بإحاطة الجزيرة بسوار من الدفاع المضاد للطائرات يعمل بالرادار . إلا أنه يبدو أن القادة الأمريكيين لم يكونوا يتوقعون هجوماً مفاجئاً كالذي حدث . ويقال إن الإشارة اليابانية التي أرسلت في ٢٠ تشرين الثاني إلى الدبلوماسيين في أمريكا بحرق وإتلاف الشيفرة والرموز المستخدمة لم تبلغ إلى القادة الأمريكيين في هاواي . وأن الإشارة اليابانية التي تضمنت رفض المقترحات الأمريكية (ومعناه الحرب) لم تحل في الاستخبارات الأمريكية إلا في ليل ٦ ــ ٧ كانون الأول ، وكان عليها أن تمر على البيت الأبيض ظهر

اليوم التالي بتوقيت واشنطن. ولم يعلم المسؤول الأمريكي المستر كورديل هول بتوقع هجوم بيرل هاربور إلا في الساعة ٢٠ر١٤ أي في الساعة ٢٠ر٦ من توقيت هونولولو وكان ذلك متأخراً بالنسبة للعملية.

أما في بيرل هاربور فيبدو **أن المسؤولين كانوا أكثر اطمئناناً من زملائهم في القارة الأمريكية، ولم يفكروا البتة بوقوع هجوم مفاجىء عليهم**. وكان الجنرال شورت والمسؤول عن دفاع الجزيرة وأمن الميناء قد أهمل هذا الموضوع، وتضمنت تدابيره فقط التالي:

- احتياطات خاصة ضد أعمال تخريبية يحتمل أن يقوم بها اليابانيون القاطنون في الجزيرة والبالغ عددهم (١٦٠) ألف ياباني. وكان من ذلك تجميع الطائرات في المطارات بدون أي فكرة تعبوية بل لتسهيل حراستها فقط.
- المدفعية المضادة للطائرات المتحركة في مخازنها وكان عددها يفوق بكثير البطاريات الثابتة الداخلة في سوار الدفاع الجوي أما الذخيرة ففي مستودعاتها.
- الرادارات في الجزيرة جاهزة، ولكن حددت ساعات عملها فقط بين الساعة ٤ والساعة ٧ صباحاً.
- وضعية الاستعداد على السفن من الدرجة الثالثة (أي بعض السفن المضادة للطائرات مستنفرة فقط).
- انعدام الدوريات الجوية البعيدة المدى، ففي فجر ٧ كانون الأول لم يكن هناك أي دورية جوية (كان صباح يوم أحد) علماً بأن الإستخبارات الأمريكية كانت قد كشفت ثم فقدت أثر حاملات الطائرات اليابانية قبل يومين من بدء الهجوم.

مراحل الهجوم

حاولت غواصات الجيب اليابانية التسلل إلى الميناء لمفاجأة الأمريكيين إلا أنها كشفت ودمرت، ماعدا واحدة فقط استطاعت عبور الممر. وكان ذلك من الساعة الرابعة وحتى السادسة والنصف صباحاً، ثم أعقب ذلك الهجوم الجوي على المطارات والوحدات البحرية بموجات ثلاث.

١ ـ من الساعة ٥٥ر٠٧ وحتى الساعة ٢٥ر٠٨ هجوم جوي بالطوربيد والقاذفات بهجمات منقضة.

٢ ـــ من الساعة ٠٨ر٤٠ وحتى الساعة ٠٨ر٤٥ قصف جوي أفقي وعنيف .

٣ ـــ من الساعة ٠٩ر١٥ وحتى الساعة ٠٩ر٤٥ قصف جوي منقض .

النتائج

تدمير البارجة أريزونا وغرقها ، إصابة البارجة أوكلاهاما وانقلابها على جنبها ، غرق كل من البوارج كاليفورنيا ونيفاده وويست فرجينيا ، وإصابة وعطب كل من البوارج ماريلاند ونينيس وبنسلفانيا ، وكذلك اصابة (٣) طرادات خفيفة ، وتدمير (١٧٧) طائرة تابعة لسلاح الجو الأمريكي و (٢٥٩) طائرة تابعة لسلاح البحرية ، وخسر اليابانيون (٢٧) طائرة و (٥) غواصات جيب فقط .

إن الهدف الاستراتيجي من خطة ياماموتو قد تحقق وأكثر مما كان يتوقع له . وكان النجاح الذي أحرزه باهراً ، ويرجع فضله إلى شجاعة المنفذين وإقدامهم . ونتج عن هذه المعركة ظهور كفاءة الطائرات حاملات الطوربيد ، وأثرها في المعارك البحرية ، وكذلك الأمر بالنسبة لأهمية حاملات الطائرات واستخدامها التكتيكي .

ماليزيا وتدمير أسطول بريطانيا للشرق الأقصى

لجأ اليابانيون لإسلوب ألمانيا نفسه في المتوسط (احتلال كريت) من حيث تأمين السيطرة الجوية لهم في المنطقة . فقد دمروا مطارات ماليزيا ، وعزلوا سنغافورة جوياً ، وبذلك شلوا حركة الطيران الحليف في منطقة مترامية الأطراف من الشرق الأقصى .

بتاريخ ٩ كانون الأول أعلمت غواصة يابانية قيادتها عن إقلاع أسطول بريطانيا من قواعده في سنغافورة ، ومباشرة أنذر السلاح الجوي الياباني المتمركز في سايغون ، وأعطي مهمة مهاجمة هذا الأسطول . وفي اليوم التالي اشتبكت غواصة يابانية أخرى مع الأسطول ، ثم أرسلت إشارة تحدد فيها بدقة موقعه الجغرافي . وحينئذ أقلعت الطائرات اليابانية ، وكان عددها (٨٨) طائرة من طراز بيتي (٢٧) منها تحمل القنابل و (٦١) تحمل الطوربيدات وهاجمت الأسطول البريطاني بـ (٩) موجات متعاقبة ، فأغرقت البارجة برنس أوف ويلز (٣٥) ألف طن والبارجة ريبولس (٣٢) ألف طن وذلك في النقطة التي تبعد (٥٠) ميلاً إلى الشرق من جزيرة كوانتان في بحر الصين ، **وكانت هذه الخسارة الفادحة لبريطانيا نتيجة انعدام التغطية الجوية لأسطولها .**

قال تشرشل في مذكراته «ان الخسارة الفادحة التي وقعت لنا في بحر الصين مع مأساة بيرل هاربور جعلت المنطقة الممتدة من سان فرانسيسكو في أمريكا وحتى ميناء عدن والتي يبلغ طولها (١٤٠٠) ميل منطقة مفتوحة أمام اليابانيين، والحلفاء لا يمتلكون في هذه الرقعة الشاسعة من البحر قوات بحرية كافية لصد هجمات أساطيل اليابان المنتصرة».

تحقيق السيطرة الجوية اليابانية في الفيليبين وجزائر الجنوب

تابع اليابانيون تنفيذ خطتهم الجبارة في اقتحام الجنوب، وبدأوا أولى مراحل هذه العملية بشل الطيران الأمريكي في جزائر الفيليبين. ففي ٨ كانون الأول قامت من فورموزا قوة جوية مؤلفة من (٧٢) طائرة زيرو و (١٠٠) طائرة بيتي بمهاجمة المطارات في جزر الفيليبين، وقصفوا الطائرات الجاثمة في كل من مطار كلاك فيلد، ونيكول فيلد، ودمروا مايربو على ثلثي القاذفات والمقاتلات الموجودة هناك، والتي قدر عددها بـ (٢٣٠) طائرة. وكانت خسائر اليابانيين لا تذكر نظراً لعدم استطاعة الطيران الأمريكي الإقلاع خلال المعركة. وقد علق الجنرال ماريشال[٤١] على ذلك بقوله «إن الخسائر التي منينا بها كانت نتيجة عدم نشر طائراتنا لضيق المجال، ولضعف وسائط انذارنا من رادارات، وقلة وسائط دفاعنا المضاد، وأخيراً نقص شامل في كافة الوسائط الفنية الأخرى».

كان لتلك العملية نتائج حربية وخيمة على الحلفاء. فقد استطاع اليابانيون بعد أن تأكد لهم التفوق الجوي والبحري اقتحام الجنوب بسرعة مذهلة وكانت انتصاراتهم تتوالى في كل القطاعات وبالترتيب التالي:

- تدمير القاعدة البحرية الضخمة كافيت في جزيرة لوسون (أكبر جزر الفيليبين).
- إنزال في جزر باتان وآباري (شمال لوسون) واحتلالها بمساندة الطيران.
- احتلال مرفأ ليغاسبي في جزيرة لوسون.
- احتلال ميناء ومدينة دافاو في جزيرة ميناناو (ثاني جزر الفيليبين).
- احتلال مينائي جيلو وميناو في جزيرة سيليبس.
- احتلال موانىء كودات، تاراكان، وباليكبابان في جزيرة برنيو.
- تم احتلال مدينة ماكاسار عاصمة سيليبس.
- وأخيراً احتلال مدينة كوبانغ في جزيرة تيمور.

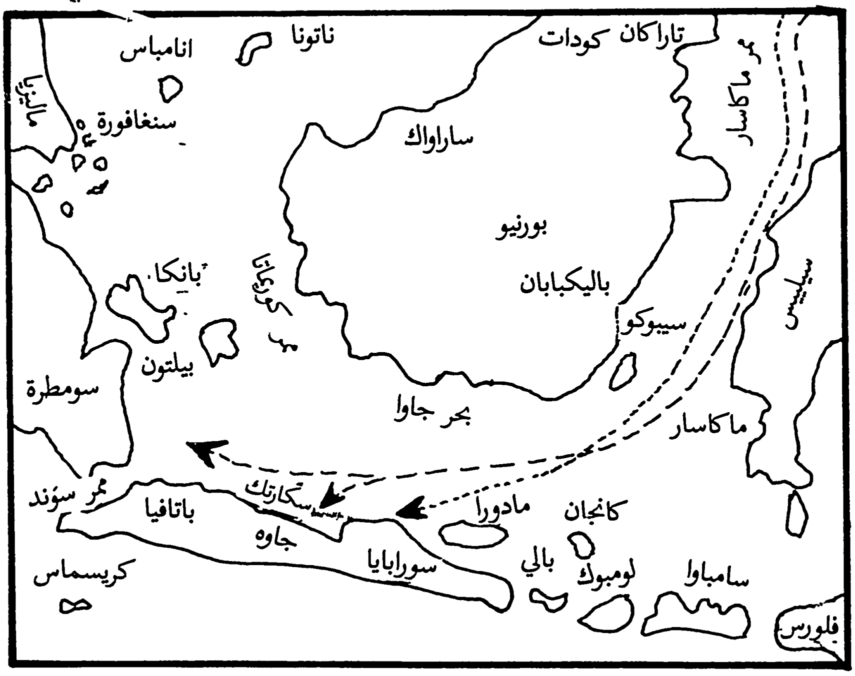

احتلال جاوا

احتلال جزيرة جاوا

فكر اليابانيون باحتلال جزيرة جاوا والجزر المجاورة لها نظراً لما في هذه الجزر من الموارد والخيرات، والتي كان اليابانيون بأمس الحاجة لها.

وقد مهد لاقتحام الجزيرة بمراحل أربع:

١ ـ احتلال جزيرة بالي المجاورة لجاوا بعد اشتباك بحري مع أسطول هولندا في المنطقة.

٢ ـ قطع خط امداد جاوا من الجنوب حيث كانت قوافل الامداد تأتي من مرفأ داروين في أوستراليا إلى جزر جاوا وسومطرة. وقد تم ذلك بعد أن استطاع اليابانيون تدمير مرفأ داروين الأوسترالي بوساطة الطيران المحمول. وقد قام بالهجوم أسطول اليابان المخصص للدعم البعيد، وكان مؤلفاً من (٤) بوارج، (٤) حاملات طائرات، (٨) طرادات ثقيلة و(٢٠) مدمرة.

٣ ـ قصف مدينة سوارابايا يومياً (أهم مدن الجزيرة).

٤ ـ وبهجوم جوي عنيف تم تدمير قسط كبير من أسطول هولندا وذلك بتاريخ ٤ شباط وفي المنطقة المحصورة بين جزيرتي كانجان وبالي. وعليه فبعد هذه التحضيرات أصبحت جزيرة جاوا معزولة، فتقدم اليابانيون على ثلاثة محاور لغزو الجزيرة، وذلك بثلاث قوافل إنزال في المناطق التالية باتافيا، سامارانك، وغربي سورابايا.

دهش اليابانيون بتاريخ ٢٧ شباط لوجود مقاومة بحرية في المنطقة، فتوقفت قوافلهم بعض الوقت. إلا أن تفوقهم الساحق أنهى المعركة البحرية بسرعة، وفقد الحلفاء الطرادين جاوا، وروبتر، وثلاث مدمرات، وعطب لبريطانيا الطراد الخفيف اكستر. وبعدها تم الإنزال بسهولة ودون مقاومة تذكر، نظراً لعدم وجود أي طيران حليف في المنطقة.

بعد أن أتم الأسطول الياباني دعمه لعمليات الإنزال في الجزيرة انطلق في البحار المجاورة يصطاد سفن الحلفاء المتبقية فقد أغرق :

ــ لبريطانيا الطراد اكستر مع مدمرتين .

ــ وللولايات المتحدة الطراد هوستون (٩) آلاف طن .

ــ ولأوستراليا الطراد بيرت (٧) آلاف طن والمدمرتين ايدسال وبيلسبوري والنسافة ناشفيل .

ــ وأخيراً لهولندا النسافة ايفرتسن .

سقوط مواقع بريطانيا في هونغ كونغ ٢٥ ــ كانون الأول ١٩٤١ وسنغافورة ١٥ ــ شباط ١٩٤٢

كانت قاعدة هونغ كنغ البريطانية منيعة ضد الهجمات اليابانية البحرية إلا أنها لم تستطع المقاومة أكثر من ١٧ يوماً أمام هجوم مشترك بري من أراضي الصين ، وبحري في آن واحد . وسقطت بأيدي اليابانيين بتاريخ ١٥ كانون الأول بعد مقاومة عنيفة .

أما سنغافورة فقد تبعت هونغ كنغ تحت وطأة هجوم بري عنيف قام به اليابانيون على محاور ثلاثة ، داخل غابات ماليزيا ، فاستطاعوا احتلال شبه الجزيرة ، واستسلمت الحامية البريطانية في سنغافورة بتاريخ ١٥ شباط ١٩٤٢ .

المقاومة في جزر الفيليبين

تتابعت انتصارات اليابانيين في جميع الجهات ففي ٩ آذار أنهوا تنظيف جزيرة جاوا ، في التاريخ نفسه احتلوا مدينة رانغون في برمانيا وفي ٨ آذار نزلوا في جوار لاي بجزيرة غينيا الجديدة ، وتابعوا تقدمهم في جزائر الفيليبين . إلا أن الأمريكيين أظهروا مقاومة عنيفة ، ولم تسقط آخر معاقلهم إلا بتاريخ ٩ مايس .

امتداد الخطر الياباني غرباً (خليج البنغال ، والمحيط الهندي)

بعد تصدع الخط الدفاعي الحليف الواصل بين جزائر الهند الشرقية والمار بتايلاند وماليزيا ، وبرمانيا وجزر آندامان ، وبعد احتلال اليابانيين للكثير من المواقع الاستراتيجية المسيطرة على المنطقة . لم يبق للحلفاء وخاصة إنكلترا شيء يدفع الزحف الياباني نحو سواحل الهند الشرقية وسواحل جزيرة سيلان . وهذا يعني تهديد الممر البحري الحيوي للهند والمار بالشرق الأوسط .

لم تنتظر بريطانيا مرور الزمن لتتعرف على نيّات اليابان التوسعية القادمة، بل أوعزت إلى حاملة الطائرات الاندوميتابل بنقل الطائرات المقاتلة والعتاد الحربي إلى جزيرة سيلان، ثم قامت بتحصين الميناء الموجود في جزائر آتول ـــ آدو (جنوب مجموعة جزر ماليدفيا الواقعة جنوب الهند) وإعداده ثم شكلت أسطولاً للدفاع عن المنطقة يتألف من حاملات الطائرات الثلاث التالية:

الحاملة فورميدابل، والحاملة اندوميتابل، ثم الحاملة الصغيرة هرمس، ومن أربع بوارج قديمة الصنع، و (٧) طرادات و (١٦) مدمرة.

في ٥ نيسان بدا الهجوم الياباني على جزيرة سيلان كان من نتيجتها إغراق الحاملة البريطانية هرمس وطرادين هما كورغويل، ودو رسنرهاير ثم انتقل الهجوم الجوي لسواحل الهند الشرقية فخسر البريطانيون عدة سفن تجارية. فشعرت الأميرالية البريطانية بعجزها عن مقاومة الهجوم الياباني المتفوق عددياً، وقررت سحب أسطولها إلى سواحل إفريقية الشرقية، ثم استنجدت بالقوات الأمريكية لمساعدتها في المنطقة.

لم يتابع اليابانيون هجماتهم نظراً لمقاومة جزيرة سيلان، ولتدخل القوات الأمريكية وبدء عملياتها في المحيط الهادي، ولاضطرارهم لإجراء بعض الإصلاحات العاجلة في حاملات طائراتهم التي كانت تشكل القوة الضاربة الفعالة. واستغلت بريطانيا هذه الفرصة المواتية فقامت في ٨ أيار بعملية إنزال في جزيرة مدغشقر الفرنسية، وفي المنطقة الشمالية المتاخمة لمدينة دياغو سواريز لمنع اليابانيين من احتلال هذه الجزيرة، وتهديد سواحل إفريقية الشرقية والمنطقة المحصورة بين مدغشقر وسيلان من المحيط الهندي.

إن نهاية شهر آذار من عام (١٩٤٢)، باستثناء بعض المقاومات المعزولة الإفرادية يعتبر نهاية تنفيذ المخطط الياباني الثاني الخاص باقتحام الجنوب. وقد تحقق لليابانيين الهدف من ذلك، ويرجع الفضل في نجاحهم إلى عوامل كثيرة أهمها:

ـــ استخدام قوات كبيرة تفوق القوات الحليفة عددياً (حوالي ٢٠٠ ألف مقاتل ١٠٠٠ طائرة، وكافة الأسطول البحري تقريباً).
ـــ تنظيم ودراسة عميقة للعمليات مع القيام بتحضيرات مدروسة وعملية.
ـــ تعاون وارتباط وتنظيم بين مختلف صنوف الأسلحة والقوى.
ـــ ضعف نسبي للقوات الحليفة المدافعة.

توقف اليابانيون بعد هذا التاريخ عن متابعة زحفهم غرباً لأسباب عديدة أهمها :

ــ نقص في الإمكانات الحربية .

ــ ضعف الأسطول التجاري الياباني في تأمين إمداد المواقع المحتلة والمتناثرة في جميع أرجاء الهادي والبعيدة جداً عن القواعد الرئيسية .

ــ تطور إمكانات الولايات المتحدة الحربية السريعة وزيادة انتاجها الحربي في جميع الوجوه .

ــ بعد مصانع وترسانات الولايات المتحدة المنتجة عن متناول الطيران الياباني .

وعليه فقد مرت في تلك المنطقة فترة سكون نسبية كانت كافية للحلفاء لإعادة النظر بخططهم الحربية ، وباستعداداتهم لشن حرب هجومية ، لإيقاف الامتداد الياباني وتقليصه .

صد الهجوم الياباني

آ ــ بحر كوريل ومسرح العمليات

كانت أعوام (١٩٤٢ ــ ١٩٤٣) وماتلاها فترة انتقال من الاندفاع الياباني إلى توقف ، ثم تراجع شمل المنطقة الجنوبية الغربية من المحيط الهادي التي تشتمل على : غينيا الجديدة وجزر سليمان . وهي جزر ممتدة بطول (٢٤٠٠) كم وبعرض (٦٦٠) كم ، وبمساحة قدرها (٨٣٢) ألف كيلومتر مربع تقريباً . وكانت هذه المجموعات من الجزر موزعة بين هولندا وأوستراليا ، وتعتبر مناطق منيعة صعبة المنال ، نظراً لوعورة طبيعتها الجغرافية . إذ تتألف من سلاسل جبلية وعرة في الشمال ثم غابات استوائية كثيفة في الوسط ، وأخيراً مستنقعات ومناطق ضحلة في الجنوب .

إلى الشمال الشرقي من هذه المجموعات نجد مئات الجزر الصغيرة المؤلفة لأرخبيل بيسمارك وبريطانيا الجديدة ، تبلغ مساحتها حوالي (٣٤) ألف كم مربع . وهي جزائر جبلية بركانية منفصلة عن جزيرة إيرلندة الجديدة بقناة سانت جورج .

ب ــ معركة بحر كوريل من ٤ إلى ٨ أيار (١٩٤٢)

اضطر اليابانيون وتحت ضغط الطيران الأمريكي إلى حماية قواعدهم الرئيسية ، وخاصة الموجودة في رابول ، فاضطروا إلى احتلال مزيد من الجزائر المحيطة والتي كانت تهددهم بصورة مستديمة فقاموا بغزو واحتلال كل من الجزر بوغانفيل ، شورتلاند ، وتولاغي من جزر مجموعة

سالمون ، ثم استعدوا لغزو قاعدة بورت مورسبي في غينيا الجديدة ، بعد أن علموا أن الحلفاء قد أعدوا مطارات ضخمة هناك مزودة بالقاذفات الثقيلة .

وضعت الخطة اليابانية لغزو هذا الميناء بحراً ، فجمعت سفن النقل في ميناء رابول (جزيرة بريطانيا الجديدة) ثم خصصت قوة بحرية دعيت بقوة الاحتلال جمعت في جزيرة شورتلاند ، ومن ضمنها حاملة الطائرات شوهو . أما القوة الرئيسية الداعمة والتي تتضمن حاملتي طائرات هما شوكاكو ، وزياكاكو .. فقد طلب منها الاستدارة حول جزر سالمون شرقاً لضرب أية تجمعات بحرية عدوة في المنطقة .

عرف الأمريكيون بنية الغزو المبيتة فقرروا الدفاع عن خطوط مواصلاتهم البحرية مهما كان السبب ، ليس لمنع اليابانيين من احتلال مرفأ مورسبي فحسب بل للانتقال إلى الهجوم المعاكس ، وضرب خطوط مواصلاتهم البحرية ، وذلك باستعادة احتلال بعض الجزائر الواقعة على الممر البحري وخاصة جزيرة تولاغي .

تألفت القوة الأمريكية المدافعة من تشكيل بحري يتضمن حاملة الطائرات يوركتاون . وعليه بدأ الهجوم في الساعة السادسة صباحاً . وفي أثناء ذلك يكون التشكيل البحري الثاني والمتضمن حاملة الطائرات ليكسنغتون ، والقادم من بيرل هاربور قد تقدم إلى بحر كوريل جنوب جزيرة سان كريستوبال ، بالإضافة إلى ذلك تقوم مجموعة بحرية أوسترالية ــ أمريكية مؤلفة من طرادين ثقيلين وعدة مدمرات بالتقدم نحو جنوب شرق غينيا الجديدة .

ــ في ٤ مايس قام تشكيل يوركتاون الأمريكي بمهاجمة جزيرة تولاغي ، وأغرق لليابانيين مدمرة وعدة سفن نقل ، ثم انسحب نحو الجنوب الغربي .

ــ في ٥ مايس تقدمت القوة الرئيسية الداعمة اليابانية إلى بحر كوريل مارة جنوب جزيرة سان كريستوبال ، دون أن يعلم الأمريكيون بوجودها .

ــ في ٦ مايس قامت القاذفات الأمريكية من ميناء مورسبي بمهاجمة قوة الاحتلال اليابانية دون نتائج تذكر .

ــ في ٧ مايس قامت طائرات الحاملات الأمريكية بإعادة الهجوم على قوة الاحتلال فأصابت الحاملة اليابانية شوهو ، حيث غرقت بعد ربع ساعة من إصابتها ، وتشتت سفن النقل والإنزال اليابانية في المنطقة .

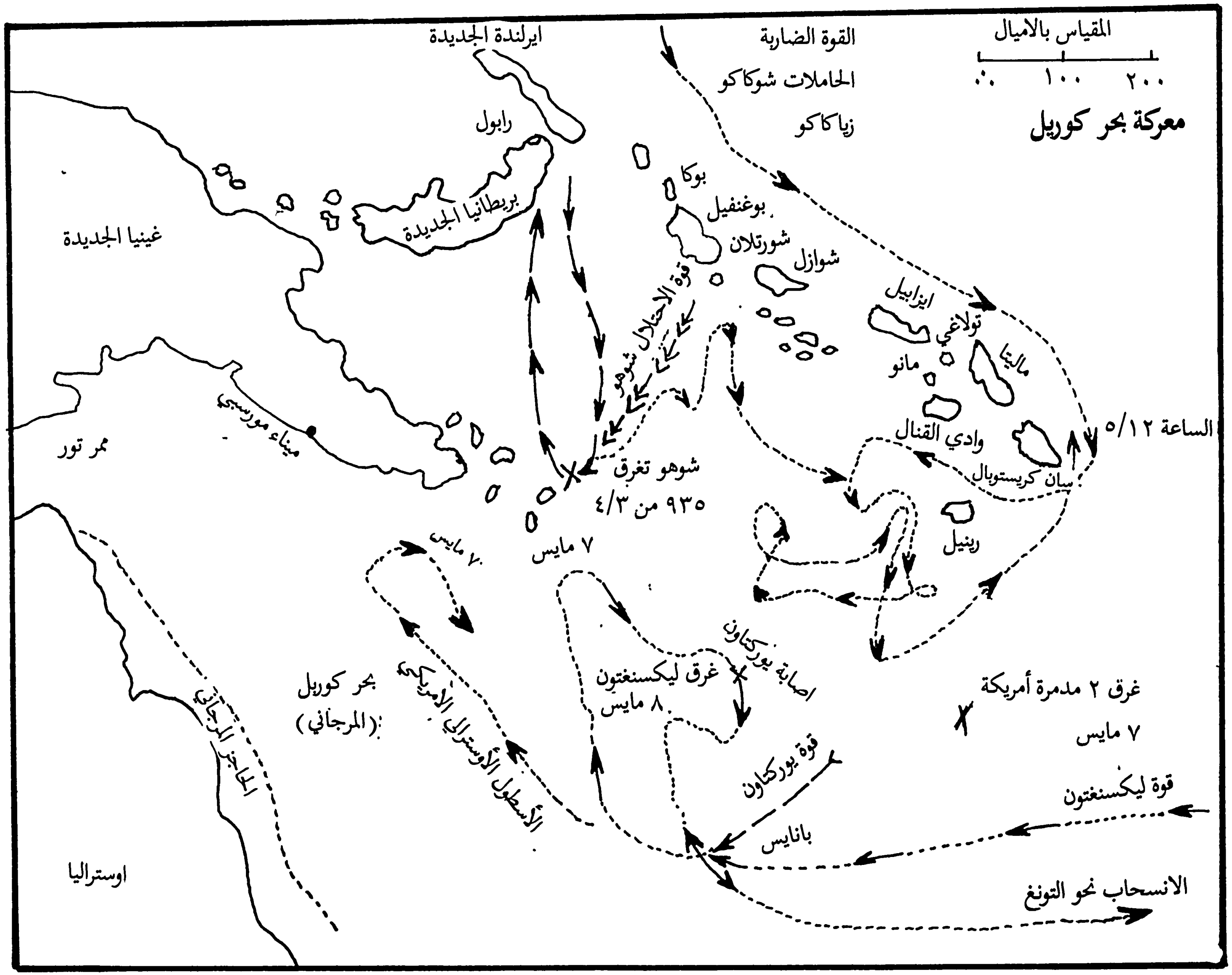
معركة بحر كوريل
المقياس بالاميال
٠ ١٠٠ ٢٠٠
القوة الضاربة
الحاملات شوكاكو
زياكاكو
ايرلندة الجديدة
رابول
بريطانيا الجديدة
غينيا الجديدة
بوكا
بوغنفيل
شورتلان
شوازل
ايزابيل
تولاغي
مالينا
مانو
وادي القنال
سان كريستوبال
رينيل
الساعة ١٢/٥
قوة الاحتلال شوهو
شوهو تغرق
٩٣٥ من ٤/٣
٧ مايس
ميناء مورسبي
ممر تور
غرق ليكسنغتون
٨ مايس
اصابة يوركتاون
غرق ٢ مدمرة أمريكة
٧ مايس
قوة ليكسنغتون
قوة يوركتاون
باناييس
الانسحاب نحو التونغ
بحر كوريل
(المرجاني)
الأسطول الأوسترالي الأمريكي
الحاجز المرجاني
اوستراليا

ــ بعد الظهر من ٧ مايس حصل أول احتكاك بين الأساطيل الموجودة في بحر كوريل. ولكن لسوء الأحوال الجوية وعلو أمواج البحر، ولاقتراب الليل رفض كلا الجانبين متابعة المعركة ليلاً، وتركوا ذلك لصباح اليوم التالي.

ــ في ٨ مايس وعند الفجر بدأ الاشتباك الفعلي وتقدمت القوات اليابانية بشجاعة فأصابت الحاملة ليكستغتون في الساعة ١١٫٣٠، وبعد ست ساعات غرقت الحاملة المذكورة، كما أصيبت الحاملة الأمريكية الثانية يوركتاون فقرر الأمريكيون الانسحاب، بعد الخسائر الجسيمة التي أصابت أسطولهم المدافع، وبقيت السيطرة كاملة لليابانيين في بحر كوريل وجزائر سالمون.

نستخلص من معركة بحر كوريل بعض النقاط الجديدة بالاهتمام:

١ً ــ لأول مرة في تاريخ المعارك البحرية تشتبك قوتان بحريتان دون أن تطلق أية قذيفة مدفع. وكان ذلك خلال الإشتباك الأمريكي الياباني يوم ٨ مايس حيث دارت المعركة البحرية والقوات تبعد عن بعضها أكثر من مائة ميل بحري. وتم الصدام والإشتباك بالطائرات المحمولة على الحاملات فقط. ومنذ ذلك التاريخ بدأ سلاح الطيران البحري يأخذ مكان الصدارة بين باقي صنوف الأسلحة البحرية.

٢ً ــ برزت أهمية الاستطلاع البعيد أمام القوات البحرية باستخدام طائرات الاستطلاع البعيدة المدى أو الغواصات (بمهمة استطلاع) وأن إهمال هذه الناحية الهامة لدى الطرفين المتنازعين في معركة بحر كوريل أدّى إلى النتائج السيئة والخسائر الفادحة، وخاصة لدى الأمريكيين عندما اقترب الأسطول الياباني منهم وهم في غفلة عنه.

بعد فشل اليابانيين في احتلالهم ميناء مورسبي بحراً حاولوا احتلاله عن طريق البر، ولكن قواتهم لم تستطع بلوغ الميناء بل توقفت على بعد (٤٥) كيلومتر تقريباً نظراً لاستبسال الأوستراليون في الدفاع عنه. ونستطيع القول إن الزحف الياباني وصل إلى أوجه وبدأ يتوقف ثم ليتراجع مستقبلاً.

معركة ميدواي ٥ ــ ٧ حزيران (١٩٤٢)

فكر اليابانيون جدياً في احتلال جزيرة ميدواي وجزائر الآليوتين الواقعة شمال الجزيرة لأسباب ثلاثة هي:

١ ــ إن السيطرة على ميدواي وما حولها معناه السيطرة على شمال المحيط الهادي وتأمين سيطرة بحرية كاملة لليابانيين في المحيط .

٢ ــ باحتلال ميدواي وما حولها من الجزائر يبعد خطر الإغارات الجوية الأمريكية على الجزائر اليابانية نفسها .

٣ ــ استغلال فرصة انشغال الأمريكيين في الدفاع عما تبقى من جزائر الجنوب والممرات البحرية المؤدية إلى أوستراليا .

في الـ ٢٠ من مايس قدر الأمريكيون نية أعدائهم في مهاجمة الجزائر الشمالية ، فاستعدوا لذلك حتى يحرموا اليابانيين من عنصر المفاجأة . وأرسلو إلى مياه الجزيرة وما حولها حاملة الطائرات انتربرايز ، ثم استدعوا الحاملتين هورنيه ويوركتاون من ميناء نوميا في بيرل هاربور ، بعد أن تم إصلاح الحاملة الأخيرة خلال ثلاثة أيام ، ثم أخيراً وصلت الحاملة ساراتوغا .

عززت حامية الجزيرة بقاذفات ثقيلة من طراز ب ــ ٢٦ إلا أن الوقت لم يسمح بجلب المزيد من المقاتلات . وكانت حامية الجزيرة الجوية مؤلفة قبل التعزيز من (١٦) طائرة طراز ب ــ ١٧ و(٤) طائرات طراز ب ــ ٢٦ وحوالي (٥٠) طائرة مقاتلة مطاردة ، و(١٢) طائرة قاذفة طوربيد و(٦) طائرات مائية للاستطلاع .

القوات اليابانية في الغزو

شكلت القوات اليابانية الغازية لجزيرة ميدواي على النحو التالي :

١ ــ قوة التغطية وهي مؤلفة من حاملات الطائرات كاغا ــ وآكاغي (٢٧) ألف طن ، هيريو وسوريو (١٠) آلاف طن ، ثم بارجتين هارونا ، وكيوبسيما ، وعدة طرادات ثقيلة . وكانت مهمة هذا التشكيل تدمير القوات الجوية الأمريكية المتمركزة على الأرض ، والقيام بالتغطية الجوية خلال مراحل الإنزال .

٢ ــ قوة الصدم وهي مؤلفة من البارجتين هييي ، وكونغو ، ومن عدة طرادات ثقيلة .

٣ ــ قوة الدعم وهي قوة مؤلفة من طرادات خفيفة .

٤ ــ قوة الإنزال وتضم السفن الحربية ، وسفن النقل . وقد اختارت محورين للتقدم من الجزائر اليابانية .

٥ ــ قوة احتياطية مؤلفة من حاملة الطائرات هيتاكا وهاياتاكا (٢٨) ألف طن ، ومهمتها عزل

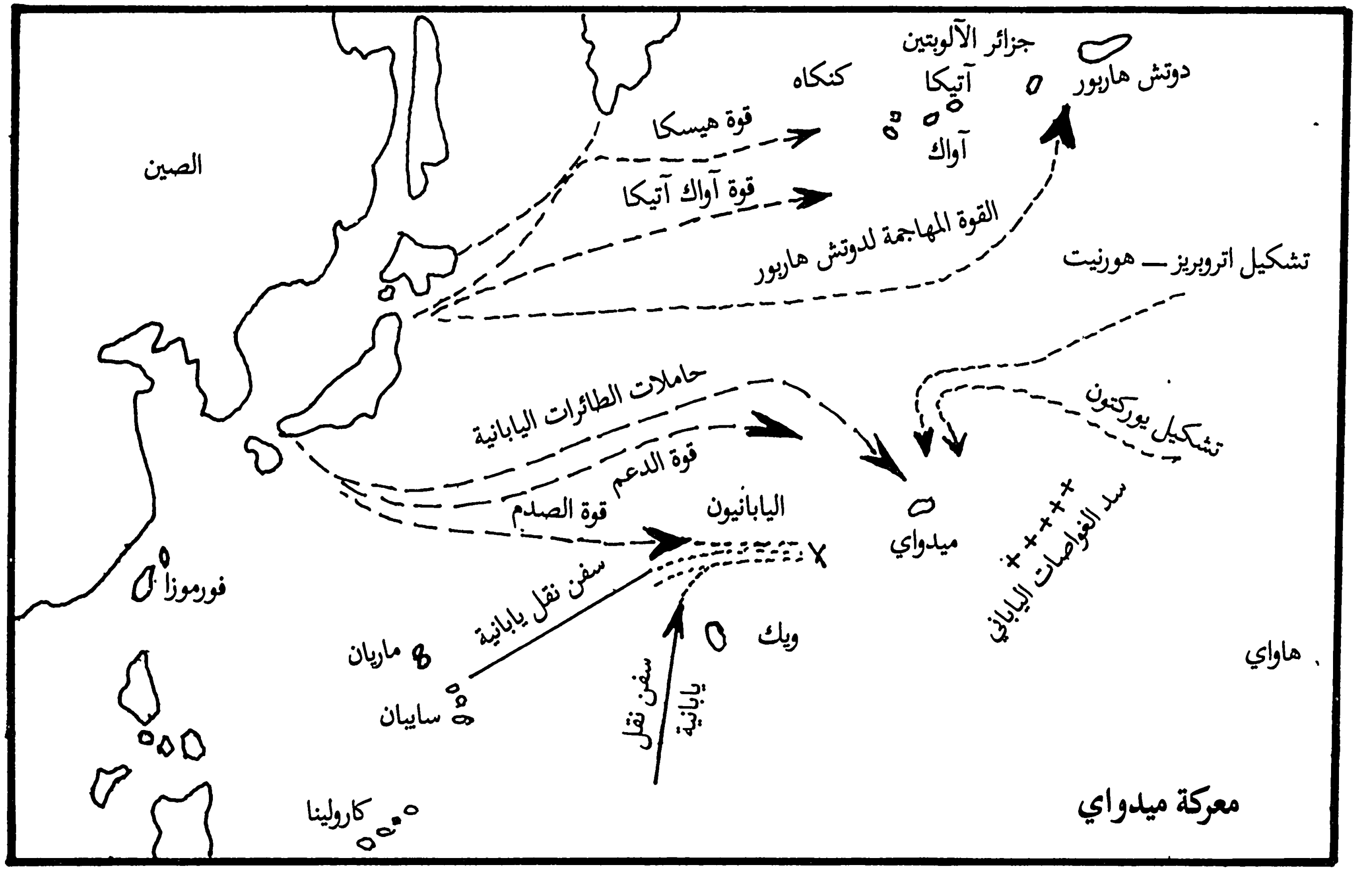
معركة ميدواي
الصين
فورموزا
كارولينا
ماريان
سايبان
ويك
هاواي
ميدواي
جزائر الآلوبتين
دوتش هاربور
كنكاه
آتيكا
آواك
قوة هيسكا
قوة آواك آتيكا
القوة المهاجمة لدوتش هاربور
تشكيل اتروبريز — هورنيت
تشكيل يوركتون
سد الغواصات اليابانية
حاملات الطائرات اليابانية
قوة الدعم
قوة الصدم
اليابانيون
سفن نقل يابانية
سفن نقل يابانية

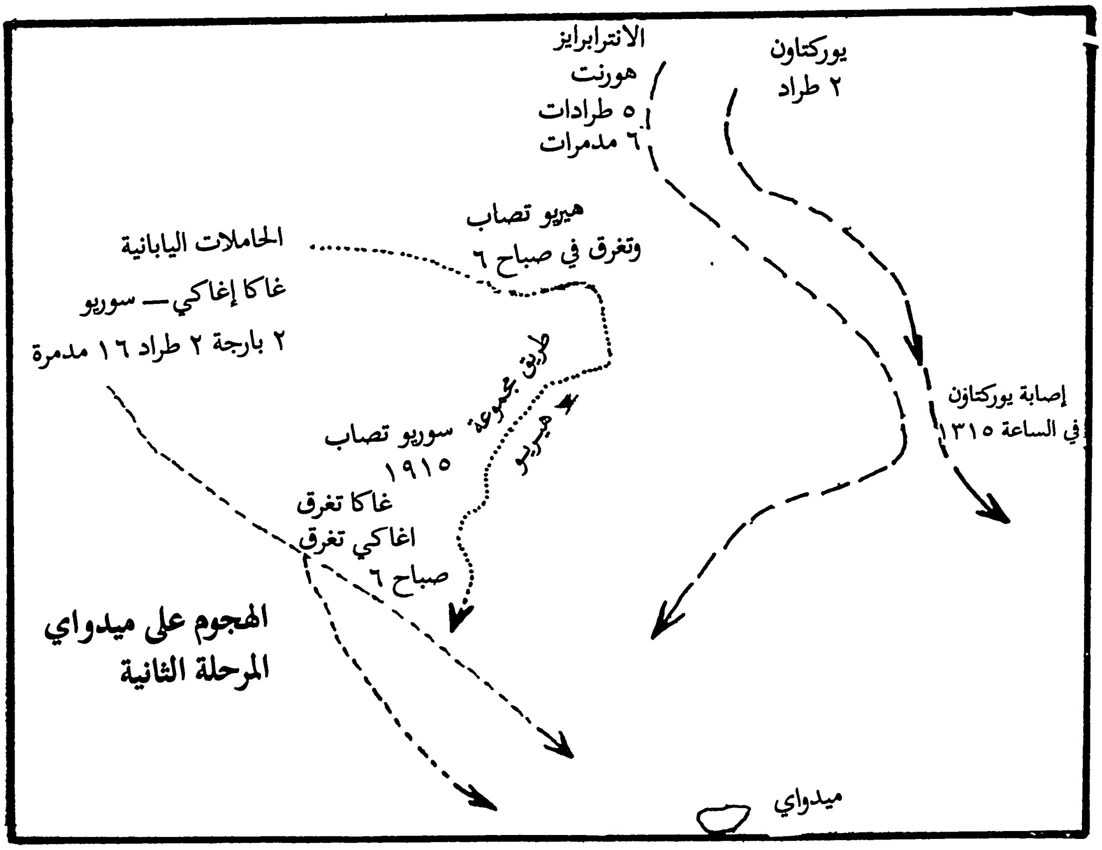

ميناء دوتش هاربور في جزائر الآليوتين، ومنع أي تعزيز أمريكي من الاقلاع لدعم قوات أمريكا في ميدواي.

٦ — وأخيراً سد من الغواصات يمتد إلى الشمال الشرقي من ميدواي، وبين خطي الطول (١٦٥ — ١٨٠) درجة غرباً.

أقلع الأسطول الياباني قبل (٦٠) ساعة من ساعة بدء الهجوم. وعندها أنذرت القوات الأمريكية في ميدواي، واستعدت للملاقاة. وفي ٥ حزيران قامت الطائرات اليابانية المحمولة بضرب المنشآت الهامة في الجزيرة، فأوقعت بها بعض الخسائر، ولكنه في الوقت نفسه تدخلت حاملات الطائرات الأمريكية التي قدمت من الشمال بتشكيلين متوازيين، بضم ثلاث حاملات على كل منها حوالي (٨٠) طائرة، وبدأ الاشتباك الفعلي وأصيبت الحاملات سوريو وكاغا وآغاكي اليابانية. وبعد عدة ساعات من بدء المعركة أصيبت الحاملة الأمريكية يوركتاون، وفي المساء تخلى اليابانيون عن العملية وانسحبوا.

لم يحاول الأمريكيون اللحاق بالقوات المتراجعة اليابانية نظراً لقدوم الليل، ولسوء الأحوال الجوية. وانتظروا صباح اليوم التالي فاستأنفوا هجماتهم، وأغرقوا البارجتين اليابانيتين ميكوما وموغامي. أما يوركتاون فقد غرقت في صباح ٨ حزيران مع عدة مدمرات ترافقها، وكانت النتائج النهائية للعملية كالتالي:

خسر الأمريكيون حاملة طائرات، ثلاث مدمرات و (١٥٠) طائرة. وخسر اليابانيون (٤) حاملات طائرات، بارجتين، طراد، ثلاث مدمرات و (٢٥٣) طائرة.

اعتبرت معركة ميدواي نصراً لأمريكا حققته بعامل المفاجأة أولاً وبالتفوق الفني لطيرانها ثانياً. وأما خسارة اليابانيين لـ(٤) حاملات طائرات فكانت غير متوقعة، واعتبرت كارثة أصابت القوات البحرية اليابانية ولم يتبق لها إلا (٤) حاملات طائرات كان بعضها من النوع القديم.

معركة الأطلسي

آ ــ حرب الغواصات

١ ــ تطور العتاد

تزايد عدد غواصات ألمانيا العاملة في البحار مع مرور السنين حتى بلغ حده الأعلى بين عامي (١٩٤٢ ــ ١٩٤٣) مقدار (٤٠٠) غواصة عاملة. وكان لدى ألمانيا يومياً وبصورة دائمة من (٧٠) إلى (١٠٠) غواصة في البحر تسعى وراء صيد سفن الحلفاء.

تطورت الغواصة الألمانية تطوراً ملحوظاً من حيث الصنع. فقد ضوعفت مدفعيتها المضادة للطائرات، وزادت سرعتها، وكبر حجمها حتى وصل بعضها إلى (١٢٠٠) طن ونيف. وأصبحت تستطيع قطع مسافة (٢٠) ألف ميل بحري بسرعة (٦) عقد، دون حاجتها للعودة إلى قاعدتها. وقد عمرت غواصات ضخمة زاد وزنها عن (١٦٠٠) طن، كانت مهمتها زرع الألغام البحرية، أو تموين الغواصات الأخرى في البحر. أما أجهزة الكشف الخاصة، فقد تطورت بسرعة مذهلة، وأصبحت ذات كفاءة عالية في تحديد الأهداف. وأخيراً وفي نهاية عام (١٩٤٢) استخدمت ألمانيا الطوربيدات الصوتية الخاصة التي كانت تتجه نحو الهدف بعامل الصوت الصادر عن محركات السفينة المعادية، ثم استخدمت الطوربيدات الكهربائية العديمة الأثر في الماء.

٢ ــ الطرق البحرية

بعد دخول أمريكا الحرب بجانب الحلفاء أصبح خليج المكسيك والسواحل الأمريكية أفضل المناطق لعمل غواصات ألمانيا ، حيث كانت تنطلق من هناك قوافل الامداد إلى أوربة . بالإضافة إلى أربع طرق بحرية رئيسية هامة لم تهملها ألمانيا وهي :

ــ سواحل أمريكا الشرقية ــ أوربة ــ عبر الأطلسي .
ــ طريق الهند ــ جنوب إفريقية ــ أوربة ــ حول رأس الرجاء الصالح .
ــ طريق قوافل امداد روسيا لميناء مورمانسك عبر المحيط المتجمد الشمالي .
ــ وأخيراً قوافل الحلفاء عبر البحر الأبيض المتوسط .

ب ــ الدفاع الحليف ضد حرب الغواصات

١ ــ حراسة القوافل

اعتمد الحلفاء في حراسة قوافلهم على إحاطة هذه القوافل بسفن حربية خفيفة مجهزة بأجهزة كشف ومحاربة غواصات . وقد تنوعت أشكال هذه السفن وأحجامها . فكان منها النسافات ، والمدمرات ، والفرقاطات ، والخافرات ، وقانصات الغواصات ... الخ إلا أن العدد لم يكن ليغطي حاجيات الحلفاء في السنين الأولى ، لذلك تعرضت قوافلهم لخسائر فادحة ، ولم ينقذ الموقف إلا تدفق سفن الحراسة الأمريكية للقوافل حتى إن عامي (١٩٤٣ ــ ١٩٤٤) شهدا أكبر عملية إنتاج لهذه السفن ، إذ وصل تعداد ما صنعته أمريكا بحوالي (٢٤٠) سفينة حراسة ، وزعتها على قوافلها وقوافل الحلفاء ، بحيث وصل عدد سفن الحراسة في بعض القوافل السريعة إلى نسبة ٥٠٪ من عدد سفن القافلة نفسها ، وقد كان أكبر دليل على نجاح هذه الخطة هو وصول حملة الإنزال الحليفة لسواحل مراكش عبر الأطلسي بسلام .

استخدم الحلفاء بالإضافة إلى سفن الحراسة تكتيكاً جديداً في محاربة غواصات ألمانيا بأن شكلوا مجموعات بحرية دعيت (بمجموعات الدعم) ، كانت مهمتها دفاعية هجومية ، فهي تقوم بدوريات بحرية في المناطق الخطرة والمناطق التي يمكن لغواصات ألمانيا التسرب منها وكان يساعد هذه المجموعات البحرية مجموعات جوية تقوم بالاستطلاع البعيد ، وعند كشفها لإحداها تواصل مراقبتها وتحدد مكانها ثم تعلم القوة الداعمة التي تهرع حالاً لمحاربة هذه الغواصة وتدميرها .

٢ ــ الطيران

كان الطيران في بداية الحرب يعمل جنباً إلى جنب مع الأسطول البحري في حدود مدى عمله .. إلا أن هذا الطيران المتمركز في القواعد البرية لا يستطيع تجاوز مسافات بعيدة نظراً لقصر مدى عمله .. وفكرت بريطانيا في إنتاج طائرات بطيئة ذات مدى عمل واسع . وكان منها أنواع عديدة أهمها طراز كاتالينا ، حيث وصل مدى عملها إلى (٤٠٠٠) كم . وكانت مهمة هذه الطائرات مراقبة سطح البحر ، وكشف الغواصات لإنذار القوافل عن مكان وجودها . ثم تطور هذا السلاح فأصبح هناك طائرات ضخمة سريعة وصل مدى عملها إلى (٤٠٠٠) كم أيضاً . وهي مجهزة بأسلحة مضادة للغواصات ، وأجهزة كشف . إلا أن كل هذا لم يعط قوافل الحلفاء إلا الزهيد من الحيطة . وعندما تأزم موقفهم بعد الخسائر الفادحة التي وصلت ذروتها عام (١٩٤٣) وجدوا أن أفضل الحلول هو استخدام حاملات طائرات حراسة كطراز كازابلانكا ، تواكب القوافل البحرية من بداية رحلتها حتى نهايتها ، وتقدم استطلاعاً جوياً دائماً مع تغطية جوية فعالة ، بالإضافة إلى مركزة حاملات طائرات منفردة تعمل في المحيط الأطلسي وفي الأماكن الأكثر خطورة .

٣ ــ العنصر الفني

تطورت أجهزة الكشف خلال الحرب العالمية الثانية تطوراً ملموساً . فقد جهزت كافة الطائرات وسفن الحراسة بأجهزة رصد جيدة المردود ، وضوعف تسليح هذه الوحدات بالأسلحة الرشاشة والأسلحة المضادة للغواصات . أما الغواصات الألمانية فقد كانت مجهزة بأجهزة رصد هيدرو صوتية ، تعتمد على الأصوات الناجمة عن محركات السفن . وحسنوا هذا النوع حتى وصلوا إلى أجهزة خاصة دقيقة سميت (بالآزديك) ، كانت تعمل على رجع الصدى بأمواج كهرطيسية ذات قدرة عالية في تحديد موقع الهدف واتجاهه وحركته .

لم يدع الحلفاء طريقة إلا واستخدموها في عملية كشف الغواصات . ومن هذه الطرق استخدموا محطات الراديو البرية الموجهة والمستعملة في تحديد هدف بحري (كجهاز الراشدة) . وكانت تستخدم ضد الغواصات المعادية عند استخدام هذه الأخيرة لأجهزتها اللاسلكية .

كما استخدموا أيضاً عوامات كهرصوتية تلقى من الطائرات وتحتوي في داخلها على أجهزة الكترونية تشير إلى مكان الغواصة وخط سيرها حتى ولو كانت تحت الماء بحيث ترشد الطائرة المنطلقة عن موقع الغواصة المعادية واتجاهها .

أخيراً استخدم الحلفاء أجهزة ضوئية موجهة مع الرادار لاستخدامها ليلاً. أما أسلحة مكافحة الغواصات فقد كانت على نوعين:

١ً ــ بحرية وتستخدمها السفن وهي عبارة عن مقذوفات أو قنابل أعماق.

٢ً ــ جوية وقد كانت أسلحة الطائرات الأتوماتيكية تهاجم الغواصة قبل اختفائها تحت الماء، أو صواريخ أو قنابل ترمي من الجو لتنفجر تحت الماء.

جـ ــ نتائج حرب الغواصات الألمانية

لو ألقينا نظرة على المخطط البياني الخاص بالغواصات لوجدنا أن هذا السلاح قد أحرز نتائج باهرة وخاصة عام (١٩٤٢)، ومطلع عام (١٩٤٣). إلا أن الخط البياني ينحدر بسرعة بعد الشهر الثالث من عام (١٩٤٣)، وخاصة في أشهر مايس، حزيران وتموز، ويرجع ذلك إلى الأسباب التي أوردناها في سياق حديثنا عن التدابير التي أتبعها الحلفاء في حماية سفن نقلهم عبر البحار والمحيطات.

لقد بدأت حرب الغواصات فعلياً في نهاية عام (١٩٤١) وأصبح عدد الأطنان المغرقة للحلفاء حوالي نصف مليون في آذار من عام (١٩٤٢) و (٦٠٠) ألف طن في مايس و (٧٠٠) ألف طن في حزيران من العام نفسه، وكان دخول أمريكا الحرب قد جعل من سواحلها الشرقية وبحر الآنتيل منطقة خصبة لغواصات ألمانيا، وخاصة الصغيرة منها، والتي كان عملها محدوداً في المحيطات. فقد قذفت ألمانيا بغواصاتها الخفيفة من أوزان (٥٠٠) إلى (٧٠٠) طن في تلك المنطقة وبدأت تحرز نتائج باهرة.. حتى كان يقال إن ناقلات البترول تشتعل بصورة مستديمة على طول السواحل الأمريكية وحتى جزيرة ترينيداد من بحر الآنتيل.

جاءت خسائر الحلفاء في تلك الحقبة من الزمن مفجعة، فقد غرق لهم (٥٠٠) مركب مجموع أوزانها ملياران ونصف المليار من الأطنان، أكثرها من ناقلات البترول. وقد وصف المؤرخ الأمريكي موريسون أوضاع أمريكا بقوله:

«إن الولايات المتحدة الأمريكية دخلت الحرب وهي غير مستعدة لها، وكان يصعب عليها تبديل نمط حياتها وعاداتها في أيام السلم، فعلى سبيل المثال كان الساحل الأمريكي الممتد حول ميامي يسطع بأنوار النيون العديدة فيضيء السماء المتاخمة للساحل وحتى عشرات الكيلومترات في عرض البحر. وكانت السفن الذاهبة إلى الجنوب تجاور الشاطيء لتفادي تيار «غولف ستريم»

البحري ، وبذا تظهر صورها في الأفق ولمسافات بعيدة وخاصة للغواصات المعادية فيسهل اقتناصها ، وكم من سفينة أغرقت وبحار هلك لا لشيء بل ليتابع المدنيون سكان السواحل التمتع بالأنوار نفسها فيمرحون ويستغلون أموالهم وكأن الحرب لا تعنيهم ، أو أنهم لا زالوا في أيام السلم » .

كانت خسائر ألمانيا لا تذكر أمام ملايين الأطنان المغرقة للحلفاء ، فعلى سبيل المثال خسر الحلفاء (١٠٨) سفن خلال شهر آذار عام (١٩٤٣) ، مقابل (١٥) غواصة ألمانية . إلا أن مضاعفة سفن حراسة القوافل رفع عدد الغواصات المفقودة شهرياً ، حيث وصل هذا الرقم إلى (٤٥) غواصة في شهر مايس و (٤٦) غواصة في شهر تموز . وأصبح عدد الغواصات المنتجة شهرياً يقل عن عدد الغواصات المفقودة . ومما زاد الأمر صعوبة قصف الحلفاء لقواعد الغواصات الألمانية وترسانات تعميرها .

قوافل مورمانسك (روسيا)

لم يكن هناك أي مجال لمساعدة روسيا براً بعد أن اجتاحتها ألمانيا خصوصاً وأنها بحاجة ماسة للعتاد الحربي من حليفاتها . وقد فكر الحلفاء في إيجاد وسيلة فعالة لإمداد روسيا بالعتاد الحديث الذي كانت تفتقد له بشدة أمام خصم مجهز بأحدث أنواع وسائل الحرب .. فدرسوا عدة سبل هي :

آ ــ استخدام طريق فلاديفبستوك عبر سيبريا

كان لهذا السبيل مساوىء عديدة أهمها :

١ ــ كافة موانىء روسيا على المحيط الهادي قرب فلاديفستوك تتوقف ثلاثة أشهر إبان الشتاء عن العمل لتجمد مياهها .

٢ ــ المسافة بين الولايات المتحدة وسواحل روسيا كبيرة خصوصاً والمنطقة تعج بالغواصات الألمانية .

٣ ــ ضعف وسائط النقل البري عبر سيبريا في نقل العتاد إلى الجبهة .

ب ــ استخدام البحر الأبيض المتوسط

كانت الملاحة للحلفاء في هذا البحر قبل عمليات إنزال شمال إفريقية وجزيرة صقلية شبه مستحيلة ، إذ كان الطيران الألماني والأسطول الألماني الإيطالي مسيطرين على البحر الأبيض ، وخاصة

في قسمه الشرقي. ولو افترضنا جدلاً أن القوافل استطاعت عبور المتوسط إلى البحر الأسود، فإن حلفاء ألمانيا على البحر كفيلون بتدمير هذه القوافل. هذا مع الإشارة إلى المضائق وسيطرة تركيا عليها، وهي على الحياد، فسماحها لقوافل الحلفاء بالمرور معناه انحيازها إلى جانبهم وهذا ما كانت تتحاشاه.

جـ ــ استخدام الخليج العربي

إن قطع المسافة الفاصلة بين الولايات المتحدة وبندرماشور (ميناء إيراني في الخليج العربي) يتطلب سبعة أيام لقوافل بسرعة (١٠) عقد، وهذا يعني وقتاً طويلاً لوصول الإمدادات بالإضافة إلى العوائق التالية:

١ ــ موانىء إيران على الخليج العربي صغيرة وضعيفة التجهيز وهذا يتطلب إنشاء ميناء حديث.
٢ ــ هناك مسافة (١٤٠٠) كيلومتر براً لقطع بلاد إيران وايصال العتاد إلى جنوب روسيا وكان الخط الحديدي اللازم غير متوفر بصورة جيدة، وهذا يعني إنشاء خط حديدي جديد.
٣ ــ صعوبات لدى روسيا في تأمين نقل العتاد عبر بحر قزوين.

د ــ استخدام شمال الأطلسي

وجد الحلفاء بعد الدراسة الدقيقة بأن نقل العتاد إلى روسيا عن طريق شمال الأطلسي هو أفضل السبل وأسهلها وذلك عن طريق ميناء مورمانسك الروسي وقد استخدم هذا السبيل بنجاح واستطاعت أمريكا إمداد روسيا بالعتاد التالي:

(١٤٨٣٤) طائرة، (٧٠٥٦) دبابة، (٣٨٥و٨٨٣) سيارة شحن، (٥٠٣ر٥١) سيارة جيب، (١٥٨ر١١) مقطورة سكة حديد، (١٩٨١) قاطرة سكة حديد.. وأمدت بريطانيا روسيا بالعتاد التالي:

(٣٨٠٠) دبابة، (٦٨٠٠) طائرة، (٢٠٠٠) طن نحاس من كندا، (٨١٠٠) طن مطاط، (٢٨٠٠) طن قصدير... الخ.

تطلب نقل هذا العتاد الضخم إلى روسيا (٢٦٠٠) سفينة نقل، ومن هذا الرقم الخيالي نستطيع تقدير الجهود الكبيرة التي بذلها الحلفاء في تأمين حماية قوافلهم. وهذا يعني التحكم والسيطرة التامة في البحار، ولم يخل ذلك من صعوبات جمة أهمها:

١ ــ العوامل الطبيعة

إن الطريق البحري المستخدم لشمال الأطلسي كان لا بد له من أن يمر من المحيط المتجمد الشمالي، وهي مسافة لا تقل عن (٢٥٠٠) ميل بحري بين إيسلندة وميناء مورمانسك، فهو بعد اجتيازه للدائرة القطبية عليه أن يبتعد عن الشواطىء النرويجية الشمالية حيث كانت هذه الشواطىء تحت السيطرة الألمانية .. وبعد أن تصل القوافل إلى عرض (٣٠) درجة شرقاً تنحدر جنوباً باتجاه مورمانسك . وكانت الصعوبات التي تعترض هذه القوافل على نوعين :

شتاء .. في فصل الشتاء تمتد الجبال الجليدية فتعترض أحياناً طريق القوافل وكان لا بد من الاستدارة حولها وتفاديها . إلا إن هذه الجبال كثيراً ما كانت تزحف لتسد البحر الأبيض في شمال روسيا، ومعنى ذلك سد منفذ ميناء مورمانسك على البحر .

صيفاً .. إن عمل القوافل صيفاً أسهل نسبياً لكنهّ لا يخلو من الصعوبات، فمثلاً بقاء الشمس حتى منتصف الليل في تلك المنطقة كان يسهل عمل الطيران الألماني المتمركز في شمال النرويج .

حالة البحر تزداد سوءاً أحياناً في فصلي الصيف والخريف فتهب عواصف ثلجية قاسية وأعاصير مخيفة . حتى إن أحد هذه الأعاصير فصل سطح مدفع الطراد شيفلد (٩) آلاف طن، وتتعرض المنطقة أيضاً إلى ضباب كثيف صيفاً وهذا يجعل أمر الملاحة بقوافل، عسير شديد الخطورة، ويتطلب دقة متناهية في الملاحة مع تخفيض للسرعة . وهذا يعني البقاء تحت رحمة طيران ألمانيا وغواصاتها مدة أطول .

تدابير ألمانيا

قررت ألمانيا مضاعفة جهدها البحري في شمال الأطلسي لمنع قوافل إمداد الحلفاء من الوصول إلى روسيا .. فمنذ نهاية عام (١٩٤١) نقلت إلى مدينة تروندجام النرويجية أسراباً كبيرة من الطائرات بالإضافة إلى مركزة البارجة تيربيتز وطرادين ثقيلين، ثم أوعزت لكل من البارجتين شارنهورست وغينزنو باجتياز ممر كاليه لتعملا في بحر الشمال، ولتكونا على مقربة من مسرح العمليات . وأخيراً حشدت العديد من قواتها البحرية في خلجان شواطىء النرويج .

ركزت ألمانيا أسطولين من غواصاتها في مينائي تروندجام وبرغن خاصة للعمل في شمال بحر الشمال..

لقد كان حشد ألمانيا لقوات بحرية ضخمة في المنطقة أسوأ النتائج على قوافل الحلفاء إذ كثيراً ما كانت القافلة، التي تربو على الـ(٢٠) سفينة نقل تغرق بكاملها، أو ينجو منها النذر اليسير. ونستطيع تلخيص الصعوبات أمام قوافل الحلفاء بالكلمات التالية:

طبيعة قاسية، طيران قوى، غواصات شجاعة، سفن سطح ألمانية حديثة الصنع.

لقد وصف السفير الروسي في لندن آنذاك العمل الجبار الذي قدمه الحلفاء لروسيا بقوله «إن قوافل الإمداد إلى مورمانسك خطت صفحة خارقة من البطولة في تاريخنا المعاصر. وتبقى هذه البطولة حية دوماً في قلب الشعب السوفييتي. وقد كان ذلك العمل أصدق مثال للتعاون الوثيق بين الحلفاء ضد عدوهم المشترك».

مراكب السطح الألمانية ودورها

في ٢٤ كانون الأول (١٩٤٢) انطلقت قافلة حليفه من جزيرة إيسلندة تضم (٢٠) سفينة نقل قادمة من أمريكا، تحميها ست مدمرات، وعدة طرادات. وكان الطقس سيئاً للغاية، وفي ٣١ كانون الأول قام الطراد هيبر وبرفقته عدة مدمرات بمهاجمة هذه القافلة. عندها هرعت سفن الحراسة الحليفة بمساندة الطرادين شيفلد وكينيا للاشتباك مع مجموعة هيبر، وأصيب الطراد الألماني فانسحب ولم تستمر المعركة طويلاً فقد غرق لألمانيا مدمرة ولبريطانيا مدمرة، وكان التعاون بين الوحدات الألمانية والطيران معدوماً، ونجت القافلة برمتها.

كان لهذا الحادث أثره العميق لدى هتلر، فأوعز برفع تسليح كافة سفن السطح الألمانية نظراً لعدم جدواها، ثم أقال الأميرال ريدر من قيادة القوات البحرية، وأسند القيادة إلى الأميرال دونيتز قائد سلاح الغواصات سابقاً.

تقع قاعدة سكابافلو على مسافة (٥٠٠) ميل من الدائرة القطبية وعلى (١٣٠٠) ميل من رأس الشمال في النرويج. وقد وضعت بريطانيا في هذه الجزيرة قوة بحرية مهمتها التواجد قرب القوافل المتجهة نحو مورمانسك، لتقديم الدعم لها في حال تعرضها لهجوم سفن سطح ألمانيا. وقد خصت بريطانيا هذه القوة بأفضل وأحدث سفنها لـ الكينغ جورج الخامس، ودوك أوف يورك... الخ.

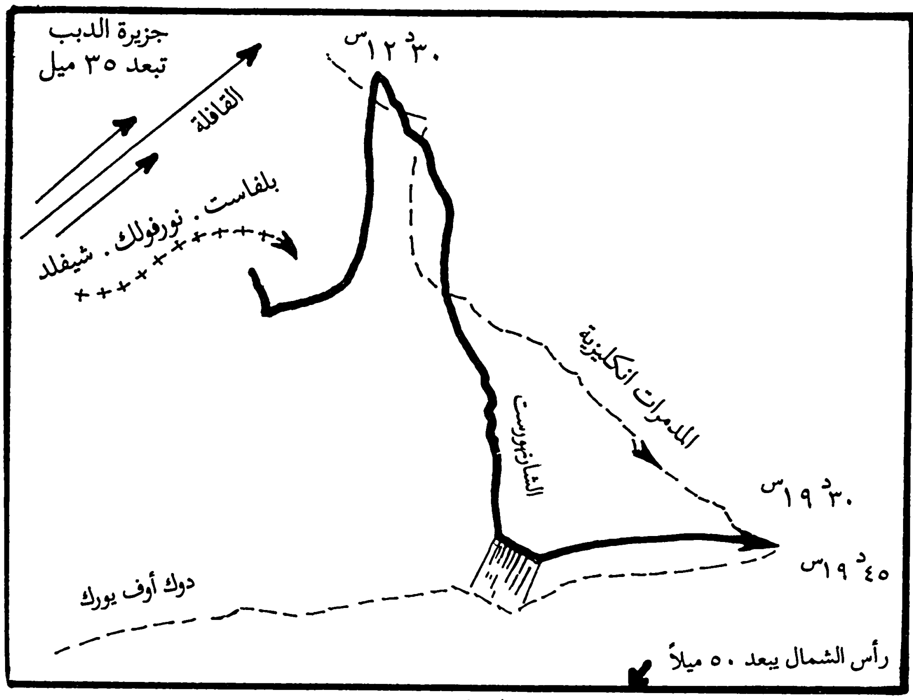

نهاية الشارنهورست

في صباح ٢٦ كانون الأول (١٩٤٣) وعلى مسافة (٣٦) ميلاً من جزيرة الدبب، هاجمت البارجة الألمانية شارنهورست قافلة حليفة محروسة بالطرادات بلفاست وشيفلد ونورفولك وعدة مدمرات، واستطاعت الوصول إلى غايتها في ضرب سفن النقل في القافلة، ولكن انسحبت عند الظهيرة مبتعدة، وأنذرت البارجة البريطانية دوك أوف يورك فسارعت لدعم سفن حراسة القافلة.

اتجهت الشارنهورست جنوباً وتبعتها الطرادات الإنكليزية لمراقبتها بالنظر واعلام دوك أوف يورك عن موقعها، واستمرت الملاحقة حتى وصلت الأوف يورك. واشتبكت البارجة الإنكليزية مع الشارنهورست بمعركة عنيفة، كانت حالة البحر صافية والبرودة شديدة، ولم يحرز الأوف يورك أي نتائج تذكر حتى هاجمت المدمرات الإنكليزية الشارنهورست من الجانب الآخر، وقذفتها بطوربيداتها وأصيبت الشارنهورست بعدة طوربيدات، ولم تنسحب بل ظلت تقاوم وتصب حممها على السفن المهاجمة حتى غاصت في ظلمات اليم في مساء اليوم نفسه، حاملة معها (١٤٠٠) بحار من ضمنهم القائد، بعد أن ضربت مثلاً خارقاً في البطولة والإقدام نالت به إعجاب الصديق وتقدير العدو.

تم تعمير التربيتز في مطلع عام (١٩٤٢)، وبمجرد انتهائها أرسلت إلى خليج تروندجام النروجي، لتعمل هناك على قطع خطوط مواصلات الحلفاء إلى مورمانسك. وقد كشفها الطيران الحليف وحاول تدميرها من الجو دون طائل. وشاركت في العمليات البحرية في شمال النروج حتى أصيبت بطوربيدين من غواصة سوفييتية جنوب جزيرة الدبب، فعادت ثانية لألمانيا للاصلاح، حيث

دام ذلك عاماً كاملاً . وفي مطلع أيلول (١٩٤٣) قامت برفقة الشارنهورست بعملية تدمير الميناء البريطاني الهام سبيستزبرغ .

بعد هذا الهجوم هاجمتها غواصة بريطانية وهي راسية في أحد الموانىء النرويجية وأصابتها بطوربيد . وعادت ثانية للإصلاح وانتهت في آذار (١٩٤٤) ، فاستأنفت نشاطها في المياه النرويجية الشمالية . وسعى الحلفاء إلى متابعة تحركاتها وقصفها من الجو بمحاولات عدة تارة من طيران محمول على الحاملات ، وأخرى من القواعد الروسية القريبة من شمال النرويج وأخيراً في ١٢ تشرين الثاني (١٩٤٤) قام سلاح الطيران الجوي البريطاني بهجمات عنيفة عليها وقصفها بقنابل ضخمة فدمرها ، وانتهت التربتيز كشقيقتها في الصنع بيسمارك .

عملية سانت نازير ٢٩ آذار

إن إصابة البارجة الألمانية تربيتز في ربيع (١٩٤٢) كان يدعوها لأن تدخل الحوض الجاف لإتمام إصلاحها . وكان الحوض الوحيد الشاغر هو حوض سان نازير الذي يبلغ طوله (٣٥٠) متراً ، والمجهز ببابين ضخمين يغلقان نهايتيه . فكر الحلفاء بالإغارة على مدينة سان نازير الفرنسية ، وتدمير هذا الحوض أو على الأقل ثقب سدوده التي تغلق نهايتيه ، وبالفعل قاموا بعملية إغارة ناجحة استخدموا فيها ثلاث مدمرات وسفينة مدفعية وثمانية عشر زورقاً سريعاً . وفي ليل ٢٨ ، ٢٩ آذار استطاعوا خرق عوائق الميناء وسدوده ، وتقدموا بعملية انتحارية وصفت بالشجاعة والإقدام ، واستطاعوا تثبيت (٥) آلاف طن من المتفجرات انفجرت آلياً بعد مدة من الزمن ، وحطمت سدود الحوض الجاف ، وجعلته عديم النفع لمدة طويلة . وقد فقد الحلفاء في عمليتهم هذه الكثير من رجال الصاعقة المدربين (كوماندوس) ، كما خسروا العديد من زوارقهم السريعة .

عملية دييب ١٩ آب

يمكننا تسمية عملية دييب بعملية استطلاع بالقوة ، وهي إغارة لجمع المعلومات عن شكل خطط الدفاع الألمانية الساحلية وأسلوبها .

شكلت القوة المهاجمة الحليفة من قوات كندية تدعمها بعض الوحدات الإنكليزية والأمريكية والرماة البحارة الفرنسيون . وفي ١٩ آب الساعة الرابعة صباحاً تمت عملية إنزال صغيرة في عدة نقاط على الساحل الفرنسي حول مدينة دييب ، على أن يقوم بالإنزال الرئيسي لواءان

كنديان . وكانت مهمة قوات الكوماندوس النزول أولاً واحتلال رأس الجسر لتسهيل عملية إنزال القوات الرئيسية . لم تنجح قوات الكوماندوس في تحقيق مهمتها إلا بنقطة واحدة ، وأخفقت نتيجة تدخل الدفاع الألماني الساحلي وسيطرته على الموقف بسرعة . عطلت جميع الدبابات الحليفة النازلة على البر ، وكبدت القوات الكندية النازلة خسائر فادحة فمن الـ (٥٠٠٠) مقاتل قتل وأسر ٣٣٧٢ . وتبين للحلفاء من نتيجة هذه الإغارة أن الساحل الممتد حول دييب محصن تحصيناً جيداً ، وعليهم دراسة إنزالهم المقبل في مناطق أخرى وأساليب جديدة .

الفصل الرابع

تحول الحرب لصالح الحلفاء

تشرين الثاني (١٩٤٢) آذار (١٩٤٣)

مقدمة

بدأت الدلائل تشير إلى تحسن أوضاع الحلفاء خلال هذه الفترة. ففي الهادي مثلاً توقف زحف اليابانيين بعد معركتي كوريل وميدواي. وبدأ الأمريكيون وقدِ حازوا مبدأ المبادأة في الهجوم باقتحام جزائر سالمون، وتحسين أوضاعهم الهجومية، وإقامة قواعد قوية لاتخاذها نقاط انطلاق.

أما في روسيا فقد تابع الألمان زحفهم، ووصلت قواتهم إلى قفقاسيا، وهددوا باكو والشرق الأوسط بكامله. وكان على الحلفاء فتح جبهة ثانية بأسرع وقت ممكن، لتخفيف الضغط عن حليفتهم روسيا. إن أولى بوادر توقف القوات الألمانية في زحفها عبر روسيا معركة ستالينغراد الرهيبة (٢٨ آب ١٩٤٢ حتى ٢ شباط ١٩٤٣) حيث استبسل الروس في الدفاع عن مدينتهم.

وفي شمال إفريقية.. وصلت قوات رومل إلى دلتا النيل. ولولا تعزيز قوات مونتغمري[٤٢] الحليفة لانهار موقف الحلفاء نهائياً، ولسقطت قناة السويس شريان الحياة بالنسبة لبريطانيا. وفي نهاية تشرين الأول بدأ مونتغمري شن هجومه المضاد بمعركة العلمين الشهيرة.

أما في الأطلسي فقد وصلت معارك الغواصات الألمانية إلى ذروتها، وظل موقف الحلفاء بتدهور مستمر. ولم ينجحوا خلال هذه الفترة إلا بعملية واحدة هي عملية إنزالهم في شمال إفريقية

دون خسائر تذكر . وبعد هذا التاريخ بدأ عدد أطنان المراكب المغرقة للحلفاء يتناقص ، مع ازدياد عدد فقدان غواصات ألمانيا .

انتصار الحلفاء في شمال إفريقية

آ ــ معركة العلمين ٢٣ تشرين الأول (١٩٤٢)

رأينا في عرضنا السابق وصول قوات معززة لجيش مونتغمري مؤلفة من دبابات طراز شهيرمان ، ومدفعية ثقيلة ، وعدة وحدات مشاة مقاتلة . وفي ٢٣ تشرين الأول بدأت قوات مونتغمري بشن هجوم معاكس على قوات رومل . ولعب الطيران الحليف دوراً هاماً في إنجاح الهجوم واستطاع رومل بمناورة حكيمة تفادي التطويق والانسحاب نحو الغرب ، حيث جمع قواته ثانية بتاريخ ٢٦ كانون الثاني مع القوات الألمانية النازلة حديثاً في تونس .

ب ــ الإنزال الحليف في شمال إفريقية ٨ تشرين الأول (١٩٤٢)

في نهاية شهر آب اجتمع روزفلت وتشرشل في الأرض الجديدة ، واتفقا على عملية إنزال في شمال إفريقية لإعادة تقوية هذه الجبهة ، ولحماية كل من مراكش والسنغال . وبالتالي لإعادة تنظيم خطوط المواصلات البحرية الحليفة في المتوسط .

كان موقف الحلفاء صعباً للغاية في ربيع هذا العام وصيفه ، والألمان يزحفون في روسيا ، واليابان تسيطر على أغلبية جزائر المحيط الهادي ، ورومل يتابع انتصاراته في شمال إفريقية ، ومالطة معزولة في المتوسط ، حتى طريق إمداد روسيا عن طريق مورمانسك مهدد دوماً . فهل يترك الأنكلو ــ ساكسون حليفتهم روسيا تجثو على ركبتيها وتستسلم؟

أصرت روسيا على حليفاتها لإنقاذ الموقف بفتح جبهة ثانية على الألمان ، لتخفيف الضغط عنها . حتى إن صحيفة برافدا كتبت في ٣١ تموز تتساءل أين هم حلفاؤنا ؟

تألفت القوات النازلة في شمال إفريقية من مجموعات رئيسية ثلاث هي :

١ً ــ المجموعة الغربية التعبوية

وهي مجموعة أمريكية بحتة يقودها الأميرال هيويت . وقد أقلعت سفنها من عدة موانىء أمريكية بين ٢٣ و ٢٥ تشرين الأول ، واتجهت نحو شواطىء إفريقية الغربية والبالغ طولها (٤٥٠٠)

ميلاً بـ(١٤) يوماً ، دون أن تشاهد أية سفينة حربية معادية . مع العلم بأن طول هذه المجموعة كان حوالي (٨٠) ميلاً وبعرض (٢٠) ميلاً ، وقد وزعت مدمرات الحراسة على جوانب القافلة لتأمين كشف الغواصات المعادية التي تحاول مهاجمة جسم القافلة . أما حاملات الطائرات فقد وضعت في نهاية الرتل حسب المخطط المرفق .

وفي النقطة التي طولها (٢٠) درجة غربي غرينتش ، تبدل الجو وهبت عواصف عاتية ، حتى قدر بأن الإنزال أصبح مستحيلاً . ولكن في الأيام التالية خفت شدة الريح واستدار اتجاهها نحو الشمال الشرقي ، وأصبح بإمكان سفن القافلة التجمع ثانية لاتخاذ تشكيلة الإنزال .

كان يحتمل تعرض هذا الإنزال إلى كثير من الصعوبات . وهذا ما عبر عنه ايزنهاور[٤٣] في مذكراته ، والأسباب عديدة أهمها :

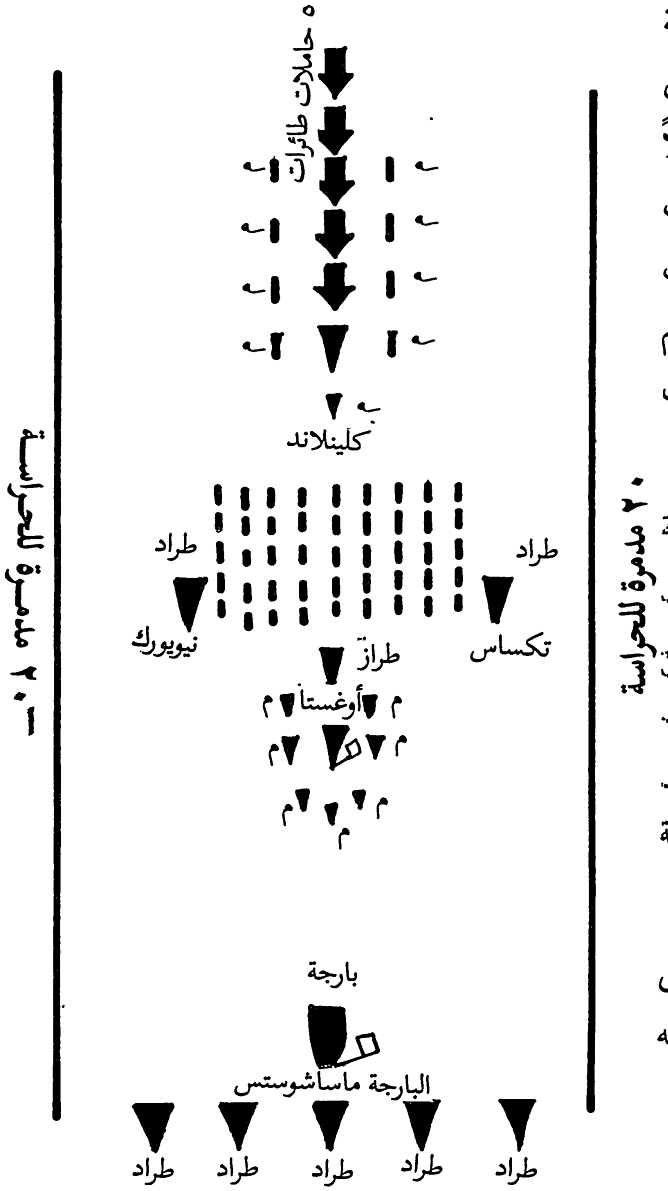

تشكيل المجموعة الغربية التعبوية

منطقة معادية للحلفاء ، أحوال جوية غالباً سيئة مع موجٍ عال وطويل ، يعتبر غير مناسب لعمليات الإنزال ، مقاومة برية لا يستهان بها .. فهناك المدفعية الساحلية ، ومدفعية البارجة جان بار ذات عيار (٣٨٠) ملم ، بالإضافة إلى عدة طرادات فرنسية مواليه للمحور هي البتروس ، بريموجيه ، مالان ، مع (٧) مدمرات ، و (٢) غواصة . أما القوات البرية المدافعة عن كازابلانكا وما حولها فتبلغ حوالي (٦٠) ألف مقاتل و (١٧٠) طائرة حربية .

اختيرت ثلاث مناطق إنزال هي ، صافي ، فيض الله ، ومهدية . وقد تعرض هذا الاختيار لنقد شديد فيما بعد ، وخاصة منطقة فيض الله لقربها من مدينة الدار البيضاء المحصنة . وقيل أنه كان بالامكان تفادي النزول في هذه المنطقة ، والابتعاد عن الاشتباك مع قوات الدار البيضاء البحرية الهامة .

نزلت القوات الأمريكية للمجموعة الغربية التعبوية في المناطق المذكورة وعلى النحو التالي :

محور صافي

البارجة فيلادلفيا والطراد الثقيل نيويورك مع (٤) مدمرات و (٩) خافرات في حراسة ست سفن نقل .

محور فيض الله

الطرادان الثقيلان أوغستا وبروكلين مع (٤) مدمرات و (١١) خافرة في حراسة (١٥) سفينة نقل .

محور المهدية

الطرادان الثقيلان سافانا ، وتكساس مع ثلاث مدمرات و (٤) خافرات في حراسة (٨) سفن نقل .

قوة التغطية

وتألفت من البارجة ماساشوستس ، والطرادين الثقيلين تسكالوسا وديشيتا مع (٤) مدمرات .

قوة التغطية الجوية حاملات الطائرات المرافقة .

بلغ تعداد سفن المجموعة الغربية التعبوية (٩٩) سفينة بين حربية ونقل .

مرت عملية الإنزال هذه بمراحل عدة تميزت بالنقاط التالية :

١ ــ انهيار المقاومة واستسلام قادة فرنسا الفيشيين بسرعة .

٢ ــ مقاومة عنيفة ولكنها قصيرة في منطقة المهدية .

٣ ــ سهولة عملية الإنزال في منطقة صافي، عدا مقاومة المطار حيث بقي بيد المدافعين حتى توقيع الهدنة بين القوات المتحاربة.

٤ ــ سهولة عملية الإنزال في فيض الله.

٥ ــ تدخل أسطول الدار البيضاء في صباح عملية الإنزال، بقصفه للسفن المتقدمة. إلا أن تفوق المهاجمين العددي أنهى المعركة بسرعة. وأصيبت البارجة جان بار، وغرقت عدة سفن فرنسية في الميناء، واستسلمت الحامية إلى القوات الأمريكية في اليوم التالي، بعد توقيع اتفاقية وقف القتال. ثم زحفت القوات الأمريكية بتاريخ ١١ الجاري نحو الدار البيضاء لاحتلالها.

٢ً ــ المجموعة التعبوية المتوسطة

تألفت هذه المجموعة من قوات أمريكية بحراسة سفن حربية بريطانية أبحرت من شواطىء إنكلترا، واتجهت نحو مدينة وهران هدف المجموعة، وقد غطيت بحماية جوية مدروسة طيلة فترة الإبحار. ولم تلق هذه المجموعة مقاومة تذكر، واستطاعت النزول بسهولة بعد إغراق بعض النسافات الفرنسية المدافعة عن الميناء، وتقدمت القوات النازلة في محورين رئيسيين لاحتلال المطارين الكبيرين الموجودين في طفراوي وسينيا.

٣ً ــ المجموعة التعبوية الشرقية

نزلت المجموعة الثالثة في مدينة الجزائر، لم تلق أية مقاومة تذكر نظراً لضعف حامية المدينة. وتم الإنزال على شواطىء عين طيا وسيدي فروش، وتم احتلال مطار **الدار البيضاء** بعد ساعات قليلة من الإنزال. وفي اليوم نفسه وقع الأميرال دارلان أمر وقف القتال والاستسلام للقوات الحليفة النازلة.

استغل الحلفاء نجاحهم في عمليات الإنزال ودفعوا بقواتهم نحو الشرق مع دعمهم بقوات جديدة نزلت فيما بعد في مدينتي بوجي وبونه، وتم احتلال المطارات الحربية بوساطة قوات بريطانية مظلية.

ضمت المجموعة الثانية السفن التالية

البارجة رودني وحاملة الطائرات فوريوس مع ثلاثة طرادات ثقيلة وثلاثة طرادات خفيفة مضادة للطائرات و (١٣) مدمرة و (١٦) كاسحة ألغام و (٤٤) سفينة إنزال، ومجموعها (٩٠) سفينة.

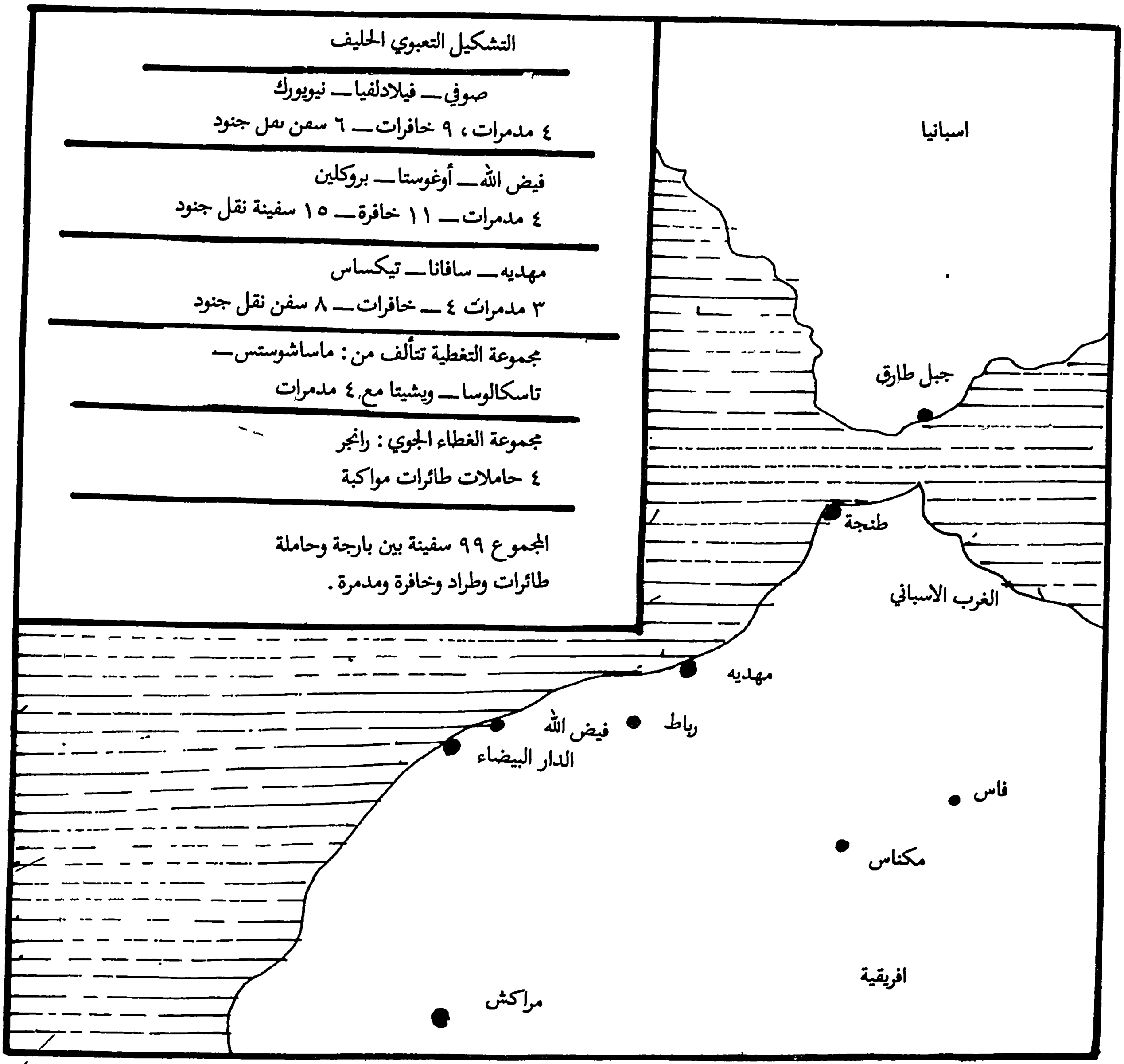
التشكيل التعبوي الحليف
صوفي ـ فيلادلفيا ـ نيويورك
٤ مدمرات، ٩ خافرات ـ ٦ سفن نقل جنود
فيض الله ـ أوغوستا ـ بروكلين
٤ مدمرات ـ ١١ خافرة ـ ١٥ سفينة نقل جنود
مهديه ـ سافانا ـ تيكساس
٣ مدمرات ٤ ـ خافرات ـ ٨ سفن نقل جنود
مجموعة التغطية تتألف من: ماساشوستس ـ
تاسكالوسا ـ ويشيتا مع ٤ مدمرات
مجموعة الغطاء الجوي: رانجر
٤ حاملات طائرات مواكبة
المجموع ٩٩ سفينة بين بارجة وحاملة
طائرات وطراد وخافرة ومدمرة.
اسبانيا
جبل طارق
طنجة
الغرب الاسباني
مهديه
رباط
فيض الله
الدار البيضاء
فاس
مكناس
افريقية
مراكش

وضمت المجموعة التعبوية الثالثة السفن التالية

حاملة الطائرات آرغوس، (٤) طرادات ثقيلة، (٣) طرادات خفيفة مضادة للطائرات، (١٣) مدمرة، (١٥) كاسحة ألغام، (٣٥) سفينة إنزال، ومجموعها (٨٢) سفينة.

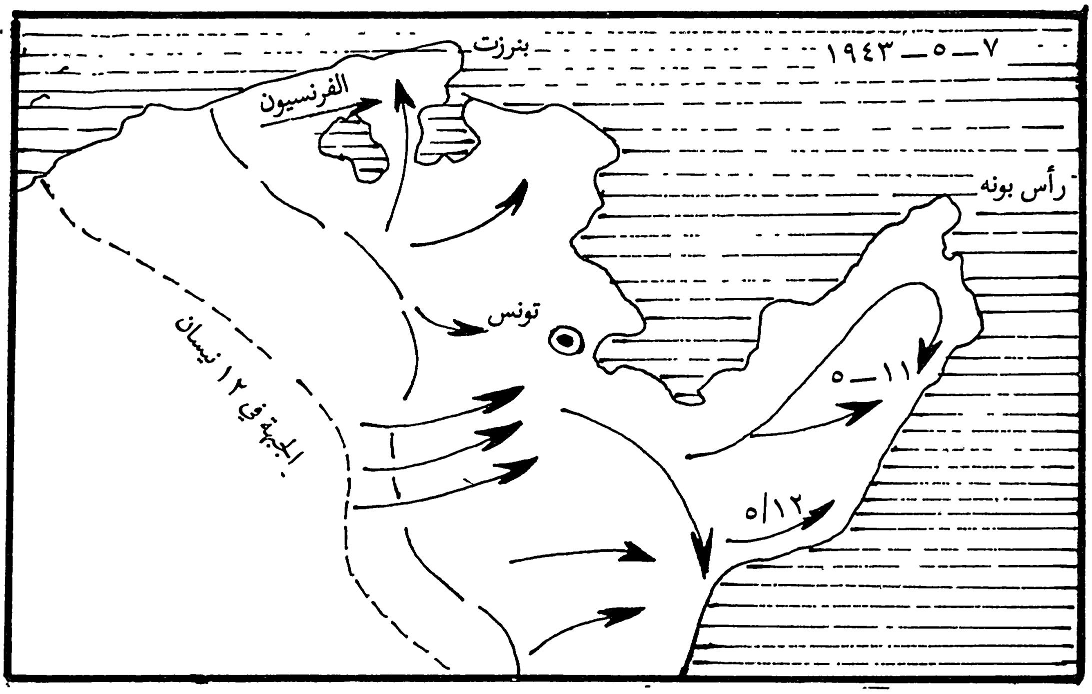

جـ ـ حملة تونس

بعد نجاح الحلفاء في إنزالهم بمراكش والجزائر كان لا بد لهم من التقدم لاحتلال تونس وتضييق الحلقة على رومل وقواته، والسيطرة على ممر صقلية تونس الحيوي.

شعر هتلر بالخطر المحدق بقوات ألمانيا في شمال إفريقية فسارع باحتلال تونس قبل وصول الحلفاء إليها. وبمعاونة سلاح الطيران الألماني تقدمت قوافل سريعة عبر ممر صقلية ونزلت في تونس بالتعاون مع قادة فرنسا الموالين للمحور في تلك البلاد.

لم يدم تعاون الفرنسيين مع القوات الألمانية الإيطالية النازلة فبعد (٤٨) ساعة من احتلال تونس قرر الجنرال الفرنسي باريه التمرد على أوامر حكومة فيشي، وحشد قواته على الحدود الجزائرية التونسية، وبدأ بمناوشة قوات المحور بحرب نظامية بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني، وكانت أولى الاشتباكات بين قوات فيشي وقوات المحور.

طالت الحرب التونسية بين كر وفر شأنها شأن جميع المعارك التي دارت في شمال إفريقية، وأخيراً في ٦ مايس (١٩٤٣) قام الحلفاء بهجوم مصيري واستطاعوا تطويق قوات المحور واحتلوا مدينتي تونس وبنزرت ونظراً لصعوبة ترحيل قوات المحور المحاصرة بحراً استسلمت هذه القوات والتي بلغ عددها ربع مليون تقريباً مع عتاد ضخم وبإنتهاء حملة تونس، برزت نقطتان هامتان في مجريات الحرب في أورية..

١ ـــ **أظهرت معركة تونس نهاية أخطاء الاستراتيجية الألمانية في المتوسط، ومنها عدم استغلال الألمان نصرهم على فرنسا عام (١٩٤٠)**، وتركهم **مضيق جبل طارق دون الاستيلاء** عليه، **وتأخرهم في احتلال تونس في شتاء** عام (١٩٤١)، **وعدم استغلال انتصارات** رومل في شمال إفريقية، وإهمالهم **احتلال جزيرة مالطة النقطة الاستراتيجية** الهامة في منتصف المتوسط... الخ.

وشكل التواجد الكثيف للحلفاء في إفريقية الشمالية خطراً جسيماً على المحور خصوصاً على الجانب الجنوبي من القارة الأوربية، وأعطى الحلفاء فرصة هيأتهم فيما بعد لعملية الإنزال في صقلية وجنوب إيطاليا. أما في فرنسا الجنوبية فقد فكر كيسيلرنغ(٤٤) تفادياً لهجوم محتمل عليه قد يتم عن طريق إسبانيا، فأعد خطة حربية لاحتلالها، دعيت بخطة جيزيلا. **وتركت ألمانيا فرصاً سانحة حاسمة في المتوسط لم تستغلها**.

٢ ـــ ألمانيا المنهزمة في ستالينغراد ترغم على الانسحاب بثمن باهظ، وتطرد من شمال إفريقية مثخنة بالجراح، مثقلة بالخسائر.. **ولم تعد البلد السيد لمواقفه. فلا مبادهات قتالية جديدة**، وفي الوقت نفسه يلتقي قادة الحلفاء في الدار البيضاء بين ١٤ و ٢٦ كانون الثاني (١٩٤٣)، يعدون الخطط الهجومية المستقبلية. وقد شعر الفوهرر بخطورة الموقف فأصدر مرسوماً بإعلان النفير العام لكافة قوات الرايخ.

معركة الأطلسي

لو عدنا للجدول الخاص لحجوم آلاف الأطنان التي كانت تغرق شهرياً للحلفاء لوجدنا أنه في الأشهر الستة الأولى من عام (١٩٤٢) وصلت الأرقام لحدود (٥٠٠) ألف طن شهرياً وباتخاذ القرار الخاص بحماية القوافل بتطبيق خطط تورش اعتباراً من حزيران نرى أن الرقم هبط هبوطاً

ـاداً ، حتى إنه لم يكن يصدق بأن سبع قوافل تجارية بحرية ضمت ثمانماية سفينة تمر قرب عدة مواقع تجمع غواصات ألمانيا ، لا تتعرض لأي هجوم ، ولا تصاب بأية خسائر .

خفضت حماية القوافل العادية فيما بعد نظراً لحاجة الحلفاء للمدمرات المواكبة فسحبت وكلفت بمهام أخرى ، كحماية قوافل نقل الجنود وقوافل الإمداد الحربي للجيوش المكلفة بالحملات البحرية .

جاء شتاء عام (١٩٤٣) حافلاً بالعواصف الهوجاء المتواصلة التي أزعجت السفن الخفيفة المواكبة من مدمرات ونسافات ، فأعطت الغواصات الألمانية الفرصة من جديد لتعيد نشاطها ، فارتفع رقم خسائر تشرين الثاني ووصل إلى (٧١٠) آلاف طن سفن مغرقة . هذه الوثبة الألمانية المظفرة جعلت غوبلز[٤٥] يعود لدعايته السابقة ، ويعد الحلفاء بمزيد من العنف ، ومزيد من الأطنان البحرية التي ستغرقها غواصاته ، وبالتالي يتطرق إلى مواضيع الساعة ، فيقلل من شأن انتصارات الحلفاء في شمال إفريقية ، واندحار رومل فيها ، وكذلك هزيمة معركة ستالينغراد .

قرر الحلفاء قبل بدء معركة أوربة التخلص نهائياً من تهديد سلاح الغواصات الألماني ، وذلك عن طريق مضاعفة بناء سفن قانصات غواصات نموذج « ليبرتي » و « فيكتوري » ، كما عني بتعزيز سفن المواكبة والحماية وتطويرها ، من نسافات ومدمرات . بالإضافة إلى ذلك عُبِّئت تشكيلات بحرية سميت « بمجموعات الدعم » أعطت معركة الأطلسي دفعاً جديداً للجانب الحليف ، ونقلتهم من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم .

وفي آذار عام (١٩٤٣) مرت على الحلفاء آخر أزمة بحرية جدية ، إذ أنزل الألمان (١١٢) مركباً وغواصة في بحار أوربة والمحيط تهاجم دون هوادة ، فأغرقوا للحلفاء بين الأول والـ ٢٠ من شهر آذار قرابة (٥٠٠) ألف طن مراكب ، والأمر الأكثر إحراجاً هو إغراق ستين سفينة من أصل قافلة ضمت ستاً وثمانين . وهذا يعني وجود فجوة في خطط الحلفاء وأساليبهم في حماية قوافلهم . إلا أن العشرة أيام الأخيرة من آذار لم تتعد الخسارة فيها (١٠٠) ألف طن . وبدأ الميزان يميل نحو الاعتدال . وخسر الحلفاء خلال شهر نيسان (٣٢٨) ألف طن سفن مقابل إغراقهم لـ (١٦) غواصة ألمانية . وخلال شهر أيار أغرق لهم (٢٦٥) ألف طن مقابل إغراقهم لـ (٤٥) غواصة ألمانية . وإذا عدنا بالذاكرة للأزمة التي مرت على البحرية الألمانية بفشل عمليات هيبر ولوتزو بتاريخ ٣١ كانون الأول عند مهاجمتها للقافلة (١٩) المواكبة من قبل خمس مدمرات حليفة ، والتي دفعت بهتلر لأن يقول :

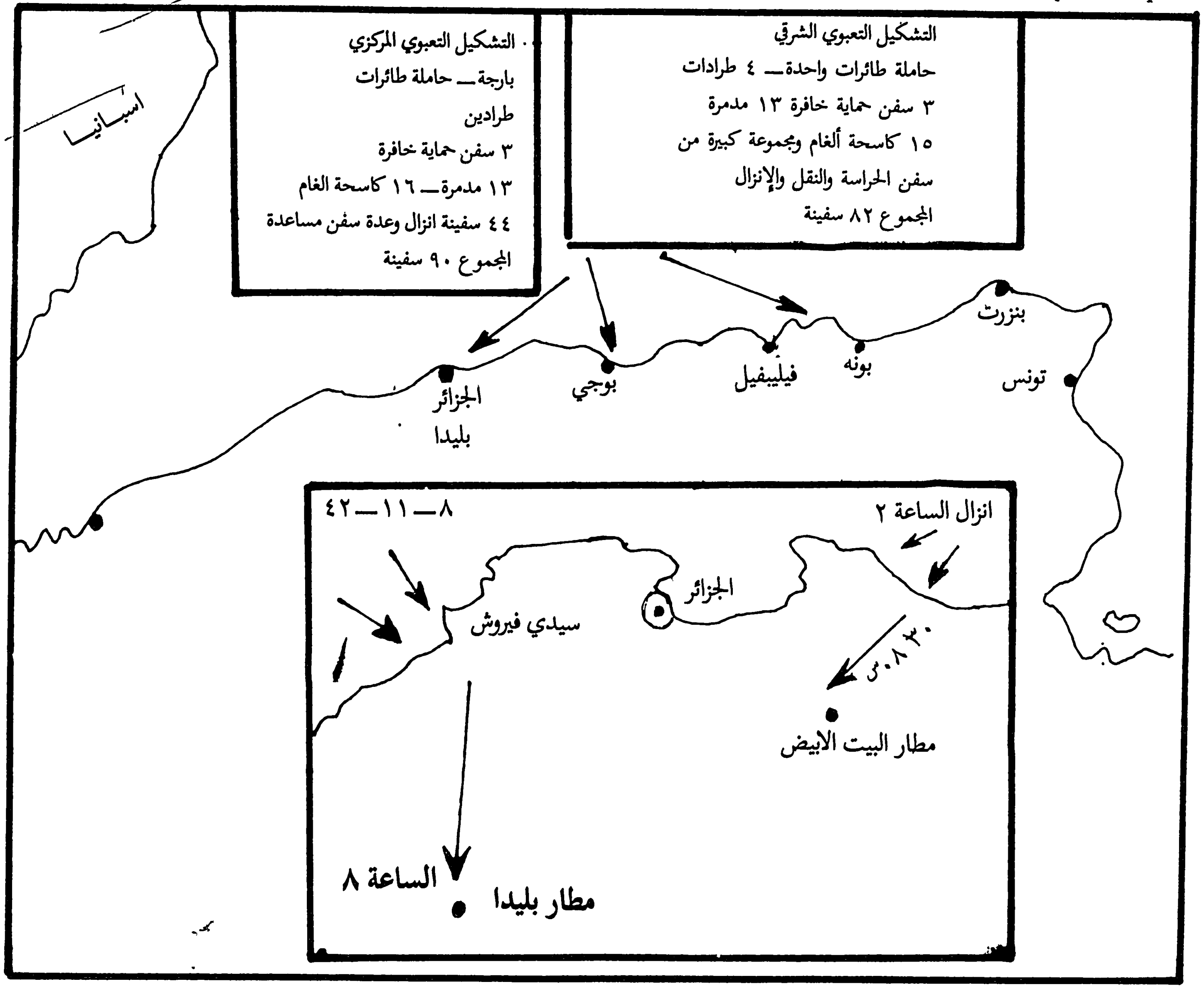
التشكيل التعبوي المركزي
بارجة ــ حاملة طائرات
طرادين
٣ سفن حماية خافرة
١٣ مدمرة ــ ١٦ كاسحة الغام
٤٤ سفينة انزال وعدة سفن مساعدة
المجموع ٩٠ سفينة
التشكيل التعبوي الشرقي
حاملة طائرات واحدة ــ ٤ طرادات
٣ سفن حماية خافرة ١٣ مدمرة
١٥ كاسحة ألغام ومجموعة كبيرة من
سفن الحراسة والنقل والإنزال
المجموع ٨٢ سفينة
اسبانيا
الجزائر
بليدا
بوجي
فيليبفيل
بونه
بنزرت
تونس
٨ ــ ١١ ــ ٤٢
انزال الساعة ٢
الجزائر
سيدي فيروش
٨٫٣٠ ص
مطار البيت الابيض
الساعة ٨
مطار بليدا

«ليست البحرية الألمانية في الحقيقة إلا فتاة صغيرة تجاه البحرية الإنكليزية. فسفننا الكبيرة عديمة الفائدة أشبه بكتل من الحديد لا نفع لها».

وعلى أثر ذلك قرر هتلر رفع تسليح سفن السطح وركبها، وأقال الأميرال ريدر القائد العام للقوات البحرية الألمانية على مدى أربع عشرة سنة خلت وعين الأميرال دونيتز خلفاً له.

معركة وادي القنال

جاءت الأشهر الأخيرة من عام (١٩٤٢) في المحيط الهادي كما في أوربة وإفريقية مخيبة لآمال هتلر أيضاً. فقدرات القوات الجوية والقوات البحرية اليابانية تهدر وتستهلك في معركة وادي القنال، ومطارها الاستراتيجي هندرسون فيلد.

لم تتخذ معركة وادي القنال الطابع المميز المسرحي للمعارك الجو ــ بحرية الكبيرة المعروفة، ولا أخذت شكل عمليات الإنزال ضخمة لوحدات برمائية، كما سنرى ذلك في أعوام (١٩٤٤ ــ ١٩٤٥). وهذا ما جعل النقاد العسكريين ينتقدون ذلك النوع من القتال وهم يرون الأمريكيين يحاربون بتقزز وصعوبة، وكأنهم أجبروا على تلك الصدامات إجباراً لم يكن لهم فيه خيار، حتى إن فشل اليابانيين في معركة بحر المرجان لم يضعف حوافزهم، وظلوا يهددون في غينيا الجديدة، وفي أمكنة أخرى من المحيط الهادي. وكان إنشاء مطار متقدم في وادي القنال، هو الفتيل لهجوم جديد نحو جزائر هيبريد الجديدة، ونحو نوميا. وبرز خطر تطويق خطوط مواصلات أوستراليا من جديد. وهذا أمر يؤثر على مخططات الحلفاء في الهادي.

اتخذ الأمريكيون موقفاً منطقياً أمام هذا الخطر الجديد، وسارعوا جاهدين إلى حماية قواعدهم المتواجدة في جزائر هبريد وجزائر كاليدونيا الجديدة ضد أخطار هجمات السلاح الجوي الياباني المهدد دائماً لهم. فكان على الأمريكيين احتلال تولاغي، والاحتفاظ بها، عن طريق احتلال الجزائر المجاورة لها، أي وادي القنال، فلوريدا وسانتاكروز.

جرت المعارك حول وادي القنال طبقاً لمخطط مرسوم أعيد العمل به عدة مرات وكرر بالترتيب التالي.

ــ قصف بوساطة سلاح الطيران البحري لشل طيران اليابانيين على الأرض.
ــ اشتباك بين القوات المتقدمة البحرية لتغطية عمليات نقل جنود أو عمليات إنزال محدودة.

ـ بعد يومين أو ثلاثة من معركة اشتباك التغطية يبدأ قتال بين قوات الصدم الرئيسية التي تكون قد تخلصت من مراكز الاستطلاعات الجوية ، وكانت المعارك غالباً ما تتم ليلاً في مياه وادي القنال وسواحله .

١ ـ في السابع من آب ، وبعامل مفاجأة كامل يقوم الأمريكيون بإنزال قوات لهم في وادي القنال ، وفي الثامن من آب يحتلون تولاغي .

٢ ـ يندفع الطيران الياباني فيهاجم أسطول النقل الأمريكي ، لكنه يخفق في منعه .

وفي ليل ٨ و ٩ آب وقرب جزيرة سافو تفاجأ القوات البحرية الأمريكية بهجوم كاسح تشنه القوات اليابانية ، فتغرق للأمريكيين الطرادات الثقيلة الثلاث :

كينسي ، فانسين ، استوريا وزن الطراد الواحد (١٠) آلاف طن وكذلك الطراد الأوسترالي كانبيرا ، ودون أن تصاب القوات البحرية اليابانية المهاجمة بأية خسائر .

وقد عزي ذلك ، لتعب القوات الأمريكية ، ولقلة درايتهم في استخدام وسائط الكشف والإنذار الحديثة .

تركت تلك المفاجأة المأساة التي وقعت قرب جزيرة سافو في وجدان البحرية الأمريكية ذكرى أكثر إيلاماً مما تركه هجوم بيرل هاربور الشهير ، وقرروا الثأر في معركة جزائر ستيوارت .

٣ ـ تقدمت المدمرات اليابانية فوصلت وادي القنال عند منتصف الليل ، ودعمت وحداتها البرية التي كانت تسعى لاحتلال مطار هندرسون من الأمريكيين ، ثم فتشت عن مجال عمل أفضل ، فاختارته بين ٢٣ و ٢٥ آب متمثلاً بخوض معركة جزائر سالمون الشرقية . وسميت في مصادر تاريخية أخرى بمعركة جزائر ستيوارت .

جاء الأسطول الياباني مواكباً بتشكيلين بحريين ضم الأول حاملتي الطائرات شوكاكو وزويكاكو (٢٩٫٨٠٠) ألف طن والبارجتين هيي وكيريسيما كما ضم التشكيل الثاني حاملة الطائرات الخفيفة ريوجو ، مع عدة قطع بحرية متوسطة .

أما الأمريكيون فكان لديهم تشكيلان تعبويان حول حاملتي الطائرات ساراتوغا وانتروبرايز والطراد الحديث نورث كارولينا .

حصل الاشتباك فغرقت حاملة الطائرات اليابانية الخفيفة ريوجو ، وأصيبت حاملة الطائرات الأمريكية انتروبرايز بثلاث قذائف . وقرر اليابانيون الانسحاب من المعركة ، بعد أن لمسوا التفوق الأمريكي الظاهر في عتادهم . إلا أنهم لم يتخلوا كاملاً إلا بعد أن شنوا هجوماً من نوع جديد بوساطة غواصاتهم . وكانت حصيلة هذا الهجوم في ٣١ آب كالتالي :

إصابة حاملة الطائرات ساراتوغا ، وغرق الطراد واسب ثم عطب الطراد نورث كارولينا .

٤ ــ جرى لقاء آخر بين الأمريكيين واليابانيين قرب رأس اسبيرانس ليل ١٠ ، ١١ تشرين الأول كانت النتيجة لصالح الأمريكيين إذ أغرقوا لليابانيين طراداً ثقيلاً وأعطبوا اثنين ولكن رغم هذا النصر بقي موقف المدافعين عن مطار هندرسون حرجاً .

٥ ــ كثف اليابانيون قواتهم للقيام بهجوم نهائي تضمن هذا التكثيف (٤) بوارج وحاملتي طائرات ثقيلتين ، وحاملتي طائرات خفيفتين ، وتسعة طرادات ثقيلة ، وبدأ هجومهم في ٢٥ تشرين الأول في معركة أطلق عليها اسم معركة جزر سانتا كروز .

كان موقف الأمريكيين في هذه المعركة ضعيفاً من حيث العتاد إذ لم يكن لديهم إلا حاملة الطائرات انتروبرايز والطراداان هورنبيه ، وساوث داكوتا ، وضاعت هورنبيه سريعاً وغاصت في أعماق المحيط ، إلا أن السلاح المضاد للطائرات على السفن قام بأعمال خارقة ، إذ أسقطت ساوث داكوتا وحدها (١٨٢) طائرة يابانية ، أي جميع طائرات الحاملات اليابانية شوكاكو وزويكاكو وزيوهو .

احتدمت المعركة ، وتأرجح النصر ، وبقيت وحدات هندرسون فيلد المدافعة تقاوم بشراسة .

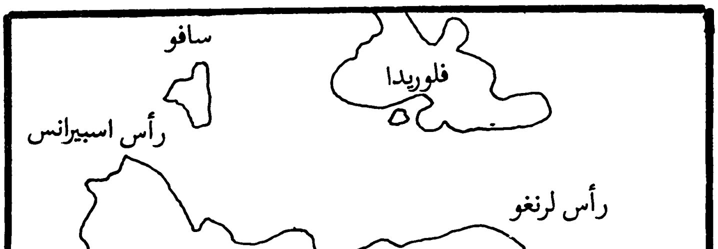

٦ ــ في تشرين الثاني عبرت قافلة يابانية فأعطت بعبورها فرصة لقيام معركة بحرية كبيرة حدثت ليل ١٢ و ١٣ ، فأصيبت البارجة اليابانية هييي ثم أغرقت بالطائرات الأمريكية في اليوم التالي . وقامت النسافات وقاذفة الطوربيد الأمريكية فهاجمت القافلة ، وبعثرتها ، وحملت الطائرات عليها فدمرت العديد من وحداتها . وفي مساء ١٤ أعادت الوحدات اليابانية الرئيسية تجمعها من جديد إلى الشمال من رأس أسبيرانس ، فاستطاع رادار الأمريكيين كشف هذا

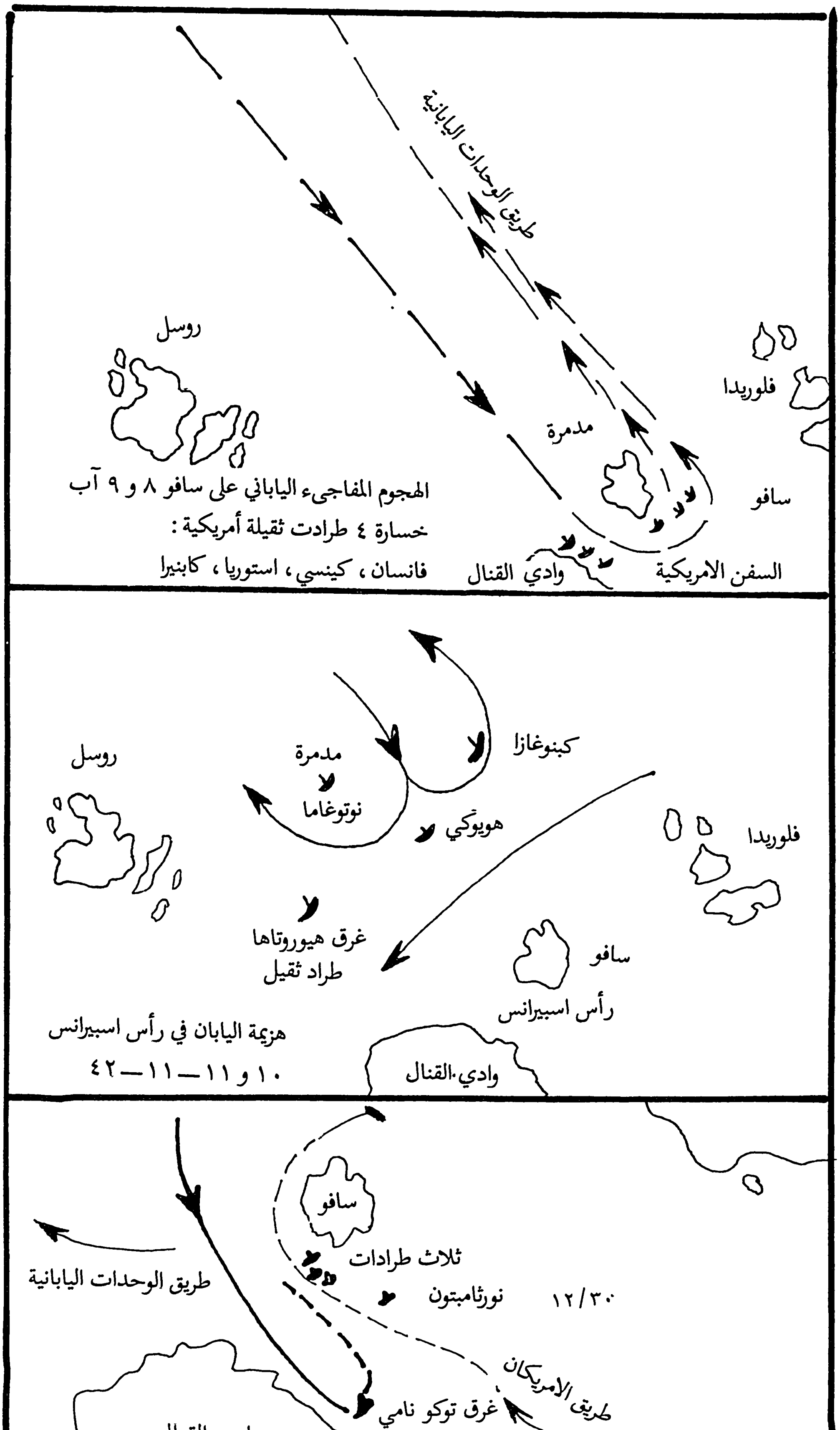

اشتباكات ثلاث في حملة وادي القنال

التجمع فبادروه بفتح النار ، واحتدمت المعركة من جديد ، وأصيبت الساوث داكوتا ، إلا أن الطراد واشنطن الأمريكي اندفع نحو حاملة الطائرات اليابانية كيريسيما ، وأغرقها ، فانسحبت القوات اليابانية من جديد بفوضى ، وكانت لهم هزيمة منكرة .

بعد هذا الحادث عاد اليابانيون يفتشون عن مناسبة يدفعون بها عن أنفسهم هزيمة وادي القنال ، ويحاولون إنزال أكبر خسارة ممكنة في قوات أمريكا البحرية . لكن السيطرة الجوية بدأت تفلت من أيديهم . فخسائرهم في الطائرات جسيمة (٢٦٥) طائرة في تشرين الأول و (٢٠٠) طائرة في تشرين الثاني ، كما أن سفنهم لم تعد كافية لعمليات المساندة والإمداد . وكذلك الحال بالنسبة للذخائر والمحروقات لكنهم قاموا مع ذلك بمحاولة أخرى أخيرة في تاسافارونا ، وذلك يوم ٣٠ تشرين الثاني . واستطاعوا إغراق نورثامبتون ، كما أصابوا ثلاثة طرادات أمريكية إصابات مباشرة . وفي يوم ٣١ كانون الثاني من عام (١٩٤٣) أغرقوا الطراد الأمريكي الثقيل شيكاغو في عرض جزر رينيل ، ولم ينسحب اليابانيون من وادي القنال إلا بتاريخ ٨ شباط (١٩٤٣) . وكانت نتائج المعارك البحرية خلال الستة أشهر الماضية هامة على عدة أصعدة :

ـــ استطاع الأمريكيون على الصعيد الفني تحسين أساليبهم القتالية بشكل ممتاز ، إذ طوروا أسلحتهم المضادة للطائرات على بوارجهم وسفنهم القتالية الكبيرة ، ثم حسنوا من وسائط الرصد والإنذار ، واستخدموها بفعالية ، خصوصاً في القتال الليلي .

ـــ كبّد الأمريكيون اليابانيين خسائر بشرية ومادية هامة ، خاصة بالطائرات والطيارين ، فقلّصوا بذلك نشاطات سلاح الجو الياباني ضد قوات أمريكا البحرية وقواعدها البرية . وظهر جليا تفوق العتاد الأمريكي على المطاردات اليابانية زيرو الخفيفة التسليح ، وحيث مستودعات وقودها عرضة للإصابة . ولم تعدل هذه المطاردات إلا بعد عام (١٩٤٤) إثر خسائر فادحة بعدد الطيارين . فعمد اليابانيون إلى تقوية تصفيح مطارداتهم وبناء طائرات أكثر متانة .

ـــ تفوق اليابانيون بعدد حاملات الطائرات التي امتلكوها (مر الأمريكيون بأزمة نقص في عدد حاملات الطائرات خلال عدة شهور) فإضافة لما يمتلكون عززوا العدد بعدة حاملات متوسطة وخفيفة كـ اوتاكاشويو ، واوينو ، كما حولوا بعض السفن التجارية وسفن النقل إلى حاملات طائرات كـ شيتوس ، وشيودا .

الخلاصة

أخذت معركة وادي القنال بعدها الاستراتيجي الكامل، ليس بإيقاف زحف اليابانيين نحو أوستراليا فحسب، بل بالحد من نفوذهم، وباعلان الهجوم المضاد الحاسم عليهم، ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية قد استطاعت تحقيق هذا البعد الاستراتيجي، إلا أنها أصيبت بخسائر جسيمة في البحار، إذ فقدت حاملتي طائرات، و(١٩) طراداً، و(١٦) نسافة، وغواصة واحدة. ولولا أن قدرتها الصناعية كانت كفيلة بتغطية الخسائر ومضاعفة البناء، وخاصة في باب انتاج **الطائرات** الحربية الحديثة، وحاملات الطائرات والطرادات المتقدمة، لما استطاعت متابعة معركتها في المحيط الهادي وإحرازها النصر.

الفصـــل الخـامـس

الهجمات الحليفـة الأولـى عـام ١٩٤٣

نقاط عامة

ـــ **استثمار** انتصارات إفريقية .

ـــ **لقاءات** عدة ومداولات لوضع خطة هجومية مستقبلية وإجابة مطالب الجبهة الثانية المتمثلة بجبهة **الاتحاد** السوفييتي .

ـــ **تجهيز** المواقع والقواعد بالعتاد الحديث في المحيط الهادي ، واحتلال قواعد انطلاق جديدة إعداداً **للهجوم** الحاسم الكبير .

ـــ **معالجة** أطنان السفن التي تغرق في الأطلسي ، بتقديم حماية أفضل للقوافل ، وزيادة في تدمير أعداد غواصات الألمان .

جدول بالتواريخ الهامة

التاريخ	المتوسط	الأطلسي	الهادي	اللقاءات
شباط ١٩٤٣			٨ منه نهاية معركة وادي القنال	
آذار		١١ منه مضاعفة اكونيت لمحاربة الغواصات		
أيار	٧ منه الاستيلاء على تونس			١١ منه اجتماع واشنطن
تموز	١٠ منه إنزال في صقلية			
آب				١٨ منه لقاء في كويبك
أيلول	٣ منه إنزال في إيطاليا	٢٢ منه مهاجمة التبريتز	عمليات غينيا الجديدة	
	٥ منه تحرير كورسيكا			
	٨ منه استسلام إيطاليا			
تشرين الأول				مؤتمرات موسكو القاهرة
كانون الأول		غرق شارنهورست		طهران القاهرة

الانتاج الحربي الأمريكي لعام (١٩٤٣)

(٨٦٠٠٠) طائرة، (٢٩٫٥٠٠) دبابة، (٢٫٧٠٠٫٠٠٠) طن سفن حربية (١٢٫٤٠٠٫٠٠٠) طن سفن تجارية.

أولى الهجمات الحليفة عام (١٩٤٣)

آ ـ المتوسط

قال الجنرال ماريشال «يمر نصر أوربة عبر المحيط الهادي»، وهو يعني أن إمكانات عام (١٩٤٣) غير قادرة على دعم حاجيات القتال الضرورية لهجوم عام في أوربة الغربية، حيث إن أمريكا تستنفد كل طاقاتها الحربية في المحيط الهادي، تجاه خصم عنيد يعشق القتال. لكن ذلك لم يمنع القادة العسكريين من إتمام التحضيرات وإعداد الخطط، لفتح جبهة أو جبهات أوربة. وكانت أولى هذه الخطط خطة هوسكي، وتشمل مهاجمة صقلية في تموز (١٩٤٣).

في شهر أيار تم اجتماع حليف هو اجتماع ترايدنت في وشنطن، واتخذ قرار إخراج إيطاليا من الحرب. وفي آب من العام نفسه أعطيت الأوامر للجنرال ايزنهاور لاحتلال إيطاليا، وإعداد خطة آنفيل لتحرير جنوب فرنسا.

١ ـ تجمع بقايا الأسطول الفرنسي بعد كارثته

إنزال الحلفاء في شمال إفريقية، ونقض الألمان لاتفاقيتهم مع فرنسا (اتفاقية الصلح عام ١٩٤٠) أصابا البحرية الفرنسية في الصميم، ثم جاء احتلال الألمان للمنطقة الحرة من فرنسا، وضمنها ميناء طولون الحربي فوضع الأسطول الفرنسي تحت رحمتهم (نداءات الأميرال الفرنسي دارلان ١١ و١٣). والتعليمات العامة المستديمة للبحرية والصادرة في ٢٤ حزيران (١٩٤٠) أجبرت الأسطول الفرنسي على تدمير نفسه في ميناء طولون. وتضمن هذا الأسطول (٦١) قطعة بحرية حمولتها (٢٢٥) ألف طن منها البارجتان دونكرك، واستراسبورغ، والطرادات الثقيلة: إلجزائر، فوش كولبير، دوبليكس، والطرادات الخفيفة: مارسيلييز، غاليسونيير، جان دوفيين ونجت الغواصات التالية وهربت من الألمان وهي: كازابيانكا، مارسوان، غلوريو.

ولا بد هنا من الاشارة إلى التشكيل البحري الفرنسي الذي استولى عليه الألمان والإيطاليون في بنزرت (تونس) بتاريخ ١٨ كانون الأول (١٩٤٠) وتضمن (٣) نسافات (٩) غواصات وسفينتين لقذف الطوربيد.

جميع تلك الأحداث دفعت بجموعات السفن الفرنسية المبعثرة في المرافىء الإفريقية وجزائر الآنتيل إلى التجمع ثانية، فقسم منها التجأ إلى الولايات المتحدة كريشليو، وجورج ليغ والمالان، حيث أضيفت إليها بعض التجديدات، والباقي تجمع في ميناء دكرالسنغالي.

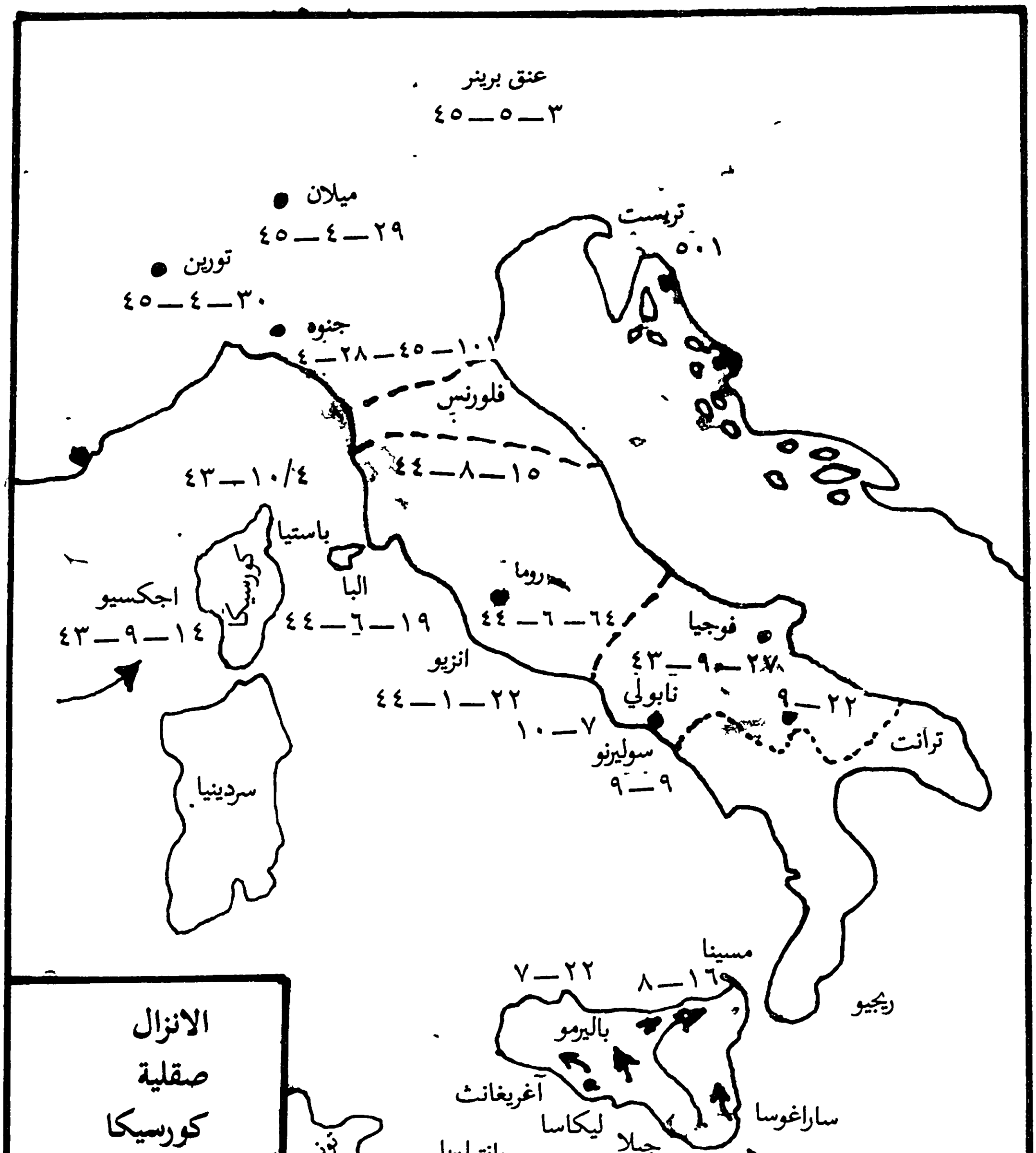

أعيد بناء الطيران البحري الفرنسي بالطائرات الفرنسية الصالحة مع مجموعات من الطائرات الأمريكية .. ورأس الأميرال لومونييه(٤٦) القوات البحرية والطيران البحري لفرنسا الحرة . وبدأت هذه الوحدات عملها بشكل جيد في المتوسط .

قام الكورسيكيون بحركة وطنية تحررية ضد المحتل الألماني . وكان لدى الألمان في الجزيرة (٥٠) ألف مقاتل تقريباً ، والعاصمة أجاكسيو غير محتلة ، وبفضل دعم الأسطول الفرنسي في المتوسط

اقتربت الغواصة كازابيانكا وأنزلت (١٠٩) مقاتلين مع أسلحة وعتاد لدعم الثائرين ١٣ أيلول (١٩٤٣). وبدأت السفن الحربية فانتاسك، التيريبل مونكالم، الجان دارك نقل الجنود والعتاد وتم إنزال (١٢) ألف جندي فرنسي استطاعوا دفع الألمان حتى باستيا. وتابع الأسطول الفرنسي الصغير تقديم مهمات عديدة للحلفاء طيلة أيام الحرب.

إنزال صقلية ١٠ تموز (١٩٤٣) واستسلام إيطاليا

قال بوتشير «لم تكن عملية إنزال صقلية بالمهمة الصغيرة حتى لايزنهاور نفسه لأن إنزال (١٥٠) ألف مقاتل في عملية برمائية مهمة خطيرة جداً، خصوصاً على سواحل عدوة محمية بقوات برية وأسلحة ساحلية، مع حقول ألغام برية وبحرية، بالإضافة إلى عدة غواصات ألمانية تجوب المنطقة مع قواعد جوية متقدمة بسلاح المطاردات وقاذفات القنابل».

أعد الإنزال إعداداً كاملاً، وبدأ في ١٢ حزيران بالاستيلاء على جزيرة بانتيلاريا، بعد أن قصفت بألف طن من القنابل قتل وجرح فيها مائتا عنصر من ثكنة ألمانية احتوت على (١٢) ألف مدافع عن الجزيرة. وفي أثناء ذلك كان خليج آرزو يعج بالحركة والتدريب. وأمضت الوحدات المعدة للإنزال عدة أسابيع تتدرب على عمليات الإنزال فاتقن فن إنزال المدرعات، وأعد كل شيء حسب خطة مرسومة استخدمت فيها ثلاث وسائط إنزال هي:

١ — (صندل إنزال للآليات) حمولته (١٨) طناً طوله (١٢,٨) متراً يستطيع نقل دبابة واحدة بوزن (١٦) طناً، أو سيارتين مصفحتين.

٢ — (صندل إنزال للدبابات) حمولته (١٢٠) طناً إلى (٣٥٠) طناً طوله بين (٣٥ و ٦٠) متراً، يتقدم الموجات الأولى مع صنادل الإنزال الهجومية وصنادل إنزال المقاتلين، ويحمل العائمات البرمائية والدبابات الثقيلة كالشيرمان (٣٠) طناً وتشرشل (٣٨) طناً.

٣ — (سفن إنزال للقوات) وهي بالأصل سفن تجارية أو ناقلات بترول صغيرة حولت إلى سفن إنزال أو أنها مراكب بنيت خاصة لذلك، تحمل حتى (٥) آلاف طن، وتستوعب فوج مشاة كامل من (٢٠٠) إلى (٣٠٠) عنصر، مع (٦٠) مصفحة أو دبابة متوسطة، وبعض هذه السفن تتبع الموجة الأولى لتقديم الدعم لرأس الجسر النازل أو انها تتجة نحو الموانىء المحتلة، لتفريغ حمولتها من الرجال والعتاد.

بدأت عمليات إنزال صقلية بوحدات محمولة جواً هبطت في المطارات الصقيلية خلال ليل ٨ ، ٩ ، إلا أن الحظ خانها ونزلت في مكان بعيد لخطأ في الملاحة الجوية .

كان على الأمريكيين النزول على الساحل الجنوبي الغربي من الجزيرة ، ثم الاتجاه على طول الساحل الجنوبي ، وطول الساحل الغربي ، ثم التقدم نحو باليرمو ، ليلتقوا هناك بالبريطانيين الذين يكونون قد نزلوا على الساحل الجنوبي الشرقي ، وهدفهم كاتان وسيسينا .

في العاشر من الشهر وكانت الريح تعصف من الغرب ، والبحر عالي الموج ، تقدمت (٣٢٦٦) سفينة وعائمة تنقل (١٦٠) ألف مقاتل ، (٦٠٠) دبابة و (١٠٠٠) مدفع في منطقة جيلا في حين نزل البريطانيون بين رأس باسارو ، وسيراغوس ، لم يتعرض الإنزال لمقاومة كبيرة ، والصعوبات كانت فقط من سوء الأحوال الجوية . ونظراً لذلك ولكثرة تضاريس الجزيرة استطاع الألمان إخلاء (٨٨) ألفاً من جنودهم لكنهم تركوا وراءهم الكثير من العتاد .

كانت عملية صقلية مفاجأة للألمان إذ توقعوا الهجوم في جزيرة سردينيا لكن المفاجأة الكبرى هي في سقوط الدوتشي موسوليني حين لم يحصل على أغلبية في مجلس الفاشيست الأعلى ٢٤ تموز (١٩٤٣) واستسلام بادوليو ، وتوقيع معاهدة الصلح في ٣ أيلول حيث وضعت موضع التنفيذ في ٨ أيلول (١٩٤٣) .

برغم محاولات الألمان منع هرب الأسطول الإيطالي (قنابل طائرة أغرقت البارجة روما) استطاعت غالبية السفن الإيطالية النجاة ، والتحقت إما بمالطة أو الإسكندرية .

جاء رد فعل الألمان عنيفاً ، إذ أرسلوا نجدات واسعة لإيطاليا ، وسرحوا القوات الإيطالية التي تعمل معهم ، وجردوها من السلاح . ثم طبقوا الخطة الخاصة الموضوعة مسبقاً في حال غزو حليف لإيطاليا ، وذلك بالانسحاب شمالاً وترك النصف الجنوبي والأوسط . وتلك كانت فكرة رومل وهو يعرف أن السيادة البحرية كاملة للحلفاء ، ومعناه أن كل خط دفاعي جنوبي إيطاليا سيتعرض لخطر الهجوم والتطويق في حال عمليات إنزال حليفة خلفه .

عندما تبين للقيادة العامة الألمانية سلبية الإيطاليين قرروا المقاومة وحدهم عند خط دفاعي يمتد بين غاييت وبيسكارو ، حيث تمتد سلسلة جبال ابينان من البحر شرقاً إلى البحر غرباً ، وتقسم شبه الجزيرة الإيطالية إلى شمالية وجنوبية ، وتضرب المواقع المتمركزة في هذه التلال طريق روما نحو كاسينو من جبال أورونسي علوها (١٦١٦) متراً وجبل كيرو (١٦٦٩) متراً .

أما في الوسط فتمتد سلسلة من ذروات الجبال تعلو حتى (٢٨٠٠) متراً وتشكل عوائق طبيعية عالية بينها وديان سحيقة صعبة العبور كوديان سانغرو وغاريغليانو وليري وارتيدو .

إن جميع هذه الظروف الطبوغرافية والهيدروغرافية الناجمة عن مساقط مياه الوديان تجعل الدفاع عن المنطقة مناسباً ، وتمتنع على الدبابات ، وتحمي المواقع من هجمات الطيران .

تصرف الألمان في البلقان وبحر ايجه تصرفاً يناسب الظروف التي حلت بإيطاليا . وكان رد فعلهم عنيفاً ، إذ حرموا على الحلفاء استخدام الألوية الإيطالية المنهزمة ، فأبطلوا محاولة البريطانيين لاحتلال رودوس ، حتى إنهم طردوهم من عدة جزر صغيرة كان الانكليز قد احتلوها وهي كوس ، ساموس ، ليروس في ٢١ أيلول (١٩٤٣) .

الإنزال في إيطاليا أيلول (١٩٤٣)

كان على الجيوش الحليفة اجتياح إيطاليا من ثلاث نقاط هي :

١ ــ من ريجيودو كالابر في ٣ أيلول وهي مهمة الجيش الثامن البريطاني .

٢ ــ من تارنت (الفرقة البريطانية المحمولة جواً) ، ومهمتها مراقبة المرافىء على بحر الأدرياتيك ، ثم احتلال مطارات فوجيا بأسرع وقت ممكن .

٣ ــ في ساليرنو خليج نابولي وهي العملية الأكثر أهمية ، لكنها تفتقد لعامل المفاجأة ، لأن جميع القوافل القادمة من صقلية أو إفريقية في أيام ٨ و ٩ رصدت من قبل الطيران الألماني ، وتعرضت لهجماته المتتالية .

كان القصف التمهيدي الحليف لمناطق الإنزال غير فعال في البدء ، إذ استطاعت الدفاعات الأرضية الإيطالية الدخول في المعركة فعقدت الهجوم الحليف وجعلته صعباً ومكلفاً . فمنذ فجر التاسع من الشهر والانساق الأولى النازلة تتعرض لرمي حاد مركز من قبل أعشاش الأسلحة الأتوماتيكية البرية المدافعة ، ومن مدافع الهاون ، ومدافع الميدان . مما اضطر السفن الحربية المواكبة وخاصة في القطاع البريطاني إلى قصف المقاومات الأرضية الثابتة ، فأسكتتها . إلا أنها لم تكن مجدية إزاء نيران المدرعات الألمانية المموهة المتخفية في مغائر الجبال . وتدخل السلاح الجوي الألماني بكثافة ضد الـ (٢٥٠) طائرة الحليفة الموجودة على حاملات طائرات الأميرال هيويت .

وفي الـ ١١ من الشهر قامت دبابات البانزر بهجمات مضادة متكررة وعنيفة ، الغاية منها

رمي الحلفاء إلى البحر . واحتدمت المعارك ، ووصلت ذروتها في ١٤ منه وتخلخل الموقف ، وظهرت ملامح هزيمة للحلفاء متوقعة . عندها تقدم التشكيل البحري المواكب إلى المياه القليلة الأعماق مقترباً من البر وبحدود ما سمحت به أعماق البحر ، ودخل المعركة بعنف وشراسة ، وأقام سداً مدفعياً أمام المدرعات الألمانية المتقدمة . وشاركت في هذا السد كل مدافع الأسطول الثقيلة ، وهي (٦) بوارج و (١٥) طراداً و (٢٩) نسافة فتوقف زحف أرتال البانزر ، ومن ثم أتت القاذفات الثقيلة من طراز ب ــ ٢٥ من صقلية و ب ــ ١٧ من شمال إفريقية ودخلت المعركة داكة أرتال الدبابات الألمانية ، وفرضت عليها التقهقر والانسحاب . وكان الفضل للأسطولين البحري والجوي في منع كارثة محققة للحلفاء .

وخلال عملية تجميد أرتال دبابات الألمان استطاع رتل دبابات تابع للجيش الثامن البريطاني التقرب . وفي ١٨ تشرين الثاني انسحب الألمان ، بعد أن استسلم (٤٠٠٠) من جنودهم ، وبعد إصابة (١٩٢) دبابة . لكن باب العمليات الحربية ظل مفتوحاً لمزيد من المعارك .

أما في نابولي ، فقد احتل الحلفاء المرفأ في ٧ تشرين الأول لكنه لم يكن إلا حوضاً مدمراً خربه الألمان قبل انسحابهم . ثم تقدمت القوات الحليفة إلى مطارات فوجيا ، واحتلت مساحات واسعة من أرضها .

أعد الألمان مقاومة عنيفة للحلفاء الزاحفين عند خط دفاع غوستاف . لكن جيش الطليعة الفرنسي والمؤلف من تشكيلات رماة بحريين ومدفعيين بحريين دخلوا المعركة قرب غوستاف ، وأتقنوا قتالهم حول المدينة ، وحول دير جبل كاسين . هذا المكان المقدس الذي شهد على مدى العصور ، ومن أيام حملات القرطاجيين والرومان أقسى المعارك البربرية ، وخلال حروب متعاقبة .

ولكي تحول أنظار الألمان عن دفاعاتهم نحو نقاط أخرى ، قال ايزنهاور لبيتشر إن تشرشل هو المسؤول الكامل عن الهجوم النهائي ، منذ إعلان بدئه . وكان هو القائد العام للحملة . يعني إن هناك احتمالاً لاستغلال السيادة البحرية المطلقة الحليفة ، وإجراء عمليات جديدة تفسد خطط الألمان في أمكنة أخرى من شبه الجزيرة الايطالية ، أو جنوب فرنسا ، أو حتى في سواحل دول البلقان . لكن الاحتمال الحقيقي كان في عملية إنزال جديدة وراء خط دفاع غوستاف ، وعلى بعد ستين كيلومتراً من روما العاصمة . وفي نيتونو وآنزيو ، حيث كلفت الطرادات أوريون ، سبارتان ، بروكلين ، بينلوب بعملية دعم وإسناد . وقامت البارجة فانتاسك مع الطراد ديدو وعدة مدمرات بعملية قصف لإلهاء أنظار العدو عن محور الهجوم الرئيسي ، فنجح الإنزال في ٢١ كانون الثاني (١٩٤٤) في نيتونو

وآنزيو. لكن تهاون الحلفاء في استغلال عامل المفاجأة في عمليتهم هذه أعطى الألمان فرصة صد الإنزال بإقامة هجوم مضاد، هاجمت فيه الطائرات والقنابل الطائرة، ثم زوارق الطوربيد والغواصات، وهاجمت سفن الدعم فأغرقت كلاً من سبارتان وبينلوب، وتمسكت قوات رأس الجسر النازلة بمواقعها، بفضل مساندة الطيران الحليف ومدفعية الأسطول لعدة أيام. لكن سرعان ما أخفقت العملية، ولم تستطع تحقيق ما كانت تطمح إليه، إلا أنها جمعت قوات كبيرة للألمان في منطقة آنزيو.

أما في إيطاليا الوسطى فقد استطاعت قوات الحلفاء في ١٧ تشرين الثاني احتلال جبل كاسين وطريق روما، ثم سقطت روما، واندفعت الجيوش شمال البلاد وفي أثناء ذلك نجح الفرنسيون بعملية إنزال برمائية، واحتلوا جزيرة ألبا في أيام ١٧ و ١٨ و ١٩ شباط. ولما توازنت الجبهة في إيطاليا على خط غوتيك قرر الحلفاء سحب بعض من قواتهم تحضيراً لعملية إنزال جديدة في البروفانس.

ب ــ المحيط الهادي

تفوق التقنية الأمريكية في حاملات الطائرات والطيران المحمول

استطاعت الولايات المتحدة خلال عام (١٩٤٢) إصلاح بوارجها التي كانت قد أعطبت في هجوم بيرل هاربور. وأسرعت في إشراك هذه الوحدات في العمليات الحربية الدائرة. وكان منها نورث كارولينا، وواشنطن (بارجتان وزن كل منها ٣٥ ألف طن) وعززتها بـ ايوا، نيوجرسي (دارعتان وزن كل منها ٤٥ ألف طن)، مع أربع بوارج حديثة متوسطة (وزن واحدتها ٣٥ ألف طن) طراز ساوث داكوتا.

بالنسبة لحاملات الطائرات عزز أسطولها بمجموعة ضخمة قلبت موازين القوى في المحيط الهادي لصالح الأمريكيين، إذ دخلت الحاملات التالية المسرح البحري:

ــ اسيكس في نهاية عام (١٩٤٢).

ــ انتروبيد، هورنيه، فرانكلين، ليكسنغتون، بونكرهيل، واسب... الخ وزن الواحدة (٢٧) ألف طن، وبطول (٢٦٩) متراً، وتعمل بسرعة (٣٣) عقدة تحمل كل منها (٨٢) طائرة، منها (٢٧) مطاردة، و(٣٧) قاذفة قنابل، و(١٨) قاذفة طوربيد، وعدة طائرات احتياطية أخرى للاستطلاع والمهام الخاصة.

ــ إلى جانب الحاملات الثقيلة انضمت (٧) حاملات متوسطة بوزن (١١) ألف طن من

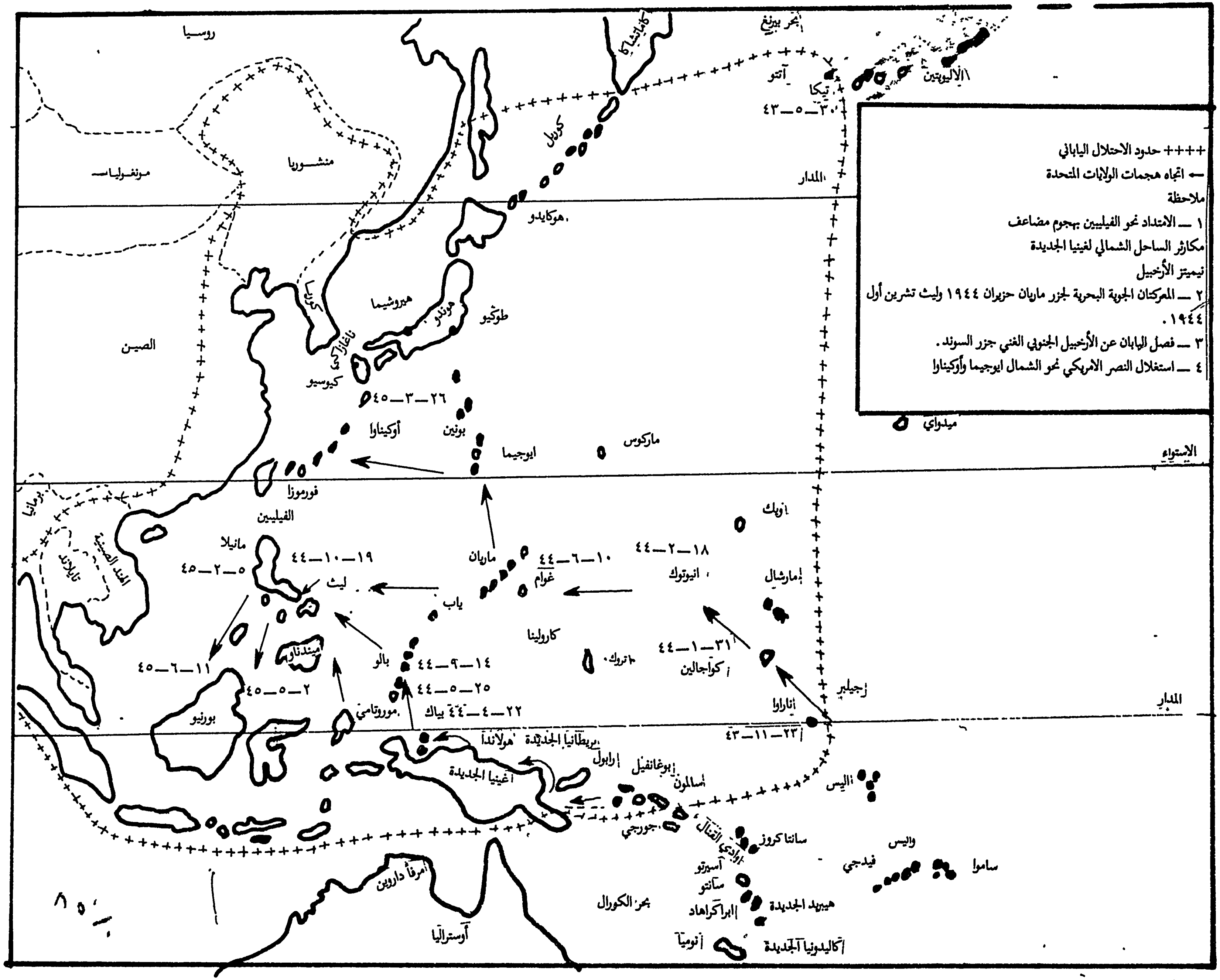

++++ حدود الاحتلال الياباني
← اتجاه هجمات الولايات المتحدة
ملاحظة
١ ـــ الامتداد نحو الفيليبين بهجوم مضاعف
مكارثر الساحل الشمالي لغينيا الجديدة
نيميتز الأرخبيل
٢ ـــ المعركتان الجوية البحرية لجزر ماريان حزيران ١٩٤٤ وليث تشرين أول ١٩٤٤.
٣ ـــ فصل اليابان عن الأرخبيل الجنوبي الغني جزر السوند.
٤ ـــ استغلال النصر الامريكي نحو الشمال ايوجيما وأوكيناوا
روسيا
منغوليا
منشوريا
الصين
كوريا
هيروشيما
ناغازاكي
كيوسيو
هونشو
طوكيو
هوكايدو
كوريل
كامتشاتكا
بحر بيرنغ
آتتو
كيسكا
٣٠ــ٥ــ٤٣
الأليوتين
المدار
الاستواء
ميدواي
ماركوس
ايوجيما
بونين
أوكيناوا
٢٦ــ٣ــ٤٥
فورموزا
الفيليبين
برمانيا
الهند الصينية
تايلاند
مانيلا
١٩ــ١٠ــ٤٤
٥ــ٢ــ٤٥
ليث
مينداناو
١١ــ٦ــ٤٥
٢ــ٥ــ٤٥
بورنيو
موروتامي
بالو
١٤ــ٩ــ٤٤
٢٥ــ٥ــ٤٤
٢٢ــ٤ــ٤٤ بياك
ياب
ماريان
غوام
١٠ــ٦ــ٤٤
كارولينا
تروك
١٨ــ٢ــ٤٤
انيوتوك
انويك
مارشال
٣١ــ١ــ٤٤
كواجالين
زجيلبر
تاراوا
٢٣ــ١١ــ٤٣
هولاندا
بريطانيا الجديدة
غينيا الجديدة
رابول
بوغانفيل
سالمون
جورجي
الوادي القنال
سانتا كروز
اليس
واليس
فيدجي
ساموا
آسبرتو
سانتو
ابراكراهاد
هيبريد الجديدة
كاليدونيا الجديدة
نوميا
بحر الكورال
امرفا داروين
أوستراليا

طراز اندباندانس، و (٤) طراز سانغامون وعدد آخر يتزايد شهراً بعد شهر من حاملات الطائرات الخفيفة المواكبة بحمولة (٨) آلاف طن كطراز كازابلانكا، لونغ ايلاند أو يوغ .

جهزت جميع هذه الحاملات بأحدث الطائرات فكانت المطاردات من طراز هيل كات ذات محرك بقوة (٢٠٠٠) حصان بخاري و (٦) مدافع رشاشة ثقيلة و (٦) مدافع رشاشة خفيفة تتفوق كثيراً على نظيرتها اليابانية زيرو، من حيث التسليح أو التصفيح، وطائرات قاذفات طوربيد طراز غرومان، وآفانجر، وقاذفات قنابل خفيفة منقضة يقودها عناصر في غاية التدريب .

أما من الناحية السوقية فقد استطاعت الصناعة الأمريكية القيام بأعمال خارقة تتعلق بالمردود والتكيف، سواء في زيادة الانتاج (أطنان الأسطول التجاري) أو بإعداد الأجهزة الحديثة المتخصصة بإدارة المعارك، بحيث سمحت للأساطيل البحرية، أو للقوات البرية والجوية بتقديم كامل قدرتها النارية الفعالة، مهما كان بعدها عن أرض الوطن .

بحساب الكميات كان للولايات المتحدة عام (١٩٤٠) (١٫٣٠٠) ألف طن سفن حربية و (٥٠٠) ألف طن سفن مساعدة وفي تموز عام (١٩٤٣) وصلت إلى (٢٫٠٠٠) ألف طن سفن حربية و (٢٫٥٠٠) ألف طن سفن مساعدة، وظلت الطلبات متزايدة على أوزان سفن المساعدة، وحتى حين وصل حجمها إلى (٣) ملايين طن وأكثر .

والأمثلة عديدة على شدة الحاجة للسفن المساعدة، فإذا أخذنا مثالاً قاعدة جوية بعيدة، لوجدنا أن القوات الجوية لهذه القاعدة تحتاج إلى ناقلة بترول يومياً، لتأمين محروقات القاعدة، حيث إن كمية البنزين التي تزود بها قاذفة قنابل من طراز ب ــ ٢٩ لكل طلعة هي (٢٠) ألف ليتر . فإذا كانت هذه القاعدة على بعد (٧٠٠٠) ميل من الولايات المتحدة، وناقلة البترول تقطع (٢٤٠) ميلاً في اليوم فهي تحتاج إلى شهر لتغطية المسافة : وهذا يعني (٣٠) ناقلة ضرورية في اتجاه الذهاب و (٣٠) ناقلة في اتجاه العودة لكل قاعدة . هذا الاحتساب لكل قاعدة ولمادة المحروقات، فكيف الحال بالنسبة للذخائر، وقطع الغيار، ومواد التموين، والعتاد والرجال . وحتى يكون العمل فعالاً يجب إعداد دراسة لوجستية صحيحة تخصيصاً في السفن وفي الحمولات، وناقلات وقود مختلفة، وناقلات للطائرات وناقلات دخائر (قنابل، طوربيدات) وناقلات مدافع سيارات شحن، وأجهزة اتصال وراديو، وأجهزة رصد... الخ . وهذا كله يحتاج لوجستياً إلى عدد ضخم من سفن الإصلاح، سميت هذه السفن جميعها بالمجموعات السوقية أو الخدمات اللوجستية . وتتضمن بالإضافة إلى ما ذكر تجهيزات مطارات، ورش إصلاح، سوقيات للمعركة، وسائط نقل، جرارات

برمائية ، سيارات برمائية ، وصنادل إنزال لكل الاستعمالات ثم الجهاز القتالي البديل لكل عملية بحرية طويلة الأجل . هذا في مسرح العمليات ، أما وراء جبهات القتال فقد أعدت قواعد متقدمة مختلفة الأهمية ، وتبعاً لظروف المعركة ، بعضها يصل إلى حجم الترسانات الكبيرة (كقاعدة اسبيرنتو سانتو وحوضها العائم ٥٠ ألف طن) ، وقاعدة غوام ، وقاعدة أوكيناوا ، وحتى أن قطر ونقل الأحواض العائمة فرض لصعوبته ابتكار الأحواض المتعددة الأقسام ذات الجدران المنطوية ، والتي تنتقل كالسفن العادية ثم تجمع وتربط ببعضها البعض في موقع الاستخدام .

إن تعمير (١٥٢) حوض إصلاح عائم أمريكي لعمل جبار أدى خدمات جلى ، وقام بالإصلاح العديد من السفن المصابة في المسارح البحرية . هذه الاصلاحات السريعة بهرت القيادة اليابانية بالتنظيم الرائع والإدارة الحكيمة ، بحيث قلب معادلات اليابانيين ، وغير نتائج حساباتهم التكتيكية . إذ كانوا قد بنوا الكثير من خططهم على أساس البعد الشاسع الذي يفصل مسرح العمليات البحرية عن بر الولايات المتحدة الأميركية ، فجاءت النتائج مغلوطة عندما استطاع الأمريكيون تأمين كل شيء في ساحة المعركة . أو حتى نكون أكثر دقة في بحر العمليات الحربية . وتحت اسم (نحل البحر) أعد الأمريكيون كل ما يلزم من فنيين ووسائط وأجهزة لمواجهة كل أنواع العمل التي قد تتطلبها احتياجات المعركة ، وحتى إصلاح الجسور ، والمطارات والموانىء . وهذا التنظيم الفعال أمن تواصلاً مستمراً في الإمداد الفني . ومعناه تواصل في العمليات الهجومية في غاية التعقيد ، لكنه في الوقت نفسه بغاية الدقة ، وأعطى مردوداً عالياً ، وفي جميع الميادين . ويجدر بنا التنويه بالخدمات الصحية التي غطت كل حاجات المرضى والجرحى والمصابين ، بل تعدت ذلك للقيام بأبحاث علمية متخصصة قيمة تتعلق بظروف المقاتلين الحياتية في مختلف البيئات .

أما في اليابان حيث الإمكانات الانتاجية ضعيفة بمقارنتها بإمكانات الخصم الأمريكي فقد شعر اليابانيون بتخلفهم الانتاجي (٧ مليون طن فولاذ عام ١٩٤٠ لم يرتفع إلا إلى ٨ر٧ مليون طن عام ١٩٤٣ ، مقابل ٨٠ مليون طن فولاذ في الولايات المتحدة) ، ومقابل كل مليون طن مراكب حربية يابانية تقدم الولايات المتحدة ٢ر٨ مليون طن ، هذا في سلاح البحر ، أما ميزان الطيران البحري والطيران البري فقد كان على النحو التالي :

أنتجت اليابان (٦٣٫٣٠٠) طائرة فقدت منها (٥٠) ألفاً .
أنتجت أمريكا (٢٩٤٫٠٠٠) طائرة فقدت منها (٢٧) ألفاً في المحيط الهادي .

وبالنسبة لحجم الأسطول التجاري انتقل الأسطول الأمريكي التجاري من (١ر١٢) مليون طن عام (١٩٣٩) إلى (٨ر٥٦) مليون طن عام (١٩٤٥) في حين ظل أسطول اليابان التجاري أحد نقاط الضعف في اقتصاده الحربي .

الرصد والإنذار

ليس في ميدان الصناعة وحده بـزّت الولايات المتحدة غريمتها اليابان ، بل تعدت ذلك إلى ميادين أخرى كثيرة . فلقد دفعت بأبحاثها العلمية لتطوير سريع وواسع في باب أجهزة الرصد والمراقبة ، وحتى إنتاج القنبلة الذرية ، مروراً بالقنابل الموجهة والقنابل المحرقة نابالم ، وتجدر هنا الإشارة إلى الباحثين الكبار والقادة العظام الذين أحسنوا استخدام كل شيء ، أمثال مكارثر (٤٧) ونيميتز (٤٨) .

بدأت مختبرات البحرية منذ عام (١٩٢٢) تهتم بتجارب وأبحاث ستؤدي إلى اكتشاف أجهزة رصد ومراقبة ومتابعة . وفي عام (١٩٣٥) خصصت مبالغ طائلة من قبل الكونغرس لتلك الأبحاث ، شهد عام (١٩٤٠) اتفاقاً بين أمريكا وإنكلترا على تبادل المعلومات العلمية المتعلقة بأمور الحرب ومكتشفاته . وفي أيلول من العام نفسه نقلت لأمريكا معلومات بريطانية عن اكتشاف وانتاج (المصباح المانيوتروني) من قبل جامعة بيرمنغهام الذي يسمح باستخدام الأمواج القصيرة جداً (السانتمترية) . وفي تشرين الثاني من العام نفسه أقيم في معهد تكنولوجيا ماساشوستس مخبر لدراسة الإشعاعات المختلفة ، بلغ فنيوه أربعة آلاف شخص عام (١٩٤٥) ، وأعطى نتائج كبيرة وسريعة ، منها جهاز استجواب صديق أو عدو I.F.F ، ورادار المراقبة السطحية ، ورادار الملاحة البحرية ، وجهاز تحقيق الذاتية (الهوية) ، وإدارة مدفعية السفن ، وإدارة المدفعية المضادة ، وأجهزة إدارة وقذف الطوربيد ، وتوجيه الأنوار الكاشفة ، وتوجيه وسائط الملاحة والقنص . ولقد أثبتت جميع هذه الأجهزة الحديثة من كشف ورصد ومتابعة نجاحاتها في سير العمليات البحرية ، مع أنها بدائية تفتقر للسدنة المدربين .

لعبت أجهزة الكشف والرصد دوراً فعالاً في كوارث كثيرة حلت بالبحرية اليابانية ، وأظهرت قصورها الشديد في هذا الباب . وكذلك الحال بالنسبة للألمان الذين كانوا يعرفون الرادار لكنهم قصّروا في انتاج أجهزته وتطويرها على مدى واسع . ولم يتوصلوا قط إلى تحسين مولد أمواج سانتمترية بشكل دقيق . وكان ما بين أيديهم رادار متابعة ورصد ليلي ، يعمل بتردد (١٢٠٠) ميغاسيكل (٢٥) سم في حين أن رادارات الحلفاء تعمل بـ (١٠) آلاف ميغاسيكل (٣) سم .

التكتيك ودور حاملات الطائرات والغواصات

إن إعداد أسطول قوي من حاملات الطائرات فيها كل الصفات الفنية والقتالية العالية قد أخل القواعد التقليدية في أصول القتال، ومع تمسك الأخصائيين عام (١٩٤٠) بمبدأ هو:

حاملة الطائرات سفن عرضة للإصابة، خاصة في العمليات البحرية ضد المواقع البرية.

إلا أن أمريكا لم تعمل بهذا المبدأ، بل استخدمتها على نطاق واسع وبكافة العمليات المشتركة الكبيرة، بعيداً عن المطارات، وضد أهداف رئيسية، دون الخوف من المقاومات المعترضة.

وقد أعطت هذه الحاملات ماك آرثر دفعاً قوياً ومجداً حربياً. أما اليابانيون فكانوا يتوقعون قتالاً مراً قاسياً مع الأمريكيين عندما يحاولون مهاجمة مواقعهم العديدة في الجزائر المتفرقة في المحيط الهادي، واحتلالها لإقامة مطارات عليها.. لكن الأمريكيين لم يعملوا بهذا المخطط، وتخلوا عن فكرة القواعد الجوية الثابتة الأرضية، بوجود عدد ضخم من حاملات الطائرات، اعتبرت قوة جوية مساندة، تغطي كافة عملياتهم البحرية، وتتحرك معهم أينما حلوا.. وأصيب اليابانيون بخيبة أمل كبيرة حين اكتشفوا تخلي الأمريكيين وإهمالهم غزو كل الجزائر، بل اختاروا بعضها، وتخطوا بعضها لعدم فائدتها لهم، فجاء تكثيف القوات اليابانية في تلك الجزر وكلفة تموينها لغير صالحهم، والأمريكيون ينتقلون وحاملات طائراتهم معهم تقوم بعمل الجزائر لكنها متحركة حيث تدعو المعركة.

سلم اليابانيون بميزات حاملات الطائرات، لكن نقص مواردهم لم يسمح لهم بمزاحمة خصومهم في هذا المضمار.

نفس التفوق الأمريكي ظهر أيضاً في تطوير واستخدام سلاح غواصاتهم فشملت الحرب تجارة اليابانيين وطرق مواصلاتهم البحرية بالكامل فلا مجال لتطبيق بنود إتفاقية لندن لعام (١٩٣٠) والمتعلقة بحماية السفن التجارية والخصمان يقتتلان بعنف وضرواة وعلى كل الميادين وخسرت البحرية التجارية اليابانية (٩٠٠ر٨) ألف طن سفن خلال الحرب العالمية الثانية أغرق ٥٤٪ منها سلاح غواصات أمريكا.

وصل عدد غواصات أمريكا العاملة في المحيط الهادي لـ(١٠٠) غواصة في نهاية عام (١٩٤١) وكان الميزان عندها بناء (٢٠٠) غواصة كل خسارة (٥٠).

أثرت الخسارة الكبيرة في أسطول تجارة اليابانيين على مراحل الحرب وكانت سبباً في الهزيمة النهائية، لم يظهر هذا الأثر ويتضح لهم إلا في وقت متأخر وخلال سنين الحرب الأخيرة.

كان تأثير سلاح الغواصات الأمريكي على الأسطول الحربي الياباني لا يقل أهميته عنه في المضمار التجاري. فمن ١٫٣٠٠ ألف طن خسارة اليابانيين من سفنهم الحربية الكبيرة حاملات طائرات، بوارج، طرادات ... الخ. كان نصيب الغواصات فيها (٣٧٥) ألف طن. وأعطت الإحصاءات الحربية أن العدو الأول لحاملات الطائرات اليابانية هو سلاح الغواصات الأمريكي. فإذا أضفنا إلى هذا السلاح المهام الأخرى الهامة التي كانت توكل إليه من زرع ألغام في مياه الخصم وموانئه أو كسح وتنظيف ورفع الألغام، ورصد، واستعلام، ومراقبة ... الخ. لوجدنا كم لهذا السلاح من أهمية بالغة.

تضمن سلاح غواصات اليابانيين في نهاية عام (١٩٤١) مقدار (٦٤) غواصة محيطية، وعدة غواصات جيب صغيرة، وبعض غواصات خاصة معدة للقيام بمهام نقل عتاد وتموين للقواعد البعيدة، أو المطوقة من قبل الخصم الأمريكي. وبعضها استخدم كحاملة لطائرة (مردود سيء للغاية)، وبنت اليابان خلال الحرب (١٣٠) غواصة إضافية.

لم يعط سلاح الغواصات خلال الحرب العالمية الثانية لدى المتحاربين الأهمية التي يستحقها، بل ظل بعيداً عن التطور الفعلي، وإن تم فبخطوات متثاقلة. فالاتصال الراديو كهربائي ظل بدائياً، ولم يستخدم منظار شنوركل الراداري إلا في نهاية الحرب.

خسر اليابانيون (١٣١) غواصة خلال الحرب، بعضها خلال مهمات فردية، وبعضها في عمليات مشتركة مع الطيران وسفن السطح. وأثرت بعضها في وحدات الأسطول الأمريكي الحربي، لكن أثرها في الأسطول التجاري جاء خفيفاً. وهذه الثغرة نتيجة الأسلوب الجيد الذي اتبعه الأمريكيون في حماية سفنهم التجارية بوساطة سفن خافرة تواكبها، جهزت بأفضل وسائط كشف الغواصات المغيرة ومتابعتها وتدميرها.

مؤتمر كويبك

في آب (١٩٤٣) عقد هذا المؤتمر الذي وضع فيه الخطوط العريضة للهجوم الأمريكي المقبل في المحيط الهادي. وجاءت قراراته تتصف بالاعتداد، بعد الأعمال المظفرة التي حققها الأمريكيون في باقي الميادين في تحسين نوعية بناء السفن والطائرات الحديثة، وعلى مدى واسع، تم تجهيزها بأفضل الوسائط القتالية، مع طواقم عالية التدريب، أتاحت للجنرال مكارثر توغله نحو

الشمال، على طول الخط الساحلي لغينيا الجديدة، وحتى أرخبيل الفيليبين في خريف (١٩٤٤)، وسمحت للأميرال نيميتز بانتشار نحو الأرخبيل البولينيزي حيث وصل ريوكيو في ربيع (١٩٤٥).

كان الواجب المعطى لمكارثر مسافة (٢٠٠٠) ميل وعليه قطعها من جزر سالمون الوسطى حتى أهدافه النهائية، التي من ضمنها أرخبيل بيسمارك وقواعد غينيا الجديدة.

وواجب الأميرال نيميتز مسافة (٥٠٠٠) ميل عليه قطعها أيضاً، وتتضمن عوائق كثيرة كجزر جيلبر، وجزر مارشال، وجزائر ماريان. وكان لا بد من بناء قواعد انطلاق كبيرة لتلك العمليات الواسعة المدى، فتقرر بمؤتمر كويبك اتخاذ التالي:

ـ احتلال الجزر التي ستعد كقواعد انطلاق للهجوم الكبير.
ـ احتلال أو مراقبة الجزر الواقعة على خط سير عمليات الهجوم.
ـ مراقبة خطوط مواصلات اليابانيين البحرية وإبطال عملها.
ـ قصف وتدمير مركّز على جزر البر الياباني، نظراً لحساسيتها الكبيرة أمام الغارات الجوية (كثافة سكانية، عدم وجود عمق استراتيجي... الخ).

غينيا الجديدة حزيران (١٩٤٣) تموز (١٩٤٤)

لمس الأمريكيون منذ صيف عام (١٩٤٣) بأن إعدادهم الحربي كفيل بتحقيق هجومهم الكبير المرتقب. وحيث إن المحيط الهادي في قسمه الجنوبي الغربي لم يعد سهلاً لحركة مواصلاتهم بين سيدني (أوستراليا) والولايات المتحدة عبر زيلاندة الجديدة، كاليدونيا الجديدة، وجزائر هيبريد وسالمون، وحيث إن مواد الحرب من تموين ومحروقات وذخائر وأجهزة قد كدست، وقوات مكارثر منذ نهاية عام (١٩٤٢) تقاتل في أحراش وغابات غينيا الجديدة الصعبة الحارة دون نتائج كبيرة فقد تقرر بعد تحرير جوار ميناء مورسيبي الاستيلاء على كامل جزيرة غينيا الجديدة، وطرد اليابانيين منها.

وبالفعل جاءت التعزيزات الأمريكية للجزيرة، وبدأ الأثر يظهر واضحاً إذ تراجع اليابانيون عبر جبال أوين ستاندلي بسرعة، خصوصاً بعد هبوط القوات المحمولة جواً إلى الجنوب من بونو.

في ٣ كانون الثاني سقطت بونو بعد قتال التحامي عنيف دافع خلاله اليابانيون دفاعاً مستميتاً وشبراً بعد شبر، حتى أبيدوا عن آخرهم. تم تبع بونو موقعان دفاعيان مقاومان هما غونا وسارانادا فسقطا بالأسلوب نفسه، وبقتال مرّ وجهاً إلى وجه.

في الرابع من أيلول (١٩٤٣) بدأ الأمريكيون هجومهم الكبير بحراً وبقوات محمولة جواً تهبط وراء مؤخرات اليابانيين إلى الشرق من لايه، واحتدم القتال. ودافع اليابانيون بضراوة وعنف عن شبه جزيرة هيون مما دفع بالأمريكيين للقيام بعمليات مشتركة، **إنزال وحركة** إلى داخل شبه الجزيرة، حتى سقطت مدينة مادانك في ٢٤ نيسان (١٩٤٤). وبعد سقوط هذه المدينة، استغل الأمريكيون تفوقهم الجوي فلم يعودوا يقصفون مراكز المقاومة بل اتبعوا خطة قفزة الخروف بعمليات هجومية قصيرة متعاقبة. ففي ٢٢ نيسان نزلت قوات جديدة لمكارثر جديدة في هولانديا وآيتابيه فعزلوا وراءهم (٦٠) ألف ياباني في منطقة ديواك، وتابعوا زحفهم واحتلوا في أيار مطارات بياك. وفي ٣٠ تموز اجتازوا مانو كواري، وباجتيازهم لهذه المنطقة تكون غينيا الجديدة قد انتهت، ولم يبق في الجزيرة إلا شرازم صغيرة من اليابانيين حلت عليها حياة البؤس والفاقة وفقدت الأمل.

وباحتلال غينيا الجديدة أصبح طريق الفيليبين مفتوحاً أمام مكارثر ويجدر التفكير الجدي بهذا الطريق الحيوي.

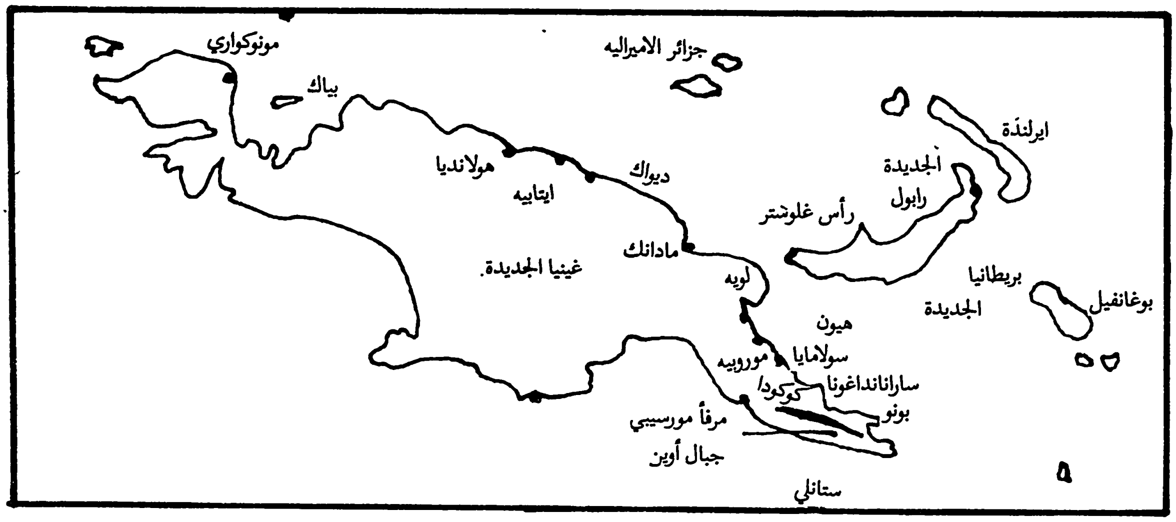

نهاية احتلال جزر سالمون

لم يكن لدى الأمريكيين إمكانية متابعة الزحف السريع ، بعد النجاح الذي أصابوه في وادي القنال ، خصوصاً وأن اليابانيين الذين انسحبوا من تولاجي ووادي القنال تجمعوا ثانية في منطقة موندا بجزيرة جورجي الجديدة ، وأقاموا مطارات حربية هامة ، وبقوا هناك حتى نهاية حزيران (١٩٤٣) ، حيث نزل الأمريكيون بحراً واشتبكوا معهم وطردوهم ثم استولوا على موندا ، وأنهوا عمليتهم في ٥ آب .

أما جزيرة بوغا نفيل الكبرى التي تحتوي على قوات دفاع يابانية كبيرة فقد قاومت الهجوم الأمريكي بضراوة وعنف ، ومع أن الأمريكيين نزلوا فيها في آب (١٩٤٣) ، وأقاموا القواعد والمطارات (مطار بيفا ويبعد ٤٠٠ كيلومتر عن رابول) إلا أن مقاومة اليابانيين لهم استمرت حتى نهاية الحرب ، وبقوات تزيد عن (٢٠) ألف مقاتل .

تطويق رابول وتحييدها في كانون الأول (١٩٤٣) ــ آذار (١٩٤٤)

رابول جزيرة فيها أربعة مطارات حربية يابانية مع مرفأ هام حسن التجهيز ، يستطيع تقديم كل الإمكانات لمقاومة طويلة ، خصوصاً وأن موقعه الاستراتيجي يجعله مقدمة غينيا الجديدة ، فاحتلال مطار في بوغا نفيل يسمح في تحييده وشل نشاطاته الحربية ، ويدعم هذا التطويق إنزال على سواحل بريطانيا الجديدة الغربية .

وبالفعل حقق الأمريكيون ذلك في ١٥ كانون الأول (١٩٤٣) ثم أتبعوه بإنزال آخر في رأس غلوسستر ٢٦ كانون الأول وإنزالين في جزيرتي الأدميرالية ٢٩ شباط (١٩٤٤) ، وبعدها أصبحت رابول محاطة مطوقة من جميع الجهات تتعرض للقصف اليومي المتواصل ، فتفقد قيمتها الحربية ، وتشل كل نشاطاتها . ثم تكلف الألوية الأوسترالية بتنظيف جيوب المقاومة في أرخبيل بيسمارك ، وفي غينيا الجديدة ، لكن استسلام رابول لم يتم وتوقع الوثائق إلا في ٦ أيلول (١٩٤٥) ، وبعد إعلان هزيمة اليابان .

الفصـــل الســادس

القــرار عــام ١٩٤٤ــ ١٩٤٥

نقاط عامة

هجمات نهائية على كل الجبهات ــ أوربة الشمالية ــ المتوسط ــ روسيا ــ المحيط الهادي

جدول بالتواريخ الهامة

التاريخ	المتوسط	الأطلسي	الهادي	السياسة العامة المؤتمرات
تشرين ثاني ٤٣			جزر جيلبر	
كانون ثاني ٤٤	٢١ آنزيو		جزر ماريشال	
مايس ٤٤	١٧ سقوط كاسين			
حزيران ٤٤	١٧ ــ ١٩ جزيرة البا	٦ الإنزال في النورماندي	١٩ ــ ٢٠ معركة جزر ماريان	
تموز ٤٤	٢٠ محاولة اغتيال هتلر			
آب ٤٤	١٥ الإنزال في البروفانس			٢٤ تحرير باريس
تشرين أول ٤٤			٢١ ــ ٢٥ لييت	
تشرين ثاني ٤٤		١٢ تدمير التربيتز		
شباط ٤٥				٤ ــ ١٢ يالطا
شباط آذار ٤٥			ايوشيما	
نيسان ٤٥			أوكيناوا	١٢ موت روزفلت
مايس ٤٥				٢٥ نيسان سان فرانسيسكو
تموز ٤٥			٣ نهاية ياماموتو	٣ مايس سقوط برلين
آب ٤٥			٨ اعلان روسيا الحرب على اليابان	٧ مايس استسلام الألمان
أيلول ٤٥			٩ آب القنبلة الذرية ٢ أيلول استسلام اليابان	١١ تموز بوتسدام

إنتاج أمريكا لعام (١٩٤٤)

٩٦٣٧٠ طائرة

١٧٥٦٥ دبابة

٣٫٣٠٠٫٠٠٠ طن سفن حربية

١١٫٦٠٠٫٠٠٠ طن سفن تجارية

العناصر

آ ــ الإنزال في النورماندي

١ ــ جدار الأطلسي

٢ ــ الاستراتيجية الحليفة

٣ ــ اوفرلورد

٤ ــ نبتون

٥ ــ استثمار النصر

خاتمة

نهاية بحرية السطح الألمانية ، الغواصات الحديثة « جيوب الأطلسي » الطيران الحليف والطيران الألماني عام (١٩٤٤).

ب ــ الإنزال في البروفانس

جـ ــ هجوم الطيران البحري في المحيط الهادي وغزو الجزر بحرياً ..

١ ــ جيلبر ــ ماريشال ــ تحييد تروك

٢ ــ ماريان

٣ ــ ليت

٤ ــ ايوشيما

٥ ــ أوكيناوا

٦ ــ برمانيا ــ الصين

٧ ــ القنبلة الذرية ــ استسلام اليابان

القرار (١٩٤٤ ــ ١٩٤٥)

آ ــ الإنزال في النورماندي

جدار الأطلسي

بعد أن أخفقت ألمانيا في حملتها على روسيا عام (١٩٤٢)، ونجاح إنزال الحلفاء في شمال

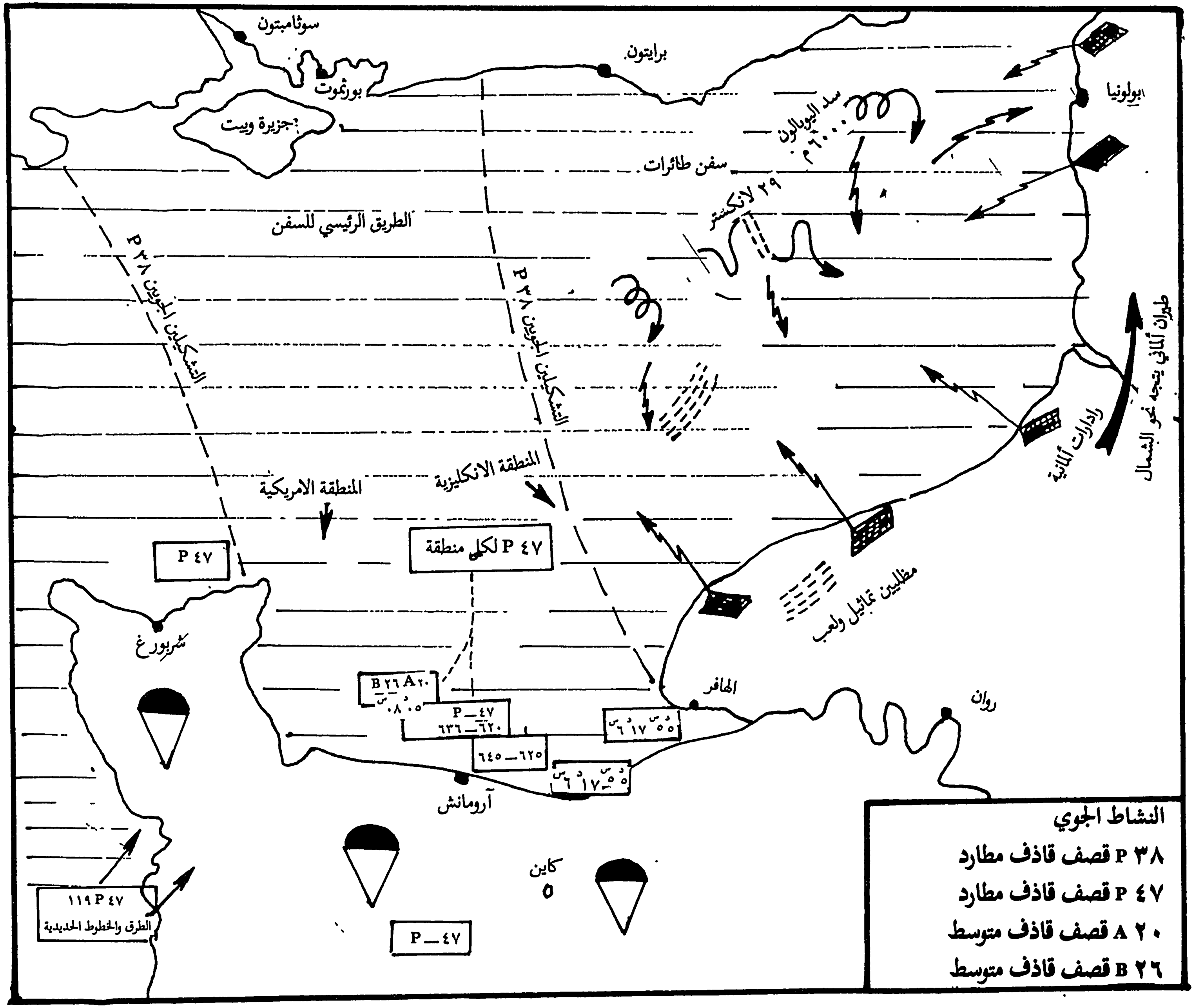

سوثامبتون
بورثموت
جزيرة ويت
برايتون
بولونيا
سد البوبالون
٦٠٠٠ م
سفن طائرات
الطريق الرئيسي للسفن
٢٩ لانكستر
التشكيلين الجويين P ٣٨
التشكيلين الجويين P ٣٨
طيران ألماني يتجه نحو الشمال
رادارات ألمانية
المنطقة الانكليزية
المنطقة الامريكية
P ٤٧ لكل منطقة
P ٤٧
مظليين عاتايل ولعب
شربورغ
الهافر
روان
B٢٦ A٢٠
P ـ ٤٧
٦٢٠ ـ ٦٣٦
٦٢٥ ـ ٦٤٥
آرومانش
كاين
٥
P ـ ٤٧
١١٩ P ٤٧
الطرق والخطوط الحديدية
النشاط الجوي
٣٨ P قصف قاذف مطارد
٤٧ P قصف قاذف مطارد
٢٠ A قصف قاذف متوسط
٢٦ B قصف قاذف متوسط

إفريقية ، وجدت نفسها في مطلع عام الـ(٤٣) قلقة في الدفاع عن أوربة الجنوبية والغربية ، إذ عليها حماية ألوف الكيلومترات من الشواطىء البحرية ضد خطر إنزال حليف . وهذه الشواطىء تمتد من سواحل النرويج شمالاً وحتى سواحل اليونان جنوباً ، وتتضمن العديد من المناطق الحساسة الصالحة للاجتياح والغزو بعمليات إنزال برمائية . وأكثر النقاط حساسية ، هي سواحل البلاد الإسكندنافية ، وبحر الشمال ، وشبه جزيرة إيبريا ، ودلتا نهر الرون ، وفتحة نهر الجيروند .

مضت الأشهر وكل الدلائل تشير إلى أن الحلفاء يعدون اجتياحاً على مدى واسع ، سيتم على الأغلب على سواحل فرنسا الشمالية ، لكن أين ؟

يعتقد فون رونشتد قائد عام قوات ألمانيا في أوربة الغربية أن المكان المختار هو مضيق كاليه ، لقصر مسافته ، ولوجود مساحات واسعة في البر الإنكليزي القريب تصلح كقواعد تجمع وانطلاق (كنت وسوسكس الواسعتين) . أما اعتقاد أعضاء أركان هيئة الحرب العليا الألمانية فينصب حول قطاع نهري السين والسوم . لكن رأي هتلر (١٩٤٤) كان أكثر تحديداً ، إذ اعتبر قطاع شاطىء النورماندي الأسفل هو الساحل الأكثر ترشيحاً لعمليات الإنزال . إلا أنه لم يعد لهذا الحدس أية تدابير تكتيكية لقواته ، تعطيه نتائج إيجابية في حالة حدوثها . ولقد أظهر سلاح الإستخبارات الألماني عجزه في إعطاء دلائل محسوسة دقيقة عن مكان الهجوم وزمانه .

أقيم خط دفاعي على طول سواحل فرنسا ، بلجيكا ، وهولندا ، عزز في القطاعات الشمالية منه ، وربط ببعضه البعض بقلاع قتالية قوية في كل من دونكرك ، كاليه ، بولونيا ، الهافر ، شربورغ ، برست ، لاروشيل ، لاجيروند ، طولون . وأطلق على هذه القلاع المحصنة اسم « جدار الأطلسي » ، لكن فون رونشتد لم يمنح هذا الجدار كامل ثقته ، لأنه يعتبر القلاع القتالية لم تعد إعداداً كافياً ، وهي ضعيفة جداً في حالة الالتفاف عليها ومهاجمتها من ناحية البر . إذ ركزت دفاعاتها نحو المحيط واعتبره خطاً دفاعياً غير متكامل ، ينقصه العمق الاستراتيجي والسعة في إدارة العمليات .

كان موقف القوات البرية الألمانية والمناط بها الدفاع عن أوربة وعن جدار المحيط مقدرة في ١٠ مايس عام (١٩٤٤) على النحو التالي :

(٣٢١) فرقة منها (٤٥) مدرعة ، يضاف إليها (٨٩) فرقة من الدول الحليفة لألمانيا وزعت كما يلي :

٢٣٣ فرقة في الجبهة الشرقية تقاتل الروس .

٧٦ فرقة في أوربة الوسطى .

٣٤ فرقة في الدول الإسكندنافية .

٥٥ فرقة إلى الغرب من أوربة أنيط بها الدفاع عن ألمانيا من ناحية الغرب ، وكذلك لصد أي إنزال حليف محتمل .

ويجدر بنا إمعان النظر في توزيع هذه القوات ، وتباعدها الشاسع ، ثم الحشد الكبير لها على الجبهة الشرقية ، حيث يضغط الروس بثقلهم القتالي .

ظل سلاح الطيران الألماني محافظاً على حجمه الدائم وبحدود (٥) آلاف طائرة حربية عاملة في الجبهات ، مهماتها الدفاع عن ألمانيا ، والقتال على الجبهة الروسية الساحقة ، وإيقاف زحف البولشفيك ، ثم ضرب تجمعات الحلفاء وإعداداتهم الحربية لعمليات الإنزال البرمائية المرتقبة . وكان لقرار هتلر في خريف عام (١٩٤٣) تأخير دخول مقاتلاته الحديثة النفاثة Me ٢٦٢ أثره السيء على مجرى العمليات ، واعتبره النقاد العسكريون قراراً طائشاً ، كانت له مساوىء عديدة .

من هنا نرى أن الجيوش الألمانية التي خصصت للدفاع عن غرب أوربة ، وبرغم دعمها بالقوات الجوية المساندة ، لم تصل لحجم الإعداد الكامل ، وظلت تعيش وهماً خداعاً .

وزعت الفرق المدرعة الست المخصصة للدفاع عن جدار المحيط بين لوريان وهولندا ، ثم حشدت عدة فرق لمظليين أو متطوعين عاديين ، اعتبروا وحدات محمولة جواً سريعة التدخل ، لكن كان ينقص هذه الفرق الخبرة الطويلة ، خصوصاً وقد ضمت العديد من الجنسيات حتى الجنسية الروسية ، غير البولشفية متطوعة لدى الغرب . وبالإجمال يمكن القول بأن الجيوش التي حشدت إلى الغرب لم تكن بالوحدات المدركة تمام الإدراك . ولأول مرة في تاريخ مراحل الحرب ترتكب ألمانيا خطأً مماثلاً ، وكأن الزمن يلاحقها ، وهي عاجزة عن الإعداد الصحيح له . فرومل قائد جيوش الفئة (ب) المتمركزة مقابل بحر المانش مهمته منع كل إمكانية حليفة لإقامة رأس جسر في فرنسا . وأقام قواته على طول الساحل إلا أنه كثف تواجدها في أكثر الأمكنة قرباً من الشاطىء ، في حين كانت رغبة رئيسه فون رونشتد الاحتفاظ بدبابات البانزر وقوات ضاربة رئيسية في الحوزة وفي العمق ، يشن بها هجومه المضاد في اللحظة التي يراها مناسبة وعلى المحاور الحساسة . ولقد أثبتت المعارك الحربية فيما بعد أن نظام قيادة الجيوش المنتشرة هذا كثير التعقيد ، وله نقاط ضعف عديدة .

ب ـــ الاستراتيجية الحليفة

تميزت نهاية عام (١٩٤٢) بأحداث ستالينغراد، والعلمين والإنزال في شمال إفريقية، ومعركة وادي القنال الهادي. وكلها معارك حاسمة في مجريات مراحل الحرب العالمية الثانية، لكن كيف سيستثمر الحلفاء هذه الانتصارات ؟.

عقدت مؤتمرات عدة لهذا الغرض، وعرض رؤساء الدول الحليفة وقادة جيوشهم خططهم.

في كازابلانكا: بين ١٤ و ٢٦ كانون الثاني (١٩٤٣) عرض ونستن تشرشل[٤٩] على روزفلت خطته الكبرى بجر تركيا للحرب، ثم اجتياح صقلية، وفصل إيطاليا عن المحور وإخراجها من المعركة، ثم مهاجمة أوربة المحتلة، وتحريرها عن طريق البلقان. وكان تفكير البريطاني الأول تشرشل يمتد إلى مرحلة ما بعد الحرب، وينظر بقلق إلى النفوذ السوفييتي المحتمل في أوربة الوسطى (الدانوب). وفي نهاية المؤتمر أقرت عملية صقلية، لكن فكرة فتح جبهة ثانية من الأطلسي أخرت إلى ربيع عام (١٩٤٤).

في مؤتمر كوبيك آب (١٩٤٣) عرضت خطة الإنزال الكبرى في غرب أوربة وأقرت تحت اسم عملية **أوفرلورد**، وتبناها جميع الفرقاء من حيث المبدأ. وفي تشرين أول عام (١٩٤٣) تم لقاء آخر **في موسكو** بين كل من مولوتوف[٥٠] ـــ ايدن[٥١] كورديل هيل، فوضعت اللمسات الأخيرة على المشروع، وشرحت الخطة للروس للتخفيف من مخاوفهم. ولم يستطع الجنرالات الأنكلو ـــ ساكسون إقناع الماريشال الروسي فوروشيلوف[٥٢] إلا بصعوبة شديدة بفكرة تأخير الإنزال الكبير للربيع المقبل، لأن روسيا كانت في أسوأ حال، وتستعجل فتح الجبهة الثانية، للتخفيف من الضغط العسكري الألماني عليها.

في مؤتمر القاهرة: في ٢٢ إلى ٢٦ تشرين الثاني (١٩٤٣) وبرغم وجود الماريشال شان كاي شيك وزوجته، كانت النقاط التي بحثت هي النقاط الحساسة الأساسية المتعلقة بالاستراتيجية الأوربية، وأعاد تشرشل على الأسماع خططه في الجبهة البلقانية ثانية. وطالب شان كاي شيك بمطالب تتعلق بالشرق الأقصى، واقترح عدة جنرالات أمريكيين أنه يمكن توفير الطاقات، والاستغناء عن الإنزال في أوربة الغربية، ودفع ألمانيا نحو الاستسلام بتكثيف الغارات الجوية عليها، وتدميرها من الجو. وعارض تشرشل ذلك بقوة، يدفعه إلى هذا التطور الحاسم على الجبهة الشرقية ونيات السوفييت في أوربة بعد الحرب.

في طهران ٢٦ تشرين الثاني إلى ٢ كانون الأول (١٩٤٣) فرض الماريشال ستالين[٥٣] نقاطاً عدة على المؤتمرين، إذ لديه كما لدى تشرشل أفكار وتطلعات تشمل ما بعد الحرب. واعتبر خطة أوفرلورد عملية أساسية تشترك بتوقيتها روسيا، بشن هجوم كبير عام على ألمانيا في الجبهة الشرقية، يمكنه من خلال ذلك إسقاط ألمانيا. وساير روزفلت الراغب في إقامة سياسة وفاق مع الروس ففتش عن النواحي التي تسعد ستالين، بالتخلي عن دعم آراء تشرشل الذي تخلى هو الآخر عن أفكاره، وتقرر عدم المساس بحياد تركيا، والتخلي عن فتح جبهة البلقان... الخ.

وفي القاهرة ثانية من ٤ إلى ٦ كانون الأول (١٩٤٣) تم اتصال خفي أكد حسن صداقة تركيا لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. فعزز قوة التحالف بين تركيا وبريطانيا العظمى. ولم يبق إلا تعيين قائد لعملية الإنزال الكبرى. وطبعاً لن يكون إلا أمريكياً. وعرض اسم الجنرال ايزنهاور على تشرشل فصرح بقوله:

«هو من أفضل الرجال الذين عرفتهم» في حين استبعد الجنرال ماريشال لعنف شخصيته، بحيث لو أسندت له العملية لكان بالإمكان حدوث احتكاكات بين قادة الجيوش الحليفة، أو رؤساء الدول، أو حتى القادة البريطانيين أنفسهم.

تلقى الجنرال ايزنهاور أمر مهمته وتنص على ما يلي:

«ستجتاح البر الأوربي بالتنسيق مع الدول الحليفة الأخرى، وستباشر عملياتك الحربية مستهدفاً الولوج إلى قلب ألمانيا، وتدمير قوتها العسكرية».

وكان نجاح عملية أوفرلورد ضرورياً جداً لنواح عدة:

١ ــ اختصار زمن الحرب.
٢ ــ دعم الروس.
٣ ــ تخطى التقدم التقني الألماني (قول للجنرال ماريشال).

ولقد أجمعت كل المؤتمرات التي عقدت بين الدول الحليفة خلال عام (١٩٤٣) على تقدير النقطتين الأولتين. أما بالنسبة للنقطة الثالثة فقد كان يجدر التذكير بتقدم الألمان التقني، خصوصاً عندما أدخلوا إلى ساحات المعركة الطائرات النفاثة الحديثة Me ٢٦٢، و He ١٦٢، و Me ١٦٣،

والقنابل الطائرة V_1 و V_2 ، ثم التطور المتقن الذي أدخل على سلاح الغواصات ، ثم البحوث العلمية المتقدمة للقدرة النووية واستخداماتها الحربية .

وحدد تاريخ بدء العملية في شهر مايس ، ثم أجل الإنزال إلى شهر جزيران ، هذا التأجيل فرضته عملية آنفيل (الإنزال في بروفانس) .

جـ ـ التحضيرات

الشروط الأولية

١ ـ السيادة البحرية تضمنت عملية أوفرلورد عملية نبتون ، وهي القسم البحري من العملية العامة ، وظهرت وكأنها العملية المتوجة لمعركة الأطلسي ، وأرقام الحلفاء في فقد وبناء السفن الحربية والتجارية عرضت في بداية البحث ، أما أرقام ألمانيا فتدل بوضوح عن هبوط مردود حرب الغواصات الذي نلمسه من خلال الجدول الصغير المرفق :

	كانون الثاني	شباط	آذار	نيسان	المجموع
غرق عام (١٩٤٣)	٨١ سفينة	٩٠ سفينة	١٤٩ سفينة	٦٣ سفينة	٨٢١ سفينة
	٥٢٢ ألف طن	٥٧٦ر٨ ألف طن	٩٢٦ ألف طن	٤٢٣ ألف طن	١٠٣ر٩٤١ر٥ طن
غرق عام (١٩٤٤)	٣١	٢٦	٤	٢٣	٥٨٠ سفينة
	١٧٨	١٤٤ر٨	١٥٦	١٥٣ر٨	٣ر٦٠٠ ألف طن

يتضح من الجدول الوارد أعلاه تراجع خطر الغواصات الألماني ، وانعدام تأثير سفن السطح الألمانية ، إضافة إلى المجهود الحربي الجبار الذي قدمته تراسانات السفن الأمريكية خلال سني الحرب ، بطاقة قصوى ، ثم الأمور التي تتعلق بالشحن ، والتناقض المستمر لعامل تحديد عمليات الإنزال ، وإعادة فتح المتوسط للشحن والتجارة . كل ذلك سمح بتزايد النشاط الاقتصادي المهم ، وفي أطنان السفن المستخدمة (٤٠٠٠ سفينة أمنت نجاح عملية نبتون) .

٢ ـ السيادة الجوية : عززت إمكانية سلاح القاذفات الجوي الملكي البريطاني عام (١٩٤٣) بالقوة الثامنة للسلاح الجوي الأمريكي ، ثم بالقوة الخامسة عشرة للسلاح الجوي الأمريكي فيما بعد ، والمتمركزة في إيطاليا عام (١٩٤٤) ، وبالقوة التكتيكية الجوية الأمريكية التاسعة ، التي شاركت بشكل غير مباشر ، ولكن بفعالية جيدة في معركة الأطلسي ، وقدمت المهمات التالية :

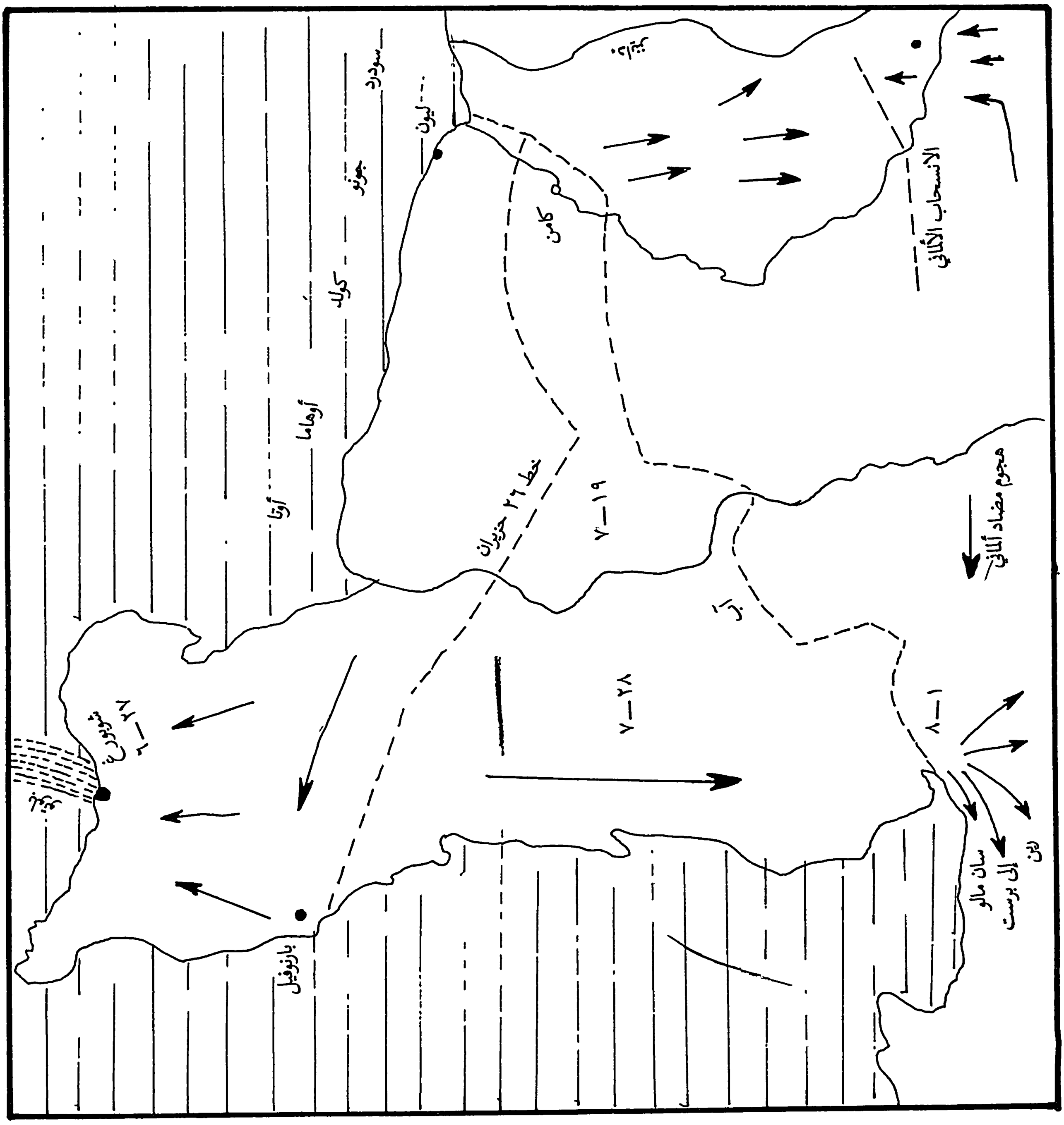

أوماها
أوتا
خط ٢٦ حزيران
١٩ — ٧
٢٨ — ٧
١ — ٨
الانسحاب الألماني
هجوم مضاد ألماني
سان مالو إلى برست
بارنوفيل

— ضرب قواعد غواصات ألمانيا .
— ضرب معامل فوك ولف ٢٠٠ وترسانه الغواصات في بريم حزيران (١٩٤٣) .
— ضرب معامل أنابيب الطوربيد وأسلحة الطوربيد في شويرك ويرك حزيران (١٩٤٣) .
— ضرب مركز تجارب أجهزة الرصد والمراقبة . هامبورغ وستيتن ١٧ آب (١٩٤٣) .
— ضرب معامل مدخرات الغواصات .. هاغن ٩ أيلول (١٩٤٣) .

ولحسن إعداد عمليات الإنزال كان لا بد من تحقيق الأهداف التالية :

— الوصول لتفوق جوي كامل يغطي كافة مناطق العملية ومراحلها .
— تدمير شبكة الخطوط الحديدية الألمانية ، وشبكات الدول الأوربية التي تحت الاحتلال .
— ضرب مراكز تخزين الوقود ، وإقلال موارده لألمانيا ولقواتها العاملة في أوربة .

تمت تلك الهجمات بالقاذفات الإنكليزية طراز لانكستر ، ستيرلنغ ، هاليفاكس ، والأمريكية ب — ١٧ وليبراتور ، وكلها مجهزة بأحدث وسائط الملاحة الجوية ، تتقدمها الطائرات المستكشفة من طراز موسكيتو . أما الحراسة فتتم بمطاردات ذات مدى عمل طويل طراز لايتننغ ، وموستانغ ، وثيندربولت .

استهدفت الغارات الجوية الحليفة المصانع على أنواعها ، مع قتال جوي مستمر يفرض على مطاردات ألمانيا . ففي أسبوع واحد من ٢٠ إلى ٢٧ شباط حدثت غارات كثيفة على هاليبرستاد ، وبرونزويك ، وشونيفورت ولينبريغ ، وكلها مراكز صنع وتجميع الطائرات طراز Me ١٠٩ . وكانت هجمات جهنمية خسر الحلفاء من خلالها (٢٤٤) قاذفة ، و (٢٥) مطاردة ، مقابل (٦٩٢) طائرة ألمانية منها (٤١٦) سقطت خلال المعارك .

تناقص الانتاج الألماني للطائرات في كانون الأول (١٩٤٣) إلى (١٧٣٤) طائرة ثم تصاعد في حزيران (١٩٤٤) إلى (٣٦٢٦) طائرة منها (٢٤٤٩) مطاردة ، وفي شهر تموز إلى (٤٢١٩) . لكن مع هذا كله بدت ظواهر العجز تلوح على سلاح الطيران الألماني لوقوفه أمام القدرة العظيمة لسلاح الجو الأنكلو أمريكي . وبدا هذا التراجع واضحاً في أثناء عملية إنزال النورماندي .

عانت ألمانيا خلال الحرب الأولى أزمة حادة في المحروقات ، فاتخذت ذلك درساً عالجته بفطنة

خلال الحرب العالمية الثانية . فقد احتسبت احتياجها السنوي أيام السلم فوجدته (٨) ملايين طن عام (١٩٣٩)، و (١٥) مليوناً في حالة حرب كثيفة المعارك ..

في عام (١٩٤٠) أنتجت ألمانيا لوحدها (١٢٠ر٥) مليون طن (٣/٥ هذه الكمية اصطناعي من هدرجة الفحم)، ثم استكملت احتياجها بمليون طن من روسيا، ونصف مليون طن من بولونيا و (٥ر٤) مليون طن من رومانيا المحتلة، والباقي من دول البلقان الأخرى بحيث وصلت إلى (١٣) مليون طن، ثم رفعت مجهودها لتحصيل (٥ر١٦) مليون طن عام (١٩٤٣). وأكثر وقود الطائرات انتجته من مصانع هدرجة الفحم والليينيت في مقاطعتي الرور والساكس. ولقد تعمد الحلفاء قصف هذه المصانع ومصافي البترول بتشكيلات قاذفة كبيرة. وقد دافع الألمان عنها دفاع الأبطال بكافة الوسائل، من مطاردات ومعترضات وأسلحة مضادة أرضية. وتعرضت بلويستي في رومانيا إلى (١٩) غارة جوية عنيفة خلال أسبوعين فقط. ونتيجة لتلك الغارات المركزة هبط الانتاج في أيلول (١٩٤٤) إلى (٣١٠) ألف طن أي أقل من ربع الانتاج الاعتيادي، ثم تتابع هبوطه حتى وصل في آذار (١٩٤٥) إلى ١٨٪ من الانتاج، ثم تدهور إلى ٢٪ بعد أسبوعين نتيجة الدمار الهائل الذي حل بمراكز الانتاج. يضاف إلى ذلك تقدم الزحف الروسي على رومانيا وهنغاريا وسيليزيا، وأصبح موقف ألمانيا من ناحية المحروقات موقفاً يائساً.

في الأسابيع الستة التي سبقت الإنزال الكبير تعمد الحلفاء ضرب وسائط النقل والاتصال. وسمي هذا القصف بالقصف الاستراتيجي في عمق البلاد لدب الفوضى في اقتصاد الرايخ. ثم تبعه قصف تكتيكي لحبس وتحييد ساحات القتال، ومنع الإمداد من الوصول إليها، كل ذلك مع ترك الألمان في ريبة وشك عن موقع الهجوم، بتنويع المناطق المضروبة، إذ قام الحلفاء خلال شهر آذار بضرب شبكة شمال أوربة وغربها، وفي شهر نيسان تم التركيز على شبكة مواصلات بلجيكا ـ فرنسا بين ليبج، نامور، شارلروا، آراس، والمنطقة الباريزية، وفي شهر مايس على جسور نهر السين ونهر الموز، ومراكز الخطوط الحديدية الألمانية، وخطوط حديد شرقي فرنسا، مع تدمير كامل لكل وسائط النقل المستخدمة.

ونتيجة تحجيم الطيران الألماني لوفتواف، وتدمير موارد محروقاته، وضرب مراكز الاتصال والنقل البري، أصبح دور طيران الحلفاء في إعداد عملية الإنزال دوراً جوهرياً أساسياً.

٣ ـ **القدرات البرية** : نكون غير أمناء مع أنفسنا لو أغفلنا الدور الكبير للجيوش الروسية التي كانت تمتص الجهد الألماني الأكبر في العمليات البرية، وفي مسارح وجبهات واسعة عريضة.

فمنذ يوم ٢٢ حزيران (١٩٤١) كان الحلفاء قد توقعوا مقاومة ألمانية عنيفة ضد كل إنزال في غرب أوربة ، لأن ذلك سيهدد مراكز الرايخ الحيوية بشكل سيء ، قد ينتقل أثره إلى القوات المدافعة في الجبهة الشرقية ، لذلك عمد الحلفاء إلى إشراك قوات كثيرة في العملية وصل تعدادها في أيار (١٩٤٥) ، أي بعد عشرة أشهر من عملية الإنزال إلى (٦١) فرقة أمريكية ، و(١٣) فرقة بريطانية ، و (٥) فرق كندية و (١٠) فرق فرنسية ، وفرقة بولونية واحدة ، مع أعداد هائلة من مدرعات ودبابات شيرمان ودبابة تشرشل المعدلة ، ودبابات قاذفة لهب ، ودبابات مضادة للألغام ، ثم جسور معدنية متحركة ، وآليات ضخمة تنفع لجميع الظروف ، ولكل الأعمال العسكرية التي تتطلبها معركة أوربة وبشكل مضخم ومذهل .

د ــ التحضيرات المباشرة

١ ــ قامت البحرية البريطانية ، مدعومة بعدة تشكيلات بحرية أمريكية وكافة بقايا أسطول فرنسا الحرة بتحييد هامش أمان أمام نسافات وقاذفات الطوربيد وزوارق الطوربيد والغواصات الألمانية ، لمنعها من الوصول إلى ساحة عمليات تحضير الإنزال ، ثم بدأت هذه التشكيلات بضرب الأهداف الساحلية من البحر . واشترك في ذلك (٧٢٢) سفينة (عدا كاسحات الألغام التي تقدمت تكسح وتفتح الممرات عبر حقول الألغام الكثيفة التي كان الألمان قد زرعوها على طول سواحل أوربية الغربية) وتضمنت المجموعة الأولى التي اعتبرت الرائدة أو التشكيل الضارب الأول (٦) بوارج (٢٢) طراداً ثقيلاً ، (١١٩) طراداً خفيفاً ومدمرة و (١١٣) فرقاطة ... إلخ .

٢ ــ تطلب ذلك العمل جهداً جباراً لإتمام ارتباط برنامج بناء السفن (سفن الإنزال) لتغطية عملية نقل عتاد الدعم الأمريكي ، لإيصاله إلى أرض المعركة . ففي كل الجزائر البريطانية في ترساناتها ومرائبها ، وحقولها ؛ انتشر العمال يبنون ويجمعون وينشئون الخزانات والمقطورات ، والصنادل ، والمواعين ... إلخ . وكان ربط وجمع ونقل وتسيير كل ذلك عملاً صعباً ، احتاج الكثير من الخبرات ، ووسائط النقل ، وتطلب تسيير القوافل وإيصالها بأمان ، وإقامة كل الإصلاحات الضرورية لها في حال تعرضها لأي عطل أو إصابة .

٣ ــ خشي الحلفاء دوماً من وقوع نقص في الكوادر المتخصصة ، لذا أعدوا مركزين كبيرين في إيكوسيا (شمال إنكلترا) لتحضير الضباط الأخصائيين الذين ستسند إليهم الأعمال الخاصة جد في البحرية . وفتح باب التطوع لجمع الأطقم الخاصة . وكانت نتائج ذلك مبهرة ، إذ أعد ودرب عدد

ضخم من المغاوير البحريين ، درسوا الشواطىء والقيعان ونوعية الأعماق وتربة البحر ، ثم تدربوا على تدمير العوائق البحرية والدفاعات الشاطئية .

٤ ــ حملت غارة دييب ١٩ آب (١٩٤٢) للحلفاء معلومات هامة منها تمسك الألمان بالمرافىء والموانىء التي يسيطرون عليها ، وهي مواقع محصنة جداً يصعب مواجهتها لوجود أبراج وقلاع دفاعية حصينة تحميها . ومن هنا ظهرت فكرة إعداد موانىء مسبقة الصنع ، تنتقل مع القوات الغازية . وبدأ الحلفاء في تنفيذ الفكرة اعتباراً من نهاية عام (١٩٤٣) ، فبنوا مينائين أحدهما بحجم ميناء دوفر ، أُعِدّا لموقعين على الشاطىء الفرنسي ، سان لوران ، وآرومانش ، ويتضمنان الأقسام التالية :

ــ مجموعة السفن ، وهي كتلة من سفن قديمة جمعت ببعضها البعض وثقلت بالإسمنت فغاصت في الماء حتى عمق (٥) أمتار .
ــ البومباردون وهو جهاز مؤلف من ثلاث أسطوانات مطاطية بطول (٧٠) متراً وبقطر (٥) أمتار ، وبحيزون (عارضة تمتد على طول قعر السفينة) بوزن (٧٥٠) طناً لتمتص قوة الأمواج وتقوم بعمل مكسر .
ــ عناصر فينيكس وهي أرصفة عائمة من الإسمنت المسلح ، والفولاذ مع سكور تغريق ، يبلغ طول الرصيف (٧٠) متراً وعرضه (١٣) متراً وارتفاعه (٢٠) متراً .
ــ أرصفة عائمة وهي صناديق معدنية طافية (٧٠ × ٢٠) متراً على طرفيها مزاليق بطول (٣٠) متراً ، وهذه الصناديق تصعد وتهبط مع حركة المد والجزر .
ــ الخنافس وهي كتل معدنية بمخاطيف ترسو في الماء لتحمل أرضيات الجسور العائمة المعدنية .

تطلب إعداد الأرصفة العائمة جهداً كبيراً . ونظراً لقلة الأحواض الجافة استخدم نهر التايمز حيث أعدت فيه عدة فجوات جانبية تشابه الأحواض ، ركبت عليها مضخات تضخ الماء (كل رصيف عائم عليه حجرة للسدنة ، ومدفع مضاد للطائرات لتقديم الحماية في أثناء عملية قطره وتركيبه) ، وبما أنه من الواجب تقديم الوقاية لسفن الإنزال فلقد أضيفت أحواض بمثابة ملاجىء للسفن الصغيرة خلف بلوك السفن المغرقة لتقديم مرفأ لها .

٥ ــ بقي على الحلفاء في النهاية تحقيق عامل المفاجأة فعمدوا إلى تحويل أنظار الألمان نحو النرويج تارة ونحو مضيق كاليه تارة أخرى ، واستخدموا كل وسائل الخداع الممكنة ، بعضها علمي

بحت، وبعضها الآخر عملي، فمارسوا حرب المواصلات اللاسلكية بكشف بعض الإشارات اللاسلكية الوهمية، ثم قصف وتدمير مراكز الرصد والمراقبة والتركيز على بعضها، على أنها هي المقصودة، ثم بعمليات تمويه كعملية **تاكسابل** التي تمت بوساطة (١٨) سفينة صغيرة بطيئة الحركة، تقدمت نحو رأس انتيفير تقطر مناطيد وبوالين، تواكبها طائرات ترمي مصاريع معدنية في الجو. ثم عملية **ايتانسيل** نحو بولون، **وعملية تيتانيك** التي تضمنت إسقاط مظليين دمى في منطقة الهافر ثم إعطاء بعض الطائرات مهمات خاصة في إقامة تشويش صوتي (هدير جوي) أو تشويش لاسلكي بإعطاء كثافة إشارات وبرقيات تعني نشاطاً معيناً.

هـ ـ التنفيذ

تم اختيار قطاع الإنزال بدقة شديدة وبناء على معطيات عسكرية أهمها:

١ ـ منطقة ضعيفة الدفاع نسبياً.

٢ ـ منطقة تؤمن عامل مفاجأة.

٣ ـ منطقة قريبة من ميناء شربورغ الاستراتيجي لاحتلاله من الخلف.

٤ ـ إمكانية القيام بدفاع مؤقت في حال تعثر الإنزال. ولقد اختير القسم الممتد في البحر الذي تقع عليه مدينة شربورغ. أما خط الدفاع المؤقت فسيكون خط ايزيني ـ لاساي.

٥ ـ إيقاف الإمداد الداعم الألماني بقطع جسور اللوار والسين.

٦ ـ قرب المنطقة من المطارات البريطانية.

٧ ـ وجود شواطىء صغيرة وعديدة.

٨ ـ إمكانية الانتشار السريع بعد التثبت في الأرض، واحتمال التقدم نحو بريتانيا وخليج موربيهان.

كان على الحلفاء النزول بـ(٥) فرق دفعة واحدة تشكل الخط الهجومي الأول، وبجبهة عرضها (٦٠) كيلومتراً، منها فرقتان أمريكيتان تأتيان من بليموث البريطانية لتغطيا منقطة آوتاه: مقابل فارفيل، ومن بورتلاند لتغطيا منطقة أوماها وثلاث فرق بريطانية تأتي من سوتامبتون وجزيرة وايت وبورتموث وتغطي المناطق كولد وجولو، وسورد.

رافقت العملية ظروف جوية مقلقة، بقيت سيئة حتى آخر يوم من أيام شهر حزيران، وكانت على النحو التالي:

٤ حزيران ريح غربية جنوبية غربية بقوة ٥ إلى ٦ مقياس بوفور[٥٤] أي بحدود (٣٠) عقدة بحرية أو (٥٥) كيلومتر/ساعة .

٥ و ٦ حزيران ريح غربية جنوبية غربية بقوة (٥) بوفور ثم استمرت الريح بين ٣ و ٤ بوفور حتى نهاية الشهر .

وبناء على تقارير الأرصاد الجوية أمر ايزنهاور القائد العام بتأخير العملية (٢٤) ساعة نظرة لشدة الريح غير المواتية لعمل الطيران ، وتقرر بدء الهجوم يوم الثلاثاء ٦ حزيران الساعة ٤٠ر٠٦ .

١ ــ سبق الهجوم مرحلة الاستعدادات حيث هاجم الحلفاء خلالها الدفاعات الساحلية ، ودمروا العوائق ألمانية ، وهي عبارة عن عوائق تحت الماء ، يطلق عليها اسم أسنان التنين . وهي كتل إسمنتية وتدية مخروطية أو موشورية أو صلبان كبيرة حديدية مدعمة بحقول ألغام بحرية وشاطئية من كل الأنواع ، ثم أسلاك شائكة .. ففي الساعة ١٥ر٢٣ وخلال جزر منخفض فتحت مدفعية الأسطول أسلحتها تغطي كاسحات الألغام والنقابين لرفع الألغام وتفجير العوائق وبالتالي فتح الممرات لسفن الإنزال .

تقدمت سفن السطح الكبيرة بمرافقة طيران كثيف (٢٢١٩) قاذفة فقصفت (٧٥٠٠) طن من القنابل ، أبطلت عمل البطاريات الساحلية الألمانية الكبيرة على جوانب القطاع وعلى سبيل المثال الهافر (٤ مدافع عيار ٤٠٠ ملم ومدفعان عيار ٢٧٥ ملم) . ثم نقلت نيرانها لضرب الدفاعات القريبة من حصون وأعشاش مدفعية ، ومدفعية مضادة ، ورشاشات ، ثم تبعتها الطرادات الخفيفة والمدمرات وتقدمت تصب نيرانها المختلفة على الشواطىء بتوقيت زمني رائع ، وبإيقاع محكم أجبر المدافعين على الاستكانة في الملاجىء . وإلى الغرب من قطاع الإنزال تجمعت قوات بحرية أمريكية فرنسية تضمنت البوارج والدارعات التالية : نيفادا ، تكساس ، اركانساس ، مونكالم ، جورج ليك ، كما تجمعت إلى الشرق البوارج البريطانية أمثال ، وارسبيت ، اميلي ... إلخ .

٢ ــ قذف الحلفاء ثلاث فرق محمولة جواً مهمتها حماية أجناب الجيوش الحليفة ساعة الإنزال ، وتقاتل من الخلف الدفاعات الساحلية وخطوط مواصلات الألمان فتقطعها لتمنع وصول الإمداد إلى أرض المعركة . تمت أول عملية هبوط مظلي بـ(٢٣٩٥) طائرة و(٨٦٧) طائرة شراعية .

٣ ــ بدت مقاومة الألمان للإنزال مضطربة مختلفة ، وتم الإنزال بنجاح في اليوم الأول من

الهجوم على كل المناطق، ماعدا منطقة (آوماها). ونزل مايقرب من عشرين ألف مقاتل على الشواطىء الواقعة بين مونتبورغ ومدخل نهر دييف. وكانت أشد المعارك عنفاً هي التي حدثت حول حصون لانفرون، وشاتوليون سورمير، وفي قطاع آوماها حيث كان النظام الدفاعي الألماني هناك محكماً. وتقدمت فرقة ألمانية غنية بالمدافع والهواون فأخلت بميزان القوى مما اضطر الحلفاء إلى إجراء تعزيز سريع، وتدخلت مدفعية الأسطول وقصفت الفرقة بوابل من نيرانها الكثيفة فأحبطت الهجوم المضاد.

أما إلى الشرق فقد تدخلت البطاريات الساحلية الألمانية بعنف فاسكتت لفترة، لكن سرعان ماعادت تقذف بحممها الوحدات النازلة. وأنزلت فيها خسائر فادحة وأبادت وحدات الجانب الأيسر من القوات النازلةِ (مدافع ركزت داخل انفاق خلف هولفيت). عندها قرر الحلفاء الاستغناء عن تلك المنطقة منطقة سوورد وانسحبوا منها بعد عدة أيام من المقاومة العنيفة.

٤ ـــ رد فعل الألمان بحراً وجواً كان موقف اللوفتواف كموقف السلاح الملكي البريطاني في أثناء هزيمة أوربة عام (١٩٤٠) تماماً. وقرروا مهاجمة تجمعات السفن والقوات في المرافىء، فطلبت هيئة أركان حرب الطيران الألماني إرسال (١٠٠٠) طائرة على وجه السرعة إلى الغرب قبل وقت الإنزال، لكن نصف هذا العدد لم يصل نظراً لبطء عمليات النقل عبر الخطوط الحديدية وللقصف المتواصل لشبكتها.

كانت نسبة الطلعات الجوية (١٠٠٠) طلعة طائرة للألمان مقابل (٣٢٠٠٠) طلعة طائرة حليفة.

لم يستطع سلاح الغواصات وزوارق الطوربيد السريعة التدخل الفعال أمام الحشود الضخمة البحرية والجوية الحليفة. وتابع الحلفاء مهامهم في عمليات الإنزال دون إزعاج يذكر، وحاصروا من البحر كافة الموانىء التي يمكن للألمان الخروج منها، فجمدوا ميناء شربورغ الكبير، وقطعوا طريق بحر الشمال البحري، وحاصروا جوانب مرفأي برست والهافر، ثم تابعوا نظام قوافلهم. ولم يتعرضوا إلا إلى هجمات بسيطة لا تذكر بوساطة زوارق سريعة، أو بطوربيدات بشرية ... الخ.

تم إعداد السواحل بسرعة، وانتهى الحلفاء من إعداد الموانىء المصنعة بعد (١٣) يوماً من بدء الهجوم، فنقلت ثم وضعت في المواقع التي حددت لها. لكن بين ١٩ و ٢٢، وإثر عاصفة هوجاء أعطبت بعض أجزاء الموانىء التي لم يتم تركيبها بعد، وتضررت أكثر من (٦٠٠) سفينة بفعل

الأمواج ، في حين لم يصب الألمان خلال كل العمليات إلا (٢٦١) سفينة . وفي الحقيقة لم يكن مرفأ سان لوران المصنع بالجيد فأهمل استخدامه ، وبقي مرفأ لارومانش وحده يعمل بشكل جيد وبطاقة وصلت إلى (٦٠٠٠) طن ساعة .

٥ ــ درست عمليات التموين بالوقود بعناية فائقة ، وأعطيت اسم خطة بلوتو . وتضمنت الخطة مد أنابيب معدنية قطر (٧٥) ملم وطول الأنبوب (٦) أمتار لحمت ولفت على بكرات هائلة ، جعلت الألمان يتساءلون عن هذه اللفات الغريبة ، وما هو غرضها في عملية الإنزال ؟ وهل هي أحجية ؟ (١١٢ كيلومتراً من الأنابيب مدت من جزيرة وايت إلى شربورغ بطاقة مليون ليتر/يومياً) .

و ــ استثمار الهجوم

نظراً لعدم الخوض في تفاصيل المعارك نذكر فقط العناصر الهامة في الهجوم .

ــ معركة الشواطىء : انتهت بنصر للحلفاء في ١١ حزيران حيث اشتبكت (١٦) فرقة حليفة بـ (١٤) فرقة ألمانية ، ثم تتابع الإنزال .

ــ تحييد المجنبات وإبطال عملها : في ١٧ حزيران وصل الأمريكيون إلى بارنفيل على الجانب الغربي ، ووصل البريطانيون إلى كايين ، وأخفق الهجوم الألماني المضاد الذي قام به روميل وتراجع ثم سقطت شربورغ في ٢٦ حزيران .

قلق الألمان من إنزال آخر يعد في بريتانيا بوساطة جيش باتون[٥٥] كما أوحى به الحلفاء من خلال القصف المركز الذي قام به الطيران الحليف هناك ، وتجمعات الوحدات البرية الفرنسية والميليشيات حول خطوط المواصلات المؤدية إلى شبه جزيرة بريتانيا الممتدة في الأطلسي .

وكان موقفهم حرجاً للنقص الواضح في أعداد طائراتهم ، ولوجود أسطول بحري حليف ضخم يستعرض المنطقة خلف خطوط الحلفاء ، فقرروا تكثيف قواتهم المدافعة في قطاع كايين ، وأهملوا القدرة الهجومية الكبيرة للأمريكيين في قطاع كوتانتان . وحدثت معارك رهيبة حيث كانت أرتال مدرعة تتبخر . لكن كثافة العتاد الحربي الحليف طغى ، فتقدمت الدبابات على محورين رئيسيين بخطا وئيدة تعترضها مقاومة عنيفة . وفي ٢٧ حزيران سقطت بيريه ، ولوساي وفتحت فجوة في الدفاعات الألمانية اندفعت الدبابات من خلالها نحو المدن الثلاث الكبرى رين ، نانت ، برست .

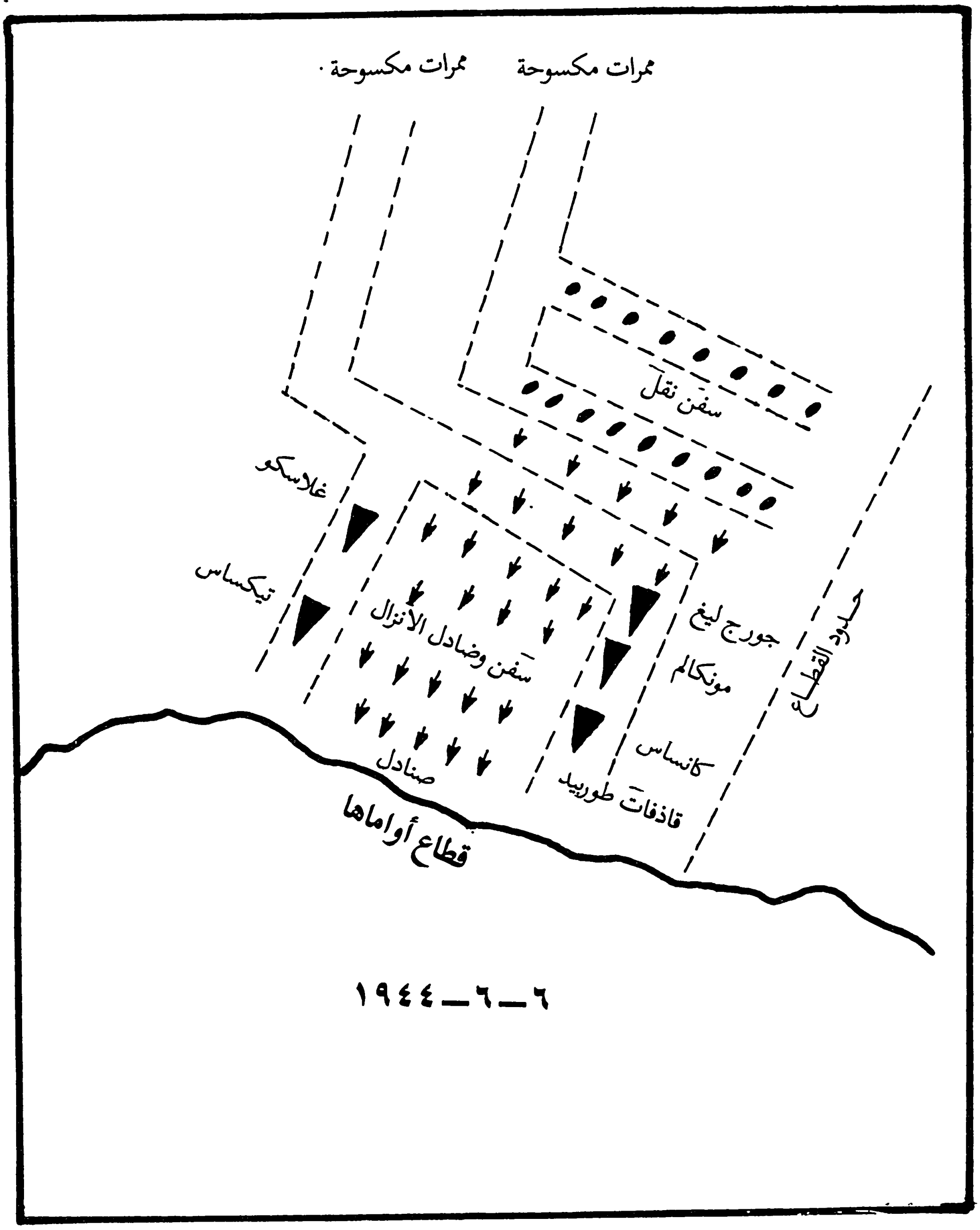

لكي يوقف الألمان تدفق الأمريكيين .. شنوا هجوماً مضاداً في ٦ آب لكن هذا الهجوم أخفق للتدخل الكثيف من قبل الطيران الحليف. وقامت موجات من القاذفات تدمر دبابات البانزر الألمانية بوساطة صواريخ ترمى من الجو. وأخيراً قام الأمريكيون بمناورة جريئة في مدينتي مان وارجانتان سمحت بنزول الفرقة المدرعة الفرنسية الثانية التابعة للجنرال لوكلير، وتم نزولها في غرانكامب. وتكبد الألمان خسائر فادحة بعد أن ضاقت بهم سبل التراجع، حيث طوقوا جيباً من

قبل الأمريكيين . وجاءهم الكنديون من مجنبة ، والفرنسيون من أخرى ، وانتهت معركة النورماندي في ٢٤ آب ، ودخلت فرقة لوكلير باريس . وفي شهري آب وأيلول حررت تقريباً كل من فرنسا وبلجيكا ، وفي ١٢ أيلول ألتقت أرتال الحلفاء في شاتيلون .

انسحب الألمان من كافة مناطق فرنسا ، لكنهم أبقوا قوات مدافعة للحفاظ على مداخل الأنهار الكبيرة كاللوار ، وشارانت ، وجيروند والغرض من ذلك (استراتيجية المرافىء) حرمان الحلفاء من الموانىء الكبيرة التي قد تسهل عمليات إمدادهم بالمواد التموينية لجيوشهم الضخمة المقيمة على البر الأوربي .

الفصـــل الســابـع

هـزيـمـة ألمانيـا

نهاية سفن السطح الألمانية

بعد تدمير تيربتيز الطراد الألماني الشهير في ١٢ تشرين الثاني (١٩٤٤) انسحبت سفن السطح الألمانية إلى بحر البلطيق ، وإلى قاعدتها كدينيا ، وبقيت هناك حتى منتصف شهر كانون الثاني عام (١٩٤٥) . وأعطيت كل الدارعات والطرادات الثقيلة الألمانية أمثال : آل ، شيير ، لوتزو ، البرنس اوجين ، نورمبورّغ مهمة مساندة القوات البرية المقاومة للزحف الروسي ، وخاصة في القطاع الشمالي ولقد أبدعت كل من آل وشيير في محاولتهما في ٩ شباط عام (١٩٤٥) منع سقوط مدينة البينغ الواقعة على فتحة نهر الفيبستول .

قدم الأسطول الألماني إبان هذه الفترة عمليات غاية في الصعوبة ، والدقة ، وبعيدة عن المهام البحرية التقليدية الأخرى ، فنقل الأسطول دبابات البانزر من ليبو إلى ستيتن ، وأمد المقاتلين على البر بالإمداد العسكري وبالرجال ، وتدخل في قصف تجمعات الروس ، وأرتال دباباتهم ، وضرب حصونهم الدفاعية . إلا أنه اضطر للانحسار نحو الغرب مع تراجع القوات البرية الألمانية ، بعد سقوط قواعده الشرقية تحت جحافل الروس المتقدمة ، وسقطت قواعده بالتتابع : ميميل في ٢٨ كانون الثاني ، البينغ ٩ شباط ، كدينيا ٢٨ آذار ، دانيزنغ ٣٠ آذار كونيفسبورغ ٩ نيسان ، ستيتن ٢٦

نيسان ، وتعرض لقصف جوي عنيف وفي ١١ نيسان . وفي ميناء كييل أصيبت كل من آل وشيير وانقلبتا على جنبيهما في الميناء ، وأصيبت هيبر إصابات فادحة ، واحترقت الآمدن .. وفي ١٦ نيسان أغرقت لوتزو في ميناء سوينمند ، فالتجأت فلول الأسطول إلى الموانىء الدانمركية ، واستسلمت هناك أمثال برنس أوجين ، هيبر بعد إصلاحها ، نورمبرغ ، لايزيغ واستسلمت في ٩ أيار إلى الطرادين البريطانيين ديدو ، وبيرمنغهام .

الغواصات الألمانية الجديدة

وضع كل من هتلر والأميرال دونيتز أملهما في هجمة حرب الغواصات الجديدة التي بدؤوها منذ حزيران (١٩٤٤) ، وأعطى الفوهرر أوامره بالتوقف عن بناء الغواصات التقليدية السابقة ، والتركيز على بناء النوع المطور الجديد طراز XXI ، وطراز XXIII المنبثق عن الأول ، وطراز XXVI . وكانت غواصات في غاية الجودة والاتقان ، وهذه بعض مواصفاتها :

الغواصة XXI وزنها (١٥٠٠) طن مدى عملها (٣٠) ألف ميل بحري بسرعة (٦) عقد (سرعة البحث والتربص) ، أما سرعتها القصوى فوصلت إلى (١٥) عقدة في وضعية الغوص لعمق (٢٠٠) متر .

الغواصة XXVI وزنها (١٠٠٠) طن سرعتها (٢٠) عقدة في وضعية الغوص أسرع الغواصات في زمانها ، وتسير بعنفات والتر ، وتعمل بتحلل البيروكسايد الهيدروجني (ثاني أوكسيد الهيدروجين) .

جهزت جميع الغواصات الحديثة بمنظار وأنبوب شنوركل (وهو أنبوب يصعد إلى الهواء فيمتص الهواء النقي ويدخله إلى الغواصة في حالة الغوص لعمق عمل شنوركل ، ويسمى الغوص الشنوركلي .

وبدأت الترسانات البحرية بناء هذه الغواصات بمجموعات كبيرة ، وبمقاطع يتم جمعها لاحقاً في موانىء الإنزال .

تابعت ألمانيا في الوقت نفسه بناء غواصات الجيب بيبر وسيهند وهيشت ومولش ، وغالبية أطقمها فرد أو فردان ، ثم الطوربيد البشري موهر ، والزوارق السريعة ، ثم الزوارق ذات الرأس المتفجر الانتحارية ، وكانت تؤلف السلاح المضاد للاجتياح .

كل تلك الابتكارات والتطور في صنع أسلحة البحر والغواصات جاء متأخراً جداً . ففي تموز (١٩٤٤)، كان يمكن للفوهرر إعطاء تعليماته للقيام بهجمات متلاحقة تعززها الألغام والطوربيدات البشرية، والقنابل السابحة، وزوارق الانقضاض. لكن الأميرال دونيتز يعرف الواقع الأليم إذ لم يعد لديه في شرم السين إلا (١٢) غواصة طراز E وقاذفة طوربيد واحدة و (٨) غواصات بشنوركل، وكانت بالنسبة له بداية النهاية، ولو أنه ظل يعزز الآمال لدى هتلر.

بعد شهرين من محاولة اغتيال الفوهرر ٢٠ تموز عقد مؤتمر عام للبحرية الألمانية، أعلن الأميرال الألماني فيه أنه يبدأ هجوماً واسع النطاق بسلاح الغواصات الجديدة في الربيع المقبل، وتأسف هتلر لأن ألمانيا لم تسلك هذا الأسلوب في حرب الغواصات منذ بداية الحرب.

تعرضت منطقتا تجميع الغواصات المصنعة مسبقاً في همبورغ وستيتن لغارات جوية عنيفة، وأثر ذلك على هجوم الربيع الكبير، خصوصاً بعد تركيز الحلفاء على قصف خطوط مواصلات نقل قطع الغواصات من الترسانات إلى مناطق التجميع، وقصف مناطق التجميع نفسها، وسقوط العديد من القواعد البحرية في أيدي المهاجمين من روس وحلفاء غربيين، لذلك جاءت نتائج هذا الهجوم الربيعي خفيفة، ولم تصب إلا سفناً في المياه البريطانية. وانتهت حرب الغواصات أيضاً. فمن أصل (١٤٠) غواصة عاملة في البحار في ٨ أيار غرقت (٣٦) وحدة، واستسلمت ٨٨ بين ٨ و ١٧ أيار وكانت آخر سفينة تصاب بطوربيد من غواصة ألمانية هي سفينة الشحن الأمريكية بلاك بونيت أمام جزيرة رود ايلاند قرب السواحل الأمريكية في ٥ أيار (١٩٤٥).

جيب الأطلسي

بقيت بعض القوات الألمانية كما ذكرنا سابقاً في بعض الجيوب على ساحل الأطلسي، برغم الانسحاب من فرنسا وذلك في أيلول (١٩٤٤)، والغاية من ذلك عدم إتاحة الفرصة للحلفاء النازلين في بر غرب أوربة لإمداد سريع واسع النطاق عبر مرافىء الأطلسي العديدة، وكذلك مرافىء بحر المانش. لذلك استمر الألمان يدافعون عن دونكرك، وجزائر الانكلو نورماند، وكل جزائر الساحل الغربي الفرنسي على الأطلسي ما عدا جزيرتي يو، ونوار مويتيه. فعدة طائرات وعدة غواصات كان من شأنها تعزيز مقاومة طويلة وفعالة، خصوصاً مقاومة جيش التحرير الفرنسي الذي احتاج إلى الكثير من أسلحة الدعم والإسناد الحليفة المنشغلة في زحفها على ألمانيا. وهنا رأت البحرية الفرنسية الحرة أن عليها إنجاد جيش التحرير الفرنسي لانشغال الحلفاء في الزحف السريع على ألمانيا

إسقاطها، فأعطيت التعليمات للتشكيلات البحرية الفرنسية القليلة مدعومة ببعض طائرات الطيران البحري المتمركز على البر لشل عمل تلك الجيوب الألمانية، وتخفيف أثرها المزعج على تقدم القوات المحررة. وأحرزت فعلاً بعض النجاح. ففي ١٩ أيلول حرر مرفأ برست الحربي، لكن الألمان غادروه بعد أن أصبح عديم الاستخدام. إذ أصابه دمار شديد، وخاصة من الغارات الحليفة المتواصلة عليه، ولم يستطع الحلفاء استخدامه واحتاج إلى إصلاح طويل.

شارك الرماة البحريون في تنظيف جيوب الأطلسي، فهاجموا لوريان ـ سان نازير لاروشيل ـ لاباليس، إلا أنهم تأخروا كثيراً في إعطاء تلك العمليات حقها الصحيح، فكان حجم الهجوم لا ينطبق وواقع الدفاعات الألمانية. وزاد الأمر تعقيداً عليهم الهجوم المضاد الألماني في الآردين الذي دفع بالحلفاء ثانية متقهقرين إلى ما وراء الألزاس. وانتقلت الهجمات والهجمات المضادة إلى نوع من حرب الدوريات، وتبادل القصف الجوي، في حين استغل الألمان الركود الذي أصاب هذا الفصل، فقصفوا رويان في ٥ كانون الثاني، وهاجموا جبهة أونيس سورغر انفيل بقوات ألمانية جاءت من جزائر الأنكلونورماند في ٩ آذار.

في منتصف نيسان بدأت عملية فينيرابل، وهي عملية هجومية بحرية استهدف الحلفاء منها الاستيلاء على ميناء بوردو الكبير. ونفذتها القوات الفرنسية البحرية والبرية بمعاونة الطيران الأمريكي. واشتركت في هذا الهجوم القطع البحرية الفرنسية التالية:

الطرادان لورين، دويكنز، النسافات فورتونيه، باسك، موشيه، ثم عدة كاسحات ألغام، تقدمت المجموعة الضاربة لفتح الممرات أمام سفن الهجوم، ثم تقدم سرب من سلاح الطيران البحري الفرنسي المعزز بتشكيلات أمريكية، والمتمركزة في كونياك، والسرب ٢٥ من طائرات الاستطلاع، ورصد الرمي، وأخيراً لواء من المدفعيين البحريين. وفي ٣٠ نيسان تبع إنزال بوردو إنزال صغير في أوليرون، ونجح الإنزال أيضاً بمساندة السفن الفرنسية الحربية.

بقيت باقي جيوب الأطلسي تقاوم حتى سقطت ألمانيا، واستسلم جيشها. عندها تحررت لوريان، سان نازير، لاروشيل، جزر الأنكلونورماند ودونكرك في ١٠ أيار (١٩٤٥).

ملاحظات حول الطيران الحليف والطيران الألماني خلال القسم الثاني من الحرب العالمية الثانية

القوات الحليفة

الطيران الاستراتيجي

بريطانيا

ـــ هامبدن طائرة بمحركين وزنها محملة (٥ر٨) طن سرعة (٤٢٥) كم.
ـــ ويتلي طائرة بمحركين وزنها محملة (٧٥ر١١) طن سرعة (٣٨٥) كم مدى عمل (٣١٢٠) كم.
ـــ ويلينكتوف طائرة بمحركين وزنها محملة (٢٥ر١١) طن سرعة (٤٠٠) كم مدى عمل (٥٢٠٠) كم وتحمل (٢) طن قنابل.

ظهرت فوارق كبيرة بين حجم إنتاج السلاح الملكي البريطاني وسلاح اللوتواف، فمنذ مطلع عام (١٩٤٢) كانت تنتج إنكلترا (٧٥٠) طائرة شهرياً خلال عام (١٩٤٠) و(٢٤٥٥) طائرة شهرياً خلال عام (١٩٤٤). ومجموع ما أنتجته خلال الأربعة أعوام (٣٥) ألف مطاردة و(٩) آلاف لانكستر، و(٦) آلاف هاليفاكس، و(١١٣٩١) ويلينكتون.

ـــ شورت ستيرلنغ بأربع محركات وزن (٣١) طناً وتحمل (٧) طن قنابل، وسرعتها (٣٥٠) كم ومداها (٣٢٠٠) كم.
ـــ هاليفاكس أربعة محركات وزن (٣٠) طن تحمل (٦) طن قنابل سرعة (٤٠٠) كم ومدى عمل (٤٥٠٠) كم.
ـــ موسكيتو قاذفة مطاردة (اشتركت في الهجوم على برلين) سرعتها (٦٠٠) كم، (٤) مدافع تحمل حتى (٢) طن قنابل.

أمريكا

ـــ القلعة الطائرة ب ـــ ١٧ رباعية المحرك (٣٠) طناً سرعة (٤٨٠) كم مدى (٣٠٠٠) كم (١٣) رشاشاً.
ـــ القلعة الطائرة الثقيلة ب ـــ ٢٩

ليبراتور ب ــ ٢٩ عملتا في المحيط الهادي رباعية المحركات (٢٢٧٠) طن قنابل سرعة (٤٥٠) كم مدى حتى (٣٠٠٠) كم .

ــ موستانغ مطاردة قاذفة (٤) مدافع سرعة (٦٥٠) كم طائرة استكشاف وحراسة بعيدة المدى .

الطيران التكتيكي : وهي طائرات تعمل في مجال المعركة الأرضية وتبقى على اتصال مع الوحدات البرية لتقديم التغطية والدعم .

بريطانيا

وهي طائرات مختلفة متفرعة عن الطرازين هوريكان وسيتفاير .

ــ هوكرر (تايغون) ظهرت في غارة دييب آب (١٩٤٢) تحمل (١٢) مدفعاً رشاشاً خفيفاً و (٨) رشاشات ثقيلة و (٤) مدافع (٢٠) ملم تستطيع حمل قنبلتين وزن الواحد (٢٢٥) كغ و (٨) صواريخ وصدرت عن هذا النموذج طائرة مشابهة سميت تامبست .

ــ موسكيتو تحمل (٨) صواريخ و (٤) قنابل و (٢٥٠) كغ للواحدة جيدة المناورة والسرعة .

أمريكا

دوغلاس ــ مارودور ــ تندر بولت ــ لا يتننغ وكلها طائرات جيدة وصلت سرعاتها من (٦٠٠ إلى ٧٠٠) كلم وهي مطاردات قاذفة خفيفة منقضة .

روسيا

ــ ياك (٩) مطاردة تحمل (٦) صفوف من الصواريخ الصغيرة ، سرعة (٦٠٠) كم .

ــ لافوتشكين (٧) مطاردة سرعة (٥٠٠) كم .

ــ ستوموفيك طائرة بمحرك واحد مصفحة جداً ثقيلة سرعتها (٤٠٠) كم تحمل (٨) صفوف صواريخ و (٤٠٠) كغ قنابل .

الطائرة الألمانية

شتوكا ١٠٩ و ١١٠ منبثقة عن الفوك ولف (١٩٠) وكانت طائرة متفوقة لكنها لم تشترك في العمليات الحربية على الجبهة الغربية أعوام (١٩٤٤ ـــ ١٩٤٥) .

الطيران الليلي :

بريطانيا

هاريكان ـــ سبتفاير ، بوفايتر ، استخدمت كلها كمطارات ليلية ، ثم وايرلوويند كمعترضة ليلية .

أمريكا

بلاك ويدو

ألمانيا

Me ١١٠ و Me ٢١٩ وتقابل من حيث الصفات البلاك ويدو الأمريكية .

الطيران النفاث

ألمانيا Me ٢٦٢ فرضها هتلر كقاذفة مطاردة ، فتأخر استخدامها وصنع منها عدة مئات ، وصلت سرعتها إلى (٨٧٥) كم بين ارتفاع ٦ و ٩ آلاف متر ومدى عملها (٧٠٠) كم ، والـ ١٦٢ Me صنعت بمحركات نفاثة وبمجموعات كبيرة سرعتها (٨٣٥) كم وآرادو (٢٣٤) طائرة استطلاع وقاذفة خفيفة .

الحلفاء : قصروا في باب الطيران النفاث وفي آب (١٩٤٤) خرجت الغلوستر ميثبور ـــ ثم الفامباير في إنكلترا وفي الولايات المتحدة الكوميث وشوتينغ شتار وكلها تقل في مواصفاتها الفنية عن مواصفات الطائرات النفاثة الألمانية .

الإنزال في البروفانس آب ١٩٤٤

تضمنت الخطة العامة الاستراتيجية الحليفة عملية آنفيل على أن تكون بعد ٧٠ يوماً من إنزال النورماندي. وعليها أن تتم بوساطة القوات الفرنسية الحرة التي تحت إمرة الجنرال دولاترتر[٥٦] دوتاسيني، وبجيش أمريكي. والجميع تحت قيادة الجنرال الأمريكي باتش[٥٧].

هدف العملية هو الاستيلاء بالسرعة القصوى على طولون ومرسيليا، ثم التقدم بوادي الرون للالتقاء بالقوات الحليفة النازلة في النورماندي..

لم يفاجيء هذا الإنزال القيادة الألمانية، ولو أنهم كانوا يعتقدون بأنه سيحدث في شواطىء خليج ليون بين ــ سيت ــ وكان. وأعدوا له (٧) فرق تدافع عن المنطقة. أما الدفاعات الأرضية فكانت في الحقيقة أقل شأناً مما هي عليه على الشواطىء الشمالية والأطلسية، حتى الطيران المخصص للدفاع عن تلك المنطقة كان ضعيفاً، ويعدّ عدة مئات من الطائرات فقط، وخطوط المواصلات البرية، وخصوصاً الحديدية كثيراً ما تتعرض للتوقف نتيجة هجمات عناصر المقاومة الفرنسية في البلاد، ونتيجة القصف الجوي الأمريكي المتواصل.

احتشدت (٢٠٠٠) سفينة للقيام بإنزال الجيش الأول الفرنسي والمؤلف من (٦) فرق، والجيش الأمريكي المؤلف من (٤) فرق. واشتركت جميع سفن الأسطول الفرنسي الكبيرة، ما عدا ريشيليو التي كانت تعمل في المحيط الهادي. وقاد التشكيل الفرنسي الأميرال لومونييه، وقاد الأسطول الثامن الأمريكي الذي اشترك في العملية الأميرال هيويت وكانت قيادة العملية على الطراد الكاكوتين. وكما حصل في النورماندي جرى في الجنوب، إذ وزعت منطقة الإنزال الواقعة بين لافاندو وكان إلى عدة قطاعات.

ــ القوة سيتكا:

ــ قوة مغاوير أمريكية تهاجم جزر بورت كروس، وجزيرة لوفان.

ــ قوة مغاوير فرنسية تنزل ليلاً في الرويال، والكاب نيفر، ومهمتها تغطية عملية الإنزال في شرم كافالير.

ــ أما باقي القوات والتي تألفت من فرقة مشاة، ومجموعات نقل، ومجموعات كسح وسرب مساندة، وكذلك (١٠) سفن نقل جنود كبيرة، (٢٠) ناقلة دبابات (٤٠) ناقلة جنود (٢٠) كاسحة، بارجتان (٦) طرادات وعشرات المدمرات.

ـــ القوة آلفا :

تغطي قطاع لافاندو ـــ سان تروبيز .

ـــ القوة دلتا :

وتغطي خليج سان تروبيز .

القوة كاميل :

وتغطي قطاع سان رفائييل وآغاي ، وهي مجموعة حاملات طائرات تجوب جنوب جزر هيير ، ومعها (٥٠٠٠) مظلي ، و (٣١٢) طائرة شراعية مع عتاد هام أعدت لقطاع موي لوك ، وكارنول .

مهمة القوات الفرنسية :

تتواجد البارجة لورني لتكون إحدى سفن مجموعة الجزائر ، والطراد غلوار للقوة ألفا ، أما إميل مارتان ودوغاي ، وتروين فهي في مجموعة سان رافائيل ، والباقي كالمونكالم وجورج ليغ ، وتيرييل ، ومالان فمخصصة للمجموعة الثالثة ، وتقوم الطرادات الخفيفة والمدمرات والطائرات بحماية قوافل الإنزال طيلة عمليات النزول .

تم تجميع القوات النازلة في قواعد انطلاق أهمها :

ـــ جزيرة كورسيكا لقوات المغاوير .
ـــ نابولي لفرق الإنزال الهجومية الأمريكية ووحدات المساندة الجوية .
ـــ مالطة قاعدة لتجمع حاملات الطائرات والقوات النازلة في كافالير .
ـــ باليرمو للوحدات النازلة في سان رفائيل .
ـــ ترانت للوحدات النازلة في سان مكسيم .

وعلى كافة عناصر الهجوم التواجد في مواقعها مستعدة ليل ١٤ ـــ ١٥ ، أما تحضير الهجوم فقد تم بالمراحل التالية :

١ ـــ ابتداء من ٦ آب قصف للساحل الجنوبي من جنوة وحتى سيت .
٢ ـــ قصف جوي مركز في ١٥ آب للبطاريات الساحلية .

بدأ الهجوم بنجاح في وقته المحدد واستطاع المهاجمون التمركز في كافالير بامبليون ، ساردیغو ،

آغاي، وأخفق في ساحل فريجوج رغم الإسناد القوي الذي قدمته مدفعية الأسطول والطيران المرافق، كما حصلت مقاومة شديدة في جزيرة كروس استمرت حتى ١٧ آب حيث جاءت البارجة راميلي وأسكتت المقاومة.

في ١٦ آب احتل الأمريكيون شريطاً من الأرض يمتد بين كاب نيفر حتى سان رفائيل. وفي المساء نزل الجيش الأول الفرنسي، وفي ١٨ منه استطاع إقامة رأس جسر. واندفعت القوات الأمريكية باتجاه ليون وغرونوبل، في حين اتجهت القوات الفرنسية نحو طولون ومرسيليا، لتنظيف المنطقة الساحلية.

تعرض الهجوم في مرحلته الثانية لمقاومة عنيفة من قبل البحارة الألمان في كل من طولون ومرسيليا، ولم يتم تحرير المدينتين إلا في ٢٦ آب بالنسبة لطولون و ٢٨ آب بالنسبة لمرسيليا.

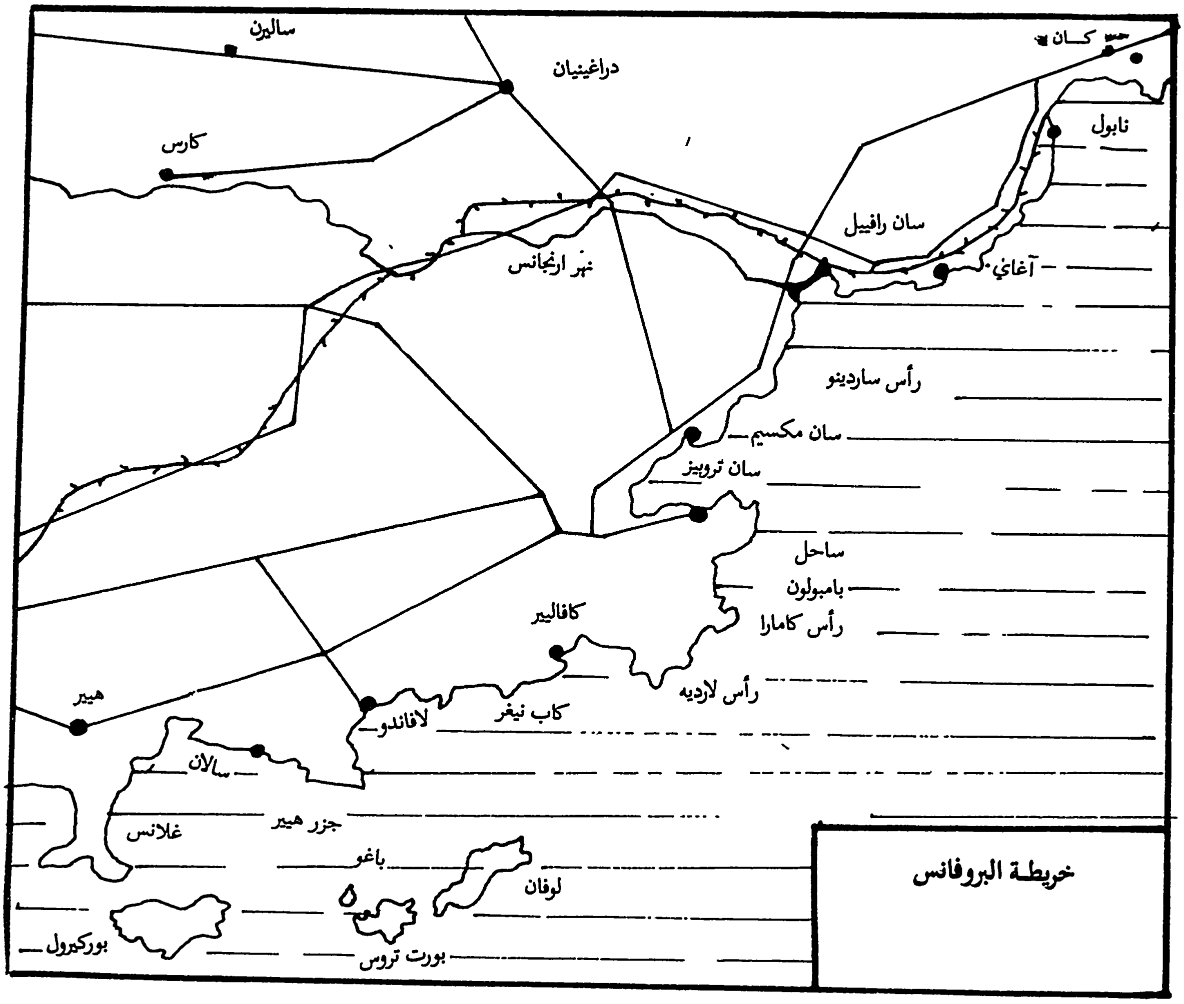
سالين
دراغينيان
كارس
كــان
نابول
سان رافييل
نهر ارنجانس
آغاي
رأس ساردينو
سان مكسيم
سان ترويز
ساحل
بامبولون
رأس كامارا
كافالير
رأس لارديه
كاب نيغر
لافاندو
هيير
سالان
غلانس
جزر هيير
باغو
لوفان
بورت تروس
بوركيرول
خريطة البروفانس

الفصل الثامن

الهجوم الجو بحري في المحيط الهادي وهزيمة اليابان

الهجوم الجو ـ بحري في المحيط الهادي

تشرين ثاني في (١٩٤٣) ـ آب (١٩٤٥)

لم تتوقف عمليات دفع اليابانيين عن المناطق التي كانوا قد سيطروا عليها في جنوب غرب المحيط الهادي ، فكانت حملتا جزائر سالمون وغينيا الجديدة ، وتبعتها حملات أخرى ، الغرض منها تقليص استطالات اليابانيين في الهادي ، وعلى كل اتجاه .

أما شمال المحيط فهو منطقة يابانية أحكم السيطرة عليها كجزائر آليوتين ، وآتو التي تبعد (٣٢٠٠) كم عن طوكيو .. وعلى الأمريكيين إعداد هجوم على نطاق واسع لاستعادة السيطرة وتقليص أمد الحرب .

شعر المسؤولون في طوكيو بمدى أهمية سقوط جزر سالمون في أيدي الأمريكيين . وكانت المصيبة الأفدح عندما خسروا قواعدهم الجوية العديدة في غينيا الجديدة . إلا أنهم لم يفقدوا الأمل ، إذ يأملون استنفاد قوات أمريكا في جزائر المحيط الهادي العديدة ، والمنتشرة في بقعة تبلغ مساحتها (٥) أمثال مساحة الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، عندما سيقاتلونهم في الجزائر العديدة جزيرة جزيرة . ويجدر بنا التنويه إلى أن اليابانيين أخطأوا خطيئة كبيرة إذ أساؤوا تقدير قوة أمريكا الحربية ،

وتقدير إمكاناتها الانتاجية الضخمة للعتاد الحربي على جميع أنواعه ، وأخيراً تفوقهم الكبير في مجال الطيران البحري المحمول على حاملات الطائرات . ولم يستخلصوا العبر والدروس من خلال معاركهم في الهادي ، والنتائج التي أحرزها الأمريكيون بفضل هذا التفوق الساحق .

تبنى الأميرال نيمتز قضية تفكيك وتشتيت الترابط الياباني بين جزر المحيط . ولقد أقدم على عمل فاق بحجمه هجوم مكارثر الكبير ، واعتمد خطة الخرق العميق في الأرخبيلات نحو جزائر اختارها بنباهة ودقة ، يركز على احتلالها لمزاياها التعبوية ، تاركاً وراءه جزراً عديدة فيها يابانيون تحت رحمة الطيران البحري الأمريكي وقصفه العنيف لها ، فيحكم عليها بالجوع والضياع ، نتيجة انفرادها وتحييدها فتسقط من عداد الجزائر المهمة ، وتصبح لا فعالية لها .

اختار الأميرال نيمتز من بين آلاف الجزائر البولينيزيه بحدود عشر جزائر هامة ، وهاجمها بتوقيت متوافق متناسق مع باقي القوات البرية والجوية ، لتأتي عملياته بأعلى المردود . فكانت أولاها جزيرة جيلبرت تشرين الثاني (١٩٤٣) ، وجزر ماريشال شباط (١٩٤٢) ، وجزر ماريان حزيران وتموز ، وتلك كانت المحطات الرئيسية للحملة الخاطفة لأواسط المحيط الهادي .

أرخبيل جيلبرت تشرين الثاني (١٩٤٣)

يتألف الأرخبيل من سلسلة طويلة لـ(١٦) مجموعة جزر مرجانية تمتد حول خط الاستواء حتى درجة طول (١٨٠) غرباً ، وبطول (٤٢٠) ميلاً بحرياً وتتميز تلك الجزائر بانخفاضها وتسطحها ، وهي مكشوفة ومقطعة بتجاويف وأحجار أو جزائر صغيرة بينها جروف رملية .

في ٢١ تشرين الثاني وبعد قصف مركز عنيف نزل الأمريكيون .. وفي ١٥ كانون الأول أتموا سيطرتهم على كامل الأرخبيل ، لكن خسائرهم جاءت فادحة خاصة في جزيرة تاراوا التي امتلأت بالبلوكوسات المحصنة وأعشاش المدافع المموهة والصعبة التمييز . دفع الأمريكيون ثمن مغامرتهم غالياً ، لكنهم اتخذوا ذلك عبرة للمستقبل .

أرخبيل مارشال كانون الثاني (١٩٤٤)

يتضمن هذا الأرخبيل أكبر مجموعة للجزائر المرجانية في المحيط الهادي ، حيث تمتد البحيرة المرجانية مسافة (٦٠) ميلاً بحرياً .

+++ حدود احتلال اليابانيين ← اتجاه هجوم الامريكي

فوجىء اليابانيون بالهجوم الأمريكي على جزيرة كواد جالين وهم الذين كانوا ينتظرون الغزو في مكان أكثر شرقاً على طريق هاواي أو أكثر جنوباً نحو جالويت قرب جزيرة جيلبرت.

جاء القصف الجوي الأمريكي أكثر عنفاً منه في غزو جيلبرت، فخلال (٤) ساعات متواصلة دمر الأمريكيون كامل الطيران الياباني على الأرض ونجح الغزو، وبعد استراحة تابع الأمريكيون هجومهم على (٣٢) امتداد مرجاني في جزر مارشال احتلوها جميعاً ماعدا (٤) امتدادات فقط بقيت بحوزة اليابانيين.

باحتلال جزيرة كواد جالين وجزائر ماريشال أصبح الأمريكيون أكثر قرباً من دفاعات اليابانيين القوية في تروك، فبدؤوا بضربها وضرب الدفاعات الأخرى لتحييدها أو شلها عن العمل.

شل جزيرة تروك وتحييدها

جزيرة تروك قلعة طبيعة، استخدم اليابانيون هذه الخاصة الجغرافية فيها استخداماً كاملاً، فمنذ (٢٥) عاماً وهم فيها، ولقد حبتها الطبيعة بسوار طبيعي من الصخر اعتبر بمثابة حاجز يحيط ببحيرة قطرها يزيد عن (٣٠) ميلاً لكن القطاعات البرية في الجزيرة مميزة تسمح بإقامة دفاعات قوية فيها وغدت «تروك» قاعدة لليابانيين في هجومهم على جزائر سالمون. وكانت في موقع متوسط يشكل خطراً دائماً وبكل الاتجاهات، وخاصة جزائر ماريان. وكان على الأمريكيين إزالة تلك المعترضة لخط تقدمهم مهما كانت الصعوبات.

بدأ الأمريكيون قصفهم الجوي بتركيز كامل يومي، جعل الجزيرة عاجزة عن العمل طيلة العمليات التي تمت في المنطقة. ومن تلك العمليات الهجوم على جزائر ماريان، وأرخبيل بالو، وجزيرة ياب، وجزيرة اليتهي.

كان لعمليات غينيا الجديدة والهجوم على هولاندیا بصورة خاصة أكبر الأثر في تسهيل عملية شل وإبطال وتحييد جزائر كارولينا وبالو.

أرخبيل ماريان

وهي مجموعة من الجزر تمتد نحو ألف كيلومتر تقريباً يزيد عددها عن (١٥) جزيرة مجموع مساحتها بحدود (٩٤٢) كم^2، وأكبرها تقع إلى الجنوب منها سايبان (١٨٥) كم^2 تينيان (٩٨) كم^2 وكذلك روتا (١٤٨) كم^2 وغوام (٥٤١) كم^2.

نزلت القوات الأمريكية في الرابع عشر من حزيران في جزيرة سايبان ، ويعتبرها اليابانيون الجزيرة الأقوى دفاعياً ، والتي لا يمكن الاستيلاء عليها .. يحرسها جنود مختارون بلغ عددهم (٣٠) ألف مقاتل بنوا معاقلهم داخل التلال على شكل حصون وملاجىء ، ويساندهم تشكيل من الطائرات يعد (٢٧٠) مطاردة و (١٨٥) قاذفة . جرت معارك طاحنة والأمريكيون كلهم رغبة في الاستيلاء عليها ، نظراً لموقعها الاستراتيجي الهام فهي تتوسط المنطقة : (٢٥٠٠ كم عن طوكيو ، ١٥٠٠ كم عن يالو ، و ٢٢٠٠ عن ميندناو) ، واعتبرت سايبان قاعدة انطلاق من الدرجة الأولى للعمليات الجوية المزمعة .

دارت المعارك البرية بعنف وضراوة حتى ٨ تموز ، وجاء تدخل الطيران البحري الياباني فزاد من حجم العمليات ومن عنفها .. أطلق الأمريكيون على معركة ماريان اسم أول معركة لجزائر الفيليبين ، في حين سماها اليابانيون معركة سايبان .

معركة جزائر ماريان ١٩ ــ ٢٠ حزيران عام (١٩٤٤)

دهش المراقبون العسكريون لبطء رد فعل قوات الطيران البحري الياباني في أثناء الهجوم الأمريكي الكبير ، فالأميرالية اليابانية كانت في صدد إعادة بناء أسطول حاملات طائراتها ، وأوعزت لمعاملها بزيادة إنتاج الطائرات مع إعداد طيارين أكفاء ، لكن جميع الخطوات جاءت بطيئة . وخرجت أول حاملة يابانية تايهو (٣٣) ألف طن عام (١٩٤٤) ، أما الحاملات من طراز آغاكي فلم تنته إلا في نهاية العام نفسه ، وهن شيتوز ، شيودا ، أوينو ، كايهو ، وفي الحقيقة لم تكن حاملات بالمعنى الصحيح بل سفن تموين أو سفن نقل حولت سريعاً إلى حاملات طائرات خفيفة .

في ربيع عام (١٩٤٤) وبدخول تايهو الخدمة وبجهود كبير في إعداد طيارين أكفاء استطاع اليابانيون تعويض الخسارة التي حلت بهم في جزائر سالمون ورابول ، واستعادوا تكوين قوة طيران بحرية مناسبة .

وضياع جزائر جيلبرت وجزائر ماريشال أثر على موقف اليابانيين في مسرح عمليات المحيط الهادي ، فعملوا بقوة على الاحتفاظ بجزيرة تروك ، ورصدوا لها قوات مكثفة ، ولقد نجت تلك القوات بأعجوبة في ١٧ شباط من الهجوم الأمريكي ، ثم جاء دور جزائر كارولينا الغربية وجزائر ياب وأوليتهي ، ثم في بالو وأخيراً في مايس على جزيرة تاوي تاوي في أرخبيل سولو بين بورنيو والمولوك والفيليبين .

في شهر آذار اختفى الأميرال الياباني كوغا، هو وطائرته، فخلفه الأميرال تويودا[٥٨]. وكان كوغا المختفي قد حل محل الأميرال ياماتو الذي قتل في بوغينفيل في نيسان (١٩٤٣).

توقع تويودا هجوماً كبيراً على جزائر الفيليبين الجنوبية أو جزائر بالو فاختار منطقة عملياته الرقعة المحصورة بين ياب أوليتهي والفيليبين، مع إمكانية الاستناد على جزائر ماريان حيث يستطيع طيرانه استخدام الخط الواقع بين اليابان، بونان، وفولكانو وبذلك الدعم يمكنه مجابهة أسطول حاملات الطائرات الأمريكية.

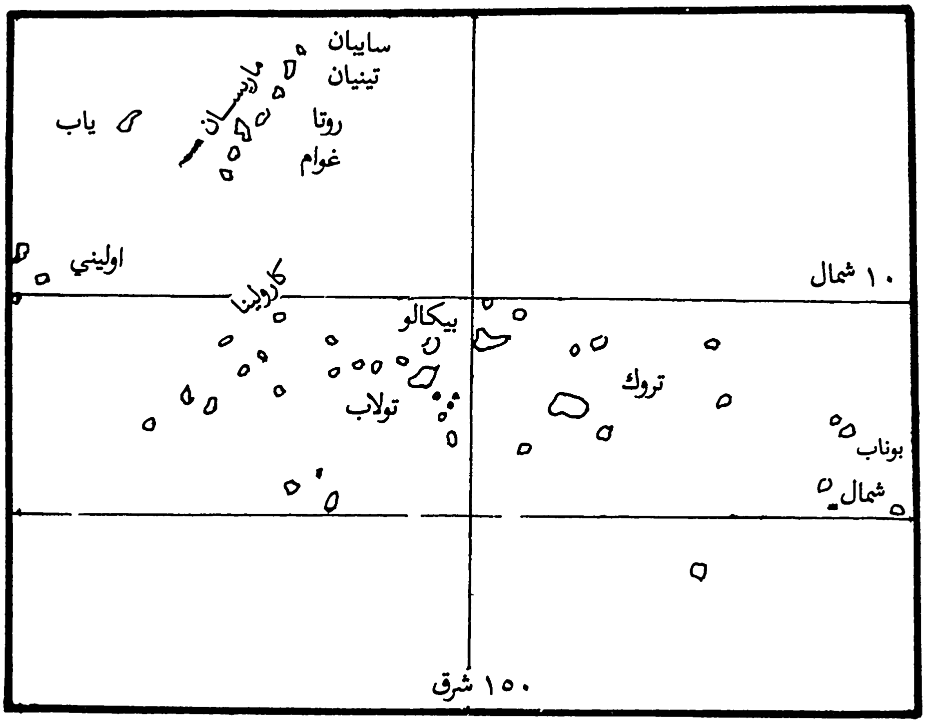

بدءاً من ١٢ حزيران تبين لتويودا أن جزائر ماريان هي هدف الأمريكيين الأول، فأعطى تعليماته إلى الأميرال أوزاوا ليقلع بتشكيلة الحربي من تاوي ــ تاوي في ١٣ حزيران. وطلب منه الاتجاه نحو جزائر الفيليبين الوسطى، ساعياً وراء مفاجأة الأسطول الأمريكي في ممر سان برناردينو (وكان هذا الممر قد أوكل أمره إلى الغواصات الأمريكية).

إن تردد تويودا في الإيعاز إلى أوزاوا قد أضاع عليه أيام ١٤ و ١٥ وحتى فجر ١٦ لأن المسافة طويلة ووصلت حاملات الطائرات اليابانية للممر فجر ١٦ منه وكانت القوات المشتبكة على النحو التالي:

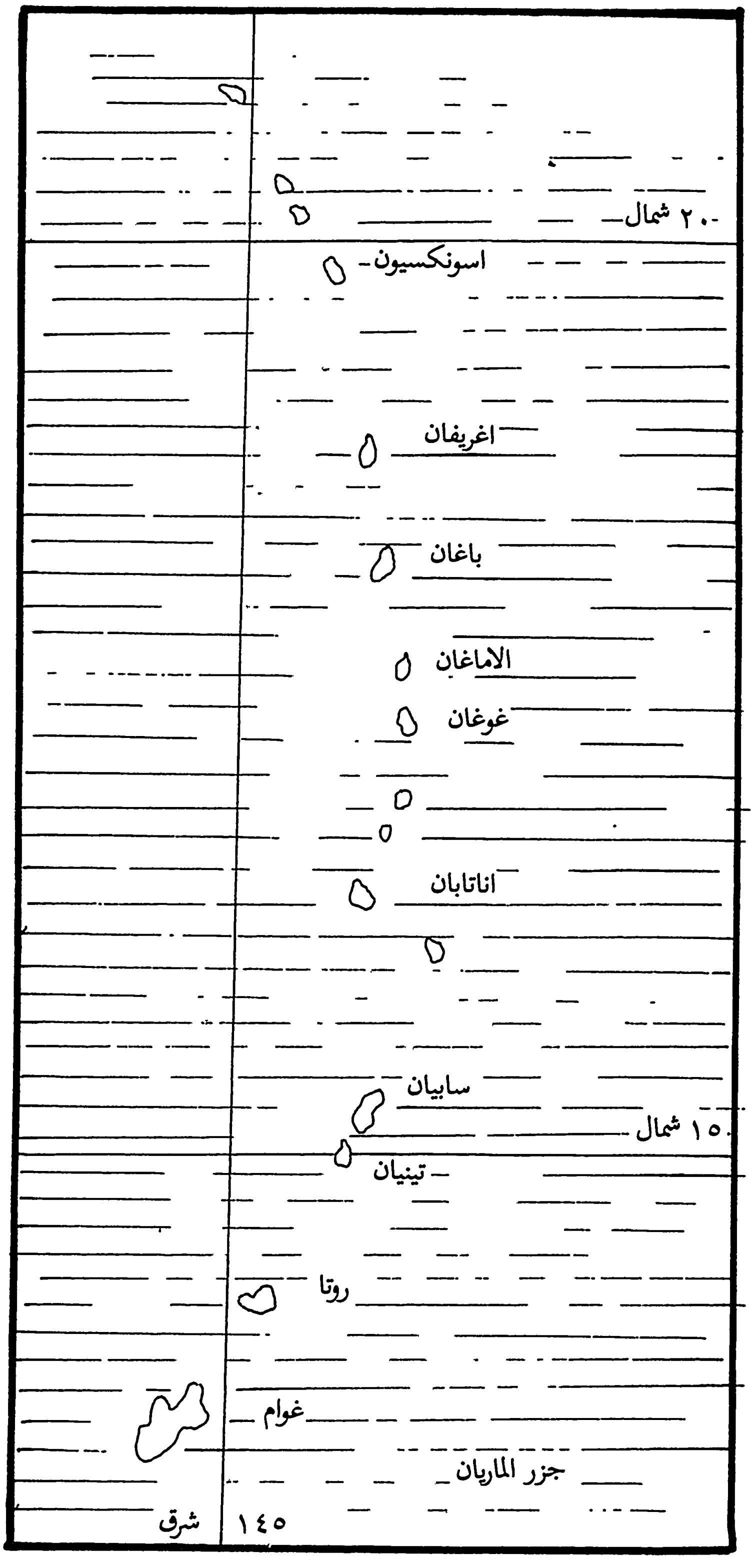
٢٠ شمال
اسونكسيون
اغريفان
باغان
الاماغان
غوغان
اناتابان
سابيان
١٥ شمال
تينيان
روتا
غوام
جزر الماريان
شرق
١٤٥

القوات اليابانية

تحت إمرة الأميرال أوزاوا[٥٩] وهي الأساطيل التالية :

الأسطول الثالث

وفيه (٩) حاملات طائرات وزعت على ثلاث تشكيلات تعبوية :

١ ـــ شوكاكو ، زويكاكو ، تايهو حاملات تزن الواحدة (٣٠) ألف طن .

٢ ـــ جونيو ، هيو ، هياتاكا حاملات تزن الواحدة (٢٨) ألف طن .

٣ ـــ زيوهو ، شيتوز ، وشيودا حاملات تزن بين (١٢ و ١٥) ألف طن .

حول التشكيلات الثلاثة مجموعة من السفن الحربية المختلفة بلغ عددها (٤٩٨) سفينة مع (٢٢٥) مطاردة و (٩٩) قاذفة طوربيد ، و (١٤١) قاذفة منقضة ، و (٣٣) طائرة استطلاع .

الأسطول الثاني :

وفيه البارجة ياماتو وزنها (٥٠) ألفاً ، وموساشي (٦٠) ألفاً ، ثم ثلاث بوارج متوسطة ، و (١١) طراداً ثقيلاً .

خطة أوزاوا القتالية

اعتمد أوزاوا على استغلال الطيّران المتمركز في القواعد الأرضية استغلالاً أعظمياً أي بحدود (٣٠٠) طائرة إضافية ، واستخدام مطارات غوام وروتا كمطارات تزويد وتموين لطائراته المحمولة بعد الهجوم ، بحيث تعود فتهاجم الأسطول الأمريكي ، ويبقى أسطوله بعيداً عن مدى الطائرات الأمريكية .

القوات الأمريكية

وكانت تحت إمرة الأميرال سبروينس[٦٠] ، وتتألف من :

أ ـــ مجموعات الأسطول القتالي التعبوي رقم (٥٨) وتتألف من (٥) تشكيلات بإمرة الأميرال ميتشو .

١ ـــ حاملات الطائرات ، هورنيت ـــ بوركتاون ـــ باتان ـــ بيلووود و (٤) طرادات .

٢ ــ حاملات الطائرات واسب ــ بنكرهيل ــ كابوت ــ مونتيري و (٤) طرادات .

٣ ــ حاملات الطائرات ليكسنغتون ــ انتروبرايز ــ سان جاسينتو ، برانسيتون و (٤) طرادات .

٤ ــ البوارج اسكس ــ لانفلي ــ كاوبينز مع بضع طرادات خفيفة .

٥ ــ ٧ بوارج : ايوا ــ نيوجرسي ــ انديانا ــ الآباما ــ واشنطن ــ نورث كارولينا ــ ساوث داكوتا ــ ثم أربع طرادات .

ويكون المجموع (٨٢٠) طائرة محمولة على (١٥) حاملة طائرات قتالية ثمان منها ثقيلة ، ثم (١٠) بوارج ، و (١٨) طراداً ثقيلاً .

ب ــ أسطول القصف ويتألف من عدة بوارج قديمة ، ومعها حاملة طائرة للحماية .

جـ ــ الغواصات (٥) غواصات تعمل مقابل بونان ، (٥) غواصات على طريق سايبان ريوكيو ، (٥) غواصات جنوب جزر ماريان ، (٣) غوصات جنوب شرقي ميندناو ، (٥) غواصات بين اليتي والفيليبين ، ثم (٤) غوصات أمام تاوي تاوي ، وغواصتان أمام ممر سورينا ، وغواصة واحدة أمام ممر سان برناردينو ، وغواصتان حول لوسون . وجميع هذه الغواصات كلفت بالاستطلاع والإعلام ، وخاصة حركة خروج اليابانيين من ممر سان برناردينو ، ثم حركة الأسطول الياباني الثاني « مجموعة الدارعات » ، بالإضافة للمهام القتالية في مهاجمة سفن اليابانيين وإغراقها .

خطة الأميرال سبرويانس

قطع خط مجموعة المطارات اليابانية ، ضرب جزائر فولكانو لمدة أربعة أيام من ١٤ ، ١٧ حزيران .. وهناك ينقسم التشكيل ، ويختفي متربصاً لليابانيين في سايبان على أن يتطوع الأميرال ميتشر فينطلق أمام التشكيل الياباني يستدرجه فيدخل الأميرال سبروياتس بكامل قوته في المعركة .

في ١٩ حزيران صباحاً كانت قوة اليابانيين على بعد (٤٠٠) ميل من جزيـرة غوام و (٤٥٠) ميلاً من جزيرة سايبان ، وإلى الجنوب غرب ، وعلى بعد (٣٥٠) ميلاً من التشكيل التعبوي الأمريكي ٥٨ . ويضع الأميرال أوزاوا خطته موضع التنفيذ ، لكن لسوء حظه تعرضت مطارات غوام لقصف شديد في الليل الفائت ، ويقع التشكيل الأول لحاملات الطائرات اليابانية في سد من الغواصات الأمريكية ، ويهاجم بالطوربيدات .. يبدأ هجوم عليه في الساعة ٧٫٥٠ فتغرق تايهو في الساعة ١١٫٠٠ وفي الوقت نفسه تصاب شوكاكو إصابة فادحة من قبل غواصة أمريكية أخرى .

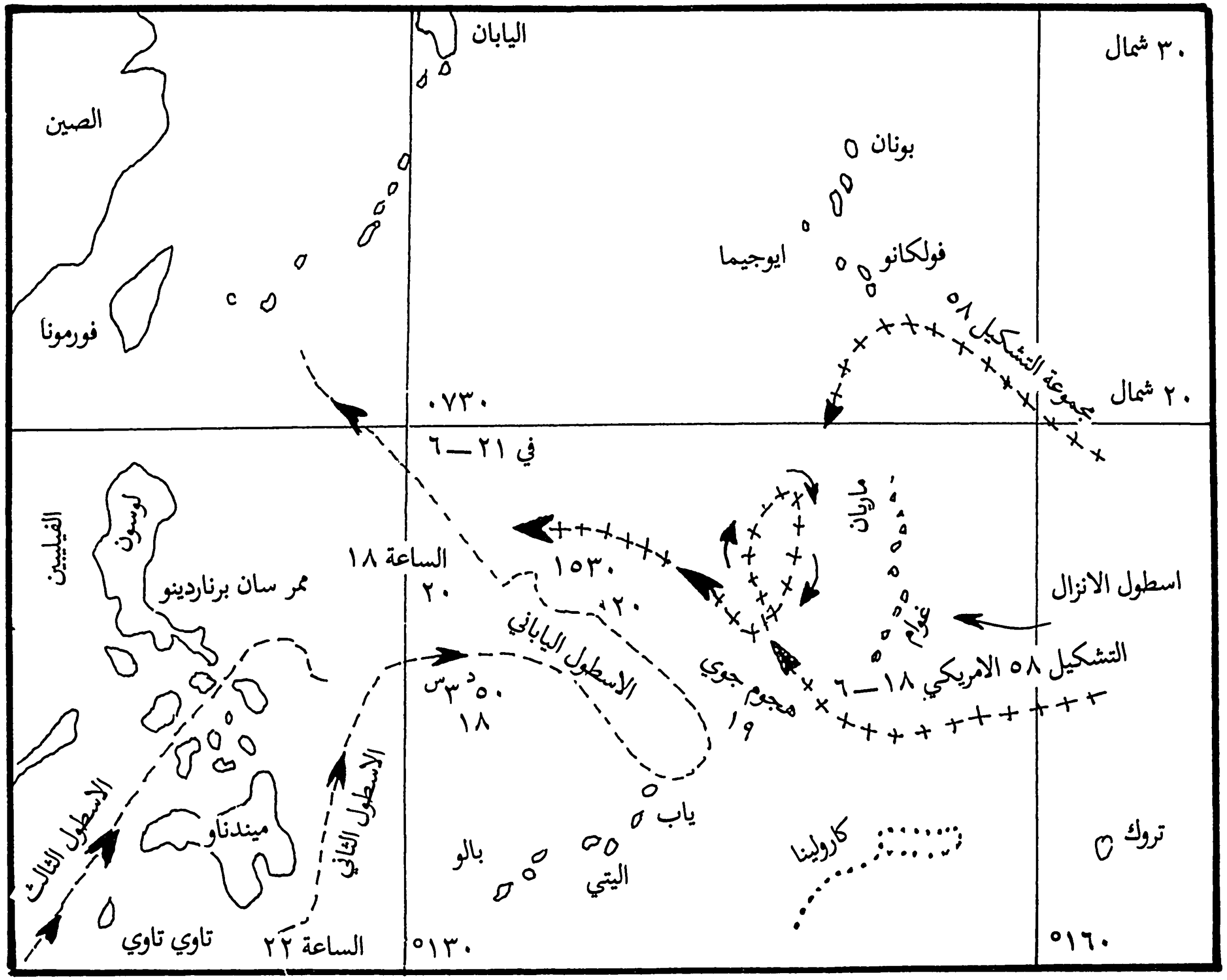

٣٠ شمال
اليابان
الصين
بونان
فولكانو
ايوجيما
مجموعة التشكيل ٥٨
٢٠ شمال
فورمونا
٠٧٣٠
في ٢١ — ٦
ماريان
اسطول الانزال
غوام
التشكيل ٥٨ الامريكي ١٨ — ٦
الفيليبين
لوسون
ممر سان برناردينو
الساعة ١٨
٢٠
١٥٣٠
٢٠
الاسطول الياباني
مجوم جوي
١٩
٥٠ د ٣ س
١٨
الاسطول الثالث
الاسطول الثاني
ميندناو
ياب
بالو
اليتي
كارولينا
تروك
تاوي تاوي
الساعة ٢٢
١٣٠°
١٦٠°

أما التشكيل الأمريكي وبحماية من سفن خافرة قوية، وباتجاه قتالي عام، وبكل أسلحته المضادة للطائرات، ومع تفوقه الجوي الكامل، يتقدم بعنفوان ويدخل المعركة. عندها يضطر الأميرال أوزاوا لإطلاق طائراته المحمولة الـ(٥٤٥)، ويلتحم الخصمان في السماء ويسقط لليابانيين (١٩) طائرة بالأسلحة المضادة و(٣٦٦) طائرة بالمقاتلات الأمريكية فيكون المجموع (٣٨٥) طائرة بالإضافة إلى سقوط (١٧) طائرة أخرى أتت من جزيرة غوام في حين لم يخسر الأمريكيون إلا (٢٦) طائرة من طراز هيلكات.

يصاب الأسطول الياباني بنقص في حاملات طائراته، وبقوته النارية، ويصبح فريسة سهلة فيضطر للإنسحاب بالسرعة القصوى نحو جزر الفيليبين. ويلقاه في أثناء انسحابه في اليوم التالي ٢٠ حزيران التشكيل التعبوي الأمريكي، وتحتدم المعركة من جديد برغم حلول الظلام، وتغرق حاملة الطائرات هيو، وتصاب كل من الحاملة جوينو والبارجة هارون إصابات خطيرة، لكن عودة الطائرات المنهكة اليابانية للهبوط خصوصاً بعد وصولها إلى نهاية مدى عملها، جعل بعضها يهبط بصعوبة وبعهضا الآخر يسقط في الماء. وخسر اليابانيون (٧٦) طائرة أخرى لكن عدداً لأباس به من الطيارين قد أنقذ.

نتائج المعركة

كانت النتائج كارثة حلت باليابانيين. إذ فقدوا ثلاث حاملات طائرات ثقيلة، وعدة مئات من الطائرات، وعدداً ضخماً من الطيارين. وكانت خطتهم لابأس بها، لكن التنفيذ أصيب بخلل جرى على غير التوقعات.

ــ ترك اليابانيون فرصة ذهبية لم يستغلوها، وهي عندما انقسم التشكيل الأمريكي ٥٨، وكان بالإمكان مهاجمة كل قسم على حده بأعداد متفوقة عددياً.
ــ تفوق الأمريكيون عدة وعدداً وخاصة في الطائرات. إذ إن الطائرات الأمريكية أكثر تطوراً وأفضل صفاتٍ.
ــ سيادة أمريكية للأجواء فوق مطارات اليابانيين البرية.
ــ ظهور خطر سلاح الغواصات الأمريكي وتواجده الكثيف في مسرح العمليات.
ــ نقص في استخدام سلاح الغواصات الياباني.

كانت الهزيمة عنيفة على اليابانيين، لم تستطع البحرية اليابانية الوقوف بعدها خصوصاً بعد

معارك سايبان ١٩ و ٢٠ حزيران. ونعتقد أن هذين اليومين كان يومي شؤم بحريين ويومي حسم بالنسبة للأمريكيين.

الإنزال في الفيليبين

أصبح احتلال جزر الفيليبين في صيف عام (١٩٤٤) حاجة تعبوية ماسة بالنسبة للأمريكيين، لأنها ذات امتداد جغرافي واسع لا يمكن تجاوزه أو شله. فالأرخبيل الفليبيني عديد الجزائر، بالغ الأهمية، يعترض طريق اليابان، أو بالأحرى طريق اختصار أمد الحرب، حيث بدأ الحلفاء يتطلعون إلى إنهائها، بأقل الخسائر الممكنة:

١ ـ يمكن تجاهل جزائر الفيليبين لو اقتصر ذلك على ربع المليون عسكري ياباني المدافعين عنها، إلا أنه لا يمكن تجاهل القوة الجوية الكبيرة المتمركزة في قواعدها، والتشكيلات البحرية الضخمة الرابضة في موانئها، وكلتاهما يهددان أمن العمليات الحربية الأمريكية في الجوار.

٢ ـ لم يكن لدى أمريكا مواقع قريبة لتجميع قواتها الهجومية في الزحف المرتقب على اليابان. فأوستراليا وغينيا الجديدة بعيدتان جداً، وجزر الماريان صغيرة وضيقة لا تتسع لتلك الأعداد، وليس من بديل إلا أرخبيل الفيليبين بجزائره الواسعة والقريبة من البر الياباني. فكان لا بد من احتلالها لتكون قاعدة الانطلاق للهجوم الكبير.

٣ ـ باحتلال جزائر الفيليبين تستطيع أمريكا قطع القسم الجنوبي من الجزائر المحتلة عن اليابان وعزلها عزلاً كاملاً. وهي جزر غنية تمد اليابانيين بالكثير.. جاوه.. سومطرة.. سيليب.. بورنيو.. موليك.. دون الحاجة لزج قوات عسكرية فيها، أو إقامة أي تدخل عملياتي برمائي عليها...

٤ ـ وأخيراً حملة عسكرية في غاية السعة والأهمية أعدها مكارثر ونيميتز وجندا لها كل إمكاناتهم العسكرية الضاربة.. لاحتلال الأرخبيل.

الخطة الأمريكية

كان على الأمريكيين حماية مجنباتهم لكي لا يتعرضوا لمفاجآت مزعجة في أثناء الهجوم، لذلك اضطروا لاحتلال جزيرة موروتي، وهي جزيرة صغيرة في مجموعة موليك، ثم احتلوا قسماً من جزر بالو. وأخيراً خططوا لاحتلال جزيرة ياب، ثم الإنزال في ميندناو، على أن يتم هذا الإنزال في شهر تشرين الثاني، ثم يعقبه إنزال في جزيرة لابيت في ٢٠ كانون الأول.

لكنه بناء على تقارير الإستخبارات التي وردت في مطلع شهر أيلول استخلص الأميرال هلسي من تلك التقارير ما يفيد بأن طيران اليابانيين ضعيف ومصاب بنقص حاد. وهذا النقص يعد بمثابة ثغرة في نظام أرخبيل الفيليبين الدفاعي، فاقترح على القيادة العليا مهاجمة لاييت في ١٣ تشرين الأول، والتي هي أقرب إلى الفيليبين متخطياً جزيرة ياب وميندناو. ووفق على اقتراحه برغم وجود صعوبات كثيرة يمكن أن تحدث عند تغيير أو تعديل خطط العمليات، فآلية المعركة المعقدة والمشتركة تحتاج إلى زمن عند إدخال أي تغيير عليها، خصوصاً العمليات البرمائية المشتركة بين جميع صنوف الأسلحة. فالتنسيق الكامل بينها في مسرح كمسرح عمليات الباسفيك الواسع يأتي في الدرجة الأولى من الأهمية. وأخيراً اختيرت جزيرة لاييت هدفاً أول للأمريكيين يدفعهم إلى ذلك سببان رئيسيان هامان:

١ ــ مركز الجزيرة الجغرافي متوسط لجزائر أرخبيل الفيليبين.

٢ ــ ساحل الجزيرة الشرقي يقع على خليج صعب المنال، سهل المراقبة من داخل الجزيرة والدفاع عنه ممكن.

في ١١ تشرين الأول نزل الأمريكيون في موروتاي ويالو، وبدأت عمليات قصف جوي عنيف لميندناو، وقواعد مانيلا وباناي. وخلال تلك الفترة بين ١١ و ١٦ تقدمت حاملات الطائرات الأمريكية تهاجم فورموزا وقواعدها الجوية، ثم تهاجم ريوكيو ولوسون. والغرض من ذلك تدمير أكبر حجم من قوات اليابان الجوية.. وفي ١٩ منه وصلت قوات الغزو، ودخلت خليج لاييت ثم نزلت في ٢٠ تشرين الأول.

الخطة اليابانية

أعلنت السلطات اليابانية أنه خلال الهجوم الأمريكي على فورموزا وريوكيو (وكان ذلك نوعاً من التمويه العسكري لصالح المعركة المقبلة غرضه التأثير على معنويات الأمريكيين) أصابوا للأمريكيين (١٩) حاملة طائرات بين معطوبة وغارقة، ونسبته ٦٠٪ من الأطنان المهاجمة، و ٢٦ ألف رجل، غرقوا في البحر، وغدت القوة الأمريكية المهاجمة فلولاً مشتتة لا خطر منها.

لاحت بوادر قلق في كل أوساط أمريكا وأصبح موضوع إشراك كامل الأسطول أمراً ضرورياً. ولما اتضح ذلك لليابانيين أعدوا خطة سموها خطة «شو» للدفاع عن الفيليبين وتتضمن:

ــ قسم من القوة البحرية اليابانية بقيادة الأميرال أوزاوا يشاغل ويستدرج حاملات الطائرات

الأمريكية إلى الشمال حيث تقوم قوة الأميرال كوريتا التي ستنطلق من أواسط الأرخبيل وتخترق (في أثناء عمليات إنزال الأمريكيين) مسرح الإنزال وتصلي بنيرانها رؤوس الجسور النازلة فتسحقها من البحر، ثم تدمر وسائط الإنزال والوحدات المزدحمة على طول شواطىء النزول. لكن الهجوم الصاعق على لاييت فاجأ اليابانيين الذي كانوا لم يستعدوا بعد.. وكان لا بد من إعادة بعض اللمسات على خطة شو، فتقرر أن تقوم قوة أوزاوا وفيها حاملات الطائرات اليابانية بدور طعم تستدرج فيه أسطول الإسناد الأمريكي. وكانت الفكرة جيدة من حيث المبدأ، إلا أن النقص الكبير في الطائرات المحمولة على الحاملات اليابانية قد لعب دوراً كبيراً في تحقيق النتائج النهائية.

أما هجوم كوريتا فسيدعم بتشكيل بحري ياباني بقيادة الأميرال نيشيمورا يأتي من الجنوب، بعد أن يعبر ممر سوريغاو، وكذلك سيدعم أيضاً بتشكيل من الطرادات اليابانية الثقيلة بإمرة الأميرال شيما، قوة مستقلة تحمي هجوم كوريتا من الجنوب إذا دعت الضرورة لذلك.

نلاحظ من خطة شو اليابانية ــ أن ثلاثة قادة بحريين أوزاوا، كورتيا، شيما يديرون عملياتهم البحرية باستقلالية تامة كل لوحده، دون أي تنسيق أو تبادل في المعلومات، وذلك أمر ذو أهمية في العمليات المشتركة ذات صفة النطاق الواسع.

ــ إن التشكيل الثاني الياباني يتألف من جزئين منفصلين، يبحر كل جزء بعيداً عن الجزء الآخر.. وهذا يدل على اضطراب في القيادة، وتفكك وضعف ارتباط.. خصوصاً فيما يتعلق بالتنسيق بين سفن الأسطول والطيران الحربي المتمركز في مطارات الفيليبين.

احتوت خطة شو على نقاط جيدة بناءة، تعتمد على استخدام الامكانات الجغرافية للأرخبيل، لكنها بقيت نقاطاً مرتجلةً، والمعركة كما رسمها اليابانيون على النسخ الشفافة لخرائط العملية لم تحقق، وبقيت حبراً على ورق.

تسلسل المراحل

اعتبرت معركة لاييت أكبر ملحمة بحرية في التاريخ المعاصر، حشد لها حجم هائل من القوات البحرية والقوى المساندة فجاءت الأوزان بالأطنان (٦٩٨ر٦٣٠) طن سفن لليابانيين و(١٣١٦٦٣٠) طن سفن للأمريكيين (يجب أن لا يغرب عن البال أن الأمريكيين يقاتلون وهم على مسافة (٧٠٠٠) ميل بعيداً عن قواعدهم البحرية).. وتألفت التشكيلات المقاتلة على النحو التالي:

١ ــ التشكيل الياباني الشمالي ــ قوة أوزاوا وضمت :

ــ بارجتين إيز ، وهيوغا .

ــ حاملة طائرات زويكاكو .

ــ ثلاث حاملات طائرات خفيفة زويهو ــ شيتوز ــ شيودا .

ــ ثلاثة طرادات خفيفة .

ــ ثماني مدمرات أو نسافات .

مجموع ما على الحاملات من طائرات ١٦ طائرة .

٢ ــ التشكيل الأوسط ــ الأميرال كوريتا ــ وضم

ــ ٢ بارجة حديثة ، باياتو ، موساشي .

ــ ٣ بوارج متوسطة ناغوتو ، هارونا ، كونغو .

ــ ١٠ طرادات ثقيلة طراز : ناتي ــ أتاغو ، موغامي ، تون .

ــ ٢ طراد خفيف .

ــ ١٦ نسافة ومدمرة .

٣ ــ تشكيل الجنوب ــ الأميرال نيشيمورا ــ وضم

ــ ٢ بارجة متوسطة فوزو ــ ياماشيرو .

ــ ٣ طرادات ثقيلة طراز موغامي .

ــ ١ طراد خفيف واحد .

ــ ٨ مدمرات أو نسافات .

٤ ــ تشكيل الأميرال شيما المساند ويتضمن

ــ ٢ طراد ثقيل .

ــ ١ طراد خفيف .

ــ ٤ نسافات وقاذفات طوربيد .

يضاف إلى كل ما تقدم حوالي (٦٠٠) طائرة يابانية في قواعد الفيليبين الأرضية .

القوات الأمريكية

وضعت تحت إمرة الأميرال هلسي الشهير بعنفه قوات كثيرة العدد والعدة. وأقام الأميرال قيادته على البارجة نيوجرسي **في التشكيل التعبوي المساند** الذي يعتبر أقوى وأعظم تشكيل ظهر في البحار حتى ذلك التاريخ وتضمن :

ــ ٦ بوارج حديثة ؛ ايوا ، نيوجرسي ، الآباما ، واشنطن ، سوت داكوتا ، ماساشوستس .
ــ ٩ حاملات طائرات ثقيلة ؛ بانكرهيل ، اسكس ، فرانكين ، هانكوك ، هورنيت ، انتربيد ، ليكسنغتون ، واسب ، انتربرايز .
ــ ٧ حاملات طائرات خفيفة بحدود (١٠) آلاف طن للحاملة : برانسيتون ــ اندياندانس لانفلي ، بيلوورد ، كابوت ، سان جاسينتو ، كابنس .
ــ ٦ طرادات ثقيلة .
ــ ٥ مدمرات وأطلق على هذا التشكيل المرعب اسم **الأسطول الثالث** ، وعليه (١٠٠٠) طائرة .

وقد وزع الأميرال هلسي أسطوله إلى أربع مجموعات تعبوية هي :

١ ــ مجموعة ماك كاين (واسب) .
٢ ــ مجموعة بوغان (انتربيد) .
٣ ــ مجموعة دافينسوف (فرانكين) .
٤ ــ مجموعة شيرمان (اسيكس) .

ونظراً لحالة الإرهاق لطواقم المجموعة الأولى التي كانت قد اشتركت بعمليات أخرى حديثة ، فقد أعطيت إليها الأوامر للاتجاه إلى اوليتي في كارولينا الغربية والانتظار هناك .

الأسطول السابع (أسطول التدمير)

يقوده الأميرال كينكير ، وهو قائد هادىء متحفظ وضم أسطوله الوحدات التالية :

ــ ٧ بوارج : كولورادو ، ماريلاند ، ويست فرجينيا ، كاليفورنيا ، تينيسي ، مسيسيبي ، بانسلفانيا .
ــ ١٦ حاملة طائرات خافرة خفيفة .
ــ ٤ طرادات ثقيلة .
ــ ٥ طرادات خفيفة .

ـــ ٥٠ مدمرة ونسافة .

لوحظ في التكتيك الأمريكي أن القيادة قد جزأت في التشكيلات أيضاً ، كما فعل اليابانيون ، بحيث إن التشكيلات التعبوية الثلاثة اليابانية يمكنها القيام بأعمال مختلفة ، وتخرج إلى المعركة من ممرات عدة ، فتعقد والحالة هذه مهمة الأمريكيين . لذلك حددت مهام كل تشكيل على النحو التالي :

يقوم الأسطول الثالث الأمريكي بحماية الأسطول السابع ، ويدمر كل قوة بحرية معادية تعترض مهمته .

أما مهمة الأسطول السابع فهي تسهيل وحماية عملية الإنزال .

معركة لاييت

نزل الأمريكيون في فجر ٢٠ كانون الأول على شواطىء جزيرة لاييت ، فوضع اليابانيون خطة شو موضع التنفيذ ـــ وأقلع الأميرال كوريتا من لينغا (قرب سنغافورة) وتقدم نحو برونين إلى الشمال الغربي من بورنيو ، يقصد تموين أسطوله ، يرافقه في المرحلة من هذه الحملة الأميرال نيشيمورا . وفي صباح ٢١ انقسم تشكيل كوريتا إلى جزئين ، جزء سلك الطريق الأقصر ، وتقدم نحو ممر سان برناردينو . واتجه نيشيمورا نحو ممر سوريغاو ، وفي الوقت نفسه غادر الأميرال الياباني شيما بيسكادور (جزر صينية قرب فورموزا) .

أما الأميرال أوزاوا ، فقد غادر البحار الداخلية في ٢٠ الجاري واتخذ لتشكيله عند الظهيرة اتجاهاً نحو الجنوب غرب ، باتجاه رأس لوسون . كان البحر خالياً أينما اتجه . وفي ٢٣ الجاري ، وحسب الخطة المرسومة بدأ أوزاوا بإرسال إشارات لاسلكية مختلفة ليلفت أنظار الأمريكيين إليه . وكان ذلك إيذاناً واضحاً ببدء المعركة . وقد باشرها اليابانيون بقوات ضخمة بحرية معززة ، وكذلك الحال بالنسبة للأمريكيين .

توقع قادة الطرفين صدامات عنيفة وخسائر فادحة ، لكنهم كانوا يلعبون ورقة الحظ ، وإثبات الوجود في بحار الجنوب . وهنا نتساءل ماذا حدث ؟

سعى كل من الأميرال كوريتا والأميرال نيشيمورا سد خليج لاييت . وبدأ الأميرال أوزاوا

التغرير بالأسطول الثالث الأمريكي، وجعله يبتعد عن مسرح المعركة. وفيما يلي تفاصيل ما حدث فعلاً:

خلال ليل ٢١، ٢٢ كانون الأول كشفت غواصة أمريكية في المدخل الجنوبي لممر بالاوان ثلاث قطع حربية مشبوهة لم يكشفها طيران الاستطلاع، فأبلغت القيادة العليا فوراً. وجاء الجواب للغواصة بمتابعة المراقبة عن بعد والإعلام عن كل جديد.

في ليل ٢٢، ٢٣ شاهدت الغواصة نفسها الجزء المنفصل عن تشكيل كوريتا. وفي ساعات الفجر الأولى، تقدمت غواصتان أمريكيتان وهاجمت بسلاح الطوربيد التجمع الياباني فأغرقتا سفينتين يابانيتين حربيتين وأعطبتا ثالثة (وقد عرف فيما بعد بأن الغارقتين كانتا الطرادين مايا وآتاغو وهي سفينة قيادة الأميرال كوريتا) ومع غرق سفينة القيادة فقد التشكيل نصف عناصر الاتصال وأركان قيادة المعركة.

بعد حين كشف الأمريكيون الجزء الثاني المتوسط من أسطول كوريتا بوساطة غواصة أخرى مستطلعة، سرعان ما هاجمت وأصابت طراداً آخر بطوربيداتها. وفي ليل ٢٣ تم اكتشاف جزئي تشكيل كوريتا من قبل الغواصات الأمريكية التي قامت بمهامها بوجه صحيح.

معركة بحار الفيليبين الداخلية

في ٢٤ كانون الأول حدثت معركة طويلة دعيت بيوم الطيران الطويل، هاجمت فيه الطائرات الأمريكية قوة كوريتا. فصد اليابانيون الهجمات بعنف وقسوة. وكان يوماً مشهوداً من أيام التاريخ البحري، غرق للأمريكيين حاملة الطائرات الخفيفة برانسيتون (١٠) آلاف طن، إذ اشتعلت فيها النيران ثم انفجرت وتناثرت. وكانت أول حاملة طائرات أمريكية تغرق بعد غرق الهورنية عام (١٩٤٢). وتتابعت الهجمات بعد ظهر اليوم وكلها تتصف بالعنف والإصرار. وقدر الأمريكيون أن التشكيل الأوسط الياباني بدأ يستنفذ قواه، بعد فقده لقسم كبير من وسائط هجومه الجوية، وأخذ يطبق خطة انسحاب تدريجية. لكنهم ظلوا يقدرون أن قوة حاملات طائرات الأميرال أوزاوا ذات شأن قتالي كبير، ويجب تحطيمها وإخراجها من المعركة «**تقدير مبالغ به جداً**».

بناء على المعلومات التي وصلت للأميرال هلسي وكانت معلومات غير كاملة، اضطر لتغيير خط سيره، وتوجيه كل وحداته البحرية نحو الشمال. وعاد فاشتبك مع تشكيل كوريتا. ونتيجة

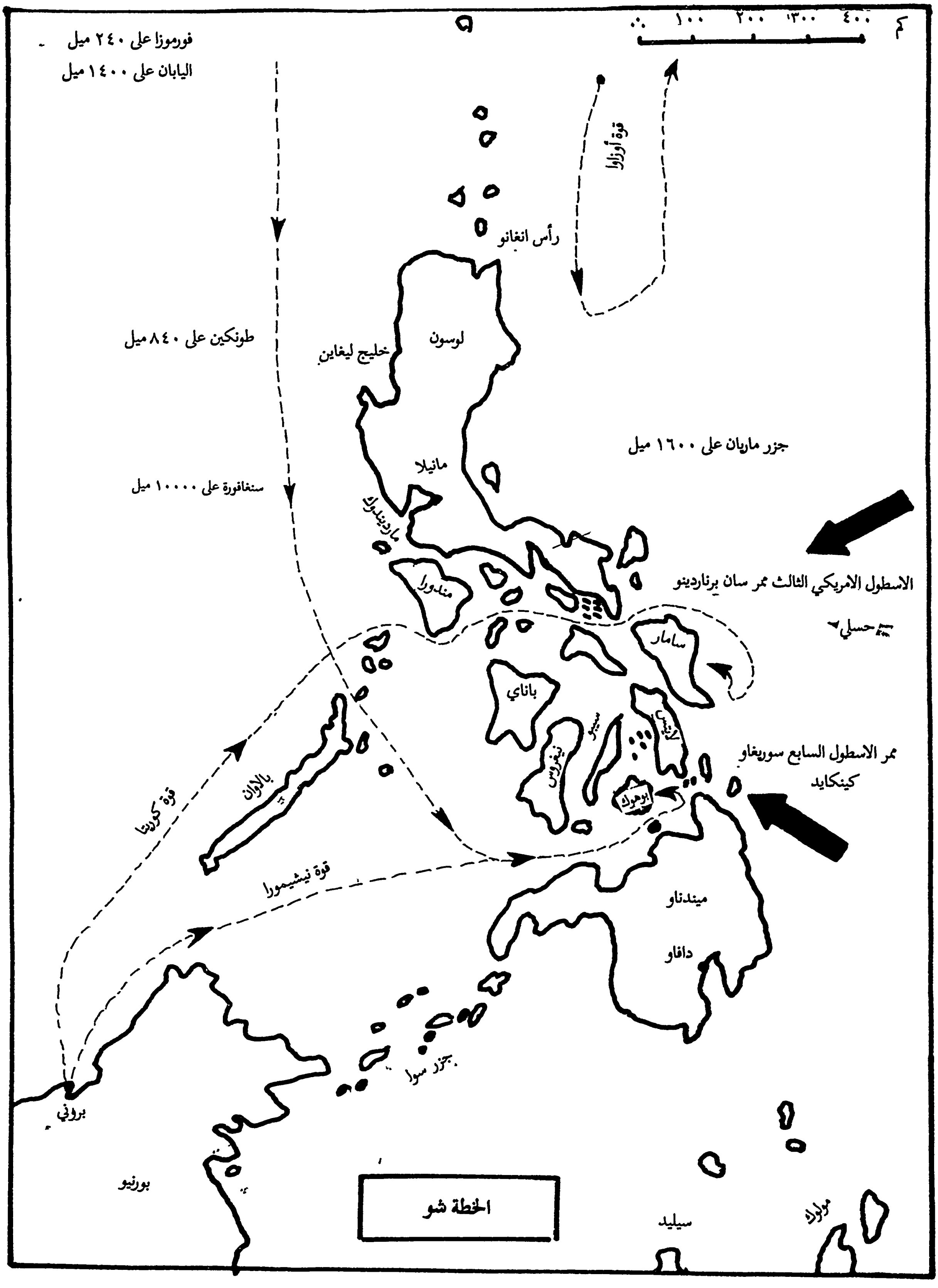
كم ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠
فورموزا على ٢٤٠ ميل
اليابان على ١٤٠٠ ميل
قوة أوزاوا
رأس انغانو
لوسون
خليج ليغاين
طونكين على ٨٤٠ ميل
جزر ماريان على ١٦٠٠ ميل
مانيلا
سنغافورة على ١٠٠٠٠ ميل
مندورا
الاسطول الامريكي الثالث ممر سان برناردينو
سامار
باناي
نيغروس
سيبو
ممر الاسطول السابع سوريغاو
كينكايد
بالاوان
قوة كوريتا
قوة نيشيمورا
ميندناو
دافاو
جزر سولو
بروني
بورنيو
الخطة شو
سيليد

للمعركة البحرية غرقت البارجة الحديثة موساشي. وفي نهاية المعركة يعود الأميرال هلسي ويستدير ثانية، ويتجه نحو ممر سان برناردينو، في حين يدع قسماً من أسطوله الثالث يلحق الطعم الياباني أوزاوا، ولكن ليس بكامل قوة الأسطول، أي أن **غرض أوزاوا لم يتحقق**.

معركة ممر سوريغا

انتظر الأسطول السابع تشكيل نيشيمورا في مضيق سوريغا، وكان هذا التشكيل قد كشف، وتتبعت حركته، وكذلك الحال بالنسبة لتشكيل الأميرال شيما.

ممر سوريغا ذراع طويل من الماء يمتد نحو (٣٠) ميلاً بحرياً، وبعرض (١٢) ميلاً عند مدخله، تتحكم فيه تيارات مائية قوية، وشاطئه صخري قائم شديد الانحدار وعر المسالك.

وقد اتخذ الأمريكيون الترتيبات التالية في لقاء خصمهم:

اتخذت الزوارق السريعة القاذفة للطوربيد مراكز قتالية في مدخل المضيق ومن بعدها المدمرات والنسافات وعددها ٢٦، توزعت على طرفي الشاطىء مستعدة لإطلاق طوربيداتها، دون أن تزعج رمي البوارج والدارعات التي استعدت في العمق لتوجيه القصف المدفعي المدمر (كان قادة السفن قلقين بعض الشيء لتشابك خطوط النار وخطر حدوث أخطاء في التسديد قد تصيب سفنهم المكثفة في أثناء احتدام الرمي، وكذلك كان لديهم خوف واضح من مخزون الذخيرة التي لديهم).

في ليل ٢٤، ٢٥ دخل تشكيل نيشيمورا فوقع في الفخ المضروب له، إذ هاجمته النسافات وزوارق الطوربيد بثلاث موجات من الطوربيدات، بلغ مجموعها (١٣٠) طوربيداً أصابت العديد منها أهدافاً يابانية، وغرقت ياماشيرو، ولحقتها فوزو في الساعة ١٣ر١٥، ثم تدخلت البوارج والدارعات الأمريكية برميها المركز، فأجابتها مدفعية الأسطول الياباني، وانقلبت المنطقة إلى جحيم. لكن الرمي الأمريكي جاء أكثر إحكاماً وكثافة.. وعندما وصل الأميرال شيما بدوره لم يستطع إلا أن يفقد طراداً ثم يصطدم طراد آخر من تشكيله بالموغامي الجانحة.

تشتت تشكيل نيشيمورا (وغرقت موغامي في الساعة ٠٠ر٠٩ صباحاً). وانتصر الأمريكيون في تلك المعركة، وفي الساعة ٣٨ر١٧ وصل إلى مسامع الأميرال هلسي معلومات تفيد بأنه الأميرال كوريتا يقترب من مدخل خليج لاييت من جهة سامار.

معركة رأس انغانو

في ٢٤ كانون الأول وخلال الهجمات الجوية على القوة المتوسطة اليابانية تقدم أوزاوا إلى شمال شرق لوسون، وعلى مسافة تقل عن (١٠٠) ميل من مجموعة شيرمان. وعند الظهيرة، وبعد عدة هجمات باطلة لم يبق في حوزته إلا عدة عشرات من الطائرات المطاردة فأعطى أوامره بالتوجه بتشكيله نحو الشمال.

في ليل ٢٤، ٢٥ كان الأميرال هلسي مستعداً للحاق به. ولقد تم التماس معه في الساعة ١٧ر٣٥ صباحاً. وتعاقبت الهجمات الجوية، لكن الإشارات التي التقطت عن الأميرال كينكيد أفادت أن سفنه لم تستطع التزود بالذخيرة والمحروقات الكافية، فهي لا تستطيع متابعة السير نحو لاييت وسامار. وكانوا في عجلة من أمرهم، عندها توقفت الهجمات الجوية في الساعة ١١ر١٥ تاركين لمجموعتين من حاملات الطائرات مهمة المتابعة. وانطلق الأميرال هلسي جنوباً.

وفي الساعة ١٦ر٠٠ أعطى قائد الأسطول الثالث الأمير هلسي أوامره لمجموعة ماك كاين المستريحة بالتوجه بأقصى سرعة إلى ممر سان برناردينو، لإحكام القبضة على تشكيل الأميرال أوزاوا.

لم يكن النصر على قوات أوزاوا كاملاً. علماً بأن كل حاملات طائراته أغرقت أو أعطبت، إلا أن بارجتين حديثتين فرتا ونجتا من المعركة.

عملية الإلهاء قد نجحت، وحتى تكون متمرة كان لا بد من أن يقوم الأميرال أوزاوا بتنبيه الأميرال كوريتا ووضعه بالظروف المحيطة الصحيحة للمعركة، مع تعيين المكان الصحيح للأسطول الأمريكي الثالث ونيّاته المرتقبة، لكنه لم يستطع ذلك، وانقلبت خطة شو إلى كارثة بحرية.

معركة سامار

في ٢٥ كانون الأول وفي الساعة ٠٦ر٥٣، عبر الأميرال كوريتا بتشكيله ممر سان برناردينو، وفاجأ حاملات الطائرات الأمريكية الخافرة على بعد (٦٠) ميلاً من سامار. وبرغم المجهود الكبير الذي قدمته النسافات والمدمرات الأمريكية المحيطة بتشكيلة الحاملات، أصبح الموقف العام ميؤوساً منه. وبسرعة فائقة غرقت الكابيرـــ بي لأن تلك الحاملات الخفيفة الخافرة ليست معدة لمقاومة أقوى دوارع وبوارج العصر، ياماتو، وناغاتو.

في الساعة ٠٩ر٢٥، استدارت القوات اليابانية الخفيفة وفي الساعة ١٢ر١٥ قرر كوريتا

ترك خليج لاييت ، لكن طيرانه والطيران المساند الياباني المتمركز على البر تابع هجماته الجوية وغرقت سان لو . وهناك تدخلت طائرات مجموعة ماك كوين بعد أن اقتربت من مسرح العملية .

هذه الاستدارة التي قام بها كوريتا وأخرجته من المنطقة ، بقيت دون تفسير ، حتى هو نفسه لم يستطع تعليلها ، عندما تعرض لاحقاً للتحقيق ، خصوصاً وأن كفته كانت هي الراجحة في المعركة ، حتى انسحابه منها . ونستطيع القول إن عوامل كثيرة أضعفت من نتائج المعركة التي كانت ستكون باهرة بالنسبة لليابانيين ، وهذه العوامل هي :

ــ الاستدارة والانسحاب من مسرح العمليات دون تبرير عملياتي .
ــ هجمات جوية غير متوقعة من الأمريكيين ، بعد تدخل طيران مجموعة ماك كوين .
ــ رمي غير مجد ، وغير محكم على سفن الأسطول الأمريكي .
ــ فقد الاتصال مع الأميرال أوزاوا ، وبالتالي جهل كامل لموقف حاملات الطائرات الأمريكية .
ــ وصول المعلومات ظهراً عن هزيمة أخرى لليابانيين في كارثة سوريغا .
ــ تقديرات بأن السفن الناقلة للجنود لجزيرة لايت وجدت الوقت الكافي للانسحاب نحو الجنوب ... إلخ .

وعلى كل حال فقرار كوريتا في الاستدارة والانسحاب دمر الخطة اليابانية .

وبرغم السرعة القصوى لبوارج وحاملات طائرات الأميرال هلسي فقد وصل حوالي منتصف الليل لممر سان برناردينو ، أي تأخر ثلاث ساعات بعد مرور القوة المتوسطة اليابانية . ومع ذلك دفع هلسي بموجات عديدة من طائراته تهاجم في صبيحة ٢٦ الجازي . وكانت الحصيلة إصابة ثلاثة طرادات ثقيلة يابانية .

لم يكن نصر الأمريكيين كاملاً برغم نجاحه الكبير . وأضاع اليابانيون مازنته (٣٠٥ر٧١٠) طن سفن أي ٤٥٪ من مجموع وزن المراكب المشتركة في الحملة ، في حين كانت خسارة الأمريكيين (٣٦) ألف طن فقط . واعتبرت معركة لايت نقطة تحول ونهاية المجد البحري الياباني . وآخر اشتباك بحري لقوى سفن السطح .

لقد مر ذكر الأخطاء اليابانية المرتكبة ، وهذا لا يعني أن الأمريكيين قاتلوا بلا خطأ ، بل هناك عدة هفوات منها :

ــ تهاون الأميرال هلسي في إحكام الاستطلاع البعيد بشكل عام :
ــ الاستطلاع الجوي كان ناقصاً ولا استطلاع البتة في ممر سان برناردينو .
ــ غياب قوة استطلاع غواصات أو سفن سطح (دوريات) في الممر المذكور . وهذا ما جعل مرور كوريتا سهلاً سريعاً وغير مرئي ، ولو تواجدت قوة بسيطة هناك لاستطاعت المشاغلة لتغطية تأخير الثلاث ساعات ، ولوقع الأميرال كوريتا وأسطوله بين أيدي القوة الضاربة الهائلة الأمريكية التي كانت تلاحقه بقيادة الأميرال هلسي .
ــ استخدام الأسطول الثالث الأمريكي العنف كأساس مفهوم قديم لقول قديم يقول Trop fort n'a jamais manqué ومعناه « القوي جداً لا يخيب أبـداً » . إذ عنـد اللحـاق بأوزاوا كان نصف التشكيل الأمريكي كافياً ، والأجدر بالنصف الآخر التواجد في مكان تحتاجه ظروف المعركة ، ويحظى بالتقدير كمساندته للقوات في سامار صبيحة ٢٥ . ومع ذلك فأخطاء الأمريكيين قليلة ، لو قورنت بما ارتكبه اليابانيون . ولعل ذلك يعود للقاعدة الشائعة **بأن القوي المنتصر تقل أخطاؤه أو لا تظهر** . خصوصاً في حال تفوقه عدداً وعدة . وقد أجمع المحللون العسكريون للمعركة على عدة أخطاء يابانية يجدر الإشارة إليها تفصيلاً :

١ ــ فقد كامل للتعاون ولحركات تشكيلات القوى الثلاث .
٢ ــ عدم ارتباط وتبادل معلومات لصالح المعركة .
٣ ــ نقص في الاستكشاف لمجموعة الجنوب عند مرورها بمضيق سوريغا .
٤ ــ هجوم محدود لكوريتا ضد حاملات الطائرات الأمريكية الخفيفة الخافرة ، ثم بتر الهجوم دون ضرورة .
٥ ــ فقدان كامل للتنسيق مع الطيران الأرضي .
٦ ــ عدم استخدام سلاح الغواصات في عمليات الاستطلاع والإغارة .

الاستيلاء على الفيليبين

أصبح الأمريكيون بعد الاشتباكات البحرية سادة البحر ، وسادوا الأجواء أيضاً بكثافة طيرانهم . ولم يبق عليهم إلا اقصاء الـ (٢٣) فرقة عسكرية يابانية المتواجدة في جزائر الفيليبين . لكن هذا العمل بحد ذاته شاق وطويل لما عرف عن اليابانيين من شدة بأسهم في القتال ، وفي مناطق أتقنوا استخدامها ، وتفننوا في حرب الإغارات وحرب الأدغال .

ظل اليابانيون حتى حزيران (١٩٤٥) يحتفظون بمناطق واسعة بكل من ميندناو ولوسون. ومن أصل (١٧) فرقة عسكرية أمريكية خسر الأمريكيون (٦٠) ألف مقاتل خرجوا من المعركة منهم (١٢٫٣٠٠) قتيل، لكن خسائر اليابانيين كانت أكثر فداحة (٣١٧) ألفاً نظراً للكثافة في الإغارات الجوية، وكثافة في نيران القوات المهاجمة، وغزارة في الرمي.. وللإمكانات الضخمة الأمريكية التي زجتها في المعركة أمام عدو حرم كل وسائل الإمداد والتموين وفي النهاية لم يبق لليابانين إلا جيوب قليلة.. وكانت خلاصة أحداث المنطقة كالتالي:

تطلب احتلال جزيرة لاييت شهرين من القتال من ١٩ تشرين الأول حتى ٢١ كانون الأول. وأما سامار فدفاعاتها الأرضية ضعيفة، ولذا استطاع الثوار الفيليبيون تحريرها تقريباً بالكامل، بمعاونة بعض وحدات المظلين الأمريكيين، وكذلك كان الأمر بالنسبة لقسم من بوهول نيغرو ــ وياناي.

وتم إنزال قوات برمائية في ميندورو ومارنيدوك استعداداً للهجوم على لوسون، وإنزال في لنغاين ٩ كانون الثاني (١٩٤٥)، إذ انتقلت القوات النازلة مسافة ألف كيلومتر بحراً من لاييت حتى لنغاين، دون أن يعترضها أحد. ونزلت بكامل راحتها.

في ٤ شباط وصل الأمريكيون إلى مانيلا عاصمة الفيليبين بعد قتال عنيف دام ثلاثة أسابيع. وسقطت المدينة بالكامل في ٢٥ شباط، وبقي على الأمريكيين والثوار الوطنيين تنظيف ميندناو، ثم سحق المقاومة في شمال شرق لوسون.

سمح إنزال ٩ كانون الثاني من الوجهة الاستراتيجية بالهيمنة على فورموزا وسواحل الصين الجنوبية، وقطع بالتالي كل خطوط المواصلات البحرية بين اليابان وإندونوسيا. وبدأت نهاية الثروات اليابانية الكبيرة التي تردها من جزر الجنوب الواسعة التي استولت عليها في المحيط الهادي منذ عام (١٩٤٢). وانقطعت تلك الخيرات ولم يبق لهم إلا جزء ضئيل من المواد الخام. وأخذت نتائج هذا النقص تظهر بجلاء في صناعاتهم الحربية.. وتلك بداية الأزمات الصناعية والانتاجية الحادة في اليابان.

ايوشيما ــ شباط ــ آذار (١٩٤٥)

بدأ قصف جزائر اليابان من الجو بمجرد أن أصلحت المطارات المحتلة في جزائر ماريان خريف (١٩٤٤). ونظراً لكثافة المدن اليابانية الصناعية وضعف تنظيم الدفاع المدني والصفات الفوضوية

لخدمات إطفاء الحريق «اليابان أكثر البلدان كثافة سكانية في العالم» فقد أصبحت اليابان بلداً حساساً جداً سريع التأثر بالهجمات الجوية التي كانت بشكل عام محكمة وفعالة.

كثيراً ما تعرضت القاذفات ب ـــ ٢٩ لصعوبات جمة، منها تعرض المطاردات اليابانية لها. وليس لديها مطارات قريبة تلجأ لها (القاذفات المتوسطة مدى عملها دون الجزائر اليابانية) وهنا اتجهت أنظار الأمريكيين نحو جزيرة ايوشيما الواقعة في منتصف المسافة بين طوكيو وسايبان، وهي إحدى جزر فولكانو وفيها ثلاثة مطارات هامة، وتبعد (٧٥٠) ميلاً بحرياً. وواجه الأمريكيون على هذه الجزيرة الصغيرة التي بطول (٨) كيلومترات وعرض ثلاثة كيلومترات مقاومة فعالة عنيدة.

سبق عملية الإنزال في الجزيرة قصف شديد مركز من قبل سلاح الطيران البحري حول طوكيو وجوارها وفي يومي ١٦ و ١٧ ومن خلال القصف دمر لليابانيين (٤٩٩) طائرة ١٧٧ منها دمرت على الأرض، وخسر الأمريكيون (٥٠) طائرة.

بدأ الإنزال على الجزيرة في ١٩ شباط وهي البقعة الأكثر دفاعاً بين جزائر العالم قاطبة. هذا ما قاله أميرال أمريكي، وعملية الإنزال فيها كانت العملية البرمائية الأكثر صعوبة خلال الحرب العالمية الثانية إذ برغم القصف الشديد لـ(١٥) ألف طن قنابل لم يستطع الرماة البحريون التقدم إلا شبراً بعد شبر خصوصاً فوق المنحدرات الحادة حيث انتشرت فيها حصون المدافع وأعشاش الرشاشات. أما أرضها فغير مواتية أبداً لسلاح المدرعات.

هاجم الأمريكيون الجزيرة بـ(٦٠) ألف مقاتل قتل منهم (٤) آلاف، وجرح (١٥) ألفاً، وفقد اليابانيون (٢٢) ألف قتيل.

بعد ثلاثة أشهر من احتلال الجزيرة، تحسنت عمليات قصف الجزر اليابانية بشكل ملحوظ، لأن القاذفات الأمريكية أصبحت مغطاة بالمطاردات ذات المدى البعيد التي تنطلق من ايوشيما كطائرات موستانغ مثلاً.

أوكيناوا نيسان (١٩٤٥)

مع استمرار احتلال الأمريكيين لجزائر الفيليبين أقاموا منطلقاً جوياً جديداً في ايوشيما، وابتدأوا يعدون لعملية صعبة (أطلق عليها اسم ايسبرغ) ضد جزيرة أوكيناوا، أكبر جزر أرخبيل ريوكيو التي يبلغ طولها عدة مئات من الكيلومترات، وتحتوي على (٧) مطارات كبيرة ومرسى بحري جيد. وهذا معناه أن الخطوة الجديدة بدأت تهدد الدفاعات اليابانية المباشرة، وكذلك خطوط

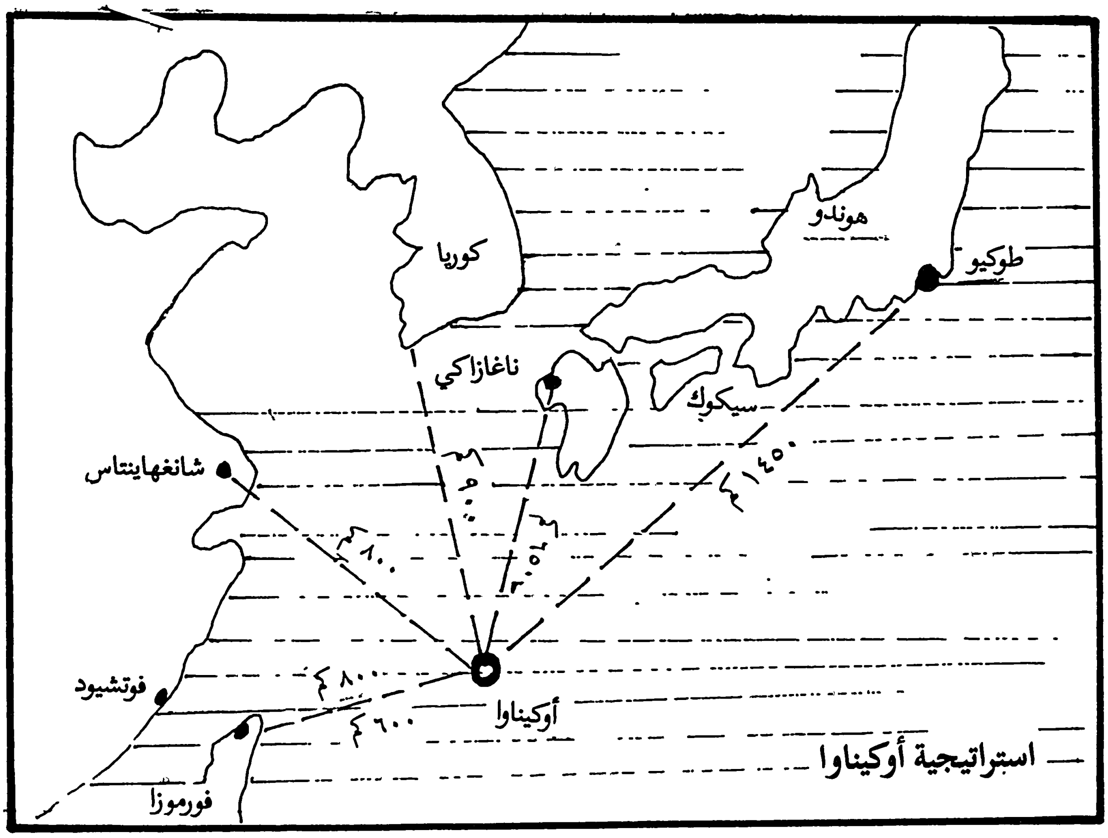

المواصلات البحرية اليابانية مع الصين الشمالية، بعد أن انتهت تقريباً كل مواصلاتها مع الجنوب. فاحتلال هذه الجزيرة معناه تهديد مباشر للبر الياباني القريب حيث تصبح الإغارة عليه ممكناً من الجو، وضمن حدود مدى كل أنواع المطاردات.

بدأ قصف ريوكيو في ١ آذار ثم فورموزا واليابان الغربية في ١٨ آذار، ثم بدأ دك دفاعات ومقاومات أوكيناواً تمهيداً لاحتلالها.. وفي ١ نيسان اقتربت (١٤٠٠) سفينة وأنزلت قوات الاحتلال فيها وخلال (٨٢) يوماً تم كل شيء، وانتهت الجزيرة في ٢١ حزيران، بعد أن فقد الأمريكيون (١٢) ألف قتيل و(٣٥) ألف جريح، وفقد اليابانيون بحدود (١٠٠) ألف بين قتيل وجريح ومفقود واستسلم (٨) آلاف فقط.

أصيبت اليابان باليأس لموقفها الخطر.. ليس في أعين أفراد الشعب المتحمس المتعصب والجاهل أحياناً بحقيقة ما يدور، بل وصل القلق إلى القادة المسؤولين، فمن الزاوية الفنية والصناعية بدأت تنضب الوسائل، والزمن يدركهم أمام عدو فتى يملك كل الإمكانات الفنية والحربية الحديثة. ولم يعد لهم من أمل إلا استخدام الحماسة الوطنية لدى الجيل الصاعد، يطلبون منه تقديم

التضحيات ، لرفع معنويات الأمة وتحسين قدراتها الدفاعية ، وإنزال أكثر الخسائر في جانب العدو ما دام أنه مصر على متابعة الحرب والعدوان .

استخدم القادة اليابانيون الصفات المتأصلة التاريخية في نفوس أبنائهم ، واستغلوا المعتقد الديني الذي يعد بحياة جديدة (التقمص) فأقاموا مؤسسات منهجية تعتبر الانتحار سلاحاً استراتيجياً ، خصوصاً وقد عرف عن اليابانيين تسامٍ في الروح في سبيل المعتقدات .

أ ـــ من تحليل شخصية الرجل الياباني نجده يمتلك صفات يصعب على الغريب فهمها ، وخاصة الرجل الغربي . فبلاده بلاد طبيعية ، عاطفية ، أنانية ، غير مقادة ، يابانه تتذوق الجمال والفن ، وتحبه ، يابان مجنونة وقاسية .

تلك هي اليابان ، وليس صحيحاً ما يشاع عنها ، فنسبة الانتحار قبل عام (١٩٤٠) ليست أعلى من نسبتها في الولايات المتحدة أو ألمانيا .. لكن الانتحار في اليابان انتحار محبة وفداء له أصوله وشعاراته وقوانينه ، يمتزج بالنشوة وبالحبور . ومن تلك الصفات خرجت ألوف بل ملايين من الشبيبة المندفعة بجنون ، يبنون بتضحياتهم المجد الوطني الياباني ، ويضحون بالنفس من أجل بقاء اليابان حراً كريماً . والأمثلة على ذلك كثيرة على هذا الانفعال الوطني تمثلت بانتحارات مختلفة كالهاريكيري ، أو بتر الأعضاء أو تمثيل في الجسم .

ب ـــ ثورة ميجي[٦١] أو (موتسوهيتو) لم تقتل روح دين ساموراي[٦٢] وأصحاب النظريات اليابانية الحديثة وسموه بالبوشيدو[٦٣] ، وهو قانون لم يكتب ، يقيم العواطف ويسمو بها ويجعلها صفات للشاب الياباني تشابه صفات فرسان أوربة في العصور الوسطى . وهو الإستهانة بالخطر وازدراء الموت ، وأمانة مطلقة لوعد أعطي .. وهذه الصفات اليابانية لم تكن وقفاً على الأرستقراطيين بل صفة شاملة لكل أفراد الشعب.ولكل طبقاته .

جـــ الشينتويون[٦٤] (اتباع شينتو طريق الآلهة) يعبدون الآلهة ليس لأنها آلهة فقط بل لأنها التي خلقت وأبدعت . واعتبروا إمبراطورهم عنصراً منحدراً منها ، ومكملاً لعظمة اليابان ، وعليهم حمايته . فبلادهم تؤله نفسها ، والأموات عندهم أكثر حياة من الأحياء يعيشون مادياً وروحياً ، لذلك لا ثمن يذكر للحياة . ففي معابد ايزبه للشينتو ومعابد يوسوكوفو في طوكيو تدور مراسيم لذكرى الأموات في سبيل حماية الوطن وعزه .

فتكتيك اليابان الروحي واضح وجلي وله حظ وافر في النجاح . كيف لا ينجح وبديل حاملة

طائرات أو بارجة أو طراد عدة طائرات انتحارية؟ وعدة أشخاص لا يزيدون عن أصابع اليد الواحدة؟ يغيبون في أعماق اليم آلاف الأطنان من العتاد ويحملون معهم آلاف الرجال وآلاف المقاتلين.. معادلة رهيبة لو قدر لها الاستمرار لأفنت خصمها وأفقرته. وهكذا بدأت المرحلة الجديدة، إذ أجبرت جميع حاملات طائرات التشكيل التعبوي الكبير (٥٨) الأمريكي و(٤) حاملات طائرات بريطانية للتشكيل التعبوي الإنكليزي (٥٧) على دخول ترسانات الإصلاح في هاواي أو أمريكا، بعد أن أصيبت إصابات مباشرة بوساطة المنتحرين الشجعان. ويتم ذلك عن طريق حشو طائرة مهما كان طرازها بالمتفجرات ثم تقلع لتسحق مع قائدها على ظهر السفينة (كاميكاز) ومعناها «العاصفة الآلهية إشارة إلى إعصار عام (١٢٨١)، هذا الإعصار الذي أنقذ اليابان من حشد بحري صيني مونغولي هائل جاء يغزو بلادهم بإمره حفيد جنكيز خان»، أو قنابل صاروخية تدار من قبل طيار تقذفه الطائرات من الجو ويبلغ وزن القنبلة طناً واحداً من المتفجرات لا يمكن تفاديها وأطلق عليها اليابانيون اسم أوكاس، وسماها الأمريكيون باكاس.

لم ينتظر اليابانيون الانقضاض على أوكيناوا ليمارسوا أعمالهم الانتحارية. إذ إن أحد أمراء البحر أعطى المثل الصالح، وكان ذلك في تشرين أول عام (١٩٤٤) حيث استقل طائرة وانقض بها على إحدى السفن، وفجر نفسه، وأشعل النيران عليها، خلال معركة الفيليبين. وكانت نهاية حاملة الطائرات الخافرة سانت لو.

وانتشرت عدوى الانقضاض الانتحاري، فأصيبت الحاملة انتربيد مرتين في ايوشيما، وأغرقت الحاملة بيسمارك سي، ثم أعطبت الحاملة ساراتوغا.

تعرض الأسطول الأمريكي خلال خمسة أسابيع متعاقبة لهجمات ميؤوسة من طائرات انتحارية مختلفة، تحمل اللازم من المحروقات تكفيها للوصول إلى هدفها، يقودها طيارون شبان يرتدون لباساً أبيض (اللون الأبيض هو لون الحداد في اليابان)، ويحملون معهم علبة صغيرة تستخدم في اليابان لوضع رماد رفاة المتوفي بعد حرقه.

لم تغرق الطائرات الانتحارية سفناً كبيرة، لكن حصيلة الخسائر كبيرة بمجموعها. إذا غرقت (٢٥٠) سفينة من مختلف الأنواع حربية وتجارية، وأصابت حاملات الطائرات بنكرهيل وفرنكلين الأمريكتين، وفيتوريوز، انديفايتكابل الإنكليزيتين، و(٢٣٣) سفينة أخرى أعطبت، و(٣٠) سفينة حربية أغرقت وهي تقوم بأعمال الاستطلاع أو الدورية.

جاء رد فعل الأمريكيين سريعاً . إذ أقاموا مظلات جوية دائمة فوق سفن السطح مع إرسال سفن استطلاع بعيدة ، ثم إضافة كبيرة للأسلحة المضادة مع مضاعفة عدد سبطانات المدفع الواحد كمدافع (٤٠) ملم رباعية أو سداسية السبطانات ثم مدافع الـ(١٢٧) ملم ذات الكبسولة المتأثرة ، ثم عملوا على قصف قواعد انطلاق الطائرات الانتحارية وخاصة مطارات كيوسيو فاستطاعوا الحد من هذا السلاح المزعج والمدمر .

هجوم الكاميكاز هيأ لآخر خروج للأسطول الياباني .. فلقد خرجت سفن السطح دون حاملات طائرات ثقيلة ، واكبتها حاملتان خفيفتان فقط ، إذ هذا كل ما تبقى وكان وعليها طائرات ضعيفة المردود لفقدان الطيارين المتمرسين .

أحيطت البارجة ياماتو والطراد الثقيل ياهاغي بمجموعة من سفن الحماية قدرت بـ(٨) نسافات اثنتان منهما حديثتا التعمير فويوزوكي وسوزوكي (٢٧٠٠) طن .

خرج التشكيل الياباني في ٦ نيسان من البحر الداخلي وأمله مفاجأة سفن النقل الأمريكية في ٨ نيسان قرب أوكيناوا ، كشف في ليل ٦ تموز بوساطة غواصة . وفي صبيحة السابع منه فاجأ الطيران الأمريكي المحمول (٤٠٠ طائرة من على ١٠ حاملات) التشكيل الياباني ، فنجت (٤) نسافات واستطاعت اللجوء إلى ميناء ساسيبو وهي مصابة وغُرقت ياماتو فخر البحر اليابانية ولحقتها بعد فترة ياهاغي .

اندثرت عملياً البحرية اليابانية ، وزاد من مآسيها نقص المحروقات ، والتدمير الشامل لمرافئها وترساناتها . فامتنع عليها إصلاح سفنها المعطوبة ، فقبعت في الموانىء عاجزة . وفي تموز (١٩٤٥) قام الطيران الأمريكي وقصفها قصفة الرحمة ، ثم عمل على تدمير الموانىء الهامة في كيري ، يوكوساكا ، وساسيبو .

وباحتلال أوكيناوا التي تبعد (٦٠٠) كم عن كيوسيو أكمل الأمريكيون حصارهم الجوي والبحري على جزر اليابان . وبدؤوا بإعداد جزيرة أوكيناوا لتكون قاعدة تجمع وانطلاق لغزو الجزر اليابانية (الحدث الذي لم يتم) وفي الوقت نفسه أكمل البريطانيون والصينيون حلفاء أمريكا في الهادي انتزاع الانتصارات في برمانيا والصين ، وبدأ الانحسار العسكري الياباني عن تلك المناطق أيضاً .

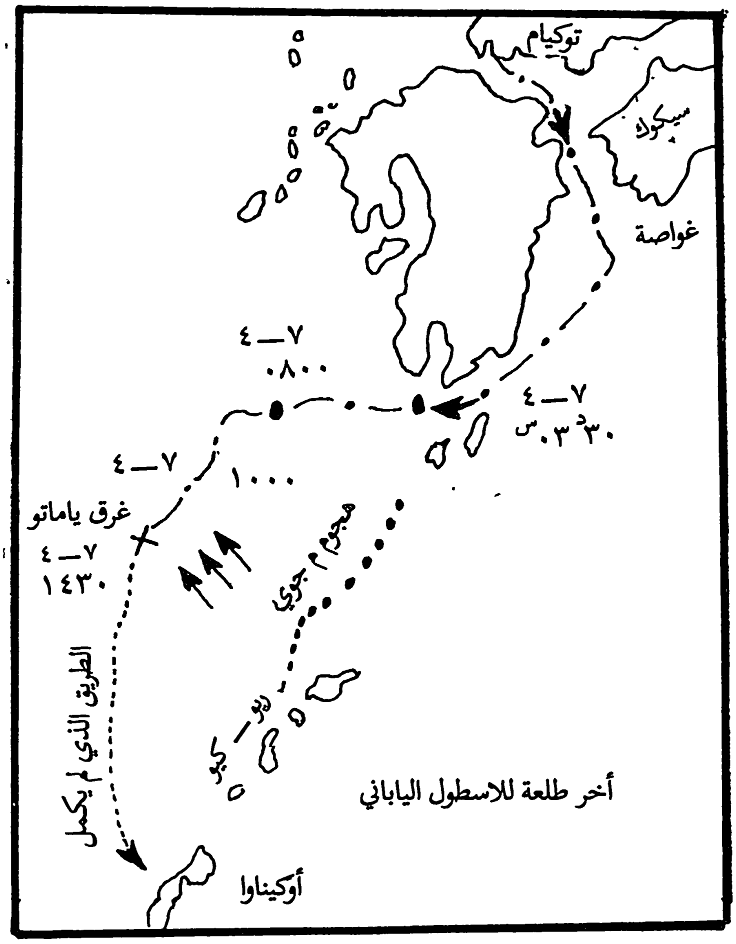

برمانيا

خليج البنغال مرفأ طبيعي واسع يمكنه استيعاب قوات انطلاق كبيرة ضد الإمبراطورية اليابانية، لكن بريطانيا تأخرت في تحريره لنقص في العتاد، وفي الرجال. وفي آذار (١٩٤٢) وصلت حاملات الطائرات اليابانية حتى السواحل الهندية، وقصفت كولومبو وتريكومال، وأغرقت للبريطانيين طرادين ثقيلين وحاملة الطائرات الخفيفة هرمس. عندها وجدت بريطانيا نفسها مضطرة للدفاع عن الهند، وإعادة فتح طريق الصين البري (سكة حديد رانكون ـــ ماندلاي ـــ لاشيو) ثم طريق كومينغ وتشوينكنغ. ولقد تطلب ذلك جهداً جباراً، لكن سرعان ما استعاد اليابانيون تلك المناطق، ووصلوا حتى سفوح جبال هيمالايا الشرقية، وانقطع الاتصال البري مع الصين حتى ربيع عام (١٩٤٥). وهنا لا بد وأن نعدد بعض المراحل الهامة في حملة برمانيا والصين باختصار.

ـ مرحلة عام (١٩٤١ ـ ١٩٤٢) الموسم الجاف

هجوم ياباني خاطف اجتاح مناطق واسعة ، قاومته فرقتان واحدة هندية والثانية بُرمانية معَ أسراب قليلة من الطائرات .

ـ نهاية عام (١٩٤٢) الموسم الماطر (موسون)

محاولة لتجميع القوات الحليفة ، تحضير مسرح العمليات لإقامة المطارات في وادي براهماتور ـ الصين .

ـ الموسم الجاف عام (١٩٤٢ ـ ١٩٤٣)

هجوم إنكليزي في آراكان ، وإخفاق الهجوم ماعدا في أدغال الشينديت ، حيث أصاب البريطانيون فيها بعض النجاح ، واستطاعوا قطع طرق مواصلات اليابانيين ، وكانوا يمونون بالعتاد والرجال جواً .

ـ نهاية عام (١٩٤٣) الموسم الماطر

بدعم أمريكي مكثف استطاع البريطانيون تطوير مطار براهماتور واعداده للمعركة .

ـ الموسم الجاف عام (١٩٤٣ ـ ١٩٤٤)

هزيمة بريطانية أخرى في آراكان نتيجة هجوم ياباني ساحق في ايمباهل وكوهيما .. ولا يتوقف الزحف الياباني إلا بعد تدخل الطيران الحليف بكثافة وينقذ حدود الهند .

ـ الموسم الماطر نهاية عام (١٩٤٤)

عاود اليابانيون تقدمهم واحتلوا طريق « ستيل ويل » .

ـ الموسم الجاف عام (١٩٤٤ ـ ١٩٤٥)

اعتباراً من هذا الموسم بدأ الحلفاء إحراز انتصارات حاسمة ، وبسباق مع الزمن قبل دخول الموسم الماطر واحتلت قوات مونتباتن[٦٥] أكياب في ٣ كانون الثاني ، ثم تقدمت وفتحت طريقَ الصين في ٢٥ منه ، ثم بعدها تتقدم فتحتل ماندلاي في ٢٠ آذار ، ورانغون في ٣ أيار . وفي الموسم الماطر يستعد (٧٥٠) ألف مقاتل للهجوم الكبير نحو ماليزيا وسنغافورة .

الصين

استقرت الصين فترة عندما انصرف اليابانيون يمتدون في جزائر المحيط الهادي بين نهاية عام (١٩٤١) وعام (١٩٤٢)، وبدأوا يعدون العدة لهجوم مضاد مبتدئين ببناء مطارات تستقبل المساعدات الحربية الأمريكية. وفي أيار عام (١٩٤٣) قرر اليابانيون الخلاص نهائياً من شان كاي شيك بالسير نحو تشونكينغ من وادي يانغ تسي. وكادت حملتهم تنجح، إذ وصلت في ٢٥ أيار على بعد (٤٥٠) كيلومتراً من العاصمة الوطنية، لكن تدخل الطيران الأمريكي منعهم من تحقيق غرضهم. فقرر اليابانيون في ربيع عام (١٩٤٤) إقامة ارتباط بري بين بكين وسنغافورة عن طريق هانيكيو تشانغ شا، نانغ والهند الصينية، وبذلك تخفف الضغط البحري عنها. وتم تحقيق الممر المذكور من قبل قوات جاءت من الشمال، فقابلتها قوات من الهند الصينية. وفي نيسان عام (١٩٤٥) أصبحت القلعة الآسيوية محمية، لكن الهزائم المتعاقبة في المحيط الهادي، وخطر زحف الأمريكيين على جزائر اليابان نفسها، وانتصار الإنكليز في ماليزيا، ومقاومة الفرنسيين في الهند الصينية، دفع باليابانيين لتغيير خططهم، والانسحاب من الممر الذي كلفهم غالياً، واتجهوا شمالاً وبقيت قواتهم في الجنوب معزولة.

بقي لليابانيين (٧٠) ألفاً يقاتلون في سومطرة، و(٥٤) ألفاً في جاوه، و(٢٤) ألفاً في برينو، و(٥٩) ألفاً في هالما هيرا (مولوك)، و(٢٠) ألفاً في سيليب، و(١٩) ألفاً في جزائر انسوليند الشرقية، و(٩٧) ألفاً في ماليزيا، و(٢٠٧) آلاف في تايلاند والهند الصينية، و(٧١) ألفاً في برمانيا أي ما مجموعة (٦٢٦) ألفاً طلبت اليابان منهم جميعاً المقاومة بعنف لإيقاف تقدم الحلفاء وإشغالهم.

تمت عدة عمليات جانبية لتنظيف جيوب اليابانيين، قام بها الحلفاء في جزر الفيليبين، وبورنيو أيار (١٩٤٥). وقد أغدق على القوات هناك وسائل ترفيهية مختلفة نظراً لصعوبة القتال الناجم عن البيئة الخشنة، وعن الظروف الجوية السيئة. وعندما استسلمت اليابان كانت لا تزال هناك عمليات ناشطة، بعضها يعد كتحضير تحرير ماليزيا، ففي مطلع شهر أيار قام الأسطول الحليف بضرب جزر نيكوبار، سابانغ، والزاوية الشمالية الغربية لجزيرة سومطرة، كما خطط لاحتلال شبه جزيرة سنغافورة في تشرين الأول (١٩٤٥).

غزو اليابان ٢١ حزيران ــ ١٤ آب عام (١٩٤٥)

جاءت الهجمات الجوية الأخيرة على الجزائر اليابانية حاسمة، وأكثر فعالية من العمليات

البرمائية التي جرت في الجزائر والارخبيلات البعيدة، وحتى ألقيت القنبلة الذرية الأولى في ٦ آب عام (١٩٤٥) وكانت النهاية.

ففي ١٠ أيار، وبعد عمليات شل وتدمير مطارات انطلاق الطائرات الانتحارية في كيورسيو استأنف الأمريكيون برنامج قصف التجمعات السكانية اليابانية في طوكيو وكوب واوساكا.. ولقد منح احتلال جزيرة أوكيناوا الهجمات الجوية الأمريكية زخماً جديداً تم من خلالها ضرب جزر اليابان ضرباً مبرحاً منهجياً، وسمح للأسطول الخامس والمالك لـ (٢٠٠٠) طائرة ب ـــ ٢٤ و ب ـــ ٢٩ ودوميناتور ب ـــ ٣٢، والقاذفة المتوسطة موسكيتو ميتشلة تحميها مطاردات موستانغ وتندمبولت، وتعززها الطائرات المحمولة على الحاملات الأمريكية التابعة للتشكيل التعبوي الكبير في المحيط الهادي، من تنظيم هجمات جوية كثيفة يومية، وبأعداد مخيفة، تناولت المطارات اليابانية ومصافي البترول والموانىء والمعامل والتجمعات الصناعية والسكينة، لا يقاومها إلا طيران مطارد هزيل حرم الكثير من قواعده وافتقر للمحروقات والذخائر.

في ١٤ تموز قام الأسطول الثالث الأمريكي بعد أن تعرض لأعصار هائل في ٥ حزيران فاستعاد نشاطه، وتقدم ببوارجه الحديثة وحاملات طائراته الجبارة بقصف من البحر الموانىء اليابانية. وفي ١٧ و ١٨ تموز بالاشتراك والتنسيق مع الأسطول الانكليزي قصف المناطق المجاورة لطوكيو قصفاً مبرحاً مدمراً، وضرب كوري في ١٩ ويوكوسوكا في ٢٤ و ٢٥ و ٢٨، وقصف ساسيبو في ٣١ من الشهر.

لقيت بقايا الأسطول الياباني القابعة في الموانىء خسائرها الأخيرة في الحرب، إذ غرقت وأعطبت كل من البوارج: هارونا، ايز، هيوغا، وحاملات الطائرات جويو، اماغي، والطرادات الثقيلة تون واويا. وفي نهاية تموز لم يبق للبحرية اليابانية إلا البارجة الوحيدة ناغاتو، وقد أعطبت في ميناء يوكوساكو، وعدة سفن انتحارية تتضمن (٢٠٠ غواصة قزمة (صغيرة جداً)، ٤٠٠ طوربيد بشري و ٦٠٠٠ زورق انتحاري من أنواع مختلفة) جمعت هذه الوحدات بانتظار نزول الحلفاء على البر الياباني لصد هجومهم.

بلغ أسطول اليابان خلال عام (١٩٤١)، (٣٨١) سفينة حربية كبيرة بوزن (١ر٢٧٠) ألف طن عزز بحدود مليون طن آخر تعمير خلال الحرب. وخسر اليابانيون منها (٥٤٩) سفينة بوزن (١ر٧٤٤) ألف طن.

وبالنسبة للطيران الياباني فقد أصيب في الصميم، وخسائره كانت فادحة في الرجال والمعدات والمؤسسات، ومصانع البناء وموارد المحروقات. فقد امتلك اليابانيون خلال الحرب (٦٥٣٠٠) طائرة فقدوا منها (٥٠٠٠٠)، وبقي لديهم بحدود الـ(١٥) ألف جهزت جميعها لتكون انتحارية تنتظر يوم الحسم للدفاع عن أرض اليابان .. لكنها مع ذلك فقيرة بالمحروقات (المادة التي عزّت كثيراً في نهاية الحرب على اليابانيين).

ظل جيش اليابان البري قوياً محتفظاً بعظمته. ففي جزر اليابان وحدها (٣) ملايين مقاتل مستعدون جميعاً للموت في سبيل حماية اليابان، وإمبراطور اليابان. لكن الحكومة اليابانية آنذاك ترى رأياً مخالفاً، فهي تشعر أن حربها مع الحلفاء قد انتهت، والهزيمة قريبة الوقوع. فمن الأوساط البحرية التي عرفت بتحفظها دخول مغامرة الحرب على نطاقها الواسع اختار الميكادو وزراءه (وزارة سوزوكي) وكان هم هذه الوزارة الجديدة تفادي احتلال بلادهم، أو المساس بهيبة الإمبراطور الدينية. لكنهم مع ذلك لم يظهروا أي ضعف أو تبدل في المواقف الثابتة، بل على العكس وجهوا إنذاراً للحلفاء رداً على دعوة استسلام نقلها لهم الماريشال ستالين، بعد مؤتمر بوتسدام في ١١ تموز، يصممون فيها على القتال عشرات السنين. ولم يحسم الموقف إلا النتيجة المرعبة اللاإنسانية وغير المتوقعة التي أحدثتها القنابل الذرية على هيروشيما وناغازاكي.

اضطرت اليابان للاستسلام وكانت روسيا قد أعلنت الحرب عليها في ٨ آب، وبدأت باجتياح منشوريا .. وفي ١٤ آب قبل الإنذار الحليف، ووقعت صك الاستسلام في ٢ أيلول وعلى البارجة ميسوري.

أتى انهيار اليابان بأثار بعيدة منها آثار عامة نابعة عن صفات الشعب الياباني نفسه، وهو المتعلق بتراث تاريخي لا يستطيع تفسيره بأفكار واضحة، وهو شعب يفتقر للحس الشمولي والمنطق العقلاني، خلافاً لباقي الشعوب. وهو يقدم للتاريخ صوراً عن صفات توحي بضيق في التفكير، وحضارة صلبة قاسية غير منتمية وضمت ضمن الشعارات العديدة التي أطلقها كـ:

وزارة آسيا الكبرى .. كرة الازدهار والرقي .. التنظيم الآسيوي المتجدد .. جمع تحت سقف واحد زوايا العالم الثماني ... إلخ.

فياباني الحرب العالمية الثانية يدرك الأمور من زواياها التجارية، أو من توجيه عسكري بحت، وإدراكه يتصف بالاعتزاز حتى درجة جنون العظمة أحياناً. هذا الوصف للنضج الثقافي الذي

أحاط بالشعب الياباني يعود للعزلة المطبقة التي ورثها عن أجداده ، ولم يتخل عنها إلا قبل عشرات السنين فقط من اشتعال الحرب . فلم يمنحه الزمن الوقت الكافي لإعادة تنظيم أفكاره ، لتلحق بالقيم التقليدية العالمية ، وتنسجم داخل الأطر المتطورة الحديثة . وهذا ما يفسر تخلف اليابانيين عن إقامة الصلات العامة في المجالات الدولية ومؤسساتها .. حتى إن تصرفاتهم أحياناً غريبة كل الغرابة حيال الشعوب الأخرى والغربية منها خاصة ..

فالياباني يتصف بتغيرات مفاجئة تقفز بين الشك والثقة ، والاعجاب والكره ، محبة الغريب أو عدائه ، .. وهذا يفسر أيضاً التفاؤل الكبير والساذج الذي دفع باليابانيين لدخولهم المغامرة الكبرى ، بفكر خاطىء عن الحرب . فكان نصرهم في البداية باهراً ثم انهيارهم في النهاية شنيعاً .

جاء انهيار اليابان السريع نتيجة حتمية للانهيار الاقتصادي ، فالهبوط في انتاج الحديد والفحم والمواد الأولية ، وانقطاع وصولها إلى اليابان ، بعد أن قطعت كل خطوط المواصلات البحرية جعل الانتاج الحربي يتراجع ، وخاصة في مجال انتاج الطيران والسفن . ولهذا التراجع في الإنتاج أسباب أخرى اقتصادية يجدر ذكر بعضها :

١ ـــ عدم كفاية عند بدء العمليات .
٢ ـــ تراخ في الإنتاج بعد الانتصارات الأولى .
٣ ـــ فوضى في الخدمات وتنظيم مفكك لا مركزي .
٤ ـــ القصف المروع عام ١٩٤٥ .
٥ ـــ وأخيراً وهذا رأي الكثيرين من النقاد .. دمار الأسطول التجاري الياباني ، وتوقف مواصلاته . ويجدر بنا إعطاء فكرة سريعة عن مراحل هذا الأسطول خلال الحرب ..

أسطول اليابان التجاري أسطول فتي ، حاز على كل الصفات الفنية الحديثة ، متكامل البنية ، وصلت أوزانه إلى (٦) ملايين طن لأعالي البحار (بقي لليابانيين في نهاية الحرب ٥٥٦ ألف طن فقط) ، ثم أضافوا لبحريتهم التجارية خلال الحرب أكثر من (٣) ملايين طن بين تعمير جديد أو سفن مصادرة من البلدان التي هزمتها . لكن جهود بناء السفن سرعان ما انخفض نظراً لنقص المواد الأولية في البلاد ، ولإقامة الحصار الاقتصادي على اليابان ، ومنع الحديد والفحم من الوصول إليها . وسرعان ما انعكست على تطور الأسطول التجاري وبالتالي على مجالات أخرى مرتبطة به هي :

المجال العسكري

ــ غرق العديد من الجنود على السفن الناقلة .

ــ خسارة كبيرة في سفن الشحن وصلت حتى ٥٠٪ ثم أكثرها في خطوط مواصلات بحار الجنوب ؛ أي في المحيط الهادي والفيليبين وأوكيناوا . ومعنى ذلك قصور في عمليات الإمداد والتموين الحربيين . وحين تغرق السفن تحمل معها آلاف الأطنان من العتاد الحربي إلى بطن المحيط . وقد أدى ذلك إلى نقص هائل في مادتي الذخائر والمحروقات .

المجال الاقتصادي

بمجرد تناقص ثم انعدام المخزون الذي كان في الأصل ضعيفاً حدث شلل واسع في عمليات الإنتاج نتيجة هبوط حاد في استيراد المواد الأولية ، وبالتالي هبوط مماثل في الإنتاج الحربي .

والساموريون لا يستطيعون كسب الحرب وقواعدهم الاقتصادية والحربية هشة ، وقادتهم يدركون بالفعل الفارق الثقلي الكبير بينهم وبين أعداء لهم ...

فعدنما سئل الأميرال الياباني يوناي ، متى خسرنا الحرب ؟

أجاب : في اليوم الذي دخلناها ..

عانت اليابان من هذه الحرب الكثير :

ــ خطوط مواصلات بحرية شاسعة البعد باهظة الكلفة .

ــ ارتباط بعيد بين مسارح عمليات منتشرة في نصف الكرة الأرضية .

ــ البلاد التي سيطروا عليها إبان السنوات الأولى من الحرب بلاد غنية بالموارد والمحروقات ، لكنها هشة الارتباط ، سرعان ما أفلتت من أيديهم .

ــ القصف الجوي بقاذفات الـ ب ــ ٢٩ أنهى كل أمل اقتصادي ثم جاءت القنبلة الذرية فأنهت كل أمل معنوي .

حواشي الباب الثالث

٢٨ ـــ دونيتز كارل Doenitz

(١٨٩١) أميرال ألماني استلم الرايخ بعد هتلر لفترة صغيرة، كان وراء حرب الغواصات في الحرب العالمية الثانية، واستلم قائداً أعلى للقوات البحرية من عام (١٩٤٣ ـــ ١٩٤٥). قاد غواصة في الحرب الأولى. أسر من قبل الإنكليز عام (١٩١٨) عند مهاجمته لقافلة قرب صقلية، ثم أفرج عنه بعد الحرب (١٩١٩). وحكمت عليه محكمة نورمبوغ بـ(١٠) سنوات كمجرم حرب. وخلال هذه الفترة كتب مذكراته.. أفرج عنه عام (١٩٥٦).

٢٩ ـــ ريدر ايريك Raeder

(١٨٧٦ ـــ ١٩٦٠) أميرال ألماني برز في معركة جوتلاند في الحرب الأولى عام (١٩١٦)، عين قائداً عاماً للبحرية عام (١٩٣٥)، ثم الأميرال الكبير للرايخ الكبير.. عارض غزو إنكلترا عام (١٩٤٠)، وحصر النشاط البحري باستخدام الغواصات فقط، وكان ذلك سبب تخليد لدونيتز.. حكم عليه في محكمة نورمبرغ (١٩٤٦) مدى الحياة وأفرج عنه عام (١٩٥٥). له مذكراته بكتاب حياتي (١٩٥٦).

٣٠ ـــ روزفلت فرانكلين ديلانو Roosevelt

(١٨٨٢ ـــ ١٩٤٥) سياسي أمريكي ابن عم تيودور روزفلت رئيس الجمهورية السابق (١٩٠٤) أصيب بشلل الأطفال عام (١٩٢١) حاكم ديمقراطي لنيويورك، رئيساً للجمهورية عام (١٩٣٢) جاء

بإصلاحات اقتصادية هامة أعيد انتخابه (١٩٣٦) وللمرة الثالثة (١٩٤٠) خلافاً لكل عرف، دخل الحرب إلى جانب الحلفاء وانتخب للمرة الرابعة (١٩٤٤).

٣١ ــ دارلان فرانسوا Darlan

(١٨٨١ ــ ١٩٤٢) أميرال وسياسي فرنسي قاد أسطول الأطلسي (١٩٣٤ ــ ١٩٣٦)، ثم أصبح أميرال الأسطول عام (١٩٣٩) وقائداً أعلى للبحرية، ثم وزيراً للبحرية في حكومة بيتان، ثم اغتيل في الجزائر ٢٤ كانون الأول (١٩٤٢).

٣٢ ــ جانسول مارسيل برونو Gensoul

أميرال فرنسي ولد في مونبيليه (١٨٨٠) قاد الأسطول الفرنسي في مرسى الكبير إبان الحرب العالمية الثانية عندما هاجمة البريطانيون عام (١٩٤٠).

٣٣ ــ ديغول شارل De Gaulle

رجل دولة فرنسي ولد في ليل (١٨٩٠) تخرج من سان سير (١٩١٢) ضابطاً واشترك في الحرب العالمية الأولى، وجرح وأسر. أصبح مدرساً لمادة التاريخ العسكري في كلية سان سير، ثم دخل وزارة الماريشال بيتان، وعين قائداً للفرقة الرابعة المدرعة، وأوقف زحف الألمان على فرنسا إلى حين، ثم ذهب إلى لندن بعد اجتياح بلاده ونادى بمواصلة القتال.. ثم دخل باريس بعد تحريرها وأصبح رئيساً للجمهورية حتى (١٩٥٣) حيث انسحب من الحياة السياسية ثم عاد عام (١٩٥٨) إلى الرئاسة من جديد.. كتبت مذكراته عام (١٩٥٩) وله عدة مؤلفات منها La discorde chez L'ennemi (1924)

. Le fil de L'épée (1932). La France et son armée 1938, Vers l'armée de métier (1934)

٣٤ ــ رونشتد جيردفون Rundstedt

(١٨٧٥ ــ ١٩٥٣) ماريشال ألماني شارك في الحرب العالمية الأولى وساند انقلاب فون بابن (١٩٣٢)، لم يألف النظام النازي، وبقي بعيداً حتى استدعاه هتلر في الحرب العالمية الثانية، فقاد الجيوش إلى بولونيا وفرنسا وروسيا، ثم أصبح قائداً عاماً للجبهة الغربية عام (١٩٤٢)، لكن إخفاقه في النورماندي (١٩٤٤) جعل هتلر يقتله، وعين الماريشال كليوغ Kluge مكانه لكنه كلف بإعداد الهجوم المضاد للآردين أسره الإنكليز وأفرجوا عنه عام (١٩٤٩).

٣٥ ــ بوك فيدورفون Bock

(١٨٨٠ ــ ١٩٤٥) ماريشال ألماني، قائد قوات اجتياح النمسا (١٩٣٨) وقائد لمجموعة جيوش في بولونيا (١٩٣٩) وفي فرنسا وفي روسيا (١٩٤١) أخفق في معركة موسكـو، فاستدعـي عام (١٩٤٢) ليكلف بالدفاع عن القوقاز وعزل في العام نفسه.

٣٦ ــ غرازياني رودولفو Graziani

(١٨٨٢ ــ ١٩٥٥) ماركيز دونيفيلي ماريشال إيطالي قائد جبهة الصومال في حملة الحبشة (١٩٣٦)، وقائد عام في ليبيا (١٩٤٠)، وأصبح وزيراً للحربية لموسوليني (١٩٤٣) حكم عليه (١٩٤٥) ثم أفرج عنه عام (١٩٥٠).

٣٧ ــ رومل اروين Rommel

(١٨٩١ ــ ١٩٤٤) ماريشال ألماني.. بعد أن ترك الحياة العسكرية بعد الحرب العالمية الأولى انتسب إلى جامعة توبنجن يتابع دراسته، ثم انتسب للحزب النازي، ثم عاد إلى الجيش عندما استلم هتلر عام (١٩٣٣)، فقلده قيادة أركانه (١٩٣٩)؛ ثم فرقة مدرعة عند اجتياح فرنسا، ثم قائداً لجيش إفريقية (١٩٤١ حتى ١٩٤٣)، وهدد مصر دافعاً بالبريطانيين حتى العلمين، ثم استدعي لقياده الجبهة الغربية جرح في النورماندي (١٩٤٤)، وانسحب إلى بافاريا واشترك في محاولة إبعاد هتلر فأوقف وانتحر بناء على أمر الفوهرر كتب مذكراته ونشرت عام (١٩٥٣).

٣٨ ــ كاترو جورج Catroux

(١٨٧٧ ــ ١٩٥٦) جنرال فرنسي حاكم للهند الصينية، ثم انضم لديغول حيث سماه الكومسيير الأعلى للشرق، عمل في سورية وفي الجزائر ثم عين سفيراً في الاتحاد السوفييتي (١٩٤٥ ــ ١٩٤٨) ثم وزيراً للجزائر في وزارة موليه.

٣٩ ــ توجو هيديكي Tôjô

(١٨٨٤ ــ ١٩٤٨) جنرال ياباني وزير للحربية (١٩٤٠) رئيس للوزراء (١٩٤١) وله يرجع

قرار الهجوم على بيرل هاربور. استقال عام (١٩٤٤) حكم عليه بالإعدام من قبل الأمريكيين كمجرم حرب واعدم.

٤٠ ـ ياماموتو ايزوروكو Yamamoto

(١٨٨٤ ـ ١٩٤٣) أميرال ياباني حارب على الجبهة الروسية عام (١٩٠٥) اشترك بمؤتمرات لوندرة البحرية ثم عين عام (١٩٣٩) قائداً عاماً للقوات البحرية أعد هجوم بيرل هاربور وقاده، ثم عمل في كثير من معارك المحيط الهادي وقتل في إحداها بعد أن أسقطت طائرته.

٤١ ـ ماريشال جورج كاتليث Marshall

(١٨٨٠ ـ ١٩٥٩) جنرال وسياسي أمريكي حارب في الفيليبين وفي فرنسا خلال الحرب الأولى، ثم في الصين ورأس الأركان العامة للقوات الأمريكية، خلال الحرب الثانية، أحيل على التقاعد عام (١٩٤٥)، وأصبح سفيراً لأمريكا عند تشانغ كاي شك، ثم سكرتير دولة، وأعطي اسمه لمشروع المعونة الأمريكية، وحصل على جائزة نوبل للسلام (١٩٥٣).

٤٢ ـ مونتغمري برناردلو Montgomery

ماريشال بريطاني ولد عام (١٨٨٧) جرح مرتين في الحرب الأولى وحارب في فرنسا واستطاع العودة من دونكرك، قاد الجيش الثامن في مصر وهزم رومل عام (١٩٤٣) في العلمين، شارك في حملة صقلية وإيطاليا وحرر شمال فرنسا وبلجيكا عام (١٩٤٤) وحكم المنطقة الألمانية الخاضعة لبريطانيا وأصبح رئيس أركان القوات الإنكليزية عام (١٩٤٦) ثم معاون قائد عام قوات حلف الأطلسي (٥١ ـ ٥٨) وكتب مذكراته.

٤٣ ـ ايزنهاور دوايت داوود Eisenhower

جنرال وسياسي أمريكي قائد عام للقوات الحليفة في شمال إفريقية (١٩٤٣) قاد حملة تونس وإنزال صقلية وإيطاليا وقائد عام لقوات تحرير أوربة واستسلمت ألمانيا له انتخب رئيساً للمجهورية عام (١٩٥٣) وأعيد انتخابه عام (١٩٥٦) وكتب مذكراته.

٤٤ ـ كيسيلرنغ البيرت Kesserling

(١٨٨٥ ـ ١٩٦٠) ماريشال مدفعي ألماني انتقل لسلاح الطيران خلال الحرب الأولى، وقاد

أسطولاً جوياً في بولونيا عام (١٩٣٩) ثم في فرنسا (١٩٤٠) وحارب في روسيا، قاد جبهة صقلية، وقوات ألمانيا في إيطاليا (١٩٤٣ ــ ١٩٤٤) وخلف رونشتد في الجبهة الغربية، أسر وحكم عليه بالموت (١٩٤٦)، ثم أخلي سبيله (١٩٥٤). كتب مذكراته في كتابين (عسكري حتى آخر يوم ١٩٥٣)، ثم أفكار حول الحرب العالمية الثانية (١٩٥٥).

٤٥ ــ غوبلز جوزيف بول Goebbels

(١٨٩٧ ــ ١٩٤٥) سياسي ألماني نازي رأس عام (١٩٣٣) وزارة الدعاية والأنباء، أخلص لهتلر حتى النهاية حيث كان خليفته في وصيته وانتحر هو وعائلته بالسم قبل سقوط برلين.

٤٦ ــ لومونييه أندريه Lemmonier

(١٨٩٦ ــ ١٩٦٣) أميرال فرنسي رئيس أركان حرب القوات البحرية الفرنسية (١٩٤٣ ــ ١٩٥٠)، رأس أسطول فرنسا الحرة إلى جانب الحلفاء، ثم أخيراً شغل وظيفة معاون قائد عام قوات الأطلسي في أوربة (١٩٥١ ــ ١٩٥٦).

٤٧ ــ مكارثر دو غلاس Mac Arther

(١٨٨٠ ــ ١٩٦٤) جنرال وسياسي أمريكي خدم في اليابان (١٩٠٦)، وفي الجبهة الفرنسية في الحرب العالمية الأولى، جرح مرتين، رأس الكلية الحربية الأمريكية (١٩١٩)، ورئيس أركان الجيش (١٩٣٠). ترك الخدمة (١٩٣٥)، وأصبح مستشاراً عسكرياً في الفيليبين، قاد القوات الأمريكية في المحيط الهادي (١٩٤٣) ثم كل القوات الحليفة (١٩٤٥) وأحرز النصر، ثم قائداً للقوات الحليفة في كوريا. لكن عنفه دفع بترومان لاستبداله بريد جواي (١٩٥١).

٤٨ ــ نيميتز شستر ويليام Nimitz

أميرال أمريكي ولد عام (١٨٨٥) رئيس أركان سلاح الغواصات الأمريكي في الحرب العالمية الأولى، قاد القوات البحرية والجوية في المحيط الهادي، ولجميع قوات الحلفاء (١٩٤٢ ــ ١٩٤٥). انتصر على الأسطول الياباني ووقع مع مكارثر صك استسلام اليابان. أصبح رئيساً لأركان البحرية (١٩٤٥ ــ ١٩٤٧).

٤٩ ــ تشرشل سيرونيستون ليونارد سبنسر Churchill

(١٨٧٤) رجل سياسي بريطاني، نائب عن المحافظين عام (١٩٠٠)، انحاز نحو الأحرار وصادق لويد جورج، واستلم وزارة التجارة (١٩٠٨ ــ ١٩١٠) والداخلية (١٩١٠ ــ ١٩١١) ولورد أول للاميرالية (١٩١١). أخفق في حمتله على الدردنيل.. عين وزيراً للذخيرة (١٩١٧) ووزيراً للحرب والجو (١٩١٨) عاد (١٩٢٤) إلى حزب المحافظين، واستلم الوزارة من تشميرلن (١٩٤٠) وأظهر حماسة كبيرة في إسقاط ألمانيا الهتلرية، وقع حلف الأطلسي مع روزفلت وقاد معركة بلاده حتى النصر عام (١٩٤٥). انسحب بعد نجاح حزب العمال، وعاد عام (١٩٥١) مع حزبه لرئاسة الوزارة واستقال عام (١٩٥٥) لأسباب صحية له عدة مؤلفات منها:

ــ الأزمات العالمية The world Crisus 1929

مارلبورو Marborough 1938

ذكريات الحرب War memoris 1954

حصل على جائزة نوبل للسلام عام (١٩٥٣).

٥٠ ــ مولوتوف فياتشيسلاف ميكاليوفيتش Molotov

سياسي روسي (١٨٩٠) عضو في القيادة المركزية، وزير للخارجية ونائب أول للرئيس عام (١٩٤١ ــ ١٩٤٦) صديق للستالينية عدو للخروشوفية.

٥١ ــ ايدن انطوني Eden

سياسي بريطاني من المحافظين شغل مركز وزير للخارجية عدة مرات، ورئيساً للوزارة (١٩٥٥). واستقال عام (١٩٥٧) على أثر حملة السويس على مصر.

٥٢ ــ فوروشيلوف كليمانت ايفريموفيتش Vorochilov

(١٨٨١) ماريشال سوفييتي قائد للحرس الأحمر (١٩١٩) اشترك في الحرب البولونية قائداً للجبهة الشمالية (١٩٤١) وأدار الدفاع عن لينغراد، وسلمه الماريشال ستالين تنظيم الوحدات الكبرى لاحتياطي الجيش الأحمر ونائب رئيس مجلس الوزراء.

٥٣ ــ ستالين جوزيف

(١٨٧٩ ــ ١٩٥٣) سياسي روسي نفي لسيبيريا لآرائه الاشتراكية (١٩٠٢) فر عام (١٩٠٤) وانضم للبولشفيك وانضم إلى لينين في فنلندا واعتقل ثانية بين (١٩٠٨ ــ ١٩١١)، وأصبح عضواً في القيادة المركزية للحزب وسمي بالرجل الحديدي، واعتقل مرة أخرى (١٩١٣) حتى الثورة (١٩١٧) وسمي سكرتيراً عاماً للحزب عام (١٩٢٢). أقام الترويكا مع زينوفييف وكامينيف ضد تروتسكي، استلم بعد موت لينين وصفى جميع خصومه وضم إلى بلاده شرق بولونيا وبعض أراضي فنلندا ورومانيا عام (١٩٤٠) وأصبح ماريشال الاتحاد السوفييتي وربح الحرب.

٥٤ ــ بوفور Beaufort

سلم اقترحه الأميرال بوقور عام (١٨٠٦) استخدم في علم الأرصاد الجوية لقياس سرعة الريح وحالة البحر، ويبدأ من ٠٠ إلى ١٢ أي من ريح ساكن وحتى الإعصار. وكل درجة منه تعادل تقريباً (٨) كيلومتر/ساعة. فمثلاً ريح قوة (٥) بوفور يعادل حتى (٣٨) كيلومتر ساعة وريح قوة (١٠) بوفور (١٠٠) كم/ساعة.

٥٥ ــ باتون جورج سميث Patton

(١٨٨٥ ــ ١٩٤٥) جنرال أمريكي متخصص في سلاح المدرعات قاد عام (١٩٤٢) فرقة مدرعة، ونزل في المغرب، وتقدم في تونس، ثم قاتل في صقلية وفرنسا، وقاد الجيش الثالث الأمريكي، ووصل حتى براغ. قتل في حادث سيارة.

٥٦ ــ دولاتر دوتاسيني جان De Lattre de Tassigny

(١٨٨٩ ــ ١٩٥٢) ماريشال فرنسا تخرج من سان سير في سلاح الخيالة حارب في الحرب الأولى ثم خدم في المغرب (١٩٢٦)، قاد الفرقة ١٤ في ايزن (١٩٤٠) قبض عليه وحوكم خلال الاحتلال الألماني، لكنه استطاع الفرار، وسافر إلى الجزائر (١٩٤٣)، وقاد عام (١٩٤٤) الجيش الأول الفرنسي من سان تروبيز حتى نهر الراين والدانوب، ووقع في برلين باسم فرنسا صك استسلام الجيوش الألمانية (١٩٤٥). عين في الهند الصينية حاكماً عاماً وقائد أعلى.. مات بعد مرض طويل نشرت مذكراته عام (١٩٤٩) تحت عنوان «قصة الجيش الأول الفرنسي».

. . . . .

٥٧ ــ باتش اليكسندر ماكاريل Patch

(١٨٨٩ ــ ١٩٤٥) جنرال أمريكي دافع (١٩٤٢) عن كاليدونيا الجديدة ووادي القتال (١٩٤٣) قاد في عام (١٩٤٤) الجيش السابع الأمريكي في عملية الإنزال ببروفانس ووصل إلى الرين ملتقياً القوات الحليفة هناك بعد أن اجتاح بافاريا.

٥٨ ــ تويودا سويمو Toyoda

(١٨٨٥ ــ ١٩٥٧) أميرال ياباني رئيس مكتب تخطيط العمليات في أركان حرب البحرية الإمبراطورية. قاد أسطول القتال (١٩٤٤)، ثم قاد المجموعات البحرية عام (١٩٤٥) سجن كأسير حرب (١٩٤٥ ــ ١٩٤٨).

٥٩ ــ أوزاوا جيزابورو Ozawa

(١٨٨٦) أميرال ياباني شارك في احتلال اندنوسيا (١٩٤١)، قاد أسطول اليابان في معارك جزر ماريان، وحاملات الطائرات في معارك جزيرة لاييت، ثم أصبح (١٩٤٥) قائداً عاماً للقوات البحرية اليابانية.

٦٠ ــ سبريانس رايموند Spruance

(١٨٨٦) أميرال أمريكي ربح معركة ميدواي (١٩٤٢) وهو على رأس مجموعة الطرادات، قاد الهجوم الأمريكي على جزر جيلبرت وماريشال، واحتل أوكيناوا عام (١٩٤٥)، ثم أصبح قائداً عاماً لأسطول المحيط الهادي.

٦١ ــ ميجي Meiji

كلمة يابانية تعني (عصر الحكمة) وميجي أو موتسوهيتو وهو عصر غطى حكم الإمبراطور ميجي تينو، وخلاله أصبحت اليابان دولة قوية عصرية.

٦٢ ــ الساموراي Samurai

المحارب الياباني في خدمة الإمبراطور.

٦٣ ـ بوشيدو Bushido

قانون وقواعد شرف عسكري السامورية.

٦٤ ـ الشينتو Shinto

(طريق الآلهة) الدين الوطني لليابان (طريق الآلهة)، أقدم الأديان اليابانية، والآلهة فيه تتمثل بالأشياء كالشمس، والعاصفة ويعتقد بأن الإمبراطور منحدر من الآلهة.

٦٥ ـ مونتباتن لويس Mountbatten

(١٩٠٠) أميرال بريطاني قاد في الحرب العالمية الثانية حاملة الطائرات اليستربوز (١٩٤١)، ثم قائد العمليات المشتركة (١٩٤٢ ـ ١٩٤٣) ثم قائداً لقوات الحلفاء في جنوب شرقي آسيا (١٩٤٣)، ثم آخر نائب ملك في الهند أميرال الأسطول عام (١٩٥٦). ورأس هيئات أركان القوات البريطانية عام (١٩٥٨) (قتل اغتيالاً بقنبلة احداث ايرلندة).

ثبت بأهم الأسماء والأماكن*

(*) مثبتة حسب تسلسلها في الفصول والأبواب.

الباب الأول

الفصل الأول

فون مانتي	Von Mantey	مؤرخ ألماني تخصص في التاريخ البحري.
البارجة	Batiment de ligne	أكبر السفن الحربية وأقواها تصفيحاً وتسليحاً، تطورت وأصبحت دارعة، وهي تقريباً بالمواصفات نفسها وكانت تسمى في القديم «عماره» (بين ٢٥ و ٣٠ ألف طن).
الدراعة	Cuirassé	البارجة كالدارعة مصفحة بقوة ومسلحة تسليحاً جيداً، كثيراً ما يطلق بالعربية اسم الدارعة بدلاً عن البارجة والعكس. يصل وزن الدارعة حتى (٦٠) ألف طن.
الطراد	Croiseur	مركب حربي سريع الحركة مسلح، منه الثقيل يبلغ حتى (١٦) ألف طن، والخفيف حتى (٧) آلاف طن. سلاحه الأساسي المدفع، والطوربيد، وحالياً الصواريخ بأنواعها.
المدمرة	Destroyer	تسمية إنكليزية لطراد خفيف، سريع الحركة يستخدم في مهمات الحراسة والمواكبة للسفن الكبيرة أو القوافل
الخافرة	Escorteur	أصبح اسمها بعد الحرب العالمية الثانية خافرة (حتى ٣ آلاف طن).
فرقاطة	Fregate	سفينة حربية خفيفة، يصل وزنها حتى (٢٥٠٠) طن، خافرة وسفينة مضادة للغواصات.
نسافة أو قاذفة طوربيد	Torpilleur ou Contre-torpilleur	سفن حربية خفيفة، سلاحها الرئيسي الطوربيد بالإضافة إلى المدفعية وهي أسرع السفن الحربية.

غواصة	Sous-marin	سفينة حربية تعمل فوق وتحت الماء منها الصغيرة جداً كغواصات الجيب، ومنها الكبيرة تصل إلى (٣) آلاف طن. سلاحها الرئيسي الطوربيد، والصواريخ..
ممر كاليه	Pas de Calais	ممر بحري بين الجزر البريطانية والبر الأوربي عند كاليه بفرنسا وهو أضيق مسافة بين البرين وهذا الممر يوصل بحر الشمال ببحر المانش.
جوتلاند	Jutland	اسم ألماني لـ جيلاند Jylland وهو الامتداد البري الدانمركي في بحر الشمال (شبه جزيرة جويلاند).
بيلتز	Beltz	ممر ضيق في الدانمرك يفصل بين بحر البلطيق والكاتيفان بطول (٦٠) كم وعرض (٣٠) كم، وهو الممر الكبير، أما الممر الصغير فهو الأكثر إلى الغرب وبطول (٦٥) كم وعرض بين (٦٠٠) متر و(١٤) كم.
قناة كييل	Kiel	قناة تقطع جنوب شبه جزيرة جويلاند وتربط بحر البلطيق ببحر الشمال.
غوبن	Gocben	طراد ثقيل، (ألماني)، وزنه (٢٣) ألف طن، تسليحه (١٠) مدافع عيار (٢٨٠) ملم و(١٢) مدفعاً عيار (١٥٢) ملم، سرعته ٢٧٫٥ عقدة بحرية.
بريسلو	Breslau	طراد خفيف، (٤٥٥٠) طناً، سرعة (٢٧) عقدة، (١٢) مدفعاً عيار (١٠٥) ملم، (ألماني).
بونه ،	Bône ،	فيليبفيل Philippeville مدينتان في القطر الجزائري.
أوترانت	Otrente	مضيق يفصل إيطاليا عن ألبانيا، عرضه (٧٠) كيلومتراً وعمقه بين (٧٠٠ ــ ١١٠٠) متر جنوب بحر الأدرياتيك.
جان بار	Jean Bart	بارجة فرنسية، وزن (٢٣) ألف طن، سرعتها (٢١) عقدة، عليها (١٢) مدفعاً بعيار (٣٠٥ ــ ٢٢) مدفعاً بعيار (١٣٨)، (فرنسية).
ليون غامبيتا	Leon Gambetta	دارعة متوسطة ١٢٫٥ ألف طن، سرعتها ٢٣ عقدة، (فرنسية).
روكان	Requin	٩ آلاف طن، سرعة ٢٢ عقدة، (فرنسية).
أميرال شارنير	Amiral Charner	٤٫٧٠٠ طن، ١٩ عقدة، (فرنسية).

شارنهورست	Scharnhorst	طراد ألماني، ٥٠٠ر١١ ألف طن، سرعة ٢٢ عقدة، ٨ مدافع ٢١٠ ملم، و ٦ مدافع ١٥٠ ملم.
غينزنو	Gneisenau	طراد ألماني، ٣٠٠ر١١ ألف طن، سرعة ٢٢ عقدة، ٨ مدافع ٢١٠ ملم، و ٦ مدافع ١٥٠ ملم.
كونغسبورغ	Konigsberg	طراد ألماني خفيف، ٥ر٣ ألف طن، ٢٤ عقدة.
جيير	Geier	طراد ألماني خفيف، ٥ر٣ ألف طن، ٢٤ عقدة.
جزر كناري	Canares	مجموعة جزائر في الأطلسي قرب سواحل إفريقية الغربية منها بالما وتينيريف تبعد ١٠٠ كم عن الساحل الغربي لإفريقية.
الجزر الخضراء	Cap Vert	مجموعة جزائر في المحيط الأطلسي أكبرها جزيرة سان فيسانت تبعد ٥٠٠ كم عن ساحل إفريقية الغرب.
جزيرة مادير	Madeir	جزيرة تابعة للبرتغال تبعد ٩٠٠ كم عن ليشبونه.
رأس هورن	Caphorn	رأس أمريكا الجنوبي النوبي يقع على المحيط المتجمد الجنوبي.
جزر كارولين	Carolines	مجموعة جزائر صغيرة في المحيط الهادي الغربي ٨٦٢ كم² تعاقب عليها البرتغاليون والإسبان والألمان واليابانيون والأمريكيون.
جزر ماريشال	Marshall	مجموعة جزائر صغيرة في المحيط الهادي ١٨٢ كم² كانت تحت سيطرة الألمان ثم اليابانيين ثم أمريكا.
بابيت	Papeete	عاصمة بولينيزيا الفرنسية على الساحل الغربي من جزيرة تاهيتي أكبر جزائر الأرخبيل ١٠٤٢ كم².
درسدن	Dresden	طراد خفيف ألماني، ٦٠٠ر٣ طن، وسرعة ٥ر٢٤ عقدة.
كارلسروهه	Karlsruhe	طراد خفيف ألماني، ٦٠٠ر٣ طن، وسرعة ٥ر٢٤ عقدة.
كودهوب	Good Hope	طراد ثقيل، ١٤ ألف طن، سرعة ٢٣ عقدة، يضمّ مدفعين × ٢٣٤ ملم و ١٦ مدفعاً عياره ١٥٢ ملم، (بريطاني).
مونموث	Monmouth	طراد ثقيل، ٨٠٠ر٩ طن، سرعة ٢٣ عقدة، ١٠٤ مدفعاً عيار ١٥٢ ملم، (بريطاني).
غلاسكو	Glascou	طراد خفيف، ٥٦٠٠ طن، (بريطاني).
أوترانتو	Otranto	طراد خفيف، ٤٣٠٠ طن، (بريطاني).
كورونيل	Coronel	ميناء في تشيلي الوسطى (أمريكا الجنوبية).
مونتيفيديو	Montevioleo	عاصمة الأورغواي (أمريكا الجنوبية) على الضفة الشمالية لنهر ريودولابلاتا، ميناء هام على المحيط الأطلسي.

فولكلاند	Falkland	مجموعة جزر (جزر مالوين) في جنوب المحيط الأطلسي احتلها البريطانيون، وطالبت بها الأرجنتين، وتتألف من جزرتين فولكلاند الشرقية وفولكلاند الغربية وبمساحة ١١٩٦١ كم٢.
ريفيجي	Rufigi	نهر في تانزانيا يصب على الشاطىء الغربي للمحيط الهندي يقابل جزيرة مافيا Mafia.
قيصر ويليام	Kaiser Wilhelm	طراد خفيف قديم، (ألمانيا).
كرون برنس ويليام	Kron Prinz Wilhelm	طراد خفيف قديم، (ألمانيا).
جزر كيلنغ	Keeling	أو Cocos مجموعة جزائر تبعد ٨٠٠ كم عن جاوا وإلى الجنوب غرب منها مستعمرة بريطانية انتقلت عام ١٩٥١ إلى أوستراليا.
بيغاسوس	Pegasus	طراد قديم، (بريطاني).
امدين	Emden	طراد خفيف، ٣,٥ آلف طن، (ألماني).
مدينة مادراس	Madras	مدينة مادراس عاصمة مقاطعة مادراس عن خليج البنغال والمحيط الهندي.
يمتشوغ	Yemtchoug	طراد روسي.
سيدني	Sydney	طراد أوسترالي.
هيلفولاند	Helgoland	جزيرة ألمانية في بحر الشمال، دانمركية عام ١٧٧٤ بريطانية عام ١٨٠٧ ألمانية عام ١٨٩٠ بنت ألمانيا فيها قاعدة بحرية ضخمة، دمرها الحلفاء عام ١٩٤٥.
كورفو أو كيركيرا	Corfou	جزيرة يونانية في البحر الأيوني يفصلها عن البر اليوناني ممر كورفو مساحتها ٥٨٩ كم٢.
سيدليتز	Seydlits	بارجة، ٢٤ ألف طن، (ألمانية) ٨ مدافع عيار ٣٠٥ ملم، سرعة ٢٦.
مولتكيه	Moltke	بارجة، ٢٣ ألف طن، (ألمانية) ١٠ مدافع عيار ٢٨٠، ١٢ عيار ١٥٢.
دير فولينجر	Defulinger	بارجة، ٢٦ ألف طن، (ألمانية)، ١٠ مدافع عيار ٢٨٠، ١٢ عيار ١٥٢.

بلوشر	Blücher	بارجة (قديمة)، (ألمانية).
دو بيتي	De Beatty	بارجة، ٢٧٫٥ ألف طن، ٨ مدافع ٣٤٣ ملم، سرعة ٢٩ عقدة، (بريطانية).
ليون	Lion	بارجة، ٢٦٫٥ ألف طن، ٨ مدافع ٣٤٣ ملم، سرعة ٢٨ عقدة، (بريطانية).
تايغر	Tiger	بارجة، ٢٨ ألف طن، ٨ مدافع ٣٤٣ ملم، سرعة ٣٠ عقدة، (بريطانية).
برنسيس رويال	Princess Royal	بارجة، ٢٦٫٥ ألف طن، ٨ مدافع ٣٤٣ ملم، سرعة ٣٠ عقدة، (بريطانية).
نيوزيلاند	Newzesland	طراد، ١٤ ألف طن، ٤ مدافع عيار ٢٣٤ ملم، سرعة ٢٤ عقدة، (بريطاني).
زبلين	Zeppelin	منطاد موجه ألماني يحمل اسم مخترعه الكونت فرديناند فون زبلين.. استخدم المنطاد في الحرب العالمية الأولى في قصف الجزائر البريطانية.
باتفايندر	Pathfinder	طراد ثقيل قديم، (إنكليزي).
أبو قير	Abou Kir	بارجة، قديم، (انكليزي).
هوغ	Hogue	طراد ثقيل قديم،(إنكليزي).
هاوك	Hawke	طراد ثقيل، (إنكليزي).
تريومف	Triomphe	طراد خفيف، (فرنسي).
ماجستيك	Majestic	طراد خفيف، (فرنسي).
كريسي	Cressey	طراد ثقيل قديم، (إنكليزي).

الفصل الثاني

لويستوفت	Lowestoft	بارجة قديمة، (ألمانية).
الملكة اليزابيت	Queen Elisabeth	دارعة، ٢٧ ألف طن، ٨ مدافع ٣٤٣، سرعة ٢٨٫٥ عقدة، (بريطانية).
الملكة ماري	Queen Mary	دارعة، ٢٧ ألف طن، ٨ مدافع ٣٤٣، سرعة ٢٨٫٥ عقدة، (بريطانية).
شيستر	Chester	طراد خفيف، (إنكليزي).

انديفاتيكابل	Indefatigable	طراد ثقيل، ١٩ ألف طن، (إنكليزي).
انفنسيبل	Invincible	طراد ثقيل، ١٧٫٥ ألف طن، (إنكليزي).
ديفانس	Defence	دارعة، (بريطانية)، ١٤ ألف طن.
الأمير الأسود	Black Prinee	دارعة، (بريطانية)، ١٢ ألف طن.
واريور	Warior	دارعة، (بريطانية)، ١١٫٥ ألف طن.
لوتزو	Lutzow	طراد ثقيل، (ألماني)، ٢٦ ألف طن.
بوهيرن	Pohern	طراد ثقيل، (ألماني).
ارون دوك	Iron Duke	بارجة، سفينة قيادة الأميرال جيليكو، (بريطانية).
فيردان	Verdun	مدينة فرنسية على نهر الموز تبعد ٢٨٠ كم إلى الشرق من باريس دمرت في الحرب الأولى، وسميت المعركة الحاسمة هناك باسم المدينة.
بتهمان هوليغ	Bethmann-Holleg	مستشار ألمانيا (رئيس وزراء) أيام الماريشال هندنبرغ.
أوستاند	Ostende	ميناء بلجيكي على الفلاندر الغربية.
زيبرغ	Zeebrugge	ميناء بلجيكي على بحر الشمال مرتبط مع بروك بقناة طولها ١٠ كم.
فينديكتيف	Vindictive	مجموعة بحرية حليفة، (بريطانية).
داوفوديل	Daffodil	مجموعة بحرية حليفة، (بريطانية).
زينت استفان	Szent Istvan	دراعة، ٢٠ ألف طن، ٢٠٫٥ عقدة، سرعتها ١٢ مدفعاً ٣٠٥ ملم و ١٢ مدفعاً ١٩٢، (نمساوية).
فيريبوز	Viribus	دارعة، ٢٠ ألف طن، ١٢ مدفعاً عيار ٣٠٥ ملم و ١٢ مدفعاً عيار ١٩٢ ملم، سرعتها ٢٠ عقدة بحرية، (نمساوية).
بولا	Pola أو Pula	ميناء حربي في يوغوسلافيا (كراوتيا).
كاتارو	Cataro أو Kattaro	أو Kotor ميناء يوغسلافي (مونتينيدفرو) Monténégro يحتوي على حوض عميق (قاعدة بحرية).
دورازو	Durasso أو Durrës	ميناء صغير في ألبانيا على بحر الأدرياتيك.

الفصل الثالث

الترانتان	Trentin أو Trento	مقاطعة شمال إيطاليا كانت تتبع الإمبراطورية النمساوية.
الدالمات	Dalmaties	مقاطعة يوغوسلافية طالبت إيطاليا بها بعد الحرب العالمية الأولى.

استريا	Istrie	مقاطعة يوغوسلافية شبه جزيرة في الأدريتك طالبت بها إيطاليا تقع شمال يوغوسلافيا على خليج تريست .
سيفر	Sévres	ضاحية من ضواحي باريس.
سايكس بيكو	Sykes-Picot	معاهدة فرنسية بريطانية وزعت العالم العربي مناطق نفوذ فيما بينها .
دويديكاز	Dodéecanèse	جزائر في بحر ايجه قرب الساحل التركي تصل حتى جزيرة رودوس وتعتبر رودس من ضمنها عددها ١٢ جزيرة من ١٩٢٠ إلى ١٩٤٧ إيطاليا ثم عادت إلى اليونان .

الباب الثاني

الفصل الأول

سكابا فلو	Scapa flow	مرسى كبير في شمال ايكوسيا ضمن أرخبيل Arcades أوركاد استخدم قاعدة بحرية للأسطول البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى .
هارويش	Harwich	مرفأ بريطاني في ايسيكس على بحر الشمال .
كوبا	Cuba	جزيرة في الأطلسي أكثر الجزائر إلى الغرب في مجموعة الآنتيل على مدخل خليج المكسيك ، مساحتها ١١٤٥٢٤ كم^2 .
جزيرة هاواي	Hawaii	أكبر جزائر الأرخبيل البولينيزي الأمريكي مساحتها ١٠٥٠٠ كم^2 العاصمة هونولولو وهي واحدة من ثماني جزائر مؤلفة للأرخبيل .
الفيليبين	Philippines	أرخبيل في المحيط الهادي مساحته ٢٩٩٤٠٤ كم^2 يتألف من ١١ جزيرة كبيرة و ٧٠٠٠ جزيرة صغيرة الجزائر الكبيرة هي لوسون ، ميندناو ، سامار ، نيغروس ، ياناي ، بالوان ميندورو ، لاييت ، سيبو ، بوهول ، ماسبات ، يبلغ طول امتداد الجزائر في المحيط ١٨٠٠ كم .
شانتونغ	Chan-Tong	مقاطعة من الصين الشرقية على بحر الصين ، مساحتها ١٥٣٣٠٠ كم^2 ؛ عاصمتها تسي نان مرفأها الهام تسينغ تاو .
فلاديفوستوك	Vladivostok	مرفأ روسي في أقصى الشرق على بحر اليابان ، احتله اليابانيون بين (١٩١٨ — ١٩٢٢) .
جزائر ماريان	Mariannes	أرخبيل الميكرونيزيا في المحيط الهادي الغربي شمال جزر كارولينا

		ومنهم جزيرة غويام، أكبر الجزائر سايبان حكمت من قبل اليابانيين بعد الحرب العالمية الثانية، ثم ارتبطت بأمريكا.
جزائر غويام	**Guam**	أكبر جزائر الماريان وأكثرها إلى الجنوب ٥٤١ كم٢ فيها قاعدة بحرية أمريكة **apra** آبرا.
كياتشو	**Kia-Tchéou**	قطاع من الساحل الصيني على خليج شانتونغ عى البحر الأصفر كان لألمانيا عام ١٧٩٨، احتلها اليابانيون عام ١٩١٤ وأعيد للصين عام ١٩٢٢.
منشوريا	**Mandchourie**	اسم الصين الشمالية الشرقية سابقاً قسمت إلى قطاع روسي وقطاع ياباني، تخلت روسيا لفترة عن قطاعها فاحتله اليابان وأقاموا حكومة ماندشوكوو عام ١٩٣٢. في عام ١٩٤٥ دخلت الجيوش السوفييتية منشوريا، ثم انسحبت منها واحتفظت بالمدافيء بور آثور وتالين، ثم الاتفاقية الروسية الصينية عام (١٩٥٠) واستعاد الصين الميناءين.
لوكارنو	**Locarno**	مدينة سويسرية على الضفة الشمالية لبحيرة ماجور.
باليار	**Baléares**	أرخبيل إسباني في المتوسط الغربي ٥٠١٤ كم٢ والعاصمة بالما Palma في جزيرة مايوركا ومن جزائرها مينوركا، ابيزا، فورمانتيرا.
فيتوريوفينتيو	**Vittorio-Vencto**	بارجة، وزنها ٣٥ ألف طن ٩ مدافع عيار ٣٨١ ملم، سرعة ٣٠ عقدة.
ليتوريو	**Littorio**	مواصفات ميتوريو نفسها.
ريشيليو	**Richelieu**	بارجة فرنسية، ٣٥ ألف طن، بنيت عام ١٩٣٩ (فرنسا).
جان بار	**Jean bart**	بارجة فرنسية، ٣٥ ألف طن، بنيت عام ١٩٤١، (فرنسا).

الباب الثالث

الفصل الأول

الدوتشلاند	Deutschland	بارجة ألمانية صغيرة (بارجة جيب)، ١٠ آلاف طن.
غراف سبي	Graf-Spee	بارجة ألمانية صغيرة (بارجة جيب)، ١٠ آلاف طن.
لابلاتا	Laplata	نهر في الأرجنتين ويصل إلى الأورغواي، ويعتبر الحد الدولي بين الدولتين.
شارنهورست	Scharnhorst	بارجة حديثة، بنيت عام ١٩٣٩، ٢٦ ألف طن، (ألمانيا).
غينزنو	Gneisenou	بارجة حديثة، بنيت عام ١٣٣٨، ٢٦ ألف طن، (ألمانيا).
رودني	Rodney	بارجة حديثة، بنيت عام ١٩٢٧، ٥ر٣٣ ألف طن، (بريطانيا).
نلسن	Nelson	بارجة حديثة، بنيت عام ١٩٢٧، ٥ر٣٣ ألف طن، (بريطانيا).
اكسيتر	Exeter	٨٣٩٠ طن، طراد خفيف، ٦ مدافع ٢٠٣ ملم، سرعة ٣٢ عقدة (بريطانيا).
اجاكس	Ajax	٧٠٠٠ طن، طراد خفيف، ٨ مدافع ١٥٢ ملم، سرعة ٥ر٣٢، (بريطانيا).
راوال باندي	Rawal pindi	طراد ثقيل، قديم الصنع، ١٥٠ر٢٩ طن.
رويال أوك	Roual ork	طراد ثقيل، قديم الصنع، ١٥٠ر٢٩ طن.
ويسيروبنغ	Weserübung	نسبة إلى نهر ويز Weser في ألمانيا ومعناها جرف ويزر وهونك نطاق الحصار في البحار الداخلية الألمانية.

رينون	Renown	بارجة قديمة مجددة، بنيت عام ١٩١٦، ٣٢ ألف طن، (بريطانيا).
لوفوتن	Lofoten	مجموعة جزائر نرويجية عديدة أمام الساحل الشمالي للنرويج مقابل مدينة نارفيك.
وارسبيت	Warspite	بارجة قديمة، ١٩١٦ مجددة، ٣٠٫٦٠٠ طن، (بريطانيا).
فيريوس	Furious	حاملة طائرات، ١٩١٧ مجددة، ٢٢٫٤٥٠ طن، (بريطانيا).
غلوريوس	Glorious	حاملة طائرات، ١٩١٧ مجددة، ٢٢٥٠٠ طن، (بريطانيا).
كولن	Koln	طراد خفيف، ٦ آلاف طن، بني عام ١٩٣٠، (ألمانيا).
كونسيبرغ	Kœnigsberg	طراد خفيف، ٦ آلاف طن، بني عام ١٩٣٠، (ألمانيا).
كارلسروهه	Karlsuhe	طراد خفيف، ٦ آلاف طن، بني عام ١٩٣٠، (ألمانيا).
بلوخر	Blücher	طراد ثقيل، ١٣ ألف طن ٨ مدافع ٢٠٣ ملم، سرعة ٣٢ عقدة، بني عام ١٩٣٩. (ألمانيا).
اندومتابل	Indomptable	طراد خفيف، ٧٦٠٠ طن، (فرنسا).
مالان	Malin	طراد خفيف، ٥٨٠٠ طن، (فرنسا).
تريومفان	Triomphant	طراد خفيف، ٥٨٠٠ طن، (فرنسا).
سكاجيراك	Skagerak	ممر بحري في بحر الشمال يفصل بين ساحل النرويج الجنوبي وشمال جويلاند الدانمركي طوله بحدود ٢٥٠ كم عرضه يتراوح بين ٥٠ و ١٤٥ كم، عمقه حتى ٨٠٠ متر.
شوفالييه بول	CHevalier	طراد خفيف فرنسي قديم.
دوندز	Dúndees	مرفأ في بريطانيا (ايكوسيا) على بحر الشمال وعلى مصب (تاي)، النهري.
دونكرك	Dunkerque	بارجة، عمرت عام ١٩٣٩، ٢٦٫٥٠٠ طن. (فرنسا).
ادروا	Adroit	نسافة، (فرنسا).
شاكال	Chaeal	قاذفة طوربيد، (فرنسا).
أوراج	Orage	نسافة، (فرنسا).
كاغلياري	Cagliari	طراد ثقيل، ١٠ آلاف طن، (إيطالي).
ترايباني	Trapani	طراد ثقيل، ١٠ آلاف طن، (إيطاليا).
ليفورن	Livourne	طراد ثقيل، ٩ آلاف طن، (إيطاليا).
طرابلس	Tripoli	طراد ثقيل، ١٠ آلاف طن، (إيطاليا).
سبيزيا	Spezzia	طراد ثقيل، ١٠ آلاف طن، (إيطاليا).

الفصل الثاني

الألزاس واللورين	**Alsace, Lorraine**	مقاطعتان إلى الشمال والشرق من فرنسا والألزاس تقع بين جبال الفوج وحوض نهر الرين، وأهم مدنها استراسبورغ، انتقلت إلى فرنسا، وعادت إلى ألمانيا عدة مرات، لألمانيا عام ١٨٧١ ولفرنسا ١٩١٩، لألمانيا ١٩٤٠، ولفرنسا ١٩٤٤، واللورين المصير نفسه تقريباً. أما أهم مدنها فهي (ميتز)، وتقع إلى الشمال من الألزاس.
كاتابولت	**Catapulte**	منجنيق، تسمية أطلقت على خطة حربية.
ستراسبورغ	**Strasbourg**	بارجة، بنيت عام ١٩٣٩، ٢٦ر٥٠٠ طن، (فرنسية).
بريتانيا	**Bretagne**	بارجة قديمة، بنيت عام ١٩١٦، ٢٢ر١٨٩ طن، (فرنسية).
هود	**Hood**	بارجة، بنيت عام ١٩٢٠، وزنها ٤٢١٠٠ طن، (بريطانيا).
فاليانت	**Valiant**	بارجة قديمة، ١٩١٥ جددت، وزنها ٣٠ ألف طن، (بريطانيا).
رِيزولوشن	**Resolution**	بارجة قديمة، ١٩١٧ جددت، وزنها ٢٩ ألف طن، (بريطانيا).
أرك رويال	**Ark Roydl**	حاملة طائرات، ١٩٣٨، وزنها ٢٢ ألف، (بريطانيا).
بارهام	**Barham**	بارجة قديمة، ١٩١٥ جددت، وزنها ٣١ ألف طن (بريطانيا).
وهران	**Oran**	ميناء في القطر الجزائري.
مرسى الكبير	**Mers el-Kebin**	ميناء واسع في القطر الجزائري إلى الغرب من وهران.
أوداسيو	**Aidacieue**	نسافة، (فرنسية).
بيرسيه	**Perseé**	غواصة متوسطة، ٦٠٠ طن، (فرنسية).
أجاكس	**Ajax**	غواصة متوسطة، ٦٠٠ طن، (فرنسية).
الأرض الجديدة	**Terre heuve**	جزيرة في شمال شرق كندا، مساحتها ٤٠٢٣٤٦ كم٢، عاصمتها سان جان.
بيرمودا	**Bermudes**	مجموعة جزائر بريطانية في الأطلسي، تبعد ١٠٠٠ كم عن ساحل أمريكا الشرقي.
باهاما	**Bahama**	مجموعة جزائر بريطانية في الأطلسي ممتدة أكثر من ١٠٠٠ كم شمال كوبا، وهاييتي ٧٠٠ جزيرة و ٢٠٠٠ صخرة.

جامايك	Jamaiique	جزيرة كبيرة من جزر الآنتيل جنوب كوبا من الكومنولث البريطاني ١١٤٢٤ كم٢، عاصمتها كينغستون.
سانتا لوسيا	Saintalueia	جزيرة من جزائر الآنتيل على البحر الكاريبي، مساحتها ٦١٦ كم٢، عاصمتها كاستريس Castrics (بريطانيا).
ترينيداد	Trinidad	جزيرة بريطانية من جزائر الآنتيل، مساحتها ٤٨٢٨ كم٢، عاصمتها بورت أوف سبان Port of spain.
غويان	Guyane	غويانا ثلاث مستعمرات إنكليزية هولندية (وتدعى Surinam سورينام)، وفرنسية، مساحة الإنكليزية ٢١٤٩٧٠ كم٢، والهولندية ١٤٢٨٢٢ كم٢، والفرنسية ٩١٠٠٠ كم٢، وكلها تقع متجانبة إلى الشمال من البرازيل على ساحل الأطلسي.
غروئنلاند	Groenland	أرض دانمركية في البر القطبي الأمريكي، أكبر جزيرة في العالم، مساحتها ٦٠٠ر١٧٥ر٢ كم٢، مغطاة بالجليد تقريباً بكاملها ٣٤١ ألف كيلومتر حرة من الجبال الجليدية، عاصمتها كودثاب Godthaab.
إيسلندة	Islande	جزيرة في شمال الأطلسي (جمهورية إيسلندة)، مساحتها ١٠٢٨٠٠ كم٢، عاصمتها ريكجافيك Reykjavik.
بيرل هاربور	Pearl Harbour	حوض بحري من جزيرة أواهو Oahu (في جزر هاواي) إلى الشمال غرب من هونولولو قاعة بحرية أمريكية هامة.
برنس أوف ويلز	Prinee of Wales	بارجة بريطانية حديثة، بنيت عام (١٩٤١)، ٣٥ ألف طن (بريطانيا).
الآزديك	Asdic	التسمية آتية من الحروف الأولى للجملة الإنكليزية Allied Submarine Detection Investigation Committee جهاز كاشف للغواصات تحت الماء، يعمل على الأمواج الراجعة الصوتية، اخترعته بريطانيا عام ١٩٣٩، يستخدم سلمياً في كشف الأعماق أو أسراب السمك.
أميرال شيير	Al-Scheer	بارجة متوسطة، ١٥ ألف طن، سرعة ٢٨ عقدة، ٦ مدافع عيار ٢٨٠ ملم، (ألمانيا).
أميرال هيبر	Al-Hipper	بارجة متوسطة، ١٣ ألف طن، سرعة ٣٢ عقدة ٨ مدافع عيار ٢٠٣ ملم، (ألمانيا).
آسور	Asores	مجموعة سفن في الأطلسي تبعد حوالي ١٣٠٠ كم عن سواحل

البرتغال، مساحتها ٢٣٠٠ كم٢، عاصمتها بونتا ديلغادا Ponta Delgade في جزيرة ساوميغيل Sào Miguel (برتغال).

برنس أوجين	Prinz Eugen	طراد ثقيل، بني عام ١٩٤٠، (ألمانيا).
بيسمارك	Bismark	بارجة، بنيت عا ١٩٤٠، ٣٥ ألف طن، سرعة ٢٨ عقدة، (ألمانيا).
تيربيتز	Tirpitz	بارجة، بنيت عام ١٩٤٠، ٣٥ ألف طن، سرعة ٢٨ عقدة، (ألمانيا).
مالايا	Malaya	بارجة قديمة، ١٩١٥ مجددة، ٣١ ألف طن، (بريطانيا).
كنغ جورج الخامس	King George V	بارجة، بنيت عام ١٩٤٠، ٣٥ ألف طن، (بريطانيا).
ريبولس	Repulse	طراد ثقيل قديم، ١٩١٦ جدد، ٣٢ ألف طن، (بريطاني).
هوود	Hood	بارجة حديثة، ١٩٢٠، ١٠٠ر٤٢ طن، (بريطانيا).
رينون	Renown	طراد ثقيل قديم، ١٩١٦ جدد، ٣٢ ألف طن، (بريطاني).
كوين اليزابيت	Queen Elisabeth	بارجة قديمة، ١٩١٥ مجددة، ٣١ ألف طن، (بريطانيا).
اليستريوز	Illustrious	حاملة طائرات، ١٩٤٠، ٢٣ ألف طن، (بريطانيا).
ايجل	Eagle	حاملة طائرات، ١٩٢٣، ٥ر٢٢ ألف طن، (بريطانيا).
فيكتوريوس	Victorious	حاملة طائرات، ١٩٤٠، ٢٣ ألف طن، (بريطانيا).
نورفولك	Norfolk	طراد متوسط، ٩٨٠٠ طن، (بريطانيا).
كافور	Cavours	بارجة، ١٩١٥، ٢٣ ألف طن، (إيطاليا).
قيصر	Césare	بارجة، ١٩١٣، ٢٣ ألف طن، (إيطاليا).
زارا	Zara	طراد ثقيل، ١٩٣٢، ١٠ آلاف طن، (إيطاليا).
فيوم	Fiume	طراد ثقيل، ١٩٣٢، ١٠ آلاف طن، (إيطاليا).
كوريجيا	Gorigia	طراد ثقيل، ١٩٣٢، ١٠ آلاف طن، (إيطاليا).
كوليوني	Colleoni	طراد ثقيل، ١٩٣٣، ١٠ آلاف طن، (إيطاليا).
بولا	Pola	طراد ثقيل، ١٩٣٢، ١٠ آلاف طن، (إيطاليا).
دويليو	Duilio	بارجة، ١٩١٥، ٢٣ ألف طن، (إيطاليا).
تارانت (تورنتو)	Tarente	خليج ومدينة إيطالية.
تولادا	Teulada	رأس يقع إلى جنوب غرب جزيرة سردينيا.
فورميدابل	Formidable	حاملة طائرات، ١٩٤٢، ٢٣ ألف طن، (بريطانيا).
اندوميتابل	Indomitable	حاملة طائرات، ١٩٤٢، ٢٣ ألف طن، (بريطانيا).

مانشستر	Manchester	طراد خفيف، (بريطانيا).
سوتامبتون	Southampton	طراد خفيف، (بريطانيا).
القاهرة	Cairo	طراد خفيف.
بريدهام	Pridham	بارجة قديمة، ١٩١٥ مجددة، ٣١ ألف طن، (بريطانيا).
ويبل	Wippel	بارجة قديمة، ١٩١٦ مجددة، ٣٠ آلاف طن، (بريطانيا).
أوريون	Orion	طراد بريطاني، (بريطانيا).
بيرث	Perth	طراد بريطاني، (بريطانيا).
غلوسستر	Glousester	طراد بريطاني، (بريطانيا).
آجاكس	Ajax	طراد بريطاني، (بريطانيا).
يورك	York	طراد بريطاني، (بريطانيا).
نبتون	Neptume	طراد بريطاني، (بريطانيا).
فيجي	Fiji Fidji	أرخبيل من الجزائر البريطانية في جنوب المحيط الهادي ١٨ ألف كم٢، عدد الجزائر ٣٢٢ جزيرة أكبرها فيتي ليفو Viti Levu وفانوا ليفو Vonua Levu.
باربارس	Bavbarousse	١ ـــ فردريك إمبراطور ألماني. ٢ ـــ اسم أطلق على بحارين تركيين خير الدين وشقيقه أقاما دولة الجزائر، وسيطرا على البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر.

الفصل الثالث

كونغو	Kongo	بارجة، ١٩١٣، مجددة، سرعة ٢٦ عقدة، ٨ مدافع ٣٥٦ ملم، ٣٠ ألف طن، (يابان).
كاغا	Kaga	حاملة، ١٩٢٨، ٢٧ ألف طن، ٢٥ عقدة، ٦٠ طائرة، (يابان).
سوريبه	Soryu	حاملة، ١٩٣٨، ١٠ آلاف طن، ٢٥ عقدة، ٤٠ طائرة، (يابان).
شوكاكو	Shokaku	حاملة، ١٩٤١، ٣٠ ألف طن، ٢٩ عقدة، ٧٧ طائرة، (يابان).
تون	Tone	طراد ثقيل، ١٩٣٩، ١٠ آلاف طن، ٣٣ عقدة، ١٢ مدفعاً × ١٥٥ ملم، (يابان).

آتاغو	Atago	طراد ثقيل، ١٩٣٢، ١٠ آلاف طن، ٣٣ عقدة، ١٠ مدافع × ٢٠٢ ملم، (يابان).
ناتي	Nati	طراد ثقيل، ١٩٢٨، ١٠ آلاف طن، ٢٣ عقدة، ١٠ مدافع × ٢٠٣ ملم، (يابان).
موغامي	Mogami	طراد ثقيل، ١٩٣٢، ١٠ آلاف طن، ٢٣ عقدة، ١٥ مدافعاً عيار ١٥٥ و٢٠٣ ملم، (يابان).
ياماتو	Yamato	بارجة، ١٩٤٢، ٦٠ ألف طن، (يابان).
موتسو	Mutsu	بارجة، ١٩٢١، ٣٣ ألف طن، ٢٦ عقدة، ٨ مدافع عيار ٤٠٦ ملم، (يابان).
ناغاتو	Nagato	بارجة، ١٩٢٠، ٣٣ ألف طن، ٢٦ عقدة، ٨ مدافع عيار ٤٠٦ ملم، (يابان).
ايس	Ise	بارجة، ١٩١٧، ٣٠ ألف طن، ٢٣ عقدة، ١٢ مدفعاً عيار ٣٥٦ ملم، (يابان).
هيوغا	Hyuga	بارجة، ١٩١٧، ٣٠ ألف طن، ٢٣ عقدة، ١٢ مدفعاً بعيار ٣٥٦ ملم، (يابان).
فيزو	Fuso	بارجة، ١٩١٦، ٣٠ ألف طن، ٢٢ عقدة، ١٢ مدفعاً بعيار ٣٥٦ ملم، (يابان).
ياماشيرو	Yamashiro	بارجة، ١٩١٦، ٣٠ ألف طن، ٢٢ عقدة، ١٢ مدفعاً عيار ٣٥٦ ملم، (يابان).
ليكسنغتون	Lexington	حاملة طائرات، ١٩٢٦، ٣٣ ألف طن، ٨٠ طائرة، سرعة ٣٤ عقدة، (أمريكا).
انتروبرايز	Entreprise	حاملة، ١٩٣٤، ٢٠ ألف طن، ٨٠ طائرة، سرعة ٣٤ عقدة، (أمريكا).
ساراتوغا	Saratoga	حاملة، ١٩٢٦، ٣٣ ألف طن، ٨٠ طائرة، سرعة ٣٤ عقدة، (أمريكا).
كولورادو	Colorado	بارجة، ١٩٢١، ٣٢ ألف طن، ٨ مدافع عيار ٤٠٦ ملم، سرعة ٢١ عقدة، (أمريكا).
اريزونا	Arizona	بارجة، ١٩١٦، ٣٣ ألف طن، ١٢ مدفعاً ٣٥٦ ملم، سرعة ٢١ عقدة، (أمريكا).
كاليفورنيا	California	بارجة، ١٩٢٠، ٣٢ ألف طن، ١٢ مدافعاً ٣٥٦ ملم، سرعة ٢١ عقدة، (أمريكا).

نيفاده	Nevada	بارجة، ١٩١٦، ٢٩ ألف طن، ١٠ مدافع ٣٥٦ ملم، سرعة ٢٠ عقدة، (أمريكا).
ولست فرجينيا	West Virgina	بارجة، ١٩٢١، ٣٢ ألف طن، ٨ مدافع عيار ٤٠٦ ملم، سرعة ٢١ عقدة، (أمريكا).
ماريلاند	Maryland	بارجة، ١٩٢١، ٣٢ ألف طن، ٨ مدافع عيار ٤٠٦ ملم، سرعة ٢١ عقدة، (أمريكا).
تينيسي	Tennesse	بارجة، ١٩٢٠، ٣٢ ألف طن، ١٢ مدفعاً ٣٥٦ ملم، سرعة ٢١ عقدة، (أمريكا).
بنسلفانيا	Pennsylvania	بارجة، ١٩١٦، ٣٣ ألف طن، ١٢ مدفعاً ٣٥٦ ملم، سرعة ٢١ عقدة، (أمريكا).
باتان	Batan	، **آباري Aparri** جزيرتان من جزائر أرخبيل الفيليبين الشمالية تقعا في نصف المسافة بين لوسون وفورموزا.
ليغاسبي	Legaspi	مرفأ هام في جزيرة لوسون (الفيليبين).
دافاو	Davao	مرفأ في الفيليبين على خليج دافاو في جزيرة ميندناو Mindanao ثاني جزر الفيليبين.
جيلو	Jelo	**مينادو Menado** ميناءان في جزائر سيلييس Célèbes اندنوسيا عاصمتها ماكاسار Makasar.
كودات	Kudot	**تاراكان Tarakan**، **باليكبابان Balikpapan**. ثلاث موانىء في جزيرة **بورنيو Borneo** أكبر جزائر إندنوسيا، مساحتها ٧٣٦ ألف كم٢ وموزعة بين اندنوسيا، ماليزيا، وقطاع محمية بريطانية (سابقاً).
كوبانغ	Kupang	عاصمة جزيرة **تيمور Timor** في مجموعة جزائر السوند شمال أوستراليا.
آندامان	Andaman	مجموعة جزائر في خليج البنغال (٢٠٠ جزيرة صغيرة)، عاصمتها بور بلير Port Blair (بريطانيا).
هرمس	Hermes	حاملة طائرات خفيفة، وزنها ١١ ألف طن، (بريطانيا).
كورنويل	Cornwall	طراد متوسط، ٨ آلاف طن، (بريطانيا).
دورسزهير	Dorsethire	طراد متوسط، ٨ آلاف طن، (بريطانيا).
دياغو سواريز	Diego-Suarez	خليج واسع في شمال جزيرة مدغشقر ومرفأ هام بلاسم نفسه، (فرنسا).

شوهو	Shoho	حاملة طائرات، ١٥ ألف طن، تعمير ١٩٣٩، (يابان).
زياكاكو	Zuikaku	حاملة طائرات، ٢٩٫٠٠ ألف طن، تعمير ١٩٤١، (يابان).
يوركتاون	Yorktown	حاملة طائرات، بنيت عام ١٩٣٦، ٢٠ ألف طن، ٨٠ طائرة، (أمريكا).
رابول	Rabaul	المرفأ الرئيسي وعاصمة أرخبيل بيسمارك في المحيط الهادي بقي بأيدي اليابانيين حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.
هورنيه	Hornet	حاملة طائرة، ١٩٤١، ٢٠ ألف طن، ٨٠ طائرة، (أمريكا).
هارونا	Haruna	بارجة، ١٩١٧، ٣٠ ألف طن، ١٢ مدفعاً ٣٥٦ ملم، (يابان).
كيريسيما	Kirisima	بارجة، ١٩١٧، ٣٠ ألف طن، ١٢ مدفعاً ٣٥٦ ملم، (يابان).
هيي	Hiei	بارجة، ١٩١٣، مجددة، سرعة ٢٦ عقدة، ٨ مدافع عيار ٣٥٦ ملم، (يابان).
هيتاكا	Hitaka	حاملة طائرات، ١٩٤٢، ٢٨ ألف طن، (يابان).
هاياتاكا	Hayataka	حاملة طائرات، ١٩٤٢، ٢٢٨ ألف طن، (يابان).
ميكوما	Mikuma	طراد ثقيل، ١٠ آلاف طن، ١٥ مدفعاً عيار ١٥٥ ملم و٢٠٣ ملم، (يابان).
جزيرة الدبب	Bears	جزيرة تقع إلى الشمال الغربي من رأس الشمال في النرويج قابعة للنرويج.

الفصل الرابع

فيلادلفيا	Philadelfia	بارجة، وزنها ٣٢ ألف طن، ٨ مدافع ٤٠٦ ملم، سرعة ٢١ عقدة، (أمريكا).
نيويورك	Newyork	طراد، ثقيل، ١٩١٢، مجدد، ٢٧ ألف طن، ١٠ مدافع × ٣٥٦ ملم، سرعة ٢٠ عقدة، (أمريكا).
أوغوستا	Augusta	طراد، ١٩٣١، ١٠ آلاف طن، ٩ مدافع × ٢٠٣ ملم، سرعة ٣٣ عقدة، (أمريكا).
بروكلين	Brooklyn	طراد، ١٩٣١، مجدد، ٢٧ ألف طن، ١٠ مدافع × ٣٥٦ ملم، سرعة ٢٠ عقدة، (أمريكا).

سافانا	Savannah	طراد ثقيل، ١٩١٣، مجدد، ٢٧ ألف طن، ١٠ مدافع×٣٥٦ ملم، سرعة ٢٠ عقدة، (أمريكا).
ماساشوسيس	Massachussets	بارجة، ١٩٤٢، ٣٥ ألف طن، ٩ مدافع × ٤٠٦ ملم، ٢٣ عقدة، (أمريكا).
ويشيتا	Wichita	طراد، ١٩٣٩، ١٠ آلاف طن، ٩ مدافع×٢٠٣ ملم، سرعة ٣٢ عقدة، (أمريكا).
توسكالوسا	Tuscaloosa	طراد، ١٩٣٧، ١٠ آلاف طن، ٩ مدافع × ٢٠٣ ملم، سرعة ٣٣ عقدة، (أمريكا).
الداء البيضاء	Maison Blanche	مطار في الجزائر إلى الشرق من البلاد ولا علاقة للتسمية بالدار البيضاء في المغرب.
رودني	Rodney	بارجة، ١٩٢٧، ٧٠٠ر٣٣ طن، (بريطانيا).
فوريوس	Furious	حاملة طائرات، ١٩١٧، مجددة، ٢٢٤٥٠ طن، (بريطانيا).
آرغوس	Argus	حاملة طائرات، ١٩٤٠، ٢٣ ألف طن، (بريطانيا).
وادي القنال	Guadalcanal	كتبت القنال باللام وليس التاء المربوطة حفاظاً على حرفية الأسم الأجنبي وهي جزيرة-بركانية من جزائر أرخبيل سالمون، مساحتها ٦٤٧٠ كم²، شهدت معارك ضارية بين الولايات المتحدة واليابان خلال الحرب العالمية الثانية.
ريوجو	Ryujo	حاملة طائرات خفيفة، (سفينة نقل محمولة)، ٧١٠٠ طن، ١٩٣٣، تحمل ٤٠ طائرة، سرعة ٢٥ عقدة، (يابان).
رأس اسبيرانس	Cap Esperanee	رأس في شمال جزيرة وادي القنال من جزائر سالمون.
تاسافارونغا	Tassafaronga	المضيق الواقع بين جزيرة وادي القنال وجزيرة سافو.
جزر رونيل	Rennell	مجموعة جزائر جنوب وادي القتال وسان كرويستوبال.
نورتامبتون	Northampton	طراد ثقيل، ١٩٣١، ١٠ ألف طن، ٩ مدافع عيار ٢٠٣، سرعة ٣٣، (أمريكا).
شيكاغو	Chicago	طراد ثقيل، ١٩٣٠، ١٠ آلاف طن، ٩ مدافع عيار ٢٠٣، سرعة ٣٣، (أمريكا).

الفصل الخامس

باتيلاريا	Pantelleria	جزيرة إيطالية تقع بين تونس وصقلية ٨٣ كم²، أرضها بركانية.

ألبا	Elbe	جزيرة صغيرة إيطالية في بحر تيرانيا تقع بين سردينيا والساحل الغربي لإيطاليا .
نحل البحر	Sea Bees	اسم أطلق من قبل الأمريكيين على خلية متكاملة من فنيين ووسائط وأجهزة لمواجهة كل أنواع العمل التي قد تتطلبها حاجات المعركة .

الفصل السادس

غواصات الجيب الألمانية بيبر Biber ، سيهند Seehund هيشت Hecht مولش Molch ، موهر Mohr .

جزر الأنكلونورماند	Auglo	جزر بريطانية في بحر المانش إلى الغرب من ساحل كونتانتان الجزيرتان الأساسيتان جيرزيه **Jersey** وغيرنيزيه **Guernesey** من أصل سبعة منها **Sereq** و **Aurigny** .
جزيرة يو	Yeu	جزيرة فرنسية على الأطلسي (فانريه)، مدينتها بور جوانفيل اعتقل بيتان فيها .
جزيرة نوارسوتيين	Noirmoutier	جزيرة فرنسية على الأطلسي متصلة بالبر بطريق يظهر عند حدوث جزر البحر ويختفي في حالة المد . «مقابل سانت نازير» .

الفهـــرس العـــام للكتـــاب

فهرس المجلد الأول

المقدمة ٧

الجزء الأول
منشأ القدرات البحرية وحتى عام ١٦٠٠م

الباب الأول
الحضارات القديمة

☐ الفصل الأول
شعوب الشرق ٢٥
☐ الفصل الثاني
اليونانيون ٣١
☐ الفصل الثالث
الرومان ٣٥
حواشي الباب الأول ٤٣
بعض التواريخ الهامة في الشرق العربي وخلال القرون الوسطى ٤٧

الباب الثاني
العرب والبحر

□ الفصل الأول
النشاط البحري لدي العرب قبل وبعد الاسلام والمسلمين ٥١
□ الفصل الثاني
النشاط البحري خلال الحملات الصليبية ٦٥
□ الفصل الثالث
تطور البحرية الحربية في العصر العباسي الثاني ٧١

الباب الثالث
تاريخ البحر في العصور الوسطى وحتى الاكتشافات الكبرى

□ الفصل الأول
العصور الوسطى في الغرب ٧٩
□ الفصل الثاني
نشوء القوى البحرية في أوربة الحديثة ٨٥
□ الفصل الثالث
أول الحروب بين انكلترا وفرنسا (حرب المائة عام) ٩٩
□ الفصل الرابع
مرحلة بعد حرب المائة عام (الاكتشافات الكبرى) ١٠٩
حواشي الباب الثالث ١٤١

الباب الرابع
السيطرة على البحار والاقتتال الكبير
إسبان، هولاند، إنكليز، فرنسيون
حتى القرن السابع عشر

□ الفصل الأول
الصراع البحري الأوربي للقوى العظمى ١٥١
□ الفصل الثاني
إمبراطوريات الاستعمار ــ وبحريات المحيطات ١٥٥

□ الفصل الثالث
بحرية القرن السابع عشر ـ الحرب البحرية الكبرى ـ القتال بين انكلترا وهولندا . ١٧٩
□ الفصل الرابع
انتعاش بحرية فرنسا زمن هنري الرابع وريشيلو هنري الرابع وشرعية لويس الثالث عشر ٢٠٩
□ الفصل الخامس
أوج القوة البحرية الفرنسية منجزات كولبير وسيفنلي البحرية التجارية ٢٢٧
□ الفصل السادس
الحرب البحرية الكبرى إبان عهد لويس الرابع عشر ـ حرب هولندا ٢٣٥
□ الفصل السابع
الحرب البحرية الكبرى إبان عهد لويس الرابع عشر ـ حرب عصبة أوغسبورغ . ٢٥٥
□ الفصل الثامن
التقهقر البحري في فرنسا خلال القسم الثاني من حكم الملك لويس الرابع عشر ـ الحرب البحرية الصناعية ٢٨١
□ الفصل التاسع
انهيار القدرة البحرية الفرنسية ـ حرب عرش إسبانيا ٢٩١
حواشي الباب الرابع ٣٠٧

الجزء الثاني

١٦٠٠ ـ ١٨١٤م

الباب الأول

الصراعات

□ الفصل الأول
الصراع بين فرنسا وإنكلترا ٣٢٥
□ الفصل الثاني
السلام بين عام ١٧١٥ وعام ١٧٤٠ .... ٣٣٣
□ الفصل الثالث
حرب السنوات السبع ٣٤٩

حواشي الباب الأول ٣٦٧

الباب الثاني

الاكتشافات البحرية العلمية

☐ الفصل الأول

استكشاف المحيط الهادي ٣٧٧

☐ الفصل الثاني

التطور البحري خلال القرن الثامن عشر ــ ذروة مجد البحرية الشراعية ٣٩٥

حواشي الباب الثاني ٤٠٣

الباب الثالث

تجدد الصراعات الاستعمارية

☐ الفصل الأول

الحرب الامريكية وأسبابها الأولية ٤١١

☐ الفصل الثاني

التوازن البحري الاقتصادي في نهاية القرن الثامن عشر قبل الثورة الفرنسية ٤٤٣

☐ الفصل الثالث

الصراع بين فرنسا وإنكلترا لسيادة البحار والسيطرة العالمية الثورة الفرنسية والامبراطورية البونابرتية ٤٥١

حواشي الباب الثالث ٥١٥

الباب الرابع

الصراع الفرنسي البريطاني في عهد الامبراطورية البونابرتية

☐ الفصل الأول

نابليون وإنكلترا ــ والصراع على إمبراطورية البحر ــ الطرف الأغر ٥٢٩

☐ الفصل الثاني

الصراع بين بونابرت وبريطانيا أو بين البر والبحر ٥٧٩

حواشي الباب الرابع ٦٣٩

فهرس المجلد الثاني

الجزء الثالث
١٨١٥ ــ ١٩١٤م

الباب الأول
الحروب البحرية في العالم وحتى عام ١٨٧٠

□ الفصل الأول

القدرات البحرية في العالم ٦٦٣

□ الفصل الثاني

إنكلترا وعهد سلطة ملكية تموز الفرنسية ٦٧٣

□ الفصل الثالث

حروب البحريات الحديثة الأولى ــ حرب القرم ٦٩٥

□ الفصل الرابع

الحروب الأولى للبحرية الحديثة (حرب الانفصال) ٧١٥

□ الفصل الخامس

الحرب الإيطالية ــ النمساوية ٧٣٧

حواشي الباب الأول ٧٤٥

الباب الثاني
الآثار السياسية للعلاقات الاقتصادية في عصر الاستعمار

☐ الفصل الأول
المصالح الاستعمارية البحرية الجديدة ٧٥٩
☐ الفصل الثاني
الثورة الاقتصادية خلال القرن التاسع عشر وآثارها السياسية ٧٧٥
☐ الفصل الثالث
الاستعمار الحديث ٧٨٣
حواشي الباب الثاني ٨٠٥

الباب الثالث
من عام ١٨٧٠ وحتى مطلع القرن التاسع عشر

☐ الفصل الأول
التوازن البحري والاستعماري في العالم للأعوام بين ١٨٧٠ و ١٩١٤ .... ٨١٥
☐ الفصل الثاني
قضايا الشرق الأقصى ـ الحروب الصينية اليابانية ـ والحروب الروسية اليابانية . ٨٣٣
☐ الفصل الثالث
الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥) ٨٤٥
حواشي الباب الثالث ٨٧٥

الباب الرابع
القوى العظمى واقتسام المستعمرات

☐ الفصل الأول
الصراعات الدولية واقتسام القارة الإفريقية ٨٧٩
☐ الفصل الثاني
قضايا البحر الأبيض المتوسط والحروب البلقانية ٨٨٣
☐ الفصل الثالث
القوى العظمى والتوازن البحري بين أعوام (١٨٧٠ ـ ١٩١٤) ٨٨٩
حواشي الباب الرابع ٩١٣

الجزء الرابع
الصراع البحري خلال الحربين ١٩١٤ و ١٩٣٩

مقدمة المؤلف ٩١٩

الباب الأول
الحرب البحرية العالمية الأولى
١٩١٤ ـ ١٩١٨

☐ الفصل الأول
الحرب البحرية العالمية الأولى ٩٢٣
☐ الفصل الثاني
مراحل الحرب البحرية خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ .... ٩٣٣
☐ الفصل الثالث
معاهدات الصلح ٩٦٥
حواشي الباب الأول (مشاهير الاعلام) ٩٦٩

الباب الثاني
فترة ما بين الحربين

☐ الفصل الأول
تنظيم السلام عام (١٩١٩ ـ ١٩٣٠) ٩٧٥
☐ الفصل الثاني
السياسة الاقتصادية حتى عام (١٩٣٦) ٩٨٧
☐ الفصل الثالث
بوادر نشوب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) ٩٩٣
حواشي الباب الثاني ٩٩٩

الباب الثالث

الحرب البحرية العالمية الثانية

١٩٣٩ ــ ١٩٤٥

□ الفصل الأول
التعاون الفرنسي الانكليزي من أيلول ١٩٣٩ حتى حزيران ١٩٤٠ .... ١٠٠٥
□ الفصل الثاني
المقاومة الإنكليزية من حزيران ١٩٤٠ وحتى كانون الأول ١٩٤١ .... ١٠١٩
□ الفصل الثالث
دخول أمريكا الحرب والموقف بين كانون الأول ١٩٤١ حتى تشرين الثاني ١٩٤٢ .... ١٠٤١
□ الفصل الرابع
تحول الحرب لصالح الحلفاء تشرين الثاني (١٩٤٢) آذار (١٩٤٣) ١٠٧٩
□ الفصل الخامس
الهجمات الحليفة الأولى عام ١٩٤٣ .... ١٠٩٥
□ الفصل السادس
القرار عام ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥ .... ١١١٣
□ الفصل السابع
هزيمة ألمانيا ١١٣٣
□ الفصل الثامن
الهجوم الجو ــ بحري في المحيط الهادي وهزيمة اليابان ١١٤٥
حواشي الباب الثالث ١١٨١
ثبت بأهم الأسماء والأماكن ١١٩١

بعون الله تعالى
انتهى المجلد الثاني والأخير
من كتاب
تاريخ البحر وملاحمه

تاريخ البحر وملاحمه/أحمد مفيد صالح باشا.ــ دمشق: طلاس، ١٩٩٠.ــ المجلد الأول (٦٥٢ــ ١٢٢٢ ص): موضح؛ ٢٠ سم.

المجلد الثاني يضم الجزأين الثالث والرابع.

١ــ ٩٠٩ ص ا ل ت ٢ــ ٣٥٩ ص ا ل ت
٣ــ العنوان ٤ــ صالح باشا

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ٥٠١/٦/١٩٩٠

رقم الإصدار ــ ٤٨٩

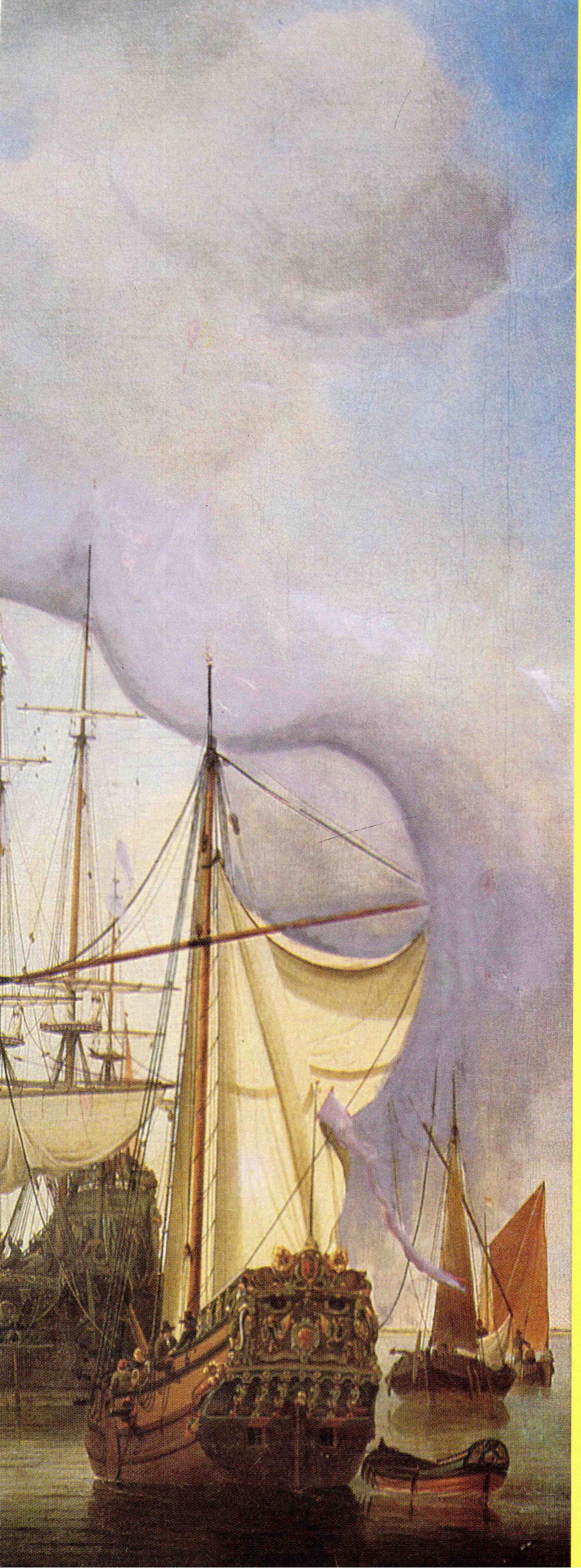

هـذا الكتـاب

استعراض شامل لتاريخ البحر منذ ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية. فمنذ استخدام المجداف، إلى الشراع، والمروحة، ومن ثم الطاقة النووية، في تسيير السفن، ثبت أن السفينة كانت وماتزال، هي رمز نقل المعارف الفنية والعلمية في كل عصر، وساعدت على تقدم التجارة والحضارة، وبالتالي كانت من أهم وسائل الاتصال والتبادل بين الشعوب.

إن تاريخ الملاحة والصراع في البحر، جزء هام من تاريخ البشرية وهذا الكتاب يقدم إجابات حاسمة لأسئلة غامضة للذين يملؤهم الحنين وحب المغامرة بين دفتي كتاب، أو فوق أمواج بحر هائج متغير ومحفوف بآلاف المخاطر.